حكاية أمريكية

فيليب روث

ترجمة الحارث النبهان

دار التنوير

«احلمْ عند انقضاء اليوم.
احلمْ، فقد تتحقّق الأحلام.
أبدًا، ليست الأشياء سيّئة بقدر ما تبدو عليه.
فاحلم، واحلم، واحلم».
جوني ميرسير
من أغنية «احلمْ» التي كانت رائجة في الأربعينات.
«الحدوث النادر لما هو مرتقب...»
ويليام كارلوس ويليامز
من رواية «في بيت كينيث بورغ» 1946

الجزء الأول

ذكريات الفردوس

- 1 -

السويدي! خلال سنوات الحرب، عندما كنت لا أزال تلميذًا في المدرسة الابتدائية، كان هذا الاسم سحريًا في حيّنا في مدينة نيوارك. كان سحريًا حتى لدى الكبار الذين رُحِّلوا، منذ جيل واحد فقط، من غيتو اليهود القديم في شارع برينس، ولمّا تكتمل أمركتُهم بعد إلى الحد الذي يجعلهم مسحورين بمهارة رياضي في المدرسة الثانوية. كان الاسم سحريًا؛ وكذلك كان الوجه الغريب. من بين الطلبة القلائل أصحاب البشرة الشقراء في مدرستنا العمومية الثانوية التي

يغلب فيها اليهود، لم يكن لأحد ما يشبه - ولو من بعيد - قناع الفايكينغ البارد ذا العينين الزرقاوين والحنك المائل الذي كانهُ وجه هذا الفتى المولود في «عشيرتنا» باسم سايمور إرفينغ ليفوف.

كان السويدي متألّقًا في موقع الظهير في كرة القدم (الركبي)، وفي موقع لاعب الوسط في كرة السلة، وكذلك في موقع رجل القاعدة الأولى في البيسبول. إلا أن فريق البيسبول خاصّةً كان جيّدًا على الدوام - فاز ببطولة المدينة مرتين عندما كان السويدي مسجل الأهداف الأول فيه. لكن، وعلى الرغم من تميّز السويدي في هذه الألعاب كلِّها، فإن مصير فرق مدرستنا الرياضية ما كان أمرًا كبير الأهمية في أعين مجموع الطلاب، الذين كانت أكثرية أهلهم قليلة التعليم يرهقها ثقل العمل، وكانت تضع التفوّق الدراسي قبل أي اعتبار آخر. لم يكن الاستعداد للعنف والعدوانية الجسدية مصدرًا معتادًا للمسرّة في مجتمعنا، حتى عندما تستره الملابس الرياضية والقواعد الرسمية، وحتى عندما لا يكون مضمَرًا فيه أي أذًى لليهود... الدرجات المدرسية المتقدّمة هي ما كان كذلك! على الرغم من هذا، فقد بدأ حيُّنا، من خلال السويدي، يحمل خيالات عن نفسه وعن العالم، كانت هي نفسها خيالات مشجعي الألعاب الرياضة في أي مكان: أي على نحو يكاد يماثل ما هو عند غير اليهود (كما كانت جماعتنا تتخيّل غير اليهود). صار أهلنا قادرين على نسيان كيف تجري الأمور في العالم الحقيقي، وعلى جعل الأداء الرياضي معقد آمالهم كلِّها. وقبل كل شئ، صاروا قادرين على نسيان الحرب.

أظن أن الحرب ضد الألمان واليابانيين، وما أثارته من مخاوف، هي أفضل تفسير لعلو شأن السويدي ليفوف، إلى مصاف الآلهة لدى يهود ناحية ويكاهيك. على سطح الحياة منعدم المعنى، وفّر ظهور هذا السويدي الذي لا يُقهر في الملاعب نوعًا من التغذية الوهمية الغريبة لأولئك الذين كانوا يعيشون خوف عدم التمكّن من رؤية الأبناء والآباء والأزواج من جديد، فوجدوا في براءة السويدي انعتاقًا بهيجًا من همومهم.

فكيف كان أثر هذا عليه... كيف كان التمجيد والتقديس اللذان كانا يقابلان كل رمية بارعة من رمياته، وكل تمريرة يثِب فيلتقطها، وكل هجمة يطلقها من

الجناح الأيسر في الملعب فيحرز نقطة مضاعفة؟ أهذا ما جعله ذلك الفتى الرزين ذا الوجه الحجري؟ أم إن اعتداله الموحي بالنضج كان مظهرًا خارجيًا لصراع داخلي مرير يخوضه حتى يضبط نرجسيته التي أسرف مجتمعنا الصغير كله في إظهار حبّه لها؟ كان لدى فريق المشجعات في المدرسة الثانوية هتاف خاص بالسويدي. وخلافًا لبقية الهتافات الرامية إلى تشجيع الفريق كله، أو إلى إثارة الحماسة في نفوس المتفرّجين، كان ذلك الهتاف تحيّة إيقاعية نشطة مُوقّعة بالأقدام موجّهة إلى السويدي وحده... حماسة ظاهرة لكماله الذي لا تشوبه شائبة ولا يكسفه شيء. كان ذلك الهتاف يهز الصالة الرياضية هزًا أثناء مباريات كرة السلّة كلما انطلق السويدي في هجمة مرتدّة، أو كلما سجّل نقطة؛ وينداح هديرًا في ناحيتنا من ملعب المدينة في مباريات كرة القدم كلما أحرز السويدي تقدّمًا، أو كلما نجح في اعتراض تمريرة من تمريرات الفريق الخصم. وحتى في مباريات البيسبول في منتزه إرفنغتون حيث يكون جمهور المتفرجين قليل العدد، وحيث لا جود لفرقة المشجعات المتحمّسات الراكعات عند حافّة الملعب، كان يمكن للمرء سماع ذلك الهتاف نفسه منطلقًا - منخفض الصوت - من حفنة من شجعان ويكاهيك الجالسين على المدرّجات الخشبيّة، لا عندما يقذف السويدي الكرة بمضربه فحسب، بل حتى عندما لا يفعل شيئًا غير الجري الروتيني في اتجاه القاعدة الأولى. كان ذلك هتافًا مؤلّفًا من ثمانية مقاطع صوتية، ثلاثة منها اسمه. وكان ينطلق هكذا... «باه باه باه! باه باه باه... باه - فراا». كان إيقاع الهتاف يتسارع مع كل تكرار، في مباريات كرة القدم خاصة، ثم يبلغ ذروته المجنونة المولّهة... انفجارٌ من تنورات المشجّعات القصيرة المتطايرة كأنها فرقعة ألعاب نارية تنطلق أمام عيوننا المعجَبة... إعجابٌ لا بكَ ولا بي، بل بالسويدي الرائع وحده. «السويدي ليفوف... كأنك تقول حُب! السويدي ليفوف... كأنك تقول حُب! السويدي ليفوف... كأنك تقول حُب!»(1).

نعم... كان الناس غارقين في حب السويدي أينما ذهب. وأما نحن، بقية الأولاد، فكنا مصدر إزعاج لأصحاب محل السكاكر الذين كانوا لا يخاطبوننا إلا بعبارات من قبيل «أنت... لا!»؛ أو «كف عن هذا يا ولد!»؛ لكنهم لا يتوجّهون

إليه إلا باحترام فيقولون «السويدي». كان الآباء والأمهات يبتسمون له ويخاطبونه باسمه «سايمور». وكانت البنات اللواتي يمر بهن في الشارع وهن يثرثرن في ما بينهنّ تتظاهرن بأن ذهولًا أصابهنّ، وتصيح في إثره أكثرهنّ جرأة: «عد إليّ، عد إليّ يا ليفوف حياتي»(2). كان هذا يعجبه فيسير في الحي مستحوذًا على ذلك الحب كلِّه متظاهرًا بأنه لا يشعر بشيء منه. وخلافًا لأية أحلام يقظة قد تكون لدى بقيتنا بشأن الأثر المحفّز لذلك التَّولّه الكلّي الأعمى غير النقدي، بدا كما لو أن الحب الذي يغدقه الناس على السويدي كان يجرده من الإحساس. فهذا الفتى... الذي جعله أناس كثيرون رمزًا للأمل، كما لو أنه تجسيد للقوة والتصميم والبسالة الجريئة، التي لا بد منها كلّها لكي يعود مقاتلونا سالمين من جبهات المعارك في ميدواي وساليرنو وتشيربور وجزر سولومون وآلوتشيان وتاراوا... هذا الفتى، لم يكن يبدو أن لديه قطرة واحدة من تعالٍ أو إعجاب بالنفس يمكن أن تفسد موهبته الذهبية في أن يكون شخصًا مسؤولًا.

لكنَّ التعالي والإعجاب بالنفس شيئان أشبه بعقبة لا تستطيع أن تعترض طريق فتى كالسويدي؛ فالتعالي أسلوب بشري لمواساة النفس، ولا محل له إن كان المرء يسير مسار الآلهة! فإما أنَّه كان يكبت جانبًا كاملًا من شخصيته ويخفيه، أو أن ذلك الجانب كان لا يزال نائمًا عنده... أو - وهذا أقوى احتمالًا - أنّ ما من جانب آخر فيه! تحفُّظه وما يبدو عليه من سلبية إزاء كونه موضوع تلك الرغبة الجنسية كلها، كانا يجعلانه يبدو نوعًا متميزًا من البشر، إن لم يكن قدسيًّا، أعلى من أولئك البشر البدائيين، الذين هم كل شخص غيره في المدرسة. كان مقيدًا إلى التاريخ؛ كان أداة للتاريخ؛ وكان يحظى بإجلالٍ مُحبٍّ لعلّه ما كان ليحظى به لولا أنه حطم الرقم القياسي لويكاهيك في كرة السلة - سجل سبعًا وعشرين نقطة في مواجهة فريق بارينغر - في ذلك اليوم الحزين، اليوم الحزين نفسه من سنة 1943، عندما أسقطت مقاتلات القوة الجوية الألمانية ثمانيَ وخمسين «قلعة طائرة»، ثم سقطت اثنتان بنار المدفعية المضادة للطائرات، وتحطّمت خمس طائرات غيرها بعد اجتياز الساحل البريطاني في طريق عودتها من حملة قصف جوي فوق ألمانيا.

كان جيري ليفوف، شقيق السويدي الأصغر، زميلي في الصف. كان نحيلًا صغير الرأس فائق المرونة إلى حدٍّ غريب له بنية أشبه بعود من نبات العرقسوس. كان أيضًا ساحرًا في الرياضيات. وصار أول المتفوّقين في كانون الثاني من سنة 1950. وعلى الرغم من أن جيري، بأسلوبه المتعجرف سريع الغضب، لم يرتبط بصداقة مع أي شخص، فقد ظهر لديه اهتمام بي على مرّ السنين. وهذا هو السبب الذي جعله يسحقني دائمًا في لعبة كرة الطاولة - منذ أن كنت في العاشرة من العمر - في ذلك القبو «المنتهي» في بيت أسرة ليفوف الذي كان منزلًا تسكنه أسرة واحدة على زاوية شارعي «وايند مور» و«كير»... تعني كلمة «منتهي» أن جدران ذلك القبو كانت مكسوة بألواح من خشب الصنوبر ذي العِقَد، وأنه كان قبوًا مأهولًا، وليس كما كان يبدو أن جيري قد فهم الأمر: مكان مثالي لكي «يُنهي» طفلًا آخر.

كانت عدوانية جيري المتفجّرة في لعبة كرة الطاولة أكبر مما لدى أخيه في أيّة لعبة رياضية. إن الكرة في هذه اللعبة مصمَّمة على نحو ذكي بحيث لا يسمح شكلها وحجمها باقتلاع العين. لولا هذا لما لعبت أبدًا في ذلك القبو في بيت جيري ليفوف. ولولا أن ذلك كان يمنحني فرصة القول للناس إنني أعرف بيت السويدي ليفوف من الداخل، لما استطاع أي إنسان أن يجعلني أنزل إلى ذلك القبو وأنا أعزل اليدين إلا من مضرب خشبي صغير. لا يمكن لأي شيء خفيف الوزن كتلك الكرة أن يكون قاتلًا؛ إلا أن القتل لم يكن بعيدًا أبدًا عن ذهن جيري عندما يقذف بتلك الكرة في اتجاهي. لم يدر في خلدي أبدًا أن هذا الاستعراض العنيف قد يكون على صلة بما يعنيه لجيري كونه شقيق السويدي ليفوف. فبما أنني كنت غير قادر على تخيّل أي شيء أفضل من أن يكون المرء شقيقًا للسويدي - إلا أن يكون هو السويدي نفسه - فقد كنت عاجزًا عن فهم أنّ ما من شيء أسوأ من ذلك في نظر جيري. كانت غرفة السويدي واقعة تحت السقف مباشرة في آخر البيت. لم أجرؤ على دخولها أبدًا؛ لكني كنت أتوقّف وأنظر في داخلها عند ذهابي إلى المرحاض القريب منها. سقفها المائل، ونافذتاها البارزتان إلى الخارج، وأعلام منطقة ويكاهيك المثبتة على الجدار. كانت تلك الغرفة تبدو

لي شبيهة بما أعتبره غرفة فتى حقيقي. ومن النافذتين اللتين تنفتحان على مرج واقع خلف البيت، كان المرء يستطيع رؤية سقف مرأب سيارة عائلة ليفوف حيث كان السويدي يمضي أوقات فراغه في الشتاء - أيام المدرسة الابتدائية - في التلويح بمضربه وقذفِ كرة بيسبول مربوطة بخيط ثخين معلّق من عارضة في السقف... فكرة لعلّه استقاها من رواية عن لعبة البيسبول لجون ر. تونيز اسمها «فتى من تومكينزفيل». رأيت ذلك الكتاب على رفّ مثبت إلى جانب سرير السويدي، ومعه كتب أخرى لتونيز - «الدوق الحديدي»، «تصميم الدوق»، و«اختيار البطل»، و«أطفال كيستون»، و«أفضل لاعب مبتدئ في هذه السنة». كانت كلّها مصفوفة بحسب التسلسل الأبجدي يحصرها اثنان من مساند الكتب البرونزية على هيئة تمثال «المفكر» لرودان... كان المسندان هدية دعائية من بار «ميتسفا».

ذهبت من فوري إلى المكتبة لكي أستعير كل ما أجده من كتب تونيز، ثم بدأت قراءة «أطفال كيستون» التي كانت رواية قاتمة آسرة بالنسبة إلى صبي في مثل سني... رواية واضحة الكتابة، جافة في بعض المواضع، لكنها مباشرة وتحترم قارئها. تتحدّث الرواية عن صبي اسمه روي تاكر كان رامي كرات ماهرًا في لعبة البيسبول، وكان من منطقة تلال كونتكتيكت الريفية. توفي أبوه عندما كان في الرابعة من العمر، ثم توفيت أمه عندما صار في السادسة عشرة، فصار يساعد جدّته في تأمين ضروريات العيش من خلال عمله في مزرعة الأسرة نهارًا، والعمل في المدينة ليلًا في «متجر ماكينزي» عند زاوية شارع ساوث مين.

كان الكتاب صادرًا في سنة 1940، وكانت فيه رسومات بالأبيض والأسود فيها شيء من التشوّه الانطباعي مع القدر الكافي من المهارات التشريحية... رسوم تصوّر بطريقة ذكية مشقّات حياة ذلك الطفل في ذلك الزمن الذي سبق مليون إحصائية أتت بعده، فألقت الضوء على لعبة البيسبول، ذلك الزمن حيث كان الأمر كلّه تابعًا لأسرار قدر دنيوي، عندما كان اللاعبون في كبرى المباريات يبدون أقل شبهًا بأطفال كبار أصحاء منهم بعمال نحيلين جائعين. بدت

تلك الصور كأنها مأخوذة من زمن التقشف المظلم أيام الكساد في أميركا. بعد كل عشر صفحات، أو نحو ذلك، يأتي رسم يمثّل على نحو مقتضب لحظة مادية درامية من لحظات القصة... «كان قادرًا على إدخال شيء من الحماسة في الأمر»، «كان أمرًا غير مقبول أبدًا»، «كان ريزل يعرج سائرًا إلى المخبأ»... وكان هنالك رسم بحبر كثيف؟؟؟ ضارب إلى السواد يمثل لاعب بيسبول هزيلًا غائم الوجه كأنه خيال على صفحة فارغة، معزولًا كأنه أكثر الأرواح توحّدًا في العالم كلّه، غريبًا عن الطبيعة والبشر، أو كأنّه موضوع على عشب بيسبول مرسوم بخطوط واهية، وقد امتدّ من تحته تجسيدٌ واهٍ لظلٍّ أشبه بدودة. شخص غير جذاب، حتى في ملابس البيسبول... إنه رامي الكرات. كان هذا مفهومًا من شكل يده في قفّازها كما لو أنها مخلب. ما كانت تلك الرسوم تصوّره بكل وضوح هو أن اللعب في الفرق الكبرى، مهما بدا أمرًا بطوليًا، ليس إلا صيغة أخرى من صيغ الكدح غير المجزي... كدح يكسر الظهر.

كان ممكنًا أيضًا أن يكون عنوانه «الخروف من تونكسفيل»؛ بدلًا من «الصبي من تونكسفيل»، وذلك على الرغم من أن «الخروف من تونكسفيل» عبارة تقود إلى التفكير في ذبح ذلك الخروف آخر الأمر. ففي مسيرة ذلك الطفل الذي كان وافدًا حديثًا متميّزًا إلى نادي بروكيل دودجرز القابع في المرتبة الأخيرة، كانت خيبة مؤلمة، أو حادثة فظيعة، تأتيه مكافأةً عن كل نصرٍ يحرزه. تلك الصّلة المتينة التي نشأت بين الصبي الوحيد المشتاق إلى موطنه وملتقط الكرات القديم في نادي دودجرز، ديف ليونارد الذي نجح في تعليمه أساليب الفرق الكبيرة وكان يرعاه «بعينيه البنيتين الثابتتين من خارج منطقة الهجوم» أثناء مباراة لم تشهد تسجيل أية نقاط، مباراة انتهت نهاية قاسية بعد ستة أسابيع فقط من بداية الموسم الرياضي، عندما جرى إسقاط ذلك اللاعب القديم من لائحة النادي بين عشية وضحاها. «ها هنا، كانت السرعة التي لا يتحدّثون عنها كثيرًا في عالم البيسبول: سرعة صعود نجم لاعب، ثم سرعة سقوطه». وبعد ذلك، بعد أن فاز الفتى بمباراته الخامسة عشرة على التوالي (سجلٌّ باهر لم يحقّقه أي رامٍ في أي موسم مباريات قبل ذلك)، طَوّح به - مصادفة - فأسقطه على أرض الحمام

زميل كثير الصخب كان يندفع هنا وهناك مهتاجًا بعد ذلك النصر الكبير. أورثته تلك السقطة إصابة في كتفه تركته غير قادر على رمي الكرة بعد ذلك. ظلّ خارج المباريات بقية السنة كلّها، فلم يشارك فيها إلا عندما يدخل بديلًا عن لاعب آخر في لحظات حاسمة من المباريات. ثم رجع إلى موطنه في كونتيكت في فصل الشتاء المثلج، حيث صار يمضي النهار في المزرعة، ويعمل في ذلك المتجر بعد أن صار شخصًا معروفًا، لكنه عاد صبيَّ جدّته من جديد. كان يعمل وحده مجتهدًا (بحسب توجيهات ديف ليونارد) حتى يجعل تسديدته مستوية («كان ميله إلى خفض كتفه اليمنى على نحو يجعل ضربته مرتفعة بعض الشيء أكبر خطاياه») فيعلّق كرة بيسبول بخيط في الإسطبل ويضربها «بمضربه المحبوب» في صباحات الشتاء الباردة، ويستمر في ذلك إلى أن يتصبّب عرقًا. «كراك... ذلك الصوت الحلو النظيف عندما يصطدم المضرب بالكرة اصطدامًا مباشرًا». صار في الموسم التالي مستعدًا للعودة إلى نادي دودجرز ليصير لاعبًا سريعًا في الجناح الأيمن ويسجل 325 نقطة فيتولى فريقه. وفي اليوم الأخير من الموسم، في مباراة ضد فريق جاينتس الذي كان متقدّمًا بمباراة واحدة فقط، تمكّن الفتى من إيقاظ الروح الهجومية لدى فريقه، الذي تقدم على الفريق الخصم معتمدًا على قدرة لاعبه الفتي الجريء صاحب العضلات المتميّزة الذي استطاع أن يحسم اللعبة كلّها عندما جرى والتقط الكرة في مواجهة جدار دفاعي في الجهة اليمنى من وسط الملعب. لقد جعلت هذه المأثرة الكبيرة الجريئة نادي دودجرز يدخل بطولة الفرق الكبرى في شمال أميركا، لكنها تركت صاحبها «متلوّيًا» ألمًا على العشب الأخضر في أقصى الجهة اليمنى من الملعب. ينهي تونيز وصفه على النحو التالي: «خيّم الغسق على مجموعة من اللاعبين وعلى حشد كبير من الناس المتدفّقين من الملعب، وعلى رجلين يحملان جسدًا هامدًا على نقالة يسيران بها وسط الناس... «انفجر الرعد. وهطل المطر على ملعب بولو»... هطل المطر، وهطل المطر، وانفجر الرعد، وهكذا انتهت كتابة مآثر ذلك الصبي.

كنت في العاشرة. ولم أكن قد قرأت أي شيء مثل ذلك من قبل. قسوة الحياة.

والظلم الذي فيها. لم أستطع تصديق الأمر. كان اسم لاعب فريق دودجرز المسؤول عما حدث ريزل نوجنت. كان رامي كرة عظيمًا، لكنه كان سكّيرًا أحمق؛ وكان بلطجيًا عنيفًا شديدة الغيرة إزاء الصبي. لكن ريزل لم يكن هو من حملوه «هامدًا» على نقالة، بل حملوا أفضل الجميع، حملوا يتيم المزرعة الذي كانوا يسمّونه «الصبي»: اللاعب الجدّي العفيف، المخلص الساذج، المخلص الجريء، اللامع الجميل، المتقشّف، صاحب الصوت الخفيض والجرأة التي لا تنثني. لا حاجة إلى القول إنني اعتبرت «الصبي» والسويدي شخصًا واحدًا، وتساءلت كيف يمكن للسويدي أن يحتمل قراءة هذا الكتاب الذي تركني موشكًا على البكاء غير قادر على النوم. لو كانت لي الجرأة على مخاطبته، لسألته إن كان يظنّ نهاية الكتاب تعني أن أمر الصبي قد انتهى، أم أن هنالك إمكانية لعودته من جديد. كلمة «هامد» جعلت الذعر يصيبيني. فهل قُتل الصبي عندما سجل آخر نقطة في موسم المباريات؟ هل كان السويدي يعرف الإجابة؟ وهل كان مباليًا بالأمر؟ هل خطر في ذهنه أن الكارثة التي نزلت بالصبي الذي من تونكسفيل يمكن أن تأتي فتنزل بالسويدي؟ أم إنه كان كتابًا عن نجم حلو عوقب عقابًا وحشيًا ظالمًا... هل كان كتابًا عن بريء صاحب موهبة عظيمًا كان ميله إلى خفض كتفه اليمنى ورمي الكرة مرتفعة بعض الشيء أكبر خطاياه؟ لكن السماوات الراعدة دمّرته على الرغم من ذلك؟ هل كان ذلك الكتاب في نظره مجرّد واحد من الكتب التي يحصرها تمثالا «المفكّر» على الرف في غرفته؟

كانت جادة كير المكان الذي يعيش فيه أثرياء اليهود... أو الذين يبدون أثرياء في نظر أكثرية الأسر التي تستأجر شققًا في منازل يتوزع كل منها على مسكنَيْن أو ثلاثة مساكن، أو أربعة... مساكن لها مداخل من درجات قرميدية مائلة كانت جزءًا من تسلياتنا بعد المدرسة: ألعاب النرد، وألعاب الحظ، ولعبة قذف الكرة على درجات المدخل. تستمر تلك اللعبة الأخيرة من غير انقطاع إلى أن تتمزّق الكرة المطاطية الرخيصة التي نقذفها من غير رحمة على تلك الدرجات فتنفتّق خياطتها. هنا، في هذه الشبكة من الشوارع التي تحفّ بها أشجار الجراد، الشوارع التي قسّمت مزرعة لايونز خلال سنوات الطفرة الاقتصادية أوائل

العشرينات، فأعاد أبناء الجيل الأول من مهاجري نيوارك اليهود تجمّعهم فيها، ضمن مجتمع صغير كان أميَل إلى استلهام حياة عامة الأميركيين منه إلى استلهام بلدات «شتيتل»(3) اليهودية، التي كان الجيل الأسبق من المتكلّمين بلغة ييديش قد كوّنوها في أنحاء برينس ستريت في منطقة ثيرديارد الفقيرة.

كان يهود جادة كير، بأقبية بيوتهم «المنتهية»، وشرفاتها الأمامية ذات الواجهات الزجاجية، ودرجات مداخلها الحجرية، يبدون كما لو أنهم في الصدارة زاعمين لأنفسهم فضل الريادة في التطبع بأسباب الراحة الأميركية. وفي صدارة الصدارة، كانت عائلة ليفوف التي أنعمت علينا بابنها السويدي، ذلك الصبي الذي كان شديد القرب من الغوييم(4) مثلما سنصير نحن أيضًا، بعد حين.

لم يكن لو وسيلفيا ليفوف أبوين أكثر أميركية، ولا أقل أميركية، من أبي وأمي اليهوديين المولودين في جيرسي؛ ولم يكونا أكثر، أو أقل، منهما ثقافة أو لباقة أو طلاقة لسان. كان هذا مفاجأة كبيرة لي. فباستثناء بيت الأسرة الواحدة في جادة كير، لم يكن بيننا أي فارق من تلك الفوارق التي تعلّمنا عنها في المدرسة، كالفارق بين الفلاحين والأرستقراطية. فعلى غرار أمي أنا، كانت السيدة ليفوف ربّة منزل مرتّبة، مظهرها لطيف لا تشوبه شائبة، شديدة المراعاة لمشاعر الآخرين، ولها طريقتها الخاصّة في جعل ولديها يشعران بأهميتهما... امرأة من نساء كثيرات في ذلك الزمان ممن لم يكن لديهنّ حلم التحرّر من المشروع المنزلي الكبير، الذي يكون الأطفال مركزًا له. وقد ورث الصبيّان من أمهما عظامها الطويلة وشعرها الأشقر؛ لكن شعرها الأكثر ميلًا إلى التجعّد والحمرة، ونمش جلدها الموحي بالشباب، جعلاها تبدو أقل منهما آريةً، فكانت «شذوذًا جينيًا» أقل وضوحًا بين تلك الوجوه التي في شارعنا.

لم يكن طول الأب أكثر من خمس أقدام وسبعة إنشات، أو ثمانية... رجل نحيل، طويل الأطراف، أكثر قلقًا وانفعالًا حتى من أبي، الذي كانت الأشياء الكثيرة التي تقلقه تصوغ قلقي، أنا نفسي. كان السيد ليفوف واحدًا من الآباء اليهود الآتين من الأحياء الفقيرة ممن كانت قساوة حياتهم وقلّة تعليمهم سببًا في دفع جيل كامل من الأبناء الطامحين ذوي التعليم الجامعي: أبٌ يرى في كلِّ

شيء واجبًا لا مناص منه، أبٌ يرى طريقًا صحيحًا وطريقًا خاطئًا من غير أي احتمال آخر، أبٌ لديه تركيبة من الطموحات والمعتقدات والآراء المسبقة لا يزعزعها التفكير المتأنّي الذي لم يكن تجنّبه سهلًا بالقدر الذي يبدو عليه. رجال محدودون لهم طاقة غير محدودة؛ رجال سرعان ما يصيرون ودودين، وسرعان ما يضيقون ذرعًا؛ رجال أكثر الأشياء جدّية في حياتهم هو الاستمرار قدمًا على الرغم من كل شيء. ونحن كنا أبناءهم. وكان علينا أن نحبهم.

كان أبي طبيبًا متخصصًا في معالجة الأقدام. وظلّت غرفة المعيشة في بيتنا عيادة له على امتداد سنوات طويلة. كان يجني مالًا كافيًا لمعيشة الأسرة، من غير أية زيادة أو فائض. وأما السيد ليفوف، فقد اغتنى من تصنيع القفازات النسائية. لقد وصل أبوه - جد السويدي ليفوف - إلى نيوارك في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر مهاجرًا من بلده القديم، ووجد عملًا في إزالة اللحم المتبقي على جلود الخرفان بعد انتهاء نقعها في محلول الجير. كان هو اليهودي الوحيد بين مهاجري نيورك القساة الخشنين الآتين من البلدان السلافية، ومن إيرلندا وإيطاليا ممن يعملون في دباغة الجلود في شارع لوتمان لدى ت. ب. هويل، رجل الأعمال الكبير صاحب العلامة المسجلة الشهيرة في ميدان الجلود المعالَجة. كان ذلك الرجل يومها الاسم الأول في أقدم صناعات المدينة وأكبرها، دباغة الجلود وتصنيع المنتجات الجلدية. الماء أهم عنصر في صناعة الجلود... جلود تدور في براميل ماء ضخمة تبصق على الدوام ماءً كريه الرائحة، وأنابيب تنسكب منها مياه باردة ومياه حارّة... آلاف وآلاف الجالونات من الماء. في حال توفّر مياه غير كلسية، مياه جيّدة، فهي المياه المناسبة لصناعة البيرة، وهي المياه المناسبة لصناعة الجلود أيضًا. وكانت نيوارك تصنع هذا وذاك... مخامر بيرة ضخمة، ومدابغ ضخمة، وكثير من فرص العمل في الأعمال الرطبة كريهة الرائحة من أجل العمال المهاجرين.

ذهب الابن لو - والد السويدي ليفوف - إلى العمل في مصنع دباغة الجلود بعد أن ترك المدرسة في سن الرابعة عشرة، حتى يساعد أباه في إعالة الأسرة المؤلّفة من تسعة أشخاص. وهناك، أظهر مهارة غير مقتصرة على دباغة جلود

الغزلان بفرشاة مسطحة قاسية لنشر طبقة من صباغ بلون الصلصال، بل صار ماهرًا في فرز تلك الجلود وتصنيفها أيضًا. كانت المدبغة الفائحة بروائح المسلخ والمصنع الكيميائي نتيجة نقع الجلود وطبخها بما عليها من بقايا اللحم، ونزع الشعر عنها، ثم تمليحها وإزالة الدهون منها، تعمل على مدار الساعة في فصل الصيف حيث تُعلّق آلاف مؤلفة من الجلود لتجف فترتفع درجة الحرارة في صالة التجفيف ذات السقف المنخفض حتى تبلغ مئة وعشرين درجة(5). كانت غرف الجير مظلمة كالكهوف، طافحة بالفضلات، حيث يعمل رجال خشنو الطباع والأجسام مرتدين مآزر ضخمة مسلحين بالخطاطيف والهراوات، فيجرّون ويدفعون عربات ثقيلة الحمولة ويرفعون منها الجلود المشبعة بالماء ويعلّقونها ماضين كأنهم حيوانات عبر ذلك الكدح العاصف، حيث كانت نوبة العمل تستمر اثنتي عشرة ساعة... مكان قذر، كريه الرائحة، طافح بمياه تلوّنها أصبغة حمراء وسوداء وزرقاء وخضراء، وبجلود منتشرة على الأرض، وبحفر مليئة بالدهون، وبتلال من الملح، وببراميل من المواد المذيبة... تلك كانت المدرسة الثانوية التي ارتادها لو ليفوف، وتلك كانت جامعته. لم يكن أمرًا محيّرًا أن يصيرَ شخصًا له تلك الصّلابة كلها. لكن ما كان محيّرًا حقًّا هو مقدار التمدّن الذي ظلّ قادرًا عليه، أحيانًا.

تخرّج لو في مدابغ شركة «هويل وشركاه» عندما كان في أوائل العشرينات، وأسّس مع اثنين من أشقائه ورشة لصنع حقائب اليد متخصّصة في جلود التماسيح، التي تعاقدت من أجل توريدها مع ر. ج. سالامون، الذي كان ملك الجلود الفاخرة وأفضل من يدبغ جلود التماسيح في نيوارك. مر زمن بدا فيه هذا العمل واعدًا بالازدهار؛ لكن الشركة تهاوت عندما أتت الأزمة الاقتصادية فأفلس الأشقاء الثلاثة المجدّون، المغامرون. وبعد بضع سنين من ذلك، انطلقت شركة «نيوارك ميد للصناعات الجلدية»؛ لكن لو ليفوف كان وحده هذه المرة. صار يشتري منتجات جلديّة من النخب الثاني... حقائب يد وقفازات وأحزمة فيها بعض العيوب... ويبيعها على عربة يدفعها بنفسه في أيام عطلات نهاية الأسبوع وينتقل بها من باب بيت إلى باب بيت. كانت منطقة داون نِك نتوءًا بريًا

يكاد يكون شبه جزيرة في أقصى شرق نيوارك، حيث تحطّ كلّ موجة جديدة من المهاجرين... أرض واطئة يحيط بها نهر باسايك من الشمال والشرق، وتحدّها من الجنوب مستنقعات ملحية... كان فيها إيطاليون عملوا في صناعة القفازات في بلدهم الأول، فبدأوا يشتغلون في بيوتهم بالقطعة لصالح لو. كان يأتيهم بالجلود فيقصّونها ويخيطون منها قفازات نسائية يبيعها متجولًا في أنحاء الولاية. وعندما اندلعت الحرب، كانت عنده مجموعة عائلات إيطالية تقصّ وتخيط قفازات الأطفال في سقيفة صغيرة في شارع ويست ماركت. لكن ذلك كلّه ظل عملًا هامشيًا لا يدرّ مالًا حقيقيًا إلى أن أتت ضربة الحظ في سنة 1902: عقدٌ مع وحدات الجيش النسائية لصنع قفازات نساء رسمية من جلد الخرفان. استأجر لو مصنع المظلّات القديم الذي كان بناية متداعية من أربعة طوابق، يبلغ عمرها خمسين عامًا، وقد اسودت جدرانها من الدخان. كانت عند تقاطع شارع سنترال والشارع الثاني. سرعان ما اشترى تلك البناية، وأجّر قسمًا منها لشركة تصنع السحّابات. بدأت شركة «نيوراك ميد» تضخ القفازات ضخًّا. وكانت شاحنة تأتي كل يومين أو ثلاثة أيام فتأخذها. لكن عقدًا جديدًا مع بامبرغر كان مصدر فرحة أكبر من فرحة العقد الحكومي. تمكّنت شركة «نيواركميد» من الوصول إلى متجر بامبرغر، فصارت المصنِّع الأول لقفازات النساء لديه، وذلك بعد مقابلة أُجريت مصادفة بين لو ليفوف ولويس بامبرغر، في عشاء تذكاري أقيم على شرف العمدة ألينشتاين الذي كان رئيس شرطة المدينة منذ سنة 1933، ثم صار اليهودي الوحيد الذي يتولّى منصب العمدة فيها. في ذلك العشاء، سمع أحد المديرين في شركة باريز أن والد السويدي ليفوف كان حاضرًا فأتى لتهنئته على اختيار صحيفة نيوارك نيوز ابنه أفضل لاعب وسط في البيسبول في المقاطعة كلّها. انتبه لو إلى هذه الفرصة التي تأتي مرة في العمر، فرصة اجتياز العوائق كلّها والوصول مباشرة إلى القمة... استطاع لو ليفوف، بشيء من الصفاقة، أن يتحدّث ويقدم نفسه، هناك، في عشاء العمدة، للويس بامبرغر الأسطوري نفسه، الذي كان مؤسّس متجر بامبرغر الكبير الراقي في نيوارك، والشخص المحسن الذي منح المدينة متحفها: كان

شخصية واسعة النفوذ، كبيرة الأهمية لدى اليهود المحليين، مثلما كان برنارد باروخ كبير الأهمية لدى اليهود في أنحاء البلاد كلّها نتيجة علاقته الوثيقة بالرئيس فرانكلين روزفلت. وبحسب الإشاعات التي انتشرت في الحي على الرغم من أن ما فعله بامبرغر لم يتجاوز مصافحة لو ليفوف وطرح بعض الأسئلة عليه (عن ابنه السويدي) لمدة دقيقتين فقط، فقد تجرأ لو ليفوف على القول له: «يا سيد بامبرغر، إن لدينا الجودة ولدينا السعر، فلماذا لا نبيعكم القفازات؟». وقبل نهاية الشهر أبرمت شركة بارينز أول عقد مع «نيوارك ميد» لتوريد خمسمئة زوج من القفازات.

ومع نهاية الحرب، كانت «نيوارك ميد» قد تمكّنت من ضمان موقع ثابت لنفسها - كانت إنجازات السويدي ليفوف الرياضية عاملًا مهمًا في ذلك - باعتبارها واحدة من الماركات الأكثر احترامًا في سوق القفازات النسائية إلى الجنوب من بلوفرسفيل، نيويورك، التي كانت مركز تجارة القفازات، وكان لو ليفوف يشحن الجلود إليها بالقطار (عبر فولتونفيل) لدباغتها لدى أفضل مصنع دباغة في هذا المجال. وبعد انقضاء أكثر من عشر سنين على ذلك، أي في سنة 1958، افتتحت الشركة مصنعًا لها في بوتوريكو، فصار السويدي نفسه الرئيس الشاب للشركة، وصار يرتحل كل صباح إلى سنترال أفينيو قادمًا من بيته الواقع على مسافة ثلاثين ميلًا إلى الغرب من نيوارك، بعد الضواحي. كان الرجل رائدًا حديثًا في العيش هناك في مزرعة مساحتها مئة آكر واقعة على طريق فرعي في تلك التلال قليلة السكان خلف موريستاون في منطقة أولد ريمروك الريفية الثرية في نيوجرسي بعيدًا عن أرضية مصنع الدباغة الذي شهد بداية ليفوف في أميركا. وهكذا ابتعد المسار ابتعادًا كبيرًا عن الجلود الخام وما عليها من بقايا لحم مطاطي انتفخ كالغول، حتى تضاعفت ثخانته في أحواض الجير الكبيرة.

في الصيف الذي أعقب تخرّجه في مدرسة ويكاهيك في شهر حزيران من سنة 1945، انضم السويدي إلى وحدات مشاة البحرية متحرّقًا إلى المشاركة في معارك نهاية الحرب. قيل إن جزءًا كبيرًا قد أصاب أباه وأمه اللذين فعلا كل ما

استطاعا فعله لإقناعه بالذهاب إلى سلاح البحرية بدلًا من الذهاب إلى مشاة البحرية. فحتى إن أفلح في التغلّب على ما اشتهرت به وحدات مشاة البحرية من معاداة السامية، فهل يتخيّل أنه سيظلّ حيًا خلال غزو اليابان؟ لكن السويدي كان مصممًا؛ وما كان لأي شيء أن يثنيه عن مواجهة ذلك التحدّي الوطني الرجولي الذي وضعه نصب عينيه منذ الهجوم الياباني على بيرل هاربر... ما كان يمكن لأي شيء أن يقنعه بالتخلّي عن فكرة المضي للقتال كواحد من أشجع الشجعان، إذا ظلّت البلاد في حالة حرب إلى أن تنتهي المدرسة. كان السويدي قد أنهى لتوّه التدريبات الأساسية في باريس آيلاند في ساوث كارولاينا عندما سرت إشاعات قالت إن إنزال وحدات مشاة البحرية على الشواطئ اليابانية سيبدأ في آذار سنة 1946 ثم ألقيت القنبلة النووية على هيروشيما فانتهت الحرب. ونتيجة ذلك، أمضى السويدي بقية خدمته في مشاة البحرية «مدربًا رياضيًا» ولم يغادر باريس آيلاند. كان يجري التمرينات الرياضية لكتيبته مدة نصف ساعة، كل صباح قبل الفطور، ويرتّب إقامة أمسيات ملاكمة، مرتين في الأسبوع، للتسرية عن الجنود. وأما أكثر وقته فكان يمضيه في اللعب ضمن فريق القاعدة في مواجهة الفرق الرياضية من قطاعات عسكرية أخرى في جنوب البلاد كلّها: كرة السلّة طيلة الشتاء؛ وكرة البيسبول طيلة الصيف. ظلّ متمركزًا في جنوب ساوث كارولاينا قرابة سنة كاملة، ثم خطب فتاة أيرلندية كاثوليكية كان أبوها (وهو رائد في مشاة البحرية كان في ما مضى مدرب فريق لكرة القدم في بوردو بولاية إنديانا) قد رتّب أمر استلامه مهمّة المدرّب الرياضي المريحة حتى يبقيه لاعب كرة في باريس آيلاند. وقبل شهور كثيرة من تسريح السويدي من الجيش، قام أبوه برحلة إلى باريس آيلاند وظلّ فيها أسبوعًا كاملًا حيث أقام في فندق في بلدة بوفورت القريبة من قاعدة مشاة البحرية، ثم لم يرحل إلا بعد فسخ خطوبة ابنه من الآنسة دون ليفي. عاد السويدي إلى الديار في سنة 1947 والتحق بكليّة أوبسالا في وست أورينج. كان لا يزال في العشرين من العمر، ولم يثقل حياته بزوجة غير يهودية. كما أن بطولته ازدادت تألّقًا لأنه قد أفلح في أن يكون جندي مشاة بحرية يهوديًا... مدرّب رياضة بالتمام والكمال؛ ثم إن ذلك

حدث في مكان يقال إنه أقسى مكان عسكري في العالم. إنهم «يصنعون» جنود مشاة البحرية في معسكر التدريب الأولي ذاك؛ وقد ساهم سايمور إيرفينغ ليفوف في صنعهم.

عرفنا هذا كلّه لأن أسطورة السويدي ظلّت حيّة في ممرات المدرسة الثانوية وغرفها، حيث كنت واحدًا من طلبتها في ذلك الوقت. أتذكّر أنني ذهبت مرة أو مرتين في ربيع إحدى السنين بصحبة أصدقائي إلى ملعب فايكينغ في إيست أورينج حتى نشاهد مباريات الأحد المحلّية لفريق أوبسالا للبيسبول. كان السويدي رامي الكرات النجم في ذلك الفريق، ورجل القاعدة الأولى. فاز فريق أوبسالا على فريق مهلنبيرغ بثلاثة أشواط. كان واحدنا يهمس للآخر كلما رأينا رجلًا واقفًا في المدرّجات مرتديًا بدلة وقبّعة «كشاف، كشاف!»(6). وعندما كنت في الكلّية، بعيدًا عن حيّنا، سمعت من واحد من زملاء المدرسة القدامى، كان لا يزال مقيمًا في الحي، أن السويدي قد تلقى عرضًا للتعاقد مع فريق من الدرجة الأولى، لكنه رفض العرض وانضم إلى شركة والده. ثم علمت من أهلي بعد ذلك بزواج السويدي من ملكة جمال نيوجرسي. لقد كانت ملكة جمال مقاطعة يونيون قبل خوضها المنافسة في أتلانتيك سيتي على لقب ملكة جمال أميركا لسنة 1949. كما فازت قبلها بلقب ملكة جمال الربيع في أوبسالا. امرأة غير يهودية من إليزابيث! اسمها داون دواير! لقد فعلها حقًّا!

كنت في زيارة إلى نيويورك في صيف سنة 1985. وفي إحدى الليالي ذهبت لرؤية مباراة لفريق ميتس في ملعب آستورز. وبينما كنت أتجوّل في الملعب مع أصدقائي بحثًا عن البوابة المفضية إلى مكان جلوسنا؛ رأيت السويدي وقد ازداد عمره ستة وثلاثين عامًا منذ ذلك الوقت الذي كنت أراه فيه يلعب في فريق أوبسالا. كان مرتديًا قميصًا أبيض، ويعقد ربطة عنق مخطّطة، وبدلة صيفية رمادية داكنة. كان لا يزال وسيمًا إلى حد مخيف. صار شعره الذهبي داكنًا بعض الشيء، لكنه لم يفقد شيئًا منه. ما عاد يقصّه قصيرًا مثلما كان في ما مضى، فقد صار طويلًا يغطي أذنيه منحدرًا إلى ياقته.

بدا في تلك البدلة الملائمة له تمام الملاءمة أكثر طولًا وأكثر نحولًا مما أتذكّره

في ملابسه الرياضية في هذه اللعبة أو تلك. كانت المرأة التي معنا أول من لاحظه. قالت متسائلة: «من هذا؟ إنه... إنه... أليس هو السيناتور جون ليندسي؟» أجبتها: «لا!»؛ ثم قلت لأصدقائي: «يا إلهي! هل تعرفون من هذا؟ هذا هو السويدي!».

كان صبي نحيل أشقر الشعر في السابعة، أو في الثامنة من العمر، سائر إلى جانب السويدي. طفل يضع قبعة فريق ميتس ويتدلّى من يده اليسرى قفاز لاعب القاعدة الأولى. كان مع السويدي قفاز مماثل. كان واضحًا أنهما أب وابنه. وكانا يضحكان معًا لأمر ما عندما اقتربت وعرّفته بنفسي. «لقد كنت أعرف أخاك في ويكاهيك».

أجابني وهو يهزّ يدي بحرارة: «ألست زوكرمان؟ الكاتب؟».

«صحيح. أنا زوكرمان، الكاتب».

«نعم، لقد كنت صديق جيري المقرّب».

«لا أظن أن جيري كان لديه أصدقاء مقرَّبون. لقد كان لامعًا لا يجاريه أحد. لكنه اعتاد هزيمتي شر هزيمة في كرة الطاولة في قبو بيتكم. كانت هزيمتي في كرة الطاولة أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة إلى جيري».

«أنت هو ذلك الشخص. كانت أمي تقول عنك: كان طفلًا هادئًا لطيفًا عندما يأتي إلى البيت!»

قال مخاطبًا الصبي: «أتعرف من هذا؟ إنه الشخص الذي كتب تلك الكتب كلها. هذا هو نيثان زوكرمان».

هز الصبي كتفيه حائرًا، ثم قال لي: «مرحبًا».

«هذا هو ابني كريس».

قلت مشيرًا بيدي في اتجاه الأشخاص الثلاثة الذين كانوا معي: «هؤلاء أصدقائي». ثم قلت لهم: «وهذا الرجل... إنه أعظم رياضي في تاريخ ويكاهيك العليا. فنان حقيقي في ثلاثة ألعاب رياضية. إنه يلعب في القاعدة الأولى مثل هيرنانديز... يفكّر مثله. شديد البراعة في الرميات المزدوجة». قلت لابنه: «هل تعرف هذا؟ لقد كان أبوك هيرنانديز فريقنا».

أجابني الصبي: «هيرنانديز يلعب باليد اليسرى».
«لا بأس... هذا هو الاختلاف الوحيد!». قلت هذا للصبي المتمسّك بحَرفية الأمور، ثم مددت يدي إلى والده مرة أخرى، وقلت: «سررت بلقائك يا سويدي».
«وأنا أيضًا. كن بخير يا سكيب(7)».
قلت له: «سلم لي على أخيك».
ضحك السويدي ثم افترقنا، وسمعت شخصًا يقول لي: «نعم، نعم... إن أعظم رياضي في تاريخ ويكاهيك العليا دعاك باسم سكيب».
«أعرف هذا. ولا أكاد أستطيع تصديقه». أحسست كما لو أنني - تقريبًا - تلقّيت تميّزًا رائعًا، مثلما أحسست مرة في ما مضى، عندما كان عمري عشر سنين، يوم تباسط معي السويدي إلى حد مخاطبتي في الملعب بذلك اللقب الذي اكتسبته بعد أن تخطّيت صفين في المدرسة الابتدائية.
وخلال الهجمة الأولى في المباراة، التفتت المرأة التي كانت معنا في اتجاهي وقالت: «كان يجب أن ترى وجهك. كنت كمن يخبرنا أن ذلك الرجل هو زيوس نفسه! رأيتُ تمامًا كيف كان شكلك عندما كنت طفلًا صغيرًا».
وصلتني الرسالة التالية عن طريق ناشري بعد أسبوعين من «يوم الذكرى(8)، سنة 1995»:
عزيزي المتخطّي زوكرمان،
أعتذر مسبقًا عن أي إزعاج قد تسبّبه لك هذه الرسالة. لعلك لا تتذكّر لقاءنا في الملعب. لقد كنت مع ابني الأكبر (هو الآن طالب في سنته الجامعية الأولى)، وكنتَ ذاهبًا مع عدد من أصدقائك لحضور مباراة لفريق ميتس. كان هذا منذ عشر سنين، أيام كارتر وغودن وهيرنانديز، أي عندما كان فريق ميتس لا يزال يستحق أن يتابع المرء مبارياته.
أكتب إليك الآن لكي أسألك إن كنا نستطيع اللقاء حتى نتحدّث. يسرني أن أدعوك إلى العشاء في نيويورك إن أتحتَ لي هذه المسرة.
إنني أسمح لنفسي باقتراح اللقاء بسبب أمر شغل تفكيري منذ أن مات أبي في

السنة الماضية. لقد كان في السادسة والتسعين. وقد ظل كما هو، مشاكسًا مولعًا بالمواجهة حتى آخر أيامه. هذا ما جعل رؤيته يرحل عنا أكثر صعوبة، على الرغم من تقدّمه في السن.

أود أن نتحدّث عن حياته. إنني أحاول كتابة شيء تكريمًا له بغية توزيعه ضمن دائرة خاصّة من الأصدقاء والأقارب والشركاء في العمل. يميل الجميع إلى اعتبار أبي شخصًا صلبًا لا يُقهر، رجلًا لا يتأثر بشيء ولا يطيق صبرًا على أحد. لكن هذا بعيد عن الحقيقة كل البعد. لا يعرف الجميع كم عانى نتيجة الصدمات التي أصابت من يحبهم.

لكني أؤكد لك أنني سأتفهم الأمر إذا لم يكن لديك وقت للرد على رسالتي هذه.

المخلص،

سايمور «السويدي» ليفوف، مدرسة ويكاهيك الثانوية، سنة 1945.

لو سألني أي شخص آخر إن كنت مستعدًا للحديث معه عن شيء يكتبه في ذكرى والده المتوفّى، لتمنّيت له حظًا طيّبًا وشمخت بأنفي مبتعدًا عنه. لكني وجدت أسبابًا كثيرة تدفعني إلى كتابة رسالة إلى السويدي، بعد ساعة واحدة، أقول له فيها إنني تحت تصرّفه. كان السبب الأول هو أن السويدي ليفوف كان راغبًا في رؤيتي. لعله أمر سخيف أن أرى توقيعه أسفل الرسالة، بعد أن بلغت هذه السن المتقدمة، فتغمرني ذكرياتي عنه، في الملعب وخارج الملعب، ذكريات بلغ عمرها نحو خمسين عامًا لكنها تظل متوقّدة آسرة. تذكّرت ذهابي كل يوم إلى الملعب للفرجة على تدريبات كرة القدم في السنة الأولى لموافقة السويدي على الانضمام إلى الفريق. لقد كان في ذلك الوقت فنانًا في تسجيل نقاط كثيرة من تسديدات بعيدة في ملاعب كرة السلة؛ لكن أحدًا لم يكن يستطيع أن يكون - بالقدر نفسه - ساحرًا في ملعب كرة القدم منذ أن بدأ المدرّب يدخله المباريات فتقدّم فريقنا الخاسر (مع أنه كان لا يزال في آخر تصنيف الفرق في دوري المدينة) وصار يسجل نقاطًا متزايدة في كل مباراة. وكانت تلك النقاط كلّها ثمرة تمريرات يتلقّفها السويدي. كان خمسون أو ستون ولدًا يتجمّعون عند أطراف الملعب وقت التدريب لمتابعة تمرينات السويدي في المدرسة في مواجهة فريق

جي ديز - يلعب بخوذته الجلدية المهترئة وقميصه البنّي الذي يحمل الرقم 11 البرتقالي -. كان الظهير الربعي في فريق المدرسة، ليفتي ليفنثال، يمرّر الكرة إلى السويدي مرة بعد مرة («ليفـ ن ثال إلى ليـ فوف... ليفـ ن ثال إلى ليـ فوف». كان هذا هتافًا قادرًا دائمًا على إعادتنا إلى أجمل أيام السويدي). كانت مهمة لاعبي فريق جي ديز الذين وجدوا أنفسهم في حالة دفاع، منحصرة في كل مرة في محاولة منع السويدي ليفوف من التسجيل. تجاوزت الستين الآن؛ وأنا لست بالشخص المحتفظ بنظرته إلى الحياة عندما كان صبيًا. إلا أن أوهام الصبي لم تتبخّر كلّها بعد لأنني لم أنسَ، إلى هذا اليوم، كيف نهض السويدي ببطء واقفًا على قدميه بعد أن جعله المدافعون يسقط أرضًا، فهز رأسه ورفع وجهه إلى سماء الخريف القاتمة بنظرة احتجاج، ثم أطلق تنهيدة حزينة وجرى من غير أن يصيبه سوء متّجهًا إلى جمهرة اللاعبين. كان تسجيله النقاط نوعًا من المجد. وكان سقوطه وتكوّمه على الأرض، ثم وقوفه ونفض ذلك عنه نوعًا آخر من المجد، حتى في تلك المناوشات الخشنة بين اللاعبين.

«احلمْ عند انقضاء اليوم.
احلمْ، فقد تتحقّق الأحلام.
أبدًا، ليست الأشياء سيّئة بقدر ما تبدو عليه.
فاحلم، واحلم، واحلم».

جوني ميرسير
من أغنية «احلمْ» التي كانت رائجة في الأربعينات.

«الحدوث النادر لما هو مرتقب...»

ويليام كارلوس ويليامز
من رواية «في بيت كينيث بورغ» 1946

لقد كان لي نصيب من تلك العَظَمة ذات يوم. كنت في العاشرة. لم تمسّني العَظَمة قبل ذلك. ولولا جيري ليفوف لبقيت تحت مستوى السويدي كأي شخص آخر من الواقفين عند حدود الملعب. كان جيري قد أنعم علي بصداقته قبل فترة وجيزة؛ لكني وجدت صعوبة في تصديق ما حدث، رغم ذلك. لا بد أن السويدي

قد لاحظ وجودي في بيتهم. ففي ساعة متأخّرة من مساء خريفي في سنة 1943، وبعد أن أوقعه الفريق الخصم على الأرض عندما اعترض تمريرة سريعة كالرصاصة آتية من ليفنثال وانطلقت صفّارة الحكم معلنة انتهاء المباراة في ذلك اليوم، قام السويدي وهو يفرد مرفقه ويطويه متألمًا ويسير بخطوات سريعة نصف عرجاء خارجًا من الملعب. رآني بين بقية الأطفال فناداني قائلًا: «لم تكن كرة السلة هكذا أبدًا يا سكيب».

لقد رفعني الرب بنفسه وحملني إلى علياء الرياضيين (كان السويدي في السادسة عشرة). لقد تعطّف المعبود ونظر إلى عابده. وبطبيعة الحال، فإن ما يحدث مع الرياضيين شبيه بما يحدث مع نجوم السينما: يتخيّل كل عابد أن له مع ذلك الشخص رابطة شخصية سرّية، إلا أن هذا أمر يفعله في العلن أكثر النجوم بعدًا عن التباهي أمام حشد من أطفال متنافسين - تجربة مدهشة، أذهلتني - احمرّ وجهي؛ وكنت مذهولًا، بل لعلي لم أستطع التفكير في أي أمر آخر بقية ذلك الأسبوع كلّه. تلك الممازحة الناطقة بالإشفاق على الذات، ذلك الكرم الرجولي، ذلك التفضّل الملكي... سرور الرياضي بنفسه فائضًا إلى حدٍّ يسمح بمنح جمهوره قسمًا منه. لقد غمرني هذا السخاء وتخلّلني كأنه عطر، لا لأنه جاء مشفوعًا بلقبي فحسب، بل أيضًا لأنه صار ثابتًا في ذهني كأنه تجسيد لشيء أكبر حتى من موهبة السويدي الرياضية: موهبته في أن «يكون هو نفسه»، وقدرته على أن يصير تلك القوة الغريبة مع بقاء صوته وابتسامته غير ملوَّثَين ولو حتى بلمحة تعالٍ صغيرة... التواضع الطبيعي لدى شخص لا عقبات تعترض سبيله... شخص كان يبدو غير مضطرٍّ إلى خوض أي صراع حتى يفسح مكانًا لنفسه. لا أظنني الرجل الناضج الوحيد الذي كان آنذاك طفلًا يهوديًا طامحًا إلى أن يصير طفلًا أميركيًا تمامًا خلال سنوات الحرب الوطنية (في تلك الأيام التي بدا فيها أن آمال حيّنا الحربية كلّها التقت واجتمعت في جسد السويدي الرائع)... أنا هو الطفل الذي كبر وحمل معه عبر حياته كلّها ذكريات عن أسلوب ذلك الفتى الموهوب الذي لم يتفوّق عليه أحد.

يهودية ذلك الفائز الرياضي الطويل الأشقر التي كان يحملها من غير عناء...

لا بد أنها حدّثتنا بشيء أيضًا. فمن خلال تقديسنا السويدي ووحدته اللاواعية مع أميركا، أظننا كنا نضمر مسحة من الخجل ومن رفض الذات. كان مرآه يوقظ الرغائب اليهودية المتضاربة، وكان يهدّئها أيضًا: التناقض لدى اليهود الراغبين في التلاؤم وفي التفرد معًا، المصرّين على أنهم مختلفون وعلى أنهم غير مختلفين. كان هذا التناقض يجد لنفسه حلًا في مشهد السويدي الظافر الذي لم يكن في حقيقة الأمر إلا واحدًا من سايمورات حيّنا الذين حمل أسلافهم أسماء من قبيل سولومون وسول، لكنهم سيسمّون أبناءهم ستيفن، ثم يسمي أولئك الأولاد أبناءهم شون(9). فأين كان اليهودي فيه؟ ما كنت قادرًا على العثور عليه، لكنك تعرف أنه موجود. أين كانت اللاعقلانية فيه؟ وأين كان الشخص البكّاء فيه؟ أين كانت الإغراءات المتقلّبة؟ لا خداع. ولا مكر. ولا تلاعب. لقد أزال ذلك كلّه حتّى يصل إلى كماله. لا عناء، ولا تناقض، ولا ازدواج... أسلوبه وحده، الإتقان الجسدي الطبيعي لدى نجم رياضي.

لكن... ما الذي فعله من أجل ذاته؟ ما الذي كانته ذات السويدي؟ لا بد أنه امتلك أساسًا عميقًا؛ لكن تخيّل تركيبة ذلك الأساس كان أمرًا غير ممكن.

هذا هو السبب الثاني الذي جعلني أرد على رسالته... الأساس. فأي نوع من الوجود العقلي كان لديه؟ وإن كان هنالك شيء يمكن أن يمثّل خطرًا على استقرار مسيرة السويدي، فما هو؟ لا يفلت أحد من أثر الكآبة، والأسى والحيرة والخسران. حتى إن من لا ينقصهم شيء أبدًا في طفولتهم، لا يلبثون أن يحصلوا على نصيب وسطي من الشقاء، عاجلًا أو آجلًا، إن لم يكن نصيبهم أكثر من ذلك. لا بد من وجود الوعي، ولا بد من وجود البلاء. لكني لم أكن قادرًا على تصور الشكل الذي اتّخذه لديه هذا أو ذاك... ولا أزال غير قادر على فهمه حتى الآن: عبر بقايا مخيّلة فترة المراهقة، كنت لا أزال مقتنعًا بأن طريق السويدي كان من غير ألم على الإطلاق.

فما الذي كان يلمّح إليه في الرسالة الحذرة الدمثة عندما كتب متحدّثًا عن أبيه المتوفّى، الذي لم يكن رجلًا متبلد الإحساس مثلما ظنّه الناس، «لا يعرف الجميع كم عانى نتيجة الصدمات التي أصابت من يحبهم»؟. لا... لقد عانى السويدي

صدمة. وإذا كانت معاناة تلك الصدمة هي ما يرغب في الحديث عنه، فإن الأمر غير متعلّق بحياة أبيه: لقد أراد أن يكشف لي عن حياته هو.

ثم اتضح لي أنني كنت مخطئًا!

(1) بسبب التشابه بين الكلمتين: ليفوف (Levov)؛ حب (Love).
(2) كأنها تقول: «عد إليّ يا حب حياتي».
(3) شتيتل: بلدة يهودية صغيرة، أو قرية، في أوروبا الشرقية؛ ييديش: لغة اليهود في وسط أوروبا وشرقها (هي لهجة ألمانية دخلتها كلمات عبرية وعدد كبير من الكلمات الحديثة من لغات مختلفة).
(4) غوييم: الاسم الذي يطلقه اليهود على غير اليهود.
(5) مئة وعشرون درجة فهرنهايت، أي نحو 49 درجة مئوية.
(6) كشاف: المقصود أنه شخص موفد من نادٍ كبيرٍ للبحث عن اللاعبين المتميزين.
(7) سكيب (skip): بمعنى تخطى أو وثب متجاوزًا شيئًا ما. يسمح النظام التعليمي الأميركي للتلميذ بأن «يتخطى» قسمًا من المنهاج الدراسي، كنوع من «تسريع» تقدّمه المدرسي، وذلك إذا أثبت قدرات دراسية متميزة.
(8) يوم الذكرى: عيد وطني في الولايات المتحدة الأميركية يصادف الاثنين الأخير من شهر أيار. وهو مكرس لإحياء ذكرى قتلى القوات المسلحة الأميركية.
(9) سولومون وسول اسمان يهوديان، في حين أن ستيفن وشون لا علاقة لهما باليهودية أبدًا، وأما سايمور فهو في الوسط.

التقينا في مطعم إيطالي في منطقة ويست فوتيز، كان السويدي يأخذ أسرته إليه منذ سنين كلما أتوا إلى نيويورك لمشاهدة عرض في برودواي أو لحضور مباراة لفريق نيكس في صالة غاردن، فأدركت على الفور أنني لن أحظى برؤية الأساس الذي توقّعت رؤيته. كان كل من في مطعم فينسنت يعرفه بالاسم... فينسنت نفسه، وزوجة فينسنت، وكبير المضيفين لوي، وعامل البار كارلو،

والنادل بيلي... كان الجميع يعرف السيد ليفوف، ويسأل عن أحوال الأولاد والآنسات الصغيرات. ثم اتضح لي أنه كان يأتي بأبيه وأمه إلى هذا المكان، عندما كانا حيّين، للاحتفال بذكرى زواجهما أو بأعياد ميلادهما. قلت في نفسي: لا، لقد دعاني إلى هذا المكان حتى يبيّن لي أنه محط إعجاب هنا مثلما كان محط إعجاب في جادة تشانسلر.

فينسنت واحد من تلك المطاعم الإيطالية ذات النمط العتيق في شوارع الناحية الغربية في ميدتاون، بين بلازا وصالة ماديسون سكوير الرياضية؛ تلك المطاعم الصغيرة التي لا يتجاوز عرض الواحد منها أربع طاولات ولا يتجاوز عمقه أربع ثريات؛ ولم يكد يتغيّر شيء في ديكوره وقوائم طعامه منذ ما قبل اكتشاف الجرجير. مباراة كرة في جهاز التلفزيون الموضوع إلى جانب البار الصغير. وأحد الزبائن ينهض من حين لآخر ويذهب فينظر إلى ذلك التلفزيون دقيقة، ثم يسأل عامل البار عن النتيجة ويسأله عن أداء ماتينغلي، ثم يعود إلى طعامه. كانت الكراسي منّجدة بنسيج بلاستيكي تركوازي لامع، وعلى الأرضية بلاط منقّط بلون السلمون. جدار تكسوه مرآة كبيرة، وثريات من النحاس الأصفر الزائف، ومطحنة فلفل حمراء فاقعة، ارتفاعها خمس أقدام موضوعة من أجل الزينة في إحدى الزوايا كأنها تمثال لجياكوميتي (قال السويدي إنها هدية لفينسنت من بلدته في إيطاليا)؛ وفي الزاوية المقابلة - كأنما من أجل موازنة مطحنة الفلفل، كانت زجاجة نبيذ جيربوم أوف بارولو ضخمة منتصبة على قاعدة كأنها تمثال. طاولة عليها كمية كبيرة من مرطبانات صلصة مارينارا الخاصّة بمطعم فينسنت قائمة قبالة وعاء سكاكر النعناع المجانية بعد العشاء، إلى جانب صندوق المحاسبة الذي تديره السيدة فينسنت. كان على قائمة الحلويات تيراميسو ونابوليون والكيك ذو الطبقات، وتارت التفاح، والفراولة المغلّفة بالسكر. وعلى الجدار من خلف طاولتنا، علّقت صور موقّعة مهداة («أطيب التمنيات لفينسنت وآن») من سامي ديفيس جونيور، وجوي ناماث، وليزا مينيللي، وكاي بالارد، وجين كيلي، وجاك كاتر، وفيل ريزوتو، وجيني وجوانا كارسون. بالطبع، كان يجب أن تكون بين تلك الصور واحدة تحمل

توقيع السويدي. وكان من شأنها أن تكون هناك لو أنه ظلّ مستمرًّا في مقاتلة الألمان واليابانيين، ولو أن ويكاهيك العليا كانت على الناحية الأخرى من هذا الشارع.

لم يكن نادلنا، بيلي، (رجلٌ قصيرٌ أصلع، متين البنية، له أنف ملاكم مكسور)، في حاجة إلى السؤال عما يريد السويدي تناوله من طعام. فعلى امتداد أكثر من ثلاثين سنة، كان السويدي يطلب من بيلي الطبق المميز في المطعم، زيتي آلا فينسنت، مع محار بوسيليبو(10). قال لي السويدي: «هذه أفضل زيتي مصنوعة في نيويورك»، لكني طلبت طبقي المفضل التقليدي، الدجاج مع صلصة الطماطم والفطر والأعشاب، «من غير عظام» نزولًا عند اقتراح بيلي. وخلال تسجيله طلباتنا، كان بيلي يخبر السويدي بأن توني بينيت كان عندهم في المساء الفائت.مقارنة ببنية بيلي الجسدية القوية... رجل يمكنك تخيّله يحمل أوزانًا ثقيلة طيلة حياته، وليس أطباق الزيتي... فقد كان صوته تسلية حقيقية غير متوقّعة - صوتًا حادًا مرتفع النبرة جعلته محن طال احتمالها متوترًا بعض الشيء. «هل ترى هذا الكرسي الذي جلس عليه صديقك؟ هذا كرسيه يا سيد ليفوف. لقد جلس توني بينيت على هذا الكرسي». ثم قال لي: «أتعرف ما يقوله توني بينيت عندما يأتي الناس إلى طاولته للسلام عليه؟ يقول: ‘سررت بلقائك’. وأنت الآن جالس في مكانه».

كان من شأن هذا أن يضع نهاية للتسلية: منذ الآن فصاعدًا صار الأمر عملًا!

جلب لنا صور أولاده الثلاثة حتى نراها. ومنذ تقديم المقبّلات وصولًا إلى تناول المحلّيات بعد الطعام، كان الحديث كلّه عن كريس البالغ ثمانية عشر عامًا، وستيف البالغ ستة عشر عامًا، وكنت ذي الأربعة عشر عامًا. واحد متميز في لعبة لاكوس أكثر من تميّزه في البيسبول، لكن مدرّبه يضغط عليه كثيرًا... وواحد بارع في كرة القدم مثلما هو بارع في كرة القدم الأميركية، لكنه غير قادر على حسم أمره واختيار واحدة من الاثنتين. وصبي كان بطلًا للغطس وتمكّن أيضًا من كسر الرقم القياسي لمدرسته في سباحة الفراشة وسباحة الظهر. كل واحد منهم تلميذٌ مجتهدٌ... أعلى الدرجات، أو التي تليها: واحد كان

«مهتمًا» بالعلوم، والآخر أكثر ميلًا إلى «الأمور الاجتماعية»، وأما الثالث... إلخ. كانت لديه صورة للأولاد الثلاثة مع أمّهم، شقراء أربعينية مليحة المظهر، تعمل مديرة إعلان في صحيفة أسبوعية في مقاطعة موريس. كان السويدي سريعًا في الإشارة إلى أنها لم تبدأ حياتها المهنية إلا بعد أن صار أصغر أبنائها في الصف الثاني في المدرسة. كان الأولاد محظوظين بأن لديهم أمًّا تضع البقاء في البيت وتنشئة الأطفال على رأس أولوياتها.

مع نهاية العشاء، صرت متأثّرًا بمدى ما بدا عليه من اطمئنان إلى كل شيء عادي يقوله، وبكم كان كل ما قاله مشبَعًا بطبعه الطيّب. بقيت منتظرًا أن يتكلّم في شيء يتجاوز هذا التباهي الذي لا يمكن للمرء الاعتراض عليه؛ إلا أن ما ارتفع إلى السطح لم يكن إلا مزيد من السطح. قلت في نفسي إنه لا يملك غير «انعدام الطعم» هذا... كان الرجل متلألئًا بانعدام الطعم. لقد ابتكر لنفسه هيئة مستعارة؛ ثم صارت الهيئة المستعارة هو نفسه. ظننت خلال تلك الوجبة أنني لن أكون قادرًا على إتمامها، وأنني لن أصل إلى الحلوى التي بعدها إن ظل ماضيًا في امتداح أسرته والثناء عليها... إلى أن بدأت أشك في أن هذا الذي أمامي ليس هيئة مستعارة، بل رجلٌ مجنونٌ.

لقد ركبه شيء جعله يتوقّف في مكانه. شيء حوّله إلى تفاهة بشرية. شيء حذّره قائلًا: لا يجوز أن تعارض أي شيء!

كان السويدي أكبر مني بست سنوات، أو سبع؛ أي أنه قد قارب السبعين. لكنه ظلّ بديع المظهر على الرغم من الغضون عند عينيه، وعلى الرغم من أن ما تحت وجنتيه الناتئتين كان غائرًا أكثر مما تقتضيه المعايير الكلاسيكية. ظننت أن نحوله ناتج عن نظام غذائي ما، أو عن إكثاره من الجري أو لعب التنس، إلى أن اكتشفت في نهاية الوجبة إلى أنه قد أجرى جراحة البروستات خلال فصل الشتاء، وبدأ الآن يستعيد الوزن الذي فقده. لست أدري أيهما كان أكثر إدهاشًا لي، معاناته مرضًا أم اعترافه بذلك. بل إنني تساءلت عما إذا كانت تلك العملية الجراحية وعقابيلها هي ما غذّى إحساسي بأنني جالس مع شخص غير سليم عقليًا.

قاطعته في لحظة من اللحظات وسألته عن أعماله محاولًا ألا أبدو شديد التوق إلى تغيير وجهة الكلام: كيف صارت إدارة مصنعه في نيوارك هذه الأيام؟ جعلني هذا السؤال أكتشف أن شركة نيوارك ميد قد هجرت نيوارك منذ أوائل السبعينات. والواقع أن تلك الصناعة كلّها قد انتقلت إلى خارج البلاد: جعلت النقابات العمالية تحقيق الصناعيين أرباحًا أمرًا متزايد الصعوبة؛ وصار المرء شبه عاجز عن العثور على أشخاص للعمل بالقطعة، أو لتنفيذ العمل كما يريد تنفيذه. ثم إن في أماكن أخرى وفرة من العمال الذين يمكن تدريبهم بحيث يصلون إلى السويات التي كان يمكن الوصول إليها في قطاع القفازات منذ أربعين أو خمسين عامًا. لقد حافظت عائلته على سير أعمالها في نيوارك زمنًا طويلًا حقًا؛ وذلك انطلاقًا من الإحساس بالواجب تجاه العمال القدامى الذين كان أكثرهم من السود. ظلّ السويدي مستمرًا هناك نحو ست سنوات بعد حوادث الشغب التي جرت سنة 1960. وصمد في وجه الوقائع الاقتصادية التي عمّت ذلك القطاع كلّه، وكذلك في مواجهة شتائم والده، وظل صامدًا قدر ما استطاع. ولما صار غير قادر على إيقاف تآكل قوة العمل التي شهدت تدهورًا ثابتًا مستمرًا منذ الشغب، فقد استسلم وكفَّ عن المحاولة وأفلح في الخروج بأضرار قليلة من ذلك الانهيار الذي أصاب المدينة. اقتصرت خسائر مصنع نيوارك ميد أثناء أيام الشغب الأربعة على بضع نوافذ مكسورة، على الرغم من أن النار التهمت بنايتين صناعيتين على مسافة خمسين ياردة من بوابة منصة التحميل على شارع ويست ماركت، فهجرهما أصحابهما.

«الضرائب، والفساد، والمشكلات العرقية. صلوات أبي وتضرّعه. أي شخص، على الإطلاق... أناس من مختلف أنحاء البلاد ممن لا يبالون أبدًا بمصير نيوارك... لم يكن هذا ليشكل أي فارق بالنسبة إليه. وسواء كان في شقته في ميامي بيتش، أو على متن سفينة سياحية في البحر الكاريبي، فإنه يحدِّث الجميع عن نيوارك القديمة التي يعشقها وقد ذبحتها الضرائب ذبحًا، وذبحها الفساد والمشكلات العرقية. كان أبي واحدًا من رجال شارع برينس أحب المدينة طيلة حياته. لقد حطّم قلبه ما أصاب نيوارك». كان السويدي يقول لي: «إنها أسوأ

مدينة في العالم، يا سكيب. كانت مدينة يصنعون فيها كل شيء. وصارت الآن عاصمة العالم في سرقة السيارات، هل كنت تعرف هذا؟ ليس أسوأ تطوّر يمكن أن يحدث، لكنه يظلّ شديد السوء. يعيش أكثر اللصوص في حيّنا القديم. أطفال سود. أربعون سيارة تسرق في نيوارك كل أربع وعشرين ساعة. هذه هي الإحصائيات. أمر غير قليل، أليس كذلك؟ تلك السيارات المسروقة أسلحة قاتلة... يطيرون بها كالصواريخ بعد سرقتها، وأما الهدف فهو أي شخص يكون في الشارع، أشخاص مسنّون، أطفال صغار، لا يهم. كان الشارع أمام مصنعنا ميدان سباق بالنسبة إليهم. هذا سبب آخر لذهابنا. أربعة أو خمسة أولاد متدلّين من نوافذ سيارة تسير بسرعة ثمانين ميلًا في الساعة في سنترال آفنيو. عندما اشترى أبي ذلك المصنع، كانت عربات الترولي تسير في سنترال آفنيو. وإلى الأمام في ذلك الشارع، كانت معارض السيارات. سنترال كاديلاك. لاسال. وفي كل شارع جانبي، كان هناك مصنع ينتج فيه أحدهم شيئًا ما. وأما الآن، فإن متاجر الكحول في كل مكان، متجر كحول، وكشك لبيع البيتزا، وكنيسة بائسة. وأما ما عدا ذلك، فكلّه خراب، أو مغلق بألواح خشبية. عندما اشترى أبي المصنع، كان على مرمى حجر منه مصنع كيلر لإنتاج الألوان المائية. وكان فورتكانغ يصنع أجهزة إنذار الحريق، ولاسكي يصنع المشدّات النسائية، وروبينز يصنع الوسائد، وهوبينغ يصنع أقلام الحبر... يا إلهي... صرت أتحدث مثل والدي. لكنه كان محقًّا... كان يقول: ‘الحالة في انهيار’. صارت سرقة السيارات المهنة الأولى الآن. اجلس في الشارع في أي مكان في نيوارك، ولا تفعل شيئًا غير أن تنظر حولك. لقد هاجموني عند بيرغن بالقرب من ليونز. هل تتذكّر متجر هنري؟ ‘متجر الحلويات’ الذي كان إلى جانب مسرح بارك؟ حسنًا، هناك تمامًا، حيث كان متجر هنري. أخذتُ أول فتاة أخرج في موعد معها في المدرسة الثانوية لكي نشرب الصودا في الكشك هناك. اسمها آرلين دانزيغر. أخذتها لكي نشرب صودا سوداء وبيضاء بعد السينما. لكن ‘سوداء وبيضاء’ لم تعد تعني صودا في شارع بيرغن. صارت تعني أسوأ أنواع الكراهية في العالم كله. أتت سيارة بعكس اتجاه السير في شارع ذي اتجاه واحد

فصدمتني. أطل أربعة أطفال من نوافذها. نزل اثنان منهم. كانا يضحكان ويطلقان النكات. ثم سددا مسدسًا إلى رأسي، أعطيتهما المفاتيح، فانطلق واحد منهما بسيارتي. تمامًا أمام المكان الذي كان فيه متجر هنري. إنه شيء مخيف. يصدمون سيارات الشرطة في وضح النهار. يصدمونها من الخلف. يفعلون ذلك لكي تنفتح الوسائد الهوائية في السيارة. يسمونها 'كرات العجين'. هل سمعت بكرات العجين؟ ألم تسمع بهذا؟ هذا ما يسرقون السيارات من أجله. ينطلقون بأقصى سرعة، ثم يضغطون على المكابح ويرفعون مكبح اليد ويديرون عجلة القيادة فتبدأ السيارة بالدوران في مكانها. يدورون بالسيارة هكذا وهم منطلقون بسرعة هائلة. لا يعني لهم شيئًا أن يقتلوا السائرين في الشارع. ولا يعني لهم شيئًا أن يقتلوا من يقودون سيارات في الشارع. ولا يعني لهم شيئًا أن يقتلوا أنفسهم. يكفي أن ترى آثار العجلات على الأرض حتى يصيبك الرعب. لقد قتلوا امرأة أمام بيتي في ذلك الأسبوع نفسه الذي سُرقت فيه سيارتي. جعلوا السيارة تدور منزلقة. وكنت شاهدًا على هذا. كنت خارجًا إلى العمل في ذلك اليوم. سرعة هائلة. هدير المحرك. وزعيق مكابح فظيع. كان أمرًا مفزعًا. جعل الدم يجري باردًا في عروقي. كانت تلك المرأة آتية بسيارتها من الشارع رقم اثنين... شابة سوداء... اصطدموا بها. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. وبعد يومين فقط، قتلوا واحدًا من عمالي. كان رجلًا أسود. لكنهم لا يبالون بهذا، أسود، أبيض، لا أهمية للأمر! يمكن أن يقتلوا أي شخص. شخص أعرفه اسمه كلارك تاير. كان يتولّى أمور شحن المنتجات عندي... اصطدموا به عندما كان خارجًا بسيارته من ساحة التحميل لدينا ذاهبًا إلى بيته. عملية جراحية استمرت اثنتي عشرة ساعة؛ ثم أربعة شهور في المستشفى. إعاقة دائمة. إصابات في الرأس؛ وإصابات داخلية، وحوض مكسور، وكتف مكسور، وتشقّقات في العمود الفقري. كانت مطاردة بسرعة كبيرة؛ فتى مجنون في سيارة مسروقة، ومن خلفه رجال الشرطة. اصطدم به الفتى مباشرة فحطم باب السائق. انتهى أمر كلارك. ثمانون ميلًا في الساعة في سنترال آفنيو. كان لص السيارات في الثانية عشرة فقط. وحتى يعلو رأسه فوق عجلة القيادة، كان عليه أن يضع شيئًا تحته

على المقعد. أمضى ستة أشهر في سجن جيمسبرغ، ثم عاد فظهر خلف مقود سيارة مسروقة أخرى. لا... لقد فاض بي الكيل. أنا أيضًا. سُرقت سيارتي تحت تهديد المسدس؛ وصار كلارك مقعَدًا؛ وقتلت تلك المرأة. لقد حسم ذلك الأسبوع الأمر كلّه. كان هذا كافيًا».

صارت أعمال شركة نيوارك ميد الصناعية كلّها تجري في بورتو ريكو. تعاقد السويدي - حينًا من الزمن بعد تركه نيوارك - مع الحكومة الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا، ووزّع العمل بين مصنعه الذي صار في بونسي في بورتو ريكو، ومصنع القفازات التشيكوسلوفاكي في برنو. لكنّ مصنعًا مناسبًا له عُرض للبيع في أغواديلا في بورتو ريكو، بالقرب من نايا غييز، فاشتراه وأنهى علاقته بالتشيكوسلوفاكيين الذين كانت بيروقراطيتهم مزعجة منذ البداية. ثم تمكّن من توحيد أعماله الصناعية عندما اشترى مصنعًا آخر في بورتو ريكو (مصنع كبير الحجم)، ونقل الآلات إليه، وأطلق برنامجًا تدريبيًا للعمال، وعيّن لديه ثلاثمئة شخص إضافي. لكن بورتو ريكو نفسها صارت مرتفعة التكلفة في الثمانينات فتركها الجميع، عدا نيوارك ميد، متجهين إلى الشرق الأقصى حيث القوة العاملة رخيصة وافرة... ذهبوا إلى الفيليبين أول الأمر، ثم إلى كوريا وتايوان. والآن إلى الصين.

وحتى قفازات البيسبول، القفاز الأكثر أميركية على الإطلاق الذي كان يصنعه أصدقاء أبيه منذ زمن بعيد في نيويورك (آل دينكرتس في جونزتاون)، صارت الآن تُصنع في كوريا. عندما ترك أول شخص بلدة كلوفرزفيل بولاية نيويورك في سنة 1952 أو 1953 وذهب إلى الفيليبين ليصنع القفازات هناك، ضحك منه الجميع كما لو أنه ذاهبٌ إلى القمر. لكن ذلك الشخص مات في سنة 1978، وكان لديه هناك أربعة آلاف عامل، وكانت تلك الصناعة بأسرها تقريبًا قد انتقلت من كلوفرزفيل إلى الفيليبين. عند بداية الحرب العالمية الثانية، لا بد أن كلوفرزفيل كانت تضم تسعين مصنعًا للقفازات، مصانع كبيرة ومصانع صغيرة؛ وأما اليوم فليس فيها أي مصنع منها... خرج الجميع من هذا القطاع، أو صار البعض مستوردين من الخارج. قال السويدي: «أشخاص لا يميّزون بين الفرشاة

والإبهام. إنهم رجال أعمال. وهم يعرفون أنهم يريدون مئة ألف زوج من هذا، ومئتي ألف زوج من ذاك، بألوان ومقاسات كثيرة، لكنهم لا يعرفون تفاصيل صنع تلك القفازات كلّها». سألته: «وما الفرشاة؟». أجابني: «إنها ذلك الجزء من القفاز الذي يكون بين الأصابع. تلك القطع المتطاولة الصغيرة بين أصابع القفاز. يجري قصّها بالقالب مع قص القفاز نفسه... تلك هي الفراشي. لكن لديك الآن الكثير من الأشخاص منخفضي التأهيل؛ ولعلّهم لا يعرفون نصف ما كنت أعرفه في الخامسة من عمري؛ لكنهم يتّخذون قرارات كبيرة حقًّا. يشتري شخص جلدًا فاخرًا قد يبلغ ثمن القدم المربعة منه ثماني دولارات وخمسين سنتًا، إذا كان من النوع المستخدم في الملابس. يشتري هذا الجلد الفاخر الممتاز ليقصّ منه وجه قفازات التزلج. تحدّثت معه منذ بضعة أيام فقط. إنه يصنع نوعًا جديدًا من القفازات مساحة الجلد فيه لا تتعدى إنشًا واحدًا مقابل خمسة إنشات من الجلد المستخدم في النوع القديم، لكنه يدفع ثلاثة دولارات وخمسين سنتًا ثمنًا للقدم المربعة نفسها على الرغم من إمكانية الاكتفاء بدفع دولار وخمسين سنتًا، فهذا يوفّر عليه مالًا كثيرًا جدًا. اضرب هذا التوفير بعدد القفازات في طلبية ضخمة وسوف تجد أن ثمن تلك الغلطة قد صار مئة ألف دولار. لكنّه لا يعرف هذا أبدًا. لا يعرف أنه كان قادرًا على وضع مئة ألف دولار في جيبه».

شرح السويدي لي كيف وجد نفسه عالقًا في مهمات العلاقات العامة، مثلما كان عالقًا بسبب العلاقات العامة في نيوارك. وذلك، في أكثره، ناتج عن أنه درّب عددًا كبيرًا من الأشخاص الجيدين حتى يصيروا قادرين على أداء التفاصيل الدقيقة في صناعة القفاز بعناية واهتمام بكل جزء... أشخاص يستطيعون إعطاءه الجودة التي تطلبها نيوارك ميد، تلك الجودة التي كانت على أيام أبيه. لكنه كان مضطرًا إلى الاعتراف أيضًا بأنه ظلّ هناك حتى وقت متأخّر بسبب أسرته التي كانت مستمتعة كثيرًا ببيت العطلات الذي بناه قبل نحو خمسة عشر عامًا على شاطئ البحر الكاريبي غير بعيد جدًا عن مصنعه في بونسي. أحب أطفاله العيش هناك... في تلك اللحظة، انطلق مجددًا في حديثه القديم: كِنت وكريس وستيف، والتزلج على الماء، والغطس، والزوارق الشراعية... وعلى

الرغم من أن كل ما رواه لي كان مؤشّرًا واضحًا على أن هذا الرجل قادر أن يكون صاحب حديث جذّاب إن أراد هو ذلك، فقد بدا لي أنه فاقد أية قدرة على التمييز بين ما هو مثير للاهتمام وما هو غير مثير للاهتمام في عالمه. أو لعله (لأسباب لم أستطع فهمها) لم يرد أن يكون عالمه مثيرًا لاهتمامي. كنت مستعدًا لتقديم أي شيء حتى أجعله يعود للحديث عن كيلر وفورتكانغ ولاسكي وروبنز وهوبينغ، وعن الفراشي والمعلومات التفصيلية الخاصة بصناعة القفاز الجيّد، بل حتى عن ذلك الشخص الذي دفع ثمنًا للقدم المربعة من الجلد ثلاثة دولارات وخمسين سنتًا من أجل ذلك التصميم الجديد... لكني عجزت عن العثور على طريقة متمدّنة تسمح لي بإعادته إلى ذلك بعد أن انطلق في الحديث عن أبنائه، وصرت عاجزًا عن جعل مركز اهتمامه يتحوّل عن إنجازات أولاده البرّية والبحريّة.

وبينما كنا في انتظار الحلوى بعد الطعام، باح لي السويدي بأنه سيدلّل نفسه بأن يطلب حلوى زاباغليوني التي تسبّب السمنة بعد أن تناول الزيتي لأنه لا يزال يريد تعويض عشرة باوندات من وزنه لم يستطع استعادتها حتى بعد مرور شهور على عملية البروستات.

«وهل جرت العملية على ما يرام؟».

«كانت جيدة».

قلت: «لدي صديقان لم تسر تلك العملية عندهما السير الحسن الذي كانا يتوقّعانه. من الممكن أن تكون هذه العملية كارثة بالنسبة إلى الرجل؛ حتى بعد أن يتخلّص من السرطان».

«صحيح. أعرف أن هذا يحدث أحيانًا».

قلت: «أصاب العجز الجنسي واحدًا منهما. وأما الآخر، فأصابه العجز الجنسي وسلَس البول معًا. إنهما شخصان في مثل سني. وقد كان الأمر قاسيًا عليهما. كان مدمّرًا. من الممكن أن تجعلك تلك النتيجة في حاجة دائمة إلى حفاضات».

كنت أنا ذلك الشخص الذي أشرت إليه بكلمة «الآخر». أجريت العملية في بوسطن وباستثناء صديق واحد في بوسطن أطلعته على الأمر بعد أن ساعدني

في تلك المحنة إلى أن وقفت على قدميّ من جديد، فقد عدت إلى البيت الواقع على مسافة ساعتين ونصف الساعة إلى الغرب من بوسطن، في بركشايرز، حيث أعيش وحدي، وقرّرت أن أحتفظ لنفسي بحقيقة أنني كنت مصابًا بالسرطان، وبالإعاقتين اللتين سبّبتهما لي تلك العملية.

قال السويدي: «بالفعل... أظنني عبرت ذلك بكل سهولة».

أجبته بالقدر الكافي من المودّة واللطف: «نعم، هذا صحيح». كنت أفكر في أن هذا الدنّ الكبير من الرضا عن النفس قد حاز حقًّا كل ما أراده. احترام كل ما يفترض أن يحترمه المرء؛ وعدم الاعتراض على أي شيء؛ وألا يضايقه أي قدر من قلة الثقة في النفس؛ وعدم الوقوع أبدًا في حبائل الهواجس وعذاب الضعف وسمّ الضغينة، وتحكّم الغضب... كأن الحياة كانت عند السويدي أشبه بتدحرج كرة منفوشة من خيوط الصوف.

أعادتني هذه الأفكار إلى رسالته، وإلى طلبه مشورة اختصاصية من أجل ذلك الثناء الذي كان يحاول كتابته تحيّة لوالده. لم تكن عندي رغبة في المبادرة إلى طرح الأمر. لكنّي بقيت حائرًا لا لأنه لم يطرحه بنفسه فحسب، بل لأنني لم أفهم السبب الذي جعله يكتب لي عن ذلك أصلًا. لم أستطع (بالنظر إلى ما صرت أعرفه الآن من أن حياته لم تكن غنية كثيرًا بالتعارضات ولا مضطّربة كثيرًا بفعل التناقضات) غير استنتاج أن تلك الرسالة وما جاء فيها كانت نتيجة عمليته الجراحية التي أثارت فيه - بعد حدوثها - شيئًا لم يكن من طباعه... أثارت فيه عاطفة جديدة مفاجئة تقدّمت إلى الواجهة. صحيح... قلت في نفسي... لقد نشأت الرسالة من اكتشاف السويدي ليفوف المتأخّر لمعنى أن يكون المرء مريضًا، غير معافى، ولمعنى أن يكون ضعيفًا، غير قوي؛ اكتشافه معنى ألا يبدو عظيمًا! يا له من عار جسدي، ويا له من خزي، ويا له من شيء بشع... يا له من انقراض! لقد اكتشف كيف يجد المرء نفسه يسأل «لماذا؟». لقد خانه - على غير توقّع - جسد رائع كان على الدوام مصدر اطمئنان له، وشكّل خلاصة تميّزه عن الآخرين: أصابه فقدان مؤقت لتوازنه فتمسّك بي (دونًا عن بقية الناس جميعًا) لأكون وسيلة تمكّنه من مد يديه إلى أبيه المتوفّى والاستنجاد بقوته لكي يحمي

نفسه. تهاوت أعصابه لحظة فتحوّل إلى هذا الرجل الذي اعتاد، على ما أرى، أن يستخدم نفسه لإخفاء نفسه... تحوّل إلى كائن عاجز مندفع تحت وطأة حاجة ملحّة إلى الحماية والعون. لقد انبجس الموت في الحلم الذي هو حياته (مثلما انبجس في حياتي للمرة الثانية خلال عشر سنين)، فما كان من الأشياء التي تقلق الرجال في سننا إلا أن سببت له القلق... حتى للسويدي.

لم أدرِ إن كان لا يزال راغبًا في تذكّر ما عاشه في فراش مرضه من هشاشة وضعف جعلا بعض الأمور التي لا مهرب منها أمورًا حقيقية بالنسبة إليه بقدر ما كان المظهر الخارجي لحياة أسرته حقيقيًا؛ ولم أدرِ إن كان قد تذكّر ذلك الظل الذي أقحم نفسه بين الطبقات الكثيرة لرضاه عن نفسه كما لو أنه حالة من التجمّد الخبيث. لكنه أتى إلى موعد العشاء هذا! فهل أفهم من مجيئه أن تلك الهشاشة لم تنجلِ عنه كلّها، وأن حالة الطوارئ لم تزل قائمة، وأن «حماياته» لم تُستعد كلّها؟ أم إن قدومه اليوم وثرثرته السعيدة عن كل شيء يمكن احتماله كانا أسلوبه الخاص في التخلّص من آخر مخاوفه؟ كلما ازددت تفكيرًا في هذا الذي يبدو روحًا بسيطة، الجالس قبالتي يأكل الزباغليوني وينضح صدقًا، كلما حملتني أفكاري بعيدًا عنه. لم أكن أدرك الرجل داخل الرجل إلا بالكاد. لم أستطع فهمه. لم أستطع أبدًا أن أتخيّله بعد أن صرت متوتّرًا نتيجة هذا الاضطراب الذي اكتشفته فيه: عدم القدرة أبدًا على استنتاج أي شيء غير ما هو خارجي. ليس إجهاد العقل في محاولة فهم هذا الشخص إلا سخفًا... هكذا صرت أقول لنفسي. إنه وعاء لا تستطيع فتحه. لا يمكن حلّ لغز هذا الرجل عن طريق التفكير. هذا هو سر أسراره. يشبه الأمر محاولة فهم شيء من تمثال داوود لمايكل أنجلو!

لقد أعطيته رقم هاتفي في رسالتي الجوابية... فلماذا لم يتّصل ويلغي الموعد إن كان احتمال الموت قد كفّ عن تنغيصه؟ فبعد أن عاد إلى ما كان عليه دائمًا، بعد أن استعاد ذلك التألق المكاني الذي جعله في السابق يفوز بما أراده أبدًا، فأية حاجة له بي؟ لا... قلت في نفسي إن رسالته لا يمكن أن تكون القصة كلّها. لو كانت هي القصّة كلّها، لما جاء. ثمة شيء باقٍ من ذلك الشخص العاجز الذي يتعجّل تغيّر الأمور. لا يزال فيه شيء مما استولى عليه في المستشفى. وجود

غير مؤكّد ما عاد يخدم حاجاته. إنه يريد شيئًا مسجَّلًا. هذا ما جعله يأتي إليَّ: يريد تسجيل ما قد يصير منسيًّا إن لم يُسجَّل... يحذف ويغيب عن الذاكرة. فماذا يمكن لذلك الشيء أن يكون؟

أو لعله رجل سعيد فحسب! إن الناس السعداء موجودون أيضًا! ولماذا لا يكونون موجودين؟ لم تكن تلك التخمينات العشوائية كلّها لدوافع السويدي إلا نتيجة نفاد صبري المهني ومحاولتي أن أسبغ على السويدي ليفوف شيئًا يشبه المعنى الذي حاول تولستوي إسباغه على إيفان إيليتش(11) الذي أفرط الكاتب في التقليل من شأنه عبر تلك القصّة قليلة التسامح التي بسطها ليكشف (بقسوة قلب، وبتعابير طبية) عن معنى أن يكون المرء عاديًا. شغل إيفان إيليتش وظيفة حسنة في المحكمة العليا وعاش «حياة لائقة يقرّها المجتمع». لكنه راح يفكّر، وهو على فراش الموت في أعماق خوفه وعذابه المستمرّين، «لعلّي لم أعش مثلما كان يجب أن أعيش». في مطلع الرواية، كتب تولستوي، ملخِّصًا أن حياة إيفان إيليتش ورأيه في رئيس المحكمة صاحب البيت الجميل في سان بيترسبورغ والدخل الكبير الذي يبلغ ثلاثة آلاف روبل في السنة والأصدقاء الكثر من ذوي المراكز الاجتماعية المرموقة، كانت هي الأكثر بساطة والأكثر عادية، وبالتالي فقد كانت الأكثر هولًا. لعل الأمر هكذا! لعل الأمر كان هكذا في روسيا سنة 1886. وأما في أولد ريمروك، نيوجرسي، في سنة 1995، عندما يتدفّق أمثال إيفان إيليتش عائدين إلى مطعم النادي لتناول الغداء بعد جولة صباحية من الغولف، ويبدأون نعيبهم «لا أحصل على ما هو أفضل من هذا»، فلعلّهم يكونون أقرب كثيرًا إلى الحقيقة مما كانه ليو تولستوي.

بحسب معرفتي، كانت حياة السويدي ليفوف هي الأكثر بساطة والأكثر عادية، وبالتالي الأكثر عظمة... كانت حياة من النوع الأميركي تمامًا.

سألته فجأة: «هل كان جيري مثليًّا؟».

ضحك السويدي: «هل تسأل عن أخي؟ أنت تمزح!».

لعلّي كنت مازحًا. ولعلّي طرحت ذلك السؤال من باب التشاقي حتى أخفف من وقع الضجر. لكني كنت أتذكّر تلك العبارة التي كتبها السويدي في رسالته عندما

حدّثني عن أبيه وقال إنه كان «يعاني نتيجة الصدمات التي نزلت بمن يحبهم»، مما قادني إلى التساؤل من جديد عما كان يلمِّح إليه، فذكّرني هذا بدوره بما جلبه جيري على نفسه من خزي خلال سنتنا الأولى في مدرستنا الثانوية، عندما حاول أن يفوز بقلب فتاة في صفّنا مفتقرة افتقارًا مدهشًا إلى أي شيء متميّز يمكن أن يجعل المرء يفكّر في القيام بأمر استثنائي حتى يجعلها تقبّله.

صنع لها جيري هديّة بمناسبة الفالنتاين. وكانت الهدية معطفًا من جلود الهامستر؛ جلود مئة وخمسة وسبعين هامستر جففها في الشمس ثم خاطها معًا بإبرة معقوفة سرقها من مصنع والده عندما خطرت في ذهنه تلك الفكرة. تلقّى قسم البيولوجيا في المدرسة الثانوية منحة من ثلاثمئة هامستر بغية الاستفادة منها في دروس التشريح، فبذل جيري كل جهده وجمعها كلّها من طلبة البيولوجيا. وقد تعاونت عبقريته وغرابته في جعلهم يصدّقون القصّة التي قالها لهم: تجربة علمية يجريها في البيت. تمكّن بعد ذلك من معرفة مقاسات الفتاة، فصمّم نموذج المعطف، ثم انتظر إلى أن زال القسم الأكبر من الرائحة البشعة من الجلود (أو ظنّه زال) بعد تجفيفها في الشمس فوق سطح مرأب بيتهم، وخاطها بعناية معًا. وبعد ذلك، وضع للمعطف بطانة حريرية قصّها من مظلّة بيضاء أرسلها السويدي إليه تذكارًا من القاعدة الجوية لمشاة البحرية في تشيربوينت في نورث كارولاينا (كانت مظلّة فيها عيب جعلهم يتخلّون عنها)، وذلك حين فاز فريق باريس آيلاند في المباراة الأخيرة في موسم بطولة البيسبول التي تقام بين وحدات مشاة البحرية. وكنت أنا، المستضعف في كرة الطاولة، الشخص الوحيد الذي أخبره جيري بأمر ذلك المعطف. أراد إرسال المعطف إلى الفتاة في علبة فاخرة من متجر بامبرغر كانت عند أمه بعد أن يغلّفها بورق بلون الخزامى ويربطها بشريط بنفسجي. لكن المعطف كان شديد القساوة عند انتهائه (نتيجة طريقته الغبية في تجفيف الجلود بحسب ما شرحه له والده بعد ذلك) فلم يستطع طيّه ووضعه في العلبة.

كنت جالسًا قبالة السويدي في مطعم فينسنت، فتذكّرت فجأة رؤيتي ذلك المعطف في القبو: شيء ضخم ذو كُمّين قابع على الأرض. قلت في نفسي إن

من الممكن أن يفوز المعطف بمختلف الجوائز في متحف ويتني؛ لكن أحدًا في نيوارك، سنة 1949، ما كان يعرف شيئًا عن عظمة الفن! أجهدنا عقلينا، أنا وجيري، في محاولة العثور على طريقة لإدخال المعطف في تلك العلبة. لقد كان مصمِّمًا على وضعه تلك العلبة لأن الفتاة ستظن، عندما تبدأ فتحها، أن فيها معطفًا ثمينًا من متجر بامبرغر. وأما أنا فكنت أفكّر في ما قد تظنّه الفتاة عندما ترى أن ما في العلبة مخالف لتوقّعها. وكنت أفكّر في أن الفوز بانتباه فتاة من غير صديق لها جسد ممتلئ وجلد غير نضر، ليس أمرًا في حاجة إلى ذلك العمل الشاق كلّه. لكنّي تعاونت مع جيري لأنه كان ذا شخصية أشبه بالدوامة: إما أن تفرَّ منها أو تستسلم لها... فقد كان شقيق السويدي ليفوف؛ وكنا في بيت السويدي ليفوف الذي ترى فيه أينما نظرت تلك الكؤوس التي فاز بها. وفي آخر المطاف، فكك جيري المعطف كله وأعاد تركيبه بحيث تصير خطوط الخياطة مستقيمة عند الصدر فتكون موضعًا صالحًا لطي المعطف حتى يصير وضعه في العلبة أمرًا ممكنًا. لقد ساعدته؛ وكان ذلك أشبه بخياطة درع حربية. وضع جيري فوق المعطف قلبًا قصّه من الورق المقوّى وكتب عليه اسمه بحروف مزخرفة. ثم أرسل إليها العلبة بالبريد. اقتضاه الأمر عمل ثلاثة شهور حتى يحوّل فكرة غير مألوفة إلى حقيقة مجنونة. إنها فترة وجيزة وفق المعايير البشرية!

صرخت الفتاة فزعة عندما فتحت العلبة. قالت صديقاتها: «إن نوبة قد أصابتها». أصيب والد جيري بنوبة أيضًا: «أهذا ما تفعله بالمظلة التي أرسلها إليك أخوك؟ تقص المظلة! تقص المظلة وتتلفها!» كان إحساس جيري بالمهانة أكبر من أن يسمح له بالاعتراف بأنه فعل ذلك حتى يجعل إحدى الفتيات ترتمي بين ذراعيه وتقبّله مثلما تقبل لانا تيرنر كلارك غيبل. شاءت المصادفة أن أكون في بيته عندما راح والده يوبّخه لأنه جفف الجلود تحت أشعة الشمس: «تنبغي معالجة الجلد معالجة صحيحة... معالجة صحيحة. والمعالجة الصحيحة لا تكون في وضعه في الشمس. عليك أن تضعه في الظل. ألا تفهم أنه لا يجوز ترك الشمس تحرق الجلد. هل أستطيع تعليمك مرة واحدة، تعليمك يا جيروم كيف

تعالج الجلود». ثم شرع يعلّمه ذلك على الفور. كان شديد الغضب أول الأمر شبه عاجز عن كظم غيظه إزاء عجز ابنه، ابنه هو، وجهله في ما يتعلّق بالجلود... راح يشرح لنا معًا ما علّموا بائعي جلود الأغنام في إثيوبيا فعله بتلك الجلود قبل شحنها إلى شركة نيوارك ميد لكي ترسلها إلى المدبغة... «من الممكن تمليح الجلد؛ لكن الملح باهظ الثمن. في أفريقيا خاصّة! إنه باهظ الثمن كثيرًا! ثم إنهم يسرقون الملح هناك. لا يستطيع أولئك الناس الحصول على الملح. عليك أن تضع في الملح سمًا حتى لا يسرقونه هناك. الطريقة الأخرى لمعالجة الجلد. هنالك طرق متعددة. إما أن تفرده على لوح، أو تثبته على إطار. عليك تثبيته. ثم تحدث فيه شقوقًا صغيرة وتثبّته وتجفّفه في الظل. في الظل يا أولاد! هذا ما نسمّيه جلدًا مجففًا بمسحوق الصوان. انثر عليه شيئًا من مسحوق الصوان. فهو يقيه من الفساد ويمنع الحشرات من التغلغل فيه...». ارتحت كثيرًا عندما أخلى غضبه الميدان، بسرعة مدهشة، لهجوم تعليمي تربوي صبور، دؤوب، بدا لي أنه كان أكثر تعذيبًا لجيري حتى من تعرّضه لغضب أبيه المباشر. من الممكن تمامًا أن يكون جيري قد أقسم لنفسه، في ذلك اليوم تحديدًا، على أنه لن يقترب من عمل أبيه أبدًا.

كان جيري قد ضمّخ المعطف بعطر أمه حتى يتخلّص من رائحة الجلود البشعة. لكن الرائحة صارت أكثر قوة مما كانت بعد الزمن الذي استغرقه ساعي البريد لإيصال الطرد إلى الفتاة التي صدمت عندما فتحت العلبة وأحست بقدر كبير من الخوف ومن الإهانة، فلم تتكلّم مع جيري بعد ذلك أبدًا. تحدّثت بقية الفتيات عن اعتقادها بأن جيري قد ذهب واصطاد تلك الحيوانات الصغيرة كلّها وقتلها، ثم أرسلها إليها قاصدًا السخرية من جلدها غير المعافى. غضب جيري كثيرًا عندما بلغه هذا. وخلال لعبة كرة الطاولة التالية التي جرت بيننا، راح يلعن الفتاة ويتّهم الفتيات جميعًا بالغباء الشديد. إن كان لم يمتلك من قبل تلك الحادثة الجرأة اللازمة لدعوة أية فتاة إلى موعد، فإنه لم يحاول فعل ذلك بعدها؛ بل إنه كان واحدًا من الأولاد الثلاثة الذين لم يأتوا إلى حفلة التخرج في المدرسة. كان الاثنان الآخران من أولئك الذين نعتبرهم «مخنّثين»؛ وهذا ما

جعلني أطرح على السويدي الآن ذلك السؤال عن جيري... سؤال ما كان أبدًا أن أحلم بطرحه سنة 1949 عندما لم تكن لدي أي فكرة عن معنى المثلية، ولم أكن قادرًا على تخيّل أن أي شخص أعرفه يمكن أن يكون مثليًا. في ذلك الوقت، كنت أرى أن جيري هو جيري فحسب؛ جيري العبقري صاحب السذاجة المهووسة والبراءة الهائلة في كل ما يتعلق بالفتيات. كان هذا كافيًا لتفسير الأمر كله في تلك الأيام. ولعله لا يزال كافيًا الآن. لكني كنت أبحث حقًا عن شيء يمكّنني من رؤية ما يستطيع تكدير براءة هذا السويدي الملكي - إن كان هنالك شيء يستطيع تكدير براءته - وكذلك كنت أريد منع نفسي من أن أكون فظًا فأغفو وأنا جالس معه. وهكذا فقد سألته: «هل كان جيري مثليًا؟».

قلت له: «لقد كان في جيري دائمًا شيء غامض عندما كان طفلًا. لا فتيات أبدًا، ولا أي أصدقاء مقرّبين! كان فيه دائمًا شيء يعزله عن الآخرين؛ شيء أكثر من ذكائه...».

أومأ السويدي برأسه ناظرًا إليَّ كما لو أنه مدرك أعمق معاني كلامي مثلما لم يدركها أحد من قبل. ونتيجة نظرته المتمعّنة التي كنت مستعدًا لأن أقسم على أنها لم تكن ترى شيئًا - ذلك الإعطاء كلّه الذي لا يعطي شيئًا ولا يبوح بشيء - لم تكن لديَّ أية فكرة عما يمكن أن تكونه أفكاره أو حتى عما إذا كانت لديه أية «أفكار». عندما توقّفت عن الكلام، أحسست للحظة بأن كلماتي لا تتلقّفها شبكة إدراك الشخص الآخر الذي أمامي، بل تمضي إلى اللاشيء الذي في دماغه، تمضي هناك ثم تختفي. بدأ يضايقني شيء في عينيه المسالمتين - ذلك الوعد الذي تقدّمانه بأنهما لا يمكن أبدًا أن تفعلا شيئًا غير ما هو صائب - لا بد أن هذا ما جعلني أتطرق إلى رسالته بدلًا من احتفاظي بأفكاري لنفسي إلى أن تأتي الفاتورة فأصير قادرًا على الذهاب والابتعاد خمسين عامًا أخرى فلا أتطلع إلى لقائه من جديد قبل أن تأتي سنة 2045.

إنك تكافح سطحيّتك، وتكافح ضحالتك، حتى تحاول ألّا تأتي إلى الناس بتوقّعات غير حقيقية، حتى لا تأتيهم محملًا بأفكار مسبقة أو بآمال أو بتعالٍ فتكون حركتك في اتجاههم أبعد ما يكون عن حركة دبابة تتقدّم إليهم... حتى تكون من

غير مدفع ومن غير رشاشات، وحتى لا تحرث الأرض حرثًا. تأتي إليهم مسالمًا سائرًا على أصابع قدميك بدلًا من أن تمزّق الأرض من تحتك تمزيقًا بجنزير معدني ثقيل... تتقدّم إليهم بعقل منفتح، على قدم المساواة... رجل لرجل، مثلما اعتدنا أن نقول؛ لكنك تسيء فهمهم على الرغم من ذلك كله. وقد يكون لك أيضًا «عقل دبابة» فتسيء فهمهم قبل أن تلتقيهم. تسيء فهمهم وأنت تترقّب لقاءهم، وتسيء فهمهم وأنت معهم. ثم تذهب وتخبر شخصًا ما بذلك اللقاء وتجد أنك تسيء فهمهم من جديد. وبما أن هذا - بشكل عام - ما يجري معهم أيضًا، فإن الأمر كلّه يصير وهمًا مدوّخًا حقًّا، خاليًا من أي فهم... مهزلة مدهشة من عدم الفهم. لكن... ماذا يمكن أن نفعل إزاء هذه العلاقة عميقة المغزى بالناس الآخرين؟... العلاقة التي تنزف المغزى الذي نظنّه فيها وتتّخذ مغزى آخر، مغزى غريبًا مثيرًا للسخرية... هل نحن مفتقرون هذا الافتقار كلّه إلى ما يسمح لنا بتصوّر ما يعتمل في داخل عقول الآخرين وبرؤية مراميهم الخفية؟ فهل يذهب كل منا مبتعدًا عن الآخر فيغلق الباب على نفسه ويجلس مثلما يفعل الكتاب المتوحِّدون؟... يجلسون في زنزانة كتيمة الصوت ويستدعون الناس من الكلمات، ثم يزعمون أن أناس الكلمات أولئك أقرب إلى الشيء الحقيقي من الناس الحقيقيين الذين نشوّههم بجهلنا كل يوم؟ لكن الحقيقة تظلّ هي أن فهم الناس على الوجه الصحيح ليس هو معنى العيش أصلًا. العيش هو أن نفهم الناس فهمًا خاطئًا؛ أن نفهمهم فهمًا خاطئًا، ثم خاطئًا، ثم خاطئًا، ثم نتمعن في الأمر مليًا ونفهمهم فهمًا خاطئًا من جديد. هكذا نعرف أننا أحياء: إننا مخطئون! لعل أحسن شيء هو أن ننسى ما هو خاطئ أو ما هو صائب في ما يتعلّق بالناس ونمضي في طريقنا من غير توقّف. لكنك، إن كنت قادرًا على فعل ذلك... فأنت محظوظ!

«عندما كتبت لي عن أبيك، وعن الصدمات التي عاناها، خطر في ذهني أن جيري يمكن أن يكون هو صدمته. لم يكن والدك ليرحّب أكثر من أبي بأن يكون لديه ابن شاذ».

ابتسم السويدي تلك الابتسامة التي ترفض أن تكون متعالية، الابتسامة التي كان

المقصود منها طمأنتي إلى أن ما من شيء فيه أبدًا يمكن أن يقاومني... ابتسامة تبعث إليَّ بإشارة مفادها أنه - على الرغم من سموّه كلّه - ليس أفضل مني... بل إنه يكاد يكون لا شيء إلى جانبي: «حسنًا، من حسن حظ أبي أنه لم يكن مضطرًّا إلى هذا. لقد كان جيري الابن الذي صار طبيبًا. وما كان يمكن لأبي أن يكون فخورًا بأحد إلى حد يقارب فخره بجيري».

«هل صار جيري طبيبًا؟».

«إنه في ميامي. جرّاح قلب. مليون دولار في السنة».

«وهل قلت إنه تزوج؟ جيري، تزوج؟».

تلك الابتسامة من جديد. كانت الهشاشة في تلك الابتسامة عنصرًا مفاجئًا - هشاشة الرياضي صاحب العضلات محطم الأرقام القياسية الذي واجه كل القسوة التي لا بد من مواجهتها حتى يظلَّ على قيد الحياة. ابتسامة ترفض الاعتراف بالعناد المتوحّش الذي لا بد منه للرجل حتى يعيش سبعين عامًا. كما لو أن أي شخص تجاوز العاشرة من العمر يصدّق أنك قادر على أن تُخضِعَ بابتسامة، حتى إن كانت ابتسامة لطيفة دافئة، تلك الأشياء كلّها التي تنقضّ عليك... أن تضبطها كلها معًا بابتسامة عندما تمتدّ الذراع القوية لكل ما هو غير متوقّع فتنهال على رأسك. بدأت أفكِّر من جديد في أنه قد يكون غير سليمٍ من الناحية العقليّة، وأن تلك الابتسامة قد تكون مؤشِّرًا على اضطراب حالته. ما كان فيها أي خجل... هذا أسوأ ما في الأمر! لم تكن ابتسامة غير صادقة، ولم يكن يتصنّع شيئًا على الإطلاق. هذا هو الكاريكاتير الذي توصّل إليه، توصّلًا عفويًا، بعد عمر قضاه في جعل نفسه يتعمّق أكثر فأكثر في... في ماذا؟ فكرة نجوميّته في الحي! كانت فكرة نجوميّته في الحيِّ تكلّله كلّه... فهل هي ما حنّط السويدي وجعله يظل ولدًا إلى الأبد؟ كان كما لو أنه قد ألغى من عالمه ما لا يناسبه... لم يلغِ السخرية والعنف والخداع والقسوة فقط، بل كل شيء فيه خشونة، أي احتمال للخطر، وأي نذير مفزع بالعجز. لم يتوقّف لحظة عن محاولة جعل علاقته بي تبدو بسيطة صادقة مثلما تبدو علاقته بنفسه.

إلا إذا... إلا إذا كان مجرّد رجل ناضج، مجرّد رجل مخادع مثله مثل أي رجل

ناضج آخر. إلا إذا كان ما أيقظتْه فيه جراحة استئصال البروستات - وما أفلح، مؤقتًا، في اختراق أسلوبه المرتاح الذي رافقه طيلة حياته - لم يختفِ تمامًا بعد شفائه التامّ. إلا إذا لم يكن شخصية من غير شخصية يكشف عنها، بل شخصية من غير شخصية يريد الكشف عنها... مجرّد رجل فهيم يدرك أنك إذا كنت شديد الاهتمام بخصوصيتك وحسن حال من تحبّهم، فإن روائيًا (مثلي) سيكون آخر شخص يمكن أن تضع ثقتك فيه. فبدلًا من أن تمنح روائيًّا قصة حياتك، عليك أن تمنحه رفضًا مباشرًا صفيقًا تحمله ابتسامة لامعة، وأن تجعل تلك الابتسامة بالغة اللطف تصعقه وتجمِّده تجميدًا، ثم تمسح عن فمك بقايا حلوى الزباغليوني وتعود إلى بيتك في أولد ريمروك في نيوجرسي حيث حياتك التي هي من شأنك أنت، لا من شأنه.

قال السويدي مبتسمًا: «لقد تزوّج جيري أربع مرات، رقم قياسي في العائلة».

«وماذا عنك؟».

كنت قد استنتجت من أعمار أولاده الثلاثة أن من المحتمل أن تكون تلك الشقراء الأربعينية، زوجته الثانية، بل ربما الثالثة. إلا أن فكرة الطلاق لم تكن متناسبة مع الصورة التي عندي عن شخص يرفض إلى هذا الحد ملاحظة العناصر غير العقلانية في هذه الحياة. إن كان مطلّقًا، فلا بد أن تكون ملكة جمال نيوجرسي هي من طلّقته، أو لعلها ماتت، أو يمكن أن يكون زواجها من شخص شديد الحرص على كمال إنجازاته، من شخص كرّس قلبه وروحه لوهم الاستقرار، قد دفعها إلى الانتحار. لعل تلك هي الصدمة التي نزلت بهم... الغريب أن محاولاتي الرامية إلى العثور على ذلك الجزء المفقود الذي سيجعل السويدي كاملًا منسجمًا قد ظلّت مصرّة على أن تكتشف فيه ذلك الخلل الذي لا أثر له على وجهه المثالي الجميل الشائخ. لم أكن قادرًا على الجزم بما إذا كان هذا الخواء الذي فيه أشبه بثلج يغطي شيئًا ما أو بثلج يغطي لا شيء.

«أنا؟ زوجتان. هذا هو حدّي. أنا شخص شديد الاقتصاد بالمقارنة مع أخي. زوجته الثالثة في الثلاثينات، أي في نصف سنّه. جيري هو الطبيب الذي يتزوّج الممرضة. كانت زوجاته الأربع كلّهنّ ممرّضات. وهن يعبدن الأرض التي

يمشي عليها د. ليفوف. أربع زوجات، وستة أطفال. هذا ما جعل أبي يفقد صوابه بعض الشيء. لكن جيري رجل كبير، رجل فظ... إنه الجراح الكبير العظيم الذي ينقاد له المستشفى كلّه. وهذا ما جعل أبي يستسلم. كان مضطرًا للاستسلام حتى لا يخسره. كان أخي الصغير يعرف ما يفعله. وكان أبي يصرخ ويغضب عند كل طلاق ويجد نفسه راغبًا في إطلاق النار على جيري مئة مرة. لكن جيري سرعان ما يتزوّج مرة أخرى، فتبدو الزوجة الجديدة في عين

- 1 -

السويدي! خلال سنوات الحرب، عندما كنت لا أزال تلميذًا في المدرسة الابتدائية، كان هذا الاسم سحريًا في حيّنا في مدينة نيوارك. كان سحريًا حتى لدى الكبار الذين رُحِّلوا، منذ جيل واحد فقط، من غيتو اليهود القديم في شارع برينس، ولمّا تكتمل أمركتُهم بعد إلى الحد الذي يجعلهم مسحورين بمهارة رياضي في المدرسة الثانوية. كان الاسم سحريًا؛ وكذلك كان الوجه الغريب. من بين الطلبة القلائل أصحاب البشرة الشقراء في مدرستنا العمومية الثانوية التي يغلب فيها اليهود، لم يكن لأحد ما يشبه - ولو من بعيد - قناع الفايكينغ البارد ذا العينين الزرقاوين والحنك المائل الذي كانهُ وجه هذا الفتى المولود في «عشيرتنا» باسم سايمور إرفينغ ليفوف.

كان السويدي متألّقًا في موقع الظهير في كرة القدم (الركبي)، وفي موقع لاعب الوسط في كرة السلة، وكذلك في موقع رجل القاعدة الأولى في البيسبول. إلا أن فريق البيسبول خاصّةً كان جيّدًا على الدوام - فاز ببطولة المدينة مرتين عندما كان السويدي مسجل الأهداف الأول فيه. لكن، وعلى الرغم من تميّز السويدي في هذه الألعاب كلِّها، فإن مصير فرق مدرستنا الرياضية ما كان أمرًا كبير الأهمية في أعين مجموع الطلاب، الذين كانت أكثرية أهلهم قليلة التعليم يرهقها ثقل العمل، وكانت تضع التفوّق الدراسي قبل أي اعتبار آخر. لم يكن الاستعداد للعنف والعدوانية الجسدية مصدرًا معتادًا للمسرّة في مجتمعنا، حتى عندما تستره الملابس الرياضية والقواعد الرسمية، وحتى عندما لا يكون مضمَرًا فيه أي أذًى لليهود... الدرجات المدرسية المتقدّمة هي ما كان كذلك! على الرغم من هذا،

فقد بدأ حيًّنا، من خلال السويدي، يحمل خيالات عن نفسه وعن العالم، كانت هي نفسها خيالات مشجعي الألعاب الرياضة في أي مكان: أي على نحو يكاد يماثل ما هو عند غير اليهود (كما كانت جماعتنا تتخيّل غير اليهود). صار أهلنا قادرين على نسيان كيف تجري الأمور في العالم الحقيقي، وعلى جعل الأداء الرياضي معقد آمالهم كلِّها. وقبل كل شئ، صاروا قادرين على نسيان الحرب.

أظن أن الحرب ضد الألمان واليابانيين، وما أثارته من مخاوف، هي أفضل تفسير لعلو شأن السويدي ليفوف، إلى مصاف الآلهة لدى يهود ناحية ويكاهيك. على سطح الحياة منعدم المعنى، وفّر ظهور هذا السويدي الذي لا يُقهر في الملاعب نوعًا من التغذية الوهمية الغريبة لأولئك الذين كانوا يعيشون خوف عدم التمكّن من رؤية الأبناء والآباء والأزواج من جديد، فوجدوا في براءة السويدي انعتاقًا بهيجًا من همومهم.

فكيف كان أثر هذا عليه... كيف كان التمجيد والتقديس اللذان كانا يقابلان كل رمية بارعة من رمياته، وكل تمريرة يثِب فيلتقطها، وكل هجمة يطلقها من الجناح الأيسر في الملعب فيحرز نقطة مضاعفة؟ أهذا ما جعله ذلك الفتى الرزين ذا الوجه الحجري؟ أم إن اعتداله الموحي بالنضج كان مظهرًا خارجيًا لصراع داخلي مرير يخوضه حتى يضبط نرجسيته التي أسرف مجتمعنا الصغير كله في إظهار حبّه لها؟ كان لدى فريق المشجعات في المدرسة الثانوية هتاف خاص بالسويدي. وخلافًا لبقية الهتافات الرامية إلى تشجيع الفريق كله، أو إلى إثارة الحماسة في نفوس المتفرّجين، كان ذلك الهتاف تحيّة إيقاعية نشطة مُوقّعة بالأقدام موجّهة إلى السويدي وحده... حماسة ظاهرة لكماله الذي لا تشوبه شائبة ولا يكسفه شيء. كان ذلك الهتاف يهز الصالة الرياضية هزًا أثناء مباريات كرة السلّة كلما انطلق السويدي في هجمة مرتدّة، أو كلما سجّل نقطة؛ وينداح هديرًا في ناحيتنا من ملعب المدينة في مباريات كرة القدم كلما أحرز السويدي تقدّمًا، أو كلما نجح في اعتراض تمريرة من تمريرات الفريق الخصم. وحتى في مباريات البيسبول في منتزه إرفنغتون حيث يكون جمهور المتفرجين قليل العدد، وحيث لا جود لفرقة المشجعات المتحمّسات الراكعات عند حافّة

الملعب، كان يمكن للمرء سماع ذلك الهتاف نفسه منطلقًا - منخفض الصوت - من حفنة من شجعان ويكاهيك الجالسين على المدرّجات الخشبيّة، لا عندما يقذف السويدي الكرة بمضربه فحسب، بل حتى عندما لا يفعل شيئًا غير الجري الروتيني في اتجاه القاعدة الأولى. كان ذلك هتافًا مؤلّفًا من ثمانية مقاطع صوتية، ثلاثة منها اسمه. وكان ينطلق هكذا... «باه باه باه! باه باه باه... باه - فراا». كان إيقاع الهتاف يتسارع مع كل تكرار، في مباريات كرة القدم خاصة، ثم يبلغ ذروته المجنونة المولّهة... انفجارٌ من تنورات المشجّعات القصيرة المتطايرة كأنها فرقعة ألعاب نارية تنطلق أمام عيوننا المعجَبة... إعجابٌ لا بكَ ولا بي، بل بالسويدي الرائع وحده. «السويدي ليفوف... كأنك تقول حُب! السويدي ليفوف... كأنك تقول حُب! السويدي ليفوف... كأنك تقول حُب!»(1).

نعم... كان الناس غارقين في حب السويدي أينما ذهب. وأما نحن، بقية الأولاد، فكنا مصدر إزعاج لأصحاب محل السكاكر الذين كانوا لا يخاطبوننا إلا بعبارات من قبيل «أنت... لا!»؛ أو «كف عن هذا يا ولد!»؛ لكنهم لا يتوجّهون إليه إلا باحترام فيقولون «السويدي». كان الآباء والأمهات يبتسمون له ويخاطبونه باسمه «سايمور». وكانت البنات اللواتي يمر بهن في الشارع وهن يثرثرن في ما بينهنّ تتظاهرن بأن ذهولًا أصابهنّ، وتصيح في إثره أكثرهنّ جرأة: «عد إليّ، عد إليّ يا ليفوف حياتي»(2). كان هذا يعجبه فيسير في الحي مستحوذًا على ذلك الحب كلِّه متظاهرًا بأنه لا يشعر بشيء منه. وخلافًا لأية أحلام يقظة قد تكون لدى بقيتنا بشأن الأثر المحفّز لذلك التَّولّه الكلّي الأعمى غير النقدي، بدا كما لو أن الحب الذي يغدقه الناس على السويدي كان يجرده من الإحساس. فهذا الفتى... الذي جعله أناس كثيرون رمزًا للأمل، كما لو أنه تجسيد للقوة والتصميم والبسالة الجريئة، التي لا بد منها كلّها لكي يعود مقاتلونا سالمين من جبهات المعارك في ميدواي وساليرنو وتشيربور وجزر سولومون وآلوتشيان وتاراوا... هذا الفتى، لم يكن يبدو أن لديه قطرة واحدة من تعالٍ أو إعجاب بالنفس يمكن أن تفسد موهبته الذهبية في أن يكون شخصًا مسؤولًا.

لكنَّ التعالي والإعجاب بالنفس شيئان أشبه بعقبة لا تستطيع أن تعترض طريق

فتى كالسويدي؛ فالتعالي أسلوب بشري لمواساة النفس، ولا محل له إن كان المرء يسير مسار الآلهة! فإما أنَّه كان يكبت جانبًا كاملًا من شخصيته ويخفيه، أو أن ذلك الجانب كان لا يزال نائمًا عنده... أو - وهذا أقوى احتمالًا - أنّ ما من جانب آخر فيه! تحفُّظه وما يبدو عليه من سلبية إزاء كونه موضوع تلك الرغبة الجنسية كلها، كانا يجعلانه يبدو نوعًا متميزًا من البشر، إن لم يكن قدسيًّا، أعلى من أولئك البشر البدائيين، الذين هم كل شخص غيره في المدرسة. كان مقيدًا إلى التاريخ؛ كان أداة للتاريخ؛ وكان يحظى بإجلالٍ مُحبٍّ لعلّه ما كان ليحظى به لولا أنه حطم الرقم القياسي لويكاهيك في كرة السلة - سجل سبعًا وعشرين نقطة في مواجهة فريق بارينغر - في ذلك اليوم الحزين، اليوم الحزين نفسه من سنة 1943، عندما أسقطت مقاتلات القوة الجوية الألمانية ثمانيَ وخمسين «قلعة طائرة»، ثم سقطت اثنتان بنار المدفعية المضادة للطائرات، وتحطّمت خمس طائرات غيرها بعد اجتياز الساحل البريطاني في طريق عودتها من حملة قصف جوي فوق ألمانيا.

كان جيري ليفوف، شقيق السويدي الأصغر، زميلي في الصف. كان نحيلًا صغير الرأس فائق المرونة إلى حدٍّ غريب له بنية أشبه بعود من نبات العرقسوس. كان أيضًا ساحرًا في الرياضيات. وصار أول المتفوّقين في كانون الثاني من سنة 1950. وعلى الرغم من أن جيري، بأسلوبه المتعجرف سريع الغضب، لم يرتبط بصداقة مع أي شخص، فقد ظهر لديه اهتمام بي على مرّ السنين. وهذا هو السبب الذي جعله يسحقني دائمًا في لعبة كرة الطاولة - منذ أن كنت في العاشرة من العمر - في ذلك القبو «المنتهي» في بيت أسرة ليفوف الذي كان منزلًا تسكنه أسرة واحدة على زاوية شارعي «وايند مور» و«كير»... تعني كلمة «منتهي» أن جدران ذلك القبو كانت مكسوة بألواح من خشب الصنوبر ذي العِقَد، وأنه كان قبوًا مأهولًا، وليس كما كان يبدو أن جيري قد فهم الأمر: مكان مثالي لكي «يُنهي» طفلًا آخر.

كانت عدوانية جيري المتفجّرة في لعبة كرة الطاولة أكبر مما لدى أخيه في أيّة لعبة رياضية. إن الكرة في هذه اللعبة مصمَّمة على نحو ذكي بحيث لا يسمح

شكلها وحجمها باقتلاع العين. لولا هذا لما لعبت أبدًا في ذلك القبو في بيت جيري ليفوف. ولولا أن ذلك كان يمنحني فرصة القول للناس إنني أعرف بيت السويدي ليفوف من الداخل، لما استطاع أي إنسان أن يجعلني أنزل إلى ذلك القبو وأنا أعزل اليدين إلا من مضرب خشبي صغير. لا يمكن لأي شيء خفيف الوزن كتلك الكرة أن يكون قاتلًا؛ إلا أن القتل لم يكن بعيدًا أبدًا عن ذهن جيري عندما يقذف بتلك الكرة في اتجاهي. لم يدر في خلدي أبدًا أن هذا الاستعراض العنيف قد يكون على صلة بما يعنيه لجيري كونه شقيق السويدي ليفوف. فبما أنني كنت غير قادر على تخيّل أي شيء أفضل من أن يكون المرء شقيقًا للسويدي - إلا أن يكون هو السويدي نفسه - فقد كنت عاجزًا عن فهم أنّ ما من شيء أسوأ من ذلك في نظر جيري. كانت غرفة السويدي واقعة تحت السقف مباشرة في آخر البيت. لم أجرؤ على دخولها أبدًا؛ لكني كنت أتوقّف وأنظر في داخلها عند ذهابي إلى المرحاض القريب منها. سقفها المائل، ونافذتاها البارزتان إلى الخارج، وأعلام منطقة ويكاهيك المثبتة على الجدار. كانت تلك الغرفة تبدو لي شبيهة بما أعتبره غرفة فتى حقيقي. ومن النافذتين اللتين تنفتحان على مرج واقع خلف البيت، كان المرء يستطيع رؤية سقف مرأب سيارة عائلة ليفوف حيث كان السويدي يمضي أوقات فراغه في الشتاء - أيام المدرسة الابتدائية - في التلويح بمضربه وقذفِ كرة بيسبول مربوطة بخيط ثخين معلّق من عارضة في السقف... فكرة لعلّه استقاها من رواية عن لعبة البيسبول لجون ر. تونيز اسمها «فتى من تومكينزفيل». رأيت ذلك الكتاب على رفّ مثبت إلى جانب سرير السويدي، ومعه كتب أخرى لتونيز - «الدوق الحديدي»، «تصميم الدوق»، و«اختيار البطل»، و«أطفال كيستون»، و«أفضل لاعب مبتدئ في هذه السنة». كانت كلّها مصفوفة بحسب التسلسل الأبجدي يحصرها اثنان من مساند الكتب البرونزية على هيئة تمثال «المفكر» لرودان... كان المسندان هدية دعائية من بار «ميتسفا».

ذهبت من فوري إلى المكتبة لكي أستعير كل ما أجده من كتب تونيز، ثم بدأت قراءة «أطفال كيستون» التي كانت رواية قاتمة آسرة بالنسبة إلى صبي في مثل

سني... رواية واضحة الكتابة، جافة في بعض المواضع، لكنها مباشرة وتحترم قارئها. تتحدّث الرواية عن صبي اسمه روي تاكر كان رامي كرات ماهرًا في لعبة البيسبول، وكان من منطقة تلال كونتكتيكت الريفية. توفي أبوه عندما كان في الرابعة من العمر، ثم توفيت أمه عندما صار في السادسة عشرة، فصار يساعد جدّته في تأمين ضروريات العيش من خلال عمله في مزرعة الأسرة نهارًا، والعمل في المدينة ليلًا في «متجر ماكينزي» عند زاوية شارع ساوث مين.

كان الكتاب صادرًا في سنة 1940، وكانت فيه رسومات بالأبيض والأسود فيها شيء من التشوّه الانطباعي مع القدر الكافي من المهارات التشريحية... رسوم تصوّر بطريقة ذكية مشقّات حياة ذلك الطفل في ذلك الزمن الذي سبق مليون إحصائية أتت بعده، فألقت الضوء على لعبة البيسبول، ذلك الزمن حيث كان الأمر كلّه تابعًا لأسرار قدر دنيوي، عندما كان اللاعبون في كبرى المباريات يبدون أقل شبهًا بأطفال كبار أصحاء منهم بعمال نحيلين جائعين. بدت تلك الصور كأنها مأخوذة من زمن التقشف المظلم أيام الكساد في أميركا. بعد كل عشر صفحات، أو نحو ذلك، يأتي رسم يمثّل على نحو مقتضب لحظة مادية درامية من لحظات القصة... «كان قادرًا على إدخال شيء من الحماسة في الأمر»، «كان أمرًا غير مقبول أبدًا»، «كان ريزل يعرج سائرًا إلى المخبأ»... وكان هنالك رسم بحبر كثيف؟؟؟ ضارب إلى السواد يمثل لاعب بيسبول هزيلًا غائم الوجه كأنه خيال على صفحة فارغة، معزولًا كأنه أكثر الأرواح توحّدًا في العالم كلّه، غريبًا عن الطبيعة والبشر، أو كأنّه موضوع على عشب بيسبول مرسوم بخطوط واهية، وقد امتدّ من تحته تجسيدٌ واهٍ لظلٍّ أشبه بدودة. شخص غير جذاب، حتى في ملابس البيسبول... إنه رامي الكرات. كان هذا مفهومًا من شكل يده في قفّازها كما لو أنها مخلب. ما كانت تلك الرسوم تصوّره بكل وضوح هو أن اللعب في الفرق الكبرى، مهما بدا أمرًا بطوليًا، ليس إلا صيغة أخرى من صيغ الكدح غير المجزي... كدح يكسر الظهر.

كان ممكنًا أيضًا أن يكون عنوانه «الخروف من تونكسفيل»؛ بدلًا من «الصبي

من تونكسفيل»، وذلك على الرغم من أن «الخروف من تونكسفيل» عبارة تقود إلى التفكير في ذبح ذلك الخروف آخر الأمر. ففي مسيرة ذلك الطفل الذي كان وافدًا حديثًا متميّزًا إلى نادي بروكيل دودجرز القابع في المرتبة الأخيرة، كانت خيبة مؤلمة، أو حادثة فظيعة، تأتيه مكافأةً عن كل نصرٍ يحرزه. تلك الصّلة المتينة التي نشأت بين الصبي الوحيد المشتاق إلى موطنه وملتقط الكرات القديم في نادي دودجرز، ديف ليونارد الذي نجح في تعليمه أساليب الفرق الكبيرة وكان يرعاه «بعينيه البنيتين الثابتتين من خارج منطقة الهجوم» أثناء مباراة لم تشهد تسجيل أية نقاط، مباراة انتهت نهاية قاسية بعد ستة أسابيع فقط من بداية الموسم الرياضي، عندما جرى إسقاط ذلك اللاعب القديم من لائحة النادي بين عشية وضحاها. «ها هنا، كانت السرعة التي لا يتحدّثون عنها كثيرًا في عالم البيسبول: سرعة صعود نجم لاعب، ثم سرعة سقوطه». وبعد ذلك، بعد أن فاز الفتى بمباراته الخامسة عشرة على التوالي (سجلٌّ باهر لم يحقّقه أي رامٍ في أي موسم مباريات قبل ذلك)، طَوّح به - مصادفة - فأسقطه على أرض الحمام زميل كثير الصخب كان يندفع هنا وهناك مهتاجًا بعد ذلك النصر الكبير. أورثته تلك السقطة إصابة في كتفه تركته غير قادر على رمي الكرة بعد ذلك. ظلّ خارج المباريات بقية السنة كلّها، فلم يشارك فيها إلا عندما يدخل بديلًا عن لاعب آخر في لحظات حاسمة من المباريات. ثم رجع إلى موطنه في كونتيكت في فصل الشتاء المثلج، حيث صار يمضي النهار في المزرعة، ويعمل في ذلك المتجر بعد أن صار شخصًا معروفًا، لكنه عاد صبيَّ جدّته من جديد. كان يعمل وحده مجتهدًا (بحسب توجيهات ديف ليونارد) حتى يجعل تسديدته مستوية («كان ميله إلى خفض كتفه اليمنى على نحو يجعل ضربته مرتفعة بعض الشيء أكبر خطاياه») فيعلّق كرة بيسبول بخيط في الإسطبل ويضربها «بمضربه المحبوب» في صباحات الشتاء الباردة، ويستمر في ذلك إلى أن يتصبّب عرقًا. «كراك... ذلك الصوت الحلو النظيف عندما يصطدم المضرب بالكرة اصطدامًا مباشرًا». صار في الموسم التالي مستعدًا للعودة إلى نادي دودجرز ليصير لاعبًا سريعًا في الجناح الأيمن ويسجل 325 نقطة فيتولى

فريقه. وفي اليوم الأخير من الموسم، في مباراة ضد فريق جاينتس الذي كان متقدّمًا بمباراة واحدة فقط، تمكّن الفتى من إيقاظ الروح الهجومية لدى فريقه، الذي تقدم على الفريق الخصم معتمدًا على قدرة لاعبه الفتي الجريء صاحب العضلات المتميّزة الذي استطاع أن يحسم اللعبة كلّها عندما جرى والتقط الكرة في مواجهة جدار دفاعي في الجهة اليمنى من وسط الملعب. لقد جعلت هذه المأثرة الكبيرة الجريئة نادي دودجرز يدخل بطولة الفرق الكبرى في شمال أميركا، لكنها تركت صاحبها «متلوّيًا» ألمًا على العشب الأخضر في أقصى الجهة اليمنى من الملعب. ينهي تونيز وصفه على النحو التالي: «خيّم الغسق على مجموعة من اللاعبين وعلى حشد كبير من الناس المتدفّقين من الملعب، وعلى رجلين يحملان جسدًا هامدًا على نقالة يسيران بها وسط الناس... «انفجر الرعد. وهطل المطر على ملعب بولو»... هطل المطر، وهطل المطر، وانفجر الرعد، وهكذا انتهت كتابة مآثر ذلك الصبي.

كنت في العاشرة. ولم أكن قد قرأت أي شيء مثل ذلك من قبل. قسوة الحياة. والظلم الذي فيها. لم أستطع تصديق الأمر. كان اسم لاعب فريق دودجرز المسؤول عما حدث ريزل نوجنت. كان رامي كرة عظيمًا، لكنه كان سكّيرًا أحمق؛ وكان بلطجيًا عنيفًا شديدة الغيرة إزاء الصبي. لكن ريزل لم يكن هو من حملوه «هامدًا» على نقالة، بل حملوا أفضل الجميع، حملوا يتيم المزرعة الذي كانوا يسمّونه «الصبي»: اللاعب الجدّي العفيف، المخلص الساذج، المخلص الجريء، اللامع الجميل، المتقشّف، صاحب الصوت الخفيض والجرأة التي لا تنثني. لا حاجة إلى القول إنني اعتبرت «الصبي» والسويدي شخصًا واحدًا، وتساءلت كيف يمكن للسويدي أن يحتمل قراءة هذا الكتاب الذي تركني موشكًا على البكاء غير قادر على النوم. لو كانت لي الجرأة على مخاطبته، لسألته إن كان يظنّ نهاية الكتاب تعني أن أمر الصبي قد انتهى، أم أن هنالك إمكانية لعودته من جديد. كلمة «هامد» جعلت الذعر يصيبيني. فهل قُتل الصبي عندما سجل آخر نقطة في موسم المباريات؟ هل كان السويدي يعرف الإجابة؟ وهل كان مباليًا بالأمر؟ هل خطر في ذهنه أن الكارثة التي نزلت بالصبي الذي من

تونكسفيل يمكن أن تأتي فتنزل بالسويدي؟ أم إنه كان كتابًا عن نجم حلو عوقب عقابًا وحشيًا ظالمًا... هل كان كتابًا عن بريء صاحب موهبة عظيمًا كان ميله إلى خفض كتفه اليمنى ورمي الكرة مرتفعة بعض الشيء أكبر خطاياه؟ لكن السماوات الراعدة دمّرته على الرغم من ذلك؟ هل كان ذلك الكتاب في نظره مجرّد واحد من الكتب التي يحصرها تمثالا «المفكّر» على الرف في غرفته؟

كانت جادة كير المكان الذي يعيش فيه أثرياء اليهود... أو الذين يبدون أثرياء في نظر أكثرية الأسر التي تستأجر شققًا في منازل يتوزع كل منها على مسكنَيْن أو ثلاثة مساكن، أو أربعة... مساكن لها مداخل من درجات قرميدية مائلة كانت جزءًا من تسلياتنا بعد المدرسة: ألعاب النرد، وألعاب الحظ، ولعبة قذف الكرة على درجات المدخل. تستمر تلك اللعبة الأخيرة من غير انقطاع إلى أن تتمزّق الكرة المطاطية الرخيصة التي نقذفها من غير رحمة على تلك الدرجات فتنفتّق خياطتها. هنا، في هذه الشبكة من الشوارع التي تحفّ بها أشجار الجراد، الشوارع التي قسّمت مزرعة لايونز خلال سنوات الطفرة الاقتصادية أوائل العشرينات، فأعاد أبناء الجيل الأول من مهاجري نيوارك اليهود تجمّعهم فيها، ضمن مجتمع صغير كان أميَل إلى استلهام حياة عامة الأميركيين منه إلى استلهام بلدات «شتيتل»(3) اليهودية، التي كان الجيل الأسبق من المتكلّمين بلغة ييديش قد كوّنوها في أنحاء برينس ستريت في منطقة ثيرديارد الفقيرة.

كان يهود جادة كير، بأقبية بيوتهم «المنتهية»، وشرفاتها الأمامية ذات الواجهات الزجاجية، ودرجات مداخلها الحجرية، يبدون كما لو أنهم في الصدارة زاعمين لأنفسهم فضل الريادة في التطبع بأسباب الراحة الأميركية. وفي صدارة الصدارة، كانت عائلة ليفوف التي أنعمت علينا بابنها السويدي، ذلك الصبي الذي كان شديد القرب من الغوييم(4) مثلما سنصير نحن أيضًا، بعد حين.

لم يكن لو وسيلفيا ليفوف أبوين أكثر أميركية، ولا أقل أميركية، من أبي وأمي اليهوديين المولودين في جيرسي؛ ولم يكونا أكثر، أو أقل، منهما ثقافة أو لباقة أو طلاقة لسان. كان هذا مفاجأة كبيرة لي. فباستثناء بيت الأسرة الواحدة في جادة كير، لم يكن بيننا أي فارق من تلك الفوارق التي تعلّمنا عنها في المدرسة،

كالفارق بين الفلاحين والأرستقراطية. فعلى غرار أمي أنا، كانت السيدة ليفوف ربّة منزل مرتّبة، مظهرها لطيف لا تشوبه شائبة، شديدة المراعاة لمشاعر الآخرين، ولها طريقتها الخاصّة في جعل ولديها يشعران بأهميتهما... امرأة من نساء كثيرات في ذلك الزمان ممن لم يكن لديهنّ حلم التحرّر من المشروع المنزلي الكبير، الذي يكون الأطفال مركزًا له. وقد ورث الصبيَّان من أمهما عظامها الطويلة وشعرها الأشقر؛ لكن شعرها الأكثر ميلًا إلى التجعّد والحمرة، ونمش جلدها الموحي بالشباب، جعلاها تبدو أقل منهما آريةً، فكانت «شذوذًا جينيًا» أقل وضوحًا بين تلك الوجوه التي في شارعنا.

لم يكن طول الأب أكثر من خمس أقدام وسبعة إنشات، أو ثمانية... رجل نحيل، طويل الأطراف، أكثر قلقًا وانفعالًا حتى من أبي، الذي كانت الأشياء الكثيرة التي تقلقه تصوغ قلقي، أنا نفسي. كان السيد ليفوف واحدًا من الآباء اليهود الآتين من الأحياء الفقيرة ممن كانت قساوة حياتهم وقلّة تعليمهم سببًا في دفع جيل كامل من الأبناء الطامحين ذوي التعليم الجامعي: أبٌ يرى في كلِّ شيء واجبًا لا مناص منه، أبٌ يرى طريقًا صحيحًا وطريقًا خاطئًا من غير أي احتمال آخر، أبٌ لديه تركيبة من الطموحات والمعتقدات والآراء المسبقة لا يزعزعها التفكير المتأنّي الذي لم يكن تجنّبه سهلًا بالقدر الذي يبدو عليه. رجال محدودون لهم طاقة غير محدودة؛ رجال سرعان ما يصيرون ودودين، وسرعان ما يضيقون ذرعًا؛ رجال أكثر الأشياء جدّية في حياتهم هو الاستمرار قدمًا على الرغم من كل شيء. ونحن كنا أبناءهم. وكان علينا أن نحبهم.

كان أبي طبيبًا متخصصًا في معالجة الأقدام. وظلّت غرفة المعيشة في بيتنا عيادة له على امتداد سنوات طويلة. كان يجني مالًا كافيًا لمعيشة الأسرة، من غير أية زيادة أو فائض. وأما السيد ليفوف، فقد اغتنى من تصنيع القفازات النسائية. لقد وصل أبوه - جد السويدي ليفوف - إلى نيوارك في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر مهاجرًا من بلده القديم، ووجد عملًا في إزالة اللحم المتبقي على جلود الخرفان بعد انتهاء نقعها في محلول الجير. كان هو اليهودي الوحيد بين مهاجري نيورك القساة الخشنين الآتين من البلدان السلافية،

ومن إيرلندا وإيطاليا ممن يعملون في دباغة الجلود في شارع لوتمان لدى ت. ب. هويل، رجل الأعمال الكبير صاحب العلامة المسجلة الشهيرة في ميدان الجلود المعالَجة. كان ذلك الرجل يومها الاسم الأول في أقدم صناعات المدينة وأكبرها، دباغة الجلود وتصنيع المنتجات الجلدية. الماء أهم عنصر في صناعة الجلود... جلود تدور في براميل ماء ضخمة تبصق على الدوام ماءً كريه الرائحة، وأنابيب تنسكب منها مياه باردة ومياه حارّة... آلاف وآلاف الجالونات من الماء. في حال توفّر مياه غير كلسية، مياه جيّدة، فهي المياه المناسبة لصناعة البيرة، وهي المياه المناسبة لصناعة الجلود أيضًا. وكانت نيوارك تصنع هذا وذاك... مخامر بيرة ضخمة، ومدابغ ضخمة، وكثير من فرص العمل في الأعمال الرطبة كريهة الرائحة من أجل العمال المهاجرين.

ذهب الابن لو - والد السويدي ليفوف - إلى العمل في مصنع دباغة الجلود بعد أن ترك المدرسة في سن الرابعة عشرة، حتى يساعد أباه في إعالة الأسرة المؤلّفة من تسعة أشخاص. وهناك، أظهر مهارة غير مقتصرة على دباغة جلود الغزلان بفرشاة مسطحة قاسية لنشر طبقة من صباغ بلون الصلصال، بل صار ماهرًا في فرز تلك الجلود وتصنيفها أيضًا. كانت المدبغة الفائحة بروائح المسلخ والمصنع الكيميائي نتيجة نقع الجلود وطبخها بما عليها من بقايا اللحم، ونزع الشعر عنها، ثم تمليحها وإزالة الدهون منها، تعمل على مدار الساعة في فصل الصيف حيث تُعلّق آلاف مؤلفة من الجلود لتجف فترتفع درجة الحرارة في صالة التجفيف ذات السقف المنخفض حتى تبلغ مئة وعشرين درجة(5). كانت غرف الجير مظلمة كالكهوف، طافحة بالفضلات، حيث يعمل رجال خشنو الطباع والأجسام مرتدين مآزر ضخمة مسلحين بالخطاطيف والهراوات، فيجرّون ويدفعون عربات ثقيلة الحمولة ويرفعون منها الجلود المشبعة بالماء ويعلّقونها ماضين كأنهم حيوانات عبر ذلك الكدح العاصف، حيث كانت نوبة العمل تستمر اثنتي عشرة ساعة... مكان قذر، كريه الرائحة، طافح بمياه تلوّنها أصبغة حمراء وسوداء وزرقاء وخضراء، وبجلود منتشرة على الأرض، وبحفر مليئة بالدهون، وبتلال من الملح، وببراميل من المواد المذيبة... تلك كانت

المدرسة الثانوية التي ارتادها لو ليفوف، وتلك كانت جامعته. لم يكن أمرًا محيّرًا أن يصيرَ شخصًا له تلك الصّلابة كلها. لكن ما كان محيّرًا حقًّا هو مقدار التمدّن الذي ظلّ قادرًا عليه، أحيانًا.

تخرّج لو في مدابغ شركة «هويل وشركاه» عندما كان في أوائل العشرينات، وأسّس مع اثنين من أشقائه ورشة لصنع حقائب اليد متخصّصة في جلود التماسيح، التي تعاقدت من أجل توريدها مع ر. ج. سالامون، الذي كان ملك الجلود الفاخرة وأفضل من يدبغ جلود التماسيح في نيوارك. مر زمن بدا فيه هذا العمل واعدًا بالازدهار؛ لكن الشركة تهاوت عندما أتت الأزمة الاقتصادية فأفلس الأشقاء الثلاثة المجدّون، المغامرون. وبعد بضع سنين من ذلك، انطلقت شركة «نيوارك ميد للصناعات الجلدية»؛ لكن لو ليفوف كان وحده هذه المرة. صار يشتري منتجات جلديّة من النخب الثاني... حقائب يد وقفازات وأحزمة فيها بعض العيوب... ويبيعها على عربة يدفعها بنفسه في أيام عطلات نهاية الأسبوع وينتقل بها من باب بيت إلى باب بيت. كانت منطقة داون نِك نتوءًا برّيًا يكاد يكون شبه جزيرة في أقصى شرق نيوارك، حيث تحطّ كلّ موجة جديدة من المهاجرين... أرض واطئة يحيط بها نهر باسايك من الشمال والشرق، وتحدّها من الجنوب مستنقعات ملحية... كان فيها إيطاليون عملوا في صناعة القفازات في بلدهم الأول، فبدأوا يشتغلون في بيوتهم بالقطعة لصالح لو. كان يأتيهم بالجلود فيقصّونها ويخيطون منها قفازات نسائية يبيعها متجولًا في أنحاء الولاية. وعندما اندلعت الحرب، كانت عنده مجموعة عائلات إيطالية تقصّ وتخيط قفازات الأطفال في سقيفة صغيرة في شارع ويست ماركت. لكن ذلك كلّه ظل عملًا هامشيًا لا يدرّ مالًا حقيقيًا إلى أن أتت ضربة الحظ في سنة 1902: عقدٌ مع وحدات الجيش النسائية لصنع قفازات نساء رسمية من جلد الخرفان. استأجر لو مصنع المظلّات القديم الذي كان بناية متداعية من أربعة طوابق، يبلغ عمرها خمسين عامًا، وقد اسودت جدرانها من الدخان. كانت عند تقاطع شارع سنترال والشارع الثاني. سرعان ما اشترى تلك البناية، وأجّر قسمًا منها لشركة تصنع السحّابات. بدأت شركة «نيوراك ميد» تضخ القفازات ضخًّا.

وكانت شاحنة تأتي كل يومين أو ثلاثة أيام فتأخذها. لكن عقدًا جديدًا مع بامبرغر كان مصدر فرحة أكبر من فرحة العقد الحكومي. تمكّنت شركة «نيواركميد» من الوصول إلى متجر بامبرغر، فصارت المصنِّع الأول لقفازات النساء لديه، وذلك بعد مقابلة أُجريت مصادفة بين لو ليفوف ولويس بامبرغر، في عشاء تذكاري أقيم على شرف العمدة ألينشتاين الذي كان رئيس شرطة المدينة منذ سنة 1933، ثم صار اليهودي الوحيد الذي يتولّى منصب العمدة فيها. في ذلك العشاء، سمع أحد المديرين في شركة بارينز أن والد السويدي ليفوف كان حاضرًا فأتى لتهنئته على اختيار صحيفة نيوارك نيوز ابنه أفضل لاعب وسط في البيسبول في المقاطعة كلّها. انتبه لو إلى هذه الفرصة التي تأتي مرة في العمر، فرصة اجتياز العوائق كلّها والوصول مباشرة إلى القمة... استطاع لو ليفوف، بشيء من الصفاقة، أن يتحدّث ويقدم نفسه، هناك، في عشاء العمدة، للويس بامبرغر الأسطوري نفسه، الذي كان مؤسّس متجر بامبرغر الكبير الراقي في نيوارك، والشخص المحسن الذي منح المدينة متحفها: كان شخصية واسعة النفوذ، كبيرة الأهمية لدى اليهود المحليين، مثلما كان برنارد باروخ كبير الأهمية لدى اليهود في أنحاء البلاد كلّها نتيجة علاقته الوثيقة بالرئيس فرانكلين روزفلت. وبحسب الإشاعات التي انتشرت في الحي على الرغم من أن ما فعله بامبرغر لم يتجاوز مصافحة لو ليفوف وطرح بعض الأسئلة عليه (عن ابنه السويدي) لمدة دقيقتين فقط، فقد تجرأ لو ليفوف على القول له: «يا سيد بامبرغر، إن لدينا الجودة ولدينا السعر، فلماذا لا نبيعكم القفازات؟». وقبل نهاية الشهر أبرمت شركة بارينز أول عقد مع «نيوارك ميد» لتوريد خمسمئة زوج من القفازات.

ومع نهاية الحرب، كانت «نيوارك ميد» قد تمكّنت من ضمان موقع ثابت لنفسها - كانت إنجازات السويدي ليفوف الرياضية عاملًا مهمًا في ذلك - باعتبارها واحدة من الماركات الأكثر احترامًا في سوق القفازات النسائية إلى الجنوب من بلوفرسفيل، نيويورك، التي كانت مركز تجارة القفازات، وكان لو ليفوف يشحن الجلود إليها بالقطار (عبر فولتونفيل) لدباغتها لدى أفضل مصنع

دباغة في هذا المجال. وبعد انقضاء أكثر من عشر سنين على ذلك، أي في سنة 1958، افتتحت الشركة مصنعًا لها في بوتوريكو، فصار السويدي نفسه الرئيس الشاب للشركة، وصار يرتحل كل صباح إلى سنترال أفينيو قادمًا من بيته الواقع على مسافة ثلاثين ميلًا إلى الغرب من نيوارك، بعد الضواحي. كان الرجل رائدًا حديثًا في العيش هناك في مزرعة مساحتها مئة آكر واقعة على طريق فرعي في تلك التلال قليلة السكان خلف موريستاون في منطقة أولد ريمروك الريفية الثرية في نيوجرسي بعيدًا عن أرضية مصنع الدباغة الذي شهد بداية ليفوف في أميركا. وهكذا ابتعد المسار ابتعادًا كبيرًا عن الجلود الخام وما عليها من بقايا لحم مطاطي انتفخ كالغول، حتى تضاعفت ثخانته في أحواض الجير الكبيرة.

في الصيف الذي أعقب تخرّجه في مدرسة ويكاهيك في شهر حزيران من سنة 1945، انضم السويدي إلى وحدات مشاة البحرية متحرّقًا إلى المشاركة في معارك نهاية الحرب. قيل إن جزءًا كبيرًا قد أصاب أباه وأمه اللذين فعلا كل ما استطاعا فعله لإقناعه بالذهاب إلى سلاح البحرية بدلًا من الذهاب إلى مشاة البحرية. فحتى إن أفلح في التغلّب على ما اشتهرت به وحدات مشاة البحرية من معاداة السامية، فهل يتخيّل أنه سيظلّ حيًا خلال غزو اليابان؟ لكن السويدي كان مصممًا؛ وما كان لأي شيء أن يثنيه عن مواجهة ذلك التحدّي الوطني الرجولي الذي وضعه نصب عينيه منذ الهجوم الياباني على بيرل هاربر... ما كان يمكن لأي شيء أن يقنعه بالتخلّي عن فكرة المضي للقتال كواحد من أشجع الشجعان، إذا ظلّت البلاد في حالة حرب إلى أن تنتهي المدرسة. كان السويدي قد أنهى لتوّه التدريبات الأساسية في باريس آيلاند في ساوث كارولاينا عندما سرت إشاعات قالت إن إنزال وحدات مشاة البحرية على الشواطئ اليابانية سيبدأ في آذار سنة 1946 ثم ألقيت القنبلة النووية على هيروشيما فانتهت الحرب. ونتيجة ذلك، أمضى السويدي بقية خدمته في مشاة البحرية «مدربًا رياضيًا» ولم يغادر باريس آيلاند. كان يجري التمرينات الرياضية لكتيبته مدة نصف ساعة، كل صباح قبل الفطور، ويرتّب إقامة أمسيات ملاكمة، مرتين في الأسبوع، للتسرية

عن الجنود. وأما أكثر وقته فكان يمضيه في اللعب ضمن فريق القاعدة في مواجهة الفرق الرياضية من قطاعات عسكرية أخرى في جنوب البلاد كلّها: كرة السلّة طيلة الشتاء؛ وكرة البيسبول طيلة الصيف. ظلّ متمركزًا في جنوب ساوث كارولاينا قرابة سنة كاملة، ثم خطب فتاة أيرلندية كاثوليكية كان أبوها (وهو رائد في مشاة البحرية كان في ما مضى مدرب فريق لكرة القدم في بوردو بولاية إنديانا) قد رتّب أمر استلامه مهمّة المدرّب الرياضي المريحة حتى يبقيه لاعب كرة في باريس آيلاند. وقبل شهور كثيرة من تسريح السويدي من الجيش، قام أبوه برحلة إلى باريس آيلاند وظلّ فيها أسبوعًا كاملًا حيث أقام في فندق في بلدة بوفورت القريبة من قاعدة مشاة البحرية، ثم لم يرحل إلا بعد فسخ خطوبة ابنه من الآنسة دون ليفي. عاد السويدي إلى الديار في سنة 1947 والتحق بكليّة أوبسالا في وست أورينج. كان لا يزال في العشرين من العمر، ولم يثقل حياته بزوجة غير يهودية. كما أن بطولته ازدادت تألّقًا لأنه قد أفلح في أن يكون جندي مشاة بحرية يهوديًا... مدرّب رياضة بالتمام والكمال؛ ثم إن ذلك حدث في مكان يقال إنه أقسى مكان عسكري في العالم. إنهم «يصنعون» جنود مشاة البحرية في معسكر التدريب الأولي ذاك؛ وقد ساهم سايمور إيرفينغ ليفوف في صنعهم.

عرفنا هذا كلّه لأن أسطورة السويدي ظلّت حيّة في ممرات المدرسة الثانوية وغرفها، حيث كنت واحدًا من طلبتها في ذلك الوقت. أتذكّر أنني ذهبت مرة أو مرتين في ربيع إحدى السنين بصحبة أصدقائي إلى ملعب فايكينغ في إيست أورينج حتى نشاهد مباريات الأحد المحلّية لفريق أوبسالا للبيسبول. كان السويدي رامي الكرات النجم في ذلك الفريق، ورجل القاعدة الأولى. فاز فريق أوبسالا على فريق مهلنبيرغ بثلاثة أشواط. كان واحدنا يهمس للآخر كلما رأينا رجلًا واقفًا في المدرّجات مرتديًا بدلة وقبّعة «كشاف، كشاف!»(6). وعندما كنت في الكلّية، بعيدًا عن حيّنا، سمعت من واحد من زملاء المدرسة القدامى، كان لا يزال مقيمًا في الحي، أن السويدي قد تلقى عرضًا للتعاقد مع فريق من الدرجة الأولى، لكنه رفض العرض وانضم إلى شركة والده. ثم علمت من أهلي

بعد ذلك بزواج السويدي من ملكة جمال نيوجرسي. لقد كانت ملكة جمال مقاطعة يونيون قبل خوضها المنافسة في أتلانتيك سيتي على لقب ملكة جمال أميركا لسنة 1949. كما فازت قبلها بلقب ملكة جمال الربيع في أوبسالا. امرأة غير يهودية من إليزابيث! اسمها داون دواير! لقد فعلها حقًّا!

كنت في زيارة إلى نيويورك في صيف سنة 1985. وفي إحدى الليالي ذهبت لرؤية مباراة لفريق ميتس في ملعب آستورز. وبينما كنت أتجوّل في الملعب مع أصدقائي بحثًا عن البوابة المفضية إلى مكان جلوسنا؛ رأيت السويدي وقد ازداد عمره ستة وثلاثين عامًا منذ ذلك الوقت الذي كنت أراه فيه يلعب في فريق أوبسالا. كان مرتديًا قميصًا أبيض، ويعقد ربطة عنق مخطّطة، وبدلة صيفية رمادية داكنة. كان لا يزال وسيمًا إلى حد مخيف. صار شعره الذهبي داكنًا بعض الشيء، لكنه لم يفقد شيئًا منه. ما عاد يقصّه قصيرًا مثلما كان في ما مضى، فقد صار طويلًا يغطي أذنيه منحدرًا إلى ياقته.

بدا في تلك البدلة الملائمة له تمام الملاءمة أكثر طولًا وأكثر نحولًا مما أتذكّره في ملابسه الرياضية في هذه اللعبة أو تلك. كانت المرأة التي معنا أول من لاحظه. قالت متسائلة: «من هذا؟ إنه... إنه... أليس هو السيناتور جون ليندسي؟» أجبتها: «لا!»؛ ثم قلت لأصدقائي: «يا إلهي! هل تعرفون من هذا؟ هذا هو السويدي!».

كان صبي نحيل أشقر الشعر في السابعة، أو في الثامنة من العمر، سائر إلى جانب السويدي. طفل يضع قبعة فريق ميتس ويتدلّى من يده اليسرى قفاز لاعب القاعدة الأولى. كان مع السويدي قفاز مماثل. كان واضحًا أنهما أب وابنه. وكانا يضحكان معًا لأمر ما عندما اقتربت وعرّفته بنفسي. «لقد كنت أعرف أخاك في ويكاهيك».

أجابني وهو يهزّ يدي بحرارة: «ألست زوكرمان؟ الكاتب؟».

«صحيح. أنا زوكرمان، الكاتب».

«نعم، لقد كنت صديق جيري المقرّب».

«لا أظن أن جيري كان لديه أصدقاء مقرَّبون. لقد كان لامعًا لا يجاريه أحد.

لكنه اعتاد هزيمتي شر هزيمة في كرة الطاولة في قبو بيتكم. كانت هزيمتي في كرة الطاولة أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة إلى جيري».

«أنت هو ذلك الشخص. كانت أمي تقول عنك: كان طفلًا هادئًا لطيفًا عندما يأتي إلى البيت!»

قال مخاطبًا الصبي: «أتعرف من هذا؟ إنه الشخص الذي كتب تلك الكتب كلها. هذا هو نيثان زوكرمان».

هز الصبي كتفيه حائرًا، ثم قال لي: «مرحبًا».

«هذا هو ابني كريس».

قلت مشيرًا بيدي في اتجاه الأشخاص الثلاثة الذين كانوا معي: «هؤلاء أصدقائي». ثم قلت لهم: «وهذا الرجل... إنه أعظم رياضي في تاريخ ويكاهيك العليا. فنان حقيقي في ثلاثة ألعاب رياضية. إنه يلعب في القاعدة الأولى مثل هيرنانديز... يفكّر مثله. شديد البراعة في الرميات المزدوجة». قلت لابنه: «هل تعرف هذا؟ لقد كان أبوك هيرنانديز فريقنا».

أجابني الصبي: «هيرنانديز يلعب باليد اليسرى».

«لا بأس... هذا هو الاختلاف الوحيد!». قلت هذا للصبي المتمسّك بحَرفية الأمور، ثم مددت يدي إلى والده مرة أخرى، وقلت: «سررت بلقائك يا سويدي».

«وأنا أيضًا. كن بخير يا سكيب(7)».

قلت له: «سلم لي على أخيك».

ضحك السويدي ثم افترقنا، وسمعت شخصًا يقول لي: «نعم، نعم... إن أعظم رياضي في تاريخ ويكاهيك العليا دعاك باسم سكيب».

«أعرف هذا. ولا أكاد أستطيع تصديقه». أحسست كما لو أنني - تقريبًا - تلقّيت تميّزًا رائعًا، مثلما أحسست مرة في ما مضى، عندما كان عمري عشر سنين، يوم تباسط معي السويدي إلى حد مخاطبتي في الملعب بذلك اللقب الذي اكتسبته بعد أن تخطّيت صفين في المدرسة الابتدائية.

وخلال الهجمة الأولى في المباراة، التفتت المرأة التي كانت معنا في اتجاهي

وقالت: «كان يجب أن ترى وجهك. كنت كمن يخبرنا أن ذلك الرجل هو زيوس نفسه! رأيتُ تمامًا كيف كان شكلك عندما كنت طفلًا صغيرًا».

وصلتني الرسالة التالية عن طريق ناشري بعد أسبوعين من «يوم الذكرى(8)، سنة 1995»:

عزيزي المتخطّي زوكرمان،

أعتذر مسبقًا عن أي إزعاج قد تسبّبه لك هذه الرسالة. لعلك لا تتذكّر لقاءنا في الملعب. لقد كنت مع ابني الأكبر (هو الآن طالب في سنته الجامعية الأولى)، وكنتَ ذاهبًا مع عدد من أصدقائك لحضور مباراة لفريق ميتس. كان هذا منذ عشر سنين، أيام كارتر وغودن وهيرنانديز، أي عندما كان فريق ميتس لا يزال يستحق أن يتابع المرء مبارياته.

أكتب إليك الآن لكي أسألك إن كنا نستطيع اللقاء حتى نتحدّث. يسرني أن أدعوك إلى العشاء في نيويورك إن أتحتَ لي هذه المسرة.

إنني أسمح لنفسي باقتراح اللقاء بسبب أمر شغل تفكيري منذ أن مات أبي في السنة الماضية. لقد كان في السادسة والتسعين. وقد ظل كما هو، مشاكسًا مولعًا بالمواجهة حتى آخر أيامه. هذا ما جعل رؤيته يرحل عنا أكثر صعوبة، على الرغم من تقدّمه في السن.

أود أن نتحدّث عن حياته. إنني أحاول كتابة شيء تكريمًا له بغية توزيعه ضمن دائرة خاصّة من الأصدقاء والأقارب والشركاء في العمل. يميل الجميع إلى اعتبار أبي شخصًا صلبًا لا يُقهر، رجلًا لا يتأثر بشيء ولا يطيق صبرًا على أحد. لكن هذا بعيد عن الحقيقة كل البعد. لا يعرف الجميع كم عانى نتيجة الصدمات التي أصابت من يحبهم.

لكني أؤكد لك أنني سأتفهم الأمر إذا لم يكن لديك وقت للرد على رسالتي هذه.

المخلص،

سايمور «السويدي» ليفوف، مدرسة ويكاهيك الثانوية، سنة 1945.

لو سألني أي شخص آخر إن كنت مستعدًا للحديث معه عن شيء يكتبه في ذكرى والده المتوفّى، لتمنّيت له حظًا طيّبًا وشمخت بأنفي مبتعدًا عنه. لكني

وجدت أسبابًا كثيرة تدفعني إلى كتابة رسالة إلى السويدي، بعد ساعة واحدة، أقول له فيها إنني تحت تصرّفه. كان السبب الأول هو أن السويدي ليفوف كان راغبًا في رؤيتي. لعله أمر سخيف أن أرى توقيعه أسفل الرسالة، بعد أن بلغت هذه السن المتقدمة، فتغمرني ذكرياتي عنه، في الملعب وخارج الملعب، ذكريات بلغ عمرها نحو خمسين عامًا لكنها تظل متوقّدة آسرة. تذكّرت ذهابي كل يوم إلى الملعب للفرجة على تدريبات كرة القدم في السنة الأولى لموافقة السويدي على الانضمام إلى الفريق. لقد كان في ذلك الوقت فنانًا في تسجيل نقاط كثيرة من تسديدات بعيدة في ملاعب كرة السلة؛ لكن أحدًا لم يكن يستطيع أن يكون - بالقدر نفسه - ساحرًا في ملعب كرة القدم منذ أن بدأ المدرّب يدخله المباريات فتقدّم فريقنا الخاسر (مع أنه كان لا يزال في آخر تصنيف الفرق في دوري المدينة) وصار يسجل نقاطًا متزايدة في كل مباراة. وكانت تلك النقاط كلّها ثمرة تمريرات يتلقّفها السويدي. كان خمسون أو ستون ولدًا يتجمّعون عند أطراف الملعب وقت التدريب لمتابعة تمرينات السويدي في المدرسة في مواجهة فريق جي ديز - يلعب بخوذته الجلدية المهترئة وقميصه البنّي الذي يحمل الرقم 11 البرتقالي -. كان الظهير الربعي في فريق المدرسة، ليفتي ليفنتال، يمرّر الكرة إلى السويدي مرة بعد مرة («ليفـ ن ثال إلى ليـ فوف... ليفـ ن ثال إلى ليـ فوف». كان هذا هتافًا قادرًا دائمًا على إعادتنا إلى أجمل أيام السويدي). كانت مهمة لاعبي فريق جي ديز الذين وجدوا أنفسهم في حالة دفاع، منحصرة في كل مرة في محاولة منع السويدي ليفوف من التسجيل. تجاوزت الستين الآن؛ وأنا لست بالشخص المحتفظ بنظرته إلى الحياة عندما كان صبيًا. إلا أن أوهام الصبي لم تتبخّر كلّها بعد لأنني لم أنسَ، إلى هذا اليوم، كيف نهض السويدي ببطء واقفًا على قدميه بعد أن جعله المدافعون يسقط أرضًا، فهز رأسه ورفع وجهه إلى سماء الخريف القاتمة بنظرة احتجاج، ثم أطلق تنهيدة حزينة وجرى من غير أن يصيبه سوء متّجهًا إلى جمهرة اللاعبين. كان تسجيله النقاط نوعًا من المجد. وكان سقوطه وتكوّمه على الأرض، ثم وقوفه ونفض ذلك عنه نوعًا آخر من المجد، حتى في تلك المناوشات الخشنة بين اللاعبين.

أبي أميرة أكثر من الزوجة التي قبلها. كان يقول: إنها لعبة. ما أحلاها! إنها فتاتي المفضّلة... وكان مستعدًا لقتل أي شخص يقول شيئًا عن أية واحدة من زوجات جيري. وهو يعبد أطفال جيري عبادة. خمس بنات وصبي واحد. لقد كان يحب الصبي، لكن البنات كنّ قرّة عينه. ما كان هناك شيء لا يمكن أن يفعله من أجل أولئك الأطفال. بل من أجل أيٍّ من أطفالنا. كان أبي يجد نفسه في الجنّة عندما نكون من حوله، كلّنا، مع الأطفال. بلغ السادسة والتسعين ولم يمرض يومًا واحدًا في حياته كلها. ثم أصابته جلطة فكانت الشهور الستة الأخيرة التي سبقت موته أسوأ فترة في عمره. لكنه عاش حياة جيّدة. كان مقاتلًا حقيقيًا. كان قوة من قوى الطبيعة... شخصًا لا سبيل إلى إيقافه».

كانت في كلماته نبرة خفيفة عائمة عندما راح يتحدّث عن أبيه... صوت يتردّد فيه صدى توقيرٍ محبٍّ فيكشف أن ما من شيء تخلّل حياته كلّها أكثر من توقّعات أبيه.

«وماذا عن المعاناة؟».

قال السويدي: «كان ممكنًا أن يصير الأمر أسوأ كثيرًا. ستة شهور فقط. ثم إنه أمضى نصف ذلك الوقت غير عارف بما يجري. لقد انزلق مبتعدًا عنا ذات يوم... وفقدناه».

عنيت بـ «بالمعاناة» تلك المعاناة التي أشار إليها في رسالته، وقال إنها كانت لدى أبيه نتيجة الصدمات التي «نزلت بمن يحبّهم». لكن، حتى لو كنت قد أتيت بتلك الرسالة معي فأخرجتها الآن ولوّحت بها أمام وجهه، فإن السويدي يستطيع أن يتهرّب من كتابته نفسها من غير جهد مثلما تفلّتَ من ملاحقيه في الملعب ونفضهم عنه في ذلك الأحد قبل خمسين عامًا عندما كنا في استاد المدينة في مواجهة فريق الحي الجنوبي (أضعفُ خصومنا)، فحقّق فريقنا رقمًا قياسيًا على مستوى الولاية عندما تمكّن من التسجيل أربع مرات متتالية من تمريرة واحدة في كل مرة. بالطبع... قلت في نفسي... بالطبع، إن اندفاعي إلى البحث عن ذلك «الأساس الصلب» فيه، وافتراضي الدائم بأن هنالك أكثر مما كنت أنظر

إليه قد أثار فيه خوفًا من احتمال أن أمضي قدمًا، فأقول له إنه ليس ما أراد أن نظنَّه. لكني عدْت فذكّرت نفسي: لماذا أسبغ عليه هذه القدرة كلّها على التفكير؟ وما مبعث شهيتي إلى معرفة هذا الشخص؟ أأحسّ هذا النهم كلّه لمجرّد أنه شخص قال لي ذات مرة، قال لي وحدي، «لم تكن كرة السلة هكذا أبدًا يا سكيب»؟ لماذا أتشبّث به؟ ما مشكلتي؟ ليس أمامك شيء غير الذي تنظر إليه. وليس فيه غير الرغبة في أن ينظر الناس إليه. هكذا كان دائمًا. إنه لا يتصنّع هذه البراءة كلّها تصنّعًا. أنت تبحث عن أعماق لا وجود لها. هذا الشخص تجسيد للاشيء. لقد كنت مخطئًا. لم أكن مخطئًا إلى هذا الحدِّ بشأن أي شخصٍ في حياتي كلّها.

(10)ziti زيتي: نوع من المكرونة على شكل أنابيب ضخمة.
(11) «موت إيفان إيليتش»، رواية من تأليف تولستوي صدرت سنة 1886، واعتبرت من أهم أعماله الروائية المتأخّرة.

- 2 -

[فلنتذكّر الطاقة!

لم يكن الأميركيون يحكمون أنفسهم فقط، بل حكموا أيضًا نحو مئتي مليون إنسان غيرهم في إيطاليا والنمسا واليابان. كانت محاكمات جرائم الحرب تنظّف الأرض من أشرارها، مرّة وإلى الأبد. وكانت الطّاقة الذرّية ملكًا لنا وحدنا. بدأ انتهاء التقنين؛ رفعت القيود عن الأسعار. وفي موجة من تأكيد الذات، راح عمال السيارات وعمال الفحم وعمال النقل البحري وعمال الفولاذ... عمال بالملايين، راحوا يطالبون بالمزيد ويضربون من أجل تحقيق مطالبهم. عاد لعب الكرة صباحات الأحد في ملعب تشانسلر آفنيو ولعب كرة السلة في الملاعب الأسفلتية خلف المدرسة حيث عاد الأولاد كلّهم إلى حياتهم... جيران وأقارب وإخوة أكبر سنًا امتلأت جيوبهم بنقود الانفصال بعد أن دعاهم قانون GI(12) إلى الانفكاك عن ذويهم بطرق ما كان تخيُّلها ممكنًا قبل الحرب. بدأ صفنا في المدرسة الثانوية بعد ستة شهور من الاستسلام الياباني غير المشروط، أي خلال

أعظم لحظات النشوة الجماعية في التاريخ الأميركي. كان اندفاع الطاقة معديًا. ولم يبقَ من حولنا شيء لم تدبّ الحياة فيه. انتهى زمن القيود والتضحيات. واختفى الركود الاقتصادي. صار كل شيء متحرّكًا. لقد نُزع الغطاء. كان على الأميركيين أن يبدأوا من جديد، أن يبدأوا كلّهم معًا، وأن ينخرط الجميع في ذلك. ولو لم يكن هذا كلّه إلهامًا كافيًا... الختام العجائبي لهذا الحدث الكبير، وإعادة ضبط ساعة التاريخ بحيث لم تعد أهداف شعب بأسره محدودة بفعل الماضي... فقد كان لدينا حيُّنا أيضًا، تصميمنا العام على أنه ينبغي لنا، نحن الأطفال، أن نتخلّص من الجهل والمرض والغبن الاجتماعي والتخويف... وقبل كل شيء، أن نتخلّص من تفاهة شأننا. لا يجوز أن تنتهي إلى لا شيء! اصنع من نفسك شيئًا!

وعلى الرغم من تيار خفي من القلق؛ إحساس منقول إلينا كل يوم بأن الصعاب والمشقّات تتهدّدنا دائمًا، وبأن ما من شيء غير جدّنا واجتهادنا يستطيع المحافظة على أملنا؛ على الرغم من حالة عامة من قلة الثقة في «عالم غير اليهود»؛ وعلى الرغم من الخوف من أن نُسحق من جديد، ذلك الخوف الذي ظلّ ممسكًا بتلابيب عائلات كثيرة نتيجة الركود الاقتصادي... فإن حيّنا لم يسقط في الظلمة. كان المكان متّقدًا بالاجتهاد. وكان هناك إيمان كبير بالحياة. ثم إننا كنا خاضعين لتوجيه لا هوادة فيه صوب النجاح: وجودٌ أفضل سيكون من نصيبنا. كان الهدف أن تكون لنا أهداف. وكانت الغاية أن تكون لنا غايات. كثيرًا ما كان هذا التوجيه يأتي مختلطًا بنوع من الهستيريا؛ الهستيريا المعذّبة لدى أولئك الذين كانت تجاربهم قد علّمتهم كيف يمكن لحالة صغيرة من الكره أو العداوة أن تخرّب الحياة إلى ما يتجاوز أي أمل في إصلاحها. لكن توجيهات الكبار تلك (ذات الحمولة الانفعالية الكبيرة نتيجة عدم اطمئنان أهلنا، ونتيجة إدراكهم كل ما كان يحاك ضدهم...) هي ما جعل الحي مكانًا متماسكًا متراصًّا. مجتمعٌ كاملٌ يناشدنا دائمًا ألّا نغالي وألّا نفشل، يناشدنا أن نلتقط الفرصة ونستفيد من مزايانا ونتذكّر ما له أهمية حقًا.

لم تكن المسافة الفاصلة بين الجيلين صغيرة، فكان هناك كثيرٌ مما يدور فيه

الجدل: فكرتهم عن العالم التي لا يريدون التخلّي عنها؛ والقواعد التي كانوا يقدّسونها فصارت قليلة الأثر علينا بفعل عقدين فقط من الزمن الأميركي. كانت تلك الشكوك شكوكهم هم، لا شكوكنا. وكان مطروحًا دائمًا ذلك السؤال عن مسافة التحرّر منهم التي يمكن أن نجرؤ على اجتيازها؛ كان ذلك مناقشة داخلية متناقضة مثيرة للغضب. لقد وجد بعضنا الجرأة على تحدّي مواضع التشنّج في وجهة نظرهم، لكن النزاع بين الأجيال لم يكن يبدو أبدًا مثلما سيصير عليه بعد عشرين عامًا. لم يكن حيّنا أبدًا ميدان معركة تناثرت فيه جثث عدم التفاهم. لقد كانت فيه محاضرات طنانة كثيرة لضمان الطاعة؛ وكانت فيه آلاف المتطلّبات والإملاءات والقيود التي تعقل قدرة المراهقين على التمرّد... قيود برهنت على أنها عصيّة على الكسر. كان من بينها تقديرنا الذاتي الواقعي جدًا لما هو في مصلحتنا. وكانت من بينها تلك الاستقامة التي تخلّلت تلك الحقبة كلها، فالتقطنا محرَّماتها وبقينا متمسكّين بها منذ مولدنا. فضلًا عن ذلك، كانت لدينا إيديولوجية الأسلاف التي تحدِّثُنا عن تضحية آبائنا وأمهاتنا بأنفسهم فتجرّدنا من الإسراف في الميل إلى العصيان وتكاد تجعل كل نزوع غير لائق يظلّ مختفيًا تحت الأرض.

كان الأمر يقتضي قدرًا من الشجاعة - أو من الحماقة - أكبر كثيرًا مما كان لدى أي منّا حتى نصير قادرين على تخييب أوهامهم العاطفية الراسخة عن قدرتنا على الكمال، وحتى نصير قادرين على المبالغة في التوهان والابتعاد عما هو مسموح لنا. كانت الأسباب التي تحملهم على مطالبتنا بالتفوق وطاعة القانون أسبابًا لا تسمح لنا ضمائرنا بمعارضتها؛ وهكذا سلّمنا للكبار بسلطة ضبط تكاد تكون مطلقة... للكبار الذين كانوا يبذلون الجهد ويطوّرون أنفسهم من خلالنا. لعل هذا الترتيب كان يمكن أن يترك أشكالًا معتدلة من الندوب لكننا لم نسمع إلا بحالات قليلة من الاضطرابات النفسيّة المؤدّية إلى الانتحار... على الأقل لم نسمع بها آنذاك. أشكر الرب على أن عبء تلك الآمال كلّها لم يكن بالضرورة قاتلًا. وبطبيعة الحال، كان من المستحسن، في بعض الأسر، أن يتمّ تخفيف الضوابط قليلًا؛ إلا أن القسم الأكبر من ذلك الاحتكاك بين الجيلين كان بالقدر

الكافي لإعطائنا دافعًا للحركة إلى الأمام.

فهل أكون مخطئًا إن ظننت أننا سعدنا بالعيش هناك؟ ما من ضلالات مألوفة أكثر من تلك التي يثيرها الحنين لدى كبار السن؛ فهل أكون مخطئًا تمامًا إن ظننت أن عيش أطفال ولدوا لأسر كريمة في فلورنسا عهد النهضة لا يمكن إلا أن يرفع القبعة لترعرعِ المرء وسط روائح براميل المخلّل عند تاباتيشنيك(13)؟ وهل أكون مخطئًا إن ظننت أن امتلاء الحياة، حتى في ذلك الوقت، في ذلك الحضور الحيّ، قد حرك مشاعرنا إلى حد استثنائي؟ وهل غمركم أي مكان بعد ذلك المكان بهذا المحيط من التفاصيل؟ التفاصيل، واتساع التفاصيل، وقوة التفاصيل، وثقل التفاصيل... ما لا نهاية له من تفاصيل غنية كانت محيطة بكم في زمان شبابكم مثلما تحيط بكم تلك الأقدام الست من التراب التي تُهال فوق قبوركم عندما تموتون.

لعلّ الحيّ، تعريفًا، هو المكان الذي يمنحه الطفل تلقائيًا انتباهه كلّه؛ إنه الطريقة غير المصفّاة التي يأتي بها المعنى إلى الأطفال مندفعًا إليهم من سطوح الأشياء. على الرغم من هذا، أسألكم بعد خمسين عامًا: هل كان الانغماس في المكان مكتملًا هكذا في أي وقت بعد ذلك؟ هل كان مثلما عشتموه في هذه الشوارع حيث تصير لكل بناية شخصيتها المطلقة، ولكل بيت، ولأرضية كل غرفة... للجدران والسقوف والأبواب والنوافذ في شقة أسرة كل واحد من الأصدقاء؟... وهل كنا في أي وقت بعد ذلك أدوات تسجيل دقيقة للتفاصيل المجهرية في سطوح الأشياء القريبة منا، لدقائق تدرّجات السويّة الاجتماعية التي تنطق بها الأرضيات المصنوعة من اللينوليوم والمفارش المشمَّعة وشموع الموتى وروائح الطبخ وقداحات الرونسون على الطاولات والستائر الفينيسية؟ كنا نعرف ما في حقيبة كل منّا التي وضعها في خزانته من طعام من أجل الغداء وما طلبه كل منا في السندويتش الذي اشتراه من متجر سيْد؛ كنا نعرف الخصائص الجسدية لكل واحد منا... من يمشي معوجّ القدمين، ومن له ثديان، ومن تفوح منه رائحة زيت الشعر، ومن يتناثر رذاذ لعابه عندما يتكلّم. كنا نعرف المَيّال إلى القتال، ونعرف الودود، ونعرف من كان ذكيًّا، ونعرف من كان غبيًّا. كنا نعرف من

تشوب نطق أمه لكنة غريبة، ونعرف من لأبيه شاربان، ونعرف من تعمل أمه ومن مات أبوه. بل كنا ندرك، إدراكًا غامضًا، كيف أن الظروف المختلفة لكل أسرة قد كوّنت لها مشكلتها البشرية الصعبة المختلفة عن مشكلات غيرها.
وبطبيعة الحال، كان هنالك ذلك التمرّد الذي لا مفرَّ منه، التمرّد الناجم عن الحاجة والشهيّة والخيال والتوق والخوف من الخزي. وما كان لدينا غير سبر أغوار مراهقتنا من أجل إلقاء ضوء على كيفية قيام كل منا، وحده، في السرّ، وقد داهمه الحِلم، بمحاولة لتنظيم تلك المراهقة وضبطها في زمن كانت العفة فيه لا تزال قضية وطنية بارزة يتعيّن على الشباب اعتناقها، مثلها مثل الحرّية والديمقراطية.
مدهش أن يظل حاضرًا في ذاكرتنا، بكل تفاصيله، كل ما كان ظاهرًا على الفور في حياتنا عندما كنا زملاء صف واحد. كثافة المشاعر التي تكون لدينا عندما اجتمعنا اليوم أمر مدهش أيضًا. لكن الأمر المدهش أكثر من ذلك هو أننا نقارب الآن سن أجدادنا وجدّاتنا عندما ذهبنا معًا إلى المدرسة الثانوية في الأول من شباط سنة 1946. المدهش في الأمر هو أننا، نحن الذين لم تكن لدينا أية فكرة كيف ستسير أمور أي شيء، صرنا الآن نعرف تمامًا كل ما حدث. لقد صارت النتائج ماثلة أمام صفّ خرّيجي كانون الثاني سنة 1950 - الأسئلة التي لا إجابات لها، صارت لها إجابات؛ وصار المستقبل مكشوفًا... أليس هذا مدهشًا؟ أليس مدهشًا أن نكون قد عشنا... في هذه البلاد، في زماننا، مثلما نحن؟ شيء مدهش!].
هذه هي الكلمة التي لم ألقها في الاجتماع السنوي الخامس والأربعين لخريجي مدرستي؛ كلمة موجّهة إلى نفسي، لكنها متنكّرة في هيئة كلمة موجّهة إليهم. لم أبدأ كتابتها إلا بعد انفضاض الاجتماع، في الظلام، في سريري، وأنا أحاول فهم ما أصابني. لقد جاءت نبرتها تأمّلية أكثر مما يصلح لاجتماع في صالة الاحتفالات في نادٍ ريفي، وأكثر مما يصلح من أجل ذلك النوع من الوقت الممتع الذي أراده الناس هناك... لكن هذه النبرة لم تبد لي في غير محلّها بين الثالثة والسادسة صباحًا عندما كنت أحاول (في حالة من الإثارة الزائدة عندي)

استيعاب تلك الوحدة الكامنة خلف اجتماعنا ذاك، تلك التجربة المشتركة التي جمعت بيننا في طفولتنا. بغضّ النظر عن الدرجات المختلفة من الحرمان والتمتّع بالمزايا، وبالرغم من مصادر القلق الكثيرة الناجمة عن مشاجرات عائلية متفرّقة (مشاجرات يمكن القول إنها، لحسن الحظ، كانت تنذر بتعاسة أكبر مما نتج عنها في الواقع)، فقد جمع بيننا شيء أكثر قوّة من هذا كلّه. لم يكن ذلك الشيء يوحّدنا من حيث المكان الذي نشأنا فيه فحسب، بل من حيث ما كنا ذاهبين إليه، ومن حيث كيفية وصولنا إلى ذلك المكان. صارت لدينا وسائل جديدة وغايات جديدة، ولاءات جديدة وأهداف جديدة، وصارت لدينا دخائل جديدة... يسر جديد، واضطراب أقل بعض الشيء في مواجهة أشكال الإقصاء التي لا يزال غير اليهود راغبين في الإبقاء عليها. فمن أي سياق نشأت هذه التحولات... من أية دراما تاريخية أتت فتركت، من غير توقع، أثرها على أولئك الممثلين الصغار الذين قدّموا أدوارهم في غرف المدرسة وفي المطابخ التي لا تبدو أبدًا شبيهة بمسرح الحياة الكبير؟ فما الشيئان اللذان اصطدما فأنتجا تلك الشرارة فينا؟

كنت لا أزال مستيقظًا، متنبّهًا تمامًا، أصوغ هذه الأسئلة وإجاباتها وأنا جالس في سريري... ظلال مشوشة مؤرقة لهذه الأسئلة كلّها، ولإجاباتها أيضًا... بعد نحو ثماني ساعات من قيادة السيارة عائدًا من نيوجرسي حيث كان اجتماعنا في يوم أحد مشمس أواخر شهر تشرين الأول في نادٍ ريفي في ضاحية يهودية بعيدة عن الخراب المخيِّم في موطن طفولتنا الذي صار موبوءًا بالمخدرات غارقًا في الجريمة. بدأ اللقاء في الحادية عشرة صباحًا واستمر جذلًا طيلة فترة بعد الظهر. التقينا في قاعة الاحتفالات، تمامًا عند حافة ملعب الغولف في ذلك النادي الريفي فكان لقاءً من أجل مجموعة من المسنين الذين يحسبون مضرب الغولف الحديدي ذا الرأس الكبير قطعة من لحم الرنجة. وأما الآن، فما عدت قادرًا على النوم... كان آخر ما أستطيع تذكّره هو عامل ساحة وقوف السيارات عندما أتاني بسيارتي وانعطف بها من أمام درجات مدخل الصالة، وسيلما بريسلوف، المسؤولة عن إدارة اللقاء، تسألني بلطف إن كنت قد استمتعت بوقتي فأجيبها:

«هذا يشبه ذهاب ناجٍ من إيو جيما(14) للاستراحة والحصول على ملابس جديدة».
تركت سريري وذهبت إلى مكتبي قرابة الساعة الثالثة صباحًا. كان رأسي نابضًا بأفكار كثيرة لا تزال هامدة لم تتّخذ بعد شكلًا لها. بقيت أعمل هناك حتى الساعة السادسة حين فرغت من كلمة لقاء الخريجين لكي أقرأها كما وردت أعلاه. فقط بعد أن أفلحت في بناء الخاتمة العاطفية التي أنهيتها بعبارة «شيء مدهش»، كانت دهشتي قد تراجعت أخيرًا (تراجعت إلى حد معقول) إزاء قوة مشاعري على نحو سمح لي بالنوم ساعتين... أو سمح لي بشيء يشبه النوم لأن نصف ذلك الزمن الذي نمته كان ذكريات ذاتية في حركة دائمة، كان ذكريات مستقرة في نقيّ العظم.
نعم... حتى بعد احتفال مسالم لطيف كلقائنا السنوي هذا، لم يكن أمرًا بسيطًا أن يستأنف المرء الوجود سريعًا ويعود إلى الاستمرارية والروتين اللذين يعصبان عينيه. لو كنت في الثلاثين أو في الأربعين... فلربما يخبو ذلك اللقاء بعيدًا فأنساه خلال الساعات الثلاث التي استغرقتها عودتي بالسيارة إلى البيت. لكن التحكّم بهذه الحوادث لا يكون سهلًا عندما يصير المرء في الثانية والستين، عندما لا يكون قد انقضى على عملية استئصال سرطان البروستات التي أجراها منذ زمن يتجاوز سنة واحدة. فبدلًا من إمساكي بوقت مضى، أمسك بي ذلك الوقت في الزمن الحاضر فكنت أغرق، في الواقع، في قلب ذلك الزمن الذي بدا أنني أخرج من عالمه.
خلال الساعات التي أمضيناها معًا من غير أن نفعل شيئًا غير أن نتعانق ونتبادل القبل ونضحك، ويتطفّل أحدنا على شؤون الآخر، ويحوم أحدنا من شخص لآخر متذكّرين المصائب والمشكلات التي جعلها مرور الزمن الطويل من غير أهمية ونصيح: «انظروا مَن هنا!»، و«أوه، لقد مرّ زمن طويل»، و«هل تتذكّرني؟ إنني أتذكّرك». ويسأل أحدنا الآخر: «ألم نذهب مرّة...»، و«هل كنت الولد الذي...»، ويأمر أحدنا الآخر بتلك الكلمات الثلاث المثيرة للمشاعر التي كنت أسمع الناس يكرّرونها طيلة بعد الظهر وهم ينجذبون إلى

أحاديث كثيرة في وقت واحد... «لا تذهب بعيدًا!»... وبالطبع، الرقص، وخطوات رقصاتنا العتيقة بخدود متلاصقة على أنغام أغاني «فرقة مكونة من رجل واحد»، صبيٍّ ملتحٍ في بدلة سوداء عصب جبهته فوق حاجبيه بعصابة حمراء (فتى مولود بعد عشرين سنة، على الأقل، من خروجنا معًا من صالة المدرسة، يوم التخرّج، على أنغام أوبرا يولانثي)، كان منكبًّا على جهاز المازج الموسيقي وهو يقلد أغاني نات كينغ كول وفرانكي لين وفرانك سيناترا... خلال تلك الساعات القليلة، خلال سلسلة الزمن، خلال ذلك الجريان كلّه لكل ما اسمه زمن، بدا فهم ذلك كلّه سهلًا كفهم أبعاد قطعة معجنات صغيرة يتناولها المرء من غير عناء مع قهوة الصباح. كان الفتى، «فرقة الرجل الواحد ذي عصابة الرأس»، يقدّم أغنية «ميول ترين» بينما رحت أفكّر في أن ملاك الزمن يمرّ من فوقنا ويزفر مع كل نفس من أنفاسه كل ما عشناه ومررنا به... كان حضور ملاك الزمن في تلك الصالة في نادي سيدار هيل الريفي واضحًا كحضور ذلك الفتى الذي كان يغني «ميول ترين» مثلما غناها فرانكي لين. وجدت نفسي أنظر أحيانًا إلى كل شخص كما لو أننا لا نزال في سنة 1950، وكما لو أن «سنة 1995» لم تكن إلا صورة مستقبلية عن حفل تخرّج نأتي إليه جميعًا، وقد وضعنا على وجوهنا أقنعة من الورق المقوّى، تمثّل ما قد يصير عليه مظهرنا مع اقتراب القرن العشرين من نهايته. كانت تلك الأمسية مخترَعة من أجل خداعنا نحن، لا من أجل خداع غيرنا. في داخل الفنجان الخزفي التذكاري الذي قدّمته سيلما لكل منا عند انصرافه، وجدت عددًا من الفطائر الحلوة الصغيرة موضوعة في كيس ورق برتقالي اللون، مغلّفة بقطعة برتقالية من السيلوفان مربوطة بشريط متوج مخطّط بالبني والبرتقالي، لونَيْ شعار مدرستنا! كانت تلك الفطائر طازجة كتلك التي كنت آكلها في البيت بعد المدرسة (كانت الفطائر في ذلك الوقت من صنع أمي، التي كانت تبيعها لنادي لعبة مايونغ)، وكانت تقدمة من واحد من زملاء صفّنا لديه الآن مخبز في بلدة تينيك. خلال الدقائق الخمس التي أعقبت انصرافي، فككت الغلافين عن الفطائر الست وأكلتها كلّها: كل واحدة منها قوقعة من عجين مرشوش بالسكر فيه «حجرات» مؤطّرة بالقرفة

ومرصّعة بقطع صغيرة من الزبيب والجوز. رحت ألتهم سريعًا، لقمة بعد لقمة، هذه الفطائر الصغيرة التي أحببت غناها الطحيني... امتزاج السكر والكريما والفانيليا وكريمة الجبن وصفار البيض والسكر... فطائر أحببتها منذ أن كنت طفلًا. لعلّي أجد فيها نيثان زوكرمان الذي اختفى مثلما عثر مارسيل بروست على مارسيل الذي ضاع منه لحظة عرف «مذاق فطيرة المادلين الصغيرة»: ترقّب الموت. لقد كتب بروست: «مذاق فحسب»، وكتب: «لم يكن لكلمة 'موت' أي معنى عنده». وهكذا رحت آكل تلك الفطائر بشراهة ونهم رافضًا أن أوقف، ولو لحظة واحدة، هذا الابتلاع الذئبي للدهون المشبعة، لكن من غير أن أحظى آخر الأمر بما يشبه حظ مارسيل.

فلنتحدّث أكثر عن الموت وعن الرغبة... من المفهوم أنها تصير رغبة يائسة مع التقدّم في السن... رغبة في تأجيل الموت، في مقاومته، في امتلاك أية وسائل ضرورية للنظر إليه بأي شيء، أي شيء، أي شيء غير الوضوح.

كان أحد الفتيان في اللقاء قادمًا من فلوريدا، وبحسب الكتيب الخاصّ باللقاء الذي تلقّى كل منا نسخة منه، فإن ستة وعشرين من خريجي تلك السنة في مدرستنا الذين بلغ عددهم مئة وستة وسبعين كانوا يعيشون في فلوريدا، إشارة طيبة معناها أنه لا يزال لنا في فلوريدا عدد من الأشخاص يفوق عدد من ماتوا (يفوقه بستة أشخاص). وبالمناسبة، لم يكن عقلي وحده من اعتبر الرجال الموجودين في اللقاء «فتيانًا» والنساء «بناتًا». قال لي ذلك الفتى إنه اضطر إلى التوقّف مرتين عند محطات الاستراحة في طريقه إلى ليفنغستون قادمًا من مطار نيوارك، حيث حطّت طائرته واستأجر سيارة وذلك حتى يدخل المرحاض. لقد كان في حالة توتّر شديد قبل اللقاء. كان اسم هذا الفتى ميندي غورليك؛ وقد انتُخب في سنة 1950 الفتى الأكثر وسامة في الصف. كان في سنة 1950 فتى جميلًا، عريض المنكبين، طويل الأهداب، وكان أكثر الراقصين أهمية لدينا. كان يحب أن يتجوّل هنا وهناك قائلًا للناس: «سوليد، جاكسون!» دعاه شقيقه الأكبر مرة إلى مبغى «ملْون» في شارع أوغوستا حيث يلتقي القوادون. كان ذلك المكان شديد القرب من متجر المشروبات الذي يذهب إليه

أبوهما. اعترف آخر الأمر بأنه ذهب إلى المبغى، وجلس منتظرًا، بملابسه كلها، في الممر الخارجي فأمضى الوقت في تصفّح عدد من مجلة «ميكانيكس إيلستريتد» وجده على الطاولة هناك، في حين كان أخوه هو من «فعل الأمر». كان ميندي أقرب من في صفنا إلى ما يمكن اعتباره «جانحًا». وكان ميندي غورليك (صار اسمه الآن ميندي غار) هو من أخذني معه إلى مسرح آدمز للاستماع إلى إلينويز جاكيت، وبودي جونسون، وسارا فوغان «من نيوارك نفسها»؛ وكان أيضًا من حصل على تذكرتين وأخذني معه لكي نستمتع إلى مستر بي وبي إليستاي في حفلة غنائية في «موسك»؛ كما تمكّن في سنة 1940 من الحصول على تذاكر لنا حتى نذهب لرؤية مسابقة ملكة جمال سيبيا أميركا في صالة لوريل غاردن. لقد كان ميندي هذا نفسه هو من أخذني، ثلاث أو أربع مرات، لكي نرى بيل كوك، الزنجي الذي يبث الموسيقى الناعمة بثًا مباشرًا في آخر الليل من محطة WAAT في نيوجرسي. كنت أستمع عادة إلى برنامج بيل كوك الليلي «ميوزيكال كارافان» في ليالي السبت في ظلمة غرفتي. كانت موسيقى البرنامج الافتتاحية مأخوذة من أغنية «كارافان» لإيلنغتون... موسيقى شديدة الغرابة، شديدة التعقيد، إيقاعات أفريقية/شرقية، ونغمات رقص شرقي... وأما البرنامج في حد ذاته، فقد كان يستحقّ الاستماع إليه لأن «كارافان»، بأداء ديوك الخاصّ به، كان يجعلني أشعر بأنني أفعل شيئًا محظورًا، حتى عندما أكون مندسًّا تحت ملاءات السرير النظيفة التي غسلتها أمي. يبدأ قرع الطبول متصاعدًا، ثم يتثنّى رشيقًا كالدخان صوت الترومبون، وبعده صوت الفلوت الناعم بسحره الأفعواني. كان ميندي يدعوها «موسيقى الانتصاب».

حتى نصل إلى محطة WAAT، وإلى استوديو بيل كوك، ذهبنا إلى قلب المدينة بالباص رقم 14، وبعد دقائق قليلة من جلوسنا بهدوء - كأننا في كنيسة - على كرسيين من الكراسي المصطفّة خارج مقصورته المغلّفة بالزجاج، ترك بيل كوك مايكروفونه وخرج للسلام علينا. على صوت أسطوانة «ريس ريكورد» - من أجل المستمعين الذين لا يزالون جالسين بأمان في بيوتهم، وبمودّة واضحة، صافح كوك الشابين الصغيرين الأبيضين الطويلين اللذين جاءا

مرتديين بدلتين لكل منهما زر واحد أتيا بهما من «أميركان شوب» وقميصين من «كاستم شوبي» بياقتين واسعتين. «كانت الملابس التي ارتديتها مستعارة من ميندي من أجل تلك الليلة». سألنا كوك بصوته ذي الرنين الشجيّ الذي كان ميندي يحاول تقليده كلّما تحدث معي على الهاتف «ما الذي تريدان سماعه أيها السيدان؟». طلبت منه شيئًا سارًّا ناعمًا، كأغنية «ميس» لدينا واشنطن، أو أغنية «ميس» لسافانا تشرتشل... وكم كان آسرًا في ذلك الوقت الاستماع إلى أغنية «ميس» الشهوانية... وأما ذوق ميندي فقد كان أكثر حدّة، وأكثر تسلّطًا من الناحية العرقية، فقد فضّل موسيقيين من قبيل عازف البيانو في الحانات القذرة، روزفلت سايكس، وآيفوري جوي هنتر («عندما خسرت حبيبتي... خسرت أكثر عقلي»). مرّت لحظات بدا لي فيها أن ميندي شديد الاعتزاز بقول بعض العبارات، مع التركيز على المقاطع الأولى منها، تمامًا مثلما كان يفعل صبيّ أسود من ساوث ساید اسمه ميلفين سميث كان يقوم بتوصيل الطلبات لدى متجر أبيه بعد المدرسة. (كان ميندي وأخوه يقومان أيضًا بتوصيل الطلبات أيام السبت). في إحدى الليالي، ذهب ميندي بجرأة فرافق ميلفين سميث إلى صالة في شارع بيكون خلف زقاق البولينغ للاستماع إلى موسيقى الجاز الجديدة «بيبوب». كان اسم تلك الصالة لويدز مانور؛ وكانت مكانًا لا يخاطر بالذهاب إليه إلا قلة من البيض، فضلًا عن بعض الصديقات البيضاوات لبعض العازفين. وكان ميندي غورليك أول من أخذني إلى متجر «ريديو ريكورد شاك»، في شارع ماركت حيث حظينا ببعض الصفقات الجيّدة من صندوق التسجيلات ذات الـ19 سنتًا، واستطعنا الاستماع إليها في مقصورة مخصّصة لذلك قبل أن نشتريها. ومن أجل المحافظة على الروح المعنوية في الجبهة الداخلية خلال الحرب، كانت تقام حفلة راقصة ليلة واحدة في الأسبوع في شهري تموز وآب في تشانسلر آفنيو. كان ميندي يشقّ طريقه ضمن جموع الناس المبتهجة - آباء وأمهات من حينا، وأطفال من المدارس، وأطفال صغار يجرون مسرورين هنا وهناك من حول القواعد المطلية بالأبيض حيث كنا نلعب الكرة في الصيف - مستغنيًا عن الاستماع إلى الفرقة الموسيقية التقليدية التي تقدّم أغاني يحبّ

الجميع الرقص عليها تحت الأنوار الكاشفة القوية الآتية من جهة المدرسة. وبصرف النظر عن اللحن الراقص الذي تعزفه الفرقة على المنصّة المزينة بالأعلام، كان ميندي يتجوّل في المكان طيلة الشطر الأكبر من الأمسية وهو يغني «كاوونيا، كالدوما، ما الذي يجعل رأسك الكبير يابسًا هكذا؟ حجارة!». كان يغني تلك الأغنية ويتكرّم بالقول إنه يقدّمها «مجانًا»... يقولها بطريقة غريبة مثلما كان لويس جوردان وفرقته «تيمباني فايف» يقولون في تسجيل، أرغم كلّ من في مسلسل ديرديفلز على الاستماع إليه كلّما دخلنا غرفته الشنيعة عندما لا يكون في البيت أحد من أهله، ومهما يكن سبب دخولنا (لنلعب لعبة الورقات السبع بدولار واحد، أو لننظر - للمرة المليون - إلى رسومه في كتاب «تيلي ذا تايور»).

وها هو الآن ميندي هنا، في سنة 1995، صبي ويكاهيك صاحب الموهبة الأكبر في ألّا يكون طفلًا نموذجيًا صالحًا... شخصية واقعة في منتصف الطريق بين الوقاحة وشيء من الضحالة المتمرّدة، قدر من الانحراف يحسده عليه الآخرون، كان يغازل البنات بطريقة مهينة - بطريقة تحوم دائمًا بين الإغراء والتهجم. ها هو ميندي غورليك الذي كنا نطلق عليه ألقابًا من قبيل «الوسيم» و«القذر» و«السخيف»... لا هو في السجن (كنت أحسب أن مآله السجن عندما كان يستحثّنا على الجلوس في دائرة على أرض غرفته، أربعة أو خمسة من المخاطرين المتهوّرين، وقد أنزلنا سراويلنا ورحنا نتنافس من أجل الفوز بدولارين موضوعين في طبق ينالهما من «يقذف» أولًا)، ولا هو في الجحيم (كنت واثقًا من أنه سيزج به هناك بعد أن يطعنه فيقتله شخص ملون «محلّق في المخدرات» في لويدز مانور). لكنه لم يكن الآن إلا صاحب مطعم متقاعدًا يملك ثلاثة مطاعم متخصصة في اللحوم المشويّة تحمل اسم «غارز غريل» في أحياء الضواحي في لونغ آيلاند. ليس الآن أسوأ سمعة من أي شخص آخر في هذا اللقاء لزملاء الدراسة بعد خمسة وأربعين عامًا.

(12) قانون GI: هو قانون تصحيح أوضاع الجنود الذي صدر في سنة 1944،

فأتاح مجموعة واسعة من المكتسبات للجنود العائدين من الحرب العالمية الثانية. نشأت عن هذا القانون قدرة مفاجئة عند من ذهبوا إلى الحرب في أول شبابهم على بدء حياتهم من جديد من غير اعتماد على ذويهم.
(13) تاباتيشنيك Tabachnik: شركة للمأكولات الجاهزة كانت في نيوارك.
(14)Iwo Jima أيو جيما: جزيرة بركانية يابانية جرى فيها إنزال لوحدات مشاة البحرية الأميركية التي خاضت على تلك الجزيرة معركة شديدة القسوة. (المعرب).

التقينا في مطعم إيطالي في منطقة ويست فوتيز، كان السويدي يأخذ أسرته إليه منذ سنين كلما أتوا إلى نيويورك لمشاهدة عرض في برودواي أو لحضور مباراة لفريق نيكس في صالة غاردن، فأدركت على الفور أنني لن أحظى برؤية الأساس الذي توقّعت رؤيته. كان كل من في مطعم فينسنت يعرفه بالاسم... فينسنت نفسه، وزوجة فينسنت، وكبير المضيفين لوي، وعامل البار كارلو، والنادل بيلي... كان الجميع يعرف السيد ليفوف، ويسأل عن أحوال الأولاد والآنسات الصغيرات. ثم اتضح لي أنه كان يأتي بأبيه وأمه إلى هذا المكان، عندما كانا حيّين، للاحتفال بذكرى زواجهما أو بأعياد ميلادهما. قلت في نفسي: لا، لقد دعاني إلى هذا المكان حتى يبيّن لي أنه محط إعجاب هنا مثلما كان محط إعجاب في جادة تشانسلر.

فينسنت واحد من تلك المطاعم الإيطالية ذات النمط العتيق في شوارع الناحية الغربية في ميدتاون، بين بلازا وصالة ماديسون سكوير الرياضية؛ تلك المطاعم الصغيرة التي لا يتجاوز عرض الواحد منها أربع طاولات ولا يتجاوز عمقه أربع ثريات؛ ولم يكد يتغيّر شيء في ديكوره وقوائم طعامه منذ ما قبل اكتشاف الجرجير. مباراة كرة في جهاز التلفزيون الموضوع إلى جانب البار الصغير. وأحد الزبائن ينهض من حين لآخر ويذهب فينظر إلى ذلك التلفزيون دقيقة، ثم يسأل عامل البار عن النتيجة ويسأله عن أداء ماتينغلي، ثم يعود إلى طعامه. كانت الكراسي منّجدة بنسيج بلاستيكي تركوازي لامع، وعلى الأرضية بلاط منقّط بلون السلمون. جدار تكسوه مرآة كبيرة، وثريات من النحاس الأصفر

الزائف، ومطحنة فلفل حمراء فاقعة، ارتفاعها خمس أقدام موضوعة من أجل الزينة في إحدى الزوايا كأنها تمثال لجياكوميتي (قال السويدي إنها هدية لفينسنت من بلدته في إيطاليا)؛ وفي الزاوية المقابلة - كأنما من أجل موازنة مطحنة الفلفل، كانت زجاجة نبيذ جيربوم أوف بارولو ضخمة منتصبة على قاعدة كأنها تمثال. طاولة عليها كمية كبيرة من مرطبانات صلصة مارينارا الخاصّة بمطعم فينسنت قائمة قبالة وعاء سكاكر النعناع المجانية بعد العشاء، إلى جانب صندوق المحاسبة الذي تديره السيدة فينسنت. كان على قائمة الحلويات تيراميسو ونابوليون والكيك ذو الطبقات، وتارت التفاح، والفراولة المغلّفة بالسكر. وعلى الجدار من خلف طاولتنا، علّقت صور موقّعة مهداة («أطيب التمنيات لفينسنت وآن») من سامي ديفيس جونيور، وجوي ناماث، وليزا مينيللي، وكاي بالارد، وجين كيلي، وجاك كاتر، وفيل ريزوتو، وجيني وجوانا كارسون. بالطبع، كان يجب أن تكون بين تلك الصور واحدة تحمل توقيع السويدي. وكان من شأنها أن تكون هناك لو أنه ظلّ مستمرًّا في مقاتلة الألمان واليابانيين، ولو أن ويكاهيك العليا كانت على الناحية الأخرى من هذا الشارع.

لم يكن نادلنا، بيلي، (رجلٌ قصيرٌ أصلع، متين البنية، له أنف ملاكم مكسور)، في حاجة إلى السؤال عما يريد السويدي تناوله من طعام. فعلى امتداد أكثر من ثلاثين سنة، كان السويدي يطلب من بيلي الطبق المميز في المطعم، زيتي آلا فينسنت، مع محار بوسيليبو(10). قال لي السويدي: «هذه أفضل زيتي مصنوعة في نيويورك»، لكني طلبت طبقي المفضل التقليدي، الدجاج مع صلصة الطماطم والفطر والأعشاب، «من غير عظام» نزولًا عند اقتراح بيلي. وخلال تسجيله طلباتنا، كان بيلي يخبر السويدي بأن توني بينيت كان عندهم في المساء الفائت.مقارنة ببنية بيلي الجسدية القوية... رجل يمكنك تخيّله يحمل أوزانًا ثقيلة طيلة حياته، وليس أطباق الزيتي... فقد كان صوته تسلية حقيقية غير متوقّعة - صوتًا حادًا مرتفع النبرة جعلته محن طال احتمالها متوترًا بعض الشيء. «هل ترى هذا الكرسي الذي جلس عليه صديقك؟ هذا كرسيه يا سيد

ليفوف. لقد جلس توني بينيت على هذا الكرسي». ثم قال لي: «أتعرف ما يقوله توني بينيت عندما يأتي الناس إلى طاولته للسلام عليه؟ يقول: ‘سررت بلقائك’. وأنت الآن جالس في مكانه».

كان من شأن هذا أن يضع نهاية للتسلية: منذ الآن فصاعدًا صار الأمر عملًا! جلب لنا صور أولاده الثلاثة حتى نراها. ومنذ تقديم المقبّلات وصولًا إلى تناول المحلّيات بعد الطعام، كان الحديث كلّه عن كريس البالغ ثمانية عشر عامًا، وستيف البالغ ستة عشر عامًا، وكنت ذي الأربعة عشر عامًا. واحد متميز في لعبة لاكوس أكثر من تميّزه في البيسبول، لكن مدرّبه يضغط عليه كثيرًا... وواحد بارع في كرة القدم مثلما هو بارع في كرة القدم الأميركية، لكنه غير قادر على حسم أمره واختيار واحدة من الاثنتين. وصبي كان بطلًا للغطس وتمكّن أيضًا من كسر الرقم القياسي لمدرسته في سباحة الفراشة وسباحة الظهر. كل واحد منهم تلميذٌ مجتهدٌ... أعلى الدرجات، أو التي تليها: واحد كان «مهتمًا» بالعلوم، والآخر أكثر ميلًا إلى «الأمور الاجتماعية»، وأما الثالث... إلخ. كانت لديه صورة للأولاد الثلاثة مع أمّهم، شقراء أربعينية مليحة المظهر، تعمل مديرة إعلان في صحيفة أسبوعية في مقاطعة موريس. كان السويدي سريعًا في الإشارة إلى أنها لم تبدأ حياتها المهنية إلا بعد أن صار أصغر أبنائها في الصف الثاني في المدرسة. كان الأولاد محظوظين بأن لديهم أمًّا تضع البقاء في البيت وتنشئة الأطفال على رأس أولوياتها.

مع نهاية العشاء، صرت متأثّرًا بمدى ما بدا عليه من اطمئنان إلى كل شيء عادي يقوله، وبكم كان كل ما قاله مشبَعًا بطبعه الطيّب. بقيت منتظرًا أن يتكلّم في شيء يتجاوز هذا التباهي الذي لا يمكن للمرء الاعتراض عليه؛ إلا أن ما ارتفع إلى السطح لم يكن إلا مزيد من السطح. قلت في نفسي إنه لا يملك غير «انعدام الطعم» هذا... كان الرجل متلألئًا بانعدام الطعم. لقد ابتكر لنفسه هيئة مستعارة؛ ثم صارت الهيئة المستعارة هو نفسه. ظننت خلال تلك الوجبة أنني لن أكون قادرًا على إتمامها، وأنني لن أصل إلى الحلوى التي بعدها إن ظل ماضيًا في امتداح أسرته والثناء عليها... إلى أن بدأت أشك في أن هذا الذي أمامي ليس

هيئة مستعارة، بل رجلٌ مجنونٌ.
لقد ركبه شيء جعله يتوقّف في مكانه. شيء حوّله إلى تفاهة بشرية. شيء حذّره قائلًا: لا يجوز أن تعارض أي شيء!
كان السويدي أكبر مني بست سنوات، أو سبع؛ أي أنه قد قارب السبعين. لكنه ظلّ بديع المظهر على الرغم من الغضون عند عينيه، وعلى الرغم من أن ما تحت وجنتيه الناتئتين كان غائرًا أكثر مما تقتضيه المعايير الكلاسيكية. ظننت أن نحوله ناتج عن نظام غذائي ما، أو عن إكثاره من الجري أو لعب التنس، إلى أن اكتشفت في نهاية الوجبة إلى أنه قد أجرى جراحة البروستات خلال فصل الشتاء، وبدأ الآن يستعيد الوزن الذي فقده. لست أدري أيهما كان أكثر إدهاشًا لي، معاناته مرضًا أم اعترافه بذلك. بل إنني تساءلت عما إذا كانت تلك العملية الجراحية وعقابيلها هي ما غذّى إحساسي بأنني جالس مع شخص غير سليم عقليًا.
قاطعته في لحظة من اللحظات وسألته عن أعماله محاولًا ألا أبدو شديد التوق إلى تغيير وجهة الكلام: كيف صارت إدارة مصنعه في نيوارك هذه الأيام؟
جعلني هذا السؤال أكتشف أن شركة نيوارك ميد قد هجرت نيوارك منذ أوائل السبعينات. والواقع أن تلك الصناعة كلّها قد انتقلت إلى خارج البلاد: جعلت النقابات العمالية تحقيق الصناعيين أرباحًا أمرًا متزايد الصعوبة؛ وصار المرء شبه عاجز عن العثور على أشخاص للعمل بالقطعة، أو لتنفيذ العمل كما يريد تنفيذه. ثم إن في أماكن أخرى وفرة من العمال الذين يمكن تدريبهم بحيث يصلون إلى السويات التي كان يمكن الوصول إليها في قطاع القفازات منذ أربعين أو خمسين عامًا. لقد حافظت عائلته على سير أعمالها في نيوارك زمنًا طويلًا حقًا؛ وذلك انطلاقًا من الإحساس بالواجب تجاه العمال القدامى الذين كان أكثرهم من السود. ظلّ السويدي مستمرًا هناك نحو ست سنوات بعد حوادث الشغب التي جرت سنة 1960. وصمد في وجه الوقائع الاقتصادية التي عمّت ذلك القطاع كلّه، وكذلك في مواجهة شتائم والده، وظل صامدًا قدر ما استطاع. ولما صار غير قادر على إيقاف تآكل قوة العمل التي شهدت تدهورًا ثابتًا

مستمرًا منذ الشغب، فقد استسلم وكفَّ عن المحاولة وأفلح في الخروج بأضرار قليلة من ذلك الانهيار الذي أصاب المدينة. اقتصرت خسائر مصنع نيوارك ميد أثناء أيام الشغب الأربعة على بضع نوافذ مكسورة، على الرغم من أن النار التهمت بنايتين صناعيتين على مسافة خمسين ياردة من بوابة منصة التحميل على شارع ويست ماركت، فهجرهما أصحابهما.

«الضرائب، والفساد، والمشكلات العرقية. صلوات أبي وتضرّعه. أي شخص، على الإطلاق... أناس من مختلف أنحاء البلاد ممن لا يبالون أبدًا بمصير نيوارك... لم يكن هذا ليشكل أي فارق بالنسبة إليه. وسواء كان في شقته في ميامي بيتش، أو على متن سفينة سياحية في البحر الكاريبي، فإنه يحدِّث الجميع عن نيوارك القديمة التي يعشقها وقد ذبحتها الضرائب ذبحًا، وذبحها الفساد والمشكلات العرقية. كان أبي واحدًا من رجال شارع برينس أحب المدينة طيلة حياته. لقد حطّم قلبه ما أصاب نيوارك». كان السويدي يقول لي: «إنها أسوأ مدينة في العالم، يا سكيب. كانت مدينة يصنعون فيها كل شيء. وصارت الآن عاصمة العالم في سرقة السيارات، هل كنت تعرف هذا؟ ليس أسوأ تطوّر يمكن أن يحدث، لكنه يظلّ شديد السوء. يعيش أكثر اللصوص في حيّنا القديم. أطفال سود. أربعون سيارة تسرق في نيوارك كل أربع وعشرين ساعة. هذه هي الإحصائيات. أمر غير قليل، أليس كذلك؟ تلك السيارات المسروقة أسلحة قاتلة... يطيرون بها كالصواريخ بعد سرقتها، وأما الهدف فهو أي شخص يكون في الشارع، أشخاص مسنّون، أطفال صغار، لا يهم. كان الشارع أمام مصنعنا ميدان سباق بالنسبة إليهم. هذا سبب آخر لذهابنا. أربعة أو خمسة أولاد متدلّين من نوافذ سيارة تسير بسرعة ثمانين ميلًا في الساعة في سنترال آفنيو. عندما اشترى أبي ذلك المصنع، كانت عربات الترولي تسير في سنترال آفنيو. وإلى الأمام في ذلك الشارع، كانت معارض السيارات. سنترال كاديلاك. لاسال. وفي كل شارع جانبي، كان هناك مصنع ينتج فيه أحدهم شيئًا ما. وأما الآن، فإن متاجر الكحول في كل مكان، متجر كحول، وكشك لبيع البيتزا، وكنيسة بائسة. وأما ما عدا ذلك، فكلّه خراب، أو مغلق بألواح خشبية. عندما اشترى أبي

المصنع، كان على مرمى حجر منه مصنع كيلر لإنتاج الألوان المائية. وكان فورتكانغ يصنع أجهزة إنذار الحريق، ولاسكي يصنع المشدّات النسائية، وروبينز يصنع الوسائد، وهوبينغ يصنع أقلام الحبر... يا إلهي... صرت أتحدث مثل والدي. لكنه كان محقًّا... كان يقول: ‘الحالة في انهيار’. صارت سرقة السيارات المهنة الأولى الآن. اجلس في الشارع في أي مكان في نيوارك، ولا تفعل شيئًا غير أن تنظر حولك. لقد هاجموني عند بيرغن بالقرب من ليونز. هل تتذكّر متجر هنري؟ ‘متجر الحلويات’ الذي كان إلى جانب مسرح بارك؟ حسنًا، هناك تمامًا، حيث كان متجر هنري. أخذتُ أول فتاة أخرج في موعد معها في المدرسة الثانوية لكي نشرب الصودا في الكشك هناك. اسمها آرلين دانزيغر. أخذتها لكي نشرب صودا سوداء وبيضاء بعد السينما. لكن ‘سوداء وبيضاء’ لم تعد تعني صودا في شارع بيرغن. صارت تعني أسوأ أنواع الكراهية في العالم كله. أتت سيارة بعكس اتجاه السير في شارع ذي اتجاه واحد فصدمتني. أطل أربعة أطفال من نوافذها. نزل اثنان منهم. كانا يضحكان ويطلقان النكات. ثم سددا مسدسًا إلى رأسي، أعطيتهما المفاتيح، فانطلق واحد منهما بسيارتي. تمامًا أمام المكان الذي كان فيه متجر هنري. إنه شيء مخيف. يصدمون سيارات الشرطة في وضح النهار. يصدمونها من الخلف. يفعلون ذلك لكي تنفتح الوسائد الهوائية في السيارة. يسمونها ‘كرات العجين’. هل سمعت بكرات العجين؟ ألم تسمع بهذا؟ هذا ما يسرقون السيارات من أجله. ينطلقون بأقصى سرعة، ثم يضغطون على المكابح ويرفعون مكبح اليد ويديرون عجلة القيادة فتبدأ السيارة بالدوران في مكانها. يدورون بالسيارة هكذا وهم منطلقون بسرعة هائلة. لا يعني لهم شيئًا أن يقتلوا السائرين في الشارع. ولا يعني لهم شيئًا أن يقتلوا من يقودون سيارات في الشارع. ولا يعني لهم شيئًا أن يقتلوا أنفسهم. يكفي أن ترى آثار العجلات على الأرض حتى يصيبك الرعب. لقد قتلوا امرأة أمام بيتي في ذلك الأسبوع نفسه الذي سُرقت فيه سيارتي. جعلوا السيارة تدور منزلقة. وكنت شاهدًا على هذا. كنت خارجًا إلى العمل في ذلك اليوم. سرعة هائلة. هدير المحرك. وزعيق مكابح فظيع. كان أمرًا مفزعًا. جعل الدم

يجري باردًا في عروقي. كانت تلك المرأة آتية بسيارتها من الشارع رقم اثنين... شابة سوداء... اصطدموا بها. كانت أمًّا لثلاثة أطفال. وبعد يومين فقط، قتلوا واحدًا من عمالي. كان رجلًا أسود. لكنهم لا يبالون بهذا، أسود، أبيض، لا أهمية للأمر! يمكن أن يقتلوا أي شخص. شخص أعرفه اسمه كلارك تاير. كان يتولّى أمور شحن المنتجات عندي... اصطدموا به عندما كان خارجًا بسيارته من ساحة التحميل لدينا ذاهبًا إلى بيته. عملية جراحية استمرت اثنتي عشرة ساعة؛ ثم أربعة شهور في المستشفى. إعاقة دائمة. إصابات في الرأس؛ وإصابات داخلية، وحوض مكسور، وكتف مكسور، وتشقّقات في العمود الفقري. كانت مطاردة بسرعة كبيرة؛ فتى مجنون في سيارة مسروقة، ومن خلفه رجال الشرطة. اصطدم به الفتى مباشرة فحطم باب السائق. انتهى أمر كلارك. ثمانون ميلًا في الساعة في سنترال آفنيو. كان لص السيارات في الثانية عشرة فقط. وحتى يعلو رأسه فوق عجلة القيادة، كان عليه أن يضع شيئًا تحته على المقعد. أمضى ستة أشهر في سجن جيمسبرغ، ثم عاد فظهر خلف مقود سيارة مسروقة أخرى. لا... لقد فاض بي الكيل. أنا أيضًا. سُرقت سيارتي تحت تهديد المسدس؛ وصار كلارك مقعَدًا؛ وقتلت تلك المرأة. لقد حسم ذلك الأسبوع الأمر كلّه. كان هذا كافيًا».

صارت أعمال شركة نيوارك ميد الصناعية كلّها تجري في بورتو ريكو. تعاقد السويدي - حينًا من الزمن بعد تركه نيوارك - مع الحكومة الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا، ووزّع العمل بين مصنعه الذي صار في بونسي في بورتو ريكو، ومصنع القفازات التشيكوسلوفاكي في برنو. لكنّ مصنعًا مناسبًا له عُرض للبيع في أغواديلا في بورتو ريكو، بالقرب من نايا غييز، فاشتراه وأنهى علاقته بالتشيكوسلوفاكيين الذين كانت بيروقراطيتهم مزعجة منذ البداية. ثم تمكّن من توحيد أعماله الصناعية عندما اشترى مصنعًا آخر في بورتو ريكو (مصنع كبير الحجم)، ونقل الآلات إليه، وأطلق برنامجًا تدريبيًا للعمال، وعيّن لديه ثلاثمئة شخص إضافي. لكن بورتو ريكو نفسها صارت مرتفعة التكلفة في الثمانينات فتركها الجميع، عدا نيوارك ميد، متجهين إلى الشرق الأقصى حيث

القوة العاملة رخيصة وافرة... ذهبوا إلى الفيليبين أول الأمر، ثم إلى كوريا وتايوان. والآن إلى الصين.

وحتى قفازات البيسبول، القفاز الأكثر أميركية على الإطلاق الذي كان يصنعه أصدقاء أبيه منذ زمن بعيد في نيويورك (آل دينكرتس في جونزتاون)، صارت الآن تُصنع في كوريا. عندما ترك أول شخص بلدة كلوفرزفيل بولاية نيويورك في سنة 1952 أو 1953 وذهب إلى الفيليبين ليصنع القفازات هناك، ضحك منه الجميع كما لو أنه ذاهبٌ إلى القمر. لكن ذلك الشخص مات في سنة 1978، وكان لديه هناك أربعة آلاف عامل، وكانت تلك الصناعة بأسرها تقريبًا قد انتقلت من كلوفرزفيل إلى الفيليبين. عند بداية الحرب العالمية الثانية، لا بد أن كلوفرزفيل كانت تضم تسعين مصنعًا للقفازات، مصانع كبيرة ومصانع صغيرة؛ وأما اليوم فليس فيها أي مصنع منها... خرج الجميع من هذا القطاع، أو صار البعض مستوردين من الخارج. قال السويدي: «أشخاص لا يميّزون بين الفرشاة والإبهام. إنهم رجال أعمال. وهم يعرفون أنهم يريدون مئة ألف زوج من هذا، ومئتي ألف زوج من ذاك، بألوان ومقاسات كثيرة، لكنهم لا يعرفون تفاصيل صنع تلك القفازات كلّها». سألته: «وما الفرشاة؟». أجابني: «إنها ذلك الجزء من القفاز الذي يكون بين الأصابع. تلك القطع المتطاولة الصغيرة بين أصابع القفاز. يجري قصّها بالقالب مع قص القفاز نفسه... تلك هي الفراشي. لكن لديك الآن الكثير من الأشخاص منخفضي التأهيل؛ ولعلّهم لا يعرفون نصف ما كنت أعرفه في الخامسة من عمري؛ لكنهم يتّخذون قرارات كبيرة حقًّا. يشتري شخص جلدًا فاخرًا قد يبلغ ثمن القدم المربعة منه ثماني دولارات وخمسين سنتًا، إذا كان من النوع المستخدم في الملابس. يشتري هذا الجلد الفاخر الممتاز ليقصّ منه وجه قفازات التزلج. تحدّثت معه منذ بضعة أيام فقط. إنه يصنع نوعًا جديدًا من القفازات مساحة الجلد فيه لا تتعدى إنشًا واحدًا مقابل خمسة إنشات من الجلد المستخدم في النوع القديم، لكنه يدفع ثلاثة دولارات وخمسين سنتًا ثمنًا للقدم المربعة نفسها على الرغم من إمكانية الاكتفاء بدفع دولار وخمسين سنتًا، فهذا يوفّر عليه مالًا كثيرًا جدًا. اضرب هذا التوفير بعدد القفازات في طلبية ضخمة

وسوف تجد أن ثمن تلك الغلطة قد صار مئة ألف دولار. لكنّه لا يعرف هذا أبدًا. لا يعرف أنه كان قادرًا على وضع مئة ألف دولار في جيبه».

شرح السويدي لي كيف وجد نفسه عالقًا في مهمات العلاقات العامة، مثلما كان عالقًا بسبب العلاقات العامة في نيوارك. وذلك، في أكثره، ناتج عن أنه درّب عددًا كبيرًا من الأشخاص الجيدين حتى يصيروا قادرين على أداء التفاصيل الدقيقة في صناعة القفاز بعناية واهتمام بكل جزء... أشخاص يستطيعون إعطاءه الجودة التي تطلبها نيوارك ميد، تلك الجودة التي كانت على أيام أبيه. لكنه كان مضطرًا إلى الاعتراف أيضًا بأنه ظلّ هناك حتى وقت متأخّر بسبب أسرته التي كانت مستمتعة كثيرًا ببيت العطلات الذي بناه قبل نحو خمسة عشر عامًا على شاطئ البحر الكاريبي غير بعيد جدًا عن مصنعه في بونسي. أحب أطفاله العيش هناك... في تلك اللحظة، انطلق مجددًا في حديثه القديم: كِنت وكريس وستيف، والتزلج على الماء، والغطس، والزوارق الشراعية... وعلى الرغم من أن كل ما رواه لي كان مؤشّرًا واضحًا على أن هذا الرجل قادر أن يكون صاحب حديث جذّاب إن أراد هو ذلك، فقد بدا لي أنه فاقد أية قدرة على التمييز بين ما هو مثير للاهتمام وما هو غير مثير للاهتمام في عالمه. أو لعله (لأسباب لم أستطع فهمها) لم يرد أن يكون عالمه مثيرًا لاهتمامي. كنت مستعدًا لتقديم أي شيء حتى أجعله يعود للحديث عن كيلر وفورتكانغ ولاسكي وروبنز وهوبينغ، وعن الفراشي والمعلومات التفصيلية الخاصة بصناعة القفاز الجيّد، بل حتى عن ذلك الشخص الذي دفع ثمنًا للقدم المربعة من الجلد ثلاثة دولارات وخمسين سنتًا من أجل ذلك التصميم الجديد... لكني عجزت عن العثور على طريقة متمدّنة تسمح لي بإعادته إلى ذلك بعد أن انطلق في الحديث عن أبنائه، وصرت عاجزًا عن جعل مركز اهتمامه يتحوّل عن إنجازات أولاده البرّية والبحريّة.

وبينما كنا في انتظار الحلوى بعد الطعام، باح لي السويدي بأنه سيدلّل نفسه بأن يطلب حلوى زاباغليوني التي تسبّب السمنة بعد أن تناول الزيتي لأنه لا يزال يريد تعويض عشرة باوندات من وزنه لم يستطع استعادتها حتى بعد مرور

شهور على عملية البروستات.
«وهل جرت العملية على ما يرام؟».
«كانت جيدة».
قلت: «لدي صديقان لم تسر تلك العملية عندهما السير الحسن الذي كانا يتوقّعانه. من الممكن أن تكون هذه العملية كارثة بالنسبة إلى الرجل؛ حتى بعد أن يتخلّص من السرطان».
«صحيح. أعرف أن هذا يحدث أحيانًا».
قلت: «أصاب العجز الجنسي واحدًا منهما. وأما الآخر، فأصابه العجز الجنسي وسلَس البول معًا. إنهما شخصان في مثل سني. وقد كان الأمر قاسيًا عليهما. كان مدمّرًا. من الممكن أن تجعلك تلك النتيجة في حاجة دائمة إلى حفاضات».
كنت أنا ذلك الشخص الذي أشرت إليه بكلمة «الآخر». أجريت العملية في بوسطن وباستثناء صديق واحد في بوسطن أطلعته على الأمر بعد أن ساعدني في تلك المحنة إلى أن وقفت على قدميّ من جديد، فقد عدت إلى البيت الواقع على مسافة ساعتين ونصف الساعة إلى الغرب من بوسطن، في بركشايرز، حيث أعيش وحدي، وقرّرت أن أحتفظ لنفسي بحقيقة أنني كنت مصابًا بالسرطان، وبالإعاقتين اللتين سبّبتهما لي تلك العملية.
قال السويدي: «بالفعل... أظنني عبرت ذلك بكل سهولة».
أجبته بالقدر الكافي من المودّة واللطف: «نعم، هذا صحيح». كنت أفكر في أن هذا الدنّ الكبير من الرضا عن النفس قد حاز حقًّا كل ما أراده. احترام كل ما يفترض أن يحترمه المرء؛ وعدم الاعتراض على أي شيء؛ وألا يضايقه أي قدر من قلة الثقة في النفس؛ وعدم الوقوع أبدًا في حبائل الهواجس وعذاب الضعف وسمّ الضغينة، وتحكّم الغضب... كأن الحياة كانت عند السويدي أشبه بتدحرج كرة منفوشة من خيوط الصوف.
أعادتني هذه الأفكار إلى رسالته، وإلى طلبه مشورة اختصاصية من أجل ذلك الثناء الذي كان يحاول كتابته تحيّة لوالده. لم تكن عندي رغبة في المبادرة إلى طرح الأمر. لكنّي بقيت حائرًا لا لأنه لم يطرحه بنفسه فحسب، بل لأنني لم أفهم

السبب الذي جعله يكتب لي عن ذلك أصلًا. لم أستطع (بالنظر إلى ما صرت أعرفه الآن من أن حياته لم تكن غنية كثيرًا بالتعارضات ولا مضطّربة كثيرًا بفعل التناقضات) غير استنتاج أن تلك الرسالة وما جاء فيها كانت نتيجة عمليته الجراحية التي أثارت فيه - بعد حدوثها - شيئًا لم يكن من طباعه... أثارت فيه عاطفة جديدة مفاجئة تقدّمت إلى الواجهة. صحيح... قلت في نفسي... لقد نشأت الرسالة من اكتشاف السويدي ليفوف المتأخّر لمعنى أن يكون المرء مريضًا، غير معافى، ولمعنى أن يكون ضعيفًا، غير قوي؛ اكتشافه معنى ألا يبدو عظيمًا! يا له من عار جسدي، ويا له من خزي، ويا له من شيء بشع... يا له من انقراض! لقد اكتشف كيف يجد المرء نفسه يسأل «لماذا؟». لقد خانه - على غير توقّع - جسد رائع كان على الدوام مصدر اطمئنان له، وشكّل خلاصة تميّزه عن الآخرين: أصابه فقدان مؤقت لتوازنه فتمسّك بي (دونًا عن بقية الناس جميعًا) لأكون وسيلة تمكّنه من مد يديه إلى أبيه المتوفّى والاستنجاد بقوته لكي يحمي نفسه. تهاوت أعصابه لحظة فتحوّل إلى هذا الرجل الذي اعتاد، على ما أرى، أن يستخدم نفسه لإخفاء نفسه... تحوّل إلى كائن عاجز مندفع تحت وطأة حاجة ملحّة إلى الحماية والعون. لقد انبجس الموت في الحلم الذي هو حياته (مثلما انبجس في حياتي للمرة الثانية خلال عشر سنين)، فما كان من الأشياء التي تقلق الرجال في سننا إلا أن سببت له القلق... حتى للسويدي.

لم أدرِ إن كان لا يزال راغبًا في تذكّر ما عاشه في فراش مرضه من هشاشة وضعف جعلا بعض الأمور التي لا مهرب منها أمورًا حقيقية بالنسبة إليه بقدر ما كان المظهر الخارجي لحياة أسرته حقيقيًا؛ ولم أدرِ إن كان قد تذكّر ذلك الظل الذي أقحم نفسه بين الطبقات الكثيرة لرضاه عن نفسه كما لو أنه حالة من التجمّد الخبيث. لكنه أتى إلى موعد العشاء هذا! فهل أفهم من مجيئه أن تلك الهشاشة لم تنجلِ عنه كلّها، وأن حالة الطوارئ لم تزل قائمة، وأن «حماياته» لم تُستعد كلّها؟ أم إن قدومه اليوم وثرثرته السعيدة عن كل شيء يمكن احتماله كانا أسلوبه الخاص في التخلّص من آخر مخاوفه؟ كلما ازددت تفكيرًا في هذا الذي يبدو روحًا بسيطة، الجالس قبالتي يأكل الزباغليوني وينضح صدقًا، كلما حملتني

أفكاري بعيدًا عنه. لم أكن أدرك الرجل داخل الرجل إلا بالكاد. لم أستطع فهمه. لم أستطع أبدًا أن أتخيّله بعد أن صرت متوتّرًا نتيجة هذا الاضطراب الذي اكتشفته فيه: عدم القدرة أبدًا على استنتاج أي شيء غير ما هو خارجي. ليس إجهاد العقل في محاولة فهم هذا الشخص إلا سخفًا... هكذا صرت أقول لنفسي. إنه وعاء لا تستطيع فتحه. لا يمكن حلّ لغز هذا الرجل عن طريق التفكير. هذا هو سر أسراره. يشبه الأمر محاولة فهم شيء من تمثال داوود لمايكل أنجلو!

لقد أعطيته رقم هاتفي في رسالتي الجوابية... فلماذا لم يتّصل ويلغي الموعد إن كان احتمال الموت قد كفّ عن تنغيصه؟ فبعد أن عاد إلى ما كان عليه دائمًا، بعد أن استعاد ذلك التألق المكاني الذي جعله في السابق يفوز بما أراده أبدًا، فأية حاجة له بي؟ لا... قلت في نفسي إن رسالته لا يمكن أن تكون القصة كلّها. لو كانت هي القصّة كلّها، لما جاء. ثمة شيء باقٍ من ذلك الشخص العاجز الذي يتعجّل تغيّر الأمور. لا يزال فيه شيء مما استولى عليه في المستشفى. وجود غير مؤكّد ما عاد يخدم حاجاته. إنه يريد شيئًا مسجَّلًا. هذا ما جعله يأتي إليَّ: يريد تسجيل ما قد يصير منسيًّا إن لم يُسجَّل... يحذف ويغيب عن الذاكرة. فماذا يمكن لذلك الشيء أن يكون؟

أو لعله رجل سعيد فحسب! إن الناس السعداء موجودون أيضًا! ولماذا لا يكونون موجودين؟ لم تكن تلك التخمينات العشوائية كلّها لدوافع السويدي إلا نتيجة نفاد صبري المهني ومحاولتي أن أسبغ على السويدي ليفوف شيئًا يشبه المعنى الذي حاول تولستوي إسباغه على إيفان إيليتش(11) الذي أفرط الكاتب في التقليل من شأنه عبر تلك القصّة قليلة التسامح التي بسطها ليكشف (بقسوة قلب، وبتعابير طبية) عن معنى أن يكون المرء عاديًا. شغل إيفان إيليتش وظيفة حسنة في المحكمة العليا وعاش «حياة لائقة يقرّها المجتمع». لكنه راح يفكّر، وهو على فراش الموت في أعماق خوفه وعذابه المستمرّين، «لعلّي لم أعش مثلما كان يجب أن أعيش». في مطلع الرواية، كتب تولستوي، ملخِّصًا أن حياة إيفان إيليتش ورأيه في رئيس المحكمة صاحب البيت الجميل في سان بيترسبورغ والدخل الكبير الذي يبلغ ثلاثة آلاف روبل في السنة والأصدقاء

الكثر من ذوي المراكز الاجتماعية المرموقة، كانت هي الأكثر بساطة والأكثر عادية، وبالتالي فقد كانت الأكثر هولًا. لعل الأمر هكذا! لعل الأمر كان هكذا في روسيا سنة 1886. وأما في أولد ريمروك، نيوجرسي، في سنة 1995، عندما يتدفّق أمثال إيفان إيليتش عائدين إلى مطعم النادي لتناول الغداء بعد جولة صباحية من الغولف، ويبدأون نعيبهم «لا أحصل على ما هو أفضل من هذا»، فلعلّهم يكونون أقرب كثيرًا إلى الحقيقة مما كانه ليو تولستوي.

بحسب معرفتي، كانت حياة السويدي ليفوف هي الأكثر بساطة والأكثر عادية، وبالتالي الأكثر عظمة... كانت حياة من النوع الأميركي تمامًا.

سألته فجأة: «هل كان جيري مثليًّا؟».

ضحك السويدي: «هل تسأل عن أخي؟ أنت تمزح!».

لعلّي كنت مازحًا. ولعلّي طرحت ذلك السؤال من باب التشاقي حتى أخفف من وقع الضجر. لكني كنت أتذكّر تلك العبارة التي كتبها السويدي في رسالته عندما حدّثني عن أبيه وقال إنه كان «يعاني نتيجة الصدمات التي نزلت بمن يحبهم»، مما قادني إلى التساؤل من جديد عما كان يلمِّح إليه، فذكّرني هذا بدوره بما جلبه جيري على نفسه من خزي خلال سنتنا الأولى في مدرستنا الثانوية، عندما حاول أن يفوز بقلب فتاة في صفّنا مفتقرة افتقارًا مدهشًا إلى أي شيء متميّز يمكن أن يجعل المرء يفكّر في القيام بأمر استثنائي حتى يجعلها تقبّله.

صنع لها جيري هديّة بمناسبة الفالنتاين. وكانت الهدية معطفًا من جلود الهامستر؛ جلود مئة وخمسة وسبعين هامستر جففها في الشمس ثم خاطها معًا بإبرة معقوفة سرقها من مصنع والده عندما خطرت في ذهنه تلك الفكرة. تلقّى قسم البيولوجيا في المدرسة الثانوية منحة من ثلاثمئة هامستر بغية الاستفادة منها في دروس التشريح، فبذل جيري كل جهده وجمعها كلّها من طلبة البيولوجيا. وقد تعاونت عبقريته وغرابته في جعلهم يصدّقون القصّة التي قالها لهم: تجربة علمية يجريها في البيت. تمكّن بعد ذلك من معرفة مقاسات الفتاة، فصمّم نموذج المعطف، ثم انتظر إلى أن زال القسم الأكبر من الرائحة البشعة من الجلود (أو ظنّه زال) بعد تجفيفها في الشمس فوق سطح مرأب بيتهم، وخاطها بعناية معًا.

وبعد ذلك، وضع للمعطف بطانة حريرية قصّها من مظلّة بيضاء أرسلها السويدي إليه تذكارًا من القاعدة الجوية لمشاة البحرية في تشيربوينت في نورث كارولاينا (كانت مظلّة فيها عيب جعلهم يتخلّون عنها)، وذلك حين فاز فريق باريس آيلاند في المباراة الأخيرة في موسم بطولة البيسبول التي تقام بين وحدات مشاة البحرية. وكنت أنا، المستضعف في كرة الطاولة، الشخص الوحيد الذي أخبره جيري بأمر ذلك المعطف. أراد إرسال المعطف إلى الفتاة في علبة فاخرة من متجر بامبرغر كانت عند أمه بعد أن يغلّفها بورق بلون الخزامى ويربطها بشريط بنفسجي. لكن المعطف كان شديد القساوة عند انتهائه (نتيجة طريقته الغبية في تجفيف الجلود بحسب ما شرحه له والده بعد ذلك) فلم يستطع طيّه ووضعه في العلبة.

كنت جالسًا قبالة السويدي في مطعم فينسنت، فتذكّرت فجأة رؤيتي ذلك المعطف في القبو: شيء ضخم ذو كُمّين قابع على الأرض. قلت في نفسي إن من الممكن أن يفوز المعطف بمختلف الجوائز في متحف ويتني؛ لكن أحدًا في نيوارك، سنة 1949، ما كان يعرف شيئًا عن عظمة الفن! أجهدنا عقلينا، أنا وجيري، في محاولة العثور على طريقة لإدخال المعطف في تلك العلبة. لقد كان مصمِّمًا على وضعه تلك العلبة لأن الفتاة ستظن، عندما تبدأ فتحها، أن فيها معطفًا ثمينًا من متجر بامبرغر. وأما أنا فكنت أفكّر في ما قد تظنّه الفتاة عندما ترى أن ما في العلبة مخالف لتوقّعها. وكنت أفكّر في أن الفوز بانتباه فتاة من غير صديق لها جسد ممتلئ وجلد غير نضر، ليس أمرًا في حاجة إلى ذلك العمل الشاق كلّه. لكنّي تعاونت مع جيري لأنه كان ذا شخصية أشبه بالدوامة: إما أن تفرَّ منها أو تستسلم لها... فقد كان شقيق السويدي ليفوف؛ وكنا في بيت السويدي ليفوف الذي ترى فيه أينما نظرت تلك الكؤوس التي فاز بها. وفي آخر المطاف، فكك جيري المعطف كله وأعاد تركيبه بحيث تصير خطوط الخياطة مستقيمة عند الصدر فتكون موضعًا صالحًا لطي المعطف حتى يصير وضعه في العلبة أمرًا ممكنًا. لقد ساعدته؛ وكان ذلك أشبه بخياطة درع حربية. وضع جيري فوق المعطف قلبًا قصّه من الورق المقوّى وكتب عليه اسمه بحروف

مزخرفة. ثم أرسل إليها العلبة بالبريد. اقتضاه الأمر عمل ثلاثة شهور حتى يحوّل فكرة غير مألوفة إلى حقيقة مجنونة. إنها فترة وجيزة وفق المعايير البشرية!

صرخت الفتاة فزعة عندما فتحت العلبة. قالت صديقاتها: «إن نوبة قد أصابتها». أصيب والد جيري بنوبة أيضًا: «أهذا ما تفعله بالمظلة التي أرسلها إليك أخوك؟ تقص المظلة! تقص المظلة وتتلفها!» كان إحساس جيري بالمهانة أكبر من أن يسمح له بالاعتراف بأنه فعل ذلك حتى يجعل إحدى الفتيات ترتمي بين ذراعيه وتقبّله مثلما تقبل لانا تيرنر كلارك غيبل. شاءت المصادفة أن أكون في بيته عندما راح والده يوبّخه لأنه جفف الجلود تحت أشعة الشمس: «تنبغي معالجة الجلد معالجة صحيحة... معالجة صحيحة. والمعالجة الصحيحة لا تكون في وضعه في الشمس. عليك أن تضعه في الظل. ألا تفهم أنه لا يجوز ترك الشمس تحرق الجلد. هل أستطيع تعليمك مرة واحدة، تعليمك يا جيروم كيف تعالج الجلود». ثم شرع يعلّمه ذلك على الفور. كان شديد الغضب أول الأمر شبه عاجز عن كظم غيظه إزاء عجز ابنه، ابنه هو، وجهله في ما يتعلّق بالجلود... راح يشرح لنا معًا ما علّموا بائعي جلود الأغنام في إثيوبيا فعله بتلك الجلود قبل شحنها إلى شركة نيوارك ميد لكي ترسلها إلى المدبغة... «من الممكن تمليح الجلد؛ لكن الملح باهظ الثمن. في أفريقيا خاصّة! إنه باهظ الثمن كثيرًا! ثم إنهم يسرقون الملح هناك. لا يستطيع أولئك الناس الحصول على الملح. عليك أن تضع في الملح سمًا حتى لا يسرقونه هناك. الطريقة الأخرى لمعالجة الجلد. هنالك طرق متعددة. إما أن تفرده على لوح، أو تثبته على إطار. عليك تثبيته. ثم تحدث فيه شقوقًا صغيرة وتثبّته وتجفّفه في الظل. في الظل يا أولاد! هذا ما نسمّيه جلدًا مجففًا بمسحوق الصوان. انثر عليه شيئًا من مسحوق الصوان. فهو يقيه من الفساد ويمنع الحشرات من التغلغل فيه...». ارتحت كثيرًا عندما أخلى غضبه الميدان، بسرعة مدهشة، لهجوم تعليمي تربوي صبور، دؤوب، بدا لي أنه كان أكثر تعذيبًا لجيري حتى من تعرّضه لغضب أبيه المباشر. من الممكن تمامًا أن يكون جيري قد أقسم لنفسه، في ذلك اليوم تحديدًا،

على أنه لن يقترب من عمل أبيه أبدًا.

كان جيري قد ضمّخ المعطف بعطر أمه حتى يتخلّص من رائحة الجلود البشعة. لكن الرائحة صارت أكثر قوة مما كانت بعد الزمن الذي استغرقه ساعي البريد لإيصال الطرد إلى الفتاة التي صدمت عندما فتحت العلبة وأحست بقدر كبير من الخوف ومن الإهانة، فلم تتكلّم مع جيري بعد ذلك أبدًا. تحدّثت بقية الفتيات عن اعتقادها بأن جيري قد ذهب واصطاد تلك الحيوانات الصغيرة كلّها وقتلها، ثم أرسلها إليها قاصدًا السخرية من جلدها غير المعافى. غضب جيري كثيرًا عندما بلغه هذا. وخلال لعبة كرة الطاولة التالية التي جرت بيننا، راح يلعن الفتاة ويتّهم الفتيات جميعًا بالغباء الشديد. إن كان لم يمتلك من قبل تلك الحادثة الجرأة اللازمة لدعوة أية فتاة إلى موعد، فإنه لم يحاول فعل ذلك بعدها؛ بل إنه كان واحدًا من الأولاد الثلاثة الذين لم يأتوا إلى حفلة التخرج في المدرسة. كان الاثنان الآخران من أولئك الذين نعتبرهم «مخنّثين»؛ وهذا ما جعلني أطرح على السويدي الآن ذلك السؤال عن جيري... سؤال ما كان أبدًا أن أحلم بطرحه سنة 1949 عندما لم تكن لدي أي فكرة عن معنى المثلية، ولم أكن قادرًا على تخيّل أن أي شخص أعرفه يمكن أن يكون مثليًا. في ذلك الوقت، كنت أرى أن جيري هو جيري فحسب؛ جيري العبقري صاحب السذاجة المهووسة والبراءة الهائلة في كل ما يتعلق بالفتيات. كان هذا كافيًا لتفسير الأمر كله في تلك الأيام. ولعله لا يزال كافيًا الآن. لكني كنت أبحث حقًا عن شيء يمكّنني من رؤية ما يستطيع تكدير براءة هذا السويدي الملكي - إن كان هنالك شيء يستطيع تكدير براءته - وكذلك كنت أريد منع نفسي من أن أكون فظًا فأغفو وأنا جالس معه. وهكذا فقد سألته: «هل كان جيري مثليًا؟».

قلت له: «لقد كان في جيري دائمًا شيء غامض عندما كان طفلًا. لا فتيات أبدًا، ولا أي أصدقاء مقرّبين! كان فيه دائمًا شيء يعزله عن الآخرين؛ شيء أكثر من ذكائه...».

أومأ السويدي برأسه ناظرًا إليّ كما لو أنه مدرك أعمق معاني كلامي مثلما لم يدركها أحد من قبل. ونتيجة نظرته المتمعّنة التي كنت مستعدًا لأن أقسم على

أنها لم تكن ترى شيئًا - ذلك الإعطاء كلّه الذي لا يعطي شيئًا ولا يبوح بشيء - لم تكن لديَّ أية فكرة عما يمكن أن تكونه أفكاره أو حتى عما إذا كانت لديه أية «أفكار». عندما توقّفت عن الكلام، أحسست للحظة بأن كلماتي لا تتلقّفها شبكة إدراك الشخص الآخر الذي أمامي، بل تمضي إلى اللاشيء الذي في دماغه، تمضي هناك ثم تختفي. بدأ يضايقني شيء في عينيه المسالمتين - ذلك الوعد الذي تقدّمانه بأنهما لا يمكن أبدًا أن تفعلا شيئًا غير ما هو صائب - لا بد أن هذا ما جعلني أتطرق إلى رسالته بدلًا من احتفاظي بأفكاري لنفسي إلى أن تأتي الفاتورة فأصير قادرًا على الذهاب والابتعاد خمسين عامًا أخرى فلا أتطلع إلى لقائه من جديد قبل أن تأتي سنة 2045.

إنك تكافح سطحيّتك، وتكافح ضحالتك، حتى تحاول ألّا تأتي إلى الناس بتوقّعات غير حقيقية، حتى لا تأتيهم محملًا بأفكار مسبقة أو بآمال أو بتعالٍ فتكون حركتك في اتجاههم أبعد ما يكون عن حركة دبابة تتقدّم إليهم... حتى تكون من غير مدفع ومن غير رشاشات، وحتى لا تحرث الأرض حرثًا. تأتي إليهم مسالمًا سائرًا على أصابع قدميك بدلًا من أن تمزّق الأرض من تحتك تمزيقًا بجنزير معدني ثقيل... تتقدّم إليهم بعقل منفتح، على قدم المساواة... رجل لرجل، مثلما اعتدنا أن نقول؛ لكنك تسيء فهمهم على الرغم من ذلك كله. وقد يكون لك أيضًا «عقل دبابة» فتسيء فهمهم قبل أن تلتقيهم. تسيء فهمهم وأنت تترقّب لقاءهم، وتسيء فهمهم وأنت معهم. ثم تذهب وتخبر شخصًا ما بذلك اللقاء وتجد أنك تسيء فهمهم من جديد. وبما أن هذا - بشكل عام - ما يجري معهم أيضًا، فإن الأمر كلّه يصير وهمًا مدوّخًا حقًّا، خاليًا من أي فهم... مهزلة مدهشة من عدم الفهم. لكن... ماذا يمكن أن نفعل إزاء هذه العلاقة عميقة المغزى بالناس الآخرين؟... العلاقة التي تنزف المغزى الذي نظنّه فيها وتتّخذ مغزى آخر، مغزى غريبًا مثيرًا للسخرية... هل نحن مفتقرون هذا الافتقار كلّه إلى ما يسمح لنا بتصوّر ما يعتمل في داخل عقول الآخرين وبرؤية مراميهم الخفية؟ فهل يذهب كل منا مبتعدًا عن الآخر فيغلق الباب على نفسه ويجلس مثلما يفعل الكتاب المتوحِّدون؟... يجلسون في زنزانة كتيمة الصوت ويستدعون الناس من

الكلمات، ثم يزعمون أن أناس الكلمات أولئك أقرب إلى الشيء الحقيقي من الناس الحقيقيين الذين نشوّههم بجهلنا كل يوم؟ لكن الحقيقة تظلّ هي أن فهم الناس على الوجه الصحيح ليس هو معنى العيش أصلًا. العيش هو أن نفهم الناس فهمًا خاطئًا؛ أن نفهمهم فهمًا خاطئًا، ثم خاطئًا، ثم خاطئًا، ثم نتمعن في الأمر مليًا ونفهمهم فهمًا خاطئًا من جديد. هكذا نعرف أننا أحياء: إننا مخطئون! لعل أحسن شيء هو أن ننسى ما هو خاطئ أو ما هو صائب في ما يتعلّق بالناس ونمضي في طريقنا من غير توقّف. لكنك، إن كنت قادرًا على فعل ذلك... فأنت محظوظ!

«عندما كتبت لي عن أبيك، وعن الصدمات التي عاناها، خطر في ذهني أن جيري يمكن أن يكون هو صدمته. لم يكن والدك ليرحّب أكثر من أبي بأن يكون لديه ابن شاذ».

ابتسم السويدي تلك الابتسامة التي ترفض أن تكون متعالية، الابتسامة التي كان المقصود منها طمأنتي إلى أن ما من شيء فيه أبدًا يمكن أن يقاومني... ابتسامة تبعث إليَّ بإشارة مفادها أنه - على الرغم من سموّه كلِّه - ليس أفضل مني... بل إنه يكاد يكون لا شيء إلى جانبي: «حسنًا، من حسن حظ أبي أنه لم يكن مضطرًّا إلى هذا. لقد كان جيري الابن الذي صار طبيبًا. وما كان يمكن لأبي أن يكون فخورًا بأحد إلى حد يقارب فخره بجيري».

«هل صار جيري طبيبًا؟».

«إنه في ميامي. جرّاح قلب. مليون دولار في السنة».

«وهل قلت إنه تزوج؟ جيري، تزوج؟».

تلك الابتسامة من جديد. كانت الهشاشة في تلك الابتسامة عنصرًا مفاجئًا - هشاشة الرياضي صاحب العضلات محطم الأرقام القياسية الذي واجه كل القسوة التي لا بد من مواجهتها حتى يظلَّ على قيد الحياة. ابتسامة ترفض الاعتراف بالعناد المتوحّش الذي لا بد منه للرجل حتى يعيش سبعين عامًا. كما لو أن أي شخص تجاوز العاشرة من العمر يصدّق أنك قادر على أن تُخضِعَ بابتسامة، حتى إن كانت ابتسامة لطيفة دافئة، تلك الأشياء كلّها التي تنقضّ

عليك... أن تضبطها كلها معًا بابتسامة عندما تمتدّ الذراع القوية لكل ما هو غير متوقّع فتنهال على رأسك. بدأت أفكّر من جديد في أنه قد يكون غير سليمٍ من الناحية العقليّة، وأن تلك الابتسامة قد تكون مؤشّرًا على اضطراب حالته. ما كان فيها أي خجل... هذا أسوأ ما في الأمر! لم تكن ابتسامة غير صادقة، ولم يكن يتصنّع شيئًا على الإطلاق. هذا هو الكاريكاتير الذي توصّل إليه، توصّلًا عفويًا، بعد عمر قضاه في جعل نفسه يتعمّق أكثر فأكثر في... في ماذا؟ فكرة نجوميّته في الحي! كانت فكرة نجوميّته في الحيِّ تكلّله كلّه... فهل هي ما حنّط السويدي وجعله يظل ولدًا إلى الأبد؟ كان كما لو أنه قد ألغى من عالمه ما لا يناسبه... لم يلغِ السخرية والعنف والخداع والقسوة فقط، بل كل شيء فيه خشونة، أي احتمال للخطر، وأي نذير مفزع بالعجز. لم يتوقّف لحظة عن محاولة جعل علاقته بي تبدو بسيطة صادقة مثلما تبدو علاقته بنفسه.

إلا إذا... إلا إذا كان مجرّد رجل ناضج، مجرّد رجل مخادع مثله مثل أي رجل ناضج آخر. إلا إذا كان ما أيقظتْه فيه جراحة استئصال البروستات - وما أفلح، مؤقتًا، في اختراق أسلوبه المرتاح الذي رافقه طيلة حياته - لم يختفِ تمامًا بعد شفائه التامّ. إلا إذا لم يكن شخصية من غير شخصية يكشف عنها، بل شخصية من غير شخصية يريد الكشف عنها... مجرّد رجل فهيم يدرك أنك إذا كنت شديد الاهتمام بخصوصيتك وحسن حال من تحبّهم، فإن روائيًّا (مثلي) سيكون آخر شخص يمكن أن تضع ثقتك فيه. فبدلًا من أن تمنح روائيًّا قصة حياتك، عليك أن تمنحه رفضًا مباشرًا صفيقًا تحمله ابتسامة لامعة، وأن تجعل تلك الابتسامة بالغة اللطف تصعقه وتجمِّده تجميدًا، ثم تمسح عن فمك بقايا حلوى الزباغليوني وتعود إلى بيتك في أولد ريمروك في نيوجرسي حيث حياتك التي هي من شأنك أنت، لا من شأنه.

قال السويدي مبتسمًا: «لقد تزوّج جيري أربع مرات، رقم قياسي في العائلة».

«وماذا عنك؟».

كنت قد استنتجت من أعمار أولاده الثلاثة أن من المحتمل أن تكون تلك الشقراء الأربعينية، زوجته الثانية، بل ربما الثالثة. إلا أن فكرة الطلاق لم تكن

متناسبة مع الصورة التي عندي عن شخص يرفض إلى هذا الحد ملاحظة العناصر غير العقلانية في هذه الحياة. إن كان مطلّقًا، فلا بد أن تكون ملكة جمال نيوجرسي هي من طلّقته، أو لعلها ماتت، أو يمكن أن يكون زواجها من شخص شديد الحرص على كمال إنجازاته، من شخص كرّس قلبه وروحه لوهم الاستقرار، قد دفعها إلى الانتحار. لعل تلك هي الصدمة التي نزلت بهم...
الغريب أن محاولاتي الرامية إلى العثور على ذلك الجزء المفقود الذي سيجعل السويدي كاملًا منسجمًا قد ظلّت مصرّة على أن تكتشف فيه ذلك الخلل الذي لا أثر له على وجهه المثالي الجميل الشائخ. لم أكن قادرًا على الجزم بما إذا كان هذا الخواء الذي فيه أشبه بثلج يغطي شيئًا ما أو بثلج يغطي لا شيء.
«أنا؟ زوجتان. هذا هو حدّي. أنا شخص شديد الاقتصاد بالمقارنة مع أخي. زوجته الثالثة في الثلاثينات، أي في نصف سنّه. جيري هو الطبيب الذي يتزوّج الممرضة. كانت زوجاته الأربع كلّهنّ ممرّضات. وهن يعبدن الأرض التي يمشي عليها د. ليفوف. أربع زوجات، وستة أطفال. هذا ما جعل أبي يفقد صوابه بعض الشيء. لكن جيري رجل كبير، رجل فظ... إنه الجراح الكبير العظيم الذي ينقاد له المستشفى كلّه. وهذا ما جعل أبي يستسلم. كان مضطرًا للاستسلام حتى لا يخسره. كان أخي الصغير يعرف ما يفعله. وكان أبي يصرخ ويغضب عند كل طلاق ويجد نفسه راغبًا في إطلاق النار على جيري مئة مرة. لكن جيري سرعان ما يتزوّج مرة أخرى، فتبدو الزوجة الجديدة في عين
- 2 -
[فلنتذكّر الطاقة!
لم يكن الأميركيون يحكمون أنفسهم فقط، بل حكموا أيضًا نحو مئتي مليون إنسان غيرهم في إيطاليا والنمسا واليابان. كانت محاكمات جرائم الحرب تنظّف الأرض من أشرارها، مرّة وإلى الأبد. وكانت الطّاقة الذرّية ملكًا لنا وحدنا. بدأ انتهاء التقنين؛ رفعت القيود عن الأسعار. وفي موجة من تأكيد الذات، راح عمال السيارات وعمال الفحم وعمال النقل البحري وعمال الفولاذ... عمال بالملايين، راحوا يطالبون بالمزيد ويضربون من أجل تحقيق مطالبهم. عاد لعب

الكرة صباحات الأحد في ملعب تشانسلر آفنيو ولعب كرة السلة في الملاعب الأسفلتية خلف المدرسة حيث عاد الأولاد كلّهم إلى حياتهم... جيران وأقارب وإخوة أكبر سنًا امتلأت جيوبهم بنقود الانفصال بعد أن دعاهم قانون GI(12) إلى الانفكاك عن ذويهم بطرق ما كان تخيُّلها ممكنًا قبل الحرب. بدأ صفنا في المدرسة الثانوية بعد ستة شهور من الاستسلام الياباني غير المشروط، أي خلال أعظم لحظات النشوة الجماعية في التاريخ الأميركي. كان اندفاع الطاقة معديًا. ولم يبقَ من حولنا شيء لم تدبّ الحياة فيه. انتهى زمن القيود والتضحيات. واختفى الركود الاقتصادي. صار كل شيء متحرّكًا. لقد نُزع الغطاء. كان على الأميركيين أن يبدأوا من جديد، أن يبدأوا كلّهم معًا، وأن ينخرط الجميع في ذلك. ولو لم يكن هذا كلّه إلهامًا كافيًا... الختام العجائبي لهذا الحدث الكبير، وإعادة ضبط ساعة التاريخ بحيث لم تعد أهداف شعب بأسره محدودة بفعل الماضي... فقد كان لدينا حيُّنا أيضًا، تصميمنا العام على أنه ينبغي لنا، نحن الأطفال، أن نتخلّص من الجهل والمرض والغبن الاجتماعي والتخويف... وقبل كل شيء، أن نتخلّص من تفاهة شأننا. لا يجوز أن تنتهي إلى لا شيء! اصنع من نفسك شيئًا!

وعلى الرغم من تيار خفي من القلق؛ إحساس منقول إلينا كل يوم بأن الصعاب والمشقّات تتهدّدنا دائمًا، وبأن ما من شيء غير جدّنا واجتهادنا يستطيع المحافظة على أملنا؛ على الرغم من حالة عامة من قلة الثقة في «عالم غير اليهود»؛ وعلى الرغم من الخوف من أن نُسحق من جديد، ذلك الخوف الذي ظلّ ممسكًا بتلابيب عائلات كثيرة نتيجة الركود الاقتصادي... فإن حيّنا لم يسقط في الظلمة. كان المكان متّقدًا بالاجتهاد. وكان هناك إيمان كبير بالحياة. ثم إننا كنا خاضعين لتوجيه لا هوادة فيه صوب النجاح: وجودٌ أفضل سيكون من نصيبنا. كان الهدف أن تكون لنا أهداف. وكانت الغاية أن تكون لنا غايات. كثيرًا ما كان هذا التوجيه يأتي مختلطًا بنوع من الهستيريا؛ الهستيريا المعذّبة لدى أولئك الذين كانت تجاربهم قد علّمتهم كيف يمكن لحالة صغيرة من الكره أو العداوة أن تخرّب الحياة إلى ما يتجاوز أي أمل في إصلاحها. لكن توجيهات

الكبار تلك (ذات الحمولة الانفعالية الكبيرة نتيجة عدم اطمئنان أهلنا، ونتيجة إدراكهم كل ما كان يحاك ضدهم...) هي ما جعل الحي مكانًا متماسكًا متراصًّا. مجتمعٌ كاملٌ يناشدنا دائمًا ألّا نغالي وألّا نفشل، يناشدنا أن نلتقط الفرصة ونستفيد من مزايانا ونتذكّر ما له أهمية حقًا.

لم تكن المسافة الفاصلة بين الجيلين صغيرة، فكان هناك كثيرٌ مما يدور فيه الجدل: فكرتهم عن العالم التي لا يريدون التخلّي عنها؛ والقواعد التي كانوا يقدّسونها فصارت قليلة الأثر علينا بفعل عقدين فقط من الزمن الأميركي. كانت تلك الشكوك شكوكهم هم، لا شكوكنا. وكان مطروحًا دائمًا ذلك السؤال عن مسافة التحرّر منهم التي يمكن أن نجرؤ على اجتيازها؛ كان ذلك مناقشة داخلية متناقضة مثيرة للغضب. لقد وجد بعضنا الجرأة على تحدّي مواضع التشنّج في وجهة نظرهم، لكن النزاع بين الأجيال لم يكن يبدو أبدًا مثلما سيصير عليه بعد عشرين عامًا. لم يكن حيّنا أبدًا ميدان معركة تناثرت فيه جثث عدم التفاهم. لقد كانت فيه محاضرات طنانة كثيرة لضمان الطاعة؛ وكانت فيه آلاف المتطلّبات والإملاءات والقيود التي تعقل قدرة المراهقين على التمرّد... قيود برهنت على أنها عصيّة على الكسر. كان من بينها تقديرنا الذاتي الواقعي جدًا لما هو في مصلحتنا. وكانت من بينها تلك الاستقامة التي تخلّلت تلك الحقبة كلها، فالتقطنا محرَّماتها وبقينا متمسكّين بها منذ مولدنا. فضلًا عن ذلك، كانت لدينا إيديولوجية الأسلاف التي تحدِّثُنا عن تضحية آبائنا وأمهاتنا بأنفسهم فتجرّدنا من الإسراف في الميل إلى العصيان وتكاد تجعل كل نزوع غير لائق يظلّ مختفيًا تحت الأرض.

كان الأمر يقتضي قدرًا من الشجاعة - أو من الحماقة - أكبر كثيرًا مما كان لدى أي منّا حتى نصير قادرين على تخييب أوهامهم العاطفية الراسخة عن قدرتنا على الكمال، وحتى نصير قادرين على المبالغة في التوهان والابتعاد عما هو مسموح لنا. كانت الأسباب التي تحملهم على مطالبتنا بالتفوق وطاعة القانون أسبابًا لا تسمح لنا ضمائرنا بمعارضتها؛ وهكذا سلّمنا للكبار بسلطة ضبط تكاد تكون مطلقة... للكبار الذين كانوا يبذلون الجهد ويطوّرون أنفسهم من خلالنا.

لعل هذا الترتيب كان يمكن أن يترك أشكالًا معتدلة من الندوب لكننا لم نسمع إلا بحالات قليلة من الاضطرابات النفسيّة المؤدّية إلى الانتحار... على الأقل لم نسمع بها آنذاك. أشكر الرب على أن عبء تلك الآمال كلّها لم يكن بالضرورة قاتلًا. وبطبيعة الحال، كان من المستحسن، في بعض الأسر، أن يتمّ تخفيف الضوابط قليلًا؛ إلا أن القسم الأكبر من ذلك الاحتكاك بين الجيلين كان بالقدر الكافي لإعطائنا دافعًا للحركة إلى الأمام.

فهل أكون مخطئًا إن ظننت أننا سعدنا بالعيش هناك؟ ما من ضلالات مألوفة أكثر من تلك التي يثيرها الحنين لدى كبار السن؛ فهل أكون مخطئًا تمامًا إن ظننت أن عيش أطفال ولدوا لأسر كريمة في فلورنسا عهد النهضة لا يمكن إلا أن يرفع القبعة لترعرعِ المرء وسط روائح براميل المخلّل عند تاباتيشنيك(13)؟ وهل أكون مخطئًا إن ظننت أن امتلاء الحياة، حتى في ذلك الوقت، في ذلك الحضور الحيّ، قد حرك مشاعرنا إلى حد استثنائي؟ وهل غمركم أي مكان بعد ذلك المكان بهذا المحيط من التفاصيل؟ التفاصيل، واتساع التفاصيل، وقوة التفاصيل، وثقل التفاصيل... ما لا نهاية له من تفاصيل غنية كانت محيطة بكم في زمان شبابكم مثلما تحيط بكم تلك الأقدام الست من التراب التي تُهال فوق قبوركم عندما تموتون.

لعلّ الحيّ، تعريفًا، هو المكان الذي يمنحه الطفل تلقائيًا انتباهه كلّه؛ إنه الطريقة غير المصفّاة التي يأتي بها المعنى إلى الأطفال مندفعًا إليهم من سطوح الأشياء.

على الرغم من هذا، أسألكم بعد خمسين عامًا: هل كان الانغماس في المكان مكتملًا هكذا في أي وقت بعد ذلك؟ هل كان مثلما عشتموه في هذه الشوارع حيث تصير لكل بناية شخصيتها المطلقة، ولكل بيت، ولأرضية كل غرفة... للجدران والسقوف والأبواب والنوافذ في شقة أسرة كل واحد من الأصدقاء؟... وهل كنا في أي وقت بعد ذلك أدوات تسجيل دقيقة للتفاصيل المجهرية في سطوح الأشياء القريبة منا، لدقائق تدرّجات السويّة الاجتماعية التي تنطق بها الأرضيات المصنوعة من اللينوليوم والمفارش المشمّعة وشموع الموتى وروائح الطبخ وقداحات الرونسون على الطاولات والستائر الفينيسية؟ كنا نعرف ما في

حقيبة كل منّا التي وضعها في خزانته من طعام من أجل الغداء وما طلبه كل منا في السندويتش الذي اشتراه من متجر سيْد؛ كنا نعرف الخصائص الجسدية لكل واحد منا... من يمشي معوجّ القدمين، ومن له ثديان، ومن تفوح منه رائحة زيت الشعر، ومن يتناثر رذاذ لعابه عندما يتكلّم. كنا نعرف المَيّال إلى القتال، ونعرف الودود، ونعرف من كان ذكيًّا، ونعرف من كان غبيًّا. كنا نعرف من تشوب نطق أمه لكنة غريبة، ونعرف من لأبيه شاربان، ونعرف من تعمل أمه ومن مات أبوه. بل كنا ندرك، إدراكًا غامضًا، كيف أن الظروف المختلفة لكل أسرة قد كوّنت لها مشكلتها البشرية الصعبة المختلفة عن مشكلات غيرها.
وبطبيعة الحال، كان هنالك ذلك التمرّد الذي لا مفرَّ منه، التمرّد الناجم عن الحاجة والشهيّة والخيال والتوق والخوف من الخزي. وما كان لدينا غير سبر أغوار مراهقتنا من أجل إلقاء ضوء على كيفية قيام كل منا، وحده، في السرّ، وقد داهمه الحِلم، بمحاولة لتنظيم تلك المراهقة وضبطها في زمن كانت العفة فيه لا تزال قضية وطنية بارزة يتعيّن على الشباب اعتناقها، مثلها مثل الحرّية والديمقراطية.
مدهش أن يظل حاضرًا في ذاكرتنا، بكل تفاصيله، كل ما كان ظاهرًا على الفور في حياتنا عندما كنا زملاء صف واحد. كثافة المشاعر التي تكون لدينا عندما اجتمعنا اليوم أمر مدهش أيضًا. لكن الأمر المدهش أكثر من ذلك هو أننا نقارب الآن سن أجدادنا وجدّاتنا عندما ذهبنا معًا إلى المدرسة الثانوية في الأول من شباط سنة 1946. المدهش في الأمر هو أننا، نحن الذين لم تكن لدينا أية فكرة كيف ستسير أمور أي شيء، صرنا الآن نعرف تمامًا كل ما حدث. لقد صارت النتائج ماثلة أمام صفّ خرّيجي كانون الثاني سنة 1950 - الأسئلة التي لا إجابات لها، صارت لها إجابات؛ وصار المستقبل مكشوفًا... أليس هذا مدهشًا؟ أليس مدهشًا أن نكون قد عشنا... في هذه البلاد، في زماننا، مثلما نحن؟ شيء مدهش!].
هذه هي الكلمة التي لم ألقها في الاجتماع السنوي الخامس والأربعين لخريجي مدرستي؛ كلمة موجّهة إلى نفسي، لكنها متنكّرة في هيئة كلمة موجّهة إليهم. لم

أبدأ كتابتها إلا بعد انفضاض الاجتماع، في الظلام، في سريري، وأنا أحاول فهم ما أصابني. لقد جاءت نبرتها تأمّلية أكثر مما يصلح لاجتماع في صالة الاحتفالات في نادٍ ريفي، وأكثر مما يصلح من أجل ذلك النوع من الوقت الممتع الذي أراده الناس هناك... لكن هذه النبرة لم تبد لي في غير محلّها بين الثالثة والسادسة صباحًا عندما كنت أحاول (في حالة من الإثارة الزائدة عندي) استيعاب تلك الوحدة الكامنة خلف اجتماعنا ذاك، تلك التجربة المشتركة التي جمعت بيننا في طفولتنا. بغضّ النظر عن الدرجات المختلفة من الحرمان والتمتّع بالمزايا، وبالرغم من مصادر القلق الكثيرة الناجمة عن مشاجرات عائلية متفرّقة (مشاجرات يمكن القول إنها، لحسن الحظ، كانت تنذر بتعاسة أكبر مما نتج عنها في الواقع)، فقد جمع بيننا شيء أكثر قوّة من هذا كلّه. لم يكن ذلك الشيء يوحّدنا من حيث المكان الذي نشأنا فيه فحسب، بل من حيث ما كنا ذاهبين إليه، ومن حيث كيفية وصولنا إلى ذلك المكان. صارت لدينا وسائل جديدة وغايات جديدة، ولاءات جديدة وأهداف جديدة، وصارت لدينا دخائل جديدة... يسر جديد، واضطراب أقل بعض الشيء في مواجهة أشكال الإقصاء التي لا يزال غير اليهود راغبين في الإبقاء عليها. فمن أي سياق نشأت هذه التحولات... من أية دراما تاريخية أتت فتركت، من غير توقع، أثرها على أولئك الممثلين الصغار الذين قدّموا أدوارهم في غرف المدرسة وفي المطابخ التي لا تبدو أبدًا شبيهة بمسرح الحياة الكبير؟ فما الشيئان اللذان اصطدما فأنتجا تلك الشرارة فينا؟

كنت لا أزال مستيقظًا، متنبّهًا تمامًا، أصوغ هذه الأسئلة وإجاباتها وأنا جالس في سريري... ظلال مشوشة مؤرقة لهذه الأسئلة كلّها، ولإجاباتها أيضًا... بعد نحو ثماني ساعات من قيادة السيارة عائدًا من نيوجرسي حيث كان اجتماعنا في يوم أحد مشمس أواخر شهر تشرين الأول في نادٍ ريفي في ضاحية يهودية بعيدة عن الخراب المخيِّم في موطن طفولتنا الذي صار موبوءًا بالمخدرات غارقًا في الجريمة. بدأ اللقاء في الحادية عشرة صباحًا واستمر جذلًا طيلة فترة بعد الظهر. التقينا في قاعة الاحتفالات، تمامًا عند حافة ملعب الغولف في ذلك النادي الريفي

فكان لقاءً من أجل مجموعة من المسنين الذين يحسبون مضرب الغولف الحديدي ذا الرأس الكبير قطعة من لحم الرنجة. وأما الآن، فما عدت قادرًا على النوم... كان آخر ما أستطيع تذكّره هو عامل ساحة وقوف السيارات عندما أتاني بسيارتي وانعطف بها من أمام درجات مدخل الصالة، وسيلما بريسلوف، المسؤولة عن إدارة اللقاء، تسألني بلطف إن كنت قد استمتعت بوقتي فأجيبها: «هذا يشبه ذهاب ناجٍ من إيو جيما(14) للاستراحة والحصول على ملابس جديدة».

تركت سريري وذهبت إلى مكتبي قرابة الساعة الثالثة صباحًا. كان رأسي نابضًا بأفكار كثيرة لا تزال هامدة لم تتّخذ بعد شكلًا لها. بقيت أعمل هناك حتى الساعة السادسة حين فرغت من كلمة لقاء الخريجين لكي أقرأها كما وردت أعلاه. فقط بعد أن أفلحت في بناء الخاتمة العاطفية التي أنهيتها بعبارة «شيء مدهش»، كانت دهشتي قد تراجعت أخيرًا (تراجعت إلى حد معقول) إزاء قوة مشاعري على نحو سمح لي بالنوم ساعتين... أو سمح لي بشيء يشبه النوم لأن نصف ذلك الزمن الذي نمته كان ذكريات ذاتية في حركة دائمة، كان ذكريات مستقرة في نقيّ العظم.

نعم... حتى بعد احتفال مسالم لطيف كلقائنا السنوي هذا، لم يكن أمرًا بسيطًا أن يستأنف المرء الوجود سريعًا ويعود إلى الاستمرارية والروتين اللذين يعصبان عينيه. لو كنت في الثلاثين أو في الأربعين... فلربما يخبو ذلك اللقاء بعيدًا فأنساه خلال الساعات الثلاث التي استغرقتها عودتي بالسيارة إلى البيت. لكن التحكّم بهذه الحوادث لا يكون سهلًا عندما يصير المرء في الثانية والستين، عندما لا يكون قد انقضى على عملية استئصال سرطان البروستات التي أجراها منذ زمن يتجاوز سنة واحدة. فبدلًا من إمساكي بوقت مضى، أمسك بي ذلك الوقت في الزمن الحاضر فكنت أغرق، في الواقع، في قلب ذلك الزمن الذي بدا أنني أخرج من عالمه.

خلال الساعات التي أمضيناها معًا من غير أن نفعل شيئًا غير أن نتعانق ونتبادل القبل ونضحك، ويتطفّل أحدنا على شؤون الآخر، ويحوم أحدنا من

شخص لآخر متذكّرين المصائب والمشكلات التي جعلها مرور الزمن الطويل من غير أهمية ونصيح: «انظروا مَن هنا!»، و«أوه، لقد مرّ زمن طويل»، و«هل تتذكّرني؟ إنني أتذكّرك». ويسأل أحدنا الآخر: «ألم نذهب مرّة...»، و«هل كنت الولد الذي...»، ويأمر أحدنا الآخر بتلك الكلمات الثلاث المثيرة للمشاعر التي كنت أسمع الناس يكرّرونها طيلة بعد الظهر وهم ينجذبون إلى أحاديث كثيرة في وقت واحد... «لا تذهب بعيدًا!»... وبالطبع، الرقص، وخطوات رقصاتنا العتيقة بخدود متلاصقة على أنغام أغاني «فرقة مكونة من رجل واحد»، صبيٍّ ملتحٍ في بدلة سوداء عصب جبهته فوق حاجبيه بعصابة حمراء (فتى مولود بعد عشرين سنة، على الأقل، من خروجنا معًا من صالة المدرسة، يوم التخرّج، على أنغام أوبرا يولانثي)، كان منكبًّا على جهاز المازج الموسيقي وهو يقلد أغاني نات كينغ كول وفرانكي لين وفرانك سيناترا... خلال تلك الساعات القليلة، خلال سلسلة الزمن، خلال ذلك الجريان كلّه لكل ما اسمه زمن، بدا فهم ذلك كلّه سهلًا كفهم أبعاد قطعة معجنات صغيرة يتناولها المرء من غير عناء مع قهوة الصباح. كان الفتى، «فرقة الرجل الواحد ذي عصابة الرأس»، يقدّم أغنية «ميول ترين» بينما رحت أفكّر في أن ملاك الزمن يمرّ من فوقنا ويزفر مع كل نفس من أنفاسه كل ما عشناه ومررنا به... كان حضور ملاك الزمن في تلك الصالة في نادي سيدار هيل الريفي واضحًا كحضور ذلك الفتى الذي كان يغني «ميول ترين» مثلما غناها فرانكي لين. وجدت نفسي أنظر أحيانًا إلى كل شخص كما لو أننا لا نزال في سنة 1950، وكما لو أن «سنة 1995» لم تكن إلا صورة مستقبلية عن حفل تخرّج نأتي إليه جميعًا، وقد وضعنا على وجوهنا أقنعة من الورق المقوّى، تمثّل ما قد يصير عليه مظهرنا مع اقتراب القرن العشرين من نهايته. كانت تلك الأمسية مخترَعة من أجل خداعنا نحن، لا من أجل خداع غيرنا. في داخل الفنجان الخزفي التذكاري الذي قدّمته سيلما لكل منا عند انصرافه، وجدت عددًا من الفطائر الحلوة الصغيرة موضوعة في كيس ورق برتقالي اللون، مغلّفة بقطعة برتقالية من السيلوفان مربوطة بشريط متوج مخطّط بالبني والبرتقالي، لونَيْ شعار مدرستنا! كانت تلك

الفطائر طازجة كتلك التي كنت آكلها في البيت بعد المدرسة (كانت الفطائر في ذلك الوقت من صنع أمي، التي كانت تبيعها لنادي لعبة مايونغ)، وكانت تقدمة من واحد من زملاء صفّنا لديه الآن مخبز في بلدة تينيك. خلال الدقائق الخمس التي أعقبت انصرافي، فككت الغلافين عن الفطائر الست وأكلتها كلّها: كل واحدة منها قوقعة من عجين مرشوش بالسكر فيه «حجرات» مؤطّرة بالقرفة ومرصّعة بقطع صغيرة من الزبيب والجوز. رحت ألتهم سريعًا، لقمة بعد لقمة، هذه الفطائر الصغيرة التي أحببت غناها الطحيني... امتزاج السكر والكريما والفانيليا وكريمة الجبن وصفار البيض والسكر... فطائر أحببتها منذ أن كنت طفلًا. لعلّي أجد فيها نيثان زوكرمان الذي اختفى مثلما عثر مارسيل بروست على مارسيل الذي ضاع منه لحظة عرف «مذاق فطيرة المادلين الصغيرة»: ترقّب الموت. لقد كتب بروست: «مذاق فحسب»، وكتب: «لم يكن لكلمة ‘موت’ أي معنى عنده». وهكذا رحت آكل تلك الفطائر بشراهة ونهم رافضًا أن أوقف، ولو لحظة واحدة، هذا الابتلاع الذنبي للدهون المشبعة، لكن من غير أن أحظى آخر الأمر بما يشبه حظ مارسيل.

فلنتحدّث أكثر عن الموت وعن الرغبة... من المفهوم أنها تصير رغبة يائسة مع التقدّم في السن... رغبة في تأجيل الموت، في مقاومته، في امتلاك أية وسائل ضرورية للنظر إليه بأي شيء، أي شيء، أي شيء غير الوضوح.

كان أحد الفتيان في اللقاء قادمًا من فلوريدا، وبحسب الكتيب الخاصّ باللقاء الذي تلقّى كل منا نسخة منه، فإن ستة وعشرين من خريجي تلك السنة في مدرستنا الذين بلغ عددهم مئة وستة وسبعين كانوا يعيشون في فلوريدا، إشارة طيبة معناها أنه لا يزال لنا في فلوريدا عدد من الأشخاص يفوق عدد من ماتوا (يفوقه بستة أشخاص). وبالمناسبة، لم يكن عقلي وحده من اعتبر الرجال الموجودين في اللقاء «فتيانًا» والنساء «بناتًا». قال لي ذلك الفتى إنه اضطر إلى التوقّف مرتين عند محطات الاستراحة في طريقه إلى ليفنغستون قادمًا من مطار نيوارك، حيث حطّت طائرته واستأجر سيارة وذلك حتى يدخل المرحاض. لقد كان في حالة توتّر شديد قبل اللقاء. كان اسم هذا الفتى ميندي

غورليك؛ وقد انتُخب في سنة 1950 الفتى الأكثر وسامة في الصف. كان في سنة 1950 فتى جميلًا، عريض المنكبين، طويل الأهداب، وكان أكثر الراقصين أهمية لدينا. كان يحب أن يتجوّل هنا وهناك قائلًا للناس: «سوليد، جاكسون!» دعاه شقيقه الأكبر مرة إلى مبغى «ملْون» في شارع أوغوستا حيث يلتقي القوادون. كان ذلك المكان شديد القرب من متجر المشروبات الذي يذهب إليه أبوهما. اعترف آخر الأمر بأنه ذهب إلى المبغى، وجلس منتظرًا، بملابسه كلها، في الممر الخارجي فأمضى الوقت في تصفّح عدد من مجلة «ميكانيكس إيلستريتد» وجده على الطاولة هناك، في حين كان أخوه هو من «فعل الأمر». كان ميندي أقرب من في صفنا إلى ما يمكن اعتباره «جانحًا». وكان ميندي غورليك (صار اسمه الآن ميندي غار) هو من أخذني معه إلى مسرح آدمز للاستماع إلى إلينويز جاكيت، وبودي جونسون، وسارا فوغان «من نيوارك نفسها»؛ وكان أيضًا من حصل على تذكرتين وأخذني معه لكي نستمتع إلى مستر بي وبي إليستاي في حفلة غنائية في «موسك»؛ كما تمكّن في سنة 1940 من الحصول على تذاكر لنا حتى نذهب لرؤية مسابقة ملكة جمال سيبيا أميركا في صالة لوريل غاردن. لقد كان ميندي هذا نفسه هو من أخذني، ثلاث أو أربع مرات، لكي نرى بيل كوك، الزنجي الذي يبث الموسيقى الناعمة بثًا مباشرًا في آخر الليل من محطة WAAT في نيوجرسي. كنت أستمع عادة إلى برنامج بيل كوك الليلي «ميوزيكال كارافان» في ليالي السبت في ظلمة غرفتي. كانت موسيقى البرنامج الافتتاحية مأخوذة من أغنية «كارافان» لإيلنغتون... موسيقى شديدة الغرابة، شديدة التعقيد، إيقاعات أفريقية/شرقية، ونغمات رقص شرقي... وأما البرنامج في حد ذاته، فقد كان يستحقّ الاستماع إليه لأن «كارافان»، بأداء ديوك الخاصّ به، كان يجعلني أشعر بأنني أفعل شيئًا محظورًا، حتى عندما أكون مندسًّا تحت ملاءات السرير النظيفة التي غسلتها أمي. يبدأ قرع الطبول متصاعدًا، ثم يتثنّى رشيقًا كالدخان صوت الترومبون، وبعده صوت الفلوت الناعم بسحره الأفعواني. كان ميندي يدعوها «موسيقى الانتصاب».

حتى نصل إلى محطة WAAT، وإلى استوديو بيل كوك، ذهبنا إلى قلب

المدينة بالباص رقم 14، وبعد دقائق قليلة من جلوسنا بهدوء - كأننا في كنيسة - على كرسيين من الكراسي المصطفّة خارج مقصورته المغلّفة بالزجاج، ترك بيل كوك مايكروفونه وخرج للسلام علينا. على صوت أسطوانة «ريس ريكورد» - من أجل المستمعين الذين لا يزالون جالسين بأمان في بيوتهم، وبمودّة واضحة، صافح كوك الشابين الصغيرين الأبيضين الطويلين اللذين جاءا مرتديين بدلتين لكل منهما زر واحد أتيا بهما من «أميركان شوب» وقميصين من «كاستم شوبي» بياقتين واسعتين. «كانت الملابس التي ارتديتها مستعارة من ميندي من أجل تلك الليلة». سألنا كوك بصوته ذي الرنين الشجيّ الذي كان ميندي يحاول تقليده كلّما تحدث معي على الهاتف «ما الذي تريدان سماعه أيها السيدان؟». طلبت منه شيئًا سارًّا ناعمًا، كأغنية «ميس» لدينا واشنطن، أو أغنية «ميس» لسافانا تشرتشل... وكم كان آسرًا في ذلك الوقت الاستماع إلى أغنية «ميس» الشهوانية... وأما ذوق ميندي فقد كان أكثر حدّة، وأكثر تسلّطًا من الناحية العرقية، فقد فضّل موسيقيين من قبيل عازف البيانو في الحانات القذرة، روزفلت سايكس، وآيفوري جوي هنتر («عندما خسرت حبيبتي... خسرت أكثر عقلي»). مرّت لحظات بدا لي فيها أن ميندي شديد الاعتزاز بقول بعض العبارات، مع التركيز على المقاطع الأولى منها، تمامًا مثلما كان يفعل صبيّ أسود من ساوث سايد اسمه ميلفين سميث كان يقوم بتوصيل الطلبات لدى متجر أبيه بعد المدرسة. (كان ميندي وأخوه يقومان أيضًا بتوصيل الطلبات أيام السبت). في إحدى الليالي، ذهب ميندي بجرأة فرافق ميلفين سميث إلى صالة في شارع بيكون خلف زقاق البولينغ للاستماع إلى موسيقى الجاز الجديدة «بيبوب». كان اسم تلك الصالة لويدز مانور؛ وكانت مكانًا لا يخاطر بالذهاب إليه إلا قلة من البيض، فضلًا عن بعض الصديقات البيضاوات لبعض العازفين. وكان ميندي غورليك أول من أخذني إلى متجر «ريديو ريكورد شاك»، في شارع ماركت حيث حظينا ببعض الصفقات الجيّدة من صندوق التسجيلات ذات الـ19 سنتًا، واستطعنا الاستماع إليها في مقصورة مخصّصة لذلك قبل أن نشتريها. ومن أجل المحافظة على الروح المعنوية في الجبهة الداخلية خلال

الحرب، كانت تقام حفلة راقصة ليلة واحدة في الأسبوع في شهري تموز وآب في تشانسلر آفنيو. كان ميندي يشقّ طريقه ضمن جموع الناس المبتهجة - آباء وأمهات من حينا، وأطفال من المدارس، وأطفال صغار يجرون مسرورين هنا وهناك من حول القواعد المطلية بالأبيض حيث كنا نلعب الكرة في الصيف - مستغنيًا عن الاستماع إلى الفرقة الموسيقية التقليدية التي تقدّم أغاني يحبّ الجميع الرقص عليها تحت الأنوار الكاشفة القوية الآتية من جهة المدرسة.
وبصرف النظر عن اللحن الراقص الذي تعزفه الفرقة على المنصّة المزينة بالأعلام، كان ميندي يتجوّل في المكان طيلة الشطر الأكبر من الأمسية وهو يغني «كاوونيا، كالدوما، ما الذي يجعل رأسك الكبير يابسًا هكذا؟ حجارة!».
كان يغني تلك الأغنية ويتكرّم بالقول إنه يقدّمها «مجانًا»... يقولها بطريقة غريبة مثلما كان لويس جوردان وفرقته «تيمباني فايف» يقولون في تسجيل، أرغم كلّ من في مسلسل ديرديفلز على الاستماع إليه كلّما دخلنا غرفته الشنيعة عندما لا يكون في البيت أحد من أهله، ومهما يكن سبب دخولنا (لنلعب لعبة الورقات السبع بدولار واحد، أو لننظر - للمرة المليون - إلى رسومه في كتاب «تيلي ذا تايور»).
وها هو الآن ميندي هنا، في سنة 1995، صبي ويكاهيك صاحب الموهبة الأكبر في ألّا يكون طفلًا نموذجيًا صالحًا... شخصية واقعة في منتصف الطريق بين الوقاحة وشيء من الضحالة المتمرّدة، قدر من الانحراف يحسده عليه الآخرون، كان يغازل البنات بطريقة مهينة - بطريقة تحوم دائمًا بين الإغراء والتهجم. ها هو ميندي غورليك الذي كنا نطلق عليه ألقابًا من قبيل «الوسيم» و«القذر» و«السخيف»... لا هو في السجن (كنت أحسب أن مآله السجن عندما كان يستحثّنا على الجلوس في دائرة على أرض غرفته، أربعة أو خمسة من المخاطرين المتهوّرين، وقد أنزلنا سراويلنا ورحنا نتنافس من أجل الفوز بدولارين موضوعين في طبق ينالهما من «يقذف» أولًا)، ولا هو في الجحيم (كنت واثقًا من أنه سيزج به هناك بعد أن يطعنه فيقتله شخص ملون «محلّق في المخدرات» في لويدز مانور). لكنه لم يكن الآن إلا صاحب مطعم

متقاعدًا يملك ثلاثة مطاعم متخصصة في اللحوم المشويّة تحمل اسم «غارز غريل» في أحياء الضواحي في لونغ آيلاند. ليس الآن أسوأ سمعة من أي شخص آخر في هذا اللقاء لزملاء الدراسة بعد خمسة وأربعين عامًا.

(12) قانون GI: هو قانون تصحيح أوضاع الجنود الذي صدر في سنة 1944، فأتاح مجموعة واسعة من المكتسبات للجنود العائدين من الحرب العالمية الثانية. نشأت عن هذا القانون قدرة مفاجئة عند من ذهبوا إلى الحرب في أول شبابهم على بدء حياتهم من جديد من غير اعتماد على ذويهم.
(13) تاباتيشنيك Tabachnik: شركة للمأكولات الجاهزة كانت في نيوارك.
(14)Iwo Jima أيو جيما: جزيرة بركانية يابانية جرى فيها إنزال لوحدات مشاة البحرية الأميركية التي خاضت على تلك الجزيرة معركة شديدة القسوة. (المعرب).

«ليس لك أن تقلق يا صاحبي... لا تزال لديك تلك البنية القوية، وذلك المظهر. أنت مدهش. تبدو رائعًا».

كان يبدو رائعًا بدوره: شخص رشيق لوّحته الشمس، له قامة رياضية ووجه طويل متضيق، ينتعل حذاء أسود من جلد التمساح، وقميصًا حريريًا أسود تحت سترة خضراء من الكشمير. لكنّ رأسه ذا الشعر الأبيض الفضي الغزير بدا لي - على نحو مريب - كما لو أنه ليس رأسه الحقيقي، بل كما لو أنه عاش حياة سابقة على جسد غير جسده.

«إنني أعتني بنفسي... ليس هذا ما أريد قوله. لقد اتّصلت بموتي...». كان مارتي شيفر (نسميه موتي) نجمًا في موقع رامي الكرة الجانبي في فريق ديرديفلز الذي كنا نلعب فيه ضمن دوري الكرة. كتبوا إلى جانب اسمه في دليل الأسماء في الكتيب المخصّص للقاء عبارة «استشاري مالي». وكتبوا أيضًا أن لديه «أبناء في السادسة والثلاثين والرابعة والثلاثين والحادية والثلاثين؛ وحفيدان لهما سنتان وسنة واحدة من العمر». (أمر بدا لي أنه بعيد الاحتمال عندما تذكّرت أن موتي ذا الوجه الطفولي الذي يخجل من البنات خجلًا يصيبه

بالشلل قد جعل من النصب من أجل قروش قليلة الانحراف الأكبر خلال مراهقته). كان ميندي يقول: «لقد قلت لموتي إنه إذا لم يجلس إلى جانبي فلن آتي. كنت مضطرًا إلى التعامل مع أغبياء كثُر في عملي. وكنت مضطرًا إلى التعامل مع الغوغاء. لكني لم أستطع التعامل مع هذا كلّه منذ اليوم الأول، ولا في اليوم الثاني يا سكيب... كان عليَّ أن أوقف السيارة في الطريق ثلاث مرات حتى أذهب إلى المرحاض».

قلت له: «لا بأس... بعد انقضاء سنين وسنين على تلك الأيام التي كنا نطلي بها أنفسنا بألوان داكنة، يعيدنا ما تقوله الآن، يعيدنا مباشرة، إلى ذلك الزمن الذي كنا واثقين فيه من أننا كنا شفّافين».

«أهذا هو الأمر؟».

«ربما، من يدري؟».

قال: «مات عشرون شخصًا من صفنا». جعلني أرى صفحة في آخر الكتيب حملت عنوان ‘في عهدة الذكرى’. قال ميندي: «مات أحد عشر فتى. اثنان من فريق ديرديفلز. بيرت بيرغمان، وأوتي أورنشتاين...». كان أوتي شريكه في اللعب، ملتقط الكرات؛ وكان بيرت يلعب القاعدة الثانية... «سرطان البروستات. كلاهما. ماتا خلال السنوات الثلاث الماضية. إنني أجري اختبار الدم، أجريه كل ستة أشهر منذ أن سمعت بوفاة أوتي. وأنت، هل تجري الاختبار؟».

«بالطبع!». لكني لم أعد أجريه، بطبيعة الحال، لأنني استأصلت البروستات».

«كم مرة تجريه بالسنة؟».

«مرة واحدة».

«هذا غير كافٍ. يجب إجراؤه كل ستة أشهر».

«حسنًا، سوف أفعل هذا».

سألني وهو يمسك بكتفي: «هل لديك أية مشكلات صحية؟».

أجبته: «إنني في أحسن حال».

«اسمع... لقد علّمتك العادة السرية. هل تتذكّر هذا؟».

«نعم، لقد علمتني يا ميندل. لو لم تعلّمني إياها، لاكتشفتها بنفسي خلال فترة تمتد من تسعين إلى مئة وعشرين يومًا. لكنك الشخص الذي جعلني أتعلّمها».

أطلق ضحكة مرتفعة وقال: «إنني ذلك الشخص. أنا من علّم سكيب زوكرمان ممارسة العادة السرية. إنني أستحق الشهرة». ثم تعانقنا - لاعب القاعدة الأولى الأصلع ورامي الجناح الأيسر ذو الشعر الأبيض من نادي ديرديفلز الرياضي الذي بدأ عدد أفراده يتناقص. كان جذعه الذي أحسست به عبر ملابسه شاهدًا على مدى اهتمامه بالعناية بنفسه.

قال ميندي فرحًا: «لا أزال على تلك العادة بعد مضي خمسين عامًا. هذا رقم قياسي لفريق ديرديفلز».

«لا تكن واثقًا من نفسك إلى هذا الحد. عليك أن تسأل موتي».

«سمعت أن نوبة قلبية أصابتك».

«لا. وضعوا لي مجازة شريانية فحسب. كان هذا منذ سنين».

«تلك المجازة اللعينة».

«إنهم يدخلون أنبوبًا في حلقك».

«صحيح».

قال ميندي: «رأيت صهري وقد وضعوا أنبوبًا في حلقه. لست في حاجة إلى أكثر من هذا. لم أكن أريد أبدًا أن آتي إلى هذا اللقاء. لكن موتي ظلّ يتّصل بي ويقول: ‘أنت لن تعيش إلى الأبد’. فأقول له: ‘بل سأعيش يا موتي’. يجب أن أعيش؛ ثم كنت غبيًا إلى حد جعلني آتي، فكانت صفحة المتوفين أول شيء رأيته في هذا الكتيّب».

عندما ذهب ميندي ليأتي بشراب وليبحث عن موتي. نظرت إلى اسمه في الكتيب: «صاحب مطعم متقاعد. أبناؤه: 36، 33، 28؛ أحفاده: 14، 12، 9، 5، 5، 3». تساءلت عما إذا كان أحفاده الستة، بمن فيهم الاثنان اللذان يبدو أنهما توأمان، هم الذين جعلوا ميندي يخشى الموت إلى هذا الحد، أو أن لديه أسبابًا أخرى من قبيل التمتّع بالعاهرات وبالملابس الأنيقة. كان عليَّ أن أسأله.

كان عليَّ أن أسأل الناس عن أشياء كثيرة في تلك الأمسية. إلا أنني أدركت في

ما بعد - على الرغم من أسفي لأنني لم أفعل ذلك - أن حصولي على إجابات عن أي سؤال من أسئلتي التي تبدأ بـ«مهما يكن ما حدث لـ»، ما كان ليخبرني شيئًا عن سبب إحساسي غير الطبيعي بأن ما يجري خلف ما أراه ليس إلا ما أراه بالفعل. لم يقتض الأمر أكثر من قول إحدى الفتيات للمصور في اللحظة التي سبقت التقاطه صورة جماعية لنا «احرص على عدم إظهار التجاعيد»؛ ولم أحتج إلى أكثر من الضحك عندما ضحك الجميع لهذه الملاحظة البارعة التي أتت في توقيت لطيف حتى أحس بأن القدر... أقدم الأحجيات التي واجهها العالم المتحضِّر، وأول موضوع إنشاء لنا في مادة الميثولوجيا الرومانية واليونانية حيث كتبت «للقدر ربات ثلاث يسمونهن مويرات: كلوذو التي تغزل خيط الحياة، ولاكيسس التي تقرّر طوله، وأتروبوس التي تقطعه»... صار القدر مفهومًا تمامًا عندما لم يعد أي شيء لغزًا، كوقوفي أمام المصوّر في الصف الثالث في الخلف واضعًا إحدى ذراعيَّ على كتف مارشال غولدشتاين («ابنان: 39، 37؛ وحفيدان: 8، 6») وذراعي الأخرى على كتف ستانلي ويرنيكوف («ابنان: 39، 38. ثلاثة أحفاد: 5، 2، ثمانية أشهر»)... كوقوفي الذي كان قد صار عصيًّا على التفسير.

كان واحد من طلبة السينما في جامعة نيويورك اسمه جوردان واسر، قد جاء مع جده ميلتون واسربرغر، (الذي كان يشغل موقع الظهير في كرة القدم) لكي يصوّر فيلمًا وثائقيًا عن لقائنا من أجل واحد من الصفوف التي يدرّسها في الجامعة. ومن وقت لآخر، بينما كنت أتنقّل في الصالة وأوثّق الحدث بطريقتي العتيقة المتخلّفة، سمعت جوردان يجري مقابلة مع إحداهن على الكاميرا. كانت ماريلين كوبليك ذات الثلاثة والستين عامًا تقول له: «كانت مدرسة مختلفة عن كل مدرسة أخرى. كان الأطفال رائعون. وكان لدينا معلمون جيدون. وكان مضغ العلكة أكبر جريمة يمكن أن نرتكبها». كما قال له جورج كريتشنباون البالغ ثلاثة وستين عامًا: «أحسن مدرسة، أحسن معلمين، أحسن أولاد». وقال ليون غوتمان البالغ ثلاثة وستين عامًا: «هذه أذكى مجموعة أشخاص عرفتها في حياتي كلّها». وقالت رونا سيغلر البالغة ثلاثة وستين عامًا: «كانت المدرسة

مختلفة في تلك الأيام». وأما إجابة رونا عن السؤال الذي تلا ذلك فقد سبقتها ضحكة لم يكن فيها سرور كثير: «سنة 1950؟ كان ذلك منذ بضع سنوات فقط يا جوردان!».

كان أحدهم يقول لي: «عندما يسألني الناس إن كنت زميلًا لك في المدرسة، فإنني أخبرهم كيف كتبت تلك الورقة من أجلي في درس المعلمة والاتش. كانت عن كتاب 'وسام الشجاعة الأحمر'!»، «لكني لم أفعل ذلك». «بل فعلت!»، «وما الذي كنت أعرفه عن كتاب 'وسام الشجاعة الأحمر'؟ أنا لم أقرأ ذلك الكتاب إلى أن صرت في الكلية». «لا، لقد كتبت لي تلك الورقة عن كتاب 'وسام الشجاعة الأحمر'. حصلت على تقدير ممتاز. تأخّرت عن تسليمها أسبوعًا كاملًا، لكن والاتش قالت لي إنها ورقة تستحق ذلك الانتظار».

كان الشخص الذي يقول لي ذلك رجلًا قصيرًا ذا مظهر متعنّت ولحية بيضاء قصيرة. كانت تحت عينه ندبة كبيرة باقية من جرح. وكان في كل واحدة من أذنيه جهاز لتقوية السمع... شخص من القلائل الذين رأيتهم في تلك الأمسية ممن ترك عليهم الزمن آثارًا واضحة. لقد بذل الزمن جهدًا خاصًّا على هذا الرجل. فقد كان يعرج في مشيته ويحدّثني وهو مستند إلى عكاز. كان تنفّسه ثقيلًا. لم أعرفه حتى عندما نظرت إليه من مسافة ستة إنشات، ولا حتى بعد أن قرأت اسمه على البطاقة المعلّقة على صدره. كان اسمه إيرا بوزنر. من هو إيرا بوزنر؟ ولماذا أصنع له هذا الجميل، خاصة أنني لم أكن قادرًا على صنعه؟ هل كتبت تلك الورقة لإيرا بوزنر من غير أن أهتم بقراءة الكتاب؟

«كان والدك يعني لي الكثير». قلت: «حقًّا؟» قال: «لم أمضِ معه إلا لحظات قصيرة من حياتي، لكن إحساسي بنفسي في تلك اللحظات كان أفضل من حياة كاملة أمضيتها مع أبي». قلت: «لم أكن أعرف هذا». قال: «كان أبي شخصية هامشية في حياتي». سألته: «ماذا كان يعمل؟ ذكِّرْني!» قال: «كان يكسب عيشه من مسح الأرضيات. أمضى حياته كلّها في مسح الأرضيات. كان أبوك يدفعك لكي تنال أعلى الدرجات في المدرسة. وأما فكرة أبي عن إدخالي مجال العمل، فكانت أن يشتري لي عدة مسح الأحذية حتى أقف عند كشك الجرائد

وأمسح أحذية الناس بربع دولار. هذا ما قدّمه لي يوم التخرّج. شيء غبيٌّ بائس. لقد عانيت حقًّا في تلك الأسرة. أسرة جاهلة بالفعل. كنت أعيش في مكان مظلم مع أولئك الناس. كان أبوك يدفعك إلى الأمام فصرت شخصًا حسّاسًا. كان لي أخ وضعناه في مصحّة. أنت لم تكن تعرف هذا. لم يعرف به أحد. وما كان مسموحًا لنا حتى أن نذكر اسمه. اسمه إيدي. أكبر مني بأربع سنوات. كانت تصيبه نوبات غضب فيعض يديه حتى يدميهما. كان يزعق مثل حيوان برّي إلى أن يسكته أبي وأمي. سألوني في المدرسة إن كان لدي إخوة وأخوات. فكتبت لا. وعندما كنت في الكلّية، وقّع والداي موافقة أتت من مستشفى المجانين فأجروا لإيدي عملية جراحية للدماغ دخل بعدها في غيبوبة ثم مات. أيمكنك تخيّل هذا؟ يقول لي أن أمسح الأحذية في ماركت ستريت أمام المحكمة... هذه نصيحة أب لابنه!».

«وماذا فعلت بدلًا من ذلك؟».

«إنني طبيب نفسي. كان أبوك مصدر إلهامي. لقد كان طبيبًا».

«ليس بالضبط. كان يرتدي ثوبًا أبيض. لكنه كان اختصاصيًا في الأقدام».

«كلما أتيت مع الأولاد إلى بيتكم، كانت أمك تضع وعاء الفاكهة، وكان أبوك يسألني دائمًا ‘ما رأيك في هذا الأمر يا إيرا؟ ما فكرتك عن هذا الموضوع يا إيرا؟’ دراق. خوخ. نكتارين. عنب. لم أر تفاحة في بيتنا. لم أر تفاحة أبدًا. أمي الآن في السابعة والتسعين. لقد وضعتها في بيت للعجزة. إنها تجلس هناك في مقعدها وتبكي طيلة اليوم. لكني، لا أظنها أكثر انزعاجًا مما كانت في طفولتي. أظن أن والدك قد توفّي».

«صحيح. ووالدك؟».

«لم يستطع والدي انتظار موته الطبيعي. لقد أصابه مرض شديد في رأسه».

حتى تلك اللحظة، لم تكن لدي أية فكرة عن إيرا وعما يحدّثني عنه لأنني، وبقدر ما كنت أحاول تذكّر ما حدث، فإن أشياء كثيرة كانت خارج قدرتي على التذكّر على نحو يوحي بأنها لم تحدث، وذلك مهما وقف أمامي، وجهًا لوجه، أشخاص من أمثال بوزنر، وشهدوا على العكس. أغلب الظن أنني لم أكن قد

ولدت عندما كان إيرا في بيتنا يتلقّى الإلهام من أبي! لقد صرت خالي الوفاض من القدرة على تذكّر أبي، ولو من بعيد، يسأل إيرا عن رأيه في حين كان إيرا يأكل قطعة فاكهة. تلك الأشياء التي تتمزّق وتنتزع وتتساقط منك فترتمي في النسيان لمجرّد أنها لم تكن مهمة في نظرك. لكن ما لم ألحظه أبدًا ضرب بجذوره في إيرا وغيّر حياته كلّه.

إذًا، ليس عليك أن تنظر إلى أبعد مني ومن إيرا حتى ترى السبب الذي يجعلنا نمضي في الحياة بإحساس عمومي بأننا محقّون وغيرنا مخطئ. وبما أننا لا ننسى الأشياء لأنها لا أهمية لها فحسب، بل أيضًا ننساها لأن لها أهمية زائدة... فكل واحد منا يتذكّر وينسى بطريقة لها تفاصيلها والتفافاتها التي تشبه متاهة تجعلها مميزة لصاحبها مثل بصمة إبهامه... ولا عجب في أن شذرات الحقيقة التي يجلّها المرء كثيرًا ويعتبرها سجلًا لحياته قد تبدو في نظر شخص آخر (يمكن أن يكون قد تناول الطعام معه عشرة آلاف مرة على طاولة المطبخ نفسها) نزهة إرادية في حالة من هوس الكذب. لكنّ أحدًا لا يمكن أن يكون مهتمًا بإرسال خمسين دولارًا من أجل حضور اجتماع رفاق الدراسة في سنتهم الخامسة والأربعين حتى يأتي ويبدي احتجاجه على إحساس شخص آخر بالماضي. الشيء المهمّ حقًّا في هذه الأمسية، والفرحة الأكبر فيها هي اكتشاف المرء أن اسمه لم يكتب بعد في صفحة «في عهدة الذكرى».

سألني إيرا: «كم مضى على وفاة والدك؟». أجبته: «توفي سنة 1969. منذ ستة وعشرين عامًا. زمن طويل». قال إيرا: «طويل بالنسبة إلى من؟ إليه؟ لا أظن هذا. عند الموتى، هذا ليس إلا قطرة في دلو من الماء». في تلك اللحظة تمامًا، سمعت خلفي مباشرة صوت ميندي غورليك يقول لشخص ما: «بمن كنت تفكر عندما كنت تمارس العادة السرية؟». أجابه صوت رجل ثانٍ: «لورين». قال ميندي: «بالتأكيد. كان الجميع يفكّر فيها. أنا أيضًا. ومن غيرها؟» أجابه: «دايان». «صحيح. دايان. بالتأكيد. من غيرها؟». «سيلما». قال ميندي: «سيلما؟ لم أكن أعرف هذا. يفاجئني سماع اسمها. لا. لم أكن أبدًا راغبًا في مضاجعة سيلما. قصيرة جدًا. كنت دائمًا أفضّل ممشوقات القوام اللواتي يسرن

في الاستعراض. أنظر إليهن أثناء التدريب في الملعب بعد المدرسة، ثم أذهب إلى البيت وأفعلها. ذلك الكْريم الأسمر. كريم بلون الكاكاو على سيقانهنّ... كان يصيبني بالجنون. هل تلاحظ شيئًا؟ الرجال هنا عمومًا لا يبدون في حالة سيئة. كثير منهم يمارس الرياضة. وأما الفتيات، أنت تعرف، لا. ليس لقاء السنة الخامسة والأربعين أفضل مكان من أجل النظر إلى النساء».

قال الرجل الآخر الذي كان يتحدّث بصوت ناعم وبدا لي أنه لا يجد في هذه المناسبة فرصة الحنين إلى الماضي التي يجدها ميندي: «صحيح، صحيح. لم يكن الزمن رفيقًا بالنساء». قال ميندي: «هل تعرف من مات؟ بيرت وأوتي. سرطان البروستات. وصل حتى النخاع الشوكي. انتشر. أكلهما أكلًا. كليهما. أشكر الرب على أنني أجريت ذلك الاختبار. هل تجري الاختبار؟».

سأله الرجل الآخر: «أي اختبار؟».

قال ميندي: «عجبًا! ألا تجري الاختبار؟ اسمع يا سكيب...». قال هذا وجذبني بعيدًا عن إيرا... «ميزنر لا يجري الاختبار».

كان ميزنر الآن هو نفسه السيد ميزنر، إيب ميزنر، الرجل القصير الأسمر الممتلئ صاحب الكتفين المنحدرتين والرأس الناتئ، مالك محل ميزنر لتنظيف الملابس... «خدمة التنظيف في خمس ساعات»... ذلك المحلّ الذي كان في شارع تشانسلر، بين محلّ تصليح الأحذية الذي يسمع فيه المرء دائمًا إذاعة إيطاليا وهو جالس على الكرسي خلف الباب النصفي المتأرجح، منتظرًا أن يفرغ رالف من إصلاح حذائه، وبين محلّ التجميل الذي كان اسمه رولينز، ذلك المحلّ الذي أتت منه أمّي مرّة بنسخة من مجلة «سيلفر كرينز» قرأت فيها مقالة أدهشتني بعنوان «جورج رافت رجل وحيد». كانت السيدة ميزنر سمراء قصيرة متينة البنية مثل زوجها، وكانت تعمل معه في المحلّ، كما عملت في إحدى السنين في بيع طوابع الحرب وتذكاراتها مع أمي في كشك في جادة تشانسلر. وأما ابنهما آلان، فقد كان يذهب إلى المدرسة معي، منذ الحضانة؛ وتخطّى الصفوف التي تخطّيتها حتى صرنا في المدرسة الثانوية. كانت المعلّمة تضعنا في غرفة معًا كما لو أننا جورج س. كوفمان، وموس هارت(15)،

وتقول لنا أن نكتب شيئًا كلما كانت المدرسة في حاجة إلى مسرحية لتقديمها بمناسبة اليوم الوطني. وعلى امتداد موسمين اثنين بعد الحرب، صار السيد ميزنر (بأعجوبة ما) يتولّى تنظيف ملابس «نيوارك بيرز» الذي كان من فرق الدرجة الأولى لدى نادي يانكيز. وفي أحد أيام الصيف - كان يومًا عظيمًا - طلب مني آلان مساعدته في نقل ملابس الفريق المغسولة والمكويّة (نقلها عبر ثلاثة باصات) إلى ملعب روبرت في آخر جادة ويلسون.

قلت: «آلان! يا إلهي! أنت مثل أبيك تمامًا».

أجابني: «وهل يجب أن أكون مثل أب شخص آخر؟». ثم أخذ وجهي بين يديه وقبّلني.

قال ميندي: «آلان. قل لسكيبي ما سمعت سكريمر يقوله لزوجته. إن لسكريمر زوجة جديدة يا سكيب. طولها ست أقدام. ذهب إلى الطبيب النفسي منذ ثلاث سنين. كان مصابًا بالاكتئاب. سأله الطبيب النفسي: 'ما الذي تفكّر فيه إذا طلبت منك تخيل جسد زوجتك؟'. أجابه سكريمر: 'أفكّر في أن عليَّ أن أحزّ عنقي بالسكين'. وهكذا فقد طلّقها وتزوّج سكرتيرته الشيكسا. طولها ست أقدام. وهي في الخامسة والثلاثين. تصل ساقاها حتى السقف. آلان، قل لسكيب ما قالته تلك الملكة الطويلة!».

قال آلان: «لقد قالت لي السيدة سكريمر...». كان كل منا مبتسمًا ابتسامة كبيرة وهو ممسك بذراع الآخر... «لماذا كلّهم موتي وأوتي ودوتي وتوتي؟ إذا كان اسمه تشارلز، فلماذا أدعوه توتي؟ فقال لها سكريمر: ما كان ينبغي أن آتي بك إلى هنا. أعرف أنني ما كان ينبغي أن آتي بك إلى هنا. لا أستطيع شرح الأمر. لا يستطيع أحد شرحه. إنه شيء عصيٌّ على الشرح. إنه هكذا فحسب».

فماذا يعمل آلان الآن؟ نشأ ابنًا لشخص يعمل في تنظيف الملابس، وكان يعمل لديه بعد المدرسة... كان يعمل في محل تنظيف الملابس، فصار قاضيًا في المحكمة العليا في باسادينا. في محل أبيه الصغير، كانت هنالك صورة مطبوعة للرئيس فرانكلين روزفلت موضوعة في إطار على الجدار فوق آلة الكيّ إلى جانب صورة للعمدة ماير إلينشتاين تحمل توقيعه. تذكرت هاتين الصورتين

عندما أخبرني آلان أنه كان مرتين عضوًا في وفد الحزب الجمهوري إلى مؤتمر الحزب للانتخابات الرئاسية. وعندما سأل ميندي آلان إن كان قادرًا على أن يحصل له على بطاقات من مباراة روز بويل، ما كان من آلان ميزنر... آلان الذي كنت أذهب معه إلى بروكلين لمشاهدة مباريات فريق «دودجر سنداي» في السنة التي تألق فيها روبنسون؛ آلان الذي كنت أخرج معه في الثامنة صباحًا فنأخذ الباص من زاوية شارعنا حتى محطة بن في قلب المدينة، ثم نذهب بالقطار إلى نيويورك وننتقل هناك إلى المترو حتى نذهب إلى بروكلين، وكل هذا حتى نصل إلى ملعب إيبيتز فيند ونأكل السندويتشات التي أتينا بها معنا قبل أن تبدأ التمرينات الرياضية... آلان ميزنر ما أن تبدأ المباراة حتى يجعل كل من حولنا يصاب بالجنون نتيجة تعليقاته الصاخبة على الفريقين معًا... آلان ميزنر هذا نفسه، أخرج مفكرة من جيب سترته وكتب فيها، بعناية، ملاحظة لنفسه. نظرت من فوق كتفه فرأيت ما كتبه: «تذكّر جيدًا، بطاقات لمباراة روز بويل من أجل ميندي ج.».

شيء لا معنى له! أمر لا أهمية له! شيء غير كبير جدًّا يجري هنا! حسنًا... يعتمد ما تخلص إليه على المكان الذي نشأت فيه وكيف انفتحت الحياة أمامك. لا يمكن القول إن آلان ميزنر قد نشأ من لا شيء؛ إلا أن تذكّره عندما كان غبيًّا صغيرًا يجعجع غير آبه بشيء، ولا يتوقّف عن الجعجعة في مقعده في ملعب إيبيتز، وتذكّره وهو ذاهب عبر شوارعنا لتوصيل الملابس في ساعة متأخرة في أمسية شتوية في سترة صوفية قصيرة ومن غير قبعة على رأسه، يمكن بسهولة أن يجعل المرء يتخيل أنه كان من المقدَّر له شيء أقل مما وصل إليه.

فقط بعد أن انتهى العشاء الذي ما كاد أحد يستطيع البقاء جالسًا زمنًا طويلًا لتناوله، ثم الحلوى والقهوة (استغرقت هذه الأمور الشطر الأكبر من الأمسية)، وبعد أن صعد الفتيان والفتيات من منطقة ميبل إلى المنصّة وأنشدوا أغنية مدرسة ميبل آفنيو؛ وبعد أن أمسك بالمايكروفون زميل بعد زميل ليقول كل منهم: «لقد كانت حياة عظيمة»، أو «إنني اعتز بكم جميعًا»؛ وبعد أن فرغ الناس من تربيت هذا على كتف ذاك وارتماء هذا بين ذراعي ذاك. وبعد أن

وقفت لجنة اللقاء المؤلّفة من عشرة أشخاص في وسط حلبة الرقص بأيادٍ متماسكة في حين قدّمت لهم فرقة الرجل الواحد أغنية بوب هوبز، «شكرًا على هذه الذكرى»، فصفقنا مستحسنين كل ما بذلوا الجهد لإنجازه، وبعد أن حكى لي مارفين ليبب (الذي باع أبوه لأبي سيارة البونتياك وعرض علينا - نحن الأولاد - أن يعطينا سيجارًا كبيرًا كلما أتينا لأخذ مارفين من البيت) عن مآسي النفقة التي يدفعها لزوجتيه السابقتين... «يمنحُ المرء ذهابه للتبوّل قدرًا من التفكير المسبق أكثر مما منحتُه لزيجتيّ الاثنتين»، وبعد أن أخبرني جوليوس بينكوس (الذي كان على الدوام أكثر الأولاد لطفًا فصار الآن مضطرًّا إلى ترك عمله في مجال النظارات بسبب ارتجاف يديه نتيجة تناول دواء اسمه سايكلوسبورين لا بد منه من أجل المحافظة على الكلية التي زرعوها له) بكيفية حصوله على كليته الجديدة... «لو لم تمت فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها نتيجة نزف دماغي في شهر تشرين الأول الماضي، لكنت ميتًا الآن»، وبعد أن قالت لي زوجة سكريمر الشابة الطويلة: «أنت كاتب الصف، ولعلك قادر على شرح هذا لي. لماذا تدعونهم كلّهم بأسماء من قبيل أوتي ودوتي وموتي؟ وفقط بعد أن صدمتُ شيلي مينسكوف (عضو آخر من أعضاء فريق ديرديفلرز) بإيماءة من رأسي عندما سألني: «أصحيح ما قلته على المايكروفون من أنه ليس لديك أطفال، أو أي شيء من هذا القبيل؟»، وفقط بعد أن أمسك شيلي بيدي بين يديه وقال: «مسكين يا سكيب»... عندها فقط اكتشفت أن جيري ليفوف، الذي وصل متأخّرًا، كان موجودًا بيننا.

(15) جورج س. كوفمان George S. Kaufman وموس هارت Moss Hart: كاتبان مسرحيان أميركيان شهيران.

أبي أميرة أكثر من الزوجة التي قبلها. كان يقول: إنها لعبة. ما أحلاها! إنها فتاتي المفضّلة... وكان مستعدًا لقتل أي شخص يقول شيئًا عن أية واحدة من زوجات جيري. وهو يعبد أطفال جيري عبادة. خمس بنات وصبي واحد. لقد كان يحب الصبي، لكن البنات كنّ قرّة عينه. ما كان هناك شيء لا يمكن أن

يفعله من أجل أولئك الأطفال. بل من أجل أيٍّ من أطفالنا. كان أبي يجد نفسه في الجنّة عندما نكون من حوله، كلّنا، مع الأطفال. بلغ السادسة والتسعين ولم يمرض يومًا واحدًا في حياته كلها. ثم أصابته جلطة فكانت الشهور الستة الأخيرة التي سبقت موته أسوأ فترة في عمره. لكنه عاش حياة جيّدة. كان مقاتلًا حقيقيًا. كان قوة من قوى الطبيعة... شخصًا لا سبيل إلى إيقافه».

كانت في كلماته نبرة خفيفة عائمة عندما راح يتحدّث عن أبيه... صوت يتردّد فيه صدى توقيرٍ محبٍّ فيكشف أن ما من شيء تخلّل حياته كلّها أكثر من توقّعات أبيه.

«وماذا عن المعاناة؟».

قال السويدي: «كان ممكنًا أن يصير الأمر أسوأ كثيرًا. ستة شهور فقط. ثم إنه أمضى نصف ذلك الوقت غير عارف بما يجري. لقد انزلق مبتعدًا عنا ذات يوم... وفقدناه».

عنيت بـ «بالمعاناة» تلك المعاناة التي أشار إليها في رسالته، وقال إنها كانت لدى أبيه نتيجة الصدمات التي «نزلت بمن يحبّهم». لكن، حتى لو كنت قد أتيت بتلك الرسالة معي فأخرجتها الآن ولوّحت بها أمام وجهه، فإن السويدي يستطيع أن يتهرّب من كتابته نفسها من غير جهد مثلما تفلّتَ من ملاحقيه في الملعب ونفضهم عنه في ذلك الأحد قبل خمسين عامًا عندما كنا في استاد المدينة في مواجهة فريق الحي الجنوبي (أضعفُ خصومنا)، فحقّق فريقنا رقمًا قياسيًا على مستوى الولاية عندما تمكّن من التسجيل أربع مرات متتالية من تمريرة واحدة في كل مرة. بالطبع... قلت في نفسي... بالطبع، إن اندفاعي إلى البحث عن ذلك «الأساس الصلب» فيه، وافتراضي الدائم بأن هنالك أكثر مما كنت أنظر إليه قد أثار فيه خوفًا من احتمال أن أمضي قدمًا، فأقول له إنه ليس ما أراد أن نظنَّه. لكني عدْت فذكّرت نفسي: لماذا أسبغ عليه هذه القدرة كلّها على التفكير؟ وما مبعث شهيتي إلى معرفة هذا الشخص؟ أأحسّ هذا النهم كلّه لمجرّد أنه شخص قال لي ذات مرة، قال لي وحدي، «لم تكن كرة السلة هكذا أبدًا يا

سكيب»؟ لماذا أتشبّث به؟ ما مشكلتي؟ ليس أمامك شيء غير الذي تنظر إليه. وليس فيه غير الرغبة في أن ينظر الناس إليه. هكذا كان دائمًا. إنه لا يتصنّع هذه البراءة كلّها تصنّعًا. أنت تبحث عن أعماق لا وجود لها. هذا الشخص تجسيد للاشيء. لقد كنت مخطئًا. لم أكن مخطئًا إلى هذا الحدِّ بشأن أي شخصٍ في حياتي كلّها.

(10)ziti زيتي: نوع من المكرونة على شكل أنابيب ضخمة.
(11) «موت إيفان إيليتش»، رواية من تأليف تولستوي صدرت سنة 1886، واعتبرت من أهم أعماله الروائية المتأخّرة.

- 3 -

لم أكن قد فكّرت بالبحث عنه بين الحاضرين. لقد عرفت من السويدي أن جيري يعيش في فلوريدا؛ ثم إنه (وهذا أكثر أهمية) كان دائمًا ولدًا منعزلًا قليل المشاركة في أي شيء خارج اهتماماته الخاصة الغريبة، فلم يبد لي محتملًا أن يكون الآن راغبًا في المشاركة، إذ لم يكن له اهتمام من قبل بتحمّل أحكام زملاء المدرسة. لكنّ جيري أتى في اتجاهي بعد دقائق من انصراف شيلي مينسكوف عنّي... رجل طويل في سترة زرقاء مزدوجة الصدر، مثل سترتي، لكن الصدر الذي فيها كان أشبه بقفص طيور كبير. كان جيري أصلع الرأس باستثناء خصلة من شعر أبيض أشبه بالحبل مستلقية فوق قمة رأسه. لقد اكتسب جسمه شكلًا غريبًا جدًّا: على الرغم من جذعه المهيب الذي حل محل الصدر الضيّق، الذي كان لذلك الصبي الأخرق. كان جيري سائرًا على تلك الساقين النحيلتين اللتين كانتا له... ساقان تشبهان سلّمًا منحتاه أسخف قامة في المدرسة... ساقان ليستا أكثر ثقلًا ولا أحسن تكوينًا من ساقيّ أوليف أويل في مسلسل الرسوم المتحرّكة الهزلي «باباي». عرفت وجهه على الفور؛ عرفته من تلك الأمسيات التي كان وجهي فيها هدفًا لهجماته المركّزة، عندما كنت أرى ذلك الوجه يتحرّك بعنف قبالتي عندما نلعب كرة الطاولة، يتحرّك بعنف وقد صار لونه قرمزيًا بفعل هجوميته ونواياه القاتلة... نعم، لا يمكن أبدًا أن أنسى ذلك الوجه، الوجه

الصغير المقطّب لجيري صاحب الساقين الطويلتين، قناع التصميم الذي يكون لوحش متأهب لا يقبل بأقل من إخراجك من مخبئك والتهامك، وجه الوحش المفترس الذي يقول لك: «لا تحدّثني عن المصالحة! لا أعرف شيئًا عن أية مصالحة!»... والآن، رأيت في ذلك الوجه الإصرار نفسه الذي رافقه طيلة عمره، إصرار على قذف الكرة في حلق الشخص الذي يقف قبالته. يمكنني تخيّل أن جيري قد جعل نفسه مهمًّا في نظر الناس من خلال وسائل مختلفة عن وسائل أخيه.

قال جيري: «لم أتوقّع رؤيتك هنا».

«وأنا لم أتوقّع رؤيتك».

قال لي: «ما كنت أظن أن هذا المكان مسرحٌ كافٍ بالنسبة إليك...»، ضحك وأضاف... «كنت واثقًا من أنك ستجد هذه النزعة العاطفية أمرًا منفرًا».

«هذا بالضبط ما كنت أظنّه فيك».

«أنت شخص أبعد من حياته عنه العواطف الزائدة كلها. لا توق غبيًا إلى أن تعود إلى الديار من جديد. لا صبر على ما هو ليس أساسيًا. لا وقت إلا لما لا يُستغنى عنه. ففي آخر المطاف، لا يعدو ما يجلسون هنا ويدعونه 'الماضي' أن يكون شذرة صغيرة من شذرة صغيرة من الماضي. إنه الماضي الذي نُزع فتيله... لا شيء يُستعاد حقًّا، لا شيء. هذا حنين، لا أكثر. هذا هراء».

هذه الجمل المعدودة التي أخبرتني بما أكون، وبما يكونه أي شيء، كانت كافية لأن تُودِي لا بأربع زوجات، بل بثماني زوجات، أو عشرة، أو ست عشرة زوجة معًا. تكون نرجسية أي شخص قوية في لقاء كهذا اللقاء؛ لكن كلام جيري كان انهمارًا من حجم مختلف تمامًا. لعلّ جسد جيري قد صار منقسمًا بين الصبي النحيل والرجل الضخم، لكن شخصيته لم تنقسم أبدًا... إن له شخصية شيء كبير موحّد معتاد، بكل برودة، على أن يصغي الآخرون إليه. يا للارتقاء! تطوّر الصبي الغريب إلى رجل واثق من نفسه إلى حد التوحّش. بدا لي أن اندفاعاته الأصلية القديمة التي كان يصعب ضبطها قد تحوّلت فصارت في حالة انسجام صريح مع ذكائه الكبير وتصلّبه. لم يكن أثر ذلك مقتصرًا على جعله

يبدو شخصًا يأمر فيُطاع، ولا يمكن أبدًا أن يفعل ما يؤمر بفعله، بل بدا شخصًا يمكن الاعتماد عليه لجعل الأشياء تتحرك. بدا الأمر حقيقيًا أكثر حتى مما كان يبدو عندما كنا أولادًا. إذًا، عندما تكون في ذهن جيري فكرة ما، مهما تكن بعيدة الاحتمال، فسوف ينتج عنها شيء كبير. رأيت الآن ما كان يفتنني فيه عندما كنا صغارًا، وفهمت للمرة الأولى أن افتتاني لم يكن ناتجًا عن أنه شقيق السويدي، بل عن أن شقيق السويدي كان شخصًا غريبًا إلى هذا الحد الحاسم، وأن ذكوريته بعيدة عن التآلف مع الآخرين كل البعد بالمقارنة مع ذكورية الطالب المتفوّق.

سألني جيري: «لماذا أتيت؟».

لم أقل له شيئًا مباشرًا عن إصابتي بالسرطان العام الماضي، ولا عن الأثر الذي كان لجراحة البروستات من الناحيتين البولية والتناسلية. أو، لعلّي قلت كل ما كان ضروريًا عندما أجبته: «لأنني في الثانية والستين. رأيت أن من بين صيغ الحنين المتاحة كلّها، فإن من المرجّح أن تكون هذه الصيغة من غير مفاجآت مزعجة».

أعجبه ذلك فقال: «أنت تحب المفاجآت المزعجة».

«لعلي أحبّها، لماذا أتيت أنت؟».

«شاءت المصادفة أن أكون هنا. كان عليَّ أن آتي في نهاية الأسبوع. فأتيت»... ابتسم لي وأضاف... «لا أظنّهم كانوا يتوقّعون أن يكون كاتبهم مقتضب الكلام إلى هذا الحد. ولا أظنّهم كانوا يتوقّعون منك هذا القدر من التواضع».

كان يشير إلى ما اعتبرته نكتة تلك المناسبة عندما دعاني إلى الكلام قبيل نهاية الوجبة إيروين ليفين (أبناؤه: 43، 41، 38، 31؛ أحفاده: 9، 8، 3، 1، ستة أسابيع»). فاكتفيت بالقول: «أنا نيثان زوكرمان. كنت نائب رئيس صفنا. وكنت عضوًا في حفلة التخرج. ليس لدي أطفال ولا أحفاد، لكنني أجريت منذ عشر سنوات عملية جراحية لوضع خمس مجازات قلبية، وأنا فخور بها، شكرًا لكم». كان ذلك كل ما قلته لهم، أو كل ما أحببت قوله لهم... شيء كافٍ لأن يكون مسلّيًا لهم جميعًا.

سألت جيري: «وماذا كنت تتوقع؟».

«هذا ما توقّعته. هذا ما توقّعته بالضبط. إنسان متواضع. رجل ويكاهيك العادي. ماذا أيضًا؟ تتصرّف دائمًا عكس توقعاتهم. حتى عندما كنت طفلًا. كنت تجد دائمًا طريقة عملية تضمن بها حريتك».

«سأقول إن هذا وصف ينطبق عليك أنت يا جيري أكثر».

«لا، لا. لم أكن أجد إلا الطريقة غير العملية. لقد كنت تجسيدًا للاندفاع، نبيلًا صغيرًا حاد الطبع... كنت أجن وأبدأ الصراخ عندما لا تجري الأمور كما أريد. وأما أنت فكنت صاحب نظرة واسعة إلى الأمور. كنت أكثر منا كلنا ميلًا إلى النظرية. حتى في ذلك الوقت، كنت تفضّل تدبّر كل شيء بأفكارك. كنت تدرك الموقف، وتخرج باستنتاجاتك. وكنت تراقب نفسك مراقبة دقيقة. تبقي الأشياء المجنونة حبيسة داخلك. ولد ذكي. لا، لم تكن مثلي أبدًا».

قلت: «حسنًا، كان كل منا يهتم كثيرًا بأن يكون محقًّا».

قال جيري: «صحيح، لم أكن أحتمل أن أكون مخطئًا، لم أكن أحتمل ذلك أبدًا».

«وهل صار الأمر أكثر سهولة الآن؟».

«لست مضطرًا إلى القلق بهذا الشأن. إن غرفة العمليات تجعلك شخصًا لا يخطئ أبدًا. هذا شديد الشبه بما تفعله الكتابة».

«الكتابة تجعلك شخصًا مخطئًا دائمًا. وأما وهم أنك تكون مصيبًا في يوم ما فهو الشذوذ الذي يدفعك إلى الأمام. ما الذي يمكن أن يدفعك غير ذلك؟... مثلما تتطوّر الظواهر المرضية تطوّرًا بطيئًا فلا تدمّر حياتك تدميرًا تامًّا».

«كيف هي حياتك؟ أين أنت؟ قرأت في مكان ما، على ظهر أحد الكتب، أنك كنت تعيش في إنكلترا مع شخصية أرستقراطية».

«أعيش الآن في نيو إنغلاند. من غير امرأة أرستقراطية».

«فمن لديك بدلًا منها؟».

«لا أحد بدلًا منها».

«غير ممكن! فماذا تفعل من غير وجود شخص تتناول عشاءك معه».

«لا أتعشّى».

«هذا في الوقت الحاضر. إنها حكمة المجازة القلبية. لكن تجربتي تقول لي إن زمن صلاحية الفلسفات الشخصية لا يمتد أكثر من أسبوعين. ستتغير الأمور».

«انظر... هنا تركتني الحياة. نادرًا ما أرى أحدًا. فحيث أعيش غرب ماساشوستس، لا أتحدّث إلا مع الشخص الذي يدير متجرًا للبقالة ومع السيدة التي في مكتب البريد. موظّفة البريد. هذان فقط».

«ما اسم تلك البلدة؟».

«لن تعرفها. إنها بين الغابات على مسافة عشرة أميال من بلدة جامعية اسمها أثينا. قابلت هناك كاتبًا شهيرًا عندما كنت في بدايتي. لم يعد أحد يذكره كثيرًا فقد صار إحساسه بالفضيلة أكثر ضيقًا مما يريده القراء الآن. لكن كان متمتِّعًا بقبول واسع ذلك الوقت. عاش مثل ناسك. بدت لي عزلته تلك أمرًا فظيع التقشّف عندما كنت فتًى. لكنه أصرّ على أنها حلّت مشكلاته كلّها. وهي الآن تحلّ مشكلاتي».

«ما المشكلة التي حلتها؟».

«لقد خرجتْ من حياتي مشكلات كثيرة... تلك هي المشكلة. أتحدّث في المتجر عن فريق رد سوكس. وأتحدّث عن الطقس في مكتب البريد. هذا كل ما في الأمر... مجالي الاجتماعي. نتحدّث عما إذا كنا نستحق الطقس. عندما آتي لاستلام رسائلي وتكون الشمس مشعة في السماء، تقول موظفة البريد لي: ‘نحن لا نستحق هذا الطقس’. أنا لا أستطيع مجادلتها في ذلك».

«وماذا عن الجنس؟».

«لقد ولّى زمنه. العيش من غير عشاء، والعيش من غير جنس».

«من أنت؟ سقراط! لست أصدّق هذا. الكاتب فقط! الكاتب الذي لا يغيّر رأيه! ولا شيء آخر!».

«لا شيء آخر أبدًا. وهكذا تمكّنت من تجنيب نفسي قدرًا كبيرًا من العناء. على أية حال، هذا كل ما أستطيع فعله لكي أُبقي ‘الخراء’ بعيدًا عني».

«وما هو ‘الخراء’؟».

«الصورة التي يحملها كلٌّ منا عن الآخر. طبقات وطبقات من سوء الفهم.

الصورة التي نحملها عن أنفسنا. شيء لا فائدة منه. وقاحة. حالة من الغرور الكامل. لكننا نمضي قدمًا ونعيش مع هذه الصور. ‘تلك هي حقيقتها. وتلك هي حقيقته. وتلك هي حقيقتي. هذا ما حدث. وهذا سبب حدوثه’... يكفي هذا! هل تعرف من رأيته منذ شهرين؟ إنه أخوك. هل أخبرك بهذا؟».

«لا، لم يخبرني».

«كتب لي رسالة ودعاني إلى العشاء في نيويورك. كانت رسالة لطيفة. أتت فجأة. قدت السيارة إلى نيويورك للقائه. كان يكتب شيئًا مكرّسًا لذكرى والدكما. وقد طلب في تلك الرسالة أن أساعده. كان لدي فضول لمعرفة ما يدور في رأسه. أثار فضولي أنه كتب إليَّ معلنًا أنه يريد كتابة شيء عن أبيه. إنه مجرد أخ بالنسبة إليك... وأما في نظري، فهو لا يزال ‘السويدي’. إنك تحمل هؤلاء الأشخاص معك دائمًا. كان عليَّ أن أذهب للقائه. لكنه لم يذكر لي شيئًا عن الأمر خلال ذلك العشاء. لم نفعل شيئًا غير تبادل بعض الأحاديث اللطيفة. كان ذلك في مطعم اسمه فينسنت. هكذا كان الأمر. وكعهده دائمًا، كان يبدو رائعًا».

«لقد مات».

«ماذا؟ هل مات أخوك؟».

«مات يوم الأربعاء. كانت الجنازة قبل يومين. يوم الجمعة. هذا سبب وجودي في جيرسي. ذهبت لأرى أخي الأكبر وهو يموت».

«ما سبب وفاته؟ كيف؟».

«سرطان».

«لكنه أجرى عملية استئصال البروستات. قال لي إنهم أزالوا السرطان».

قال جيري بصبر نافد: «وأي شيء غير هذا يمكن أن يقوله لك؟».

«كان نحيلًا. هذا كل ما في الأمر».

«لم يكن هذا كل ما في الأمر».

«إذًا... السويدي أيضًا!». إنه ما كان، لدهشة ميندي غورليك، يقتل نصف فريق ديرديفلز، وما جعلني، لدهشتي أنا أيضًا، قبل عام من الآن، «كاتبًا فحسب»، وما جرّدني - بعد الخسائر الأخرى التي عزلتني، وفي أعقاب كل

شيء ذهب وكل شخص ذهب - من أشياء كثيرة فجعلني واحدًا ممن تقتصر قدراتهم في الشيخوخة على هدف وحيد لا يتزعزع، جعلني رجلًا لا ينشد السلوى إلا في جمل من الكلمات... لقد كان المرض الذي فعل بنا هذا كلّه ناجحًا في إنجاز أكثر الأشياء إثارة للدهشة عندما أخذ معه بطل ويكاهيك الذي لا يُقهر، تعويذة حيِّنا، السويدي الأسطورة.

سألته: «هل كان على علم بذلك عندما رأيته؟ هل كان عارفًا أنه في خطر؟».

«كانت لديه آماله؛ لكنه كان يعرف بالتأكيد. انتشر السرطان في جسمه كله».

«يؤسفني سماع هذا».

«كان لقاؤه المدرسي التذكاري الخمسين في الشهر القادم. أتعرف ما قاله لي في المستشفى يوم الثلاثاء؟... ما قاله لي ولأبنائه قبل يوم من وفاته! كان كلامه غير واضح معظم الوقت، لكنه كرّرها مرتين، ففهمنا ما قاله: 'سوف أذهب إلى اللقاء الخمسين'. لقد سمع زملاء صفّه جميعًا يسألون: 'هل سيذهب السويدي؟'، ولم يكن راغبًا في خذلانهم. لقد كان شديد الصبر على الألم. كان رجلًا صبورًا بسيطًا شديد اللطف. لم يكن شخصًا عنيف المزاج. ولم يكن شخصًا عاطفيًا. مجرد شخص محبوب شاء قدره أن يتلقّى ضربات شديدة من عدد من المجانين الحقيقيين. يمكن النظر إليه، من ناحية ما، على أنه شخص تقليدي عادي تمامًا. انعدام للقيم السلبية، ولا شيء آخر. شخص أنشئ ليكون بليدًا، بُني من أجل التقاليد، وهكذا دواليك. تلك الحياة العادية اللائقة التي يريدون جميعًا عيشها، ولا شيء أكثر من ذلك. المعايير الاجتماعية، ولا شيء أكثر من ذلك. عدم أذيّة الآخرين، ولا شيء أكثر من ذلك. لكن ما كان يحاوله هو البقاء، هو المحافظة على جماعته سليمة. كان يحاول العبور بفصيله سالمًا. وفي نهاية المطاف، كان الأمر بالنسبة إليه حربًا. كان في ذلك الرجل جانب نبيل. مرّ في حياته عدد من التنازلات المؤلمة. وجد نفسه عالقًا في حرب لم يبدأها فقاتل حتى يحافظ على ما لديه، ثم سقط في القتال. عادي، تقليدي... ربما، وربما لا. من الممكن أن يظن الناس هذا. لا أريد إطلاق الأحكام. كان أخي أفضل من أي شخص آخر يمكن أن تجده في هذه البلاد كلها، أفضل كثيرًا جدًا».

خلال كلامه، كنت أتساءل في نفسي إن كان هذا هو تقييم جيري للسويدي عندما كان حيًّا؛ فلعل في كلامه الآن لمسة من «إعادة النظر التي يمرّ بها المرء في حالة الحداد، ولعل فيها ندم على الرأي - الأكثر انسجامًا مع جيري - الذي لعلّه كان يحمله عن أخيه الأكبر الوسيم، الأخ المعتدل، الدقيق، الهادئ، العادي الذي يحترمه الجميع، بطل الحيّ الذي كان شقيقه الأصغر يقارَن به دائمًا؛ فتحوَّل، هو نفسه، إلى بديل أخفضَ مستوى. من الممكن تمامًا أن يكون هذا الحكم على السويدي (الحكم القائم على عدم إطلاق حكم) تطورًا جديدًا لدى جيري وحالة إشفاق لم تظهر إلا قبل ساعات. من الممكن أن يحدث هذا عندما يموت الناس. يسقط بعيدًا ذلك الجدل الذي كان معهم، ويعيد الناس الذين كانوا كلّهم عيوبًا، وما كنا نحتملهم أبدًا، تأكيد ذاتهم وفرضها بطريقة جذابة لنا، ويتحول ما كان غير مقبول لنا أول أمس؛ فيصير، خلف النعش، محلًّا لا للعَجَب والتعاطف فحسب، بل للإعجاب أيضًا. لا يمكن حتى لمراقب خارجي تحديد التقدير الذي يحتوي على القسط الأكبر من الحقيقة: التقدير المتشدّد الذي كان لدينا قبل الجنازة، الذي كان متشكّلًا - من غير أي كلام زائد - في خضم الحياة اليومية، أو التقدير الذي يغمرنا بالحزن في لقاء أفراد العائلة بعد الوفاة. إن مشهد التابوت وهو يغيب في الأرض قادر على إحداث تغيير كبير في القلب... تجد فجأة أنك لست شديد الانزعاج من هذا الشخص الذي مات. وأما ما يفعله مشهد التابوت بالعقل خلال بحثه عن الحقيقة، فهذا ما لا أستطيع ادعاء معرفته.

قال جيري: «كان أبي شخصًا فظيعًا حقًّا. كان متسلطًا موجودًا في كل شيء. لست أدري كيف كان الناس يعملون معه. كانت طاولة مكتبه أول شيء جعل العمال يحملونه عندما انتقلوا إلى سنترال آفنيو؛ فلم يضعها في غرفة المكتب المحاطة بالزجاج، بل في وسط صالة المصنع، في مركزها تمامًا، حتى يكون قادرًا على مراقبة الجميع. لا يمكنك تخيّل شدّة الضجيج هناك، أزيز آلات الخياطة، وهدير آلات التثقيب، مئات الآلات العاملة معًا! وفي وسط هذا كله، كانت طاولة المكتب والهاتف والرجل الكبير شخصيًا.

كان مالك مصنع القفازات، لكنه يكنس أرضه دائمًا، ويكنس خاصّة الأرض من

حول العمال الذين يقصّون الجلد لحرصه على رؤية القصاصات الزائدة حتى يعرف من يجعله يخسر مالًا. قلت له منذ فترة مبكرة أن يكفّ عن ذلك؛ لكن سايمور لم يكن مثلي. كان له طبع كريم رحب مما جعلهم يستهدفونه دائمًا... يستهدفونه بأشياء غير معقولة. أب يستحيل إرضاؤه، وزوجتان يستحيل إرضاؤهما، والقاتلة الصغيرة نفسها، ابنته المتوحّشة، ميري المتوحّشة. كم كان سايمور صلبًا ذات وقت! في شركة نيوارك ميد كان ناجحًا نجاحًا تامًّا لا جدل فيه. جعل سحره أشخاصًا كثيرين يقدمون للشركة كل ما لديهم. رجل أعمال بالغ المهارة. يعرف كيف ينجز صنع قفاز؛ ويعرف كيف ينجز صفقة. كانت له علاقات ممتازة مع جماعة الأزياء في الجادة السابعة. كان المصممون هناك مستعدين لإخباره بأي شيء. هذا ما جعله متقدّمًا على الجميع. وفي نيويورك كان يتوقّف في المتاجر دائمًا، ويشتري سلعًا من إنتاج منافسيه ليرى ما في إنتاج غيره من أشياء فريدة متميّزة. يقف في تلك المتاجر وينظر إلى الجلد، ويبسط القفاز ويشدّه ويفعل ما علّمه إياه رجلنا العجوز. كان ينجز بنفسه القسم الأكبر من المبيعات. وكان ينجز حسابات الشركة كلها. كانت السيدات المشتريات مجنونات بسايمور. يمكنك تخيل هذا. كان يأتي إلى نيويورك ويدعو أولئك السيدات اليهوديات الصارمات المتشدّدات إلى العشاء - مشترِيات قادرات على إنجاحك أو تحطيمك - يقدم إليهن العشاء والنبيذ، فيقعن تحت تأثير سحره. وبدلًا من أن يتملّقهنّ، تجدهنّ في آخر الأمسية قد صرن يتملّقنه، ثم تأتي الأعياد فترسل أولئك النساء إلى أخي بطاقات المسارح وصناديق من الويسكي بدلًا من أن يفعل هو ذلك. كان يعرف كيف يكسب ثقة أولئك الناس بمجرّد أن يكون معهم على طبيعته. كان يبحث عن الجمعية الخيرية التي يفضّلها أحد المشترين فيشتري بطاقة لحضور عشائها السنوي في والدورف آستوريا، ويأتي مرتديًا بدلة أنيقة كأنه نجم من نجوم السينما. ثم يقدّم تبرعًا سخيًا لمعالجة السرطان، أو ضمور العضلات، أو مهما يكن... أو تبرّعًا لجمعية «الإغاثة اليهودية المتّحدة»... وسرعان ما تحصل نيوارك ميد على الصفقات. كان يعرف الأشياء كلها: اللون الذي سيكون رائجًا في الموسم القادم؛ وهل ستصير الفساتين أقصر

أو أكثر طولًا. رجل جذاب، مسؤول، مجِدّ في عمله. حدث إضرابان مزعجان في الستينات، ومعهما قدر كبير من التوتّر. يكون عمّاله واقفين في صف المعتصمين فيرونه آتيًا، يرونه يوقف سيارته، فتبدأ النساء اللواتي تخطن القفازات بالتراجع والاعتذار منه لأنهنّ لسن خلف آلاتهنّ. كان ولاء العمال لأخي أكبر من ولائهم لنقابتهم. أحبّه الجميع لأنه كان شخصًا محترمًا تمامًا قادرًا على الدوام على تفادي الإحساس الغبي بالذنب. لا سبب لديه لمعرفة أي شيء عن أي شيء، عدا القفازات. لكن الشكّ والعار والألم لازموه بقية حياته. لم تكن لتعترض طريق أخي تلك التساؤلات التي تصير لدى الناس في مرحلة نضجهم. كان يدرك معنى حياته بطريقة مختلفة. لست أقول إنه كان شخصًا مختلفًا. لقد ظنّه بعض الناس شخصًا بسيطًا لمجرّد أنه كان شخصًا لطيفًا في حياته. لكن سايمور لم يكن بتلك البساطة أبدًا. لا يكون البسيط بسيطًا على هذا النحو أبدًا. ومع ذلك، وصل إليه الشك في النفس، ولو بعد حين. إن كان هنالك شيء أكثر سوءًا من أن يأتي الشكّ في النفس خلال مرحلة مبكرة من الحياة، فهو أن يأتي الشك في النفس خلال مرحلة متأخّرة كثيرًا. لقد فجّرت تلك القنبلة حياته. كان هو الضحيّة الحقيقيّة لذلك التفجير.

«أية قنبلة؟».

«قنبلة الغالية الصغيرة ميري!».

«لا أعرف معنى ‘قنبلة الغالية الصغيرة ميري’!».

«ميري هي ميريديث ليفوف. ابنة سايمور. كانت ابنة سايمور صاحبة ‘تفجير ريمروك’. تلميذة المدرسة الثانوية التي فجّرت مكتب البريد وقتلت الطبيب. الطفلة التي أوقفت الحرب في فيتنام بأن فجّرت شخصًا كان ذاهبًا في الخامسة بعد الظهر لكي يضع رسالة هناك. طبيب في طريقه إلى المستشفى. طفلة ساحرة»... قال هذا بصوت كلّه ازدراء، لكنه لم يبد لي قادرًا على التعبير عن حجم ما لديه من كره وازدراء لها... «أتت بالحرب إلى حضن الرئيس ليندون جونسون بأن فجّرت مكتب البريد في السوبرماركت. كان مكتب البريد صغيرًا جدًّا في السوبرماركت. كوة في آخر المكان، وصفّان من صناديق البريد ذات

الأقفال... هذا كل ما كانه مكتب البريد. تشتري طوابعك مباشرة هناك وتشتري مسحوق الغسيل والصابون والمناديل الورقية. على الطريقة الأميركية القديمة. كان سايمور شخصًا على الطريقة الأميركية القديمة. لكن ابنته لم تكن كذلك. لقد جعلها تعيش خارج الزمن الحقيقي، فما كان منها إلا أن أعادته إليه. كان أخي يظنّ أنه قادر على إخراج أسرته من تشوش حياة البشر عندما يجعلها تعيش في أولد ريمروك، لكن ابنته أعادتهم من حيث أتوا. تمكّنت، على نحو ما، من زرع تلك القنبلة خلف كوة البريد. وعندما انفجرت، دمّرت السوبرماركت أيضًا. قتلت ذلك الشخص، الطبيب، الذي كان واقفًا عند صندوق البريد لوضع رسائله فيه. مع السلامة يا أميركا القديمة! مرحبًا أيها الزمن الحقيقي!».

«لم أسمع بهذا. لم تكن لدي أية فكرة».

«حدث الأمر سنة 1968 عندما كان السلوك المتطرّف لا يزال أمرًا جديدًا. أُجبر الناس فجأة على إدراك معنى الجنون. ذلك الاستعراض العام كلّه. إسقاط المحظورات. عجز السلطات. جنون الشباب. تخويف الجميع. لا يفهم الكبار شيئًا من الأمر ولا يعرفون ما يتعيّن عليهم فعله. هل هذا تمثيل؟ هل 'الثورة' أمر حقيقي؟ هل هي لعبة؟ هل هي لعبة شرطة ولصوص؟ ما الذي يجري هنا؟ أطفال يقلبون سافل البلاد عاليها، فيبدأ جنون الكبار أيضًا. لكن سايمور لم يكن واحدًا منهم. كان واحدًا من الناس الذين يعرفون طريقهم. فهم أن هنالك أمرًا خاطئًا يحدث. لكنه لم يكن من أنصار هو شي مينه كابنته البدينة العزيزة. لم يكن أكثر من أب طيب متحرّر العقل. كان الملك الفيلسوف في الحياة العادية. رباها على الأفكار الحديثة وعلى أن يكون المرء عقلانيًا مع أطفاله. كل شيء مسموح به، وكل شيء قابل للغفران. لكنّها كانت تكره ذلك. لا يحب الناس الإقرار بمدى كرههم أطفال أشخاص آخرين؛ لكن هذه الطفلة تجعل الأمر سهلًا عليك. لقد كانت بائسة، معتدّة بنفسها... كانت تلك القذرة الصغيرة سيئة منذ ولادتها. انظر... إن لديَّ أطفالًا؛ لدي كثير منهم... وأعرف كيف يكون الأطفال وهم يكبرون. إن الثقب الأسود لشدة استغراق المرء بنفسه حفرة لا قرار لها. ولكن، إذا صرت بدينًا، وإذا تركت شعرك يطول كثيرًا، وإذا رحت تستمع إلى موسيقى

روك آند رول بصوت شديد الارتفاع، فهذا أمر يمكن فهمه... لكنّه أمر آخر أن تتجاوز كل حدٍّ وترمي قنبلة. هذه جريمة لا يمكن تبريرها أبدًا. لقد قطعت تلك القنبلة طريق الرجعة على أخي. نسفت تلك القنبلة حياته. انتهت حياته المثالية. تمامًا مثلما أرادت ابنته. هذا ما كان قد استقر في ذهنها. هذا ما أرادته له، الابنة وأصدقاؤها. كان غارقًا في حب حظه الحسن، فكرهوه لهذا السبب. كنا ذات مرة في بيتهم يوم عيد الشكر، زوجته وشقيقها الأصغر داني، وزوجة داني، وعائلة ليفوف كلها، أطفالنا، الجميع، فنهض سايمور ورفع نخبًا وقال: 'لست شخصًا متدينًا، لكني أنظر إلى المجتمعين من حول هذه الطاولة فأدرك أن هنالك نورًا يشعّ عليَّ من الأعلى'. كان هو من أرادوا استهدافه حقًّا، وقد أفلحوا! لقد اصطادوه! كان ممكنًا أن تنفجر تلك القنبلة في غرفة المعيشة لديهم. كان العنف الذي تعرّضت له حياته فظيعًا. كان مريعًا. لم تسنح فرصة له في حياته كلّها لأن يسأل نفسه: 'لماذا تسير الأمور مثلما تسير؟'؛ ولماذا يهتم أصلًا بطرح هذا السؤال عندما تسير الأمور سيرًا ممتازًا على الدوام؟ لماذا تسير الأمور مثلما تسير؟ إنه السؤال الذي ما من إجابة له... وقد ظلّ هكذا لأنه كان في نعمة كبيرة جدًا فلم يعرف حتى بوجود ذلك السؤال».

هل كان جيري من قبل ممتلئًا هكذا بحياة أخيه وبقصّة أخيه؟ لم يفاجئني أن يكون ذلك التصميم الطاغي المتركّز في ذلك الرأس الغريب تصميمًا من النوع الذي يسمح له بتوزيع انتباهه إلى أجزاء كثيرة جدًا. ففي الأحوال العادية، لا يضعف الموت جلال الهواجس الذاتية، بل يقوّيها على وجه العموم: وماذا عنّي؟ ماذا لو حدث هذا لي؟

«هل قال لك إن الأمر كان فظيعًا؟».

أجابني جيري: «مرة واحدة. مرة واحدة فقط. لا... كان سايمور يتحمّل الأمر، ويتحمّل الأمر...». قال بمرارة... «يمكنك أن تلقي عليه بالعبء بعد العبء، لكنه يظلّ يبذل أقصى جهده. ذلك البائس المسكين؛ كان هذا قدره... كان مبنيًا لكي يحمل الأعباء ولكي يتحمّل القذارات». مع قوله هذا، تذكّرت كيف كان اللاعبون يتكوّمون فوقه، لكنه يخلّص نفسه منهم ويظلّ ممسكًا بالكرة. تذكّرت

كيف وقعت في حبه، بكل معنى الكلمة، بعد ظهر ذلك اليوم الخريفي المتأخر منذ زمن بعيد عندما حوّل وجودي ذا السنوات العشر بأن اصطفاني لكي أدخل خيالات السويدي ليفوف... عندما بدا لي، في لحظة واحدة، أنني - أنا أيضًا - مدعوّ إلى الأشياء الكبرى، وأن لا شيء في العالم يمكن الآن أن يعترض طريقي بعد أن ألقت طلعة الإله بنورها عليّ وحدي. «لم تكن كرة السلّة هكذا من قبل يا سكيب». كم كان آسرًا الكلام الذي وجّهته تلك البراءة إلى براءتي! الأهمية التي منحني إياها! كان ذلك كل ما يمكن أن يريده صبي في سنة 1943.

«ما كان لينثني أبدًا. كان قادرًا على أن يكون صلبًا. هل تتذكّر، عندما كنا أطفالًا، أنه التحق بمشاة البحرية حتى يقاتل اليابانيين؟ حسنًا، لقد كان جندي مشاة بحرية هائلًا. لم ينثن إلا مرة واحدة، في فلوريدا. لقد ازداد ثقل العبء عليه كثيرًا. أتى بالأسرة كلها إلى فلوريدا من أجل زيارتنا، الأولاد والسيدة ليفوف الثانية فائقة الأنانية. كان هذا منذ سنتين. ذهبنا جميعًا إلى مطعم يقدّم السرطان الصخري. كنا اثني عشر شخصًا في ذلك العشاء. ضجيج كثير. والأولاد يضحكون ويعبثون. كان سايمور يحب هذا. العائلة الجميلة كلّها من حوله؛ والحياة مثلما يجب أن تكون. لكنه نهض عن الطاولة عندما جلبوا الحلوى والقهوة. وعندما لم يعد بعد قليل، خرجت فبحثت عنه. وجدته في السيارة. كان يبكي. كان نشيجه يهزّ جسده كلّه. لم أره هكذا قبل ذلك أبدًا. أخي، الصخرة! قال لي: ‹أشتاق إلى ابنتي› قلت له: ‹أين هي؟› كنت أعرف أنه يعرف مكانها دائمًا. كان يذهب لرؤيتها خفية، على مر السنين. أظنّه كان يراها كثيرًا. قال لي: ‹لقد ماتت يا جيري› فلم أصدّقه أول الأمر. ظننت أنه يقول هذا بغية تضليلي. ظننت أنه لا بد أن يكون قد رآها في مكان ما. ظننت أنه مستمر في الذهاب لرؤيتها حيث هي، وفي معاملة تلك القاتلة كما لو أنها ابنته... تلك القاتلة التي صارت الآن في الأربعينات في حين لا يزال كل شخص قتلته يُقتل من جديد. لكنّه طوقني بذراعيه وعاد يبكي، فتساءلت في نفسي إن كان الأمر صحيحًا، وإن كان وحش العائلة اللعين قد مات حقًا. لكن، لماذا يبكي إن كانت قد ماتت حقًّا؟ لكن،

لو كان له نصف عقل، لأدرك أن من الغريب جدًّا أن تكون له ابنة مثلها... لو كان له نصف عقل لاستشاط غضبًا على تلك البنت ولابتعد عنها منذ زمن بعيد. لو كان له نصف عقل، لانتزعها من قلبه منذ وقت طويل، لتخلّى عنها. الطفلة الحانقة التي تزداد وتزداد جنونًا... والقضية المقدّسة التي تُعلّق جنونها عليها. كان يبكي ذلك البكاء... من أجلها؟ لا، لم أكن قادرًا على تصديق هذا. لم أكن قادرًا على قبوله. قلت له: 'لست أدري إن كنت تكذب أو أنك تقول لي الحقيقة. لكن، إن كنت تقول لي الحقيقة، أي أنها قد ماتت، فهذا أفضل خبر سمعته في حياتي. لن يقول لك هذا أحد غيري. سوف يحاول الجميع مواساتك. لكنّي ترعرعت معك. إنني أحدّثك حديثًا صريحًا مباشرًا. موتها أحسن ما يمكن أن يحدث لك. لم تكن منتمية إليك. لم تكن منتمية إلى أي شيء مما كنته. لم تكن منتمية إلى أي شيء كانه أي شخص. لقد كنت تلعب الكرة... كان هنالك ملعب تلعب فيه الكرة. لكنها لم تكن في ذلك الملعب. لم تكن قريبة من ذلك الملعب أبدًا. الأمر على هذه الدرجة من البساطة. لقد كانت خارج كل الحدود، شاذّة عن الطبيعة. خارجة تمامًا عن كل حدود. لا بد لك من الكفِّ عن حدادك. لقد تركت هذا الجرح مفتوحًا خمسة وعشرين عامًا. خمسة وعشرون عامًا زمنٌ كافٍ. لقد جعلك هذا مجنونًا. وإذا تركت الجرح مفتوحًا بعد الآن، فسوف يقتلك. هل ماتت؟ يا إلهي! اتركها! اتركها وإلا سوف تتعفّن في داخلك وتأخذ حياتك أيضًا' هذا ما قلته له. ظننت أنني قادر على جعله ينفّس عن غضبه، على جعل غضبه يخرج منه. لكنه ظلّ يبكي، فحسب. لم يستطع نسيان الأمر. عرفت أن هذا الأمر سيقتل ذلك الرجل؛ وقد قتله حقًّا».

قال جيري هذا؛ وقد حدث هذا. هي نظرية جيري أن السويدي لطيف، وأن من الممكن القول إنه سلبي، وأن من الممكن القول إنه يحاول دائمًا فعل الشيء الصحيح. شخصية منضبطة اجتماعيًا لا تعرف الانفجار ولا تسلّم نفسها للغضب أبدًا. من يكون غير قادر على السماح لنفسه بالغضب، لا يكون الغضب واحدة من نقاط قوّته. وتبعًا لهذه النظرية، فإن عدم الغضب هو ما قتل السويدي آخر المطاف. إنها العدوانية التي تنظّف النفس، أو تشفيها.

كان يبدو أن ما جعل جيري يستمرّ في كلامه هذا، من غير أي قدر من التردّد أو الأسف، ومن غير أي تخلٍّ عن نظرته الخاصة إلى الأشياء، هو أن لديه موهبة خاصّة في الغضب وموهبة خاصة أخرى في عدم الالتفات إلى الخلف. شخص لا ينظر إلى الخلف أبدًا! شخص لا تكويه الذكريات. فبالنسبة إليه، يكون كل نظر إلى الخلف كلامًا فارغًا، حنينًا لا معنى له، بما في ذلك نظر السويدي إلى الخلف، إلى ما قبل خمسة وعشرين عامًا، إلى ابنته قبل انفجار تلك القنبلة، نظره إلى الخلف وبكائه العاجز على كل ما أودى به ذلك الانفجار. أكان عليه أن يفلت غضبه المحقّ على تلك الابنة؟ لا شك في أن ذلك كان سيفيده. ولا يمكن الجدل في أن ما من شيء أكثر قدرة من الغضب المحقّ على إنعاش النفس. لكن، بالنظر إلى الظروف، ألم يكن ذلك مطالبة بالكثير؟ ألم يكن ذلك مطالبة للسويدي بأن يتخطّى الحدود التي ميّزته وجعلته السويدي؟ لا بد أن الناس كانوا يفعلون ذلك له طيلة حياته مفترضين أنه لا يعرف حدودًا لأنه كان هذه الشخصية الأسطورية في يوم من الأيام. لقد فعلتُ شيئًا يشبه هذا عندما كنا في مطعم فينسنت، عندما كان لديَّ توقّع طفوليّ بأن تبهرني ألوهته، لكني وجدت أمامي روحًا إنسانية عادية تمامًا. هناك ثمن لا بد أن يدفعه كل من يُنظر إليه باعتباره إلهًا، ألا وهو أحلامُ عابديه التي لا تعرف حدودًا!

قال جيري: «هل تعرف الشيء القاتل الذي كان يجذب سايمور إليه أكثر من أي شيء آخر؟ إنه انجذابه القاتل إلى واجبه، انجذابه القاتل إلى مسؤوليته. كان قادرًا على أن يذهب ويلعب الكرة في أي مكان يريده. لكنه ذهب إلى أوبسالا لأن أبي أراده أن يظلَّ قريبًا من البيت. عرض عليه نادي جايانتس عقدًا من الدرجة الممتازة. ولعله كان سيلعب ذات يوم إلى جانب ويلي ميز... لكنه ذهب إلى سنترال آفنيو حتى يعمل في شركة نيوارك ميد. جعله أبي يبدأ تعلّم الدباغة، وضعه ستة أشهر في مدبغة في فريلينغوسن آفنيو. كان يستيقظ في الخامسة صباحًا، ستة أيام في الأسبوع. أتعرف كيف تكون المدبغة؟ المدبغة مكان في غاية القذارة. هل تتذكّر تلك الأيام في الصيف؟ تهب ريح من جهة الشرق فتكتسح رائحة الدباغة الكريهة حديقة ويكاهيك وتملأ الحي كلّه. حسنًا، لقد خرج

سايمور من تلك المدبغة قويًا كالفأس، فوضعه أبي خلف آلة الخياطة مدة ستة أشهر. لم ينبس سايمور ببنت شفة. أتقن العمل على تلك الآلة. أعطه قطعًا لخياطة قفاز، وسوف يكون إنجازه له أفضل من إنجاز بقية الخياطين جميعًا، وبنصف الوقت. كان قادرًا على الزواج من أية امرأة، لكنه تزوّج الآنسة دواير الجميلة. كان ينبغي أن تراهما معًا. زوج غير منسجم أبدًا. ابتسامتان كبيرتان على وجهيهما في رحلتهما الطويلة في الولايات المتحدة. هي كانت كاثوليكية سابقة، وهو يهودي سابق. ولسوف يذهبان معًا إلى أولد ريمروك لكي ينجبا أطفالًا رائعين. لكنهما أنجبا تلك الطفلة الملعونة».

«وما المشكلة التي كانت في الآنسة دواير؟».

«لم يعجبها أي بيت سكناه. ولم يكن أي مبلغ من المال في الحساب المصرفي كافيًا. مكّنها من العمل في تجارة المواشي. لم ينجح ذلك. مكّنها من العمل في مجال إنتاج الغراس. لم ينجح ذلك. أخذها إلى سويسرا لإجراء أفضل عملية لشدّ الوجه في العالم. لم تكن قد صارت في الخمسينات من عمرها؛ كانت لا تزال في الأربعينات. لكن، هذا ما أرادته المرأة! ذهبا في تلك الرحلة الطويلة إلى جنيف لكي يشد وجهها الطبيب نفسه الذي قام بشدّ وجه الأميرة كريس. كان من الأفضل له لو أمضى حياته لاعب كرة من الدرجة الأولى. وكان من الأفضل له أن يضاجع بعض النادلات في فينيكس وأن يشغل موقع لاعب القاعدة الأولى في فريق 'مَدْ هينز'. تلك الطفلة الملعونة! هل تعرف أنها كانت تتأتئ؟ فجّرت تلك القنبلة حتى تنتقم من الجميع لأنها تتأتئ. أخذها سايمور إلى اختصاصيي الكلام. أخذها إلى مستشفيات. أخذها إلى معالجين نفسيين. وكان يشعر دائمًا بأن ما يفعله من أجلها غير كافٍ. فماذا كانت مكافأته؟ بوووم! لماذا تكره هذه الفتاة أبيها؟ هذا الأب العظيم، هذا الأب العظيم حقًّا؟ حسن المظهر، لطيف، لا يتأخّر عن تقديم أي شيء، لا يفكّر في أي شيء غيرهم، غير أسرته... لماذا تريد معاقبته؟ لماذا أنجب والدنا المضحك أبًا لامعًا كهذا... ولماذا أنجب الأب اللامع تلك الابنة؟ فليقل لي أحد ما سبب ذلك. هل كانت المورثات توّاقة إلى الانفصال، إلى التباعد؟ ألهذا أرادت الابنة أن تترك سايمور ليفوف وتذهب إلى تشي

غيفارا؟ لا، لا. ما السمّ الذي سبّب هذا؟ الذي جعل
ذلك الرجل المسكين موضوعًا خارج حياته طيلة ما بقي من حياته؟ لقد صار يسترق النظر إلى حياته من خارجها. وكان نضاله في الحياة أن يدفن هذا ويخفيه عن الأنظار. لكن، هل كان قادرًا على ذلك؟ وكيف؟ كيف كان من المتوقّع أن يتعامل شخص غريب لطيف، حلو، كبير مثل أخي مع تلك القنبلة؟ في أحد الأيام، بدأت الحياة تضحك منه، ثم لم تتوقّف عن الضحك».

كان ذلك آخر نقطة بلغها حديثنا الذي كان أشبه بتوبيخ أردت سماعه من جيري... لكني وجدت أن عليَّ اختلاق أي شيء إضافي أردت سماعه لأن امرأة قصيرة رمادية الشعر في ملابس بنية أتت في تلك اللحظة لتعرّفني على نفسها، فما كان من جيري إلا أن ألقى ما يشبه تحية سريعة، ثم اختفى. (عندما بحثت عنه في وقت لاحق، سمعت أنه كان مضطرًا إلى المغادرة لكي يدرك الطائرة العائدة به إلى ميامي). لم يكن من طبيعة جيري أن يحتمل البقاء أكثر من خمس ثوان عندما يستحوذ شخص آخر على انتباه من يقف معه.
بعد أن كتبت عن شقيقه... الشيء الذي فعلته خلال بضعة أشهر تلت ذلك... كنت أفكّر في السويدي من غير انقطاع ست ساعات، أو ثمانٍ، بل عشر ساعات أحيانًا. كنت أتخلّى عن وحدتي وأتلبّس وحدته؛ أسكن هذا الشخص مثلما أسكن نفسي؛ أختفي في داخله؛ وأحاول ليل نهار أن أحدّد مقاسات بساطته الظاهرة، وبراءته، وفراغه، وأن أرسم انهياره، وأجعل منه - مع مرور الوقت - أهم شخصية في حياتي. وبعد ذلك، بدأت أغير الأسماء وأموّه علامات الشخصية الأكثر وضوحًا. بل نشأت لدي رغبة الهواة في إرسال نسخة من المخطوط إلى جيري حتى أعرف رأيه. لكني قمعت هذا الدافع: لست أجهل كيف أقمعه بعد قرابة أربعين سنة أمضيتها في الكتابة والنشر. لو أرسلت المخطوط إليه لقال لي: «هذا ليس أخي. ليس أخي أبدًا. لقد أسأت تصويره. لا يمكن أن يفكّر أخي هكذا. ولم يكن يتحدّث هكذا...» إلخ.
هذا صحيح! فبعد مرور هذا الوقت، سيكون جيري قد استعاد موضوعيته التي

هجرته بعد دفن أخيه مباشرة. ومع استعادتها، سيستعيد ذلك الكره القديم الذي ساعده في أن يصير طبيب المستشفى الذي يخشى الجميع الكلام معه لأنه لا يخطئ أبدًا. وأيضًا، خلافًا لمعظم الأشخاص الذين يصير أعزاؤهم نموذجًا في الحياة، من المحتمل كثيرًا أن يجد جيري ليفوف تسلية، لا أن يغضب، نتيجة إخفاقي في التقاط مأساة السويدي مثلما التقطها هو. احتمال قوي: يقلب جيري ساخرًا تلك الصفحات التي كتبتها وينبئني بالأخبار السيئة خبرًا بعد خبر: «لم تكن الزوجة هكذا أبدًا؛ ولم تكن الطفلة هكذا أبدًا... بل إنك فهمت أبي فهمًا خاطئًا أيضًا. لن أقول لك شيئًا عما فعلته بي. وأما أن تسيء فهم أبي - يا رجل! - فهذا كمن لا يستطيع رؤية جدار أمامه. كان لو ليفوف وحشًا، رجلًا. وأما هذا الشخص، فهو شيء ضعيف. إنه ساحر. إنه شخص توفيقي - لا، لا، إننا بعيدون عن هذا مسافة سنين ضوئية. كان لدينا سيف. كان لدينا أب غاضب دائمًا... يضع القانون فينتهي الأمر. لا، لا يحمل أي شيء لديك أدنى تشابه مع... خذ مثالًا: أنت تعطي أخي عقلًا، ووعيًا. تقول إن هذا الرجل يردّ على خسائره بوعي. لكن أخي شخص لديه مشكلات إدراكية... هذا لا يشبه عقله أبدًا. هذا عقل لم يكن موجودًا لديه. يا إلهي... بل إنك تجعل له عشيقة أيضًا. لقد أسأت الفهم تمامًا يا زوكرمان. أخطأت تمامًا. كيف يمكن لرجل ناضج مثلك أن يخطئ إلى هذا الحد؟».

حسنًا... لم يكن جيري ليحصل على أية إجابة مني إن كانت ردة فعله هكذا. لقد ذهبت إلى نيوارك وبحثت عن مصنع نيوراك ميد المهجور فعثرت عليه في منطقة مقفرة في آخر سنترال آفنيو. ذهبت إلى ويكاهيك لأنظر إلى بيتهم الذي صار الآن متداعيًا، ولأنظر إلى جادة كير... شارع لم يبد لي فيه أن من المستحسن أن أخرج من السيارة وأسير على الرصيف إلى ذلك المرأب حيث كان السويدي يتدرّب على قذف الكرة خلال الشتاء. كان ثلاثة أطفال سود جالسين على درجات مدخل البيت ينظرون إليَ في سيارتي. قلت لهم موضحًا: «كان أحد أصدقائي يعيش في هذا البيت». وعندما لم أتلقَّ إجابة منهم أضفت: «كان ذلك في الأربعينات». ثم انطلقت بالسيارة مبتعدًا عنهم. قدت السيارة إلى

موريستاون حتى ألقي نظرة على مدرسة ميري الثانوية، ثم تابعت السير غربًا إلى أولد ريمروك حيث وجدت البيت الكبير المبني من الحجر على طريق آركادي هيل حيث عاشت أسرة سيمور ليفوف السعيدة الشابة. وبعد ذلك، انحدرت إلى القرية فشربت فنجان قهوة في السوبرماركت الجديد (ماكفرسونز) الذي حلّ محل السوبرماركت القديم (هاميلينز) الذي فجّرت ابنة ليفوف المراهقة مكتب البريد فيه «حتى تأتي بالحرب إلى أميركا». ذهبت إلى إليزابيث حيث ولدت زوجة السويدي الجميلة، وحيث ترعرعت. ثم تجوّلت سائرًا في حيّها اللطيف في منطقة إلمورا السكنية. قدت السيارة فمررت بكنيسة أسرتها، سانت جينيفييف، ثم تابعت شرقًا حتى وصلت إلى حي والدها عند الميناء القديم على نهر إليزابيث حيث حل المهاجرون الكوبيون وأبناؤهم، في الستينات، محل المهاجرين الإيرلنديين وأبنائهم. تمكّنت من الوصول إلى مكتب «مسابقة ملكة جمال نيوجرسي» حيث وجدت صورة لامعة لميري داون دواير، عشرين عامًا، لحظة تتويجها ملكة جمال نيوجرسي في شهر أيار 1949. وجدت صورة أخرى لها... في عدد من أسبوعية موريس كاونتي من سنة 1961... كانت واقفة وقفة أنيقة إلى جانب موقد بيتها مرتدية سترة رياضية وتنّورة وكنزة بياقة مرتفعة. كان مكتوبًا تحت الصورة «السيدة ليفوف، ملكة جمال نيوجرسي لسنة 1949، تعشق العيش في بيت عمره مئة وسبعون عامًا؛ محيطٌ تقول إنه يعكس قيم عائلتها». وفي مكتبة نيوارك العامة، استعرضت ما كان مسجّلًا على المايكروفيلم من صفحات الرياضة في صحيفة نيوارك نيوز (توقّفت عن الصدور في سنة 1972)، وبحثت عن قصص ونتائج المباريات التي تألّق فيها السويدي عندما كان يلعب مع فريق ثانوية ويكاهيك وفريق كلّية أوبسالا. ولأول مرة خلال خمسين عامًا، عدت فقرأت كتب جون ف. تونيز عن البيسبول، بل بدأت في لحظة ما أفكر في أن أضع لكتابي عن السويدي عنوان «فتى من جادة كير» على غرار الكتاب الذي ألفه تونيز للفتيان في سنة 1949 عن توم كينزفيل، كونيتيكت؛ توم الذي ما كان لديه عيب غير ميله إلى خفض كتفه اليمنى ورفع مضربه أكثر مما يجب... عيب كان، ويا للأسف، أزعج الآلهة إلى

حد جعلها تقضي عليه.

على الرغم من هذه الجهود كلها، وحتى أكتشف المزيد مما أستطيع اكتشافه عن السويدي وعائلته، سأكون مستعدًّا للإقرار بأن السويدي الذي توصّلت إليه لم يكن السويدي الأول نفسه. بطبيعة الحال، كنت أقتفي الآثار التي وجدتها. وبطبيعة الحال، زالت من الصورة عناصر أساسية مما كانه السويدي بالنسبة إلى جيري لأنني حذفت منها أشياء ما كنت عارفًا بها، أو ما كنت راغبًا في التعرّض لها. وبطبيعة الحال، فقد تكثّف السويدي في صفحاتي على نحو مختلف عمّا كانه في حياته. فهل يعني هذا أنني تخيّلت مخلوقًا وهميًّا تمامًا، مفتقرًا افتقارًا كاملًا إلى الملموسية الفريدة للشخص الحقيقي؛ أم إن الأوهام التي اشتمل عليها تصوّري للسويدي كانت أكثر من الأوهام التي اشتمل عليها تصوّر جيري (أشياء كان من المستبعد تمامًا أن يراها أوهامًا). أو لعل الحياة دبّت عندي في السويدي وأسرته بشكل أقل صدقًا مما كان عند أخيه... حسنًا... من عساه يدري؟ من عساه يستطيع معرفة هذا؟ عند محاولة إنارة شخصية ظليلة كشخصية السويدي؛ وعند محاولة فهم أولئك الأشخاص العاديين الذين يحبّهم الجميع، الذين يعيشون بيننا متنكّرين، فإن الأمر يكون متاحًا أكثر لمن يحرص على جعل تخميناته أكثر صرامة.

قالت لي المرأة التي جعلت جيري ينسحب سريعًا: «أنت لا تتذكّرني؟» كانت ابتسامتها دافئة. أمسكت يديَّ الاثنتين بيديها. بدا رأسها حسن التكوين تحت شعرها الذي قصّته قصيرًا... رأس متين كبير مثلث مثل الرؤوس الحجرية العتيقة لتماثيل ملوك الرومان. على الرغم من الأثلام العميقة في مسطّحات وجهها (كأنما حفرها إزميل)، فإن الجلد لم يبد من تحت مادة التجميل الوردية شديد التغضن إلا عند زاويتي فمها الذي فقد القسم الأكبر من أحمر الشفاه الذي كان عليه بعد قرابة ست ساعات من تبادل القبل مع الآخرين. ما عدا ذلك، كانت في وجهها طراوة تكاد تكون شابة... طراوة تشير إلى احتمال كونها لم تعش أنواع المعاناة كلّها التي تكون متاحة لامرأة في مثل سنّها.

«لا تنظر إلى اللوحة التي على صدري. من أنا؟».

أجبتها: «أخبريني».

«أنا جويس. جوي هيلبرن. كنت أرتدي كنزة أنغورا وردية. كنزة ابنة عمي في الأصل. إسبيل. كانت أكبر منا بثلاث سنين. لقد ماتت يا نيثان... صارت تحت الأرض. ابنة عمي إسبيل التي كانت تدخّن وتواعد شبابًا أكبر سنًّا. أيام المدرسة الثانوية، كانت تواعد شابًا يحلق ذقنه مرتين في اليوم. كان لدى أهلها محل للفساتين والمشدّات في شارع تشانسلر. محل كروزمان. كانت أمّي تعمل هناك. لقد اصطحبتَني في رحلة مدرسية. صدّق، أو لا تصدّق، أنني جوي هيلبرن».

جوي: فتاة صغيرة متألّقة لها شعر أحمر متموّج، ونمش، ووجه مدوّر... فتاة فيها امتلاء مثير لم يفت معلم اللغة الإسبانية البدين، ذا الأنف الأحمر، السيد روسكو، الذي كان يطلب من جوي عندما تأتي صباحًا مرتدية كنزتها الوردية أن تقف عند مقعدها لتجيب عن أسئلته عن الدرس. كان السيد روسكو يدعوها «ذات الغمّازتين». مدهش كم كان يمكن للمرء أن يفلت بأشياء يفعلها تلك الأيام عندما كان يبدو لي أن ما من أحد يستطيع الإفلات بأي شيء!

نتيجة اقتران الكلمات الذي لم يكن أبدًا بعيدًا عن الحقيقة(16)، ظلّ اشتهاء جسد جوي يعذّبني (مثلما كان يعذّب السيد روسكو) زمنًا طويلًا بعد أن رأيتها آخر مرة مندفعة عبر جادة تشانسلر في طريقها إلى المدرسة مرتدية زوجًا غريبًا، لكنه مثير، من الكالوشات(17) كان واضحًا أنه صار صغيرًا على قدميّ أخيها الأكبر فانتقل إليها مثلما انتقلت إليها كنزة الأنغورا التي كانت لابنة عمها الجميلة. كلما تذكّرت بيتين شهيرين للشاعر جون كيتس، مهما يكن سبب تذكّري، أتذكّر أيضًا إحساسي التام بجسدها الممتلئ من تحتي في تلك الرحلة، وترقرقها الرائع الذي أحسّه رادار مراهقتي الدقيق حتى من خلال معطفي الثقيل. كانا بيتين من قصيدة «أنشودة في الكآبة»: «... قادر من يكون لديه لسان نشط عنيف / على الاستمتاع بسحق عنب البهجة داخل فمه». «أتذكّر تلك الرحلة يا جوي هيلبيرن. ليتك كنت أكثر لطفًا في تلك الرحلة!».

انفجرت ضاحكة وقالت: «صار شكلي الآن مثل سبنسر تريسي(18). لم أعد

مذعورة الآن، لكن الوقت تأخّر كثيرًا. لقد كنت شديدة الخجل... لم أعد هكذا. أوه، يا نيثان... العمر...». عانق كل منا الآخر وهي تقول هذا... «العمر، العمر... ما أغرب هذا. لقد أردتَ يومها أن تضع يديك على ثديي العاريين».

«كنت أريد ذلك».

قالت: «نعم... كانا جديدين آنذاك».

«كنت في الرابعة عشرة، وكان عمرهما سنة واحدة تقريبًا».

«هنالك دائمًا فارق في العمر يبلغ ثلاثة عشر عامًا. في تلك الأيام، كنت أكبر منهما بثلاثة عشر عامًا؛ أما الآن فهما أكبر مني بنحو ثلاثة عشر عامًا. لكننا تبادلنا القبل بالطبع، أليس كذلك يا عزيزي؟».

«تبادلناها وتبادلناها وتبادلناها».

«كنت قد تمرّنت عليها. أمضيت فترة بعد الظهر كلها في التمرين على التقبيل».

«من كنت تقبّلين؟».

«كنت أقبّل أصابعي. كان عليَّ أن أتركك تفكّ حمالة الثديين. فكّها الآن إذا كنت راغبًا في ذلك».

«أخشى أنني لم أعد أمتلك الجرأة الكافية لفك حمالة الثديين أمام الصفّ كلّه».

«يا لها من خسارة. عندما صرتُ مستعدة، صار نيثان كبيرًا عاقلًا».

تابعنا تبادل المزاح؛ وكان كل منا مطوّقًا الآخر بذراعيه. كنا نميل إلى الخلف، من الوسط فصاعدًا، حتى يرى كل منا ما حدث لوجه الآخر وشكله، ذلك الشكل الخارجي الذي ترك عليه أثره نصف قرن من العيش.

نعم، إنه السحر الطاغي الذي لا يزال كل منا يحسّه تجاه الآخر، حتى النهاية تمامًا... يحسّه بسطح الجسم كله. اتضح أن هذا الإحساس - هكذا ظننته عندما كنا في الرحلة - شيء جدّي إلى أقصى ما يكون في الحياة من جِد. إنه الجسد الذي لا يستطيع المرء انتزاع نفسه منه، مهما حاول، الجسد الذي لا يحرره منه إلا الموت. عندما كنت أنظر إلى آلان ميزنر في وقت سابق من الأمسية، كنت أنظر إلى أبيه؛ وعندما أنظر إلى جوي، فإنني أنظر إلى أمها الخياطة الممتلئة،

التي أنزلت جواربها حتى ركبتيها في الغرفة الخلفية في محل كروزمانز للملابس في جادة تشانسلر... لكن ما كنت أفكّر فيه كان السويدي؛ السويدي والطغيان الذي كان جسده يمارسه عليه... السويدي القوي الجميل المتوحّد الذي لم تجعله الحياة شديد الفطنة أبدًا، الذي لم يرغب في أن يعبر الحياة فتى جميلًا، نجم القاعدة الأولى... السويدي الذي أراد أن يكون بدلًا من ذلك شخصًا جادًّا يأتي الناس أمامه، لا أن يكون طفلًا من الذين قد نُظّم عالم المسرة والرضا الواسع من أجلهم. كان يتمنى لو أنه لم يُخلق أعجوبة جسدية فحسب... كما لو أن تلك النعمة ليست كافية لشخص واحد. أراد السويدي أن يكون لديه ما يعتبره قضية عليا، فشاء حظه العاثر أن يعثر على قضية. ظلّت مسؤولية بطل المدرسة تلاحقه طيلة حياته. مقتضى النبالة! أنت هو البطل، وهذا يعني أن عليك أن تتصرّف بطريقة بعينها... هنالك «وصفة محددة» من أجل ذلك. عليك أن تكون متواضعًا، وعليك أن تكون متسامحًا، وعليك أن تكون حريصًا، وعليك أن تكون متفهّمًا. هكذا بدأ الأمر كله نتيجة الحرب - هذه المناورة المثالية البطولية، وهذه الرغبة الروحية الغريبة الاستراتيجية في أن يكون حصنًا للالتزام الأخلاقي والإحساس بالواجب - ونتيجة ما أتت به الحرب من قلق وشكوك مخيفة، نتيجة شدة عاطفية المجتمع الذي ذهب أحبّته يقاتلون بعيدًا ويواجهون الموت، جُعل السويدي رشيقًا ذا عضلات، وجُعل فتى متقشّفًا تتمثّل موهبته في قدرته على التقاط أي شيء يقذف به إليه أي شخص بالقرب منه. بالنسبة إلى السويدي بدأ كل شيء نتيجة غرابة الظروف - فما الذي يبدأ بغير ذلك؟

ثم انتهت حياته بظرف غريب آخر: قنبلة!

لعلّه ألح كثيرًا عندما التقينا بمطعم فينسنت على مدى حسن نشأة أولاده الثلاثة، لأنه افترض معرفتي بأمر القنبلة وبأمر الابنة التي فجّرت مكتب البريد في ريمروك؛ ولعله افترض أنني أطلقت عليه حكمًا قاسيًا. من المؤكد أن أناسًا كثيرين فعلوا ذلك! أمر حسّاس إلى هذا الحد، ضمن إطار الثقة الذي اكتنف حياته، كيف يمكن لإنسان ألا يعرفه؛ أو كيف يمكن لأي لإنسان أن ينساه على الرغم من مرور سبعة وعشرين عامًا. لعل هذا يفسّر عدم قدرته على إيقاف

نفسه، حتى إن أراد ذلك - عن الحديث من غير انقطاع عن الإنجازات الكثيرة، غير العنيفة، لكل من غريس وستيف وكنت؛ لعلّ هذا يفسر ما أراد الحديث عنه في المقام الأول. كانت ابنته هي «الصدمات» التي نزلت بمن يحبهم أبوه... كانت هي «الصدمات» التي نزلت بهم جميعًا. هذا ما استدعاني لكي يتحدّث عنه، وهذا ما أراد مساعدتي في الكتابة عنه. لكني لم أنتبه إليه... أنا الذي يظنّ نفسه غير ساذج أبدًا، كنت أكثر سذاجة - بقدر كبير - من الشخص الذي كان يحدّثني. كنت جالسًا هناك، في مطعم فينسنت، أتتبّع أكثر الأشياء ضحالة لدى السويدي عندما كان يحاول إخباري بهذه القصة، يحاول الكشف عن دخيلة حياته غير المعروفة، بل التي لا سبيل إلى معرفتها؛ كان يحاول إخباري بالقصة التي ما من شيء أكثر مأساوية وفظاعة واستحالة من تجاهلها، القصة التي كانت هي غايته النهائية من اللقاء. لكنّي لم أنتبه إليها... لم أنتبه أبدًا.

كان حديثه عن أبيه غطاء فقط. وأما الموضوع الحارق فكان الابنة. ما مقدار ما كان يدركه من هذا؟ كله. كان مدركًا كل شيء، لكنني أسأت فهم ذلك أيضًا. أنا من كان غير مدرك شيئًا. كان يعرف أنه يموت؛ وهذا الشيء المخيف الذي أصابه - الشيء الذي تمكّن، جزئيًا من دفنه على مر السنين، الذي تمكّن من التغلب عليه، نوعًا ما، بطريقة ما - عاد إليه أسوأ من أي وقت مضى. لقد نحّاه جانبًا بأحسن ما استطاع: زوجة جديدة، وأطفال جدد... الأولاد الرائعون الثلاثة. لقد بدا لي، بالتأكيد، أنه وضع ذلك كلّه جانبًا ليلة التقيته في سنة 1985 في ذلك الملعب مع ابنه كريس. لقد نهض السويدي بعد وقوعه على الأرض، وتمكن من فعل ذلك: زواج ثانٍ ومحاولة ثانية من أجل حياة غير منقسمة يحكمها الحس السليم وتحكمها الضوابط الكلاسيكية، فعاد التقليد يشكّل كل شيء من جديد، يشكّل كل شيء صغير وكبير، وينتصب حاجزًا في وجه الاحتمالات السيئة. كان ذلك محاولة ثانية لأن يلعب دور الأب والزوج المخلص التقليدي، مُقسِمًا من جديد على اتّباع الأنظمة والقواعد المعتادة التي هي لبّ نظام الأسرة. كانت لديه موهبة في هذا. وكان لديه كل ما يلزمه لتفادي أي شيء متفكّك، أي شيء خاص، أي شيء غير ملائم، أي شيء يصعب تقديره أو فهمه. لكن السويدي

نفسه، السويدي المتمتّع بخصال الحياة العادية كلّها، لم يستطع إلقاء تلك الفتاة بعيدًا عنه مثلما قال له جيري - بكلامه اللاذع - أن يفعل. لم يستطع أن يمضي الطريق كلّه ويتخلّص تمامًا من ذلك الامتلاك المحموم، من ذلك الإصرار الأبوي، من ذلك الحب الوسواسي لابنته الضائعة... لم يستطع التخلّص من كل أثر لتلك الفتاة ولذلك الماضي، ولم يستطع التخلّص إلى الأبد من هستيريا «طفلتي». ليته تمكّن فقط من تركها تضمحل بعيدًا. لكن، حتى السويدي نفسه ما كان عظيمًا إلى هذا الحد.

لقد تلقّى أسوأ درس يمكن للحياة تقديمه... الدرس القائل إن الحياة لا معنى لها. وعندما حدث ذلك، ما عادت السعادة أمرًا تلقائيًا. صارت مصطنعة؛ وحتى عند ذلك، صارت تُشترى لقاء اغتراب عنيد عن ذات المرء وعن تاريخه. الرجل اللطيف الراقي صاحب الأسلوب المعتدل في التعامل مع النزاع والتناقض، الرياضي السابق الواثق صاحب الحسّ السليم والقدرة الوافرة في أي صراع مع خصم منصف... صار في مواجهة خصم غير منصف (الشر الذي لا سبيل إلى استئصاله من العلاقات البشرية)، فانتهى. ذلك الذي كان نبله الطبيعي هو أن يكون تمامًا مثلما يبدو عليه، تلقى قدرًا من المعاناة كان كبيرًا إلى حد لم يعد يسمح له بأن يكون كلًّا متكاملًا من جديد. لن يعود السويدي أبدًا راضيًا على طريقة السويدي القديم الواثقة نفسها. لكنه تابع التظاهر بذلك من غير كلل من أجل زوجته الثانية وأولاده الثلاثة... من أجل وحدتهم المتكاملة الساذجة. كان يكتم ذعره بكل صبر. تعلم أن يعيش خلف قناع. تجربة في التحمّل استمرت عمرًا كاملًا. أداء تمثيلي فوق تلٍّ من الخراب. صار السويدي ليفوف يعيش حياة مزدوجة.

والآن، إنه يموت؛ ما عاد ما كان يسنده في حياته المزدوجة بقادر على إسناده بعد ذلك. ذلك الذعر الذي كان يرحمه فيغطس مختفيًا حتى نصفه أو يغطس مختفيًا حتى ثلثيه، أو يغطس مختفيًا حتى تسعة أعشاره، عاد إليه نقيًا على الرغم من خلقه البطولي لزواجه الثاني ولأبوة أبناء رائعين. عاد في شهور السرطان الأخيرة؛ وعادت أقسى مما كانت، تلك الطفلة الأولى التي كانت إلغاءً لكل شيء.

في ليلة من الليالي، عندما يستطع النوم، عندما فشلت كل محاولة بذلها لضبط أفكاره الهاربة، استنفده عذابه كثيرًا فقال في نفسه: «هناك ذلك الشخص الذي كان في صف أخي. إنه كاتب. ربما، إذا أخبرته...». لكن، ماذا سيحدث إن هو أخبر الكاتب؟ إنه لا يعرف هذا... «سأكتب له رسالة. أعرف أنه يكتب عن الآباء، وعن الأبناء، وسوف أكتب له عن أبي... فهل يستطيع رد طلبي؟ لعله يستجيب لي». كان ذلك هو الأمل الذي تخيّل أنني قد أمَكّنه من التمسّك به. لكنني أتيت لأنه السويدي فحسب. لم أر ضرورة لأي أمل آخر لأنه هو الأمل.

نعم، عادت القصة أسوأ مما كانت في أي وقت مضى. فقال في نفسه «لو استطعت أن أعهد بالأمر إلى شخص محترف...»؛ لكنه أتى بي إلى ذلك المكان ثم لم يستطع أن يبوح بشيء. ما إن صار مستحوذًا على انتباهي حتى صار غير راغب فيه. عدل عن الأمر كله. وقد كان محقًّا. ليس الأمر من شأني. فأي خير كان يمكن أن يأتيه من ذلك؟ لا شيء على الإطلاق. تجد نفسك ذاهبًا إلى شخص ما، وتقول لنفسك «سوف أخبره بهذا». لكن، لماذا؟ الدافع هو أن الإخبار سوف يريحك. وهذا ما يجعل شعورك بعد ذلك فظيعًا. لقد أرحت نفسك؛ فإذا كان الأمر فظيعًا مأساويًا حقًّا، فإنك لا تصير في حال أفضل، بل أسوأ... لم تؤد الاستعراضية التي هي جزء من الاعتراف إلى جعل بؤسك أقل بؤسًا! لقد أدرك السويدي هذا. ما كان فيه شيء من البطل الذي في خيالي؛ وقد أدرك هذا ببساطة كافية. أدرك أن ما من شيء يمكن أن يتحقّق من خلالي. أنا واثق من أنه لم يكن راغبًا في البكاء أمامي مثلما بكى أمام أخيه. أنا لست أخوه؛ أنا لست بأحد... هذا ما رآه عندما رآني. وهذا ما جعله يتعمّد تلك الثرثرة عن أبنائه ثم يعود إلى البيت من غير أن يروي القصة، ثم يموت. لم أر هذا كلّه. لقد اتجه إليَّ دونًا عن بقية الناس جميعًا؛ وقد كان مدركًا كل شيء. وأما أنا فلم أدرك شيئًا.

والآن... سيكون كريس وستيف وكنت في بيتهم في أولد ريمروك. وقد تكون معهم والدة السويدي العجوز، وكذلك السيدة ليفوف. لا بد أن والدته صارت الآن في التسعين. امرأة في التسعين تقيم حدادها على ابنها الغالي سايمور. والابنة، مريديث، ميري. من المؤكّد أنها لم تحضر الجنازة، فلا يمكن أن تأتي في وجود

ذلك العم الضخم الذي يكرهها كرهًا شديدًا، ذلك العم الذي يريد الانتقام منها، بل الذي يمكن أن يتولّى بنفسه تسليمها. لكن، بعد أن سافر جيري، فلعلها تجرؤ على ترك مكان اختبائها حتى تنضم إلى بقية الحزانى على سايمور، فتتوجّه إلى أولد ريمروك (قد تكون متنكّرة)، وتبكي هناك مع إخوتها غير الأشقاء وزوجة أبيها، ومع الجدة... تبكي موت أبيها حتى تجفّ دموعها. لكن، لا: إنها ميتة أيضًا. إن كان السويدي قد قال الحقيقة لجيري، فإن ابنته المختبئة قد ماتت. لعلّها قُتلت في مخبئها، أو لعلّها أنهت حياتها بنفسها. من الممكن أن يكون قد حدث أي شيء... وما كان من المفترض أن يحدث له «أي شيء».

قسوة دمار هذا الرجل الذي يستحيل تدميره! مهما يكن ما حدث للسويدي ليفوف، فمن المؤكد أنه ليس ما أصاب ذلك الفتى من تومكينزفيل. لا بد أننا أدركنا، حتّى عندما كنا أولادًا، أن الأمر لا يمكن أن يكون سهلًا عليه مثلما كان يبدو لنا. كان ذلك الجزء من الأمر لغزًا غامضًا. لكن، من كان يمكنه تخيل أن حياته ستنفرط بهذه الطريقة المخيفة؟ شظية متوهّجة من مذنّب الفوضى الأميركية انفلتت من مسارها ودارت حتى بلغت أولد ريمروك... حتى بلغته. حسنُ مظهره، وإقباله على الحياة، ومجده، وإحساسنا - من خلال دوره البطولي - بأنه مستثنى من أي شك في النفس... كون تلك الخصال الرجولية كلها قد ساقت إلى جريمة قتل سياسية جعلني أفكّر لا في قصة التضحية التي كتبها جون تونيز عن فتى تومكينزفيل، بل في قصة الرئيس كيندي، جون فيتزجيرالد كيندي، الذي كان أكبر من السويدي بعشر سنوات فقط. وكان صاحب حظٍّ متميز، كان رجلًا لامعًا ناضحًا بالمعنى الأميركي، لكنه اغتيل وهو لا يزال في أواسط الأربعينات من عمره. اغتيل بعد خمس سنوات فقط من احتجاج ابنة السويدي العنيف على حرب الرئيسين كيندي وجونسون وإقدامها على نسف حياة أبيها. هكذا فكرتُ... فقد كان السويدي هو «كيندي» الخاص بنا.

في تلك الأثناء، كانت جوي تخبرني بأشياء عن حياتها، أشياء لم أكن أعرفها أبدًا عندما كنت فتى لا يشغل ذهنه إلا البحث في الحي عن «حبة عنب أهرسها بلساني»... كانت جوي تواصل قذف مزيد من تلك الأشياء التي لم يكن أحد

يعرفها آنذاك... كانت تقذفها في قدر الذاكرة المستثارة الذي اسمه «اجتماع زملاء المدرسة»؛ أشياء لم يكن على أحد أن يعرفها في ذلك الوقت عندما كانت قصصنا عن أنفسنا لا تزال شديدة السذاجة. كانت جوي تخبرني المزيد عن أبيها الذي مات بنوبة قلبية عندما كانت في التاسعة من عمرها، وكانت أسرتها تعيش في بروكلين؛ وكذلك عن انتقالها مع أمها وشقيقها الأكبر هارولد من بروكلين واللجوء إلى محل كروزمان للفساتين في نيوارك. كانت تحدّثني كيف صارت تنام مع أمها في سرير مزدوج في غرفة وحيدة كبيرة في علّيّة فوق المحلّ، في حين ينام هارولد في المطبخ على أريكة يجهّزها للنوم كل ليلة ثم يرفع عنها الوسادة والأغطية كل صباح حتى يتمكّنوا من تناول طعام الإفطار هناك قبل الذهاب إلى المدرسة.

سألتني إن كنت أتذكّر هارولد الذي هو الآن صيدلي متقاعد في بلدة سكوتش بلينز. وأخبرتني كيف - قبل أسبوع فقط - ذهبتْ إلى المقبرة في بروكلين لكي تزور قبر أبيها. قالت لي إنها كانت تسافر إلى بروكلين مرة كل شهر، وأنها فوجئت كم صار ذلك القبر الآن يعني الكثير لها. سألتها: «ماذا تفعلين في المقبرة؟». فأجابتني جوي: «أكلّمه من غير خجل. عندما كنت في العاشرة من عمري، لم يكن الأمر صعبًا مثلما هو الآن. كنت أرى في ذلك الوقت أن من الغريب أن يكون للناس والدان اثنان. بدا لي وجودنا نحن الثلاثة فقط أمرًا صائبًا». كنا واقفين نتمايل معًا على أنغام أغنية الختام التي قدّمتها فرقة الرجل الواحد 'احلم عندما تشعر بالحزن، احلم... احلم... هذا ما عليك فعله' فقلت لها: «لم أكن أعرف هذا كله. لم أكن أعرف ذلك عندما كنا تحت ضوء القمر في تلك الرحلة في تشرين الأول عام 1948».

قالت: «لم أكن أريدك أن تعرف ذلك. لم أكن أريد أن يعرفه أحد. لم أكن أريد أن يكتشف أحد أن هارولد ينام في المطبخ. هذا هو السبب الذي جعلني لا أتركك تعرّي ثدييّ. لم أكن أريد أن تصير حبيبي وأن تأتي لاصطحابي من البيت فترى أين كان على أخي أن ينام. لم يكن للأمر أية علاقة بك يا عزيزي».

«حسنًا، يريحني الآن أن تقولي لي هذا. أتمنّى لو أنك لو قلته في وقت أبكر».

قالت: «ليتني أخبرتك». كنا نضحك أول الأمر، وفجأة، بدأت جوي تبكي. لعلها بكت بسبب تلك الأغنية اللعينة ‘احلم’ التي كنا نرقص عليها بعد إطفاء الأنوار في قبو بيت هذا الشخص أو ذاك أيام كان جو ستافورد لا يزال عضوًا في فرقة «بييد بييرز» التي كانت تغنّي تلك الأغنية مثلما يجب أن تغنّى: بانسجام تام، على إيقاعات الأربعينات المذهلة، مع رنين الكسيليفون الأثيري المنبعث فارغًا من خلفهم... أو لعلها بكت لأن آلان ميزنر صار جمهوريًا، ولأن لاعب القاعدة الثانية بيرت بيردمان صار جثة، ولأن إيرا كوزنر أفلت من أسرته الدستويفسكية، فصار طبيبًا نفسيًا، بدلًا من أن يصير ماسح أحذية عند كشك الجرائد أمام محكمة مقاطعة إيسكس، ولأن جوليوس بينكوس صار عاجزًا بفعل الارتعاش الناتج عن الأدوية التي يتناولها لمنع جسمه من رفض كِلية مأخوذة من فتاة في الرابعة عشرة تبقيه على قيد الحياة، ولأن ميندي غورليك لا يزال فتى جعجاعًا في السابعة عشرة، ولأن شقيقها هارولد ظل ينام على أريكة المطبخ عشر سنين، ولأن سكريمر تزوّج امرأة في نصف سنّه تقريبًا لها جسد لا يجعله راغبًا في حَزّ عنقه على الرغم من اضطراره الآن إلى أن يشرح لها كل شيء عن الماضي، أو ربما لأنني كنت الشخص الوحيد الذي انتهى به الأمر من غير أطفال، أو من غير أحفاد، أو «أي شيء من ذلك القبيل»، بحسب كلمات مينسكوف، أو ربما لأن هذا اللقاء بين أشخاص صاروا غرباء تمامًا بعد تلك السنين كلها قد طال أكثر مما ينبغي له أن يطول. طوفان من مشاعر عاصفة بدأ ينداح في داخلي، أنا أيضًا، فوقفت هناك مفكّرًا في السويدي من جديد، وفي المعنى السيئ لأن تكون ابنته الخارجة على القانون قد اعتدت عليه وعلى أسرته خلال حرب فيتنام. رجل لم تكن لديه أسباب يعرفها للسخط، لكنه يصحو في منتصف العمر على رعب تأملاته الذاتية. تلك العاديّةُ كلّها تقطعها جريمة قتل. وكل المشكلات الصغيرة التي تتوقع كل أسرة مواجهتها تضخّمت بفعل شيء لا سبيل أبدًا إلى التصالح معه. انقطاع المستقبل الأميركي المرتقب الذي كان منتَظرًا أن يأتي، ببساطة، من الماضي الأميركي الصلب، من كون كل جيل أكثر ذكاء وبراعة من سابقه... أكثر ذكاء وبراعة في معرفة حدود

سابقه ونواقصه... مستقبل كان منتظرًا أن يأتي من انفكاك كلّ جيل جديد عن قدر جديد من ضيق الأفق، أن يأتي من الرغبة في أن تصل بحقوقك إلى حدّها الأقصى في أميركا، وفي أن تصوغ نفسك على هيئة شيء مثالي، متخلّصًا من العادات والمواقف اليهودية السابقة، شخص يحرّر نفسه من إحساسه قبل الأميركي بقلّة الأمان، وبالهواجس التي تحدّ منه حتى يعيش على قدم المساواة مع متساوين لا يجد أيٌّ منهم حاجةً إلى تبرير نفسه.

ثم تأتي خسارة الابنة، الجيل الأميركي الرابع، الابنة الهاربة التي كان منتظرًا أن تصير نسخة مطوّرة عنه، مثلما كان هو نسخة مطوّرة عن أبيه، ومثلما كان أبوه نسخة مطورة عن أبي أبيه... الابنة الحانقة، العدوانية غير المهتمّة أبدًا بأن تكون الفرد الناجح التالي من آل ليفوف... أخرجته من مخبئه عنوة كما لو أنه سجين هارب فجعلته يعيش نازحًا في أميركا مختلفة تمام الاختلاف. الابنة التي هشّمت صيغته الفريدة من التفكير الطوباوي، ووباء أميركا الذي تسرّب إلى قلعة السويدي وأصاب كل من فيها بالعدوى. الابنة التي نقلته خارج الحكاية الأميركية التي كان تواقًا إليها، وإلى كل ما هو نقيض لها، إلى كل ما هو عدو لها، إلى الغضب والعنف، وإلى اليأس الكامن في معاداة تلك الحكاية... إلى حالة الهياج الأميركي القديمة.

تلك الحالة التكاملية القديمة من الأخذ والإعطاء التي كان البلد عليها، عندما كان كل شخص يعرف دوره ويتعامل مع القواعد بجدّية تامة، وذلك التثاقف في الاتجاهين الذي نشأنا كلنا عليه هنا، والنضال الطقسي من أجل النجاح لدى كل من كان مهاجرًا، يتحوّل كله إلى حالة مريضة في قلعة السويدي المتفوّق.

الرجل الذي رتّب لكل شيء، مثلما تُرتب مجموعة من أوراق اللعب، حتى يسير في وجهة مختلفة تمام الاختلاف. ما كان مستعدًا أبدًا لما سوف يأتي فيصيبه.

وكيف له، مع كل صلاحِه الموزون وزنًا دقيقًا، أن يعرف أن مخاطر العيش الطائع كانت كبيرة إلى هذا الحد؟ من المفهوم أن الطاعة تقلل المخاطر عادة. زوجة جميلة. بيت جميل. رجل يدير أعماله كأنما بفعل سحر. رجل يعامل أباه العجوز معاملة طيبة. لقد كان يعيش هذا حقًا، يعيش نسخته من الفردوس. هكذا

يعيش الناس الناجحون. إنهم مواطنون صالحون. يشعرون بأنهم محظوظون. يشعرون بالامتنان. يبتسم الرب نفسه لهم. تواجههم مشكلات، فيتأقلمون. ثم يتغيّر كل شيء ويصير مستحيلًا. لا شيء يبتسم لأحد. فمن عساه يستطيع التأقلم عند ذلك؟ ثمة من لا تسمح له تركيبته بمواجهة تصاريف الحياة السيّئة، فكيف إذا كانت تصاريف مستحيلة! ومن عساه يكون مستعدًا للمستحيل الذي هو موشك على الحدوث؟ من عساه يكون مستعدًّا للمأساة، مستعدًّا للامعقولية المعاناة؟ لا أحد! مأساة الإنسان غير المستعدّ للمأساة... مأساة كل إنسان.

لقد ظلّ يسترق النظر إلى حياته من خارجها. وكان صراع حياته أن يدفن هذا الشيء ويتخلّص منه. فكيف له أن يدفنه؟ لم تسنح له أبدًا في حياته كلّها فرصة لسؤال نفسه: «لماذا تكون الأمور مثلما هي كائنة؟». فلماذا يهتم بطرح هذا السؤال عندما تكون الأمور ممتازة دائمًا؟ لماذا تكون الأمور مثلما هي كائنة؟ إنه السؤال الذي لا إجابة عليه. وقد كان في نعمة حتى ذلك الوقت لأنه لم يكن يعرف حتى بوجود هذا السؤال.

بعد ذلك الجهد الفوّار كلّه لبراءة لقاء صفّنا المنعش بعد نصف قرن (عندما أقدم مئة شخص مسن إقدامًا متهوّرًا على إعادة عقارب الساعة إلى زمن لم يكن أحد فيه ليهتم بمرور الزمن)، ومع وصول بهجة تلك الأمسية إلى نهايتها، بدأت أفكّر في الشيء الذي لا بد أنه كان يربك السويدي حتى لحظة موته: كيف صار ألعوبة للتاريخ؟ التاريخ، تاريخ أميركا، الأشياء التي تقرأ عنها في الكتب وتدرسها في المدرسة... التاريخ الذي شق طريقه إلى أولد ريمروك الوادعة في نيوجرسي، إلى ذلك المكان الذي لا يقصده أحد، إلى منطقة ريفية لم يكن أحد منتبهًا إليها منذ أن أمضى جيش واشنطن الشتاء مرتين في تلك التلال المحاذية لموريستاون. التاريخ الذي لم يكن له أي أثر عنيف على حياة السكّان المحليين اليومية منذ الحرب الثورية، لكنه عاد فوجد طريقه إلى تلك التلال الهادئة وانقضّ من غير انتظار، انقضّ بكل ما يمكن أن يكون مرتقبًا من عدم القدرة على توقعه، انقضّ على أسرة سايمور ليفوف حسنة الترتيب وجعل المكان كلّه حطامًا. ينظر الناس إلى التاريخ باعتباره شيئًا على المدى البعيد؛ لكن التاريخ -

في واقع الأمر - شيء مفاجئ جدًا.

(16) المقصود باقتران الكلمات هو أن اسم الفتاة (Joy) يعني الفرح أو البهجة، أو الشيء الذي يكون مصدر فرح أو بهجة.
(17) كالوش Galoshes: حذاء مطاطي إضافي ينتعل فوق الحذاء العادي للوقاية من البلل.
(18) سبنسر تريسي Spencer Tracy: ممثل أميركي أكبر سنًا منهما بأكثر من ثلاثين عامًا.
«ليس لك أن تقلق يا صاحبي... لا تزال لديك تلك البنية القوية، وذلك المظهر. أنت مدهش. تبدو رائعًا».
كان يبدو رائعًا بدوره: شخص رشيق لوّحته الشمس، له قامة رياضية ووجه طويل متضيق، ينتعل حذاء أسود من جلد التمساح، وقميصًا حريريًا أسود تحت سترة خضراء من الكشمير. لكنّ رأسه ذا الشعر الأبيض الفضي الغزير بدا لي - على نحو مريب - كما لو أنه ليس رأسه الحقيقي، بل كما لو أنه عاش حياة سابقة على جسد غير جسده.
«إنني أعتني بنفسي... ليس هذا ما أريد قوله. لقد اتّصلت بموتي...». كان مارتي شيفر (نسميه موتي) نجمًا في موقع رامي الكرة الجانبي في فريق ديرديفلز الذي كنا نلعب فيه ضمن دوري الكرة. كتبوا إلى جانب اسمه في دليل الأسماء في الكتيب المخصّص للقاء عبارة «استشاري مالي». وكتبوا أيضًا أن لديه «أبناء في السادسة والثلاثين والرابعة والثلاثين والحادية والثلاثين؛ وحفيدان لهما سنتان وسنة واحدة من العمر». (أمر بدا لي أنه بعيد الاحتمال عندما تذكّرت أن موتي ذا الوجه الطفولي الذي يخجل من البنات خجلًا يصيبه بالشلل قد جعل من النصب من أجل قروش قليلة الانحراف الأكبر خلال مراهقته). كان ميندي يقول: «لقد قلت لموتي إنه إذا لم يجلس إلى جانبي فلن آتي. كنت مضطرًا إلى التعامل مع أغبياء كثُر في عملي. وكنت مضطرًا إلى التعامل مع الغوغاء. لكني لم أستطع التعامل مع هذا كلّه منذ اليوم الأول، ولا

في اليوم الثاني يا سكيب... كان عليَّ أن أوقف السيارة في الطريق ثلاث مرات حتى أذهب إلى المرحاض».

قلت له: «لا بأس... بعد انقضاء سنين وسنين على تلك الأيام التي كنا نطلي بها أنفسنا بألوان داكنة، يعيدنا ما تقوله الآن، يعيدنا مباشرة، إلى ذلك الزمن الذي كنا واثقين فيه من أننا كنا شفّافين».

«أهذا هو الأمر؟».

«ربما، من يدري؟».

قال: «مات عشرون شخصًا من صفنا». جعلني أرى صفحة في آخر الكتيب حملت عنوان ‘في عهدة الذكرى’. قال ميندي: «مات أحد عشر فتى. اثنان من فريق ديرديفلز. بيرت بيرغمان، وأوتي أورنشتاين...». كان أوتي شريكه في اللعب، ملتقط الكرات؛ وكان بيرت يلعب القاعدة الثانية... «سرطان البروستات. كلاهما. ماتا خلال السنوات الثلاث الماضية. إنني أجري اختبار الدم، أجريه كل ستة أشهر منذ أن سمعت بوفاة أوتي. وأنت، هل تجري الاختبار؟».

«بالطبع!». لكني لم أعد أجريه، بطبيعة الحال، لأنني استأصلت البروستات».

«كم مرة تجريه بالسنة؟».

«مرة واحدة».

«هذا غير كافٍ. يجب إجراؤه كل ستة أشهر».

«حسنًا، سوف أفعل هذا».

سألني وهو يمسك بكتفي: «هل لديك أية مشكلات صحية؟».

أجبته: «إنني في أحسن حال».

«اسمع... لقد علّمتك العادة السرية. هل تتذكّر هذا؟».

«نعم، لقد علمتني يا ميندل. لو لم تعلّمني إياها، لاكتشفتها بنفسي خلال فترة تمتد من تسعين إلى مئة وعشرين يومًا. لكنك الشخص الذي جعلني أتعلّمها».

أطلق ضحكة مرتفعة وقال: «إنني ذلك الشخص. أنا من علّم سكيب زوكرمان ممارسة العادة السرية. إنني أستحق الشهرة». ثم تعانقنا - لاعب القاعدة الأولى

الأصلع ورامي الجناح الأيسر ذو الشعر الأبيض من نادي ديرديفلز الرياضي الذي بدأ عدد أفراده يتناقص. كان جذعه الذي أحسست به عبر ملابسه شاهدًا على مدى اهتمامه بالعناية بنفسه.

قال ميندي فرحًا: «لا أزال على تلك العادة بعد مضي خمسين عامًا. هذا رقم قياسي لفريق ديرديفلز».

«لا تكن واثقًا من نفسك إلى هذا الحد. عليك أن تسأل موتي».

«سمعت أن نوبة قلبية أصابتك».

«لا. وضعوا لي مجازة شريانية فحسب. كان هذا منذ سنين».

«تلك المجازة اللعينة».

«إنهم يدخلون أنبوبًا في حلقك».

«صحيح».

قال ميندي: «رأيت صهري وقد وضعوا أنبوبًا في حلقه. لست في حاجة إلى أكثر من هذا. لم أكن أريد أبدًا أن آتي إلى هذا اللقاء. لكن موتي ظلّ يتّصل بي ويقول: 'أنت لن تعيش إلى الأبد'. فأقول له: 'بل سأعيش يا موتي'. يجب أن أعيش؛ ثم كنت غبيًا إلى حد جعلني آتي، فكانت صفحة المتوفين أول شيء رأيته في هذا الكتيّب».

عندما ذهب ميندي ليأتي بشراب وليبحث عن موتي. نظرت إلى اسمه في الكتيب: «صاحب مطعم متقاعد. أبناؤه: 36، 33، 28؛ أحفاده: 14، 12، 9، 5، 5، 3». تساءلت عما إذا كان أحفاده الستة، بمن فيهم الاثنان اللذان يبدو أنهما توأمان، هم الذين جعلوا ميندي يخشى الموت إلى هذا الحد، أو أن لديه أسبابًا أخرى من قبيل التمتّع بالعاهرات وبالملابس الأنيقة. كان عليَّ أن أسأله.

كان عليَّ أن أسأل الناس عن أشياء كثيرة في تلك الأمسية. إلا أنني أدركت في ما بعد - على الرغم من أسفي لأنني لم أفعل ذلك - أن حصولي على إجابات عن أي سؤال من أسئلتي التي تبدأ بـ«مهما يكن ما حدث لـ»، ما كان ليخبرني شيئًا عن سبب إحساسي غير الطبيعي بأن ما يجري خلف ما أراه ليس إلا ما أراه بالفعل. لم يقتض الأمر أكثر من قول إحدى الفتيات للمصور في اللحظة

التي سبقت التقاطه صورة جماعية لنا «احرص على عدم إظهار التجاعيد»؛ ولم أحتج إلى أكثر من الضحك عندما ضحك الجميع لهذه الملاحظة البارعة التي أتت في توقيت لطيف حتى أحس بأن القدر... أقدم الأحجيات التي واجهها العالم المتحضِّر، وأول موضوع إنشاء لنا في مادة الميثولوجيا الرومانية واليونانية حيث كتبت «للقدر ربات ثلاث يسمونهن مويرات: كلوذو التي تغزل خيط الحياة، ولاكيسس التي تقرّر طوله، وأتروبوس التي تقطعه»... صار القدر مفهومًا تمامًا عندما لم يعد أي شيء لغزًا، كوقوفي أمام المصوّر في الصف الثالث في الخلف واضعًا إحدى ذراعيَّ على كتف مارشال غولدشتاين («ابنان: 39، 37؛ وحفيدان: 8، 6») وذراعي الأخرى على كتف ستانلي ويرنيكوف («ابنان: 39، 38. ثلاثة أحفاد: 5، 2، ثمانية أشهر»)... كوقوفي الذي كان قد صار عصيًّا على التفسير.

كان واحد من طلبة السينما في جامعة نيويورك اسمه جوردان واسر، قد جاء مع جده ميلتون واسربرغر، (الذي كان يشغل موقع الظهير في كرة القدم) لكي يصوّر فيلمًا وثائقيًا عن لقائنا من أجل واحد من الصفوف التي يدرّسها في الجامعة. ومن وقت لآخر، بينما كنت أتنقّل في الصالة وأوثّق الحدث بطريقتي العتيقة المتخلّفة، سمعت جوردان يجري مقابلة مع إحداهن على الكاميرا. كانت ماريلين كوبليك ذات الثلاثة والستين عامًا تقول له: «كانت مدرسة مختلفة عن كل مدرسة أخرى. كان الأطفال رائعون. وكان لدينا معلمون جيدون. وكان مضغ العلكة أكبر جريمة يمكن أن نرتكبها». كما قال له جورج كريتشنباون البالغ ثلاثة وستين عامًا: «أحسن مدرسة، أحسن معلمين، أحسن أولاد». وقال ليون غوتمان البالغ ثلاثة وستين عامًا: «هذه أذكى مجموعة أشخاص عرفتها في حياتي كلّها». وقالت رونا سيغلر البالغة ثلاثة وستين عامًا: «كانت المدرسة مختلفة في تلك الأيام». وأما إجابة رونا عن السؤال الذي تلا ذلك فقد سبقتها ضحكة لم يكن فيها سرور كثير: «سنة 1950؟ كان ذلك منذ بضع سنوات فقط يا جوردان!».

كان أحدهم يقول لي: «عندما يسألني الناس إن كنت زميلًا لك في المدرسة،

فإنني أخبرهم كيف كتبت تلك الورقة من أجلي في درس المعلمة والاتش. كانت عن كتاب ‘وسام الشجاعة الأحمر’!»، «لكني لم أفعل ذلك». «بل فعلت!»، «وما الذي كنت أعرفه عن كتاب ‘وسام الشجاعة الأحمر’؟ أنا لم أقرأ ذلك الكتاب إلى أن صرت في الكلية». «لا، لقد كتبت لي تلك الورقة عن كتاب ‘وسام الشجاعة الأحمر’. حصلت على تقدير ممتاز. تأخّرت عن تسليمها أسبوعًا كاملًا، لكن والاتش قالت لي إنها ورقة تستحق ذلك الانتظار».

كان الشخص الذي يقول لي ذلك رجلًا قصيرًا ذا مظهر متعنّت ولحية بيضاء قصيرة. كانت تحت عينه ندبة كبيرة باقية من جرح. وكان في كل واحدة من أذنيه جهاز لتقوية السمع... شخص من القلائل الذين رأيتهم في تلك الأمسية ممن ترك عليهم الزمن آثارًا واضحة. لقد بذل الزمن جهدًا خاصًّا على هذا الرجل. فقد كان يعرج في مشيته ويحدّثني وهو مستند إلى عكاز. كان تنفّسه ثقيلًا. لم أعرفه حتى عندما نظرت إليه من مسافة ستة إنشات، ولا حتى بعد أن قرأت اسمه على البطاقة المعلّقة على صدره. كان اسمه إيرا بوزنر. من هو إيرا بوزنر؟ ولماذا أصنع له هذا الجميل، خاصة أنني لم أكن قادرًا على صنعه؟ هل كتبت تلك الورقة لإيرا بوزنر من غير أن أهتم بقراءة الكتاب؟

«كان والدك يعني لي الكثير». قلت: «حقًّا؟» قال: «لم أمضِ معه إلا لحظات قصيرة من حياتي، لكن إحساسي بنفسي في تلك اللحظات كان أفضل من حياة كاملة أمضيتها مع أبي». قلت: «لم أكن أعرف هذا». قال: «كان أبي شخصية هامشية في حياتي». سألته: «ماذا كان يعمل؟ ذكِّرْني!» قال: «كان يكسب عيشه من مسح الأرضيات. أمضى حياته كلّها في مسح الأرضيات. كان أبوك يدفعك لكي تنال أعلى الدرجات في المدرسة. وأما فكرة أبي عن إدخالي مجال العمل، فكانت أن يشتري لي عدة مسح الأحذية حتى أقف عند كشك الجرائد وأمسح أحذية الناس بربع دولار. هذا ما قدّمه لي يوم التخرّج. شيء غبيٌّ بائس. لقد عانيت حقًّا في تلك الأسرة. أسرة جاهلة بالفعل. كنت أعيش في مكان مظلم مع أولئك الناس. كان أبوك يدفعك إلى الأمام فصرت شخصًا حسّاسًا. كان لي أخ وضعناه في مصحّة. أنت لم تكن تعرف هذا. لم يعرف به أحد. وما كان مسموحًا

لنا حتى أن نذكر اسمه. اسمه إيدي. أكبر مني بأربع سنوات. كانت تصيبه نوبات غضب فيعض يديه حتى يدميهما. كان يزعق مثل حيوان برّي إلى أن يسكته أبي وأمي. سألوني في المدرسة إن كان لدي إخوة وأخوات. فكتبت لا. وعندما كنت في الكلّية، وقّع والداي موافقة أتت من مستشفى المجانين فأجروا لإيدي عملية جراحية للدماغ دخل بعدها في غيبوبة ثم مات. أيمكنك تخيّل هذا؟ يقول لي أن أمسح الأحذية في ماركت ستريت أمام المحكمة... هذه نصيحة أب لابنه!».

«وماذا فعلت بدلًا من ذلك؟».

«إنني طبيب نفسي. كان أبوك مصدر إلهامي. لقد كان طبيبًا».

«ليس بالضبط. كان يرتدي ثوبًا أبيض. لكنه كان اختصاصيًا في الأقدام».

«كلما أتيت مع الأولاد إلى بيتكم، كانت أمك تضع وعاء الفاكهة، وكان أبوك يسألني دائمًا 'ما رأيك في هذا الأمر يا إيرا؟ ما فكرتك عن هذا الموضوع يا إيرا؟' دراق. خوخ. نكتارين. عنب. لم أر تفاحة في بيتنا. لم أر تفاحة أبدًا. أمي الآن في السابعة والتسعين. لقد وضعتها في بيت للعجزة. إنها تجلس هناك في مقعدها وتبكي طيلة اليوم. لكني، لا أظنها أكثر انزعاجًا مما كانت في طفولتي. أظن أن والدك قد توفّي».

«صحيح. ووالدك؟».

«لم يستطع والدي انتظار موته الطبيعي. لقد أصابه مرض شديد في رأسه».

حتى تلك اللحظة، لم تكن لدي أية فكرة عن إيرا وعما يحدّثني عنه لأنني، وبقدر ما كنت أحاول تذكّر ما حدث، فإن أشياء كثيرة كانت خارج قدرتي على التذكّر على نحو يوحي بأنها لم تحدث، وذلك مهما وقف أمامي، وجهًا لوجه، أشخاص من أمثال بوزنر، وشهدوا على العكس. أغلب الظن أنني لم أكن قد ولدت عندما كان إيرا في بيتنا يتلقّى الإلهام من أبي! لقد صرت خالي الوفاض من القدرة على تذكّر أبي، ولو من بعيد، يسأل إيرا عن رأيه في حين كان إيرا يأكل قطعة فاكهة. تلك الأشياء التي تتمزّق وتنتزع وتتساقط منك فترتمي في النسيان لمجرّد أنها لم تكن مهمة في نظرك. لكن ما لم ألحظه أبدًا ضرب

بجذوره في إيرا وغيّر حياته كلّه.

إذًا، ليس عليك أن تنظر إلى أبعد مني ومن إيرا حتى ترى السبب الذي يجعلنا نمضي في الحياة بإحساس عمومي بأننا محقّون وغيرنا مخطئ. وبما أننا لا ننسى الأشياء لأنها لا أهمية لها فحسب، بل أيضًا ننساها لأن لها أهمية زائدة... فكل واحد منا يتذكّر وينسى بطريقة لها تفاصيلها والتفافاتها التي تشبه متاهة تجعلها مميزة لصاحبها مثل بصمة إبهامه... ولا عجب في أن شذرات الحقيقة التي يجلّها المرء كثيرًا ويعتبرها سجلًا لحياته قد تبدو في نظر شخص آخر (يمكن أن يكون قد تناول الطعام معه عشرة آلاف مرة على طاولة المطبخ نفسها) نزهة إرادية في حالة من هوس الكذب. لكنّ أحدًا لا يمكن أن يكون مهتمًا بإرسال خمسين دولارًا من أجل حضور اجتماع رفاق الدراسة في سنتهم الخامسة والأربعين حتى يأتي ويبدي احتجاجه على إحساس شخص آخر بالماضي. الشيء المهمّ حقًّا في هذه الأمسية، والفرحة الأكبر فيها هي اكتشاف المرء أن اسمه لم يكتب بعد في صفحة «في عهدة الذكرى».

سألني إيرا: «كم مضى على وفاة والدك؟». أجبته: «توفي سنة 1969. منذ ستة وعشرين عامًا. زمن طويل». قال إيرا: «طويل بالنسبة إلى من؟ إليه؟ لا أظن هذا. عند الموتى، هذا ليس إلا قطرة في دلو من الماء». في تلك اللحظة تمامًا، سمعت خلفي مباشرة صوت ميندي غورليك يقول لشخص ما: «بمن كنت تفكر عندما كنت تمارس العادة السرية؟». أجابه صوت رجل ثانٍ: «لورين». قال ميندي: «بالتأكيد. كان الجميع يفكّر فيها. أنا أيضًا. ومن غيرها؟» أجابه: «دايان». «صحيح. دايان. بالتأكيد. من غيرها؟». «سيلما». قال ميندي: «سيلما؟ لم أكن أعرف هذا. يفاجئني سماع اسمها. لا. لم أكن أبدًا راغبًا في مضاجعة سيلما. قصيرة جدًا. كنت دائمًا أفضّل ممشوقات القوام اللواتي يسرن في الاستعراض. أنظر إليهن أثناء التدريب في الملعب بعد المدرسة، ثم أذهب إلى البيت وأفعلها. ذلك الكْريم الأسمر. كريم بلون الكاكاو على سيقانهنّ... كان يصيبني بالجنون. هل تلاحظ شيئًا؟ الرجال هنا عمومًا لا يبدون في حالة سيئة. كثير منهم يمارس الرياضة. وأما الفتيات، أنت تعرف، لا. ليس لقاء السنة

الخامسة والأربعين أفضل مكان من أجل النظر إلى النساء».
قال الرجل الآخر الذي كان يتحدّث بصوت ناعم وبدا لي أنه لا يجد في هذه المناسبة فرصة الحنين إلى الماضي التي يجدها ميندي: «صحيح، صحيح. لم يكن الزمن رفيقًا بالنساء». قال ميندي: «هل تعرف من مات؟ بيرت وأوتي. سرطان البروستات. وصل حتى النخاع الشوكي. انتشر. أكلهما أكلًا. كليهما. أشكر الرب على أنني أجريت ذلك الاختبار. هل تجري الاختبار؟».
سأله الرجل الآخر: «أي اختبار؟».
قال ميندي: «عجبًا! ألا تجري الاختبار؟ اسمع يا سكيب...». قال هذا وجذبني بعيدًا عن إيرا... «ميزنر لا يجري الاختبار».
كان ميزنر الآن هو نفسه السيد ميزنر، إيب ميزنر، الرجل القصير الأسمر الممتلئ صاحب الكتفين المنحدرتين والرأس الناتئ، مالك محل ميزنر لتنظيف الملابس... «خدمة التنظيف في خمس ساعات»... ذلك المحلّ الذي كان في شارع تشانسلر، بين محلّ تصليح الأحذية الذي يسمع فيه المرء دائمًا إذاعة إيطاليا وهو جالس على الكرسي خلف الباب النصفي المتأرجح، منتظرًا أن يفرغ رالف من إصلاح حذائه، وبين محلّ التجميل الذي كان اسمه رولينز، ذلك المحلّ الذي أتت منه أمّي مرّة بنسخة من مجلة «سيلفر كرينز» قرأت فيها مقالة أدهشتني بعنوان «جورج رافت رجل وحيد». كانت السيدة ميزنر سمراء قصيرة متينة البنية مثل زوجها، وكانت تعمل معه في المحلّ، كما عملت في إحدى السنين في بيع طوابع الحرب وتذكاراتها مع أمي في كشك في جادة تشانسلر. وأما ابنهما آلان، فقد كان يذهب إلى المدرسة معي، منذ الحضانة؛ وتخطّى الصفوف التي تخطّيتها حتى صرنا في المدرسة الثانوية. كانت المعلّمة تضعنا في غرفة معًا كما لو أننا جورج س. كوفمان، وموس هارت(15)، وتقول لنا أن نكتب شيئًا كلما كانت المدرسة في حاجة إلى مسرحية لتقديمها بمناسبة اليوم الوطني. وعلى امتداد موسمين اثنين بعد الحرب، صار السيد ميزنر (بأعجوبة ما) يتولّى تنظيف ملابس «نيوارك بيرز» الذي كان من فرق الدرجة الأولى لدى نادي يانكيز. وفي أحد أيام الصيف - كان يومًا عظيمًا -

طلب مني آلان مساعدته في نقل ملابس الفريق المغسولة والمكويّة (نقلها عبر ثلاثة باصات) إلى ملعب روبرت في آخر جادة ويلسون.

قلت: «آلان! يا إلهي! أنت مثل أبيك تمامًا».

أجابني: «وهل يجب أن أكون مثل أب شخص آخر؟». ثم أخذ وجهي بين يديه وقبّلني.

قال ميندي: «آلان. قل لسكيبي ما سمعت سكريمر يقوله لزوجته. إن لسكريمر زوجة جديدة يا سكيب. طولها ست أقدام. ذهب إلى الطبيب النفسي منذ ثلاث سنين. كان مصابًا بالاكتئاب. سأله الطبيب النفسي: 'ما الذي تفكّر فيه إذا طلبت منك تخيل جسد زوجتك؟'. أجابه سكريمر: 'أفكّر في أن عليَّ أن أحزّ عنقي بالسكين'. وهكذا فقد طلّقها وتزوّج سكرتيرته الشيكسا. طولها ست أقدام. وهي في الخامسة والثلاثين. تصل ساقاها حتى السقف. آلان، قل لسكيب ما قالته تلك الملكة الطويلة!».

قال آلان: «لقد قالت لي السيدة سكريمر...». كان كل منا مبتسمًا ابتسامة كبيرة وهو ممسك بذراع الآخر... «لماذا كلّهم موتي وأوتي ودوتي وتوتي؟ إذا كان اسمه تشارلز، فلماذا أدعوه توتي؟ فقال لها سكريمر: ما كان ينبغي أن آتي بك إلى هنا. أعرف أنني ما كان ينبغي أن آتي بك إلى هنا. لا أستطيع شرح الأمر. لا يستطيع أحد شرحه. إنه شيء عصيٌّ على الشرح. إنه هكذا فحسب».

فماذا يعمل آلان الآن؟ نشأ ابنًا لشخص يعمل في تنظيف الملابس، وكان يعمل لديه بعد المدرسة... كان يعمل في محل تنظيف الملابس، فصار قاضيًا في المحكمة العليا في باسادينا. في محل أبيه الصغير، كانت هنالك صورة مطبوعة للرئيس فرانكلين روزفلت موضوعة في إطار على الجدار فوق آلة الكيّ إلى جانب صورة للعمدة ماير إلينشتاين تحمل توقيعه. تذكرت هاتين الصورتين عندما أخبرني آلان أنه كان مرتين عضوًا في وفد الحزب الجمهوري إلى مؤتمر الحزب للانتخابات الرئاسية. وعندما سأل ميندي آلان إن كان قادرًا على أن يحصل له على بطاقات من مباراة روز بويل، ما كان من آلان ميزنر... آلان الذي كنت أذهب معه إلى بروكلين لمشاهدة مباريات فريق «دودجر سنداي» في

السنة التي تألق فيها روبنسون؛ آلان الذي كنت أخرج معه في الثامنة صباحًا فنأخذ الباص من زاوية شارعنا حتى محطة بن في قلب المدينة، ثم نذهب بالقطار إلى نيويورك وننتقل هناك إلى المترو حتى نذهب إلى بروكلين، وكل هذا حتى نصل إلى ملعب إيبيتز فيند ونأكل السندويتشات التي أتينا بها معنا قبل أن تبدأ التمرينات الرياضية... آلان ميزنر ما أن تبدأ المباراة حتى يجعل كل من حولنا يصاب بالجنون نتيجة تعليقاته الصاخبة على الفريقين معًا... آلان ميزنر هذا نفسه، أخرج مفكرة من جيب سترته وكتب فيها، بعناية، ملاحظة لنفسه. نظرت من فوق كتفه فرأيت ما كتبه: «تذكّر جيدًا، بطاقات لمباراة روز بويل من أجل ميندي ج.».

شيء لا معنى له! أمر لا أهمية له! شيء غير كبير جدًّا يجري هنا! حسنًا... يعتمد ما تخلص إليه على المكان الذي نشأت فيه وكيف انفتحت الحياة أمامك. لا يمكن القول إن آلان ميزنر قد نشأ من لا شيء؛ إلا أن تذكّره عندما كان غبيًّا صغيرًا يجعجع غير آبه بشيء، ولا يتوقّف عن الجعجعة في مقعده في ملعب إيبيتز، وتذكّره وهو ذاهب عبر شوارعنا لتوصيل الملابس في ساعة متأخرة في أمسية شتوية في سترة صوفية قصيرة ومن غير قبعة على رأسه، يمكن بسهولة أن يجعل المرء يتخيل أنه كان من المقدَّر له شيء أقل مما وصل إليه.

فقط بعد أن انتهى العشاء الذي ما كاد أحد يستطيع البقاء جالسًا زمنًا طويلًا لتناوله، ثم الحلوى والقهوة (استغرقت هذه الأمور الشطر الأكبر من الأمسية)، وبعد أن صعد الفتيان والفتيات من منطقة ميبل إلى المنصّة وأنشدوا أغنية مدرسة ميبل آفنيو؛ وبعد أن أمسك بالمايكروفون زميل بعد زميل ليقول كل منهم: «لقد كانت حياة عظيمة»، أو «إنني اعتز بكم جميعًا»؛ وبعد أن فرغ الناس من تربيت هذا على كتف ذاك وارتماء هذا بين ذراعي ذاك. وبعد أن وقفت لجنة اللقاء المؤلّفة من عشرة أشخاص في وسط حلبة الرقص بأيادٍ متماسكة في حين قدّمت لهم فرقة الرجل الواحد أغنية بوب هوبز، «شكرًا على هذه الذكرى»، فصفقنا مستحسنين كل ما بذلوا الجهد لإنجازه، وبعد أن حكى لي مارفين ليبب (الذي باع أبوه لأبي سيارة البونتياك وعرض علينا - نحن الأولاد

- أن يعطينا سيجارًا كبيرًا كلما أتينا لأخذ مارفين من البيت) عن مآسي النفقة التي يدفعها لزوجتيه السابقتين... «يمنحُ المرء ذهابه للتبوّل قدرًا من التفكير المسبق أكثر مما منحتُه لزيجتيّ الاثنتين»، وبعد أن أخبرني جوليوس بينكوس (الذي كان على الدوام أكثر الأولاد لطفًا فصار الآن مضطرًّا إلى ترك عمله في مجال النظارات بسبب ارتجاف يديه نتيجة تناول دواء اسمه سايكلوسبورين لا بد منه من أجل المحافظة على الكلية التي زرعوها له) بكيفية حصوله على كليته الجديدة... «لو لم تمت فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها نتيجة نزف دماغي في شهر تشرين الأول الماضي، لكنت ميتًا الآن»، وبعد أن قالت لي زوجة سكريمر الشابة الطويلة: «أنت كاتب الصف، ولعلك قادر على شرح هذا لي. لماذا تدعونهم كلّهم بأسماء من قبيل أوتي ودوتي وموتي؟ وفقط بعد أن صدمتُ شيلي مينسكوف (عضو آخر من أعضاء فريق ديرديفلرز) بإيماءة من رأسي عندما سألني: «أصحيح ما قلته على المايكروفون من أنه ليس لديك أطفال، أو أي شيء من هذا القبيل؟»، وفقط بعد أن أمسك شيلي بيدي بين يديه وقال: «مسكين يا سكيب»... عندها فقط اكتشفت أن جيري ليفوف، الذي وصل متأخّرًا، كان موجودًا بيننا.

(15) جورج س. كوفمان George S. Kaufman وموس هارت Moss Hart: كاتبان مسرحيان أميركيان شهيران.

بدأت أحاول مخلصًا، هناك، في تلك اللحظة، وأنا أتمايل على نغمات الموسيقى العتيقة مع جوي، أن أتبين - لنفسي - ما كانه بالضبط ذلك الشيء الذي صاغ قدرًا خالف أي قدر يمكن توقّعه للاعب ويكاهيك الشهير عندما كانت تلك الأغنية وتحذيراتها العاطفية في محلّها تمامًا، أي عندما كان السويدي وحيّه ومدينته وبلده في وفرة الذروة وفي قمة الثقة، عندما كانوا جميعًا مفعمين بكل ما يأتي به الأمل من أوهام. عندما كانت جوي هيلبيرن بين ذراعي من جديد تذرف دموعًا هادئة لسماع ذلك اللحن القديم مستمتعة بوجود رفاقها الستينيين جميعًا... «احلم... فقد يتحقّق الحلم»، رفعتُ السويدي فوضعته على المنصّة. في تلك

الأمسية في مطعم فينسنت، ولألف سبب من الأسباب الوجيهة جدًا، لم يكن قادرًا على حمل نفسه على أن يطلب مني هذا. لست أظنّ أبدًا أنه كان ينوي أن يطلب مني فعل هذا. ولعلّ جعلي أكتب قصّته لم يكن السبب الذي أتى به إلى هناك... بل لعله السبب الذي جعلني أذهب إلى هناك!

لم تكن كرة السلّة هكذا من قبل أبدًا!

لقد أثار في نفسي عندما كنت صبيًا - مثلما أثار في نفوس مئات الصبية الآخرين - أشد نزوع حالم عشته إلى أن أكون شخصًا آخر. لكنّ تمنّي المرء مجدَ أي شخص آخر لنفسه، سواء أكان صبيًا أم رجلًا، ليس إلا استحالة، ليس إلا أمرًا لا سبيل إلى تبريره من الناحية النفسية، إذا لم يكن المرء كاتبًا؛ ثم لا سبيل إلى تبريره من ناحية أخلاقية إن كان كذلك. أن تعتنق بطلك وأن تكونه في دماره (أن تترك حياة بطلك تحدث داخل حياتك عندما يحاول كل شيء تحطيمه، وأن تتخيّل نفسك في حظّه العاثر، وأن تورّط نفسك، لا في صعوده الطائش عندما كان نقطة تركُّز ثنائك كلّه، بل في ذهول سقوطه المأساوي)... حسنًا... إن هذا أمر يستحق التفكير فيه.

إذًا، ها أنا الآن... ها أنا على حلبة الرقص مع جوي أفكر في السويدي وفي ما أصاب بلده خلال عشرين عامًا فقط بين أيام نشوة النصر في الحرب في مدرسة ويكاهيك الثانوية وبين انفجار قنبلة ابنته في سنة 1968، أفكر في ذلك التحوّل التاريخي الهائل المقلق الغامض. أفكر في الستينات وفي الاضطراب الذي ارتبط بحرب فيتنام، في أن أسرًا فقدت أبناءها، وفي أن أسرًا أخرى لم تفقدهم، وفي أن سايمور ليفوف كان واحدًا من أولئك الذين فقدوا أبناءهم... أسرٌ كلّها لطف وتسامح، وكلّها أمل تقدّمي صادق؛ وأطفال مضوا إلى التمرد، أو إلى السجن، أو مضوا إلى عيشة التخفّي، أو فروا إلى السويد أو كندا. أفكّر في السويدي، في سقوطه العظيم، وفي تخيله أن جذر ذلك كان كامنًا في فشل ما، في فشل يتحمّل هو مسؤوليته. لا بد أن الأمر بدأ هنا. لا أهمية لما إذا كان هو سبب حدوث أي شيء، فهو يجعل نفسه مسؤولًا على أية حال. هذا ما كان يفعله طيلة حياته، يجعل نفسه مسؤولًا مسؤولية غير طبيعية، ويحرص لا على ضبط

نفسه وإبقائها تحت الرقابة فحسب، بل يحرص أيضًا على ضبط كل ما قد يكون غير مضبوط، فيمنح نفسه كلّها من أجل المحافظة على تماسك عالمه. نعم، بالنسبة إليه، لا بد أن يكون سبب الكارثة خطيئة ما. فكيف يمكن للسويدي أن يفسر الأمر لنفسه بغير هذا؟ لا بد من وجود خطيئة، خطيئة واحدة بعينها، حتى لو كان هو الشخص الوحيد الذي يراها خطيئة. كانت بداية الكارثة التي نزلت به فشلًا في تحمّله مسؤوليته، كما يتخيّلها.

فما الذي يمكن أن تكونه تلك المسؤولية؟ تبدّدت الهالة التي كانت محيطة بذلك العشاء في مطعم فينسنت، يوم استعجلت التوصّل إلى ذلك الاستنتاج الطائش، استنتاج أن ما هو بسيط كان بسيطًا إلى ذلك الحد، فوضعتُ على المنصّة ذلك الفتى الذي سنتبعه جميعًا في أميركا، الفتى الذي سيكون نقطة العلام لنا في موطننا هنا مثلما كان الواسب(19) نقطة علام في هذا الموطن في زمان قبل زماننا، الفتى الذي صار أميركيًا لا من خلال السعي الدؤوب وحده، ولا من خلال كونه يهوديًا اخترع لقاحًا شهيرًا، أو يهوديًا صار قاضيًا في المحكمة العليا، ولا من خلال كونه الأكثر ذكاء، أو الأكثر بروزًا، أو الأفضل من غيره. لا... لقد صار أميركيًا بفضل تماثله مع عالم الواسب، وفعله ذلك بالطريقة المعتادة، بالطريقة الطبيعية، بطريقة الشخص الأميركي العادي. ابتعدت عن نفسي إلى توتّر «الحلم» الحلو كالعسل، ابتعدت عن لقاء زملاء المدرسة، وحلمت... حلمت بتسجيلٍ واقعيٍّ لما جرى. بدأت أمعن النظر في حياته (لا في حياته بمثابة إله أو نصف إله يمكن لانتصاراته أن تبهج المرء عندما يكون صبيًا، بل في حياته باعتباره رجلًا آخر له عيوبه). لا أعرف كيف أفسِّر هذا، لكنه كان أمرًا يمكن توقعه، فقد وجدته في بلدة ديل في نيوجرسي في كوخ إلى جانب البحر في ذلك الصيف الذي شهد بلوغ ابنته سنتها الحادية عشرة، في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه قادرة على البقاء بعيدة عن حضنه أو على الكف عن مناداته بأسماء حيوانات منزلية ظريفة، ولم تكن قادرة على «المقاومة» على حد تعبيرها... عندما كانت تتفحّص برأس إصبعها اتصال أذنيه المحكم برأسه.
تخرج من البيت ملتفّة بمنشفة وتجري إلى حبل الغسيل فتأتي بثوب سباحة جافٍّ

وتصرخ وهي ماضية في طريقها «لا تنظروا!»... ثم تندفع داخلة إلى الحمام، في أمسيات كثيرة، أثناء استحمامه فتصيح عندما تراه هناك «Oh zennodrap -iom- ia’j esnep euq…»(20)، فيقول لها «انصرفي واخرجي من هنا». تعود معه من الشاطئ بالسيارة في يوم من أيام ذلك الصيف، سكرى من الشمس، ملتصقة بكتفه العاري، وترفع وجهها إليه - بنصف براءة، وبنصف جرأة... تلعب دور الفتاة الكبيرة قبل أوانه - تقول له «بابا، قبّلني مثلما تقبل أم - - م - ي». هو أيضًا كان ثملًا من الشمس، ومن إرهاق لذيذ بعد التقلّب معها طيلة الصباح بين الأمواج الكبيرة. نظر إليها فرأى أن حمالة ثوب السباحة قد سقطت عن إحدى كتفيها وتدلّت على ذراعها فبانت حلمت ثديها كأنها موضع قرصة نحلة. قال لها: «للـ لا». ففاجأها وفاجأ نفسه. أضاف «أرفعي حمالة ثوب السباحة». أطاعت صامتة، فقال لها: «آسف يا حبيبتي...». قالت محاولة - بكلّ عزمها - أن تمسك دمعتها وتصير رفيقته المزقزقة من جديد «أوه! أستحق هذا. يحدث الأمر نفسه في المدرسة. هكذا يحدث لي مع أصدقائي. أبدأ فعل شيء ما فأصير غير قادرة على التوقّف. لا أعرف كيف أنـ د فـ ع هكـ هكـ كذ هكذا».

مرّ وقت غير قليل منذ أن رآها آخر مرة شاحبة هكذا، أو رأى وجهها متقلّصًا ومتوترًا هكذا. كانت في ذلك اليوم تحديدًا تكافح من أجل نطق الكلمات زمنًا أطول مما يستطيع احتماله. «هك - هك - هك - كذ هكذا». لكنه كان يعرف أكثر من أي شخص آخر ما الذي ينبغي الامتناع عن فعله عندما «تبدأ التأتأة حتى تتغلّب على توتّرها»، كما كانت تعبّر عن الأمر بنفسها. كان هو الوالد الذي تستطيع الثقة دائمًا في أنه لن يوبخها كلما فتحت فمها. كان يقول لأمها: «رفقًا، رفقًا... استرخي، وخذيها»، لكن داون لم تكن قادرة على ضبط نفسها. تبدأ تأتأة ميري الشديدة فتقف داون واضعة يديها على وسطها وتثبت عينيها على شفتي الطفلة؛ عينان تقولان لها: «أعرف أنك قادرة على فعل هذا!». بينما يقول لها لسانها: «أعرف أنك غير قادرة!». كانت تأتأة ميري تقتل أمّها؛ وكان ذلك يقتل ميري. «لستُ المشكلة... ماما هي المشكلة!». كانت المعلمة هي

المشكلة أيضًا عندما كانت تمتنع عن توجيه أسئلة إلى ميري في محاولة منها لتجنيبها هذا العناء. وهكذا، كان الجميع مشكلة لها عندما يشعرون بالأسف عليها. وعندما تصير طلقة اللسان على نحو مفاجئ وتتخلّص من تلك التأتأة، يصير الثناء مشكلتها. كان لديها مقت عنيف لأن يمتدح أحد طلاقة لسانها، فتفقد تلك الطلاقة كلّها لحظة سماع الثناء. كان الخوف يتلبّسها فتقول: «أظنني سوف أفقد السيطرة على نظامي كلِّه». مدهش كيف كانت هذه الطفلة قادرة على استحضار القوة لكي تمزح في هذا الأمر. كان ينظر إلى تلك المازحة المرحة الغالية... لو أن قدرة داون تسمح لها، هي أيضًا، بأن تتعامل مع الأمر بشيء من المرح! كان السويدي الشخص الوحيد القادر دائمًا على أن يكون شبه «كامل» في تعامله معها، على الرغم من اضطراره إلى بذل أقصى الجهد حتى يمنع نفسه من أن يصرخ غاضبًا: «إذا كنتِ قادرة على أن تتحدّي الآلهة وتكوني طلقة اللسان، فما الشيء الفظيع الذي تظنّين أنه سيحدث؟». لكن ذلك الغضب ما كان ليظهر على السطح أبدًا: لم يكن يقف ويعصر كفّيه مثلما فعلت أمّها؛ وعندما تواجهها مشكلة، لم يكن يراقب شفتيها، ولا ينطق الكلمات معها مثلما تفعل أمّها؛ ولم يجعلها - كلما نطقت - أهم شخص في العالم كلّه، لا في الغرفة فحسب. كان يفعل كل ما يستطيع فعله حتى لا يجعل تغلّبها على تلك المشكلة شيئًا أشبه بإنجاز عبقري. كانت عيناه تطمئنانها إلى أنه سيفعل كل ما يستطيع فعله من أجل مساعدتها، وإلى أنها قادرة على التأتأة كما تريد عندما تكون معه. ثم إنه قال لها: «للـ لا». لقد فعل ما تفضّل زوجته أن تموت قبل أن تفعله... لقد سخر منها! «لا أعرف كيف أنـ د فـ ع هكـ هكـ هكـ كذ هكذا».

لقد قال لها «أوه، يا حبيبتي»، وفي تلك اللحظة، عندما أدرك أن لهوَهما الصيفي المشترك الذي بدا شيئًا لا ضرر منه - عندما كانا يتبادلان قبلة حميمة ممتعة أكثر من أن يتخليا عنها، لكنها قبلة لا يمكن اعتبارها أمرًا جادًّا، ولا يمكن القلق منها ولا إيلاؤها أهمية بالغة؛ قبلة غير شهوانية أبدًا من شأنها أن تخبو في البعيد عندما تنتهي العطلة فتعود إلى مدرستها طيلة النهار ويعود إلى عمله، فلا تصير العودة إليها أمرًا سهلًا - تمامًا عندما أدرك أن تلك الرومانسية

الصيفية كانت في حاجة إلى تصحيح، فقدَ ما يباهي به من إحساس بالتناسب فجذبها إليه بإحدى ذراعيه وقبّل فمها المتأتئ بعاطفة كانت تطالبه بها طيلة شهر كامل، من غير أن تعرف ما كانت تطالب به إلا معرفة غامضة.

هل كان يجدر به أن يحسَّ ذلك الإحساس؟ حدث الأمر قبل أن يتمكّن من التفكير. كانت في الحادية عشرة فحسب. وفي اللحظة ذاتها، صار الأمر مفزعًا. لم يكن هذا شيئًا يمكن أن يشغل تفكيره لحظة واحدة، بل كان شيئًا محرّمًا إلى درجة تجعل المرء يخرجه حتى من نطاق التفكير في المحرمات، شيئًا يكون محظورًا على المرء فعله إلى حد يجعل عدم فعله أمرًا طبيعيًا بالمطلق، يجعله شيئًا لا حاجة إلى بذل أي جهد من أجل تفاديه... ثم حدث هذا، وإن يكن قد حدث للحظة واحدة. لم يسبق له في حياته كلِّها أن أفسح مجالًا لأي شيء غريب، هذه الغرابة كلّها عن القواعد الانفعالية التي تحكمه، لا عندما كان ابنًا، ولا زوجًا، ولا حتى صاحب عمل. صار يتساءل في ما بعد إن كانت هذه الزلّة الأبوية الغريبة هي لحظة التفريط بالمسؤولية، التي ظلّ يدفع ثمنها طيلة ما بقي من حياته. لم تكن تلك القبلة تشبه أي شيءٍ جدّيٍّ على الإطلاق، ولا كانت محاكاة لأي شيء، ولا هي تكرّرت أبدًا، ولم تستمرّ إلا خمس ثوانٍ... عشر ثوانٍ في الحد الأقصى... ولكن تلك اللحظة الغريبة الشاذّة، كانت كل ما تذكّره عندما راح، بعد الكارثة، يبحث عن أصول معاناتهم... تلك اللحظة التي كانا فيها مستثارين بفعل الشمس الحارة وأمواج البحر القوية - هي في الحادية عشرة وهو في السادسة والثلاثين - وكانا سعيدين، عائدين وحدهما من الشاطئ إلى البيت.

لكنه عاد فسأل نفسه أيضًا إن كان، بعد ذلك اليوم، قد صار يبتعد عنها أكثر مما ينبغي له الابتعاد، وصار يضع بينهما مسافة جسدية أكبر مما كان ضروريًا. لم يرد إلا جعلها تعرف أن ما من سبب يدعوها إلى القلق من فقدانه توازنه مرة أخرى، وما من سبب يدعوها إلى القلق من ولهها، الذي ليس فيه شيء غير طبيعي؛ فكانت النتيجة أن بالغ في النظر إلى تبعات تلك القبلة وفي تقدير ما يمكن أن يشكّل نوعًا من التحرش، فما كان منه إلا أن أدخل تغييرًا على رابطة

عفوية تمامًا لا ضرر منها، فزاد عبء الشكِّ في النفس الواقع على تلك الطفلة المتأتئة. لم يرد شيئًا غير مساعدتها، غير مساعدتها على التعافي.

فما هو الجرح إذًا؟ ما الذي يمكن أن يكون قد جرح ميري؟ أهو ذلك النقص الذي لا سبيل إلى التخلّص منه، أم أولئك الذين عزّزوا ذلك النقص فيها؟ ومن خلال أي شيء فعلوا لها ذلك؟ ما الذي فعلوه غير محبّتها ورعايتها وتشجيعها وتزويدها بكل مساندة ونصيحة واستقلالية بدت لهم منطقية... لكن ميري التي لا تفصح عن شيء صارت ترى نفسها ملوّثة بذلك النقص! صارت ترى نفسها غير طبيعية! صارت تعتبر نفسها مخبولة؟ فلماذا؟ يتأتئ آلاف وآلاف من الفتية والفتيات... لكنهم لا يفجّرون قنابل عندما يكبرون! ما الذي أصاب ميري؟ ما الشيء الذي فعله لها فكان خاطئًا إلى هذا الحد؟ أهي تلك القبلة؟ أهي تلك القبلة؟ هل كانت بهيمية إلى هذا الحدِّ؟ كيف يمكن أن تجعل قبلة من شخص مجرمًا؟ أهو ما أعقب تلك القبلة؟ أهو ابتعاده عنها؟ هل كانت البهيمية كامنة في ذلك الابتعاد؟ لكنه لم يصِر ممتنعًا عن احتضانها أو لمسها أو تقبيلها من جديد... كان يحبها، وكانت تعرف هذا.

لم ينته أبدًا عذاب فحص الذات وتفتيشها بعد أن بدأ هذا التساؤل الذي لا سبيل إلى الخروج بشيء منه. ومهما تكن الإجابات عرجاء، فإن أسئلته لم تنفد أبدًا. هو الذي لم يكن لديه قبل ذلك شيءٌ مهمٌّ يستدعي أن يسأل نفسه عنه. بعد تلك القنبلة، لم يعد قادرًا على أخذ الحياة كما تأتيه، ولا على الاطمئنان إلى أن حياته لم تكن شيئًا شديد الاختلاف عمّا يراه فيها. وجد نفسه يستذكر طفولته السعيدة والنجاح الذي رافق فتوته كما لو أن ذلك هو سبب الآفة التي أصابتهم. كان يفكّر في تلك الانتصارات فتبدو له سطحية كلها. وكان أكثر غرابة من ذلك هو أن فضائله نفسها صارت تبدو له خطايا. ما عاد يجد أية براءة في كل ما يتذكّره من ماضيه. وبات يحسّ كما لو أن كل شيء يقوله قد صار يقول أكثر مما أراد قوله أو أقل مما أراد قوله؛ وبات يحسّ كما لو أن كل شيء يفعله قد صار أكثر مما أراد فعله أو أقل مما أراد فعله. هنالك معنى لما كان يقوله أو يفعله، هذا صحيح؛ لكنه ليس المعنى الذي أراده منه.

كان السويدي الذي عرفه في نفسه دائمًا - سايمور ليفوف ذو المقاصد الحسنة والسلوك الحسن والتنظيم الحسن - قد تبخّر فلم يبقَ في مكانه شيءٌ غير هذا الفحص المدقّق للذات. لم يستطع تخليص نفسه من فكرة أنه كان مسؤولًا بأكثر مما استطاع الاستنجاد بالفكرة ذات الإغراء الشيطاني القائلة بأن كل شيء قد حدث مصادفة. لقد دخل حالة من الغموض أكثر إثارة للحيرة حتى من تأتأة ميري: صار كل شيء «يتأتئ»؛ وما عادت هناك طلاقة في أي مكان. صار كل شيء تأتأة. يستلقي في سريره ليلًا ويتصوّر حياته كلها فمًا متأتئًا ووجهًا مكشّرًا... يرى حياته كلّها من غير معنى أو سبب، ويراها خرقاء فاشلة كلها. ما عاد لديه أي فهم للنظام. ما عاد هناك نظام. ما عاد هناك أي نظام. صار يرى حياته فكرة متأتئة، صار يراها خارج سيطرته تمامًا.

في تلك السنة، كان حب ميري الكبير الآخر، بعد والدها، هو حب أودري هيبورن. وقبل أودري هيبورن، كانت تحبّ علم الفلك. وقبل علم الفلك، أحبت «نادي 4 - H»(21). وعلى امتداد ذلك الطريق، كانت هناك أيضًا «مرحلة كاثوليكية» سبّبت لأبيها قدرًا من الخيبة. كانت جدّتها تأخذها للصلاة في كنيسة سانت جينيفييف كلما زارتها ميري في بلدتها. وشيئًا بعد شيء، وجدتْ الحليَّ الكاثوليكية الصغيرة طريقها إلى غرفتها. لكن ذلك كان أمرًا لا بأس فيه طالما ظل قادرًا على اعتبار تلك الحليّ حليًّا، وطالما لم تبالغ ابنته في حماستها للأمر. بدأ الأمر بسعفة نخل محنية على شكل صليب قدّمتها إليها جدتها هدية بمناسبة «أحد الشعانين»(22). لا مشكلة في هذا. قد يرغب أي طفل في تعليق ذلك الشيء على الجدار. ثم أتت الشمعة... شمعة يبلغ طولها قدمًا موضوعة ضمن أنبوب زجاجي ثخين... «شمعة النور الأبدي». كانت مثبتة على تلك الزجاجة بطاقة معدنيّة عليها صورة «قلب يسوع المقدس» وصلاة تبدأ هكذا «أيها المقدس، قلب يسوع المقدس الذي قال: اطلب تعط». لم يكن ذلك شيئًا جيّدًا تمامًا، لكن الطفلة لم تبد اهتمامًا بإشعال الشمعة التي ظلّت منتصبة على طاولتها كأنما بقصد الزينة؛ فلم تكن إثارة الموضوع أمرًا ذا معنى. ثم علّقت فوق سريرها صورة جانبية ليسوع وهو يصلّي. لم يكن هذا أمرًا مقبولًا حقًّا، لكنه لم

يقل لها شيئًا، ولم يقل لزوجته شيئًا، ولا للجدّة. كان يقول لنفسه: «شيء لا ضرر منه. إنها صورة. وهي تراها صورة جميلة لرجل لطيف المظهر. فما أهمية ذلك؟».

لكن التمثال كان الشيء الذي جعل الكيل يطفح... تمثال من الجص لـ«الأم المباركة»... نسخة مصغرة من التماثيل الكبيرة على فيترينة غرفة الطعام في بيت الجدة دواير، وعلى طاولة الزينة في غرفة نوم الجدة دواير. كان التمثال هو ما جعله يطلب منها أن تجلس أمامه، ويسألها إن كانت مستعدّة لنزع الصور وسعفة النخل عن الجدار، ووضعها في خزانتها مع التمثال والشمعة عندما يأتي الجد والجدة ليفوف لزيارتهم. شرح لها بهدوء أن الغرفة غرفتها هي، وأن من حقّها أن تعلّق فيها كل ما تريد، إلا أن الجد والجدة ليفوف يهوديان، وبالتالي فهو يهودي أيضًا؛ وسواء أكان ذلك صحيحًا أم خاطئًا، فإن اليهود لا... إلخ، إلخ.

ولما كانت طفلة حلوة الطبع تحبّ أن يكون الناس مسرورين منها، وتحب أن يكون أبوها مسرورًا منها قبل كل الناس، فقد حرصت على ألّا يكون أي شيء مما أعطتها إياه الجدة دواير ظاهرًا للعيان خلال زيارة الجدين ليفوف إلى أولد ريمروك في المرة التالية. وهكذا، أنزلت في يوم من الأيام كل شيء كاثوليكي عن الجدار وعن طاولتها، ثم لم تُعد تلك الأشياء إلى مكانها بعد ذلك أبدًا. كانت شخصيةً تحبّ الكمال في كل شيء، وتقوم بكل شيء عن عاطفة واندفاع.

عاشت ذلك الاهتمام الجديد بعمق وكثافة، ثم انتهى ذلك الهوى على نحو مفاجئ، ورُمي كل شيء - وذلك الهوى أيضًا - في صندوق مغلق؛ وانتقلت الفتاة إلى أمر آخر.

انصب شغفها الآن على أودري هيبورن. صارت تبحث في كل صحيفة ومجلة تقع عليها يدها لترى إن كانت فيها صور لتلك النجمة السينمائية، أو إن كان اسمها مذكورًا فيها. بل إنها راحت تقصّ جداول مواعيد عرض أفلامها... «فطور في بيت تيفاني؛ 2، 4، 6، 8، 10»... من الصحف بعد العشاء وتلصقها في دفتر خصّصته لقصاصات أودري هيبورن. ثم مرّت شهور حرصت فيها على التظاهر دائمًا بأنها تلك الممثّلة ذات المظهر الصبياني،

فصارت تسير إلى غرفتها بخطوات أنيقة كأنها شبح خشبي، وتبتسم بعينين خفرتين محمّلتين بالمعاني إلى كل سطح يعكس صورتها، وتضحك تلك الضحكة التي يقولون عنها إنها «مُعدية» كلما قال أبوها كلمة. اشترت تسجيلًا صوتيًا لفيلم «فطور في بيت تيفاني»، وصارت تستمع إليه ساعات طويلة في غرفتها. كان يسمعها تغني «نهر القمر» بالطريقة الساحرة التي تغنيها بها أودري هيبورن، من غير تأتأة على الإطلاق. مع أن تمثيلها ذلك الدور كان محمّلًا بقدر كبير من التباهي والادعاء، فضلًا عن كونه يجعلها شديدة التركيز على نفسها، فإن أحدًا في البيت لم يُبدِ ما يشير إلى أن الأمر صار مملًا، أو إلى أنه صار مضحكًا: استولى عليها حلم النقاء الغريب. إن كانت أودري هيبورن قادرة على مساعدتها في التخلّص من التأتأة، ولو قليلًا، فلتواصل تظاهرها المضحك، تلك الطفلة ذات الشعر الذهبي والعقل المنطقي ومعدل الذكاء المرتفع، وحس الفكاهة الذي يشبه ما يكون لدى الكبار، حتى تجاه نفسها؛ تلك الطفلة ذات الأطراف الطويلة الرشيقة والأسرة الثرية، والطبع الخاص المتّسم بإصرار عنيد... الطفلة التي لديها كل شيء عدا طلاقة اللسان. أمان وحب وصحة، وكل مزية يمكن للمرء تخيّلها: لا ينقصها شيء غير القدرة على طلب شراء هامبرغر من غير أن تجعل من نفسها أضحوكة.

وكم حاولت! كانت تذهب إلى دروس الباليه بعد المدرسة مرتين في الأسبوع. ومرتين في الأسبوع، كانت أمّها تأخذها بالسيارة إلى بلدة موريستاون لرؤية اختصاصية النطق. وأما يوم السبت، فكانت تنهض باكرًا وتعد إفطارها بنفسها، ثم تقود الدراجة خمسة أميال بين التلال حتى تصل إلى قرية أولد ريمروك حيث العيادة الصغيرة لطبيب نفسي محلّي متجوّل، كانت لديه وجهة نظر جعلت السويدي غاضبًا عندما رأى أن معاناة ميري في الكلام قد ازدادت بدلًا من أن تتحسّن. فهم الطبيب النفسي حالة التأتأة لدى ميري على أنها خيار قررته بنفسها، أو على أنه طريقة خاصّة لجعل نفسها متميزة، اختارتها ثم علقت فيها بعد أن أدركت أنها طريقة ناجحة كثيرًا. كان الطبيب النفسي يسألها: «كيف تظنين شعور والدك سيكون إذا لم تتأتئي؟ وكيف تظنّين أن شعور والدتك

سيكون؟». كان يسألها أيضًا: «هل تحقّق لك التأتأة أية فائدة؟» لم يفهم السويدي كيف يمكن أن يكون مفيدًا جعل الطفلة تشعر بأنها مسؤولة عن شيء لا تستطيع فعله. وهذا ما جعله يذهب لرؤية ذلك الرجل. كان راغبًا في قتله عندما خرج من عيادته!

بدا له أن تفسير الطبيب لسبب مشكلة ميري أتى، في معظمه، من أنها طفلة جميلة المظهر لها أبوان ناجحان. بذل السويدي جهدًا كبيرًا لمتابعة ما كان يسمعه من الرجل، ففهم منه أن حسن حظ والدي ميري كان «كثيرًا عليها»؛ وحتى تنسحب من المنافسة مع أمّها وتجعلها تلاحقها وتركّز اهتمامها عليها وتشعر بالإحباط آخر المطاف (وأيضًا حتى تفوز بوالدها وتبعده عن أمها الجميلة)، فقد اختارت أن تَصِمَ نفسها من خلال تلك التأتأة الشديدة، بحيث تتلاعب بالجميع من خلال الظهور بمظهر الضعف. قال له السويدي مذكّرًا: «لكن ميري صارت بائسة نتيجة تأتأتها، وهذا ما جعلنا نأتي بها إليك». أجابه الطبيب: «لعل المنافع تفوق الغُرم كثيرًا». مرّت لحظة لم يكن السويدي فيها قادرًا على فهم ما قاله الطبيب، فأجابه: «لكن، لا، لا. إن النظر إليها وهي تتأتئ يقتل زوجتي». قال الطبيب: «قد يكون هذا واحدًا من المكاسب في نظر ميري. إنها طفلة شديدة الذكاء قادرة على التلاعب بالآخرين. لو لم تكن ابنتك هكذا، لما كنت شديد الغضب منّي لأنني أقول لك إن تلك التأتأة يمكن أن تكون حالة من التلاعب بكما، ويمكن أن تكون شديدة الفائدة، إن لم تكن حتى نمطًا من أنماط السلوك الانتقامي». قال السويدي في نفسه: «إنه يكرهني!». وهذا كلّه نتيجة مظهري. يكرهني نتيجة مظهر زوجتي. إن مظهرنا هاجس يؤرقه. هذا سبب كرهه إيانا... لسنا بشعين قصيري القامة مثله! كان الطبيب يقول له: «إنه أمر صعب على ابنتك أن تجد نفسها ابنة شخص حظي بذلك القدر كلّه من الاهتمام لقاء ما قد يبدو لها أحيانًا أنه شيء سخيف. هذا أمر قاسٍ؛ وفضلًا عن التنافس الطبيعي بين الأم وابنتها، فإن مجيء أحد إلى الفتاة الصغيرة وسؤالها: ألا تريدين أن تكبري وتصيري ملكة جمال نيوجرسي مثل أمّك؟ أمر قاسٍ أيضًا». أجابه السويدي: «لكنّ أحدًا لا يقول لها ذلك. من الذي يسألها هذا السؤال؟ نحن

لا نطرحه عليها أبدًا. نحن لا نتحدّث عن الأمر أبدًا. لم يذكر أحد شيء عن ذلك. ولماذا نذكره؟ زوجتي ليست ملكة جمال نيوجرسي. زوجتي هي أمّها». رد الطبيب: «لكن الناس يسألونها عن هذا يا سيد ليفوف». قال السويدي: «حسنًا، بحق الله، يطرح الناس على الأطفال أسئلة من كل نوع، لكنها لا تعني شيئًا... إن المشكلة ليست هنا». قال الطبيب: «لكنك ترى ما يجعل طفلة تجد أنها لا تملك شيئًا قابلًا للمقارنة مع أمها، وتجد أنها لا تستطيع حتى أن تدانيها. قد يجعلها هذا تفضّل نوعًا من التأقلم». قال السويدي: «إنها لا تتأقلم مع أي شيء. انظر، أظنك تضع على كاهل ابنتي عبئًا غير منصف عندما تجعلها ترى أنها هي من ‘اختار’ هذا الأمر. إنه ليس خيارًا لها. تكون في جحيم حقيقي عندما تتأتئ». أجابه الطبيب: «ليس هذا ما تقولُه لي دائمًا. وجّهت إليها سؤالًا مباشرًا يوم السبت الماضي: ‘ميري، لماذا تتأتئين؟’ فقالت لي: ‘لأن من الأسهل لي أن أتأتئ!’». «لكنك تعرف ما كانت تعنيه بهذه الإجابة. إن ما عنته أمر واضح. كانت تعني أنها ليست مضطرة إلى تلك المعاناة كلّها التي تمر بها عندما تحاول ألا تتأتئ». قال الطبيب: «لكنّي فكرت في إنها تحاول إخباري بشيء أكثر من هذا. أظن أن ميري من الممكن أن تشعر بأنها إذا لم تتأتئ، فإن الناس سوف يعثرون على السبب الحقيقي لمشكلتها، ألا وهي - تحديدًا - أنها تعيش في أسرة شديدة الحرص على الكمال، ميالة إلى إضفاء قيمة عالية إلى حد غير واقعي على كل كلمة تقولها: إذا لم أتأتئ، فسوف تجد أمي وقتًا للنظر إلى مشاغباتي، وعند ذلك سوف تكتشف أسراري الحقيقية». «من قال لك إننا أسرة شديدة الضغط من أجل الكمال؟ يا إلهي! نحن أسرة عادية. هل قالت ميري هذا الكلام حقًّا؟ هل كان هذا ما قالته لك عن أمها؟ هل قالت لك إنها ستكتشف مشاغباتها؟». قال الطبيب: «لم تقله بهذه الكلمات الكثيرة كلّها». قال السويدي: «هذا لأن الأمر غير صحيح». أجاب الطبيب: «المسألة ليست هنا. أفكّر أحيانًا في أن الأمر ناجم عن أن دماغها شديد السرعة، في أنه أسرع كثيرًا من لسانها...». أوه، تلك الطريقة المشفقة التي نظر بها إليّ وإلى تفسيراتي التي تدعو إلى الرثاء. ابن حرام حقيقي. ابن حرام عديم القلب. ابن حرام غبي. هذا

أسوأ ما في الأمر... الغباء. وهذا كلّه لأنه يبدو بتلك الهيئة، ولأنني أبدو بهذه الهيئة، ولأن زوجتي تبدو بتلك الهيئة... «كثيرًا ما نرى آباء غير قادرين على قبول الأمر، آباء يرفضون تصديق...». أوه، هؤلاء الناس لا فائدة منهم! إنهم يجعلون الأمور أكثر سوءًا! من الذي كان صاحب فكرة الذهاب إلى هذا الطبيب النفسي اللعين! قال السويدي للطبيب: «أنا لست ممتنعًا عن قبول أي شيء. اللعنة على هذا. أنا من أتى بها إليك أصلًا. إنني أفعل كل ما يطلب الاختصاصيون فعله حتى أساند الجهد الذي تبذله ابنتي للتوقف عن التأتأة. كل ما أريده هو أن أفهم منك الفائدة التي يحقّقها هذا لابنتي وكيف يخلّصها من التكشيرة والحركات الغريبة وارتعاش الساقين والضرب على الطاولة وشحوب الوجه... ويخلّصها من تلك الصعوبات كلّها. لكنك تقول لي، فوق هذا كلّه، إنها تفعل تلك الأشياء حتى تتلاعب بأمها وأبيها!». سأله الطبيب: «حسنًا، فمن يكون مسؤولًا عن الوضع عندما تضرب على الطاولة ويشحب وجهها؟ من الذي يسيطر على الموقف؟». أجابه السويدي غاضبًا: «ليست هي، بالتأكيد!». أجابه الطبيب: «أنت تعتبر أنني أتّخذ موقفًا غير عطوف تجاهها». «حسنًا... بطريقة ما، وبما أنني والدها، أقول لك إن هذا صحيح. يبدو لي أنه لم يخطر في بالك أبدًا أن يكون لهذا الأمر أساس فيزيولوجي». قال الطبيب: «لا. لم أقل هذا. يا سيد ليفوف، أستطيع إعطاءك نظريات عضوية إن كنت تريدها. لكن تلك ليست هي الطريقة التي أجد أنها يمكن أن تجعلني مفيدًا حقًّا».

يوميات التأتأة. عندما كانت تجلس إلى طاولة المطبخ بعد العشاء وتكتب حصيلة اليوم في دفتر يوميات التأتأة... كان ذلك الوقت الذي يحسّ فيه بأكبر قدر من الرغبة في قتل الطبيب النفسي الذي توصّل إلى إخباره آخر الأمر - إلى إخبار واحد من الوالدين «العاجزين عن القبول؛ اللذين يرفضان التصديق» بأنها لن تتوقّف عن التأتأة إلا عندما تكفّ عن أن تكون ضرورة بالنسبة إليها، أي عندما تصير راغبة في «الاتصال» مع العالم بطريقة مختلفة... باختصار، عندما تجد بديلًا أكثر قيمة من هذا الأسلوب في التلاعب. كانت يوميات التأتأة دفتر ملاحظات أحمر اللون له ثلاث حلقات تدوّن فيه ميري (بناء على اقتراح

اختصاصية النطق) سجلًا لأوقات تأتأتها. هل يمكن أن يوجد تعبير أكثر وضوحًا عن كرهها المتفاني لتأتأتها من جلوسها هناك وتسجيلها الدقيق لتقلبات التأتأة على امتداد اليوم؟ في أي سياق يصير احتمال التأتأة في أدنى مستوياته، وفي أي سياق يصير في أعلى مستويات؟ ومع من؟ هل يمكن لأي شيء أن يكون أكثر تمزيقًا لقلبه من قراءة ذلك الدفتر في أمسية يوم جمعة عندما خرجت مسرعة للذهاب مع أصدقائها إلى السينما وتركت دفترها مفتوحًا على الطاولة؟ «متى أتأتئ؟ عندما يسألني أحد عن شيء يتطلّب إجابة لم أتوقعها ولم أتمرن عليها. عندها، يصير محتملًا كثيرًا أن أتأتئ. عندما ينظر الناس إليّ. وعند وجود أشخاص يعرفون أنني أتأتئ، وخاصة عندما ينظرون إليّ. لكن الأمر يكون بعض الأحيان أكثر سوءًا مع أشخاص لا يعرفوني...». هكذا جرى كلامها صفحة بعد صفحة بخط يدها الأنيق إلى حد مفاجئ. لم يكن ما تقوله موحيًا بأي شيء غير أنها تتأتئ في الحالات التي ذكرتها كلّها. لقد كتبت: «حتى عندما تسير الأمور على ما يرام، فإنني لا أستطيع الكفّ عن التفكير: كم سيطول الوقت قبل أن يعرف هذا الشخص أنني أتأتئ؟ وكم سيمرّ من الوقت قبل أن أبدأ التأتأة وأفسد كل شيء؟» إلا أنها - على الرغم من كل خيبة من الخيبات - ظلّت تجلس حيث يستطيع أبوها وأمها رؤيتها فتكتب يوميات تأتأتها كل مساء، بما في ذلك عطلة نهاية الأسبوع. كانت تعمل مع اختصاصية النطق على «استراتيجيات» مختلفة لكي تستخدمها مع الغرباء، ومع موظفي المتاجر، ومع الأشخاص الذين تكون لها معهم أحاديث آمنة نسبيًا. كانا يعملان على استراتيجيات لاستخدامها مع الأشخاص الأكثر قربًا منها: المعلمون، والصديقات، والأولاد، وأخيرًا جداها وجدتاها، وأباها، وأمها. كانت تدوّن تلك الاستراتيجيات في دفترها. دوّنت في ذلك الدفتر أيضًا المواضيع التي يمكنها توقّع أن يجري حديث فيها مع مختلف الأشخاص، ودوّنت النقاط التي سيشتمل عليها كلامها، إضافة إلى محاولة توقّع الأوقات التي يزداد فيها احتمال التأتأة حتى تكون مستعدة لها أتم الاستعداد. كيف استطاعت احتمال مشقّة ذلك كله؟ كم كان هذا التخطيط يجعل المطلوب منها مرهقًا، ويجعل العفوي غير عفوي! وكم

كانت مثابرتها التي ترفض الانكفاء عن هذه المهام المرهقة! أهذا ما كان ابن الحرام المغرور يعنيه بعبارة «الممارسة الانتقامية»؟ كان ذلك التزامًا ثابتًا لا يتزعزع لم يعرف السويدي مثله أبدًا، ولم يعرفه حتى في نفسه في ذلك الخريف عندما جعلوه لاعب كرة قدم على الرغم من نفوره من تصادم رؤوس اللاعبين في رياضة لم يكن يحب عنفها على الإطلاق، لكنه نجح فيها، وتميز فيها «لما فيه خير المدرسة».

لكن شيئًا مما بذلت فيه ميري ذلك الجهد كلّه لم يثمر أي نجاح. قيل إنها كانت تجلس في «شرنقة» عيادة اختصاصية النطق الهادئة الآمنة، البعيدة عن العالم كلّه، فتكون في غاية الارتياح، وتتكلّم بطلاقة وتقول نكاتًا وتقلّد أشخاصًا وتغنّي. لكنها تخرج من جديد فتحسّ بأن الحالة تعاودها وتبدأ محاولة الالتفاف عليها وتكون مستعدة لفعل أي شيء - أي شيء - حتى تتفادى أن تبدأ كلمتها التالية بحرف ب... سرعان ما تبدأ الغمغمة من جديد، فيكون «اليوم الميداني» في السبت التالي مع الاختصاصية مكرّسًا للحرف بـ و«المعنى الذي يشير إليه في لا وعيها». أو «المعنى غير الواعي للحرف م أو س أو ج». إلا أن كل ما توصّل إليه كان من غير معنى على الإطلاق. ولم تفلح أية فكرة من أفكاره العظيمة في تخليصها حتى من واحدة من الصعوبات التي كانت تلاقيها. ما كان لأي شيء قاله أيّ شخص من معنى، ولم تكن له أية نتيجة في آخر المطاف. لم يكن الطبيب النفسي مفيدًا. ولم تفلح استراتيجيات اختصاصية النطق، ولا يوميات التأتأة في تقديم أي عون. هو أيضًا لم يستطع مساعدتها. ولم تستطع أمها مساعدتها، وحتى نطق أودري هيبورن الرقيق الواضح لم يفلح في إحداث أدنى ثغرة في ذلك الجدار. لقد كانت بين يدي شيء لم تستطع الخلاص منه أبدًا.

ثم، صار الوقت متأخرًا: مثلما يحدث لفتاة بريئة في قصّة من قصص الجنّيات عندما تتعرّض للخداع فتشرب جرعة من سائلٍ مؤذٍ، مثلما يحدث للطفلة الجندب التي كانت تقفز فرحة بين قطع الأثاث وفوق سيقان الجالسين مرتدية ثوبها الأسود فلا تلبث أن تجد نفسها حبيسة فتنفجر باكية... هكذا سمنت ابنته وازداد ثخانة عنقها وظهرها، وتوقفت عن تنظيف أسنانها وتسريح شعرها. كانت تكاد

لا تأكل شيئًا مما يقدّم إليها في البيت. وأما في المدرسة وفي الخارج، عندما تكون وحدها، فكانت تأكل كل شيء: التشيزبرغر والبطاطس المقلية والبيتزا والفطائر وحلقات البصل المقلية والحليب بالفانيليا وشراب الشوكولاته والآيس كريم مع الإضافات الدسمة، والمعجنات من كل نوع. كانت تأكل هذا كله فصارت تزداد ضخامة كل يوم، صارت فتاة في السادسة عشرة ضخمة الجسم تتهادى في مشيتها بطولها البالغ ست أقدام. وصار زملاؤها وزميلاتها في المدرسة يسمّونها «هو شي ليفوف».

صارت إعاقتها سيفًا تحزّ به رقاب الكاذبين الأشرار. «أنت، أيها الـ لع - ين! أيها الو حش البائ - ئس عديم القلب!». هكذا كانت تصرخ بليندون جونسون كلما ظهر وجهه في أخبار الساعة السابعة. وكانت تصيح بوجه نائبه همفري كلما ظهر في التلفزيون: «أيها الحقير، أطـ بق فمـ مك الكاذب، يا جبـ بـ ان، أيها المتواطئ القذ ذر اللـ عين!». وعندما ذهب أبوها، العضو في مجموعة أطلقت على نفسها «رجال أعمال نيوجرسي ضد الحرب»، إلى واشنطن مع اللجنة التوجيهية في مجموعته لزيارة سيناتور الولاية، رفضت ميري عرضه بأن تذهب معهم. قال لها السويدي الذي لم ينتمِ من قبل إلى أية جماعة سياسية، وما كان لينتمي إلى هذه الجماعة ويتطوّع لعضوية لجنتها التوجيهية ويدفع ألف دولار لنشر إعلانها الاحتجاجي في صحيفة نيوارك نيوز لولا أمله في أن تفلح هذه المشاركة التي تحمل إليه الشبهات في إزالة شيء من غضبها تجاهه: «هذه فرصتك لقول ما تفكرين به للسيناتور كيسي. يمكنك مواجهته مباشرة. أليس هذا مرادك؟». وقالت لها أمّها التي صارت تبدو صغيرة الحجم أمام ابنتها الضخمة الغاضبة: «ميري، قد تفلحين في التأثير على السيناتور كيسي...». صاحت ميري: «ك - ك - كيسي!»... ثم أدهشت أباها وأمها عندما بصقت على أرض المطبخ.

صارت الآن تتكلّم في الهاتف طيلة الوقت. تلك الطفلة التي اعتادت - في ما مضى - على أن تتمرّن على استراتيجية «التلفون» حتى تكون واثقة من قدرتها على بدء الكلام في أقل من ثلاثين ثانية بعد أن ترفع السماعة. لقد قهرت عذاب

تأتأتها حقًّا، لكن ليس بالطريقة التي كان يريدها والداها والاختصاصية التي تعالجها. لا... لقد خلصت ميري إلى أن التأتأة ليست هي ما شوّه حياتها، بل ذلك الجهد العقيم للتغلّب عليها. الجهد الجنوني. إنها الأهمية السخيفة التي علقتها على تلك التأتأة حتى تلبّي ما تتوقّعه أولد ريمروك منها، ما يتوقّعه أبوها وأمها ومعلموها وأصدقاؤها الذين جعلوها تبالغ في تقدير أهمية شيء ثانوي لا يتجاوز طريقة كلامها. لم يكن ما تقوله مصدر قلق لهم، بل طريقة قولها إياه! وكان كل ما كان عليها فعله حتى تتحرّر من ذلك هو ألا تلقي بالًا إلى مدى ما يحسّونه من بؤس عندما يكون عليها أن تنطق الحرف ب. نعم، لقد كفّت تمامًا عن الالتفات إلى الهاوية التي تنفتح تحت قدمي كل شخص عندما تبدأ تأتأتها؛ إلا أن تلك التأتأة لن تعود بعد اليوم مركز وجودها... وقد تأكّدت تمامًا من أنها لن تكون مركز وجودهم أيضًا. وبكل حماسة، نبذت مظهر والتزامات الفتاة اللطيفة الطيبة الصغيرة التي كانت تبذل كل جهدها حتى تكون فاتنة محبوبة مثل بقية بنات ريمروك اللطيفات الصغيرات؛ نبذت قواعد السلوك التي لا معنى لها، واهتماماتها الاجتماعية التافهة، وقيم أسرتها «البرجوازية». كان الوقت الذي أهدرته على «قضيتها الذاتية» أكثر من كافٍ. «لن أمضي بقية حياتي في مصارعة التأتأة اللعينة ليل نهار عندما يحـ يحـ يحـ رق الأطفال ليندون وبـ بـ بـ بينز وجونسون!».

صعدت طاقتها كلّها إلى السطح الآن؛ صعدت من غير شيء يعوقها، قوةُ المقاومة التي كانت تستخدمها بطريقة أخرى في ما مضى. عندما صارت غير آبهة بتلك العقبة القديمة، لم يقف الأمر عند عيشها حريتها الكاملة للمرة الأولى في حياتها، بل صارت تعيش تلك الطاقة المنعشة الناجمة عن الثقة التامّة بالنفس. بدت الآن ميري جديدة تمامًا، وجدت أخيرًا في معارضة الحرب «الوضـ ضـ يعة» عقبة جديرة بالقتال وبتوظيف قوتها الكبيرة حقًّا. كانت تدعو فيتنام الشمالية «جمهورية فيتنام الديمقراطية»، وتتحدّث عنها بمشاعر وطنية قوية جعلت أمها تقول إن المرء يظنها مولودة في هانوي، لا في نيوارك.

«جمهورية فيتنام الديمقراطية... إذا سمعتها تقولها مرة ثانية، يا سايمور، فأقسم

أنني سأفقد عقلي!» كان سايمور يحاول إقناعها بأن الأمر قد لا يكون سيئًا بالقدر الذي يبدو عليه... «إن لدى ميري عقيدة يا داون. إن لديها موقفًا سياسيًا. قد لا يكون موقفًا ذكيًا تمامًا؛ وقد لا تكون ميري أحسن من يتكلم باسم ذلك الموقف؛ لكن من المؤكد أن فيه فكرة ما، وأنه منطلق من عاطفة كبيرة. إن فيه قدرًا كبيرًا من التعاطف...».

لكن داون صارت الآن غير قادرة على الحديث مع ابنتها من غير أن يقودها ذلك الحديث إلى الخروج من البيت واللجوء إلى الحظيرة، إن لم يجعلها تفقد عقلها. وكان السويدي يسمع من بعيد أصوات مشاجرات ميري مع أمها كلما انفردتا معًا، ولو مدة دقيقتين فقط. كانت داون تقول: «ثمة أشخاص يسعدهم أن يكون أهلهم من أبناء الطبقة الوسطى القانعين». فتجيبها ميري: «آسفة لأنني لست مغسولة الدماغ إلى حد يجعلني واحدة من أولئك الأشخاص». تقول لها أمّها: «أنت لا تزالين بنتًا صغيرة في السادسة عشرة. يمكنني أن أملي عليك ما ينبغي فعله؛ وسوف أملي عليك ذلك». فتجيبها: «إن كوني في السادسة عشرة لا يجـ جـ علني بنتًا صغيرة، وسأفعل ما يحلو لي!». تقول داون: «أنت لست ضد الحرب. أنت ضدّ كل شيء». تجيبها ابنتها غاضبة: «فما أنت يا ماما؟ أنت مؤيدة للـ بقـ قر!».

صارت داون تبكي كل ليلة عندما تذهب إلى الفراش. وكانت تسأل السويدي: «ما هي؟ ما هذا؟ إذا كان شخص يعصي سلطتك، فما الذي يمكنك فعله؟ أنا في حيرة تامة يا سايمور، كيف حدث هذا؟». يجيبها: «يحدث هذا أحيانًا. إنها طفلة ذات إرادة قوية. لديها فكرة. لديها قضية». «ومن أين يأتي هذا؟ شيء يستحيل فهمه. أأنا أم سيئة؟ أهذا هو الأمر؟». «أنت أم جيدة. أنت أم رائعة. المشكلة ليست هنا». «لا أعرف ما جعلها تنقلب ضدي إلى هذا الحد! لست أفهم أبدًا ما فعلته لها، أو حتى ما تظن أنني فعلته لها. لا أعرف ماذا حدث؟ من هي؟ من أين أتت؟ لا أكاد أعرفها. كنت أظنّها ذكية. ليست ذكيّة أبدًا. إنها تصير غبية يا سايمور. يزداد غباؤها كلما تحدّثنا». يقول لها: «لا، ليس هذا إلا نوعًا فظًا من النزعة العدوانية. صحيح أنه ليس شيئًا حسنًا، لكنها لا تزال ذكية. إنها شديدة

الذكاء. هكذا يكون المراهقون. تمر بهم هذه التقلّبات المضطّربة العنيفة. لا علاقة للأمر بك، ولا علاقة له بي. كل ما في الأمر هو أنهم يمرّون بمرحلة يرفضون فيها كل شيء». «هذا كلّه بسبب التأتأة، أليس كذلك؟». «إننا نفعل كل ما نستطيعه من أجل تأتأتها. هذا ما فعلناه دائمًا». تقول داون: «إنها غاضبة لأنها تتأتئ. ليس لها أصدقاء لأنها تتأتئ». يجيبها: «كان لها أصدقاء دائمًا. إن لها أصدقاء كثيرين. ثم إنها قد تغلّبت على التأتأة. إن التأتأة لا تفسّر الأمر». تقول داون: «بل تفسّره. لا يمكنك أبدًا أن تتغلّب على التأتأة، فهي تجعلك في حالة خوف دائم». «هذا ليس تفسيرًا يا داون... ليس تفسيرًا لما يجري». «إنها في السادسة عشرة، فهل هذا هو التفسير». يجيبها: «حسنًا، إن كان تفسيرًا - وقد يكون كذلك فعلًا، فسوف نفعل كل ما نستطيع فعله إلى أن تتجاوز السادسة عشرة». «وماذا بعد ذلك؟ عندما تتجاوز السادسة عشرة، فسوف تصير في السابعة عشرة». «لن تكون حالها هكذا عندما تصير في السابعة عشرة. ولن تكون هي نفسها عندما تصير في الثامنة عشرة. الأمور تتغير. سوف تكتشف اهتمامات جديدة. وسوف تصير لها أهداف أكاديمية. يمكننا أن ندفع الأمور في هذا الاتجاه. أهم شيء الآن هو أن نستمرّ في الكلام معها». «لست قادرة على هذا. لا أستطيع أن أتكلم معها. صارت تغار حتى من الأبقار. هذا شيء يثير الجنون حقًا». «إذًا، أنا من سيواصل الكلام معها. أهم شيء هو ألّا نبتعد عنها، وألّا نذعن لها. أهم شيء هو مواصلة الكلام معها حتى إذا كان علينا أن نقول الشيء نفسه مرة بعد مرة بعد مرة. وحتى إن بدا الأمر ميؤوسًا منه، فهذا ليس مهمًا. لا يمكنك توقع أن يكون لما تقولينه أثر فوري». «إجاباتها هي ما يترك أثرًا». «لا أهمية لما تقوله في إجاباتها. علينا أن نواصل قول ما ينبغي قوله لها، حتى إذا بدا لنا الأمر من غير نهاية. علينا أن نضع حدًا لهذا. إذا لم نضع له حدًا، فمن المؤكد أنها لن تطيعنا. وإذا وضعنا حدًّا لهذا، فسوف تكون لدينا فرصة قدرها خمسون بالمئة لأن تطيعنا». «وماذا لو لم يحدث ذلك؟». «كل ما نستطيع فعله، يا داون، هو أن نظلّ منطقيين، وأن نظلّ حازمين، وألا نفقد الأمل أو الصبر. سيأتي يوم تكبر فيه وتتجاوز هذا الرفض لكل شيء». «لكنها لا

تريد أن تكبر ولا أن تتجاوز هذا». «الآن لا تريد. اليوم. لكن لدينا الغد. ثمة رابطة تجمعنا كلنا؛ وهي رابطة شديدة القوة. طالما أننا لا نتخلّى عنها، وطالما أننا نواصل الحديث معها، فسوف يأتي الغد. إنها تثير الجنون بالتأكيد. وأنا أيضًا صرت لا أعرفها. لكن، إذا لم نتركها تستنفد صبرنا، وإذا واصلنا الكلام معها ولم نستسلم، فسوف تعود إلى نفسها من جديد».

وهكذا واصل الكلام والإصغاء، وبقي حريصًا على أن يظل منطقيًا على الرغم مما بدا من انعدام الأمل. ظل صابرًا على هذا الصراع الذي بدا من غير نهاية. كان يضع حدًا لها كلما رآها تمضي إلى أبعد مما ينبغي. بغضّ النظر عن شدة غضبها عندما تجيبه، ومهما تكن إجاباتها هازئة لاذعة، أو كاذبة مراوغة، فقد واصل سؤالها عن نشاطاتها السياسية وعن الأماكن التي تذهب إليها بعد المدرسة، وكذلك عن أصدقائها. كان يسألها أيضًا - بدأب لطيف يجعلها تستشيط غضبًا - عن رحلاتها إلى نيويورك كل سبت. كان من الممكن أن تصرخ في البيت قدر ما يحلو لها الصراخ... لا تزال طفلة من أولد ريمروك؛ وقد كان التفكير في الأشخاص الذين يمكن أن تقابلهم في نيويورك يجعله يستشعر خطرًا.

الحديث الأول عن نيويورك. «ماذا تفعلين عند ذهابك إلى نيويورك؟ ومن ترين في نيويورك؟». «ماذا أفعل؟ إنني أذهب لرؤية نيويورك. هذا ما أفعله». «ماذا تفعلين هناك يا ميري؟». «أفعل ما يفعله أي شخص آخر. أتسوق. ما الذي يمكن أن تفعله أي فتاة أخرى؟». «أنت على صلة بناشطين سياسيين في نيويورك». «لا فكرة عندي عما تتحدّث عنه. كل شيء سياسي. تنظيف الأسنان أمر سياسي أيضًا». «إن لك علاقة بأشخاص ضد الحرب في فيتنام. أليسوا هم من تذهبين لرؤيتهم. نعم أم لا؟». «إنهم أشخاص. نعم، إنهم أشخاص لديهم أفكار... وبعضهم ليس مؤ مؤمنًا بالحرب. لا يؤ يؤمن أكثرهم بالحرب». «لا بأس. وأنا لست مؤمنًا بالحرب أيضًا». «فما هي مشكلتك إذًا؟». «من هم أولئك الناس؟ وما أعمارهم؟ وكيف يكسبون عيشهم؟ هل هم طلاب؟». «ولماذا تريد معرفة هذا؟». «لأنني أريد معرفة ما تقومين به. أنت تذهبين وحيدة إلى

نيويورك أيام السبت. ليس هناك آباء وأمهات كثيرون يسمحون لفتاة في السادسة عشرة من عمرها أن تسافر بمفردها تلك المسافة كلها». «إنني أذهب في... إنني... أنت تعرف... هنالك بشر وكلاب وأشجار...». «أنت تعودين إلى البيت حاملة تلك المطبوعات الشيوعية كلّها. تعودين إلى البيت بتلك الكتب والمنشورات والمجلات». «أحاول أن أتعلّم. أنت من علّمني أن أتعلّم، أليس هذا صحيحًا؟ علمتني أن أتعلم وألا أكتفي بالدراسة وحدها. ش - ش - شيوعية...». «إنها مطبوعات شيوعية. هذا مكتوب عليها». «إن الأفكار التي لدى الش - ش - يوعيين ليست متعلّقة بالش - ش - يوعية دائمًا». «أعطني مثالًا». «أفكار عن الفقر. أفكار عن الحرب. أفكار عن الظلم. إن لديهم أفكارًا متنوعة كثيرًا. إن كونك يهوديًا لا يعني أن لديك أفكارًا عن اليهودية فقط. حسنًا... يصح الأمر نفسه على الش - ش - يوعية».

الحديث الثاني عشر عن نيويورك. «أين تتناولين الطعام في نيويورك؟». «ليس في مطعم فينسنت؛ الشكر للرب». «أين إذًا؟». «حيث يتناول بقية الناس طعامهم. المطاعم. الكافتيريات. شقق بعض الناس». «ومن هم الذي يعيشون في هذه الشقق؟». «بعض أصدقائي». «أين التقيت أولئك الأصدقاء؟». «التقيت بعضهم هنا. والتقيت بعضهم في المدينة». «هنا؟ أين؟». «في المدرسة الثانوية. من بينهم ش - ش - - شيري، على سبيل المثال». «لم ألتق شيري أبدًا». «ش - ش - شيري هي التي كانت تعزف الكمان في المسرحيات التي قدّمها صفنا. ألا تتذكّرها؟ وهي تذهب إلى نيويورك لأنها تتلقّى هناك دروسًا في الموسيقى». «وهل هي مهتمة بالسياسة أيضًا؟». «بابا. كل شيء سياسي. كيف يمكن ألّا تكون مهتمة بالسياسة إن كان لها عق - ع - عقل؟». «لا أريد أن تتورطي في مشكلات يا ميري. أنت غاضبة في ما يتعلّق بالحرب. إن الحرب تجعل أشخاصًا كثيرين في حالة غضب. لكن من بين الغاضبين من الحرب أشخاص لا يعرف غضبهم أية حدود. أتعرفين ما هي الحدود؟». «حدود! هذا كل ما تفكّر فيه. عدم الذهاب إلى الحد الأقصى. حسنًا، عليك أحيانًا أن تصل إلى ذلك الحد الأقصى اللعين. فما هي الحرب، في رأيك؟ الحرب حالة قصوى. إنها

ليست العيش هنا في أولد ريمروك. لا شيء في أولد ريمروك يبلغ الحدود القصوى». «أنت لم تعودي تحبين الحياة هنا. هل لديك رغبة في العيش في نيويورك؟ هل تحبّين ذلك؟». «بالطبع». «لنفترض أنك أنهيت المدرسة الثانوية وذهبت إلى كلية في نيويورك. هل سيعجبك هذا؟». «لا أعرف إن كنت سأذهب إلى كلية. أنظر إلى إدارات تلك الكليات. أنظر إلى ما يفعلونه بطلبتهم الذين يعارضون الحرب. كيف يمكن أن أكون راغبة في الذهاب إلى كلية. التعليم العالي. إنه ما أدعوه تعليمًا واطئًا! قد أذهب إلى كلـ كلـ كلية، وقد لا أذهب. لست راغبة في بـ بدء التخطيط لذلك منذ الآن».

الحديث رقم 18 عن نيويورك. بعد عدم عودتها إلى البيت في إحدى ليالي السبت. «لا يجوز أبدًا أن تفعلي هذا مرة أخرى. لا يجوز أبدًا أن تمضي الليل عند أشخاص لا نعرفهم. من هم أولئك الناس؟». «لا تقل لي ‘أبدًا’ بعد الآن». «من هم الناس الذين أمضيت الليلة عندهم؟» «إنهم من أصدقاء شي - ش - شيري. من مدرسة الموسيقى». «أنا لا أصدقك». «لماذا؟ ألا تستطيع تص - تص - تصديق أن لدي أصدقاء؟... وأن من الممكن أن يحبني الناس... أن لا تصد تص - د تصدق ذلك؟... ألا تصدق أن هناك من يمكن أن يستقبلني لقضاء الليلة... ألا تص - تص - صدق ذلك؟ ما الذي تصد تص - تصدقه؟». «أنت في السادسة عشرة. عليك أن تعودي إلى البيت. لا يمكنك البقاء للنوم في نيويورك». «كف عن تذكيري بعمري. لكل منا عمره». «عندما خرجت يوم أمس توقعنا عودتك في السادسة مساء. ثم اتصلت بنا في السابعة وقلت إنك ستمضين الليلة هناك. قلنا لك إن هذا غير مقبول، لكنك أصررت. قلت إن لديك مكانًا لقضاء الليل. وهكذا، تركتك تفعلين ذلك». «تركتني أفعل ذلك! بالتأكيد...!». «لكني لا أقبل أن تفعلي هذا مرة أخرى. إن فعلت هذا مرة أخرى، فلن أسمح لك بعد ذلك بالذهاب إلى نيويورك وحدك». «ومن يقول هذا؟». «أبوك يقول هذا». «سنرى». «سوف أعقد معك اتفاقًا». «وما هذا الاتفاق يا بابا؟». «إذا حدث مرة أخرى أن وجدت نفسك في نيويورك وقد تأخّر الوقت على العودة، ولا بد لك من المبيت في مكان ما، فإن عليك الذهاب إلى

بيت أسرة أومانوف». «أسرة أومانوف؟». «إنهم يحبّونك. وأنت تحبينهم. يعرفونك طيلة حياتك. لديهم شقة لطيفة جدًا». «حسنًا... إن شقة الناس الذين نمت عندهم لطيفة جدًا أيضًا». «من هم أولئك الناس؟». «لقد أخبرتك. إنهم أصدقاء شيري». «ومن هم؟». «إنهما بيل وميليسا». «ومن هما بيل وميليسا؟». «إنهما بشر. بشر كبقية الناس». «كيف يكسبان عيشهما؟ وكم يبلغان من العمر؟». «ميليسا في الحادية والعشرين. وبيل في التاسعة عشرة». «هل هما طالبان؟». «كانا طالبين. وأما الآن، فهما ينظّمان الناس من أجل تحسين حياة الفيتناميين». «أين يعيشان؟». «وما الذي تعتزم فعله؟ أتريد أن تأتي لكي تلقي القبض عليهما؟». «أريد أن أعرف أين يعيشان. إن في نيويورك أنواعًا مختلفة من الأحياء. بعضها جيد، وبعضها ليس جيدًا». «يعيشان في حي جيّد تمامًا. في بناية جيّدة تمامًا». «أين؟». «يعيشان في مورنينغسايد هايتس». «هل هما طالبان في جامعة كولومبيا؟». «كانا طالبين هناك». «وما عدد الأشخاص الذين يعيشون في تلك الشقة؟». لا أرى سببًا يحملني على الإجابة عن هذه الأسئلة». «أسألك لأنك ابنتي ولأنك في السادسة عشرة». «هذا يعني أنك ستواصل طرح أسئلتك عليَّ طيلة ما بقي من عمري، لأنني ابنتك...». «لا، ستصيرين قادرة على فعل ما تريدين فعله عندما تصيرين في الثامنة عشرة وتنهين المدرسة الثانوية». «هذا يعني أن الفارق الذي نتحدث عنه الآن ليس أكثر من سنتين». «هذا صحيح». «وما الأمر العظيم الذي سيحدث خلال سنتين؟». «ستصيرين شخصًا مستقلًا قادرًا على إعالة نفسه». «إنني قادرة على إعالة نفسي منذ الآن إن أردت ذلك». «لا أريد أن تمضي الليل عند بيل وميليسا». «لم - لم - لماذا؟». «من مسؤوليتي أن أرعاك. أريد أن تنامي في بيت أسرة أومانوف. إذا كنت قادرة على قبول هذا فإن في وسعك أن تذهبي إلى نيويورك وتمضي الليل هناك، وإلا فلن أسمح بالذهاب أبدًا. الخيار خيارك». «إنني أذهب إلى هناك لكي أكون مع الأشخاص الذين أريد أن أكون معهم». «هذا يعني أنك لن تذهبي إلى نيويورك». «سوف نرى». «لا وجود لشيء اسمه سوف نرى. لن تذهبي. انتهى الأمر». «أريد أن أرى كيف ستمنعني من

الذهاب». «فكري في الأمر. إذا كنت غير موافقة على المبيت عند أسرة أومانوف، فإنك لا تستطيعين الذهاب إلى نيويورك». «وماذا عن الحرب؟». «أنا مسؤول عنك أنت، لا عن الحرب». «أوه، أعرف أنك لست مسؤولًا عن الحرب... هذا هو سبب ضرورة ذهابي إلى نيويورك لأن الناس هناك يعتبرون أنفسهم مسؤولين. إنهم يشعرون بالمسؤولية عندما تق - تق - تقصف أميركا القرى الفيتنامية. يجدون أنفسهم مسؤولين عندما تفج - جر أميركا الأطفال الص - ص - غار وتمزق - تمزق - هم إربًا. لكنك لا تشعر بالمسؤولية عن ذلك؛ ولا تشعر أمي بالمسؤولية. أنتما لستما مهتمين بالأمر إلى حدّ يجعلكما تسمحان له بإفساد يوم واحد من أيامكما. لا تهتمان بالأمر إلى الحدِّ الذي يجعلكما تمضيان ليلة في مكان ما غير بيتكما. أنتما لا تعجزان عن النوم ليلًا لأنكما تفكّران في الحرب. أنتما غير مهتمّين يا بابا».

الأحاديث رقم 24 و25 و26 عن نيويورك. «لا أطيق هذه الأحاديث يا بابا. لا أريدها! أرفض هذه الأحاديث! فمن يتحدّث مع والديه بهذه الطريقة». «إذا كنت قاصرًا، وخرجت لقضاء النهار، ثم لم تعودي إلى البيت في الليل، فهذا يعني أنك أيضًا ممن يتحدّثون مع أهلهم بهذه الطريقة». «لك - لك - لكنك تدفعني إلى الجنون! هذا الوالد العقلاني، الذي يحاول أن يكون متفهّمًا! لا أريد أن يتفهّمني أحد... أريد أن أكون حرّة!». «وهل سيعجبك الأمر أكثر إذا كنت أبًا غير عقلاني وحاولت ألّا أتفهمك؟». «أريد هذا! أظنني أريد هذا! لماذا لا تجرّب الأمر، على سبيل التغيير، حتى أرى كيف يكون!».

الحديث رقم 29 عن نيويورك. «لا، لا يمكنك تشويش حياتنا العائلية قبل بلوغك سن الرشد. عند ذلك، افعلي ما تريدين. وطالما أنك لم تبلغي الثامنة عشرة...». «كل ما يمكنك التفكير فيه، وكل ما يمكنك الحديث عنه، وكل ما ته - ته - تهتم به، هو حسن حال هذه الأس - الأس - الأسرة الصغ - صغ - غيرة، اللعينة!». «أليس هذا كل ما تظنين أنك غاضبة من أجله؟». «لا! أبـ أبـ أبدًا!». «نعم يا ميري. أنت غاضبة من أجل تلك الأسر في فيتنام. أنت غاضبة لأنها

تتعرّض للدمار. إنها أسر أيضًا. إنها أسر مثل أسرتنا تريد أن يكون لها الحق في العيش مثلما تملك أسرتنا حقًّا في العيش. أليس هذا ما تريدينه لهم؟ ما الذي يريده بيل وميليسا لهم؟ ألا يريدان أن تكون لأولئك الناس حياة مسالمة آمنة مثل حياتنا؟». «أن تكون حياة هناك متميزة في مكان لا يعرفه أحد... لا، لست أظن أن بيل وميليسا يريدان ذلك لهم. وأنا لا أريد ذلك لهم». «ألا تريدين؟ إذًا، فكري من جديد. أظن أن حصولهم على تلك الحياة سيجعلهم راضين كل الرضا». «لا يريدون إلا أن يذهبوا إلى الفراش في الليل، في بلدهم وأن يعيشوا حياتهم من غير تفكير في أنهم سيتمزّقون إربًا أثناء نومهم. سيت - سيت - سيتمزقون إربًا من أجل أصحاب الامتيازات في نيوجرسي الذين يعيشون حياتهم الآمنة الوادعة التي لا معنى لها... حياة مصاصي الدماء!».

الحديث رقم 30 عن نيويورك. بعد عودة ميري من ليلة قضتها عند أسرة أومانوف. «أوه، كم هما ليبراليان، بار بار باري ومارشا. ويا لحياتهما البر بر برجوازية المريحة!». «إنهما أستاذان جامعيان. وهما أكاديميان جادّان يعارضان الحرب. هل كان لديهما أحد عندما زرتيهما؟». «أوه، كان لديهم أستاذ لغة إنكليزية ضد الحرب، وواحد من أساتذة علم الاجتماع ضد الحرب. إنه - على الأقل -، يجعل أسرته تشاركه في موقفه ضد الحرب. إنهم يخرجـ جـ يخرجون إلى المسيرة معًا. هذا ما أدعوه أسرة، وليس تلك الأبقار اللعينة عندنا». «هذا يعني أن الأمور جرت هناك على ما يرام». «لا. أحب أن أذهب مع أصدقائي. لا أريد الذهاب إلى أسرة أومانوف في الثامنة. كل ما يحدث يحدث بعد الساعة الثامنة مساء! لو كنت أريد البقاء عند أصدقائك بعد الثامنة مساء، فمن الأفضل لي أن أظلّ هنا في ريمروك. أريد أن أظل مع أصدقائي بعد الساعة الثامنة». «لكن كل شيء جرى على ما يرام، على الرغم من ذلك. لقد توصّلنا إلى اتفاق. لن تكوني مع أصدقائك بعد الثامنة. لكنك قادرة على قضاء النهار معهم. هذا أحسن كثيرًا من عدم الحصول على أي شيء. لدي شعور حسن تجاه ما وافقت على فعله. ينبغي أن يكون لديك هذا الإحساس أيضًا. هل ستذهبين يوم السبت القادم؟». «أنا لا أخطط لهذه الأشياء قبل سنين من

موعدها!». «إذا ذهبت إلى نيويورك يوم السبت القادم، فعليك أن تتّصلي بأسرة أومانوف حتى تخبريهم بأنك آتية إليهم».

الحديث رقم 34 عن نيويورك. بعد تخلّف ميري عن الذهاب إلى بيت أسرة أومانوف لقضاء الليل عندهم. «حسنًا، لقد قضي الأمر. أنتِ من خالف الاتفاق الذي بيننا. لن تخرجي بعد الآن من هذا البيت يوم السبت». «هل أنا رهن الاعتقال المنزلي؟». «بالتأكيد». «ما الشيء الذي أنت خائف منه إلى هذا الحد، وما الذي تظنّني سأفعله؟ إنني أمضي الوقت مع أصدقائي. نناقش الحرب وأشياء مهمة أخرى. لا أعرف السبب الذي يجعلك راغبًا في معرفة هذا القدر كلّه. أنت لا تسألني ملايين الأسئلة كلما ذهبت إلى متجر هاملين. فما الذي تخشاه؟ أنت لست إلا حز حز حزمة من المخاوف. لا يمكنك أن تظلّ مختبئًا هنا في الغابات. لا تتقيأ خوفك عليّ وتجعلني خائفة مثلك ومثل ماما. أنتما غير قادرين على ما يتجاوز التعامل مع أبقاركما. أبقار وأشجار. هناك أشياء تتجاوز الأبقار والأشج - الأش - جار. هناك بشر أيضًا. بشر لديهم ألم حقيقي. لماذا تقول هذا؟ هل تخشى أن أذهب وأمارس الجنس؟ أهذا ما تخشاه؟ أنا لست مغفلة بحيث يخدعني أحدهم. هل أقدمت في حياتي على تصرف غير مسؤول؟». «لقد خالفت اتفاقنا. إنها نهاية الأمر». «هذه ليست شركة. ونحن لا نتحدّث عن العمل يا بابا. اعتقال منزلي. كل يوم أمضيه في هذا البيت يكون شبيهًا بالاعتقال المنزلي». «لا تعجبيني كثيرًا عندما تتصرّفين هكذا». «اسكت يا بابا! وأنت لا تعجبني أيضًا. أنت لا تعجبني أبدًا».

الحديث رقم 44 عن نيويورك. يوم السبت التالي. «لن آخذك بالسيارة إلى محطة القطار. ولن تخرجي من البيت». «وما الذي تعتزم فعله؟ هل ستحبسني؟ كيف ستمنعني من الذهاب؟ هل ستضعني على الكرسي وتربطني بحبل؟ أهكذا تعامل ابنتك؟ لا أستطيع تص - تص - تصديق أن أبي يمكن أن يستخدم القوة الجسدية ضدي». «أنا لا أهدّدك باستخدام القوة الجسدية». «فكيف ستجعلني أبقى في البيت؟ أنا لست واحدة من الأبقار الغبية التي عند ماما! لن أستمر في العيش هنا إلى الأبد، أيها السيد اللطيف الهادئ المتمالك نفسه. ما الشيء الذي

أنت خائف منه إلى هذا الحدِّ؟ ولماذا تخشى الناس إلى هذا الحدِّ؟ ألم تسمع أبدًا أن نيويورك من أهم مراكز الثقافة في العالم كلّه؟ يأتي الناس من البلاد كلّها لكي يعيشوا أجواء نيويورك. لقد كنت دائمًا تريد أن أعيش كل شيء. فلماذا لا أستطيع عيش نيويورك؟ إنها أفضل من هذه الحفرة التي هنا. ما الذي يغضبك إلى هذا الحد؟ لماذا يغضبك أن أكوّن أفكاري الحقيقية بنفسي؟... وأنا أتوصّل إلى أشياء لم تتوصّل إليها قبلي؟... أن أتوصّل إلى أشياء ليست من بين خططك المتأنّية من أجل الأسرة ومن أجل المسار الذي ينبغي أن يتّخذه كل شيء؟ لست أفعل شيئًا غير الذهاب إلى المدينة بذلك القطار اللعين. ملايين الرجال والنساء يفعلون هذا كل يوم عندما يذهبون إلى عملهم. وهم يصادفون أشخاصًا سيئين. هل تخشى أن تكون لدي آراء مختلفة، لا سمح الله؟ لقد تزوّجت امرأة كاثوليكية إيرلندية، فما رأي أهلك في اختيارك الخاطئ؟ وهي تزوجت يه - يه - يهوديًا، فما رأي أهلها في اختيارها الخاطئ؟ فكم يمكن أن يكون ما أفعله أسوأ من هذا؟ قد أخرج مع شاب زنجي... أهذا ما تخشاه؟ لا أظن هذا يا بابا. لماذا لا تصب قلقك على شيء له أهمية، كالحرب مثلًا، بدلًا من مسألة ذهاب ابنتك الصغيرة المتمتّعة بالمزايا وحدها بالقطار إلى المدينة الكبيرة؟».

الحديث رقم 53 عن نيويورك. «أنت لا تزال مصرًّا على عدم إخباري بالمصير المرعب الذي تظنّه سيحل بي إذا ذهبت بذلك القطار اللعين إلى المدينة. إن لديهم شققًا وسقوفًا في نيويورك! لديهم أيضًا أبواب، ولديهم أقفال عليها أيضًا! ليس القفل شيئًا فريدًا خاصًّا بأولد ريمروك. هل سبق لك التفكير في هذا يا سايمور ليفوف؟ أنت تظن السوء في كل ما هو غريب عنك. فهل فكّرت ذات يوم في أن الأشياء الغريبة عنك قد تكون جيدة؟ هل فكرت في أنني، باعتباري ابنتك، يمكن أن يكون لدي شيء من الغريزة السليمة التي تجعلني أخالط الأشخاص المناسبين في الوقت المناسب؟ أنت منزعج دائمًا من احتمال أن أتعرّض إلى الإخفاء، بطريقة ما. لو كان لديك أي قدر من الثقة بابنتك، لفكّرت في أنني قد أخالط أشخاصًا جيدين. أنت لا تبدي أي قدر من الثقة».

«ميري، أنت تعرفين ما أتحدث عنه. إنك تورطين نفسك مع سياسيين متطرفين،

مع أشخاص متطرفين». «متطرفون! هل تراهم متطرفين لأنهم يخالفونك الرأي؟». «إن لدى أولئك الأشخاص أفكار سياسية شديدة التطرّف». «الشيء الوحيد الذي يؤدّي إلى إنجاز أي شيء هو أن يمتلك المرء أفكارًا قوية». «لكنك لا تزالين في السادسة عشرة؛ وهم أكبر منك سنًا وأكثر خبرة». «جيد. هذا يعني أن من الممكن أن أتعلّم شيئًا. التطرّف هو نسف بلد صغير بأكمله نتيجة إساءة فهم بعض الأفكار عن الحرّية. هذا هو التطرّف. نسف الأولاد وبتر أرجلهم... هذا هو التطرّف يا بابا. وأما الذهاب بالباص، أو بالقطار، إلى نيويورك، وقضاء الليل في شقة آمنة مغلقة... لا أرى تطرفًا في هذا. أظن أن الناس ينامون في مكان ما كل ليلة، إذا استطاعوا. قل لي، ما الأمر المت - المت - متطرّف في هذا؟ أتظنّ أن الحرب سيئة؟ واو، يا لها من فكرة متطرّفة يا بابا. ليست الفكرة هي المتطرفة، بل حقيقة أن هنالك من يبالي بشيء ما ويريد أن يحاول تغييره. أتظن أن هذا تطرف؟ إنها مشكلتك إذًا! قد يهتم أحد الناس بمحاولة إنقاذ أرواح الناس الآخرين أكثر من اهتمامه بنيل درجة علمية من جامعة كولومبيا. فهل هذا تطرّف؟ لا، عكسه هو التطرّف». «هل تتحدّثين عن بيل وميليسا؟». «صحيح، لقد تركت ميليسا الجامعة لأن لديها أشياء أكثر أهمية من نيل درجة جامعية. وقف القتل أكثر أهمية عندها من حيازة شهادة جامعية على قطعة من الورق. هل تدعو هذا الأمر تطرّفًا؟ لا، أظن أن التطرف هو مواصلة الحياة كالمعتاد عندما يكون هذا الجنون مستمرًا، عندما يجري استغلال الناس، يمينًا وشمالًا ووسطًا، لكنك تظل قادرًا على ارتداء بدلتك، ووضع ربطة عنقك كل يوم، والذهاب إلى عملك. كما لو أن ما من شيء يحدث. هذا هو التطرف. هذا هو الغباء المتطرف... هذه هي حقيقته».

الحديث رقم 59 عن نيويورك. «من هما؟». «كانا يذهبان إلى جامعة كولومبيا. ثم تركاها. لقد أخبرتك عن هذا كله. إنهما يعيشان في مورنينغ هايتس». «هذا لا يعطيني إجابة شافية يا ميري. إنها مدينة خطيرة، فيها مخدرات، وفيها أشخاص عنيفون. ميري... من الممكن أن تتورّطي في مشكلات كثيرة. من الممكن أن تتعرّضي للاغتصاب». «هل سيحدث هذا لأنني

لم أصغ إلى كلام بابا؟». «هذا ليس أمرًا مستحيل الحدوث». «تتعرّض البنات للاغتصاب سواء استمعن إلى كلام آبائهن أو لم يستمعن. وفي بعض الأحيان، يكون من يقدمون على الاغتصاب آباء أيضًا. إن للمغتصبين أبناء أيضًا. هذا ما يجعلهم آباء». «قولي لبيل وميليسا أن يأتيا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معنا». «أوه، إنهما لا يحبّان المجيء إلى هنا». «انظري... ما رأيك في الذهاب إلى مدرسة داخلية في شهر أيلول؟... الذهاب إلى مدرسة تمضين فيها العامين الباقيين لك. لعلك مللت العيش في البيت... لعلك مللت العيش معنا، هنا». «أنت تخطّط دائمًا. تحاول دائمًا اكتشاف المسار الأكثر منطقية». «ما الذي يتعيّن علي فعله غير هذا؟ ألا تريدين أن أكف عن التخطيط؟ إنني رجل. إنني زوج. إنني أب. إنني أدير شركة». «أدير شركة. ولهذا أنا موجود!». «هناك أنواع كثيرة من المدارس. وهناك مدارس فيها أشخاص مثيرون للاهتمام، وفيها حرّية كبيرة... تحدّثي مع الاستشاري التعليمي في المدرسة؛ وسوف أستطلع الأمر من جانبي أيضًا. إذا كنت قد مللت العيش معنا، أو تعبت من العيش معنا، فإن في وسعك أن تذهبي إلى واحدة من تلك المدارس. أفهم أنك لم تعودي تجدين الكثير مما تحبين فعله هنا. فلنفكّر كلنا، تفكيرًا جدّيًا، في أمر ذهابك إلى مدرسة داخلية».

الحديث رقم 76 عن نيويورك. «يمكنك أن تكوني ناشطة فاعلة في الحركة المعادية للحرب بقدر ما تشائين هنا، في موريستاون، وهنا في أولد ريمروك. يمكنك هنا أن تقومي بتنظيم الناس ضد الحرب... في مدرستك...». «بابا، أريد أن أفعل بهذا بطريقتي أنا». «أصغ إلي. أرجو أن تصغي إلي. الناس هنا في أولد ريمروك ليسوا ضد الحرب. بل على العكس من ذلك. ألا تريدين أن تكوني في المعارضة؟ كوني في المعارضة هنا». «لا يمكن فعل أي شيء هنا. فما الذي سأفعله؟ أأخرج في مسيرة من حول السوبرماركت؟». «يمكنك تنظيم الناس هنا». «أهالي ريمروك ضد الحرب!؟ سيحقّق هذا اختلافًا كبيرًا. مدرسة موريستاون الثانوية ضد الحرب!؟». «هذا صحيح. فلنأت بالحرب إلى الديار! أليس هذا هو الشعار؟ افعلي ذلك. اجلبي الحرب إلى الديار، إلى بلدتك. ألا

تحبين أن تكوني عكس الناس؟ ستكونين عكس الناس هنا. يمكنني أن أؤكد لك ذلك». «لا أريد أن أكون عكس الناس». «حسنًا، سوف تكونين عكس الناس. وذلك لأنه موقف لا يحظى بالشعبية هنا. إذا عارضت الحرب هنا بكل قوتك، صدقيني، فسوف يكون لذلك أثر غير قليل. لماذا لا تثقفين الناس هنا فيما يتعلق بالحرب. إن هذا المكان جزء من أميركا، كما تعلمين». «إنه جزء صغير جدًا». «هؤلاء الناس أميركيون يا ميري. وأنت قادرة على أن تكوني معارضة نشطة للحرب هنا، في هذه القرية. لست مضطرة للذهاب إلى نيويورك».
«صحيح... أستطيع أن أكون معارضة للحرب في غرفة المعيشة في بيتنا».
«تستطيعين أن تكوني معارضة للحرب في النادي المحلّي». «ليس فيه إلا عشرون شخصًا». «موريستاون هي عاصمة المقاطعة. اذهبي إلى موريستاون أيام السبت. إن فيها أشخاصًا معادين للحرب. القاضي فونتين ضد الحرب. أنت تعرفين هذا. والسيد آفيري ضد الحرب. لقد وقّعا معي على ذلك الإعلان المعادي للحرب. ذهب القاضي فونتين معي إلى واشنطن. تعرفين أن الناس هنا لا يحبّون رؤية اسمي على ذلك الإعلان. لكن لي موقفي. يمكنك تنظيم مسيرة في موريستاون. يمكنك العمل على تنظيم مسيرة». «وسوف تتولّى صحيفة مدرسة موريستاون الثانوية تغطية ذلك النشاط. سيؤدي هذا إلى سحب القوات من فيتنام». «أعرف أنك تجهرين بمعارضة الحرب في مدرسة موريستاون الثانوية. فلماذا تهتمين بفعل ذلك إن كنت ترين أنه أمر لا أهمية له ولا أثر؟ أنت ترين أن له أهمّيته. إن لوجهة نظر كلّ شخص في أميركا أهميتها في ما يتعلّق بالحرب. فلتكن البداية في بلدتك يا ميري. هذا هو السبيل إلى إنهاء الحرب».
«لا تبدأ الثورات من الريف». «نحن لا نتحدّث عن الثورة». «أنت الذي لا يتحدّث عن الثورة».
كان ذلك آخر حديث عن نيويورك يدور بينهما. لقد نجح الأمر. صحيح أن الأمر طال كثيرًا، لكن السويدي كان صبورًا، منطقيًا، حازمًا، فنجح في مسعاه. وعلى حد علمه، لم تذهب ابنته إلى نيويورك بعد ذلك. لقد أخذت بنصيحته وظلّت في البلدة. فبعد أن حوّلت غرفة المعيشة إلى ميدان معركة، وبعد أن

حوّلت مدرسة موريستاون الثانوية إلى ميدان معركة، ذهبت في أحد الأيام وفجرت مكتب البريد. فجّرت معه أيضًا د. فريد كونلون ومتجر القرية الذي كان مكانًا خشبيًا صغيرًا عُلّقت على جداره لوحة الإعلانات المحلية وكانت أمامه مضخة وقود عتيقة وسارية معدنية يرفع عليها روس هاملين (الذي كان يملك المتجر مع زوجته، ويدير مكتب البريد أيضًا) العلم الأميركي كل صباح منذ أن كان وارن غاميليل هاردينغ رئيسًا للولايات المتحدة.

(19) واسب (WASP): الأحرف الأولى من «White Anglo Saxon Protestant» التي تعني «بروتستانتي أنكلوساكسوني أبيض». وتشير هذه العبارة إلى صفوة المجتمع الأميركي حتى منتصف القرن العشرين، أي إلى الفئة السكّانية الثرية ذات النفوذ الواسع والتعليم الحسن.
(20) بالفرنسية: «أوه، اعذرني... ظننت أنّ...».
(21) نادي 4 - H: مجموعة من نوادي اليافعين ضمن نطاق نشاطات منظمة 4 - H المعنية بتشجيع مشاركة الناشئة للوصول بهم إلى تحقيق قدراتهم وإمكاناتهم وتطويرها.
(22) أحد الشعانين: عيد واقع في يوم الأحد الذي يوافق يوم دخول يسوع مدينة القدس.
ذلك الرجل المسكين موضوعًا خارج حياته طيلة ما بقي من حياته؟ لقد صار يسترق النظر إلى حياته من خارجها. وكان نضاله في الحياة أن يدفن هذا ويخفيه عن الأنظار. لكن، هل كان قادرًا على ذلك؟ وكيف؟ كيف كان من المتوقّع أن يتعامل شخص غريب لطيف، حلو، كبير مثل أخي مع تلك القنبلة؟ في أحد الأيام، بدأت الحياة تضحك منه، ثم لم تتوقّف عن الضحك».

كان ذلك آخر نقطة بلغها حديثنا الذي كان أشبه بتوبيخ أردت سماعه من جيري... لكني وجدت أن عليَّ اختلاق أي شيء إضافي أردت سماعه لأن امرأة قصيرة رمادية الشعر في ملابس بنية أتت في تلك اللحظة لتعرّفني على

نفسها، فما كان من جيري إلا أن ألقى ما يشبه تحية سريعة، ثم اختفى. (عندما بحثت عنه في وقت لاحق، سمعت أنه كان مضطرًا إلى المغادرة لكي يدرك الطائرة العائدة به إلى ميامي). لم يكن من طبيعة جيري أن يحتمل البقاء أكثر من خمس ثوان عندما يستحوذ شخص آخر على انتباه من يقف معه.

بعد أن كتبت عن شقيقه... الشيء الذي فعلته خلال بضعة أشهر تلت ذلك... كنت أفكّر في السويدي من غير انقطاع ست ساعات، أو ثمانٍ، بل عشر ساعات أحيانًا. كنت أتخلّى عن وحدتي وأتلبّس وحدته؛ أسكن هذا الشخص مثلما أسكن نفسي؛ أختفي في داخله؛ وأحاول ليل نهار أن أحدّد مقاسات بساطته الظاهرة، وبراءته، وفراغه، وأن أرسم انهياره، وأجعل منه - مع مرور الوقت - أهم شخصية في حياتي. وبعد ذلك، بدأت أغير الأسماء وأموّه علامات الشخصية الأكثر وضوحًا. بل نشأت لدي رغبة الهواة في إرسال نسخة من المخطوط إلى جيري حتى أعرف رأيه. لكني قمعت هذا الدافع: لست أجهل كيف أقمعه بعد قرابة أربعين سنة أمضيتها في الكتابة والنشر. لو أرسلت المخطوط إليه لقال لي: «هذا ليس أخي. ليس أخي أبدًا. لقد أسأت تصويره. لا يمكن أن يفكّر أخي هكذا. ولم يكن يتحدّث هكذا...» إلخ.

هذا صحيح! فبعد مرور هذا الوقت، سيكون جيري قد استعاد موضوعيته التي هجرته بعد دفن أخيه مباشرة. ومع استعادتها، سيستعيد ذلك الكره القديم الذي ساعده في أن يصير طبيب المستشفى الذي يخشى الجميع الكلام معه لأنه لا يخطئ أبدًا. وأيضًا، خلافًا لمعظم الأشخاص الذين يصير أعزاؤهم نموذجًا في الحياة، من المحتمل كثيرًا أن يجد جيري ليفوف تسلية، لا أن يغضب، نتيجة إخفاقي في التقاط مأساة السويدي مثلما التقطها هو. احتمال قوي: يقلب جيري ساخرًا تلك الصفحات التي كتبتها وينبئني بالأخبار السيئة خبرًا بعد خبر: «لم تكن الزوجة هكذا أبدًا؛ ولم تكن الطفلة هكذا أبدًا... بل إنك فهمت أبي فهمًا خاطئًا أيضًا. لن أقول لك شيئًا عما فعلته بي. وأما أن تسيء فهم أبي - يا رجل! - فهذا كمن لا يستطيع رؤية جدار أمامه. كان لو ليفوف وحشًا، رجلًا. وأما هذا الشخص، فهو شيء ضعيف. إنه ساحر. إنه شخص توفيقي - لا، لا، إننا بعيدون

عن هذا مسافة سنين ضوئية. كان لدينا سيف. كان لدينا أب غاضب دائمًا... يضع القانون فينتهي الأمر. لا، لا يحمل أي شيء لديك أدنى تشابه مع... خذ مثالًا: أنت تعطي أخي عقلًا، ووعيًا. تقول إن هذا الرجل يردّ على خسائره بوعي. لكن أخي شخص لديه مشكلات إدراكية... هذا لا يشبه عقله أبدًا. هذا عقل لم يكن موجودًا لديه. يا إلهي... بل إنك تجعل له عشيقة أيضًا. لقد أسأت الفهم تمامًا يا زوكرمان. أخطأت تمامًا. كيف يمكن لرجل ناضج مثلك أن يخطئ إلى هذا الحد؟».

حسنًا... لم يكن جيري ليحصل على أية إجابة مني إن كانت ردة فعله هكذا. لقد ذهبت إلى نيوارك وبحثت عن مصنع نيورآك ميد المهجور فعثرت عليه في منطقة مقفرة في آخر سنترال آفنيو. ذهبت إلى ويكاهيك لأنظر إلى بيتهم الذي صار الآن متداعيًا، ولأنظر إلى جادة كير... شارع لم يبد لي فيه أن من المستحسن أن أخرج من السيارة وأسير على الرصيف إلى ذلك المرأب حيث كان السويدي يتدرّب على قذف الكرة خلال الشتاء. كان ثلاثة أطفال سود جالسين على درجات مدخل البيت ينظرون إليَ في سيارتي. قلت لهم موضحًا: «كان أحد أصدقائي يعيش في هذا البيت». وعندما لم أتلقَّ إجابة منهم أضفت: «كان ذلك في الأربعينات». ثم انطلقت بالسيارة مبتعدًا عنهم. قدت السيارة إلى موريستاون حتى ألقي نظرة على مدرسة ميري الثانوية، ثم تابعت السير غربًا إلى أولد ريمروك حيث وجدت البيت الكبير المبني من الحجر على طريق آركادي هيل حيث عاشت أسرة سيمور ليفوف السعيدة الشابة. وبعد ذلك، انحدرت إلى القرية فشربت فنجان قهوة في السوبرماركت الجديد (ماكفرسونز) الذي حلّ محل السوبرماركت القديم (هاميلينز) الذي فجّرت ابنة ليفوف المراهقة مكتب البريد فيه «حتى تأتي بالحرب إلى أميركا». ذهبت إلى إليزابيث حيث ولدت زوجة السويدي الجميلة، وحيث ترعرعت. ثم تجوّلت سائرًا في حيّها اللطيف في منطقة إلمورا السكنية. قدت السيارة فمررت بكنيسة أسرتها، سانت جينيفييف، ثم تابعت شرقًا حتى وصلت إلى حي والدها عند الميناء القديم على نهر إليزابيث حيث حل المهاجرون الكوبيون وأبناؤهم، في الستينات، محل

المهاجرين الإيرلنديين وأبنائهم. تمكّنت من الوصول إلى مكتب «مسابقة ملكة جمال نيوجرسي» حيث وجدت صورة لامعة لميري داون دواير، عشرين عامًا، لحظة تتويجها ملكة جمال نيوجرسي في شهر أيار 1949. وجدت صورة أخرى لها... في عدد من أسبوعية موريس كاونتي من سنة 1961... كانت واقفة وقفة أنيقة إلى جانب موقد بيتها مرتدية سترة رياضية وتنّورة وكنزة بياقة مرتفعة. كان مكتوبًا تحت الصورة «السيدة ليفوف، ملكة جمال نيوجرسي لسنة 1949، تعشق العيش في بيت عمره مئة وسبعون عامًا؛ محيطٌ تقول إنه يعكس قيم عائلتها». وفي مكتبة نيوارك العامة، استعرضت ما كان مسجّلًا على المايكروفيلم من صفحات الرياضة في صحيفة نيوارك نيوز (توقّفت عن الصدور في سنة 1972)، وبحثت عن قصص ونتائج المباريات التي تألّق فيها السويدي عندما كان يلعب مع فريق ثانوية ويكاهيك وفريق كلّية أوبسالا. ولأول مرة خلال خمسين عامًا، عدت فقرأت كتب جون ف. تونيز عن البيسبول، بل بدأت في لحظة ما أفكر في أن أضع لكتابي عن السويدي عنوان «فتى من جادة كير» على غرار الكتاب الذي ألفه تونيز للفتيان في سنة 1949 عن توم كينزفيل، كونيتيكت؛ توم الذي ما كان لديه عيب غير ميله إلى خفض كتفه اليمنى ورفع مضربه أكثر مما يجب... عيب كان، ويا للأسف، أزعج الآلهة إلى حد جعلها تقضي عليه.

على الرغم من هذه الجهود كلها، وحتى أكتشف المزيد مما أستطيع اكتشافه عن السويدي وعائلته، سأكون مستعدًّا للإقرار بأن السويدي الذي توصّلت إليه لم يكن السويدي الأول نفسه. بطبيعة الحال، كنت أقتفي الآثار التي وجدتها. وبطبيعة الحال، زالت من الصورة عناصر أساسية مما كانه السويدي بالنسبة إلى جيري لأنني حذفت منها أشياء ما كنت عارفًا بها، أو ما كنت راغبًا في التعرّض لها. وبطبيعة الحال، فقد تكثّف السويدي في صفحاتي على نحو مختلف عمّا كانه في حياته. فهل يعني هذا أنني تخيّلت مخلوقًا وهميًّا تمامًا، مفتقرًا افتقارًا كاملًا إلى الملموسية الفريدة للشخص الحقيقي؛ أم إن الأوهام التي اشتمل عليها تصوّري للسويدي كانت أكثر من الأوهام التي اشتمل عليها تصوّر جيري

(أشياء كان من المستبعد تمامًا أن يراها أوهامًا). أو لعل الحياة دبّت عندي في السويدي وأسرته بشكل أقل صدقًا مما كان عند أخيه... حسنًا... من عساه يدري؟ من عساه يستطيع معرفة هذا؟ عند محاولة إنارة شخصية ظليلة كشخصية السويدي؛ وعند محاولة فهم أولئك الأشخاص العاديين الذين يحبّهم الجميع، الذين يعيشون بيننا متنكّرين، فإن الأمر يكون متاحًا أكثر لمن يحرص على جعل تخميناته أكثر صرامة.

قالت لي المرأة التي جعلت جيري ينسحب سريعًا: «أنت لا تتذكّرني؟» كانت ابتسامتها دافئة. أمسكت يديَّ الاثنتين بيديها. بدا رأسها حسن التكوين تحت شعرها الذي قصّته قصيرًا... رأس متين كبير مثلث مثل الرؤوس الحجرية العتيقة لتماثيل ملوك الرومان. على الرغم من الأثلام العميقة في مسطّحات وجهها (كأنما حفرها إزميل)، فإن الجلد لم يبد من تحت مادة التجميل الوردية شديد التغضن إلا عند زاويتي فمها الذي فقد القسم الأكبر من أحمر الشفاه الذي كان عليه بعد قرابة ست ساعات من تبادل القبل مع الآخرين. ما عدا ذلك، كانت في وجهها طراوة تكاد تكون شابة... طراوة تشير إلى احتمال كونها لم تعش أنواع المعاناة كلّها التي تكون متاحة لامرأة في مثل سنّها.

«لا تنظر إلى اللوحة التي على صدري. من أنا؟».

أجبتها: «أخبريني».

«أنا جويس. جوي هيلبرن. كنت أرتدي كنزة أنغورا وردية. كنزة ابنة عمي في الأصل. إسبيل. كانت أكبر منا بثلاث سنين. لقد ماتت يا نيثان... صارت تحت الأرض. ابنة عمي إسبيل التي كانت تدخّن وتواعد شبابًا أكبر سنًّا. أيام المدرسة الثانوية، كانت تواعد شابًا يحلق ذقنه مرتين في اليوم. كان لدى أهلها محل للفساتين والمشدّات في شارع تشانسلر. محل كروزمان. كانت أمّي تعمل هناك. لقد اصطحبتَني في رحلة مدرسية. صدّق، أو لا تصدّق، أنني جوي هيلبرن».

جوي: فتاة صغيرة متألّقة لها شعر أحمر متموّج، ونمش، ووجه مدوّر... فتاة فيها امتلاء مثير لم يفت معلم اللغة الإسبانية البدين، ذا الأنف الأحمر، السيد روسكو، الذي كان يطلب من جوي عندما تأتي صباحًا مرتدية كنزتها الوردية

أن تقف عند مقعدها لتجيب عن أسئلته عن الدرس. كان السيد روسكو يدعوها «ذات الغمّازتين». مدهش كم كان يمكن للمرء أن يفلت بأشياء يفعلها تلك الأيام عندما كان يبدو لي أن ما من أحد يستطيع الإفلات بأي شيء!

نتيجة اقتران الكلمات الذي لم يكن أبدًا بعيدًا عن الحقيقة(16)، ظلّ اشتهاء جسد جوي يعذّبني (مثلما كان يعذّب السيد روسكو) زمنًا طويلًا بعد أن رأيتها آخر مرة مندفعة عبر جادة تشانسلر في طريقها إلى المدرسة مرتدية زوجًا غريبًا، لكنه مثير، من الكالوشات(17) كان واضحًا أنه صار صغيرًا على قدميّ أخيها الأكبر فانتقل إليها مثلما انتقلت إليها كنزة الأنغورا التي كانت لابنة عمها الجميلة. كلما تذكّرت بيتين شهيرين للشاعر جون كيتس، مهما يكن سبب تذكّري، أتذكّر أيضًا إحساسي التام بجسدها الممتلئ من تحتي في تلك الرحلة، وترقرقها الرائع الذي أحسّه رادار مراهقتي الدقيق حتى من خلال معطفي الثقيل. كانا بيتين من قصيدة «أنشودة في الكآبة»: «... قادر من يكون لديه لسان نشط عنيف / على الاستمتاع بسحق عنب البهجة داخل فمه». «أتذكّر تلك الرحلة يا جوي هيلبيرن. ليتك كنت أكثر لطفًا في تلك الرحلة!».

انفجرت ضاحكة وقالت: «صار شكلي الآن مثل سبنسر تريسي(18). لم أعد مذعورة الآن، لكن الوقت تأخّر كثيرًا. لقد كنت شديدة الخجل... لم أعد هكذا. أوه، يا نيثان... العمر...». عانق كل منا الآخر وهي تقول هذا... «العمر، العمر... ما أغرب هذا. لقد أردتَ يومها أن تضع يديك على ثديي العاريين».

«كنت أريد ذلك».

قالت: «نعم... كانا جديدين آنذاك».

«كنت في الرابعة عشرة، وكان عمرهما سنة واحدة تقريبًا».

«هنالك دائمًا فارق في العمر يبلغ ثلاثة عشر عامًا. في تلك الأيام، كنت أكبر منهما بثلاثة عشر عامًا؛ أما الآن فهما أكبر مني بنحو ثلاثة عشر عامًا. لكننا تبادلنا القبل بالطبع، أليس كذلك يا عزيزي؟».

«تبادلناها وتبادلناها وتبادلناها».

«كنت قد تمرّنت عليها. أمضيت فترة بعد الظهر كلها في التمرين على

التقبيل».
«من كنت تقبّلين؟».
«كنت أقبّل أصابعي. كان عليَّ أن أتركك تفكّ حمالة الثديين. فكّها الآن إذا كنت راغبًا في ذلك».
«أخشى أنني لم أعد أمتلك الجرأة الكافية لفك حمالة الثديين أمام الصفّ كلّه».
«يا لها من خسارة. عندما صرتُ مستعدة، صار نيثان كبيرًا عاقلًا».
تابعنا تبادل المزاح؛ وكان كل منا مطوّقًا الآخر بذراعيه. كنا نميل إلى الخلف، من الوسط فصاعدًا، حتى يرى كل منا ما حدث لوجه الآخر وشكله، ذلك الشكل الخارجي الذي ترك عليه أثره نصف قرن من العيش.
نعم، إنه السحر الطاغي الذي لا يزال كل منا يحسّه تجاه الآخر، حتى النهاية تمامًا... يحسّه بسطح الجسم كله. اتضح أن هذا الإحساس - هكذا ظننته عندما كنا في الرحلة - شيء جدّي إلى أقصى ما يكون في الحياة من جِد. إنه الجسد الذي لا يستطيع المرء انتزاع نفسه منه، مهما حاول، الجسد الذي لا يحرره منه إلا الموت. عندما كنت أنظر إلى آلان ميزنر في وقت سابق من الأمسية، كنت أنظر إلى أبيه؛ وعندما أنظر إلى جوي، فإنني أنظر إلى أمها الخياطة الممتلئة، التي أنزلت جواربها حتى ركبتيها في الغرفة الخلفية في محل كروزمانز للملابس في جادة تشانسلر... لكن ما كنت أفكّر فيه كان السويدي؛ السويدي والطغيان الذي كان جسده يمارسه عليه... السويدي القوي الجميل المتوحّد الذي لم تجعله الحياة شديد الفطنة أبدًا، الذي لم يرغب في أن يعبر الحياة فتى جميلًا، نجم القاعدة الأولى... السويدي الذي أراد أن يكون بدلًا من ذلك شخصًا جادًّا يأتي الناس أمامه، لا أن يكون طفلًا من الذين قد نُظّم عالم المسرة والرضا الواسع من أجلهم. كان يتمنى لو أنه لم يُخلق أعجوبة جسدية فحسب... كما لو أن تلك النعمة ليست كافية لشخص واحد. أراد السويدي أن يكون لديه ما يعتبره قضية عليا، فشاء حظه العاثر أن يعثر على قضية. ظلّت مسؤولية بطل المدرسة تلاحقه طيلة حياته. مقتضى النبالة! أنت هو البطل، وهذا يعني أن عليك أن تتصرّف بطريقة بعينها... هنالك «وصفة محددة» من أجل ذلك. عليك أن تكون

متواضعًا، وعليك أن تكون متسامحًا، وعليك أن تكون حريصًا، وعليك أن تكون متفهّمًا. هكذا بدأ الأمر كله نتيجة الحرب - هذه المناورة المثالية البطولية، وهذه الرغبة الروحية الغريبة الاستراتيجية في أن يكون حصنًا للالتزام الأخلاقي والإحساس بالواجب - ونتيجة ما أتت به الحرب من قلق وشكوك مخيفة، نتيجة شدة عاطفية المجتمع الذي ذهب أحبّته يقاتلون بعيدًا ويواجهون الموت، جُعل السويدي رشيقًا ذا عضلات، وجُعل فتى متقشّفًا تتمثّل موهبته في قدرته على التقاط أي شيء يقذف به إليه أي شخص بالقرب منه. بالنسبة إلى السويدي بدأ كل شيء نتيجة غرابة الظروف - فما الذي يبدأ بغير ذلك؟

ثم انتهت حياته بظرف غريب آخر: قنبلة!

لعلّه ألح كثيرًا عندما التقينا بمطعم فينسنت على مدى حسن نشأة أولاده الثلاثة، لأنه افترض معرفتي بأمر القنبلة وبأمر الابنة التي فجّرت مكتب البريد في ريمروك؛ ولعله افترض أنني أطلقت عليه حكمًا قاسيًا. من المؤكد أن أناسًا كثيرين فعلوا ذلك! أمر حسّاس إلى هذا الحد، ضمن إطار الثقة الذي اكتنف حياته، كيف يمكن لإنسان ألا يعرفه؛ أو كيف يمكن لأي لإنسان أن ينساه على الرغم من مرور سبعة وعشرين عامًا. لعل هذا يفسّر عدم قدرته على إيقاف نفسه، حتى إن أراد ذلك - عن الحديث من غير انقطاع عن الإنجازات الكثيرة، غير العنيفة، لكل من غريس وستيف وكنت؛ لعلّ هذا يفسر ما أراد الحديث عنه في المقام الأول. كانت ابنته هي «الصدمات» التي نزلت بمن يحبهم أبوه... كانت هي «الصدمات» التي نزلت بهم جميعًا. هذا ما استدعاني لكي يتحدّث عنه، وهذا ما أراد مساعدتي في الكتابة عنه. لكني لم أنتبه إليه... أنا الذي يظنّ نفسه غير ساذج أبدًا، كنت أكثر سذاجة - بقدر كبير - من الشخص الذي كان يحدّثني. كنت جالسًا هناك، في مطعم فينسنت، أتتبّع أكثر الأشياء ضحالة لدى السويدي عندما كان يحاول إخباري بهذه القصة، يحاول الكشف عن دخيلة حياته غير المعروفة، بل التي لا سبيل إلى معرفتها؛ كان يحاول إخباري بالقصة التي ما من شيء أكثر مأساوية وفظاعة واستحالة من تجاهلها، القصة التي كانت هي غايته النهائية من اللقاء. لكنّي لم أنتبه إليها... لم أنتبه أبدًا.

كان حديثه عن أبيه غطاء فقط. وأما الموضوع الحارق فكان الابنة. ما مقدار ما كان يدركه من هذا؟ كله. كان مدركًا كل شيء، لكنني أسأت فهم ذلك أيضًا. أنا من كان غير مدرك شيئًا. كان يعرف أنه يموت؛ وهذا الشيء المخيف الذي أصابه - الشيء الذي تمكّن، جزئيًا من دفنه على مر السنين، الذي تمكّن من التغلب عليه، نوعًا ما، بطريقة ما - عاد إليه أسوأ من أي وقت مضى. لقد نحّاه جانبًا بأحسن ما استطاع: زوجة جديدة، وأطفال جدد... الأولاد الرائعون الثلاثة. لقد بدا لي، بالتأكيد، أنه وضع ذلك كلّه جانبًا ليلة التقيته في سنة 1985 في ذلك الملعب مع ابنه كريس. لقد نهض السويدي بعد وقوعه على الأرض، وتمكن من فعل ذلك: زواج ثانٍ ومحاولة ثانية من أجل حياة غير منقسمة يحكمها الحس السليم وتحكمها الضوابط الكلاسيكية، فعاد التقليد يشكّل كل شيء من جديد، يشكّل كل شيء صغير وكبير، وينتصب حاجزًا في وجه الاحتمالات السيئة. كان ذلك محاولة ثانية لأن يلعب دور الأب والزوج المخلص التقليدي، مُقسِمًا من جديد على اتّباع الأنظمة والقواعد المعتادة التي هي لبّ نظام الأسرة. كانت لديه موهبة في هذا. وكان لديه كل ما يلزمه لتفادي أي شيء متفكّك، أي شيء خاص، أي شيء غير ملائم، أي شيء يصعب تقديره أو فهمه. لكن السويدي نفسه، السويدي المتمتّع بخصال الحياة العادية كلّها، لم يستطع إلقاء تلك الفتاة بعيدًا عنه مثلما قال له جيري - بكلامه اللاذع - أن يفعل. لم يستطع أن يمضي الطريق كلّه ويتخلّص تمامًا من ذلك الامتلاك المحموم، من ذلك الإصرار الأبوي، من ذلك الحب الوسواسي لابنته الضائعة... لم يستطع التخلّص من كل أثر لتلك الفتاة ولذلك الماضي، ولم يستطع التخلّص إلى الأبد من هستيريا «طفلتي». ليته تمكّن فقط من تركها تضمحل بعيدًا. لكن، حتى السويدي نفسه ما كان عظيمًا إلى هذا الحد.

لقد تلقّى أسوأ درس يمكن للحياة تقديمه... الدرس القائل إن الحياة لا معنى لها. وعندما حدث ذلك، ما عادت السعادة أمرًا تلقائيًا. صارت مصطنعة؛ وحتى عند ذلك، صارت تُشترى لقاء اغتراب عنيد عن ذات المرء وعن تاريخه. الرجل اللطيف الراقي صاحب الأسلوب المعتدل في التعامل مع النزاع والتناقض،

الرياضي السابق الواثق صاحب الحسّ السليم والقدرة الوافرة في أي صراع مع خصم منصف... صار في مواجهة خصم غير منصف (الشر الذي لا سبيل إلى استئصاله من العلاقات البشرية)، فانتهى. ذلك الذي كان نبله الطبيعي هو أن يكون تمامًا مثلما يبدو عليه، تلقى قدرًا من المعاناة كان كبيرًا إلى حد لم يعد يسمح له بأن يكون كلًّا متكاملًا من جديد. لن يعود السويدي أبدًا راضيًا على طريقة السويدي القديم الواثقة نفسها. لكنه تابع التظاهر بذلك من غير كلل من أجل زوجته الثانية وأولاده الثلاثة... من أجل وحدتهم المتكاملة الساذجة. كان يكتم ذعره بكل صبر. تعلم أن يعيش خلف قناع. تجربة في التحمّل استمرت عمرًا كاملًا. أداء تمثيلي فوق تلٍّ من الخراب. صار السويدي ليفوف يعيش حياة مزدوجة.

والآن، إنه يموت؛ ما عاد ما كان يسنده في حياته المزدوجة بقادر على إسناده بعد ذلك. ذلك الذعر الذي كان يرحمه فيغطس مختفيًا حتى نصفه أو يغطس مختفيًا حتى ثلثيه، أو يغطس مختفيًا حتى تسعة أعشاره، عاد إليه نقيًا على الرغم من خلقه البطولي لزواجه الثاني ولأبوة أبناء رائعين. عاد في شهور السرطان الأخيرة؛ وعادت أقسى مما كانت، تلك الطفلة الأولى التي كانت إلغاءً لكل شيء. في ليلة من الليالي، عندما يستطع النوم، عندما فشلت كل محاولة بذلها لضبط أفكاره الهاربة، استنفده عذابه كثيرًا فقال في نفسه: «هناك ذلك الشخص الذي كان في صف أخي. إنه كاتب. ربما، إذا أخبرته...». لكن، ماذا سيحدث إن هو أخبر الكاتب؟ إنه لا يعرف هذا... «سأكتب له رسالة. أعرف أنه يكتب عن الآباء، وعن الأبناء، وسوف أكتب له عن أبي... فهل يستطيع رد طلبي؟ لعله يستجيب لي». كان ذلك هو الأمل الذي تخيّل أنني قد أمَكّنه من التمسّك به. لكني أتيت لأنه السويدي فحسب. لم أر ضرورة لأي أمل آخر لأنه هو الأمل.

نعم، عادت القصة أسوأ مما كانت في أي وقت مضى. فقال في نفسه «لو استطعت أن أعهد بالأمر إلى شخص محترف...»؛ لكنه أتى بي إلى ذلك المكان ثم لم يستطع أن يبوح بشيء. ما إن صار مستحوذًا على انتباهي حتى صار غير راغب فيه. عدل عن الأمر كله. وقد كان محقًّا. ليس الأمر من شأني. فأي خير

كان يمكن أن يأتيه من ذلك؟ لا شيء على الإطلاق. تجد نفسك ذاهبًا إلى شخص ما، وتقول لنفسك «سوف أخبره بهذا». لكن، لماذا؟ الدافع هو أن الإخبار سوف يريحك. وهذا ما يجعل شعورك بعد ذلك فظيعًا. لقد أرحت نفسك؛ فإذا كان الأمر فظيعًا مأساويًا حقًّا، فإنك لا تصير في حال أفضل، بل أسوأ... لم تؤد الاستعراضية التي هي جزء من الاعتراف إلى جعل بؤسك أقل بؤسًا! لقد أدرك السويدي هذا. ما كان فيه شيء من البطل الذي في خيالي؛ وقد أدرك هذا ببساطة كافية. أدرك أن ما من شيء يمكن أن يتحقّق من خلالي. أنا واثق من أنه لم يكن راغبًا في البكاء أمامي مثلما بكى أمام أخيه. أنا لست أخوه؛ أنا لست بأحد... هذا ما رآه عندما رآني. وهذا ما جعله يتعمّد تلك الثرثرة عن أبنائه ثم يعود إلى البيت من غير أن يروي القصة، ثم يموت. لم أر هذا كلّه. لقد اتجه إليَّ دونًا عن بقية الناس جميعًا؛ وقد كان مدركًا كل شيء. وأما أنا فلم أدرك شيئًا.

والآن... سيكون كريس وستيف وكنت في بيتهم في أولد ريمروك. وقد تكون معهم والدة السويدي العجوز، وكذلك السيدة ليفوف. لا بد أن والدته صارت الآن في التسعين. امرأة في التسعين تقيم حدادها على ابنها الغالي سايمور. والابنة، مريديث، ميري. من المؤكّد أنها لم تحضر الجنازة، فلا يمكن أن تأتي في وجود ذلك العم الضخم الذي يكرهها كرهًا شديدًا، ذلك العم الذي يريد الانتقام منها، بل الذي يمكن أن يتولّى بنفسه تسليمها. لكن، بعد أن سافر جيري، فلعلها تجرؤ على ترك مكان اختبائها حتى تنضم إلى بقية الحزانى على سايمور، فتتوجّه إلى أولد ريمروك (قد تكون متنكّرة)، وتبكي هناك مع إخوتها غير الأشقاء وزوجة أبيها، ومع الجدة... تبكي موت أبيها حتى تجفّ دموعها. لكن، لا: إنها ميتة أيضًا. إن كان السويدي قد قال الحقيقة لجيري، فإن ابنته المختبئة قد ماتت. لعلّها قُتلت في مخبئها، أو لعلّها أنهت حياتها بنفسها. من الممكن أن يكون قد حدث أي شيء... وما كان من المفترض أن يحدث له «أي شيء».

قسوة دمار هذا الرجل الذي يستحيل تدميره! مهما يكن ما حدث للسويدي ليفوف، فمن المؤكد أنه ليس ما أصاب ذلك الفتى من تومكينزفيل. لا بد أننا أدركنا، حتّى عندما كنا أولادًا، أن الأمر لا يمكن أن يكون سهلًا عليه مثلما كان

يبدو لنا. كان ذلك الجزء من الأمر لغزًا غامضًا. لكن، من كان يمكنه تخيل أن حياته ستنفرط بهذه الطريقة المخيفة؟ شظية متوهّجة من مذنّب الفوضى الأميركية انفلتت من مسارها ودارت حتى بلغت أولد ريمروك... حتى بلغته. حسنُ مظهره، وإقباله على الحياة، ومجده، وإحساسنا - من خلال دوره البطولي - بأنه مستثنى من أي شك في النفس... كون تلك الخصال الرجولية كلها قد ساقت إلى جريمة قتل سياسية جعلني أفكّر لا في قصة التضحية التي كتبها جون تونيز عن فتى تومكينزفيل، بل في قصة الرئيس كيندي، جون فيتزجيرالد كيندي، الذي كان أكبر من السويدي بعشر سنوات فقط. وكان صاحب حظٍّ متميز، كان رجلًا لامعًا ناضحًا بالمعنى الأميركي، لكنه اغتيل وهو لا يزال في أواسط الأربعينات من عمره. اغتيل بعد خمس سنوات فقط من احتجاج ابنة السويدي العنيف على حرب الرئيسين كيندي وجونسون وإقدامها على نسف حياة أبيها. هكذا فكرتُ... فقد كان السويدي هو «كيندي» الخاص بنا.

في تلك الأثناء، كانت جوي تخبرني بأشياء عن حياتها، أشياء لم أكن أعرفها أبدًا عندما كنت فتى لا يشغل ذهنه إلا البحث في الحي عن «حبة عنب أهرسها بلساني»... كانت جوي تواصل قذف مزيد من تلك الأشياء التي لم يكن أحد يعرفها آنذاك... كانت تقذفها في قدر الذاكرة المستثارة الذي اسمه «اجتماع زملاء المدرسة»؛ أشياء لم يكن على أحد أن يعرفها في ذلك الوقت عندما كانت قصصنا عن أنفسنا لا تزال شديدة السذاجة. كانت جوي تخبرني المزيد عن أبيها الذي مات بنوبة قلبية عندما كانت في التاسعة من عمرها، وكانت أسرتها تعيش في بروكلين؛ وكذلك عن انتقالها مع أمها وشقيقها الأكبر هارولد من بروكلين واللجوء إلى محل كروزمان للفساتين في نيوارك. كانت تحدّثني كيف صارت تنام مع أمها في سرير مزدوج في غرفة وحيدة كبيرة في علّيّة فوق المحلّ، في حين ينام هارولد في المطبخ على أريكة يجهّزها للنوم كل ليلة ثم يرفع عنها الوسادة والأغطية كل صباح حتى يتمكّنوا من تناول طعام الإفطار هناك قبل الذهاب إلى المدرسة.

سألتني إن كنت أتذكّر هارولد الذي هو الآن صيدلي متقاعد في بلدة سكوتش

بلينز. وأخبرتني كيف - قبل أسبوع فقط - ذهبتْ إلى المقبرة في بروكلين لكي تزور قبر أبيها. قالت لي إنها كانت تسافر إلى بروكلين مرة كل شهر، وأنها فوجئت كم صار ذلك القبر الآن يعني الكثير لها. سألتها: «ماذا تفعلين في المقبرة؟». فأجابتني جوي: «أكلّمه من غير خجل. عندما كنت في العاشرة من عمري، لم يكن الأمر صعبًا مثلما هو الآن. كنت أرى في ذلك الوقت أن من الغريب أن يكون للناس والدان اثنان. بدا لي وجودنا نحن الثلاثة فقط أمرًا صائبًا». كنا واقفين نتمايل معًا على أنغام أغنية الختام التي قدّمتها فرقة الرجل الواحد 'احلم عندما تشعر بالحزن، احلم... احلم... هذا ما عليك فعله' فقلت لها: «لم أكن أعرف هذا كله. لم أكن أعرف ذلك عندما كنا تحت ضوء القمر في تلك الرحلة في تشرين الأول عام 1948».

قالت: «لم أكن أريدك أن تعرف ذلك. لم أكن أريد أن يعرفه أحد. لم أكن أريد أن يكتشف أحد أن هارولد ينام في المطبخ. هذا هو السبب الذي جعلني لا أتركك تعرّي ثديّ. لم أكن أريد أن تصير حبيبي وأن تأتي لاصطحابي من البيت فترى أين كان على أخي أن ينام. لم يكن للأمر أية علاقة بك يا عزيزي».

«حسنًا، يريحني الآن أن تقولي لي هذا. أتمنّى لو أنك لو قلته في وقت أبكر».

قالت: «ليتني أخبرتك». كنا نضحك أول الأمر، وفجأة، بدأت جوي تبكي. لعلها بكت بسبب تلك الأغنية اللعينة 'احلم' التي كنا نرقص عليها بعد إطفاء الأنوار في قبو بيت هذا الشخص أو ذاك أيام كان جو ستافورد لا يزال عضوًا في فرقة «بييد بيبرز» التي كانت تغنّي تلك الأغنية مثلما يجب أن تغنّى: بانسجام تام، على إيقاعات الأربعينات المذهلة، مع رنين الكسيليفون الأثيري المنبعث فارغًا من خلفهم... أو لعلها بكت لأن آلان ميزنر صار جمهوريًا، ولأن لاعب القاعدة الثانية بيرت بيردمان صار جثة، ولأن إيرا كوزنر أفلت من أسرته الدستويفسكية، فصار طبيبًا نفسيًا، بدلًا من أن يصير ماسح أحذية عند كشك الجرائد أمام محكمة مقاطعة إيسكس، ولأن جوليوس بينكوس صار عاجزًا بفعل الارتعاش الناتج عن الأدوية التي يتناولها لمنع جسمه من رفض كِلية مأخوذة من فتاة في الرابعة عشرة تبقيه على قيد الحياة، ولأن ميندي غورليك لا يزال

فتى جعجاعًا في السابعة عشرة، ولأن شقيقها هارولد ظل ينام على أريكة المطبخ عشر سنين، ولأن سكريمر تزوّج امرأة في نصف سنّه تقريبًا لها جسد لا يجعله راغبًا في حَزّ عنقه على الرغم من اضطراره الآن إلى أن يشرح لها كل شيء عن الماضي، أو ربما لأنني كنت الشخص الوحيد الذي انتهى به الأمر من غير أطفال، أو من غير أحفاد، أو «أي شيء من ذلك القبيل»، بحسب كلمات مينسكوف، أو ربما لأن هذا اللقاء بين أشخاص صاروا غرباء تمامًا بعد تلك السنين كلها قد طال أكثر مما ينبغي له أن يطول. طوفان من مشاعر عاصفة بدأ ينداح في داخلي، أنا أيضًا، فوقفت هناك مفكّرًا في السويدي من جديد، وفي المعنى السيئ لأن تكون ابنته الخارجة على القانون قد اعتدت عليه وعلى أسرته خلال حرب فيتنام. رجل لم تكن لديه أسباب يعرفها للسخط، لكنه يصحو في منتصف العمر على رعب تأملاته الذاتية. تلك العاديّةُ كلّها تقطعها جريمة قتل. وكل المشكلات الصغيرة التي تتوقع كل أسرة مواجهتها تضخّمت بفعل شيء لا سبيل أبدًا إلى التصالح معه. انقطاع المستقبل الأميركي المرتقب الذي كان منتَظرًا أن يأتي، ببساطة، من الماضي الأميركي الصلب، من كون كل جيل أكثر ذكاء وبراعة من سابقه... أكثر ذكاء وبراعة في معرفة حدود سابقه ونواقصه... مستقبل كان منتظرًا أن يأتي من انفكاك كلّ جيل جديد عن قدر جديد من ضيق الأفق، أن يأتي من الرغبة في أن تصل بحقوقك إلى حدّها الأقصى في أميركا، وفي أن تصوغ نفسك على هيئة شيء مثالي، متخلّصًا من العادات والمواقف اليهودية السابقة، شخص يحرّر نفسه من إحساسه قبل الأميركي بقلّة الأمان، وبالهواجس التي تحدّ منه حتى يعيش على قدم المساواة مع متساوين لا يجد أيٌّ منهم حاجةً إلى تبرير نفسه.

ثم تأتي خسارة الابنة، الجيل الأميركي الرابع، الابنة الهاربة التي كان منتظرًا أن تصير نسخة مطوّرة عنه، مثلما كان هو نسخة مطوّرة عن أبيه، ومثلما كان أبوه نسخة مطورة عن أبي أبيه... الابنة الحانقة، العدوانية غير المهتمّة أبدًا بأن تكون الفرد الناجح التالي من آل ليفوف... أخرجته من مخبئه عنوة كما لو أنه سجين هارب فجعلته يعيش نازحًا في أميركا مختلفة تمام الاختلاف. الابنة التي

هشّمت صيغته الفريدة من التفكير الطوباوي، ووباء أميركا الذي تسرّب إلى قلعة السويدي وأصاب كل من فيها بالعدوى. الابنة التي نقلته خارج الحكاية الأميركية التي كان تواقًا إليها، وإلى كل ما هو نقيض لها، إلى كل ما هو عدو لها، إلى الغضب والعنف، وإلى اليأس الكامن في معاداة تلك الحكاية... إلى حالة الهياج الأميركي القديمة.

تلك الحالة التكاملية القديمة من الأخذ والإعطاء التي كان البلد عليها، عندما كان كل شخص يعرف دوره ويتعامل مع القواعد بجدّية تامة، وذلك التثاقف في الاتجاهين الذي نشأنا كلنا عليه هنا، والنضال الطقسي من أجل النجاح لدى كل من كان مهاجرًا، يتحوّل كله إلى حالة مريضة في قلعة السويدي المتفوّق.

الرجل الذي رتّب لكل شيء، مثلما تُرتب مجموعة من أوراق اللعب، حتى يسير في وجهة مختلفة تمام الاختلاف. ما كان مستعدًا أبدًا لما سوف يأتي فيصيبه.

وكيف له، مع كل صلاحِه الموزون وزنًا دقيقًا، أن يعرف أن مخاطر العيش الطائع كانت كبيرة إلى هذا الحد؟ من المفهوم أن الطاعة تقلل المخاطر عادة.

زوجة جميلة. بيت جميل. رجل يدير أعماله كأنما بفعل سحر. رجل يعامل أباه العجوز معاملة طيبة. لقد كان يعيش هذا حقًا، يعيش نسخته من الفردوس. هكذا يعيش الناس الناجحون. إنهم مواطنون صالحون. يشعرون بأنهم محظوظون. يشعرون بالامتنان. يبتسم الرب نفسه لهم. تواجههم مشكلات، فيتأقلمون. ثم يتغيّر كل شيء ويصير مستحيلًا. لا شيء يبتسم لأحد. فمن عساه يستطيع التأقلم عند ذلك؟ ثمة من لا تسمح له تركيبته بمواجهة تصاريف الحياة السيّئة، فكيف إذا كانت تصاريف مستحيلة! ومن عساه يكون مستعدًا للمستحيل الذي هو موشك على الحدوث؟ من عساه يكون مستعدًّا للمأساة، مستعدًّا للامعقولية المعاناة؟ لا أحد! مأساة الإنسان غير المستعدّ للمأساة... مأساة كل إنسان.

لقد ظلّ يسترق النظر إلى حياته من خارجها. وكان صراع حياته أن يدفن هذا الشيء ويتخلّص منه. فكيف له أن يدفنه؟ لم تسنح له أبدًا في حياته كلّها فرصة لسؤال نفسه: «لماذا تكون الأمور مثلما هي كائنة؟». فلماذا يهتم بطرح هذا السؤال عندما تكون الأمور ممتازة دائمًا؟ لماذا تكون الأمور مثلما هي كائنة؟

إنه السؤال الذي لا إجابة عليه. وقد كان في نعمة حتى ذلك الوقت لأنه لم يكن يعرف حتى بوجود هذا السؤال.

بعد ذلك الجهد الفوّار كلّه لبراءة لقاء صفّنا المنعش بعد نصف قرن (عندما أقدم مئة شخص مسن إقدامًا متهوّرًا على إعادة عقارب الساعة إلى زمن لم يكن أحد فيه ليهتم بمرور الزمن)، ومع وصول بهجة تلك الأمسية إلى نهايتها، بدأت أفكّر في الشيء الذي لا بد أنه كان يربك السويدي حتى لحظة موته: كيف صار ألعوبة للتاريخ؟ التاريخ، تاريخ أميركا، الأشياء التي تقرأ عنها في الكتب وتدرسها في المدرسة... التاريخ الذي شق طريقه إلى أولد ريمروك الوادعة في نيوجرسي، إلى ذلك المكان الذي لا يقصده أحد، إلى منطقة ريفية لم يكن أحد منتبهًا إليها منذ أن أمضى جيش واشنطن الشتاء مرتين في تلك التلال المحاذية لموريستاون. التاريخ الذي لم يكن له أي أثر عنيف على حياة السكّان المحليين اليومية منذ الحرب الثورية، لكنه عاد فوجد طريقه إلى تلك التلال الهادئة وانقضّ من غير انتظار، انقضّ بكل ما يمكن أن يكون مرتقبًا من عدم القدرة على توقعه، انقضّ على أسرة سايمور ليفوف حسنة الترتيب وجعل المكان كلّه حطامًا. ينظر الناس إلى التاريخ باعتباره شيئًا على المدى البعيد؛ لكن التاريخ - في واقع الأمر - شيء مفاجئ جدًا.

(16) المقصود باقتران الكلمات هو أن اسم الفتاة (Joy) يعني الفرح أو البهجة، أو الشيء الذي يكون مصدر فرح أو بهجة.

(17) كالوش Galoshes: حذاء مطاطي إضافي ينتعل فوق الحذاء العادي للوقاية من البلل.

(18) سبنسر تريسي Spencer Tracy: ممثل أميركي أكبر سنًا منهما بأكثر من ثلاثين عامًا.

الجزء الثاني

السقوط

- 4 -

بعد أربعة أشهر من اختفاء ميري، أتت إلى السويدي فتاة ضئيلة الجسم، شديدة البياض، زعمت أنها في السادسة والعشرين من عمرها، لكنها بدت في نصف سن ميري. كان اسمها الآنسة ريتا كوهن. كانت ملابسها أشبه بملابس رالف آبرميثي، خليفة مارتن لوثر كينغ، فقد ارتدت أوفرولًا فضفاضًا وانتعلت حذاء كبيرًا بشعًا. كان شعرها أشبه بأجمة من أسلاك تؤطّر وجهها الطفولي الباهت. كان عليه أن يدرك هويتها على الفور لأنه انتظر قدوم شخص من هذا النوع طيلة الشهور الأربعة. لكنها كانت ضئيلة جدًا، صغيرة جدًا، ذات مظهر بعيد كل البعد عن إحداث أي أثر، فكان شبه عاجز عن تصديق أنها طالبة في مدرسة وارتون للمال والأعمال في جامعة بنسيلفانيا (تقوم بإعداد أطروحة عن صناعة الجلود في نيوارك، نيوجرسي)؛ وشبه عاجز أيضًا عن تصديق أنها الشخص المحرّض الذي كان مشرفًا على ميري ضمن مشروع الثورة العالمية.

يوم أتت ريتا كوهن إلى المصنع، لم يكن السويدي عارفًا أنها أتت في وقت سابق، فدخلت وخرجت عبر بوابة القبو الكائنة تحت رصيف التحميل، وذلك حتى تتفادى فريق المراقبة الذي كلّفه مكتب التحقيقات الفيدرالي بالمرابطة في سنترال آفنيو ومراقبة حركة الدخول والخروج لكل من يزور مكتبه.

كان يحدث ثلاث مرات في السنة، أو أربع مرات، أن يتّصل معه أحدهم - أو يكتب له - طالبًا إذنًا لرؤية المصنع. في الأيام الخوالي، كان لو ليفوف (على الرغم من انشغاله الدائم) يجد متّسعًا من الوقت من أجل زيارات تلاميذ مدرسة نيوارك، أو فرق الكشافة، أو بعض الشخصيات البارزة التي يرافقها أشخاص من غرفة التجارة، أو من سلطات المدينة. وعلى الرغم من أن سرور السويدي بكونه واحدًا من أقطاب صناعة القفازات لم يكن بقدر سرور أبيه، وعلى الرغم من أنه ما كان قادرًا على أن يزعم لنفسه مكانة أبيه في أي أمر متصل بصناعة الجلود (أو في أي أمر آخر)، فقد كان يساعد الطلبة أحيانًا فيجيب عن أسئلتهم على الهاتف، أو يعرض عليهم مرافقتهم في جولة في المصنع إذا بدا له الطالب جادًّا في اهتمامه.

وبطبيعة الحال، ما كان يمكن أبدًا أن يرتّب حدوث هذا اللقاء في المصنع لو أنه

عرف مسبقًا بأن تلك الطالبة لم تكن طالبة في حقيقة الأمر، بل مبعوثة من ابنته الهاربة. وأما السبب الذي جعل ريتا تمتنع عن الإشارة إلى من أرسلها، وعن قول أي شيء عن ميري حتى انتهت الجولة، فلم تكن رغبتها في التعرف عليه أولًا... أو لعل من الأصح القول إن سبب امتناعها عن التطرّق إلى أي شيء خلال تلك الفترة كلّها لم يكن إلا بغرض الاستمتاع بالتلاعب به. لعلّها كانت مستمتعة بتلك السلطة. لعلّها كانت شخصًا سياسيًا آخر يكمن استمتاعه بالسلطة خلف القسم الأكبر مما يفعله.

كان كل من السويدي والنساء العاملات على الآلات قادرين على رؤية الآخر عبر القواطع الزجاجية التي تفصل مكتبه عن قسم الإنتاج. لقد رتب الأمر على هذا النحو حتى يتخلّص من ضجيج الآلات مع بقائه على تواصل مع العاملين في المصنع. كان أبوه قد رفض حبس نفسه في أي نوع من المكاتب، سواء أكانت محاطة بالزجاج أم غير ذلك. زرع مكتبه في وسط صالة الإنتاج بين مئتي آلة خياطة... أليس هو مالك خليّة النحل المزدحمة هذه، الجالس في قلبها بين أزيز المقصّات وهدير الآلات، متحدثًا على الهاتف مع عملائه ومقاوليه، عاملًا على دفاتره وأوراقه في الوقت نفسه؟ كان يزعم أنه غير قادر، إلا إذا كان جالسًا في الصالة، على تمييز الصوت المختلف الذي تطلقه آلة الخياطة «سنجر» عند أي خلل يصيبها، فيكون عند تلك الآلة من فوره حاملًا مفكّه قبل أن تتمكّن الفتاة العاملة عليها من إخبار مشرفتها بوجود مشكلة في آلتها. هذا ما شهدت عليه رئيسة العاملات المسنّة السوداء فيكي (بطريقتها الساخرة الخاصة في إبداء إعجابها) في حفل تقاعده. حين يعمل الجميع من غير أية مشكلات، فقد كان لو ليفوف يظل قلقًا نافد الصبر - كما قالت فيكي - ويظلّ مديرًا يصعب احتماله... وأما عندما تأتيه واحدة من عاملات القصّ مشتكية من رئيسة العمال؛ وعندما تأتيه رئيسة العمال مشتكية من واحدة من عاملات القص؛ وعندما تصل الجلود متأخّرة عدة شهور، أو معطوبة أو متدنّية الجودة؛ وعندما يكتشف أن مقاول توريد البطانة يغشّه، أو أن موظف الشحن يسرقه؛ أو عندما يقرّر أن عامل تفصيل القفازات، الذي يضع نظارة شمسية ويقود سيارة كورفيت حمراء،

ليس إلا مقامرًا يدير ألعاب مراهنة بين العاملات، فإنه يستشيط غضبًا ويهبّ نشيطًا إلى إعادة الأمور إلى نصابها... وهكذا راح المتحدّث قبل الأخير، الابن المعتزّ بأبيه، يقدّم ذلك الأب بعبارات مازحة لقيت أكبر الترحيب في تلك الأمسية... «كان قادرًا على أن يدفع بنفسه - ويدفعنا كلنا معه - إلى حافة الجنون من خلال قلقه الدائم. غير أن انزعاجه لم يكن ليدوم طويلًا، على الرغم من ترقّبه الدائم لوقوع الأسوأ. ولم يكن أي شيء قادرًا على مغافلته. يبيّن لنا هذا، مثلما يبيّن لنا كل شيء في شركة نيوارك ميد، أن القلق يؤدي الغاية منه. سيداتي وسادتي، الرجل الذي كان معلّمي طيلة حياتي - لم يعلّمني فن القلق وحده - الرجل الذي جعل حياتي كلّها تعلّمًا مفيدًا دائمًا وإن يكن صعبًا بعض الأحيان، الذي شرح لي منذ أن كنت صبيًا في الخامسة سر الوصول بالمنتج إلى الكمال... 'اعملْ عليه'... سيداتي وسادتي، الرجل الذي عمل على منتجاته ونجح فيها منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه ليبدأ دباغة الجلود عندما كان عمره أربعة عشر عامًا، سيد صانعي القفازات الذي يعرف عن هذه الصناعة أكثر مما يعرفه أي شخص آخر على وجه الأرض، السيد نيوارك ميد، أبي، لو ليفوف».
قاطعه السيد نيوارك ميد: «انظر؛ لا تدع أحدًا يخدعك في هذه الليلة. إنني أجد في العمل متعة. وأجد متعة في صناعة القفازات. أستمتع بالتحدّي، ولا تعجبني فكرة التقاعد. أظنّها أول خطوة في اتجاه القبر. لكن شيئًا من هذا كله لا يقلقني... لسبب كبير واحد: لأنني أوفر الناس حظًا في هذا العالم. إنني محظوظ بسبب كلمة واحدة هي أكبر الكلمات في العالم، وأبسطها. العائلة. لو أن أحد المنافسين أخرجني من السوق، فلن تجدني واقفًا مبتسمًا هنا - أنت تعرفني - سأقف هنا وأصرخ. لكن من يخرجني من العمل ليس إلا ابني الحبيب. لقد حظيت بنعمة أن تكون لي أروع عائلة يمكن أن يرغب فيها إنسان. زوجة رائعة، ولدان رائعان. أحفاد رائعون».
طلب السويدي من فيكي إحضار جلد خروف إلى المكتب، ثم جعل تلك الفتاة من مدرسة وارتون تتحسّسه.
قال لها: «هذا جلد معالج بطريقة التخليل، لا بالدباغة. إنه جلد خروف ذي وبر.

ليس له صوف مثل الخراف المستأنسة، بل وبر».
سألته: «ماذا يحدث لذلك الوبر؟ هل يستخدم؟».
«سؤال جيّد. يستخدم الوبر لصناعة السجاد. يصنعون منه سجادًا في أمستردام وفي نيويورك. بيغيلو. موهاوك(23). لكن القيمة الأكبر هي قيمة الجلد. ليس الوبر إلا منتجًا ثانويًا. كما أن كيفية نزع الوبر عن الجلد، وكل ما يلي ذلك، قصة مختلفة تمامًا. قبل ظهور الخيوط التركيبية، كان أكثر السجاد المصنوع من هذا الوبر رخيصًا. هناك شركة تعاقدت على شراء الوبر كلّه من المدابغ من أجل صانعي السجاد، لكنك لست في حاجة إلى هذه المعلومات...». قال هذا عندما لاحظ أن الملاحظات التي دوّنتها قد ملأت الصفحة الأولى حتى قبل أن يبدأ حديثهما بداية حقيقية. قال لها وقد تأثّر بدقتها - التي جذبته أيضًا -: «وأما إذا كنت مهتمة بالأمر - فأنا أرى هذه الأشياء مترابطة كلها معًا، يمكنني أن أرسلك لكي تتحدّثي مع أولئك الناس. أظن أن تلك العائلة لا تزال في المنطقة. إنه ميدان لا يعرفه أكثر الناس. شيء مثير للاهتمام. شيء مثير للاهتمام حقًّا. لقد وقع اختيارك على موضوع جذّاب حقًّا، يا آنستي».
منحته ابتسامة دافئة وقالت: «هذا ما أظنه بالفعل».
«على أية حال، فإن هذا الجلد...». كان قد استعاد الجلد منها وراح يمسد على حافته بإبهامه كما يداعب المرء قطة حتى يجعلها تهرّ... «يدعى كابريتا بحسب مصطلحات هذه الصناعة. خرفان صغيرة الحجم، صغيرة العمر. لا تعيش إلا بالقرب من خط الاستواء. ثلاثون درجة شمالًا، وثلاثون درجة جنوبًا». خرفان برّية نوعًا ما لأنها ترعى بمفردها - تملك الأسرة الواحدة في تلك القرى أربعة أو خمسة خرفان فحسب، وهم يتركونها ترعى معًا في الغابة -. لكن الجلد الذي كان بين يديك ليس هو الجلد في حالته الأصلية. إننا نشتريها في مرحلة يسمّونها مرحلة التخليل. يكونون قد أزالوا الوبر عنها وعالجوها من أجل حفظها قبل إحضارها إلينا. كنا في ما مضى نجلبها خامًا - بالات ضخمة مربوطة بالحبال فيها جلود جرى تجفيفها في الهواء فحسب. إن لدي قائمة شحن في واقع الأمر. إنها في مكان ما هنا، ويمكنني العثور عليها إذا كنت راغبة في الاطلاع عليها -

نسخة من قائمة شحن من سنة 1970. جرى إفراغ تلك الجلود في بوسطن مثلما كنا نأتي بها حتى العام الماضي. لقد ظلّت تأتينا من تلك الموانئ في أفريقيا».

كان كلامه معها مثل كلام أبيه تمامًا. وكان مدركًا أن كل كلمة من كل جملة نطقها لسانه كانت من كلمات أبيه التي سمعها قبل أن ينهي المدرسة الابتدائية؛ ثم سمعها ألفي مرة، أو ثلاثة آلاف مرة، خلال عشرات السنين التي أدارا فيها العمل معًا. كان الكلام في المهنة تقليدًا لدى العائلات العاملة في قطاع القفازات توارثته منذ مئات السنين. وفي أكثر تلك العائلات كان الأب ينقل أسرار المهنة إلى ابنه، ومعها تاريخ الصنعة وتقاليدها. يصح الأمر نفسه على المدابغ حيث تكون عملية الدباغة أشبه بالطهو فتتناقل الأجيال وصفاتها، من الآباء إلى الأبناء. هكذا هي الحال في مصانع القفازات، وهكذا هي الحال في صالات تفصيل الجلد وقصه. كان معلمو قص الجلد الإيطاليون القدامى يدرّبون أبناءهم ويعلّمونهم الصنعة، فيتلقّى الأبناء ذلك التعليم من آبائهم مثلما تلقاه آباؤهم من آبائهم. منذ أن كان السويدي طفلًا في الخامسة حتى بلغ سن الرشد، كان الأب مرجعية لا تنازَع: كان قبول مرجعيته هو نفسه اكتساب حكمته وخبرته التي جعلت شركة نيوارك ميد تنتج أفضل القفازات النسائية في البلاد. سرعان ما وقع السويدي في حب تلك الأشياء نفسها التي أحبها أبوه، وكذلك في حب المصنع. وصار كلامه مثل كلام أبيه كلّما تطرّق الحديث إلى نيوارك أو إلى الجلود أو إلى القفازات.

لم يشعر بهذه الرغبة المتدفّقة في الكلام منذ أن اختفت ميري. وحتى ذلك الصباح، ما كان يريد شيئًا غير أن يبكي، أو أن يختبئ. لكنه كان مضطرًا إلى الاهتمام بزوجته وبعمله، وإلى أن يعرّج على أبيه وأمه، لأن حالة عدم التصديق كانت قد أصابت الجميع بالشلل وهزّتهم هزًا. لم يحدث أبدًا من قبل أن تآكل الغلاف الواقي الذي وفره لعائلته وجعل العالم يراه. لكن الكلمات صارت الآن تتدفّق منه تدفّقًا وتجعله يعوم فوقها... كلمات أبيه التي انطلقت من فمه أمام هذه الفتاة الضئيلة المجتهدة التي تتلقّفها تلقّفًا. قال في نفسه إنها صغيرة الحجم حتى لا تكاد تبلغ حجم الأطفال الذين كانوا مع ميري في الصف الثاني، أولئك الذين

ارتحلوا مسافة ثمانية وثلاثين ميلًا قادمين من مدرستهم الريفية ذات يوم في أواخر الخمسينات حتى يريهم والد ميري كيف يصنع القفازات، وحتى يريهم خاصّة موقع ميري السحري على طاولة التوضيب حيث تبلغ عملية صناعة القفاز منتهاها، فيسوّي العمال كل قفاز قبل كيه بعناية بتمريره على أذرع نحاسية مطلية بالكْروم مسخنة بالبخار. كانت تلك الأذرع حارة إلى درجة خطيرة، وكانت ناتئة من الطاولة إلى الأعلى على هيئة صف لامع من أكف رقيقة كأنها أكف جفّفت حتى تسطحت، ثم بترت... أكف مبتورة على نحو جميل تعوم في فضاء أشبه بأرواح الموتى. عندما كانت ميري فتاة صغيرة، كانت مسحورة بهذا اللغز الذي دعته «فطيرة الأيدي». كانت ميري الصغيرة تقول لزملائها في الصف: «عليكم أن تجنوا خمسة دولارات من الدزينة الواحدة». هذا ما كانت تسمع عمال القفازات يقولونه دائمًا منذ ولادتها... ينبغي أن يكون هدفك الحصول على خمسة دولارات للدزينة الواحدة، مهما كلف الأمر. ميري الصغيرة تهمس لمعلمتها: «إن الغش الذي يمارسه الناس في ما يتعلّق بسعر الدزينة مشكلة على الدوام. كان أبي مضطرًا إلى طرد أحد العمال. لقد كان يسرق الوقت». السويدي يقول لها: «حبيبتي، اتركي بابا يقود الجولة. هل اتفقنا؟». ميري الصغيرة تعجب للفكرة الساحرة، فكرة سرقة الوقت. ميري تجري من طابق لآخر معتزة شديدة الإحساس بأنها صاحبة المصنع، متباهية بأنها تعرف عمّاله جميعًا، غير مدركةٍ بعد ذلك التدنيس للكرامة الملازم للاستغلال العنيف للعمال من قبل صاحب المصنع الجشع، المستغلّ، الجائع إلى تحقيق الربح، ذلك الذي يملك وسائل الإنتاج من غير حق.

لا عجب في أن يجد نفسه منطلقًا هكذا، راغبًا في الكلام من غير توقّف. لوهلة وجيزة، عاد الوضع كما كان. ما من قنبلة انفجرت، وما من شيء قد أصابه الخراب. لقد اجتازت تلك العائلة رحلة المهاجرين كلّها، اجتازت مسار المهاجرين الصاعد من غير انقطاع، الصاعد من الجد الكبير الذي كان أشبه بالأقنان، إلى الجد صاحب الإرادة القوية، إلى الأب المستقل البارع الواثق من نفسه، إلى أعلى وآخر طبقة من تلك الطبقات كلّها، إلى طفلة الجيل الرابع التي

كان ينبغي أن تكون أميركا جنّة لها. لا عجب في أنه لم يعد يعرف كيف يسكت. كان السكوت مستحيلًا. وكان السويدي مستسلمًا أمام الأمنية البشرية العادية، أمنية أن يعيش الماضي مرة أخرى، أن يمضي بضع لحظات مسالمة خدّاعة بين آمال الماضي الكبيرة عندما عاشت العائلة حقيقة لا علاقة لها أبدًا بالتحريض على الدمار، بل بتفادي الدمار والفرار منه، فتغلّبت على آلامها الغامضة بأن خلقت لنفسها يوتوبيا وجود عقلاني.

سمعها تسأله: «كم يبلغ عدد الجلود في الشحنة الواحدة؟».

«كم يبلغ عدد الجلود؟ عدة آلاف دزينة من الجلود».

«وكم عدد الجلود في البالة الواحدة؟».

أعجبه اكتشاف أنها مهتمة باكتشاف أدق التفاصيل. نعم... جعله الكلام مع هذه الطالبة المهتمّة من مدرسة وارتون قادرًا - على نحو مفاجئ - على أن يحب شيئًا بعد أن صار عاجزًا عن حب أي شيء، بل عاجزٌ عن احتمال أي شيء، وحتى عن فهم أي شيء واجهه طيلة شهور أربعة ميتة. لقد صار يحسّ الفناء في كل شيء. أجابها: «إن فيها مئة وعشرين جلدًا».

سألته وهي تواصل تدوين ملاحظاتها: «وهل تأتي الجلود مباشرة إلى قسم الشحن عندكم؟».

«بل تأتي إلى المدبغة أولًا. إن المدبغة متعاقدة معنا. نشتري المواد، ثم نرسلها إلى المدبغة. نحدّد لهم نوع المعالجة المطلوبة، فيحولونها إلى جلد جاهز لأن نستخدمه. لقد عمل جدي وأبي في المدبغة التي في نيوارك. وكذلك عملت بنفسي هناك مدة ستة أشهر عندما بدأت العمل في هذا المجال. هل ذهبت إلى مدبغة من قبل؟».

«ليس بعد».

«حسنًا، إذا كنت ستكتبين عن صناعة الجلود، فإن عليك أن تذهبي إلى مدبغة. سوف أرتّب ذلك من أجلك، إن أحببت. إنها أماكن بدائية. لقد تطوّرت الأمور بفعل التكنولوجيا، لكن ما سترينه ليس مختلفًا كثيرًا عما كان يمكن أن يراه المرء قبل مئة سنة من الآن. عمل فظيع. يقال إن الدباغة أقدم صناعة وُجدت

آثارها في أي مكان في العالم. لقد وجدوا آثارًا للدباغة عمرها ستة آلاف سنة. وجدوها في مكان ما... في تركيا على ما أظن. كانت ملابس الإنسان الأولى مصنوعة من جلود الحيوانات بعد تدخينها. قلت لك إن هذا الموضوع يصير أكثر إثارة للاهتمام عندما يتعمّق المرء فيه. أبي هو عالِم الجلود الحقيقي. إنه الشخص الذي كان ينبغي أن تتحدّثي إليه. لكنه الآن يعيش في فلوريدا. ابدأي معه حديثًا عن القفازات وسوف يتكلّم يومين متواصلين. وبالمناسبة، هذا أمر مألوف. يحب صانعو القفازات مهنتهم. ويحبون كل ما يتعلق بها. قولي لي، هل رأيت من قبل صناعة أي شيء؟ يا آنسة كوهن».

«لا يمكنني القول إنني رأيت».

«ألم تري أي شيء يُصنع؟».

«عندما كنت طفلة، كنت أرى أمي تصنع لنا فطيرة».

ضحك السويدي. لقد جعلته يضحك. هذه الفتاة البريئة المشاكسة التوّاقة إلى التعلم. كانت ابنته أطول من ريتا كوهن بأكثر من قدم. وكانت شقراء، في حين كانت ريتا سمراء. لكن ريتا كوهن، على الرغم من ضآلة حجمها، بدأت تذكّره بميري قبل أن يصيبها الاشمئزاز منهم، وقبل أن تصير عدوة لهم. الذكاء الطيّب الذي كانت تشعّه فينتشر في البيت كلّه عندما تعود من المدرسة مفعمة بما تعلّمته في الصف. كيف كانت تتذكّر كل شيء... وكيف كانت تكتب كل شيء بأناقة في دفتر ملاحظاتها فتحفظه عن ظهر قلب.

«سأقول لك ما سنفعله. سوف أجعلك ترين العملية كلها، من أولها إلى آخرها. هيا بنا، سوف نصنع لك زوجًا من القفازات، وسوف تشاهدين مراحل صناعته كلها. أي مقاس تستخدمين؟».

«لست أدري. المقاس الصغير».

كان قد نهض من خلف مكتبه ودار حوله مقتربًا منها ثم أمسك بيدها. قال: «مقاس صغير جدًا. أظن أن مقاسك أربعة». كان قد أخرج من درج مكتبه العلوي شريط قياس في آخره حلقة على شكل حرف D فلف الشريط من حول كفّها وأدخل نهايته الأخرى في الحلقة، ثم شده على يدها. «سنرى إن كنت

مصيبًا في تخميني. أطبقي كفك». أطبقت كفها فتمدّد شريط القياس قليلًا. قرأ السويدي المقاس مكتوبًا على الشريط بالإنشات الفرنسية(24). «إنه أربعة. هذا أصغر مقاس لقفازات السيدات. أيُّ مقاس أصغر من هذا يكون للأطفال. هيا بنا، لتري كيف نصنعه».

أحسّ كأنه قد خطا عائدًا فدخل فم الماضي عندما سارا جنبًا إلى جنب، فصعدا درجات السلم الخشبي القديم. سمع نفسه يقول لها (وفي الوقت نفسه، كان يسمع أباه يقول له): «يجري تصنيف الجلود في الجهة الشمالية من المصنع حيث لا وجود لأشعة الشمس المباشرة. بهذه الطريقة، يمكنك دراسة جودة الجلود. لا تستطيعين الرؤية في ضوء الشمس المباشر. تكون غرفة القص والتصنيف في الجهة الشمالية دائمًا. التصنيف في الأعلى. والقص في الطابق الثاني. وصنع القفازات في الطابق الأول، حيث دخلت. وأما الطابق السفلي، فهو للتوضيب والشحن. سوف يكون مسارنا من الأعلى إلى الأسفل».

هذا ما فعلاه. وقد كان سعيدًا. لم يستطع منع نفسه. لم يكن هذا صحيحًا. لم يكن هذا حقيقيًا. لا بد من فعل شيء ما لإيقافه. لكنها كانت مشغولة بتسجيل الملاحظات، فلم يستطع التوقف... فتاة تعرف قيمة العمل الجاد، تنتبه جيدًا، وتهتم بما يجب أن يثير اهتمامها، تهتم بتحضير الجلد، وبصناعة القفازات... كان مستحيلًا عليه أن يجعل نفسه يتوقّف.

عندما يعاني أحد ما مثلما كان السويدي يعاني، تكون مطالبته بألّا يضلل نفسه بهذا الانتعاش اللحظي، مهما يكن منشأ هذا الانتعاش ملتبسًا، مطالبةً بالكثير الكثير.

كان في غرفة القصّ خمسة وعشرون رجلًا يعملون معًا موزعين حول طاولات، نحو ستة حول كل طاولة؛ فقادها السويدي إلى أكبرهم سنًا، وقال لها إن هذا هو «المعلّم»، رجل قصير أصلع في أذنه جهازٌ لتقوية السمع. واصل الرجل عمله على قطعة مستطيلة من الجلد. قال السويدي: «إنها القطعة التي يصنع منها القفاز. ندعوها 'ترانك'!». واصل المعلّم عمله مستخدمًا مقصًّا ومسطرة بينما كان السويدي يخبرها بالمزيد عنه. خفّة في قلبه؛ وسيل كلامه

المتواصل الذي لا يفعل شيئًا لإيقافه تاركًا ثرثرة أبيه تتدفع من فمه من غير توقّف.

كانت غرفة القصّ المكان الذي جعل السويدي يتبع أباه إلى عالم القفازات، فهي المكان الذي كان على يقين من أنه شهد تحّوله من صبي إلى رجل. غرفة القص ذات السقف المرتفع، الغرفة الفائضة نورًا، كانت بقعته المفضلة في المصنع منذ أن كان طفلًا فحسب، حيث كان عمال القص الأوروبيون يأتون إلى عملهم جميعًا في ملابس من ثلاث قطع، قمصان بيضاء منشاة على أكمامها أزرار معدنية، وربطات عنق، وبنطلونات ذات حمالات. كان كل واحد منهم يخلع معطفه بعناية ويعلّقه في الخزانة؛ لكن ذاكرة السويدي لم تعرف أبدًا واحدًا منهم يخلع ربطة عنقه. ثم تستمر عملية خلع الصدّار ثوانيَ قليلة، يليها طي أكمام القمصان ورفعها قبل ارتداء مئزر أبيض نظيف والانكباب على القطعة الأولى من الجلد: فصلُها عن نسيج الموسلين الرطب الذي يغلّفها، وفردها، وبدء تسويتها. كانت النوافذ الكبيرة في الجدار الشمالي تلقي على طاولات القصّ المصنوعة من الخشب الصلب نورًا باردًا متوازنًا لا بد منه لتصنيف القطع الجلدية والملاءمة بينها وقصّها. النعومة المصقولة لحوافّ الطاولات المدورة التي نعّمتها على مر السنين جلود الحيوانات التي بُسطت عليها، كانت شديدة الإغراء للصبي الذي كان عليه أن يمنع نفسه من الاندفاع عليها ووضع خده على تلك الحواف الخشبية المحدّبة... يمنع نفسه من فعل ذلك إلى أن يكون وحيدًا في الصالة. ارتسم على الأرض الخشبية خط غائم من أثر الأقدام حيث يقف الرجال طيلة اليوم عند تلك الطاولات؛ فكان يحب أن يذهب، عندما يخلو المكان له، فيقف بحذائه حيث كانت الأرضية مهترئة. كان ينظر إلى العمال يقصّون الجلد وهو عارف أنهم النخبة في هذا العمل، وأنهم يعرفون ذلك، وأن المدير يعرفه أيضًا. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم رجالًا أكثر أرستقراطية من أي شخص في المكان، بما في ذلك صاحب العمل، فقد كانت أيدي عمال القصّ متقرنة من حمل المقص الكبير الثقيل. كانت من تحت تلك القمصان البيضاء أذرع وصدور وأكتاف مفعمة بقوة الرجل العامل - كان لا بد

لها أن تكون قوية حتى يواصل أصحابها بسط الجلد وشدّه طيلة حياتهم، وحتى يواصلوا اعتصار كل قطعة اعتصارًا حتى يُستفاد من كل إنش فيها.

كان قدر كبير من «اللعق» يجري في المكان؛ وكان كل قفاز ينال نصيبه من اللعاب. لكن والد السويدي كان يقول مازحًا: «المشترون لا يعرفون شيئًا عن هذا». يبصق عامل القص في مادة التحبير الجافة، ثم يدعك الفرشاة عليها من أجل تحبير الخاتم الذي يرقّم به الأجزاء التي يقصها من كل جلد. وبعد أن ينجز قص زوج من القفازات، يضع إصبعه على لسانه ويرطب القطعتين المرقمتين بحيث تلتصقان معًا قبل أن تحزما بشريط مطاطي وتنتقلا إلى رئيسة عاملات الخياطة وإلى العاملات. وأما ما لم يستطع الصبي تجاوزه، فهو سلوك أوائل عمال القص الألمان المشتغلين في شركة نيوارك ميد، فقد كان الواحد منهم يضع كأس بيرة كبيرة إلى جانبه ويرتشف منها. كانوا يقولون إن هذا من أجل «إبقاء الصفارة رطبة»، والمحافظة على سيولة لعابهم. سرعان ما تمكّن لو ليفوف من التخلص من البيرة؛ فماذا عن اللعاب؟ لا. لا يمكن لأحد أن يستغني عن اللعاب. كان ذلك جزءًا لا يتجزأ عن كل ما أحبوه... الابن والوريث والأب المؤسّس.

«يستطيع هاري قصّ القفاز بمهارة لا تقل عن مهارة أي واحد منهم». كان هاري - المعلم - واقفًا إلى جانب السويدي تمامًا يقوم بعمله من غير أن يلقي بالًا إلى كلمات رئيسه... «لم يمض على عمله في نيوارك ميد إلا واحد وأربعون عامًا؛ لكنه يحاول تطوير نفسه. إن على من يقصّ الجلد أن يتصوّر مسبقًا كيف يمكن أن يستخرج من الجلد الواحد أكبر عدد من القفازات. وبعد ذلك، يكون عليه أن يقصّه. يقتضي قصّ الجلد بطريقة صحيحة قدرًا كبيرًا من المهارة. إن العمل على طاولة القصّ فن. لا وجود لجلدين متماثلين. تكون الجلود مختلفة بحسب طعام كل حيوان، وبحسب سنّه. يكون كل جلد مختلفًا عن الآخر من حيث قابليته للبسط. مدهشة هي المهارة اللازمة لجعل كل قفاز يبدو مماثلًا للقفاز الآخر. الأمر نفسه نجده في الخياطة. لم يعد الناس راغبين في ممارسة هذا العمل. لا يمكنك أن تأخذي خيّاطة تعرف كيف تعمل على آلة الخياطة

التقليدية، أو تعرف كيف تخيط فستانًا، فتجعلينها تبدأ خياطة القفازات هنا. إن عليها أن تمرَّ بعملية تدريب تستمر ثلاثة أو أربعة شهور، وعليها أن تتمتّع بأصابع شديدة الدقة، وأن تتمرّن كثيرًا، تمر ستة شهور قبل أن تصير على قدر كافٍ من المهارة وتبلغ كفاءتها ثمانين بالمئة. إن خياطة القفازات عملية معقّدة كثيرًا. إذا أردت صنع قفازات جيدة، فإن عليك أن تنفقي مالًا وأن تدربي العمال. يقتضي الأمر قدرًا كبيرًا من الانتباه والعمل الجاد... تلك الانحناءات والتعرّجات كلها حيث تلتقي الأصابع... أمر ليس سهلًا على الإطلاق. عندما افتتح أبي أول ورشة لصناعة القفازات، كان الناس يأتون ويعملون لديه طيلة حياتهم. هاري آخر واحد منهم. غرفة القص هذه واحدة من أقدم غرف القص في الشطر الغربي من العالم. لا نزال نعمل بأقصى طاقاتنا الإنتاجية. ولا يزال لدينا هنا أشخاص يعرفون ما يقومون به. لم يعد أحد يقص القفازات بهذه الطريقة؛ ليس في هذه البلاد التي لم يعد فيها أحد يعرف كيف يقصّها؛ وليس في أي مكان آخر، ربما باستثناء ورشات عائلية صغيرة في إيطاليا وفرنسا، في نابولي وفي غرونوبل. في ما مضى، كان العاملون هنا جميعًا ممن يمضون أعمارهم كلّها في هذا العمل. ولدوا في صناعة القفازات، وماتوا في صناعة القفازات. إننا اليوم نعمل دائمًا على إعادة تدريب الناس. وأما في اقتصادنا الحالي، فإن الناس يأتون للعمل هنا، ثم يذهبون إذا سنحت لهم فرصة عمل آخر يجنون فيه خمسين سنتًا إضافيًا في الساعة».

كانت تسجّل ذلك كلّه في دفترها.

«عند بداية دخولي ميدان العمل، أرسلني أبي إلى هذا المكان لكي أتعلّم القص. عندها لم أكن أفعل شيئًا غير الوقوف عند طاولة القص ومراقبة ما يفعله هذا الرجل. لقد تعلمت الصنعة وفق الطريقة التقليدية. من الأسفل إلى الأعلى. جعلني أبي أبدأ بكناسة الأرض... حرفيًا. ثم مضيت عبر كل قسم من الأقسام حتى صار عندي إحساس بكل عملية من العمليات ومعرفة بسببها. تعلمت من هاري كيف أقصّ القفاز. لن أقول إنني كنت عامل قص شديد المهارة! إذا قصصت زوجين في اليوم الواحد، أو ثلاثة أزواج، فإن هذا إنجاز كبير. لكني

تعلّمت المبادئ الأولية... أليس هذا صحيحًا يا هاري؟ إنه معلّم متطلِّب، هذا الرجل! يكون حريصًا على كل تفصيل من التفاصيل عندما يعلّمك شيئًا. جعلني التعلّم من هاري أكاد أحن إلى تعليم أبي. منذ اليوم الأول، جعلني هاري أفهم الأمر جيدًا. قال لي إن فتية يأتون إليه حيث يعيش، فيدقّون بابه ويقولون: 'هل تعلّمني أن أكون عامل قصّ قفازات؟' فتكون إجابة هاري: 'عليك أن تدفع لي أولًا خمسة عشر ألف دولار لأن هذه هي قيمة ما ستهدره من الوقت والجلد قبل أن تصل إلى نقطة تصير عندها قادرًا على كسب الحد الأدنى من الأجر!'. أمضيت في مراقبته شهرين كاملين قبل أن يسمح لي بالاقتراب من الجلد. في المتوسط، يستطيع عامل قصّ الجلد إنجاز ثلاث دزينات، أو ثلاث دزينات ونصف الدزينة في اليوم الواحد، ويستطيع عامل قص جيد سريع إنجاز خمس دزينات في اليوم. وأما هاري فهو قادر على إنجاز خمس دزينات ونصف دزينة في اليوم الواحد. كان يقول لي: 'أتظنني ماهرًا؟ كان ينبغي أن ترى أبي!'. ثم أخبرني عن أبيه، وعن الرجل طويل القامة من سيرك بارلوم وبيلي. هل تتذكّر هذا يا هاري؟' - أومأ هاري برأسه - '... عندما أتى سيرك بارلوم وبيلي إلى نيوارك... هل كان ذلك في سنة 1917 أم في سنة 1918؟'. أومأ هاري برأسه مرة أخرى من غير أن يتوقّف عن عمله... 'حسنًا، أتوا إلى المدينة، وكان لديهم رجل طويل يكاد طوله يبلغ تسع أقدام، أو نحو ذلك. رآه والد هاري في الشارع ذات يوم. كان يسير هناك عند تقاطع شارع بورد وماركت. دبّت فيه حماسة كبيرة، ففك رباط حذائه وجرى إلى الرجل فقاس كفه بالرباط؛ قاس كفه هناك، في الشارع، ثم عاد إلى البيت وصنع له زوجًا ممتازًا من القفازات من قياس سبعة عشرة. قصّ والد هاري ذلك القفاز، ثم خاطته أمه. وبعد ذلك، ذهبا إلى السيرك وقدّما الهديّة إلى ذلك الرجل الطويل، فحصلت الأسرة كلّها على تذاكر مجانية. وفي اليوم التالي، نشرت نيوارك نيوز قصة والد هاري الغريبة'!».

صحّح هاري كلامه: «كانت صحيفة ستار إيغل».

«صحيح. كان ذلك قبل اندماجها بصحيفة ليدجر».

قالت الفتاة ضاحكة: «رائع! لا بد أن والدك كان شديد المهارة».

قال لها هاري: «لم يكن يعرف كلمة إنكليزية واحدة».
أجابت الفتاة: «ألم يكن يتكلّم الإنكليزية؟ حسنًا، هذا دليل على أن المرء ليس في حاجة إلى معرفة اللغة الإنكليزية حتى يتمكّن من قصّ زوج قفازات ممتاز من أجل رجل يبلغ طوله تسع أقدام».
لم يضحك هاري، لكن السويدي ضحك؛ ضحك وأحاطها بذراعه قائلًا: «هذه هي ريتا. سوف نصنع لها قفازًا أنيقًا، مقاس أربعة. هل تفضّلين القفاز أسود اللون أم بنّيًا، يا عزيزتي؟».
«أفضله بنّيًا».
تناول هاري جلدًا ذا لون بنّي شاحب كان بين مجموعة جلود مرطّبة من خلفه.
قال لها السويدي: «من الصعب العثور على هذا اللون. إنه دباغة بريطانية. يمكنك أن تري كيف يحتوي على مجموعة كبيرة من تدرّجات اللون. انظري كم يكون اللون خفيفًا هنا، وكم هو داكن هناك! حسنًا، إنه جلد خروف. الجلد الذي رأيته في مكتبي كان معالجًا بالتخليل. وأما هذا، فهو مدبوغ. صحيح أنه جلد، لكنك قادرة على رؤية الحيوان نفسه. إذا نظرت إلى الحيوان، فها هو رأسه، ومؤخرته، وقائمتاه الأماميتان، وقائمتاه الخلفيتان؛ وهذا هو الظهر حيث يكون الجلد أقسى وأكثر ثخانة، كما يكون الجلد على ظهورنا...».
عزيزتي. لقد بدأ يدعوها بكلمة عزيزتي منذ صارا في صالة القص، ثم لم يعد قادرًا على إيقاف نفسه. كان هذا حتى قبل أن يدرك أن وقوفه إلى جانبها يجعله أقرب إلى ميري من أي وقت مضى منذ تفجير السوبرماركت واختفاء عزيزته.
هذه مسطرة فرنسية. يزيد طولها على المسطرة الأميركية قرابة إنش واحد... وهذا ما ندعوه «سكين البطاطا». إنها سكين كليلة مشطوفة الحافة، لكنها غير حادة. إن هاري يشد الجلد على الطاولة؛ يشده على النموذج. يحب هاري أن يراهنك على أنه قادر على وضعه على النموذج بشكل صحيح، حتى من غير أن يمسّ النموذج. لكني لا أراهنه أبدًا لأني لا أحب أن أخسر. هذا ما ندعوه فرشاة... انظري، إنه شيء مصنوع بدقة فائقة. سوف يقص هاري قفازك ويسلّمني إياه حتى ننزل إلى قسم الخياطة. وهذه هي آلة التشقيق، يا عزيزتي.

إنها العملية الميكانيكية الوحيدة في صناعتنا كلّها. مكبس وقالب. تستوعب آلة التشقيق أربع قطع في المرة الواحدة... قالت ريتا: «واو. إنها عملية شديدة الدقة».

«هذا صحيح. يصعب جني المال في صناعة القفازات لأنها تتطلّب عملًا كثيفًا... عملية تستهلك الكثير من الوقت. ولا بد من التنسيق بين عدد كبير من الأعمال. إن القسم الأكبر من قطاع صناعة القفازات مؤلّف من شركات عائلية، صنعة يورثها الآباء للأبناء، عمل تقليدي جدًا. المنتَج ليس إلا منتجًا في نظر الكثير من المصنّعين. وكثيرًا ما نجد أن الشخص الذي يصنع منتجًا من المنتجات لا يعرف عنه شيئًا؛ لكن قطاع صناعة القفازات ليس هكذا. إن لهذه الصناعة تاريخًا طويلًا جدًا».

«هل يشعر بقية الناس برومانسية صناعة القفازات، مثلما تشعر أنت، يا سيد ليفوف؟ أنت مفتون حقًا بهذا المكان، وبكل ما فيه من عمليات تصنيعية. أظن أن هذا ما يجعلك رجلًا سعيدًا».

سألها وهو يحسّ كما لو أنه موشك على الخضوع لعملية تشريح، للتقطيع بسكين، لأن يُفتح فيظهر كل ما في داخله من بؤس «هل أنا سعيد؟ أظنني سعيدًا».

«هل أنت آخر الموهيكان؟»(25).

«لا، لست آخرهم. أظن أن لدى معظم المشتغلين بهذه الصناعة الإحساس نفسه تجاه تقاليدها، والحب نفسه تجاهها. فالأمر يتطلّب حبًا ويتطلب وجود إرث يحفّز الإنسان على البقاء والاستمرار في عمل من هذا النوع. لا بد أن تجمعك به رابطة قويّة حتى تتمكّني من الصمود فيه». بعد أن تمكّن - على نحو عابر - من إبعاد كل ما يخيفه ويخيّم على روحه، وحتى من النجاح في أن يظلّ قادرًا على الحديث بدقة كبيرة على الرغم من قولها له إنه رجل سعيد، قال لها: «هيا بنا. فلنذهب الآن إلى صالة الخياطة».

«هذه هي عملية التنعيم. إنها حكاية في حد ذاتها. لكن هذا ما ستفعله العاملة أولًا... ندعو هذه آلة بيكيه. إنها تعطي غرزات خياطة ناعمة جدًا. ندعوها

أيضًا غرزات بيكيه. وهي تستلزم قدرًا من المهارة أكبر كثيرًا مما يستلزمه أي نوع آخر من الغرزات.... وهذه آلة الصقل - هذه ندعوها آلة «المطّ» وأنا أدعوك عزيزتي - وأنا أدعى بابا - وهذا يدعى عيشًا - والآخر يدعى موتًا - وهذا يدعى جنونًا - وهذا يدعى حدادًا - وهذا يدعى جحيمًا - جحيمًا صرفًا لا بد لك من صلات قوية حتى تستطيعي التخلّص منه - وهذا يدعى محاولة المتابعة كما لو أن شيئًا لم يحدث - وهذا يدعى دفع الثمن، من أجل ماذا بحق الله؟ - وهذا يدعى رغبتي أن أكون ميتًا، وفي أن أعثر عليها، وأن أقتلها، وأن أنقذها من ذلك الذي تمر به، من كل ما لعلها تعانيه في هذه اللحظة - وهذا التدفق المستمر يدعى ثرثرة عن كل شيء؛ وهو من غير نفع - أنا شبه مجنون - كانت قوة التدمير في تلك القنبلة كبيرة جدًا.... وبعد ذلك، عادا إلى مكتبه من جديد، وانتظرا إلى أن يأتي قفاز ريتا من قسم الإنهاء. كان يردد لها عبارة مفضّلة عند أبيه، عبارة قرأها في مكان ما، ثم صار يستخدمها دائمًا لإحداث انطباع قوي لدى زواره. سمع نفسه يردّدها أيضًا، كلمة فكلمة، كما لو أنها كانت من عنده. ليته يستطيع جعلها تبقى، جعلها تظلّ هنا ولا تذهب. ليته يستطيع مواصلة حديثه لها عن القفازات. عن القفازات، وعن الجلود، وعن مشكلته المخيفة، أن يرجوها... أن يتوسل إليها... لا تتركيني وحيدًا مع هذه الأحجية الرهيبة... «لدى السعادين والغوريلات أدمغة. ولدينا أدمغة أيضًا. لكن ليس لديهم هذا الشيء، الإبهام. لا يستطيعون تحريك الإبهام مثلما نحركه نحن. إنه الإصبع القادر على مقابلة باطن اليد كلّها. لعله السمة الجسدية التي تميزنا عن بقية الحيوانات كلّها. إن القفاز يحمي هذا الإصبع. قفاز السيدات، وقفاز عامل اللحام، والقفاز المطاطي، وقفاز البيسبول. إلخ. هذا هو جذر البشرية... هذا الإبهام القادر على مقابلة بقية الأصابع. إنه يُمكّننا من صنع الأدوات وبناء المدن، وكل شيء آخر. إنه أكثر أهمية من الدماغ. لعل أدمغة بعض الحيوانات الأخرى أكبر من أدمغتنا بالمقارنة مع أجسادها. لست أدري. لكن اليد في حد ذاتها شيء بالغ التعقيد. إنها تتحرّك. ليس في جسد الإنسان أيُّ جزءٍ آخر على هذا القدر من تعقيد بنية حركته...». وفي تلك اللحظة، فتحت فيكي الباب حاملة زوجًا من

القفازات من مقاس أربعة... «ها هو». قالت فيكي: «ها هو الزوج». قدّمته إلى مديرها الذي نظر إلى القفازين أولًا، ثم انحنى من فوق المكتب حتى تراهما الفتاة. «أترين هذه الخياطة؟ عرض الخياطة عند حافة الجلد... هنا تظهر الجودة والمهارة. قد لا يتجاوز هذا الهامش جزءًا من ثلاثين جزء بين الخياطة والحافة. لا بد من سوية مهارة مرتفعة لفعل هذا. لا بد من سوية مهارة أعلى كثيرًا من الحدّ العادي. إذا لم يكن القفاز حسن الخياطة، فقد يبلغ عرض هذه الحافة جزءًا من ثمانية أجزاء من الإنش. ثم إنها لن تكون مستقيمة. انظري إلى استقامة هذه الدرزات. هذا ما يجعل قفاز شركة نيوارك ميد قفازًا جيدًا، يا ريتا. السبب هو درزات الخياطة المستقيمة. السبب هو الجلد الفاخر. إنه حسن الدباغة. إنه طري ناعم. إنه لدن قابل للطي. رائحته كرائحة سيارة جديدة من الداخل. أحبّ الجلد الجيد. وأحبّ القفازات الفاخرة. لقد ترعرعت على فكرة صنع أفضل قفّازات يمكن صنعها. يسري هذا في دمي؛ ولا شيء يمنحني مسرّة أكثر منه». كان متمسّكًا بهذا الفيض من الكلام مثلما يتمسّك المريض بأية علامة من علامات الصحة، مهما تكن تلك العلامة ضئيلة... «لا شيء يمنحني مسرة أكثر من إعطائك هذين القفازين الجميلين. تفضّلي... مع تحياتنا». قال هذا وهو يقدّم لها القفازين، فما كان منها إلا أن أدخلت يديها فيهما متحمّسة. قال لها: «مهلًا، مهلًا. عليك دائمًا أن تشدّي القفاز بأصابعك. أدخلي الأصابع أولًا، ثم الإبهام، ثم شدّي المعصم. ينبغي دائمًا أن تكون الحركة بطيئة عند لبس القفاز أول مرة». رفعت رأسها ونظرت إليه مبتسمة له بسرور مثل سرور أي طفل يتلقّى هديّة. رفعت يديها في الهواء حتى تريه جمال القفازين وكم كانا مناسبين ليديها. قال السويدي: «أطبقي كفك. شدي قبضتك. هل تحسّين كيف يتوسّع القفاز حيث تتوسّع يدك عند شدّ قبضتك، وكيف يتكيّف بلطف مع تغيّر مقاس يدك؟ هذا ما يفعله عامل القص عندما يقوم بعمله على الوجه الصحيح - لا يترك طولًا إضافيًا، بل يتخلّص من أي طول زائد لأنك لا تريدين أن تتمطّط أصابع القفاز. لكنه يُبقي على قدر محسوب من إمكانية التمطّط العرضاني. يجب أن يكون هذا التمطّط العرضاني محسوبًا بكل دقّة».

قالت له وهي تفتح قبضة يدها وتغلقها، ثم تفتح قبضة يدها الأخرى وتغلقها: «صحيح، صحيح. شيء رائع. ممتاز تمامًا. فليبارك الرب الحسابات الدقيقة في هذا العالم!». قالت هذا وضحكت، ثم أضافت: «الحسابات التي تترك في عرض القفاز إمكانية تمدّد خفية». انتظرت إلى أن خرجت فيكي من غرفة المكتب الزجاجية وأغلقت الباب الزجاجي من خلفها عائدة إلى ضجيج قسم الخياطة، ثم قالت له بصوت خافت جدًّا: «إنها تريد دفترها الذي وضعت فيه قصاصات أودري هيبورن».

في الصباح التالي، قابل السويدي ريتا في موقف السيارات في مطار نيوارك حتى يعطيها الدفتر. انطلق من مكتبه، فقاد سيارته أول الأمر متّجهًا إلى منتزه برانتش بروك الذي يبعد أميالًا في الاتجاه المعاكس لاتجاه المطار. خرج من السيارة، وتنزّه وحده قليلًا. سار إلى حيث كانت أشجار الكرز اليابانية المزهرة. جلس على أحد المقاعد برهة، وراح ينظر إلى كبار السنِّ الذين يتنزهون هناك مع كلابهم. ثم عاد إلى السيارة وقادها عابرًا الحي الإيطالي في شمال نيوارك حتى بلغ بيلفيل، وظل ينعطف يمينًا مدة نصف ساعة إلى أن قرّر أن أحدًا لا يتعقّبه. لقد حذّرته ريتا من الذهاب إلى موعدها من غير تلك الالتفافات كلِّها.

وفي الأسبوع الذي تلا ذلك، في موقف السيارات عند المطار، سلّمها خفَّيّ الباليه وفستان الباليه. كانت ميري تستخدم هذه الأشياء عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. وبعد ثلاثة أيام، أتاها بدفتر يوميات التأتأة.

كان الدفتر بين يديه. لقد قرّر الآن أن الوقت قد حان لقول الكلمات التي كان يسمعها من زوجته قبل كل لقاء من هذه اللقاءات مع ريتا... هذه اللقاءات التي التزم فيها تمامًا بعدم فعل أي شيء مخالف لما طلبته ريتا، ولم يطلب منها شيئًا في المقابل. قال لها الآن: «بالتأكيد... بالتأكيد... يمكنك الآن أن تخبريني شيئًا عن ميري. إن لم يكن شيئًا عن مكانها، فكيف حالها».

قالت ريتا بنبرة حادّة: «بالتأكيد، لا أستطيع إخبارك».

«أريد التكلّم معها».

«حسنًا، إنها لا تريد أن تتكلّم معك».

«لكن، إذا كانت تريد هذه الأشياء... لماذا تريد هذه الأشياء إذا لم تكن تريد أي احتكاك».
الحرب؟». «أنا مسؤول عنك أنت، لا عن الحرب». «أوه، أعرف أنك لست مسؤولًا عن الحرب... هذا هو سبب ضرورة ذهابي إلى نيويورك لأن الناس هناك يعتبرون أنفسهم مسؤولين. إنهم يشعرون بالمسؤولية عندما تق - تق - تقصف أميركا القرى الفيتنامية. يجدون أنفسهم مسؤولين عندما تفج - جر أميركا الأطفال الص - ص - غار وتمزق - تمزق - هم إربًا. لكنك لا تشعر بالمسؤولية عن ذلك؛ ولا تشعر أمي بالمسؤولية. أنتما لستما مهتمين بالأمر إلى حدّ يجعلكما تسمحان له بإفساد يوم واحد من أيامكما. لا تهتمان بالأمر إلى الحدِّ الذي يجعلكما تمضيان ليلة في مكان ما غير بيتكما. أنتما لا تعجزان عن النوم ليلًا لأنكما تفكّران في الحرب. أنتما غير مهتمّين يا بابا».

الأحاديث رقم 24 و25 و26 عن نيويورك. «لا أطيق هذه الأحاديث يا بابا. لا أريدها! أرفض هذه الأحاديث! فمن يتحدّث مع والديه بهذه الطريقة». «إذا كنت قاصرًا، وخرجت لقضاء النهار، ثم لم تعودي إلى البيت في الليل، فهذا يعني أنك أيضًا ممن يتحدّثون مع أهلهم بهذه الطريقة». «لك - لك - لكنك تدفعني إلى الجنون! هذا الوالد العقلاني، الذي يحاول أن يكون متفهّمًا! لا أريد أن يتفهّمني أحد... أريد أن أكون حرّة!». «وهل سيعجبك الأمر أكثر إذا كنت أبًا غير عقلاني وحاولت ألّا أتفهمك؟». «أريد هذا! أظنني أريد هذا! لماذا لا تجرّب الأمر، على سبيل التغيير، حتى أرى كيف يكون!».
الحديث رقم 29 عن نيويورك. «لا، لا يمكنك تشويش حياتنا العائلية قبل بلوغك سن الرشد. عند ذلك، افعلي ما تريدين. وطالما أنك لم تبلغي الثامنة عشرة...». «كل ما يمكنك التفكير فيه، وكل ما يمكنك الحديث عنه، وكل ما ته - ته - تهتم به، هو حسن حال هذه الأس - الأس - الأسرة الصغ - صغ - غيرة، اللعينة!». «أليس هذا كل ما تظنين أنك غاضبة من أجله؟». «لا! أبـ أبـ أبدًا!». «نعم يا ميري. أنت غاضبة من أجل تلك الأسر في فيتنام. أنت غاضبة لأنها

تتعرّض للدمار. إنها أسر أيضًا. إنها أسر مثل أسرتنا تريد أن يكون لها الحق في العيش مثلما تملك أسرتنا حقًّا في العيش. أليس هذا ما تريدينه لهم؟ ما الذي يريده بيل وميليسا لهم؟ ألا يريدان أن تكون لأولئك الناس حياة مسالمة آمنة مثل حياتنا؟». «أن تكون حياة هناك متميزة في مكان لا يعرفه أحد... لا، لست أظن أن بيل وميليسا يريدان ذلك لهم. وأنا لا أريد ذلك لهم». «ألا تريدين؟ إذًا، فكري من جديد. أظن أن حصولهم على تلك الحياة سيجعلهم راضين كل الرضا». «لا يريدون إلا أن يذهبوا إلى الفراش في الليل، في بلدهم وأن يعيشوا حياتهم من غير تفكير في أنهم سيتمزّقون إربًا أثناء نومهم. سيت - سيت - سيتمزقون إربًا من أجل أصحاب الامتيازات في نيوجرسي الذين يعيشون حياتهم الآمنة الوادعة التي لا معنى لها... حياة مصاصي الدماء!».

الحديث رقم 30 عن نيويورك. بعد عودة ميري من ليلة قضتها عند أسرة أومانوف. «أوه، كم هما ليبراليان، بار بار باري ومارشا. ويا لحياتهما البر بر برجوازية المريحة!». «إنهما أستاذان جامعيان. وهما أكاديميان جادّان يعارضان الحرب. هل كان لديهما أحد عندما زرتيهما؟». «أوه، كان لديهم أستاذ لغة إنكليزية ضد الحرب، وواحد من أساتذة علم الاجتماع ضد الحرب. إنه - على الأقل -، يجعل أسرته تشاركه في موقفه ضد الحرب. إنهم يخرجـ جـ يخرجون إلى المسيرة معًا. هذا ما أدعوه أسرة، وليس تلك الأبقار اللعينة عندنا». «هذا يعني أن الأمور جرت هناك على ما يرام». «لا. أحب أن أذهب مع أصدقائي. لا أريد الذهاب إلى أسرة أومانوف في الثامنة. كل ما يحدث يحدث بعد الساعة الثامنة مساء! لو كنت أريد البقاء عند أصدقائك بعد الثامنة مساء، فمن الأفضل لي أن أظلّ هنا في ريمروك. أريد أن أظل مع أصدقائي بعد الساعة الثامنة». «لكن كل شيء جرى على ما يرام، على الرغم من ذلك. لقد توصّلنا إلى اتفاق. لن تكوني مع أصدقائك بعد الثامنة. لكنك قادرة على قضاء النهار معهم. هذا أحسن كثيرًا من عدم الحصول على أي شيء. لدي شعور حسن تجاه ما وافقت على فعله. ينبغي أن يكون لديك هذا الإحساس أيضًا. هل ستذهبين يوم السبت القادم؟». «أنا لا أخطط لهذه الأشياء قبل سنين من

موعدها!». «إذا ذهبت إلى نيويورك يوم السبت القادم، فعليك أن تتّصلي بأسرة أومانوف حتى تخبريهم بأنك آتية إليهم».

الحديث رقم 34 عن نيويورك. بعد تخلّف ميري عن الذهاب إلى بيت أسرة أومانوف لقضاء الليل عندهم. «حسنًا، لقد قضي الأمر. أنتِ من خالف الاتفاق الذي بيننا. لن تخرجي بعد الآن من هذا البيت يوم السبت». «هل أنا رهن الاعتقال المنزلي؟». «بالتأكيد». «ما الشيء الذي أنت خائف منه إلى هذا الحد، وما الذي تظنّني سأفعله؟ إنني أمضي الوقت مع أصدقائي. نناقش الحرب وأشياء مهمة أخرى. لا أعرف السبب الذي يجعلك راغبًا في معرفة هذا القدر كلّه. أنت لا تسألني ملايين الأسئلة كلما ذهبت إلى متجر هاملين. فما الذي تخشاه؟ أنت لست إلا حز حز حزمة من المخاوف. لا يمكنك أن تظلّ مختبئًا هنا في الغابات. لا تتقيأ خوفك عليّ وتجعلني خائفة مثلك ومثل ماما. أنتما غير قادرين على ما يتجاوز التعامل مع أبقاركما. أبقار وأشجار. هناك أشياء تتجاوز الأبقار والأشج - الأش - جار. هناك بشر أيضًا. بشر لديهم ألم حقيقي. لماذا تقول هذا؟ هل تخشى أن أذهب وأمارس الجنس؟ أهذا ما تخشاه؟ أنا لست مغفلة بحيث يخدعني أحدهم. هل أقدمت في حياتي على تصرف غير مسؤول؟». «لقد خالفت اتفاقنا. إنها نهاية الأمر». «هذه ليست شركة. ونحن لا نتحدّث عن العمل يا بابا. اعتقال منزلي. كل يوم أمضيه في هذا البيت يكون شبيهًا بالاعتقال المنزلي». «لا تعجبيني كثيرًا عندما تتصرّفين هكذا». «اسكت يا بابا! وأنت لا تعجبني أيضًا. أنت لا تعجبني أبدًا».

الحديث رقم 44 عن نيويورك. يوم السبت التالي. «لن آخذك بالسيارة إلى محطة القطار. ولن تخرجي من البيت». «وما الذي تعتزم فعله؟ هل ستحبسني؟ كيف ستمنعني من الذهاب؟ هل ستضعني على الكرسي وتربطني بحبل؟ أهكذا تعامل ابنتك؟ لا أستطيع تص - تص - تصديق أن أبي يمكن أن يستخدم القوة الجسدية ضدي». «أنا لا أهدّدك باستخدام القوة الجسدية». «فكيف ستجعلني أبقى في البيت؟ أنا لست واحدة من الأبقار الغبية التي عند ماما! لن أستمر في العيش هنا إلى الأبد، أيها السيد اللطيف الهادئ المتمالك نفسه. ما الشيء الذي

أنت خائف منه إلى هذا الحدِّ؟ ولماذا تخشى الناس إلى هذا الحدِّ؟ ألم تسمع أبدًا أن نيويورك من أهم مراكز الثقافة في العالم كلّه؟ يأتي الناس من البلاد كلّها لكي يعيشوا أجواء نيويورك. لقد كنت دائمًا تريد أن أعيش كل شيء. فلماذا لا أستطيع عيش نيويورك؟ إنها أفضل من هذه الحفرة التي هنا. ما الذي يغضبك إلى هذا الحد؟ لماذا يغضبك أن أكوّن أفكاري الحقيقية بنفسي؟... وأنا أتوصّل إلى أشياء لم تتوصّل إليها قبلي؟... أن أتوصّل إلى أشياء ليست من بين خططك المتأنّية من أجل الأسرة ومن أجل المسار الذي ينبغي أن يتّخذه كل شيء؟ لست أفعل شيئًا غير الذهاب إلى المدينة بذلك القطار اللعين. ملايين الرجال والنساء يفعلون هذا كل يوم عندما يذهبون إلى عملهم. وهم يصادفون أشخاصًا سيئين. هل تخشى أن تكون لدي آراء مختلفة، لا سمح الله؟ لقد تزوّجت امرأة كاثوليكية إيرلندية، فما رأي أهلك في اختيارك الخاطئ؟ وهي تزوجت يه - يه - يهوديًا، فما رأي أهلها في اختيارها الخاطئ؟ فكم يمكن أن يكون ما أفعله أسوأ من هذا؟ قد أخرج مع شاب زنجي... أهذا ما تخشاه؟ لا أظن هذا يا بابا. لماذا لا تصب قلقك على شيء له أهمية، كالحرب مثلًا، بدلًا من مسألة ذهاب ابنتك الصغيرة المتمتّعة بالمزايا وحدها بالقطار إلى المدينة الكبيرة؟».

الحديث رقم 53 عن نيويورك. «أنت لا تزال مصرًّا على عدم إخباري بالمصير المرعب الذي تظنّه سيحل بي إذا ذهبت بذلك القطار اللعين إلى المدينة. إن لديهم شققًا وسقوفًا في نيويورك! لديهم أيضًا أبواب، ولديهم أقفال عليها أيضًا! ليس القفل شيئًا فريدًا خاصًّا بأولد ريمروك. هل سبق لك التفكير في هذا يا سايمور ليفوف؟ أنت تظن السوء في كل ما هو غريب عنك. فهل فكّرت ذات يوم في أن الأشياء الغريبة عنك قد تكون جيدة؟ هل فكرت في أنني، باعتباري ابنتك، يمكن أن يكون لدي شيء من الغريزة السليمة التي تجعلني أخالط الأشخاص المناسبين في الوقت المناسب؟ أنت منزعج دائمًا من احتمال أن أتعرّض إلى الإخفاء، بطريقة ما. لو كان لديك أي قدر من الثقة بابنتك، لفكّرت في أنني قد أخالط أشخاصًا جيدين. أنت لا تبدي أي قدر من الثقة».

«ميري، أنت تعرفين ما أتحدث عنه. إنك تورطين نفسك مع سياسيين متطرفين،

مع أشخاص متطرفين». «متطرفون! هل تراهم متطرفين لأنهم يخالفونك الرأي؟». «إن لدى أولئك الأشخاص أفكار سياسية شديدة التطرّف». «الشيء الوحيد الذي يؤدّي إلى إنجاز أي شيء هو أن يمتلك المرء أفكارًا قوية». «لكنك لا تزالين في السادسة عشرة؛ وهم أكبر منك سنًا وأكثر خبرة». «جيد. هذا يعني أن من الممكن أن أتعلّم شيئًا. التطرّف هو نسف بلد صغير بأكمله نتيجة إساءة فهم بعض الأفكار عن الحرّية. هذا هو التطرّف. نسف الأولاد وبتر أرجلهم... هذا هو التطرّف يا بابا. وأما الذهاب بالباص، أو بالقطار، إلى نيويورك، وقضاء الليل في شقة آمنة مغلقة... لا أرى تطرفًا في هذا. أظن أن الناس ينامون في مكان ما كل ليلة، إذا استطاعوا. قل لي، ما الأمر المت - المت - متطرّف في هذا؟ أتظنّ أن الحرب سيئة؟ واو، يا لها من فكرة متطرّفة يا بابا. ليست الفكرة هي المتطرفة، بل حقيقة أن هنالك من يبالي بشيء ما ويريد أن يحاول تغييره. أتظن أن هذا تطرف؟ إنها مشكلتك إذًا! قد يهتم أحد الناس بمحاولة إنقاذ أرواح الناس الآخرين أكثر من اهتمامه بنيل درجة علمية من جامعة كولومبيا. فهل هذا تطرّف؟ لا، عكسه هو التطرّف». «هل تتحدّثين عن بيل وميليسا؟». «صحيح، لقد تركت ميليسا الجامعة لأن لديها أشياء أكثر أهمية من نيل درجة جامعية. وقف القتل أكثر أهمية عندها من حيازة شهادة جامعية على قطعة من الورق. هل تدعو هذا الأمر تطرّفًا؟ لا، أظن أن التطرف هو مواصلة الحياة كالمعتاد عندما يكون هذا الجنون مستمرًا، عندما يجري استغلال الناس، يمينًا وشمالًا ووسطًا، لكنك تظل قادرًا على ارتداء بدلتك، ووضع ربطة عنقك كل يوم، والذهاب إلى عملك. كما لو أن ما من شيء يحدث. هذا هو التطرف. هذا هو الغباء المتطرف... هذه هي حقيقته».

الحديث رقم 59 عن نيويورك. «من هما؟». «كانا يذهبان إلى جامعة كولومبيا. ثم تركاها. لقد أخبرتك عن هذا كله. إنهما يعيشان في مورنينغ هايتس». «هذا لا يعطيني إجابة شافية يا ميري. إنها مدينة خطيرة، فيها مخدرات، وفيها أشخاص عنيفون. ميري... من الممكن أن تتورّطي في مشكلات كثيرة. من الممكن أن تتعرّضي للاغتصاب». «هل سيحدث هذا لأنني

لم أصغ إلى كلام بابا؟». «هذا ليس أمرًا مستحيل الحدوث». «تتعرّض البنات للاغتصاب سواء استمعن إلى كلام آبائهن أو لم يستمعن. وفي بعض الأحيان، يكون من يقدمون على الاغتصاب آباء أيضًا. إن للمغتصبين أبناء أيضًا. هذا ما يجعلهم آباء». «قولي لبيل وميليسا أن يأتيا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معنا». «أوه، إنهما لا يحبّان المجيء إلى هنا». «انظري... ما رأيك في الذهاب إلى مدرسة داخلية في شهر أيلول؟... الذهاب إلى مدرسة تمضين فيها العامين الباقيين لك. لعلك مللت العيش في البيت... لعلك مللت العيش معنا، هنا». «أنت تخطّط دائمًا. تحاول دائمًا اكتشاف المسار الأكثر منطقية». «ما الذي يتعيّن علي فعله غير هذا؟ ألا تريدين أن أكف عن التخطيط؟ إنني رجل. إنني زوج. إنني أب. إنني أدير شركة». «أدير شركة. ولهذا أنا موجود!». «هناك أنواع كثيرة من المدارس. وهناك مدارس فيها أشخاص مثيرون للاهتمام، وفيها حرّية كبيرة... تحدّثي مع الاستشاري التعليمي في المدرسة؛ وسوف أستطلع الأمر من جانبي أيضًا. إذا كنت قد مللت العيش معنا، أو تعبت من العيش معنا، فإن في وسعك أن تذهبي إلى واحدة من تلك المدارس. أفهم أنك لم تعودي تجدين الكثير مما تحبين فعله هنا. فلنفكّر كلنا، تفكيرًا جدّيًا، في أمر ذهابك إلى مدرسة داخلية».

الحديث رقم 76 عن نيويورك. «يمكنك أن تكوني ناشطة فاعلة في الحركة المعادية للحرب بقدر ما تشائين هنا، في موريستاون، وهنا في أولد ريمروك. يمكنك هنا أن تقومي بتنظيم الناس ضد الحرب... في مدرستك...». «بابا، أريد أن أفعل بهذا بطريقتي أنا». «أصغ إلي. أرجو أن تصغي إلي. الناس هنا في أولد ريمروك ليسوا ضد الحرب. بل على العكس من ذلك. ألا تريدين أن تكوني في المعارضة؟ كوني في المعارضة هنا». «لا يمكن فعل أي شيء هنا. فما الذي سأفعله؟ أأخرج في مسيرة من حول السوبرماركت؟». «يمكنك تنظيم الناس هنا». «أهالي ريمروك ضد الحرب!؟ سيحقّق هذا اختلافًا كبيرًا. مدرسة موريستاون الثانوية ضد الحرب!؟». «هذا صحيح. فلنأت بالحرب إلى الديار! أليس هذا هو الشعار؟ افعلي ذلك. اجلبي الحرب إلى الديار، إلى بلدتك. ألا

تحبين أن تكوني عكس الناس؟ ستكونين عكس الناس هنا. يمكنني أن أؤكد لك ذلك». «لا أريد أن أكون عكس الناس». «حسنًا، سوف تكونين عكس الناس. وذلك لأنه موقف لا يحظى بالشعبية هنا. إذا عارضت الحرب هنا بكل قوتك، صدقيني، فسوف يكون لذلك أثر غير قليل. لماذا لا تثقفين الناس هنا فيما يتعلق بالحرب. إن هذا المكان جزء من أميركا، كما تعلمين». «إنه جزء صغير جدًا». «هؤلاء الناس أميركيون يا ميري. وأنت قادرة على أن تكوني معارضة نشطة للحرب هنا، في هذه القرية. لست مضطرة للذهاب إلى نيويورك».
«صحيح... أستطيع أن أكون معارضة للحرب في غرفة المعيشة في بيتنا».
«تستطيعين أن تكوني معارضة للحرب في النادي المحلّي». «ليس فيه إلا عشرون شخصًا». «موريستاون هي عاصمة المقاطعة. اذهبي إلى موريستاون أيام السبت. إن فيها أشخاصًا معادين للحرب. القاضي فونتين ضد الحرب. أنت تعرفين هذا. والسيد آفيري ضد الحرب. لقد وقّعا معي على ذلك الإعلان المعادي للحرب. ذهب القاضي فونتين معي إلى واشنطن. تعرفين أن الناس هنا لا يحبّون رؤية اسمي على ذلك الإعلان. لكن لي موقفي. يمكنك تنظيم مسيرة في موريستاون. يمكنك العمل على تنظيم مسيرة». «وسوف تتولّى صحيفة مدرسة موريستاون الثانوية تغطية ذلك النشاط. سيؤدي هذا إلى سحب القوات من فيتنام». «أعرف أنك تجهرين بمعارضة الحرب في مدرسة موريستاون الثانوية. فلماذا تهتمين بفعل ذلك إن كنت ترين أنه أمر لا أهمية له ولا أثر؟ أنت ترين أن له أهمّيته. إن لوجهة نظر كلّ شخص في أميركا أهميتها في ما يتعلّق بالحرب. فلتكن البداية في بلدتك يا ميري. هذا هو السبيل إلى إنهاء الحرب».
«لا تبدأ الثورات من الريف». «نحن لا نتحدّث عن الثورة». «أنت الذي لا يتحدّث عن الثورة».

كان ذلك آخر حديث عن نيويورك يدور بينهما. لقد نجح الأمر. صحيح أن الأمر طال كثيرًا، لكن السويدي كان صبورًا، منطقيًا، حازمًا، فنجح في مسعاه. وعلى حد علمه، لم تذهب ابنته إلى نيويورك بعد ذلك. لقد أخذت بنصيحته وظلّت في البلدة. فبعد أن حوّلت غرفة المعيشة إلى ميدان معركة، وبعد أن

حوّلت مدرسة موريستاون الثانوية إلى ميدان معركة، ذهبت في أحد الأيام وفجرت مكتب البريد. فجّرت معه أيضًا د. فريد كونلون ومتجر القرية الذي كان مكانًا خشبيًا صغيرًا عُلّقت على جداره لوحة الإعلانات المحلية وكانت أمامه مضخة وقود عتيقة وسارية معدنية يرفع عليها روس هاملين (الذي كان يملك المتجر مع زوجته، ويدير مكتب البريد أيضًا) العلم الأميركي كل صباح منذ أن كان وارن غاميليل هاردينغ رئيسًا للولايات المتحدة.

(19) واسب (WASP): الأحرف الأولى من «White Anglo Saxon Protestant» التي تعني «بروتستانتي أنكلوساكسوني أبيض». وتشير هذه العبارة إلى صفوة المجتمع الأميركي حتى منتصف القرن العشرين، أي إلى الفئة السكّانية الثرية ذات النفوذ الواسع والتعليم الحسن.
(20) بالفرنسية: «أوه، اعذرني... ظننت أنّ...».
(21) نادي 4 - H: مجموعة من نوادي اليافعين ضمن نطاق نشاطات منظمة 4 - H المعنية بتشجيع مشاركة الناشئة للوصول بهم إلى تحقيق قدراتهم وإمكاناتهم وتطويرها.
(22) أحد الشعانين: عيد واقع في يوم الأحد الذي يوافق يوم دخول يسوع مدينة القدس.

«لأن هذه الأشياء لها».

«ونحن لها أيضًا، يا آنسة».

«لم أسمعها تقول هذا».

«لا أصدّق كلامك».

«إنها تكرهكما».

سألها برفق: «هل تكرهنا حقًّا؟».

«ترى أن من الواجب إطلاق النار عليكما».

«حقًّا! هذا أيضًا؟».

«كم تدفع لعمالك في ذلك المصنع في بونسي، في بورتوريكو؟ وكم تدفع لمن

يخيطون القفازات لك في هونغ كونغ وتايوان؟ وكم تدفع للمرأة التي يصيبها العمى في الفيليبين نتيجة عملها على القفازات المخيّطة باليد لإرضاء السيدات المتسوقات في متجر بونوي؟ أنت لست إلا رأسماليًا تافهًا، قذرًا، يستثمر الناس السمر والصفر في هذا العالم، ويعيش مرفّهًا خلف بوابات عزبته المحمية من الزنوج».

حتى هذه اللحظة، كان السويدي متمدّنًا، لطيف الكلام مع ريتا، مهما بلغ تصميمها على أذيته. كانت ريتا كل ما لديهما. لا يستطيعان الاستغناء عنها. صحيح أنه لم يكن يتوقّع تغييرها من خلال الاحتفاظ بمشاعره في داخله، لكنه ظلّ حريصًا على ضبط نفسه حتى لا يظهر يأسه. كان إزعاجه وتعذيبه مشروعًا وضعته نصب عينيها: فرض إرادتها على هذا الرجل بملابسه ذات الأسلوب المحافظ وطوله البالغ ست أقدام وثلاثة إنشات وملايينه الكثيرة. من الواضح أن هذا يحقّق لها بعض أعظم اللحظات في حياتها. لكن الأمر صار كلّه لحظات عظيمة! لقد كانت لديهما ميري، ابنتهما المتأتئة ذات الستة عشر عامًا. كان لديهما كائن بشري حيّ فصارت أسرة ذلك الكائن لعبة في يد ريتا. لم تعد ريتا كائنًا بشريًا عاديًا يمكن أن يتراجع وينثني، ولم تعد شيئًا جديدًا في الحياة، بل صارت مخلوقًا ذا تناغم سرّي وخفي مع سبل العالم الوحشية القاسية، وصار من حقّها - باسم العدالة التاريخية - الإقدام على شرور تماثل شرور الرأسمالي المضطهِد السويدي ليفوف.

اللامنطق في أن يكون بين يدي هذه الطفلة... هذه الطفلة المشبعة كراهية واحتقارًا، بخيالاتها عن «الطبقة العاملة» التي تملأ رأسها!... هذه المخلوقة الضئيلة التي لا تحتلّ في السيارة حيزًا يعادل ما يحتلّه كلب ليفوف، لكنها تظن نفسها واقفة على خشبة مسرح عالمي! هذه الحصاة الصغيرة التي لا أهمية لها على الإطلاق! فما الذي يمكن أن يكونه مشروعها المريض غير غضب وأنانية طفولية خلف قناع واهٍ من التماهي بالمضطهَدين؟... غير أوهامها عن مسؤوليتها الجسيمة إزاء عمال العالم؟ كان شيء أناني مريض منبثقًا منها مثل انبثاق شعرها المنتصب المعقَّد... «أذهبُ إلى حيث أشاء، وبقدر ما أشاء... لا

أهمية لشيء إلا ما أشاء!». نعم، يمثّل ذلك الشعر الغبي نصف أيديولوجيتهم الثورية. وهو، في نظرها، تبرير سليم لأفعالها، بقدر ما هو سليمٌ التبرير الذي يوفّره لها النصف الآخر: تلك المصطلحات المبالغ فيها، مصطلحات تغيير العالم. كانت في الثانية والعشرين. وما كان طولها أكثر من خمس أقدام. لكنها منطلقة في مغامرة مواجهة شيء بالغ القوة يتجاوز قدرتها على الاستيعاب، شيء اسمه السلطة. ليست لديها أية حاجة إلى التفكير. ولا يستطيع التفكير فعل شيء غير الانزواء بعيدًا عندما يواجه جهلها. لقد كانوا أشخاصًا يعرفون كل شيء، من غير حاجة حتى إلى التفكير. ولا عجب في أن لحظات عابرة من غضب لم يستطع ضبطه، كانت تأتي فتودي بالجهد الهائل الذي يبذله لإخفاء انزعاجه. قال لها بنبرة صوت حادّة كما لو أنه ليس منضمًا إلى مهمّتها المجنونة غير المهادنة، كما لو أنه غير منضمٍّ إليها بطريقة يصعب تخيّلها، كما لو أن استمتاعها بأن تعتبره أسوأ الناس كان أمرًا ذا أهمية في نظره: «ليست لديكِ أيّة فكرة عما تتحدّثين عنه! تصنع الشركات الأميركية القفازات في الفيليبين وهونغ كونغ، وأيضًا في تايوان والهند وباكستان، وفي أنحاء العالم كله... لكن شركتي ليست كذلك! لدي مصنعان اثنان. اثنان. واحد هو المصنع الذي ذهبت إليه في نيوارك. لقد رأيت بنفسك مدى تعاسة من يعملون فيه! هذا ما جعلهم مستمرين في العمل لدينا منذ أربعين عامًا. ما يتعرّضون له من استغلال بشع بائس هو ما جعلهم يستمرون. يعمل في مصنع بورتوريكو مئتان وستون شخصًا، يا آنسة كوهن... لقد درّبنا أولئك الناس، دربناهم انطلاقًا من الصفر. أناس نثق بهم. أناس لم يكونوا يجدون ما يكفيهم من فرص عمل قبل مجيئنا إلى بونسي. وفّرنا لهم العمل حيث كان لديهم نقص في الوظائف. علّمنا شعب الكاريبي المهارات الضرورية التي لم تكن موجودة هناك. أنت لا تعرفين شيئًا. أنت لا تعرفين شيئًا عن أي شيء. بل إنك لم تعرفي معنى كلمة مصنع قبل أن أجعلك ترين مصنعنا!».

«أعرف معنى كلمة مزرعة يا سيد لوغري(26)... أعني، يا سيد ليفوف! أعرف معنى إدارة مزرعة. إنك تهتم بزنوجك جيّدًا. بالطبع، إنك تعتني بهم.

وهذا ما يدعى بالرأسمالية الأبوية. إنك تملكهم، وتضاجعهم. ثم ترميهم بعيدًا عندما تنتهي حاجتك إليهم. أنت لا تجلدهم إلا عندما يكون الجلد ضروريًا. تستخدمهم من أجل متعتك وتسليتك، وتستخدمهم من أجل أرباحك».

«من فضلك، ليس لدي اهتمام بالكليشيهات الطفولية، ولو لدقيقتين اثنتين. أنت لا تعرفين ما المصنع، ولا تعرفين ما التصنيع. أنت لا تعرفين ما رأس المال، ولا تعرفين ما العمل. ليست لديك أدنى فكرة عن معنى أن يكون لديك عمل، أو عن معنى أن تكوني عاطلة عن العمل. ليست لديك أية فكرة عن العمل أصلًا. لم تعملي في أية وظيفة، طيلة حياتك. وأظنك لم تهتمي أصلًا بالعثور على وظيفة. ولو عثرت على وظيفة، فلن تستمري فيها يومًا واحدًا، لا عاملة، ولا مديرة، ولا مالكة. لقد اكتفيت من هذا الكلام الفارغ. أريد منك إخباري بمكان ابنتي. هذا كل ما أريد سماعه منك. إنها في حاجة إلى عوني. إنها في حاجة إلى عون حقيقي، لا إلى كليشيهات سخيفة. أريد أن تقولي لي أين أجدها!»

«ميري لا تريد رؤيتك أبدًا. ولا تريد أيضًا رؤية تلك الأم».

«أنت لا تعرفين شيئًا عن أم ميري».

«ليدي داون!؟ ليدي داون التي تعيش في العزبة!؟ أعرف كل ما تنبغي لي معرفته عن الليدي داون. يخجلها أصلها الطبقي كثيرًا. يخجلها إلى حد يجعلها تحوّل ابنتها إلى فتاة صالونات».

«لقد عملت ميري في جرف روث الأبقار منذ كانت في السادسة. أنت لا تعرفين ما تتحدّثين عنه. كانت ميري عضوًا في نادي 4 - H. كانت ميري تقود الجرار. كانت ميري...».

«شيء زائف. شيء زائف كلّه. ابنة ملكة الجمال وكابتن فريق كرة القدم... أي كابوس هذا لفتاة لديها روح! الفساتين الجميلة، والأحذية الصغيرة، وهذه الأشياء اللطيفة، وتلك الأشياء اللطيفة. تلعب بشعرها دائمًا. أتظنها كانت تريد إصلاح شعر ميري لأنها تحبّها، أو لأنها تحبّ مظهرها، أم لأنها كانت تشعر بالتقزز منها... بالتقزز من حقيقة أنها لم تستطع إنجاب طفلة تكون ملكة جمال وتكبر وفق تصوراتها لتصير ملكة جمال أولد ريمروك؟ كان على ميري أن تذهب إلى

دروس الرقص، وكان على ميري أن تذهب إلى دروس التنس. يدهشني أنكم لم تجروا عملية تجميل لأنفها».
«أنت لا تعرفين ما تتحدّثين عنه».
«لماذا كان لدى ميري ذلك الاهتمام كلّه بأودري هيبورن، بحسب ظنك؟ لأنها تخيّلت أن ذلك يمنحها أفضل فرصة مع تلك الأم التافهة التي لديها. ملكة التفاهة لعام 1949. يصعب تصديق إمكانية وضع هذا القدر كلّه من التفاهة في ذلك الجسد. أوه، لكن هذا ممكن... إنه موجود فيه بالطبع. لكنه لا يترك فسحة كبيرة لميري، أليس كذلك؟».
«أنت لا تعرفين ما تتحدّثين عنه».
«لا يمكنها تخيّل أي شخص لا يكون جميلًا، لطيفًا، مرغوبًا. أبدًا. ذهنية ملكة الجمال التافهة السخيفة التي ليس في مخيلتها فسحة من أجل ابنتها. 'لا أريد أن أرى أية فوضى. ولا أريد أن أرى أي شيء داكن'. لكن العالم ليس كذلك يا عزيزتي داوني... إنه عالم فوضوي. إنه عالم داكن. إنه عالم مخيف!».
«تعمل والدة ميري في المزرعة طيلة النهار. تعمل مع الحيوانات طيلة النهار. إنها تعمل على آلات المزرعة طيلة النهار. تعمل من السادسة صباحًا حتى...».
«زيف. زيف. زيف. إنها تعمل في المزرعة مثلما يعمل أي تافه من الطبقة العليا...».
«أنت لا تعرفين شيئًا عن أي شيء من هذا. أين هي ابنتي؟ أين هي ابنتي؟ هذا الكلام لا معنى له. أين هي ميري؟».
«ألا تتذكّر حفلة، 'أنتِ الآن امرأة'. تلك الحفلة التي أقامتها بمناسبة أول حيض لابنتها».
«لم تكن هنالك حفلة من هذا النوع. عن أيّة حفلة تتحدّثين؟».
«نحن نتحدّث عن إذلال ابنتك على يد أمها ملكة الجمال. نحن نتحدّث عن أم استعمرت صورة ابنتها الذاتية عن نفسها استعمارًا شاملًا. نتحدّث عن أم ليست لديها أية ذرة إحساس بابنتها... عن أم ليس لديها قدر من العمق أكثر من زوج

القفازات الذي صنعته لي. عائلة بأسرها لا تهتم حقًا إلا بالجلود! بالطبقة السطحية! لكن، ما الذي تحت تلك الطبقة؟ ليست لديك أية فكرة عن ذلك. أتظنّها كانت تحمل أية عاطفة حقيقية تجاه تلك الفتاة التي تتأتئ؟ كانت تتحمل الفتاة المتأتئة. لكنك غير قادر على إدراك الفرق بين العاطفة والتحمل لأنك أغبى من أن تفهم ذلك. قصة أخرى من قصصكم العائلية اللعينة. حفلة الحيض! حفلة من أجل ذلك! يا إلهي».

«أنت تعنين... لا، لم يكن الأمر كذلك. ألا تقصدين الحفلة؟ تعنين ذلك اليوم الذي أخذنا فيه صديقاتها كلّهنّ إلى العشاء في وايت هاوس! كان ذلك عيد ميلادها الثاني عشر. فما هذا الهراء عن 'لقد صرت امرأة الآن'؟ كان احتفالًا بعيد ميلادها. شيئًا لا علاقة له بالحيض. لا شيء أبدًا. من قال لك هذا. ميري لم تخبرك بهذا. أتذكّر هذه الحفلة، وهي تتذكّر هذه الحفلة. كانت حفلة عيد ميلاد بسيطة. لقد أخذنا الفتيات جميعًا إلى وايت هاوس. أمضت البنات وقتًا ممتعًا هناك. كانت لدينا عشر فتيات في الثانية عشرة. لكن ذلك كلّه تمزق. لقد قُتل شخص. وابنتي متهمة بجريمة قتل».

كانت ريتا تضحك. قالت له: «أيها السيد المواطن مطيع القانون من نيوجرسي... أنت تظن أن شيئًا قليلًا من العواطف الزائفة... قدر قليل من العواطف الزائفة يبدو لك حبًّا».

«لكن ما تصفينه لم يحدث أبدًا. ما تقولينه لم يحدث أبدًا. لا أهمية للأمر عندي لو كان قد حدث؛ لكنه لم يحدث».

«ألا تعرف ما الذي جعل ميري هي ميري؟ ستة عشر عامًا من العيش في أسرة حيث تكرهها أمها».

«لماذا تكرهها؟ قولي لي. ما السبب الذي يجعلها تكرهها؟».

«لأنها كانت كل ما لم تكنه الليدي داون. كانت أمها تكرهها أيها السويدي. أمر مخجل أن تكون قد تأخّرتَ في اكتشاف ذلك حتى الآن. كانت تكرهها لأنها ليست رشيقة القوام، ولأنها غير قادرة على ربط شعرها إلى الخلف بتلك الطريقة الريفية التافهة. كانت ميري موضع كره يتسرّب في المرء كأنه سم. لم

تكن الليدي داون قادرة على إحداث أثر أكبر من ذلك حتى لو وضعت لها سمًّا حقيقيًا في الطعام. كانت تنظر إلى ميري نظرة الكره تلك فحوّلتها إلى شيء بائس».

«لم تكن هنالك نظرة كره. لعلّ شيئًا ما قد جرى على نحو غير سليم... لكنه لم يكن كرهًا. لم يكن كرهًا. أعرف ما حدّثْتك عنه. الشيء الذي تعتبرينه كرهًا كان قلق أمّها عليها. أعرف تلك النظرة. لكنه كان قلقًا بسبب تأتأتها. يا إلهي! لم يكن كرهًا، كان عكس ذلك. كان اهتمامًا وقلقًا. كان عذابًا. كان إحساسًا بالعجز».

ضحكت ريتا من جديد ساخرة منه. قالت له: «ألا تزال تحمي زوجتك تلك؟ هذا عدم فهم غير معقول. ليس إلا شيئًا يستحيل تصديقه. هل تعرف السبب الآخر الذي جعلها تكرهها؟ كانت تكرهها لأنها ابنتك. ليست لدى ملكة جمال نيوجرسي أية مشكلة في الزواج من يهودي. وأما أن تربي في بيتها بنتًا يهودية!؟ ذلك أمر مختلف تمامًا. إن لديك زوجة غير يهودية، أيها السويدي. لكنك لم تنجب ابنة غير يهودية. ملكة جمال نيوجرسي عاهرة أيها السويدي. كان من الأفضل لميري أن تذهب وترضع حليب البقرة بنفسها إن أرادت شيئًا من الحليب والحنان. على الأقل، لدى الأبقار عاطفة أمومية».

لقد تركها تتكلّم، وترك نفسه يستمع إليها، فقط لأنه أراد أن يعرف. إن ساءت الأمور، فمن الطبيعي أن يريد معرفة ذلك. ما معنى الضغينة؟ ما معنى الحزن على فقيد؟ ذلك ما كان السر المركزي: كيف صارت ميري على ما هي عليه؟ لكن شيئًا مما سمعه لم يكن يفسّر أي شيء. لا يمكن أن يكون هذا هو محتوى الأمر. لا يمكن أن يكون هذا ما هو كامن خلف تفجير ذلك المكان. لا. كان رجلًا يائسًا يقدّم نفسه لتلك الفتاة الكاذبة المخادعة، لا لأن من المحتمل أن تبدأ إدراك أن لديها خللًا ما، بل لأنه لم يجد شخصًا غيرها يقدم نفسه إليه. ما عاد يحسّ نفسه شخصًا باحثًا عن إجابة بقدر ما صار شخصًا يقلّد شخصًا باحثًا عن إجابة. لقد صار هذا الحديث كله غلطة سخيفة. من السخف أن يتوقّع إقدام هذه الطفلة على إخباره بالحقيقة. كانت إهاناتها لا تعرف حدودًا. تغيّر كل شيء في حياتهم نتيجة حقدها. ها هو الشخص الحاقد... الطفلة المنتفضة!

«أين هي؟».
«ولماذا تريد معرفة مكانها؟».
قال لها: «أريد رؤيتها».
«لماذا؟».
«إنها ابنتي. لقد قتل شخص. وابنتي متّهمة بقتله».
«أنت متمسّك حقًّا بهذه النقطة، ألست متمسّكًا بها؟ أتعرف كم فيتناميًا قتل خلال الدقائق التي أمضيناها في رفاهية الحديث عما إذا كانت داوني تحب ابنتها أم لا؟ الأمور نسبية كلّها، أيها السويدي. الموت أمر نسبي».
«أين هي؟».
«ابنتك في أمان. ابنتك موضع حب. ابنتك تقاتل من أجل ما هي مؤمنة به. ابنتك تخوض أخيرًا تجربتها في العالم».
«أين هي؟ اللعنة عليك!».
«هي ليست شيئًا تملكه. إنها ليست ملكية، كما تعلم. لم تعد ميري عاجزة. أنت لا تملك ميري مثلما تملك بيتك في أولد ريمروك، ومثلما تملك بيتك في ديل، وتلك الشقة في فلوريدا، ومثلما تملك مصنعك في نيوارك ومصنعك في بورتوريكو، وعمالك في بورتوريكو، ومثلما تملك سيارات المرسيدس والجيب التي عندك، ومثلما تملك بدلاتك الجميلة المخيطة باليد. هل تعرف ما صرت أدركه عنكم، أنتم الليبراليين الأغنياء اللطيفين الذين يملكون العالم؟ لا شيء أبعد عن فهمكم من طبيعة الواقع الحقيقي».
كان السويدي يقول في نفسه: لا يمكن أن يكون أي شخص هكذا منذ البداية. لا يمكن أن تكون هذه حقيقتها، هذه الطفلة المتنمرة البغيضة العنيدة الغاضبة... لا يمكن أن تكون هي من يحمي ابنتي. إنها سجّانتها. ميري بكل ذكائها واقعة تحت سحر هذه القسوة الطفولية، وهذه الوضاعة. إن في صفحة واحدة من دفتر يوميات التأتأة حسّ بشري أكثر من كل ما في رأس هذه الطفلة المتهوّرة من مثالية سادية. أوه... أن يسحق هذه الجمجمة الصغيرة القاسية ذات الشعر، أن يسحقها الآن بين يديه القويتين؛ أن يضغط عليها ويضغط إلى أن تسيل هذه

الأفكار الشريرة كلها خارجة من أنفها!
كيف يمكن لطفلة أن تصير هكذا؟ وهل يمكن حقًا أن يكون لدى واحد من الناس هذا القدر كلّه من عدم الاعتبار لأي شيء؟ إنه أمر ممكن! كانت صلته الوحيدة مع ابنته هي هذه الطفلة التي لا تعرف أي شيء، لكنّها مستعدة لقول أي شيء، وأكثر استعدادًا لفعل أي شيء... مستعينة بأي شيء حتى تثير نفسها. كانت أفكارها كلّها أشياء منبِّهة: الإثارة هي الهدف.
قالت ريتا متكلّمة من زاوية فمها كما لو أن هذا يجعل من الأسهل عليها أن تدمّر حياته: «الشخص النموذجي. الشخص النموذجي المنتصر المعبود الذي هو مجرم في الواقع. السويدي ليفوف العظيم، المجرم الرأسمالي الأميركي».
لقد كانت طفلة ذكية غريبة الأطوار مندفعة في مغامرة تخصّها هي وحدها، تخصّها بالكامل... طفلة مخبولة محتالة لم ترَ ميري في حياتها أبدًا، إلا في الصحف. إنها مجنونة «مُسيّسة»، ولا شيء أكثر من ذلك. شوارع نيويورك مليئة بأشخاص مثلها. طفلة يهودية مجنونة مجرمة أتت بمعلوماتها عن حياتهم من الصحف والتلفزيون ومن أصدقاء ميري في المدرسة الذين يسيرون هنا وهناك مردّدين ما قالته ميري: «سوف تتلقى أولد ريمروك اللطيفة مفاجأة كبرى». يبدو أن ميري قد قالت هذا الكلام لأربعة أطفال في المدرسة، في اليوم الذي سبق التفجير، كان ذلك هو الدليل الوحيد ضدّها. فقد قال أولئك الأطفال جميعًا - إنهم سمعوها تقول هذا الكلام - ما قالوه عنها، واختفاؤها، كانا الدليل الوحيد ضدها. لقد جرى نسف مكتب البريد ومعه السوبرماركت أيضًا؛ لكن أحدًا لم ير ميري في ذلك المكان أو على مقربة منه، ولم يرها أحد تفعل أي شيء. لولا اختفاؤها ما كان يمكن أن يفكّر أحد في أنها مرتكبة ذلك التفجير.
ظلّت داون أربعة أيام تسير في البيت وتبكي قائلة: «لقد خُدعَت! لقد اختطفت! لقد خُدعت! إنها الآن في مكان ما تخضع لعملية غسل دماغ. لماذا يقول الجميع إنها من فعل ذلك. لم يكن لها أي اتصال مع أي شخص. لا علاقة لها بالأمر بأية طريقة على الإطلاق. كيف يستطيعون تصديق أن تقوم طفلة بهذا؟ ديناميت! وما علاقة ميري بالديناميت؟ لا! هذا غير صحيح! لا يعرف أحد شيئًا!».

كان عليه إبلاغ الـ«إف بي آي» بأمر زيارة ريتا كوهن منذ أن أتت إليه وطلبت دفتر ابنته. وعلى أقل تقدير، كان عليه أن يطالبها بدليل على وجود ميري. كان عليه أيضًا أن يُسرّ بالأمر لأحد غير زوجته، أي أن يضع استراتيجيته بالتعاون مع شخص أقل احتمالًا لأن يفعل مثلما ستفعل زوجته لو تصرف على شكل يخالف مطالباتها اليائسة. كانت غلطته التي لا تغتفر استجابته لحاجات زوجته التي صار تفكيرها غير متماسك، وصارت حالتها لا تسمح لها بالتفكير، أو بالفعل، إلا انطلاقًا من حالة الهستيريا التي استولت عليها. كان عليه أن يتصرّف انطلاقًا من الريبة التي كانت لديه، فيتصل فورًا برجال الأمن الذين قابلوه مع زوجته في بيتهما في اليوم الذي أعقب ذلك التفجير. كان عليه أن يرفع سماعة الهاتف لحظة أدرك هوية ريتا كوهن، حتى وهي جالسة أمامه في مكتبه. لكنه لم يفعل شيئًا من ذلك، بل قاد السيارة عائدًا إلى بيته لأنه لم يكن بقادر أبدًا على اتخاذ قراره بمعزل عن الأثر النفسي لذلك القرار على من يحبّهم؛ ولأن رؤيتهم يعانون كانت أكبر مصاعب حياته؛ ولأن تجاهل أسئلتهم الملحة ومخالفة توقعاتهم (حتى عندما تبدو حججهم غير منطقية أو منعدمة الصلة بالأمر) كان يبدو له استخدامًا غير مشروع لقوته المتفوّقة؛ وكذلك لأنه كان غير قادر على تخييب أمل أي إنسان في ما يتعلّق بشخصه، بالابن والزوج والأب البعيد كل البعد عن الأنانية؛ ولأنه صار محط أنظار الجميع... لذلك كلّه، جلس إلى طاولة المطبخ مقابل زوجته وراح ينظر إليها وهي تبكي وتمسح دموعها وتتحدّث حديثًا طويلًا شبه خَرِف وترجوه ألا يخبر الـ«إف بي آي» بأي شيء.

توسّلت زوجته إليه أن يفعل كل ما تريده تلك الفتاة: من المحتمل أن تنجو ميري من الاعتقال إذا أبقوها بعيدة عن الأنظار إلى أن يُنسى أمر تدمير السوبرماركت ومقتل د. كونلون. إذا خبأوها في مكان ما (ربما في بلد آخر) وقدّموا إليها ما يلزمها إلى أن ينتهي مناخ «اصطياد الساحرات» الذي تغذّيه الحرب ويأتي زمن جديد، فقد يصير ممكنًا أن تتلقّى معاملة منصفة فلا تدفع ثمن شيء ليس من الممكن أبدًا أن تكون هي من ارتكبه. «لقد خدعوها!». كان يصدق هذا، هو أيضًا - فكيف يمكن أن يصدّق أب شيئًا مختلفًا عن هذا؟ - إلى أن صار يسمعه

من زوجته يومًا بعد يوم، إلى أن صار يسمعه مئة مرة في اليوم.

وهكذا فقد أعطاها دفتر قصاصات أودري هيبورن، وحذاء الباليه، وفستان الباليه، ودفتر يوميات التأتأة، وكان عليه الآن أن يذهب لرؤية ريتا في غرفة في فندق هيلتون نيويورك. لكنه سيحمل معه هذه المرة خمسة آلاف دولار: أوراق من فئة العشرة والعشرين دولارًا، غير معلّمة. ومثلما كان مدركًا أن عليه أن يتصل بالـ إف بي آي» عندما طلبت منه دفتر القصاصات أول مرة، كان مدركًا الآن أنه إذا قبل أي انجرار إضافي خلف هذا التحدّي الخبيث، فلن يكون لتلك البئر أي قرار، ولن يجد أمامه غير بؤس على نطاق لا يستطيع تصوّره أحد. لقد جرى الإيقاع به عبر خطوات متتالية ماهرة، دفتر القصاصات، ثم فستان الباليه، ثم حذاء الباليه، ثم دفتر يوميات التأتأة. وجاء الآن وقتهذه الفدية الكارثية.

لكن داون كانت مقتنعة بأنه إذا سافر إلى نيويورك، وترك نفسه يضيع بين جموع الناس، ثم اتخذ طريقه إلى الفندق في تلك الساعة المحددة من بعد الظهر، بعد أن يتأكّد من أن أحدًا لا يتبعه، فسوف يجد ميري هناك منتظرة إياه... أمل خرافي سخيف ليس له ما يبرره أبدًا، لكن قلبه لم يطاوعه على معارضته عندما رأى زوجته تخلع عن نفسها طبقة جديدة من رجاحة العقل كلما رُن جرس الهاتف.

للمرة الأولى، أتت الفتاة مرتدية تنورة وبلوزة عليهما نقوش أزهار مبهرجة. كان من الواضح أن تنورتها وبلوزتها من أرخص الأنواع. كانت أيضًا تنتعل حذاءً عالي الكعب. وعندما سارت به خطوات غير مستقرّة مجتازة السجادة، بدت أكثر ضآلة حتى مما كانت تبدو عليه عندما تأتي منتعلة حذاء العمل الثقيل. كانت تسريحة شعرها عجيبة مثلما كانت من قبل. لكنّ وجهها الذي كان عادة وجهًا صغيرًا عاديًا عديم الروح غير مزين بشيء، صار الآن مزينًا بأحمر الشفاه وظل العينين، وكان على وجنتيها شيء من ظل وردي. بدت كأنها طفلة في الصف الثالث سرقت موادّ تجميل من غرفة أمها؛ إلا أن موادّ التجميل تلك جعلت انعدام التعبير في وجهها موحيًا بحالة اضطراب عقلي أكثر إثارة للذعر مما يكون عليه عادة وجهها الخالي من اللون على نحو غير بشري.

وقف بباب غرفة الفندق وقال لها: «إن النقود معي». كان ينظر إليها من علٍ مدركًا أن ما يفعله خاطئ إلى أقصى حد... «إن النقود معي»؛ كرّر عبارته وهو متأهّب لسماع خطبتها المعتادة عن أنه سرق هذا المال من عرق العمال ودمهم.

قالت الفتاة: «أوه، مرحبًا. ادخل»... أريد أن تتعرّف على أبي وأمي. بابا وماما، هذا هو سايمور. تمثيلية من أجل المصنع، وتمثيلية من أجل الفندق... «ادخل من فضلك. اعتبر نفسك في بيتك».

كان قد وضع المال في حقيبته. لم يأتِ فحسب بالآلاف الخمسة (عشرات وعشرينات مثلما طلبتها)، بل بخمسة آلاف أخرى بأوراق نقدية من فئة الخمسين دولارًا. كان معه عشرة آلاف دولار؛ ولم تكن لديه أية فكرة عن السبب الذي جعله يأتي بهذا المال كله. فأي خير يمكن أن يجلبه هذا المال لميري؟ لن ترى ميري قرشًا واحدًا منه! لكنّه كرّر من جديد بعد أن استجمع قواه كلّها حتى لا يفقد السيطرة على نفسه: «أتيت لك بالمال المطلوب». كان يبذل كل جهده حتى يواصل الوجود ويظل هو نفسه على الرغم من غرابة كل شيء.

كانت قد استلقت على السرير مصالبة ساقيها عند الكاحلين وقد وضعت وسادتين تحت رأسها. بدأت تغني بصوت خفيض: «أوه ليديا، أوه ليديا، الإنسايكلوبيديا، أوه ليديا، السيدة ذات الوشم...».

كانت تلك واحدة من الأغاني العتيقة السخيفة التي علّم ابنته الصغيرة غناءها عندما اكتشفا أن نطقها يصير سليمًا عندما تغنيها.

«أتيتَ من أجل مضاجعة ريتا كوهن، أليس هذا صحيحًا؟».

«أتيت لكي أحضر النقود».

«فلنت - تضا جع، يا بـ بـ با بـ بـ با، بابا».

«لو كان لديك أي إحساس بما يعانيه الجميع...».

«كف عن هذا أيها السويدي، ما الذي تعرفه عن الإحساس؟».

«لماذا تعاملينا هذه المعاملة؟».

«بوو - بوو - هوو! احك لي حكاية أخرى. لقد أتيت إلى هذا المكان لكي

تضاجعني. اسأل أيًا كان. لماذا يأتي كلب رأسمالي في أواسط العمر إلى غرفة فندق لملاقاة مؤخرةٍ شابة؟... حتى يضاجعها. قلها. قل فقط ‘أتيت لكي أضاجعك. أتيت لكي أجعلك ترين كيف تكون المضاجعة’. قلها أيها السويدي».

«لا أريد أن أقول شيئًا من هذا القبيل. كفّي عن هذا من فضلك».

«إنني في الثانية والعشرين. وأنا أفعل كل شيء. أفعل الأشياء كلّها. قلها يا سويدي».

هل يمكن أن يكون هذا طريقًا مؤدّيًا إلى ميري، هذا الهجوم الهازئ الساخر؟ لا حدود للإهانات التي يمكن لهذه الفتاة أن توجّهها إليه. هل كانت تتقمّص شخصًا ما، أم إنها تمثّل الآن انطلاقًا من نص معَدّ مسبقًا؟ أم إنه كان يتعامل مع شخصية لا يمكن التعامل معها لأنها مجنونة أصلًا؟ كانت أشبه بأحد أفراد العصابات. هل هي زعيمة العصابة، هذه السفاحة الضئيلة ذات الوجه الأبيض؟ في كل عصابة، تُعطى السلطة لمن يكون قلبه أشد تحجرًا وأكثر بعدًا عن الرحمة. فهل هي أكثرهم بعدًا عن الرحمة، أم إن لديهم من هو أسوأ منها... أولئك الذين يحتفظون بميري رهينة لديهم في هذه اللحظة؟ لعل هذه أكثرهم ذكاء! هذه هي الممثّلة التي لديهم. لّعلها أكثرهم فسادًا. لعلّها عاهرتهم الناشئة. ولعلّ هذا الأمر كلّه لعبة في نظرهم... أطفال من الطبقة الوسطى يمضون الوقت بطريقة يجدونها ممتعةً لهم.

سألته: «ألست مناسبة لك؟ أما من رغبات بدائية لدى شخص كبير مثلك؟ هيا، فأنا لست شخصًا مرعبًا إلى هذا الحد. لا يمكن لي، أنا الصغيرة، أن أكون مكافئة لك. انظر كيف صار شكلك. كأنك ولد شقي. ولد يخشى أن يلحق به عار ما. أليس لديك شيء غير نقائك الشهير؟ لا بد أن لديك شيئًا ما. لا بد أنك جعلت من نفسك ركنًا من الأركان هناك... ركنًا من أركان المجتمع».

«ما غاية هذا الكلام كلّه؟ هل يمكنك إخباري بالغاية منه؟».

«الغاية؟ بالتأكيد. الغاية هي جعلك تعرف الواقع. تلك هي الغاية».

«وما مقدار القسوة الضرورية لتحقيق ذلك؟».

«ما مدى القسوة الضرورية لجعلك تعرف الواقع؟ لجعلك معجبًا بالواقع؟

لجعلك تشارك في الواقع؟ لجعلك واقفًا هناك، عند حدود الواقع؟ لن يكون الأمر نزهة يا جوكو»(27). كان قد استعد جيدًا حتى لا توقعه في حبائل كرهها إياه، وحتى لا يصيبه بالإهانة أي شيء تقوله. كان مستعدًا لعنفها الكلامي، مستعدًا لعدم إبداء أية ردة فعل. لم تكن معدومة الذكاء، ولم تكن تخشى قول أي شيء... كان يعرف هذا. لكنه لم يكن مستعدًا لمواجهة الشهوة، لمواجهة الإلحاح والإثارة... لم يتوقّع هجومها عليه بشيء غير العنف اللفظي. وعلى الرغم من النفور الذي أثاره البياض الدبق للحمها في نفسه، وذلك التجميل الطفولي الكوميدي، وتلك الملابس القطنية الرخيصة، فقد كانت امرأة شابة نصف مستلقية أمامه على السرير... امرأة شابة نصف مستلقية، وكان السويدي نفسه، الرجل الخارق الواثق من كل شيء، واحدًا من الأشخاص الذين لم يعد قادرًا على التعامل معهم.

(23)Bigelow Mohawk: نوع من السجاد تنتجه شركة موهاوك إندستريز في ولاية جورجيا الأميركية.
(24) الإنش الفرنسي: مقياس طول أكبر قليلًا من الإنش الإنجليزي، وقد كان مستخدمًا قبل الثورة الفرنسية.
(25) الموهيكان Mohicans: قبيلة من قبائل السكان الأصليين في أميركا. الكلمة مستخدمة هنا بمعنى أن صانعي القفازات من هذا النمط صاروا موشكين على الانقراض.
(26)Mr. Legree: شخصية مالك المزرعة مالك العبيد في الرواية الشهيرة «كوخ العم توم» لهارييت بيتشر ستو.
(27) جوكو ويلينك Jocko Willink: ممثل أميركي كان قائد مجموعة مهمات خاصة في البحرية الأميركية، وتلقى أوسمة بعد حرب العراق. الاسم مستخدم هنا على سبيل السخرية من السويدي.
قالت له بنبرة ازدراء: «يا مسكين!... صبي ريمروك الصغير الثري. كم هو منطوٍ على نفسه! فلنتضاجع يا ببـ ببـ با با! سوف آخذك لرؤية ابنتك. سنغسل

قضيبك ونزرر بنطلونك، ثم آخذك إلى حيث ابنتك».
«وكيف أكون واثقًا من أنك ستفعلين هذا؟».
«سوف نرى كيف تسير الأمور. أسوأ احتمال هو ألا تحظى لنفسك إلا بفرج عمره اثنين وعشرين عامًا. هيا يا بابا! تعال إلى السرير، يا بـ بـ با».
«كفي عن هذا! ابنتي لا علاقة لها بأي شيء من هذا! ابنتي لا علاقة لها بك! أنت، أيتها القذرة الصغيرة... لا تصلحين حتى لمسح حذاء ابنتي! لا علاقة لابنتي بذلك التفجير، وأنت تعرفين هذا».
«اهدأ يا سويدي! اهدأ أيها الولد العاشق! إذا كنت راغبًا في رؤية ابنتك مثلما تقول، فليس عليك إلا أن تهدأ وأن تأتي إلى هنا... ليس عليك إلا أن تمنح ريتا كوهن مضاجعة حلوة قوية. المضاجعة أولًا، ثم النقود».
كانت الآن قد رفعت ركبتيها صوب صدرها واضعة قدميها على السرير. تركت ساقيها تنفتحان. كانت التنورة ذات الأزهار متجمعة عند ردفيها. رأى أنها لم تكن ترتدي سروالًا تحتيًا.
قالت بصوت خافت: «هنا! ضعه هنا! هاجم هنا! كل شيء متاح لك يا عزيزي».
«يا آنسة كوهن...».
لم يعثر على ما يمكن أن ينجده في ترسانة ردود الأفعال المحترمة التي يعرفها... هذا الكلام الممتزج بفوران لشيء داخلي شديد القوة، لم يكن مما أعد نفسه لمواجهته. لقد جلبت معها إلى هذا الفندق إصبع ديناميت حتى تفجره هنا. هكذا هو الأمر... تريد أن تنسفه!
أجابته: «ما الأمر يا عزيزي؟ عليك أن ترفع صوتك عندما تتكلّم مثلما يفعل أي ولد كبير... إذا أردت مني أن أسمعك».
«ما علاقة هذا الاستعراض بكل ما جرى؟».
قالت: «كل شيء. سيفاجئك مدى اتضاح صورة الأمور لك بعد هذا الاستعراض...». أحاطت شعر عانتها بكفيها وقالت له: «انظر إليه!»... ثم راحت أصابعها تقلب أشفار فرجها إلى الخارج لكي تجعله يرى الأنسجة الرقيقة

داخله بما فيها من عروق دموية وبقع متلوّنة كالشمع، وحتى يرى لحمها المنفتح بلمعانه الرطب. أشاح بوجهه عنها.
قالت: «إنها غابة هناك، في الأسفل. لا شيء في مكانه الصحيح. لا شيء على الجهة اليسرى يشبه شيئًا على الجهة اليمنى. كم من الزوائد موجود هناك؟ لا أحد يدري ذلك. إنها كثيرة يصعب إحصاؤها. إن في الأسفل غددًا. وهناك ثقب آخر أيضًا. هناك طيّات جلدية. ألا ترى علاقة هذا بما حدث؟ ألق نظرة متملّية متأنّية!».
قال لها وقد ثبت نظره على عينيها، على الشيء الجميل الوحيد فيها. اكتشف أنهما عينا طفلة، عينا طفلة طيبة لا علاقة لهما بما كانت تفعله. «يا آنسة كوهن. ابنتي مفقودة. وهناك شخص قد قُتِل».
«ألا تفهم الفكرة في هذا الأمر؟ أنت لا تفهم الفكرة في أي شيء. انظر إليه! صفه لي! هل فيه أية مشكلة؟ ماذا ترى فيه؟ هل ترى أي شيء فيه؟ لا... أنت لا ترى شيئًا. أنت لا ترى أي شيء لأنك لا تنظر إلى أي شيء».
قال لها: «هذا أمر لا معنى له أبدًا. وأنت لا تستطيعين إخضاع أحد بهذا. إنك تُخضعين نفسك فحسب».
«هل تعرف مقاسه؟ فلنرَ مهارتك في التخمين. إنه صغير. أظن أن مقاسه أربعة. ضمن مقاسات السيدات، هذا أصغر فرج. أي فرج أصغر منه يكون فرج طفلة. سنرى كيف تلجُ مراهقة من مقاس أربعة. وسنرى كيف يوفّر لك المقاس أربعة أجمل وأحرّ مضاجعة حلمت بها. أنت تحب الجلد الجيد. وأنت تحب القفازات الفاخرة. أدخله فيه، لكن ببطء، ببطء. عليك دائمًا أن تدخله ببطء في المرة الأولى».
«لماذا لا تتوقّفين عن هذا في الحال؟».
«حسنًا، إن كان هذا قرارك، وإن كنت ذلك الرجل الشجاع الذي لا يجرؤ حتى على النظر إليه، فعليك أن تغمض عينيك وأن تتقدم وتشمه. اقترب واستنشق رائحته المستنقع. سوف يمتصك. شمه يا سويدي. أنت تعرف كيف تكون رائحة القفاز الجديد. تكون رائحته مثل رائحة سيارة جديدة من الداخل. حسنًا، هكذا

تكون رائحة الحياة. ثم رائحة فرجٍ جديد من الداخل».
عيناها الطفوليتان الداكنتان. عينانِ ممتلئتان مرحًا واستمتاعًا. عينان ممتلئتان وقاحة. عينان ممتلئتان باللامعقول. عينان ممتلئتان غرابة. عينان ممتلئتان بريتا كوهن. لم يكن إلا نصفُ هذا تمثيلًا. للاستفزاز. لإثارة الغضب. لإثارة الشهوة. كانت في حالة مختلفة. عفريت الثورة. جُنيّ الكارثة. كانت كأنها عثرت على المعنى الخبيث لوجودها ذاته من خلال قيامها بدور معذّبه الذي يهدم أسرته. الطفلة المؤذية!
قالت له: «مقاومتك الجسدية مدهشة! أما من شيء قادر على إفقادك توازنك؟ لم أكن أصدق أن أشخاصًا مثلك لا يزالون موجودين في هذا العالم. لو كان مكانك أي رجل آخر لاستسلم منذ زمن. أنت قوي جدًّا. هيا... تذوَّقه!».
«أنت لست امرأة. هذا لا يجعلك امرأة بأي شكل من الأشكال. هذا يجعلك صورة زائفة لامرأة. هذا شيء مقرف».
قذفها بهذه الكلمات سريعًا كأنه جندي تعرّض لهجوم.
سألته: «والرجل الذي لا ينظر... صورة زائفة لأي شيء؟ أليس جزءًا من الطبيعة البشرية أن تنظر؟ ما قولك في رجل يغضّ دائمًا من بصره لأن ما سيراه موغلٌ في الواقع أكثر مما يطيق؟... لأنه غير منسجم مع العالم الذي يعرفه؟... العالم الذي يظن أنه يعرفه؟ هيا، تذوّقه! إنه مقرف، بالطبع، أيها الولد الكبير العظيم».
أطلقت ضحكة مرحة عندما ظل رافضًا أن يخفض عينيه، ولو إنشًا واحدًا.
صاحت به: «خذ!».
لا بد أنها قد أدخلت يدها في فرجها، لا بد أنها أدخلت أصابعها، لأن تلك اليد ارتفعت بعد ذلك ممتدة إلى وجهه. حملت أطراف أصابعها رائحتها إليه. كان عاجزًا عن صدّ تلك الرائحة... الرائحة الخصبة المنبعثة من داخلها.
قالت: «هذا يحل لغز الغموض كلّه. ألا تريد معرفة علاقة هذا الأمر بما جرى؟ هذا ما سيخبرك بتلك العلاقة».
كان في داخله اضطراب كبير، وشكّ كبير، وميل كبير، ميل مضاد كبير. كان

يتفجّر دوافعَ ودوافع مضادة، فما عاد يدري أيُّها كان ما رسم الخط الذي لن يتجاوزه أبدًا. بدا له كما لو أن تفكيره كله كان جاريًا بلغة أجنبية لا يعرفها، لكنه ظل مدركًا أن عليه ألا يتجاوز ذلك الخط: لن يرفعها ويقذف بها من النافذة. لن يرفعها ويقذف بها إلى الأرض. لن يرفعها لأي سبب كان. سوف ينصبُّ كل ما بقي لديه من قوة من أجل إبقائه واقفًا مشلولًا عند ذلك السرير. لن يقترب منها!

كانت الآن قد أعادت يدها التي رفعتها إليه فقرّبتها إلى وجهها بحركة بطيئة وراحت ترسم في الهواء دوائر صغيرة مجنونة لا تنفكّ تدنو منها. ثم بدأت تضع أصابعها في فمها، إصبعًا بعد إصبع: «أتعرف كيف هو طعمها؟ أتريد أن أخبرك؟ إنه طعم مثل طعم ابن - ابن - تك».

في تلك اللحظة، اندفع خارجًا من الغرفة. اندفع خارجًا بكل قوّته.

هكذا جرى الأمر. انتهى كل شيء بعد عشر دقائق، أو اثنتي عشرة دقيقة. فعندما استجاب عناصر الـ«إف بي آي» ووصلوا إلى الفندق، كانت ريتا قد رحلت حاملة معها الحقيبة التي تركها خلفه. لم تكن الوضاعة والقسوة الأشبه بقسوة الأطفال هي ما جعله يخرج عن طوره، ولا حتى ذلك الاستفزاز الخبيث، بل شيء لم يعد قادرًا على العثور على اسم له.

لقد أخطأ في كل شيء عندما واجهه شيئ لا يعرف له اسمًا.

مرت خمس سنين. ظل والد مفجرة ريمروك ينتظر عبثًا ظهور ريتا في مكتبه من جديد. لم يلتقط لها صورة؛ ولم يحفظ بصمات أصابعها... لا، فقد كانت تلك الطفلة هي الآمر الناهي كلّما التقيا؛ كانت هي الآمر الناهي في تلك الدقائق القليلة. وأما الآن فقد اكتفت. طُلب من السويدي تكوين صورة لريتا عندما أتاه أحد عناصر الـ«إف بي آي» ومعه رسّام. وأما هو فظلّ مواظبًا على متابعة الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية باحثًا عن صورة حقيقية لها. كان ينتظر ظهور صورة ريتا. لا بد أن تظهر صورتها. القنابل تنفجر في كل مكان. في باولدر وكولورادو. قنابل دمّرت مكتب «إدارة التجنيد»، ومقر وحدة تدريب ضباط الاحتياط في جامعة كولورادو. وفي ميتشغان، انفجرت قنابل في الجامعة، وانفجرت حزم ديناميت في مراكز الشرطة وفي مقر هيئة تسجيل

المجنَّدين. وفي ويسكانسن، انفجرت قنبلة فدمّرت مستودع الحرس الوطني؛ ومرت طائرة صغيرة فوق مصنع ذخيرة فرمت عليه وعاءين مليئين بالبارود. هوجمت مباني جامعة ويسكانسن بالقنابل، وفي شيكاغو دمّرت القنابل نصبًا تذكاريًا لرجال الشرطة الذين قُتلوا إبان حوادث الشغب في هايماركت. وفي نيوهيفن، وضع أحدهم قنبلة حارقة في بيت القاضي الذي تولّى محاكمة ثمانية عشر شخصًا من حركة الفهود السود اتهموا بالتخطيط لتفجير مركز الشرطة، ومقر إدارة السكك الحديدية في نيوهيفن، فضلًا عن بعض المتاجر. فُجّرت قنابل في عدد من مباني جامعات أوريغون وأريزونا وتكساس. مركز تسوق في بيترسبرغ، ونادٍ ليلي في واشنطن، ومحكمة في ماريلاند... فُجّرت كلّها. وفي نيويورك أيضًا، وقعت سلسلة من الانفجارات - في الرصيف البحري الخاص بشركة يونايتد فروت، وفي مصرف مارين ويدلاند، وفي مقر شركة مانيوفاكتشرر ترَست، وفي شركة جنرال موتورز، وفي مقر شركة موبيل أويل في مانهاتن، وفي مقر شركة آي بي إم، وفي مقر شركة الهواتف والإلكترونيات. انفجرت قنبلة في مركز هيئة التجنيد في قلب مانهاتن. فُجّر مبنى محاكم الجنايات. وألقيت ثلاث زجاجات مولوتوف في مدرسة ثانوية في مانهاتن. انفجرت قنابل في صناديق الخزائن الشخصية في المصارف في ثماني مدن -. لا بد أن ريتا قد وضعت واحدة من تلك القنابل. سوف يعثرون على ريتا ويمسكون بها متلبّسة... سوف يمسكون بتلك العصبة كلّها، وسوف تقودهم إلى ميري.

كان يجلس في المطبخ مرتديًا بيجامته فيتابع الأخبار كل مساء مترقبًا أن يظهر على الشاشة وجهها ملطخًا بالسخام. يجلس وحيدًا في المطبخ منتظرًا عودة عدوته ريتا كوهن.

انفجرت قنبلة في طائرة لشركة «تي دبليو أيه» في لاس فيغاس. وانفجرت قنبلة في مؤسسة «كوين أليزابيث». وانفجرت قنبلة في البنتاغون - انفجرت في دورة مياه للسيدات في الطابق الرابع من المنطقة الخاصة بالقوات الجوية في المبنى -. ترك من وضع القنبلة رسالة قالت: «اليوم، هاجمنا البنتاغون، إنه

مركز القيادة الأميركية العسكرية. هذه ردة فعلنا في الوقت الذي يشهد شن حملة متزايدة من القصف الأميركي البحري والجوي ضد الفتيناميين. وهذا في وقت تستخدم فيه الألغام البحرية والسفن الحربية الأمريكية لإغلاق موانئ جمهورية فيتنام الديمقراطية، ويجري في واشنطن وضع خطط لمزيد من التصعيد».

جمهورية فيتنام الديمقراطية! أقسم أنني سأفقد عقلي يا سايمور إن سمعتها تقول هذا من جديد. إنها ابنتهما! لقد وضعت ميري قنبلة في البنتاغون.

«بـ بـ بابا!». صوتها يعلو فوق هدير آلات الخياطة فيسمعها تناديه وهو جالس في مكتبه... «بـ بـ بابا!».

وبعد سنتين من اختفائها، انفجرت قنبلة في أكثر بيوت «الإحياء الإغريقي» أناقة في أكثر الشوارع هدوءًا في قرية غرينويتش... ثلاثة انفجارات تلاها حريق دمَّر ذلك البيت المؤلف من أربعة طوابق. كان بيتًا لزوجين موسرين من نيويورك يمضيان عطلتهما في البحر الكاريبي. وبعد الانفجار، خرجت من البيت شابتان مذهولتان مصابتان بكدمات وجروح. وُصفت إحداهما - كانت عارية - بأنها بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من العمر. رأت الفتاتين امرأة من الجيران فآوتهما. أعطتهما ملابس، ثم اندفعت إلى البيت المدمّر لترى إن كانت تستطيع فعل المزيد. عادت فوجدت أن الشابتين قد اختفتا. كانت ابنة أصحاب البيت البالغة خمسة وعشرين عامًا واحدة من تلك الفتاتين؛ وكانت عضوًا في مجموعة «ويزرمن» التي كانت فصيلًا ثوريًا عنيفًا منتميًا إلى حركة «طلاب من أجل الديمقراطية». وأما الفتاة الأخرى فلم تُعرف هويتها. الفتاة الأخرى هي ريتا. الفتاة الأخرى هي ميري! لقد ورّطوها في هذا الأمر أيضًا.

أمضى الليل كله جالسًا في المطبخ منتظرًا ابنته وفتاة «ويزرمن». صار الوضع الآن آمنًا... كفّوا منذ أكثر من سنة عن مراقبة البيت والمصنع وعن مراقبة الهواتف. لا مشكلة الآن إن ظهرتا. يُخرج السويدي من الثلاجة وجبة حساء مجمدة لكي يطعمهما عندما تصلان. تعود به ذاكرته إلى ذلك الوقت الذي أظهرت فيه ابنته ميلًا إلى العلوم، وكانت تقول إنها ستصير طبيبة بيطرية... بسبب الماشية التي تربّيها داون. كانت التأتأة هي ما جعلها تتجه إلى العلوم؛

فعندما تصير في حالة تركيز على واحد من مشاريعها العلمية، وتقوم بعمل دقيق، فإن تأتأتها تتراجع قليلًا. ما كان ممكنًا لأي أب أو أم في العالم توقّع أن تكون لذلك صلة بالقنابل. لن يفلح أحد في الانتباه إلى تلك الصلة، فالأمر ليس مقتصرًا عليه. كان اهتمامها بالعلوم اهتمامًا بريئًا تمامًا. كان كل شيء بريئًا.

عثروا على جثة امرأة شابة في ركام البيت المحترق. ثم تمكنوا من تحديد هويتها في اليوم التالي. كانت طالبة سابقة في جامعة كولومبيا. وكانت لها مشاركة في التظاهرات العنيفة ضد الحرب. وهي من أسس مجموعة «ماد دوغز» المتطرّفة المنبثقة عن حركة «طلاب من أجل الديمقراطية». وفي اليوم التالي، تمكنوا من تحديد هوية الفتاة الثانية التي فرت من البيت: ناشطة متطرّفة أخرى، لكنها ليست ميري: فتاة في السادسة والعشرين من العمر هي ابنة محامٍ يساري من نيويورك. وكان أسوأ من ذلك كله عثورهم على جثة أخرى تحت أنقاض البيت المدمَّر في تلك القرية: وجدوا جذع امرأة شابة. «لم يجر على الفور التعرف على هوية جثة الضحية الثانية لذلك الانفجار. لقد قال الطبيب المشارك في التحرّيات الطبية، د. إليوت غروس: 'سوف يستغرق الأمر زمنًا قبل أن تصير لدينا فكرة عن هويتها'!».

كان أبوها، الجالس إلى طاولة المطبخ وحيدًا، يعرف من هي. ستون إصبع ديناميت، وثلاثون صاعقًا، كمية وافرة من القنابل بيتية الصنع... أنابيب بقطر اثني عشر إنشًا محشوة بالديناميت... وجدوها على مسافة عشرين قدمًا من تلك الجثة. كانت القنبلة التي قتلت د. هاملين أنبوبًا واحدًا محشوًا بالديناميت. لقد كانت تلك المرأة عاكفة على تجميع مكوِّنات قنبلة أخرى، لكنها أخطأت في أمر ما فانفجرت القنبلة ودمرت البيت. قتلت ميري هاملين أولًا، ثم قتلت نفسها الآن. لقد فعلتها وقدّمت مفاجأة كبيرة لبلدتها الهادئة... وهذه هي النتيجة. «أكد د. غروس وجود عدد من الجروح في ذلك الجذع الذي وجدوه. كانت جروحًا ناتجة عن مسامير. هذا ما يضفي مصداقية على التقرير الذي صدر عن الشرطة، وقال إن القنابل كانت مجهزة بحيث تلحق أكبر ضرر بالأشخاص، وليس لكي تكون متفجرات فحسب».

جاء الصباح التالي بأخبار عن مزيد من الانفجارات في مانهاتن: تفجيرات متزامنة، في حدود الساعة الواحدة والأربعين دقيقة صباحًا تقريبًا، في ثلاث بنايات في مانهاتن. اتضح أن الجذع ليس جذعها؛ ميري لا تزال حية! لم يكن ذلك الجذع الممزّق الذي ثقبته المسامير جذعها. «نتيجة إنذار مسبق عن طريق الهاتف، وصلت الشرطة إلى الموقع في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة فتمكّنت من إخلاء أربعة وعشرين شخصًا من البوابين وغيرهم قبل وقوع الانفجار».

يجب أن يكون صاحب تلك التفجيرات في وسط مانهاتن هو نفسه صاحب تفجير ريمروك. لو أنها اتصلت قبل انفجار قنبلتها الأولى لما قُتل أحد يومها ولما صارت مطلوبة في جريمة قتل. هذا يعني أنها قد تعلّمت شيئًا، على الأقل؛ ويعني أيضًا أنها لا تزال حية وأن ثمة سببًا يبرر جلوسه في المطبخ كل ليلة منتظرًا رؤيتها من النافذة، وريتا معها.

يقرأ عن أهل الشابتين اللتين لا يزال البحث عنهما جاريًا من أجل استجوابهما في ما يتصل بتفجير ذلك البيت.

يظهر والد واحدة من الفتاتين ووالدتها على التلفزيون فيناشدان ابنتهما أن تكشف عن عدد الأشخاص الذين كانوا موجودين في ذلك البيت وقت الانفجار. تقول الأم: «إن لم يكن هناك أحد آخر، فمن الممكن إيقاف البحث إلى ما بعد إزالة الجدران. إنني واثقة بك...». هذا ما تقوله الأم لابنتها المختفية التي استخدمت البيت، مع رفاقها من حركة طلاب من أجل الديمقراطية، مكانًا لصنع القنابل... «أنت لا تريدين إضافة مزيد من الحزن إلى هذه المأساة. أرجوك، أرجوك، اتصلي أو ابعثي ببرقية أو اجعلي شخصًا يتصل بدلًا منك لتقديم هذه المعلومات. لا نريد معرفة شيء غير أنك بخير؛ ولا نريد قول شيء غير أننا نحبّك ونتمنى أن نتمكّن من مساعدتك».

إنها الكلمات نفسها التي قالها والد صاحبة تفجير ريمروك على التلفزيون عندما اختفت. نحن نحبك ونريد مساعدتك. عندما سئل والد المتهمة بتفجير ذلك البيت «عما إذا كان في ما مضى على تواصل جيد» مع ابنته، كانت إجابته - ولم يكن أقل صدقًا ولا أقل بؤسًا من والد المتهمة بتفجير ريمروك عند إجابته على سؤال

مماثل: «بصفتنا أباها وأمها، فإن علينا الإجابة بالنفي: لم نكن على تواصل جيّد معها في السنوات الأخيرة!». نقلوا عنه قوله إن ابنته كانت تكافح من أجل «تغيير النظام وجعل السلطة في يد تسعين بالمئة من الناس الذين ليست لديهم الآن أية سلطة اقتصادية أو سياسية». إنه ما كانت ميري تكافح من أجله أيضًا. وهو نفسه ما كانت تعلنه أثناء انفجارات غضبها على طاولة العشاء عندما تدين أمها وأبيها الأنانيين ونمط حياتهما البرجوازي.

قالت الشرطة إن والد الفتاة الهاربة الثانية كان «قليل الكلام». لم يقل الرجل إلا «ليست لدي أية معلومات عن مكان وجودها». لقد صدّقه والد صاحبة تفجير ريمروك، وفهم جيدًا عدم رغبته في الكلام. كان يعرف أكثر من أي أب آخر في أميركا عبء العذاب الذي تخفيه تلك الصيغة التي لا عاطفة فيها «ليست لدي أية معلومات عن مكان وجودها». لعله كان سيستغرب ذلك المظهر البارد والشفتين المشدودتين لولا أنه مر بهذا الأمر من قبل، لكنه يعرف حقيقة أن والدَي الفتاة الهاربة يغرقان الآن مثلما هو غارق، يغرقان مثله تمامًا... يغرقان ليل نهار في عدم كفاية تفسير ما حدث.

عثروا على جثة ثالثة بين الأنقاض. كانت جثة رجل ناضج. وبعد أسبوع من ذلك، ظهر في الصحيفة كلام منسوب إلى أم الفتاة الهاربة الثانية فكان تصريحًا بدَّد ما لديه من تعاطف مع أهل الفتاتين. سألوا تلك المرأة عن ابنتها فقالت: «نعرف أنها بخير».

لقد قتلت ابنتها ثلاثة أشخاص، لكنهم يعرفون أنها بخير. وأما ابنته التي لم يُثبت أحد أنها قتلت أي شخص، ابنته التي استغلّها أشرار متطرفون يشبهون من فَجَّروا ذلك البيت في القرية... الذين اعتقلوا... ابنته البريئة... لم يعد يعرف شيئًا. ما علاقتها بهم؟ ابنته لم تفعل ذلك. ليست مسؤولة عن القنبلة التي قتلت د. هاملين بأكثر من مسؤوليتها عن تلك القنبلة التي انفجرت في البنتاغون. منذ سنة 1968، انفجرت آلاف القنابل في أميركا، ولم تكن لابنته أية علاقة بهذا. كيف يعرف هذا؟ لأن داون تعرفه، لأن داون متأكّدة منه. لو كانت ابنتهما هي من قام بذلك التفجير، لما مضت تخبر الأطفال في المدرسة بأن مفاجأة كبيرة ستقع في

بلدة أولد ريمروك. كانت ابنتهما أكثر ذكاء من أن تفعل هذا. لو أنها كانت موشكة على فعله، لما قالت شيئًا أبدًا.

تمر خمس سنين، خمس سنين من البحث عن تفسير، من مراجعة كل شيء، ومن مراجعة الظروف التي كوّنتها، والأشخاص الذين كان لهم أثر عليها، والحوادث التي كان لها أثر عليها... لا شيء من هذا كان كافيًا لكي يتمكّن من تفسير التفجير إلى أن تذكر الرهبان البوذيين، إلى أن تذكّر كيف كانوا يحرقون أنفسهم. وبالطبع، لم تكن آنذاك إلا في العاشرة من عمرها، أو لعلها كانت في الحادية عشرة من عمرها، وصحيح أن مليون أمر قد حدث لها بعد ذلك، قد حدث لهم جميعًا، قد حدث للعالم كله.

على الرغم من بقائها مذعورة عدة أسابيع بعد ذلك، وعلى الرغم من بكائها بسبب ما رأته على شاشة التلفزيون في تلك الليلة، وحديثها عنه، واستيقاظها من نومها عندما تحلم به في الليل، فإن ذلك كلّه لم يكد يغير شيئًا في تفاصيل حياتها. لكنه تذكّر جلوسها هناك ورؤيتها ذلك الراهب يشتعل نارًا... لم تكن مستعدة لرؤية هذا الأمر مثلما لم تكن بقية البلاد كلها مستعدة لرؤيته. كانت طفلة تنظر نصف منتبهة إلى الأخبار مع أبيها وأمها في ليلة من الليالي بعد العشاء... صار الآن واثقًا من اكتشافه سبب ما حدث.

كان ذلك في سنة 1962 أو في سنة 1963، ليس بعيدًا عن اغتيال الرئيس كندي، أي قبل البداية الصريحة للحرب في فيتنام، إذ إن أميركا - بقدر ما يعرف الجميع - كانت لا تزال واقفة على هامش الجنون الذي كان جاريًا هناك. كان الراهب الذي فعل ذلك في السبعينات من عمره، وكان نحيلًا ذا رأس حليق وثوب أحمر بلون الزعفران. جلس على الأرض متربّعًا مشدود الظهر في ذلك الشارع المقفر في مدينة في مكان ما من جنوب فيتنام. جلس بجلال أمام حشد من الرهبان المجتمعين كما لو أنهم أتوا لرؤية طقس ديني. رفع الراهب فوق رأسه وعاءً بلاستيكيًا كبيرًا وسكب ما فيه من بنزين أو كيروسين فتدفّق السائل عليه كلّه وانتشر على الأسفلت من حوله. ثم أشعل عود ثقاب فانبعثت منه هالة من ألسنة اللهب المنطلقة في كل اتجاه.

أحيانًا، يكون في السيرك مؤدٍّ يعلنون عنه باسم «آكل النار». يبدو لمن يرى هذا الشخص أن ألسنة اللهب منطلقة من فمه. وهناك، في شوارع مدينة من مدن فيتنام، جعل ذلك الراهب البوذي حليق الرأس الأمر يبدو كما لو أن كرة اللهب تلك منطلقة من داخله إلى الهواء المحيط به، لا نارًا تهاجمه من الخارج. إلا أنها لم تكن تبدو منطلقة من فمه، بل من رأسه ووجهه وصدره وحضنه وساقيه وقدميه في وقت واحد. ولأنه ظل ساكنًا منتصب الظهر تمامًا ولم يبد عليه أبدًا ما يوحي بشعوره بالاحتراق ولم تتحرك أية عضلة من عضلاته ولم يصرخ أبدًا، فقد كان الأمر في البداية شديد الشبه بتلك الخدعة في السيرك... كما لو أن النار لم تكن تلتهم الراهب، بل تأكل الهواء من حوله. كان ذلك كما لو أن الراهب يشعل الهواء نارًا من غير أن يصيبه أي أذى. ظلت جلسته مثالية، جلسة شخص موجود في مكان آخر، شخص يعيش حياة أخرى مختلفة كل الاختلاف، شخص غارق في تأمل وصفاء لا علاقة لهما بذاته، مجرّد حلقة في سلسلة الوجود لا يمسّها ما يجري له أمام أنظار العالم كله. لا صراخ، ولا تململ، بل هدوء في قلب اللهب... لا ألم تسجّله الكاميرا إلا ألم ميري والسويدي وداون المذعورين في غرفة المعيشة في بيتهم. أتت كرة اللهب تلك من لا مكان فدخلت بيتهم؛ وأتى الراهب ذو القامة المنتصبة واشتعاله المفاجئ قبل أن يسقط أرضًا.. صار أولئك الرهبان جميعًا في بيتهم جالسين على حافة الرصيف ينظرون من غير تأثّر. كانت أكف بعضهم مضمومة أمامهم على الطريقة الآسيوية التي تشير إلى السلام والوحدة. رهبان بوذيون جالسون على الرصيف في بيتهم في أركادي هيل رود، وجثة مسودّة متفحمة منقلبة على ظهرها في ذلك الشارع الخاوي.

كان هذا ما فعل ذلك بها. جاء ذلك الراهب فأقام في بيتهم؛ الراهب البوذي الذي أشعل النار في نفسه بهدوء كما لو أنه كان رجلًا مخدَّرًا لكنه صاحٍ تمامًا. لا بد أن التلفزيون الذي بث إحراق الراهب نفسه هو من فعل ذلك. لو أنّ الجهاز كان على قناة تلفزيونية أخرى، أو كان مطفأً أو متعطّلًا، أو لو أنهم كانوا في الخارج جميعًا يمضون أمسية عائلية في مكان آخر، لما رأت ميري ما لم يكن ينبغي لها

أن تراه، ولما فعلت ما لم يكن ينبغي لها أن تفعله. ماذا لديه من تفسير آخر لما حدث؟ قالت الطفلة النحيلة ذات الأحد عشر عامًا بعد أن وضعها السويدي في حضنه وطوَّقها بذراعيه وشدها إليه وراح يهدهدها بين ذراعيه: «أولئك الناس اللـ طيفون... أولئك الناس اللـ طيفون...». بلغ من ذعرها أول الأمر أنها لم تستطع البكاء. لم تستطع شيئًا غير قول تلك الكلمات الثلاث. في وقت لاحق فقط، بعد لحظات من ذهابها إلى السرير، نهضت وخرجت من غرفتها باكية، فاجتازت الممر ودخلت غرفة نومهما. سألتهما أن تنام في السرير معهما مثلما لم تفعل منذ أن كانت في الخامسة من عمرها. صارت بعد ذلك قادرة على ترك ما في داخلها يخرج منها... كل شيء مرعب كانت تفكّر فيه. ظلّت أنوار غرفة النوم مضاءة طيلة الليل؛ وتركاها تسترسل في التعبير عن نفسها جالسة بينهما تتكلّم إلى أن لم تبق في داخلها كلمات تخيفها أو ترعبها. وعندما سقطت نائمة (في وقت ما بعد الثالثة صباحًا) وظلت أنوار غرفة النوم مضاءة لأنها لم تكن لتتركه يطفئها، كان ما بذلته من جهد في الكلام وفي البكاء كافيًا لجعلها تفقد كل قواها. «أيكون عليك أن تحـ تحـ تحرق نفسك بالنار حتى يعـ يعـ يعـ يعود الناس إلى رشـ رشدهم؟ أما من أحد يبالي؟ أما من أحد لديه ضمير؟ أليس في هذا العالـ العالم أحد لديه ضمير؟». كانت شفتاها ترتعشان كلّما نطقت كلمة «ضمير» فتنفجر باكية.

ما الذي يستطيعون قوله لها؟ وما الإجابة التي يمكن أن يقدّموها لها؟ نعم، إن لدى بعض الناس ضميرًا، بل إن لدى أكثر الناس ضميرًا؛ لكن من المؤسف أن هناك أشخاصًا ليس لديهم ضمير. هذه حقيقة. إن حظك طيب يا ميري لأن لديك ضميرًا متطورًا جدًا. أمر مثير للإعجاب أن يكون لدى شخص في مثل سنك هذا الضمير. نفتخر بأن لنا ابنة لديها هذا الضمير كلّه، وبأنها معنية إلى هذا الحد بحسن عيش الآخرين، وبأنها قادرة على التعاطف مع معاناة الآخرين.

ظلت أسبوعًا كاملًا غير قادرة على النوم وحيدة في غرفتها. صار السويدي يقرأ الصحف بعناية حتى يكون قادرًا على أن يفسر لها ما جعل ذلك الراهب البوذي يفعل ما فعله. إن للأمر صلة بالجنرال دييم، برئيس جنوب فيتنام. والأمر

على صلة أيضًا بالفساد، وبالانتخابات، وبالنزاعات الإقليمية والسياسية المعقّدة، ولا بد أن له علاقة ما بالبوذية نفسها... وأما بالنسبة إليها، فما كان للأمر أية علاقة إلا بالحدود القصوى التي يجد الناس اللطيفون أنفسهم مضطرين إلى اللجوء إليها في عالم تعيش أكثرية سكانه العظمى من غير ذرة ضمير.

تمامًا عندما بدا عليها أنها قد تمكّنت من تجاوز إحراق الراهب البوذي المسنّ نفسه في ذلك الشارع في جنوب فيتنام، وصارت قادرة على النوم في غرفتها من غير إبقاء المصباح مضاء، ومن غير أن تستيقظ صارخة مرتين أو ثلاث مرات في الليلة الواحدة، حدث الأمر من جديد فأضرم راهب فيتنامي آخر النار في نفسه، ثم فعلها ثالث، ثم رابع... ومع بداية ذلك، وجد السويدي نفسه غير قادر على إبعاد ابنته عن شاشة التلفزيون. إذا فاتتها متابعة إحراق راهب نفسه في أخبار المساء، تستيقظ في الصباح الباكر لترى المشهد في أخبار الصباح قبل ذهابها إلى المدرسة. لم يعرِّفها كيف السبيل إلى إيقاف ذلك. كانت تتابع تلك المشاهد، وتتابعها، كما لو أنها قد اعتزمت ألّا تتوقف عن متابعتها. لم يكن يريد إزعاجها بمنعها من متابعتها؛ لكن تجنّب إزعاجها من خلال تركها تفعل ذلك لم يكن طريقة حسنة لعدم إزعاجها. هل كانت تحاول فهم الأمر فحسب؟ هل كانت تحاول ضبط ذعرها منه؟ هل كانت تحاول إدراك ما يعنيه أن يكون المرء قادرًا على أن يفعل شيئًا كهذا؟ هل كانت تتخيّل نفسها واحدة من أولئك الرهبان؟ هل كانت تتابع تلك المشاهد لأنها ما زالت مذعورة منها، أم بحثًا عن الإثارة فيها؟ ما صار مصدر قلق له، بل مصدر خوف أيضًا، هو فكرة أن فضول ميري قد فاق خوفها. وسرعان ما صار إحراق الذات في فيتنام هاجسًا لديه هو أيضًا، وإن لم يكن مثل هاجسها. صار هاجسًا عنده لأنه أحدث تغيرًا في ابنته ذات الأحد عشر عامًا. في ما مضى، كانت رغبتها الدائمة في معرفة الأشياء مصدر اعتزاز كبير لديه منذ أن كانت صغيرة. لكن، هل يريد الآن أن تكون ابنته راغبة في معرفة الكثير عن شيء كهذا؟

أهي خطيئة أن يقدِمَ المرء على إنهاء حياته؟ وكيف يستطيع الآخرون الوقوف جانبًا والاكتفاء بالفرجة؟ لماذا لا يوقفونه؟ لماذا لا يطفئون النار؟ إنهم يقفون

جانبًا ويتركون التلفزيون يصور ما يجري. إنهم يريدون بث ما يجري على التلفزيون. أين ذهب حسّهم الأخلاقي؟ وماذا عن الحسّ الأخلاقي لدى الطواقم التلفزيونية التي تصوّر ذلك؟ أهذه هي الأسئلة التي كانت تطرحها على نفسها؟ وهل هي جزء ضروري من تطوّرها الذهني؟ لم يكن يعرف الإجابة عن ذلك. كانت تراقب ما يُعرض بصمت تام وتظلّ ساكنة مثل سكون الراهب الجالس في قلب اللهب، ثم لا تقول شيئًا بعد ذلك؛ وحتى إذا كلّمها أبوها، أو طرح عليها أسئلة، فإنها تظلّ جامدة دقائق طويلة أمام جهاز التلفزيون ونظرتها مركّزة على مكان آخر غير الشاشة الوامضة، مركّزة على داخلها... داخلها حيث يفترض أن يكون اليقين والانسجام، حيث كان يعمل كل ما لم تكن تعرفه على إطلاق، تحوّل عملاقًا... داخلها حيث لا يخبو ولا يختفي شيء مما قد سُجّل...

على الرغم من عدم معرفته كيف يوقفها، فقد حاول أن يتوصّل إلى سبل يتمكّن بها من حرف انتباهها إلى شيء آخر، ومن جعلها تنسى هذا الجنون الجاري في الجهة الأخرى من العالم لأسباب لا علاقة لها بها ولا بعائلتها - صار يأخذها في الأمسيات لكي تلعب الغولف معه. كما أخذها إلى بضع مباريات لفريق يانكيز. ثم أخذها مع أمها في رحلة سريعة إلى مصنعه في بورتوريكو، أمضوا بعدها عطلة أسبوع كامل على شاطئ البحر في بونسي. بعد ذلك، في يوم ما، نسيت بالفعل... لكن نسيانها لم يأت نتيجة أي شيء مما فعله. لقد نسيت الأمر لأن حوادث إحراق النفس قد توقفت! تكرّرت تلك الحوادث خمس مرات، أو ستًا، أو سبعًا، ثم لم يعد هناك المزيد. وبعد ذلك بفترة قصيرة، عادت ميري إلى طبيعتها، وعادت إلى التفكير في الأشياء ذات الصلة بحياتها اليومية، أي في تلك الأشياء التي هي أكثر تناسبًا مع عمرها.

وعندما اغتيل دييم، رئيس فيتنام الجنوبية، بعد شهور من ذلك (قالت الأخبار الصباحية في محطة CBS إن الولايات المتحدة هي من اغتالته عن طريق CIA بعد أن كانت هي من أوصلته إلى السلطة أصلًا) - ذلك الرجل الذي كان الرهبان البوذيون يضحّون بحياتهم احتجاجًا عليه. بدا أن تلك الأخبار قد مرّت بميري مرور الكرام فلم يتطوع السويدي بإعلامها بالأمر. بحلول ذلك الوقت، لم

يعد ذلك المكان الذي اسمه فيتنام موجودًا بالنسبة إلى ميري. وإذا كان قد ظل شيء منه في ذاكرتها، فقد كان صورة غريبة يصعب تخيّلها شكّلت خلفية مشهد تلفزيوني غامض طبع نفسه في عقلها الغضّ عندما كانت في الحادية عشرة مع عمرها.

لم تتذكر بعد ذلك أي شيء على صلة بإحراق الرهبان البوذيين أنفسهم، حتى بعد أن صارت ملتزمة بموقفها السياسي الاحتجاجي. وبدا أن مصير أولئك الرهبان في سنة 1963 منعدم الصلة بما تبلور عندها ووجد لنفسه تعبيرًا عنه في سنه 1968، فكان معارضة عنيفة للتورط الإمبريالي لأمريكا الرأسمالية في حرب تحرّر وطني فلاحية. إلا أن أباها صار يمضي أيامًا وليالي محاولًا إقناع نفسه بأن ما من وجود لأي تفسير آخر، وبأن ما من شيء فظيع آخر قد حدث لها، وأن ما من شيء آخر يمكن أن يكون - ولو من بعيد - حدثًا صادمًا كبيرًا إلى الحد الكافي لأن يفسر قيام ابنته بتفجير تلك القنبلة.

مرت خمس سنين. ثم حوكمت في سان فرانسيسكو أنجيلا ديفيس التي كانت أستاذة للفلسفة في سن ريتا كوهن تقريبًا (ولدت في ألاباما سنة 1944 قبل ثماني سنين من ولادة صاحبة تفجير ريمروك في نيوجرسي). وكانت أستاذة شيوعية في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، معادية للحرب. اتهمت أنجيلا ديفيس بالخطف والقتل والتآمر. واتهمت بأنها وفّرت البنادق التي استُخدمت في محاولة مسلحة لتحرير ثلاثة محكومين سود في سجن سان كوينتين خلال محاكمتهم. وقيل أيضًا إنها اشترت البندقية التي قتلت القاضي قبل أيام فقط من المعركة التي جرت في المحكمة. عاشت شهرين متخفية تمكّنت خلالهما من تضليل الـ«إف بي آي» إلى أن ألقي القبض عليها في نيويورك ونُقلت إلى كاليفورنيا. زعم أنصارها في أنحاء العالم، في فرنسا والجزائر والاتحاد السوفييتي، أنها كانت ضحية محاكمة سياسية. وحيثما نقلتها الشرطة تحت الحراسة، كان سود وبيض يقفون منتظرين في الشوارع القريبة حاملين لافتات أمام كاميرات التلفزيون، وكانوا يصيحون: «أطلقوا سراح أنجيلا. أنهوا الاضطهاد السياسي! أنهوا العنصرية! أنهوا الحرب!».

كان شعرها يذكّر السويدي بريتا كوهن. وكان يتذكّر، كلما رأى تلك الأجمة الشائكة المحيطة برأسها، ما كان يتعيّن عليه فعله في بعد ظهر ذلك اليوم في غرفة الفندق. ما كان يجوز أن يتركها تفلت منه وتهرب مهما كلّف الأمر!

صار الآن يتابع أخبار التلفزيون حتى يرى أنجيلا ديفيس. وصار يقرأ عنها كل ما تقع عليه يده. يعرف أن أنجيلا قادرة على إيصاله إلى ابنته. يتذكّر الآن أنه دخل غرفة ميري ذات يوم سبت عندما كانت لا تزال في البيت. كانت قد ذهبت إلى نيويورك. فتح الدرج السفلي في طاولة الزينة، ثم جلس إلى مكتبها وقرأ كل ما كان في ذلك الدرج... تلك المواد السياسية كلها، والمنشورات، والكراسات، والكتيبات المصورة الساخرة. كانت لديها نسخة من البيان الشيوعي. من أين حصلت عليها؟ لا يمكن أن تكون قد حصلت عليها في أولد ريمروك. من الذي يزوّدها بهذه المطبوعات كلّها؟ أهما بيل وميليسا؟ لم تكن مجرّد كتابات تهاجم الحرب، بل أشياء كتبها أشخاص يريدون الإطاحة بالرأسمالية وبحكومة الولايات المتحدة، أشخاص يزعقون منادين بالعنف وبالثورة. كان أمرًا مخيفًا له أن يرى تلك الفقرات التي وضعت ابنته، الطالبة المجتهدة، خطوطًا لتعليمها؛ إلا أنه لم يستطع التوقف عن القراءة. صار مقتنعًا الآن بأنه قادر على تذكر شيء كتبته أنجيلا ديفيس كان موجودًا في ذلك الدرج. لكنه ما كان قادرًا على التأكّد من ذلك لأن عملاء الـ«إف بي آي» صادروا المطبوعات كلّها فوضعوها في أكياس جمع الأدلة وختموا تلك الأكياس، ثم أخذوها معهم. فتّشوا غرفتها تفتيشًا دقيقًا باحثين عن بصمات واضحة لأصابعها حتى يستخدموها لمضاهاتها بما قد يجدونه في مسرح أية جريمة. جمعوا فواتير هاتف البيت حتى يتتبّعوا مكالمات ميري. فتشوا غرفتها بحثًا عن مخابئ سرية: انتزعوا ألواح الأرضية من تحت سجّادتها، وفكوا الألواح الخشبية عن الجدران، وأنزلوا المصباح المعلّق في السقف. فتشوا الملابس التي في خزانتها باحثين عما قد يكون مخفيًا في أكمامها. بعد وقوع الانفجار، منعت شرطة الولاية حركة السير في شارعهم، وأغلقت المنطقة، ثم أمضى اثنا عشر عميلًا من عملاء الـ«إف بي آي» ست عشرة ساعة في تفتيش البيت، من علّيّته إلى قبوه. وعندما وصلوا إلى المطبخ آخر

الأمر، فتشوا كيس المكنسة الكهربائية بحثًا عن «أوراق» فأطلقت داون صرخة ذهول. أكان ذلك كلّه لأن ميري تقرأ كارل ماركس وأنجيلا ديفيس؟ نعم... يتذكّر الآن كيف جلس إلى مكتب ميري وقرأ أنجيلا ديفيس بنفسه، كيف انكبَّ على ذلك الكتاب متسائلًا كيف تمكّنت طفلته من قراءته. كان يقول في نفسه إن قراءة هذه المواد أشبه بالغوص عميقًا في البحر. يشبه الأمر أن يضع المرء قناع الغوص الذي تكاد «نافذته» تكون ملتصقة بوجهه، وأن يضع في فمه أنبوب الهواء، فلا يعود لديه مكان يذهب إليه، لا يعود لديه حيّز للحركة ولا فتحة يستطيع الهروب منها. شيء يشبه قراءة تلك المنشورات الصغيرة وبطاقات القديسين المصورة التي كانت جدة ميري تعطيها إياها في إليزابيث. لقد كبرت الطفلة فتجاوزت تلك الأشياء، لحسن الحظ. لكنها ظلت زمنًا غير قليل تصلّي للقديس أنتوني كلما أضاعت قلمها، وتصلّي للقديس جود كلما خامرها شك في أنها لم تستعد لامتحانها استعدادًا كافيًا. وكلّما جعلتها أمّها تمضي صباح يوم السبت في تنظيف غرفتها وترتيبها، كانت تصلّي للقديس جوزيف، راعي العمال الكادحين. ذات مرة، عندما كانت في التاسعة من عمرها، زعم نفر من المغرقين في التديّن في كيب ماي أن مريم العذراء قد ظهرت لأطفالهم في موقد شي اللحوم، تقاطر الناس إلى ذلك المكان آتين من مسافات بعيدة وتجمهروا يرقبون فناء ذلك البيت، فسحر المشهد ميري. لعل سرّ ظهور العذراء في نيوجرسي كان أقل سحرًا عندها من أن أطفالًا قد وقع عليهم الاختيار لرؤية ذلك الظهور. قالت لأبيها: «ليتني أستطيع رؤية ذلك الظهور». وأخبرته عن ظهور مريم العذراء لثلاثة أطفال من الرعاة في فاتيما في البرتغال، فأومأ برأسه وأمسك لسانه. لكن أبوه سمع من حفيدته بقصة ظهور العذراء في كيب ماي فقال لها: «أظنهم سيرونها في المرة القادمة في متجر بيري كوين»، فما كان من ميري إلا أن ردّدت ما قاله أمام جدتها في أليزابيث. وعند ذلك، صلّت الجدة دواير للقديسة آن طالبة منها مساعدة ميري في البقاء على الكاثوليكية على الرغم من نشأتها. إلا أن سنتين فقط كانتا كافيتين لجعل القديسين يختفون والصلوات تختفي من حياة ميري. كفّت عن وضع «الميدالية العجائبية» التي

تحمل صورة العذراء المباركة بعد أن كانت قد أقسمت لجدتها دواير بأن تضعها «إلى الأبد» من غير أن تخلعها، حتى عند الاستحمام. لقد كبرت فتجاوزت القديسين مثلما ستكبر وتتجاوز الشيوعية. كانت ستكبر، وستتجاوز هذا... لأن ميري تكبر وتتجاوز كل شيء. كانت في حاجة إلى بضعة شهور فقط. لعلها كانت في حاجة إلى بضعة أسابيع، لا أكثر، قبل أن يُنسى أمر تلك المواد التي في الدرج نسيانًا تامًا. ما كان عليها فعل شيء غير الانتظار. ليتها استطاعت أن تنتظر. تلك هي قصة ميري باختصار. إنها فتاة نافدة الصبر. كانت نافدة الصبر دائمًا. لعل التأتأة هي ما كان يجعلها نافدة الصبر؛ من عساه يدري؟ لكن، مهما يكن الأمر الذي يستحوذ على عواطفها، فإنه كان يستحوذ عليها مدة سنة، لا أكثر. كانت تواظب على ذلك سنة، ثم تتخلّى عنه بين عشية وضحاها. لو ظلت في البيت سنة واحدة، لصارت جاهزة للذهاب إلى الكلّية. وبحلول ذلك الوقت، ستكون قد وجدت شيئًا جديدًا آخر تكرهه، وشيئًا جديدًا آخر تحبّه، وشيئًا جديدًا يستحوذ على اهتمامها... هكذا كانت الأمور ستجري.

كان السويدي جالسًا إلى طاولة المطبخ ذات ليلة عندما ظهرت له أنجيلا ديفيس مثلما ظهرت «سيدة فاتيما» لأولئك الرعاة الأطفال في البرتغال، مثلما ظهرت «العذراء المباركة» في كيب ماي. قال في نفسه: «أنجيلا ديفيس قادرة على إيصالي إليها»... وها هي الآن هنا. جالسًا في المطبخ وحده تلك الليلة، بدأ السويدي حديثًا من القلب إلى القلب مع أنجيلا ديفيس. كان حديثًا عن الحرب، ثم عن كل شيء مهم بالنسبة إليهما. تصوّرها بأهداب عينين طويلة، وتصوّر قرطيها الكبيرين المتدليين، فرأى أنها أكثر جمالًا مما تبدو على شاشة التلفزيون. ساقاها طويلتان؛ وهي تحب ارتداء تنورات قصيرة ملوَّنة لإظهار ساقيها. شعرها عجيب. تنظر من تحت ذلك الشعر نظرة تحدٍّ كأنها قنفذ. يقول ذلك الشعر: «لا تقترب إذا كنت لا تحب الألم».

يخبرها ما تريد سماعه، ويصدّق ما تخبره به. عليه أن يصدّقه. تثني على ابنته وتدعوها «جندية في سبيل الحرية، ورائدة من رواد النضال العظيم ضد الاضطهاد». تقول له إن عليه أن يفخر بجرأتها السياسية. إن الحركة ضد

الحرب حركة ضد الرأسمالية؛ وعندما عبّرت ميري عن احتجاجها بالطريقة الوحيدة التي تفهمها أميركا، فقد وقفت تلك الفتاة ذات الستة عشر عامًا في طليعة الحركة، وكانت جان دارك الحركة. ابنته رأس حربة المقاومة الشعبية للحكومة الفاشية وقمعها الإرهابي لمن يعارضها. لم يكن ما فعلته جرمًا إلا بحسب التعريف الذي تضعه للجريمة دولة مجرمة بكل معنى الكلمة لا تتورع عن شن عدوان غاشم في أي مكان من العالم للمحافظة على التوزيع غير المتساوي للثروة وعلى المؤسسات القمعية التي تحمي الهيمنة الطبقية. تشرح له أن عصيان القوانين القمعية، بما فيه العصيان العنيف، تقليد يعود تاريخه إلى حركة إبطال العبودية... إن ابنته مثل جون براون(28)!

- 4 -

بعد أربعة أشهر من اختفاء ميري، أتت إلى السويدي فتاة ضئيلة الجسم، شديدة البياض، زعمت أنها في السادسة والعشرين من عمرها، لكنها بدت في نصف سن ميري. كان اسمها الآنسة ريتا كوهن. كانت ملابسها أشبه بملابس رالف آبرميثي، خليفة مارتن لوثر كينغ، فقد ارتدت أوفرولًا فضفاضًا وانتعلت حذاء كبيرًا بشعًا. كان شعرها أشبه بأجمة من أسلاك تؤطّر وجهها الطفولي الباهت. كان عليه أن يدرك هويتها على الفور لأنه انتظر قدوم شخص من هذا النوع طيلة الشهور الأربعة. لكنها كانت ضئيلة جدًا، صغيرة جدًا، ذات مظهر بعيد كل البعد عن إحداث أي أثر، فكان شبه عاجز عن تصديق أنها طالبة في مدرسة وارتون للمال والأعمال في جامعة بنسيلفانيا (تقوم بإعداد أطروحة عن صناعة الجلود في نيوارك، نيوجرسي)؛ وشبه عاجز أيضًا عن تصديق أنها الشخص المحرّض الذي كان مشرفًا على ميري ضمن مشروع الثورة العالمية.

يوم أتت ريتا كوهن إلى المصنع، لم يكن السويدي عارفًا أنها أتت في وقت سابق، فدخلت وخرجت عبر بوابة القبو الكائنة تحت رصيف التحميل، وذلك حتى تتفادى فريق المراقبة الذي كلّفه مكتب التحقيقات الفيدرالي بالمرابطة في سنترال آفنيو ومراقبة حركة الدخول والخروج لكل من يزور مكتبه.

كان يحدث ثلاث مرات في السنة، أو أربع مرات، أن يتّصل معه أحدهم - أو

يكتب له - طالبًا إذنًا لرؤية المصنع. في الأيام الخوالي، كان لو ليفوف (على الرغم من انشغاله الدائم) يجد متّسعًا من الوقت من أجل زيارات تلاميذ مدرسة نيوارك، أو فرق الكشافة، أو بعض الشخصيات البارزة التي يرافقها أشخاص من غرفة التجارة، أو من سلطات المدينة. وعلى الرغم من أن سرور السويدي بكونه واحدًا من أقطاب صناعة القفازات لم يكن بقدر سرور أبيه، وعلى الرغم من أنه ما كان قادرًا على أن يزعم لنفسه مكانة أبيه في أي أمر متصل بصناعة الجلود (أو في أي أمر آخر)، فقد كان يساعد الطلبة أحيانًا فيجيب عن أسئلتهم على الهاتف، أو يعرض عليهم مرافقتهم في جولة في المصنع إذا بدا له الطالب جادًّا في اهتمامه.

وبطبيعة الحال، ما كان يمكن أبدًا أن يرتّب حدوث هذا اللقاء في المصنع لو أنه عرف مسبقًا بأن تلك الطالبة لم تكن طالبة في حقيقة الأمر، بل مبعوثة من ابنته الهاربة. وأما السبب الذي جعل ريتا تمتنع عن الإشارة إلى من أرسلها، وعن قول أي شيء عن ميري حتى انتهت الجولة، فلم تكن رغبتها في التعرف عليه أولًا... أو لعل من الأصح القول إن سبب امتناعها عن التطرّق إلى أي شيء خلال تلك الفترة كلّها لم يكن إلا بغرض الاستمتاع بالتلاعب به. لعلّها كانت مستمتعة بتلك السلطة. لعلّها كانت شخصًا سياسيًا آخر يكمن استمتاعه بالسلطة خلف القسم الأكبر مما يفعله.

كان كل من السويدي والنساء العاملات على الآلات قادرين على رؤية الآخر عبر القواطع الزجاجية التي تفصل مكتبه عن قسم الإنتاج. لقد رتب الأمر على هذا النحو حتى يتخلّص من ضجيج الآلات مع بقائه على تواصل مع العاملين في المصنع. كان أبوه قد رفض حبس نفسه في أي نوع من المكاتب، سواء أكانت محاطة بالزجاج أم غير ذلك. زرع مكتبه في وسط صالة الإنتاج بين مئتي آلة خياطة... أليس هو مالك خليّة النحل المزدحمة هذه، الجالس في قلبها بين أزيز المقصّات وهدير الآلات، متحدثًا على الهاتف مع عملائه ومقاوليه، عاملًا على دفاتره وأوراقه في الوقت نفسه؟ كان يزعم أنه غير قادر، إلا إذا كان جالسًا في الصالة، على تمييز الصوت المختلف الذي تطلقه آلة الخياطة

«سنجر» عند أي خلل يصيبها، فيكون عند تلك الآلة من فوره حاملًا مفكّه قبل أن تتمكّن الفتاة العاملة عليها من إخبار مشرفتها بوجود مشكلة في آلتها. هذا ما شهدت عليه رئيسة العاملات المسنّة السوداء فيكي (بطريقتها الساخرة الخاصة في إبداء إعجابها) في حفل تقاعده. حين يعمل الجميع من غير أية مشكلات، فقد كان لو ليفوف يظل قلقًا نافد الصبر - كما قالت فيكي - ويظلّ مديرًا يصعب احتماله... وأما عندما تأتيه واحدة من عاملات القصّ مشتكية من رئيسة العمال؛ وعندما تأتيه رئيسة العمال مشتكية من واحدة من عاملات القص؛ وعندما تصل الجلود متأخّرة عدة شهور، أو معطوبة أو متدنّية الجودة؛ وعندما يكتشف أن مقاول توريد البطانة يغشّه، أو أن موظف الشحن يسرقه؛ أو عندما يقرّر أن عامل تفصيل القفازات، الذي يضع نظارة شمسية ويقود سيارة كورفيت حمراء، ليس إلا مقامرًا يدير ألعاب مراهنة بين العاملات، فإنه يستشيط غضبًا ويهبّ نشيطًا إلى إعادة الأمور إلى نصابها... وهكذا راح المتحدّث قبل الأخير، الابن المعتزّ بأبيه، يقدّم ذلك الأب بعبارات مازحة لقيت أكبر الترحيب في تلك الأمسية... «كان قادرًا على أن يدفع بنفسه - ويدفعنا كلنا معه - إلى حافة الجنون من خلال قلقه الدائم. غير أن انزعاجه لم يكن ليدوم طويلًا، على الرغم من ترقّبه الدائم لوقوع الأسوأ. ولم يكن أي شيء قادرًا على مغافلته. يبيّن لنا هذا، مثلما يبيّن لنا كل شيء في شركة نيوارك ميد، أن القلق يؤدي الغاية منه. سيداتي وسادتي، الرجل الذي كان معلّمي طيلة حياتي - لم يعلّمني فن القلق وحده - الرجل الذي جعل حياتي كلّها تعلّمًا مفيدًا دائمًا وإن يكن صعبًا بعض الأحيان، الذي شرح لي منذ أن كنت صبيًا في الخامسة سر الوصول بالمنتج إلى الكمال... 'اعملْ عليه'... سيداتي وسادتي، الرجل الذي عمل على منتجاته ونجح فيها منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه ليبدأ دباغة الجلود عندما كان عمره أربعة عشر عامًا، سيد صانعي القفازات الذي يعرف عن هذه الصناعة أكثر مما يعرفه أي شخص آخر على وجه الأرض، السيد نيوارك ميد، أبي، لو ليفوف». قاطعه السيد نيوارك ميد: «انظر؛ لا تدع أحدًا يخدعك في هذه الليلة. إنني أجد في العمل متعة. وأجد متعة في صناعة القفازات. أستمتع بالتحدّي، ولا تعجبني

فكرة التقاعد. أظنّها أول خطوة في اتجاه القبر. لكن شيئًا من هذا كله لا يقلقني... لسبب كبير واحد: لأنني أوفر الناس حظًا في هذا العالم. إنني محظوظ بسبب كلمة واحدة هي أكبر الكلمات في العالم، وأبسطها. العائلة. لو أن أحد المنافسين أخرجني من السوق، فلن تجدني واقفًا مبتسمًا هنا - أنت تعرفني - سأقف هنا وأصرخ. لكن من يخرجني من العمل ليس إلا ابني الحبيب. لقد حظيت بنعمة أن تكون لي أروع عائلة يمكن أن يرغب فيها إنسان. زوجة رائعة، ولدان رائعان. أحفاد رائعون».

طلب السويدي من فيكي إحضار جلد خروف إلى المكتب، ثم جعل تلك الفتاة من مدرسة وارتون تتحسّسه.

قال لها: «هذا جلد معالج بطريقة التخليل، لا بالدباغة. إنه جلد خروف ذي وبر. ليس له صوف مثل الخراف المستأنسة، بل وبر».

سألته: «ماذا يحدث لذلك الوبر؟ هل يستخدم؟».

«سؤال جيّد. يستخدم الوبر لصناعة السجاد. يصنعون منه سجادًا في أمستردام وفي نيويورك. بيغيلو. موهاوك(23). لكن القيمة الأكبر هي قيمة الجلد. ليس الوبر إلا منتجًا ثانويًا. كما أن كيفية نزع الوبر عن الجلد، وكل ما يلي ذلك، قصة مختلفة تمامًا. قبل ظهور الخيوط التركيبية، كان أكثر السجاد المصنوع من هذا الوبر رخيصًا. هناك شركة تعاقدت على شراء الوبر كلّه من المدابغ من أجل صانعي السجاد، لكنك لست في حاجة إلى هذه المعلومات...». قال هذا عندما لاحظ أن الملاحظات التي دوّنتها قد ملأت الصفحة الأولى حتى قبل أن يبدأ حديثهما بداية حقيقية. قال لها وقد تأثّر بدقتها - التي جذبته أيضًا -: «وأما إذا كنت مهتمة بالأمر - فأنا أرى هذه الأشياء مترابطة كلها معًا، يمكنني أن أرسلك لكي تتحدّثي مع أولئك الناس. أظن أن تلك العائلة لا تزال في المنطقة. إنه ميدان لا يعرفه أكثر الناس. شيء مثير للاهتمام. شيء مثير للاهتمام حقًّا. لقد وقع اختيارك على موضوع جذّاب حقًّا، يا آنستي».

منحته ابتسامة دافئة وقالت: «هذا ما أظنه بالفعل».

«على أية حال، فإن هذا الجلد...». كان قد استعاد الجلد منها وراح يمسد على

حافته بإبهامه كما يداعب المرء قطة حتى يجعلها تهرّ... «يدعى كابريتا بحسب مصطلحات هذه الصناعة. خرفان صغيرة الحجم، صغيرة العمر. لا تعيش إلا بالقرب من خط الاستواء. ثلاثون درجة شمالًا، وثلاثون درجة جنوبًا». خرفان برّية نوعًا ما لأنها ترعى بمفردها - تملك الأسرة الواحدة في تلك القرى أربعة أو خمسة خرفان فحسب، وهم يتركونها ترعى معًا في الغابة -. لكن الجلد الذي كان بين يديك ليس هو الجلد في حالته الأصلية. إننا نشتريها في مرحلة يسمّونها مرحلة التخليل. يكونون قد أزالوا الوبر عنها وعالجوها من أجل حفظها قبل إحضارها إلينا. كنا في ما مضى نجلبها خامًا - بالات ضخمة مربوطة بالحبال فيها جلود جرى تجفيفها في الهواء فحسب. إن لدي قائمة شحن في واقع الأمر. إنها في مكان ما هنا، ويمكنني العثور عليها إذا كنت راغبة في الاطلاع عليها - نسخة من قائمة شحن من سنة 1970. جرى إفراغ تلك الجلود في بوسطن مثلما كنا نأتي بها حتى العام الماضي. لقد ظلّت تأتينا من تلك الموانئ في أفريقيا».

كان كلامه معها مثل كلام أبيه تمامًا. وكان مدركًا أن كل كلمة من كل جملة نطقها لسانه كانت من كلمات أبيه التي سمعها قبل أن ينهي المدرسة الابتدائية؛ ثم سمعها ألفي مرة، أو ثلاثة آلاف مرة، خلال عشرات السنين التي أدارا فيها العمل معًا. كان الكلام في المهنة تقليدًا لدى العائلات العاملة في قطاع القفازات توارثته منذ مئات السنين. وفي أكثر تلك العائلات كان الأب ينقل أسرار المهنة إلى ابنه، ومعها تاريخ الصنعة وتقاليدها. يصح الأمر نفسه على المدابغ حيث تكون عملية الدباغة أشبه بالطهو فتتناقل الأجيال وصفاتها، من الآباء إلى الأبناء. هكذا هي الحال في مصانع القفازات، وهكذا هي الحال في صالات تفصيل الجلد وقصه. كان معلمو قص الجلد الإيطاليون القدامى يدرّبون أبناءهم ويعلّمونهم الصنعة، فيتلقّى الأبناء ذلك التعليم من آبائهم مثلما تلقاه آباؤهم من آبائهم. منذ أن كان السويدي طفلًا في الخامسة حتى بلغ سن الرشد، كان الأب مرجعية لا تنازَع: كان قبول مرجعيته هو نفسه اكتساب حكمته وخبرته التي جعلت شركة نيوارك ميد تنتج أفضل القفازات النسائية في البلاد. سرعان ما وقع السويدي في حب تلك الأشياء نفسها التي أحبها أبوه، وكذلك في حب

المصنع. وصار كلامه مثل كلام أبيه كلّما تطرّق الحديث إلى نيوارك أو إلى الجلود أو إلى القفازات.

لم يشعر بهذه الرغبة المتدفّقة في الكلام منذ أن اختفت ميري. وحتى ذلك الصباح، ما كان يريد شيئًا غير أن يبكي، أو أن يختبئ. لكنه كان مضطرًا إلى الاهتمام بزوجته وبعمله، وإلى أن يعرّج على أبيه وأمه، لأن حالة عدم التصديق كانت قد أصابت الجميع بالشلل وهزّتهم هزًا. لم يحدث أبدًا من قبل أن تآكل الغلاف الواقي الذي وفره لعائلته وجعل العالم يراه. لكن الكلمات صارت الآن تتدفّق منه تدفّقًا وتجعله يعوم فوقها... كلمات أبيه التي انطلقت من فمه أمام هذه الفتاة الضئيلة المجتهدة التي تتلقّفها تلقّفًا. قال في نفسه إنها صغيرة الحجم حتى لا تكاد تبلغ حجم الأطفال الذين كانوا مع ميري في الصف الثاني، أولئك الذين ارتحلوا مسافة ثمانية وثلاثين ميلًا قادمين من مدرستهم الريفية ذات يوم في أواخر الخمسينات حتى يريهم والد ميري كيف يصنع القفازات، وحتى يريهم خاصّة موقع ميري السحري على طاولة التوضيب حيث تبلغ عملية صناعة القفاز منتهاها، فيسوّي العمال كل قفاز قبل كيه بعناية بتمريره على أذرع نحاسية مطلية بالكْروم مسخنة بالبخار. كانت تلك الأذرع حارة إلى درجة خطيرة، وكانت ناتئة من الطاولة إلى الأعلى على هيئة صف لامع من أكف رقيقة كأنها أكف جفّفت حتى تسطحت، ثم بترت... أكف مبتورة على نحو جميل تعوم في فضاء أشبه بأرواح الموتى. عندما كانت ميري فتاة صغيرة، كانت مسحورة بهذا اللغز الذي دعته «فطيرة الأيدي». كانت ميري الصغيرة تقول لزملائها في الصف: «عليكم أن تجنوا خمسة دولارات من الدزينة الواحدة». هذا ما كانت تسمع عمال القفازات يقولونه دائمًا منذ ولادتها... ينبغي أن يكون هدفك الحصول على خمسة دولارات للدزينة الواحدة، مهما كلف الأمر. ميري الصغيرة تهمس لمعلمتها: «إن الغش الذي يمارسه الناس في ما يتعلّق بسعر الدزينة مشكلة على الدوام. كان أبي مضطرًا إلى طرد أحد العمال. لقد كان يسرق الوقت». السويدي يقول لها: «حبيبتي، اتركي بابا يقود الجولة. هل اتفقنا؟». ميري الصغيرة تعجب للفكرة الساحرة، فكرة سرقة الوقت. ميري

تجري من طابق لآخر معتزة شديدة الإحساس بأنها صاحبة المصنع، متباهية بأنها تعرف عمّاله جميعًا، غير مدركةٍ بعد ذلك التدنيس للكرامة الملازم للاستغلال العنيف للعمال من قبل صاحب المصنع الجشع، المستغلّ، الجائع إلى تحقيق الربح، ذلك الذي يملك وسائل الإنتاج من غير حق.

لا عجب في أن يجد نفسه منطلقًا هكذا، راغبًا في الكلام من غير توقّف. لوهلة وجيزة، عاد الوضع كما كان. ما من قنبلة انفجرت، وما من شيء قد أصابه الخراب. لقد اجتازت تلك العائلة رحلة المهاجرين كلّها، اجتازت مسار المهاجرين الصاعد من غير انقطاع، الصاعد من الجد الكبير الذي كان أشبه بالأقنان، إلى الجد صاحب الإرادة القوية، إلى الأب المستقل البارع الواثق من نفسه، إلى أعلى وآخر طبقة من تلك الطبقات كلّها، إلى طفلة الجيل الرابع التي كان ينبغي أن تكون أميركا جنّة لها. لا عجب في أنه لم يعد يعرف كيف يسكت. كان السكوت مستحيلًا. وكان السويدي مستسلمًا أمام الأمنية البشرية العادية، أمنية أن يعيش الماضي مرة أخرى، أن يمضي بضع لحظات مسالمة خدّاعة بين آمال الماضي الكبيرة عندما عاشت العائلة حقيقة لا علاقة لها أبدًا بالتحريض على الدمار، بل بتفادي الدمار والفرار منه، فتغلّبت على آلامها الغامضة بأن خلقت لنفسها يوتوبيا وجود عقلاني.

سمعها تسأله: «كم يبلغ عدد الجلود في الشحنة الواحدة؟».

«كم يبلغ عدد الجلود؟ عدة آلاف دزينة من الجلود».

«وكم عدد الجلود في البالة الواحدة؟».

أعجبه اكتشاف أنها مهتمة باكتشاف أدق التفاصيل. نعم... جعله الكلام مع هذه الطالبة المهتمّة من مدرسة وارتون قادرًا - على نحو مفاجئ - على أن يحب شيئًا بعد أن صار عاجزًا عن حب أي شيء، بل عاجزٌ عن احتمال أي شيء، وحتى عن فهم أي شيء واجهه طيلة شهور أربعة ميتة. لقد صار يحسّ الفناء في كل شيء. أجابها: «إن فيها مئة وعشرين جلدًا».

سألته وهي تواصل تدوين ملاحظاتها: «وهل تأتي الجلود مباشرة إلى قسم الشحن عندكم؟».

«بل تأتي إلى المدبغة أولًا. إن المدبغة متعاقدة معنا. نشتري المواد، ثم نرسلها إلى المدبغة. نحدّد لهم نوع المعالجة المطلوبة، فيحولونها إلى جلد جاهز لأن نستخدمه. لقد عمل جدي وأبي في المدبغة التي في نيوارك. وكذلك عملت بنفسي هناك مدة ستة أشهر عندما بدأت العمل في هذا المجال. هل ذهبت إلى مدبغة من قبل؟».

«ليس بعد».

«حسنًا، إذا كنت ستكتبين عن صناعة الجلود، فإن عليك أن تذهبي إلى مدبغة. سوف أرتّب ذلك من أجلك، إن أحببت. إنها أماكن بدائية. لقد تطوّرت الأمور بفعل التكنولوجيا، لكن ما سترينه ليس مختلفًا كثيرًا عما كان يمكن أن يراه المرء قبل مئة سنة من الآن. عمل فظيع. يقال إن الدباغة أقدم صناعة وُجدت آثارها في أي مكان في العالم. لقد وجدوا آثارًا للدباغة عمرها ستة آلاف سنة. وجدوها في مكان ما... في تركيا على ما أظن. كانت ملابس الإنسان الأولى مصنوعة من جلود الحيوانات بعد تدخينها. قلت لك إن هذا الموضوع يصير أكثر إثارة للاهتمام عندما يتعمّق المرء فيه. أبي هو عالِم الجلود الحقيقي. إنه الشخص الذي كان ينبغي أن تتحدّثي إليه. لكنه الآن يعيش في فلوريدا. ابدأي معه حديثًا عن القفازات وسوف يتكلّم يومين متواصلين. وبالمناسبة، هذا أمر مألوف. يحب صانعو القفازات مهنتهم. ويحبون كل ما يتعلق بها. قولي لي، هل رأيت من قبل صناعة أي شيء؟ يا آنسة كوهن».

«لا يمكنني القول إنني رأيت».

«ألم تري أي شيء يُصنع؟».

«عندما كنت طفلة، كنت أرى أمي تصنع لنا فطيرة».

ضحك السويدي. لقد جعلته يضحك. هذه الفتاة البريئة المشاكسة التوّاقة إلى التعلم. كانت ابنته أطول من ريتا كوهن بأكثر من قدم. وكانت شقراء، في حين كانت ريتا سمراء. لكن ريتا كوهن، على الرغم من ضآلة حجمها، بدأت تذكّره بميري قبل أن يصيبها الاشمئزاز منهم، وقبل أن تصير عدوة لهم. الذكاء الطيّب الذي كانت تشعّه فينتشر في البيت كلّه عندما تعود من المدرسة مفعمة بما تعلّمته

في الصف. كيف كانت تتذكّر كل شيء... وكيف كانت تكتب كل شيء بأناقة في دفتر ملاحظاتها فتحفظه عن ظهر قلب.

«سأقول لك ما سنفعله. سوف أجعلك ترين العملية كلها، من أولها إلى آخرها. هيا بنا، سوف نصنع لك زوجًا من القفازات، وسوف تشاهدين مراحل صناعته كلها. أي مقاس تستخدمين؟».

«لست أدري. المقاس الصغير».

كان قد نهض من خلف مكتبه ودار حوله مقتربًا منها ثم أمسك بيدها. قال: «مقاس صغير جدًا. أظن أن مقاسك أربعة». كان قد أخرج من درج مكتبه العلوي شريط قياس في آخره حلقة على شكل حرف D فلف الشريط من حول كفّها وأدخل نهايته الأخرى في الحلقة، ثم شده على يدها. «سنرى إن كنت مصيبًا في تخميني. أطبقي كفك». أطبقت كفها فتمدّد شريط القياس قليلًا. قرأ السويدي المقاس مكتوبًا على الشريط بالإنشات الفرنسية(24). «إنه أربعة. هذا أصغر مقاس لقفازات السيدات. أيُّ مقاس أصغر من هذا يكون للأطفال. هيا بنا، لتري كيف نصنعه».

أحسّ كأنه قد خطا عائدًا فدخل فم الماضي عندما سارا جنبًا إلى جنب، فصعدا درجات السلم الخشبي القديم. سمع نفسه يقول لها (وفي الوقت نفسه، كان يسمع أباه يقول له): «يجري تصنيف الجلود في الجهة الشمالية من المصنع حيث لا وجود لأشعة الشمس المباشرة. بهذه الطريقة، يمكنك دراسة جودة الجلود. لا تستطيعين الرؤية في ضوء الشمس المباشر. تكون غرفة القص والتصنيف في الجهة الشمالية دائمًا. التصنيف في الأعلى. والقص في الطابق الثاني. وصنع القفازات في الطابق الأول، حيث دخلت. وأما الطابق السفلي، فهو للتوضيب والشحن. سوف يكون مسارنا من الأعلى إلى الأسفل».

هذا ما فعلاه. وقد كان سعيدًا. لم يستطع منع نفسه. لم يكن هذا صحيحًا. لم يكن هذا حقيقيًا. لا بد من فعل شيء ما لإيقافه. لكنها كانت مشغولة بتسجيل الملاحظات، فلم يستطع التوقف... فتاة تعرف قيمة العمل الجاد، تنتبه جيدًا، وتهتم بما يجب أن يثير اهتمامها، تهتم بتحضير الجلد، وبصناعة القفازات...

كان مستحيلًا عليه أن يجعل نفسه يتوقّف.
عندما يعاني أحد ما مثلما كان السويدي يعاني، تكون مطالبته بألّا يضلل نفسه بهذا الانتعاش اللحظي، مهما يكن منشأ هذا الانتعاش ملتبسًا، مطالبةً بالكثير الكثير.
كان في غرفة القصّ خمسة وعشرون رجلًا يعملون معًا موزعين حول طاولات، نحو ستة حول كل طاولة؛ فقادها السويدي إلى أكبرهم سنًا، وقال لها إن هذا هو «المعلّم»، رجل قصير أصلع في أذنه جهازٌ لتقوية السمع. واصل الرجل عمله على قطعة مستطيلة من الجلد. قال السويدي: «إنها القطعة التي يصنع منها القفاز. ندعوها 'ترانك'!». واصل المعلّم عمله مستخدمًا مقصًّا ومسطرة بينما كان السويدي يخبرها بالمزيد عنه. خفّة في قلبه؛ وسيل كلامه المتواصل الذي لا يفعل شيئًا لإيقافه تاركًا ثرثرة أبيه تندفع من فمه من غير توقّف.
كانت غرفة القصّ المكان الذي جعل السويدي يتبع أباه إلى عالم القفازات، فهي المكان الذي كان على يقين من أنه شهد تحّوله من صبي إلى رجل. غرفة القص ذات السقف المرتفع، الغرفة الفائضة نورًا، كانت بقعته المفضلة في المصنع منذ أن كان طفلًا فحسب، حيث كان عمال القص الأوروبيون يأتون إلى عملهم جميعًا في ملابس من ثلاث قطع، قمصان بيضاء منشاة على أكمامها أزرار معدنية، وربطات عنق، وبنطلونات ذات حمالات. كان كل واحد منهم يخلع معطفه بعناية ويعلّقه في الخزانة؛ لكن ذاكرة السويدي لم تعرف أبدًا واحدًا منهم يخلع ربطة عنقه. ثم تستمر عملية خلع الصدّار ثوانيَ قليلة، يليها طي أكمام القمصان ورفعها قبل ارتداء مئزر أبيض نظيف والانكباب على القطعة الأولى من الجلد: فصلُها عن نسيج الموسلين الرطب الذي يغلّفها، وفردها، وبدء تسويتها. كانت النوافذ الكبيرة في الجدار الشمالي تلقي على طاولات القصّ المصنوعة من الخشب الصلب نورًا باردًا متوازنًا لا بد منه لتصنيف القطع الجلدية والملاءمة بينها وقصّها. النعومة المصقولة لحوافّ الطاولات المدورة التي نعّمتها على مر السنين جلود الحيوانات التي بُسطت عليها، كانت شديدة

الإغراء للصبي الذي كان عليه أن يمنع نفسه من الاندفاع عليها ووضع خده على تلك الحواف الخشبية المحدّبة... يمنع نفسه من فعل ذلك إلى أن يكون وحيدًا في الصالة. ارتسم على الأرض الخشبية خط غائم من أثر الأقدام حيث يقف الرجال طيلة اليوم عند تلك الطاولات؛ فكان يحب أن يذهب، عندما يخلو المكان له، فيقف بحذائه حيث كانت الأرضية مهترئة. كان ينظر إلى العمال يقصّون الجلد وهو عارف أنهم النخبة في هذا العمل، وأنهم يعرفون ذلك، وأن المدير يعرفه أيضًا. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم رجالًا أكثر أرستقراطية من أي شخص في المكان، بما في ذلك صاحب العمل، فقد كانت أيدي عمال القصّ متقرنة من حمل المقص الكبير الثقيل. كانت من تحت تلك القمصان البيضاء أذرع وصدور وأكتاف مفعمة بقوة الرجل العامل - كان لا بد لها أن تكون قوية حتى يواصل أصحابها بسط الجلد وشدّه طيلة حياتهم، وحتى يواصلوا اعتصار كل قطعة اعتصارًا حتى يُستفاد من كل إنش فيها.

كان قدر كبير من «اللعق» يجري في المكان؛ وكان كل قفاز ينال نصيبه من اللعاب. لكن والد السويدي كان يقول مازحًا: «المشترون لا يعرفون شيئًا عن هذا». يبصق عامل القص في مادة التحبير الجافة، ثم يدعك الفرشاة عليها من أجل تحبير الخاتم الذي يرقّم به الأجزاء التي يقصها من كل جلد. وبعد أن ينجز قص زوج من القفازات، يضع إصبعه على لسانه ويرطب القطعتين المرقمتين بحيث تلتصقان معًا قبل أن تحزما بشريط مطاطي وتنتقلا إلى رئيسة عاملات الخياطة وإلى العاملات. وأما ما لم يستطع الصبي تجاوزه، فهو سلوك أوائل عمال القص الألمان المشتغلين في شركة نيوارك ميد، فقد كان الواحد منهم يضع كأس بيرة كبيرة إلى جانبه ويرتشف منها. كانوا يقولون إن هذا من أجل «إبقاء الصفارة رطبة»، والمحافظة على سيولة لعابهم. سرعان ما تمكّن لو ليفوف من التخلص من البيرة؛ فماذا عن اللعاب؟ لا. لا يمكن لأحد أن يستغني عن اللعاب. كان ذلك جزءًا لا يتجزأ عن كل ما أحبوه... الابن والوريث والأب المؤسّس.

«يستطيع هاري قصّ القفاز بمهارة لا تقل عن مهارة أي واحد منهم». كان

هاري - المعلم - واقفًا إلى جانب السويدي تمامًا يقوم بعمله من غير أن يلقي بالًا إلى كلمات رئيسه... «لم يمض على عمله في نيوارك ميد إلا واحد وأربعون عامًا؛ لكنه يحاول تطوير نفسه. إن على من يقصّ الجلد أن يتصوّر مسبقًا كيف يمكن أن يستخرج من الجلد الواحد أكبر عدد من القفازات. وبعد ذلك، يكون عليه أن يقصّه. يقتضي قصّ الجلد بطريقة صحيحة قدرًا كبيرًا من المهارة. إن العمل على طاولة القصّ فن. لا وجود لجلدين متماثلين. تكون الجلود مختلفة بحسب طعام كل حيوان، وبحسب سنّه. يكون كل جلد مختلفًا عن الآخر من حيث قابليته للبسط. مدهشة هي المهارة اللازمة لجعل كل قفاز يبدو مماثلًا للقفاز الآخر. الأمر نفسه نجده في الخياطة. لم يعد الناس راغبين في ممارسة هذا العمل. لا يمكنك أن تأخذي خيّاطة تعرف كيف تعمل على آلة الخياطة التقليدية، أو تعرف كيف تخيط فستانًا، فتجعلينها تبدأ خياطة القفازات هنا. إن عليها أن تمرَّ بعملية تدريب تستمر ثلاثة أو أربعة شهور، وعليها أن تتمتّع بأصابع شديدة الدقة، وأن تتمرّن كثيرًا، تمر ستة شهور قبل أن تصير على قدر كافٍ من المهارة وتبلغ كفاءتها ثمانين بالمئة. إن خياطة القفازات عملية معقّدة كثيرًا. إذا أردت صنع قفازات جيدة، فإن عليك أن تنفقي مالًا وأن تدربي العمال. يقتضي الأمر قدرًا كبيرًا من الانتباه والعمل الجاد... تلك الانحناءات والتعرّجات كلها حيث تلتقي الأصابع... أمر ليس سهلًا على الإطلاق. عندما افتتح أبي أول ورشة لصناعة القفازات، كان الناس يأتون ويعملون لديه طيلة حياتهم. هاري آخر واحد منهم. غرفة القص هذه واحدة من أقدم غرف القص في الشطر الغربي من العالم. لا نزال نعمل بأقصى طاقاتنا الإنتاجية. ولا يزال لدينا هنا أشخاص يعرفون ما يقومون به. لم يعد أحد يقص القفازات بهذه الطريقة؛ ليس في هذه البلاد التي لم يعد فيها أحد يعرف كيف يقصّها؛ وليس في أي مكان آخر، ربما باستثناء ورشات عائلية صغيرة في إيطاليا وفرنسا، في نابولي وفي غرونوبل. في ما مضى، كان العاملون هنا جميعًا ممن يمضون أعمارهم كلّها في هذا العمل. ولدوا في صناعة القفازات، وماتوا في صناعة القفازات. إننا اليوم نعمل دائمًا على إعادة تدريب الناس. وأما في اقتصادنا

الحالي، فإن الناس يأتون للعمل هنا، ثم يذهبون إذا سنحت لهم فرصة عمل آخر يجنون فيه خمسين سنتًا إضافيًا في الساعة».

كانت تسجّل ذلك كلّه في دفترها.

«عند بداية دخولي ميدان العمل، أرسلني أبي إلى هذا المكان لكي أتعلّم القص. عندها لم أكن أفعل شيئًا غير الوقوف عند طاولة القص ومراقبة ما يفعله هذا الرجل. لقد تعلمت الصنعة وفق الطريقة التقليدية. من الأسفل إلى الأعلى. جعلني أبي أبدأ بكناسة الأرض... حرفيًا. ثم مضيت عبر كل قسم من الأقسام حتى صار عندي إحساس بكل عملية من العمليات ومعرفة بسببها. تعلمت من هاري كيف أقصّ القفاز. لن أقول إنني كنت عامل قص شديد المهارة! إذا قصصت زوجين في اليوم الواحد، أو ثلاثة أزواج، فإن هذا إنجاز كبير. لكني تعلّمت المبادئ الأولية... أليس هذا صحيحًا يا هاري؟ إنه معلّم متطلِّب، هذا الرجل! يكون حريصًا على كل تفصيل من التفاصيل عندما يعلّمك شيئًا. جعلني التعلّم من هاري أكاد أحن إلى تعليم أبي. منذ اليوم الأول، جعلني هاري أفهم الأمر جيدًا. قال لي إن فتية يأتون إليه حيث يعيش، فيدقّون بابه ويقولون: ‘هل تعلّمني أن أكون عامل قصّ قفازات؟’ فتكون إجابة هاري: ‘عليك أن تدفع لي أولًا خمسة عشر ألف دولار لأن هذه هي قيمة ماستهدره من الوقت والجلد قبل أن تصل إلى نقطة تصير عندها قادرًا على كسب الحد الأدنى من الأجر!’.

أمضيت في مراقبته شهرين كاملين قبل أن يسمح لي بالاقتراب من الجلد. في المتوسط، يستطيع عامل قصّ الجلد إنجاز ثلاث دزينات، أو ثلاث دزينات ونصف الدزينة في اليوم الواحد، ويستطيع عامل قص جيد سريع إنجاز خمس دزينات في اليوم. وأما هاري فهو قادر على إنجاز خمس دزينات ونصف دزينة في اليوم الواحد. كان يقول لي: ‘أتظنني ماهرًا؟ كان ينبغي أن ترى أبي!’. ثم أخبرني عن أبيه، وعن الرجل طويل القامة من سيرك بارلوم وبيلي. هل تتذكّر هذا يا هاري؟’ - أومأ هاري برأسه - ‘... عندما أتى سيرك بارلوم وبيلي إلى نيوارك... هل كان ذلك في سنة 1917 أم في سنة 1918؟’. أومأ هاري برأسه مرة أخرى من غير أن يتوقّف عن عمله... ’حسنًا، أتوا إلى المدينة، وكان لديهم

رجل طويل يكاد طوله يبلغ تسع أقدام، أو نحو ذلك. رآه والد هاري في الشارع ذات يوم. كان يسير هناك عند تقاطع شارع بورد وماركت. دبّت فيه حماسة كبيرة، ففك رباط حذائه وجرى إلى الرجل فقاس كفه بالرباط؛ قاس كفه هناك، في الشارع، ثم عاد إلى البيت وصنع له زوجًا ممتازًا من القفازات من قياس سبعة عشرة. قصّ والد هاري ذلك القفاز، ثم خاطته أمه. وبعد ذلك، ذهبا إلى السيرك وقدّما الهديّة إلى ذلك الرجل الطويل، فحصلت الأسرة كلّها على تذاكر مجانية. وفي اليوم التالي، نشرت نيوارك نيوز قصة والد هاري الغريبة'!».

صحّح هاري كلامه: «كانت صحيفة ستار إيغل».

«صحيح. كان ذلك قبل اندماجها بصحيفة ليدجر».

قالت الفتاة ضاحكة: «رائع! لا بد أن والدك كان شديد المهارة».

قال لها هاري: «لم يكن يعرف كلمة إنكليزية واحدة».

أجابت الفتاة: «ألم يكن يتكلّم الإنكليزية؟ حسنًا، هذا دليل على أن المرء ليس في حاجة إلى معرفة اللغة الإنكليزية حتى يتمكّن من قصّ زوج قفازات ممتاز من أجل رجل يبلغ طوله تسع أقدام».

لم يضحك هاري، لكن السويدي ضحك؛ ضحك وأحاطها بذراعه قائلًا: «هذه هي ريتا. سوف نصنع لها قفازًا أنيقًا، مقاس أربعة. هل تفضّلين القفاز أسود اللون أم بنّيًّا، يا عزيزتي؟».

«أفضله بنّيًّا».

تناول هاري جلدًا ذا لون بنّي شاحب كان بين مجموعة جلود مرطّبة من خلفه. قال لها السويدي: «من الصعب العثور على هذا اللون. إنه دباغة بريطانية. يمكنك أن تري كيف يحتوي على مجموعة كبيرة من تدرّجات اللون. انظري كم يكون اللون خفيفًا هنا، وكم هو داكن هناك! حسنًا، إنه جلد خروف. الجلد الذي رأيته في مكتبي كان معالجًا بالتخليل. وأما هذا، فهو مدبوغ. صحيح أنه جلد، لكنك قادرة على رؤية الحيوان نفسه. إذا نظرت إلى الحيوان، فها هو رأسه، ومؤخرته، وقائمتاه الأماميتان، وقائمتاه الخلفيتان؛ وهذا هو الظهر حيث يكون الجلد أقسى وأكثر ثخانة، كما يكون الجلد على ظهورنا...».

عزيزتي. لقد بدأ يدعوها بكلمة عزيزتي منذ صارا في صالة القص، ثم لم يعد قادرًا على إيقاف نفسه. كان هذا حتى قبل أن يدرك أن وقوفه إلى جانبها يجعله أقرب إلى ميري من أي وقت مضى منذ تفجير السوبرماركت واختفاء عزيزته. هذه مسطرة فرنسية. يزيد طولها على المسطرة الأميركية قرابة إنش واحد... وهذا ما ندعوه «سكين البطاطا». إنها سكين كليلة مشطوفة الحافة، لكنها غير حادة. إن هاري يشد الجلد على الطاولة؛ يشده على النموذج. يحب هاري أن يراهنك على أنه قادر على وضعه على النموذج بشكل صحيح، حتى من غير أن يمسّ النموذج. لكني لا أراهنه أبدًا لأني لا أحب أن أخسر. هذا ما ندعوه فرشاة... انظري، إنه شيء مصنوع بدقة فائقة. سوف يقص هاري قفازك ويسلّمني إياه حتى ننزل إلى قسم الخياطة. وهذه هي آلة التشقيق، يا عزيزتي. إنها العملية الميكانيكية الوحيدة في صناعتنا كلّها. مكبس وقالب. تستوعب آلة التشقيق أربع قطع في المرة الواحدة... قالت ريتا: «واو. إنها عملية شديدة الدقة».

«هذا صحيح. يصعب جني المال في صناعة القفازات لأنها تتطلّب عملًا كثيفًا... عملية تستهلك الكثير من الوقت. ولا بد من التنسيق بين عدد كبير من الأعمال. إن القسم الأكبر من قطاع صناعة القفازات مؤلّف من شركات عائلية، صنعة يورثها الآباء للأبناء، عمل تقليدي جدًا. المنتَج ليس إلا منتجًا في نظر الكثير من المصنّعين. وكثيرًا ما نجد أن الشخص الذي يصنع منتجًا من المنتجات لا يعرف عنه شيئًا؛ لكن قطاع صناعة القفازات ليس هكذا. إن لهذه الصناعة تاريخًا طويلًا جدًا».

«هل يشعر بقية الناس برومانسية صناعة القفازات، مثلما تشعر أنت، يا سيد ليفوف؟ أنت مفتون حقًا بهذا المكان، وبكل ما فيه من عمليات تصنيعية. أظن أن هذا ما يجعلك رجلًا سعيدًا».

سألها وهو يحسّ كما لو أنه موشك على الخضوع لعملية تشريح، للتقطيع بسكين، لأن يُفتح فيظهر كل ما في داخله من بؤس «هل أنا سعيد؟ أظنني سعيدًا».

«هل أنت آخر الموهيكان؟»(25).

«لا، لست آخرهم. أظن أن لدى معظم المشتغلين بهذه الصناعة الإحساس نفسه تجاه تقاليدها، والحب نفسه تجاهها. فالأمر يتطلّب حبًا ويتطلب وجود إرث يحفّز الإنسان على البقاء والاستمرار في عمل من هذا النوع. لا بد أن تجمعك به رابطة قويّة حتى تتمكّني من الصمود فيه». بعد أن تمكّن - على نحو عابر - من إبعاد كل ما يخيفه ويخيّم على روحه، وحتى من النجاح في أن يظلّ قادرًا على الحديث بدقة كبيرة على الرغم من قولها له إنه رجل سعيد، قال لها: «هيا بنا. فلنذهب الآن إلى صالة الخياطة».

«هذه هي عملية التنعيم. إنها حكاية في حد ذاتها. لكن هذا ما ستفعله العاملة أولًا... ندعو هذه آلة بيكيه. إنها تعطي غرزات خياطة ناعمة جدًا. ندعوها أيضًا غرزات بيكيه. وهي تستلزم قدرًا من المهارة أكبر كثيرًا مما يستلزمه أي نوع آخر من الغرزات.... وهذه آلة الصقل - هذه ندعوها آلة «المطّ» وأنا أدعوك عزيزتي - وأنا أدعى بابا - وهذا يدعى عيشًا - والآخر يدعى موتًا - وهذا يدعى جنونًا - وهذا يدعى حدادًا - وهذا يدعى جحيمًا - جحيمًا صرفًا لا بد لك من صلات قوية حتى تستطيعي التخلّص منه - وهذا يدعى محاولة المتابعة كما لو أن شيئًا لم يحدث - وهذا يدعى دفع الثمن، من أجل ماذا بحق الله؟ - وهذا يدعى رغبتي أن أكون ميتًا، وفي أن أعثر عليها، وأن أقتلها، وأن أنقذها من ذلك الذي تمر به، من كل ما لعلها تعانيه في هذه اللحظة - وهذا التدفق المستمر يدعى ثرثرة عن كل شيء؛ وهو من غير نفع - أنا شبه مجنون - كانت قوة التدمير في تلك القنبلة كبيرة جدًا.... وبعد ذلك، عادا إلى مكتبه من جديد، وانتظرا إلى أن يأتي قفاز ريتا من قسم الإنهاء. كان يردد لها عبارة مفضّلة عند أبيه، عبارة قرأها في مكان ما، ثم صار يستخدمها دائمًا لإحداث انطباع قوي لدى زواره. سمع نفسه يردّدها أيضًا، كلمة فكلمة، كما لو أنها كانت من عنده. ليته يستطيع جعلها تبقى، جعلها تظلّ هنا ولا تذهب. ليته يستطيع مواصلة حديثه لها عن القفازات. عن القفازات، وعن الجلود، وعن مشكلته المخيفة، أن يرجوها... أن يتوسل إليها... لا تتركيني وحيدًا مع هذه الأحجية الرهيبة...

«لدى السعادين والغوريلات أدمغة. ولدينا أدمغة أيضًا. لكن ليس لديهم هذا الشيء، الإبهام. لا يستطيعون تحريك الإبهام مثلما نحركه نحن. إنه الإصبع القادر على مقابلة باطن اليد كلّها. لعله السمة الجسدية التي تميزنا عن بقية الحيوانات كلّها. إن القفاز يحمي هذا الإصبع. قفاز السيدات، وقفاز عامل اللحام، والقفاز المطاطي، وقفاز البيسبول. إلخ. هذا هو جذر البشرية... هذا الإبهام القادر على مقابلة بقية الأصابع. إنه يُمكّننا من صنع الأدوات وبناء المدن، وكل شيء آخر. إنه أكثر أهمية من الدماغ. لعل أدمغة بعض الحيوانات الأخرى أكبر من أدمغتنا بالمقارنة مع أجسادها. لست أدري. لكن اليد في حد ذاتها شيء بالغ التعقيد. إنها تتحرّك. ليس في جسد الإنسان أيُّ جزءٍ آخر على هذا القدر من تعقيد بنية حركته...». وفي تلك اللحظة، فتحت فيكي الباب حاملة زوجًا من القفازات من مقاس أربعة... «ها هو». قالت فيكي: «ها هو الزوج». قدّمته إلى مديرها الذي نظر إلى القفازين أولًا، ثم انحنى من فوق المكتب حتى تراهما الفتاة. «أترين هذه الخياطة؟ عرض الخياطة عند حافة الجلد... هنا تظهر الجودة والمهارة. قد لا يتجاوز هذا الهامش جزءًا من ثلاثين جزء بين الخياطة والحافة. لا بد من سوية مهارة مرتفعة لفعل هذا. لا بد من سوية مهارة أعلى كثيرًا من الحدّ العادي. إذا لم يكن القفاز حسن الخياطة، فقد يبلغ عرض هذه الحافة جزءًا من ثمانية أجزاء من الإنش. ثم إنها لن تكون مستقيمة. انظري إلى استقامة هذه الدرزات. هذا ما يجعل قفاز شركة نيوارك ميد قفازًا جيدًا، يا ريتا. السبب هو درزات الخياطة المستقيمة. السبب هو الجلد الفاخر. إنه حسن الدباغة. إنه طري ناعم. إنه لدن قابل للطي. رائحته كرائحة سيارة جديدة من الداخل. أحبّ الجلد الجيد. وأحبّ القفازات الفاخرة. لقد ترعرعت على فكرة صنع أفضل قفّازات يمكن صنعها. يسري هذا في دمي؛ ولا شيء يمنحني مسرّة أكثر منه». كان متمسّكًا بهذا الفيض من الكلام مثلما يتمسّك المريض بأية علامة من علامات الصحة، مهما تكن تلك العلامة ضئيلة... «لا شيء يمنحني مسرة أكثر من إعطائك هذين القفازين الجميلين. تفضّلي... مع تحياتنا». قال هذا وهو يقدّم لها القفازين، فما كان منها إلا أن أدخلت يديها فيهما متحمّسة. قال

لها: «مهلًا، مهلًا. عليك دائمًا أن تشدّي القفاز بأصابعك. أدخلي الأصابع أولًا، ثم الإبهام، ثم شدّي المعصم. ينبغي دائمًا أن تكون الحركة بطيئة عند لبس القفاز أول مرة». رفعت رأسها ونظرت إليه مبتسمة له بسرور مثل سرور أي طفل يتلقّى هديّة. رفعت يديها في الهواء حتى تريه جمال القفازين وكم كانا مناسبين ليديها. قال السويدي: «أطبقي كفك. شدي قبضتك. هل تحسّين كيف يتوسّع القفاز حيث تتوسّع يدك عند شدّ قبضتك، وكيف يتكيّف بلطف مع تغيّر مقاس يدك؟ هذا ما يفعله عامل القص عندما يقوم بعمله على الوجه الصحيح - لا يترك طولًا إضافيًا، بل يتخلّص من أي طول زائد لأنك لا تريدين أن تتمطّط أصابع القفاز. لكنه يُبقي على قدر محسوب من إمكانية التمطّط العرضاني. يجب أن يكون هذا التمطّط العرضاني محسوبًا بكل دقّة».

قالت له وهي تفتح قبضة يدها وتغلقها، ثم تفتح قبضة يدها الأخرى وتغلقها: «صحيح، صحيح. شيء رائع. ممتاز تمامًا. فليبارك الرب الحسابات الدقيقة في هذا العالم!». قالت هذا وضحكت، ثم أضافت: «الحسابات التي تترك في عرض القفاز إمكانية تمدّد خفية». انتظرت إلى أن خرجت فيكي من غرفة المكتب الزجاجية وأغلقت الباب الزجاجي من خلفها عائدة إلى ضجيج قسم الخياطة، ثم قالت له بصوت خافت جدًّا: «إنها تريد دفترها الذي وضعت فيه قصاصات أودري هيبورن».

في الصباح التالي، قابل السويدي ريتا في موقف السيارات في مطار نيوارك حتى يعطيها الدفتر. انطلق من مكتبه، فقاد سيارته أول الأمر متّجهًا إلى منتزه برانتش بروك الذي يبعد أميالًا في الاتجاه المعاكس لاتجاه المطار. خرج من السيارة، وتنزّه وحده قليلًا. سار إلى حيث كانت أشجار الكرز الياباني المزهرة. جلس على أحد المقاعد برهة، وراح ينظر إلى كبار السنِّ الذين يتنزهون هناك مع كلابهم. ثم عاد إلى السيارة وقادها عابرًا الحي الإيطالي في شمال نيوارك حتى بلغ بيلفيل، وظل ينعطف يمينًا مدة نصف ساعة إلى أن قرّر أن أحدًا لا يتعقّبه. لقد حذّرته ريتا من الذهاب إلى موعدها من غير تلك الالتفافات كلِّها.

وفي الأسبوع الذي تلا ذلك، في موقف السيارات عند المطار، سلّمها خفَّيّ

الباليه وفستان الباليه. كانت ميري تستخدم هذه الأشياء عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. وبعد ثلاثة أيام، أتاها بدفتر يوميات التأتأة.

كان الدفتر بين يديه. لقد قرّر الآن أن الوقت قد حان لقول الكلمات التي كان يسمعها من زوجته قبل كل لقاء من هذه اللقاءات مع ريتا... هذه اللقاءات التي التزم فيها تمامًا بعدم فعل أي شيء مخالف لما طلبته ريتا، ولم يطلب منها شيئًا في المقابل. قال لها الآن: «بالتأكيد... بالتأكيد... يمكنك الآن أن تخبريني شيئًا عن ميري. إن لم يكن شيئًا عن مكانها، فكيف حالها».

قالت ريتا بنبرة حادّة: «بالتأكيد، لا أستطيع إخبارك».

«أريد التكلّم معها».

«حسنًا، إنها لا تريد أن تتكلّم معك».

«لكن، إذا كانت تريد هذه الأشياء... لماذا تريد هذه الأشياء إذا لم تكن تريد أي احتكاك».

لم يكن ما قامت به ميري فعلًا جرميًا، بل فعلٌ سياسيٌ ضمن الصراع الطبقي الجاري بين فاشيي الثورة المضادة وقوى المقاومة: السود، والمكسيكيون، والبورتوريكيون، والهنود، ورافضو الخدمة العسكرية، والناشطون ضد الحرب، وأبطال بيض من الأطفال مثل ميري نفسها. يعمل هؤلاء من خلال وسائل قانونية، أو من خلال ما دعته أنجيلا «وسائل فوق قانونية»، من أجل الإطاحة بالدولة البوليسية التي أقامتها الرأسمالية. عليه ألّا يكون قلقًا على حياة ابنته الهاربة... ميري ليست وحدها، فهي جزء من جيش من ثمانين ألفًا من الراديكاليين الشباب الذين انتقلوا إلى العمل السري حتى يكونوا أقدر على محاربة المظالم الاجتماعية التي يرعاها النظام الاقتصادي السياسي القمعي.

تقول له أنجيلا إن كل شيء سمعه عن الشيوعية ليس إلا كذبًا. عليه أن يمضي إلى كوبا إذا أراد رؤية النظام الاشتراكي الذي ألغى الظلم العرقي واستغلال العمال، النظام المنسجم مع حاجات شعبه وتطلعاته.

تقول له إن الإمبريالية سلاح يستخدمه البيض الأثرياء حتى يدفعوا للعمال السود أجرًا أقل مقابل عملهم، فيلتقط الفرصة ويخبرها عن فيكي، رئيسة

العاملات السوداء التي أمضت ثلاثين سنة في مصنع نيوارك ميد. امرأة ضئيلة الحجم ذات ذكاء مدهش، وذات نشاط واندفاع وصدق. أمّ لطفلين تخرّجا في مدرسة نيوارك رودجرز، دوني وبلين. كلاهما في المدرسة الطبّية الآن. يخبرها كيف ظلّت فيكي وحدها معه على مدار الساعة في المصنع خلال أحداث الشغب التي وقعت سنة 1967. كان مكتب العمدة ينصح الجميع، عبر الإذاعة، بالخروج من المدينة فورًا. إلا أنه بقي في مصنعه لأنه رأى أن وجوده هناك يمكن أن يحمي المكان من النهّابين والمخرّبين، وكذلك للسبب الذي يجعل الناس يبقون عندما يضرب بلدتهم إعصار: لأنهم غير قادرين على ترك الأشياء التي يحبّونها.ولسبب من هذا النوع، بقيت فيكي أيضًا.

حتى تهدّئ فيكي المشاركين في أعمال الشغب ممن قد يأتون من جادة ساوث أورينج حاملين مشاعلهم، ما كان منها إلا أن وضعت في نوافذ الطابق الأول من مصنع نيوارك ميد، حيث تكون واضحة تمامًا، لافتات كبيرة بيضاء من الكرتون كتبت عليها بحبر أسود: «أكثر العاملين في هذا المصنع زنوج». وبعد ليلتين، أطلقت عصبة من رجال بيض النار على كل نافذة فيها تلك اللافتات. لعلّهم كانوا من الحرس المتطوّعين من شمال نيوارك، أو (هذا ما ظنّته فيكي) عناصر من شرطة نيوارك في سيارة مدنية. أطلقوا النار على النوافذ، ثم مضوا في طريقهم. كانت تلك هي الأضرار التي أصابت مصنع نيوارك ميد خلال الأيام والليالي التي اشتعلت فيها مدينة نيوارك. إنه يروي هذا للقديسة أنجيلا.

أتت فصيلة من رجال الحرس الوطني الشباب الذين كانت مهمّتهم في ذلك الشارع أن يعزلوا منطقة الشغب، فخيّمت عند بوابات التحميل في مصنع نيوارك ميد، وذلك في اليوم الثاني من المعركة. وعندما خرج إليهم مع فيكي حاملين لهم قهوة حارة، تحدّثت تلك المرأة مع كل واحد منهم، مع أولئك الأطفال ذوي الخوذات والأحذية والملابس العسكرية، المسلحين - على نحو مريب - بالسكاكين والبنادق والحراب، فتيان ريفيون بيض من جنوب جيرسي استبد بهم الخوف. كانت فيكي تقول لهم: «فكّروا قبل أن تطلقوا النار في نافذة بيت ما! هؤلاء ليسوا 'قنّاصين'! إنهم بشر! إنهم بشر جيّدون! فكّروا!». وبعد ظهر يوم

السبت، رابطت دبابة أمام المصنع فصار السويدي أخيرًا، بعد رؤيتها، قادرًا على الاتصال بداون والقول لها: «لقد نجحنا». كانت فيكي قد خرجت إلى الدبابة وضربت بقبضتيها على كوّتها إلى أن فتحوا لها. صاحت بالجنود داخل الدبابة: «لا تجنّوا! لا تفقدوا عقولكم! إن على الناس أن يعيشوا هنا بعد ذهابكم! هذا المكان موطنهم!». في وقت لاحق، تعرّض هيوز، حاكم الولاية، إلى قدر كبير من الانتقاد لأنه أرسل الدبابات. لكن السويدي لم ينتقده: لقد وضعت تلك الدبابات حدًّا لما كان يمكن أن يغدو دمارًا شاملًا. لكنه لم يقل هذا لأنجيلا.

خلال اليومين اللذين كانا في غاية السوء، اللذين كانا مرعبين حقًا، يومي الجمعة والسبت، الرابع عشر والخامس عشر من شهر تموز 1967، ظل السويدي على اتصال مع شرطة الولاية عبر جهاز اللاسلكي، وظل على اتصال مع أبيه عبر الهاتف. لم تتركه فيكي ذينك اليومين. قالت له: «هذا مصنعي أيضًا. لا فرق بيني وبينك غير أنك تملكه». قال لأنجيلا إنه كان يعرف كيف كانت تجري الأمور بين فيكي وعائلته، ويعرف أن العلاقة كانت علاقة قديمة مستمرّة. كان يعرف أنهم متقاربون كثيرًا، لكنه لم يفهم حقًّا كيف كان إخلاصها لشركة نيوارك ميد ليس بأقل من إخلاصه أبدًا. إنه يخبر أنجيلا كيف صمّم، بعد حوادث الشغب وبعد عيشه تحت الحصار مع فيكي إلى جانبه، على البقاء وحيدًا وعدم ترك نيوارك وهجر عماله السود. لكنه لم يخبرها، بالطبع، أنه ما كان ليتردّد في حمل كل شيء والانتقال لولا خوفه من أن انضمامه إلى مجموعة أصحاب الأعمال (ممن لم تحترق أعمالهم) الذين هجروا البلدة من شأنه أن يجعل حجج ميري قوية في مواجهته: التضحية بالسود وبالطبقة العاملة والفقراء من أجل المكاسب الذاتية انطلاقًا من الجشع القذر!

لم يجد في تلك الشعارات المثالية أي شيء من الحقيقة... ولا قطرة واحدة من الحقيقة... لكن، ما الذي كان قادرًا على فعله؟ لم يكن قادرًا على أن يقدم لابنته شيئًا يمكن أن تعتبره مبررًا لفعلتها المجنونة. هذا ما جعله يبقى في نيوارك... ثم أقدمت ميري - بعد حوادث الشغب - على شيء أكثر جنونًا من الجنون نفسه! جاء شغب نيوارك، ثم حرب فيتنام. المدينة، ثم البلاد كلّها، هذا ما أنهى أمر

سايمور ليفوف القاطن في طريق أركادي هيل. أتته الضربة الكبيرة الأولى... وبعدها بسبعة شهور، في شهر شباط 1968، أتته الضربة المدمّرة الثانية. المصنع تحت الحصار. والابنة هربت. هذا ما أنهى أمر مستقبلهم.

علاوة على كل شيء آخر، وبعد أن توقّفت نيران القناصة وأخمدت ألسنة اللهب، واتضح أن واحدًا وعشرين من سكان نيوارك قد قتلوا بالرصاص. وبعد أن تم سحب قوات الحرس الوطني، وبعد أن اختفت ميري، بدأت جودة منتجات نيوارك ميد تتدهور نتيجة الإهمال واللامبالاة من جانب العمال. كان ذلك انحدارًا واضحًا في إتقان العمل كان له أثر التخريب، حتى وإن كان السويدي غير قادر على دعوته كذلك. وعلى الرغم من شدة الإغراء، لم يخبر أنجيلا عن الصراع الذي أثاره قراره بالبقاء في نيوارك بينه وبين أبيه؛ فليس من شأن ذلك إلا أن يجعلها تحمل على لو ليفوف وأن يثنيها عن إرشادهم إلى مكان ميري.

كان أبوه يجادله، كما طار قادمًا من فلوريدا حتى يرجو ابنه أن يترك تلك البلدة قبل أن تندلع أعمال شغب أخرى فتدمّرها كلّها. «ما لدينا الآن هو أن كل خطوة نخطوها على الطريق صارت تتطلّب منا خطوتين، وثلاث خطوات، وأربع خطوات. تجد نفسك في حاجة إلى العودة إلى كل خطوة لقصّها من جديد، ولخياطتها من جديد، ولا أحد يعمل لديك يومًا كاملًا، ولا أحد يقوم بعمله جيدًا، قطاع كامل يهوي إلى الحضيض بسبب ابن العاهرة الذي اسمه ليروي جونز(29)، ذلك الذي لا أدري ماذا يسمي نفسه، ذلك الذي يضع تلك القبعة الملعونة. لقد بنيت هذا المصنع بيدي هاتين! بنيته بدمي! هل يظنون أن أحدًا قدّمه إليَّ هدية؟ من؟ من أهداني هذا المصنع؟ من الذي أعطاني أي شيء، في أي وقت؟ لا أحد! لقد بنيت بنفسي كل ما هو لدي! بنيته بالعمل... بالعمل! لكنهم أخذوا تلك المدينة، وسوف يأخذون ذلك المصنع ومعه كل ما بنيته في عمري كله، كل ما بنيته إنشًا فإنشًا. وسوف يتركون كل شيء خرابًا! سوف ينفعهم ذلك كثيرًا! إنهم يحرقون بيوتهم بأنفسهم لأن ذلك سيبدو من فعل البيض! لا تصلحوا البيوت، احرقوها. أوه، سيكون لهذا فعل السحر على كبرياء الإنسان الأسود... مدينة مدمَّرة كلّها سيعيشون فيها! مدينة عظيمة تحوّلت إلى خراب شامل! سوف

يحبّون العيش فيها! وأنا... أنا من جعلهم يعملون عنده! ما رأيك في هذه النكتة؟ أنا من جعلهم يعملون عنده! «أنت مجنون يا ليفوف...». هذا ما صار يقوله لي أصدقائي عندما نجلس معًا في غرفة البخار... ‘لماذا تشغّل السود عندك؟ لن تحصل منهم على قفازات، يا ليفوف... ستحصل على قمامة’. لكني كنت أشغلهم. وكنت أعاملهم معاملة البشر. ظللت أقبّل مؤخرة فيكي خمسة وعشرين عامًا. كنت أشتري للنساء جميعًا ديوكًا روميةً من أجل عيد الشكر، في كل عيد شكر. وكنت آتي كل صباح ولساني متدلٍّ من فمي حتى ألعق مؤخرات عمالي به. أقول لهم: ‘كيف حالكم جميعًا؟ كيف حالنا جميعًا؟ وقتي متاح لكم. لا أريد أن تشتكوا لأحد غيري. ليس صاحب المصنع من يجلس هنا على هذا المكتب، بل هو حليفكم، صديقكم، زميلكم’. وتلك الحفلة التي أقمتها لتوأمَيْ فيكي يوم تخرجهما؟ فكم كنت غبيًا! ولا أزال! لا أزال غبيًا حتى اليوم! أكون إلى جانب بركة السباحة، فيرفع أصدقائي الرائعون رؤوسهم عن الصحيفة ويقولون لي إن من الضروري أخذ الزنوج وصفّهم وإطلاق النار عليهم، فيكون علي أن أذكّرهم أن ذلك ما فعله هتلر باليهود. أتعرف ما يقولونه لي ردًّا على ذلك؟ يقولون ‘كيف تقارن الزنوج باليهود؟’ يقولون لي إن من الواجب إطلاق النار على الزنوج، وأنا أصيح بهم قائلًا إن هذا لا يجوز، لكني الشخص الذي يدمّر الزنوج شركته لأنهم غير قادرين على صنع قفاز جيّد. القص سيئ، وتمطّط القفاز غير صحيح. بل حتى إن اليد لا تدخل في القفاز أحيانًا. بشر مستهترون، مستهترون؛ وهذا شيء لا يمكن إيجاد أعذار له. تسير إحدى العمليات سيرًا خاطئًا، فيتلف العمل كله، من أوله إلى آخره. على الرغم من هذا فإنني، عندما أناقش أولئك الأوباش الفاشلين - رجال يهود يا سايمور، رجال من سني رأوا ما رأيته... رجال يجب أن يكونوا أكثر إدراكًا من هذا - أحسّ عندما أناقشهم أنني أناقش ضد ما يجب أن أدافع عنه». يجيبه السويدي: «حسنًا، يحدث أحيانًا أن يفعل المرء هذا». «لماذا؟ قل لي السبب!». «أظن أن هذا بسبب قلة الضمير». «ضمير! أين هو ضميرهم؟ أين هو ضمير الزنوج؟ أين هو ضميرهم بعد عملهم عندي خمسة وعشرين عامًا؟».

لم يكن السويدي قادرًا على القبول بحجج أبيه العجوز رغم إدراكه الحقيقة التي يقولها له، وذلك لسبب بسيط هو أن ميري - إذا عرفت بالأمر؛ وسوف تعرف به عبر ريتا كوهن إن كانت لريتا علاقة بها حقًا - إذا عرفت أن شركة نيوارك ميد قد هربت من مصنعها في سنترال آفنيو، فسوف يكون سرورها عظيمًا عندما تقول لنفسها: «لقد فعلها! إنه عفن مثل الآخرين! أبي نفسه عفن مثلهم! كلّ شيء مبرّر بمبدأ الربح! كلّ شيء! ليست نيوارك بالنسبة إلى أبي أكثر من مستعمرة سوداء. يستغلّها، ويستغلّها، ثم يتركها عند حدوث مشكلات فيها».

إن من شأن هذه الأفكار، بل وأفكار أكثر حماقة - زرعتها فيها كتابات على غرار البيان الشيوعي - أن تلغي أية فرصة لرؤيتها من جديد. فعلى الرغم من كل ما كان قادرًا على إخبار أنجيلا ديفيس به مما قد يكون ذا أثر إيجابي عليها من حيث رفضه هجران نيوارك وترك عماله السود، فقد كان عارفًا أن التعقيدات الشخصية لذلك القرار غير قادرة على التوافق مع مُثل القديسة أنجيلا التي لا علاقة لها بهذا العالم. وهكذا قرر، بدلًا من ذلك، أن يشرح لها أنه واحد من اثنين من الأمناء البيض (هذا غير صحيح... فوالد أحد أصدقائه هو واحد منهما) لمنظمة مكافحة الفقر تعقد اجتماعاتها في نيوارك من أجل تشجيع المصانع على العودة إلى المدينة؛ وهو أمر لا يزال مؤْمِنًا به (غير صحيح أيضًا... كيف يمكن أن يكون صحيحًا؟)... يقول لأنجيلا إنه يحضر لقاءات مسائية في أنحاء نيوارك كلّها على الرغم من دموع زوجته، يحاول فعل كل ما يستطيع فعله من أجل تحرير الناس الذين تهتم أنجيلا بهم. يذكّر نفسه بأن عليه تكرار هذه الكلمات أمامها كل ليلة: تحرير شعبها، المستعمرات السوداء في أميركا، ولا إنسانية المجتمع، والبشرية المعَذبة.

لا يخبر أنجيلا أن ابنته تتشدّق تشدّقًا طفوليًا، وتكذب حتى تثير إعجابها. لا يخبرها أن ابنته لا تعرف شيئًا عن الديناميت، ولا عن الثورة، وأن هذه ليست بالنسبة إليها أكثر من كلمات تقولها حتى تجعل نفسها تشعر بالقوة على الرغم من مشكلة النطق التي تعانيها. لا، لأن أنجيلا هي الشخص الذي يعرف مكان ميري. وإذا كانت أنجيلا تأتيه على هذا النحو، فإن هذه ليست مجرد زيارة ودية.

لماذا تأتي أنجيلا ديفيس قادمة من لا مكان، فتظهر في مطبخ أسرة ليفوف في أولد ريمروك عند منتصف كل ليلة، إن لم تكن هي القيادية الثورية المكلّفة بالسهر على ابنته؟ أي شيء غير هذا يمكن أن يجعلها تظهر له... ولماذا تواصل العودة إليه؟

هذا ما يجعله يوافقها دائمًا... ابنته جندية من جنود الحرية، نعم. وهو فخور بها، نعم. وكل ما سمعه عن الشيوعية كذب، نعم. والولايات المتحدة الأميركية غير معنية إلا بجعل العالم آمنًا للشركات، وبحماية من يملكون من اعتداء من لا يملكون، نعم. والولايات المتحدة الأميركية مسؤولة عن القمع في كل مكان. إن قضية أنجيلا تبرر كل شيء، وكذلك قضية هويي نيوتن، وقضية بوبي سيْل، وقضية جورج جاكسون، وقضية ميري ليفوف(30). لم يكن يأتي على ذكر اسم أنجيلا ديفيس أمام أي شخص؛ وبالتأكيد لم يكن يذكره أمام فيكي التي كانت ترى أن أنجيلا ديفيس مثيرة شغب وتقول هذا عنها لبقية العاملات. يصلّي وحده، سرًّا... يصلّي بحرارة للرب، وليسوع، ولأي كان، وللعذراء المباركة، وللقديس أنتوني، وللقديس جود، وللقديسة آن، وللقديس جوزيف... يصلّي من أجل تبرئة أنجيلا. ينتابه فرح غامر عندما تتم تبرئتها. إنها حرّة! لكنه لا يبعث إليها بالرسالة التي يسهر لكتابتها في المطبخ تلك الليلة، ولا يذهب إلى نيويورك، بعد بضعة أسابيع من ذلك، عندما وقفت أنجيلا محاطة بدرع واقية من زجاج لا يخترقه الرصاص فخاطبت خمسة عشر ألفًا من مؤيّديها الفرحين، وطالبت بحرية السجناء السياسيين المحرومين من المحاكمات العادلة، المحبوسين ظلمًا. حرّروا مفجِّرة ريمروك! حرّروا ابنتي! حرّروها! هكذا يصيح السويدي. تقول أنجيلا: «أظن أن الوقت قد حان لأن نبدأ كلّنا تعليم من يحكمون هذا البلاد بضعة دروس». فيصيح السويدي: «نعم، نعم، نعم. لقد حان الوقت، حان وقت الثورة الاشتراكية في الولايات المتحدة الأميركية!». لكنه يظلّ وحده جالسًا إلى طاولة مطبخه لأنه لا يزال غير قادر على فعل أي شيء مما يجب أن يفعله ولا على الاقتناع بأي شيء مما يجب أن يقتنع به، بل صار حتى غير قادر على معرفة ما يؤمن به. هل فعلت ابنته ذلك حقًّا، أم لم تفعله؟ كان عليه أن يضاجع ريتا

كوهن حتى إن لم يكن ذلك إلا من أجل أن يعرف... أن يضاجع تلك الإرهابية الجنسية الصغيرة المتآمرة إلى أن يجعلها عبدته!... إلى أن تأخذه إلى المخبأ الذي يصنعون فيه القنابل. إذا كنت راغبًا كثيرًا في رؤية ابنتك مثلما تقول، فليس عليك إلا أن تهدأ وأن تأتي وتضاجع ريتا كوهن. كان عليه أن ينظر إلى فرجها، وأن يتذوقه، وأن يضاجعها. أليس هذا ما سيفعله أي أب لو كان محلّه؟ إن كان مستعدًّا لفعل أي شيء من أجل ميري، فلماذا لم يفعل ذلك؟ لماذا فرَّ هاربًا؟

ليس هذا إلا جزءًا مما تعنيه عبارة «مرت خمس سنين». ليس إلا جزءًا صغيرًا جدًّا. لكل شيء يقرأه أو يراه أو يسمعه دلالة وحيدة. لم يعد يفهم أي شيء من غير معنى شخصي. ظل سنة كاملة غير قادر على الذهاب إلى القرية من غير رؤية الموضع الذي كان فيه السوبرماركت. لشراء صحيفة، أو زجاجة حليب، أو صفيحة بنزين، كان عليه أن يقود السيارة إلى موريستاون؛ وهذا ما كان مضطرًّا إلى فعله كل شخص آخر في أولد ريمروك... حتى من أجل شراء طابع بريد. من حيث الأساس، تتألف البلدة كلّها من شارع واحد. بالذهاب شرقًا، هناك الكنيسة المشيخية الجديدة، وهي بناء أبيض مقام على نمط يشبه النمط الاستعماري لكنه يكاد يكون عديم الشكل. حل هذا المبنى محل مبنى الكنيسة المشيخية القديمة التي أتى عليها حريق في العشرينات. تأتي البلوطتان بعد الكنيسة بمسافة بسيطة، وهما شجرتا بلوط عمرهما مئتا عام تمثلان محط اعتزاز البلدة. وبعد البلوطتين بنحو ثلاثين ياردًا، هناك محل الحدّاد القديم الذي تحوّل (قبل بيرل هاربر(31) مباشرة) إلى «المتجر المنزلي»، حيث تذهب النساء المحلّيات لشراء ورق الجدران والمصابيح المظللة والقطع التزيينية، وكذلك لتلقي النصائح من السيدة فاولر في ما يخصّ الديكور الداخلي لبيوتهم. وفي آخر الشارع نفسه، تقع ورشة إصلاح السيارات التي يديرها بيري هاملين الذي هو ابن عم سكّير لروس هاملين الذي يعمل في تقشيش الكراسي. ومن بعد ذلك، تمتد أرض زراعية على مساحة تناهز خمسمئة أكر، هي مساحة مزرعة الأبقار التي يملكها ويعمل فيها بول هاملين، شقيق بيري الأصغر. تمتد تلك

الأراضي الهضبية التي تشبه الأرض التي يزرعها آل هاملين منذ نحو مئتي سنة صوب الشمال الشرقي والجنوب الغربي بعرض يتراوح من ثلاثين إلى أربعين ميلًا فتقطع شمال جيرسي بالقرب من أولد ريمروك وتمتد سلسلة تلالها الصغيرة حتى تبلغ نيويورك حيث يصير اسمها «كاتسكيلز» قبل أن تتابع مسارها صعودًا حتى ولاية مين.

وعلى نحو متقابل قطريًا مع الموقع الذي كان فيه السوبرماركت، كانت المدرسة ذات الصفوف الستة المطلية بجص أصفر اللون. كانت ميري تلميذة في تلك المدرسة الصغيرة خلال السنوات الأربع الأولى من دراستها قبل أن يرسلوها إلى مدرسة مونتيسوري، ثم إلى مدرسة موريستاون الثانوية. إن كل طفل يذهب إلى هذه المدرسة الآن يرى كل يوم المكان الذي كان السوبرماركت قائمًا فيه، وكذلك يراه معلمو الأطفال ويراه آباؤهم وأمهاتهم عندما يدخلون القرية قادمين بسياراتهم. يلتقي النادي الاجتماعي في المدرسة نفسها؛ وفيها يقيمون دعوات العشاء العامّة، وفيها يدلون بأصواتهم في الانتخابات. يتذكّر كل من يذهب إلى ذلك المكان ويرى موضع السوبرماركت حدوث ذلك الانفجار ويتذكّر أيضًا الرجل الطيب الذي قتل فيه، ويتذكّر الفتاة التي فجّرت تلك القنبلة، ويفكّر في أسرتها بدرجات متفاوتة من التعاطف أو من الازدراء. يظهر بعض الأشخاص ودًّا مبالغًا فيه؛ ويبذل بعضهم الآخر - هذا ما يعرفه السويدي - أقصى جهده لعدم مصادفته في أي مكان. إنه يتلقّى رسائل معادية للسامية، رسائل شديدة الوضاعة تتركه أيامًا كثيرة في حالة من الغثيان. يسمع الناس يقولون بعض الأشياء، وتسمع داون الناس يقولون بعض الأشياء. «عشت هنا طيلة حياتي. لم أر شيئًا مثل هذا من قبل». «ما الذي يمكنك توقّعه؟ لماذا هم موجودون هنا أصلًا». «كنت أظنّهم أشخاصًا طيبين؛ لكن المرء لا يمكن أبدًا أن يعرف حقيقة الناس». افتتاحية من الصحيفة المحلية تسجّل وقائع المأساة وتحيي ذكرى د. كونلون. كانت تلك المقالة معلّقة في لوحة إعلانات النادي الاجتماعي، على الجدار الخارجي، عند الشارع. ما من طريقة يستطيع بها السويدي انتزاعها من مكانها على الرغم من شدّة رغبته في ذلك... من أجل

داون، على الأقل. قد يظنّ المرء أنّ تعرُّض تلك الورقة للمطر والريح والشمس سيجعلها تهترئ خلال أسابيع؛ لكنها لم تبق سليمة فحسب، بل ظلت مقروءة تمامًا طيلة سنة كاملة. حملت تلك الافتتاحية عنوان «د. فرد». جاء فيها: «إننا نعيش في مجتمع يصير فيه العنف شديد التفشّي... لا نعرف السبب، وقد لا نفهمه أبدًا... الغضب الذي يحسّه كل واحد منا... قلوبنا مع الطبيب الضحية، ومع أسرته، ومع آل هاملين جميعًا، ومع مجتمعنا كلّه الذي يحاول الفهم واستيعاب ما حدث... رجل متميّز كان طبيبًا رائعًا وضع لمسته على حياتنا كلّنا... صندوق خاص أقيم في ذكرى الدكتور فرد... من أجل التبرّع لإقامة نصب تذكاري له... ذلك الرجل الذي كان يساعد الأسر المحلّية المعوزة عندما تكون في حاجة إلى رعاية طبّية. في وقت الحزن هذا، علينا أن نكرّس أنفسنا لتذكّره...». وإلى جانب تلك الافتتاحية، علقوا أيضًا مقالة بعنوان «البعد يشفي الجروح كلها». تبدأ المقالة هكذا «سرعان ما ننسى جميعًا...». ثم تتابع... «إن البعد الذي يهدّئ النفوس يأتي بعض الناس قبل غيرهم... القس بيتر باليستون من الكنيسة البروتستانتية المستقلّة الأولى، سعى في عظته إلى العثور على شيء من الخير في تلك المأساة... التي ستقرّب بين أفراد المجتمع المحلي عبر حزنهم المشترك... ألقى القس جيمس فيرينغ من كنيسة القديس باتريك عظة حماسية...». وإلى جانب تلك المقالة، كانت على اللوحة قصاصة ورق ثالثة. ليس لتلك القصاصة مكان هناك، لكنه كان غير قادر على نزعها بأكثر مما كان قادرًا على نزع الاثنتين اللتين قبلها. وهكذا، ظلّت تلك القصاصة أيضًا في مكانها سنة كاملة. إنها مقابلة مع إدغار بارتلي... صورة إدغار ومقابلته مأخوذتين من الصحيفة. إنه يظهر في الصورة واقفًا أمام بيت أسرته حاملًا مجرفة الثلج، ومن خلفه كلبه وممرٍ مفضٍ إلى باب البيت كان واضحًا أن الثلج قد أزيل منه حديثًا. إدغار بارتلي هو الصبي من أولد ريمروك الذي أخذ ميري إلى السينما قبل نحو سنتين من ذلك التفجير. كان متقدّمًا عليها بسنة واحدة في المدرسة الثانوية. لكنّه كان في مثل طولها. هكذا كان يتذّكره السويدي. صبي لا بأس بمظهره على الرغم من شدّة خجله وعلى الرغم من شيء من الغرابة فيه.

قالت الصحيفة إنه كان صديق ميري وقت وقوع الانفجار. لكنّ أباها وأمها يعرفان أن خروجها مع إدغار بارتلي قبل سنتين كان المرة الأولى والأخيرة التي كانت تخرج فيها معه، أو مع أي شخص آخر. لكنّ شخصًا ما كان قد وضع خطًّا أسود تحت الأقوال المنسوبة إلى إدغار. لعل ذلك كان مزاحًا من أحد أصدقائه؛ لعله مزاح طلبة المدرسة الثانوية. ولعل المقالة والصورة كانتا معلّقتين هناك على سبيل المزاح أصلًا. سواء كان ذلك مزاحًا، أو لم يكن كذلك، فقد ظلّت المقالة هناك، شهرًا بعد شهر، وظل السويدي عاجزًا عن التخلّص منها.

«لا يبدو الأمر حقيقة... لم أفكّر أبدًا في أنها يمكن أن تفعل شيئًا من هذا النوع... كانت فتاة شديدة اللطف عندما عرفتها. لم أسمعها أبدًا تقول أي شيء موحٍ بالشّرّ. أنا واثق من أن شيئًا ما قد حدث. آمل أن يعثروا عليها حتى تصير قادرةً على تلقّي المساعدة التي هي في حاجة إليها... كنت أنظر دائمًا إلى أولد ريمروك باعتبارها مكانًا لا يمكن أن يصيبك فيه شيء. لكنّي الآن صرت مثل الجميع... صرت أنظر من فوق كتفي. سوف يستغرق الأمر زمنًا قبل أن تعود الأمور إلى ما هو معتاد... إنني أحاول تجاوز الأمر. يجب أن أفعل ذلك. يجب أن أنسى ما حدث... كما لو أن شيئًا لم يحدث. لكن هذا أمر محزن جدًا».

كانت المواساة الوحيدة التي يستطيع السويدي أن يستمدّها من لوحة إعلانات النادي الاجتماعي هي أن أحدًا لم يعلّق على تلك اللوحة الإعلانية المقالة التي حملت عنوان «وصفت المشتبه فيها بأنها موهوبة، ذكية، لكن لديها 'طبع عنيد'!». لو وضعت تلك المقالة هنا، لذهب في منتصف الليل ومزّقها. لكن، لعل تلك المقالة لم تكن أسوأ من مقالات أخرى كانت تظهر في تلك الأيام؛ لا في الصحيفة الأسبوعية المحلّية فحسب، بل في صحف نيويورك أيضًا - تايمز، وديلي نيوز، وديلي ميرور، وبوست؛ وكذلك في صحف جيرسي اليومية - نيوارك نيوز، ونيوارك ستارلدجر، وموريستاون ريكورد، وبيرغر ريكورد، وترينتون تايمز، وبارتسون نيوز؛ وفي صحف ولاية بنسيلفانيا المجاورة - فيلادلفيا إنكوايرر، وفيلادلفيا بوليتن، وإستون إكسبرس، وكذلك في صحيفتي تايمز ونيوزويك. كفّ القسم الأكبر من الصحف عن تناول تلك القصة بعد

انقضاء الأسبوع الأول، لكن نيوارك نيوز وموريستاون ريكورد خاصة لم تتركاها: كلّفت نيوارك نيوز صحافيين معروفين بمتابعة هذه القضية، وراحت الصحيفتان تنشران قصصهما عن صاحبة تفجير ريمروك في كل يوم على امتداد أسابيع كثيرة. لم تستطع موريستاون ريكورد، ذات التوجّه المحلّي، الكفّ عن تذكير القراء بأن تفجير ريمروك كان أكبر كارثة مدمّرة تعرفها مقاطعة موريس منذ الثاني عشر من أيلول سنة 1940، يوم انفجار شركة هيركوليس للبارود، ذلك الانفجار الذي وقع على مسافة اثني عشر ميلًا في كينفيل فقتل اثنين وخمسين شخصًا وجرح ثلاثمئة. وقعت أيضًا جريمة قتل قس وقائد جوقة الكنيسة في أواخر العشرينات في مقاطعة ميدلسكس، وذلك في درب قريب من نيوبرونزويك. وفي قرية بوركسايد في مقاطعة موريس، وقعت جريمة قتل كان بطلها واحدًا من نزلاء مصحة الأمراض العقلية في غرايستون فر من المصحة وزار عمه في بروكسايد ففلق رأس ذلك العم بالفأس. راحوا ينبشون تلك القصص أيضًا، وينشرونها. لم يفتهم أيضًا تذكر خطف ابن تشارلز أ. ليندبرغ وقتله في هوبويل بولاية نيوجرسي. كان تشارلز أ. ليندبرغ الطيار الشهير الذي عبر المحيط الأطلسي بطائرته. سرعان ما تذكّرت الصحف تلك القصة وأعادت نشر تفاصيلها التي مرت عليها ثلاثون سنة. فتحدّثت عن الفدية التي طلبها الخاطف، وعن جثة الطفل الصغير الممزقة، وعن المحاكمة التي جرت في فليمنغتون. نشرت أيضًا مقتطفات صحافية من شهر نيسان 1936 تحدّثت عن الخاطف - القاتل الذي أدين في تلك المحاكمة وعن إعدامه بالكرسي الكهربائي. كان القاتل نجارًا مهاجرًا اسمه برونو هوبتمان. ويومًا بعد يوم، صار اسم ميري ليفوف يذكر دائمًا ضمن تاريخ الفظائع التي شهدتها المنطقة - ظهر اسمها مرات كثيرة إلى جانب اسم هوبتمان هذا. لكن شيئًا مما كتبوه عنها لم يكن جارحًا للسويدي مثل تلك القصة عن «طبعها العنيد» التي نشرتها الصحيفة الأسبوعية المحلية. كان في تلك القصّة شيء مخفي - لكنه بائن ضمنًا - درجة من العجرفة الريفية، ومن بساطة العقل، ومن الغباء المحض... كان يغضبه كثيرًا إلى حدٍّ جعله غير قادر على أن يطيق رؤية تلك المقالة معلّقة في لوحة

إعلانات النادي الاجتماعي لكي يقرأها جميع الناس ويهزوا رؤوسهم. مهما يكن ما فعلته ميري، أو لم تفعله، فإن السويدي كان لا يطيق ترك حياتها معروضة هكذا على مقربة من المدرسة... وصفت المشتبه فيها بأنها موهوبة، ذكيّة، لكن لديها 'طبع عنيد'!

في نظر معلّميها في مدرسة أولد ريمروك المحلية، كانت ميريديث «ميري» ليفوف، التي زعم أنها فجّرت متجر هاملين وقتلت طبيب أولد ريمروك، د. فرد كونلون، معروفة بأنها طفلة كثيرة المواهب. كانت طالبة ممتازة؛ وكانت شخصًا لا يتحدّى السلطات أبدًا. أسقط في يد الناس الذين راحوا يبحثون في طفولتها عما يشير إلى استعدادها لارتكاب فعل عنيف لأنهم لم يتذكّروا إلا فتاة متعاونة كلّها طاقة.

قالت إيلين مورو، مديرة المدرسة الابتدائية، عن تلك التلميذة المشتبه فيها: «نحن غير مصدّقين، يصعب فهم سبب حدوث هذا». وقالت المديرة مورو إن تلك التلميذة في الصف السادس من المدرسة الابتدائية، ميري ليفوف، كانت «مفيدة للجميع ولم تتورّط في أي مشكلات».

قالت السيدة مورو أيضًا: «هي ليست ذلك النوع من الأشخاص الذي يمكن أن يفعل هذا. على الأقلّ، ليس عندما كنا نعرفها هنا».

كانت ميري ليفوف تحصل دائمًا على درجات قصوى في مدرسة أولد ريمروك الابتدائية، وكانت تشارك في نشاطات المدرسة، كما قالت السيدة مورو، وكانت محبوبة حقًّا لدى التلاميذ والمعلمين.

قالت السيدة مورو: «لقد كانت مجتهدة، متحمّسة، تضع لنفسها معايير شديدة الارتفاع. كان المعلمون يحترمون تلك الطالبة الجيدة. وكان زملاؤها معجبين بها».

كانت ميري ليفوف تلميذة موهوبة في مدرسة أولد ريمروك الابتدائية، وكانت تتزعّم الفرق الرياضية، فريق كرة القدم خاصّة. قالت السيدة مورو: «كانت طفلة طبيعية تكبر عندنا. هذا شيء ما كان يمكن أن نحلم بإمكانية حدوثه. المؤسف أن أحدًا لا يستطيع رؤية المستقبل».

قالت السيدة مورو إن ميريديث كانت تمثّل الطفلة «المثالية» على الرغم من أنها كانت تبدي «طبعًا عنيدًا» بعض الأحيان، وذلك مثلًا عندما ترفض أداء الواجبات المدرسية التي تظن أنها غير ضرورية.

تذكر آخرون سمة الطبع العنيد لدى المتهمة بتفجير ريمروك عندما صارت طالبة في مدرسة موريستاون الثانوية. وصفتها زميلة صفّها سالي كوريل البالغة ستة عشر عامًا بأنها «مغرورة تشمخ بأنفها على الآخرين جميعًا».

لكن باربارا تيرنر، زميلتها الأخرى البالغة ستة عشر عامًا، قالت إن ميريديث «تبدو شخصًا لطيفًا إلى الحدّ الكافي، على الرغم من أن لها آراءها الخاصة».

صحيح أن طلبة مدرسة موريستاون الثانوية الذين سُئلوا عن ميري كانت لهم آراء مختلفة؛ إلا أن كل من يعرفها أكد أنها كانت تتحدّث عن حرب الفيتنام. وتذكّر بعض الطلاب كيف كانت «تنفجر غاضبة» إذا عارض أحد أسلوبها في التفكير في ما يخص وجود القوات الأميركية في فيتنام.

قال السيد ويليام باكسمان الذي كان المعلّم المشرف عليها، إن ميريديث كانت «تعمل باجتهاد وتبلي بلاء حسنًا فتنال درجات متقدّمة دائمًا»، كما كانت تعبّر عن اهتمامها الشديد بالالتحاق بجامعة بنسيلفانيا الحكومية.

قال السيد باكسمان: «وإذا ذكر المرء أسرتها، يقول إنها أسرة في غاية اللطف. لا يمكننا تصديق أن هذا الأمر قد حصل».

أتت الملاحظة السيئة الوحيدة بشأن نشاطاتها من واحد من المعلمين بعد أن قابله محققو الـ - «إف بي آي»: «قالوا لي ‘لقد وصلتنا معلومات كثيرة عن الآنسة ليفوف’!».

ظل الناس سنة كاملة يستخدمون عبارة «حيث كان السوبرماركت». ثم بدأت أعمال بناء متجر جديد، وصار السويدي يراقب تقدّم تلك الأعمال شهرًا بعد شهر. وذات يوم رأى لافتة كبيرة ملوّنة بالأحمر والأبيض والأزرق كتب عليها «متجر ماكفرسون! أكبر كثيرًا! جديد! جديد! جديد!» - كانت تلك اللافتة تعلن عن الافتتاح الجديد للمتجر يوم الرابع من تموز. جعل زوجته تجلس، ثم قال لها إنهما سيذهبان للتسوّق في المتجر الجديد مثلما يذهب أي شخص آخر، على

الرغم من أن ذلك سيكون صعبًا عليهما بعض الوقت، ثم يصير شيئًا عاديًا آخر الأمر. لكن الأمر لم يكن سهلًا أبدًا. كان عاجزًا عن دخول المتجر الجديد من غير أن يتذكّر المتجر القديم على الرغم من أن روس هاملين وزوجته قد تقاعدا وصار المتجر الجديد ملكًا لرجل وامرأة شابين جاءا من إيستون وما كانا مهتمين بالماضي، وإضافة إلى أن المتجر الجديد كان أكبر حجمًا، فقد أقام الزوجان مخبزًا ينتج فطائر ومعجنات لذيذة، فضلًا عن الخبز الطازج كل يوم. في آخر المتجر، وإلى جانب كوّة مكتب البريد، هناك الآن طاولة بيع صغيرة يمكن أن يشتري المرء عندها فنجان قهوة وفطيرة حلوة طازجة، ثم يجلس ويتحدّث مع جاره أو يقرأ صحيفته إن أراد ذلك. كان متجر ماكفرسون تقدّمًا كبيرًا بالمقارنة مع متجر هاملين. وسرعان ما بدا أن الناس جميعًا قد نسوا أمر المتجر الريفي العتيق الذي نسفته القنبلة. نسيه الجميع عدا آل هاملين وآل ليفوف. لم تكن داون تطيق الاقتراب من المتجر الجديد، بل إنها رفضت الذهاب إليه، في حين جعل السويدي من الذهاب إلى ذلك المتجر صباح كل يوم سبت مهمة ثابتة له. يذهب ويجلس فيقرأ الصحيفة ويشرب فنجان قهوة بصرف النظر عمّا قد يدور في ذهن أي شخص يراه جالسًا هناك. إنه يشتري صحيفة الأحد من ذلك المتجر، ويشتري منه الطوابع أيضًا. يمكنه أن يأتي بالطوابع من مكتبه؛ كما يمكنه أن يبعث برسائل الأسرة كلها من نيوارك. لكنه يفضل الذهاب إلى كوة مكتب البريد في متجر ماكفرسون حيث يقف بعض الوقت متحدّثًا عن الطقس مع بث ماكفرسون الشابة مثلما كان يستمتع ذلك الحديث نفسه مع ميري هاملين، زوجة روس هاملين.

تلك هي الحياة من الخارج. أن يستخدم قدراته كلّها لكي يجري كل شيء مثلما اعتاد أن يجري. لكن تلك الحياة صارت الآن مصحوبة بحياة داخلية، حياة داخلية بشعة تطغى عليها الهواجس والنزعات المخنوقة والآمال الخرافية، والتخيّلات المخيفة، والأحاديث المتوَهّمة، والأسئلة التي تظلّ من غير إجابات. أرقٌ وجَلدٌ للذات ليلة بعد ليلة. وحدة هادئة. وندم لا يهدأ. ندم حتى على تلك القبلة عندما كانت في الحادية عشرة وكان في السادسة والثلاثين عندما كانا

عائدَيْن بالسيارة إلى البيت من شاطئ البحر بملابس سباحة لا تزال مبللة. أيمكن أن تكون القبلة هي السبب في ذلك؟ أيمكن لأي شيء أن يكون هو السبب في ذلك؟ أيمكن أن يكون ما حدث ناتجًا عن لا شيء؟

قبّلني مثلما تقبّل ماما!

وأما في الحياة الدنيوية اليومية، فلا سبيل إلى فعل شيء غير مواصلة ذلك التظاهر الكبير بأنه يعيش حياته مع ذلك الإحساس كلّه بالعار لأنه متنكّر في هيئة رجل مثالي.

(28) جون براون Jhon Brown (1800 - 1859): من ناشطي حركة إبطال العبودية. كان يرى في الانتفاضة المسلّحة سبيلًا وحيدًا إلى إسقاط مؤسسة العبودية في الولايات المتحدة. قاد مجموعات صغيرة من المتطوّعين المسلحين في سنة 1856، ثم صار على رأس «قوات مناهضة العبودية» في معارك جرت سنة 1856. ألقي القبض عليه خلال غارة شنها على مستودع أسلحة حكومي في سنة 1858، فحوكم وأعدم شنقًا.

(29) ليروي جونز LeRoi Jones (1934 - 2014): شاعر أميركي شهير، أسود، وكان يسمي نفسه أيضا: Amiri Baraka أميري بركة. تأتي الإشارة إليه هنا بسبب تصريحه في لقاء تلفزيوني جمعه مع ضابط شرطة نيوارك وواحد من السياسيين أصحاب الأعمال فيها. قال في ذلك اللقاء إن مجموعات راديكالية يقودها البيض كانت مسؤولة عن شغب نيوارك.

(30) كان هويي نيوتن Huey Newton وبوبي سيْل Booby Seal من مؤسسي حركة الفهود السود. وكان جورج جاكسون مشاركًا في تأسيس حركة «أسرة حرب العصابات السوداء» ذات التوجّه الماركسي الماوي.

(31) بيرل هاربر Pearl Harbor: قاعدة بحرية أميركية في هاواي شنت عليها اليابان غارة مدمرة في السابع من كانون الأول 1941 فدمرت القسم الأكبر من قطع الأسطول الأميركي في المحيط الهادي مما أدى إلى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية.

- 5 -

1 أيلول 1973

عزيزي السيد ليفوف،

تعمل ميري في مستشفى قديم للكلاب والقطط في جادة ويلرود في نيوجرسي، في حي آيرونباوند في نيوارك. إنه المبنى رقم 115، جادة ويلرود، على مسافة خمس دقائق من محطة بِن. تكون موجودة هناك كل يوم. إذا انتظرتها أمام البناء في الخارج، يمكنك أن تراها خارجة من العمل عائدة إلى البيت في الساعة الرابعة بعد الظهر. هي لا تعرف أنني أكتب إليك هذه الرسالة. لقد بلغت أقصى احتمالي، ولم أعد أستطيع المواصلة. أريد أن أذهب بعيدًا، لكنني لا أستطيع تركها من غير أحد. عليك أن تتولّى أمرها بدلًا مني. لكني أحذرك من أن تعرف ميري أنك اكتشفت مكانها عن طريقي، لأن هذا سوف يسبب لها أذًى جدّيًا. إنها روح استثنائية. لقد غيرت كل شيء في حياتي. لقد انغمستُ في هذا الأمر انغماسًا تامًا لأنني لم أستطع مقاومة سلطانها. عندما أقول لك إنني لم أفعل أي شيء ولم أقل أي شيء غير ما طلبت مني ميري قوله أو فعله، فعليك أن تصدقني. إنها قوة طاغية. أنت وأنا كنا في مركب واحد. لم أكذب عليها إلا مرة. كذبت بشأن ما حدث بيننا في الفندق. لو قلت لها إنك رفضت مضاجعتي، لرفضت أن تأخذ المال. ولو حدث ذلك، لعادت تتسوّل في الشوارع. وما كان يمكن أبدًا أن أجعلك تعاني تلك المعاناة لولا أن أعانني حبي الشديد لميري.
سوف يبدو لك هذا أمرًا جنونيًا. وأنا أقول لك إنه جنوني. ابنتك إنسانة سماوية. لا يستطيع المرء أن يكون في حضرة معاناة كتلك المعاناة من غير أن يرضخ لسلطانها المقدّس. أنت لا تعرف كم كنتُ شخصًا نكرة قبل أن ألتقي ميري. كنت في سبيلي إلى العدم. لكني ما عدت الآن قادرة على احتمال المزيد. عليك ألا تذكرني أمام ميري إلا بصفتي شخصًا عذّبك، مثلما فعلتُ بالضبط. لا تأتِ على ذكر هذه الرسالة إن كان بقاء ميري على قيد الحياة أمرًا مهمًا لك. عليك أن تتّخذ كل احتياط لازم قبل الذهاب إلى المستشفى. لن تعيش ميري إذا أمسك بها عناصر الـ«إف بي آي». صار اسمها ميري ستولتز. يجب تركها تسير خلف

قدرها. ولا يمكننا إلا أن نقف شهودًا على العذاب الذي جعلها مقدّسة.
التلميذة المخلصة التي تدعو نفسها ريتا كوهن.
لم يكن قادرًا أبدًا على توقّع الشيء غير المتوقع. يظلّ الشيء غير المتوقّع منتظرًا هناك، غير ظاهر، ويظل يتخمّر وينضج طيلة ما بقي من حياته، يظلّ جاهزًا للانفجار، يظلّ بعيدًا ميليمترًا واحدًا فقط خلف كل شيء آخر. كان الشيء غير المتوقّع كل شيء آخر من الجانب الآخر. لقد فارق السويدي كل شيء، ثم أعاد صنع كل شيء، ثم بات عليه الآن، بعد أن بدا له أن كل شيء قد عاد تحت سيطرته، أن يفارق كل شيء من جديد. وإذا كان لذلك أن يحدث، فإن الشيء غير المتوقّع يصير هو الشيء الوحيد الذي...
الشيء، الشيء، الشيء... لكن، ما الكلمة الأخرى التي يمكن احتمالها؟ لا يمكنهما أن يظلا دائمًا أسيرَيْ هذا الشيء الملعون! ظل خمس سنين ينتظر رسالة كهذه... كان عليها أن تصل. وكان يدعو الرب عندما يستلقي في سريره كل ليلة أن يجعل تلك الرسالة تأتي في صباح اليوم التالي. وفي سنة التحوّل المدهشة هذه، سنة 1973، السنة التي شهدت أعجوبة داون، وخلال هذه الشهور التي انكبّت فيها داون على تصميم بيتهما الجديد، كان قد بدأ يخاف مما قد يجده في صندوق الرسائل عندما يأتي الصباح، ويخاف كلما رفع سماعة الهاتف. كيف يمكنه أن يسمح بعودة الشيء غير المتوقّع إلى حياتهما الآن بعد أن أفلحت داون آخر الأمر في أن تبعد عن حياتهما - إلى الأبد - استحالة كل ما حدث؟ كانت إعادة زوجته إلى نفسها شيئًا أشبه بأن يطيرا عبر عاصفة طالت خمس سنين. لقد وفى بكل ما هو مطلوب منه. لم يتأخّر عن فعل أي شيء من أجل تخليصها من ذعرها. وقد عادت الحياة الآن إلى شيء يشبه الأبعاد المعروفة للحياة. إذًا، مزّقْ هذه الرسالة وارم بها بعيدًا. تظاهر بأنها لم تصلك أبدًا.
كان السويدي قد توصّل إلى قبول أن الضرر الذي وقع كان ضررًا دائمًا، وأن زوجته ما عادت قادرة على مواصلة الحياة من غير إشراف الأطباء النفسيين ومن غير تناول المهدّئات ومضادات الاكتئاب، وذلك بعد إقامتها مرتين في

مستشفى قريب من برينستون نتيجة إصابتها باكتئاب شديد كاد يصل بها إلى الانتحار. صار مقتنعًا بأنها سوف تمضي حياتها داخلة إلى المستشفيات النفسية، خارجة منها، وبأنه سيظلّ يزورها في تلك الأماكن طيلة ما بقي من عمريهما. صار يتخيّل أنه سيجد نفسه، مرة أو مرتين في السنة، جالسًا إلى جانب سريرها في غرفة ليس لبابها قفل. ستكون في مزهرية على طاولة المكتب زهور أرسلها إليها، وعلى طوار النافذة، ستكون نباتات اللبلاب التي جلبها لها من مكتبها متصوّرًا أنها قد تعينها في العودة إلى الاهتمام بشيء ما. على الطاولة إلى جانب سريرها صور في إطاراتها، صور له ولميري ولوالدَي داون ولأخيها. وعلى حافة سريرها، سيكون هو نفسه جالسًا ممسكًا بيدها وهي مستندة إلى الوسائد مرتدية بنطلون جينز ليفايز وكنزة كبيرة ذات ياقة مدوَّرة. إنها تبكي وتقول: «أنا خائفة يا سايمور. أنا خائفة طوال الوقت». سيكون جالسًا إلى جانبها، صابرًا، كلما بدأت ترتجف، فيقول لها أن تهدأ وتتنفّس، أن تتنفّس ببطء - شهيق وزفير - وأن تفكّر في أحب مكان تعرفه في الدنيا... أن تتخيّل نفسها في أهدأ مكان رائع في العالم كلّه، على شاطئ استوائي، أو على جبل جميل، أو في عطلة في الطبيعة أيام طفولتها... سوف يفعل هذا حتى عندما يكون ارتجافها ناتجًا عن شدة انفعالها وهي توبّخه. ستكون جالسة على السرير عاقدة ذراعيها على بطنها كما لو أنها تدفّئ نفسها. ستخبّئ جسدها كلّه داخل كنزتها... ستجعل الكنزة خيمة بأن ترفع ياقتها فوق ذقنها وتشدّ ظهرها تحت ردفيها وتجذب مقدمتها من فوق ركبتيها المثنيتين حتى تغطّي ساقيها وتثبت نهاية الكنزة تحت قدميها. كثيرًا ما كانت تجلس «في خيمة» على هذا النحو طيلة وقت وجوده هناك. «هل تعرف متى كنت في برينستون آخر مرة؟ إنني أتذكّر هذا! دعاني حاكم الولاية إلى برينستون، إلى عزبته. هنا إلى برينستون؛ إلى عزبته. لقد تناولت طعام العشاء في عزبة الحاكم. كنت في الحادية والعشرين. وكنت مرتدية فستان سهرة. كنت خائفة حتى الموت. أتى بي سائقه حتى إليزابيث. كان التاج على رأسي عندما رقصت مع حاكم ولاية نيوجرسي... فكيف حدث هذا؟ كيف صرت حبيسة هذا المكان؟ إنه أنت... أنت هو السبب! لم ترد أن تتركني

وشأني! كنت مصممًا على أخذي! كنت مصممًا على الزواج مني! لم أكن أريد شيئًا غير أن أصير معلمة. هذا ما أردته. كانت لدي وظيفة. كانت الوظيفة في انتظاري. ما كنت أريد شيئًا غير تعليم الأطفال الموسيقى في مدارس إليزابيث وأن يبتعد عني الشباب... هذا كل شيء. لم أرد أبدًا أن أصير ملكة جمال أميركا! لم أرد أبدًا أن أتزوّج أي شخص! لكنّك لم تكن تتركني أتنفّس... لم تكن تتركني أغيب عن نظرك. لم أكن راغبة في شيء غير إتمام دراستي في الكلية والحصول على تلك الوظيفة. ما كان يجب أن أترك إليزابيث أبدًا! أبدًا! هل تعرف ما فعله لقب ملكة جمال نيوجرسي بحياتي؟ لقد دمّرها! مضيت ساعية من أجل تلك المنحة الدراسية حتى يتمكّن داني من الذهاب إلى الكلية، وحتى لا يكون أبي مضطرًا إلى دفع المال. أتظنّني كنت سأشارك في مسابقة ملكة جمال مقاطعة يونيون لو أن تلك الأزمة القلبية لم تصب أبي؟ لا. كنت أريد الفوز بتلك النقود حتى يستطيع داني الذهاب إلى الكلية من غير أن يكون ذلك عبئًا ثقيلًا على أبي. لم أكن أفعل ذلك حتى يلاحقني الشباب في كل مكان... كنت أحاول مساعدة أسرتي! ثم أتيت أنت. أنت! هاتان اليدان! وهاتان الكتفان! طول قامتك، وخط حنكك! هذا الحيوان الضخم الذي لم أستطع الخلاص منه. لم تكن لتتركني أتخلّص منك! كلما رفعت رأسي ونظرت أرى صديقي الذي يحبّني، أراه مذهولًا لأنني كنت ملكة الجمال السخيفة! وأنت كنت كأنك طفل! كنت تريد أن تجعلني أميرة. حسنًا، انظر الآن أين انتهى بي الأمر! في مستشفى للمجانين! صارت أميرتك في مستشفى المجانين!

ستمر سنوات تمضيها كلها في التساؤل عما حدث لها، وكيف حدث لها، وفي لومه على ذلك. وكان يجلب لها ما تحبّه من طعام وفاكهة وسكاكر وحلوى آملًا أن تتناول شيئًا غير الخبز والماء. كان يجلب لها المجلات آملًا في أن تتمكّن من التركيز على القراءة ولو نصف ساعة في اليوم. كان يأتي لها بملابس يمكنها ارتداؤها عندما تتجوّل في أرجاء المستشفى حتى تكون ملائمة للطقس عند تغيّر الفصول. في الساعة التاسعة من مساء كل يوم، كان يضع في خزانتها ما جلبه لها، ثم يحتضنها ويقبّلها مودعًا، يحتضنها ويقول لها إنه سيراها في الليلة التالية،

ثم يقود سيارته ساعة في الظلام عائدًا إلى أولد ريمروك متذكّرًا الذعر في وجهها عندما تطلّ الممرضة برأسها من الباب قبل خمس عشرة دقيقة من انتهاء وقت الزيارة، فتخبر السيد ليفوف بلطف إن وقت ذهابه قد اقترب.

ثم تصير غاضبة من جديد في الليلة التالية. لقد حرفها عن طموحاتها الحقيقية. وقد كان هو ومسابقة ملكة جمال أميركا من السبب في إبعادها عن برنامجها. كانت تتكلّم وتتكلّم، وما كان قادرًا على إيقافها. لم يكن يحاول إيقافها. ما علاقة أي شيء مما كانت تقوله بالسبب الحقيقي لمعاناتها؟ كان الجميع مدركًا أن ما حطّمها كان أمرًا كافيًا في حدِّ ذاته، وأن ما تقوله لا علاقة له بأي شيء. عندما ذهبت إلى المستشفى أول مرة، كان يكتفي بالذهاب إليها، وبالإيماء برأسه. كم كان غريبًا سماعها تتحدّث بذلك الغضب كلّه عن مغامرة يعلم علم اليقين أنها كانت مستمتعة بها إلى أقصى حد. بل كان يفكّر أحيانًا في أن من الأفضل لها أن تلقي باللائمة في مشكلتها على ما حدث لها في سنة 1949، لا على ما حدث لها في سنة 1968. «خلال المدرسة الثانوية كلّها، كان الناس يقولون لي: ‘يجب أن تكوني ملكة جمال أميركا’. لكني كنت أرى ذلك أمرًا سخيفًا. فعلى أي أساس يجب أن أكون ملكة جمال أميركا. لقد كنت موظفة في متجر للملابس أعمل فيه بعد المدرسة. وأعمل فيه خلال الصيف. كان الناس يأتون إلي وأنا جالسة خلف صندوق المحاسبة فيقولون: ‘يجب أن تكوني ملكة جمال أميركا’. لم أكن أحتمل سماع هذا. لم أكن أحتمل سماع الناس يقولون لي إن علي أن أفعل شيئًا ما بسبب مظهري. لكني تلقّيت اتصالًا من إدارة مسابقة جمال مقاطعة يونيون. دعوني إلى حفلة شاي، فما الذي أستطيع فعله؟ لقد كنت طفلة. ظننت أن هذه طريقة تسمح لي بجني بعض المال حتى لا يظلّ أبي مضطرًا إلى العمل كثيرًا. وهكذا ملأت استمارة الطلب وذهبت إلى ذلك اللقاء. وبعد أن انصرفت الفتيات جميعهنّ، أتت تلك المرأة ووضعت ذراعها على كتفي وقالت للجيران كلهم: ‘أريد إخباركم بأنكم قد أمضيتم الأمسية مع ملكة جمال أميركا القادمة’؛ فقلت في نفسي: ‘هذا سخيف جدًّا. لماذا يصر الناس على قول هذه الأشياء لي، لا أريد أن أفعل هذا’. وعندما فزت بلقب ملكة جمال مقاطعة يونيون، بدأ الناس يقولون لي:

‘سوف نراك في أتلانتك سيتي’. كان أشخاص يعرفون ما يتحدّثون عنه يقولون إنني سأفوز بهذا الشيء، فكيف أستطيع التراجع؟ لم أكن قادرة على التراجع. كانت الصفحة الأولى من صحيفة إليزابيث جورنال مكرّسة كلّها لي وللقب ملكة جمال مقاطعة يونيون. أصابني ذلك بالذهول. لقد ذهلت. كنت أظن أنني أستطيع إبقاء الأمر كلّه سرًّا والاكتفاء بالحصول على المال. لكنّي كنت طفلة صغيرة لا تعرف شيئًا. كنت واثقة من أنني لن أفوز بلقب ملكة جمال نيوجرسي. كنت متأكّدة من هذا. كنت أنظر من حولي فأرى ذلك البحر من الفتيات الجميلات اللواتي يعرفن ما يجب فعله؛ أما أنا فلم أكن أعرف شيئًا؛ كن يعرفن استخدام لفافات الشعر ووضع رموش اصطناعية؛ أما أنا فبقيت غير قادرة على لف شعري بالشكل الصحيح حتى منتصف مسابقة نيوجرسي. كنت أقول في نفسي: ‘أوه، يا إلهي! انظري إلى مكياجهن’. كانت لديهم خزائن من الملابس الجميلة، ولم يكن لدي غير فستان حفلة التخرج المدرسية وبضع قطع من الملابس المستعارة. وهكذا كنت مقتنعة بأن من المستحيل أن أفوز. كنت شديدة الانطواء على نفسي. وكنت ساذجة تمامًا. لكني فزت من جديد. وعندها، راحوا يدربونني على كيفية الجلوس وكيفية الوقوف، بل حتى على كيفية الإصغاء... أرسلوني إلى شركة لعارضات الأزياء حتى أتعلّم كيف أمشي. لم تعجبهم مشيتي. لم أكن أبالي بمشيتي... أمشي فحسب! لقد كانت مشيتي حسنة بما يكفي للفوز بلقب ملكة جمال نيوجرسي، أليس كذلك؟ وإذا كنت غير قادرة على المشي بطريقة تجعلني أفوز بملكة جمال أميركا، فإلى الجحيم بذلك كلّه! قالوا لي: لكن عليك أن تنسابي انسيابًا. لا! سوف أمشي مشيتي المعتادة! لا تهزّي ذراعيك كثيرًا، ولا تجعليهما متخشّبتين إلى جانبك. هذه الألاعيب الصغيرة حتى أصير منتبهة إلى نفسي تمامًا جعلتني غير قادرة على الحركة تقريبًا! يجب أن تكون خطوتك بحيث يلاقي مشطا قدميك الأرض، وليس عقباهما... هذه هي الأشياء التي كنت أعانيها. ليتني كنت قادرة على ترك هذا الشيء! كيف أستطيع أن أترك هذا الشيء؟ اتركوني وحدي! اتركوني وحدي كلّكم! لم أكن أريد هذا أصلًا! أترى الآن لماذا تزوّجتك؟ هل تفهم الآن؟ سبب واحد فقط! أردت شيئًا يبدو اعتياديًا!

بعد تلك السنة كلّها، صارت لدي رغبة شديدة في شيء اعتيادي! كم أتمنّى لو أن هذا لم يحدث! أي شيء منه! يضعونك على قاعدة كأنك تمثال... شيء لم أسعَ إليه... ثم يجرّدونك من ذلك كلّه بسرعة تعمي عينيك! وأنا لم أكن ساعية إلى شيء من ذلك أبدًا! ليس لدي شيء ما يجمعني بتلك الفتيات الأخريات. كرهتهنّ، وكرهنني. تلك الفتيات الطويلات ذوات الأقدام الكبيرة! ما من واحدة موهوبة بينهن. كلّهنّ سخيفات! أنا كنت جدّية. كنت طالبة موسيقى! وما كنت أريد شيئًا غير أن يتركني الناس وشأني من غير أن أضع على رأسي ذلك التاج اللعين المتلألئ بجنون! لم أكن أريد شيئًا من ذلك أبدًا، أبدًا!».

كان عونًا كبيرًا له أثناء قيادته السيارة عائدًا إلى بيته بعد واحدة من تلك الزيارات أن يتذكّرها مثلما كانت حقًّا في تلك الأيام... يتذكّر كيف كانت فتاة لا تشبه أبدًا تلك الفتاة التي تصوّرها في أحاديثها اللائمة كلها. في شهر أيلول من سنة 1949، خلال الأسبوع الذي سبق مسابقة ملكة جمال أميركا، عندما كانت تتّصل به في نيوارك كل ليلة من فندق دينيز لكي تخبره عمّا جرى معها في ذلك اليوم باعتبارها واحدة من المتنافسات على اللقب... كان صوتها يشع سرورًا صافيًا لأنها وجدت نفسها هناك. لم يسمع صوتها هكذا قبل ذلك. كان ذلك شيئًا يكاد يكون مخيفًا، ذلك السرور الشديد الواضح بمكان وجودها وبما تفعله هناك. وعلى نحو مفاجئ، صارت الحياة كلها نشوة، صارت موجودة من أجل داون دواير وحدها. حتى هو، جعلته فجاءَة هذا التغيّر غير المألوف يتساءل إن كانت ستظلّ، بعد انقضاء ذلك الأسبوع، راضية بسايمور ليفوف! إذا خرجت من تلك المسابقة فائزة، فما فرصته مقابل أولئك الرجال جميعًا الذين وضعوا نصب أعينهم الزواج من ملكة جمال أميركا. سوف يلاحقها الممثلون، وسوف يلاحقها أصحاب الملايين. سوف يتقاطرون إليها جماعات... ستنفتح أمامها حياة قادرة على اجتذاب جمهور من الخاطبين الجدد الأقوياء فينتهي الأمر باستبعاده. على الرغم من هذا كلّه، وباعتباره الخاطب الحالي الوحيد، فقد كان مفتونًا باحتمال فوز داون؛ وكلما بدا ذلك الاحتمال حقيقيًا أكثر، كلما صارت لديه أسباب أكثر للقلق وللتوتر.

كانا يمضيان ساعة بكاملها على الهاتف في كل مرة على الرغم من أنها مكالمة لمسافة طويلة. كانت الإثارة تحرمها النوم في الليل، حتى بعد أن تمضي نهارًا حافلًا منذ الإفطار الذي كانت تتناوله في صالة الطعام مع مشرفتها فتجلس الاثنتان إلى الطاولة معًا. كانت تلك المشرفة امرأة محلّية ضخمة الجسم تعتمر قبعة صغيرة. وكانت داون تضع وشاح ملكة جمال نيوجرسي مثبتًا إلى فستانها بدبوس، وفي يديها قفازان باهظا الثمن من الجلد الرقيق الأبيض قُدِّما هدية لها من شركة نيوارك ميد حيث كان السويدي قد بدأ تدريبه لكي يتولى إدارتها. كانت الفتيات كلّهنّ ترتدين قفازات بيضاء من الجلد الناعم الرقيق على الطراز نفسه - بطول أربعة أزرار، حتى ما فوق المعصم. لكن داون وحدها حصلت على قفازيها مجانًا، ومعهما زوج آخر من القفازات (قفازان أسودان من الجلد الرقيق الفاتح بستة عشر زرًا يصلان إلى المرفقين - من نوع القفازات الرسمية الذي تصنعه نيوارك ميد - قفّازان يبلغ ثمنهما ثروة صغيرة في متجر ساكس، قفّازان تولى قصّهما أكبر الخبراء في الشركة، من إيطاليا أو فرنسا، إضافة إلى زوج قفّازات ثالث طويل صنع خصّيصًا لكي يكون ملائمًا لفستان السهرة الذي لديها. كان السويدي قد طلب من داون ياردًا من قماش ذلك الفستان نفسه، ثم تولى صديق للعائلة متخصّص بالقفّازات النسائية القماشية، بصنع ذلك الزوج لداون مجاملة لشركة نيوارك ميد. كانت الفتيات تجلسن ثلاث مرات في اليوم، كل واحدة قبالة مشرفتها، معتمرات قبعات صغيرة فوق الشعر الجميل المسرّح بعناية، ومرتديات الفساتين الأنيقة اللطيفة والقفازات ذات الأزرار الأربعة فيحاولن تناول وجبات الطعام - أو تناول طبق من كل شيء - في زحمة توقيع الأوتوغرافات لكل المحتشدين في قاعة الطعام ممن جاءوا من أجل التحديق بالفتيات، ولكي يقول كل واحد شيئًا عن منبته. وبما أن داون كانت ملكة جمال نيوجرسي، وكان نزلاء الفندق من نيوجرسي، فقد كانت أكثر الفتيات شعبية وصار عليها أن تقول كلمة لطيفة لكل من يبتسم لها، وأن توقّع الأوتوغرافات وتحاول تناول شيء من الطعام في تلك الزحمة كلّها. كانت تقول له على الهاتف: «هذا ما عليَّ فعله. هذا ما يجعلهم يقدّمون لنا هذه الغرف المجانية في

الفندق».
وضعوها عند وصولها إلى محطة القطار في سيارة صغيرة مكشوفة من طراز ناش رامبلر كتب عليها اسمها واسم ولايتها؛ وكانت مشرفتها معها في تلك السيارة أيضًا. كانت مشرفة داون زوجة تاجر عقارات محلّي. وكانت تلك المشرفة حريصة على الذهاب إلى كلِّ مكان تذهب إليه داون: صعدت إلى السيارة المكشوفة عندما صعدت إليها داون، ونزلت منها عندما نزلت منها داون. «إنها لا تفارقني أبدًا يا سايمور. وطيلة الوقت لا نرى أي رجل باستثناء الحكّام. لا يمكننا حتى أن نتحدث إلى أي رجل. أتى عدد من أصدقاء الفتيات. بل إن بعضهم يكاد يكون مخنّثًا. لكن، ما معنى ذلك؟ لا يحقّ للفتيات رؤيتهم. لدينا كتاب للأنظمة... طويل جدًّا إلى حد يجعلني غير قادرة على قراءته كلّه». «لا يسمح بدخول الذكور للحديث مع المتسابقات إلا بحضور مشرفاتهنّ. ولا يجوز للمتسابقة في أي وقت أن تدخل ردهة الكوكتيل، ولا أن تشارك أحدًا تناول مشروب كحولي. ومن القواعد الأخرى أيضًا عدم السماح بوضع حشوات للفساتين'...». ضحك السويدي... «دعني أنهي كلامي يا سايمور... تستمرّ هذه القواعد من غير نهاية. 'ولا يجوز لأي شخص إجراء مقابلة مع واحدة من المتسابقات إلا إذا كانت مشرفتها موجودة لكي تحمي مصالحها'...».
لم تكن داون الفتاة الوحيدة التي حصلت على سيارة ناش رامبلر مكشوفة، فقد حصلت كل واحدة من الفتيات على سيارة مماثلة... لكن تلك السيارات لم تكن لهنّ. تصير الفتاة قادرة على الاحتفاظ بالسيارة إذا فازت بلقب ملكة جمال أميركا. وعند ذلك، تصير سيارتها هي السيارة نفسها التي تلوح منها للحشود بيديها عندما يدورون بها حول الملعب في واحدة من أهم مباريات كرة القدم الجامعية. لقد اعتمدوا سيارة رامبلر لأن «شركة جنرال موتورز» واحدة من الشركات الراعية للمسابقة.
عند وصولها، كان في الغرفة صندوق من حلوى فراالينغر الأصلية، ومعه باقة ورود. هذا ما حصلت عليه كل فتاة عند وصولها، فكان تحيّة لهنّ من الفندق. إلا أن ورود داون لم تتفتّح أبدًا. كما كانت الغرف التي وضعوا فيها الفتيات -

الفتيات اللواتي نزلن في فندق داون نفسه، على الأقل - غرفًا صغيرة قبيحة واقعة في الجهة الخلفية. وأما الفندق نفسه - كما وصفته داون - متحمّسة - فكان واقعًا على تقاطع شارع بوردوك وجادة ميتشغان... فندق فخم يقيمون فيه كل يوم أمسية شاي حقيقية مع سندويتشات صغيرة، ويلعب نزلاء الفندق الذين يدفعون المال لعبة الكروكيت على العشب. إنهم النزلاء أنفسهم الذين حظوا بغرف كبيرة جميلة مطلّة على المحيط. كانت تعود مرهقة كل ليلة إلى غرفتها الخلفية القبيحة ذات ورق الجدران حائل اللون، فتتفقّد الورود لترى إن كانت تفتّحت، ثم تتصل بسايمور لتجيب عن أسئلته المتعلّقة بفرص فوزها.

كانت واحدة من الفتيات الأربع، أو الخمس، اللواتي واصلت صورهنّ الظهور في الصحف. وكان الكل يقول إن واحدة من تلك الفتيات ستكون هي الفائزة. كان أفراد جماعة مسابقة نيوجرسي واثقين من فوز فتاتهم، خاصّة عندما راحت صورها تظهر في الصحف كل صباح. قالت لسايمور: «أكره أن أخذلهم». فقال لها: «لن تخذليهم. سوف تفوزين». «لا، ستفوز هذه الفتاة من تكساس. أنا أعرف هذا. إنها جميلة جدًا. لها وجه مدوّر. ولها غمازة. ليست حسناء، لكنها جذّابة جدًا، جدًّا. كما أنها شخصية عظيمة. أكاد أموت لشدة خوفي منها. إنها من بلدة بائسة صغيرة في تكساس... تتقن الرقص الإيقاعي... وسوف تفوز».

«هل هي تلك التي تظهر صورتها في الصحف مع صورتك». «دائمًا. تكون دائمًا واحدة من الفتيات الأربع، أو الخمس، اللواتي تنشر صورهنّ. إنني هنا لأننا في أتلانتك سيتي، ولأنني ملكة جمال نيوجرسي، ولأن الناس يرونني سائرة في الممر مرتدية وشاحي فيصيبهم الجنون. لكن هذا ما يحدث لملكة جمال نيوجرسي كل سنة. إلا أنها لا تفوز أبدًا. إن ملكة جمال تكساس تظهر في تلك الصحف لأنها ستفوز، يا سايمور».

كان الكاتب الصحافي الشهير إيرل ويلسون واحدًا من أعضاء لجنة التحكيم العشرة؛ وعندما سمع أن داون من إليزابيث، قيل إنه أخبر شخصًا ما أثناء استعراض المركبات المزيّنة (الذي كانت فيه داون مع اثنتين من الفتيات في مركبة تحمل اسم الفندق) أن عمدة إليزابيث، جوي بروفي، الذي استمر في

منصبه زمنًا طويلًا كان واحدًا من أصدقائه. قال إيرل ويلسون هذا لشخص ما نقله بدوره إلى شخص آخر نقله إلى مشرفة داون. كان إيرل ويلسون وجوي بروفي صديقين قديمين... هذا كلّ ما قاله إيرل ويلسون، أو كلّ ما كان قادرًا على قوله في العلن. لكن مشرفة داون كانت واثقة من أنه قال هذا لأنه رأى داون على تلك المركبة المزيّنة في فستان السهرة، فصارت مرشّحته. قال السويدي: «حسنًا، لقد ضمنت واحدًا وبقي لديك تسعة. إنك سائرة في الطريق الصحيح يا ملكة جمال أميركا».

كان أكثر حديثها مع مشرفتها متركّزًا على من قد تكون منافستها في المسابقة. ومن الواضح أن هذا كلّ ما كانت بقية الفتيات تتحدّث عنه مع المشرفات، وكل ما تتحدثن عنه عندما تتصلن بأهلهن؛ على الرغم من تظاهر كل واحدة منهنّ بأنها تحب البقية. قالت له داون إن فتيات الولايات الجنوبية خاصّة كن مولعات بالقول: «أوه، أنت رائعة جدًّا، وشعرك رائع جدًا...». كان على داون، بطبعها البسيط، أن تعتاد هذا التقديس للشعر؛ إذ إن من يصغي إلى الأحاديث الدائرة بين بقية الفتيات يمكن أن يعتقد بأن إمكانيات الحياة كامنة في الشعر، لا بين يدي قدر واحدة منهن، بل بين يدي شعر واحدة منهنّ.

ذهبت الفتيات مع مشرفاتهنّ في زيارة إلى منتزه «ستيل باير»، ثم تعشَّيْن سمكًا في مطعم وبار «كابتن ستار» الشهير المُقام على أحد اليخوت. وفي اليوم التالي، ذهبن أيضًا لتناول شرائح اللحم في مطعم «جاك كيشار». ثم التقطت صورة لهنّ صباح اليوم الثالث أمام «كونفنشن هول»، حيث قال لهنّ أحد المشرفين الرسميين على المسابقة إن عليهن الاحتفاظ بتلك الصورة بقية حياتهن، وإن الصداقة التي نشأت بينهنّ ستستمرّ ما بقين على قيد الحياة، وإن العلاقة بينهن ستظلّ متواصلة طيلة أعمارهن، وإن كل واحدة منهن سوف تطلق على بناتها - عندما يأتي ذلك الوقت - أسماء زميلاتها هنا. وإلى أن صدرت صحف صباح اليوم التالي، كانت الفتيات يقلن لمشرفاتهنّ «أوه، يا إلهي، لا أستطيع احتمال هذا. أوه، يا إلهي، يبدو لي أن تلك الفتاة هي التي ستفوز».

كانت لديهنّ تدريبات يومية. وكن يقدّمن عرضًا كل ليلة على امتداد الأسبوع

كله. منذ سنين طويلة، يزور الناس مدينة أتلانتك سيتي من أجل مسابقة ملكة جمال أميركا فقط. وهم يشترون التذاكر لحضور تلك العروض الليلية ويأتون متأنّقين لرؤية الفتيات على المنصّة تستعرضن مواهبهنّ على انفراد، واحدة بعد أخرى، ثم تظهرن معًا في ملابس مخصّصة لتقديم وصلات موسيقية. قدّمت إحدى الفتيات أغنية «كلير دو نون» على البيانو في وصلتها المنفردة. واختارت داون أن تقدّم أغنية أكثر تألقًا، تلك الأغنية التي كانت في ذروة نجاحها آنذاك «إلى أن ينتهي الزمان» التي كانت موسيقاها تركيبة صالحة للرقص مأخوذة من مقطوعات البولونيز لشوبان. «كأنني صرت في عالم الاستعراضات الغنائية. لا أتوقّف طيلة النهار. ليست لديَّ لحظة واحدة. يركّون عليَّ كثيرًا لأن نيوجرسي تستضيف المسابقة؛ وأنا لا أريد أن أخذل أحدًا... لا أريد ذلك حقًّا. لا أستطيع احتمال ذلك. يجيبها سايمور: «لن تخذليهم يا داون. لقد صار إيرل ويلسون في جيبك؛ وهو الأكثر شهرة بين أعضاء لجنة التحكيم جميعًا. لديَّ إحساس بأنك ستفوزين. بل إنني واثق من ذلك».

إلا أنه كان مخطئًا. لقد فازت ملكة جمال أريزونا. ولم تكن داون حتى ضمن العشر الأوائل. في تلك الأيام، كانت الفتيات ينتظرن في الكواليس خلال إعلان أسماء الفائزات. وكانت هناك صفوف خلف صفوف من المرايا والطاولات المرتّبة أبجديًا بحسب أسماء الولايات. كانت داون في الوسط تمامًا عند قراءة الأسماء الفائزة، فكان عليها أن تبدأ الابتسام والتصفيق كالمجنونة لأنها خسرت. وبعد ذلك - حتى تصير الأمور أسوأ من ذي قبل - كان عليها أن تعود إلى المنصّة وتسير مع بقية الخاسرات وتغنّي معهنّ أغنية ملكة جمال أميركا التي كانت معتمَدة في ذلك العهد. كانت أغنية لـ«إم سي بوب روسل» تقول كلماتها: «كل زهرة، وكل وردة، تنتصب واقفة على أطراف أصابعها، عندما تمر بها ملكة جمال أميركا!». كانت الفائزة باللقب فتاة قصيرة صغيرة الجسم داكنة الشعر مثل داون... جاك ميرسر من أريزونا. لقد فازت ميرسر في مسابقة ملابس السباحة، لكن داون لم تتوقّع أبدًا أن تفوز باللقب. استقبل الجمهور المحتشد في كونفنشن هول تلك الفائزة بعاصفة من التصفيق. وبعد ذلك، في

حفلة الوداع، لم يبلغ اكتئاب داون ما بلغه اكتئاب بقية الفتيات على الرغم من إحساسها الشديد بالخذلان. لقد قال لها المعنيون بالمسابقة في نيوجرسي مثلما قال لهم الآخرون في الولاية: «سوف تنجحين. وسوف تكونين ملكة جمال أميركا». وهكذا، كانت حفلة الوداع أكثر شيء محزن رأته في حياتها. هكذا قالت له. «عليك أن تذهب وتبتسم لهم. ذلك أمر فظيع. أتوا بأولئك الأشخاص من حرس السواحل، أو من مكان ما... من أنابوليس. كانوا في بدلات رسمية بيضاء أنيقة مزيّنة بالبنود والشرائط. أظنّهم اعتبروهم مأموني الجانب إلى الحدِّ الكافي لأن يسمحوا لنا بالرقص معهم. وهكذا رقص كل واحد منهم مسندًا ذقنه إلى كتف إحدى الفتيات ثم انتهت الأمسية وعادت الفتيات إلى بيوتهنّ.

على الرغم من ذلك كلّه، ظلت إثارة تلك المغامرة رافضة الموت شهورًا بعد ذلك، حتى عندما كانت داون تظهر بصفتها ملكة جمال نيوجرسي فتقصّ شرائط حريرية وتلوح بيديها للجمهور وتفتتح المتاجر الكبيرة ومعارض السيارات. كانت تتساءل (بصوت مرتفع) إن كان سيمر في حياتها مرة أخرى وقت رائع غير متوقع كذلك الأسبوع الذي أمضته في أتلانتك سيتي. ظل الكتاب السنوي الرسمي لسنة 1949 الخاصّ بمسابقة ملكة جمال أميركا إلى جانب سريرها. كان كتابًا صغير الحجم من إعداد لجنة المسابقة، واستمر بيعه طيلة ذلك الأسبوع في أتلانتك سيتي: صور فردية للفتيات، أربع صور في كل صفحة مع معلومات مختصرة عن كل فتاة وخريطة صغيرة لولايتها. كانت زاوية الصفحة التي حملت صورة ملكة جمال نيوجرسي مطوية إلى الخلف بأناقة... داون مرتدية فستان السهرة مع القفازين القماشيين الطويلين مبتسمة ابتسامتها الرزينة: «ماري داون دواير، 22 عامًا، إليزابيث، نيوجرسي، شعر داكن، أمل نيوجرسي في هذه المسابقة. خريجة كلية أوبسالا، إيست أورينج، نيوجرسي، حيث تخصصت في تعليم الموسيقى. طموح ماري داون هو أن تصير معلمة موسيقى في المدرسة الثانوية. الطول خمس أقدام وإنشان، عينان زرقاوان، هواياتها السباحة والرقص والطبخ. الصورة العليا إلى جهة اليسار». لم تكن تريد التخلّي عن حالة الإثارة التي لم تعش مثلها في حياتها، فظلّت تتكلّم من غير

انقطاع عن تلك الأيام الخيالية بالنسبة إلى طفلة من هيلسايد رود، ابنة سَبّاك من هيلسايد رود، وقفت أمام أولئك الناس جميعًا وتنافست على لقب ملكة جمال أميركا. كانت شبه عاجزة عن تصديق الشجاعة التي أبدتها هناك. «أوه، تلك المنصّة، يا سايمور. إنها منصّة طويلة، ممر طويل... مسافة طويلة عليَّ أن أمشيها وأنا أبتسم فقط...».

في سنة 1969، عندما وصلت إلى أولد ريمروك دعوة لحضور لقاء الذكرى العشرين للفتيات المتنافسات على لقب ملكة جمال أميركا، كانت داون قد دخلت المستشفى للمرة الثانية منذ اختفاء ميري. كان ذلك في شهر أيار، وكان الأطباء النفسيون مثلما كانوا في المرة الأولى، وكذلك الغرفة كانت جميلة مريحة. مناظر طبيعية بهيجة، وممرات أكثر جمالًا من ذي قبل، فقد تفتّحت أزهار التوليب من حول البيوت الصغيرة التي يقيم فيها المرضى، وكانت الحقول من حولها خضراء كلها... لا تقع العين إلا على مناظر جميلة جدًا... وبما أن تلك كانت هي المرة الثانية خلال سنتين، وكذلك لأن المكان كان جميلًا، ولأنهما وصلا في أول المساء قادمين مباشرة من نيوارك بعد أن جزّوا العشب في المستشفى ذلك النهار فصارت رائحة الهواء طازجة حادّة تذكّر برائحة الثوم الأخضر، فقد كان الأمر كلّه أسوأ بألف مرة. وهكذا، لم يجد نفسه قادرًا على جعل داون ترى تلك الدعوة إلى لقاء فتيات مسابقة ملكة جمال أميركا لسنة 1949. كانت الأمور سيئة بما فيه الكفاية من غير أي مزيد من إيقاظ ذكريات ملكة جمال نيوجرسي - كانت الأشياء التي تقولها له غريبة جدًا. وكانت تبكي من غير انقطاع حزينة على ما حلّ بها من عار وتدهور وعلى ضياع حياتها كلّها، فكان هذا كلّه محزنًا بما فيه الكفاية.

ثم... حدث التغيير. شيء ما جعلها تقرّر أن تصير راغبة في التحرر من غير المتوقّع ومن كل شيء مستبعَدٍ حدوثه. قرّرت أنها لن تقبل حرمانها من حياتها.

بدأت عملية التجدّد البطولية بأن قررت شد وجهها في «عيادة جينيفا» التي قرأت عنها في مجلة فوغ. رآها واقفة أمام مرآة الحمام قبل النوم، تشدّ جلد وجنتيها إلى الخلف ممسكة به بين إصبعيها، وتشد، في الوقت نفسه، جلد حنكها

إلى الأعلى مستخدمة إبهامَيها. جمعت الجلد المتراخي كلّه بين أصابعها إلى حد زالت معه خطوط وجهها الطبيعية، فصارت ترى في المرآة وجهًا مشدودًا صقيلًا كأنه «بذرة» وجهها الأصلية. على الرغم من أن زوجها كان يرى بوضوح أنها قد بدأت تبدو، وهي في الخامسة والأربعين، كأنها في الخامسة والخمسين، وأن العلاج الذي تقترحه مجلة فوغ لن يقدّم شيئًا ذا أهمية تذكر، فقد أدرك أيضًا أن هذا الاهتمام الجديد أمر بعيد كل البعد عن الكارثة التي حلت بهما، فلم يجد سببًا يحمله على مجادلتها، واتجه تفكيره إلى أنها تعرف الحقيقة أكثر مما يعرفها أي شخص آخر لكنها تفضّل أن تتخيّل نفسها واحدة من قارئات مجلة فوغ اللواتي شخن قبل الأوان، بدلًا من أن تكون أمًّا لصاحبة تفجير ريمروك. وبما أنها استنفدت ما لدى الأطباء النفسيين، وجرَّبت الأدوية النفسية، وصارت مذعورة من احتمال معالجتها بالصدمات الكهربائية إذا دخلت المستشفى مرة ثالثة، فقد جاء اليوم الذي أخذها فيه إلى عيادة جينيفا. قابلهما في المطار سائق أنيق الملبس في سيارة ليموزين. وحجزت لنفسها موعدًا مع د. لابلانتي.

كان السويدي ينام في سرير إلى جانب سريرها في جناحهما في الفندق. وفي الليلة التي أعقبت العملية الجراحية، تلك الليلة التي لم تتوقّف فيها عن التقيؤ، ظل ساهرًا إلى جانبها لمواساتها ولتنظيفها. وخلال أيام كثيرة أعقبت ذلك، كان يجلس إلى جانب سريرها عندما تبكي من شدة الألم (مثلما جلس ليلة بعد ليلة في مستشفى الأمراض النفسية) ممسكًا بيدها، واثقًا من أن هذه الجراحة العجيبة، هذه المعاناة العقيمة التي لا معنى لها، كانت إشارة إلى آخر مراحل انحدارها بصفتها كائنًا بشريًا يعرفه: لم يعتبر أنه يساعد زوجته في الشفاء والتعافي، بل كان يرى أنه يقوم بدور الشريك المتواطئ على تشويهها من غير أن يدرك ذلك. كان ينظر إلى الضمادات التي تغطي رأسها ويشعر كما لو أنه سيشهد على تحضيرات جارية من أجل دفن جثتها.

لكنه كان مخطئًا تمامًا. فقبل أيام معدودة من وصول رسالة ريتا كوهن إلى مكتبه، حدث أن مرّ بجانب طاولة مكتب داون، فرأى عليها رسالة قصيرة بخط

اليد موضوعة إلى جانب مغلّف كتب عليه عنوان جراح التجميل في عيادة جينيفا. جاء في الرسالة:

«عزيزي د. لابلانتي: مرّت سنة منذ أن أجريت لي تلك العملية لشد وجهي. لا أشعر بأنني كنت مدركة عندما رأيتك آخر مرة حجم ما قدّمته لي. تمتلئ نفسي تقديرًا لك عندما أتذكّر كيف أنفقت خمس ساعات من وقتك من أجل جمالي. فما السبيل إلى أن أفيك حقّك من الشكر؟ أحسّ كما لو أنني أمضيت فترة نقاهة بعد الجراحة استمرّت اثني عشر شهرًا. أظنّ، مثلما قلت لي، أن نظامي الجسدي كان أكثر تدهورًا مما تخيّلت. وأما الآن، فقد صرت كأنني وُهبت حياة جديدة. إنها حياة جديدة من الداخل والخارج معًا. يحار أصدقائي القدامى الذين لم أرهم منذ زمن في تفسير التغيير الذي أصابني. لكني لا أخبرهم بالأمر. إنه أمر رائع يا عزيزي الدكتور؛ وما كان ممكنًا أن يحدث لولاك أنت. كل الشّكر والحبّ لك أنتَ. داون ليفوف».

وعلى نحو فوري تقريبًا بعد استعادة وجهها حيويته السابقة، بعد أن عاد إليه كمال تكوينه الذي كان قبل الانفجار، قررت داون بناء بيت معاصر صغير على رقعة أرض مساحتها عشرة أكرات واقعة إلى الناحية الأخرى من تل ريمروك؛ وقررت بيع البيت الكبير القديم والمباني الملحقة به وأرضه البالغة مساحتها أكثر من مئة أكر. بيعت ماشية داون وآلات المزرعة في سنة 1969، أي في السنة التي أعقبت فرار ميري من وجه العدالة. فبحلول ذلك الوقت، كان قد صار واضحًا، أن متطلّبات العمل تفوق قدرة داون على المتابعة بمفردها. وهكذا فقد وضع السويدي إعلانًا في واحدة من المجلات الشهرية المعنية بالماشية، فتخلّص خلال أسابيع فقط من الماشية كلّها ومعها الآلات المستخدمة في المزرعة... تخلّص من ذلك العمل كله. وعندما سمعها تقول لجارهم المعماري بيل أوركوت إنها تكره بيتهما منذ زمن بعيد، أصابته الدهشة كما لو أنها كانت تخبر أوركوت بأنها تكره زوجها نفسه منذ زمن بعيد. خرج في نزهة طويلة على الأقدام. كان في حاجة إلى السير قرابة خمسة أميال، حتى القرية، وهو يذكّر نفسه بأنها قالت إنها تكره البيت فحسب. وحتى رغم إدراكه أنها لم تقل

غير ذلك، كان في بؤس عظيم جعله يستنجد بطاقته كلّها حتى يتمكّن من كبت مشاعره والاستدارة عائدًا إلى البيت من أجل تناول طعام الغداء حيث وجد داون وأوركوت في انتظاره لإلقاء نظرة على المخطط الأولي للبيت الجديد الذي رسمه المعماري.

أتكرهُ بيتهما الحجري القديم، البيت الحبيب الأول الوحيد؟ كيف استطاعت ذلك؟ بدأ يحلم بهذا البيت منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره عندما كان مسافرًا مع فريق البيسبول لخوض مباراة في مواجهة فريق ويباني. كان جالسًا في باص المدرسة مرتديًا زي المدرسة وقد التفّت أصابعه حول عنق قفاز البيسبول، عندما مرّ الباص في تلك الطرق الضيّقة المتعرّجة متّجهًا غربًا عبر تلال جيرسي الريفية - رأى بيتًا حجريًا كبيرًا ذا مصاريع نوافذ سوداء قائمًا فوق تلة صغيرة خلف مجموعة من الأشجار. رأى فتاة صغيرة على أرجوحة معلّقة من غصن منخفض في واحدة من تلك الأشجار الكبيرة. رآها تؤرجح نفسها في الهواء. وتخيّلها سعيدة إلى أقصى ما يمكن أن يشعر به طفل من سعادة. كان ذلك أول بيت مبني من الحجر يراه في حياته كلّها. وقد رأى فيه هذا الصبي القادم من المدينة تحفة معمارية عجيبة. رأى أن التصميم العشوائي لحجارة ذلك البيت كان ناطقًا بكلمة «بيت»، حتى أكثر مما ينطق بها بيتهم القرميدي في جادة آفنيو، على الرغم من قبوه المنتهي الذي علَّم فيه أخاه جيري الشطرنج وكرة الطاولة، وعلى الرغم من الشرفة الخلفية ذات النوافذ حيث كان يستلقي على الأريكة القديمة في الظلام في الليالي الحارة مصغيًا إلى أغاني «جايَنت غينز»، وعلى الرغم من مرأب السيارة حيث كان يستخدم بكرة من شريط لاصق أسود لكي يثبت كرة البيسبول إلى نهاية حبلٍ متدلٍ من عارضة في السقف، ثم يتخذ وضعية منتصبة جادّة، فيمضي نصف ساعة في التمرن على تسديد مضربه إليها بعد عودته من تمرينات البيسبول، وذلك على امتداد الشتاء كلّه، محاولًا ألّا يخطئ ضبط التوقيت؛ وعلى الرغم من غرفته الواقعة في آخر البيت بنافذتيها البارزتين حيث اعتاد - في السنة التي سبقت ذهابه إلى المدرسة الثانوية - أن يستلقي ويقرأ قبل النوم في كتاب «فتى من تومكينسفيل»... «رجل شائب

الشعر في قميص مهلهل وقبعة بيسبول زرقاء شدّها على رأسه حتى غطّت عينيه. دفع الرجل إلى الفتى بحزمة ملابس وأشار إلى خزانته. ‘الرقم ستة وخمسون. في الصفّ الخلفي، هناك’. كانت الخزائن أشبه بأكشاك خشبية بسيطة يبلغ ارتفاع الواحد منها ست أقدام وفيها رف تحت أعلاها بقدم أو اثنتين. كان باب خزانته مفتوحًا، وعلى امتداد حافتها العلوية ورقة ملصقة كتب عليها: ‘تاكر، رقم 56’. ها هي ملابسه الرياضية... كلمة ‘دودجرز’ مكتوبة على صدر القميص، والرقم 56 مكتوب على ظهرها...».

لم يكن ذلك البيت الحجري في مظهره ذا جاذبية مبتكرة أصيلة فحسب (ذلك الانتظام لأشياء غير منتظمة كلّها كأنه قطع أحجية رتّبتها بعناية يد صبور حتى اتّخذت هذا الشكل المربّع المتين فصنعت منزلًا جميلًا)، بل بدا له البيت أيضًا مكانًا حصينًا منيعًا لا يمكن أبدًا أن يدمّره حريق... لعله موجود هناك منذ بداية هذه البلاد. حجارة بدائية على طبيعتها الأصلية أشبه بتلك الحجارة التي تراها متناثرة بين الأشجار إذا ذهبت في نزهة على الأقدام في ممرات منتزه ويكاهيك؛ لكنها صارت في ذلك المكان بيتًا! لم ينس ذلك البيت أبدًا.

وفي المدرسة، كان يكتشف أنه صار يسأل نفسه عن الفتاة التي يجب أن يختارها من بين زميلاته ليتزوجها ويأخذها لتعيش معه في ذلك البيت الحجري. بعد تلك الرحلة إلى ويباني مع فريقه، صار يكفيه سماع كلمة «بيت» - بل حتى سماع أحد يقول كلمة «الغرب»، حتى يتخيل نفسه عائدًا بعد انتهاء عمله إلى ذلك البيت المتنحّي عن الشارع، ويتخيّل أنه يرى ابنته هناك، ابنته الصغيرة طائرة في الهواء على تلك الأرجوحة التي صنعها لها. صحيح أنه لم يكن إلا طالبًا في السنة الثانية بالمدرسة الثانوية، لكنه كان قادرًا على تخيّل أن لديه ابنةً تجري إليه، وعلى تخيّل أنها ترمي بنفسها بين ذراعيه فيحملها ويرفعها فوق كتفيه، ويدخل البيت متجهًا مباشرة إلى المطبخ حيث تكون أم الطفلة التي يعشقها واقفة عند الموقد مرتدية مريلة المطبخ تعد لهم طعام العشاء. إنها أية واحدة من فتيات ويكاهيك، كتلك التي كانت جالسة على المقعد الذي أمامه في سينما روزفلت في يوم الجمعة الماضي وقد تدلّى شعرها على ظهر مقعدها قريبًا منه،

يكفي أن يمد يده حتى يمسّد عليه. لو كانت لديه الجرأة لفعل ذلك. كانت لديه طيلة حياته هذه القدرة على تخيّل نفسه تخيّلًا كاملًا. وعلى الدوام، كان كل شيء يأتي على نحو صحيح لكي يكمل الصورة. وكيف لا يكون الأمر هكذا عندما يحسّ بنفسه عنصرًا في تلك الصورة نفسها؟ عندها، رأى داون في أوبسالا. كانت تعبر الحديقة متجهة إلى شارع أولد مين حيث يتسكّع الطلبة في الاستراحات بين الدروس. كانت واقفة تحت أشجار الأوكاليبتوس تتحدّث مع اثنتين من الفتيات ممن يقمن في «كينبروك هول». تبعها ذات مرة في شارع روسبكت حتى موقف الباص عند الكنيسة القرميدية حيث توقّفت فجأة أمام واجهة متجر «بِسْت آند كو»، وبعد دخولها المتجر اقترب من الواجهة لينظر إلى تلك التنورة الطويلة «الحديثة» متخيلًا داون دواير في غرفة قياس الملابس ترتدي تلك التنورة فوق سروالها الداخلي. كانت جميلة جدًا، جميلة إلى حد يجعله يشعر بخجل شديد حتى من إلقاء نظرة في اتجاهها، كما لو أن النظر في حد ذاته يماثل لمسها أو الالتصاق بها، وكما لو أنها قد عرفت (كيف يمكن ألا تعرف؟) أنه عاجز عن منع نفسه من النظر إليها، فتفعل مثلما تفعله أية فتاة عاقلة مهتمة بنفسها فتزدريه معتبرة إياه «صيادًا». لقد كان جنديًا في مشاة البحرية الأميركية؛ وكان خاطبًا فتاة في ساوث كارولاينا، ففسخ تلك الخطبة نزولًا عند رغبة أسرته، ثم مضت سنين لم يفكّر خلالها بذلك البيت الحجري ذي النوافذ السوداء وفي تلك الأرجوحة التي أمامه. على الرغم من شدة وسامته، ومن كونه قد أنهى خدمته العسكرية منذ وقت قصير، ومن كونه النجم الرياضي اللامع الشهير في مدرسته، فقد كان يعمل بتصميم على احتواء أي احتمال للإصابة بالغرور وعلى مقاومة أثر ذلك الدور، فاقتضاه الأمر فصلًا دراسيًا كاملًا قبل أن يطرح على داون الخروج معه في موعد. لم يكن ذلك لأن المواجهة العارية لجمالها تجعل ضميره معذَّبًا وتجعله يشعر كما لو أنه يتلصّص عليها من غير حياء فحسب، بل لأن قربه منها سيجعله عاجزًا عن منعها من النظر إلى ما في داخل عقله، ومن أن ترى بنفسها كيف يتصوّرها: هناك، عند الموقد في مطبخ البيت الحجري وهو داخل مع ابنتهما، ميري، فوق كتفيه...

سيكون اسمها «ميري» بسبب بهجتها وسعادتها عندما تكون في تلك الأرجوحة التي صنعها لها(32). وفي الليل، كان يشغل الفونوغراف من غير انقطاع على أغنية حظيت بشعبية واسعة في تلك السنة. أغنية «بيغ أوه يا قلبي». كانت في تلك الأغنية جملة تقول «قلبك الإيرلندي هو ما أصبو إليه». كلما رأى داون دواير في الطريق في أوبسالا، كلما رأى داون الصغيرة الفاتنة، يمضي بقية يومه غير مدرك أنه يصفّر لحن تلك الأغنية من غير انقطاع. كان يجد نفسه يصفر ذلك اللحن حتى أثناء مباراة الكرة، وحتى عندما يلوح بمضربه ليقذف بالكرة في لعبة البيسبول منتظرًا دوره في الهجوم. كان يعيش تحت سماءين في ذلك الوقت: سماء داون دواير، والسماء الطبيعية التي في الأعلى.

لم يفاتحها مباشرة، على الرغم من ذلك كلّه. لم يفاتحها لخوفه من أن ترى كيف يفكّر فيها فتضحك من سكره بها ومن البراءة الوقحة لجندي مشاة البحرية السابق تجاه ملكة جمال ربيع أوبسالا. ستظنّ أن تخيّله إياها، حتى قبل تعارفهما، مصنوعة خصيصًا من أجل تلبية ما يتوق إليه سايمور ليفوف يعني أنه لا يزال طفلًا مدلّلًا عابثًا، في حين كان ذلك يعني للسويدي أنه ممتلئ تمامًا بهدف يسير إليه، ممتلئ به قبل أي شخص آخر يعرفه، ممتلئ بطموحات رجل ناضج وبأهدافه، وكان يعني أنه شخص يرى متحمّسًا (يرى بتفصيل تام) نتيجة قصته وغايتها. لقد عاد من الخدمة العسكرية في سن العشرين، عاد إلى الديار مندفعًا إلى أن يكون «ناضجًا». وإذا كان لا يزال طفلًا، فهو كذلك من ناحية واحدة فقط وهي أنه يجد نفسه متطلّعًا إلى الأمام، إلى زمن الرجولة المسؤولة، بشوق يشبه شوق طفل يحدّق في واجهة متجر للسكاكر والحلويات.

كان يفهم تمامًا سبب رغبتها في بيع البيت القديم، فتقبّل تلك الرغبة حتى من غير أن يحاول جعلها تفهم سبب رغبتها في الرحيل عنه - لأن ميري لا تزال فيه، في كل زاوية منه: ميري عندما كان عمرها سنة واحدة، وخمس سنين، وعشر سنين - حتى من غير أن يحاول جعلها تفهم أن سبب رغبتها في الرحيل هو نفسه سبب رغبته في البقاء، رغبة ليست أقل أهمية من رغباتها. لكنها قد لا تكون قادرة على الاستمرار في العيش إذا بقيا في البيت. وأما هو، فلا يزال يبدو

قادرًا على احتمال كل شيء وإن كان في الأمر ابتعاد متوحش قاسٍ عن ميوله: وافق على ترك البيت الذي أحبّه لأسباب كثيرة من بينها تلك الذكريات الباقية فيه من أيام طفلته الهاربة. وافق على الانتقال إلى بيت جديد مفتوح للشمس من كل الجهات، ممتلئ بضيائها، صغير لا يتسع إلا لهما، وليست فيه إلا غرفة إضافية صغيرة واحدة للضيوف قائمة فوق مرأب السيارة. بيت أحلام حديث... «تقشّف فخم» مثلما وصفه المعماري أوركوت لداون في ما مضى بعد أن رسم ما كان يدور في ذهنها... بيت فيه تدفئة كهربائية أرضية (بدلًا من التدفئة غير المحتملة بالهواء الحار التي أصابتها بالتهاب الجيوب)، وأثاث حديث (بدلًا من قطع الأثاث العتيقة المخيفة)، وإنارة سقفية مخفية (بدلًا من مليون من المصابيح المحمولة على قوائم طويلة تحت عوارض السقف الكئيبة المصنوعة من خشب البلوط)، ونوافذ متسعة يرى المرء من خلالها بوضوح (بدلًا من النوافذ القديمة المجزّأة التي تعلّق دائمًا ويصعب فتحها)، وقبو حديث من الناحية التكنولوجية كأنه غواصة نووية (بدلًا من ذلك القبو الكهفي الرطب الذي كان زوجها يأخذ الضيوف إليه لكي يروا النبيذ الذي «خبّأه» لكي يشربه في أواخر العمر. كان يذكّرهم عند تجوّلهم بين تلك الجدران الحجرية المتعرّقة رطوبة بأن يظلّوا منتبهين إلى أنابيب الصرف الحديدية المعلّقة واطئة فوق رؤوسهم: («انتبه إلى رأسك. انتبه إلى ذلك الأنبوب»...). لقد فهم كل شيء، فهم الأمر كلّه، فهم كم كان هذا صعبًا عليها. فما الذي يستطيع فعله غير أن يقبل بما أرادته؟ كانت تقول له: «الملكية العقارية مسؤولية. من غير وجود آلات وماشية، سوف ينمو العشب كثيرًا. عليك جز العشب كلّه مرتين، أو ثلاث مرات، في السنة. لا بد من جزّه؛ ولا يجوز ترك تلك النباتات تنمو وتكبر حتى تصير دغلًا. لا بد من جزّها دائمًا. وهو أمر مكلف كثيرًا. من الجنون أن يدفع المرء ذلك المال كله سنة بعد سنة. ولا بد أيضًا من المحافظة على الحظائر حتى لا تتداعى... إن الأرض مسؤولية لا يمكن للمرء تجاهلها. أفضل ما يمكن فعله هو الانتقال من هذا المكان. إنه الشيء الوحيد الذي يمكن فعله».

لا بأس! سوف ينتقلان. لكن، لماذا تقول زوجته لأوركوت إنها كرهت ذلك

البيت «منذ أن عثرنا عليه؟». كأنها تقول إنها لم تعش هناك إلا لأن زوجها «قد جرجرها» إلى ذلك البيت عندما كانت صغيرة جدًا، ليست لديها أي فكرة عن معنى تدبير بيت قديم ضخم مظلم لا يخلو أبدًا من شيء يتعفّن أو يتسرّب أو يستلزم إصلاحًا. قالت له إن

قالت له بنبرة ازدراء: «يا مسكين!... صبي ريمروك الصغير الثري. كم هو منطوٍ على نفسه! فلنتضاجع يا ببـ ببـ با با! سوف آخذك لرؤية ابنتك. سنغسل قضيبك ونزرر بنطلونك، ثم آخذك إلى حيث ابنتك».

«وكيف أكون واثقًا من أنك ستفعلين هذا؟».

«سوف نرى كيف تسير الأمور. أسوأ احتمال هو ألا تحظى لنفسك إلا بفرج عمره اثنين وعشرين عامًا. هيا يا بابا! تعال إلى السرير، يا بـ بـ بـ با».

«كفي عن هذا! ابنتي لا علاقة لها بأي شيء من هذا! ابنتي لا علاقة لها بك! أنت، أيتها القذرة الصغيرة... لا تصلحين حتى لمسح حذاء ابنتي! لا علاقة لابنتي بذلك التفجير، وأنت تعرفين هذا».

«اهدأ يا سويدي! اهدأ أيها الولد العاشق! إذا كنت راغبًا في رؤية ابنتك مثلما تقول، فليس عليك إلا أن تهدأ وأن تأتي إلى هنا... ليس عليك إلا أن تمنح ريتا كوهن مضاجعة حلوة قوية. المضاجعة أولًا، ثم النقود».

كانت الآن قد رفعت ركبتيها صوب صدرها واضعة قدميها على السرير. تركت ساقيها تنفتحان. كانت التنورة ذات الأزهار متجمعة عند ردفيها. رأى أنها لم تكن ترتدي سروالًا تحتيًا.

قالت بصوت خافت: «هنا! ضعه هنا! هاجم هنا! كل شيء متاح لك يا عزيزي».

«يا آنسة كوهن...».

لم يعثر على ما يمكن أن ينجده في ترسانة ردود الأفعال المحترمة التي يعرفها... هذا الكلام الممتزج بفوران لشيء داخلي شديد القوة، لم يكن مما أعد نفسه لمواجهته. لقد جلبت معها إلى هذا الفندق إصبع ديناميت حتى تفجره هنا. هكذا هو الأمر... تريد أن تنسفه!

أجابته: «ما الأمر يا عزيزي؟ عليك أن ترفع صوتك عندما تتكلّم مثلما يفعل أي ولد كبير... إذا أردت مني أن أسمعك».
«ما علاقة هذا الاستعراض بكل ما جرى؟».
قالت: «كل شيء. سيفاجئك مدى اتضاح صورة الأمور لك بعد هذا الاستعراض...». أحاطت شعر عانتها بكفيها وقالت له: «انظر إليه!»... ثم راحت أصابعها تقلب أشفار فرجها إلى الخارج لكي تجعله يرى الأنسجة الرقيقة داخله بما فيها من عروق دموية وبقع متلوّنة كالشمع، وحتى يرى لحمها المنفتح بلمعانه الرطب. أشاح بوجهه عنها.
قالت: «إنها غابة هناك، في الأسفل. لا شيء في مكانه الصحيح. لا شيء على الجهة اليسرى يشبه شيئًا على الجهة اليمنى. كم من الزوائد موجود هناك؟ لا أحد يدري ذلك. إنها كثيرة يصعب إحصاؤها. إن في الأسفل غددًا. وهناك ثقب آخر أيضًا. هناك طيّات جلدية. ألا ترى علاقة هذا بما حدث؟ ألق نظرة متملّية متأنّية!».
قال لها وقد ثبت نظره على عينيها، على الشيء الجميل الوحيد فيها. اكتشف أنهما عينا طفلة، عينا طفلة طيبة لا علاقة لهما بما كانت تفعله. «يا آنسة كوهن. ابنتي مفقودة. وهناك شخص قد قُتِل».
«ألا تفهم الفكرة في هذا الأمر؟ أنت لا تفهم الفكرة في أي شيء. انظر إليه! صفه لي! هل فيه أية مشكلة؟ ماذا ترى فيه؟ هل ترى أي شيء فيه؟ لا... أنت لا ترى شيئًا. أنت لا ترى أي شيء لأنك لا تنظر إلى أي شيء».
قال لها: «هذا أمر لا معنى له أبدًا. وأنت لا تستطيعين إخضاع أحد بهذا. إنك تُخضعين نفسك فحسب».
«هل تعرف مقاسه؟ فلنرَ مهارتك في التخمين. إنه صغير. أظن أن مقاسه أربعة. ضمن مقاسات السيدات، هذا أصغر فرج. أي فرج أصغر منه يكون فرج طفلة. سنرى كيف تلجُ مراهقة من مقاس أربعة. وسنرى كيف يوفّر لك المقاس أربعة أجمل وأحرّ مضاجعة حلمت بها. أنت تحب الجلد الجيد. وأنت تحب القفازات الفاخرة. أدخله فيه، لكن ببطء، ببطء. عليك دائمًا أن تدخله ببطء في

المرة الأولى».
«لماذا لا تتوقّفين عن هذا في الحال؟».
«حسنًا، إن كان هذا قرارك، وإن كنت ذلك الرجل الشجاع الذي لا يجرؤ حتى على النظر إليه، فعليك أن تغمض عينيك وأن تتقدم وتشمه. اقترب واستنشق رائحته. المستنقع. سوف يمتصك. شمه يا سويدي. أنت تعرف كيف تكون رائحة القفاز الجديد. تكون رائحته مثل رائحة سيارة جديدة من الداخل. حسنًا، هكذا تكون رائحة الحياة. شم رائحة فرجٍ جديد من الداخل».
عيناها الطفوليتان الداكنتان. عينانِ ممتلئتان مرحًا واستمتاعًا. عينان ممتلئتان وقاحة. عينان ممتلئتان باللامعقول. عينان ممتلئتان غرابة. عينان ممتلئتان بريتا كوهن. لم يكن إلا نصفُ هذا تمثيلًا. للاستفزاز. لإثارة الغضب. لإثارة الشهوة. كانت في حالة مختلفة. عفريت الثورة. جُنيّ الكارثة. كانت كأنها عثرت على المعنى الخبيث لوجودها ذاته من خلال قيامها بدور معذّبه الذي يهدم أسرته. الطفلة المؤذية!
قالت له: «مقاومتك الجسدية مدهشة! أما من شيء قادر على إفقادك توازنك؟ لم أكن أصدق أن أشخاصًا مثلك لا يزالون موجودين في هذا العالم. لو كان مكانك أي رجل آخر لاستسلم منذ زمن. أنت قوي جدًّا. هيا... تذوَّقه!».
«أنت لست امرأة. هذا لا يجعلك امرأة بأي شكل من الأشكال. هذا يجعلك صورة زائفة لامرأة. هذا شيء مقرف».
قذفها بهذه الكلمات سريعًا كأنه جندي تعرّض لهجوم.
سألته: «والرجل الذي لا ينظر... صورة زائفة لأي شيء؟ أليس جزءًا من الطبيعة البشرية أن تنظر؟ ما قولك في رجل يغضّ دائمًا من بصره لأن ما سيراه موغلٌ في الواقع أكثر مما يطيق؟... لأنه غير منسجم مع العالم الذي يعرفه؟... العالم الذي يظن أنه يعرفه؟ هيا، تذوّقه! إنه مقرف، بالطبع، أيها الولد الكبير العظيم».
أطلقت ضحكة مرحة عندما ظل رافضًا أن يخفض عينيه، ولو إنشًا واحدًا.
صاحت به: «خذ!».

لا بد أنها قد أدخلت يدها في فرجها، لا بد أنها أدخلت أصابعها، لأن تلك اليد ارتفعت بعد ذلك ممتدة إلى وجهه. حملت أطراف أصابعها رائحتها إليه. كان عاجزًا عن صدّ تلك الرائحة... الرائحة الخصبة المنبعثة من داخلها.

قالت: «هذا يحل لغز الغموض كلّه. ألا تريد معرفة علاقة هذا الأمر بما جرى؟ هذا ما سيخبرك بتلك العلاقة».

كان في داخله اضطراب كبير، وشكّ كبير، وميل كبير، ميل مضاد كبير. كان يتفجّر دوافعَ ودوافع مضادة، فما عاد يدري أيُّها كان ما رسم الخط الذي لن يتجاوزه أبدًا. بدا له كما لو أن تفكيره كله كان جاريًا بلغة أجنبية لا يعرفها، لكنه ظل مدركًا أن عليه ألا يتجاوز ذلك الخط: لن يرفعها ويقذف بها من النافذة. لن يرفعها ويقذف بها إلى الأرض. لن يرفعها لأي سبب كان. سوف ينصبُّ كل ما بقي لديه من قوة من أجل إبقائه واقفًا مشلولًا عند ذلك السرير. لن يقترب منها!

كانت الآن قد أعادت يدها التي رفعتها إليه فقرّبتها إلى وجهها بحركة بطيئة وراحت ترسم في الهواء دوائر صغيرة مجنونة لا تنفكّ تدنو منها. ثم بدأت تضع أصابعها في فمها، إصبعًا بعد إصبع: «أتعرف كيف هو طعمها؟ أتريد أن أخبرك؟ إنه طعم مثل طعم ابن - ابن - تك».

في تلك اللحظة، اندفع خارجًا من الغرفة. اندفع خارجًا بكل قوّته.

هكذا جرى الأمر. انتهى كل شيء بعد عشر دقائق، أو اثنتي عشرة دقيقة. فعندما استجاب عناصر الـ«إف بي آي» ووصلوا إلى الفندق، كانت ريتا قد رحلت حاملة معها الحقيبة التي تركها خلفه. لم تكن الوضاعة والقسوة الأشبه بقسوة الأطفال هي ما جعله يخرج عن طوره، ولا حتى ذلك الاستفزاز الخبيث، بل شيء لم يعد قادرًا على العثور على اسم له.

لقد أخطأ في كل شيء عندما واجهه شيئ لا يعرف له اسمًا.

مرت خمس سنين. ظل والد مفجرة ريمروك ينتظر عبثًا ظهور ريتا في مكتبه من جديد. لم يلتقط لها صورة؛ ولم يحفظ بصمات أصابعها... لا، فقد كانت تلك الطفلة هي الآمر الناهي كلّما التقيا؛ كانت هي الآمر الناهي في تلك الدقائق القليلة. وأما الآن فقد اكتفت. طُلب من السويدي تكوين صورة لريتا عندما أتاه

أحد عناصر الـ«إف بي آي» ومعه رسّام. وأما هو فظلّ مواظبًا على متابعة الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية باحثًا عن صورة حقيقية لها. كان ينتظر ظهور صورة ريتا. لا بد أن تظهر صورتها. القنابل تنفجر في كل مكان. في باولدر وكولورادو. قنابل دمّرت مكتب «إدارة التجنيد»، ومقر وحدة تدريب ضباط الاحتياط في جامعة كولورادو. وفي ميتشغان، انفجرت قنابل في الجامعة، وانفجرت حزم ديناميت في مراكز الشرطة وفي مقر هيئة تسجيل المجنَّدين. وفي ويسكانسن، انفجرت قنبلة فدمّرت مستودع الحرس الوطني؛ ومرت طائرة صغيرة فوق مصنع ذخيرة فرمت عليه وعاءين مليئين بالبارود. هوجمت مباني جامعة ويسكانسن بالقنابل، وفي شيكاغو دمّرت القنابل نصبًا تذكاريًا لرجال الشرطة الذين قُتلوا إبان حوادث الشغب في هايماركت. وفي نيوهيفن، وضع أحدهم قنبلة حارقة في بيت القاضي الذي تولّى محاكمة ثمانية عشر شخصًا من حركة الفهود السود اتهموا بالتخطيط لتفجير مركز الشرطة، ومقر إدارة السكك الحديدية في نيوهيفن، فضلًا عن بعض المتاجر. فُجّرت قنابل في عدد من مباني جامعات أوريغون وأريزونا وتكساس. مركز تسوق في بيترسبرغ، ونادٍ ليلي في واشنطن، ومحكمة في ماريلاند... فُجّرت كلّها. وفي نيويورك أيضًا، وقعت سلسلة من الانفجارات - في الرصيف البحري الخاص بشركة يونايتد فروت، وفي مصرف مارين ويدلاند، وفي مقر شركة مانيوفاكتشرر ترَست، وفي شركة جنرال موتورز، وفي مقر شركة موبيل أويل في مانهاتن، وفي مقر شركة آي بي إم، وفي مقر شركة الهواتف والإلكترونيات. انفجرت قنبلة في مركز هيئة التجنيد في قلب مانهاتن. فُجّر مبنى محاكم الجنايات. وألقيت ثلاث زجاجات مولوتوف في مدرسة ثانوية في مانهاتن. انفجرت قنابل في صناديق الخزائن الشخصية في المصارف في ثماني مدن -. لا بد أن ريتا قد وضعت واحدة من تلك القنابل. سوف يعثرون على ريتا ويمسكون بها متلبّسة... سوف يمسكون بتلك العصبة كلّها، وسوف تقودهم إلى ميري.

كان يجلس في المطبخ مرتديًا بيجامته فيتابع الأخبار كل مساء مترقبًا أن يظهر

على الشاشة وجهها ملطخًا بالسخام. يجلس وحيدًا في المطبخ منتظرًا عودة عدوته ريتا كوهن.

انفجرت قنبلة في طائرة لشركة «تي دبليو أيه» في لاس فيغاس. وانفجرت قنبلة في مؤسسة «كوين أليزابيث». وانفجرت قنبلة في البنتاغون - انفجرت في دورة مياه للسيدات في الطابق الرابع من المنطقة الخاصة بالقوات الجوية في المبنى -. ترك من وضع القنبلة رسالة قالت: «اليوم، هاجمنا البنتاغون، إنه مركز القيادة الأميركية العسكرية. هذه ردة فعلنا في الوقت الذي يشهد شن حملة متزايدة من القصف الأميركي البحري والجوي ضد الفتيناميين. وهذا في وقت تستخدم فيه الألغام البحرية والسفن الحربية الأمريكية لإغلاق موانئ جمهورية فيتنام الديمقراطية، ويجري في واشنطن وضع خطط لمزيد من التصعيد».

جمهورية فيتنام الديمقراطية! أقسم أنني سأفقد عقلي يا سايمور إن سمعتها تقول هذا من جديد. إنها ابنتهما! لقد وضعت ميري قنبلة في البنتاغون.

«بـ بـ بابا!». صوتها يعلو فوق هدير آلات الخياطة فيسمعها تناديه وهو جالس في مكتبه... «بـ بـ بابا!».

وبعد سنتين من اختفائها، انفجرت قنبلة في أكثر بيوت «الإحياء الإغريقي» أناقة في أكثر الشوارع هدوءًا في قرية غرينويتش... ثلاثة انفجارات تلاها حريق دمَّر ذلك البيت المؤلف من أربعة طوابق. كان بيتًا لزوجين موسرين من نيويورك يمضيان عطلتهما في البحر الكاريبي. وبعد الانفجار، خرجت من البيت شابتان مذهولتان مصابتان بكدمات وجروح. وُصفت إحداهما - كانت عارية - بأنها بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من العمر. رأت الفتاتين امرأة من الجيران فآوتهما. أعطتهما ملابس، ثم اندفعت إلى البيت المدمّر لترى إن كانت تستطيع فعل المزيد. عادت فوجدت أن الشابتين قد اختفتا. كانت ابنة أصحاب البيت البالغة خمسة وعشرين عامًا واحدة من تلك الفتاتين؛ وكانت عضوًا في مجموعة «ويزرمن» التي كانت فصيلًا ثوريًا عنيفًا منتميًا إلى حركة «طلاب من أجل الديمقراطية». وأما الفتاة الأخرى فلم تُعرف هويتها. الفتاة الأخرى هي ريتا. الفتاة الأخرى هي ميري! لقد ورّطوها في هذا الأمر أيضًا.

أمضى الليل كله جالسًا في المطبخ منتظرًا ابنته وفتاة «ويزرمن». صار الوضع الآن آمنًا... كفّوا منذ أكثر من سنة عن مراقبة البيت والمصنع وعن مراقبة الهواتف. لا مشكلة الآن إن ظهرتا. يُخرج السويدي من الثلاجة وجبة حساء مجمدة لكي يطعمهما عندما تصلان. تعود به ذاكرته إلى ذلك الوقت الذي أظهرت فيه ابنته ميلًا إلى العلوم، وكانت تقول إنها ستصير طبيبة بيطرية... بسبب الماشية التي تربّيها داون. كانت التأتأة هي ما جعلها تتجه إلى العلوم؛ فعندما تصير في حالة تركيز على واحد من مشاريعها العلمية، وتقوم بعمل دقيق، فإن تأتأتها تتراجع قليلًا. ما كان ممكنًا لأي أب أو أم في العالم توقّع أن تكون لذلك صلة بالقنابل. لن يفلح أحد في الانتباه إلى تلك الصلة، فالأمر ليس مقتصرًا عليه. كان اهتمامها بالعلوم اهتمامًا بريئًا تمامًا. كان كل شيء بريئًا.

عثروا على جثة امرأة شابة في ركام البيت المحترق. ثم تمكنوا من تحديد هويتها في اليوم التالي. كانت طالبة سابقة في جامعة كولومبيا. وكانت لها مشاركة في التظاهرات العنيفة ضد الحرب. وهي من أسس مجموعة «ماد دوغز» المتطرّفة المنبثقة عن حركة «طلاب من أجل الديمقراطية». وفي اليوم التالي، تمكنوا من تحديد هوية الفتاة الثانية التي فرت من البيت: ناشطة متطرّفة أخرى، لكنها ليست ميري: فتاة في السادسة والعشرين من العمر هي ابنة محامٍ يساري من نيويورك. وكان أسوأ من ذلك كله عثورهم على جثة أخرى تحت أنقاض البيت المدمَّر في تلك القرية: وجدوا جذع امرأة شابة. «لم يجر على الفور التعرف على هوية جثة الضحية الثانية لذلك الانفجار. لقد قال الطبيب المشارك في التحرّيات الطبية، د. إليوت غروس: ‘سوف يستغرق الأمر زمنًا قبل أن تصير لدينا فكرة عن هويتها’!».

كان أبوها، الجالس إلى طاولة المطبخ وحيدًا، يعرف من هي. ستون إصبع ديناميت، وثلاثون صاعقًا، كمية وافرة من القنابل بيتية الصنع... أنابيب بقطر اثني عشر إنشًا محشوة بالديناميت... وجدوها على مسافة عشرين قدمًا من تلك الجثة. كانت القنبلة التي قتلت د. هاملين أنبوبًا واحدًا محشوًا بالديناميت. لقد كانت تلك المرأة عاكفة على تجميع مكوِّنات قنبلة أخرى، لكنها أخطأت في أمر

ما فانفجرت القنبلة ودمرت البيت. قتلت ميري هاملين أولًا، ثم قتلت نفسها الآن. لقد فعلتها وقدّمت مفاجأة كبيرة لبلدتها الهادئة... وهذه هي النتيجة. «أكد د. غروس وجود عدد من الجروح في ذلك الجذع الذي وجدوه. كانت جروحًا ناتجة عن مسامير. هذا ما يضفي مصداقية على التقرير الذي صدر عن الشرطة، وقال إن القنابل كانت مجهزة بحيث تلحق أكبر ضرر بالأشخاص، وليس لكي تكون متفجرات فحسب».

جاء الصباح التالي بأخبار عن مزيد من الانفجارات في مانهاتن: تفجيرات متزامنة، في حدود الساعة الواحدة والأربعين دقيقة صباحًا تقريبًا، في ثلاث بنايات في مانهاتن. اتضح أن الجذع ليس جذعها؛ ميري لا تزال حية! لم يكن ذلك الجذع الممزّق الذي ثقبته المسامير جذعها. «نتيجة إنذار مسبق عن طريق الهاتف، وصلت الشرطة إلى الموقع في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة فتمكّنت من إخلاء أربعة وعشرين شخصًا من البوابين وغيرهم قبل وقوع الانفجار». يجب أن يكون صاحب تلك التفجيرات في وسط مانهاتن هو نفسه صاحب تفجير ريمروك. لو أنها اتصلت قبل انفجار قنبلتها الأولى لما قُتل أحد يومها ولما صارت مطلوبة في جريمة قتل. هذا يعني أنها قد تعلّمت شيئًا، على الأقل؛ ويعني أيضًا أنها لا تزال حية وأن ثمة سببًا يبرر جلوسه في المطبخ كل ليلة منتظرًا رؤيتها من النافذة، وريتا معها.

يقرأ عن أهل الشابتين اللتين لا يزال البحث عنهما جاريًا من أجل استجوابهما في ما يتصل بتفجير ذلك البيت.

يظهر والد واحدة من الفتاتين ووالدتها على التلفزيون فيناشدان ابنتهما أن تكشف عن عدد الأشخاص الذين كانوا موجودين في ذلك البيت وقت الانفجار. تقول الأم: «إن لم يكن هناك أحد آخر، فمن الممكن إيقاف البحث إلى ما بعد إزالة الجدران. إنني واثقة بك...». هذا ما تقوله الأم لابنتها المختفية التي استخدمت البيت، مع رفاقها من حركة طلاب من أجل الديمقراطية، مكانًا لصنع القنابل... «أنت لا تريدين إضافة مزيد من الحزن إلى هذه المأساة. أرجوك، أرجوك، اتصلي أو ابعثي ببرقية أو اجعلي شخصًا يتصل بدلًا منك لتقديم هذه

المعلومات. لا نريد معرفة شيء غير أنك بخير؛ ولا نريد قول شيء غير أننا نحبّك ونتمنى أن نتمكّن من مساعدتك».

إنها الكلمات نفسها التي قالها والد صاحبة تفجير ريمروك على التلفزيون عندما اختفت. نحن نحبك ونريد مساعدتك. عندما سئل والد المتهمة بتفجير ذلك البيت «عما إذا كان في ما مضى على تواصل جيد» مع ابنته، كانت إجابته - ولم يكن أقل صدقًا ولا أقل بؤسًا من والد المتهمة بتفجير ريمروك عند إجابته على سؤال مماثل: «بصفتنا أباها وأمها، فإن علينا الإجابة بالنفي: لم نكن على تواصل جيّد معها في السنوات الأخيرة!». نقلوا عنه قوله إن ابنته كانت تكافح من أجل «تغيير النظام وجعل السلطة في يد تسعين بالمئة من الناس الذين ليست لديهم الآن أية سلطة اقتصادية أو سياسية». إنه ما كانت ميري تكافح من أجله أيضًا. وهو نفسه ما كانت تعلنه أثناء انفجارات غضبها على طاولة العشاء عندما تدين أمها وأبيها الأنانيين ونمط حياتهما البرجوازي.

قالت الشرطة إن والد الفتاة الهاربة الثانية كان «قليل الكلام». لم يقل الرجل إلا «ليست لدي أية معلومات عن مكان وجودها». لقد صدّقه والد صاحبة تفجير ريمروك، وفهم جيدًا عدم رغبته في الكلام. كان يعرف أكثر من أي أب آخر في أميركا عبء العذاب الذي تخفيه تلك الصيغة التي لا عاطفة فيها «ليست لدي أية معلومات عن مكان وجودها». لعله كان سيستغرب ذلك المظهر البارد والشفتين المشدودتين لولا أنه مر بهذا الأمر من قبل، لكنه يعرف حقيقة أن والدَي الفتاة الهاربة يغرقان الآن مثلما هو غارق، يغرقان مثله تمامًا... يغرقان ليل نهار في عدم كفاية تفسير ما حدث.

عثروا على جثة ثالثة بين الأنقاض. كانت جثة رجل ناضج. وبعد أسبوع من ذلك، ظهر في الصحيفة كلام منسوب إلى أم الفتاة الهاربة الثانية فكان تصريحًا بدَّد ما لديه من تعاطف مع أهل الفتاتين. سألوا تلك المرأة عن ابنتها فقالت: «نعرف أنها بخير».

لقد قتلت ابنتها ثلاثة أشخاص، لكنهم يعرفون أنها بخير. وأما ابنته التي لم يُثبت أحد أنها قتلت أي شخص، ابنته التي استغلّها أشرار متطرفون يشبهون من

فَجَّروا ذلك البيت في القرية... الذين اعتقلوا... ابنته البريئة... لم يعد يعرف شيئًا. ما علاقتها بهم؟ ابنته لم تفعل ذلك. ليست مسؤولة عن القنبلة التي قتلت د. هاملين بأكثر من مسؤوليتها عن تلك القنبلة التي انفجرت في البنتاغون. منذ سنة 1968، انفجرت آلاف القنابل في أميركا، ولم تكن لابنته أية علاقة بهذا. كيف يعرف هذا؟ لأن داون تعرفه، لأن داون متأكّدة منه. لو كانت ابنتهما هي من قام بذلك التفجير، لما مضت تخبر الأطفال في المدرسة بأن مفاجأة كبيرة ستقع في بلدة أولد ريمروك. كانت ابنتهما أكثر ذكاء من أن تفعل هذا. لو أنها كانت موشكة على فعله، لما قالت شيئًا أبدًا.

تمر خمس سنين، خمس سنين من البحث عن تفسير، من مراجعة كل شيء، ومن مراجعة الظروف التي كوّنتها، والأشخاص الذين كان لهم أثر عليها، والحوادث التي كان لها أثر عليها... لا شيء من هذا كان كافيًا لكي يتمكّن من تفسير التفجير إلى أن تذكر الرهبان البوذيين، إلى أن تذكّر كيف كانوا يحرقون أنفسهم. وبالطبع، لم تكن آنذاك إلا في العاشرة من عمرها، أو لعلها كانت في الحادية عشرة من عمرها، وصحيح أن مليون أمر قد حدث لها بعد ذلك، قد حدث لهم جميعًا، قد حدث للعالم كله.

على الرغم من بقائها مذعورة عدة أسابيع بعد ذلك، وعلى الرغم من بكائها بسبب ما رأته على شاشة التلفزيون في تلك الليلة، وحديثها عنه، واستيقاظها من نومها عندما تحلم به في الليل، فإن ذلك كلّه لم يكد يغير شيئًا في تفاصيل حياتها. لكنه تذكّر جلوسها هناك ورؤيتها ذلك الراهب يشتعل نارًا... لم تكن مستعدة لرؤية هذا الأمر مثلما لم تكن بقية البلاد كلها مستعدة لرؤيته. كانت طفلة تنظر نصف منتبهة إلى الأخبار مع أبيها وأمها في ليلة من الليالي بعد العشاء... صار الآن واثقًا من اكتشافه سبب ما حدث.

كان ذلك في سنة 1962 أو في سنة 1963، ليس بعيدًا عن اغتيال الرئيس كندي، أي قبل البداية الصريحة للحرب في فيتنام، إذ إن أميركا - بقدر ما يعرف الجميع - كانت لا تزال واقفة على هامش الجنون الذي كان جاريًا هناك. كان الراهب الذي فعل ذلك في السبعينات من عمره، وكان نحيلًا ذا رأس حليق

وثوب أحمر بلون الزعفران. جلس على الأرض متربّعًا مشدود الظهر في ذلك الشارع المقفر في مدينة في مكان ما من جنوب فيتنام. جلس بجلال أمام حشد من الرهبان المجتمعين كما لو أنهم أتوا لرؤية طقس ديني. رفع الراهب فوق رأسه وعاءً بلاستيكيًا كبيرًا وسكب ما فيه من بنزين أو كيروسين فتدفّق السائل عليه كلّه وانتشر على الأسفلت من حوله. ثم أشعل عود ثقاب فانبعثت منه هالة من ألسنة اللهب المنطلقة في كل اتجاه.

أحيانًا، يكون في السيرك مؤدٍّ يعلنون عنه باسم «آكل النار». يبدو لمن يرى هذا الشخص أن ألسنة اللهب منطلقة من فمه. وهناك، في شوارع مدينة من مدن فيتنام، جعل ذلك الراهب البوذي حليق الرأس الأمر يبدو كما لو أن كرة اللهب تلك منطلقة من داخله إلى الهواء المحيط به، لا نارًا تهاجمه من الخارج. إلا أنها لم تكن تبدو منطلقة من فمه، بل من رأسه ووجهه وصدره وحضنه وساقيه وقدميه في وقت واحد. ولأنه ظل ساكنًا منتصب الظهر تمامًا ولم يبد عليه أبدًا ما يوحي بشعوره بالاحتراق ولم تتحرك أية عضلة من عضلاته ولم يصرخ أبدًا، فقد كان الأمر في البداية شديد الشبه بتلك الخدعة في السيرك... كما لو أن النار لم تكن تلتهم الراهب، بل تأكل الهواء من حوله. كان ذلك كما لو أن الراهب يشعل الهواء نارًا من غير أن يصيبه أي أذى. ظلت جلسته مثالية، جلسة شخص موجود في مكان آخر، شخص يعيش حياة أخرى مختلفة كل الاختلاف، شخص غارق في تأمل وصفاء لا علاقة لهما بذاته، مجرّد حلقة في سلسلة الوجود لا يمسّها ما يجري له أمام أنظار العالم كله. لا صراخ، ولا تململ، بل هدوء في قلب اللهب... لا ألم تسجّله الكاميرا إلا ألم ميري والسويدي وداون المذعورين في غرفة المعيشة في بيتهم. أتت كرة اللهب تلك من لا مكان فدخلت بيتهم؛ وأتى الراهب ذو القامة المنتصبة واشتعاله المفاجئ قبل أن يسقط أرضًا... صار أولئك الرهبان جميعًا في بيتهم جالسين على حافة الرصيف ينظرون من غير تأثّر. كانت أكف بعضهم مضمومة أمامهم على الطريقة الآسيوية التي تشير إلى السلام والوحدة. رهبان بوذيون جالسون على الرصيف في بيتهم في أركادي هيل رود، وجثة مسودّة متفحمة منقلبة على ظهرها في ذلك

الشارع الخاوي.
كان هذا ما فعل ذلك بها. جاء ذلك الراهب فأقام في بيتهم؛ الراهب البوذي الذي أشعل النار في نفسه بهدوء كما لو أنه كان رجلًا مخدَّرًا لكنه صاحٍ تمامًا. لا بد أن التلفزيون الذي بث إحراق الراهب نفسه هو من فعل ذلك. لو أنّ الجهاز كان على قناة تلفزيونية أخرى، أو كان مطفأً أو متعطّلًا، أو لو أنهم كانوا في الخارج جميعًا يمضون أمسية عائلية في مكان آخر، لما رأت ميري ما لم يكن ينبغي لها أن تراه، ولما فعلت ما لم يكن ينبغي لها أن تفعله. ماذا لديه من تفسير آخر لما حدث؟ قالت الطفلة النحيلة ذات الأحد عشر عامًا بعد أن وضعها السويدي في حضنه وطوَّقها بذراعيه وشدها إليه وراح يهدهدها بين ذراعيه: «أولئك الناس اللـ طيفون... أولئك الناس اللـ طيفون...». بلغ من ذعرها أول الأمر أنها لم تستطع البكاء. لم تستطع شيئًا غير قول تلك الكلمات الثلاث. في وقت لاحق فقط، بعد لحظات من ذهابها إلى السرير، نهضت وخرجت من غرفتها باكية، فاجتازت الممر ودخلت غرفة نومهما. سألتهما أن تنام في السرير معهما مثلما لم تفعل منذ أن كانت في الخامسة من عمرها. صارت بعد ذلك قادرة على ترك ما في داخلها يخرج منها... كل شيء مرعب كانت تفكّر فيه. ظلّت أنوار غرفة النوم مضاءة طيلة الليل؛ وتركاها تسترسل في التعبير عن نفسها جالسة بينهما تتكلّم إلى أن لم تبق في داخلها كلمات تخيفها أو ترعبها. وعندما سقطت نائمة (في وقت ما بعد الثالثة صباحًا) وظلت أنوار غرفة النوم مضاءة لأنها لم تكن لتتركه يطفئها، كان ما بذلته من جهد في الكلام وفي البكاء كافيًا لجعلها تفقد كل قواها. «أيكون عليك أن تحـ تحـ تحرق نفسك بالنار حتى يعـ يعـ يعـ يعود الناس إلى رشـ رشدهم؟ أما من أحد يبالي؟ أما من أحد لديه ضمير؟ أليس في هذا العالـ العالم أحد لديه ضمير؟». كانت شفتاها ترتعشان كلّما نطقت كلمة «ضمير» فتنفجر باكية.
ما الذي يستطيعون قوله لها؟ وما الإجابة التي يمكن أن يقدّموها لها؟ نعم، إن لدى بعض الناس ضميرًا، بل إن لدى أكثر الناس ضميرًا؛ لكن من المؤسف أن هناك أشخاصًا ليس لديهم ضمير. هذه حقيقة. إن حظك طيب يا ميري لأن لديك

ضميرًا متطورًا جدًا. أمر مثير للإعجاب أن يكون لدى شخص في مثل سنك هذا الضمير. نفتخر بأن لنا ابنة لديها هذا الضمير كلّه، وبأنها معنية إلى هذا الحد بحسن عيش الآخرين، وبأنها قادرة على التعاطف مع معاناة الآخرين.

ظلت أسبوعًا كاملًا غير قادرة على النوم وحيدة في غرفتها. صار السويدي يقرأ الصحف بعناية حتى يكون قادرًا على أن يفسر لها ما جعل ذلك الراهب البوذي يفعل ما فعله. إن للأمر صلة بالجنرال دييم، برئيس جنوب فيتنام. والأمر على صلة أيضًا بالفساد، وبالانتخابات، وبالنزاعات الإقليمية والسياسية المعقّدة، ولا بد أن له علاقة ما بالبوذية نفسها... وأما بالنسبة إليها، فما كان للأمر أية علاقة إلا بالحدود القصوى التي يجد الناس اللطيفون أنفسهم مضطرين إلى اللجوء إليها في عالم تعيش أكثرية سكانه العظمى من غير ذرة ضمير.

تمامًا عندما بدا عليها أنها قد تمكّنت من تجاوز إحراق الراهب البوذي المسنّ نفسه في ذلك الشارع في جنوب فيتنام، وصارت قادرة على النوم في غرفتها من غير إبقاء المصباح مضاء، ومن غير أن تستيقظ صارخة مرتين أو ثلاث مرات في الليلة الواحدة، حدث الأمر من جديد فأضرم راهب فيتنامي آخر النار في نفسه، ثم فعلها ثالث، ثم رابع... ومع بداية ذلك، وجد السويدي نفسه غير قادر على إبعاد ابنته عن شاشة التلفزيون. إذا فاتتها متابعة إحراق راهب نفسه في أخبار المساء، تستيقظ في الصباح الباكر لترى المشهد في أخبار الصباح قبل ذهابها إلى المدرسة. لم يعرِّفها كيف السبيل إلى إيقاف ذلك. كانت تتابع تلك المشاهد، وتتابعها، كما لو أنها قد اعتزمت ألّا تتوقف عن متابعتها. لم يكن يريد إزعاجها بمنعها من متابعتها؛ لكن تجنّب إزعاجها من خلال تركها تفعل ذلك لم يكن طريقة حسنة لعدم إزعاجها. هل كانت تحاول فهم الأمر فحسب؟ هل كانت تحاول ضبط ذعرها منه؟ هل كانت تحاول إدراك ما يعنيه أن يكون المرء قادرًا على أن يفعل شيئًا كهذا؟ هل كانت تتخيّل نفسها واحدة من أولئك الرهبان؟ هل كانت تتابع تلك المشاهد لأنها ما زالت مذعورة منها، أم بحثًا عن الإثارة فيها؟ ما صار مصدر قلق له، بل مصدر خوف أيضًا، هو فكرة أن فضول ميري قد فاق خوفها. وسرعان ما صار إحراق الذات في فيتنام هاجسًا لديه هو أيضًا،

وإن لم يكن مثل هاجسها. صار هاجسًا عنده لأنه أحدث تغيرًا في ابنته ذات الأحد عشر عامًا. في ما مضى، كانت رغبتها الدائمة في معرفة الأشياء مصدر اعتزاز كبير لديه منذ أن كانت صغيرة. لكن، هل يريد الآن أن تكون ابنته راغبة في معرفة الكثير عن شيء كهذا؟

أهي خطيئة أن يقدِمَ المرء على إنهاء حياته؟ وكيف يستطيع الآخرون الوقوف جانبًا والاكتفاء بالفرجة؟ لماذا لا يوقفونه؟ لماذا لا يطفئون النار؟ إنهم يقفون جانبًا ويتركون التلفزيون يصور ما يجري. إنهم يريدون بث ما يجري على التلفزيون. أين ذهب حسّهم الأخلاقي؟ وماذا عن الحسّ الأخلاقي لدى الطواقم التلفزيونية التي تصوّر ذلك؟ أهذه هي الأسئلة التي كانت تطرحها على نفسها؟ وهل هي جزء ضروري من تطوّرها الذهني؟ لم يكن يعرف الإجابة عن ذلك. كانت تراقب ما يُعرض بصمت تام وتظلّ ساكنة مثل سكون الراهب الجالس في قلب اللهب، ثم لا تقول شيئًا بعد ذلك؛ وحتى إذا كلّمها أبوها، أو طرح عليها أسئلة، فإنها تظلّ جامدة دقائق طويلة أمام جهاز التلفزيون ونظرتها مركّزة على مكان آخر غير الشاشة الوامضة، مركّزة على داخلها... داخلها حيث يفترض أن يكون اليقين والانسجام، حيث كان يعمل كل ما لم تكن تعرفه على إطلاق، تحوّل عملاقًا... داخلها حيث لا يخبو ولا يختفي شيء مما قد سُجّل...

على الرغم من عدم معرفته كيف يوقفها، فقد حاول أن يتوصّل إلى سبل يتمكّن بها من حرف انتباهها إلى شيء آخر، ومن جعلها تنسى هذا الجنون الجاري في الجهة الأخرى من العالم لأسباب لا علاقة لها بها ولا بعائلتها - صار يأخذها في الأمسيات لكي تلعب الغولف معه. كما أخذها إلى بضع مباريات لفريق يانكيز. ثم أخذها مع أمها في رحلة سريعة إلى مصنعه في بورتوريكو، أمضوا بعدها عطلة أسبوع كامل على شاطئ البحر في بونسي. بعد ذلك، في يوم ما، نسيت بالفعل... لكن نسيانها لم يأت نتيجة أي شيء مما فعله. لقد نسيت الأمر لأن حوادث إحراق النفس قد توقفت! تكرّرت تلك الحوادث خمس مرات، أو ستًا، أو سبعًا، ثم لم يعد هناك المزيد. وبعد ذلك بفترة قصيرة، عادت ميري إلى طبيعتها، وعادت إلى التفكير في الأشياء ذات الصلة بحياتها اليومية، أي في تلك

الأشياء التي هي أكثر تناسبًا مع عمرها.
وعندما اغتيل دييم، رئيس فيتنام الجنوبية، بعد شهور من ذلك (قالت الأخبار الصباحية في محطة CBS إن الولايات المتحدة هي من اغتالته عن طريق CIA بعد أن كانت هي من أوصلته إلى السلطة أصلًا) - ذلك الرجل الذي كان الرهبان البوذيون يضحّون بحياتهم احتجاجًا عليه. بدا أن تلك الأخبار قد مرّت بميري مرور الكرام فلم يتطوع السويدي بإعلامها بالأمر. بحلول ذلك الوقت، لم يعد ذلك المكان الذي اسمه فيتنام موجودًا بالنسبة إلى ميري. وإذا كان قد ظل شيء منه في ذاكرتها، فقد كان صورة غريبة يصعب تخيّلها شكّلت خلفية مشهد تلفزيوني غامض طبع نفسه في عقلها الغضّ عندما كانت في الحادية عشرة مع عمرها.
لم تذكر بعد ذلك أي شيء على صلة بإحراق الرهبان البوذيين أنفسهم، حتى بعد أن صارت ملتزمة بموقفها السياسي الاحتجاجي. وبدا أن مصير أولئك الرهبان في سنة 1963 منعدم الصلة بما تبلور عندها ووجد لنفسه تعبيرًا عنه في سنه 1968، فكان معارضة عنيفة للتورط الإمبريالي لأمريكا الرأسمالية في حرب تحرّر وطني فلاحية. إلا أن أباها صار يمضي أيامًا وليالي محاولًا إقناع نفسه بأن ما من وجود لأي تفسير آخر، وبأن ما من شيء فظيعٍ آخر قد حدث لها، وأن ما من شيء آخر يمكن أن يكون - ولو من بعيد - حدثًا صادمًا كبيرًا إلى الحد الكافي لأن يفسر قيام ابنته بتفجير تلك القنبلة.
مرت خمس سنين. ثم حوكمت في سان فرانسيسكو أنجيلا ديفيس التي كانت أستاذة للفلسفة في سن ريتا كوهن تقريبًا (ولدت في ألاباما سنة 1944 قبل ثماني سنين من ولادة صاحبة تفجير ريمروك في نيوجرسي). وكانت أستاذة شيوعية في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، معادية للحرب. اتهمت أنجيلا ديفيس بالخطف والقتل والتآمر. واتهمت بأنها وفّرت البنادق التي استُخدمت في محاولة مسلحة لتحرير ثلاثة محكومين سود في سجن سان كوينتين خلال محاكمتهم. وقيل أيضًا إنها اشترت البندقية التي قتلت القاضي قبل أيام فقط من المعركة التي جرت في المحكمة. عاشت شهرين متخفية تمكّنت خلالهما من

تضليل الـ«إف بي آي» إلى أن ألقي القبض عليها في نيويورك ونُقلت إلى كاليفورنيا. زعم أنصارها في أنحاء العالم، في فرنسا والجزائر والاتحاد السوفييتي، أنها كانت ضحية محاكمة سياسية. وحيثما نقلتها الشرطة تحت الحراسة، كان سود وبيض يقفون منتظرين في الشوارع القريبة حاملين لافتات أمام كاميرات التلفزيون، وكانوا يصيحون: «أطلقوا سراح أنجيلا. أنهوا الاضطهاد السياسي! أنهوا العنصرية! أنهوا الحرب!».

كان شعرها يذكّر السويدي بريتا كوهن. وكان يتذكّر، كلما رأى تلك الأجمة الشائكة المحيطة برأسها، ما كان يتعيّن عليه فعله في بعد ظهر ذلك اليوم في غرفة الفندق. ما كان يجوز أن يتركها تفلت منه وتهرب مهما كلّف الأمر!

صار الآن يتابع أخبار التلفزيون حتى يرى أنجيلا ديفيس. وصار يقرأ عنها كل ما تقع عليه يده. يعرف أن أنجيلا قادرة على إيصاله إلى ابنته. يتذكّر الآن أنه دخل غرفة ميري ذات يوم سبت عندما كانت لا تزال في البيت. كانت قد ذهبت إلى نيويورك. فتح الدرج السفلي في طاولة الزينة، ثم جلس إلى مكتبها وقرأ كل ما كان في ذلك الدرج... تلك المواد السياسية كلها، والمنشورات، والكراسات، والكتيبات المصورة الساخرة. كانت لديها نسخة من البيان الشيوعي. من أين حصلت عليها؟ لا يمكن أن تكون قد حصلت عليها في أولد ريمروك. من الذي يزوّدها بهذه المطبوعات كلّها؟ أهما بيل وميليسا؟ لم تكن مجرّد كتابات تهاجم الحرب، بل أشياء كتبها أشخاص يريدون الإطاحة بالرأسمالية وبحكومة الولايات المتحدة، أشخاص يزعقون منادين بالعنف وبالثورة. كان أمرًا مخيفًا له أن يرى تلك الفقرات التي وضعت ابنته، الطالبة المجتهدة، خطوطًا لتعليمها؛ إلا أنه لم يستطع التوقف عن القراءة. صار مقتنعًا الآن بأنه قادر على تذكر شيء كتبته أنجيلا ديفيس كان موجودًا في ذلك الدرج. لكنه ما كان قادرًا على التأكّد من ذلك لأن عملاء الـ«إف بي آي» صادروا المطبوعات كلّها فوضعوها في أكياس جمع الأدلة وختموا تلك الأكياس، ثم أخذوها معهم. فتّشوا غرفتها تفتيشًا دقيقًا باحثين عن بصمات واضحة لأصابعها حتى يستخدموها لمضاهاتها بما قد يجدونه في مسرح أية جريمة. جمعوا فواتير هاتف البيت حتى يتتبّعوا مكالمات

ميري. فتشوا غرفتها بحثًا عن مخابئ سرية: انتزعوا ألواح الأرضية من تحت سجّادتها، وفكوا الألواح الخشبية عن الجدران، وأنزلوا المصباح المعلّق في السقف. فتشوا الملابس التي في خزانتها باحثين عما قد يكون مخفيًا في أكمامها. بعد وقوع الانفجار، منعت شرطة الولاية حركة السير في شارعهم، وأغلقت المنطقة، ثم أمضى اثنا عشر عميلًا من عملاء الـ«إف بي آي» ست عشرة ساعة في تفتيش البيت، من علّيّته إلى قبوه. وعندما وصلوا إلى المطبخ آخر الأمر، فتشوا كيس المكنسة الكهربائية بحثًا عن «أوراق» فأطلقت داون صرخة ذهول. أكان ذلك كلّه لأن ميري تقرأ كارل ماركس وأنجيلا ديفيس؟ نعم... يتذكّر الآن كيف جلس إلى مكتب ميري وقرأ أنجيلا ديفيس بنفسه، كيف انكبَّ على ذلك الكتاب متسائلًا كيف تمكّنت طفلته من قراءته. كان يقول في نفسه إن قراءة هذه المواد أشبه بالغوص عميقًا في البحر. يشبه الأمر أن يضع المرء قناع الغوص الذي تكاد «نافذته» تكون ملتصقة بوجهه، وأن يضع في فمه أنبوب الهواء، فلا يعود لديه مكان يذهب إليه، لا يعود لديه حيّز للحركة ولا فتحة يستطيع الهروب منها. شيء يشبه قراءة تلك المنشورات الصغيرة وبطاقات القديسين المصورة التي كانت جدة ميري تعطيها إياها في إليزابيث. لقد كبرت الطفلة فتجاوزت تلك الأشياء، لحسن الحظ. لكنها ظلت زمنًا غير قليل تصلّي للقديس أنتوني كلما أضاعت قلمها، وتصلّي للقديس جود كلما خامرها شك في أنها لم تستعد لامتحانها استعدادًا كافيًا. وكلّما جعلتها أمّها تمضي صباح يوم السبت في تنظيف غرفتها وترتيبها، كانت تصلّي للقديس جوزيف، راعي العمال الكادحين. ذات مرة، عندما كانت في التاسعة من عمرها، زعم نفر من المغرقين في التديّن في كيب ماي أن مريم العذراء قد ظهرت لأطفالهم في موقد شي اللحوم، تقاطر الناس إلى ذلك المكان آتين من مسافات بعيدة وتجمهروا يرقبون فناء ذلك البيت، فسحر المشهد ميري. لعل سرّ ظهور العذراء في نيوجرسي كان أقل سحرًا عندها من أن أطفالًا قد وقع عليهم الاختيار لرؤية ذلك الظهور. قالت لأبيها: «ليتني أستطيع رؤية ذلك الظهور». وأخبرته عن ظهور مريم العذراء لثلاثة أطفال من الرعاة في فاتيما في البرتغال، فأومأ برأسه

وأمسك لسانه. لكن أبوه سمع من حفيدته بقصة ظهور العذراء في كيب ماي فقال لها: «أظنهم سيرونها في المرة القادمة في متجر بيري كوين»، فما كان من ميري إلا أن ردّدت ما قاله أمام جدتها في أليزابيث. وعند ذلك، صلّت الجدة دواير للقديسة آن طالبة منها مساعدة ميري في البقاء على الكاثوليكية على الرغم من نشأتها. إلا أن سنتين فقط كانتا كافيتين لجعل القديسين يختفون والصلوات تختفي من حياة ميري. كفّت عن وضع «الميدالية العجائبية» التي تحمل صورة العذراء المباركة بعد أن كانت قد أقسمت لجدتها دواير بأن تضعها «إلى الأبد» من غير أن تخلعها، حتى عند الاستحمام. لقد كبرت فتجاوزت القديسين مثلما ستكبر وتتجاوز الشيوعية. كانت ستكبر، وستتجاوز هذا... لأن ميري تكبر وتتجاوز كل شيء. كانت في حاجة إلى بضعة شهور فقط. لعلها كانت في حاجة إلى بضعة أسابيع، لا أكثر، قبل أن يُنسى أمر تلك المواد التي في الدرج نسيانًا تامًا. ما كان عليها فعل شيء غير الانتظار. ليتها استطاعت أن تنتظر. تلك هي قصة ميري باختصار. إنها فتاة نافدة الصبر. كانت نافدة الصبر دائمًا. لعل التأتأة هي ما كان يجعلها نافدة الصبر؛ من عساه يدري؟ لكن، مهما يكن الأمر الذي يستحوذ على عواطفها، فإنه كان يستحوذ عليها مدة سنة، لا أكثر. كانت تواظب على ذلك سنة، ثم تتخلّى عنه بين عشية وضحاها. لو ظلت في البيت سنة واحدة، لصارت جاهزة للذهاب إلى الكلّية. وبحلول ذلك الوقت، ستكون قد وجدت شيئًا جديدًا آخر تكرهه، وشيئًا جديدًا آخر تحبّه، وشيئًا جديدًا يستحوذ على اهتمامها... هكذا كانت الأمور ستجري.

كان السويدي جالسًا إلى طاولة المطبخ ذات ليلة عندما ظهرت له أنجيلا ديفيس مثلما ظهرت «سيدة فاتيما» لأولئك الرعاة الأطفال في البرتغال، مثلما ظهرت «العذراء المباركة» في كيب ماي. قال في نفسه: «أنجيلا ديفيس قادرة على إيصالي إليها»... وها هي الآن هنا. جالسًا في المطبخ وحده تلك الليلة، بدأ السويدي حديثًا من القلب إلى القلب مع أنجيلا ديفيس. كان حديثًا عن الحرب، ثم عن كل شيء مهم بالنسبة إليهما. تصوّرها بأهداب عينين طويلة، وتصوّر قرطيها الكبيرين المتدليين، فرأى أنها أكثر جمالًا مما تبدو على شاشة التلفزيون.

ساقاها طويلتان؛ وهي تحب ارتداء تنورات قصيرة ملوَّنة لإظهار ساقيها. شعرها عجيب. تنظر من تحت ذلك الشعر نظرة تحدٍّ كأنها قنفذ. يقول ذلك الشعر: «لا تقترب إذا كنت لا تحب الألم».
يخبرها ما تريد سماعه، ويصدّق ما تخبره به. عليه أن يصدّقه. تثني على ابنته وتدعوها «جندية في سبيل الحرية، ورائدة من رواد النضال العظيم ضد الاضطهاد». تقول له إن عليه أن يفخر بجرأتها السياسية. إن الحركة ضد الحرب حركة ضد الرأسمالية؛ وعندما عبّرت ميري عن احتجاجها بالطريقة الوحيدة التي تفهمها أميركا، فقد وقفت تلك الفتاة ذات الستة عشر عامًا في طليعة الحركة، وكانت جان دارك الحركة. ابنته رأس حربة المقاومة الشعبية للحكومة الفاشية وقمعها الإرهابي لمن يعارضها. لم يكن ما فعلته جرمًا إلا بحسب التعريف الذي تضعه للجريمة دولة مجرمة بكل معنى الكلمة لا تتورع عن شن عدوان غاشم في أي مكان من العالم للمحافظة على التوزيع غير المتساوي للثروة وعلى المؤسسات القمعية التي تحمي الهيمنة الطبقية. تشرح له أن عصيان القوانين القمعية، بما فيه العصيان العنيف، تقليد يعود تاريخه إلى حركة إبطال العبودية... إن ابنته مثل جون براون(28)!
السبب الأول الذي جعلها تبدأ بالاهتمام بالماشية هو رغبتها في قضاء الوقت خارج ذلك البيت الفظيع!

هل كان هذا صحيحًا؟ وهل اكتشفت الأمر في هذا الوقت المتأخّر من اللعبة؟ كان هذا أشبه باكتشاف خيانة: لم تكن وفية لهذا البيت طيلة تلك السنين كلّها! فكيف ظل مُخدَّرًا مصدِّقًا أنه يسعدها في حين لم يكن لديه ما يبرر إحساسه بذلك... ذلك الإحساس الغريب، السخيف؟... وأما هي فكانت غارقة، سنة بعد أخرى، في الكره الذي تكنّه لبيتهما. كم كان يحبّ إعالة أسرة كبيرة! لكنه لم يحظ بأكثر من فرصة إعالة أسرتهم المكوّنة من ثلاثة أشخاص. لو كان في ذلك البيت أطفال أكثر؛ ولو أن ميري ترعرعت بين إخوة وأخوات تحبّهم ويحبّونها، لما كان هذا الأمر ليصيبهم أبدًا. لكن داون أرادت من الحياة ما يتجاوز أن تكون

أمًا سلافية لخمسة أو ستة أطفال، وخادمة لبيت عمره أكثر من مئتي عام: أرادت أن تربّي أبقارًا! ولأنهم كانوا يُعرّفون الناس عليها أينما ذهبت بأنها «ملكة جمال نيوجرسي السابقة»، فقد كانت واثقة من أن الناس يقلّلون من شأنها (على الرغم من حملها إجازة جامعية) باعتبارها واحدة من جميلات ملابس السباحة، فتاة خزفية لا عقل لها، امرأة غير قادرة على أداء شيء نافع للمجتمع أكثر من إظهار جمالها. ما كان هناك أي أثر لشرحها الصبور لهم، مرات كثيرة جدًا، كلما ذكروا لقبها السابق، ومحاولة إفهامهم أنها لم تدخل المسابقة على مستوى مقاطعة يونيون إلا لأن نوبة قلبية أصابت والدها، ولأن المال كان قليلًا، ولأن شقيقها داني كان موشكًا على التخرّج في مدرسة سانت ميري الثانوية، فظنت أنها ستكون قادرة على استخدام نقود المنحة الدراسية التي ترافق الفوز باللقب، إن فازت (كانت تظن أن لديها فرصة للفوز، لا لأنها تحمل لقب ملكة جمال ربيع أوبسالا، بل لأنها تحمل إجازة جامعية في تعليم الموسيقى وتستطيع العزف مقطوعات كلاسيكية على البيانو)، لتسديد أقساط داني في الكلية بحيث تخفّف العبء عن...

لكن ما كانت تقوله للناس ما كان مهمًّا، وما كانت مهمّة كيفية قولها ذلك، ولا عدد المرات التي قالت فيها إنها تعزف على البيانو. ما كان يصدقها أحد. وما كان أحد يصدّق أنها لم تكن مهتمة بأن تبدو أجمل من أية امرأة أخرى. وكانوا يرون جميعًا أن هناك طرقًا كثيرة جدًّا للحصول على منح دراسية غير السير على المنصة بحذاء مرتفع الكعب وبملابس السباحة في أتلانتك ستي. كانت تخبر الناس دائمًا بالأسباب الجدّية الحقيقية التي دفعتها إلى أن تصير ملكة جمال نيوجرسي. لكن أحدًا لم يصغ إليها. كانوا يبتسمون. ففي نظرهم، ما كان ممكنًا أن تكون لدى هذه المرأة أسباب جدّية. لم يريدوا أن تكون لديها أسباب جدّية. فبالنسبة إليهم، كان ذلك الوجه كل ما يمكن أن يكون لديها. وبعدها، كانوا يذهبون قائلين: «أوه، هي، ليست إلا وجهًا جميلًا». كانت النساء تتظاهر بأنهنّ لسن غيورات منها، وكان الرجال يتظاهرون بأن جمالها لم يسحرهم. اعتادت داون أن تتمتم لهم «أشكر الرب لأنني لم أفز بلقب ملكة اللطف(33). إن كانوا

يرون أن ملكة جمال نيوجرسي يعني الغباء، فتخيّل ما كان يمكن أن يقال لو أنني فزت بالجائزة الكبيرة». لكنها تضيف قائلة بنبرة حزن: «على الرغم من هذا، فقد كان أمرًا لطيفًا أن أعود إلى البيت حاملة ألف دولار».

بعد ولادة ميري، عندما بدأت رحلاتهما إلى شاطئ البحر إلى ديل أيام الصيف، كان الناس يحدّقون في داون عندما ترتدي ملابس السباحة. وبطبيعة الحال، لم تكن ترتدي ثوب السباحة الأبيض ذي القطعة الواحدة من صنع كاتالينا الذي ارتدته وسارت به على المنصة في أتلانتيك ستي، ذلك الثوب الذي يحمل - تحت الورك - الصورة التقليدية لفتاة سابحة تضع قبعة السباحة. كان يحب ذلك الثوب لأنه يكون رائعًا عليها، لكنها لم تستخدمه أبدًا بعد أتلانتيك سيتي. كان الناس ينظرون إليها دائمًا بصرف النظر عن لون ثوب السباحة الذي ترتديه أو عن شكله. كانوا يأتون أحيانًا فيلتقطون لها صورة ويطلبون منها التوقيع عليها. لكن ارتيابهم فيها كان أكثر إزعاجًا من تحديقهم والتقاطهم تلك الصور. كانت تقول له: «لسبب غريب لا أعلم عنه شيئًا، تظن النساء دائمًا أنني أريد أزواجهن لأنني ملكة جمال سابقة». وكان ظنّ السويدي هو أن السبب المرجَّح لذلك، أي ما يجعل تلك الفكرة مخيفة لهنّ كثيرًا، هو اقتناعهنّ بأن داون قادرة على اجتذاب أزواجهن، إن أرادت: كن يلاحظن كيف ينظر الرجال إليها، وكم ينصبّ اهتمامهم في اتجاهها أينما ذهبت. كان يلاحظ هذا، هو أيضًا، لكنه لم يشعر بالقلق أبدًا في ما يخص زوجته التي نشأت على تربية صارمة حقًّا. لكن الأمر أثار غضب داون، فامتنعت أول الأمر عن الذهاب إلى الشاطئ مرتدية ثوب سباحة (أيّ ثوب سباحة)، ثم امتنعت كليًا عن الذهاب إلى نادي الشاطئ على الرغم من أنها تحب ذلك المكان، فصارت تقود سيارتها أربعة أميال حتى آفون كلما رغبت في السباحة، لأنها اعتادت في طفولتها قضاء أسبوع هناك مع أسرتها في كل صيف. هناك، على شاطئ البحر في آفون، كانت داون تعود فتاة إيرلندية بسيطة صغيرة الجسم، تربط شعرها إلى الخلف، ولا تستلفت انتباه أحد لأي سبب من الأسباب.

صارت تذهب إلى آفون حتى تبتعد عن جمالها، لكنها لم تكن قادرة على

الابتعاد عنه إلى الحدّ الذي يحول بينها وبين المباهاة به. لا بد للمرء من التمتع بالسلطة، ومن أن يكون لديه قدر من القسوة حتى يقبل جماله ولا يحزن لحقيقة أنه يغطي على كل شيء آخر. وعلى غرار أية سمة شديدة البروز تميّز المرء عن غيره وتجعله استثنائيًا (تجعله أيضًا موضع حسد أو كره)، فإن قبول المرء جماله، وقبول أثره على الآخرين، واللعب به، والاستفادة القصوى منه، يجعل من الأفضل له أن يتمتّع بقدر من حسّ الفكاهة. لم تكن داون مصنوعة من خشبٍ، بل كانت لديها روح، وكانت لديها شجاعة، وكانت قادرة على أن تكون جارحة بطريقة فكاهية كثيرًا؛ إلا أن تلك الفكاهة لم تكن بالفكاهة المنطلقة من الداخل التي لا بد منها لجعلها تشعر بالحرية. فقط بعد أن تزوّجت ولم تعد عذراء، اكتشفت المكان الذي لا ضير فيه من كونها جميلة مثلما كانت. كان ذلك المكان - لمصلحة الزوج والزوجة معًا - مع السويدي، في السرير.

كانا يطلقان على شاطئ آفون اسم «الريفييرا الإيرلندية». كان شاطئ برادلي وجهة اليهود الذين ليس لديهم مال كثير. وكان شاطئ آفون المجاور وجهة الإيرلنديين الذين ليس لديهم مال كثير. بلدة على شاطئ البحر لا يتجاوز طولها عشر كتل سكنية. وأما الإيرلنديون الميسورون ممن يملكون المال... القضاة ومتعهدو البناء والجرّاحون المشهورون... فكانوا يذهبون إلى شاطئ سبرينغ ليك القابع خلف بواباته المهيبة إلى الجنوب من نيمار (بلدة ساحلية أخرى يمكن اعتبار مرتاديها خليطًا من الجميع). لقد اعتادت داون أن تأخذها إلى سبرينغ ليك خالتها بيج التي تزوّجت محاميًا من جيرسي سيتي اسمه ميد ماهوني. كان أبوها يقول لها: «إذا كان المرء محاميًا إيرلنديًا في تلك المدينة، وكان يلعب الكرة مع فريق سيتي هول، فإن العمدة هاغ ‘أنا هو القانون’ سيعتني بأمره». وبما أن العم ميد، الذي كان لاعب غولف حلو اللسان حسن المظهر، وكان ممن يجنون مالًا كثيرًا في مقاطعة هدسون منذ تخرجه في مدرسة جون مارشال للقانون وانتسابه إلى شركة محاماة قوية في جورنال سكوير على مسافة قريبة منها، وبما أنه كان يظهر لداون الصغيرة الجميلة حبًا أكثر مما يظهره لبقية الأطفال في العائلة، فقد كانت داون الطفلة تمضي أسبوعًا في كل صيف مع أمها وأبيها وشقيقها داني في

غرفة مستأجرة في بيت للعطلات في آفون، ثم تذهب وحدها لقضاء الأسبوع التالي مع ميد وبيج وبقية أطفال أسرة ماهوني في فندق «إسكس وساسكس» الكبير الضخم الواقع على شاطئ البحر مباشرة في سبرينغ ليك، حيث تأكل كل يوم التوست الفرنسي مع شراب الميبل المركّز في مطعم الفندق الفسيح المطلّ على البحر. كان منديل الطعام المنشّى المفرود في حضنها كبيرًا بما يكفي لأن تلفَّ به وسطها كأنه ثوب آسيوي؛ وكانت أدوات الطعام الفضية اللامعة شديدة الثقل. كانوا يذهبون جميعًا يوم الأحد إلى أجمل كنيسة رأتها تلك الطفلة الصغيرة حتى ذلك الوقت، كنيسة سانت كاثرين. يصل المرء إلى الكنيسة بعد اجتياز جسر - أجمل جسر رأته في حياتها: جسر ضيق مقوَّس مصنوع من الخشب - ممتدّ عبر البحيرة خلف الفندق. عندما تشعر بالتعاسة أحيانًا في نادي السباحة، كانت تقود السيارة إلى ما بعد آفون حتى تصل إلى سبرينغ ليك، وتتذكّر كيف كانت تلك البلدة تظهر لها كل صيف كأنها منبثقة من العدم، تظهر سحرية مكتملة كأنها مدينة من مدن الخيال. كانت تتذكّر كيف حلمت بأن تتزوج في كنيسة سانت كاثرين، وبأن تكون عروسًا هناك مرتدية ثوبًا أبيض، وتتزوّج محاميًا مثل العم ميد، وتعيش في واحد من تلك البيوت الفخمة التي تطلّ شرفاتها على البحيرة وعلى الجسور وعلى قبة الكنيسة، مع أنها لا تبعد عن مياه المحيط الأطلسي الصاخبة أكثر من دقائق قليلة. كان في مقدورها أن تفعل ذلك أيضًا... كان في مقدورها أن تفعل ذلك بإشارة من إصبعها، لكنها اختارت أن تقع في حب سايمور ليفوف من نيوارك، وأن تتزوجه بدلًا من أي واحد من عشرات وعشرات الفتيان الكاثوليك المسحورين بها ممن عرفتهم عن طريق أبناء وبنات أسرة ماهوني... فتيان أذكياء خشنون من كليتي «هولي كروس» و«بوسطن». وهكذا فإنها لم تمض حياتها في سبرينغ ليك، بل في ديل وأولد ريمروك مع السيد ليفوف. كانت أمّها تقول حزينة لكل من يصغي إليها: «حسنًا، هكذا حدث الأمر. كان بوسعها أن تحظى بحياة رائعة، هناك، تمامًا مثل حياة بيج، بل بحياة أفضل حتى من حياة بيج. هناك كنيستا سانت كاثرين وسانت مارغريت. إن كنيسة سانت كاثرين واقعة هناك، عند البحيرة تمامًا. بناؤها جميل. جميل حقًا.

لكن داون هي الشخصية المتمردة في الأسرة... هكذا كانت دائمًا. اعتادت دائمًا أن تفعل ما تريده. ومنذ لحظة ذهابها للمشاركة في تلك المسابقة، كان من الواضح أنها لا تريد الحصول على ما يحصل عليه الجميع».

اقتصرت رحلات داون إلى آفون على السباحة تحديدًا. كانت لا تزال تكره الاستلقاء على الشاطئ للتشمس. ولم يفارقها ضيقها من قيام المشرفات على مسابقة ملكة جمال نيوجرسي بإجبارها على تعريض جلدها الأشقر للشمس كل يوم. قالت المشرفات لها إن ثوب السباحة الأبيض سيبدو مدهشًا على جلدها الذي لوحته الشمس عندما تسير على المنصة. وعندما صارت أمًّا شابة، حاولت أن تبتعد كل البعد عن أي شيء يشير إليها بصفتها «ملكة جمال سابقة»، فكان ذلك مبعث ازدراء جنوني من جانب النساء الأخريات جعلها تشعر بالتعاسة وبأنها شاذة عن الآخرين. بل إنها تخلّت للجمعيات الخيرية عن كل ما كان لديها من ملابس انتقاها لها مدير المسابقة (كانت لديه فكرته الخاصة عن نوعية الفتاة التي يتعيّن على نيوجرسي تقديمها أمام حكام مسابقة ملكة جمال أميركا) من متاجر كبار المصممين في نيويورك خلال رحلة تسوّق من أجل أتلانتيك سيتي استمرت يومًا كاملًا. كان السويدي يرى أنها تبدو رائعة في تلك الفساتين، ولم يعجبه تخلّيها عنها. وفي آخر المطاف، احتفظت - بإلحاح منه - بتاج ملكة جمال نيوجرسي حتى تكون قادرة على جعل أحفادها يرونه ذات يوم.

وبعد ذلك، عندما بدأت ميري تذهب إلى حضانة الأطفال، قرّرت داون أن تثبت لعالم النساء (للمرة التي لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة) أنها قادرة على فعل ما يتجاوز مظهرها الجميل. قرّرت أن تربي أبقارًا! كانت لتلك الفكرة أيضًا أصولها العائدة إلى طفولتها؛ وبالتحديد إلى جدّها لأمّها الذي كان فتى من مقاطعة كيري الإيرلندية حط الرحال في الميناء في وقت ما من ثمانينات القرن التاسع عشر عندما كان في العشرين من عمره، فتزوّج واستقر في بلدة إليزابيث الجنوبية بالقرب من كنيسة سانت ميري؛ ثم أنجب أحد عشر طفلًا. كان يكسب عيشه أول الأمر من العمل على أرصفة الميناء. لكنه اشترى بقرتين من أجل توفير الحليب لأسرته، ثم تطور الأمر إلى بيع الفائض لبيوت بعض الأثرياء في

شارع ويست جيرسي - آل مور أصحاب شركة «مور بينت»، وأسرة هالزي أصحاب شركة «بول»، ونيكولاس موراي باتلر الحائز على جائزة نوبل - وسرعان ما صار واحدًا من أوائل بائعي الحليب المستقلين في بلدة إليزابيث.
صار لديه نحو ثلاثين بقرة في شارع موراي. لم يكن في الأمر أية مشكلة على الرغم من قلة ما لديه من أرض؛ ففي تلك الأيام، كان من الممكن ترك الأبقار ترعى في أي مكان. ثم عمل أبناؤه كلّهم في هذا الميدان، وظلّوا فيه إلى ما بعد الحرب عندما أتت شركات السوبرماركت الكبيرة فأطاحت بالبائعين الصغار.
وأما لقاء والدي داون، فقد كان نتيجة عمل والدها، جيم دواير، لدى عائلة أمها. عندما كان لا يزال فتى صغيرًا (أي قبل عهد استخدام البرادات)، كان جيم دواير يخرج مع شاحنة الحليب في الساعة الثانية عشرة ليلًا، ويظلّ في الخارج حتى الصباح وهو يوزّع الحليب من تلك الشاحنة. لكنه كره ذلك العمل. كانت الحياة أكثر مشقّة مما يطيق، فقرر آخر الأمر أن يتخلّى عن ذلك كلّه ويتّجه إلى حرفة السباكة. كانت داون في طفولتها تحب زيارة الأبقار. وعندما كانت في السادسة أو في السابعة من عمرها، علّمتها واحدة من أبناء عمومتها كيف تحلب البقرة. لم تنس داون أبدًا سحر ذلك العمل ومتعته: جعل الحليب ينبجس من تلك الضروع بينما تظلّ الأبقار واقفة تأكل التبن تاركة إياها تستخرج ما في أجوافها.
لكنها اقتنت أبقارًا لإنتاج اللحم، فلم تكن لديها حاجة إلى تشغيل عمال من أجل حلب الأبقار. وكانت نتيجة ذلك أنها تمكّنت من إدارة العمل بنفسها من غير أية مساعدة تقريبًا. كان صنف الأبقار «سيمنتال» الذي يدر كمية وافرة من الحليب إلى جانب كونه صنفًا لإنتاج اللحوم، لا يزال صنفًا غير مسجّل في الولايات المتحدة في ذلك الوقت. وهكذا، فقد استطاعت دخول هذا الميدان من غير صعوبة. كانت المصالبة بين الأصناف - السيمنتال مع الهيرفورد المنتقى - هي ما يثير اهتمامها: الحيوية الوراثية، والحيوية التهجينية، والنمو السريع الناتج عن المصالبة. كانت تقرأ الكتب، وتتابع المجلّات؛ وبدأت الكاتالوجات تأتي عبر البريد. تناديه في الليل لكي يأتي إلى حيث تكون جالسة تتصفّح كاتالوجًا، فتقول

له: «ألا تبدو هذه العِجلة حسنة المظهر؟ علينا أن نذهب لنلقي نظرة عليها؟». وسرعان ما صارا يسافران معًا لزيارة المعارض وأماكن البيع. كانت تحبّ المزادات، وكانت تهمس للسويدي: «هذا يذكّرني بأتلانتيك سيتي. أظنه يذكرني بها أكثر مما ينبغي. إنها مسابقة ملكة جمال أميركا للأبقار». كانت تضع على صدرها لوحة كتب عليها «داون ليفوف، أركادي بريدرز». كان ذلك اسم شركتها الذي أخذته من عنوانهم في أولد ريمروك: ص. ب. 62، أركادي هيل رود. وكانت تجد صعوبة كبيرة في مقاومة إغراء شراء بقرة جيدة. كانوا يأتون ببقرة أو بثور، ويجعلون الحيوان يسير في الحلبة. ثم يقدّم رعاة العرض معلومات عن الحيوان، وعن أبيه وأمه وخصائصهما، وكذلك عن الخصائص المحتمل وجودها في الحيوان المعروض. تبدأ المزايدة بعد ذلك. على الرغم من حذر داون وانتباهها عند الشراء، فقد كان سرورها بأن ترفع يدها وتزيد على السعر السابق سرورًا حقيقيًا. صحيح أن السويدي كان راغبًا في مزيد من الأطفال، لا في مزيد من الأبقار، لكنه كان معترفًا بأنه لم يجدها يومًا ساحرة في نظره (ولا حتى عندما رآها أول مرة في أوبسالا) مثلما تكون ساحرة في تلك اللحظات في المزاد عندما يظهر جمالها الجذّاب المغري متلفِّعًا بحماسة المزايدة والشراء. قبل وصول كاونت (الثور البطل الذي اشترته بُعيد ولادته بعشرة آلاف دولار فكان على زوجها - المساند لها بنسبة مئة بالمئة - أن يقول لها إن هذا مبلغ كبير جدًا)، كانت محاسبته تنظر إلى أرقام شركة «أركادي بريدرز»، في آخر كل سنة، ثم تقول للسويدي: «هذا سخف. لا يمكنكما الاستمرار على هذا النحو». لكن الخسارة كانت أمرًا مستبعدًا تمامًا لأن داون كانت تقوم بالعمل وحدها تقريبًا وتكرس له الجزء الأكبر من وقتها. وهكذا، كان السويدي يقول للمحاسبة: «لا تقلقي، سوف تجني مزيدًا من المال». لكنه لم يكن يفكّر في إيقافها عن ذلك العمل حتى إذا لم تربح قرشًا واحدًا في آخر المطاف. وذلك لأنه كان يقول لنفسه عندما ينظر إليها خارجة مع كلبها وقطيعها: «هؤلاء هم أصدقاؤها».

كانت تعمل كثيرًا جدًا، وتقوم بالعمل كلّه وحدها، وتتابع ولادة العجول

الصغيرة، وتجعلها تشرب الحليب من زجاجة بلاستيكية لها حلمة رضاعة إذا وجدتها غير مقبلة على الرضاعة من أمهاتها، وتعتني بإطعام الأمهات جيّدًا قبل ضمّها إلى القطيع من جديد. كان عليها استئجار رجل لإقامة سياج، لكنها كانت هناك، تعمل معه، وتحزم القش. جمعت ألفًا وثمانمئة حزمة، أو ألفي حزمة، من العشب الذي قصّته خلال الشتاء. وعندما بلغ عمر الثور كاونت بضع سنوات، وضاع في أحد أيام الشتاء، بذلت جهدًا بطوليًا في البحث عنه، فأمضت ثلاثة أيام مشّطت خلالها الغابة قبل أن تجده عالقًا على جزيرة صغيرة في المستنقع فكانت إعادته إلى البيت مهمة شديدة الصعوبة. كان وزن داون مئة وثلاث باوندات، وطولها خمس أقدام وإنشان؛ أما كاونت فكان وزنه ألفين وخمسمئة باوندًا، وكان حيوانًا عالي القامة، شديد الجمال، له بقعة بنية كبيرة حول كل عين من عينيه. وكانت العجول التي أنجبها موضع طلب شديد. كانت داون تحتفظ بالعجول الذكور، وتؤجّرها لتلقيح أبقار مالكين آخرين كانوا يتمنّون وجود تلك الثيران في قطعانهم. لم تكن تبيع الإناث الصغيرة إلا فيما ندر؛ لكن الناس كانوا راغبين في شرائها عندما توافق داون على البيع. ظلّت ذرّية كاونت تفوز في المعارض الوطنية، سنة بعد سنة. وأما رأس المال الذي وظّفته داون، فقد تمكّنت من استرداده عدة مرات. لكن كاونت علق في المستنقع بعد أن سقط رسنه. كان الطقس صقيعيًا؛ ولا بد أن قائمة كاونت قد علقت بين الجذور، أو في حفرة من الحفر. وعندما اكتشف أن عليه أن يخوض في الطين الرطب حتى يستطيع الخروج من تلك الجزيرة الصغيرة، أقلع عن المحاولة وأمضى ثلاثة أيام قبل أن تتمكن داون من العثور عليه. وعندما وجدته، أخذت رسنًا جديدًا وذهبت مع ميري والكلب لكي تحاول إخراجه. لكن قائمته كانت تؤلمه، ولم يكن راغبًا في النهوض. وهكذا عادوا فجلبوا بعض أقراص الدواء وحقنوه بالكورتيزون، وبأشياء أخرى، وجلسوا معه تحت المطر بضع ساعات أخرى، قبل أن يحاولوا إخراجه من جديد. كان عليهم إقناعه بالسير عبر الجذور والحجارة والطين العميق، فصار يسير حينًا ويتوقّف حينًا، ثم يسير حينًا ويتوقّف حينًا. كان الكلب ينبح من خلفه فيسير بضع خطوات أخرى. استمرّت المحاولة عدة ساعات.

كانت داون وميري تجرّانه بحبل مربوط برقبته، فرفع رأسه، رفع ذلك الرأس الكبير بشعره المتموّج وعينيه الجميلتين وشدّ الحبل، فسقطت الاثنتان على الأرض! نهضتا وعادتا إلى المحاولة مرة أخرى. كان لديهما قليل من الحبوب، فراح يأكل منها، ثم يسير مسافة صغيرة. لكن إخراجه من الغابة استغرق أربع ساعات كاملة. كان ثورًا مطيعًا في الأحوال المعتادة، لكنه كان يتألّم فلم تتمكّنا من إيصاله إلى البيت إلا بعد عناء كبير. كان مشهدًا لا ينسى عندما رأى السويدي زوجته الصغيرة - زوجته التي كانت آية في الحسن، إن أرادت ذلك - ومعها ابنته آتيتين ملطّختين بالطين، ورأى الثور آتيًا من خلفهما في ذلك الحقل الغارق في المطر خلف الحظيرة. قال في نفسه: «هذا هو الشيء الصحيح. إنها سعيدة. لدينا ابنتنا ميري. وهذا يكفينا». لم يكن رجلًا متديّنًا، لكنه قال بصوت مرتفع شاكرًا تلك النعمة: «نور يشعّ عليَّ فيغمرني».

اقتضت إعادة الثور إلى الحظيرة قرابة ساعة أخرى من جهود داون وميري. وهناك، استلقى على القش وظل مستلقيًا أربعة أيام. أتت داون بطبيب بيطري، فقال لها: «لن نتمكّن من تحسين حالته. أستطيع تخفيف ألمه. هذا كل ما أستطيع فعله من أجله». صارت داون تأتي إليه بدلاء الماء حتى يشرب، وبالعلف حتى يأكل. وفي يوم من الأيام (هكذا اعتادت ميري رواية القصّة لكل من يأتي إلى البيت)، حزم الثور أمره وقال: «حسنًا، إنني في أحسن حال». ثم نهض وخرج يتجول مرتاحًا. كان ذلك عندما وقع في غرام الفرس العجوز فصارا صديقين لا يفترقان. وعندما جاء اليوم الذي صار عليهما فيه أن يشحنا كاونت - أي أن يرسلاه لكي يُذبح - بكت داون كثيرًا وظلّت تقول: «لا أستطيع فعل هذا». كان السويدي يجيبها: «عليك أن تفعلي هذا». وهكذا فقد فعلا ما يتعيّن فعله. والعجيب (هذه كلمة ميري) أن كاونت أنجب قبل رحيله بيوم واحد عجلة صغيرة رائعة كانت «طلقته» الوداعية. كانت للعجلة تلك البقعتان البنّيتان من حول عينيها - «إنه ين - ين - ينثر العيون البنّية من حوله» وبعد ذلك، لم يكن لديهم حيوان يماثل كاونت على الرغم من أن ثيرانهم كلّها كانت من سلالات جيدة.

(32) اسم الطفلة (Merry): معناه بهجة أو سعادة.
(33) إشارة إلى فيلم «Miss Congeniality»: إشارة إلى فيلم لعبت دور البطولة فيه ساندرا بولوك. تتلقّى الـ«إف بي آي» أن تفجيرًا إرهابيًا سيقع أثناء مسابقة ملكة جمال أميركا فيدفع بواحدة من عميلاته «ساندرا بولوك» لتشارك في المسابقة حتى تراقب مجريات الأمور من الداخل.

إذًا، هل من أهمية حقًّا لأن تخبر داون الناس بأنها كانت تكره ذلك البيت؟ لقد كان السويدي في ذلك الوقت الشريك الأقوى، الأقوى كثيرًا جدًا، وصارت هي الشريك الأضعف، الشريك الأضعف جدًّا. كان الطرف المحظوظ، وكان المتلقّي غير المستحق (لا شك في هذا) للكثير الكثير... فليكن ما يكون: كان يقبل بكل ما تطلبه منه. إذا كان قادرًا على احتمال شيء ما، ولم تكن داون قادرة على احتماله، فكيف له أن يفعل أي شيء آخر غير القبول؟ فبحسب معرفة السويدي، كان ذلك هو الطريق الوحيد لأن يكون الرجل رجلًا؛ خاصة إذا كان رجلًا محظوظًا مثله. فمنذ البداية، كان يجد في احتمال انزعاجها وخيبات أملها مشقّة أكبر كثيرًا من مشقّة احتمال خيباته هو. وكان يبدو أن خيباتها تسلبه نفسه على نحو خطير حقًّا: ما إن يمتصّ خيبة أملها حتى يصير من المستحيل عليه أن يمتنع عن فعل شيء إزاءها. لا سبيل إلى الاكتفاء بأنصاف الحلول. كان على محاولاته الرامية إلى معرفة ما تريده داون أن تكون محاولات صادقة مخلصة تمامًا. لم يعش يومًا من غير إخلاصه الصادق الهادئ هذا. لم يعِش يومًا من غيره حتى عندما تتراكم عليه أعباء كثيرة، وحتى عندما يعطي كل شخص في المصنع ما يريده منه ويعطي كل شخص في البيت ما يريده منه، حتى عندما يتعامل سريعًا مع تقصيرات المورّدين ومع ابتزاز النقابة ومع شكاوى المشترين، وعندما يخوض المنافسة وسط اضطراب السوق وفي مواجهة المشكلات التي تأتيه بالصداع من بلاد بعيدة. كان يعتني بطفلته المتأتئة وبحاجاتها الملحة، وبزوجته ذات العقلية المستقلّة، وبأب سريع الغضب يزعم أنه تقاعد. فهل خطر في ذهنه أن هذا الاستخدام المضني لذاته يمكن أن يُبليه في

يوم من الأيام. لم يكن يفكّر في هذا أكثر مما يفكّر في الأرض التي يمشي عليها. كان يبدو كما لو أنه لا يفهم، أو لا يقرّ (حتى في لحظات الإرهاق)، بأنه ليس رجلًا من غير حدود تمامًا وبأنه ليس مثل ذلك البيت الحجري البالغ من العمر مئة وسبعين عامًا الذي تحمل ثقله عوارض متينة من خشب البلوط... لم يكن يدرك أنه شيء أقل دوامًا وأكثر غموضًا.

على أية حال، لم يكن هذا البيت هو ما كرهته داون. ما كرهته هي الذكريات التي كانت غير قادرة على الإفلات منها، ذكريات مرتبطة كلها بالبيت، ذكريات كانت ذكرياته أيضًا، بطبيعة الحال. ميري الطفلة في المدرسة الابتدائية مستلقية على الأرض في الغرفة إلى جانب مكتب أمها ترسم صورًا لكاونت، بينما تعمل داون على حسابات الشركة. ميري تحاكي تركيز أمها وتستمتع بأسلوب العمل المنضبط نفسه، ويبهجها على نحو صامت أن تشعر بأنها على قدم المساواة معهما ضمن المسعى المشترك. وبشكل ما، تتيح لأبويها رؤية لمحات أولية منها عندما تصير كبيرة... نعم، لمحات من صديقتهما الراشدة التي ستكونها ذات يوم. ذكريات عن ميري آتية، خاصة من تلك الفترات التي لم يكونا فيها ما يكونُه الأهل تسعة أعشار الوقت: المرشدون، وضاربو المثال، وأصحاب السلطة المعنوية، وأشياء من قبيل «هيًّا وإلا فسوف تتأخرين»، وحافظو سجل واجباتها ومهماتها اليومية... بل هي ذكريات عن أوقات يكتشف فيها المرء الآخرين من جديد، أوقات تعلو فوق التوترات بين السلطة الأبوية والريبة الطفولية الحمقاء، لحظات الراحة في حياة الأسرة التي يستطيع فيها كل فرد مقاربة الآخر بهدوء.

الصباحات المبكرة عندما يحلق ذقنه في الحمام بينما تذهب داون لكي توقظ ميري. لا يستطيع تخيّل بداية للصباح أفضل من رؤية لمحة من ذلك الطقس اليومي. لم تعرف غرفة ميري الساعة المنبّهة أبدًا: كانت داون ساعتها المنبّهة. تخرج داون إلى الحظيرة قبل السادسة صباحًا؛ لكنها تتوقّف عن العناية بأبقارها في الساعة السادسة والنصف تمامًا وتعود إلى البيت. تصعد إلى غرفة الطفلة، فتجلس على حافة سريرها، وتبدأ شعائر الصباح اليومية المفرحة. تبدأ تلك الشعائر من غير أن تنطق بأية كلمة... تمسّد داون على رأس ميري النائمة؛

حركة متكرّرة صامتة من الممكن أن تستمر دقيقتين كاملتين. ثم تسألها داون بنبرة رقيقة هامسة كأنها تغنّي الكلمات غناء «هل أرى إشارة تدل على الحياة؟»، فتستجيب ميري لا بفتح عينيها بل بتحريك إصبعها الصغير. «إشارة أخرى، من فضلك». تستمر تلك اللعبة: تلعبها ميري بأن تغضّن أنفها، ثم تمرّر لسانها على شفتيها، ثم تتنهّد بصوت مسموع، إلى أن تنهض آخر الأمر من السرير وتصير مستعدة للحركة. كانت لعبةً تجسّد فَقدًا: بالنسبة إلى ميري، أن تكون محمية تمامًا؛ وبالنسبة إلى داون، مشروع الحماية الكاملة لما كان يبدو ذات يوم أنه قابل لحماية كاملة. إيقاظ الطفلة الصغيرة! استمر هذا الطقس إلى أن كادت تلك الطفلة تبلغ الثانية عشرة... شعيرة الطفولة الأولى التي لم تكن داون قادرة على مقاومة إغرائها ولم تبدُ على أي منهما أية رغبة في تركها.

كم كان يحب رؤيتهما تفعلان ما تفعله الأمهات وبناتهن. ففي عين الأب، كانت كل منهما توسِعةً للأخرى. كان يراهما في ملابس السباحة خارجتين مندفعتين من الشاطئ معًا تسابق كل منهما الأخرى إلى حيث المناشف: الآن، تجاوزت زوجته أجمل لحظاتها، تجاوزتها قليلًا، وبدأت ابنته تشق طريقها إلى بداية لحظاتها. مخطّط مرسوم لطبيعة مجرى الحياة الحلزوني تركه يشعر بعد ذلك بأنه صار يمتلك فهمًا متّسعًا لجنس النساء كلهنّ. ميري بفضولها المتنامي تجاه الألاعيب النسائية: تضع مجوهرات داون الواقفة قبالة المرآة إلى جانبها تساعدها في التزيّن. ميري تُسرّ لداون بمخاوفها من العزلة في المدرسة... يتجاهلها بقية الأطفال، وتتعاون صديقاتها ضدّها. في هذه اللحظات الهادئة التي يكون الأب مُستبعَدًا منها (الابنة المعتمدة على الأم؛ داون وميري وقد تلبست كل منهما الأخرى عاطفيًا فصارت في داخلها، مثل تلك الدمى الخشبية الروسية)، كانت ميري تبدو - على نحو حاد الوضوح أكثر من أي وقت آخر - أنها ليست نسخة صغيرة مكرّرة عن زوجته، أو عنه، بل كائن صغير مستقل... شيء شبيه بهما، نسخة عنهما، لكنه متميّز بذاته، شيء جديد، شيء يحسّ السويدي تجاهه انجذابًا عاطفيًا كبيرًا.

لم يكن البيت هو ما كرهته داون. كان يعرف أن الشيء الذي كرهته هو أن

الدافع إلى امتلاك البيت (لترتيب الأسرّة، ولإعداد الطاولة، ولغسل الستائر وكيّها، ولتنظيم العطلات، ولتوزيع طاقتها وتغيير مهماتها بحسب أيام الأسبوع) قد دُمّر لحظة دمار متجر هاملين. ذلك الامتلاء اليومي المحسوس، والانتظام السلس الذي كان، ذات يوم، كامنًا خلف حياتهم كلّها ما عاد حيًّا فيها إلا باعتباره سرابًا، وهمًا أكبر من الحياة، شيئًا مخاتلًا ساخرًا يتعذّر الوصول إليه، شيئًا حقيقيًا في كل أسرة في أولد ريمروك، إلا أسرّتها. ما كان يعرف هذا بسبب وجود مليون ذكرى فحسب، بل أيضًا لأنه لا يزال محتفظًا في الدرج العلوي في طاولة مكتبه بنسخة عمرها عشر سنين من صحيفة أسبوعية محلّية اسمها «دينفيل راندولف كوريير» وقد وضعت في صفحتها الأولى مقالة عن داون وعن شركة الماشية التي أقامتها. لم توافق داون على إجراء تلك المقابلة إلا بعد أن وعدها الصحافي بألّا يذكر فوزها بلقب ملكة جمال نيوجرسي سنة 1949. وافق الصحافي على هذا، وكان عنوان المقالة «امرأة من أولد ريمروك ترى أنها محظوظة لأنها تحبّ عملها». كانت خاتمة المقالة فقرة تجعله، على الرغم من بساطتها، فخورًا بها كلما عاود قراءتها: «تقول السيدة ليفوف إن ‘الناس يكونون محظوظين إذا عملوا عملًا يحبّونه وكانوا بارعين فيه’».

كانت تلك المقالة شاهدًا على مدى حبها هذا البيت، وكذلك على مدى حبّها كل شيء آخر في حياتهم. تحت صورة لها في الصحيفة بدت فيها واقفة أمام الأطباق الخزفية المصفوفة على رفّ الموقد مرتدية قميصًا أبيض مرتفع الياقة، وسترة رياضية شاحبة اللون، وقد انسدل شعرها إلى كتفيها وانعقدت أصابع يديها الرشيقتين أمامها... بدت في تلك الصورة حلوة على الرغم من شحوبها الخفيف. كتبوا تحت الصورة «السيدة ليفوف، ملكة جمال نيوجرسي سنة 1949، تحبّ العيش في بيت عمره مئة وسبعين عامًا وتقول إن بيئته تعكس قيم أسرتها». عندما اتصلت داون بالصحيفة غاضبة لأنهم ذكروا «ملكة جمال نيوجرسي»، أجابها الصحافي بأنه التزم بوعده ولم يذكر ذلك في المقالة؛ لكن محرّر الصحيفة هو من كتب ذلك تحت الصورة.

لا، لم تكره البيت... بالطبع لم تكره البيت... لكن هذا لم تعد له أهمية. كل ما

له أهمية الآن هو استعادتها إلى سابق عهدها؛ العبارات الحمقاء التي يمكن أن تقولها أمام هذا الشخص أو ذاك ليست بذات أهمية إزاء استعادة عافيتها. لعل ما كان يزعجه هو أن ذلك المسار من «التعديلات الذاتية» الذي اعتمدت عليه في شفائها لم يكن شافيًا بالنسبة إليه، أو لم يكن مُرضيًا تمامًا، بل كان فيه أحيانًا نوعٌ من الإساءة إليه. لم يكن قادرًا على أن يقول للناس - بالتأكيد، لن يقنع نفسه بهذا - إنه يكره أشياء يحبّها...

كانت العودة إلى تلك الذكريات مؤلمة له. لكنه لم يكن قادرًا على تفاديها... ليس عندما يتذكّر كيف كانت ميري، في السابعة من عمرها، تكاد تنفجر غيظًا من خليط العجين النيء وهي تخبز فطائر صغيرة، ثم ظلّوا بعد ذلك أسبوعًا وهم يجدون العجين المتناثر في أرجاء المكان كله، حتى فوق البراد... فكيف يمكن أن يكره البراد؟ كيف يمكن أن يسمح لمشاعره بإعادة التشكّل، وأن يتخيّل أنه ينقذ نفسه بهذا مثلما تفعل داون... ينقذ نفسه من خلال التخلّي عن ذلك البراد واقتناء براد حديث من غير صوت يكاد يكون رولز رويس البرادات؟ من ناحيته، ما كان قادرًا على القول إنه يكره المطبخ الذي كانت ميري تخبز فيه فطائرها وتعد لنفسها سندويتشات الجبن الذائب وتطهو فطائر الزْيتي، حتى إذا لم تكن خزائن ذلك المطبخ من الستانلس ستيل، ولم تكن طاولته من رخام إيطالي. ما كان قادرًا على القول إنه يكره القبو الذي كانت تنزل إليه لتلعب مع صديقاتها الزاعقات حتى وإن كان النزول إلى ذلك القبو في الشتاء يروّعه قليلًا، يروعه حتى هو عندما يسمع صوت جري الفئران فيه. ما كان قادرًا على القول إنه يكره الموقد المزيّن بغلاية ماء معدنية عتيقة، ذلك الموقد الذي صار فجأة شيئًا مبتذلًا إلى حد لا يطاق في نظر داون. لا يستطيع أن يكرهه عندما يتذكّر كيف كان، في أوائل شهر كانون الثاني، يكسّر شجرة عيد الميلاد ويضعها في ذلك الموقد ويشعل النار فيها، يشعل النار فيها دفعة واحدة فتتفجر أغصانها الجافة لهبًا ويصدر منها صوت هسهسة عظيم، ويطقطق خشبها، وتتراقص على جدران المطبخ الأربعة ظلال أشباح لشياطين متقافزة صوب السقف. كان ذلك يبعث في ميري فرحًا مذعورًا أشبه بالهذيان. لم يكن قادرًا على القول إنه يكره

حوض الاستحمام ذا القوائم الأربع الذي كان يحمّمها فيه؛ لا يستطيع فعل ذلك لمجرد أن مياه البئر تركت، عبر عشرات السنين، على ذلك الحوض بقعًا معدنية لا تزول. مصرف الماء المدوّر الأبيض! لم يكن قادرًا حتى على كره المرحاض العتيق الذي لا بد من تحريك مقبضه جيئة وذهابًا حتى يتوقّف انهمار الماء فيه؛ لا يستطيع أن يكرهه عندما يتذكّرها راكعة تتقيأ فيه بينما كان راكعًا إلى جانبها مسندًا جبهتها الصغيرة المحمومة بكفّه.

ولم يكن قادرًا على القول إنه يكره ابنته لما فعلته... ليته كان قادرًا! لو أنه، فقط، بدلًا من العيش الفوضوي المضطرب في هذا العالم الذي لا تعيش فيه، في هذا العالم الذي كانت فيه مرةً، في هذا العالم الذي قد تكون فيه الآن، لاستطاع التوصل إلى كرهها بالقدر الكافي لجعله غير مبالٍ أبدًا بعالمها، الآن أو في ذلك الوقت. فقط، لو كان قادرًا على أن يعود إلى التفكير مثلما يفكّر أي شخص آخر، أن يعود من جديد رجلًا طبيعيًا تمامًا بدلًا من هذا الشخص الممزَّق، الذي هو ليس أكثر من محتال يدّعي الصدق، سويدي ساذج من الخارج، وسويدي معذَّب من الداخل، سويدي مستقرّ ظاهر للعيان، سويدي محاصَر خفيّ، سويدي ذو مظهر زائف مبتسم خليّ البال لا يعدو كونه كفنًا للسويدي المدفون حيًا من خلف ذلك المظهر. فقط، لو أنه كان قادرًا على استعادةٍ واهية لوحدانية وجوده غير المنقسم التي كانت تُكوّن حريته وثقته الجسدية الواضحة قبل أن يصير والد طفلة متهمة بجريمة قتل. فقط، لو أنه كان قادرًا على الغَفلة مثلما يحسبه بعض الناس... فقط، لو أنه كان قادرًا على تلك البساطة التامّة مثلما كانت أسطورة السويدي ليفوف التي اختلقها الأطفال الذين كانوا يقدّسون ذلك البطل في أيامه السالفة. فقط، لو أنه كان قادرًا على القول «أكره هذا البيت!» وعلى أن يكون من جديد السويدي ليفوف من ويكاهيك. لو أنه كان قادرًا على القول «أكره تلك الطفلة! ولا أريد رؤيتها بعد الآن أبدًا!». ثم يمضي قدمًا فيتحرّر من امتلاكه إياها وينبذها ويزدريها إلى الأبد ويزدري معها تلك الرؤية التي جعلتها مستعدة، إن لم يكن للقتل، فلهجر أسرتها هجرانًا قاسيًا... رؤية لا علاقة لها أبدًا بـ«المُثُل»، بل بالكذب وجنون العظمة والنزعة الإجرامية وفقدان العقل. عداوة

عمياء ورغبة طفولية في التنديد والوعيد... تلك هي مُثُلها! تبحث دائمًا عن شيء لكي تكرهه. نعم، لقد مضى الأمر شوطًا تجاوز كثيرًا مشكلة تأتأتها. كان ذلك الكره العنيف لأميركا داءً في حد ذاته. وأما هو، فيحب أميركا. يحب أن يكون أميركيًا. لكنه لم يجرؤ في ذلك الوقت، في ذلك الوقت الذي مضى، على أن يشرح لها ما يجعله يحب أميركا. لم يجرؤ لخوفه من إطلاق شيطان إهاناتها. كانا يعيشان خائفين من لسان ميري المتأتئ. ثم إنه كان قد فقد أي تأثير بحلول ذلك الوقت. وما كان لداون أي تأثير. وما كان لأبيه وأمه أي تأثير. فبأي معنى تكون ابنته «له» إن لم تكن له حتى في ذلك الوقت؟ بالتأكيد لم تكن له إن كان وصولها إلى تلك الذهنية العدوانية المفزعة لا يتطلّب أكثر من أن يبدأ أبوها تفسير السبب الذي يجعل عواطفه ميّالة إلى البلد الذي ولد وترعرع فيه. العاهرة الصغيرة المتأتئة المغمغمة! من عساها تحسب نفسها؟

تخيلوا مقدار اللؤم الذي كانت ستهاجمه به لو باح لها بأن تعداد أسماء الولايات الثماني والأربعين وحده كان كافيًا لجعله ينتشي عندما كان طفلًا صغيرًا. بل إن خريطة الطرق التي اعتادوا أن يوزّعوها مجانًا في محطات الوقود كانت تجعل قلبه يرقص فرحًا. وعلى النحو نفسه كانت تلك الطريقة المرتجلة التي اكتسب بها لقبه. دخل الصالة الرياضية في الدرس الأول من يومه الأول في المدرسة الثانوية وبدأ يقذف كرة السلة بينما كان بقية الفتيان لا يزالون منتشرين في المكان منشغلين بانتعال أحذيتهم الرياضية. قذف بالكرة مرتين من مسافة خمس عشرة قدمًا فدخلت السلّة!... كان هذا على سبيل البداية فقط. كان أسلوبه المتمهّل المرتاح هو ما جعل المدرّس هنري وارد (يسمّونه «دوك»)، مدرّس الرياضة الشاب ذي الشعبية الذي كان مدرّب مصارعة قادمًا حديثًا من جامعة مونتكلير ستيت، يصيح ضاحكًا من باب غرفته مخاطبًا الفتى الأشقر النحيل ذا الأربعة عشر عامًا صاحب العينين الزرقاوين اللامعتين والأسلوب اليَسِر السهل الذي لم يره في الصالة قبل ذلك اليوم، «أين تعلّمت فعل هذا يا سويدي؟». وبما أن ذلك الاسم كان مناسبًا لتمييز سايمور ليفوف عن سايمور مونزير وسايمور ويشناو، اللذين كانا في الصف نفسه، فقد التصق به في الصالة الرياضية خلال

تلك السنة الأولى. ثم بدأ معلمون ومدرّبون آخرون يستخدمون هذا الاسم، وتلاهم طلبة المدرسة، ثم لم تلبث ويكاهيك كلّها (التي كانت لا تزال ويكاهيك اليهودية القديمة التي تهتم بالماضي) أن صارت تعرف أن دوك وارد هو من «عمّد» الفتى باسم السويدي ليفوف. وهكذا ظلّ ذلك الاسم ملازمًا له. بهذه البساطة، صار ذلك اللقب الأميركي الذي أطلقه عليه معلم الرياضة فجعله لقبًا له في الصالة الرياضية، الاسمَ الذي جعله أسطوريًا بطريقة ما كان يمكن أبدًا لاسم سايمور وحده أن يحقّقها، جعله أسطوريًا لا خلال سنوات المدرسة وحدها بل أيضًا في ذكريات زملائه جميعًا طيلة حياتهم. صار يحمل ذلك الاسم معه كأنه جواز سفر غير مرئي وهو يمضي أعمق فأعمق في الحياة الأميركية متحوّلًا تحوّلًا واضحًا صريحًا إلى أميركي متفائل مصقول ضخم، لم يكن أسلافه الخشنون خشونة واضحة (بمن فيهم والده العنيد الذي لم يكن تطلعه الأميركي قليلًا على الإطلاق) يمكن أن يحلموا بأن يكون لهم خلف مثله.

تلك الطريقة التي كان أبوه يكلّم الناس بها كان لها أثرها عليه أيضًا، الطريقة الأميركية التي كان أبوه يقول بها للشخص العامل على مضخة الوقود: «املأها كلها، يا ماك. ألق نظرة على المقدّمة، من فضلك يا معلم!». إثارة رحلاتهما في سيارة الديسوتو. كابينات السيّاح الصغيرة الصدئة التي كانا يتوقفان لقضاء الليل فيها خلال تجوّلهما عبر الطرق الخلفية الجميلة في ولاية نيويورك في طريقهما لرؤية شلالات نياغارا. الرحلة إلى واشنطن عندما كبر جيري قليلًا. إجازته الأولى بعد أن التحق بمشاة البحرية؛ ورحلة «الحج» إلى هايد بارك مع جيري وبقية أفراد الأسرة ليقفوا معًا، أسرة واحدة، وينظروا إلى ضريح فرانكلين ديلانو روزفلت(34). كان قد أنهى معسكر التدريب الأولي عندما وقف أمام ضريح روزفلت فأحسَّ بأن شيئًا كبير المعنى كان يحدث له: صلبًا، لوّحته الشمس كثيرًا بعد التدريب خلال الشهور الأكثر حرارة في ساحة المعسكر حيث تبلغ الحرارة بعض الأيام مئة وعشرين درجة(35)، وقف صامتًا معتزًا بارتداء بدلته العسكرية الصيفية بقميصها المنشّى، وبنطلونها الكاكي المكوي الصقيل الذي لا جيوب له من الخلف، وربطة عنقه المتقنة، وقبعته العسكرية على رأسه

الحليق، وحذائه الجلدي الأسود الملمَّع... وقف مشرقًا كلّه... والحزام الذي كان أكثر ما يجعله يشعر بأنه واحد من مشاة البحرية، الحزام المنسوج من خيوط كاكية، وإبزيمه المعدني؛ الحزام الذي حفر خصره خلال نحو عشرة آلاف تمرين من تمارين المعدة نفَّذها بصفته جنديًا مستجدًا في معسكر باريس آيلاند.
فمن هي حتى تسخر من هذا كلّه، حتى ترفض هذا كلّه، حتى تكره هذا كلّه وتصمّم على تدميره؟ والحرب... النصر في الحرب... هل تكره هذا أيضًا؟ والجيران... أولئك الجيران الذين يخرجون إلى الشارع فيصيحون ويتعانقون في ذكرى يوم النصر على اليابان، ويطلقون أبواق سياراتهم، ويسيرون على المروج أمام بيوتهم وهم يطرقون على القدور. كان لا يزال في باريس آيلاند آنذاك، لكن أمّه وصفت له ذلك كلّه في رسالة من ثلاث صفحات. الاحتفال الذي أقيم في ملعب المدرسة تلك الليلة، وكل شخص يعرفونه، وأصدقاء الأسرة، وأصدقاء المدرسة، وجزّار الحي، والبقّال، والصيدلي، والخيّاط، وحتى الفطائر الحلوة اللذيذة من متجر الحلويات... بهجة غامرة، وصفوف طويلة من أشخاص وقورين في أواسط العمر يقلّدون كارمن ميراندا(36) بحركات مجنونة ويرقصون على أنغام الكونغا إلى ما بعد الساعة الثانية فجرًا، واحد - اثنان - ثلاثة - ضربة بالقدم على الأرض، واحد - اثنان - ثلاثة - ضربة بالقدم على الأرض.
النصر في الحرب، النصر، النصر، جاء النصر، لا مزيد من الموت، ولا مزيد من الحرب!
كان يقرأ الصحف كل ليلة في الشهور الأخيرة من المدرسة الثانوية، فيتابع أخبار مشاة البحرية في المحيط الهادي. رأى صورًا حيّة... رأى صورًا سكنت أحلامه... رأى صور أجساد مكوّمة لقتلى مشاة البحرية الذين سقطوا في بيليليو، تلك الجزيرة الصينية التي تسميها الصين بالاوس. وفي مكان اسمه «بلودي نوز ريدج»، حوصر اليابانيون في مناجم فوسفات قديمة ثم أُحرقوا فيها بقاذفات اللهب بعد أن قتلوا مئات ومئات من مشاة البحرية الشباب، في الثامنة عشرة من العمر، وفي التاسعة عشرة مع العمر، فتيان ما كانوا أكبر منه إلا

قليلًا. وضع في غرفته خريطة غرس فيها دبابيس تشير إلى أماكن وجود قوات مشاة البحرية التي تضيّق الخناق على اليابان، وتهاجم من البحر جزيرة مرجانية صغيرة، أو سلسلة جزر حفر فيها اليابانيون خنادق لهم داخل حصونها المرجانية؛ فيمطرونهم بوابل من قذائف الهاون ونيران البنادق. بدأ غزو أوكيناوا في الأول من نيسان سنة 1945. كان ذلك يوم أحد عيد الفصح في سنته الأخيرة في المدرسة بعد يومين من تمكّنه من إحراز رمية مزدوجة والفوز في المباراة مع فريق ويست سايد بعد أن كانت مباراة خاسرة. اكتسح لواء مشاة البحرية السادس جزيرة يونتان واستولوا على واحدة من القاعدتين الجويتين بعد أن خاضوا في مياه شواطئها ثلاث ساعات. استولوا على شبه جزيرة موتوغو في ثلاثة عشر يومًا. قبالة شاطئ أوكيناوا تمامًا، هاجم اثنان من طياري الكاميكازي اليابانيين سفينة القيادة حاملة الطائرات بونكر هيل يوم الرابع عشر من أيار... اليوم نفسه الذي أعقب فوز السويدي على فريق إيرفينغتون هاي برمية أحادية ورمية ثلاثية ورميتين مزدوجتين... انقض الطياران على سطح مدرج الطائرات الذي كان غاصًّا بطائرات أميركية مزودة بالوقود والذخيرة مستعدة للانطلاق. ارتفع اللهب ألف قدم في السماء. قتل أربعمئة بحار وطيار في العاصفة النارية المتفجّرة التي استمرت ثماني ساعات. استولى مشاة البحرية من اللواء السادس على «شوغر لوف هيل» في الرابع عشر من أيار سنة 1945... حقّق السويدي ثلاث رميات مزدوجة في مباراة ضد فريق إيست سايد... لعل ذلك كان أسوأ الأيام القتالية وأكثرها وحشية في تاريخ مشاة البحرية كلّه. لعله أسوأ يوم في التاريخ البشري كلّه. أُحرقت بقاذفات اللهب الكهوف والأنفاق التي كانت تملأ الناحية الجنوبية من جزيرة «شوغر لوف هيل» حيث تحصّن اليابانيون وأخفوا جيشهم، ثم ألقيت فيها القنابل اليدوية والعبوات الناسفة التي هدمتها فوقهم. استمر القتال الالتحامي المباشر طيلة النهار وطيلة الليل.

كان رماة البنادق والرشاشات اليابانيون مقيدين إلى مواقعهم بالسلاسل غير قادرين على التراجع، فقاتلوا إلى أن ماتوا. ويوم تخرّج السويدي في مدرسة

ويكاهيك الثانوية، في الثاني والعشرين من حزيران (بعد أن حطم الرقم القياسي لعدد الرميات المزدوجة التي يحرزها لاعب في دوري مدينة نيوارك خلال موسم واحد)، رفع لواء مشاة البحرية السادس العلم الأميركي فوق قاعدة أوكيناوا الجوية الثانية في كاديلا، فصارت المرحلة التحضيرية الأخيرة لغزو اليابان ناجزة. ومنذ الأول من نيسان سنة 1945 حتى الحادي والعشرين من نيسان من السنة نفسها - فترة متوافقة بفارق أيام قليلة، أكثر أو أقل، مع آخر وأفضل موسم للسويدي في موقع لاعب القاعدة الأولى في مدرسته الثانوية - احتلت القوات الأميركية جزيرة طولها خمسين ميلًا وعرضها نحو عشرة أميال فكلّفها احتلالها أرواح خمسة عشر ألف جنديٍّ أميركيٍّ. لكن عدد القتلى اليابانيين، عسكريين ومدنيين، بلغ مئة وواحدًا وأربعين ألفًا. كان معنى هذا أن احتلال أرض اليابان كلّها، حتى شمالها، ووضع نهاية للحرب، يمكن أن يجعل عدد القتلى من الجانبين يتضاعف عشر مرات، أو عشرين مرة، أو ثلاثين مرة. إلا أن السويدي مضى قدُمًا وأراد أن يكون جزءًا من الهجوم الأخير على اليابان فانضمَّ إلى قوات مشاة البحرية الأميركية التي تكبّدت خسائر مذهلة في الأرواح في أوكيناوا وتاراوا وإيوجيما وغوام وغوادالكانال.

مشاة البحرية. أن يكون واحدًا من المشاة البحرية. المعسكر التدريبي. أذاقونا أنواع المشقّات كلّها؛ وشتمونا شتائم كثيرة، وقتلونا جسديًا وذهنيًا مدة ثلاثة شهور؛ فكانت تلك أفضل تجربة مررت بها في حياتي كلّها. اعتبرت الأمر تحدّيًا فنجحت فيه. صار اسمي «يي - - فو» كانت تلك هي طريقة مدربنا الجنوبي في نطق «ليفوف»، إذ كان يسقط منه حرف «ل» من أوله وحرف «ف» من آخره ويطيل حرف الياء. «يي - - فو»! كان كأنه حمار ينهق «يي - - فو». «حاضر، سيدي». في أحد الأيام، أوقف الرائد دون ليفي الذي كان مدير التدريبات الرياضية (رجل ضخم كان مدرّب كرة القدم في فريق بورديو) الفصيلة، ثم صاح الرقيب البدين الذي كنا ندعوه «كيس البحر» مناديًا الجندي يي - - فو، فجريت إليه بخوذتي فوق رأسي وقد راح قلبي ينبض عنيفًا لأنني ظننت أن أمي قد ماتت. كان قد بقي أسبوع واحد على التحاقي بمعسكر ليجون

في نورث كارولاينا للتدريب المتقدّم على الأسلحة، لكن الرائد دون ليفي اعترض طريق ذهابي فلم أطلق رصاصة واحدة. كان ذلك ما أردته من الانضمام إلى مشاة البحرية. لم أكن أريد شيئًا أكثر من إطلاق النار وأنا منبطح على بطني وقد أسندت ماسورة البندقية على الحامل. كان عمري ثمانية عشر عامًا، وكان ذلك معنى وجودي في قوات مشاة البحرية... الرشاش السريع المبرد بالهواء من عيار ثلاثين ملم. كم كان ذلك الطفل البريء طفلًا وطنيًا! أردت إطلاق النار على صائد الدبابات، على صاروخ البازوكا المحمول يدويًا. وأردت أن أبرهن لنفسي أنني غير مذعور وأنني قادر على فعل ذلك. القنابل اليدوية، وقاذفات اللهب، والزحف تحت أسلاك شائكة، ونسف الاستحكامات، ومهاجمة الكهوف. أردت أن أتقدّم إلى شاطئ من زورق إنزال. أردت المساهمة في الحرب. لكن الرائد دون ليفي كان قد تلقّى رسالة من صديق له في نيوارك - «ما أحسن هذا الرياضي الذي اسمه ليفوف!». كانت رسالة مليئة بكلام عن روعتي، فما كان منهم إلا أن غيّروا وجهة تعييني وجعلوني مدربًا رياضيًا حتى أظل في الجزيرة وألعب الكرة. بحلول ذلك الوقت، كانوا قد ألقوا القنبلة الذرية، وكانت الحرب قد انتهت على أية حال. «أنت في وحدتي، يا سويدي. يسرّني أن تكون عندي». تغير رائع حقًّا! وبعد أن طال شعري، عدت كائنًا بشريًا من جديد. بدلًا من مخاطبتي بكلمة «تافه» طيلة الوقت، أو «حرّك مؤخرتك يا تافه». صرت على نحو مفاجئ مدرّبًا رياضيًا يخاطبه الجنود بكلمة «سيدي». وأما ما يدعو به هذا المدرّب الرياضي جنوده فهو «يا ناس». «ابتعدوا عن الطريق يا ناس! انهضوا يا ناس! كرّروا التمرين مرتين يا ناس، كرّروه مرتين!». تجربة عظيمة، عظيمة، لفتى من جادة كير. أشخاص كان من المستحيل أن أصادفهم طيلة حياتي. لهجات من أنحاء البلاد كلها. من الغرب الأوسط. ومن نيو إنغلاند. وبعض فتيان المزارع من تكساس، ومن أقصى الجنوب. لم أكن قادرًا حتى على فهم كلامهم. لكنّي صرت أعرفهم، وصرت أحبّهم. فتيان أشداء. فتيان فقراء. وكثير من رياضيي المدارس الثانوية. عشت مع الملاكمين. وعشت مع جماعة الترفيه. فتى يهودي آخر من آلتونا اسمه ماني

رابينوفيتش. أصلب فتى يهودي عرفته في حياتي. يا لهذا المقاتل! صديق ممتاز. لم ينهِ المدرسة الثانوية. لم أحظ بصديق مثله قبل ذلك، ولا بعد ذلك. لم أضحك في حياتي كلها مثلما كنت أضحك مع ماني. كان ماني بالنسبة إلي مثل رصيد مالي في المصرف. لم أسمع من أحد كلامًا سيئًا عن يهوديتي. سمعت القليل من هذا الكلام في المعسكر التدريبي؛ لكنه كان قليلًا. عندما يخوض ماني مباراة ملاكمة، يراهن الشباب عليه بسجائرهم. وعلى الدوام، كان بودي فالكوني وماني رابينوفيتش يخرجان فائزَين من كل منازلة لنا مع قاعدة عسكرية أخرى. وبعد المباراة مع ماني، كان خصمه يقول دائمًا إن أحدًا لم يوجه إليه من قبل لكمات بتلك القوة. كان ماني يساعدني في إدارة الأوقات الترفيهية، مباريات الملاكمة. الثنائي... جنديا مشاة البحرية اليهوديان. فاز ماني على الجندي الملاكم المغرور الذي كان يتسبّب في مشكلات كثيرة. كان وزنه مئة وخمسة وأربعين باوندًا، لكنه نازل شخصًا بلغ وزنه مئة وستين باوندًا وكان واثقًا من أنه سيوسعه ضربًا. كان ماني يقول لي: «اختر دائمًا شخصًا ذا شعر أحمر - يا يي - - فو. وسوف يعطيك أفضل مباراة في العالم. ذو الشعر الأحمر لا يتراجع أبدًا». ماني العالِم. ماني يذهب إلى نورفولك لخوض مباراة مع بحار كان من المتنافسين على بطولة الوزن المتوسط قبل الحرب؛ ويغلبه. تمرينات رياضية للفصيلة قبل الإفطار. جعل الجنود يذهبون إلى البركة كل ليلة لتعليمهم السباحة. كنا نرميهم فيها عمليًا - الطريقة القديمة لتعليم السباحة - لكن عليك أن تحسن السباحة حتى تكون جنديًا في مشاة البحرية. عليك أن تكون مستعدًّا دائمًا لأداء تمرين الضغط عشر مرات أكثر من أي جندي آخر. كان بعضهم يتحدّاني؛ لكن لياقتي كانت جيدة. أذهب بالباص لكي أشارك في مباراة كرة. المسافات الطويلة التي طرناها. وجدت بوب كولينز في ذلك الفريق. إنه الفتى الضخم الذي كان في فريق سانت جونت. زميلي في الفريق. رياضي فظيع. سكّير أيضًا. بصحبة بوب كولينز، سكرت أول مرة في حياتي كلّها، وبقيت أتحدّث ساعتين من غير توقّف عن لعب الكرة في فريق ويكاهيك، ثم تقيأت كل ما في جوفي على سطح المركب. فتيان إيرلنديون، وفتيان إيطاليون، وسلوفاكيون، وبولونيون،

ومشاكسون خشنون من بنسيلفانيا. فتيان هربوا من آبائهم الذين يعملون في المناجم ويضربونهم بالأحزمة وبقبضات أيديهم... أولئك كانوا الفتيان الذين عشت معهم، وأكلت معهم، ونمت إلى جانبهم. بل حتى كان لدينا فتى هندي من هنود الشيروكي. كان لاعب القاعدة الثالثة. كان اسمه بيس كوتر، الاسم نفسه الذي نطلقه على قبعاتنا. لا تسألوني عن السبب؛ لم يكونوا كلهم أشخاصًا جيدين، لكنهم لا بأس بهم على وجه العموم. فتيان طيبون. مباريات منظمة كثيرة في المصارعة والملاكمة. مباراة في مواجهة فريق قاعدة فورت بينينغ. تشيري بوينت في نورث كارولاينا، القاعدة الجوية التابعة لمشاة البحرية. هزمناهم. هزمنا فريق القاعدة البحرية في تشارلستون. كان لدينا اثنان من الفتيان القادرين على رمي الكرة حقًّا. ذهب أحد ملتقطي الكرات لدينا إلى فريق تايغرز. ذهبنا إلى روما في ولاية جورجيا لنلعب الكرة هناك، وكذلك إلى وايكروس في الولاية نفسها حيث لعبنا في قاعدة عسكرية. كنا ندعو اللاعبين العسكريين الخصوم جِرَاء. وكنا نهزمهم. كنا نهزم الجميع. رأيت الجنوب. رأيت أشياء لم أرها من قبل أبدًا. رأيت الحياة التي يحياها الزنوج. تعرفت على أنواع كثيرة من البشر غير اليهود. تعرّفت على فتيات جنوبيات جميلات. تعرفت على عاهرات عاديات. استخدمت الواقي الذكري. تعلمت كيف أضاجع امرأة. رأيت مدينة سافانا، رأيت مدينة نيو أورليانز. أقمت في نزل متداعٍ للجنود في بلدة موبايل بولاية ألاباما حيث كنت في غاية السعادة لأن الدوريةَ الساحلية كانت قد غادرت المكان قبل لحظات. لعبنا كرة السلّة والبيسبول مع الكتيبة الثانية والعشرين.

كان عليَّ أن أصير جنديًا في مشاة البحرية الأميركية. وكان عليَّ أن أضع شعار المرساة والكرة الأرضية «ممنوع التصوير هنا يا يي - - فو. ضعها هنا يا يي - - فو...». كان عليَّ أن أصير يي - - فو بالنسبة إلى أشخاص من ماين ونيو هامبشاير ولويزيانا وفيرجينيا وميسيسيبي وأوهايو... أشخاص غير متعلّمين من مختلف أصقاع أميركا يدعونني يي - - فو، ولا شيء آخر. لم أكن بالنسبة إليهم إلا يي - - فو فحسب. أعجبني هذا. تم تسريحي في الثاني من حزيران سنة 1949. ثم تزوّجت فتاة جميلة اسمها داون دواير. صرت أدير

الشركة التي أنشأها أبي، الرجل الذي لم يكن أبوه يتحدّث الإنكليزية. صرت أعيش في أجمل منطقة في العالم. أأكره أميركا؟ لماذا؟ لقد عشت في أميركا مثلما أعيش داخل جلدي. مسرّات شبابي كلّها كانت مسرّات أميركية، وذلك النجاح كله كان أميركيًا، وتلك السعادة كلّها كانت أميركية، وما عدت مضطرًا إلى إبقاء فمي مطبقًا حتى أتفادى انفجار غضبها الجاهل.

الوحدة التي سيعيشها السويدي من غير مشاعره الأميركية كلّها. والتوق الذي سيحسّه إن اضطر إلى العيش في بلد آخر. نعم، لقد كان أميركيًا كل ما أعطى إنجازاته معنى. وكان كلّ ما أحبّه موجودًا هنا.

وأما هي، فإن كونها أميركية كان يعني كره أميركا؛ لكن محبة أميركا كانت شيئًا لا يستطيع التخلي عنه بأكثر مما يستطيع التخلّي عن حب أبيه وأمه، ولا يستطيع التخلّي عنه بأكثر ما يستطيع التخلّي عن أخلاقه. كيف يمكنها أن «تكره» هذا البلد عندما لا تكون لديها أية فكرة عنه؟ كيف يمكن أن يبلغ العمى بطفلته حدًّا يجعلها ترى الشر في «النظام العفن» الذي أعطى أسرتها فرص النجاح كلّها؟ كيف تحقّر أبيها «الرأسمالي» كما لو أن ثروتهم لم تكن نتيجة كدح لا حدَّ له تواصَل على امتداد ثلاثة أجيال؟ رجالُ ثلاثة أجيال، بمن فيهم هو نفسه، يخوضون في قذارة المدابغ ووحولها. العائلة التي بدأت من مدبغة صارت على قدم المساواة مع أكثر الناس وضاعة في نظرها، مع «الكلاب الرأسماليين»! ولم يكن هناك اختلاف كبير (وقد عرفتْ هذا) بين كره أميركا وكرههم. كان يحبّ أميركا التي تكرهها وتلومها على كل نقص أو خلل في الحياة وتريد أن تقلبها بالعنف. لقد أحب «القيم البرجوازية» التي كرهتها وسخرت منها وأرادت تقويضها. أحبَّ الأم التي كرهتها، بل التي قتلتها بأن أقدمت على فعلتها. العاهرة اللعينة الصغيرة الجاهلة! الثمن الذي دفعوه! لماذا لا يمزّق هذه الرسالة التي أتته من ريتا كوهن؟ ريتا كوهن! لقد عادوا! مسببو الأذى الساديون أصحاب موهبة الحقد التي لا آخر لها، الذين ابتزوه وأخذوا منه المال، الذين انتزعوا منه - لأن ذلك كان متعة لهم - دفتر قصاصات أودري هيبورن وسجل يوميات التأتأة وحذاء الباليه... هؤلاء المتوحشون الصغار

المجرمون الذين يدعون أنفسهم «ثوريين»، الذين تلاعبوا بآماله تلاعبًا مؤذيًا منذ خمس سنوات ثم قرّروا الآن أن الوقت قد حان لكي يسخروا من السويدي ليفوف من جديد.

... «ليس لنا إلا أن نقف شهودًا على العذاب الذي رفعها إلى مصاف القداسة. التلميذة التي تطلق على نفسها اسم ريتا كوهن». لقد كانوا يسخرون منه. لا بد أنهم يسخرون. هذا لأن الشيء الوحيد الأكثر سوءًا من أن يكون هذا كله مزاحًا شريرًا هو ألا يكون مزاحًا شريرًا. ابنتك مقدّسة. ابنتي هي أي شيء، وهي كل شيء، ولكن. إنها تائهة مجروحة شديدة الهشاشة... من غير أمل! لماذا قلتِ لها إنني ضاجعتك؟ ولماذا تقولين لي إنها أرادت منك فعل ذلك؟ تقولين هذه الأشياء لأنك تكرهيننا. وأنت تكرهيننا لأننا لا نفعل أشياء من هذا القبيل. أنت لا تكرهيننا لأننا مجانين متهوّرون، بل لأننا عاقلون متروّون مجدّون في عملنا نقبل الالتزام بالقانون. تكرهيننا لأننا لم نفشل. تكرهيننا لأننا عملنا بجد واستقامة حتى نصير أحسن الناس في هذا المجال، ولأننا صرنا ميسورين نتيجة ذلك. هذا ما يجعلك تحسديننا وتكرهيننا وتتمنين تدميرنا. هذا ما جعلك تستغلّينها. طفلة متأتئة في السادسة عشرة من عمرها. لا... ما من شيء قليل الأهمية في ما يخصّ جماعتك. لقد جعلتم منها «ثورية» مليئة بأفكار عظيمة ومُثُل فكرية سامية. يا أبناء العاهرة! أنتم مستمتعون بمشهد خرابنا. أبناء حرام جبناء! لم تستعبدها الكليشيهات، بل أنتم من استعبدها بالشعارات الكبيرة الضحلة... تلك الطفلة الحانقة، وتأتأتها التي تكره الظلم، لم يكن لديها أي شيء يحميها. لقد جعلتموها مؤمنة بأنها مثل الناس المسحوقين... حوّلتموها إلى ضحية لكم، إلى مستضعفة لديكم. مات الدكتور فرد كونلون نتيجة ذلك. كان هو الشخص الذي أقدمتم على قتله حتى توقفوا الحرب: رئيس أطباء المستشفى في مدينة دوفر؛ الرجل الذي أقام في كل مستشفى محلي صغير وحدة للأمراض القلبية فيها ثمانية أسِرّة. تلك كانت جريمته.

بدلًا من إقدامكم على ذلك التفجير في منتصف الليل عندما تكون القرية خالية، انفجرت تلك القنبلة - إما على نحو مخطط له أو نتيجة غلطة - عند الساعة

الخامسة صباحًا، قبل ساعة واحدة من بدء المتجر عمله، في تلك اللحظة نفسها التي أسقط فيها د. فرد كونلون في صندوق البريد مغلفات فيها شيكات لتسديد فواتيره المنزلية بعد أن حرّرها على مكتبه في الليلة الفائتة. كان في طريقه إلى المستشفى. أصابت مؤخر جمجمته قطعة معدنية طارت من المتجر.

كانت داون تحت تأثير الأدوية المهدئة فلم تستطع رؤية أحد. لكن السويدي ذهب إلى بيت روس وميري هاملين وعبّر عن تعاطفه معهما إزاء ما أصاب المتجر، وقال لهاملين إن ذلك المتجر كان يعني الكثير لداون وله، وإنه كان جزءًا من حياتهما مثلما كان جزءًا من حياة أي شخص في القرية. ذهب بعد ذلك إلى سهرة وداع الفقيد - في التابوت، بدا د. كونلون حسن المظهر، لطيف الوجه كعهده دائمًا. وفي الأسبوع الذي أعقب ذلك، بعد أن رتب طبيبهما أمر ذهاب داون إلى المستشفى، مضى السويدي وحده لكي يزور أرملة كونلون. وأما كيف أفلح في الذهاب إلى بيت تلك المرأة لتناول الشاي عندها فهي قصة أخرى - بل هي قصة تعادل كتابًا آخر - لكنه فعلها، تمكن من فعلها، فقدّمت له المرأة الشاي رابطة الجأش بينما راح يقدّم تعازي أسرته بكلمات راجعها في ذهنه خمسمئة مرة لكنها ظلّت غير مناسبة عند نطقها، بل ظلّت أكثر خواء من تلك الكلمات التي قالها لروس وميري هاملين: «أسف صادق عميق... الألم الذي أصاب أسرتك... تريد زوجتي أن تعرفي أن...». بعد إصغائها إلى كل ما أراد قوله، أجابته السيدة كونلون بصوت هادئ معربة عن موقف شديد اللطف والوداعة والتعاطف جعل السويدي يود أن يختفي، يود أن يختبئ كما يختبئ الطفل، لكنه أحسَّ في الوقت نفسه دافعًا يكاد يكون طاغيًا إلى أن يرمي بنفسه عند قدميها، ويظل هناك إلى الأبد متوسّلًا صفحها وغفرانها. كانت تقول له: «أنتما والدان جيدان. وقد ربّيتما ابنتكما بأحسن ما استطعتما. هذه ليست غلطتكما؛ ولست أحمل لكما أية ضغينة. لم تذهبا لشراء الديناميت. لم تصنعا تلك القنبلة. لم تزرعا تلك القنبلة. لم تكن لكما أية علاقة بتلك القنبلة. وإذا اتضح، كما يبدو الآن، أن ابنتكما هي الشخص المسؤول حقًا، فسوف أعتبرها مسؤولة وحدها عن ذلك. إنني حزينة عليك يا سيد ليفوف. لقد فقدت زوجي؛ وفقد أطفالي والدهم. لكنكما

فقدتما ما هو أكثر من ذلك. أنتما أبوان فقدا طفلتهما. لن يمر يوم من غير أن أفكّر بكما وأدعو لكما في صلاتي». كان السويدي على معرفة بسيطة بالدكتور فرد كونلون، وذلك من خلال حفلات الكوكتيل واللقاءات الخيرية التي كان كل منهما يجد فيها نفسه ضجِرًا. لكنه كان على معرفة حسنة بسمعته: رجل يمنح أسرته ومستشفاه اهتمامه بالقدر نفسه من الإخلاص؛ رجلٌ طيّبٌ مجدٌّ في عمله. وفي ظل إدارته، بدأ المستشفى التخطيط لبناء أقسام جديدة هي الأولى منذ إنشائه. وفضلًا عن الوحدة الجديدة للأمراض القلبية، شهد المستشفى في عهده تحديث مرافق الإسعاف التي كانت متقادمة. لكن، من عساه يبالي بمرافق الإسعاف في مستشفًى محلّي في منطقة ريفية؟ ومن عساه يبالي بمتجر ريفي يديره مالكه منذ سنة 1921؟ نحن نتحدّث عن البشرية كلها! فأين جرى تقدّم للبشرية من غير بعض الأخطاء والحوادث المؤسفة؟ الناس غاضبون؛ وقد تكلّموا! وسوف يقابَل العنف بالعنف بصرف النظر عن العواقب إلى أن يتحرّر الشعب! خسرت أميركا الفاشية مركزَ بريدٍ تم تدميره كله.

لكن حقيقة الأمر هي أن متجر هاملين لم يكن مركز بريد أميركيًا رسميًا، ولم يكن هاملين وزوجته موظفين لدى البريد الأميركي. لم يكن لديهما أكثر من مركز بريدي متعاقد - مقابل كمية من الدولارات - على تقديم بعض الخدمات البريدية الجانبية. لم يكن متجر هاملين مؤسسة حكومية بأكثر من مكتب المحاسب الذي يذهب إليه أي شخص لإعداد تصريحه الضريبي. لكن هذه ليست أكثر من تفاصيل فنية في نظر الثوريين العالميين. تم تدمير الهدف! وصار سكان أولد ريمروك البالغ عددهم ألف ومئة شخص مرغمين، طيلة سنة ونصف السنة، على قيادة السيارة خمسة أميال من أجل شراء ما يلزمهم من طوابع ومن أجل وزن طرودهم البريدية أو إرسال أي بريد مسجَّل. وهذا ما يجعل الرئيس ليندون جونسون يعرف حجمه الحقيقي!

لقد كانوا يسخرون منه. كانت الحياة تسخر منه.

لقد قالت له السيدة كونلون: «أنتما من ضحايا هذه المأساة، مثلنا. الاختلاف هو أن أسرتنا سوف تستمر أسرةً على الرغم من أن التعافي سيستغرق زمنًا. سوف

نستمر ونظل أسرة متحابّة. سنستمر، وستستمر معنا ذكرياتنا سليمة تساندنا وتعيننا. لن يكون فهم شيء عديم المعنى إلى هذا الحد سهلًا علينا؛ ولن يكون سهلًا عليكما. لكننا سنبقى الأسرة نفسها التي كانت عندما كان فرد معنا، وسوف نعيش».

تلك القوة وذلك الوضوح اللذان ألمحت بهما إلى أن أسرة السويدي لن تكون قادرة على الاستمرار، جعلاه يتساءل في الأسابيع الذي تلت ذلك، عما إذا كان لطفها وتعاطفها شاملين حقيقيين مثلما أراد أن يعتقد أول الأمر.

لم يذهب لرؤيتها بعد ذلك.

أخبر سكرتيره بأنه سيذهب إلى نيويورك ليزور البعثة الدبلوماسية التشيكية، التي زارها سابقًا، وأجرى فيها مناقشة أولية لاحتمال قيامه برحلة إلى تشيكوسلوفاكيا في وقت لاحق من ذلك الخريف. لقد تفحّص في نيويورك نماذج قفازات، ونماذج أحذية وأحزمة ومحافظ جيب مصنوعة في تشيكوسلوفاكيا. إن التشيكيين يطرحون عليه الآن خططًا لزيارة مصانع في برنو وفي براتسلافا حتى يرى صناعة القفازات بنفسه، ويتفحّص بشكل أفضل نماذج من عملهم أثناء إنتاجها وبعد خروجها من المصنع. لم يعد هناك مجال للتساؤل عمّا إذا كانت الصناعة التشيكوسلوفاكية قادرة على الإنتاج بأسعار أرخص من الأسعار في نيوارك وفي بورتوريكو؛ بل من الممكن أيضًا أن تكون تلك المنتجات أكثر جودة. بدأ تراجع المهارة الحرفية في مصنع نيوارك منذ حوادث الشغب، ولا يزال هذا التهدور مستمرًا. خاصة بعد تقاعد فيكي التي كانت مشرفة على قاعة التصنيع. وحتى إذا أخذ في الاعتبار أن ما رآه في مقر البعثة التشيكية لا يقدّم صورة صادقة عن الإنتاج اليومي، فقد كان ما رآه هناك مثيرًا للإعجاب بالقدر الكافي. في ما مضى، في الثلاثينات، أغرق التشيكيون السوق الأميركية بقفازات فاخرة. وعلى مر السنين، اشتغل لدى شركة نيوارك ميد عدد من عمال القص التشيكيين الممتازين. وكان فيها ميكانيكي تشيكي أمضى ثلاثين عامًا في العناية بآلات الخياطة في الشركة، فحافظ على «أحصنة العمل» تلك في أحسن حال: كان يستبدل المحاور المهترئة، والعتلات، والصفائح، والمكوكات، ويضبط

توقيت كل آلة ومقدار شد الخيط فيها. كان ذلك العامل تشيكيًا؛ وكان عاملًا رائعًا خبيرًا بكل ما في الدنيا من آلات خاصّة بصناعة القفازات. كان قادرًا على إصلاح كل شيء. ومع أن السويدي كان قد أكّد لأبيه أنه لا يعتزم أبدًا توقيع أية عقود خاصة بأعمالهم مع حكومة شيوعية قبل أن يعود حاملًا صورة متكاملة عن الوضع هناك، فقد كان واثقًا من أن الخروج من نيوارك قد صار مسألة وقت، لا أكثر.

بحلول هذا الوقت، كانت داون قد انتهت من عملية الحصول على وجه جديد، وكانت قد بدأت عودتها المفاجئة إلى الحياة. وأما ميري... حسنًا، ميري العزيزة، ميري الحبيبة، طفلتي الغالية الوحيدة ميري... كيف يمكن أن أبقى في سنترال آفنيو وأصارع من أجل مواصلة الإنتاج، وأتلقّى الضربات التي أتلقاها هنا من السود الذين ما عادوا مبالين أبدًا بجودة منتجاتي - أشخاص مهملون؛ أشخاص يبتزونني لمعرفتهم بأنه لم يبق في نيوارك من يمكن تدريبه لكي يحلّ محلّهم - لم أترك سنترال آفنيو لخوفي من أن تتّصلي معي وتقولي لي إنني عنصري وإنك لن تريني بعد الآن؟ انتظرت هذا الانتظار كلّه حتى أراك من جديد؛ وانتظرتْ أمك؛ وانتظر جدُّك وجدتك أيضًا. كنا ننتظرك جميعًا، أربعًا وعشرين ساعة من كل يوم، من كل سنة، طيلة خمس سنين، حتى نراكِ، أو حتى يصلنا خبر منك، أو حتى يأتينا أحد بكلمة منك، وما عدنا قادرين على تأجيل حياتنا أكثر من هذا. إننا في سنة 1973. صارت أمك امرأة جديدة. إن كان لنا أن نستأنف الحياة مرة أخرى، فعلينا أن نبدأ الآن.

إلا أنه ما كان ينتظر أن يرحّب به القنصل البشوش في مقر البعثة التشيكية وأن يقدّم إليه كأسًا من شراب سليفوفيتس (كما سيظنّ أبوه أو زوجته إذا حدث أن اتصل أحدهما بمكتبه سائلًا عنه)، فقد كان مقر القنصلية مقابل مستشفى القطط والكلاب في جادة نيو تيرسي ريلرود، على مسافة عشر دقائق بالسيارة من مصنع نيوارك ميد.

عشر دقائق فقط! طيلة تلك السنوات كلها! سنوات في نيوارك نفسها! كانت ميري تعيش في المكان الوحيد في العالم الذي لا يمكن أبدًا أن يحزره لو أتيحت

له ألف فرصة لأن يحزر. فهل كان ينقصه الذكاء، أم أنها كانت استفزازية جدًّا، شاذّة جدًّا، مجنونة جدًّا إلى حدٍّ يجعله غير قادر على تخيّل شيء مما قد تفعله؟ هل كان قاصر المخيّلة أيضًا؟ أيُّ أب يمكن ألا يكون قاصر المخيّلة؟ كان ذلك أمرًا غير معقول. ابنته تعيش في نيوارك، وتعمل في هذا الشارع، وليست في نهاية حي آيرون باوند حيث كان البرتغاليون يستولون على شوارع داون نِك الفقيرة، بل هنا في أقصى الناحية الغربية من آيرون باوند، في ظل جسر السكة الحديدية الذي يحجب ريلرود آفنيو عن الناحية الغربية من الشارع. كانت تلك التحصينات الكالحة هي سور المدينة الصيني: جلاميد من الصخر البنّي مكومة على ارتفاع عشرين قدمًا، متواصلة على طول مسافة تتجاوز ميلًا كاملًا، لا يقطعها إلا عدد قليل من أنفاق العبور السفلية القذرة. على طول هذا الشارع المنسي الذي صار الآن منذرًا بالشؤم كأي شارع في أية مدينة أميركية متداعية، كان هناك امتداد طويل لجدار غير محروس خالٍ حتى من الرسوم والكتابات الجدارية. وفي ما عدا الأعشاب والنباتات البرية الذاوية التي أفلحت في الانبثاق حزمًا نحيلة حيث تشقّق الملاط وتساقط، فقد كان الجدار خاليًا من أي شيء إلا التأكيد على الصراع المديد الظافر الذي خاضته هذه المدينة الصناعية المتعبة لكي تخلِّد بشاعتَها بهذا النصب التذكاري.

كانت المصانع القاتمة القديمة قائمة على الناحية الشرقية من الشارع - مصانع منذ زمن الحرب الأهلية، مصاهر الحديد، مصانع النحاس، بنايات صناعية ثقيلة سوّدها الدخان الذي ضختته مداخنها مئة سنة -. الآن، صارت هذه المصانع من غير نوافذ، ومُنع ضوء الشمس من دخولها بجدران من الحجارة والملاط، وسُدّت مداخلها ومخارجها بكتل كبيرة. تلك هي المصانع التي كان الناس يفقدون فيها أصابعهم وأذرعهم، وتنهرس أقدامهم، وتحرق وجوههم. إنها حيث كان الأطفال في ما مضى يعملون في الحر وفي البرد. مصانع القرن التاسع عشر التي كانت تطحن الناس وتنتج السلع صارت الآن قبورًا مختومة، منيعة. نيوارك هي المدفونة هناك... مدينة لن تتحرّك بعد الآن. إنها أهرامات نيوارك: ضخمة، داكنة، منيعة إلى حد مخيف، كأن لها كلّ الحقّ في أن تكون صروح مدافن

سلالة حاكمة عظيمة.

لم يعبُر المشاركون في حوادث الشغب من تحت سكة الحديد المرفوعة هنا. لو عبروا، لكانت هذه المصانع - كتلة المصانع كلّها - قد صارت الآن أنقاضًا محترقة مثلما حل بمصانع شارع ويست ماركت خلف شركة نيوارك ميد.

كان أبوه يقول له: «الحجر البنّي والقرميد. كان ذلك قطاعًا مزدهرًا. إن مقالع الحجر البنّي موجودة هنا. هل تعرف هذا؟ إنها خلف بيلفيل، إلى الشمال، على امتداد النهر. إن في هذه المدينة كل شيء. لا بد أن ذلك العمل قد كان مزدهرًا حقًّا. ذلك الشخص الذي كان يبيع الحجر البنّي والقرميد في نيوارك... كان في أحسن حال».

في صباحات أيام الأحد، كان السويدي يذهب بالسيارة إلى منطقة داون نِك مع أبيه لاستلام حصيلة الأسبوع من القفازات المنتهية من العائلات الإيطالية التي تعمل بالقطعة في بيوتها. وبينما تمضي السيارة مترجرجة في تلك الشوارع المرصوفة بالحجارة فتجتاز بيوت المزارع الصغيرة الفقيرة بيتًا بعد بيت، كان جسر السكة الحديدية الضخم يظل ظاهرًا بشكل متقطّع. إنه لن يزول! كانت تلك مقابلة السويدي الأولى مع ذلك الجسم الضخم الذي صنعته يد البشر، الجسر الذي يقسم المكان نصفين ويجعل كل ما عداه يبدو قزمًا صغيرًا. كان مخيفًا له أول الأمر، للطفل الحساس لبيئته حتى منذ ذلك الوقت مع ميل إلى تقبل تلك البيئة وإلى جعلها تتقبّله أيضًا. كان عمره ست سنوات،

- 5 -

1 أيلول 1973

عزيزي السيد ليفوف،

تعمل ميري في مستشفى قديم للكلاب والقطط في جادة ويلرود في نيوجرسي، في حي آيرونباوند في نيوارك. إنه المبنى رقم 115، جادة ويلرود، على مسافة خمس دقائق من محطة بِن. تكون موجودة هناك كل يوم. إذا انتظرتها أمام البناء في الخارج، يمكنك أن تراها خارجة من العمل عائدة إلى البيت في الساعة الرابعة بعد الظهر. هي لا تعرف أنني أكتب إليك هذه الرسالة. لقد بلغت أقصى

احتمالي، ولم أعد أستطيع المواصلة. أريد أن أذهب بعيدًا، لكني لا أستطيع تركها من غير أحد. عليك أن تتولّى أمرها بدلًا مني. لكني أحذرك من أن تعرف ميري أنك اكتشفت مكانها عن طريقي، لأن هذا سوف يسبب لها أذًى جدّيًا. إنها روح استثنائية. لقد غيرت كل شيء في حياتي. لقد انغمستُ في هذا الأمر انغماسًا تامًا لأنني لم أستطع مقاومة سلطانها. عندما أقول لك إنني لم أفعل أي شيء ولم أقل أي شيء غير ما طلبت مني ميري قوله أو فعله، فعليك أن تصدقني. إنها قوة طاغية. أنت وأنا كنا في مركب واحد. لم أكذب عليها إلا مرة. كذبت بشأن ما حدث بيننا في الفندق. لو قلت لها إنك رفضت مضاجعتي، لرفضت أن تأخذ المال. ولو حدث ذلك، لعادت تتسوّل في الشوارع. وما كان يمكن أبدًا أن أجعلك تعاني تلك المعاناة لولا أن أعانني حبي الشديد لميري.

سوف يبدو لك هذا أمرًا جنونيًّا. وأنا أقول لك إنه جنوني. ابنتك إنسانة سماوية. لا يستطيع المرء أن يكون في حضرة معاناة كتلك المعاناة من غير أن يرضخ لسلطانها المقدّس. أنت لا تعرف كم كنتُ شخصًا نكرة قبل أن ألتقي ميري. كنت في سبيلي إلى العدم. لكني ما عدت الآن قادرة على احتمال المزيد. عليك ألا تذكرني أمام ميري إلا بصفتي شخصًا عذَّبك، مثلما فعلتُ بالضبط. لا تأتِ على ذكر هذه الرسالة إن كان بقاء ميري على قيد الحياة أمرًا مهمًا لك. عليك أن تتّخذ كل احتياط لازم قبل الذهاب إلى المستشفى. لن تعيش ميري إذا أمسك بها عناصر الـ«إف بي آي». صار اسمها ميري ستولتز. يجب تركها تسير خلف قدرها. ولا يمكننا إلا أن نقف شهودًا على العذاب الذي جعلها مقدّسة.

التلميذة المخلصة التي تدعو نفسها ريتا كوهن.

لم يكن قادرًا أبدًا على توقّع الشيء غير المتوقع. يظلّ الشيء غير المتوقّع منتظرًا هناك، غير ظاهر، ويظل يتخمّر وينضج طيلة ما بقي من حياته، يظلّ جاهزًا للانفجار، يظلّ بعيدًا ميليمترًا واحدًا فقط خلف كل شيء آخر. كان الشيء غير المتوقّع كل شيء آخر من الجانب الآخر. لقد فارق السويدي كل شيء، ثم أعاد صنع كل شيء، ثم بات عليه الآن، بعد أن بدا له أن كل شيء قد عاد تحت سيطرته، أن يفارق كل شيء من جديد. وإذا كان لذلك أن يحدث، فإن الشيء

غير المتوقّع يصير هو الشيء الوحيد الذي...
الشيء، الشيء، الشيء... لكن، ما الكلمة الأخرى التي يمكن احتمالها؟ لا يمكنهما أن يظلا دائمًا أسيرَيْ هذا الشيء الملعون! ظل خمس سنين ينتظر رسالة كهذه... كان عليها أن تصل. وكان يدعو الرب عندما يستلقي في سريره كل ليلة أن يجعل تلك الرسالة تأتي في صباح اليوم التالي. وفي سنة التحوّل المدهشة هذه، سنة 1973، السنة التي شهدت أعجوبة داون، وخلال هذه الشهور التي انكبّت فيها داون على تصميم بيتهما الجديد، كان قد بدأ يخاف مما قد يجده في صندوق الرسائل عندما يأتي الصباح، ويخاف كلما رفع سماعة الهاتف. كيف يمكنه أن يسمح بعودة الشيء غير المتوقّع إلى حياتهما الآن بعد أن أفلحت داون آخر الأمر في أن تبعد عن حياتهما - إلى الأبد - استحالة كل ما حدث؟ كانت إعادة زوجته إلى نفسها شيئًا أشبه بأن يطيرا عبر عاصفة طالت خمس سنين. لقد وفى بكل ما هو مطلوب منه. لم يتأخّر عن فعل أي شيء من أجل تخليصها من ذعرها. وقد عادت الحياة الآن إلى شيء يشبه الأبعاد المعروفة للحياة. إذًا، مزّقْ هذه الرسالة وارم بها بعيدًا. تظاهر بأنها لم تصلك أبدًا.

كان السويدي قد توصّل إلى قبول أن الضرر الذي وقع كان ضررًا دائمًا، وأن زوجته ما عادت قادرة على مواصلة الحياة من غير إشراف الأطباء النفسيين ومن غير تناول المهدّئات ومضادات الاكتئاب، وذلك بعد إقامتها مرتين في مستشفى قريب من برينستون نتيجة إصابتها باكتئاب شديد كاد يصل بها إلى الانتحار. صار مقتنعًا بأنها سوف تمضي حياتها داخلة إلى المستشفيات النفسية، خارجة منها، وبأنه سيظلّ يزورها في تلك الأماكن طيلة ما بقي من عمريهما. صار يتخيّل أنه سيجد نفسه، مرة أو مرتين في السنة، جالسًا إلى جانب سريرها في غرفة ليس لبابها قفل. ستكون في مزهرية على طاولة المكتب زهور أرسلها إليها، وعلى طوار النافذة، ستكون نباتات اللبلاب التي جلبها لها من مكتبها متصوّرًا أنها قد تعينها في العودة إلى الاهتمام بشيء ما. على الطاولة إلى جانب سريرها صور في إطاراتها، صور له ولميري ولوالدَي داون ولأخيها. وعلى

حافة سريرها، سيكون هو نفسه جالسًا ممسكًا بيدها وهي مستندة إلى الوسائد مرتدية بنطلون جينز ليفايز وكنزة كبيرة ذات ياقة مدوَّرة. إنها تبكي وتقول: «أنا خائفة يا سايمور. أنا خائفة طوال الوقت». سيكون جالسًا إلى جانبها، صابرًا، كلما بدأت ترتجف، فيقول لها أن تهدأ وتتنفّس، أن تتنفّس ببطء - شهيق وزفير - وأن تفكّر في أحب مكان تعرفه في الدنيا... أن تتخيّل نفسها في أهدأ مكان رائع في العالم كلّه، على شاطئ استوائي، أو على جبل جميل، أو في عطلة في الطبيعة أيام طفولتها... سوف يفعل هذا حتى عندما يكون ارتجافها ناتجًا عن شدة انفعالها وهي توبّخه. ستكون جالسة على السرير عاقدة ذراعيها على بطنها كما لو أنها تدفّئ نفسها. ستخبّئ جسدها كلّه داخل كنزتها... ستجعل الكنزة خيمة بأن ترفع ياقتها فوق ذقنها وتشدّ ظهرها تحت ردفيها وتجذب مقدمتها من فوق ركبتيها المثنيتين حتى تغطّي ساقيها وتثبت نهاية الكنزة تحت قدميها. كثيرًا ما كانت تجلس «في خيمة» على هذا النحو طيلة وقت وجوده هناك. «هل تعرف متى كنت في برينستون آخر مرة؟ إنني أتذكّر هذا! دعاني حاكم الولاية إلى برينستون، إلى عزبته. هنا إلى برينستون؛ إلى عزبته. لقد تناولت طعام العشاء في عزبة الحاكم. كنت في الحادية والعشرين. وكنت مرتدية فستان سهرة. كنت خائفة حتى الموت. أتى بي سائقه حتى إليزابيث. كان التاج على رأسي عندما رقصت مع حاكم ولاية نيوجرسي... فكيف حدث هذا؟ كيف صرت حبيسة هذا المكان؟ إنه أنت... أنت هو السبب! لم ترد أن تتركني وشأني! كنت مصمّمًا على أخذي! كنت مصمّمًا على الزواج مني! لم أكن أريد شيئًا غير أن أصير معلمة. هذا ما أردته. كانت لدي وظيفة. كانت الوظيفة في انتظاري. ما كنت أريد شيئًا غير تعليم الأطفال الموسيقى في مدارس إليزابيث وأن يبتعد عني الشباب... هذا كل شيء. لم أرد أبدًا أن أصير ملكة جمال أميركا! لم أرد أبدًا أن أتزوّج أي شخص! لكنّك لم تكن تتركني أتنفّس... لم تكن تتركني أغيب عن نظرك. لم أكن راغبة في شيء غير إتمام دراستي في الكلية والحصول على تلك الوظيفة. ما كان يجب أن أترك إليزابيث أبدًا! أبدًا! هل تعرف ما فعله لقب ملكة جمال نيوجرسي بحياتي؟ لقد دمّرها! مضيت ساعية

من أجل تلك المنحة الدراسية حتى يتمكّن داني من الذهاب إلى الكلية، وحتى لا يكون أبي مضطرًا إلى دفع المال. أتظنّني كنت سأشارك في مسابقة ملكة جمال مقاطعة يونيون لو أن تلك الأزمة القلبية لم تصب أبي؟ لا. كنت أريد الفوز بتلك النقود حتى يستطيع داني الذهاب إلى الكلية من غير أن يكون ذلك عبئًا ثقيلًا على أبي. لم أكن أفعل ذلك حتى يلاحقني الشباب في كل مكان... كنت أحاول مساعدة أسرتي! ثم أتيت أنت. أنت! هاتان اليدان! وهاتان الكتفان! طول قامتك، وخط حنكك! هذا الحيوان الضخم الذي لم أستطع الخلاص منه. لم تكن لتتركني أتخلّص منك! كلما رفعت رأسي ونظرت أرى صديقي الذي يحبّني، أراه مذهولًا لأنني كنت ملكة الجمال السخيفة! وأنت كنت كأنك طفل! كنت تريد أن تجعلني أميرة. حسنًا، انظر الآن أين انتهى بي الأمر! في مستشفى للمجانين! صارت أميرتك في مستشفى المجانين!

ستمر سنوات تمضيها كلها في التساؤل عما حدث لها، وكيف حدث لها، وفي لومه على ذلك. وكان يجلب لها ما تحبّه من طعام وفاكهة وسكاكر وحلوى آملًا أن تتناول شيئًا غير الخبز والماء. كان يجلب لها المجلات آملًا في أن تتمكّن من التركيز على القراءة ولو نصف ساعة في اليوم. كان يأتي لها بملابس يمكنها ارتداؤها عندما تتجوّل في أرجاء المستشفى حتى تكون ملائمة للطقس عند تغيّر الفصول. في الساعة التاسعة من مساء كل يوم، كان يضع في خزانتها ما جلبه لها، ثم يحتضنها ويقبّلها مودعًا، يحتضنها ويقول لها إنه سيراها في الليلة التالية، ثم يقود سيارته ساعة في الظلام عائدًا إلى أولد ريمروك متذكّرًا الذعر في وجهها عندما تطلّ الممرضة برأسها من الباب قبل خمس عشرة دقيقة من انتهاء وقت الزيارة، فتخبر السيد ليفوف بلطف إن وقت ذهابه قد اقترب.

ثم تصير غاضبة من جديد في الليلة التالية. لقد حرفها عن طموحاتها الحقيقية. وقد كان هو ومسابقة ملكة جمال أميركا من السبب في إبعادها عن برنامجها. كانت تتكلّم وتتكلّم، وما كان قادرًا على إيقافها. لم يكن يحاول إيقافها. ما علاقة أي شيء مما كانت تقوله بالسبب الحقيقي لمعاناتها؟ كان الجميع مدركًا أن ما حطّمها كان أمرًا كافيًا في حدِّ ذاته، وأن ما تقوله لا علاقة له بأي شيء. عندما

ذهبت إلى المستشفى أول مرة، كان يكتفي بالذهاب إليها، وبالإيماء برأسه. كم كان غريبًا سماعها تتحدّث بذلك الغضب كلّه عن مغامرة يعلم علم اليقين أنها كانت مستمتعة بها إلى أقصى حد. بل كان يفكّر أحيانًا في أن من الأفضل لها أن تلقي باللائمة في مشكلتها على ما حدث لها في سنة 1949، لا على ما حدث لها في سنة 1968. «خلال المدرسة الثانوية كلّها، كان الناس يقولون لي: ‘يجب أن تكوني ملكة جمال أميركا’. لكني كنت أرى ذلك أمرًا سخيفًا. فعلى أي أساس يجب أن أكون ملكة جمال أميركا. لقد كنت موظفة في متجر للملابس أعمل فيه بعد المدرسة. وأعمل فيه خلال الصيف. كان الناس يأتون إلي وأنا جالسة خلف صندوق المحاسبة فيقولون: ‘يجب أن تكوني ملكة جمال أميركا’. لم أكن أحتمل سماع هذا. لم أكن أحتمل سماع الناس يقولون لي إن علي أن أفعل شيئًا ما بسبب مظهري. لكني تلقّيت اتصالًا من إدارة مسابقة جمال مقاطعة يونيون. دعوني إلى حفلة شاي، فما الذي أستطيع فعله؟ لقد كنت طفلة. ظننت أن هذه طريقة تسمح لي بجني بعض المال حتى لا يظلّ أبي مضطرًا إلى العمل كثيرًا. وهكذا ملأت استمارة الطلب وذهبت إلى ذلك اللقاء. وبعد أن انصرفت الفتيات جميعهنّ، أتت تلك المرأة ووضعت ذراعها على كتفي وقالت للجيران كلهم: ‘أريد إخباركم بأنكم قد أمضيتم الأمسية مع ملكة جمال أميركا القادمة’؛ فقلت في نفسي: ‘هذا سخيف جدًّا. لماذا يصر الناس على قول هذه الأشياء لي، لا أريد أن أفعل هذا’. وعندما فزت بلقب ملكة جمال مقاطعة يونيون، بدأ الناس يقولون لي: ‘سوف نراك في أتلانتك سيتي’. كان أشخاص يعرفون ما يتحدّثون عنه يقولون إنني سأفوز بهذا الشيء، فكيف أستطيع التراجع؟ لم أكن قادرة على التراجع. كانت الصفحة الأولى من صحيفة إليزابيث جورنال مكرّسة كلّها لي وللقب ملكة جمال مقاطعة يونيون. أصابني ذلك بالذهول. لقد ذهلت. كنت أظن أنني أستطيع إبقاء الأمر كلّه سرًّا والاكتفاء بالحصول على المال. لكنّي كنت طفلة صغيرة لا تعرف شيئًا. كنت واثقة من أنني لن أفوز بلقب ملكة جمال نيوجرسي. كنت متأكّدة من هذا. كنت أنظر من حولي فأرى ذلك البحر من الفتيات الجميلات اللواتي يعرفن ما يجب فعله؛ أما أنا فلم أكن أعرف شيئًا؛ كن يعرفن استخدام

لفافات الشعر ووضع رموش اصطناعية؛ أما أنا فبقيت غير قادرة على لف شعري بالشكل الصحيح حتى منتصف مسابقة نيوجرسي. كنت أقول في نفسي: ‘أوه، يا إلهي! انظري إلى مكياجهن’. كانت لديهم خزائن من الملابس الجميلة، ولم يكن لدي غير فستان حفلة التخرج المدرسية وبضع قطع من الملابس المستعارة. وهكذا كنت مقتنعة بأن من المستحيل أن أفوز. كنت شديدة الانطواء على نفسي. وكنت ساذجة تمامًا. لكني فزت من جديد. وعندها، راحوا يدربونني على كيفية الجلوس وكيفية الوقوف، بل حتى على كيفية الإصغاء... أرسلوني إلى شركة لعارضات الأزياء حتى أتعلّم كيف أمشي. لم تعجبهم مشيتي. لم أكن أبالي بمشيتي... أمشي فحسب! لقد كانت مشيتي حسنة بما يكفي للفوز بلقب ملكة جمال نيوجرسي، أليس كذلك؟ وإذا كنت غير قادرة على المشي بطريقة تجعلني أفوز بملكة جمال أميركا، فإلى الجحيم بذلك كلّه! قالوا لي: لكن عليك أن تنسابي انسيابًا. لا! سوف أمشي مشيتي المعتادة! لا تهزّي ذراعيك كثيرًا، ولا تجعليهما متخشّبتين إلى جانبك. هذه الألاعيب الصغيرة حتى أصير منتبهة إلى نفسي تمامًا جعلتني غير قادرة على الحركة تقريبًا! يجب أن تكون خطوتك بحيث يلاقي مشطا قدميك الأرض، وليس عقباهما... هذه هي الأشياء التي كنت أعانيها. ليتني كنت قادرة على ترك هذا الشيء! كيف أستطيع أن أترك هذا الشيء؟ اتركوني وحدي! اتركوني وحدي كلّكم! لم أكن أريد هذا أصلًا! أترى الآن لماذا تزوّجتك؟ هل تفهم الآن؟ سبب واحد فقط! أردت شيئًا يبدو اعتياديًا! بعد تلك السنة كلّها، صارت لدي رغبة شديدة في شيء اعتيادي! كم أتمنّى لو أن هذا لم يحدث! أي شيء منه! يضعونك على قاعدة كأنك تمثال... شيء لم أسعَ إليه... ثم يجرّدونك من ذلك كلّه بسرعة تعمي عينيك! وأنا لم أكن ساعية إلى شيء من ذلك أبدًا! ليس لدي شيء ما يجمعني بتلك الفتيات الأخريات. كرهتهنّ، وكرهنني. تلك الفتيات الطويلات ذوات الأقدام الكبيرة! ما من واحدة موهوبة بينهن. كلّهنّ سخيفات! أنا كنت جدّية. كنت طالبة موسيقى! وما كنت أريد شيئًا غير أن يتركني الناس وشأني من غير أن أضع على رأسي ذلك التاج اللعين المتلألئ بجنون! لم أكن أريد شيئًا من ذلك أبدًا، أبدًا!».

كان عونًا كبيرًا له أثناء قيادته السيارة عائدًا إلى بيته بعد واحدة من تلك الزيارات أن يتذكّرها مثلما كانت حقًّا في تلك الأيام... يتذكّر كيف كانت فتاة لا تشبه أبدًا تلك الفتاة التي تصوّرها في أحاديثها اللائمة كلها. في شهر أيلول من سنة 1949، خلال الأسبوع الذي سبق مسابقة ملكة جمال أميركا، عندما كانت تتّصل به في نيوارك كل ليلة من فندق دينيز لكي تخبره عمّا جرى معها في ذلك اليوم باعتبارها واحدة من المتنافسات على اللقب... كان صوتها يشع سرورًا صافيًا لأنها وجدت نفسها هناك. لم يسمع صوتها هكذا قبل ذلك. كان ذلك شيئًا يكاد يكون مخيفًا، ذلك السرور الشديد الواضح بمكان وجودها وبما تفعله هناك. وعلى نحو مفاجئ، صارت الحياة كلها نشوة، صارت موجودة من أجل داون دواير وحدها. حتى هو، جعلته فجاءَة هذا التغيّر غير المألوف يتساءل إن كانت ستظلّ، بعد انقضاء ذلك الأسبوع، راضية بسايمور ليفوف! إذا خرجت من تلك المسابقة فائزة، فما فرصته مقابل أولئك الرجال جميعًا الذين وضعوا نصب أعينهم الزواج من ملكة جمال أميركا. سوف يلاحقها الممثلون، وسوف يلاحقها أصحاب الملايين. سوف يتقاطرون إليها جماعات... ستنفتح أمامها حياة قادرة على اجتذاب جمهور من الخاطبين الجدد الأقوياء فينتهي الأمر باستبعاده. على الرغم من هذا كلّه، وباعتباره الخاطب الحالي الوحيد، فقد كان مفتونًا باحتمال فوز داون؛ وكلما بدا ذلك الاحتمال حقيقيًا أكثر، كلما صارت لديه أسباب أكثر للقلق وللتوتر.

كانا يمضيان ساعة بكاملها على الهاتف في كل مرة على الرغم من أنها مكالمة لمسافة طويلة. كانت الإثارة تحرمها النوم في الليل، حتى بعد أن تمضي نهارًا حافلًا منذ الإفطار الذي كانت تتناوله في صالة الطعام مع مشرفتها فتجلس الاثنتان إلى الطاولة معًا. كانت تلك المشرفة امرأة محلّية ضخمة الجسم تعتمر قبعة صغيرة. وكانت داون تضع وشاح ملكة جمال نيوجرسي مثبتًا إلى فستانها بدبوس، وفي يديها قفازان باهظا الثمن من الجلد الرقيق الأبيض قُدِّما هدية لها من شركة نيوارك ميد حيث كان السويدي قد بدأ تدريبه لكي يتولى إدارتها. كانت الفتيات كلّهنّ ترتدين قفازات بيضاء من الجلد الناعم الرقيق على الطراز

نفسه - بطول أربعة أزرار، حتى ما فوق المعصم. لكن داون وحدها حصلت على قفازيها مجانًا، ومعهما زوج آخر من القفازات (قفازان أسودان من الجلد الرقيق الفاتح بستة عشر زرًا يصلان إلى المرفقين - من نوع القفازات الرسمية الذي تصنعه نيوارك ميد - قفّازان يبلغ ثمنهما ثروة صغيرة في متجر ساكس، قفّازان تولى قصّهما أكبر الخبراء في الشركة، من إيطاليا أو فرنسا، إضافة إلى زوج قفّازات ثالث طويل صنع خصّيصًا لكي يكون ملائمًا لفستان السهرة الذي لديها. كان السويدي قد طلب من داون ياردًا من قماش ذلك الفستان نفسه، ثم تولى صديق للعائلة متخصّص بالقفّازات النسائية القماشية، بصنع ذلك الزوج لداون مجاملة لشركة نيوارك ميد. كانت الفتيات تجلسن ثلاث مرات في اليوم، كل واحدة قبالة مشرفتها، معتمرات قبعات صغيرة فوق الشعر الجميل المسرّح بعناية، ومرتديات الفساتين الأنيقة اللطيفة والقفازات ذات الأزرار الأربعة فيحاولن تناول وجبات الطعام - أو تناول طبق من كل شيء - في زحمة توقيع الأوتوغرافات لكل المحتشدين في قاعة الطعام ممن جاءوا من أجل التحديق بالفتيات، ولكي يقول كل واحد شيئًا عن منبته. وبما أن داون كانت ملكة جمال نيوجرسي، وكان نزلاء الفندق من نيوجرسي، فقد كانت أكثر الفتيات شعبية وصار عليها أن تقول كلمة لطيفة لكل من يبتسم لها، وأن توقّع الأوتوغرافات وتحاول تناول شيء من الطعام في تلك الزحمة كلّها. كانت تقول له على الهاتف: «هذا ما عليَّ فعله. هذا ما يجعلهم يقدّمون لنا هذه الغرف المجانية في الفندق».

وضعوها عند وصولها إلى محطة القطار في سيارة صغيرة مكشوفة من طراز ناش رامبلر كتب عليها اسمها واسم ولايتها؛ وكانت مشرفتها معها في تلك السيارة أيضًا. كانت مشرفة داون زوجة تاجر عقارات محلّي. وكانت تلك المشرفة حريصة على الذهاب إلى كلِّ مكان تذهب إليه داون: صعدت إلى السيارة المكشوفة عندما صعدت إليها داون، ونزلت منها عندما نزلت منها داون. «إنها لا تفارقني أبدًا يا سايمور. وطيلة الوقت لا نرى أي رجل باستثناء الحكّام. لا يمكننا حتى أن نتحدث إلى أي رجل. أتى عدد من أصدقاء الفتيات. بل

إن بعضهم يكاد يكون مخنّثًا. لكن، ما معنى ذلك؟ لا يحقّ للفتيات رؤيتهم. لدينا كتاب للأنظمة... طويل جدًّا إلى حد يجعلني غير قادرة على قراءته كلّه». «لا يسمح بدخول الذكور للحديث مع المتسابقات إلا بحضور مشرفاتهنّ. ولا يجوز للمتسابقة في أي وقت أن تدخل ردهة الكوكتيل، ولا أن تشارك أحدًا تناول مشروب كحولي. ومن القواعد الأخرى أيضًا عدم السماح بوضع حشوات للفساتين'...». ضحك السويدي... «دعني أنهي كلامي يا سايمور... تستمرّ هذه القواعد من غير نهاية. 'ولا يجوز لأي شخص إجراء مقابلة مع واحدة من المتسابقات إلا إذا كانت مشرفتها موجودة لكي تحمي مصالحها'...».

لم تكن داون الفتاة الوحيدة التي حصلت على سيارة ناش رامبلر مكشوفة، فقد حصلت كل واحدة من الفتيات على سيارة مماثلة... لكن تلك السيارات لم تكن لهنّ. تصير الفتاة قادرة على الاحتفاظ بالسيارة إذا فازت بلقب ملكة جمال أميركا. وعند ذلك، تصير سيارتها هي السيارة نفسها التي تلوح منها للحشود بيديها عندما يدورون بها حول الملعب في واحدة من أهم مباريات كرة القدم الجامعية. لقد اعتمدوا سيارة رامبلر لأن «شركة جنرال موتورز» واحدة من الشركات الراعية للمسابقة.

عند وصولها، كان في الغرفة صندوق من حلوى فرالينغر الأصلية، ومعه باقة ورود. هذا ما حصلت عليه كل فتاة عند وصولها، فكان تحيّة لهنّ من الفندق. إلا أن ورود داون لم تتفتّح أبدًا. كما كانت الغرف التي وضعوا فيها الفتيات - الفتيات اللواتي نزلن في فندق داون نفسه، على الأقل - غرفًا صغيرة قبيحة واقعة في الجهة الخلفية. وأما الفندق نفسه - كما وصفته داون - متحمّسة - فكان واقعًا على تقاطع شارع بوردوك وجادة ميتشغان... فندق فخم يقيمون فيه كل يوم أمسية شاي حقيقية مع سندويتشات صغيرة، ويلعب نزلاء الفندق الذين يدفعون المال لعبة الكروكيت على العشب. إنهم النزلاء أنفسهم الذين حظوا بغرف كبيرة جميلة مطلّة على المحيط. كانت تعود مرهقة كل ليلة إلى غرفتها الخلفية القبيحة ذات ورق الجدران حائل اللون، فتتفقّد الورود لترى إن كانت تفتّحت، ثم تتصل بسايمور لتجيب عن أسئلته المتعلّقة بفرص فوزها.

كانت واحدة من الفتيات الأربع، أو الخمس، اللواتي واصلت صورهنّ الظهور في الصحف. وكان الكل يقول إن واحدة من تلك الفتيات ستكون هي الفائزة. كان أفراد جماعة مسابقة نيوجرسي واثقين من فوز فتاتهم، خاصّة عندما راحت صورها تظهر في الصحف كل صباح. قالت لسايمور: «أكره أن أخذلهم». فقال لها: «لن تخذليهم. سوف تفوزين». «لا، ستفوز هذه الفتاة من تكساس. أنا أعرف هذا. إنها جميلة جدًا. لها وجه مدوّر. ولها غمازة. ليست حسناء، لكنها جذّابة جدًّا، جدًّا. كما أنها شخصية عظيمة. أكاد أموت لشدة خوفي منها. إنها من بلدة بائسة صغيرة في تكساس... تتقن الرقص الإيقاعي... وسوف تفوز».
«هل هي تلك التي تظهر صورتها في الصحف مع صورتك». «دائمًا. تكون دائمًا واحدة من الفتيات الأربع، أو الخمس، اللواتي تنشر صورهنّ. إنني هنا لأننا في أتلانتك سيتي، ولأنني ملكة جمال نيوجرسي، ولأن الناس يرونني سائرة في الممر مرتدية وشاحي فيصيبهم الجنون. لكن هذا ما يحدث لملكة جمال نيوجرسي كل سنة. إلا أنها لا تفوز أبدًا. إن ملكة جمال تكساس تظهر في تلك الصحف لأنها ستفوز، يا سايمور».
كان الكاتب الصحافي الشهير إيرل ويلسون واحدًا من أعضاء لجنة التحكيم العشرة؛ وعندما سمع أن داون من إليزابيث، قيل إنه أخبر شخصًا ما أثناء استعراض المركبات المزيّنة (الذي كانت فيه داون مع اثنتين من الفتيات في مركبة تحمل اسم الفندق) أن عمدة إليزابيث، جوي بروفي، الذي استمر في منصبه زمنًا طويلًا كان واحدًا من أصدقائه. قال إيرل ويلسون هذا لشخص ما نقله بدوره إلى شخص آخر نقله إلى مشرفة داون. كان إيرل ويلسون وجوي بروفي صديقين قديمين... هذا كلّ ما قاله إيرل ويلسون، أو كلّ ما كان قادرًا على قوله في العلن. لكن مشرفة داون كانت واثقة من أنه قال هذا لأنه رأى داون على تلك المركبة المزيّنة في فستان السهرة، فصارت مرشّحته. قال السويدي: «حسنًا، لقد ضمنت واحدًا وبقي لديك تسعة. إنك سائرة في الطريق الصحيح يا ملكة جمال أميركا».
كان أكثر حديثها مع مشرفتها متركّزًا على من قد تكون منافستها في المسابقة.

ومن الواضح أن هذا كلّ ما كانت بقية الفتيات تتحدّث عنه مع المشرفات، وكل ما تتحدثن عنه عندما تتصلن بأهلهن؛ على الرغم من تظاهر كل واحدة منهنّ بأنها تحب البقية. قالت له داون إن فتيات الولايات الجنوبية خاصّة كن مولعات بالقول: «أوه، أنت رائعة جدًّا، وشعرك رائع جدًا...». كان على داون، بطبعها البسيط، أن تعتاد هذا التقديس للشعر؛ إذ إن من يصغي إلى الأحاديث الدائرة بين بقية الفتيات يمكن أن يعتقد بأن إمكانيات الحياة كامنة في الشعر، لا بين يدي قدر واحدة منهن، بل بين يدي شعر واحدة منهنّ.

ذهبت الفتيات مع مشرفاتهنّ في زيارة إلى منتزه «ستيل باير»، ثم تعشَّيْن سمكًا في مطعم وبار «كابتن ستار» الشهير المُقام على أحد اليخوت. وفي اليوم التالي، ذهبن أيضًا لتناول شرائح اللحم في مطعم «جاك كيشار». ثم التقطت صورة لهنّ صباح اليوم الثالث أمام «كونفنشن هول»، حيث قال لهنّ أحد المشرفين الرسميين على المسابقة إن عليهن الاحتفاظ بتلك الصورة بقية حياتهن، وإن الصداقة التي نشأت بينهنّ ستستمرّ ما بقين على قيد الحياة، وإن العلاقة بينهن ستظلّ متواصلة طيلة أعمارهن، وإن كل واحدة منهن سوف تطلق على بناتها - عندما يأتي ذلك الوقت - أسماء زميلاتها هنا. وإلى أن صدرت صحف صباح اليوم التالي، كانت الفتيات يقلن لمشرفاتهنّ «أوه، يا إلهي، لا أستطيع احتمال هذا. أوه، يا إلهي، يبدو لي أن تلك الفتاة هي التي ستفوز».

كانت لديهنّ تدريبات يومية. وكن يقدّمن عرضًا كل ليلة على امتداد الأسبوع كله. منذ سنين طويلة، يزور الناس مدينة أتلانتك سيتي من أجل مسابقة ملكة جمال أميركا فقط. وهم يشترون التذاكر لحضور تلك العروض الليلية ويأتون متأنّقين لرؤية الفتيات على المنصّة تستعرضن مواهبهنّ على انفراد، واحدة بعد أخرى، ثم تظهرن معًا في ملابس مخصّصة لتقديم وصلات موسيقية. قدّمت إحدى الفتيات أغنية «كلير دو نون» على البيانو في وصلتها المنفردة. واختارت داون أن تقدّم أغنية أكثر تألقًا، تلك الأغنية التي كانت في ذروة نجاحها آنذاك «إلى أن ينتهي الزمان» التي كانت موسيقاها تركيبة صالحة للرقص مأخوذة من مقطوعات البولونيز لشوبان. «كأنني صرت في عالم الاستعراضات

الغنائية. لا أتوقّف طيلة النهار. ليست لديَّ لحظة واحدة. يركّون عليَّ كثيرًا لأن نيوجرسي تستضيف المسابقة؛ وأنا لا أريد أن أخذل أحدًا... لا أريد ذلك حقًّا. لا أستطيع احتمال ذلك. يجيبها سايمور: «لن تخذليهم يا داون. لقد صار إيرل ويلسون في جيبك؛ وهو الأكثر شهرة بين أعضاء لجنة التحكيم جميعًا. لديَّ إحساس بأنك ستفوزين. بل إنني واثق من ذلك».

إلا أنه كان مخطئًا. لقد فازت ملكة جمال أريزونا. ولم تكن داون حتى ضمن العشر الأوائل. في تلك الأيام، كانت الفتيات ينتظرن في الكواليس خلال إعلان أسماء الفائزات. وكانت هناك صفوف خلف صفوف من المرايا والطاولات المرتّبة أبجديًا بحسب أسماء الولايات. كانت داون في الوسط تمامًا عند قراءة الأسماء الفائزة، فكان عليها أن تبدأ الابتسام والتصفيق كالمجنونة لأنها خسرت. وبعد ذلك - حتى تصير الأمور أسوأ من ذي قبل - كان عليها أن تعود إلى المنصّة وتسير مع بقية الخاسرات وتغنّي معهنّ أغنية ملكة جمال أميركا التي كانت معتمَدة في ذلك العهد. كانت أغنية لـ«إم سي بوب روسل» تقول كلماتها: «كل زهرة، وكل وردة، تنتصب واقفة على أطراف أصابعها، عندما تمر بها ملكة جمال أميركا!». كانت الفائزة باللقب فتاة قصيرة صغيرة الجسم داكنة الشعر مثل داون... جاك ميرسر من أريزونا. لقد فازت ميرسر في مسابقة ملابس السباحة، لكن داون لم تتوقّع أبدًا أن تفوز باللقب. استقبل الجمهور المحتشد في كونفنشن هول تلك الفائزة بعاصفة من التصفيق. وبعد ذلك، في حفلة الوداع، لم يبلغ اكتئاب داون ما بلغه اكتئاب بقية الفتيات على الرغم من إحساسها الشديد بالخذلان. لقد قال لها المعنيون بالمسابقة في نيوجرسي مثلما قال لهم الآخرون في الولاية: «سوف تنجحين. وسوف تكونين ملكة جمال أميركا». وهكذا، كانت حفلة الوداع أكثر شيء محزن رأته في حياتها. هكذا قالت له. «عليك أن تذهب وتبتسم لهم. ذلك أمر فظيع. أتوا بأولئك الأشخاص من حرس السواحل، أو من مكان ما... من أنابوليس. كانوا في بدلات رسمية بيضاء أنيقة مزيّنة بالبنود والشرائط. أظنّهم اعتبروهم مأموني الجانب إلى الحدِّ الكافي لأن يسمحوا لنا بالرقص معهم. وهكذا رقص كل واحد منهم مسندًا ذقنه

إلى كتف إحدى الفتيات ثم انتهت الأمسية وعادت الفتيات إلى بيوتهنّ.
على الرغم من ذلك كلّه، ظلت إثارة تلك المغامرة رافضة الموت شهورًا بعد ذلك، حتى عندما كانت داون تظهر بصفتها ملكة جمال نيوجرسي فتقصّ شرائط حريرية وتلوح بيديها للجمهور وتفتتح المتاجر الكبيرة ومعارض السيارات.
كانت تتساءل (بصوت مرتفع) إن كان سيمر في حياتها مرة أخرى وقت رائع غير متوقع كذلك الأسبوع الذي أمضته في أتلانتك سيتي. ظل الكتاب السنوي الرسمي لسنة 1949 الخاصّ بمسابقة ملكة جمال أميركا إلى جانب سريرها.
كان كتابًا صغير الحجم من إعداد لجنة المسابقة، واستمر بيعه طيلة ذلك الأسبوع في أتلانتك سيتي: صور فردية للفتيات، أربع صور في كل صفحة مع معلومات مختصرة عن كل فتاة وخريطة صغيرة لولايتها. كانت زاوية الصفحة التي حملت صورة ملكة جمال نيوجرسي مطوية إلى الخلف بأناقة... داون مرتدية فستان السهرة مع القفازين القماشيين الطويلين مبتسمة ابتسامتها الرزينة: «ماري داون دواير، 22 عامًا، إليزابيث، نيوجرسي، شعر داكن، أمل نيوجرسي في هذه المسابقة. خريجة كلية أوبسالا، إيست أورينج، نيوجرسي، حيث تخصصت في تعليم الموسيقى. طموح ماري داون هو أن تصير معلمة موسيقى في المدرسة الثانوية. الطول خمس أقدام وإنشان، عينان زرقاوان، هواياتها السباحة والرقص والطبخ. الصورة العليا إلى جهة اليسار». لم تكن تريد التخلّي عن حالة الإثارة التي لم تعش مثلها في حياتها، فظلّت تتكلّم من غير انقطاع عن تلك الأيام الخيالية بالنسبة إلى طفلة من هيلسايد رود، ابنة سَبّاك من هيلسايد رود، وقفت أمام أولئك الناس جميعًا وتنافست على لقب ملكة جمال أميركا. كانت شبه عاجزة عن تصديق الشجاعة التي أبدتها هناك. «أوه، تلك المنصّة، يا سايمور. إنها منصّة طويلة، ممر طويل... مسافة طويلة عليَّ أن أمشيها وأنا أبتسم فقط...».
في سنة 1969، عندما وصلت إلى أولد ريمروك دعوة لحضور لقاء الذكرى العشرين للفتيات المتنافسات على لقب ملكة جمال أميركا، كانت داون قد دخلت المستشفى للمرة الثانية منذ اختفاء ميري. كان ذلك في شهر أيار، وكان الأطباء

النفسيون مثلما كانوا في المرة الأولى، وكذلك الغرفة كانت جميلة مريحة. مناظر طبيعية بهيجة، وممرات أكثر جمالًا من ذي قبل، فقد تفتّحت أزهار التوليب من حول البيوت الصغيرة التي يقيم فيها المرضى، وكانت الحقول من حولها خضراء كلها... لا تقع العين إلا على مناظر جميلة جدًا... وبما أن تلك كانت هي المرة الثانية خلال سنتين، وكذلك لأن المكان كان جميلًا، ولأنهما وصلا في أول المساء قادمين مباشرة من نيوارك بعد أن جزّوا العشب في المستشفى ذلك النهار فصارت رائحة الهواء طازجة حادّة تذكّر برائحة الثوم الأخضر، فقد كان الأمر كلّه أسوأ بألف مرة. وهكذا، لم يجد نفسه قادرًا على جعل داون ترى تلك الدعوة إلى لقاء فتيات مسابقة ملكة جمال أميركا لسنة 1949. كانت الأمور سيئة بما فيه الكفاية من غير أي مزيد من إيقاظ ذكريات ملكة جمال نيوجرسي - كانت الأشياء التي تقولها له غريبة جدًا. وكانت تبكي من غير انقطاع حزينة على ما حلّ بها من عار وتدهور وعلى ضياع حياتها كلّها، فكان هذا كلّه محزنًا بما فيه الكفاية.

ثم... حدث التغيير. شيء ما جعلها تقرّر أن تصير راغبة في التحرر من غير المتوقّع ومن كل شيء مستبعَدٍ حدوثه. قرّرت أنها لن تقبل حرمانها من حياتها.

بدأت عملية التجدّد البطولية بأن قررت شد وجهها في «عيادة جينيفا» التي قرأت عنها في مجلة فوغ. رآها واقفة أمام مرآة الحمام قبل النوم، تشدّ جلد وجنتيها إلى الخلف ممسكة به بين إصبعيها، وتشد، في الوقت نفسه، جلد حنكها إلى الأعلى مستخدمة إبهامَيها. جمعت الجلد المتراخي كلّه بين أصابعها إلى حد زالت معه خطوط وجهها الطبيعية، فصارت ترى في المرآة وجهًا مشدودًا صقيلًا كأنه «بذرة» وجهها الأصلية. على الرغم من أن زوجها كان يرى بوضوح أنها قد بدأت تبدو، وهي في الخامسة والأربعين، كأنها في الخامسة والخمسين، وأن العلاج الذي تقترحه مجلة فوغ لن يقدّم شيئًا ذا أهمية تذكر، فقد أدرك أيضًا أن هذا الاهتمام الجديد أمر بعيد كل البعد عن الكارثة التي حلت بهما، فلم يجد سببًا يحمله على مجادلتها، واتجه تفكيره إلى أنها تعرف الحقيقة أكثر مما يعرفها أي شخص آخر لكنها تفضّل أن تتخيّل نفسها واحدة من قارئات

مجلة فوغ اللواتي شخن قبل الأوان، بدلًا من أن تكون أمًّا لصاحبة تفجير ريمروك. وبما أنها استنفدت ما لدى الأطباء النفسيين، وجرَّبت الأدوية النفسية، وصارت مذعورة من احتمال معالجتها بالصدمات الكهربائية إذا دخلت المستشفى مرة ثالثة، فقد جاء اليوم الذي أخذها فيه إلى عيادة جينيفا. قابلهما في المطار سائق أنيق الملبس في سيارة ليموزين. وحجزت لنفسها موعدًا مع د. لابلانتي.

كان السويدي ينام في سرير إلى جانب سريرها في جناحهما في الفندق. وفي الليلة التي أعقبت العملية الجراحية، تلك الليلة التي لم تتوقّف فيها عن التقيؤ، ظل ساهرًا إلى جانبها لمواساتها ولتنظيفها. وخلال أيام كثيرة أعقبت ذلك، كان يجلس إلى جانب سريرها عندما تبكي من شدة الألم (مثلما جلس ليلة بعد ليلة في مستشفى الأمراض النفسية) ممسكًا بيدها، واثقًا من أن هذه الجراحة العجيبة، هذه المعاناة العقيمة التي لا معنى لها، كانت إشارة إلى آخر مراحل انحدارها بصفتها كائنًا بشريًا يعرفه: لم يعتبر أنه يساعد زوجته في الشفاء والتعافي، بل كان يرى أنه يقوم بدور الشريك المتواطئ على تشويهها من غير أن يدرك ذلك. كان ينظر إلى الضمادات التي تغطي رأسها ويشعر كما لو أنه سيشهد على تحضيرات جارية من أجل دفن جثتها.

لكنه كان مخطئًا تمامًا. فقبل أيام معدودة من وصول رسالة ريتا كوهن إلى مكتبه، حدث أن مرّ بجانب طاولة مكتب داون، فرأى عليها رسالة قصيرة بخط اليد موضوعة إلى جانب مغلّف كتب عليه عنوان جراح التجميل في عيادة جينيفا. جاء في الرسالة:

«عزيزي د. لابلانتي: مرّت سنة منذ أن أجريت لي تلك العملية لشد وجهي. لا أشعر بأنني كنت مدركة عندما رأيتك آخر مرة حجم ما قدّمته لي. تمتلئ نفسي تقديرًا لك عندما أتذكّر كيف أنفقت خمس ساعات من وقتك من أجل جمالي. فما السبيل إلى أن أفيك حقّك من الشكر؟ أحسّ كما لو أنني أمضيت فترة نقاهة بعد الجراحة استمرّت اثني عشر شهرًا. أظنّ، مثلما قلت لي، أن نظامي الجسدي كان أكثر تدهورًا مما تخيّلت. وأما الآن، فقد صرت كأنني وُهبت حياة جديدة.

إنها حياة جديدة من الداخل والخارج معًا. يحار أصدقائي القدامى الذين لم أرهم منذ زمن في تفسير التغيير الذي أصابني. لكني لا أخبرهم بالأمر. إنه أمر رائع يا عزيزي الدكتور؛ وما كان ممكنًا أن يحدث لولاك أنت. كل الشّكر والحبّ لك أنتَ. داون ليفوف».

وعلى نحو فوري تقريبًا بعد استعادة وجهها حيويته السابقة، بعد أن عاد إليه كمال تكوينه الذي كان قبل الانفجار، قررت داون بناء بيت معاصر صغير على رقعة أرض مساحتها عشرة أكرات واقعة إلى الناحية الأخرى من تل ريمروك؛ وقررت بيع البيت الكبير القديم والمباني الملحقة به وأرضه البالغة مساحتها أكثر من مئة أكر. بيعت ماشية داون وآلات المزرعة في سنة 1969، أي في السنة التي أعقبت فرار ميري من وجه العدالة. فبحلول ذلك الوقت، كان قد صار واضحًا، أن متطلّبات العمل تفوق قدرة داون على المتابعة بمفردها. وهكذا فقد وضع السويدي إعلانًا في واحدة من المجلات الشهرية المعنية بالماشية، فتخلّص خلال أسابيع فقط من الماشية كلّها ومعها الآلات المستخدمة في المزرعة... تخلّص من ذلك العمل كله. وعندما سمعها تقول لجارهم المعماري بيل أوركوت إنها تكره بيتهما منذ زمن بعيد، أصابته الدهشة كما لو أنها كانت تخبر أوركوت بأنها تكره زوجها نفسه منذ زمن بعيد. خرج في نزهة طويلة على الأقدام. كان في حاجة إلى السير قرابة خمسة أميال، حتى القرية، وهو يذكّر نفسه بأنها قالت إنها تكره البيت فحسب. وحتى رغم إدراكه أنها لم تقل غير ذلك، كان في بؤس عظيم جعله يستنجد بطاقته كلّها حتى يتمكّن من كبت مشاعره والاستدارة عائدًا إلى البيت من أجل تناول طعام الغداء حيث وجد داون وأوركوت في انتظاره لإلقاء نظرة على المخطط الأولي للبيت الجديد الذي رسمه المعماري.

أتكرهُ بيتهما الحجري القديم، البيت الحبيب الأول الوحيد؟ كيف استطاعت ذلك؟ بدأ يحلم بهذا البيت منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره عندما كان مسافرًا مع فريق البيسبول لخوض مباراة في مواجهة فريق ويباني. كان جالسًا في باص المدرسة مرتديًا زي المدرسة وقد التفّت أصابعه حول عنق قفاز البيسبول،

عندما مرّ الباص في تلك الطرق الضيّقة المتعرّجة متّجهًا غربًا عبر تلال جيرسي الريفية - رأى بيتًا حجريًا كبيرًا ذا مصاريع نوافذ سوداء قائمًا فوق تلة صغيرة خلف مجموعة من الأشجار. رأى فتاة صغيرة على أرجوحة معلّقة من غصن منخفض في واحدة من تلك الأشجار الكبيرة. رآها تؤرجح نفسها في الهواء. وتخيّلها سعيدة إلى أقصى ما يمكن أن يشعر به طفل من سعادة. كان ذلك أول بيت مبني من الحجر يراه في حياته كلّها. وقد رأى فيه هذا الصبي القادم من المدينة تحفة معمارية عجيبة. رأى أن التصميم العشوائي لحجارة ذلك البيت كان ناطقًا بكلمة «بيت»، حتى أكثر مما ينطق بها بيتهم القرميدي في جادة آفنيو، على الرغم من قبوه المنتهي الذي علَّم فيه أخاه جيري الشطرنج وكرة الطاولة، وعلى الرغم من الشرفة الخلفية ذات النوافذ حيث كان يستلقي على الأريكة القديمة في الظلام في الليالي الحارة مصغيًا إلى أغاني «جايَنت غينز»، وعلى الرغم من مرأب السيارة حيث كان يستخدم بكرة من شريط لاصق أسود لكي يثبت كرة البيسبول إلى نهاية حبلٍ متدلٍ من عارضة في السقف، ثم يتخذ وضعية منتصبة جادّة، فيمضي نصف ساعة في التمرن على تسديد مضربه إليها بعد عودته من تمرينات البيسبول، وذلك على امتداد الشتاء كلّه، محاولًا ألّا يخطئ ضبط التوقيت؛ وعلى الرغم من غرفته الواقعة في آخر البيت بنافذتيها البارزتين حيث اعتاد - في السنة التي سبقت ذهابه إلى المدرسة الثانوية - أن يستلقي ويقرأ قبل النوم في كتاب «فتى من تومكينسفيل»... «رجل شائب الشعر في قميص مهلهل وقبعة بيسبول زرقاء شدّها على رأسه حتى غطّت عينيه. دفع الرجل إلى الفتى بحزمة ملابس وأشار إلى خزانته. ‘الرقم ستة وخمسون. في الصفّ الخلفي، هناك’. كانت الخزائن أشبه بأكشاك خشبية بسيطة يبلغ ارتفاع الواحد منها ست أقدام وفيها رف تحت أعلاها بقدم أو اثنتين. كان باب خزانته مفتوحًا، وعلى امتداد حافتها العلوية ورقة ملصقة كتب عليها: ‘تاكر، رقم 56’. ها هي ملابسه الرياضية... كلمة ‘دودجرز’ مكتوبة على صدر القميص، والرقم 56 مكتوب على ظهرها...».

لم يكن ذلك البيت الحجري في مظهره ذا جاذبية مبتكرة أصيلة فحسب (ذلك

الانتظام لأشياء غير منتظمة كلّها كأنه قطع أحجية رتّبتها بعناية يد صبور حتى اتّخذت هذا الشكل المربّع المتين فصنعت منزلًا جميلًا)، بل بدا له البيت أيضًا مكانًا حصينًا منيعًا لا يمكن أبدًا أن يدمّره حريق... لعله موجود هناك منذ بداية هذه البلاد. حجارة بدائية على طبيعتها الأصلية أشبه بتلك الحجارة التي تراها متناثرة بين الأشجار إذا ذهبت في نزهة على الأقدام في ممرات منتزه ويكاهيك؛ لكنها صارت في ذلك المكان بيتًا! لم ينس ذلك البيت أبدًا.

وفي المدرسة، كان يكتشف أنه صار يسأل نفسه عن الفتاة التي يجب أن يختارها من بين زميلاته ليتزوجها ويأخذها لتعيش معه في ذلك البيت الحجري. بعد تلك الرحلة إلى ويباني مع فريقه، صار يكفيه سماع كلمة «بيت» - بل حتى سماع أحد يقول كلمة «الغرب»، حتى يتخيل نفسه عائدًا بعد انتهاء عمله إلى ذلك البيت المتنحّي عن الشارع، ويتخيّل أنه يرى ابنته هناك، ابنته الصغيرة طائرة في الهواء على تلك الأرجوحة التي صنعها لها. صحيح أنه لم يكن إلا طالبًا في السنة الثانية بالمدرسة الثانوية، لكنه كان قادرًا على تخيّل أن لديه ابنةً تجري إليه، وعلى تخيّل أنها ترمي بنفسها بين ذراعيه فيحملها ويرفعها فوق كتفيه، ويدخل البيت متجهًا مباشرة إلى المطبخ حيث تكون أم الطفلة التي يعشقها واقفة عند الموقد مرتدية مريلة المطبخ تعد لهم طعام العشاء. إنها أية واحدة من فتيات ويكاهيك، كتلك التي كانت جالسة على المقعد الذي أمامه في سينما روزفلت في يوم الجمعة الماضي وقد تدلّى شعرها على ظهر مقعدها قريبًا منه، يكفي أن يمد يده حتى يمسّد عليه. لو كانت لديه الجرأة لفعل ذلك. كانت لديه طيلة حياته هذه القدرة على تخيّل نفسه تخيّلًا كاملًا. وعلى الدوام، كان كل شيء يأتي على نحو صحيح لكي يكمل الصورة. وكيف لا يكون الأمر هكذا عندما يحسّ بنفسه عنصرًا في تلك الصورة نفسها؟ عندها، رأى داون في أوبسالا. كانت تعبر الحديقة متجهة إلى شارع أولد مين حيث يتسكّع الطلبة في الاستراحات بين الدروس. كانت واقفة تحت أشجار الأوكاليبتوس تتحدّث مع اثنتين من الفتيات ممن يقمن في «كينبروك هول». تبعها ذات مرة في شارع روسبكت حتى موقف الباص عند الكنيسة القرميدية حيث توقّفت فجأة أمام

واجهة متجر «بِسْت آند كو»، وبعد دخولها المتجر اقترب من الواجهة لينظر إلى تلك التنورة الطويلة «الحديثة» متخيلًا داون دواير في غرفة قياس الملابس ترتدي تلك التنورة فوق سروالها الداخلي. كانت جميلة جدًا، جميلة إلى حد يجعله يشعر بخجل شديد حتى من إلقاء نظرة في اتجاهها، كما لو أن النظر في حد ذاته يماثل لمسها أو الالتصاق بها، وكما لو أنها قد عرفت (كيف يمكن ألا تعرف؟) أنه عاجز عن منع نفسه من النظر إليها، فتفعل مثلما تفعله أية فتاة عاقلة مهتمة بنفسها فتزدريه معتبرة إياه «صيادًا». لقد كان جنديًا في مشاة البحرية الأميركية؛ وكان خاطبًا فتاة في ساوث كارولاينا، ففسخ تلك الخطبة نزولًا عند رغبة أسرته، ثم مضت سنين لم يفكّر خلالها بذلك البيت الحجري ذي النوافذ السوداء وفي تلك الأرجوحة التي أمامه. على الرغم من شدة وسامته، ومن كونه قد أنهى خدمته العسكرية منذ وقت قصير، ومن كونه النجم الرياضي اللامع الشهير في مدرسته، فقد كان يعمل بتصميم على احتواء أي احتمال للإصابة بالغرور وعلى مقاومة أثر ذلك الدور، فاقتضاه الأمر فصلًا دراسيًا كاملًا قبل أن يطرح على داون الخروج معه في موعد. لم يكن ذلك لأن المواجهة العارية لجمالها تجعل ضميره معذَّبًا وتجعله يشعر كما لو أنه يتلصّص عليها من غير حياء فحسب، بل لأن قربه منها سيجعله عاجزًا عن منعها من النظر إلى ما في داخل عقله، ومن أن ترى بنفسها كيف يتصوّرها: هناك، عند الموقد في مطبخ البيت الحجري وهو داخل مع ابنتهما، ميري، فوق كتفيه... سيكون اسمها «ميري» بسبب بهجتها وسعادتها عندما تكون في تلك الأرجوحة التي صنعها لها(32). وفي الليل، كان يشغل الفونوغراف من غير انقطاع على أغنية حظيت بشعبية واسعة في تلك السنة. أغنية «بيغ أوه يا قلبي». كانت في تلك الأغنية جملة تقول «قلبك الإيرلندي هو ما أصبو إليه». كلما رأى داون دواير في الطريق في أوبسالا، كلما رأى داون الصغيرة الفاتنة، يمضي بقية يومه غير مدرك أنه يصفّر لحن تلك الأغنية من غير انقطاع. كان يجد نفسه يصفر ذلك اللحن حتى أثناء مباراة الكرة، وحتى عندما يلوح بمضربه ليقذف بالكرة في لعبة البيسبول منتظرًا دوره في الهجوم. كان يعيش تحت سماءين في

ذلك الوقت: سماء داون دواير، والسماء الطبيعية التي في الأعلى.

لم يفاتحها مباشرة، على الرغم من ذلك كلّه. لم يفاتحها لخوفه من أن ترى كيف يفكّر فيها فتضحك من سكره بها ومن البراءة الوقحة لجندي مشاة البحرية السابق تجاه ملكة جمال ربيع أوبسالا. ستظنّ أن تخيّله إياها، حتى قبل تعارفهما، مصنوعة خصيصًا من أجل تلبية ما يتوق إليه سايمور ليفوف يعني أنه لا يزال طفلًا مدلّلًا عابثًا، في حين كان ذلك يعني للسويدي أنه ممتلئ تمامًا بهدف يسير إليه، ممتلئ به قبل أي شخص آخر يعرفه، ممتلئ بطموحات رجل ناضج وبأهدافه، وكان يعني أنه شخص يرى متحمّسًا (يرى بتفصيل تام) نتيجة قصته وغايتها. لقد عاد من الخدمة العسكرية في سن العشرين، عاد إلى الديار مندفعًا إلى أن يكون «ناضجًا». وإذا كان لا يزال طفلًا، فهو كذلك من ناحية واحدة فقط وهي أنه يجد نفسه متطلّعًا إلى الأمام، إلى زمن الرجولة المسؤولة، بشوق يشبه شوق طفل يحدّق في واجهة متجر للسكاكر والحلويات.

كان يفهم تمامًا سبب رغبتها في بيع البيت القديم، فتقبّل تلك الرغبة حتى من غير أن يحاول جعلها تفهم سبب رغبتها في الرحيل عنه - لأن ميري لا تزال فيه، في كل زاوية منه: ميري عندما كان عمرها سنة واحدة، وخمس سنين، وعشر سنين - حتى من غير أن يحاول جعلها تفهم أن سبب رغبتها في الرحيل هو نفسه سبب رغبته في البقاء، رغبة ليست أقل أهمية من رغباتها. لكنها قد لا تكون قادرة على الاستمرار في العيش إذا بقيا في البيت. وأما هو، فلا يزال يبدو قادرًا على احتمال كل شيء وإن كان في الأمر ابتعاد متوحش قاسٍ عن ميوله: وافق على ترك البيت الذي أحبّه لأسباب كثيرة من بينها تلك الذكريات الباقية فيه من أيام طفلته الهاربة. وافق على الانتقال إلى بيت جديد مفتوح للشمس من كل الجهات، ممتلئ بضيائها، صغير لا يتسع إلا لهما، وليست فيه إلا غرفة إضافية صغيرة واحدة للضيوف قائمة فوق مرأب السيارة. بيت أحلام حديث... «تقشّف فخم» مثلما وصفه المعماري أوركوت لداون في ما مضى بعد أن رسم ما كان يدور في ذهنها... بيت فيه تدفئة كهربائية أرضية (بدلًا من التدفئة غير المحتملة بالهواء الحار التي أصابتها بالتهاب الجيوب)، وأثاث حديث (بدلًا من

قطع الأثاث العتيقة المخيفة)، وإنارة سقفية مخفية (بدلًا من مليون من المصابيح المحمولة على قوائم طويلة تحت عوارض السقف الكئيبة المصنوعة من خشب البلوط)، ونوافذ متسعة يرى المرء من خلالها بوضوح (بدلًا من النوافذ القديمة المجزّأة التي تعلّق دائمًا ويصعب فتحها)، وقبو حديث من الناحية التكنولوجية كأنه غواصة نووية (بدلًا من ذلك القبو الكهفي الرطب الذي كان زوجها يأخذ الضيوف إليه لكي يروا النبيذ الذي «خبّأه» لكي يشربه في أواخر العمر. كان يذكّرهم عند تجوّلهم بين تلك الجدران الحجرية المتعرّقة رطوبة بأن يظلّوا منتبهين إلى أنابيب الصرف الحديدية المعلّقة واطئة فوق رؤوسهم: («انتبه إلى رأسك. انتبه إلى ذلك الأنبوب»...). لقد فهم كل شيء، فهم الأمر كلّه، فهم كم كان هذا صعبًا عليها. فما الذي يستطيع فعله غير أن يقبل بما أرادته؟ كانت تقول له: «الملكية العقارية مسؤولية. من غير وجود آلات وماشية، سوف ينمو العشب كثيرًا. عليك جز العشب كلّه مرتين، أو ثلاث مرات، في السنة. لا بد من جزّه؛ ولا يجوز ترك تلك النباتات تنمو وتكبر حتى تصير دغلًا. لا بد من جزّها دائمًا. وهو أمر مكلف كثيرًا. من الجنون أن يدفع المرء ذلك المال كله سنة بعد سنة. ولا بد أيضًا من المحافظة على الحظائر حتى لا تتداعى... إن الأرض مسؤولية لا يمكن للمرء تجاهلها. أفضل ما يمكن فعله هو الانتقال من هذا المكان. إنه الشيء الوحيد الذي يمكن فعله».

لا بأس! سوف ينتقلان. لكن، لماذا تقول زوجته لأوركوت إنها كرهت ذلك البيت «منذ أن عثرنا عليه؟». كأنها تقول إنها لم تعش هناك إلا لأن زوجها «قد جرجرها» إلى ذلك البيت عندما كانت صغيرة جدًا، ليست لديها أي فكرة عن معنى تدبير بيت قديم ضخم مظلم لا يخلو أبدًا من شيء يتعفّن أو يتسرّب أو يستلزم إصلاحًا. قالت له إن

أو سبع سنوات. بل لعلّه كان في الخامسة، ولعلّ جيري لم يكن قد ولد بعد. كانت تلك الحجارة العملاقة تجعل المدينة في نظره أكثر ضخامة مما كانت. الأفق الذي صنعته يد البشر، والمدينة القاسية في جسد مدينة عملاقة. كان ذلك يجعله يحسّ كما لو أنهما يدخلان عالم الجحيم الغامض، حيث لم يكن ما يراه الصبي

إلا إجابة شركة السكة الحديدية على الحملة الشعبية المنادية برفع الخط فوق مستوى تقاطعات الطرق، للتخلّص من الاصطدامات ومن قتل المشاة في الشوارع. كان أبوه يقول معجبًا: «الحجر البنّي والقرميد. كان هناك شخص تخلّص من همومه كلها».

كان ذلك كلّه قبل أن ينتقلوا إلى جادة كير، أي عندما كانوا يعيشون مقابل الكنيس في بيت تسكنه ثلاث أسر في النهاية الفقيرة لشارع وينرايت. لم يكن والده يملك في ذلك الوقت حتى علّية يعمل فيها، لكنه كان يحصل على الجلود من شخص يعيش في داون نِك مثله ويبيع من مرأب بيته ما يتمكّن العمال من تهريبه من المدابغ، إذ كانوا يخفونه في أعناق جزماتهم المطاطية الكبيرة، أو يلفّونه على أجسادهم تحت أوفرولاتهم الواسعة. كان بائع الجلود ذاك عامل مدبغة أيضًا؛ كان بولنديًا خشنًا، ضخمًا له وشوم ممتدة على طول ذراعيه. يتذكّر السويدي صورة مشوشة لأبيه، واقفًا عند نافذة ذلك الرجل وهو يحمل الجلود المدبوغة وينظر إليها في ضوء النهار باحثًا عما فيها من عيوب، ثم يفردها فوق ركبتيه قبل أن يختار من بينها ما يريد شراءه. قال للسويدي مرة بعد أن عادا إلى أمان السيارة وراح الصبي يتفحص جلد خروف صغير ناعمًا مثلما رأى والده يتفحّصه، ويتحسّس نعومته بأصابعه مستحسنًا مستمتعًا بالملمس المخملي لسطحه الصقيل: «أتحس بهذا؟ إنه جلد حقيقي. ما الذي يجعل جلد الحَمَل الصغير هكذا يا سايمور؟». «لست أدري». «حسنًا، ما هو الحمل؟». «هو خروف صغير». «صحيح. وما طعام الخروف الصغير؟». «الحليب؟». «صحيح. ولأن هذا الحيوان لم يأكل شيئًا غير الحليب، فإن هذا ما يجعل جلده ناعمًا جميلًا. انظر إلى مسام هذا الجلد بعدسة مكبرة وسترى أنها لا تزال صغيرة جدًا إلى حد لا تستطيع معه رؤيتها. لكن الحمل يبدأ أكل العشب، فتبدأ قصة مختلفة. بعد أن يأكل العشب، يصير جلده خشنًا. ما هو أفضل جلد لصنع قفاز رسمي يا سايمور؟». «جلد الحمل». «أحسنت يا بني. لكن توفّر جلد الحمل غير كافٍ يا صغيري، فهناك عملية الدباغة أيضًا. يجب أن تكون على

بيّنة من المدبغة التي تتعامل معها. هذا أشبه بالفارق بين طبّاخ جيّد وطبّاخ سيئ. تكون لديك قطعة لحم جيّدة فيفسدها الطبّاخ السيئ. كيف يصنع أحدهم حلوى رائعة لا يستطيع الآخر صنعها؟ حلوى هشّة، رطبة، جميلة، وأخرى جافة، قاسية لا تؤكل. الأمر نفسه في الجلود. لقد عملت في مدبغة. ثمة أهمية للمواد الكيميائية المستخدمة، وللزمن، ولدرجة الحرارة. من هنا يأتي الفرق. من هنا ومن عدم شرائك جلودًا من النخب الثاني. دباغة الجلد السيئ تكلّف مثل دباغة الجلد الجيّد. لكن دباغة الجلد السيئ أكثر كلفة في حقيقة الأمر لأنك تبذل فيه عملًا أكثر. جميل. جميل. جلد جميل...». قال هذا وهو يمر بأصابعه على الجلد مرة أخرى... «هل تعرف كيف تجعله هكذا يا سايمور؟». «كيف يا بابا؟». «يجب أن تعمل عليه».

كانت في منطقة داون نِك ثماني أسر، أو عشرة، أو اثنتا عشرة، يوزع عليها لو ليفوف الجلود مع نماذج القص الخاصة به. كانوا أناسًا من نابولي عملوا في صناعة القفازات في بلدهم السابق وانتهى الأمر بأفضلهم إلى العمل مع شركة نيوارك ميد، في البيوت أولًا، ثم في العلية التي استأجرها في شارع ويست ماركت بعد أن صار معه بعض المال، وكانت في الطابق الأخير في مصنع الكراسي. كان الجد الإيطالي العجوز، أو الأب، يقصّ الجلد على طاولة المطبخ مستخدمًا المسطرة الفرنسية والمقصّ الكبير والمشرط، أدواته التي جلبها معه من إيطاليا. وكانت الجدّة أو الأم تقوم بالخياطة، بينما تتولّى الفتيات التوضيب وكي القفاز بالطريقة القديمة مستخدمات المكاوي التي يجري إحماؤها في صندوق موضوع فوق موقد المطبخ الكبير. كانت النساء تعملن على آلات سنجر عتيقة، آلات من القرن التاسع عشر اشتراها لو ليفوف (الذي تعلّم تجميعها). لقد اشتراها بأثمان بخسة ثم أصلحها بنفسه. كان يضطرّ مرّة كل أسبوع، على الأقل، إلى الذهاب إلى داون نِك ليلًا حيث يمضي ساعة من الزمن في جعل إحدى تلك الآلات تعمل من جديد. وأما في الأوقات الأخرى، فقد كان يتجوّل ليل نهار في أنحاء جيرسي كلّها، فيبيع تلك القفازات التي صنعها الإيطاليون له. كان يبيعها من صندوق السيارة مباشرة أول الأمر، في الشارع

الرئيسي في المدينة؛ ثم صار يبيعها إلى متاجر الملابس والمتاجر المتخصّصة التي كانت أول عملاء نيوارك ميد الموثوقين. وفي مطبخ صغير لا يبعد أكثر من نصف ميل عن المكان الذي كان فيه السويدي الآن، رأى الصبي أقدمَ صانعي القفازات من نابولي يقصّ زوجًا منها. يظن الآن أنه قادر على تذكّر كيف كان جالسًا في حضن أبيه، بينما كان لو ليفوف يتذوّق كأسًا من النبيذ البيتي، جالسًا قبالة الرجل الذي قيل إن عمره كان مئة عام، وقيل أيضًا إنه كان يصنع القفازات لملكة إيطاليا. كان الرجل يُطرّي حواف الجلد بضربات متلاحقة من نصل سكين كليل. «انتبه إليه يا سايمور. أترى كم هي صغيرة تلك السكين؟ أصعب شيء في العالم هو قصّ جلد الحَمَل قصًّا صحيحًا. هذا لأنه صغير جدًّا. لكن، انتبه كيف يفعل هذا. إنك تنظر إلى عبقري. إنك تراقب فنانًا. إن الإيطالي الذي يقصّ القفازات، يا ولدي، يكون شكل إنتاجه أكثر فنّية، دائمًا. وهذا هو معلّم المعلّمين جميعًا».

تذكر كيف كانت كرات اللحم الحارة تُطهى في المقلاة بعض الأحيان، وكيف علّمه واحد من عمّال القصّ الإيطاليين (كان يدمدم دائمًا بأغنية «تشي بيليزا...» ويدعوه «بيتشيريل» - الشيء الصغير الحلو - عندما يداعب رأس السويدي الأشقر) كيف يغمس الخبز الإيطالي الهش في قِدر صلصة الطماطم. مهما تكن حديقة البيت الخلفي صغيرة، فإنهم يزرعون فيها الطماطم ودالية عنب وشجرة إجاص. وفي كل أسرة، كان لديهم جَدٌّ دائمًا. كان ذلك الجَدُّ هو من صنع النبيذ، وهو من خاطبه لو ليفوف بلهجة نابولي وإيماءة اعتبرها مناسبة للموقف بالجملة الإيطالية الكاملة الوحيدة الموجودة في مخزونه «نام انو لافا ناد» - يد تغسل الأخرى - عندما وضع على مفرش الطاولة المشمّع الدولارات التي استحقّتها الأسرة أجرًا خلال ذلك الأسبوع. وبعد ذلك، نهض الصبي والأب وخرجا عائدين إلى البيت حاملين القفازات الجاهزة. وفي البيت، تفحّصت سيلفيا ليفوف كل قفاز ودقّقت في خياطة كل إصبع. كان أبوه يقول له: «يجب أن تكون فردتا كلّ زوج من القفازات متماثلتين تماثلًا تامًا... عروق الجلد، ولونه، وتدرجات اللون، وكل شيء. أول ما تتحقّق منه أمك هو تطابق الفردتين».

وخلال قيام الأم بعملها، كانت تشرح للصبي كل ما يمكن أن يظهر من أغلاط في صنع القفاز: أغلاط تعلّمت كيف تميّزها باعتبارها زوجة والد السويدي ليفوف. من الممكن أن تتحوّل قطبة خياطة فائتة إلى درزة مفتوحة، لكنك لا تستطيع رؤيتها. من غير وضع المُوسِّع في القفاز وشد الدرزة، يظل ذلك كلّه غير ظاهر. هناك ثقوب غرزات ليس من المفترض أن تكون موجودة. إنها ناتجة عن أن من خاطت القفاز أخطأت، ثم حاولت المتابعة. هناك شيء اسمه «جروح الجزار». وهي تحدث إذا تعرّض الحيوان لجروح عميقة عند ذبحه. فحتى بعد إزالة الوبر عن الجلد، وعلى الرغم من عدم ظهور تمزّق في تلك المواضع عندما تشد القفاز بالموسِّع، فإنه يمكن أن يتمزّق عند لبسه. كان أبوه يجد في كل دفعة يأتي بها من داون نِك قفازًا واحدًا، على الأقل، يكون إبهامه غير مطابق لبقية أجزائه. كان هذا يثير غضبه الشديد. فيقول: «هل ترى هذا؟ انظر كيف حاول عامل القصّ الحصول على العدد المطلوب من القفازات من هذا الجلد، لكن شيئًا منه لم يبق للإبهام؛ وهذا ما جعله يغشّ... لقد قصّ الإبهام من جلد آخر، لكنه غير مطابق. هذا غير جيّد أبدًا. هل ترى هنا؟ أصابع معوجّة. هذا ما كان ماريو يريك إياه صباح اليوم. عندما تقص إبهامًا، أو طيّة، أو أي شيء، فإن عليك أن تشدّ الجلد باستقامة. إذا لم تشدّه باستقامة، فسوف تكون لديك مشكلة. إذا شدّ العامل الطيّة في اتجاه مائل، فسوف يظهر الإصبع معوجًّا بعد الخياطة، كما ترى في هذا القفاز. هذا ما تبحث عنه أمك الآن. نفعل هذا لأن ليفوف يصنع قفازات كاملة لا عيب فيها - تذكّر هذا ولا تنساه». كانت الأم تناول السويدي كل قفّاز تعثر على شيء خاطئ فيه، فيغرس دبوسًا في موضع الخلل، يغرسه عبر درزة الخياطة، لا في الجلد نفسه. لقد حذّره أبوه: «إن الثقوب في الجلد لا تزول، فهو ليس كالقماش التي تختفي ثقوبه. عليك أن تغرس الدبوس عبر درزة الخياطة، دائمًا». وبعد أن ينتهي الفتى وأمه من معاينة الدفعة كلّها، تستخدم الأم خيطًا خاصًّا لحزم كل زوج على حدة. شرح له أبوه أن ذلك الخيط ينقطع بسهولة؛ فعندما يشد المشتري الجزأين لفصلهما، ينقطع الخيط ولا يجرح الجلد. بعد ربط كل فردتي زوج من القفازات معًا، تقوم

أم السويدي بتغليف الكمية كلها: تضع زوج القفازات على قطعة ورق، ثم تطوي الورق فوقها وتضع الزوج التالي، وهكذا بحيث يظل كل زوج محميًّا معزولًا عن الآخر. ثم تضع كل اثني عشر زوجًا معًا في علبة واحدة بعد أن يحصيها السويدي بصوت مرتفع. لم تكن علبة أنيقة في تلك الأيام، بل علبة من الورق المقوى البنّي عليها مقاس القفازات التي فيها. لم تأتِ العلبة السوداء الفاخرة بحوافّها الذهبية وباسم شركة نيوارك ميد مطبوعًا عليها بخط ذهبي إلا بعد أن أبرم أبوه تلك الصفقة الممتازة مع متاجر بامبرغر، ومن بعدها تلك الصفقة مع متجر ماسي للإكسسوارات الصغيرة. كانت العلبة المتميزة ذات المظهر الجذاب، تحمل اسم الشركة، بالإضافة إلى رقعة محيكة باللونين الذهبي والأسود على كل قفاز، علامة على التميّز، لا في نظر المتجر فحسب، بل في نظر المشتري الثري الخبير.

وعندما كانا يذهبا إلى داون نِك كل سبت لجمع حصيلة عمل الأسبوع من القفازات المنتهية، كانا يأتيان معهما بالقفازات التي علّمها السويدي بالدبابيس حيث اكتشفت أمه عيوبًا فيها. إذا حمل قفاز واحد ثلاثة دبابيس، أو أكثر، فإن والده يحذّر الأسرة الذي صنعته من أنه لن يتسامح تجاه أي تهاون أو خلل في العمل إن كانوا يودّون الاستمرار مع نيوارك ميد. كان يقول لهم: «لا يبيع لو ليفوف قفازات من صنع يدوي إلا إذا كانت خالية من أي عيب. أنا لست هنا من أجل اللعب. إنني هنا مثلما أنتم هنا... لجني المال. ‘نا مونا لافا ناد’. لا تنسوا هذا».

«ما هو جلد العجل، يا سايمور؟». «إنه جلد عجل صغير». «وما طبيعته؟». «إن سطحه مشدود مستو. وهو لامع، صقيل جدًا». «وفي أي شيء نستخدمه؟». «من أجل القفازات الرجالية غالبًا. إنه ثقيل». «وما معنى كيب؟». «إنه جلد الخروف ذي الصوف الطويل في جنوب أفريقيا». «وما معنى كابريتا؟». «هو جلد الغنم الذي له وبر بدلًا من الصوف». «وأين يعيش؟». «في أميركا الجنوبية. البرازيل». «هذا قسم من الإجابة. تعيش هذه الحيوانات إلى الشمال قليلًا وإلى الجنوب قليلًا من خط الاستواء، في أي مكان من العالم.

جنوب الهند. شمال البرازيل. ضمن نطاق في أفريقيا...». «نحن نستورد جلود كابريتا من البرازيل». «صحيح. هذا صحيح. أنت محق. لكنّي أخبرك بأنها يمكن أن تأتي من بلدان أخرى أيضًا. صرت الآن تعرف هذا. ما هي العملية الأساسية في إعداد الجلد؟». «إنها شدّ الجلد». «ولا تنسَ هذا أبدًا. إن لجزء من ستة عشر جزءًا من الإنش أهمية قصوى في عملنا. الشدّ! إجابتك صحيحة مئة بالمئة. ما عدد الأجزاء التي تكون في زوج من القفازات؟». «عشرة، أو اثنا عشر جزءًا إن كانت له ياقة». «ما أسماء هذه الأجزاء؟». «ست طيات، وإبهامان، وجذعان». «ما هي وحدة القياس في صناعة القفازات؟».
«الأزرار». «ما هو القفاز ذو الزر الواحد؟». «هو القفاز الذي يبلغ طوله إنشًا واحدًا إذا قسناه اعتبارًا من قاعدة الإبهام». «يبلغ طوله إنشًا واحدًا تقريبًا. وما هو التدريز؟». «إنه ثلاثة صفوف من غرزات الخياطة على ظهر القفّاز. إذا لم تُطوَ نهاية القفّاز، فإن التدريز يظهر على الفور». «رائع. قلتَ لي هذا على الرغم من أنّني لم أسألك شيئًا عن طيّ حافّة القفاز. ما هي أصعب درزة خياطة أثناء صنع القفّاز؟». «الغرزة الكاملة؟». «لماذا؟ فكّر في الإجابة يا ولدي... هذا سؤال صعب. قل لي السبب». درزة اللحام. درزة القياس. درزة النقط المنفردة. الطعنات. جلد الغزال. جلد موكا الطريّ المأخوذ من الخرفان. الظبي الإنكليزي. النقع. نزع الشعر. التخليل. الفرز. التثقيل. التعريق. الإنهاء المخملي. لصق البطانة. البطانة الهيكلية. صوف محيك من غير خياطة. صوف محيك مقصوص ومخيّط...

لم يكن هذا الحوار يتوقّف أبدًا في رحلات الذهاب إلى داون نِك والعودة منها. استمر ذلك كل صباح سبت منذ أن كان في السادسة إلى أن صار في التاسعة وصارت نيوارك ميد شركة لها مقرّها الخاص بها.

كان مستشفى الكلاب والقطط في زاوية بناء قرميدي صغير مهلهل، تجاوره ساحة خالية وموقع لإلقاء إطارات السيارات المستعملة، فيه بقع من أعشاب برّية مرتفعة بمقدار قامته تقريبًا. رأى بقايا معوجّة لسياج من شبك معدني متهاوٍ عند حافة الرصيف حيث وقف وانتظر ابنته... ابنته التي تعيش في نيوارك... منذ

متى... وأين... في أي حيّ من أحياء المدينة. لا، لم تعد سعة المخيلة تعوزه، صار تخيُّل الأمور الرهيبة سهلًا لا يتطلّب جهدًا على الرغم من أنه ظلّ غير قادر على تصوّر كيف أتت من أولد ريمروك إلى هذا المكان. ما عاد لديه أي وهم يستطيع التشبّث به لتهوين المفاجأة التالية.

لا يوحي هذا المكان الذي تعمل فيه بأنها ما زالت مستمرّة على اقتناعها بأن عليها تغيير مجرى التاريخ الأميركي. كان سلّم الحريق الصدئ منفصلًا عن دعاماته جاهزًا للسقوط في الشارع إذا ما استخدمه أحد ما: سلم حريق لا تتمثّل وظيفته في إنقاذ الأرواح عند نشوب حريق، بل في أن يكون معلَّقًا شاهدًا على الشعور الهائل بالوحدة الكامنة في الحياة. كان في نظره مجرّدًا من أي معنى آخر... لا يمكن أن يكون لهذا المبنى أي معنى غير هذا. نعم، نحن في وحدة، وحدة عميقة. ودائمًا، تكون في انتظارنا وحدة أكثر عمقًا. لا نستطيع فعل شيء للتخلّص من هذا. لا... لا ينبغي لنا أن يفاجئنا ذلك الشعور بالوحدة مهما تكن التجربة مفاجئة. يمكنك أن تحاول قلب نفسك حتى يصير باطنك ظاهرك، فلن تكون عند ذلك إلا شخصًا انقلب باطنه ظاهرًا وبقي وحيدًا بدلًا من أن تكون شخصًا انقلب ظاهره باطنًا وظل وحيدًا. عزيزتي ميري الغبية، الغبية، الأكثر غباء حتى من والدك الغبي... حتى نسف الأبنية لن يجدي نفعًا. الشعور بالوحدة قائم إن كانت هناك أبنية وإن لم تكن هناك أبنية. وما من حركة احتجاج يمكن أن تقوم في مواجهة الشعور بالوحدة... لم تفلح حملات التفجير كلّها التي عرفها التاريخ في إلحاق أي خدش بالوحدة. ولا يستطيع أكثر المتفجّرات التي اخترعها الإنسان فتكًا أن يمسّها. لا تُعظّمي الشيوعية، يا طفلتي الحمقاء، بل عظّمي الوحدة التي نعيشها كل يوم، الوحدة العادية. اخرجي مع أصدقائك في الأول من أيار في مسيرة من أجل تمجيد الوحدة التي هي القوة الأعظم بين القوى العظمى كلّها، قوة تغلبنا جميعًا. استثمري مالك فيها، وراهني عليها، واعبديها. انحني خاضعة لا لكارل ماركس، يا طفلتي المتأتئة الحمقاء، ولا لهو تشي مينه، ولا لماوتسي تونغ، بل لإله الوحدة الكبير! أشعر بالوحدة... هكذا كانت تقول له عندما كانت لا تزال فتاة صغيرة. ولم يستطع أبدًا أن يعرف من أين أتت بهذه

الكلمة. الوحدة. كلمة حزينة جدًا عندما تسمعها من فم طفلة عمرها سنتين. لكنها تعلّمت قول الكثير في وقت مبكّر جدًّا، كانت بداية كلامها شديدة السهولة أول الأمر. كانت شديدة الذكاء. لعل هذا سبب تأتأتها... هذه الكلمات كلّها التي تعلّمتها بسرعة خارقة قبل أن يصير الأطفال الآخرون قادرين حتى على نطق أسمائهم. إنه الثقل الانفعالي لوفرة كبيرة من المفردات التي كان من بينها «أشعر بالوحدة».

كان هو الشخص الذي تستطيع الكلام معه: «بابا، فلنتحدّث». كانت تلك الأحاديث عن أمها، أكثر الأحيان. كانت تخبره أن أمها تتحكّم كثيرًا باختيار ملابسها، وتتحكّم كثيرًا بتسريحة شعرها. أمها تريد إلباسها بطريقة تبدو معها أكبر من بقية الأطفال. أرادت ميري أن يكون لها شعر طويل مثل شعر باتي، لكن أمها أرادت قصّه. «ستكون أمي سعيدة حقًّا إذا صرت أرتدي زيًا موحّدًا مثل الذي كانت ترتديه في مدرسة جنفييف». أمّك محافظة؛ لكنك تحبين الذهاب معها للتسوّق». «الجزء الأفضل في الذهاب مع أمي للتسوق هو الحصول بعد ذلك على وجبة غداء لذيذة. هذا ممتع. يكون انتقاء الملابس ممتعًا بعض الأحيان. ومع هذا، فإن أمي تتحكّ - تتحكّ - تتحكّم كثيرًا». لم تكن تحب أن تأكل طعام الغداء الذي ترسله أمها معها إلى المدرسة. «البالوني»(37) بالخبز الأبيض شيء مقرف. سندويتش سجق الكبد مقرف أيضًا. ولحم التونة في علبة الطعام يصير شديد الرطوبة. الشيء الوحيد الذي أحبّه هو سندويتش فرجينا هام، لكن بعد إزالة قشرة الخبز. أحب الحس - حساء الحارّ». لكنها كانت تكسر الوعاء الحافظ للحرارة كلما أخذت حساءً معها إلى المدرسة. إن لم تكسره في الأسبوع الأول، تكسره في الأسبوع الثاني. اشترت لها داون وعاء حافظًا للحرارة غير قابل للكسر، لكنها استطاعت كسره أيضًا. كان هذا أقصى ما بلغته ميولها التدميرية في ذلك الوقت.

وبعد المدرسة، عندما تخبز ميري الفطائر الحلوة مع صديقتها باتي، كان عليها دائمًا أن تكسر البيض. لأن باتي تقول إن كسر البيض يجعلها تشعر بالغثيان. كانت ميري ترى أن هذا أمر سخيف، فأتت بالبيض ذات يوم وراحت تكسره

أمام باتي التي لم تلبث أن تقيأت. تلك كانت حدود نزعتها إلى التدمير... كسر وعاء حافظ للحرارة، وكسر البيض. وكذلك التخلّص من أي طعام تعطيه أمّها إياه من أجل وجبة الغداء في المدرسة. لم تكن تتذمّر من ذلك الطعام؛ لكنها ترفض أكله فحسب. عندما بدأت داون تشك في ما يحدث فسألتها عما تناولته على الغداء، لم تُخفِ ميري الأمر بل أخبرتها به من غير تحفّظ. قالت لها داون: «تكونين أحيانًا طفلة مشاكسة». «أنا لست مشاكسة. لو لم تسأليني عمّا أكلته في وجبة الغداء، لما قلتِ إنني مش - مش - مشاكسة». قالت أمها غاضبة: «ليس من السهل دائمًا أن تكوني صادقة، أليس كذلك يا ميري؟». «أظن يا ماما... أن أكون صادقة من أن أكون نص - نص - نصف صادقة». قالت لأبيها على انفراد، في ما بعد: «لم تعجبني قطعة الفاكهة كث - كث - كثيرًا، فرميتها». «لقد رميت الحليب أيضًا». «كان الحليب دافئًا بعض الشيء، يا بابا». لكن حقيبة الطعام كانت تحتوي دائمًا على عشرة سنتات من أجل شراء الآيس كريم. وهكذا كان الآيس كريم كل ما تتناوله في المدرسة. لم تكن تحب الخردل. كان ذلك موضوع تذمّرها الدائم خلال السنوات التي سبقت بداية تذمّرها من الرأسمالية. سألته ذات مرة: «ما الذي يفعله الأطفال؟». كانت باتي هي الإجابة. تأكل باتي السندويتشات بالخردل والجبن المعلّب. لكن ميري أسرّت لأبيها في واحد من أحاديثهما بأنها لا تفهم ذلك «على الإطلاق». كانت ميري تفضّل سندويتشات الجبن الذائب على أي شيء آخر. جبن مونستر الذائب مع الخبز الأبيض. كانت تأتي بباتي معها إلى البيت بعد المدرسة. وباعتبار أن ميري لا تأكل طعام الغداء الذي تأخذه إلى المدرسة، فإنهما تعدّان سندويتشين بالجبن الذائب. كانتا تكتفيان أحيانًا بإذابة الجبن على رقاقة من ورق القصدير. كانت واثقة من أنها قادرة على العيش على الجبن الذائب وحده إن اضطرت إلى ذلك. هكذا قالت لأبيها. لعل ذلك كان أقصى حالات انعدام المسؤولية التي بلغتها تلك الطفلة: تأتي مع باتي بعد المدرسة فتذيب الجبن على ورق القصدير، ثم تأكله. ظل الوضع هكذا إلى أن فجّرت ذلك المتجر. لم تكن قادرة حتى على جعل نفسها تفصح عن مدى انزعاجها من طبع باتي لخشيتها من إيذاء مشاعرها.

«المشكلة هي أن أحدهم يأتي إلى بيتك، ثم تصير في غاية الملل بعد فترة من ذلك». لكنها كانت تتصرّف مع أمها دائمًا كما لو أنها تريد أن تبقى باتي عندها فترة أطول. ماما، هل تسمحين لباتي بالبقاء لتناول العشاء معنا؟ ماما، هل تسمحين لباتي بأن تنام عندنا؟ ماما، هل تسمحين لباتي بأن تنتعل حذائي؟ ماما هل تأخذينا بالسيارة، إلى القرية، أنا وباتي؟

عندما كانت في الصف الخامس، قدّمت لأمها هديّة في عيد الأم. وفي المدرسة، طلبوا من التلاميذ أن يكتب كل منهم عن شيءٍ مستعدٍّ لفعله من أجل أمه. فكتبت ميري أنها مستعدّة لإعداد طعام العشاء كل ليلة جمعة. كان ذلك عرضًا شديد السخاء من طفلة في العاشرة من عمرها. لكنها وفت بذلك الوعد. كان السبب الأكبر الكامن خلف وفائها بأن ذلك يسمح لها بأن تخبز الزيتي ليلةً كل أسبوع. ثم إن المرء لا يكون مضطرًا إلى رفع الأطباق عن الطاولة وتنظيفها إذا كان هو من أعد الطعام. كانت داون تساعدها أحيانًا في صنع اللازانيا أو المحار المحشو؛ لكنها كانت قادرة على خبز الزيتي وحدها من غير مساعدة. كانت تعد المعكرونة والجبن في بعض أيام الجمعة، لكنها تخبز الزيتي أكثر الأحيان. كانت تقول لأبيها إن الأمر المهم هو التأكد من أن الجبن قد ذاب، على الرغم من أن التأكد من تحميص الطبقة العليا من الزيتي حتى تصير مقرمشة لا يقل عن ذلك أهمية. كان هو من يتولّى التنظيف بعد أن تطهو، أو بعد أن تخبز الزيتي؛ وكان هناك دائمًا الكثير مما يكون عليه تنظيفه. لكنه أحبّ هذا. كانت تقول له، بينها وبينه: «إعداد الطعام ممتع، لكن التنظيف ليس ممتعًا». إلا أن شعوره لم يكن كذلك بعد أن تُعدّ ميري الطعام. عندما سمع من أحد المشترين في متجر بلومينغديل أن في الشارع رقم 49/غرب مطعمًا يقدّم أفضل زيتي في نيويورك، بدأ يأخذ أسرته إلى ذلك المطعم مرة كل شهر. إنه مطعم فينسنت. يذهبون إلى سينما «راديو سيتي»، أو إلى أحد العروض الغنائية في برودواي، ثم إلى مطعم فينسنت. لقد أحبّت ميري مطعم فينسنت. وهناك، أحبها نادل شاب اسمه بيلي. اتضح أنه أحبها لأن لديه في البيت أخ صغير يتأتئ أيضًا. كان يحدّثها عن نجوم السينما والتلفزيون الذين يأتون إلى مطعم فينسنت لتناول الطعام. «أترين أين

يجلس والدك الآن؟ هل ترين كرسيه يا سينيوريِنا؟ كان داني توماس جالسًا على هذا الكرسي الليلة الماضية. هل تعرفين ما يقوله داني توماس عندما يأتي الناس إلى طاولته للحديث معه؟».

تجيبه السينيورينا: «لا أع - أعرف».

«إنه يقول ‘تسرّني رؤيتك!’». ثم تذهب إلى المدرسة يوم الاثنين، فتعيد على مسامع باتي ما قاله لها بيلي في مطعم فينسنت في نيويورك في اليوم السابق. هل كانت هناك طفلة أكثر سعادة منها؟ هل كانت هناك طفلة أقل منها نزوعًا إلى التدمير؟ وهل كانت هناك أية سينيورينا يحبّها أبوها وأمها أكثر منها؟ لا.

اقتربت منه امرأة سوداء في بنطلون أصفر ضيّق، امرأة جسيمة كأنها حصان من أحصنة جر العربات في إحدى المزارع. أتت بخطوات متثاقلة على حذائها ذي الكعب المرتفع. امتدت إليه يدها حاملة قطعة ورق صغيرة. رأى ندوبًا كبيرة في وجهها. أدرك أنها أتت لإخباره بأن ابنته قد ماتت. كان ذلك مكتوبًا على الورقة. إنها رسالة من ريتا كوهن. قالت له المرأة: «سيدي، هل يمكنك إخباري أين يقع مقر ‘جيش الخلاص’؟». سألها: «هل هناك جيش خلاص؟». أجابته: «نعم، أظن ذلك»، على الرغم من أنه لم يبدُ عليها ما يشير إلى أنها تظنّ ذلك حقًّا. رفعت الورقة التي في يدها وقالت: «هكذا تقول الورقة. هل تعرف مكانه يا سيدي؟». عادة ما يكون معنى أي كلام يبدأ بكلمة «سيدي»، أو ينتهي بكلمة «سيدي»، هو «أريد مالًا». وهكذا مد يده إلى جيبه وناولها بعض الأوراق المالية. سارت مبتعدة واختفت في النفق الذي يعبر من تحت سكة الحديد سائرة بخطوات متمايلة في حذائها غير المناسب لقدميها. وبعد ذلك، لم يعد يرى أحدًا هناك. انتظر أربعين دقيقة، وكان مستعدًا للانتظار أربعين دقيقة أخرى. كان مستعدًا للانتظار هناك إلى أن يحلَّ الظلام. ولعلّه كان مستعدًا للبقاء زمنًا طويلًا بعد أن يحلّ الظلام: رجل يرتدي بدلة ثمنها سبعمئة دولار مستند بظهره إلى عمود النور مثلما يفعل أي متسوّل يرتدي أسمالًا بالية؛ رجل يبدو من مظهره أن لديه اجتماعات يذهب إليها، وصفقات أعمال يبرمها، والتزامات اجتماعية يقوم بها، لكنه يتسكّع عامدًا في شارع بائس على مقربة من محطة سكة الحديد. لعله

ثري من خارج المدينة لديه انطباع خاطئ بأنه وصل إلى «منطقة النور الأحمر»، فوقف هناك متظاهرًا بالتحديق في الفراغ من غير هدف، لكن رأسه ممتلئ أسرارًا وقلبه ينبض سريعًا (كان ينبض سريعًا بالفعل). بافتراض أن ريتا كوهن كانت تقول الحقيقة، وأنها كانت تقول له الحقيقة دائمًا، فقد كان من الممكن تمامًا أن يظل واقفًا في ذلك المكان طيلة الليل وفي الصباح التالي مترقّبًا الإمساك بميري عندما تأتي إلى العمل. لكن، رحمةً به - إن كان هذا هو التعبير المناسب - ظهرت ميري بعد أربعين دقيقة فقط: جسد أنثوي طويل، لكن من المستحيل أن يتعرف فيه على ابنته لو لم يُقَل له أن يبحث عنها هنا.

خذلته مخيّلته من جديد. أحسّ كما لو أن ما من سيطرة لديه على عضلاته، حتى على العضلات التي كان مسيطرًا عليها عندما كان عمره سنتين اثنتين؛ وما كانت الدهشة لتصيبه إن خرج منه كل شيء، من غير استثناء دمه، وانسكب على الرصيف. كان هذا أمرًا أكبر من أن يستطيع خوض معركة معه. كان هذا أكبر كثيرًا من أن يستطيع إحضاره إلى البيت، إلى وجه داون الجديد. ولا حتى النوافذ السقفية ذات التحكّم الكهربائي فوق المطبخ الحديث الذي كانت في قلبه «جزيرة الطهو» الحديثة جدًا ما كانت قادرة على تمكين داون من العثور على طريق عودة من هذا الأمر. مرّت عليه ألف وثمانمئة ليلة تحت رحمة مخيلة والدِ فتاة قاتلة، لكنها لم تستطع جعله قادرًا على التعرّف على شخصيتها الجديدة. ما كان تفادي الوقوع في قبضة الـ «إف بي آي» في حاجة إلى هذا كلّه. كان التفكير في كيفية وصولها إلى هذه الحال أمرًا مرعبًا له. لكن، هل يفرّ من طفلته؟ هل يفرّ خائفًا؟ هناك روحها التي لا بد من رعايتها. قال في نفسه آمرًا إياها: «الحياة! لا أستطيع تركها تذهب! إنها حياتنا!». كانت ميري قد رأته في تلك اللحظة؛ وحتى لو كان الأمر ممكنًا بالنسبة إليه، فإنه لم يتهاوَ ولم يفر لأن وقت الهرب قد فات.

ثم... إلى أي شيء يستطيع الفرار؟ هل يستطيع الهرب والفرار إلى ذلك السويدي الذي كان قادرًا على فعل كل شيء بيسر؟ أَيفرُّ إلى ذلك السويدي الذي حلّت عليه لعنة نسيان اسمه ونسيان أفكاره؟ هل يفرّ إلى السويدي ليفوف الذي

كان في يوم من الأيام... لعلّه كان يمكن أيضًا أن يفرّ طالبًا معونة تلك المرأة الجسيمة السوداء ذات الندوب على وجهها. لو فعل ذلك لوجد نفسه يسألها: «سيدتي، هل تعرفين أين أنا؟ هل لديك أية فكرة أين ذهبت؟».

كانت ميري قد رأته. كيف يمكن ألّا تراه؟ كيف يمكن ألّا تراه حتى لو كانا في شارع حيث توجد حياة ولا يوجد موت، حيث يوجد حشد من الناس الساعين إلى شيء ما، المستعجلين، الذين لديهم دافع يحرّكهم، الناس المصمّمين، وليس في هذا الخواء الخبيث هنا؟ ها هو أبوها الوسيم البالغ طوله ست أقدام وثلاثة إنشات. الذي لا تخطئه عين، الأب الذي لا يمكن أن يكون لفتاة أب وسيم أكثر منه. جرت عبر الشارع... هذه المخلوقة المذعورة... وعلى غرار تلك الطفلة خالية البال التي كان يستمتع بتخيّل صورتها منذ زمن بعيد عندما كان لا يزال، هو نفسه، فتى خليّ البال، صورة الفتاة التي تترك أرجوحتها وتجري إلى أبيها أمام البيت الحجري... رمت بنفسها على صدره وطوّقت رقبته بذراعيها. ومن تحت اللثام الذي غطّت به النصف الأسفل من وجهها فأخفت فمها وذقنها، ذلك اللثام الرقيق الذي كان فردة جورب مهلهل من النايلون، من تحت ذلك اللثام قالت للرجل الذي كانت قد كرهته: «بابا! بابا!». قالتها من غير تقطّع. قالتها كما تقولها أية طفلة أخرى. وبدت كما لو أن مأساتها هي أنها لم تكن طفلة أحد من قبل. كان بكاؤهما شديدًا؛ الأب الموثوق الذي هو منبع كل نظام، الذي ما كان قادرًا على التغاضي عن أصغر دليل على الفوضى ولا على السماح به... الأب الذي كان إبعاد الفوضى والسيطرة عليها طريقًا إلى اليقين يختاره بحدسه، الأب المواظب على الحياة من غير تهاون، والابنة التي هي الفوضى في حد ذاتها.

(34) فرانكلين ديلانو روزفلت Franklin D. Roosevelt (1882 - 1945): الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة الأميركية (1933 - 1945). ولد في بلدة هايد بارك القريبة من نيويورك ودفن فيها.

(35) قرابة 49 درجة مئوية.

(36) كارمن ميراندا Carmen Miranda: مغنية سامبا برازيلية الأصل

كانت لها شهرة واسعة في أميركا من الثلاثينات إلى الخمسينات.

(37) بالوني Baloney: نوع من السندويتشات شائع في الولايات المتحدة وكندا.

- 6 -

لقد صارت واحدة من طائفة «جاين». لم يكن أبوها يعرف تلك الكلمة إلى أن أخبرته عن معناها بصبر - أخبرته متكلمة كلامًا منطلقًا من غير تأتأة كذلك الذي كان يمكن أن تتكلمه في البيت لو أنها استطاعت ضبط تأتأتها وهي تعيش في كنف والديها. جاين طائفة دينية هندية صغيرة نسبيًا - كان قادرًا على تقبّل هذه المعلومة كحقيقة من الحقائق. وأما إن كانت ممارسات ميري الدينية مأخوذة من تلك الطائفة أو كانت قد استنبطتها بنفسها، فهذا ما لم يكن متيقّنًا منه، على الرغم من إصرارها على أن كل ما تفعله الآن هو تعبيرٌ عن معتقدها الديني. كانت تضع ذلك اللثام حتى لا تؤذي الكائنات العضوية المجهرية الموجودة في الهواء الذي نتنفسه. وكانت ممتنعة عن الاستحمام لأنها تقدّس أشكال الحياة كلّها، بما فيها الهوام والطفيليات. قالت له إنها لا تغسل يديها من أجل «عدم التسبّب بأي أذى للماء». وكانت تمتنع عن السير بعد حلول الظلام، حتى في غرفتها نفسها، وذلك خشية أن تطأ قدمها على شيء حي ما. شرحت له أن هناك أرواحًا محبوسة في كل شكل من أشكال المادّة. وكلّما كان شكل الحياة أكثر تدنّيًا، كلّما كان عذاب الروح المحبوسة فيه أكبر. وأما الطريقة الوحيدة على الإطلاق لأن تصير حرّة من المادة وتصل إلى ما وصفته بأنه «نعمة الكفاية الذاتية من أجل الأبدية كلّها»، فهي أن تصل إلى ما دعته بنبرة احترام «الروح الكاملة». لا يستطيع المرء الوصول إلى هذا الكمال إلا من خلال الزهد الشديد ونكران الذات، ومن خلال مبدأ آهيتنسا، أي اللاعنف.

كانت «العهود» الخمسة التي قطعتها على نفسها مطبوعة على بطاقات صغيرة، ومكتوبة على الجدار فوق حزمة ضيقة بشعة من المطاط الرغويّ القذر موضوعة على الأرض غير المكنوسة. كانت تنام على تلك الحزمة؛ وبالنظر إلى عدم وجود أي شيء في الغرفة غير تلك الحزمة في إحدى

زواياها، وكومة خرق في الزاوية الأخرى ملابسها - فلا بد أنها تجلس على فراشها نفسه لكي تأكل، مهما يكن نوع الطعام الذي تقتات به. كان واضحًا من مظهرها أنها تأكل القليل، القليل جدًّا. وكان شكلها يوحي بأنها لا تعيش على مسافة خمسين دقيقة إلى الشرق من أولد ريمروك، بل في كالكوتا على حافّة الموت جوعًا، لا بوصفها مؤمنة نقيّة، مخلصة لزهدها، بل بوصفها فردًا زريّ الحال من أدنى طبقات المجتمع، يتحرّك بائسًا هنا وهناك، على أطراف مهزولة لشخص من فئة المنبوذين.

كانت الغرفة شديدة الضآلة، بل كانت أصغر حتى من تلك الزنزانة في سجن الأحداث حيث كان يتخيّل - عندما يجافيه النوم - أنه يزورها بعد اعتقالها. بلغا غرفتها بعد السير من مستشفى الكلاب والقطط في اتجاه محطة القطارات، ثم الانعطاف غربًا عبر نفقٍ مؤدٍّ إلى طريق ماكارتر السريع. كان ذلك نفقًا لا يتجاوز طوله مئة وخمسين قدمًا، لكنه من النوع الذي يجعل سائقي السيارات يقفلون نوافذ سياراتهم من الداخل عند عبوره.

لم تكن في سقف ذلك النفق مصابيح. تناثرت على رصيفيه قطع متكسّرة من الأثاث، وعلب بيرة، وزجاجات، وكتل من أشياء لم يستطع تحديدها. كانت تحت قدميها لوحات تسجيل سيارات. لم ينظف أحد هذا المكان منذ عشر سنين. بل لعلّ أحدًا لم ينظّفه أبدًا. كانت قطع الزجاج تتكسّر تحت حذائه مع كل خطوة يخطوها. رأى كرسيًّا مما يوضع في البارات واقفًا في وسط الرصيف. من أين أتى هذا الكرسي؟ من أتى به؟ رأى أيضًا بنطلونًا رجاليًا مشوّهًا، بنطلونًا قذرًا. من كان ذلك الرجل؟ وما الذي حدث له؟ لو رأى السويدي هناك ساقًا أو ذراعًا لما فاجأه ذلك. كان في طريقهما كيس قمامة بلاستيكي قاتم اللون. كان مربوطًا. ماذا فيه؟ كان كيسًا ضخمًا بما يكفي لأن يكون فيه جسم إنسان ميت. كانت هنالك أجسام أيضًا، أجسام حية، أشخاص يتحرّكون هنا وهناك، بين الأوساخ... أشخاص ذوو مظهر خطير يلوّحون في الظلمة. وفي الأعلى، كانت عوارض الجسر المسودّة، وهدير قطار... هدير قطار مقترب من المحطة ينبعث صوته من تحت عجلاته. يدخل المحطة في اليوم الواحد خمسمئة قطار، أو ستمئة

قطار. للوصول إلى الغرفة التي استأجرتها ميري على مقربة شديدة من طريق ماكارتر السريع، عليك أن تجتاز هذا النفق الذي هو أكثر الأنفاق خطورة، لا في نيوارك وحدها، بل في العالم كله.

كانا ذاهبين سيرًا على الأقدام لأنها رفضت ركوب السيارة معه. «إنني أمشي فقط يا بابا. أنا لا أستخدم أي نوع من المركبات العاملة بمحرك». وهكذا، ترك سيارته في ريل رولد آفنيو ليسرقها من يشاء سرقتها، وسار إلى جانبها حتى غرفتها الواقعة على مسيرة عشر دقائق، مسيرة كان من الممكن أن تجعله يذرف الدموع بعد عشر خطوات لولا أنه واصل القول لنفسه: «هذه هي الحياة! هذه هي حياتها! لا أستطيع تركها تذهب»... لم يُمسك يدها بكفّه أثناء اجتيازهما ذلك النفق المخيف لولا أنه راح يذكّر نفسه: «هذه هي يدها. هذه يد ميري. لا أهمية لشيء غير يد ميري». كان من الممكن أن تجعله تلك المسيرة يبكي لأن ميري كانت تحب أن تلعب معه لعبة «مشاة البحرية» عندما كانت في السادسة أو في السابعة من عمرها، فإما أن يصيح بها أو أن تصيح به «انتباه! راحة! استرح!»؛ وكانت تحب أن تمشي معه مشية عسكرية... «إلى الأمام، سر! إلى اليسار، سر! إلى اليمين، سر!»؛ وكانت تحبّ أداء التمرينات الرياضية معه... «أنتم، يا ناس، انحنوا إلى أن تلمسوا السطح!»؛ كانت تحب أن تدعو الأرض «سطحًا»، وأن تدعو الحمّام في بيتهم «غرفة القيادة»، وأن تدعو سريرها «رف النوم»، وأن تدعو الطعام الذي تعده داون «جِراية». لكن أكثر ما أحبّته كان تقليد إيقاع إيعازات السير في معسكر باريس آيلاند عندما تنطلق في المرعى - محمولة فوق كتفيه - بحثًا عن بقرات أمها. كانت تكرّرها من غير تأتأة؛ لم تكن تتعثّر عند نطق أية كلمة عندما يلعبان «مشاة البحرية».

كانت الغرفة في الطابق الأرضي من بيت لعله كان بنسيونًا منذ مئة عام؛ ولعله لم يكن بنسيونًا سيئًا، بل مكان محترم، أرضية ردهته من الحجر البنّي فوقها جدران أنيقة المظهر من الطوب ودرابزون منحنٍ من الحديد مؤدٍّ إلى باب مزدوج. لكن البنسيون القديم كان قد صار ركامًا منسيًا في شارع ضيق لم يبق فيه إلا بيتان اثنان. والعجيب أن شجرتين من أشجار نيوارك العتيقة كانتا باقيتين

هناك أيضًا. كان ذلك المبنى واقعًا بين مستودعات مهجورة ومساحات غير مبنية نمت فيها أعشاب طويلة تناثرت بينها قطع من نفايات معدنية صدئة، ونفايات ميكانيكية مبعثرة هنا وهناك.

كان الحجر التزييني المثلّث منتزعًا من فوق الباب، وكانت الأفاريز المزخرفة منتزعة أيضًا: انتزعت وسُرقت بحرص وعناية، ثم أُخذت لكي تباع في متجر من متاجر الأنتيكات في نيويورك. كانت البيوت الأقدم عهدًا في مختلف أنحاء نيوارك قد فقدت زيناتها الحجرية كلها... انتزعت أفاريز تزيينية مزخرفة يبلغ ارتفاعها أربعة طوابق، انتزعت باستخدام روافع ذات منصّة، أي باستخدام آلة يبلغ ثمنها مئة ألف دولار. لكن الشرطي كان نائمًا، أو كانوا قد دفعوا له حتى لا يرى شيئًا، فلم يعترض أحد سبيل السارقين، ولم يدقّق أحد في الجهة التي تملك تلك الرافعة والتي كانت تجني من ذلك بعض المال أيضًا. سُرق إفريز الديوك الرومية الذي كان محيطًا بسوق إسكس للمنتجين في واشنطن وفي ليندن: إفريز عليه ديوك رومية من الصلصال المشوي، وعليه رمز الوفرة المؤلّف من قرن تيس ضخم تفيض منه الثمار. احترق المكان، واختفى ذلك الإفريز بين ليلة وضحاها. سُرقت أيضًا أفاريز كنائس الزنوج الكبيرة (أحرقت كنيسة بيثاني المعمدانية، ثم سُدَّت منافذها بألواح خشبية، ثم نهبت، ثم جرفت بالبلدوزرات. وأما كنيسة وايكليف البريسبوتيريانية فقد أتت عليها النار كلّها). سُرقت أنابيب مياه الصرف المصنوعة من الألمنيوم، سرقت حتى من بنايات مسكونة. أنابيب المياه، والمزاريب. سرق كل ما يمكن أن تطاله يد أيٍّ كان: مد يدك، وخذه! الأنابيب النحاسية في المصانع المقفلة... انتزعت، وبيعت. كان كل مكانٍ ذي نوافذ محطّمة مغلقة بألواح خشبية كما لو أنه يقول للناس: «تعالوا واسرقوني. خذوا ما بقي، اسرقوه وبيعوه». سرقة كل شيء... إنها السلسلة الغذائية! تكون في السيارة فتمرّ بمكان عليه لافتة تقول إن هذا البيت معروض للبيع؛ لكنّك لا ترى شيئًا... لا ترى شيئًا يمكن بيعه. سرقت كل شيء عصاباتٌ تتجوّل في سيارات؛ وسرق كل شيء رجالٌ يجوسون أنحاء المدينة دافعين أمامهم عربات تسوّق. سُرق كل شيء من قبل لصوص يعملون منفردين. أشخاصٌ يائسون

فقدوا كل أمل فصاروا يأخذون كل شيء. إنهم يخرجون لجمع «سقط المتاع» مثلما يذهب قرش لصيد الأسماك.

كان أبوه يصيح قائلًا: «لا يخطر في أذهانهم عندما يرون حجرًا لا يزال قائمًا فوق حجر آخر إلا أن الاسمنت الذي بينهما قد يكون مفيدًا لهم. وهكذا فإنهم ينتزعون الحجر ويأخذون الإسمنت. لم لا؟ الإسمنت! هذه ليست مدينة يا سايمور... إنها جثة! اخرج منها!».

كان الشارع الذي تعيش فيه ميري مرصوفًا بالحجارة. لا يمكن أن يكون قد بقي سليمًا في المدينة كلّها أكثر من عشرة شوارع من هذه الشوارع المرصوفة بالحجارة. سُرق آخر شارع مرصوف (كان شارعًا مرصوفًا جميلًا) بعد نحو ثلاثة أسابيع من انتهاء الشغب. كانت الأنقاض لا تزال عابقة بروائح دخان الحرائق حيث كان الدمار على أشدّه، جاء مقاول بناء من الضواحي في الساعة الواحدة صباحًا، وجاء معه فريق من الرجال وثلاث شاحنات. نحو عشرين رجلًا أتوا خلسة فانتزعوا حجارة الشارع كلّها خلال الليل من غير أن يزعجهم أي شرطي. انتزعوا حجارة ذلك الشارع الجانبي الضيّق الذي يمرّ منحرفًا من خلف شركة نيوارك ميد، ثم أخذوها. كان الشارع قد اختفى عندما أتى السويدي إلى الشركة صباح اليوم التالي.

سأله أبوه: «هل صاروا يسرقون الشوارع الآن؟ وهل صارت نيوارك عاجزة حتى عن المحافظة على شوارعها؟ اخرج منها يا سايمور!». كان أبوه قد صار صوت العقل!

لم يكن طول شارع ميري أكثر من مئتي قدم؛ وكان محصورًا في ذلك المثلث الواقع بين شارع ماكارتر - الذي تهدر فيه دائمًا حركة شاحنات النقل الثقيلة طيلة الليل وطيلة النهار - وبين أنقاض شارع مالبيري. يستطيع السويدي تذكّر كيف كان شارع مالبيري حيًّا صينيًا فقيرًا منذ الثلاثينيات؛ أي منذ تلك الأيام التي كانت فيها أسرة ليفوف في نيوارك، جيري وسايمور وماما وبابا، تذهب إلى مطعم عائلي يصعد المرء سلمًا ضيّقًا حتى يصل إليه. وذلك لتناول وجبة تشاو مين في أيام الأحد قبل أن يعودوا بالسيارة إلى بيتهم في شارع كير. كان

أبوه يحكي للولدين قصصًا عجيبة عن «حروب تونغ»(38) في شارع مالبيري في ما مضى.

في ما مضى! قصص عن أيام مضت. لم تعد هناك قصص عن أيام مضت، لم يعد هناك شيء. كان في الغرفة فراش حائل اللون بقّعه الماء كأنه قطعة ورق مقوّى ينام عليها سكير إلى جانب عمود النور في الشارع. لا تزال على العمود لافتة تحمل اسم تلك الزاوية. لا وجود لشيء آخر.

من فوق سقف بيتها، ومن خلفه، كان يرى سماء نيوارك التجارية الواقعة على مسافة نصف ميل، ومعها تلك الكلمات الثلاث المألوفة، المريحة... الكلمات الثلاث التي تشيع في النفس الطمأنينة أكثر من أي كلمة أخرى في الإنكليزية. كلمات مثل شلال على الجرف ذي الزينة الرشيقة الذي كان في يوم ما نقطة المركز في قلب المدينة الضاجّ بالحركة... تلك الحروف الضخمة المتألّقة البيضاء على ارتفاع عشرة طوابق معبّرة عن الثقة المالية وعن الأداء المؤسساتي القوي وعن تقدّم المدنية... عن الفرص، وعن الاعتزاز... حروف راسخة تستطيع قراءتها من مقعد طائرتك القادمة من الشمال صوب المطار الدولي: مصرف الأمانة الأول(39).

هذا كل ما بقي... الكذبة! الأول! بل الأخير، بنك الأمانة الأخير! من الأسفل، من مستوى الأرض، حيث تعيش ابنته الآن عند تقاطع شارعي كولومبيا وغرين... حيث تعيش ابنته عيشة أسوأ حتى من عيشة جدّها وجدّتها عندما كانا غرّين حديثَيْ العهد بهذه البلاد، عندما لم يكن قد مضى على نزولهما من السفينة وقت طويل، عندما كانا يعيشان في تلك الشقّة السكنية في شارع برنس. يستطيع المرء رؤية تلك اللوحة الإعلانية العملاقة المصمَّمة من أجل إخفاء الحقيقة. لافتة لا يستطيع تصديقها غير المجانين. لافتة في قصّة من قصص الخيال.

ثلاثة أجيال. ثلاثة أجيال كان كل منها في حالة تطوّر ونمو. الجيل العامل. والجيل الموفّر. والجيل الذي بلغ النجاح. ثلاثة أجيال كانت منتشية بأميركا. ثلاثة أجيال من التوحّد مع هذا الشعب. وأما الآن، فقد انتهى الأمر كلّه إلى لا شيء مع الجيل الرابع. إنه التخريب الكلّي لعالمهم.

كانت الغرفة من غير نافذة. وما كان فيها إلا فتحة صغيرة ضيّقة فوق الباب تفضي إلى الممر غير المضاء، إلى تلك المبولة البالغ طولها عشرين قدمًا بجدرانها الجصّية المتهالكة، التي ودّ لو أنه يحطّمها إربًا بقبضتي يديه لحظة دخل المكان وشم رائحته. يؤدّي ذلك الممر إلى الشارع عبر باب من غير مقبض ولا قفل، ومن غير زجاج في إطاره المزدوج. لم ير في أي مكان في غرفتها صنبور ماء أو مشعّ تدفئة. لم يستطع تخيّل كيف يمكن أن يكون المرحاض، أو أين يمكن أن يكون، بل تساءل إن كان ذلك الممر هو المرحاض بالنسبة إليها، وبالنسبة إلى المتشرّدين الذين يأتون من الطريق السريعة أو من شارع مالبيري. لو كانت واحدة من بقرات داون، لعاشت أحسن من هذه العيشة، بل أحسن كثيرًا، في السقيفة، حيث كان القطيع يتجمّع على نفسه في الطقس السيئ، وتتقارب أجساد الأبقار فتدفأ... ويطول الشعر الذي يكسو جلدها في الشتاء... تنهض والدة ميري قبل السادسة صباحًا، حتى في أيام الشتاء التي يتساقط فيها مطر متجمّد، وحتى في أيام الشتاء الصقيعية، فتحمل حزم التبن لإطعام أبقارها. لم يكن يظنّ أن برد الشتاء يحمل أي إزعاج لتلك الماشية. فكّر في الاثنين اللذين كانوا يدعونهما «المنبوذين»: عملاق داون المتقاعد الثور كاونت، والفرس العجوز سالي، اللذين كان كل منهما في سن تعادل سبعين أو خمسة وسبعين عامًا من أعمار البشر، لكن أحدهما وجد الآخر عندما كانا فوق التلة فلم ينفصلا بعد ذلك... يسير الأول، فيتبعه الثاني، ويفعلان معًا كل ما يبقيهما مرتاحَيْن سعيدَيْن. كان أمرًا ساحرًا أن يراقب المرء نظامهما اليومي وتلك الحياة الرائعة التي كانت لهما. تذكّر الأيام المشمسة عندما كانا يستلقيان في أشعة الشمس ليدفآ. تمنّى لو أن ابنته قد صارت حيوانًا مثلهما.

كان ذلك شيئًا يتجاوز إمكانية الفهم؛ ليس فقط كيف تستطيع ميري العيش في هذه الزريبة كأنها شخص منبوذ، ولا حتى كيف يمكن أن تكون ميري هاربة مطلوبة في جريمة قتل، بل كيف يمكن أن يكون هو وداون المنبع الأصلي لهذا كلّه. كيف أمكن أن تجتمع نقاط ضعفهما فتنتج هذا الكائن البشري؟ لو أن شيئًا من هذا كله لم يحدث، ولو أنها بقيت في البيت، وأنهت المدرسة الثانوية، وذهبت

إلى الكلية، فسوف تكون لديها مشكلات، بالطبع، بل مشكلات كبيرة. لقد كان تمرّدها مبكرًا كثيرًا، وكان لا بد من وقوع مشكلات، حتى من غير وجود حرب في فيتنام. لو كانت في البيت لانغمست زمنًا طويلًا في مسرّة الاعتراض والمقاومة وتحدّي اكتشاف المدى الذي يمكن أن يبلغه جموحها. لكنها ستكون في البيت. عندما يكون المرء في البيت، يمكنه أن يطلق العنان قليلًا لغضبه، ثم ينتهي الأمر ولا تتاح له تلك المسرّة المحض التي لا يخالطها شيء. يفقد السيطرة على غضبه، يفقدها قليلًا مرات كثيرة جدًا فيقرّر آخر الأمر أن هذا ممتع كثيرًا، فلماذا لا يطلق عنان غضبه كثيرًا؟ عندما يكون المرء في البيت، لا تسنح له فرصة تخدير نفسه في هذا البؤس. عندما يكون المرء في البيت، لا يكون قادرًا على العيش حيث تكون الفوضى. عندما يكون المرء في البيت، لا يستطيع العيش حيث لا حدود لشيء. عندما يكون المرء في البيت، يظهر ذلك التضاد الهائل بين العالم الذي كانت ميري تتخيّله والعالم الذي كان موجودًا بالنسبة إليها. حسنًا، ما عاد لديها ذلك التنافر الذي يشوّش توازنها. ها هي خيالاتها الريمروكية وقد تجسّدت هنا؛ ها هي نتيجتها المفزعة.

لقد شكّل الزمن كارثتهم تشكيلًا مأساويًا - لم يمضيا زمنًا كافيًا معها -. يمكنك فعل ذلك عندما تكون ابنتك في كنفك؛ عندما تكون هناك. عندما تكون على تواصل مستقرٍّ مع طفلك على امتداد الزمن، فإن الأشياء التي هي ليست على ما يرام - الأحكام الخاطئة التي يتّخذها كل من الطرفين - تتحسّن وتتحسّن يومًا بعد يوم من خلال التواصل المستقر الصبور إلى أن يكون لها علاج آخر الأمر، تتحسّن إنشًا بعد إنش، يومًا بعد يوم؛ إنه الرضا المألوف الذي يكون ثمرة صبر الأبوين، الرضا عن حلحلة الأمور. وأما هذا...! أين هو علاج هذا! وهل يستطيع أن يأتي بداون إلى هذا المكان لكي تراها؟ هل يستطيع إحضار داون بوجهها الجديد المشدود المتألّق لترى ميري جالسة متربعة على الفراش، مرتدية قميصها المهلهل، وبنطلونها ذا الشكل الغريب، وذلك اللثام الأسود على وجهها؟ هل يستطيع أن يأتي بها لترى ابنتها هادئة خانعة خلف ذلك الحجاب الذي يثير الغثيان؟ كم يبلغ عرض عظمَيْ كتفيها؟ إنهما مثل كتفَيْه. وأما ما هو معلّق من

هذين العظمين فليس إلا لا شيء. ما رآه جالسًا أمامه لم يكن ابنةً، أو امرأةً، أو فتاة. ما رآه أمامه في ملابس رثة بالية، ما كان شديد النحول مثل فزاعة الحقل، كان أشد رموز حياة البؤس هزالًا؛ كان تقليدًا ساخرًا لكائن بشري؛ كان شيئًا بعيدًا كل البعد عن أن يشبه شخصًا من عائلة ليفوف. كيف يستطيع أن يأتي بداون إلى هذا المكان؟ كيف يستطيع أن يأتي بها عبر طريق ماكارتر السريع بالسيارة، ثم ينعطف فيدخل هذا الشارع، ثم المستودعات، ثم الركام، ثم النفايات، ثم القمامة... عندما ترى داون هذه الغرفة، وتشمّ رائحة هذه الغرفة، وتمسّ يداها جدران هذه الغرفة، عندما تمسّ جلد ابنتها المتّسخ وشعرها المشعث المجزوز من غير رحمة...

ركع على ركبتيه حتى يقرأ البطاقات الموضوعة تمامًا حيث كانت، في يوم ما، تعلّق صور أودري هيبورن المأخوذة من المجلّات فوق سريرها في أولد ريمروك.

أرفض كل قتل لكائنات حيّة، صغيرة أو كبيرة، متحرّكة أو غير متحرّكة.

أرفض أشكال الكلام الكاذب كلّها، سواء كانت منطلقة من الغضب أو الجشع أو الخوف أو الشر.

أرفض أخذ أي شيء غير مقدّم عن طيب خاطر، سواء كان ذلك في قرية أو مدينة أو غابة، وسواء كان قليلًا أو كثيرًا أو صغيرًا أو كبيرًا، أو شيئًا حيًّا أو غير حيٍّ.

أرفض المسرّات الجنسية كلّها، مع الآلهة والبشر والحيوانات.

أرفض كل ارتباط، سواء أكان قليلًا أم كثيرًا، صغيرًا أم كبيرًا، حيًا أم غير حي؛ ولم أنشئ بنفسي أي ارتباط، ولن أدفع الآخرين إلى إنشائه، ولن أقبل قيامهم بإنشائه.

من حيث كونه رجل أعمال، كان السويدي رجلًا يتمتع بدهاء. ومن خلف مظهره الخارجي اللطيف لرجل يعرف الاستفادة من ذلك المظهر، كان قادرًا أيضًا على الدهاء في تدبير أموره بقدر ما تدعو إليه الحاجة. لكنه لم يستطع رؤية كيف يمكن حتى لأكثر الحسابات برودًا أن يساعده في هذا الموقف. ولم ير

كيف يمكن أن تساعده موهبة الأبوة في العالم كلّه حتى إذا اجتمعت واحتشدت في رجل واحد. قرأ نذورها الخمسة من جديد، وفكّر فيها بأقصى ما استطاعه من تفكير جاد وهو يحيّر نفسه طيلة الوقت بعبارة من أجل الطهر... باسم الطهر.

لماذا؟ ألأنها قتلت شخصًا، أم لأنها كانت في حاجة إلى التطهّر حتى لو لم تقتل ذبابة؟ أم إن للأمر علاقة به؟ بتلك القبلة الحمقاء؟ كان ذلك قبل عشر سنين؛ ثم إنه لم يكن شيئًا، ولم يفضِ إلى شيء، ولم يكن يبدو أنه قد عنى شيئًا كثيرًا بالنسبة إليها، حتى في ذلك الوقت. أيمكن لشيء عديم المعنى إلى هذه الدرجة، شيءٍ عاديٍّ إلى هذه الدرجة، عابرٍ إلى هذه الدرجة، قابلٍ للفهم إلى هذه الدرجة، قابلٍ للصفح إلى هذه الدرجة، بريء إلى هذه الدرجة... لا!

كيف تجوز مطالبته مرة بعد مرة بأن يتعامل تعاملًا جدّيًا مع أشياء لم تكن جدّية؟ لكن ذلك هو المأزق الذي كانت ميري تضعه فيه منذ ذلك الوقت عندما كانت تتشدّق على طاولة العشاء متحدّثة عن لاأخلاقية حياتهم البرجوازية. كيف يمكن لأي إنسان أن يأخذ ذلك الهذر الطفولي على محمل الجد؟ لقد كان أبًا جيدًا بقدر ما يمكن أن يكون أي أبٍ أبًا جيدًا... كان يصغي ويصغي عندما يجد نفسه عاجزًا عن فعل شيء غير النهوض والابتعاد عن طاولة العشاء إلى أن تفرغ كل ما لديها؛ كان يومئ برأسه ويوافق على كل ما يمكن أن يوافق عليه، ولو حتى موافقة هامشية، وعندما يعارضها في شيء ما - وليكن الفعالية الأخلاقية لدافع الربح - كان يعارضها معارضة متحفّظة معتدلة مع كل ما يقدر عليه من عقلانية صبور. لم يكن ذلك سهلًا عليه بالنظر إلى أن ذلك الدافع إلى الربح يستحقّ منها قدرًا بسيطًا من الاحترام والعرفان، إن لم نقل إنه يستحق ولاءً واعترافًا كاملين، فهي الطفلة التي ينفقون عليها ما آلاف الدولارات من أجل تقويم الأسنان والمعالجة النفسية والمعالجة الكلامية، فضلًا عن دروس الباليه ودروس ركوب الخيل ودروس التنس، وتلك الأشياء كلّها التي كانت مقتنعة في وقت ما بأنها غير قادرة على العيش من غيرها. لعلّ غلطته كانت في أنه حاول كثيرًا أن يتعامل تعاملًا جادًّا مع ما لم يكن جادًّا بأي شكل من الأشكال؛ ولعل ما

كان ينبغي عليه فعله، بدلًا من الإصغاء إليها ومن احترام كلامها، هو الرد على هذيانها الجاهل بأن يمد يده من فوق الطاولة فيصفعها على فمها.

لكن، حتى لو فعلها، فما الذي كان يمكن لهذا أن يعلّمها عن الدافع إلى الربح؟... ما الذي كان يمكن لهذا أن يعلّمها عن أبيها؟ لكن، لو فعل ذلك - لو فعل ذلك - لكان من الممكن أن يؤخذ هذا الفم الملثّم على محمل الجدّ. لو فعل هذا، لكان الآن قادرًا على لوم نفسه، «صحيح؛ أنا من فعل بها هذا. فعلته بانفجارات غضبي وبعجزي عن السيطرة على أعصابي». لكن، بدا له كما لو أنه هو المسؤول عن أي شيء يمكن أن يكون قد أصابها لأنه لم يستطع قبول أن يفقد أعصابه، ولأنه لم يرد أن يفقد أعصابه، أو لم يجرؤ على ذلك. لقد سبّب لها هذا عندما قبّلها. لكن من غير الممكن أن يكون هذا هو السبب. لا شيء من هذا يمكن أن يكون هو السبب.

إلا أنه كان سببًا. فها نحن هنا الآن. ها هي هنا، حبيسة هذا الوكر مع هذه «العهود». إنها أحسن حالًا في هذا الوضع المزري. لو كان عليه الاختيار بين ميري البدينة الحانقة المتأتئة بعواصف غضبها الشيوعي وميري الرحيمة القذرة الوادعة الملثّمة، هذه التي هي أشبه بفزّاعة حقول مرتدية أثمالًا... لكن، لماذا يكون عليه أن يختار واحدة منهما؟ ولماذا يكون عليها دائمًا أن تجعل نفسها عبدة لأول فكرة فارغة تقع تحت يدها؟ صارت تحمل هذه الأفكار الغريبة المعتوهة منذ تلك اللحظة التي بلغت فيها سنًا تسمح لها بأن تفكّر بنفسها. ما الذي فعله حتى ينتج هذه الابنة التي رفضت - بعد تميّزها في المدرسة عدة سنين - أن تفكّر بنفسها، أن تستخدم عقلها؟... ابنة لا تعرف غير أن تتخذ موقفًا عنيفًا ضد كل ما يقع عليه نظرها أو موقفًا شديد التعاطف تجاه كل شيء، بل حتى تجاه الكائنات المجهرية في الهواء الذي نتنفّسه؟ لماذا تسعى فتاة ذكيّة مثلها إلى جعل أشخاص آخرين يقومون بالتفكير عنها؟ لماذا يكون عصيًّا عليها أن تسعى (مثلما سعى في كل يوم من أيام حياته) إلى أن تكون هي نفسها، إلى أن تكون وفيّة لذاتها؟ لقد قالت له عندما أشار إلى ترديدها أفكار الآخرين ترديدًا ببغائيًا، «لكنّك أنت هو الشخص الذي لا يفكّر بنفسه. أنت مثالٌ حيٌّ على الشخص الذي لا يفكّر

بنفسه أبدًا!». أجابها ضاحكًا: «هل أنا كذلك حقًّا؟». «أجل! أنت أكثر انصياعًا من أي شخص آخر أعرفه! لا تفعل إلا ما هو متوق - قع منك!». «وهل هذا أمر فظيع أيضًا؟». «إنه ليس تفـ تفـ تفكيرًا، يا بابا! إنه ليس تفكيرًا! إنه شيء آلي غبـ غبـ غبي! إنسان آلي!». أجابها موقنًا بأن ذلك كلّه لم يكن إلا نوبة عابرة، نوبة سوء مزاج لن تلبث أن تتجاوزها: «لا بأس. أظن أن حظك العاثر قد جعل لك أبًا ممتثلًا... أتمنّى لك حظًّا أفضل في المرة القادمة». تظاهر بأن الذعر لم يصبه لرؤية شفتيها الراجفتين المزبدتين المنتفختين تصفعان وجهه بعبارة «إنسان آلي» بضراوة مجنونة. قال في نفسه إنها نوبة، أو مرحلة عابرة، فأحسّ بالارتياح ولم يخطر في ذهنه أبدًا أن اعتبار الأمر «نوبة» أو «مرحلة عابرة» يمكن أن يكون مثالًا سيّئًا على عدم قدرة المرء على التفكير بنفسه.

خيال واهم وسحر. تتظاهر دائمًا بأنها شخص آخر غير نفسها. كان ما بدأ بداية بريئة براءة كافية عندما كانت تلعب دور أودري هيبورن قد ارتقى فصار خرافة عجيبة عن إنكار الذات. أتى في البداية هراء إنكار الذات من أجل الشعب؛ ثم أتى الآن هراء إنكار النفس من أجل «كمال الروح». فما الذي يأتي بعد هذا؟... أيكون صليب الجدة دواير؟ هل تعود إلى هراء إنكار الذات من أجل «الشمعة الأبدية» و«القلب المقدّس»؟ هذا البحث الدائم عن وهم كبير لا علاقة له بالواقع، عن أبعد أشكال التجريد، بدلًا من البحث عن الذات. الرعب الكاذب، اللابشري... رعب إنكار الذات هذا... كلّه!

صحيح... لقد كان حبّه أكبر للابنة التي كانت تبحث عن ذاتها مثل أي شخص آخر أكثر من حبّه لابنته التي حلّت عليها نعمة الغيرية المشوَّهة والكلام من غير تأتأة.

سألها: «كم مرّ عليك من الوقت هنا؟».

«أين؟».

«في هذه الغرفة. في هذا الشارع. في نيوارك. منذ متى تقيمين في نيوارك؟».

«جئت منذ ستة أشهر».

«لقد كنت...». لم يستطع قول المزيد لأنه كان يريد قول كل شيء، يريد

السؤال عن كل شيء، يريد المطالبة بمعرفة كل شيء. ستة أشهر. ستة أشهر في نيوارك. الآن، لم يعد عند السويدي «هنا» ولم يعد لديه «الآن»... لم تعد لديه إلا كلمتان حارقتان قيلتا بطريقة عادية جدًّا: ستة أشهر.

كانت جالسة، وكان واقفًا في مواجهتها، قوّته متعلّقة بالجدار، يميل خلفًا على كعبي حذائه ميلًا لا يكاد يُلحظ كما لو أنه قد يتمكّن بهذه الطريقة من مغادرتها والابتعاد عنها عبر ذلك الجدار، ثم يميل إلى الأمام، على أصابع قدميه، كما لو أنه موشك على الإمساك بها، ورفعها بين ذراعيه، والخروج بها. ما كان قادرًا على العودة إلى بيته لينام في أمان تام في ذلك المنزل في أولد ريمروك وهو يعرف أنها راقدة على هذا الفراش بأسمالها ولثام وجهها كأنها أكثر أهل الأرض وحدة... وهو يعرف أنها نائمة على مسافة إنشات فقط من ممر لن يلبث أن يبتلعها، عاجلًا أو آجلًا.

كانت الفتاة مجنونة عندما بلغت الخامسة عشرة؛ وقد تحمّل جنونها تحمّلًا لطيفًا غبيًا، ولم ير في الأمر كلّه شيئًا أسوأ من أن لها وجهة نظر لا تعجبه لن تلبث - بالتأكيد - أن تكبر وتتجاوزها عندما تتجاوز مرحلة المراهقة المتمرّدة. فانظر إليها كيف صارت الآن! أبشع ابنة يمكن أن تولد لأبوين جذّابين. إنني أرفض هذا! إنني أرفض ذاك! إنني أرفض كل شيء! لا يمكن أن يكون الأمر هكذا، أليس كذلك؟ هل كان مناط الأمر كلّه أنها كانت ترفض شكله وشكل داون؟ هل كان مناط ذلك كلّه أن أمها كانت ملكة جمال نيوجرسي؟ أيمكن أن تبلغ الحياة هذا الحد من تتفيه كل شيء؟ لا يمكن هذا! لا أقبل هذا!

«متى صرت واحدة من طائفة جاين؟».

«منذ سنة».

«وكيف عرفتِ بأمرها؟»

«عن طريق دراسة الأديان».

«كم يبلغ وزنك يا ميريديث؟».

«أكثر مما يلزم، يا بابا».

كان محجرا عينيها كبيرين. محجران كبيران فيهما عينان داكنتان، نصف إنش

فوق لثامها، ثم شعرها فوق محجري عينيها بإنشات قليلة. ما عاد شعرها طويلًا مسترسلًا على ظهرها، بل صار يبدو كأنه شيء ظهر مصادفة فوق رأسها. لا يزال أشقر اللون مثل شعره، لكنه لم يعد طويلًا ولا كثيفًا نتيجة تلك القَصّة التي كانت في حدّ ذاتها عملًا من أعمال العنف. من قصّ لها شعرها هكذا؟ هل قصّته بنفسها أم قصّه شخص آخر؟ باستخدام ماذا؟ بموجب عهودها الخمسة، لا يمكن أن يكون رفضها أي ارتباط رفضًا وحشيًا مثلما رفضت ارتباطها بشعرها الذي كان ذات يوم جميلًا.

«لكنّ مظهرك يوحي بأنك لا تأكلين شيئًا... ماذا تأكلين؟». على الرغم من اعتزامه قول هذه الكلمات من غير إظهار أية مشاعر، فقد خرج الصوت من فم السويدي أشبه بالأنين. حمل صوته كل الفزع الذي أحسّه.

«إنني أدمّر حياة النباتات. لم أمتلك بعد الرحمة التي تجعلني أمتنع عن فعل ذلك».

«تعنين أنك تأكلين النباتات. أليس هذا ما تعنينه؟ ما الشيء الخاطئ في هذا؟ وكيف يمكن أن تمتنعي عن فعله؟ لماذا يكون عليك فعل ذلك؟».

«إنها مسألة ورع شخصي. إنها مسألة احترام الحياة وإجلالها. أنا ملتزمة بعدم إيقاع الأذى بأي كائن حي، لا بشر، ولا حيوان، ولا نبات».

«لكنك تموتين إذا فعلتِ ذلك. كيف يمكن أن تكوني 'ملتزمة' بهذا؟ معنى كلامك أنك لن تأكلي شيئًا».

«إنك تطرح سؤالًا عميقًا. أنت رجل شديد الذكاء، يا بابا. أنت تسألني: 'إذا احترمت الحياة بكل أشكالها، فكيف يمكنك العيش؟'، الإجابة هي أنك لن تستطيع العيش. الطريقة التقليدية التي ينهي بها الإنسان التقي من الجاين حياته هي سالا خانا - أي تجويع الذات -. الموت الطقسي عن طريق سالا خانا هو الثمن الذي يقدّمه الجاين المثالي من أجل الكمال».

«لا أستطيع تصديق أن هذه أنت. ينبغي أن أقول لك ما أراه».

«بالطبع، ينبغي أن تفعل هذا».

«لا أصدّق أنك، أنت الذكية، تدركين ما تقولينه أو ما تفعلينه هنا، أو سبب ذلك.

لا أستطيع تصديق أنك تقولين لي إن لحظةً ستأتي تقرّرين فيها الامتناع عن إنهاء حياة نبتة، وإنك لن تأكلي أي شيء، وإنك ستحكمين على نفسك بالموت. من أجل من يا ميري؟ من أجل ماذا؟».

«لا بأس عليك. لا بأس عليك، يا بابا. أعرف أنك غير قادر على تصديق ما أقوله لك، أو ما أفعله، أو تصديق ما يجعلني أقوله وأفعله».

كانت تخاطبه كما لو أنه هو الطفل وهي الوالد، تخاطبه بعطف وتفهّم، بذلك التسامح المحب الذي كان يبديه تجاهها في ما مضى، التسامح المحب الذي كان شيئًا كارثيًا. أغاظه هذا. تسامحُ فتاة مجنونة. لكنه لم يندفع صوب الباب فرارًا ولم يثب إليها ليفعل ما يجب فعله. لقد ظل الأب المنطقي. ظل الأب المنطقي لفتاة مجنونة. افعل شيئًا! افعل أي شيء! باسم كل شيء منطقي... كفّ عن كونك منطقيًا. هذه الفتاة في حاجة للذهاب إلى المستشفى. لو كانت عائمة على لوح خشبي في وسط البحر لما جعلها ذلك في خطر أكبر مما هي فيه الآن. لقد قفزت من السفينة إلى البحر - لا أهمية الآن للسؤال عن كيفية حدوث ذلك. يجب إنقاذها فورًا!

«أخبريني، أين درست الأديان؟».

«في المكتبات العامة. لا يبحث عنك أحد هناك. كنت أمضي وقتًا طويلًا في المكتبات حيث أقرأ. لقد قرأت الكثير».

«كنت تقرأين كثيرًا عندما كنت طفلة صغيرة».

«هل هذا صحيح؟ إنني أحب القراءة».

«هل صرت هناك من معتنقي هذا الدين؟ في المكتبة العامة؟».

«هذا صحيح».

«وماذا عن الكنيسة؟ هل تذهبين إلى كنيسة من نوع ما؟».

«لا وجود لكنيسة في المركز. لا وجود لإله في المركز. إن في قلب التقاليد الدينية اليهودية والمسيحية إلهًا. ومن الممكن أن يقول الإله، ‘اقتل’. وعندها، لا يكون ذلك أمرًا جائزًا فحسب، بل يكون إلزاميًا. هذا موجود في العهد القديم كلّه. وهناك أمثلة عليه حتى في العهد الجديد. تتخذ اليهودية والمسيحية موقفًا يقول إن

الحياة ملك للرب. الحياة ليست مقدّسة، بل الرب هو المقدّس. وأما الإيمان الذي في مركزنا، فهو ليس إيمانًا بسلطة الرب، بل إيمان بقداسة الحياة».

الترنيم الرتيب لمن تشرّب عقيدة، لمن كان مدرعًا بالإيديولوجيا من رأسه حتى قدميه... الترنيم المسحور الرتيب لمن لا سبيل إلى ضبط تمرّدهم إلا باستخدام قميص المجانين الخانق، إلا باستخدام أكثر الأحلام متانة وتماسكًا. لم يكن تقديس الحياة هو الغائب عن كلماتها التي لا تأتأة فيها... كان صوت الحياة نفسه غائبًا.

سألها وهو يحاول جاهدًا التكيّف مع تلك الإعلانات التي كانت تقذفه بها فتزيده حيرة: «كم يبلغ عددكم؟».

«ثلاثة ملايين».

ثلاثة ملايين إنسان مثلها. هذا غير ممكن. في غرف مثل هذه الغرفة؟ محبوسون في ثلاثة ملايين غرفة مخيفة!؟ «أين هم يا ميري؟».

«في الهند».

«لست أسألك عن الهند. لست مهتمًا بالهند. في أميركا. كم عددكم في أميركا؟».

«لا أهمية لهذا».

«أظنّه عددًا صغيرًا جدًا».

«لست أدري».

«ميري، هل أنت الوحيدة هنا؟».

«إنني أقوم باستطلاعي الروحي وحيدة».

«لست أفهم هذا. لا أفهم هذا، يا ميري. كيف تحوّل اهتمامك من ليندون جونسون إلى هذا الأمر؟ كيف انتقلت من نقطة الألف إلى نقطة الياء؟ لا صلة بينهما على الإطلاق! ما الصلة بين هذا وذاك، يا ميري».

«بل الصلة موجودة. أؤكد لك أنها موجودة. الأمر كله مترابط. لكنك لا ترى هذا الترابط».

«وأنت، هل تستطيعين رؤيته؟».

«أستطيع».

«أخبريني عنه إذًا. أريد أن تخبريني عنه حتى أتمكّن من فهم ما حدث لك».

«هناك منطق، يا بابا. عليك ألا ترفع صوتك. سوف أشرح لك. الأمر مترابط كله. لقد فكّرت في هذا كثيرًا. إنه على النحو التالي. لقد كان المهاتما غاندي ميالًا إلى أهيتنسا، أي إلى التصوّر الجايني للاعنف. لم يكن غاندي جاينيًا. لقد كان هندوسيًا. لكنه كان يبحث في الهند عن مجموعة هندية أصيلة غير غربية تستطيع تبنّي أعمال خيرية مؤثّرة كالتي قدّمها المبشرون المسيحيون فعثر على الجاينيين. إننا مجموعة صغيرة. لسنا هندوسًا، لكن معتقداتنا قريبة من الهندوسية. نحن دين نشأ في القرن السادس قبل الميلاد. أخذ منا المهاتما غاندي فكرة أهيتنسا، أي اللاعنف. نحن جوهر الحقيقة التي خلقت المهاتما غاندي. والمهاتما غاندي - من خلال مبدأ اللاعنف - هو جوهر الحقيقة التي خلقت مارتن لوثر كينغ. ومارتن لوثر كينغ هو جوهر الحقيقة التي خلقت حركة الحقوق المدنية. وفي آخر حياته، عندما كان ينتقل من حركة الحقوق المدنية إلى رؤية أكثر اتساعًا، عندما كان يعارض الحرب في فيتنام...».

إذًا، هل من أهمية حقًّا لأن تخبر داون الناس بأنها كانت تكره ذلك البيت؟ لقد كان السويدي في ذلك الوقت الشريك الأقوى، الأقوى كثيرًا جدًا، وصارت هي الشريك الأضعف، الشريك الأضعف جدًّا. كان الطرف المحظوظ، وكان المتلقّي غير المستحق (لا شك في هذا) للكثير الكثير... فليكن ما يكون: كان يقبل بكل ما تطلبه منه. إذا كان قادرًا على احتمال شيء ما، ولم تكن داون قادرة على احتماله، فكيف له أن يفعل أي شيء آخر غير القبول؟ فبحسب معرفة السويدي، كان ذلك هو الطريق الوحيد لأن يكون الرجل رجلًا؛ خاصة إذا كان رجلًا محظوظًا مثله. فمنذ البداية، كان يجد في احتمال انزعاجها وخيبات أملها مشقّة أكبر كثيرًا من مشقّة احتمال خيباته هو. وكان يبدو أن خيباتها تسلبه نفسه على نحو خطير حقًّا: ما إن يمتصّ خيبة أملها حتى يصير من المستحيل عليه أن يمتنع عن فعل شيء إزاءها. لا سبيل إلى الاكتفاء بأنصاف الحلول. كان على محاولاته الرامية إلى معرفة ما تريده داون أن تكون محاولات صادقة مخلصة تمامًا. لم يعش يومًا من غير إخلاصه الصادق الهادئ هذا. لم يعِش يومًا من

غيره حتى عندما تتراكم عليه أعباء كثيرة، وحتى عندما يعطي كل شخص في المصنع ما يريده منه ويعطي كل شخص في البيت ما يريده منه، حتى عندما يتعامل سريعًا مع تقصيرات المورّدين ومع ابتزاز النقابة ومع شكاوى المشترين، وعندما يخوض المنافسة وسط اضطراب السوق وفي مواجهة المشكلات التي تأتيه بالصداع من بلاد بعيدة. كان يعتني بطفلته المتأتئة وبحاجاتها الملحة، وبزوجته ذات العقلية المستقلّة، وبأب سريع الغضب يزعم أنه تقاعد. فهل خطر في ذهنه أن هذا الاستخدام المضني لذاته يمكن أن يُبليه في يوم من الأيام. لم يكن يفكّر في هذا أكثر مما يفكّر في الأرض التي يمشي عليها. كان يبدو كما لو أنه لا يفهم، أو لا يقرّ (حتى في لحظات الإرهاق)، بأنه ليس رجلًا من غير حدود تمامًا وبأنه ليس مثل ذلك البيت الحجري البالغ من العمر مئة وسبعين عامًا الذي تحمل ثقله عوارض متينة من خشب البلوط... لم يكن يدرك أنه شيء أقل دوامًا وأكثر غموضًا.

على أية حال، لم يكن هذا البيت هو ما كرهته داون. ما كرهته هي الذكريات التي كانت غير قادرة على الإفلات منها، ذكريات مرتبطة كلها بالبيت، ذكريات كانت ذكرياته أيضًا، بطبيعة الحال. ميري الطفلة في المدرسة الابتدائية مستلقية على الأرض في الغرفة إلى جانب مكتب أمها ترسم صورًا لكاونت، بينما تعمل داون على حسابات الشركة. ميري تحاكي تركيز أمها وتستمتع بأسلوب العمل المنضبط نفسه، ويبهجها على نحو صامت أن تشعر بأنها على قدم المساواة معهما ضمن المسعى المشترك. وبشكل ما، تتيح لأبويها رؤية لمحات أولية منها عندما تصير كبيرة... نعم، لمحات من صديقتهما الراشدة التي ستكونها ذات يوم. ذكريات عن ميري آتية، خاصة من تلك الفترات التي لم يكونا فيها ما يكونُه الأهل تسعة أعشار الوقت: المرشدون، وضاربو المثال، وأصحاب السلطة المعنوية، وأشياء من قبيل «هيَّا وإلا فسوف تتأخرين»، وحافظو سجل واجباتها ومهماتها اليومية... بل هي ذكريات عن أوقات يكتشف فيها المرء الآخرين من جديد، أوقات تعلو فوق التوترات بين السلطة الأبوية والريبة الطفولية الحمقاء، لحظات الراحة في حياة الأسرة التي يستطيع فيها كل فرد مقاربة الآخر بهدوء.

الصباحات المبكرة عندما يحلق ذقنه في الحمام بينما تذهب داون لكي توقظ ميري. لا يستطيع تخيّل بداية للصباح أفضل من رؤية لمحة من ذلك الطقس اليومي. لم تعرف غرفة ميري الساعة المنبّهة أبدًا: كانت داون ساعتها المنبّهة. تخرج داون إلى الحظيرة قبل السادسة صباحًا؛ لكنها تتوقّف عن العناية بأبقارها في الساعة السادسة والنصف تمامًا وتعود إلى البيت. تصعد إلى غرفة الطفلة، فتجلس على حافة سريرها، وتبدأ شعائر الصباح اليومية المفرحة. تبدأ تلك الشعائر من غير أن تنطق بأية كلمة... تمسّد داون على رأس ميري النائمة؛ حركة متكرّرة صامتة من الممكن أن تستمر دقيقتين كاملتين. ثم تسألها داون بنبرة رقيقة هامسة كأنها تغنّي الكلمات غناء «هل أرى إشارة تدل على الحياة؟»، فتستجيب ميري لا بفتح عينيها بل بتحريك إصبعها الصغير. «إشارة أخرى، من فضلك». تستمر تلك اللعبة: تلعبها ميري بأن تغضّن أنفها، ثم تمرّر لسانها على شفتيها، ثم تتنهّد بصوت مسموع، إلى أن تنهض آخر الأمر من السرير وتصير مستعدة للحركة. كانت لعبةً تجسّد فَقدًا: بالنسبة إلى ميري، أن تكون محمية تمامًا؛ وبالنسبة إلى داون، مشروع الحماية الكاملة لما كان يبدو ذات يوم أنه قابل لحماية كاملة. إيقاظ الطفلة الصغيرة! استمر هذا الطقس إلى أن كادت تلك الطفلة تبلغ الثانية عشرة... شعيرة الطفولة الأولى التي لم تكن داون قادرة على مقاومة إغرائها ولم تبدُ على أي منهما أية رغبة في تركها.

كم كان يحب رؤيتهما تفعلان ما تفعله الأمهات وبناتهن. ففي عين الأب، كانت كل منهما توسِعةً للأخرى. كان يراهما في ملابس السباحة خارجتين مندفعتين من الشاطئ معًا تسابق كل منهما الأخرى إلى حيث المناشف: الآن، تجاوزت زوجته أجمل لحظاتها، تجاوزتها قليلًا، وبدأت ابنته تشق طريقها إلى بداية لحظاتها. مخطّط مرسوم لطبيعة مجرى الحياة الحلزوني تركه يشعر بعد ذلك بأنه صار يمتلك فهمًا متّسعًا لجنس النساء كلهنّ. ميري بفضولها المتنامي تجاه الألاعيب النسائية: تضع مجوهرات داون الواقفة قبالة المرآة إلى جانبها تساعدها في التزيّن. ميري تُسرّ لداون بمخاوفها من العزلة في المدرسة... يتجاهلها بقية الأطفال، وتتعاون صديقاتها ضدّها. في هذه اللحظات الهادئة التي

يكون الأب مُستبعَدًا منها (الابنة المعتمدة على الأم؛ داون وميري وقد تلبست كل منهما الأخرى عاطفيًا فصارت في داخلها، مثل تلك الدمى الخشبية الروسية)، كانت ميري تبدو - على نحو حاد الوضوح أكثر من أي وقت آخر - أنها ليست نسخة صغيرة مكرّرة عن زوجته، أو عنه، بل كائن صغير مستقل... شيء شبيه بهما، نسخة عنهما، لكنه متميّز بذاته، شيء جديد، شيء يحسّ السويدي تجاهه انجذابًا عاطفيًا كبيرًا.

لم يكن البيت هو ما كرهته داون. كان يعرف أن الشيء الذي كرهته هو أن الدافع إلى امتلاك البيت (لترتيب الأسرّة، ولإعداد الطاولة، ولغسل الستائر وكيّها، ولتنظيم العطلات، ولتوزيع طاقتها وتغيير مهماتها بحسب أيام الأسبوع) قد دُمّر لحظة دمار متجر هاملين. ذلك الامتلاء اليومي المحسوس، والانتظام السلس الذي كان، ذات يوم، كامنًا خلف حياتهم كلّها ما عاد حيًّا فيها إلا باعتباره سرابًا، وهمًا أكبر من الحياة، شيئًا مخاتلًا ساخرًا يتعذّر الوصول إليه، شيئًا حقيقيًا في كل أسرة في أولد ريمروك، إلا أسرّتها. ما كان يعرف هذا بسبب وجود مليون ذكرى فحسب، بل أيضًا لأنه لا يزال محتفظًا في الدرج العلوي في طاولة مكتبه بنسخة عمرها عشر سنين من صحيفة أسبوعية محلّية اسمها «دينفيل راندولف كوريير» وقد وضعت في صفحتها الأولى مقالة عن داون وعن شركة الماشية التي أقامتها. لم توافق داون على إجراء تلك المقابلة إلا بعد أن وعدها الصحافي بألّا يذكر فوزها بلقب ملكة جمال نيوجرسي سنة 1949. وافق الصحافي على هذا، وكان عنوان المقالة «امرأة من أولد ريمروك ترى أنها محظوظة لأنها تحبّ عملها». كانت خاتمة المقالة فقرة تجعله، على الرغم من بساطتها، فخورًا بها كلما عاود قراءتها: «تقول السيدة ليفوف إن ‘الناس يكونون محظوظين إذا عملوا عملًا يحبّونه وكانوا بارعين فيه’».

كانت تلك المقالة شاهدًا على مدى حبها هذا البيت، وكذلك على مدى حبّها كل شيء آخر في حياتهم. تحت صورة لها في الصحيفة بدت فيها واقفة أمام الأطباق الخزفية المصفوفة على رفّ الموقد مرتدية قميصًا أبيض مرتفع الياقة، وسترة رياضية شاحبة اللون، وقد انسدل شعرها إلى كتفيها وانعقدت أصابع

يديها الرشيقتين أمامها... بدت في تلك الصورة حلوة على الرغم من شحوبها الخفيف. كتبوا تحت الصورة «السيدة ليفوف، ملكة جمال نيوجرسي سنة 1949، تحبّ العيش في بيت عمره مئة وسبعين عامًا وتقول إن بيئته تعكس قيم أسرتها». عندما اتصلت داون بالصحيفة غاضبة لأنهم ذكروا «ملكة جمال نيوجرسي»، أجابها الصحافي بأنه التزم بوعده ولم يذكر ذلك في المقالة؛ لكن محرّر الصحيفة هو من كتب ذلك تحت الصورة.

لا، لم تكره البيت... بالطبع لم تكره البيت... لكن هذا لم تعد له أهمية. كل ما له أهمية الآن هو استعادتها إلى سابق عهدها؛ العبارات الحمقاء التي يمكن أن تقولها أمام هذا الشخص أو ذاك ليست بذات أهمية إزاء استعادة عافيتها. لعل ما كان يزعجه هو أن ذلك المسار من «التعديلات الذاتية» الذي اعتمدت عليه في شفائها لم يكن شافيًا بالنسبة إليه، أو لم يكن مُرضيًا تمامًا، بل كان فيه أحيانًا نوعٌ من الإساءة إليه. لم يكن قادرًا على أن يقول للناس - بالتأكيد، لن يقنع نفسه بهذا - إنه يكره أشياء يحبّها...

كانت العودة إلى تلك الذكريات مؤلمة له. لكنه لم يكن قادرًا على تفاديها... ليس عندما يتذكّر كيف كانت ميري، في السابعة من عمرها، تكاد تنفجر غيظًا من خليط العجين النيء وهي تخبز فطائر صغيرة، ثم ظلّوا بعد ذلك أسبوعًا وهم يجدون العجين المتناثر في أرجاء المكان كله، حتى فوق البراد... فكيف يمكن أن يكره البراد؟ كيف يمكن أن يسمح لمشاعره بإعادة التشكّل، وأن يتخيّل أنه ينقذ نفسه بهذا مثلما تفعل داون... ينقذ نفسه من خلال التخلّي عن ذلك البراد واقتناء براد حديث من غير صوت يكاد يكون رولز رويس البرادات؟ من ناحيته، ما كان قادرًا على القول إنه يكره المطبخ الذي كانت ميري تخبز فيه فطائرها وتعد لنفسها سندويتشات الجبن الذائب وتطهو فطائر الزْيتي، حتى إذا لم تكن خزائن ذلك المطبخ من الستانلس ستيل، ولم تكن طاولته من رخام إيطالي. ما كان قادرًا على القول إنه يكره القبو الذي كانت تنزل إليه لتلعب مع صديقاتها الزاعقات حتى وإن كان النزول إلى ذلك القبو في الشتاء يروّعه قليلًا، يروعه حتى هو عندما يسمع صوت جري الفئران فيه. ما كان قادرًا على القول إنه

يكره الموقد المزيّن بغلاية ماء معدنية عتيقة، ذلك الموقد الذي صار فجأة شيئًا مبتذلًا إلى حد لا يطاق في نظر داون. لا يستطيع أن يكرهه عندما يتذكّر كيف كان، في أوائل شهر كانون الثاني، يكسّر شجرة عيد الميلاد ويضعها في ذلك الموقد ويشعل النار فيها، يشعل النار فيها دفعة واحدة فتتفجر أغصانها الجافة لهبًا ويصدر منها صوت هسهسة عظيم، ويطقطق خشبها، وتتراقص على جدران المطبخ الأربعة ظلال أشباح لشياطين متقافزة صوب السقف. كان ذلك يبعث في ميري فرحًا مذعورًا أشبه بالهذيان. لم يكن قادرًا على القول إنه يكره حوض الاستحمام ذا القوائم الأربع الذي كان يحمّمها فيه؛ لا يستطيع فعل ذلك لمجرد أن مياه البئر تركت، عبر عشرات السنين، على ذلك الحوض بقعًا معدنية لا تزول. مصرف الماء المدوّر الأبيض! لم يكن قادرًا حتى على كره المرحاض العتيق الذي لا بد من تحريك مقبضه جيئة وذهابًا حتى يتوقّف انهمار الماء فيه؛ لا يستطيع أن يكرهه عندما يتذكّرها راكعة تتقيأ فيه بينما كان راكعًا إلى جانبها مسندًا جبهتها الصغيرة المحمومة بكفّه.

ولم يكن قادرًا على القول إنه يكره ابنته لما فعلته... ليته كان قادرًا! لو أنه، فقط، بدلًا من العيش الفوضوي المضطرب في هذا العالم الذي لا تعيش فيه، في هذا العالم الذي كانت فيه مرةً، في هذا العالم الذي قد تكون فيه الآن، لاستطاع التوصل إلى كرهها بالقدر الكافي لجعله غير مبالٍ أبدًا بعالمها، الآن أو في ذلك الوقت. فقط، لو كان قادرًا على أن يعود إلى التفكير مثلما يفكّر أي شخص آخر، أن يعود من جديد رجلًا طبيعيًا تمامًا بدلًا من هذا الشخص الممزَّق، الذي هو ليس أكثر من محتال يدّعي الصدق، سويدي ساذج من الخارج، وسويدي معذَّب من الداخل، سويدي مستقرّ ظاهر للعيان، سويدي محاصَر خفيّ، سويدي ذو مظهر زائف مبتسم خليّ البال لا يعدو كونه كفنًا للسويدي المدفون حيًا من خلف ذلك المظهر. فقط، لو أنه كان قادرًا على استعادةٍ واهية لوحدانية وجوده غير المنقسم التي كانت تُكوّن حريته وثقته الجسدية الواضحة قبل أن يصير والد طفلة متهمة بجريمة قتل. فقط، لو أنه كان قادرًا على الغَفلة مثلما يحسبه بعض الناس... فقط، لو أنه كان قادرًا على تلك البساطة التامّة مثلما كانت أسطورة

السويدي ليفوف التي اختلقها الأطفال الذين كانوا يقدّسون ذلك البطل في أيامه السالفة. فقط، لو أنه كان قادرًا على القول «أكره هذا البيت!» وعلى أن يكون من جديد السويدي ليفوف من ويكاهيك. لو أنه كان قادرًا على القول «أكره تلك الطفلة! ولا أريد رؤيتها بعد الآن أبدًا!». ثم يمضي قدمًا فيتحرّر من امتلاكه إياها وينبذها ويزدريها إلى الأبد ويزدري معها تلك الرؤية التي جعلتها مستعدة، إن لم يكن للقتل، فلهجر أسرتها هجرانًا قاسيًا... رؤية لا علاقة لها أبدًا بـ«المُثُل»، بل بالكذب وجنون العظمة والنزعة الإجرامية وفقدان العقل. عداوة عمياء ورغبة طفولية في التنديد والوعيد... تلك هي مُثُلها! تبحث دائمًا عن شيء لكي تكرهه. نعم، لقد مضى الأمر شوطًا تجاوز كثيرًا مشكلة تأتأتها. كان ذلك الكره العنيف لأميركا داءً في حد ذاته. وأما هو، فيحب أميركا. يحب أن يكون أميركيًا. لكنه لم يجرؤ في ذلك الوقت، في ذلك الوقت الذي مضى، على أن يشرح لها ما يجعله يحب أميركا. لم يجرؤ لخوفه من إطلاق شيطان إهاناتها. كانا يعيشان خائفين من لسان ميري المتأتئ. ثم إنه كان قد فقد أي تأثير بحلول ذلك الوقت. وما كان لداون أي تأثير. وما كان لأبيه وأمه أي تأثير. فبأي معنى تكون ابنته «له» إن لم تكن له حتى في ذلك الوقت؟ بالتأكيد لم تكن له إن كان وصولها إلى تلك الذهنية العدوانية المفزعة لا يتطلّب أكثر من أن يبدأ أبوها تفسير السبب الذي يجعل عواطفه ميّالة إلى البلد الذي ولد وترعرع فيه. العاهرة الصغيرة المتأتئة المغمغمة! من عساها تحسب نفسها؟

تخيلوا مقدار اللؤم الذي كانت ستهاجمه به لو باح لها بأن تعداد أسماء الولايات الثماني والأربعين وحده كان كافيًا لجعله ينتشي عندما كان طفلًا صغيرًا. بل إن خريطة الطرق التي اعتادوا أن يوزّعوها مجانًا في محطات الوقود كانت تجعل قلبه يرقص فرحًا. وعلى النحو نفسه كانت تلك الطريقة المرتجلة التي اكتسب بها لقبه. دخل الصالة الرياضية في الدرس الأول من يومه الأول في المدرسة الثانوية وبدأ يقذف كرة السلة بينما كان بقية الفتيان لا يزالون منتشرين في المكان منشغلين بانتعال أحذيتهم الرياضية. قذف بالكرة مرتين من مسافة خمس عشرة قدمًا فدخلت السلّة!... كان هذا على سبيل البداية فقط. كان أسلوبه

المتمهّل المرتاح هو ما جعل المدرّس هنري وارد (يسمّونه «دوك»)، مدرّس الرياضة الشاب ذي الشعبية الذي كان مدرّب مصارعة قادمًا حديثًا من جامعة مونتكلير ستيت، يصيح ضاحكًا من باب غرفته مخاطبًا الفتى الأشقر النحيل ذا الأربعة عشر عامًا صاحب العينين الزرقاوين اللامعتين والأسلوب اليَسِر السهل الذي لم يره في الصالة قبل ذلك اليوم، «أين تعلّمت فعل هذا يا سويدي؟». وبما أن ذلك الاسم كان مناسبًا لتمييز سايمور ليفوف عن سايمور مونزير وسايمور ويشناو، اللذين كانا في الصف نفسه، فقد التصق به في الصالة الرياضية خلال تلك السنة الأولى. ثم بدأ معلمون ومدرّبون آخرون يستخدمون هذا الاسم، وتلاهم طلبة المدرسة، ثم لم تلبث ويكاهيك كلّها (التي كانت لا تزال ويكاهيك اليهودية القديمة التي تهتم بالماضي) أن صارت تعرف أن دوك وارد هو من «عمّد» الفتى باسم السويدي ليفوف. وهكذا ظلّ ذلك الاسم ملازمًا له. بهذه البساطة، صار ذلك اللقب الأميركي الذي أطلقه عليه معلم الرياضة فجعله لقبًا له في الصالة الرياضية، الاسمَ الذي جعله أسطوريًا بطريقة ما كان يمكن أبدًا لاسم سايمور وحده أن يحقّقها، جعله أسطوريًا لا خلال سنوات المدرسة وحدها بل أيضًا في ذكريات زملائه جميعًا طيلة حياتهم. صار يحمل ذلك الاسم معه كأنه جواز سفر غير مرئي وهو يمضي أعمق فأعمق في الحياة الأميركية متحوّلًا تحوّلًا واضحًا صريحًا إلى أميركي متفائل مصقول ضخم، لم يكن أسلافه الخشنون خشونة واضحة (بمن فيهم والده العنيد الذي لم يكن تطلعه الأميركي قليلًا على الإطلاق) يمكن أن يحلموا بأن يكون لهم خلف مثله.

تلك الطريقة التي كان أبوه يكلّم الناس بها كان لها أثرها عليه أيضًا، الطريقة الأميركية التي كان أبوه يقول بها للشخص العامل على مضخة الوقود: «املأها كلها، يا ماك. ألق نظرة على المقدّمة، من فضلك يا معلم!». إثارة رحلاتهما في سيارة الديسوتو. كابينات السيّاح الصغيرة الصدئة التي كانا يتوقفان لقضاء الليل فيها خلال تجوّلهما عبر الطرق الخلفية الجميلة في ولاية نيويورك في طريقهما لرؤية شلالات نياغارا. الرحلة إلى واشنطن عندما كبر جيري قليلًا. إجازته الأولى بعد أن التحق بمشاة البحرية؛ ورحلة «الحج» إلى هايد بارك مع جيري

وبقية أفراد الأسرة ليقفوا معًا، أسرة واحدة، وينظروا إلى ضريح فرانكلين ديلانو روزفلت(34). كان قد أنهى معسكر التدريب الأولي عندما وقف أمام ضريح روزفلت فأحسَّ بأن شيئًا كبير المعنى كان يحدث له: صلبًا، لوّحته الشمس كثيرًا بعد التدريب خلال الشهور الأكثر حرارة في ساحة المعسكر حيث تبلغ الحرارة بعض الأيام مئة وعشرين درجة(35)، وقف صامتًا معتزًا بارتداء بدلته العسكرية الصيفية بقميصها المنشّى، وبنطلونها الكاكي المكوي الصقيل الذي لا جيوب له من الخلف، وربطة عنقه المتقنة، وقبعته العسكرية على رأسه الحليق، وحذائه الجلدي الأسود الملمَّع... وقف مشرقًا كلّه... والحزام الذي كان أكثر ما يجعله يشعر بأنه واحد من مشاة البحرية، الحزام المنسوج من خيوط كاكية، وإبزيمه المعدني؛ الحزام الذي حفر خصره خلال نحو عشرة آلاف تمرين من تمارين المعدة نفّذها بصفته جنديًا مستجدًا في معسكر باريس آيلاند. فمن هي حتى تسخر من هذا كلّه، حتى ترفض هذا كلّه، حتى تكره هذا كلّه وتصمّم على تدميره؟ والحرب... النصر في الحرب... هل تكره هذا أيضًا؟ والجيران... أولئك الجيران الذين يخرجون إلى الشارع فيصيحون ويتعانقون في ذكرى يوم النصر على اليابان، ويطلقون أبواق سياراتهم، ويسيرون على المروج أمام بيوتهم وهم يطرقون على القدور. كان لا يزال في باريس آيلاند آنذاك، لكن أمّه وصفت له ذلك كلّه في رسالة من ثلاث صفحات. الاحتفال الذي أقيم في ملعب المدرسة تلك الليلة، وكل شخص يعرفونه، وأصدقاء الأسرة، وأصدقاء المدرسة، وجزّار الحي، والبقّال، والصيدلي، والخيّاط، وحتى الفطائر الحلوة اللذيذة من متجر الحلويات... بهجة غامرة، وصفوف طويلة من أشخاص وقورين في أواسط العمر يقلّدون كارمن ميراندا(36) بحركات مجنونة ويرقصون على أنغام الكونغا إلى ما بعد الساعة الثانية فجرًا، واحد - اثنان - ثلاثة - ضربة بالقدم على الأرض، واحد - اثنان - ثلاثة - ضربة بالقدم على الأرض.

النصر في الحرب، النصر، النصر، جاء النصر، لا مزيد من الموت، ولا مزيد من الحرب!

كان يقرأ الصحف كل ليلة في الشهور الأخيرة من المدرسة الثانوية، فيتابع أخبار مشاة البحرية في المحيط الهادي. رأى صورًا حيّة... رأى صورًا سكنت أحلامه... رأى صور أجساد مكوّمة لقتلى مشاة البحرية الذين سقطوا في بيليليو، تلك الجزيرة الصينية التي تسميها الصين بالاوس. وفي مكان اسمه «بلودي نوز ريدج»، حوصر اليابانيون في مناجم فوسفات قديمة ثم أُحرقوا فيها بقاذفات اللهب بعد أن قتلوا مئات ومئات من مشاة البحرية الشباب، في الثامنة عشرة من العمر، وفي التاسعة عشرة مع العمر، فتيان ما كانوا أكبر منه إلا قليلًا. وضع في غرفته خريطة غرس فيها دبابيس تشير إلى أماكن وجود قوات مشاة البحرية التي تضيّق الخناق على اليابان، وتهاجم من البحر جزيرة مرجانية صغيرة، أو سلسلة جزر حفر فيها اليابانيون خنادق لهم داخل حصونها المرجانية؛ فيمطرونهم بوابل من قذائف الهاون ونيران البنادق. بدأ غزو أوكيناوا في الأول من نيسان سنة 1945. كان ذلك يوم أحد عيد الفصح في سنته الأخيرة في المدرسة بعد يومين من تمكّنه من إحراز رمية مزدوجة والفوز في المباراة مع فريق ويست سايد بعد أن كانت مباراة خاسرة. اكتسح لواء مشاة البحرية السادس جزيرة يونتان واستولوا على واحدة من القاعدتين الجويتين بعد أن خاضوا في مياه شواطئها ثلاث ساعات. استولوا على شبه جزيرة موتوغو في ثلاثة عشر يومًا. قبالة شاطئ أوكيناوا تمامًا، هاجم اثنان من طياري الكاميكازي اليابانيين سفينة القيادة حاملة الطائرات بونكر هيل يوم الرابع عشر من أيار... اليوم نفسه الذي أعقب فوز السويدي على فريق إيرفينغتون هاي برمية أحادية ورمية ثلاثية ورميتين مزدوجتين... انقض الطياران على سطح مدرج الطائرات الذي كان غاصًّا بطائرات أميركية مزودة بالوقود والذخيرة مستعدة للانطلاق. ارتفع اللهب ألف قدم في السماء. قتل أربعمئة بحار وطيار في العاصفة النارية المتفجّرة التي استمرت ثماني ساعات. استولى مشاة البحرية من اللواء السادس على «شوغر لوف هيل» في الرابع عشر من أيار سنة 1945... حقّق السويدي ثلاث رميات مزدوجة في مباراة ضد فريق إيست سايد... لعل ذلك كان أسوأ الأيام القتالية وأكثرها وحشية في تاريخ مشاة

البحرية كلّه. لعله أسوأ يوم في التاريخ البشري كلّه. أُحرقت بقاذفات اللهب الكهوف والأنفاق التي كانت تملأ الناحية الجنوبية من جزيرة «شوغر لوف هيل» حيث تحصّن اليابانيون وأخفوا جيشهم، ثم ألقيت فيها القنابل اليدوية والعبوات الناسفة التي هدمتها فوقهم. استمر القتال الالتحامي المباشر طيلة النهار وطيلة الليل.

كان رماة البنادق والرشاشات اليابانيون مقيدين إلى مواقعهم بالسلاسل غير قادرين على التراجع، فقاتلوا إلى أن ماتوا. ويوم تخرّج السويدي في مدرسة ويكاهيك الثانوية، في الثاني والعشرين من حزيران (بعد أن حطم الرقم القياسي لعدد الرميات المزدوجة التي يحرزها لاعب في دوري مدينة نيوارك خلال موسم واحد)، رفع لواء مشاة البحرية السادس العلم الأميركي فوق قاعدة أوكيناوا الجوية الثانية في كاديلا، فصارت المرحلة التحضيرية الأخيرة لغزو اليابان ناجزة. ومنذ الأول من نيسان سنة 1945 حتى الحادي والعشرين من نيسان من السنة نفسها - فترة متوافقة بفارق أيام قليلة، أكثر أو أقل، مع آخر وأفضل موسم للسويدي في موقع لاعب القاعدة الأولى في مدرسته الثانوية - احتلت القوات الأميركية جزيرة طولها خمسين ميلًا وعرضها نحو عشرة أميال فكلّفها احتلالها أرواح خمسة عشر ألف جنديٍّ أميركيٍّ. لكن عدد القتلى اليابانيين، عسكريين ومدنيين، بلغ مئة وواحدًا وأربعين ألفًا. كان معنى هذا أن احتلال أرض اليابان كلّها، حتى شمالها، ووضع نهاية للحرب، يمكن أن يجعل عدد القتلى من الجانبين يتضاعف عشر مرات، أو عشرين مرة، أو ثلاثين مرة. إلا أن السويدي مضى قدُمًا وأراد أن يكون جزءًا من الهجوم الأخير على اليابان فانضمَّ إلى قوات مشاة البحرية الأميركية التي تكبّدت خسائر مذهلة في الأرواح في أوكيناوا وتاراوا وإيوجيما وغوام وغوادالكانال.

مشاة البحرية. أن يكون واحدًا من المشاة البحرية. المعسكر التدريبي. أذاقونا أنواع المشقّات كلّها؛ وشتمونا شتائم كثيرة، وقتلونا جسديًا وذهنيًا مدة ثلاثة شهور؛ فكانت تلك أفضل تجربة مررت بها في حياتي كلّها. اعتبرت الأمر تحدّيًا فنجحت فيه. صار اسمي «يي - - فو» كانت تلك هي طريقة مدربنا

الجنوبي في نطق «ليفوف»، إذ كان يسقط منه حرف «ل» من أوله وحرف «ف» من آخره ويطيل حرف الياء. «يي - - فو»! كان كأنه حمار ينهق «يي - - فو». «حاضر، سيدي». في أحد الأيام، أوقف الرائد دون ليفي الذي كان مدير التدريبات الرياضية (رجل ضخم كان مدرّب كرة القدم في فريق بورديو) الفصيلة، ثم صاح الرقيب البدين الذي كنا ندعوه «كيس البحر» مناديًا الجندي يي - - فو، فجريت إليه بخوذتي فوق رأسي وقد راح قلبي ينبض عنيفًا لأني ظننت أن أمي قد ماتت. كان قد بقي أسبوع واحد على التحاقي بمعسكر ليجون في نورث كارولاينا للتدريب المتقدّم على الأسلحة، لكن الرائد دون ليفي اعترض طريق ذهابي فلم أطلق رصاصة واحدة. كان ذلك ما أردته من الانضمام إلى مشاة البحرية. لم أكن أريد شيئًا أكثر من إطلاق النار وأنا منبطح على بطني وقد أسندت ماسورة البندقية على الحامل. كان عمري ثمانية عشر عامًا، وكان ذلك معنى وجودي في قوات مشاة البحرية... الرشاش السريع المبرد بالهواء من عيار ثلاثين ملم. كم كان ذلك الطفل البريء طفلًا وطنيًا! أردت إطلاق النار على صائد الدبابات، على صاروخ البازوكا المحمول يدويًا. وأردت أن أبرهن لنفسي أنني غير مذعور وأنني قادر على فعل ذلك. القنابل اليدوية، وقاذفات اللهب، والزحف تحت أسلاك شائكة، ونسف الاستحكامات، ومهاجمة الكهوف. أردت أن أتقدّم إلى شاطئ من زورق إنزال. أردت المساهمة في الحرب. لكن الرائد دون ليفي كان قد تلقّى رسالة من صديق له في نيوارك - «ما أحسن هذا الرياضي الذي اسمه ليفوف!». كانت رسالة مليئة بكلام عن روعتي، فما كان منهم إلا أن غيّروا وجهة تعييني وجعلوني مدربًا رياضيًا حتى أظل في الجزيرة وألعب الكرة. بحلول ذلك الوقت، كانوا قد ألقوا القنبلة الذرية، وكانت الحرب قد انتهت على أية حال. «أنت في وحدتي، يا سويدي. يسرّني أن تكون عندي». تغير رائع حقًّا! وبعد أن طال شعري، عدت كائنًا بشريًا من جديد. بدلًا من مخاطبتي بكلمة «تافه» طيلة الوقت، أو «حرّك مؤخرتك يا تافه». صرت على نحو مفاجئ مدرّبًا رياضيًا يخاطبه الجنود بكلمة «سيدي». وأما ما يدعو به هذا المدرّب الرياضي جنوده فهو «يا ناس». «ابتعدوا عن

الطريق يا ناس! انهضوا يا ناس! كرّروا التمرين مرتين يا ناس، كرّروه مرتين!». تجربة عظيمة، عظيمة، لفتى من جادة كير. أشخاص كان من المستحيل أن أصادفهم طيلة حياتي. لهجات من أنحاء البلاد كلها. من الغرب الأوسط. ومن نيو إنغلاند. وبعض فتيان المزارع من تكساس، ومن أقصى الجنوب. لم أكن قادرًا حتى على فهم كلامهم. لكنّي صرت أعرفهم، وصرت أحبّهم. فتيان أشداء. فتيان فقراء. وكثير من رياضيي المدارس الثانوية. عشت مع الملاكمين. وعشت مع جماعة الترفيه. فتى يهودي آخر من آلتونا اسمه ماني رابينوفيتش. أصلب فتى يهودي عرفته في حياتي. يا لهذا المقاتل! صديق ممتاز. لم ينهِ المدرسة الثانوية. لم أحظ بصديق مثله قبل ذلك، ولا بعد ذلك. لم أضحك في حياتي كلها مثلما كنت أضحك مع ماني. كان ماني بالنسبة إلي مثل رصيد مالي في المصرف. لم أسمع من أحد كلامًا سيئًا عن يهوديتي. سمعت القليل من هذا الكلام في المعسكر التدريبي؛ لكنه كان قليلًا. عندما يخوض ماني مباراة ملاكمة، يراهن الشباب عليه بسجائرهم. وعلى الدوام، كان بودي فالكوني وماني رابينوفيتش يخرجان فائزَين من كل منازلة لنا مع قاعدة عسكرية أخرى. وبعد المباراة مع ماني، كان خصمه يقول دائمًا إن أحدًا لم يوجه إليه من قبل لكمات بتلك القوة. كان ماني يساعدني في إدارة الأوقات الترفيهية، مباريات الملاكمة. الثنائي... جنديا مشاة البحرية اليهوديان. فاز ماني على الجندي الملاكم المغرور الذي كان يتسبّب في مشكلات كثيرة. كان وزنه مئة وخمسة وأربعين باوندًا، لكنه نازل شخصًا بلغ وزنه مئة وستين باوندًا وكان واثقًا من أنه سيوسعه ضربًا. كان ماني يقول لي: «اختر دائمًا شخصًا ذا شعر أحمر - يا يي - - فو. وسوف يعطيك أفضل مباراة في العالم. ذو الشعر الأحمر لا يتراجع أبدًا». ماني العالِم. ماني يذهب إلى نورفولك لخوض مباراة مع بحار كان من المتنافسين على بطولة الوزن المتوسط قبل الحرب؛ ويغلبه. تمرينات رياضية للفصيلة قبل الإفطار. جعل الجنود يذهبون إلى البركة كل ليلة لتعليمهم السباحة. كنا نرميهم فيها عمليًا - الطريقة القديمة لتعليم السباحة - لكن عليك أن تحسن السباحة حتى تكون جنديًا في مشاة البحرية. عليك أن تكون مستعدًّا دائمًا لأداء

تمرين الضغط عشر مرات أكثر من أي جندي آخر. كان بعضهم يتحدّاني؛ لكن لياقتي كانت جيدة. أذهب بالباص لكي أشارك في مباراة كرة. المسافات الطويلة التي طرناها. وجدت بوب كولينز في ذلك الفريق. إنه الفتى الضخم الذي كان في فريق سانت جونت. زميلي في الفريق. رياضي فظيع. سكّير أيضًا. بصحبة بوب كولينز، سكرت أول مرة في حياتي كلّها، وبقيت أتحدّث ساعتين من غير توقّف عن لعب الكرة في فريق ويكاهيك، ثم تقيأت كل ما في جوفي على سطح المركب. فتيان إيرلنديون، وفتيان إيطاليون، وسلوفاكيون، وبولونيون، ومشاكسون خشنون من بنسيلفانيا. فتيان هربوا من آبائهم الذين يعملون في المناجم ويضربونهم بالأحزمة وبقبضات أيديهم... أولئك كانوا الفتيان الذين عشت معهم، وأكلت معهم، ونمت إلى جانبهم. بل حتى كان لدينا فتى هندي من هنود الشيروكي. كان لاعب القاعدة الثالثة. كان اسمه بيس كوتر، الاسم نفسه الذي نطلقه على قبعاتنا. لا تسألوني عن السبب؛ لم يكونوا كلهم أشخاصًا جيدين، لكنهم لا بأس بهم على وجه العموم. فتيان طيبون. مباريات منظمة كثيرة في المصارعة والملاكمة. مباراة في مواجهة فريق قاعدة فورت بينينغ. تشيري بوينت في نورث كارولاينا، القاعدة الجوية التابعة لمشاة البحرية. هزمناهم. هزمنا فريق القاعدة البحرية في تشارلستون. كان لدينا اثنان من الفتيان القادرين على رمي الكرة حقًّا. ذهب أحد ملتقطي الكرات لدينا إلى فريق تايغرز. ذهبنا إلى روما في ولاية جورجيا لنلعب الكرة هناك، وكذلك إلى وايكروس في الولاية نفسها حيث لعبنا في قاعدة عسكرية. كنا ندعو اللاعبين العسكريين الخصوم جِرَاء. وكنا نهزمهم. كنا نهزم الجميع. رأيت الجنوب. رأيت أشياء لم أرها من قبل أبدًا. رأيت الحياة التي يحياها الزنوج. تعرفت على أنواع كثيرة من البشر غير اليهود. تعرّفت على فتيات جنوبيات جميلات. تعرفت على عاهرات عاديات. استخدمت الواقي الذكري. تعلمت كيف أضاجع امرأة. رأيت مدينة سافانا، رأيت مدينة نيو أورليانز. أقمت في نزل متداعٍ للجنود في بلدة موبايل بولاية ألاباما حيث كنت في غاية السعادة لأن الدوريةَ الساحلية كانت قد غادرت المكان قبل لحظات. لعبنا كرة السلّة والبيسبول مع الكتيبة الثانية والعشرين.

كان عليَّ أن أصير جنديًا في مشاة البحرية الأميركية. وكان عليَّ أن أضع شعار المرساة والكرة الأرضية «ممنوع التصوير هنا يا يي - - فو. ضعها هنا يا يي - - فو...». كان عليَّ أن أصير يي - - فو بالنسبة إلى أشخاص من ماين ونيو هامبشاير ولويزيانا وفيرجينيا وميسيسيبي وأوهايو... أشخاص غير متعلّمين من مختلف أصقاع أميركا يدعونني يي - - فو، ولا شيء آخر. لم أكن بالنسبة إليهم إلا يي - - فو فحسب. أعجبني هذا. تم تسريحي في الثاني من حزيران سنة 1949. ثم تزوّجت فتاة جميلة اسمها داون دواير. صرت أدير الشركة التي أنشأها أبي، الرجل الذي لم يكن أبوه يتحدّث الإنكليزية. صرت أعيش في أجمل منطقة في العالم. أأكره أميركا؟ لماذا؟ لقد عشت في أميركا مثلما أعيش داخل جلدي. مسرّات شبابي كلّها كانت مسرّات أميركية، وذلك النجاح كله كان أميركيًا، وتلك السعادة كلّها كانت أميركية، وما عدت مضطرًا إلى إبقاء فمي مطبقًا حتى أتفادى انفجار غضبها الجاهل.

الوحدة التي سيعيشها السويدي من غير مشاعره الأميركية كلّها. والتوق الذي سيحسّه إن اضطر إلى العيش في بلد آخر. نعم، لقد كان أميركيًا كل ما أعطى إنجازاته معنى. وكان كلّ ما أحبّه موجودًا هنا.

وأما هي، فإن كونها أميركية كان يعني كره أميركا؛ لكن محبة أميركا كانت شيئًا لا يستطيع التخلي عنه بأكثر مما يستطيع التخلّي عن حب أبيه وأمه، ولا يستطيع التخلّي عنه بأكثر ما يستطيع التخلّي عن أخلاقه. كيف يمكنها أن «تكره» هذا البلد عندما لا تكون لديها أية فكرة عنه؟ كيف يمكن أن يبلغ العمى بطفلته حدًّا يجعلها ترى الشر في «النظام العفن» الذي أعطى أسرتها فرص النجاح كلّها؟ كيف تحقّر أبيها «الرأسمالي» كما لو أن ثروتهم لم تكن نتيجة كدح لا حدَّ له تواصَل على امتداد ثلاثة أجيال؟ رجالُ ثلاثة أجيال، بمن فيهم هو نفسه، يخوضون في قذارة المدابغ ووحولها. العائلة التي بدأت من مدبغة صارت على قدم المساواة مع أكثر الناس وضاعة في نظرها، مع «الكلاب الرأسماليين»! ولم يكن هناك اختلاف كبير (وقد عرفتْ هذا) بين كره أميركا وكرههم. كان يحبّ أميركا التي تكرهها وتلومها على كل نقص أو خلل في

الحياة وتريد أن تقلبها بالعنف. لقد أحب «القيم البرجوازية» التي كرهتها وسخرت منها وأرادت تقويضها. أحبَّ الأم التي كرهتها، بل التي قتلتها بأن أقدمت على فعلتها. العاهرة اللعينة الصغيرة الجاهلة! الثمن الذي دفعوه! لماذا لا يمزّق هذه الرسالة التي أتته من ريتا كوهن؟ ريتا كوهن! لقد عادوا! مسببو الأذى الساديون أصحاب موهبة الحقد التي لا آخر لها، الذين ابتزوه وأخذوا منه المال، الذين انتزعوا منه - لأن ذلك كان متعة لهم - دفتر قصاصات أودري هيبورن وسجل يوميات التأتأة وحذاء الباليه... هؤلاء المتوحشون الصغار المجرمون الذين يدعون أنفسهم «ثوريين»، الذين تلاعبوا بآماله تلاعبًا مؤذيًا منذ خمس سنوات ثم قرّروا الآن أن الوقت قد حان لكي يسخروا من السويدي ليفوف من جديد.

... «ليس لنا إلا أن نقف شهودًا على العذاب الذي رفعها إلى مصاف القداسة. التلميذة التي تطلق على نفسها اسم ريتا كوهن». لقد كانوا يسخرون منه. لا بد أنهم يسخرون. هذا لأن الشيء الوحيد الأكثر سوءًا من أن يكون هذا كله مزاحًا شريرًا هو ألا يكون مزاحًا شريرًا. ابنتك مقدّسة. ابنتي هي أي شيء، وهي كل شيء، ولكن. إنها تائهة مجروحة شديدة الهشاشة... من غير أمل! لماذا قلتِ لها إنني ضاجعتك؟ ولماذا تقولين لي إنها أرادت منك فعل ذلك؟ تقولين هذه الأشياء لأنك تكرهيننا. وأنت تكرهيننا لأننا لا نفعل أشياء من هذا القبيل. أنت لا تكرهيننا لأننا مجانين متهوّرون، بل لأننا عاقلون متروّون مجدّون في عملنا نقبل الالتزام بالقانون. تكرهيننا لأننا لم نفشل. تكرهيننا لأننا عملنا بجد واستقامة حتى نصير أحسن الناس في هذا المجال، ولأننا صرنا ميسورين نتيجة ذلك. هذا ما يجعلك تحسديننا وتكرهيننا وتتمنين تدميرنا. هذا ما جعلك تستغلّينها. طفلة متأتئة في السادسة عشرة من عمرها. لا... ما من شيء قليل الأهمية في ما يخصّ جماعتك. لقد جعلتم منها «ثورية» مليئة بأفكار عظيمة ومُثُل فكرية سامية. يا أبناء العاهرة! أنتم مستمتعون بمشهد خرابنا. أبناء حرام جبناء! لم تستعبدها الكليشيهات، بل أنتم من استعبدها بالشعارات الكبيرة الضحلة... تلك الطفلة الحانقة، وتأتأتها التي تكره الظلم، لم يكن لديها أي شيء يحميها. لقد

جعلتموها مؤمنة بأنها مثل الناس المسحوقين... حوّلتموها إلى ضحية لكم، إلى مستضعفة لديكم. مات الدكتور فرد كونلون نتيجة ذلك. كان هو الشخص الذي أقدمتم على قتله حتى توقفوا الحرب: رئيس أطباء المستشفى في مدينة دوفر؛ الرجل الذي أقام في كل مستشفى محلي صغير وحدة للأمراض القلبية فيها ثمانية أسِرّة. تلك كانت جريمته.

بدلًا من إقدامكم على ذلك التفجير في منتصف الليل عندما تكون القرية خالية، انفجرت تلك القنبلة - إما على نحو مخطط له أو نتيجة غلطة - عند الساعة الخامسة صباحًا، قبل ساعة واحدة من بدء المتجر عمله، في تلك اللحظة نفسها التي أسقط فيها د. فرد كونلون في صندوق البريد مغلفات فيها شيكات لتسديد فواتيره المنزلية بعد أن حرّرها على مكتبه في الليلة الفائتة. كان في طريقه إلى المستشفى. أصابت مؤخر جمجمته قطعة معدنية طارت من المتجر.

كانت داون تحت تأثير الأدوية المهدئة فلم تستطع رؤية أحد. لكن السويدي ذهب إلى بيت روس وميري هاملين وعبّر عن تعاطفه معهما إزاء ما أصاب المتجر، وقال لهاملين إن ذلك المتجر كان يعني الكثير لداون وله، وإنه كان جزءًا من حياتهما مثلما كان جزءًا من حياة أي شخص في القرية. ذهب بعد ذلك إلى سهرة وداع الفقيد - في التابوت، بدا د. كونلون حسن المظهر، لطيف الوجه كعهده دائمًا. وفي الأسبوع الذي أعقب ذلك، بعد أن رتب طبيبهما أمر ذهاب داون إلى المستشفى، مضى السويدي وحده لكي يزور أرملة كونلون. وأما كيف أفلح في الذهاب إلى بيت تلك المرأة لتناول الشاي عندها فهي قصة أخرى - بل هي قصة تعادل كتابًا آخر - لكنه فعلها، تمكن من فعلها، فقدّمت له المرأة الشاي رابطة الجأش بينما راح يقدّم تعازي أسرته بكلمات راجعها في ذهنه خمسمئة مرة لكنها ظلّت غير مناسبة عند نطقها، بل ظلّت أكثر خواء من تلك الكلمات التي قالها لروس وميري هاملين: «أسف صادق عميق... الألم الذي أصاب أسرتك... تريد زوجتي أن تعرفي أن...». بعد إصغائها إلى كل ما أراد قوله، أجابته السيدة كونلون بصوت هادئ معربة عن موقف شديد اللطف والوداعة والتعاطف جعل السويدي يود أن يختفي، يود أن يختبئ كما يختبئ الطفل، لكنه

أحسَّ في الوقت نفسه دافعًا يكاد يكون طاغيًا إلى أن يرمي بنفسه عند قدميها، ويظل هناك إلى الأبد متوسّلًا صفحها وغفرانها. كانت تقول له: «أنتما والدان جيدان. وقد ربّيتما ابنتكما بأحسن ما استطعتما. هذه ليست غلطتكما؛ ولست أحمل لكما أية ضغينة. لم تذهبا لشراء الديناميت. لم تصنعا تلك القنبلة. لم تزرعا تلك القنبلة. لم تكن لكما أية علاقة بتلك القنبلة. وإذا اتضح، كما يبدو الآن، أن ابنتكما هي الشخص المسؤول حقًا، فسوف أعتبرها مسؤولة وحدها عن ذلك. إنني حزينة عليك يا سيد ليفوف. لقد فقدت زوجي؛ وفقد أطفالي والدهم. لكنكما فقدتما ما هو أكثر من ذلك. أنتما أبوان فقدا طفلتهما. لن يمر يوم من غير أن أفكّر بكما وأدعو لكما في صلاتي». كان السويدي على معرفة بسيطة بالدكتور فرد كونلون، وذلك من خلال حفلات الكوكتيل واللقاءات الخيرية التي كان كل منهما يجد فيها نفسه ضجِرًا. لكنه كان على معرفة حسنة بسمعته: رجل يمنح أسرته ومستشفاه اهتمامه بالقدر نفسه من الإخلاص؛ رجلٌ طيّبٌ مجدٌّ في عمله. وفي ظل إدارته، بدأ المستشفى التخطيط لبناء أقسام جديدة هي الأولى منذ إنشائه. وفضلًا عن الوحدة الجديدة للأمراض القلبية، شهد المستشفى في عهده تحديث مرافق الإسعاف التي كانت متقادمة. لكن، من عساه يبالي بمرافق الإسعاف في مستشفًى محلّي في منطقة ريفية؟ ومن عساه يبالي بمتجر ريفي يديره مالكه منذ سنة 1921؟ نحن نتحدّث عن البشرية كلها! فأين جرى تقدّم للبشرية من غير بعض الأخطاء والحوادث المؤسفة؟ الناس غاضبون؛ وقد تكلّموا! وسوف يقابَل العنف بالعنف بصرف النظر عن العواقب إلى أن يتحرّر الشعب! خسرت أميركا الفاشية مركزَ بريدٍ تم تدميره كله.

لكن حقيقة الأمر هي أن متجر هاملين لم يكن مركز بريد أميركيًا رسميًا، ولم يكن هاملين وزوجته موظفين لدى البريد الأميركي. لم يكن لديهما أكثر من مركز بريدي متعاقد - مقابل كمية من الدولارات - على تقديم بعض الخدمات البريدية الجانبية. لم يكن متجر هاملين مؤسسة حكومية بأكثر من مكتب المحاسب الذي يذهب إليه أي شخص لإعداد تصريحه الضريبي. لكن هذه ليست أكثر من تفاصيل فنية في نظر الثوريين العالميين. تم تدمير الهدف! وصار

سكان أولد ريمروك البالغ عددهم ألف ومئة شخص مرغمين، طيلة سنة ونصف السنة، على قيادة السيارة خمسة أميال من أجل شراء ما يلزمهم من طوابع ومن أجل وزن طرودهم البريدية أو إرسال أي بريد مسجَّل. وهذا ما يجعل الرئيس ليندون جونسون يعرف حجمه الحقيقي!

لقد كانوا يسخرون منه. كانت الحياة تسخر منه.

لقد قالت له السيدة كونلون: «أنتما من ضحايا هذه المأساة، مثلنا. الاختلاف هو أن أسرتنا سوف تستمر أسرةً على الرغم من أن التعافي سيستغرق زمنًا. سوف نستمر ونظل أسرة متحابّة. سنستمر، وستستمر معنا ذكرياتنا سليمة تساندنا وتعيننا. لن يكون فهم شيء عديم المعنى إلى هذا الحد سهلًا علينا؛ ولن يكون سهلًا عليكما. لكننا سنبقى الأسرة نفسها التي كانت عندما كان فرد معنا، وسوف نعيش».

تلك القوة وذلك الوضوح اللذان ألمحت بهما إلى أن أسرة السويدي لن تكون قادرة على الاستمرار، جعلاه يتساءل في الأسابيع الذي تلت ذلك، عما إذا كان لطفها وتعاطفها شاملين حقيقيين مثلما أراد أن يعتقد أول الأمر.

لم يذهب لرؤيتها بعد ذلك.

أخبر سكرتيره بأنه سيذهب إلى نيويورك ليزور البعثة الدبلوماسية التشيكية، التي زارها سابقًا، وأجرى فيها مناقشة أولية لاحتمال قيامه برحلة إلى تشيكوسلوفاكيا في وقت لاحق من ذلك الخريف. لقد تفحّص في نيويورك نماذج قفازات، ونماذج أحذية وأحزمة ومحافظ جيب مصنوعة في تشيكوسلوفاكيا. إن التشيكيين يطرحون عليه الآن خططًا لزيارة مصانع في برنو وفي براتسلافا حتى يرى صناعة القفازات بنفسه، ويتفحّص بشكل أفضل نماذج من عملهم أثناء إنتاجها وبعد خروجها من المصنع. لم يعد هناك مجال للتساؤل عمّا إذا كانت الصناعة التشيكوسلوفاكية قادرة على الإنتاج بأسعار أرخص من الأسعار في نيوارك وفي بورتوريكو؛ بل من الممكن أيضًا أن تكون تلك المنتجات أكثر جودة. بدأ تراجع المهارة الحرفية في مصنع نيوارك منذ حوادث الشغب، ولا يزال هذا التهدور مستمرًا. خاصة بعد تقاعد فيكي التي كانت مشرفة على قاعة

التصنيع. وحتى إذا أخذ في الاعتبار أن ما رآه في مقر البعثة التشيكية لا يقدّم صورة صادقة عن الإنتاج اليومي، فقد كان ما رآه هناك مثيرًا للإعجاب بالقدر الكافي. في ما مضى، في الثلاثينات، أغرق التشيكيون السوق الأميركية بقفازات فاخرة. وعلى مر السنين، اشتغل لدى شركة نيوارك ميد عدد من عمال القص التشيكيين الممتازين. وكان فيها ميكانيكي تشيكي أمضى ثلاثين عامًا في العناية بآلات الخياطة في الشركة، فحافظ على «أحصنة العمل» تلك في أحسن حال: كان يستبدل المحاور المهترئة، والعتلات، والصفائح، والمكوكات، ويضبط توقيت كل آلة ومقدار شد الخيط فيها. كان ذلك العامل تشيكيًا؛ وكان عاملًا رائعًا خبيرًا بكل ما في الدنيا من آلات خاصّة بصناعة القفازات. كان قادرًا على إصلاح كل شيء. ومع أن السويدي كان قد أكّد لأبيه أنه لا يعتزم أبدًا توقيع أية عقود خاصة بأعمالهم مع حكومة شيوعية قبل أن يعود حاملًا صورة متكاملة عن الوضع هناك، فقد كان واثقًا من أن الخروج من نيوارك قد صار مسألة وقت، لا أكثر.

بحلول هذا الوقت، كانت داون قد انتهت من عملية الحصول على وجه جديد، وكانت قد بدأت عودتها المفاجئة إلى الحياة. وأما ميري... حسنًا، ميري العزيزة، ميري الحبيبة، طفلتي الغالية الوحيدة ميري... كيف يمكن أن أبقى في سنترال آفنيو وأصارع من أجل مواصلة الإنتاج، وأتلقّى الضربات التي أتلقاها هنا من السود الذين ما عادوا مبالين أبدًا بجودة منتجاتي - أشخاص مهملون؛ أشخاص يبتزونني لمعرفتهم بأنه لم يبق في نيوارك من يمكن تدريبه لكي يحلّ محلّهم - لم أترك سنترال آفنيو لخوفي من أن تتّصلي معي وتقولي لي إنني عنصري وإنك لن تريني بعد الآن؟ انتظرت هذا الانتظار كلّه حتى أراك من جديد؛ وانتظرتْ أمك؛ وانتظر جدُّك وجدتك أيضًا. كنا ننتظرك جميعًا، أربعًا وعشرين ساعة من كل يوم، من كل سنة، طيلة خمس سنين، حتى نراكِ، أو حتى يصلنا خبر منك، أو حتى يأتينا أحد بكلمة منك، وما عدنا قادرين على تأجيل حياتنا أكثر من هذا. إننا في سنة 1973. صارت أمك امرأة جديدة. إن كان لنا أن نستأنف الحياة مرة أخرى، فعلينا أن نبدأ الآن.

إلا أنه ما كان ينتظر أن يرحّب به القنصل البشوش في مقر البعثة التشيكية وأن يقدّم إليه كأسًا من شراب سليفوفيتس (كما سيظنّ أبوه أو زوجته إذا حدث أن اتصل أحدهما بمكتبه سائلًا عنه)، فقد كان مقر القنصلية مقابل مستشفى القطط والكلاب في جادة نيو تيرسي ريلرود، على مسافة عشر دقائق بالسيارة من مصنع نيوارك ميد.

عشر دقائق فقط! طيلة تلك السنوات كلها! سنوات في نيوارك نفسها! كانت ميري تعيش في المكان الوحيد في العالم الذي لا يمكن أبدًا أن يحزره لو أتيحت له ألف فرصة لأن يحزر. فهل كان ينقصه الذكاء، أم أنها كانت استفزازية جدًّا، شاذّة جدًّا، مجنونة جدًّا إلى حدٍّ يجعله غير قادر على تخيّل شيء مما قد تفعله؟ هل كان قاصر المخيّلة أيضًا؟ أيُّ أب يمكن ألا يكون قاصر المخيّلة؟ كان ذلك أمرًا غير معقول. ابنته تعيش في نيوارك، وتعمل في هذا الشارع، وليست في نهاية حي آيرون باوند حيث كان البرتغاليون يستولون على شوارع داون نِك الفقيرة، بل هنا في أقصى الناحية الغربية من آيرون باوند، في ظل جسر السكة الحديدية الذي يحجب ريلرود آفنيو عن الناحية الغربية من الشارع. كانت تلك التحصينات الكالحة هي سور المدينة الصيني: جلاميد من الصخر البنّي مكومة على ارتفاع عشرين قدمًا، متواصلة على طول مسافة تتجاوز ميلًا كاملًا، لا يقطعها إلا عدد قليل من أنفاق العبور السفلية القذرة. على طول هذا الشارع المنسي الذي صار الآن منذرًا بالشؤم كأي شارع في أية مدينة أميركية متداعية، كان هناك امتداد طويل لجدار غير محروس خالٍ حتى من الرسوم والكتابات الجدارية. وفي ما عدا الأعشاب والنباتات البرية الذاوية التي أفلحت في الانبثاق حزمًا نحيلة حيث تشقّق الملاط وتساقط، فقد كان الجدار خاليًا من أي شيء إلا التأكيد على الصراع المديد الظافر الذي خاضته هذه المدينة الصناعية المتعبة لكي تخلِّد بشاعتَها بهذا النصب التذكاري.

كانت المصانع القاتمة القديمة قائمة على الناحية الشرقية من الشارع - مصانع منذ زمن الحرب الأهلية، مصاهر الحديد، مصانع النحاس، بنايات صناعية ثقيلة سوّدها الدخان الذي ضختته مداخنها مئة سنة -. الآن، صارت هذه المصانع من

غير نوافذ، ومُنع ضوء الشمس من دخولها بجدران من الحجارة والملاط، وسُدّت مداخلها ومخارجها بكتل كبيرة. تلك هي المصانع التي كان الناس يفقدون فيها أصابعهم وأذرعهم، وتنهرس أقدامهم، وتحرق وجوههم. إنها حيث كان الأطفال في ما مضى يعملون في الحر وفي البرد. مصانع القرن التاسع عشر التي كانت تطحن الناس وتنتج السلع صارت الآن قبورًا مختومة، منيعة. نيوارك هي المدفونة هناك... مدينة لن تتحرّك بعد الآن. إنها أهرامات نيوارك: ضخمة، داكنة، منيعة إلى حد مخيف، كأن لها كلّ الحقّ في أن تكون صروح مدافن سلالة حاكمة عظيمة.

لم يعبُر المشاركون في حوادث الشغب من تحت سكة الحديد المرفوعة هنا. لو عبروا، لكانت هذه المصانع - كتلة المصانع كلّها - قد صارت الآن أنقاضًا محترقة مثلما حل بمصانع شارع ويست ماركت خلف شركة نيوارك ميد.

كان أبوه يقول له: «الحجر البنّي والقرميد. كان ذلك قطاعًا مزدهرًا. إن مقالع الحجر البنّي موجودة هنا. هل تعرف هذا؟ إنها خلف بيلفيل، إلى الشمال، على امتداد النهر. إن في هذه المدينة كل شيء. لا بد أن ذلك العمل قد كان مزدهرًا حقًّا. ذلك الشخص الذي كان يبيع الحجر البنّي والقرميد في نيوارك... كان في أحسن حال».

في صباحات أيام الأحد، كان السويدي يذهب بالسيارة إلى منطقة داون نِك مع أبيه لاستلام حصيلة الأسبوع من القفازات المنتهية من العائلات الإيطالية التي تعمل بالقطعة في بيوتها. وبينما تمضي السيارة مترجرجة في تلك الشوارع المرصوفة بالحجارة فتجتاز بيوت المزارع الصغيرة الفقيرة بيتًا بعد بيت، كان جسر السكة الحديدية الضخم يظل ظاهرًا بشكل متقطّع. إنه لن يزول! كانت تلك مقابلة السويدي الأولى مع ذلك الجسم الضخم الذي صنعته يد البشر، الجسر الذي يقسم المكان نصفين ويجعل كل ما عداه يبدو قزمًا صغيرًا. كان مخيفًا له أول الأمر، للطفل الحساس لبيئته حتى منذ ذلك الوقت مع ميل إلى تقبل تلك البيئة وإلى جعلها تتقبّله أيضًا. كان عمره ست سنوات،

من غير تأتأة!... حديث كان في ما مضى يجبرها على أن تكشّر ويشحب

لونها، وتضرب قبضة يدها سطح الطاولة... حديث كان يجعلها متحدّثةً مضطربةً تهاجمها الكلمات وتهاجم الكلمات بإصرار عنيد... لكنّها قدّمته الآن بصبر وبسماحة نفس، وبذلك الصوت المرنّم الرتيب على الرغم مما كان فيه من إلحاح روحاني رقيق النبرة. كل ما لم تستطع الوصول إليه من خلال معالجي الكلام والأطباء النفسيين، ولا من خلال «دفتر يوميات التأتأة»، أحرزته بكل جمالٍ عن طريق الجنون. أخضعت نفسها للعزلة والقذارة والخطر المخيف فتمكّنت من التوصّل إلى السيطرة، الذهنية والجسدية، على كل صوت تنطقه. ذكاءٌ ما عادت تُقعِدُه بليّة التأتأة.

ذلك الذكاء هو ما كان يسمعه: عقل ميري المجتهد، الحادّ، السريع، العقل المنطقي الذي كان لديها منذ أول طفولتها.

جعله سماعها ينفتح على ألم لم يتخيّله أبدًا من قبل. كان ذكاؤها سليمًا، على حاله، لكنها كانت مجنونة. وكان منطقها ذلك النوع من المنطق الخالي تمامًا من القدرة على المناقشة العقلية التي كانت سمة لها منذ أن كانت طفلة في العاشرة. كان ذلك سخفًا... وكان جنونه أنه كان منطقيًا معها. كان جالسًا هناك يحاول أن يتصرّف كما لو أنه يحترم دينها، ذلك الدين المكوّن من فشل مطلق في فهم معنى الحياة. كان كل منهما يتصرّف كما لو أن أباها أتى إليها لكي تثقّفه. لكي تلقي عليه محاضرة!

«... نحن لا نفهم الخلاص، بأي شكل باعتباره سبيلًا لاتحاد روح الإنسان بشيء أبعد منها. تعيش روح الورع الجايني في قول المؤسس ماهافيرا: ‘أيها الإنسان، أنت صديق نفسك. فلماذا تبحث لك عن صديق غير نفسك؟’».

«ميري، هل أنت من فعل ذلك؟ لا بد من سؤالك الآن. هل أنت من فعل ذلك؟»... كان هذا هو السؤال الذي توقّع أن يطرحه عليها قبل غيره قبل أن يصلا إلى غرفتها وقبل أن يبدأ كل شيء آخر تسرّبه المؤلم المخيف. قال في نفسه إنه انتظر لأنه لم يشأ جعلها تظن بأنه مهتم بأي شيء أكثر من رؤيتها بعد هذا الغياب الطويل، ومن الاهتمام بها. لكنه أدرك بعد أن طرح السؤال أنه لم يطرحه قبل ذلك لأنه لم يكن قادرًا على احتمال الإجابة.

«فعلتُ ماذا، يا بابا؟».
«هل أنتِ من فجّر مكتب البريد؟».
«نعم».
«وهل تعمّدت تفجير هاملين أيضًا؟».
«لم يكن هناك سبيل آخر لفعل ذلك».
«باستثناء عدم فعله! ميري، عليك أن تخبريني الآن بمن جعلك تفعلين ذلك؟».
«إنه ليندون جونسون».
«هذه ليست إجابة. لا! أجيبيني. من قال لك أن تفعلي هذا؟ من الذي غسل دماغك؟ من الذي فعلت هذا من أجله؟».
كان لا بد من وجود قوى خارجية أثّرت عليها. يقولون في الصلاة «لا تدخلنا في التجارب». إذا لم يكن الناس مقودين من قبل غيرهم، فلماذا يقولون هذا في الصلاة؟ لا يمكن أن تفعل طفلة هذا الأمر من تلقاء نفسها، طفلة حظيت بكل امتياز. حظيت بالحب. حظيت بأسرة ميسورة، محبّة، حسنة الخلق. من الذي جنّدها وأغراها بفعل هذا؟
قالت له: «أرى أنك لا تزال حريصًا جدًّا على فكرة أن ابنتك بريئة».
«من الذي جعلك تفعلين ذلك؟ لا تحميهم. من المسؤول؟».
«بابا، يمكنك أن تكرهني وحدي، لا بأس في هذا».
«تقولين لي إنك فعلت ذلك كلّه من تلقاء نفسك. فعلت ذلك وأنت تعرفين أن د. كونلون سيُقتل أيضًا. هذا ما ستقولينه لي».
«صحيح. أنا مصدر الأهوال. اكرهني».
تذكّر في تلك اللحظة شيئًا كتبته عندما كانت في الصف السادس، أو في الصف السابع، قبل أن تذهب إلى مدرسة موريستاون الثانوية. سُئل التلامذة في صفها في مدرسة مونتيسوري عشرة أسئلة عن «فلسفتهم». كانوا يطرحون عليهم سؤالًا في كل أسبوع. سألتهم المعلّمة في الصف في الأسبوع الأول: «لماذا نحن هنا؟». بدلًا من أن تكتب كما كتب بقية الأطفال... «نحن هنا لفعل الخير؛ نحن هنا حتى نجعل العالم مكانًا أفضل، إلخ...». أجابت ميري بسؤال من عندها:

«لماذا القرود هنا؟». لكن المعلّمة وجدت هذه الإجابة غير كافية وطلبت منها أن تذهب إلى البيت وأن تفكّر في السؤال تفكيرًا أكثر جدّية. قالت لها: «توسّعي في هذه الفكرة». وهكذا، عادت ميري إلى البيت وفعلت ما قيل لها، ثم قدّمت لمعلمتها جملة إضافية في اليوم التالي، «لماذا الكنغارو هنا؟».

كانت تلك المرة الأولى التي يتم فيها إبلاغ ميري رسميًا بأن لها صفة «المعاندة». كان السؤال الأخير الذي طُرح على صفّها «ما الحياة؟». فكانت إجابة ميري شيئًا أثار ضحك أبيها وأمها في تلك الليلة. قالت ميري إن التلاميذ الآخرين بذلوا جهدًا كبيرًا في عرض أفكارهم العميقة الزائفة. وأما هي - بعد ساعة من التفكير في مقعدها - فقد قدّمت جملة وحيدة واضحة غير مبتذلة: «ليست الحياة إلا برهة قصيرة من الزمن نكون فيها أحياء». وقتها، قال السويدي لزوجته: «أتعرفين؟... هذه الجملة أكثر ذكاء مما تبدو عليه. إنها طفلة، فكيف تبينت أن الحياة قصيرة؟ ابنتنا الغالية ليست قليلة أبدًا. ستذهب هذه الفتاة إلى جامعة هارفارد». لكن المعلّمة لم توافق على الإجابة هذه المرة أيضًا. كتبت تحت إجابة ميري: «أهذا كل شيء؟...». أجل... هذا ما فكّر فيه السويدي الآن... هذا كل شيء. والشّكر للرب على أن هذا كل شيء. حتى وإن كان أمرًا لا يُطاق.

الحقيقة هي أنه كان عارفًا بالأمر على طول الخط: فمن غير مساعدة أحد في تغييرها، انفجر كل ما هو حانق فيها وخرج إلى العلن. لم يكن يخيفها شيء. وما كانت شخصًا يمكن أن يخيفه شيء. هذه الطفلة التي كتبت لمعلمتها خلافًا لبقية الأطفال الذين قالوا إن الحياة نعمة جميلة وإنها فرصة عظيمة وإنها مهمة نبيلة وإنها نعمة من الرب، فقالت إنها ليست أكثر من برهة قصيرة نكون فيها أحياء. نعم، لقد كانت النية نيتها وحدها. هكذا وجب أن يكون الأمر. كان حقدها متّجهًا إلى القتل، ولا شيء أقل من القتل. لو كان الأمر غير ذلك، لما كانت النتيجة هذه الطمأنينة المجنونة. حاول أن يترك المنطق يصعد إلى السطح مرة ثانية. وكم جهِدَ في تلك المحاولة. ما الذي يمكن أن يقوله رجل منطقي بعد ذلك؟ إذا كان الإنسان قادرًا على التماسك وعلى البقاء منطقيًا بعد صفعه وبعد أن قارب البكاء

نتيجة ما سمعه يقال بهذه الطريقة العادية جدًا - بعد أن قيل كل ما هو غير معقول بطريقة عادية جدًا - فما الذي يمكن أن يقوله؟ ماذا يقول أب منطقي مسؤول إن كان لا يزال قادرًا على الإحساس بأنه أب بكل معنى الكلمة؟

«ميري، هل لي أن أقول لك ما أراه؟ أظنّك شديدة الخوف من معاقبتك على ما فعلته. وأظنك تعاقبين نفسك بنفسك بدلًا من أن تحاولي تفادي العقوبة. لا أظن أن التوصّل إلى هذا الاستنتاج أمر صعب، يا حبيبتي. ولا أظنّني الشخص الوحيد في العالم الذي يمكن أن يتوصّل إلى استنتاج ذلك بعد رؤيتك هنا، وبعد أن يرى مظهرك الآن. أنت فتاة طيبة. وهذا ما يجعلك تريدين التكفير عن ذنبك. لكن هذا ليس تكفيرًا عن الذنب. لن تعاقبك الدولة نفسها عقوبة مثل هذه. لا بد لي من قول هذه الأشياء، يا ميري. عليَّ أن أخبرك بصدق كيف يبدو الأمر لي».

«عليك بالتأكيد أن تفعل ذلك».

«انظري فقط إلى ما تفعلينه بنفسك - سوف تموتين إذا واصلت هذا الأمر. سنة أخرى على هذا النحو كافية لأن تموتي - ستموتين من تجويعك لنفسك، من سوء التغذية، ومن القذارة. لا يمكنك مواصلة الذهاب والمجيء كل يوم من ذلك النفق تحت سكة القطار. إن ذلك النفق مأوى للمشرّدين المنبوذين... مأوى لمشردين لا يتقيّدون بالقواعد التي تتقيّدين بها. عالمهم لا يعرف الرحمة يا ميري. إنه عالم مخيف. عالم عنيف».

«لن يؤذوني. يعرفون أنني أحبّهم». جعلته تلك الكلمات يشعر بالغثيان. تلك الطفولية الفاضحة، المباهاة العاطفية النابعة من خداع الذات. ما الذي تراه في الهرولة اليائسة لهؤلاء الناس اليائسين مما يمكن أن يكون سندًا لهذه الفكرة؟ المشرّدون والحبّ! أن يكون المرء مشرّدًا يعيش في نفق أمرٌ يستلزم أن ينفض عن نفسه مئة مرة أدنى تقبّلٍ للحب. كان هذا فظيعًا. الآن، بعد أن خلا كلامها من التأتأة أخيرًا، صارت لا تقول إلا كلامًا لا قيمة له. ها هو ما كان يحلم به وقد تحقّق - أن يأتي يومٌ تكف فيه هذه الطفلة الموهوبة عن التأتأة. صارت الآن قادرة، بأعجوبة، على ضبط تلك التأتأة المضطربة، لكنها كشفت - في عين

العاصفة التي كانتها شخصيتها المتفجّرة - عن هذا الهدوء وهذا الوضوح المجنون. يا له من انتقام كبير: أهذا ما أردتَهُ، يا بابا؟ حسنًا، إليك ما أردت!

الآن، صار نجاحها في إحراز القدرة على الشرح والكلام أسوأ شيء على الإطلاق.

كانت القسوة التي أحسّها لكنه لم يرد أن تسمعها منه ظاهرة في صوته عندما قال لها: «سوف تلقين نهاية عنيفة، يا ميريديث. واصلي اختبارهم مرتين في كل يوم؛ واصلي ذلك وسوف تكتشفين مقدار ما يعرفونه عن حبّك لهم. إن جوعهم، يا ميري، ليس جوعًا إلى الحب. سوف يقتلك واحد منهم».

«لكني سأولد من جديد».

«أشكّ في هذا يا عزيزتي. أشكّ فيه جديًا».

«هل توافق على أن قيمة تخمينك تساوي قيمة تخميني؟».

«ألن تخلعي هذا اللثام، على الأقل، أثناء حديثنا؟... حتى أستطيع رؤيتك».

«هل تعني أنك تريد رؤيتي أتأتئ؟».

«حسنًا، لا أعرف إن كان وضع اللثام مسؤولًا عن اختفاء تأتأتك أو غير مسؤول عنها. أنت تقولين لي إنه فعلَ ذلك. تقولين لي إن التأتأة لم تكن إلا طريقتك في تجنّب أذية الهواء والأشياء التي تعيش في الهواء... ألم تقولي هذا؟ هل فهمت ما قلتِه لي؟».

«أجل».

«لا بأس... حتى إذا كنت سأقبل هذا فإن عليَّ القول لك إنني أظن حياتك كانت ستصير أفضل مع استمرار التأتأة. لست أستصغر معاناتك من التأتأة. لكن، إذا تبيّن أنك وجدت نفسك في حاجة إلى دفع الأمور إلى هذا الحدِّ الأقصى حتى تتخلّصي من التأتأة الملعونة... فسوف أتساءل حقًّا عند ذلك إن كان... حسنًا، سوف أتساءل إن كانت تلك مقايضة حسنة».

«لا يمكنك استخدام الدوافع لتصغير ما أفعله، يا بابا. وبالتأكيد، لن أستعين بالدوافع لتصغير ما تفعله أنت».

«لكن، لديَّ دوافع. لدى كل إنسان دوافعه».

«لا يمكنك اختصار رحلة الروح إلى ذلك النوع من علم النفس. لا يليق بك فعل هذا».

«إذًا، اشرحي الأمر أنت. اشرحيه لي، من فضلك. كيف تفسّرين أنك عندما قبلت هذا كلّه... هذا الذي يبدو لي بؤسًا، ولا شيء أكثر من ذلك، عندما فعلت هذا، فقد أنزلت بنفسك معاناة حقيقية، هي هذا الذي أراه كلّه، معاناة اخترتها بنفسك، يا ميري. معاناة حقيقية، لا أكثر ولا أقل». كان صوته مرتعشًا، لكنه تابع كلامه، منطقيًّا، منطقيًّا، مسؤولًا، مسؤولًا... «عند ذلك، عند ذلك فقط - هل تدركين ما أقول؟ - اختفت التأتأة».

«لقد أخبرتك: تخلّصت من الرغبات ومن الفردانية الأنانيّة».

«طفلة حلوة، وفتاة حلوة». جلس وسط القذارة على الأرض عاجزًا عن كل شيء غير محاولة فعل كل ما يستطيع فعله حتى لا يفقد سيطرته على نفسه.

لم يكن هناك ضوء غير الضوء الساقط عبر النافذة القذرة فوق الباب في الغرفة الضئيلة حيث صارا الآن جالسين لا تفصل بينهما أكثر من مسافة ذراع واحدة. إنها تعيش من غير نور، لماذا؟ هل رفضت رذيلة الكهرباء أيضًا؟ إنها تعيش من غير نور، تعيش من غير أي شيء. هذا ما انتهت إليه حياتهم: هي تعيش في نيوارك من غير أي شيء؛ وهو يعيش في أولد ريمروك ولديه كل شيء، إلا هي. أيلوم حظّه الحسن على هذا أيضًا؟ انتقام من لا يملكون ممن يملكون ويمتلكون. كل الذين يعتبرون أنفسهم ممن لا يمتلكون، أمثال ريتا كوهن، الذين يلعبون ذلك الدور ساعين إلى نسبة أنفسهم إلى أسوأ أعداء أهلهم، أولئك الذين يصوغون أنفسهم وفق أشد ما يكرهه أولئك الذين يحبّونهم.

في ما مضى، كان في غرفتها شعار خطّته يدها بلونين اثنين على قطعة ورق مقوّى... ملصقٌ من صنع اليد علّقته فوق مكتبها، استبدلته براية فريق ويكاهيك لكرة القدم. ظل ملصقها معلّقًا هناك ولم تمتد إليه يد خلال السنة التي سبقت اختفاءها. قبل أن تعلّق ذلك الملصق، كانت راية ويكاهيك عزيزة عليها لأن صديقة السويدي في المدرسة الثانوية أخذت تلك الراية إلى صف الخياطة في سنة 1943، ونقشت بخيط أبيض ثخين على الحاشية اللبّادية السفلى للمثلث ذي

اللونين البرتقالي والبني: «إلى ليفوف الذي تحبه المدينة كلّها - آرلين». كان الملصق الشيء الوحيد الذي تجرّأ على إزالته من غرفتها وعلى إتلافه؛ إلا أن فعل ذلك اقتضاه ثلاثة أشهر. كانت مصادرة ممتلكات شخص آخر، بالغًا أو طفلًا، أمرًا بغيضًا إلى نفسه. لكنه صعد السلم بعد ثلاثة أشهر من التفجير، صعد إلى غرفتها وانتزع ذلك الملصق. كان مكتوبًا عليه: «نحن ضد كل شيء حسن ولائق في أميركا البيض. سوف ننهب ونحرق وندمر. نحن حاضنة كوابيس أمهاتكم». بحروف مربّعة كبيرة تحت ذلك الشعار، سَجّلتْ نسبته: «شعار ويذرمن». لأنه كان رجلًا متسامحًا، فقد تسامح مع هذا أيضًا. «أميركا البيض»!... مكتوبة بيد ابنته! تظل معلّقة سنوات في بيته هو، وقد ارتسم ظل أسود ثقيل تحت كل حرف من حروفها الحمراء.

على الرغم من أن ذلك الملصق ما كان فيه على الإطلاق أي شيء يعجبه، فإنه لم ير من حقه - كذا، كذا، كذا، كذا، كذا - أن ينتزعه من مكانه، وذلك انطلاقًا من احترامه لملكيتها وحريتها الشخصية. كان عاجزًا حتى عن إنزال ملصق بشع لأنه ما كان قادرًا حتى على الإتيان بذلك القدر من العنف المُحِقّ. وأما الآن، فقد أتى التحقّق الرهيب لذلك الكابوس لكي يكون تحدّيًا جديدًا واختبارًا جديدًا لحدود تسامحه المستنير. تظنّ أنها إذا رفعت يدها فسوف تسحق وتقتل حشرة مسكينة تطفو في الهواء بكل براءة... - إنها متّصلة بالبيئة إلى حد يجعل لكل حركة تأتي بها عواقب وخيمة لا حد لها - وهو يظن أن إقدامه على إزالة ملصق مقزّز مفعم بالحقد وضعته ابنته يعني اعتداء على شخصيتها، وعلى نفسيتها، وعلى حقوقها بموجب التعديل الأول للدستور. لا، لم يكن جاينيًا - هكذا قال السويدي في نفسه - لكنه تصرّف كما لو أنه واحد منهم. لقد كان غير عنفيّ بشكل ساذج يستحق الإشفاق. الاستقامة البلهاء للأهداف التي وضعها لنفسه.

«من هي ريتا كوهن؟».

«لست أدري».

«من هي الفتاة التي جاءت إليّ من طرفك. في سنة 1968. بعد اختفائك. لقد أتت إلى مكتبي».

«لم يأتك أحد من طرفي؛ ولم أرسل أحدًا أبدًا».
«بل أرسلت تلك الفتاة القصيرة. شديدة الشحوب. شعرها داكن اللون مصفّف على الطريقة الأفريقية. أعطيتُها حذاء الباليه ودفتر قصاصات أودري هيبورن ودفتر مذكراتك. هل هي الشخص الذي جعلك تفعلين هذا؟ هل هي الشخص الذي صنع تلك القنبلة؟ كنت تتحدّثين على الهاتف مع شخص ما عندما كنت لا تزالين في البيت».
تلك المكالمات السرّية التي كانت تجري. المكالمات السرّية التي كان لها «احترامها» أيضًا على غرار الملصق... ليته أزال ذلك الملصق وفصل الهاتف وحبسها في غرفتها منذ ذلك الوقت. عاد يسألها: «هل كانت هي ذلك الشخص؟ قولي لي الحقيقة، من فضلك».
«أنا لا أقول غير الحقيقة».
«أعطيتُها عشرة آلاف دولار من أجلك. أعطيتها المال نقدًا. هل استلمتِ ذلك المال أم لم تستلميه؟».
ضحكت ضحكة متلطفة: «عشرة آلاف دولار. لم أستلمها بعد يا بابا».
«يعني هذا أنني لا بد لي من سماع إجابتك. من هي ريتا كوهن التي دلّتني على المكان الذي أستطيع العثور عليك فيه؟ هل هي ميليسا التي تقيم في نيويورك؟».
أجابته: «لقد وجدتني لأنك كنت تبحث عني. لم أكن أتوقّع أبدًا ألّا تجدني. لقد بحثت عني لأن عليك أن تبحث عني».
«هل أتيتِ إلى نيوارك لمساعدتي في العثور عليك؟ أهذا سبب مجيئك إلى نيوارك؟».
لكنها أجابته: «لا».
«فلماذا أتيت إذًا؟ بم كنت تفكّرين؟ هل كنت تفكّرين في أي شيء؟ أنت تعرفين مكان مكتبي. وتعرفين كم هو قريب منك. أين هو المنطق هنا؟ مكان قريب إلى هذه الدرجة، لكنك...».
«سافرت، وأتيت إلى هنا مثلما ترى».
«أهكذا! مصادفة! لا منطق! لا منطق في أي شيء».

«ليس العالم بمكانٍ لي أثرٌ عليه، أو أرغب في أن يكون لي أثر عليه. إنني متخلّية عن أي تأثير على أي شيء. وأما ما يشكّل مصادفة، فأنت وأنا، يا بابا...».

صاح بها: «هل أنت متخلّية عن كل تأثير؟ هل أنت متخلّية حقًّا؟». لم يعرف في حياته كلّها شيئًا أشد إثارة للجنون من هذا الحديث. وقارها غير المتأتئ، البريء إلى حدّ السخف، المجنون في أعماقه، الذي يزعم معرفة كل شيء، والعري الفظيع في الغرفة وفي الشارع القريب منها، والعري الفظيع في كل شيء خارجه... كان لذلك كلّه أثر شديد القوة عليه. صاح من جديد: «إن لك تأثيرًا عليّ. أنت تؤثّرين عليّ! أنت التي لا تريدين قتل حشرة صغيرة، لكنك تقتلينني. إن ما تجلسين هنا وتسميه 'مصادفة' هو تأثير... عجزك هذا قوة لها تأثيرها علي! لها تأثيرها على أمك، وعلى جدك، وعلى جدتك، وعلى كل شخص يحبك... وضعُك هذا اللثام سخفٌ وكلام فارغ، يا ميري، كلام فارغ بالمطلق! أنت أكثر الناس قوة في العالم!»

لم يكن قادرًا على العثور على أي مواساة في التفكير بأن هذه الحياة ليست حياته، وبأن هذا ليس إلا حلمًا عن حياته. لن يجعله هذا أقل بؤسًا على الإطلاق. ولن يجعله حنقه على ابنته أقل بؤسًا، ولا حنقه على المجرمة الصغيرة التي سمح لها بأن تمثّل دور منقذتهم. محتالة صغيرة مؤذية خبيثة خدعته من غير أن تبذل جهدًا كبيرًا. جعلته يعطيها كل ما أرادته عبر زياراتها التي استمرت الواحدة منها عشر دقائق. الخبث. الجرأة. الوقاحة. الأعصاب الثابتة. الرب وحده يعرف من أين يأتي أطفال كهؤلاء.

ثم تذكّر أن واحدة من أولئك الأطفال قد أتت من بيته. ولم تأتِ ريتا كوهن إلا من بيت شخص آخر. إنهم يترعرعون في بيوت مثل بيته. ويربيهم آباء وأمهات مثله. ومن بينهم بنات كثيرات، بنات لهنّ هوية سياسية كلّية، ولا يقلّ ما لديهن من عدوانية وروح قتالية و«انجذاب إلى العمل المسلح» عما لدى الأولاد. إن في عنفهم وتعطشهم للتحول الذاتي شيئًا نقيًا إلى حد مفزع. إنهم ينبذون جذورهم لكي يتخذوا نماذج لهم شخصيات ثورية تمارس قناعاتها بلا هوادة. وهم

يصنّعون، كآلات لا تتوقف أبدًا، ذلك الاشمئزاز الذي يستحثّ مثاليتهم الفولاذية وينميها. حنقهم قابل للاشتعال في كل لحظة. وهم مستعدّون لفعل أي شيء يمكن أن يتخيّلوه حتى يغيروا التاريخ. ليسوا معرّضين لاحتمال سَوْقهم إلى الحرب، بل هم يتطوعون بملء إرادتهم ومن غير خوف لكي يمارسوا الإرهاب ضد الحرب؛ وهم قادرون على السلب تحت تهديد السلاح، ومجهّزون بكل ما يلزم للتشويه والقتل عن طريق التفجيرات. لا يردعهم خوف ولا شك ولا تناقض داخلي... فتيات مختبئات؛ فتيات خطيرات؛ فتيات مستعدّات للهجوم؛ بعيدات عن ذواتهن؛ فتيات بعيدات عن المجتمع كل البعد. يقرأ في الصحف أسماء الفتيات اللواتي تريد السلطات إلقاء القبض عليهنّ في جرائم تزعم أنها ناشئة عن النشاطات المعادية للحرب. فتيات يتخيل أن ميري تعرفهن. فتيات يتخيل أن حياة ابنته متصلة بحياتهن الآن: بيرنادين، وباتريشيا، وجوديث، وكاثلين، وسوزان، وليندا... بعد أن شاهد أبوه - بحماقة - برنامجًا إخباريًا خاصًّا في التلفزيون تحدّث عن تعقب الشرطة مجموعة ويذرمن السرية التي كان من أعضائها كل من مارك هود وكاثرين بودين وجين ألبرت... كلهم في العشرينات، يهود، من الطبقة الوسطى، جامعيون، يمارسون العنف باسم قضية مناهضة الحرب، ملتزمون بالتغيير الثوري ومصممون على الإطاحة بحكومة الولايات المتحدة الأميركية... أتى إليه بعد ذلك البرنامج وقال له: «أتذكر أيام كان الأولاد اليهود يجلسون في البيت ويكتبون واجباتهم المدرسية. فما الذي حدث؟ بحق الجحيم، ماذا أصاب أطفالنا اليهود الأذكياء؟ إذا كان أهلهم - لا سمح الله - لم يعودوا معرَّضين للاضطهاد، لبعض الوقت، فإنهم يجرون بأنفسهم إلى حيث يظنون أنهم يستطيعون العثور على اضطهاد جديد. إنهم غير قادرون على العيش من غير اضطهاد. هرَب اليهود من الاضطهاد ذات مرة؛ وهم يهربون الآن من اللااضطهاد. هربوا من الفقر ذات مرة؛ ويهربون الآن من الغنى. إنه جنون. لديهم أهل لا يستطيعون كرههم لأنهم أهل جيدون معهم، فتراهم يكرهون أميركا بدلًا منهم».

لكن ريتا كوهن كانت حالة قائمة بذاتها: عاهرة خبيثة، ونصّابة محترفة.

إذًا، كيف له أن يفسّر رسالتها إن كانت هذه هي حقيقتها كلّها؟ ماذا أصاب أطفالنا اليهود الأذكياء؟ لقد فقدوا صوابهم. لقد جنَّ جنونهم. هناك شيء يدفعهم إلى الجنون. هناك شيء جعلهم ضد كل شيء. هناك شيء يقودهم إلى كارثة. هؤلاء ليسوا بالأطفال اليهود الأذكياء العازمين على التقدم من خلال فعل ما يقال لهم بأفضل مما يفعله أي شخص آخر. صاروا لا يشعرون بالراحة إلا إذا تفوّقوا على أي شخص آخر في ما لم يطلب منهم فعله. انعدام الثقة هو الجنون الذي يستدعونه.

وهنا النتيجة، على الأرض، في صورة تفطر القلب: التحوّل الديني. إذا أخفقت في إخضاع العالم، فاجعل نفسك خاضعًا له!

قال لميري: «أنا أحبك. وأنت تعرفين أنني سأبحث عنك. أنت طفلتي. لكن، كيف كان لي أن أعثر عليك ولو بعد مليون سنة وأنت مرتدية هذا اللثام بعد أن صار وزنك ثمانية وثمانين باوندًا، وصرت تعيشين بهذا الشكل؟ كيف يمكن لأي إنسان أن يعثر عليك، حتى في هذا المكان؟ أين كنت؟»... صاح بهذا غاضبًا أشد الغضب الذي يمكن أن يحسّه أب خانه ابنه أو ابنته؛ صاح بغضب شديد خشي معه أن ينبثق دماغه خارجًا من رأسه مثلما انبثق دماغ كيندي عندما أصابه الرصاص... «أين كنت؟ أجيبيني؟».

أجابته، وأخبرته أين كانت.

وكيف كان يصغي إليها؟ كان يتساءل في نفسه: إن كانت هناك نقطة محددة ما في حياتهم قبل أن تسلك الطريق الخاطئ، فأين كانت تلك النقطة، ومتى؟ كان يفكر: ما من وجود لهذه النقطة. لم يكونا أبدًا مسيطرين على ميري على الرغم من تلك السنين التي نجحت خلالها في خداعهما وفي أن تبدو ابنتهما التي تعيش في كنفهما. كان يفكر: عبث! كل ما فعله عبث. الاستعدادات، والتمرينات، والطاعة؛ الإخلاص والالتزام الثابتين بكل ما هو أساسي، وبالأشياء التي لها أكبر الأهمية؛ البناء المنهجي لنظام الحياة، والتدقيق الصبور في كل مشكلة، كبيرة أو صغيرة؛ لا إفراط، ولا كسل، ولا تراخٍ؛ الوفاء المخلص بكل التزام، والتعامل النشط مع ما تقتضيه كل حالة... كانت بنود إخلاصه قائمة طويلة

بطول دستور الولايات المتحدة... كله عبث. لم يكن الأمر من أوّله إلى آخره إلا تنظيمًا منهجيًا للعبث. ولم يفلح سلوكه المسؤول في ضبط أي شيء غير نفسه.

كان يفكر: إنها ليست واقعة تحت سلطتي، ولم تكن واقعة تحتها أبدًا. إنها تحت سلطة شيء لا يبالي بشيء. إنها تحت سلطة شيء معتوه. كلنا تحت سلطته. آباؤهم وأمهاتهم غير مسؤولين عن هذا. بل هم أنفسهم، غير مسؤولين عن هذا. المسؤولية يتحملها شيء آخر.

نعم، في سن السادسة والأربعين، في سنة 1943، بعد انقضاء قرابة ثلاثة أرباع القرن العشرين الذين نثر في كل مكان جثث الأطفال المشوّهة وجثث ذويهم المشوّهة ولم يحفل بدفنها، اكتشف السويدي أننا كلنا واقعون تحت سلطة شيء معتوه. إنها مسألة وقت، أيها الهونكي(40). كلنا كذلك!

سمعهم يضحكون، جماعة «ويذرمن»، و«بانثرز»، وجيش «أنكورابتد» الرعاعي الغاضب العنيف، كانوا يدعونه مجرمًا ويكرهونه كرهًا شديدًا لأنه واحد من أولئك الذين يملكون. هذا ما اكتشفه السويدي أخيرًا. كانوا في غاية الفرح والسرور، مبتهجين لأنهم خرّبوا ابنته التي كانت مدللة ذات يوم ودمَّروا حياته المتميزة، ثم ساقوه أخيرًا إلى حقيقتهم، إلى الحقيقة التي يعرفون أن كل رجل وامرأة وطفل ورضيع يعيشها في فيتنام، وكل إنسان أسود مستعمَر في أميركا، وكل شخص في كل مكان دمر حياته الرأسماليون وجشعهم الذي لا يعرف شبعًا. إن الشيء المعتوه، أيها الهونكي، هو التاريخ الأميركي! إنه «الإمبراطورية الأميركية»! إنه بنك تشيز مانهاتن وجنرال موتورز وستاندارد أويل ونيوارك ميد للجلديات! أهلًا بك أيها الرأسمالي الكلب! أهلًا بك إلى الجنس البشري الذي دمّرته أميركا!

أخبرته أنها أمضت أول اثنتين وسبعين ساعة بعد التفجير مختبئة في موريستاون، في بيت اختصاصية المعالجة الكلامية شيلا سالزمان. وصلت إلى بيت شيلا بأمان حيث استُقبلت وعاشت مختبئة في غرفة صغيرة ملحقة بعيادة شيلا في النهار، وفي العيادة نفسها خلال الليل. ثم بدأت حياة التخفّي المتجولة. فخلال شهرين فقط، استخدمت خمسة عشر اسمًا مستعارًا، وكانت تغيّر مكان

إقامتها كل أربعة أيام، أو كل خمسة أيام. لكنها تعرفت على زعيم واحدة من الحركات في مدينة إنديانابوليس لم يعرف عنها إلا أنها ناشطة ضد الحرب اضطرت إلى عيشة التخفي. لقد اتّخذت لها اسمًا رأته على شاهدة قبر، وكان اسم طفلة ولدت في سنة ولادتها نفسها، ثم ماتت وهي لا تزال رضيعة. تقدّمت بطلب للحصول على شهادة ولادة باسم تلك الطفلة. وهكذا صار اسمها ميري ستولتز. وبعد ذلك، استخرجت بطاقة مكتبة، ورقم تأمينات اجتماعية، ثم حصلت على رخصة قيادة سيارة عندما صارت في السابعة عشرة. وعلى امتداد سنة تقريبًا، كانت ميري ستولتز تغسل الأطباق في مأوى لكبار السن... وظيفة حصلت عليها من خلال ذلك الشخص الذي تعرّفت عليه. استمرت في هذا العمل إلى أن اتصل بها ذات صباح من هاتف في الشارع وقال لها إن عليها ترك عملها على الفور ولقاءه في محطة الباصات. وهناك، أعطاها تذكرة سفر إلى شيكاغو وقال لها أن تظلّ فيها يومين تشتري بعدهما بطاقة سفر إلى ولاية أوريغون: هناك «كومونة» واقعة إلى الشمال من مدينة بورتلاند تستطيع العثور على ملجأ لها فيها. أعطاها عنوان تلك «الكومونة» ومبلغًا من المال حتى تشتري لنفسها ملابس وطعامًا، وحتى تدفع ثمن تلك الأسفار. انطلقت إلى شيكاغو حيث اغتصبت ليلة وصولها. احتُجزت، واغتُصبت، وسُلب مالها. كانت لا تزال في السابعة عشرة من عمرها.

(38) تونغ Tong: منظمة، أو جمعية سرية، صينية في الولايات المتحدة عادة ما يعتبرها الناس على صلة بالنشاطات الإجرامية السرّية.

FIRST FIDELITY BANK(39): (مصرف الأمانة الأول). مصرف أميركي معروف أسس سنة 1920.

(40) (HONKY): كلمة تحقيرية يستخدمها السود في الولايات المتحدة للإشارة إلى البيض.

في مطبخ حانة بائسة خالٍ من الروح الودية التي كانت سائدة في مطبخ بيت المسنين، عملت ميري في غسل الأطباق حتى تجني المال اللازم للسفر إلى

أوريغون. لم يكن لديها في شيكاغو صديق تستفيد من نصائحه. وكانت خائفة من محاولة التواصل مع المنظمات السرية في المدينة خشية من أن تقوم بشيء خاطئ يؤدي إلى اعتقالها. كانت خائفة حتى من استخدام هاتف مسبق الدفع للاتصال بصديقها في إنديانابوليس. (اغتصبت مرة أخرى في رابع بيت استأجرت فيه غرفة لإقامتها)؛ لكن مالها لم يُسرق هذه المرة. وبعد ستة أسابيع من العمل في غسل الأطباق تمكّنت من جمع المال الكافي للتوجّه إلى «الكومونة».

كانت الوحدة تكتنفها من كل جانب في شيكاغو حتى أحسّت كأنها صارت نهرًا جاريًا في داخلها. لم يمر عليها يوم واحد - بل لم تمر عليها ساعة واحدة في بعض الأيام - لم تخرج فيه للاتصال ببيتها في أولد ريمروك. لكنها، وقبل أن يؤدّي تذكّرها غرفة طفولتها إلى ثني عزمها عن الاتصال، تعثر على مطعم صغير أو على كشك يبيع الطعام فتجلس وتطلب لنفسها شيئًا تأكله وكأسًا من الحليب بالفانيلا. تقول تلك الكلمات المألوفة، وتراقب شرائح البيكون تتلوى على لوح الشَّي، وتنتظر أن ينتهي تحميص الخبز، ثم تأكل سندويتشها وتتناول رشفات من كأسها وتركّز على مضغ عروق الخس التي لا طعم لها وتستخلص بقع الدهن ذات النكهة الدخانية من شريحة البيكون المحمَّصة وعصير قطع الطماطم الطرية، ثم تبتلع ذلك كله مع قضمة من الخبز بالمايونيز وتمضغ لقمتها بصبر مستخدمة فكيها وأسنانها وتسحق كل ما في فمها حتى يصير علفًا يقيتها - تركّز على سندويتش البيكون مع الطماطم والخس تركيزًا ثابتًا مثلما تركز بقرات أمها على علفها الموضوع أمامها - فيزوِّدها ذلك كله بالشجاعة اللازمة للمتابعة وحدها. تأكل السندويتش وتشرب كأس الحليب بالفانيلا وتتذكّر كيف وصلت إلى حيث هي، ثم تتابع. وعندما جاء وقت مغادرتها شيكاغو، كانت قد اكتشفت أنها لم تعد في حاجة إلى منزل: لن تسمح لنفسها بعد الآن بأن تخضع لحنينها إلى الأسرة والبيت. شاركت في تفجيرين آخرين في أوريغون.

بدلًا من جعلها تتوقّف، لم يؤد مقتل الطبيب فرد كونلون إلا إلى تقوية الحافز الذي يدفعها. بدلًا من أن يقيّدها تأنيب الضمير بعد مقتل فرد كونلون، تخلّصت

من كل ما كان باقيًا لديها من خوف ومن وخز ضمير. لم يعلّمها هول ارتكاب القتل - وإن كان ذلك قد حدث من غير قصد فقُتلَ رجل بريء، رجل طيب يصعب توقّع أن تعرف رجلًا أحسن منه - إلى تعليمها أي شيء عن أكثر المحظورات أهمية، عن ذلك المحظور الذي كان من المذهل تمامًا أنّ تنشئتها على يد داون وعلى يده لم تساعدها في تعلّم التقيّد به. لم يؤدِ مقتل كونلون إلا إلى زيادة حماستها الثورية المثالية التي لا تتورّع عن اللجوء إلى أية وسيلة لمهاجمة النظام الآثم، مهما تكن تلك الوسيلة. لقد أثبتت أن كونها حائزة على كل ما هو جيد في أميركا البيضاء لم يكن يساوي حتى تلك الكتابة الجدارية على حائط غرفة نومها.

قال لها: «هل أنت من زرع القنبلتين؟».

«أنا من فعل هذا».

«هل زرعتِ قنبلة هاملين وقنبلة أوريغون؟».

«صحيح».

«هل قتل أحد في أوريغون؟».

«أجل».

«من؟».

«ناس».

«ناس!»... كرّرها من خلفها... «كم شخصًا كانوا يا ميري؟».

قالت: «ثلاثة أشخاص».

كان الطعام وافرًا في «الكومونة». كانوا يزرعون القسم الأكبر مما يأكلون. فلم تعش لديهم فقرًا كالذي عاشته أول ذهابها إلى شيكاغو عندما كانت تخرج في الليل فتبحث عن بقايا خضار ذابلة أمام المتاجر. وفي «الكومونة» بدأت تنام مع امرأة وقعت في هواها وكانت زوجة حائك تعلّمت ميري استخدام نوله في أوقات فراغها من العمل على القنابل. صار تجميع القنابل اختصاصها بعد أن نجحت في زرع قنبلتيها الثانية والثالثة. لقد أحبت الدقة والصبر اللذين لا بد منهما لوصل أصابع الديناميت بكبسولة التفجير وصلًا آمنًا، ثم وصل كبسولة

التفجير بساعة التوقيت المشتراة من سوبر ماركت وولوورث. بدأ اختفاء التأتأة في ذلك الوقت. لم تكن تتأتئ أبدًا عند عملها على الديناميت.

ثم حدث شيء بين المرأة وزوجها: مشادّة عنيفة جعلت ميري مضطرة إلى ترك «الكومونة» حتى تستطيع العيش في سلام.

عملت في حقول البطاطس أثناء اختبائها في شرق ولاية آيداهو. ثم قرّرت الفرار إلى كوبا. بدأت تدرس اللغة الإسبانية في الليل في برّاكات النوم في المزرعة. جعلها عيشها في تلك المزرعة مع بقية العمال تشعر بمزيد من الالتزام الحماسي بمعتقداتها، على الرغم من أن الرجال هناك كانوا مخيفين عندما يسكرون. ومن جديد، وقعت حوادث جنسية أخرى. كانت مقتنعة بأنها ستكون قادرة على العيش بين العمال في كوبا من غير أن تخشى منهم عنفًا. في كوبا، ستصير قادرة على أن تكون ميري ليفوف بدلًا من ميري ستولتز.

بحلول هذا الزمن، كانت قد توصّلت إلى أنّ من غير الممكن أبدًا قيام ثورة في أميركا لاجتثاث قوى العنصرية والرجعية والجشع. كانت حرب عصابات المدن سلاحًا عقيمًا في مواجهة قوة نووية عظمى لا يردعها رادع عن فعل أي شيء للدفاع عن مبدأ الربح. وبما أنها غير قادرة على المساهمة في إحداث ثورة في أميركا، صار أملها الوحيد كامنًا في أن تهِب نفسها لثورة قائمة بالفعل. سيكون ذلك نهاية منفاها وبداية حياتها الحقيقية.

كرّست السنة التي أعقبت ذلك لاستكشاف طريقها إلى كوبا، إلى فيديل كاسترو الذي حرّر البروليتاريا واجتث الظلم بالاشتراكية. لكنّ أول احتكاك قريب لها مع الـ«إف بي آي» كان في فلوريدا. كانت في ميامي حديقة غاصة باللاجئين من الدومينيكان. كان ذلك مكانًا مناسبًا للتمرّن على اللغة الإسبانية؛ وسرعان ما وجدت نفسها تعلم الفتيان هناك اللغة الإنكليزية. أحبّوها وسموها «لا فارفولا»، أي المتأتئة؛ لكن هذا لم يمنعهم من التشاقي والتأتأة عندما يكررون من خلفها الكلمات الإنكليزية التي تعلّمهم إياها. كان كلامها بالإسبانية طلقًا، من غير تأتأة. هذا سبب وجيه آخر يدفعها إلى الفرار إلى حضن الثورة العالمية.

قالت ميري لأبيها إنها انتبهت في يوم من الأيام إلى متسكّع أسود شاب جديد في

تلك الحديقة. كان يراقبها وهي تعلّم الفتيان. أدركت معنى ذلك على الفور. قبل ذلك، ظنّت ألف مرة أن مَن حولها كانوا من الـ«إف بي آي»؛ وكانت مخطئة ألف مرة... في أوريغون، وآيدون، وفي كنتاكي، وفي ميريلاند. كانت تظن أن عناصر الـ«إف بي آي» يراقبونها في المتاجر التي عملت فيها، ويراقبونها في المطاعم والكافتيريات التي غسلت الأطباق فيها، ويراقبونها في الشوارع التي عاشت فيها، ويراقبونها في المكتبات التي كانت تختبئ فيها وتقرأ الصحف وتدرس أعمال المفكرين الثوريين وتستوعب أفكار ماركس وماركوزه ومالكولم إكس وفرانز فانون، المنظّر الفرنسي الذي كانت عباراته أشبه بابتهالات تتلوها قبل نومها كأنها أقراص فيتامينات فتغذيها مثلما يغذيها طقسها المقدس، طقس تناول الحليب بالفانيليا وأكل سندويتشات البيكون بالخس والطماطم. عليها أن تتذكّر دائمًا أن المرأة الجزائرية الملتزمة تتعلم، غريزيًا، كلًا من مهمتها الثورية ودور «المرأة الوحيدة في الشارع». ليست المرأة الجزائرية عميلًا سرّيًا. هذا أمر يحدث من غير تدريب، ومن غير دروس، ومن غير جلبة. فتخرج المرأة إلى الشارع حاملة ثلاث قنابل في حقيبة يدها. لا يكون لديها إحساس بأنها تمثل دورًا، وليست لديها شخصية تؤدّيها. بل على العكس من ذلك، لأن هناك كمية مكثفة من الدراما، واتصالًا مستمرًا بين المرأة والثورة، ترتقي المرأة الجزائرية مباشرة إلى مستوى المأساة.

كان يفكر: وأما فتاة نيوجرسي فتنحدر إلى مستوى الحماقة. فتاة نيوجرسي التي أرسلناها إلى مدرسة مونتيسوري لأنها لامعة الذكاء. فتاة نيوجرسي التي لم تكن تحرز في مدرسة موريستاون الثانوية إلا أعلى الدرجات. فتاة نيوجرسي ترتقي مباشرة إلى مستوى التمثيل المخزي. فتاة نيوجرسي ترتقي إلى مستوى الخلل العقلي.

كانت تظنّ أنها ترى الـ«إف بي آي»، في كل مكان، وفي كل مدينة قصدتها للاختباء فيها - لكنهم لم يكتشفوها إلا في ميامي وهي تتأتئ على مقعد حديقة محاولةً تعليم الفتيان الكلام بالإنكليزية -. لكن، كيف لها ألا تعلّمهم؟ كيف لها أن تُعْرِض عن أولئك الذين ولدوا معدمين ولم يرتكبوا إثمًا، أولئك الذين يبدون كما

لو أنهم قمامة بشرية، حتى في نظرهم هم أنفسهم؟ في اليوم التالي، عندما أتت إلى الحديقة فوجدت المتسكّع الشاب نفسه يتظاهر بالنوم على أحد المقاعد تحت غطاء من أوراق الصحف، ما كان منها إلا أن استدارت عائدة إلى الشارع وبدأت الجري ولم تتوقّف إلى أن رأت امرأة عمياء تتسوّل في الشارع، امرأة سوداء ضخمة معها كلب. كانت تلك المرأة تهز فنجانًا فيه قطع نقدية صغيرة وتقول بصوت خافت: «عمياء، عمياء، عمياء».

رأت ميري على الرصيف، عند قدمي تلك المرأة، معطفًا صوفيًا مهلهلًا أدركت أنها قادرة على أن تختبئ فيه. لكنها لم تستطع أخذه من غير مقدمات، فسألت المرأة إن كانت توافق على مساعدتها في التسول. وافقت المرأة، فسألتها ميري إن كانت تسمح لها بارتداء معطفها وبوضع نظارتها السوداء. أجابتها المرأة: «لك ما تريدين، يا عزيزتي». وهكذا، وقفت ميري، في شمس ميامي، مرتدية ذلك المعطف الصوفي الثقيل ووضعت النظارة السوداء، وراحت تهز فنجان المرأة التي واصلت ترنيمها «عمياء، عمياء، عمياء». أمضت تلك الليلة وحيدة تحت أحد الجسور، لكنها عادت في اليوم التالي لكي تتسوّل مع المرأة السوداء وتتنكّر في معطفها ونظارتها من جديد. وفي آخر المطاف، ذهبت للعيش معها والعناية بها وبكلبها.

كان ذلك عندما بدأت تدرس الأديان. وكانت بونيس، المرأة السوداء، تغني لها في الصباحات عندما يستيقظ النائمون في السرير ثلاثتهم، بونيس وميري والكلب. لكن بونيس أصيبت بالسرطان وماتت، فكانت تلك أسوأ الأيام: العيادات، والمستشفى، والجنازة التي كانت ميري المشيّع الوحيد فيها. فقدت الشخص الذي أحبته أكثر من أي شخص آخر في العالم... كان هذا أكثر الأشياء قسوة على الإطلاق.

خلال أشهر احتضار بونيس، عثرت ميري في المكتبة على الكتب التي جعلتها تترك الديانتين اليهودية والمسيحية تركًا نهائيًا وتجد طريقها إلى الواجبات الأخلاقية العليا في الديانة الجاينية، الإجلال المنهجي للحياة والالتزام بالامتناع عن أذية أي كائن حي.

لم يعد والدها يتساءل عن اللحظة التي فقد فيها القدرة على التحكّم بحياتها؛ ولم يعد يفكر في أن كل ما فعله في حياته كان من غير طائل، وفي أنها واقعة تحت سلطان شيء فاقد العقل. لقد صار يفكّر في أن ميري ستوليز هذه ليست ابنته، وذلك لسبب بسيط ألا وهو أن ابنته ما كانت تستطيع امتصاص هذا القدر كله من الألم. لقد كانت طفلة من أطفال ريمروك، طفلة ذات امتيازات، طفلة من الجنة. ما كان ممكنًا أن تعمل في حقول البطاطا، ولا أن تنام تحت الجسور، ولا أن تمضي خمس سنين خائفة من الاعتقال. ما كان ممكنًا أبدًا أن تستطيع النوم مع المرأة المتسوّلة العمياء وكلبها. إنديانابوليس، شيكاغو، بورتلاند، أيداهو، كنتاكي، ميريلاند، فلوريدا... أبدًا، لا يمكن أن تكون ميري قد عاشت وحدها في تلك الأماكن كلّها، أن تكون قد عاشت فيها متشرّدة منعزلة تغسل الأطباق وتختبئ من الشرطة وتبني صداقات مع المعدمين على مقاعد الحدائق. وما كان يمكن أبدًا أن ينتهي بها الأمر إلى نيوارك. لا. أن تعيش ستة أشهر على مسافة عشر دقائق فقط؛ وأن تمشي إلى منطقة آيرونباوند عبر ذلك النفق؛ أن تضع هذا اللثام وتسير وحدها كل صباح وكل ليل فتمرّ بأولئك المتشرّدين المنبوذين كلّهم وبتلك القذارة كلها!... لا! لقد كانت القصّة كلّها كذبة لا غاية منها إلا تدمير من يرونه وغدًا شريرًا، تدميره هو. لقد كانت القصّة كاريكاتيرًا. كانت كاريكاتيرًا متقنًا مثيرًا. وكانت هي ممثّلة. كانت هذه الفتاة ممثّلة محترفة استأجروها وكلفوها بتعذيبه لأنه يمثّل كل ما هو غير موجود فيهم. أرادوا أن يجهزوا عليه بقصة الفتاة المنفية الطريدة في البلد نفسه الذي نجحت أسرتها في مد جذورها فيه بكل طريقة ممكنة. وهكذا، فقد رفض الاقتناع بأي شيء مما قالته له. كان يفكر: الاغتصاب؟ القنابل؟ هدف سهل لكل رجل مجنون؟ كان هذا شيئًا أكبر من المشقّة. كان هذا جحيمًا. وما كان ممكنًا أن تظلّ ميري حيّة بعد أي شيء من هذا كلّه. ما كان ممكنًا أن تظلّ حيّة بعد أن تقتل أربعة أشخاص. ما كان ممكنًا أن تقتلهم بدم بارد ثم تظلّ حيّة بعد ذلك.

وعندها، أدرك أنها لم تعد حيّة. مهما تكن الحقيقة، ومهما يكن ما أصابها حقًّا، فقد ساقها تصميمها على أن تترك خلفها حياة والديها الوضيعة الجديرة

بالازدراء، أن تتركها خرابًا... ساقها هذا التصميم إلى كارثة تدمير نفسها.

بالطبع، كان ممكنًا أن يحدث لها هذا كلّه. ففي كل يوم تحدث أشياء من هذا القبيل في كل مكان على سطح الأرض. لم تكن لديه أية فكرة كيف يتصرّف الناس في هذه الحالات.

«أنت لستِ ابنتي. أنت لستِ ميري».

«إذا كنت راغبًا في تصديق أنني لست ابنتك، فمن الممكن أن يكون هذا مناسبًا أيضًا. بل قد يكون هذا هو الأفضل».

«لماذا لا تسأليني عن أمك، يا ميريديث؟ أليس لي أن أسألك هذا السؤال؟ أين ولدت أمك؟ وما اسم عائلتها قبل الزواج؟ ما اسم أبيها؟».

«لست راغبة في الحديث عن أمي».

«لأنك لا تعرفين شيئًا عنها. لا تعرفين شيئًا عن الشخص الذي تتظاهرين بأنك هو. أخبريني عن البيت الذي عند شاطئ البحر. أخبريني باسم معلّمتك في الصف الأول. من هي معلمتك في الصف الثاني؟ أخبريني بالسبب الذي يجعلك تتظاهرين أنك ابنتي؟».

«سوف تزداد معاناتك إذا أجبت عن هذه الأسئلة. لست أدري مقدار المعاناة الذي تريده».

«أوه، لا تشغلي بالك بأمر معاناتي، يا آنسة... أجيبي عن الأسئلة فقط. لماذا تتظاهرين بأنك ابنتي؟ من أنت؟ من هي ريتا كوهن؟ ما الذي تخططان له؟ أين هي ابنتي؟ سوف أخبر الشرطة بهذه القصة ما لم تخبريني الآن بما يجري هنا وبمكان ابنتي».

«لا شيء مما أفعله الآن واقع تحت طائلة القانون، يا بابا».

هذه الشكلية القانونية الفظيعة. وكأن الجاينية اللعينة لم تكن كافية حتى تقذفه بهذا الخراء أيضًا. قال لها: «لا، لا يحاسب عليه القانون... إنه ليس الآن أكثر من أمر فظيع مفزع! فماذا عما فعلته من قبل؟».

أجابت: «قتلت أربعة أشخاص». قالتها ببراءة كما لو أنها تقول له: «خبزت فطائر حلوة بعد ظهر اليوم».

صاح بها: «لا!»... الجاينية، والتمسّح بالقانون، والبراءة الخانقة، كلّها ناتجة عن يأسها، وكلّها حتى تبعد نفسها عن الأربعة الذين قتلوا... «لا يصلُح هذا! أنت لست امرأة جزائرية! وأنت لست من الجزائر، وأنت لست من الهند! أنت فتاة أميركية من أولد ريمروك في ولاية نيوجرسي! أنت فتاة أميركية مضطّربة عقليًا... مضطربة كثيرًا! أربعة أشخاص! لا!»... الآن، صار هو من يرفض تصديق الأمر؛ الآن، صار هو من لا يعني له الإحساس بالذنب شيئًا، ولا يمكن أن يعني شيئًا. لقد كانت في نعيم لا يمكن معه أن يكون هذا صحيحًا. ومثلها كان هو. لا يمكن أبدًا أن يكون أبًا لطفلة تقتل أربعة أشخاص. كل ما قدّمتْه الحياة لها، وكل ما وفّرته الحياة لها، وكل ما طالبتها الحياة به، وكل ما حدث لها منذ يوم مولدها يجعل هذا الأمر مستحيلًا. قتل بشر؟ لم تكن هذه واحدة من مشكلاتهم. لقد كانت الحياة رحيمة بهم فحذفت القتل. قتل الناس... كان هذا بعيدًا كل البعد عما كان مقدّرًا فعله لأفراد عائلة ليفوف. لا، هذه ليست ابنته، ولا يمكن أن تكون... «إذا كنتِ شديدة التمسك بعدم الكذب وبعدم أخذ شيء، كبيرًا كان أو صغيرًا... وذلك الكلام الفارغ كله - كلام فارغ لا معنى له أبدًا، يا ميري -، فإنني أتوسّل إليك أن تقولي لي الحقيقة».

«الحقيقة بسيطة. ها هي الحقيقة. يجب أن تتخلّص من الأنانية والرغبات».

صاح: «ميري، ميري، ميري»، وانفلت فيه ما ليس له قيد يعقله، وصار غير قادر عن الامتناع عن الهجوم، فانقض بعضلاته الرجولية كلّها على تلك المتكومة هناك، فوق الفراش المتّسخ... «ذلك لم يكن أنت! لا يمكن أن تكوني قد فعلت هذا!». لم تقاومه أبدًا عندما نزع عن وجهها لثامها المصنوع من قطعة من جورب نسائي. كانت ذقنها في موضع الكعب من الجورب. لا شيء أكثر نتانة من المكان الذي كانت قدمكَ فيه؛ لكنها وضعته على فمها. كنا نحبها. وكانت تحبنا... وأما نتيجة هذا، فهي أنها تضع جوربًا على وجهها. صاح بها آمرًا: «تكلّمي الآن!».

لكنها لم تقل شيئًا. فتح فمها عنوة متجاهلًا ذلك الخط الذي لم يتجاوزه من قبل أبدًا... الامتناع عن العنف. كان ذلك نهاية كل تفاهم. وما عاد هنالك سبيل لأي

تفاهم، حتى مع معرفته بأن العنف غير إنساني ولا طائل منه وأن التفاهم (الكلام العاقل بين الطرفين مهما طال زمنه قبل التوصّل إلى اتفاق) هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحقّق نتيجة دائمة. الأب الذي لم يستطع أبدًا إبداء أي عنف تجاه طفلته... الأب الذي كان استخدام القوة في نظره تجسيدًا للإفلاس الأخلاقي... ذلك الأب هو من فتح فمها عنوة بأصابعه وأمسك بلسانها. كان واحد من أسنانها الأمامية مفقودًا... سن من أسنانها الجميلة. هذا يثبت أنها ليست ميري. سنوات من استخدام جسور تقويم الأسنان، والمثبتات، والجسور الليلية، وتلك الأدوات كلّها لكي يصير إطباق أسنانها سليمًا، لكي تحافظ على لثتها، لكي تجعل ابتسامتها أجمل... لا يمكن أن تكون هذه هي الفتاة نفسها.

أمرها: «تكلّمي!»... وأخيرًا، بلغته رائحتها الحقيقية، أسوأ رائحة يمكن أن تكون لإنسان. رائحة ليس أسوأ منها شيء غير رائحة الأحياء المتعفّنين، والموتى المتعفّنين. الأمر الغريب أنه لم يشم شيئًا قبل تلك اللحظة على الرغم من قولها له إنها لا تستحم حتى لا تؤذي الماء. لم يشم رائحتها عندما تعانقا في الشارع، ولا عندما جلس في العتمة قبالة فراشها. لم يشم شيئًا غير رائحة شيء حامض مُغثٍ غير مألوف عزاها إلى ذلك المبنى الغارق في البول. لكن ما شمّه الآن وهو يفتح فمها كان رائحة الإنسان، لا رائحة المكان... رائحة إنسان مجنون يتمرّغ في قاذوراته مستمتعًا بها. وصلتهُ قذارتها. إنها مقزّزة. ابنته بقايا إنسان يفوح برائحة بقايا بشرية. رائحتها رائحة كل شيء عضوي متفسّخ. إنها رائحة عدم الترابط. إنها رائحة ما صارت عليه. كانت قادرة على فعل هذا؛ وقد فعلته. إن هذا الإجلال للحياة - على طريقتها - ليس إلا أقصى درجة من درجات الفحش.

حاول تحديد مكان عضلة في مكان ما في رأسه لإغلاق فتحة بلعومه... شيء لإيقافه والحيلولة دون مزيد من انزلاقهما في القذارة، لكنه لم يعثر على تلك العضلة. اندفع مزيج من العصارات المعدية والطعام غير المهضوم صاعدًا إلى بلعومه فانبثق فوق لسانه تيارًا مرًّا حامضيًا. وعندما صاح بها: «من أنت؟»، تناثر ذلك التيار على وجهها مع كلماته.

كان يعرفها تمام المعرفة حتى في عتمة تلك الغرفة عندما كان فوقها. وما كان ضروريًا لها أن تتكلّم بعد أن صار وجهها مكشوفًا، حتى تخبره بأن ما لا يمكن تفسيره قد حلّ، إلى الأبد، محلّ ما ظنّ مرة أنه يعرفه. إن كانت لم تعد موسومة بأنها ميري ليفوف من خلال تأتأتها، فقد ظلت عيناها وسمًا لا يمكن أن يخطئه. في محجري عينيها الكبيرين المنحوتين نحتًا، كانت العينان عينيه هو. كان الطول طوله، وكانت العينان عينيه. كانت كلّها هو، له. والسن المفقودة كانت مقتلعة، أو مكسورة.

لم تنظر إليه عندما ابتعد عنها متراجعًا صوب الباب، بل راحت تتلفّت من حولها قلقة كما لو أنها في خوف شديد من أن يكون قد أوقع شيئًا من الأذى بالكائنات المجهرية المسالمة التي تعيش معها في هذه العزلة.

أربعة أشخاص قتلتهم. لا عجب أبدًا في أنها قد اختفت. لا عجب أبدًا في أنه قد اختفى. لقد كانت هذه الفتاة ابنته؛ وقد كانت فتاة مجهولة تمامًا. هذه الجرائم جرائمي أنا. كان قيؤه على وجهها، على ذلك الوجه الذي صار الآن - باستثناء العينين - أبعد ما يكون عن أن يشبه وجه أمها، أو عن أن يشبه وجهه. كان اللثام قد انتزع عن وجهها، لكن لثامًا آخر كان خلف ذلك اللثام. ألم يكن لثامًا موجودًا دائمًا؟

قال متوسّلًا: «تعالي معي».

«اذهب أنت، يا بابا. اذهب».

«ميري، أنت تطلبين مني فعل شيء مؤلم إلى حد فظيع. تطلبين مني أن أتركك بعد أن وجدتك. أرجوك»... عاد إلى التوسّل... «تعالي معي. تعالي إلى البيت».

«بابا، دعني كما أنا».

«لكن عليّ أن أراك. لا أستطيع تركك هنا. يجب أن أراك».

«لقد رأيتني. أرجوك، اذهب الآن. إذا كنت تحبّني، يا بابا، فسوف تتركني في حالي».

ابنة المرء... أكثر البنات كمالًا... قد اغتُصبت.

ما كان قادرًا على التفكير في شيء غير تلك المرتين التي اغتصبت فيهما. أربعة أشخاص قتلتهم قنابلها... أمر شديد الغرابة، خارج السياق، لا يمكن تخيّله. لا بد أنه كذلك. رؤية الوجوه، وسماع الأسماء، ومعرفة أن أحدهم كان متزوجًا حديثًا، والأخرى كانت أمًا لثلاثة أولاد، والثالثة على وشك التقاعد... هل كانت تعرف عنهم شيئًا، أو هل كانت تعرف من هم... هل كانت مبالية بمعرفة من هم...؟ لم يكن قادرًا على تخيّل شيء من هذا. وما كان مستعدًا له. وحده الاغتصاب كان شيئًا يستطيع تخيّله. تخيّل الاغتصاب واختفت الأشياء الأخرى كلها: ظلّت وجوههم خارج نطاق رؤيته، ونظاراتهم، وتسريحات الشعر، وعائلاتهم، ووظائفهم، وتواريخ ميلادهم، وعناوين سكنهم، وبراءتهم التي لم ترتكب ذنبًا.

لم يكونوا فرد كونلون واحدًا... أربعة فرد كونلون، أربعة أشخاص.

الاغتصاب. جعلَ الاغتصاب كل شيء آخر مشوشًا. ركِّز على الاغتصاب.

كيف كانت التفاصيل؟ ومن كان أولئك الرجال؟ هل كان من فعلَ هذا جزءًا من تلك الحياة، شخصًا مناهضًا للحرب يعيش عيشة الفرار مثلها؛ وهل كان شخصًا تعرفه، أم شخصًا غريبًا، متشردًا، مدمنًا، تبعها في طريق عودتها إلى البيت ثم إلى هذا الممر حاملًا سكينًا؟ ماذا جرى؟ هل ألقى بها أرضًا وأمسك بها وهددها بالسكين؟ هل ضربها؟ ما الذي جعلها تفعله؟ ألم يكن هناك من يغيثها؟ فقط، ما الذي جعلها تفعله؟ سوف يقتلهم. عليها أن تخبره بأسمائهم. أريد أن أعرف من هم هؤلاء الناس. أريد أن أعرف المكان الذي حدث فيه ذلك. أريد أن أعرف الوقت الذي حدث فيه ذلك. سوف نعود ونعثر على أولئك الناس. وسوف أقتلهم!

الآن، لم يعد يعرف الراحة بعد أن صار عاجزًا عن التوقف عن تخيل الاغتصاب. لم يعد يعرف الراحة ثانية واحدة لشدة رغبته في الخروج وقتل شخص ما. لقد اغتُصبت على الرغم من كل ما بناه من حولها من جدران. على الرغم من تلك الحماية كلّها، لم يستطع حمايتها من أن تُغتصب. أخبريني بكل شيء عن ذلك! سوف أقتلهم!

لكن الوقت قد فات... فات كثيرًا. لقد حدث الأمر. لا يستطيع فعل شيء لجعله

لم يحدث. فلجعله لا يحدث، سيكون عليه أن يقتلهم قبل حدوثه - فكيف يمكنه فعل ذلك؟ - السويدي ليفوف! هل سبق أن امتدت يد السويدي ليفوف إلى إنسان خارج الملعب؟ ما كان لشيء أن يثير نفور هذا الرجل ذي العضلات المفتولة أكثر من استخدام القوة.

الأماكن التي حلت فيها. والناس. كيف استطاعت البقاء حيّة من غير ناس؟ وذلك المكان الذي فيه هي الآن. هل كانت أماكن إقامتها كلها مثل هذا المكان؟ أو حتى أسوأ منه؟ لا بأس، ما كان ينبغي لها أن تفعل ما فعلته... ما كان ينبغي لها أن تفعل ما فعلته... لكن، عندما يفكر في تلك الحياة التي اضطرت إلى عيشها...

كان جالسًا في مكتبه. لا بد له من قسط من الراحة بعد رؤية كل ذلك الذي ما كان يريد رؤيته. كان المصنع خاليًا ليس فيه أحد غير الحارس الليلي الذي جاء إلى عمله مع كلابه. إنه في الأسفل، في موقف السيارات، يتفقّد محيط السور المصنوع من شبك معدني مزدوج، سياجٌ زيدَ ارتفاعًا بعد حوادث الشغب وأضيفت إليه أسلاك شائكة كانت كأنها تصيح بصاحب المصنع كلما جاء وأوقف سيارته في كل صباح: «ارحل! ارحل! ارحل!». كان جالسًا وحيدًا في المصنع الأخير الباقي في أسوأ مدينة في العالم. وكان جلوسه الآن في ذلك المكان أسوأ حتى من جلوسه فيه عندما اندلع الشغب، عندما كانت جادة سبرينغفيلد تحترق، وعندما كانت جادة ساوث أورينج تحترق، وعندما كان شارع بيرنغ يتعرّض للهجوم، وعندما انطلقت صفارات الإنذار وأطلقت نيران الأسلحة وراح قناصون يستهدفون مصابيح الشوارع من فوق أسطح البيوت. حين كانت جموع النهّابين قد انطلقت مجنونة في الشوارع وراح أطفال يحملون أجهزة الراديو والمصابيح وأجهزة التلفزيون ويذهبون بها، وسار رجال يحملون ملء أذرعهم من الملابس، ودفعت نساء عربات أطفال محمّلة بصناديق كرتون ثقيلة من زجاجات النبيذ وعلب البيرة... أشخاص يدفعون أمامهم قطع أثاث جديدة في وسط الشارع، أرائك مسروقة، وأسرّة أطفال، وطاولات مطبخ... كانوا يسرقون الغسالات وآلات تجفيف الملابس والأفران... يسرقونها لا في

الظل أو في عتمة الليل، بل أمام الناس في وضح النهار. قوّتهم هائلة، وعملهم الجماعي متقن. صوت تحطم زجاج النوافذ يبعث في الجسد ارتجافًا باردًا. كان أخذ الأشياء من غير دفع ثمنها أمرًا مُعديًا، مسكرًا. إن الشهية الأميركية للامتلاك شهية جارفة مدهشة يصعب ضبطها. شيء مثل السرقة من المتاجر. مجانًا، كل شيء مجانًا، كل ما يتوق إليه الجميع... فُجورُ الأخذ المجاني. ما عاد لدى أحد عقل يضبطه؛ هكذا هو الأمر! فليأت إذًا! في شوارع ماردي غراس المحترقة في نيوارك، انطلقت قوة تبعث في الناس إحساسًا بأنها تعتقهم من ذنوبهم، شيء مطهّرٌ يحدث، شيء روحاني ثوري يلمسه الجميع. المشهد السوريالي للأجهزة المنزلية في الخارج لامعة تحت النجوم وفي وهج ألسنة اللهب المتّقدة في سنترال وارد ملوِّحةً بوعد تحرير الجنس البشري كلّه. نعم، ها هو الأمر، فليأتِ إذًا... نعم، الفرصة الرائعة، واحدة من لحظات التغيير النادرة في تاريخ البشر: أشكال المعاناة القديمة تحترق مبارَكةً في اللهب ولن تعود من جديد أبدًا، وتحلّ محلّها - بعد ساعات فقط - معاناة ستكون شديدة الفظاعة، شديدة الوحشية، معاناة لا تهدأ ولا تنتهي، وخمود سيمتد طيلة خمسمئة سنة مقبلة. هذه المرة نارٌ... وماذا بعد؟ ماذا بعد النار؟ لا شيء! لا شيء في نيوارك بعد الآن، أبدًا.

وطيلة الوقت، كان السويدي هناك، في المصنع، مع فيكي، منتظرًا مع فيكي وحدها واقفة إلى جانبه، منتظرًا إلى أن تندلع النار في مصنعه، منتظرًا الشرطة بمسدساتها، منتظرًا الجنود ببنادقهم الرشاشة، منتظرًا شرطة نيوارك وشرطة الولاية والحرس الوطني، منتظرًا الحماية من أحد ما قبل أن يحرقوا ويسووا بالأرض هذه الشركة التي أنشأها أبوه، الشركة التي عهد بها إليه... لكن ذلك كلّه لم يكن في مثل سوء هذا الذي يعيشه الآن بعد عودته من عند ميري. فتحت سيارة شرطة النار في اتجاه بارٍ على الناحية الأخرى من الشارع. ورأى من نافذته امرأة تسقط، تنطوي على نفسها وتتهاوى. أُطلقت النار على امرأة فقتلت في الشارع. قُتلت امرأة أمام عينيه... حتى ذلك، لم يكن في مثل سوء هذا! أشخاص يزعقون ويصرخون، ورجال إطفاء جعلهم إطلاق النار ينبطحون

أرضًا فيصيرون عاجزين عن مكافحة الحرائق... انفجارات أتى صوتها مفاجئًا مثل صوت طبول إفريقية. وفي وسط الليل، دفعات من طلقات المسدسات تستهدف كل من يمكن أن يكون خلف نوافذ الطابق الأول، تلك النوافذ التي فيها لافتات فيكي... حتى ذلك، لم يكن في مثل سوء هذا! هذا أسوأ كثيرًا! ثم ذهبوا، ذهبوا جميعًا، فروا من تلك الأنقاض المحترقة: صناعيون، وبائعو مفرّق، ومصارف، ومالكو متاجر، وشركات كبيرة، ومتاجر كبيرة. في منطقة ساوث وارد، وفي البنايات السكنية، كان المرء يرى سيارتي نقل في يوم واحد، في كل شارع، على امتداد السنة التي أعقبت ذلك... أصحاب بيوت يهربون، يهجُرون البيوت المتواضعة التي هي غالية عليهم لأن فيها كل ما استطاعوا جنيه. لكنه بقي رافضًا الذهاب. بقيت شركة نيوارك ميد. لكن هذا لم يحل دون تعرضها للاغتصاب. لم يترك مصنعه للنهّابين المخرّبين حتى في أسوأ الأوقات. ثم لم يهجر عماله بعد ذلك. ولم يدر ظهره إليهم. لكن ابنته اغتصبت.

على الجدار الذي خلف مكتبه، ضمن إطار، خلف لوح زجاجي، كانت هناك رسالة من اللجنة التي اختارها حاكم الولاية لمتابعة الاضطرابات الأهلية توجّه الشكر إلى السيد سايمور ليفوف على شهادته التي أدلى بها باعتباره شاهد عيان على حوادث الشغب وتمتدح شجاعته وإخلاصه لمدينة نيوارك... رسالة رسمية موقّعة من قبل عشرة مواطنين بارزين، كان اثنان منهم أسقفين كاثوليكيين، واثنان منهم حاكمين سابقين للولاية. وإلى جانب تلك الصورة، على الجدار نفسه، خلف زجاج وضمن إطار أيضًا، مقالة نُشرت قبل ستة أشهر من ذلك في صحيفة ستار ليدجر فيها صورة له وعنوان يقول: «شركة للقفازات تنال الثناء لبقائها في نيوارك»... ومع هذا كلّه، فقد اغتُصبت ابنته.

كان ذلك الاغتصاب يجري في دمه، ولم يستطع إخراجه أبدًا. كانت رائحته في مجرى دمه، وكذلك منظره، والساقان والذراعان والشعر والملابس. كانت الأصوات في مجرى دمه... صوت الارتطام، وصرخاتها، وتقلّبها ضمن حيّز ضيّق. وعواء مخيف لرجل يبلغ لحظة النشوة. نخيره. ونشيجها. حجبَ هولُ الاغتصاب كل شيء. من غير توقّع أبدًا، خطَتْ خارجة من الممر فأمسكوا بها

من الخلف ورموها على الأرض فصار جسدها أمامهم لكي يفعلوا به ما يشاؤون. مزّقوا الملابس التي كانت تغطّي جسدها. وما عاد هناك شيء بين جسدها وأكفّهم. صاروا داخل جسدها. امتلأ جسدها بهم من داخله. القوة الهائلة التي فعلوا ذلك بها. القوة التي مزّقتها. كسروا سنها. كان أحدهم مجنونًا. جلس فوقها وأطلق وابلًا من خرائه. كانوا فوقها كلهم. أولئك الرجال. كانوا يتحدّثون لغة أجنبية. كانوا يضحكون. فعلوا كل ما كان لديهم دافع إلى فعله. كان أحدهم منتظرًا خلف الآخر. رأته منتظرًا. ما كانت قادرة على فعل شيء.

وما كان ذلك الرجل قادرًا على فعل شيء. جنّ الرجل، وازداد جنونًا لأنه كان يريد أن يفعل شيئًا عندما لم يبق له شيء يفعله.

جسدها في مهدها الصغير. جسدها في المهد المحمول. جسدها عندما بدأت تتعلّم الوقوف فوق بطنه. بطنها الظاهر بين بنطلونها وقميصها وهي متعلّقة به في وضعية مقلوبة عند عودته إلى البيت بعد العمل. جسدها عندما تترك الأرض قافزة بين ذراعيه. جسدها الذي يطير إلى ما بين ذراعيه ناسيًا نفسه وسامحًا له بلمسة أبوية. كم كان مفتونًا بذلك الجسد القافز نحوه، كم كان مفتونًا به من غير تردّد... جسدٌ يبدو مكتملًا كله، يبدو خلقةً كاملة مصغّرة فيها السحر كلّه. جسد كان يبدو كما لو أنها ارتدته لتوها بعد كيّه... لا طيات ولا تجاعيد في أي مكان منه. الحرية الساذجة التي تكشف بها عن جسدها. وإحساس الرقّة الذي تحرّكه تلك السذاجة في نفسه. قدماها الصغيرتان تطبطبان على الأرض مثلما تطبطب قوائم حيوانات صغيرة. قدمان صغيرتان لا عيب فيهما، جديدتان، غير مستهلكتين. أصابع قدميها المنكمشة، وساقاها الممتلئتان. ساقان صلبتان. أغنى أجزاء جسدها بالعضلات. سروالها الداخليورديّ. مؤخّرتها الطفولية المقسومة إلى نصفين كبيرين، مؤخّرة تعصى الجاذبية الأرضية كما لو أنها مؤخرة منتمية إلى نصفها الأعلى، كما لو أنها منتمية إلى ميري الكبيرة، لا إلى ميري التي لا تزال صغيرة. مؤخّرة لا دهون فيها. لا أونصة دهن واحدة في أي مكان. وشَقُّها... كما لو أن أداة دقيقة قد صنعته. موضع الالتقاء المشطوف الذي سيتفتّح إلى الخارج ويتطوّر عبر دورة الزمن إلى فرج امرأة مكتمل الطيّات.

سرّتها التي لا تُصدق. وجذعها المتناسق. والدقة التشريحية في أضلاعها. وليونة عمودها الفقري. والنتوءات العظمية الصغيرة في ظهرها مثل مفاتيح بيانو صغير. والإغفاءة الجميلة لصدرها غير الظاهر بعد، قبل أن يبدأ تفتّحه. ذلك الاضطراب كلّه الذي يريد الاستيقاظ، كان (بنعمة، بنعمة) لا يزال غافيًا. لكن الرقبة كانت موحية، على نحو ما، بالمرأة التي ستكونها؛ هناك في كتلة الرقبة المتزينة بحلية صغيرة. والوجه. ذلك هو البهاء كلّه. الوجه الذي لن تحمله معها دائمًا لكنه كان بصمة من بصمات المستقبل. إنه الدليل الذي سوف يختفي، لكنه سيظل موجودًا بعد خمسين عامًا. ما أقل ما كشف وجهُها الطفولي عنه من قصتها التي ستأتي. فتوّتها هي كل ما يستطيع رؤيته. شيء شديد الجدة في تلك الدورة. لا شيء فيه محدّدًا تمام التحديد بعد. والزمن حاضرٌ بأشد القوة في وجهها. جمجمتها طرية. احمرار أنفها غير المكتمل هو الأنف كله. لون عينيها. البياض الأبيض، الأبيض. والأزرق الرائق الشفاف. عينان صافيتان. كلها صافية، لكن عينيها خاصّة صافيتان، نافذتان، نافذتان مغسولتان لكنهما لا تكشفان بعدُ عما في الداخل. التاريخ في حاجبها الجنيني. والمشمشتان المجفّفتان، أذناها. لذيذتان. إذا بدأت أكلهما فلن تتوقف أبدًا. الأذنان الصغيرتان أكبر منها سنًا، على الدوام. الأذنان اللتان كان عمرهما دائمًا أكثر من أربع سنين، لكنهما لم تتغيرا حقًّا منذ أن كان عمرها أربعة عشر شهرًا. نعومة شعرها الخارقة للطبيعة. كم كان شعرًا معافى! أكثر ميلًا إلى الحمرة، أكثر شبهًا بشعر أمه منه بشعره الذي لا تزال فيه مسحة من حمرة النار. رائحة اليوم كلّه في شعرها. خُلوُّ بال ذلك الجسد واستسلامه بين ذراعيه. استسلام كاستسلام القطة للأب القوي، للعملاق الذي يشيع الطمأنينة في نفسها. إنه هكذا، إنه صحيح، في استسلام جسدها له، كانت تحرّك غريزة لبث الاطمئنان، غريزة فائضة لا بد أنها شيء قريب مما كانت داون تقول إنها تحسّه عندما ترضعها. الحميمية المطلقة هي ما يحسّه عندما تترك ابنته الأرض قافزة بين ذراعيه. وفي تلك الحميمية تكمن دائمًا معرفةُ أنه لن يبتعد كثيرًا، لأنه لا يستطيع، ومعرفة أن ذلك حرّية هائلة ومسرّة هائلة، شيء مكافئ لرابطة الرضاعة بينها وبين داون. هذا

صحيح. هذا ما لا يمكن إنكاره. كان رائعًا في ذلك، وكانت رائعة أيضًا. كانت شديدة الروعة. كيف يحدث هذا كله لهذه الطفلة الرائعة؟ كانت تتأتئ، فماذا إذًا؟ ما المشكلة في هذا؟ كيف حدث هذا كلّه لهذه الطفلة الطبيعية تمامًا؟... إلا أن يكون هذا من نوع الأشياء التي تحدث حقًّا للرائعين، للأطفال الطبيعيين الرائعين. لا يفعل الأغبياء أشياء كهذه... الأطفال الطبيعيون يفعلونها. أنت تحميها، وتحميها، وهي... هي غير قابلة للحماية. شيء لا سبيل إلى احتماله إذا لم تحمها، وشيء لا سبيل إلى احتماله إذا حميتها. شيء كلّه... لا سبيل إلى احتماله. فظاعةُ استقلاليتها المُريعة. أتى أسوأ ما في العالم كلّه وأخذ طفلته. ليت ذلك الجسد الجميل المنحوت نحتًا لم يولد قط.

يتصل بأخيه. ليس أخوه شخصًا مناسبًا لأن يلتمس منه نصحًا؛ لكن، ما الذي يستطيع فعله؟ دائمًا، عند الحاجة إلى مشورة، لا يجد المرء إلا مشورة الأخ غير المناسب للمشورة، أو مشورة الأب غير المناسب للمشورة، أو مشورة الأم غير المناسبة للمشورة. ولهذا فإن على المرء أن يقنع باستشارة نفسه، وأن يكون قويًّا، ثم أن يمضي في الحياة مستشيرًا الآخرين. لكنه في حاجة الآن إلى شيء من الراحة من هذا الاغتصاب، في حاجة إلى إخراج هذا الاغتصاب من قلبه حيث يطعنه حتى الموت. لا يستطيع احتماله؛ فيتصل بالأخ الوحيد الذي لديه. لو كان لديه أخ غيره لكان قادرًا على الاتصال به. لكن، ليس لديه أخ غير جيري؛ وليس لدى جيري أخ غيره. وأما الابنة، فليس لديه غير ميري. وأما الأب، فليس لديها غيره هو. لا سبيل إلى تفادي أي شيء من هذا كلّه. ولا يمكن جعل أي شيء آخر يصير حقيقة.

إنها الخامسة والنصف من بعد ظهر يوم الجمعة. جيري في عيادته الآن يرى مرضى أجرى لهم عمليات جراحية. لكنه يقول له إنه قادر على الكلام. يستطيع المرضى أن ينتظروا. «ما الأمر؟ ما المشكلة عندك؟».

لم يكن في حاجة إلى أكثر من سماع صوت جيري، من سماع صوت نفاد الصبر الذي فيه، وسماع الثقة المغرورة اللاذعة، حتى يقول لنفسه إن جيري ليس بالشخص المناسب.

«لقد وجدتها. لقد عدت من عندها الآن. وجدتها في نيوارك. إنها هنا. إنها في غرفة. لقد رأيتها. لا يمكنك تخيّل ما مرت به هذه الفتاة، وكيف هو شكلها الآن، وأين تعيش. لا يمكنك حتى تخيل ذلك». بدأ يحكي قصتها من غير أن يحكي قصتها، ويحاول تكرار ما قالته له عن الأماكن التي كانت فيها وعن عيشتها وعما صارت إليه. كان يحاول فهم ذلك كله، يحاول إدخاله في رأسه، في رأسه هو، ويحاول أن يعثر في رأسه على مكان لذلك كلّه على الرغم من عدم قدرته حتى على العثور في رأسه على مكان كافٍ من أجل ذلك المكان الذي تعيش فيه. أوشك على البكاء عندما أخبر أخاه أنها اغتصبت مرتين.

سأله جيري: «هل انتهيت؟».

«ماذا؟».

- 6 -

لقد صارت واحدة من طائفة «جاين». لم يكن أبوها يعرف تلك الكلمة إلى أن أخبرته عن معناها بصبر - أخبرته متكلمة كلامًا منطلقًا من غير تأتأة كذلك الذي كان يمكن أن تتكلمه في البيت لو أنها استطاعت ضبط تأتأتها وهي تعيش في كنف والديها. جاين طائفة دينية هندية صغيرة نسبيًا - كان قادرًا على تقبّل هذه المعلومة كحقيقة من الحقائق. وأما إن كانت ممارسات ميري الدينية مأخوذة من تلك الطائفة أو كانت قد استنبطتها بنفسها، فهذا ما لم يكن متيقّنًا منه، على الرغم من إصرارها على أن كل ما تفعله الآن هو تعبيرٌ عن معتقدها الديني. كانت تضع ذلك اللثام حتى لا تؤذي الكائنات العضوية المجهرية الموجودة في الهواء الذي نتنفسه. وكانت ممتنعة عن الاستحمام لأنها تقدّس أشكال الحياة كلّها، بما فيها الهوام والطفيليات. قالت له إنها لا تغسل يديها من أجل «عدم التسبّب بأي أذى للماء». وكانت تمتنع عن السير بعد حلول الظلام، حتى في غرفتها نفسها، وذلك خشية أن تطأ قدمها على شيء حي ما. شرحت له أن هناك أرواحًا محبوسة في كل شكل من أشكال المادّة. وكلّما كان شكل الحياة أكثر تدنّيًا، كلّما كان عذاب الروح المحبوسة فيه أكبر. وأما الطريقة الوحيدة على الإطلاق لأن تصير حرّة من المادة وتصل إلى ما وصفته بأنه «نعمة الكفاية الذاتية من أجل

الأبدية كلّها»، فهي أن تصل إلى ما دعته بنبرة احترام «الروح الكاملة». لا يستطيع المرء الوصول إلى هذا الكمال إلا من خلال الزهد الشديد ونكران الذات، ومن خلال مبدأ آهيتنسا، أي اللاعنف.

كانت «العهود» الخمسة التي قطعتها على نفسها مطبوعة على بطاقات صغيرة، ومكتوبة على الجدار فوق حزمة ضيقة بشعة من المطاط الرغويّ القذر موضوعة على الأرض غير المكنوسة. كانت تنام على تلك الحزمة؛ وبالنظر إلى عدم وجود أي شيء في الغرفة غير تلك الحزمة في إحدى زواياها، وكومة خرق في الزاوية الأخرى ملابسها - فلا بد أنها تجلس على فراشها نفسه لكي تأكل، مهما يكن نوع الطعام الذي تقتات به. كان واضحًا من مظهرها أنها تأكل القليل، القليل جدًّا. وكان شكلها يوحي بأنها لا تعيش على مسافة خمسين دقيقة إلى الشرق من أولد ريمروك، بل في كالكوتا على حافّة الموت جوعًا، لا بوصفها مؤمنة نقيّة، مخلصة لزهدها، بل بوصفها فردًا زريّ الحال من أدنى طبقات المجتمع، يتحرّك بائسًا هنا وهناك، على أطراف مهزولة لشخص من فئة المنبوذين.

كانت الغرفة شديدة الضآلة، بل كانت أصغر حتى من تلك الزنزانة في سجن الأحداث حيث كان يتخيّل - عندما يجافيه النوم - أنه يزورها بعد اعتقالها. بلغا غرفتها بعد السير من مستشفى الكلاب والقطط في اتجاه محطة القطارات، ثم الانعطاف غربًا عبر نفقٍ مؤدٍّ إلى طريق ماكارتر السريع. كان ذلك نفقًا لا يتجاوز طوله مئة وخمسين قدمًا، لكنه من النوع الذي يجعل سائقي السيارات يقفلون نوافذ سياراتهم من الداخل عند عبوره.

لم تكن في سقف ذلك النفق مصابيح. تناثرت على رصيفيه قطع متكسّرة من الأثاث، وعلب بيرة، وزجاجات، وكتل من أشياء لم يستطع تحديدها. كانت تحت قدميها لوحات تسجيل سيارات. لم ينظف أحد هذا المكان منذ عشر سنين. بل لعلّ أحدًا لم ينظّفه أبدًا. كانت قطع الزجاج تتكسّر تحت حذائه مع كل خطوة يخطوها. رأى كرسيًّا مما يوضع في البارات واقفًا في وسط الرصيف. من أين أتى هذا الكرسي؟ من أتى به؟ رأى أيضًا بنطلونًا رجاليًا مشوّهًا، بنطلونًا قذرًا.

من كان ذلك الرجل؟ وما الذي حدث له؟ لو رأى السويدي هناك ساقًا أو ذراعًا لما فاجأه ذلك. كان في طريقهما كيس قمامة بلاستيكي قاتم اللون. كان مربوطًا. ماذا فيه؟ كان كيسًا ضخمًا بما يكفي لأن يكون فيه جسم إنسان ميت. كانت هنالك أجسام أيضًا، أجسام حية، أشخاص يتحرّكون هنا وهناك، بين الأوساخ... أشخاص ذوو مظهر خطير يلوّحون في الظلمة. وفي الأعلى، كانت عوارض الجسر المسودّة، وهدير قطار... هدير قطار مقترب من المحطة ينبعث صوته من تحت عجلاته. يدخل المحطة في اليوم الواحد خمسمئة قطار، أو ستمئة قطار. للوصول إلى الغرفة التي استأجرتها ميري على مقربة شديدة من طريق ماكارتر السريع، عليك أن تجتاز هذا النفق الذي هو أكثر الأنفاق خطورة، لا في نيوارك وحدها، بل في العالم كله.

كانا ذاهبين سيرًا على الأقدام لأنها رفضت ركوب السيارة معه. «إنني أمشي فقط يا بابا. أنا لا أستخدم أي نوع من المركبات العاملة بمحرك». وهكذا، ترك سيارته في ريل رولد آفنيو ليسرقها من يشاء سرقتها، وسار إلى جانبها حتى غرفتها الواقعة على مسيرة عشر دقائق، مسيرة كان من الممكن أن تجعله يذرف الدموع بعد عشر خطوات لولا أنه واصل القول لنفسه: «هذه هي الحياة! هذه هي حياتها! لا أستطيع تركها تذهب»... لم يُمسك يدها بكفّه أثناء اجتيازهما ذلك النفق المخيف لولا أنه راح يذكّر نفسه: «هذه هي يدها. هذه يد ميري. لا أهمية لشيء غير يد ميري». كان من الممكن أن تجعله تلك المسيرة يبكي لأن ميري كانت تحب أن تلعب معه لعبة «مشاة البحرية» عندما كانت في السادسة أو في السابعة من عمرها، فإما أن يصيح بها أو أن تصيح به «انتباه! راحة! استرح!»؛ وكانت تحب أن تمشي معه مشية عسكرية... «إلى الأمام، سر! إلى اليسار، سر! إلى اليمين، سر!»؛ وكانت تحبّ أداء التمرينات الرياضية معه... «أنتم، يا ناس، انحنوا إلى أن تلمسوا السطح!»؛ كانت تحب أن تدعو الأرض «سطحًا»، وأن تدعو الحمّام في بيتهم «غرفة القيادة»، وأن تدعو سريرها «رف النوم»، وأن تدعو الطعام الذي تعده داون «جِراية». لكن أكثر ما أحبّته كان تقليد إيقاع إيعازات السير في معسكر باريس آيلاند عندما تنطلق في

المرعى - محمولة فوق كتفيه - بحثًا عن بقرات أمها. كانت تكرّرها من غير تأتأة؛ لم تكن تتعثّر عند نطق أية كلمة عندما يلعبان «مشاة البحرية».

كانت الغرفة في الطابق الأرضي من بيت لعله كان بنسيونًا منذ مئة عام؛ ولعله لم يكن بنسيونًا سيئًا، بل مكان محترم، أرضية ردهته من الحجر البنّي فوقها جدران أنيقة المظهر من الطوب ودرابزون منحنٍ من الحديد مؤدٍّ إلى باب مزدوج. لكن البنسيون القديم كان قد صار ركامًا منسيًا في شارع ضيق لم يبق فيه إلا بيتان اثنان. والعجيب أن شجرتين من أشجار نيوارك العتيقة كانتا باقيتين هناك أيضًا. كان ذلك المبنى واقعًا بين مستودعات مهجورة ومساحات غير مبنية نمت فيها أعشاب طويلة تناثرت بينها قطع من نفايات معدنية صدئة، ونفايات ميكانيكية مبعثرة هنا وهناك.

كان الحجر التزييني المثلّث منتزعًا من فوق الباب، وكانت الأفاريز المزخرفة منتزعة أيضًا: انتزعت وسُرقت بحرص وعناية، ثم أُخذت لكي تباع في متجر من متاجر الأنتيكات في نيويورك. كانت البيوت الأقدم عهدًا في مختلف أنحاء نيوارك قد فقدت زيناتها الحجرية كلها... انتزعت أفاريز تزيينية مزخرفة يبلغ ارتفاعها أربعة طوابق، انتزعت باستخدام روافع ذات منصّة، أي باستخدام آلة يبلغ ثمنها مئة ألف دولار. لكن الشرطي كان نائمًا، أو كانوا قد دفعوا له حتى لا يرى شيئًا، فلم يعترض أحد سبيل السارقين، ولم يدقّق أحد في الجهة التي تملك تلك الرافعة والتي كانت تجني من ذلك بعض المال أيضًا. سُرق إفريز الديوك الرومية الذي كان محيطًا بسوق إسكس للمنتجين في واشنطن وفي ليندن: إفريز عليه ديوك رومية من الصلصال المشوي، وعليه رمز الوفرة المؤلّف من قرن تيس ضخم تفيض منه الثمار. احترق المكان، واختفى ذلك الإفريز بين ليلة وضحاها. سُرقت أيضًا أفاريز كنائس الزنوج الكبيرة (أحرقت كنيسة بيثاني المعمدانية، ثم سُدَّت منافذها بألواح خشبية، ثم نهبت، ثم جرفت بالبلدوزرات. وأما كنيسة وايكليف البريسبوتيريانية فقد أتت عليها النار كلّها). سُرقت أنابيب مياه الصرف المصنوعة من الألمنيوم، سرقت حتى من بنايات مسكونة. أنابيب المياه، والمزاريب. سرق كل ما يمكن أن تطاله يد أيٍّ كان: مد يدك، وخذه!

الأنابيب النحاسية في المصانع المقفلة... انتزعت، وبيعت. كان كل مكانٍ ذي نوافذ محطّمة مغلقة بألواح خشبية كما لو أنه يقول للناس: «تعالوا واسرقوني. خذوا ما بقي، اسرقوه وبيعوه». سرقة كل شيء... إنها السلسلة الغذائية! تكون في السيارة فتمرّ بمكان عليه لافتة تقول إن هذا البيت معروض للبيع؛ لكنّك لا ترى شيئًا... لا ترى شيئًا يمكن بيعه. سرقت كل شيء عصاباتٌ تتجوّل في سيارات؛ وسرق كل شيء رجالٌ يجوسون أنحاء المدينة دافعين أمامهم عربات تسوّق. سُرق كل شيء من قبل لصوص يعملون منفردين. أشخاصٌ يائسون فقدوا كل أمل فصاروا يأخذون كل شيء. إنهم يخرجون لجمع «سقط المتاع» مثلما يذهب قرش لصيد الأسماك.

كان أبوه يصيح قائلًا: «لا يخطر في أذهانهم عندما يرون حجرًا لا يزال قائمًا فوق حجر آخر إلا أن الاسمنت الذي بينهما قد يكون مفيدًا لهم. وهكذا فإنهم ينتزعون الحجر ويأخذون الإسمنت. لم لا؟ الإسمنت! هذه ليست مدينة يا سايمور... إنها جثة! اخرج منها!».

كان الشارع الذي تعيش فيه ميري مرصوفًا بالحجارة. لا يمكن أن يكون قد بقي سليمًا في المدينة كلّها أكثر من عشرة شوارع من هذه الشوارع المرصوفة بالحجارة. سُرق آخر شارع مرصوف (كان شارعًا مرصوفًا جميلًا) بعد نحو ثلاثة أسابيع من انتهاء الشغب. كانت الأنقاض لا تزال عابقة بروائح دخان الحرائق حيث كان الدمار على أشدّه، جاء مقاول بناء من الضواحي في الساعة الواحدة صباحًا، وجاء معه فريق من الرجال وثلاث شاحنات. نحو عشرين رجلًا أتوا خلسة فانتزعوا حجارة الشارع كلّها خلال الليل من غير أن يزعجهم أي شرطي. انتزعوا حجارة ذلك الشارع الجانبي الضيّق الذي يمرّ منحرفًا من خلف شركة نيوارك ميد، ثم أخذوها. كان الشارع قد اختفى عندما أتى السويدي إلى الشركة صباح اليوم التالي.

سأله أبوه: «هل صاروا يسرقون الشوارع الآن؟ وهل صارت نيوارك عاجزة حتى عن المحافظة على شوارعها؟ اخرج منها يا سايمور!». كان أبوه قد صار صوت العقل!

لم يكن طول شارع ميري أكثر من مئتي قدم؛ وكان محصورًا في ذلك المثلث الواقع بين شارع ماكارتر - الذي تهدر فيه دائمًا حركة شاحنات النقل الثقيلة طيلة الليل وطيلة النهار - وبين أنقاض شارع مالبيري. يستطيع السويدي تذكّر كيف كان شارع مالبيري حيًّا صينيًا فقيرًا منذ الثلاثينيات؛ أي منذ تلك الأيام التي كانت فيها أسرة ليفوف في نيوارك، جيري وسايمور وماما وبابا، تذهب إلى مطعم عائلي يصعد المرء سلمًا ضيّقًا حتى يصل إليه. وذلك لتناول وجبة تشاو مين في أيام الأحد قبل أن يعودوا بالسيارة إلى بيتهم في شارع كير. كان أبوه يحكي للولدين قصصًا عجيبة عن «حروب تونغ»(38) في شارع مالبيري في ما مضى.

في ما مضى! قصص عن أيام مضت. لم تعد هناك قصص عن أيام مضت، لم يعد هناك شيء. كان في الغرفة فراش حائل اللون بقّعه الماء كأنه قطعة ورق مقوّى ينام عليها سكير إلى جانب عمود النور في الشارع. لا تزال على العمود لافتة تحمل اسم تلك الزاوية. لا وجود لشيء آخر.

من فوق سقف بيتها، ومن خلفه، كان يرى سماء نيوارك التجارية الواقعة على مسافة نصف ميل، ومعها تلك الكلمات الثلاث المألوفة، المريحة... الكلمات الثلاث التي تشيع في النفس الطمأنينة أكثر من أي كلمة أخرى في الإنكليزية. كلمات مثل شلال على الجرف ذي الزينة الرشيقة الذي كان في يوم ما نقطة المركز في قلب المدينة الضاجّ بالحركة... تلك الحروف الضخمة المتألّقة البيضاء على ارتفاع عشرة طوابق معبّرة عن الثقة المالية وعن الأداء المؤسساتي القوي وعن تقدّم المدنية... عن الفرص، وعن الاعتزاز... حروف راسخة تستطيع قراءتها من مقعد طائرتك القادمة من الشمال صوب المطار الدولي: مصرف الأمانة الأول(39).

هذا كل ما بقي... الكذبة! الأول! بل الأخير، بنك الأمانة الأخير! من الأسفل، من مستوى الأرض، حيث تعيش ابنته الآن عند تقاطع شارعي كولومبيا وغرين... حيث تعيش ابنته عيشة أسوأ حتى من عيشة جدّها وجدّتها عندما كانا غرّين حديثَيْ العهد بهذه البلاد، عندما لم يكن قد مضى على نزولهما من السفينة

وقت طويل، عندما كانا يعيشان في تلك الشقّة السكنية في شارع برنس. يستطيع المرء رؤية تلك اللوحة الإعلانية العملاقة المصمَّمة من أجل إخفاء الحقيقة. لافتة لا يستطيع تصديقها غير المجانين. لافتة في قصّة من قصص الخيال.

ثلاثة أجيال. ثلاثة أجيال كان كل منها في حالة تطوّر ونمو. الجيل العامل. والجيل الموفّر. والجيل الذي بلغ النجاح. ثلاثة أجيال كانت منتشية بأميركا. ثلاثة أجيال من التوحّد مع هذا الشعب. وأما الآن، فقد انتهى الأمر كلّه إلى لا شيء مع الجيل الرابع. إنه التخريب الكلّي لعالمهم.

كانت الغرفة من غير نافذة. وما كان فيها إلا فتحة صغيرة ضيّقة فوق الباب تفضي إلى الممر غير المضاء، إلى تلك المبولة البالغ طولها عشرين قدمًا بجدرانها الجصّية المتهالكة، التي ودّ لو أنه يحطّمها إربًا بقبضتي يديه لحظة دخل المكان وشم رائحته. يؤدّي ذلك الممر إلى الشارع عبر باب من غير مقبض ولا قفل، ومن غير زجاج في إطاره المزدوج. لم ير في أي مكان في غرفتها صنبور ماء أو مشعّ تدفئة. لم يستطع تخيّل كيف يمكن أن يكون المرحاض، أو أين يمكن أن يكون، بل تساءل إن كان ذلك الممر هو المرحاض بالنسبة إليها، وبالنسبة إلى المتشرّدين الذين يأتون من الطريق السريعة أو من شارع مالبيري. لو كانت واحدة من بقرات داون، لعاشت أحسن من هذه العيشة، بل أحسن كثيرًا، في السقيفة، حيث كان القطيع يتجمّع على نفسه في الطقس السيئ، وتتقارب أجساد الأبقار فتدفأ... ويطول الشعر الذي يكسو جلدها في الشتاء... تنهض والدة ميري قبل السادسة صباحًا، حتى في أيام الشتاء التي يتساقط فيها مطر متجمّد، وحتى في أيام الشتاء الصقيعية، فتحمل حزم التبن لإطعام أبقارها. لم يكن يظنّ أن برد الشتاء يحمل أي إزعاج لتلك الماشية. فكّر في الاثنين اللذين كانوا يدعونهما «المنبوذين»: عملاق داون المتقاعد الثور كاونت، والفرس العجوز سالي، اللذين كان كل منهما في سن تعادل سبعين أو خمسة وسبعين عامًا من أعمار البشر، لكن أحدهما وجد الآخر عندما كانا فوق التلة فلم ينفصلا بعد ذلك... يسير الأول، فيتبعه الثاني، ويفعلان معًا كل ما يبقيهما مرتاحَيْن سعيدَيْن. كان أمرًا ساحرًا أن يراقب المرء نظامهما اليومي

وتلك الحياة الرائعة التي كانت لهما. تذكّر الأيام المشمسة عندما كانا يستلقيان في أشعة الشمس ليدفآ. تمنّى لو أن ابنته قد صارت حيوانًا مثلهما.

كان ذلك شيئًا يتجاوز إمكانية الفهم؛ ليس فقط كيف تستطيع ميري العيش في هذه الزريبة كأنها شخص منبوذ، ولا حتى كيف يمكن أن تكون ميري هاربة مطلوبة في جريمة قتل، بل كيف يمكن أن يكون هو وداون المنبع الأصلي لهذا كلّه. كيف أمكن أن تجتمع نقاط ضعفهما فتنتج هذا الكائن البشري؟ لو أن شيئًا من هذا كله لم يحدث، ولو أنها بقيت في البيت، وأنهت المدرسة الثانوية، وذهبت إلى الكلية، فسوف تكون لديها مشكلات، بالطبع، بل مشكلات كبيرة. لقد كان تمرّدها مبكرًا كثيرًا، وكان لا بد من وقوع مشكلات، حتى من غير وجود حرب في فيتنام. لو كانت في البيت لانغمست زمنًا طويلًا في مسرّة الاعتراض والمقاومة وتحدّي اكتشاف المدى الذي يمكن أن يبلغه جموحها. لكنها ستكون في البيت. عندما يكون المرء في البيت، يمكنه أن يطلق العنان قليلًا لغضبه، ثم ينتهي الأمر ولا تتاح له تلك المسرّة المحض التي لا يخالطها شيء. يفقد السيطرة على غضبه، يفقدها قليلًا مرات كثيرة جدًا فيقرّر آخر الأمر أن هذا ممتع كثيرًا، فلماذا لا يطلق عنان غضبه كثيرًا؟ عندما يكون المرء في البيت، لا تسنح له فرصة تخدير نفسه في هذا البؤس. عندما يكون المرء في البيت، لا يكون قادرًا على العيش حيث تكون الفوضى. عندما يكون المرء في البيت، لا يستطيع العيش حيث لا حدود لشيء. عندما يكون المرء في البيت، يظهر ذلك التضاد الهائل بين العالم الذي كانت ميري تتخيّله والعالم الذي كان موجودًا بالنسبة إليها. حسنًا، ما عاد لديها ذلك التنافر الذي يشوّش توازنها. ها هي خيالاتها الريمروكية وقد تجسّدت هنا؛ ها هي نتيجتها المفزعة.

لقد شكّل الزمن كارثتهم تشكيلًا مأساويًا - لم يمضيا زمنًا كافيًا معها -. يمكنك فعل ذلك عندما تكون ابنتك في كنفك؛ عندما تكون هناك. عندما تكون على تواصل مستقرٍّ مع طفلك على امتداد الزمن، فإن الأشياء التي هي ليست على ما يرام - الأحكام الخاطئة التي يتّخذها كل من الطرفين - تتحسّن وتتحسّن يومًا بعد يوم من خلال التواصل المستقر الصبور إلى أن يكون لها علاج آخر الأمر،

تتحسّن إنشًا بعد إنش، يومًا بعد يوم؛ إنه الرضا المألوف الذي يكون ثمرة صبر الأبوين، الرضا عن حلحلة الأمور. وأما هذا...! أين هو علاج هذا! وهل يستطيع أن يأتي بداون إلى هذا المكان لكي تراها؟ هل يستطيع إحضار داون بوجهها الجديد المشدود المتألّق لترى ميري جالسة متربعة على الفراش، مرتدية قميصها المهلهل، وبنطلونها ذا الشكل الغريب، وذلك اللثام الأسود على وجهها؟ هل يستطيع أن يأتي بها لترى ابنتها هادئة خانعة خلف ذلك الحجاب الذي يثير الغثيان؟ كم يبلغ عرض عظمَيْ كتفيها؟ إنهما مثل كتفَيْه. وأما ما هو معلّق من هذين العظمين فليس إلا لا شيء. ما رآه جالسًا أمامه لم يكن ابنةً، أو امرأةً، أو فتاة. ما رآه أمامه في ملابس رثة بالية، ما كان شديد النحول مثل فزاعة الحقل، كان أشد رموز حياة البؤس هزالًا؛ كان تقليدًا ساخرًا لكائن بشري؛ كان شيئًا بعيدًا كل البعد عن أن يشبه شخصًا من عائلة ليفوف. كيف يستطيع أن يأتي بداون إلى هذا المكان؟ كيف يستطيع أن يأتي بها عبر طريق ماكارتر السريع بالسيارة، ثم ينعطف فيدخل هذا الشارع، ثم المستودعات، ثم الركام، ثم النفايات، ثم القمامة... عندما ترى داون هذه الغرفة، وتشمّ رائحة هذه الغرفة، وتمسّ يداها جدران هذه الغرفة، عندما تمسّ جلد ابنتها المتّسخ وشعرها المشعث المجزوز من غير رحمة...

ركع على ركبتيه حتى يقرأ البطاقات الموضوعة تمامًا حيث كانت، في يوم ما، تعلّق صور أودري هيبورن المأخوذة من المجلّات فوق سريرها في أولد ريمروك.

أرفض كل قتل لكائنات حيّة، صغيرة أو كبيرة، متحرّكة أو غير متحرّكة.

أرفض أشكال الكلام الكاذب كلّها، سواء كانت منطلقة من الغضب أو الجشع أو الخوف أو الشر.

أرفض أخذ أي شيء غير مقدّم عن طيب خاطر، سواء كان ذلك في قرية أو مدينة أو غابة، وسواء كان قليلًا أو كثيرًا أو صغيرًا أو كبيرًا، أو شيئًا حيًّا أو غير حيٍّ.

أرفض المسرّات الجنسية كلّها، مع الآلهة والبشر والحيوانات.

أرفض كل ارتباط، سواء أكان قليلًا أم كثيرًا، صغيرًا أم كبيرًا، حيًا أم غير حي؛ ولم أنشئ بنفسي أي ارتباط، ولن أدفع الآخرين إلى إنشائه، ولن أقبل قيامهم بإنشائه.

من حيث كونه رجل أعمال، كان السويدي رجلًا يتمتع بدهاء. ومن خلف مظهره الخارجي اللطيف لرجل يعرف الاستفادة من ذلك المظهر، كان قادرًا أيضًا على الدهاء في تدبير أموره بقدر ما تدعو إليه الحاجة. لكنه لم يستطع رؤية كيف يمكن حتى لأكثر الحسابات برودًا أن يساعده في هذا الموقف. ولم ير كيف يمكن أن تساعده موهبة الأبوة في العالم كلّه حتى إذا اجتمعت واحتشدت في رجل واحد. قرأ نذورها الخمسة من جديد، وفكّر فيها بأقصى ما استطاعه من تفكير جاد وهو يحيّر نفسه طيلة الوقت بعبارة من أجل الطهر... باسم الطهر.

لماذا؟ ألأنها قتلت شخصًا، أم لأنها كانت في حاجة إلى التطهّر حتى لو لم تقتل ذبابة؟ أم إن للأمر علاقة به؟ بتلك القبلة الحمقاء؟ كان ذلك قبل عشر سنين؛ ثم إنه لم يكن شيئًا، ولم يفضِ إلى شيء، ولم يكن يبدو أنه قد عنى شيئًا كثيرًا بالنسبة إليها، حتى في ذلك الوقت. أيمكن لشيء عديم المعنى إلى هذه الدرجة، شيءٍ عاديٍّ إلى هذه الدرجة، عابرٍ إلى هذه الدرجة، قابلٍ للفهم إلى هذه الدرجة، قابلٍ للصفح إلى هذه الدرجة، بريء إلى هذه الدرجة... لا!

كيف تجوز مطالبته مرة بعد مرة بأن يتعامل تعاملًا جدّيًا مع أشياء لم تكن جدّية؟ لكن ذلك هو المأزق الذي كانت ميري تضعه فيه منذ ذلك الوقت عندما كانت تتشدّق على طاولة العشاء متحدّثة عن لاأخلاقية حياتهم البرجوازية. كيف يمكن لأي إنسان أن يأخذ ذلك الهذر الطفولي على محمل الجد؟ لقد كان أبًا جيدًا بقدر ما يمكن أن يكون أي أبٍ أبًا جيدًا... كان يصغي ويصغي عندما يجد نفسه عاجزًا عن فعل شيء غير النهوض والابتعاد عن طاولة العشاء إلى أن تفرغ كل ما لديها؛ كان يومئ برأسه ويوافق على كل ما يمكن أن يوافق عليه، ولو حتى موافقة هامشية، وعندما يعارضها في شيء ما - وليكن الفعالية الأخلاقية لدافع الربح - كان يعارضها معارضة متحفّظة معتدلة مع كل ما يقدر عليه من

عقلانية صبور. لم يكن ذلك سهلًا عليه بالنظر إلى أن ذلك الدافع إلى الربح يستحقّ منها قدرًا بسيطًا من الاحترام والعرفان، إن لم نقل إنه يستحق ولاءً واعترافًا كاملين، فهي الطفلة التي ينفقون عليها ما آلاف الدولارات من أجل تقويم الأسنان والمعالجة النفسية والمعالجة الكلامية، فضلًا عن دروس الباليه ودروس ركوب الخيل ودروس التنس، وتلك الأشياء كلّها التي كانت مقتنعة في وقت ما بأنها غير قادرة على العيش من غيرها. لعلّ غلطته كانت في أنه حاول كثيرًا أن يتعامل تعاملًا جادًّا مع ما لم يكن جادًّا بأي شكل من الأشكال؛ ولعل ما كان ينبغي عليه فعله، بدلًا من الإصغاء إليها ومن احترام كلامها، هو الرد على هذيانها الجاهل بأن يمد يده من فوق الطاولة فيصفعها على فمها.

لكن، حتى لو فعلها، فما الذي كان يمكن لهذا أن يعلّمها عن الدافع إلى الربح؟... ما الذي كان يمكن لهذا أن يعلّمها عن أبيها؟ لكن، لو فعل ذلك - لو فعل ذلك - لكان من الممكن أن يؤخذ هذا الفم الملثّم على محمل الجدّ. لو فعل هذا، لكان الآن قادرًا على لوم نفسه، «صحيح؛ أنا من فعل بها هذا. فعلته بانفجارات غضبي وبعجزي عن السيطرة على أعصابي». لكن، بدا له كما لو أنه هو المسؤول عن أي شيء يمكن أن يكون قد أصابها لأنه لم يستطع قبول أن يفقد أعصابه، ولأنه لم يرد أن يفقد أعصابه، أو لم يجرؤ على ذلك. لقد سبّب لها هذا عندما قبّلها. لكن من غير الممكن أن يكون هذا هو السبب. لا شيء من هذا يمكن أن يكون هو السبب.

إلا أنه كان سببًا. فها نحن هنا الآن. ها هي هنا، حبيسة هذا الوكر مع هذه «العهود». إنها أحسن حالًا في هذا الوضع المزري. لو كان عليه الاختيار بين ميري البدينة الحانقة المتأتئة بعواصف غضبها الشيوعي وميري الرحيمة القذرة الوادعة الملثّمة، هذه التي هي أشبه بفزّاعة حقول مرتدية أثمالًا... لكن، لماذا يكون عليه أن يختار واحدة منهما؟ ولماذا يكون عليها دائمًا أن تجعل نفسها عبدة لأول فكرة فارغة تقع تحت يدها؟ صارت تحمل هذه الأفكار الغريبة المعتوهة منذ تلك اللحظة التي بلغت فيها سنًا تسمح لها بأن تفكّر بنفسها. ما الذي فعله حتى ينتج هذه الابنة التي رفضت - بعد تميّزها في المدرسة عدة سنين - أن

تفكّر بنفسها، أن تستخدم عقلها؟... ابنة لا تعرف غير أن تتخذ موقفًا عنيفًا ضد كل ما يقع عليه نظرها أو موقفًا شديد التعاطف تجاه كل شيء، بل حتى تجاه الكائنات المجهرية في الهواء الذي نتنفّسه؟ لماذا تسعى فتاة ذكيّة مثلها إلى جعل أشخاص آخرين يقومون بالتفكير عنها؟ لماذا يكون عصيًّا عليها أن تسعى (مثلما سعى في كل يوم من أيام حياته) إلى أن تكون هي نفسها، إلى أن تكون وفيّة لذاتها؟ لقد قالت له عندما أشار إلى ترديدها أفكار الآخرين ترديدًا ببغائيًا، «لكنّك أنت هو الشخص الذي لا يفكّر بنفسه. أنت مثالٌ حيٌّ على الشخص الذي لا يفكّر بنفسه أبدًا!». أجابها ضاحكًا: «هل أنا كذلك حقًّا؟». «أجل! أنت أكثر انصياعًا من أي شخص آخر أعرفه! لا تفعل إلا ما هو متوق - قع منك!». «وهل هذا أمر فظيع أيضًا؟». «إنه ليس تفـ تفـ تفكيرًا، يا بابا! إنه ليس تفكيرًا! إنه شيء آلي غبـ غبـ غبي! إنسان آلي!». أجابها موقنًا بأن ذلك كلّه لم يكن إلا نوبة عابرة، نوبة سوء مزاج لن تلبث أن تتجاوزها: «لا بأس. أظن أن حظك العاثر قد جعل لك أبًا ممتثلًا... أتمنّى لك حظًّا أفضل في المرة القادمة». تظاهر بأن الذعر لم يصبه لرؤية شفتيها الراجفتين المزبدتين المنتفختين تصفعان وجهه بعبارة «إنسان آلي» بضراوة مجنونة. قال في نفسه إنها نوبة، أو مرحلة عابرة، فأحسّ بالارتياح ولم يخطر في ذهنه أبدًا أن اعتبار الأمر «نوبة» أو «مرحلة عابرة» يمكن أن يكون مثالًا سيّئًا على عدم قدرة المرء على التفكير بنفسه.

خيال واهم وسحر. تتظاهر دائمًا بأنها شخص آخر غير نفسها. كان ما بدأ بداية بريئة براءة كافية عندما كانت تلعب دور أودري هيبورن قد ارتقى فصار خرافة عجيبة عن إنكار الذات. أتى في البداية هراء إنكار الذات من أجل الشعب؛ ثم أتى الآن هراء إنكار النفس من أجل «كمال الروح». فما الذي يأتي بعد هذا؟... أيكون صليب الجدة دواير؟ هل تعود إلى هراء إنكار الذات من أجل «الشمعة الأبدية» و«القلب المقدّس»؟ هذا البحث الدائم عن وهم كبير لا علاقة له بالواقع، عن أبعد أشكال التجريد، بدلًا من البحث عن الذات. الرعب الكاذب، اللابشري... رعب إنكار الذات هذا... كلّه!

صحيح... لقد كان حبّه أكبر للابنة التي كانت تبحث عن ذاتها مثل أي شخص

آخر أكثر من حبّه لابنته التي حلّت عليها نعمة الغيرية المشوَّهة والكلام من غير تأتأة.
سألها: «كم مرّ عليك من الوقت هنا؟».
«أين؟».
«في هذه الغرفة. في هذا الشارع. في نيوارك. منذ متى تقيمين في نيوارك؟».
«جئت منذ ستة أشهر».
«لقد كنت...». لم يستطع قول المزيد لأنه كان يريد قول كل شيء، يريد السؤال عن كل شيء، يريد المطالبة بمعرفة كل شيء. ستة أشهر. ستة أشهر في نيوارك. الآن، لم يعد عند السويدي «هنا» ولم يعد لديه «الآن»... لم تعد لديه إلا كلمتان حارقتان قيلتا بطريقة عادية جدًّا: ستة أشهر.
كانت جالسة، وكان واقفًا في مواجهتها، قوّته متعلّقة بالجدار، يميل خلفًا على كعبي حذائه ميلًا لا يكاد يُلحظ كما لو أنه قد يتمكّن بهذه الطريقة من مغادرتها والابتعاد عنها عبر ذلك الجدار، ثم يميل إلى الأمام، على أصابع قدميه، كما لو أنه موشك على الإمساك بها، ورفعها بين ذراعيه، والخروج بها. ما كان قادرًا على العودة إلى بيته لينام في أمان تام في ذلك المنزل في أولد ريمروك وهو يعرف أنها راقدة على هذا الفراش بأسمالها ولثام وجهها كأنها أكثر أهل الأرض وحدة... وهو يعرف أنها نائمة على مسافة إنشات فقط من ممر لن يلبث أن يبتلعها، عاجلًا أو آجلًا.
كانت الفتاة مجنونة عندما بلغت الخامسة عشرة؛ وقد تحمّل جنونها تحمّلًا لطيفًا غبيًا، ولم ير في الأمر كلّه شيئًا أسوأ من أن لها وجهة نظر لا تعجبه لن تلبث - بالتأكيد - أن تكبر وتتجاوزها عندما تتجاوز مرحلة المراهقة المتمرّدة. فانظر إليها كيف صارت الآن! أبشع ابنة يمكن أن تولد لأبوين جذّابين. إنني أرفض هذا! إنني أرفض ذاك! إنني أرفض كل شيء! لا يمكن أن يكون الأمر هكذا، أليس كذلك؟ هل كان مناط الأمر كلّه أنها كانت ترفض شكله وشكل داون؟ هل كان مناط ذلك كلّه أن أمها كانت ملكة جمال نيوجرسي؟ أيمكن أن تبلغ الحياة هذا الحد من تتفيه كل شيء؟ لا يمكن هذا! لا أقبل هذا!

«متى صرت واحدة من طائفة جاين؟».
«منذ سنة».
«وكيف عرفتِ بأمرها؟»
«عن طريق دراسة الأديان».
«كم يبلغ وزنك يا ميريديث؟».
«أكثر مما يلزم، يا بابا».

كان محجرا عينيها كبيرين. محجران كبيران فيهما عينان داكنتان، نصف إنش فوق لثامها، ثم شعرها فوق محجري عينيها بإنشات قليلة. ما عاد شعرها طويلًا مسترسلًا على ظهرها، بل صار يبدو كأنه شيء ظهر مصادفة فوق رأسها. لا يزال أشقر اللون مثل شعره، لكنه لم يعد طويلًا ولا كثيفًا نتيجة تلك القَصّة التي كانت في حدّ ذاتها عملًا من أعمال العنف. من قصّ لها شعرها هكذا؟ هل قصّته بنفسها أم قصّه شخص آخر؟ باستخدام ماذا؟ بموجب عهودها الخمسة، لا يمكن أن يكون رفضها أي ارتباط رفضًا وحشيًا مثلما رفضت ارتباطها بشعرها الذي كان ذات يوم جميلًا.

«لكنّ مظهرك يوحي بأنك لا تأكلين شيئًا... ماذا تأكلين؟». على الرغم من اعتزامه قول هذه الكلمات من غير إظهار أية مشاعر، فقد خرج الصوت من فم السويدي أشبه بالأنين. حمل صوته كل الفزع الذي أحسّه.

«إنني أدمّر حياة النباتات. لم أمتلك بعد الرحمة التي تجعلني أمتنع عن فعل ذلك».

«تعنين أنك تأكلين النباتات. أليس هذا ما تعنينه؟ ما الشيء الخاطئ في هذا؟ وكيف يمكن أن تمتنعي عن فعله؟ لماذا يكون عليك فعل ذلك؟».

«إنها مسألة ورع شخصي. إنها مسألة احترام الحياة وإجلالها. أنا ملتزمة بعدم إيقاع الأذى بأي كائن حي، لا بشر، ولا حيوان، ولا نبات».

«لكنك تموتين إذا فعلتِ ذلك. كيف يمكن أن تكوني 'ملتزمة' بهذا؟ معنى كلامك أنك لن تأكلي شيئًا».

«إنك تطرح سؤالًا عميقًا. أنت رجل شديد الذكاء، يا بابا. أنت تسألني: 'إذا

احترمت الحياة بكل أشكالها، فكيف يمكنك العيش؟'، الإجابة هي أنك لن تستطيع العيش. الطريقة التقليدية التي ينهي بها الإنسان التقي من الجاين حياته هي سالا خانا - أي تجويع الذات -. الموت الطقسي عن طريق سالا خانا هو الثمن الذي يقدّمه الجاين المثالي من أجل الكمال».

«لا أستطيع تصديق أن هذه أنت. ينبغي أن أقول لك ما أراه».

«بالطبع، ينبغي أن تفعل هذا».

«لا أصدّق أنك، أنت الذكية، تدركين ما تقولينه أو ما تفعلينه هنا، أو سبب ذلك. لا أستطيع تصديق أنك تقولين لي إن لحظةً ستأتي تقرّرين فيها الامتناع عن إنهاء حياة نبتة، وإنك لن تأكلي أي شيء، وإنك ستحكمين على نفسك بالموت. من أجل من يا ميري؟ من أجل ماذا؟».

«لا بأس عليك. لا بأس عليك، يا بابا. أعرف أنك غير قادر على تصديق ما أقوله لك، أو ما أفعله، أو تصديق ما يجعلني أقوله وأفعله».

كانت تخاطبه كما لو أنه هو الطفل وهي الوالد، تخاطبه بعطف وتفهّم، بذلك التسامح المحب الذي كان يبديه تجاهها في ما مضى، التسامح المحب الذي كان شيئًا كارثيًا. أغاظه هذا. تسامحُ فتاة مجنونة. لكنه لم يندفع صوب الباب فرارًا ولم يثب إليها ليفعل ما يجب فعله. لقد ظل الأب المنطقي. ظل الأب المنطقي لفتاة مجنونة. افعل شيئًا! افعل أي شيء! باسم كل شيء منطقي... كفّ عن كونك منطقيًا. هذه الفتاة في حاجة للذهاب إلى المستشفى. لو كانت عائمة على لوح خشبي في وسط البحر لما جعلها ذلك في خطر أكبر مما هي فيه الآن. لقد قفزت من السفينة إلى البحر - لا أهمية الآن للسؤال عن كيفية حدوث ذلك. يجب إنقاذها فورًا!

«أخبريني، أين درست الأديان؟».

«في المكتبات العامة. لا يبحث عنك أحد هناك. كنت أمضي وقتًا طويلًا في المكتبات حيث أقرأ. لقد قرأت الكثير».

«كنت تقرأين كثيرًا عندما كنت طفلة صغيرة».

«هل هذا صحيح؟ إنني أحب القراءة».

«هل صرت هناك من معتنقي هذا الدين؟ في المكتبة العامة؟».
«هذا صحيح».
«وماذا عن الكنيسة؟ هل تذهبين إلى كنيسة من نوع ما؟».
«لا وجود لكنيسة في المركز. لا وجود لإله في المركز. إن في قلب التقاليد الدينية اليهودية والمسيحية إلهًا. ومن الممكن أن يقول الإله، 'اقتل'. وعندها، لا يكون ذلك أمرًا جائزًا فحسب، بل يكون إلزاميًا. هذا موجود في العهد القديم كلّه. وهناك أمثلة عليه حتى في العهد الجديد. تتخذ اليهودية والمسيحية موقفًا يقول إن الحياة ملك للرب. الحياة ليست مقدّسة، بل الرب هو المقدّس. وأما الإيمان الذي في مركزنا، فهو ليس إيمانًا بسلطة الرب، بل إيمان بقداسة الحياة».
الترنيم الرتيب لمن تشرّب عقيدة، لمن كان مدرعًا بالإيديولوجيا من رأسه حتى قدميه... الترنيم المسحور الرتيب لمن لا سبيل إلى ضبط تمرّدهم إلا باستخدام قميص المجانين الخانق، إلا باستخدام أكثر الأحلام متانة وتماسكًا. لم يكن تقديس الحياة هو الغائب عن كلماتها التي لا تأتأة فيها... كان صوت الحياة نفسه غائبًا.
سألها وهو يحاول جاهدًا التكيّف مع تلك الإعلانات التي كانت تقذفه بها فتزيده حيرة: «كم يبلغ عددكم؟».
«ثلاثة ملايين».
ثلاثة ملايين إنسان مثلها. هذا غير ممكن. في غرف مثل هذه الغرفة؟ محبوسون في ثلاثة ملايين غرفة مخيفة!؟ «أين هم يا ميري؟».
«في الهند».
«لست أسألك عن الهند. لست مهتمًا بالهند. في أميركا. كم عددكم في أميركا؟».
«لا أهمية لهذا».
«أظنّه عددًا صغيرًا جدًا».
«لست أدري».
«ميري، هل أنت الوحيدة هنا؟».
«إنني أقوم باستطلاعي الروحي وحيدة».

«لست أفهم هذا. لا أفهم هذا، يا ميري. كيف تحوّل اهتمامك من ليندون جونسون إلى هذا الأمر؟ كيف انتقلت من نقطة الألف إلى نقطة الياء؟ لا صلة بينهما على الإطلاق! ما الصلة بين هذا وذاك، يا ميري».

«بل الصلة موجودة. أؤكد لك أنها موجودة. الأمر كله مترابط. لكنك لا ترى هذا الترابط».

«وأنت، هل تستطيعين رؤيته؟».

«أستطيع».

«أخبريني عنه إذًا. أريد أن تخبريني عنه حتى أتمكّن من فهم ما حدث لك».

«هناك منطق، يا بابا. عليك ألا ترفع صوتك. سوف أشرح لك. الأمر مترابط كله. لقد فكّرت في هذا كثيرًا. إنه على النحو التالي. لقد كان المهاتما غاندي ميالًا إلى أهيتنسا، أي إلى التصوّر الجايني للاعنف. لم يكن غاندي جاينيًا. لقد كان هندوسيًا. لكنه كان يبحث في الهند عن مجموعة هندية أصيلة غير غربية تستطيع تبنّي أعمال خيرية مؤثّرة كالتي قدّمها المبشرون المسيحيون فعثر على الجاينيين. إننا مجموعة صغيرة. لسنا هندوسًا، لكن معتقداتنا قريبة من الهندوسية. نحن دين نشأ في القرن السادس قبل الميلاد. أخذ منا المهاتما غاندي فكرة أهيتنسا، أي اللاعنف. نحن جوهر الحقيقة التي خلقت المهاتما غاندي. والمهاتما غاندي - من خلال مبدأ اللاعنف - هو جوهر الحقيقة التي خلقت مارتن لوثر كينغ. ومارتن لوثر كينغ هو جوهر الحقيقة التي خلقت حركة الحقوق المدنية. وفي آخر حياته، عندما كان ينتقل من حركة الحقوق المدنية إلى رؤية أكثر اتساعًا، عندما كان يعارض الحرب في فيتنام...».

«إن كنت قد انتهيت، وإن كان هذا كل ما عندك، فقل لي ما تعتزم فعله الآن. ما الذي ستفعله يا سايمور؟».

«لست أدري ما يمكن فعله. هي من قام بذلك. هي من فجّر متجر هاملين. هي من قتل كونلون»... لا يستطيع إخباره شيئًا عن تفجير أوريغون وعن القتلى الآخرين الثلاثة... «لقد فعلت ذلك بنفسها».

«حسنًا، لقد فعلت ذلك بالتأكيد. يا إلهي! هل كنا نظن أن ذلك من فعلِ شخص

آخر؟ أين هي الآن؟ هل هي في تلك الغرفة؟».
«أجل. شيء رهيب».
«إذًا، عد إلى الغرفة وخذها».
«لن تسمح لي بذلك. تريد أن أتركها وحدها».
«اللعنة على ما تريده. عد إلى سيارتك الملعونة، واذهب إلى ذلك المكان، وجُرّها من شعرها لتخرجها من تلك الغرفة اللعينة. خدّرها. قيّدها. لكن، عليك أن تخرجها. أصغِ إلي. أنت الآن مشلول. ألست من يرى أن المحافظة على تماسك الأسرة أهم شيء في الوجود؟ أنت من يرى ذلك. عد بتلك السيارة وخذها».
«لن ينفع هذا. لا أستطيع جرّها جرًا. إن في هذا الأمر أكثر مما أنت قادر على فهمه. بعد أن تنتهي من محاولة إجبار شخص ما على العودة إلى بيته... ماذا تفعل؟ ماذا بعد؟ إنه انتصار... شيء معقّد. إنه شديد التعقيد. لن ينجح الأمر بطريقتك».
«إنها الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنجح».
«لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين. قتلتْ أربعة أشخاص».
«اللعنة على الأشخاص الأربعة. ما مشكلتك؟ أنت تستسلم لها مثلما استسلمت لأبيك، مثلما تستسلم لكل شيء في حياتك».
«لقد اغتُصبت. إنها مجنونة. لقد جنّت. يكفي أن تنظر إليها حتى ترى الأمر. اغتصُبت مرتين».
«وما الذي كنت تظنّ أنه سيحدث لها. كأنك فوجئت بهذا! من الطبيعي أن تكون قد اغتصبت. إما أن تحرّك مؤخرتك وتفعل شيئًا، وإما أن تُغتصب ابنتك مرة ثالثة. هل تحبّها أم لا تحبّها؟».
«كيف يمكنك أن تطرح هذا السؤال؟».
«أنت تجبرني على طرحه».
«أرجوك، ليس الآن، لا تمزّقني، لا تهدمني. إنني أحبّ ابنتي. لم أحبّ مثلها شيء في العالم كله».

«شيء!».
«ماذا؟ ما هذا؟».
«أحببتها باعتبارها شيئًا... أحببت ابنتك كما لو أنها شيء لعين. مثلما تحب زوجتك، أوه، لو استطعتَ يومًا أن تدرك السبب الذي يجعلك تفعل ما تفعله! أتعرفُ السبب؟ هل لديك فكرة عن السبب؟ لأنك خائف من أن يكون مظهرك مخزيًا! أنت خائف من ترك الوحش يخرج من الكيس».
«ما الذي تتحدّث عنه؟ أي وحش؟ أي وحش؟».
لا، لم يكن يتوقّع مشورة كاملة، لكن هذا الهجوم... لماذا يشنّ عليه هذا الهجوم من غير حتّى أن يتظاهر بتقديم نصيحة؟ لماذا يفعل جيري هذا بعد أن شرح له كيف اتضح أن الوضع أسوأ بآلاف المرات وآلاف المرات من أسوأ كل ما كانا يتوقّعانه؟
«ما أنت؟ هل تعرف؟ ما أنت هو أنك تحاول دائمًا تلطيف الأمور. ما أنت هو أنك تحاول دائمًا ان تكون معتدلًا. ما أنت هو أنك تحاول ألا تقول الحقيقة إذا ظننت أن ذلك سيكون مؤذيًا لمشاعر شخص ما. ما أنت هو أنك مهادنٌ دائمًا. ما أنت هو أنك راضٍ عن نفسك دائمًا. ما أنت هو أنك تحاول دائمًا العثور على الجانب المشرق في كل شيء. أنت هو الشخص صاحب السلوك الحسن اللائق. أنت هو الشخص الذي يتقيّد بكل شيء صابرًا. أنت هو الشخص صاحب اللياقة المطلقة. أنت هو الصبي الذي لا يكسر القواعد أبدًا. تفعل كل ما يمليه عليك المجتمع. لياقة. اللياقة هي ما يجب أن تبصق الآن في وجهه. حسنًا، ابنتك هي من بصق في وجه اللياقة بدلًا منك، أليس كذلك؟ أربعة أشخاص؟ لقد وضعتْ ابنتك اللياقة في حرج حقيقي!».
إن أنهى الاتصال، فسوف يجد نفسه وحيدًا في ذلك الممر خلف الرجل المنتظر خلف الرجل الذي على الأرض، على السلم، يمزق ميري. وسوف يرى كل ما لا يريد رؤيته. وسوف يعرف كل ما لا يستطيع احتمال معرفته. لا يستطيع أن يجلس هناك متخيّلًا بقية القصّة. إذا أنهى الاتصال، فلن يعرف أبدًا ما سيقوله جيري بعد أن يفرغ من هذا الكلام كلّه الذي يريد، لسبب ما، قوله عن الوحش.

أي وحش؟ إن علاقاته بالناس كلّها تسير على هذا النحو... الأمر ليس هجومًا عليّ، بل هي طبيعة جيري، لا يستطيع أحد ضبطه. لقد وُلد هكذا. كنت أعرف هذا حتى قبل اتصالي به. كنت أعرف هذا طيلة حياتي. نحن لا نعيش بالطريقة نفسها. أخٌ هو ليس أخًا. لقد أصابني الذعر. إنني مذعور. هذا ذعر. لقد اتصلت بالشخص الخاطئ حتى أكون على صلة مع العالم. هذا رجل يستخدم سكينًا حتى يعيش. هذا رجل يعالج المرض بسكين. يقطع بالسكين ما فَسُدَ في الجسم. أما أنا، فأسير على الحبال. إنني أتعامل مع شيء لا يستطيع أحد التعامل معه. أما هو فيرى الأمر عملًا، كبقية عمله... إنه يهاجمني بسكينه.

قال السويدي لأخيه: «أنا لست مخطئًا. أنا لست مخطئًا... أنت هو المخطئ».

«لا، أنت لست مخطئًا. أنت هو الشخص الذي يقوم بكل شيء على الوجه الصحيح».

يقول غاضبًا: «لا أفهم هذا. أنت تقوله كما لو أنه إهانة. ما العيب في فعل كل شيء على الوجه الصحيح».

«لا شيء. لا شيء. لا عيب فيه. إلا أن هذا ما كانت ابنتك غاضبة منه طيلة حياتها. أنت لا تكشف نفسك للناس، يا سايمور. أنت تُبقي نفسك سرًا. لا أحد يعرف من أنت. ومن المؤكد أنك لم تتركها أبدًا تعرف من أنت. هذا ما كانت غاضبة منه دائمًا... إنه الواجهة التي تضعها لنفسك. معاييرك اللعينة كلّها. انظر مليًا إلى ما فعلته ابنتك بمعاييرك».

«لست أفهم ما تريده مني. لقد كنتَ دائمًا أكثرَ ذكاء من أن أستطيع فهمك. أهذه استجابتك؟ أهذه هي؟».

«أنت من فاز بالكأس. أنت من يقوم بالنقلة الصحيحة دائمًا. أنت هو الذي يحبّه الجميع. بربّك... لقد تزوجت ملكة جمال نيوجرسي. أنت تفكّر في أفعالك. لماذا تزوّجتها؟ من أجل المظاهر. لماذا تفعل كل شيء؟ من أجل المظاهر».

«لقد أحببتها. عارضتُ أبي وأحببتها كثيرًا».

يضحك جيري: «أهذا ما تظنّه؟ أتظنّ حقًّا أنك وقفت في مواجهة أبيك. لقد تزوّجتها لأنك لم تستطع التخلص من الأمر. كان أبوك يضطهدها في مكتبه

ويعذّبها بينما تجلس أنت ولا تنطق بكلمة واحدة. ماذا؟ أليس هذا صحيحًا؟».

«ابنتي في تلك الغرفة الآن، يا جيري. فما الذي تريده من كلامك هذا؟».

لكن جيري لا يسمعه. إنه لا يسمع غير نفسه. لماذا يجد جيري في هذا فرصة كبيرة لإخبار أخيه بحقيقته؟ لماذا يقرّر أحدهم، في وسط أسوأ معاناة تمرّ بها، أن الوقت قد صار مناسبًا لكي يقذفك بكل الاحتقار الذي يُكنُّه لك طيلة هذه السنين، ويموّه ذلك فيجعله على هيئة تحليل للشخصية؟ ما هو الشيء في معاناتك الذي يجعل إحساسه بالتفوّق كبيرًا إلى هذا الحد، هائلًا إلى هذا الحد، ويجعل التعبير عنه أمرًا ممتعًا له إلى هذا الحد؟ لماذا يجد في هذا مناسبة للتعبير عن احتجاجه على العيش في ظلّي؟ لماذا؟ إن كان يريد قول هذا لي، فلماذا لم يقله لي عندما كنت في حالة حسنة؟ ولماذا يظنّ أصلًا أنه يعيش في ظلّي؟ إنه أكبر جرّاح قلب في ميامي! إنه منقذ ضحايا الأمراض القلبية، د. ليفوف!

«أبوك؟ هل عارضته؟ هو من تركك تتزوّجها... ألا تعرف هذا؟ لو قال لك 'انظر، لن تحصل أبدًا على موافقتي على هذا الأمر، أبدًا. لا أقبل أن يكون أحفادي نصفٌ هنا ونصفٌ هناك'، لوجدت نفسك مضطرًا إلى الاختيار. لكنك لم تجد نفسك أبدًا مضطرًا إلى الاختيار. أبدًا. هذا لأنه هو من تركك تتزوجها. دائمًا، يتركك الجميع تحصل على ما تريد. هذا هو السبب في أن أحدًا لا يعرف من أنت، حتى الآن. أنت شخص غير ظاهر... هذه هي الحكاية، يا سايمور، غير ظاهر. وهذا هو السبب الذي جعل ابنتك تتمنّى أن تنسفك. أنت لست مباشرًا أبدًا في ما يتعلق في أي شيء. وهذا ما كرهَتْه ابنتك فيك. أنت تحتفظ بنفسك سرًا، وأنت لا تُقدِمُ على الاختيار أبدًا».

«لماذا تقول هذا؟ ما الذي تريد مني اختياره؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

«أتظنّ أنك تعرف ما هو الرجل؟ ليست لديك أية فكرة عما هو الرجل. أتظنّ أنك تعرف ما هي الابنة؟ ليست لديك أية فكرة عن معنى الابنة؟ أتظنّ أنك تعرف ما هو البلد؟ ليست لديك أية فكرة عن معنى البلد. لديك صورة زائفة عن كل شيء. أنت لا تعرف معنى شيء غير ذلك القفاز اللعين الذي تصنعه. هذا البلد مخيف. لقد اغتُصبَت، بالطبع. فأي نوع من الناس تظنّه كان من حولها؟

شيء طبيعي أن تُغتصب عندما تكون هناك. هذه ليست أولد ريمروك، يا صديقي... إنها هناك، يا صديقي، في الولايات المتحدة الأميركية. إنها تدخل ذلك العالم، ذلك العالم المجنون هناك، بكل ما فيه مما يجري هناك... فماذا تتوقّع؟ طفلة من أولد ريمروك في ولاية نيوجرسي... من الطبيعي ألّا تعرف كيف تتصرّف هناك. ومن الطبيعي أن تسوء أمورها. ما الذي كان ممكنًا أن تعرفه؟ لقد كانت أشبه بطفلة مجنونة بذلك العالم. لا تستطيع أن تنال كفايتها منه... لا تزال تمثّل ذلك الدور. غرفة بالقرب من شارع ماكارتر! ولم لا؟ لم لا تفعل ابنتك هذا؟ لقد أعددتَها لحياة تحلب فيها الأبقار! لأية حياة أعددتها؟ حياة غير طبيعية، مصطنعة كلّها، كلّها. وأنت... تلك الفرضيات التي تعيش معها! أنت لا تزال تعيش في عالم أحلام والدك، يا سايمور. أنت لا تزال هناك، مع لو ليفوف، في جنّة القفّازات. أسرة يسودُها طغيان القفازات، وتحطّمها القفّازات التي هي الشيء الوحيد في الحياة... القفّازات النسائية! ألا يزال أبوك يروي تلك القصّة العظيمة عن المرأة التي تبيع القفّازات وتغسل يديها في المغسلة بين كل لون وآخر؟ أوه، أين هي أميركا العتيقة تلك، أميركا المزخرفة تلك حيث تمتلك المرأة خمسة وعشرين زوجًا من القفّازات؟ ابنتك تنسف معايير تلك المملكة... وأنت، يا سايمور، لا تزال تظنّ أنك تعرف معنى الحياة».

ليست الحياة إلا برهة قصيرة من الزمن نكون فيها أحياء - ميريديث ليفوف، 1964.

«لقد أردتَ ملكة جمال أميركا، أليس كذلك؟ حسنًا، لقد حصلت عليها، مع انتقام... والانتقام هو ابنتك! أردت أن تكون بطلًا أميركيًا حقيقيًّا، جندي مشاة أميركيًا حقيقيًا، شخصية شهيرة أميركية حقيقية مع زوجة أميركية جميلة غير يهودية! أردت أن تنتمي، مثل أي شخص آخر، إلى الولايات المتحدة الأميركية. حسنًا، لقد صرت كذلك الآن، أيها الولد الكبير، بفضل ابنتك. لقد بلغتْ حقيقةُ طعم هذا المكان فمَك الآن. فبمساعدة من ابنتك، صرت غارقًا في الخراء إلى أقصى ما يمكن الغرق، غارقًا في الخراء الأميركي الحقيقي المجنون. السُّعار الأميركي! الهياج الأميركي! اللعنة على هذا، يا سايمور، اللعنة عليك إن كنت

أبًا يحبّ ابنته».

كان صوت جيري كالرعد في سمّاعة الهاتف... وإلى الجحيم بالمرضى الجالسين في الممرّ منتظرين أن يكشف طبيبهم على صمامات قلوبهم الجديدة، وعلى شرايينهم الجديدة، وأن يعبِّروا عن امتنانهم الشديد له لأنه ساهم في إطالة حياتهم. لكن جيري يصرخ ويصرخ بقدر ما يريد عندما يكون الصراخ هو ما يريد فعله. وإلى الجحيم بأنظمة المستشفى. إنه واحد من الجرّاحين الذين يصرخون: يصرخ إذا اختلفت معه. ويصرخ إذا مررت في طريقه. ويصرخ إذا كنت واقفًا هناك فقط من غير أن تفعل شيئًا. هو لا يفعل ما يطلب منه المستشفى فعله ولا ما يتوقّع منه الآباء فعله، ولا ما تتوقّع منه الزوجات فعله، بل يفعل ما يريد هو فعله. يفعله على هواه. ويظلّ طيلة اليوم يقول للناس ما هو ومن هو فلا يكون شيء مما يتعلّق به سرًا، لا آراؤه ولا الأشياء التي تزعجه، ولا دوافعه، ولا ما يشتهيه، ولا ما يكرهه. هو غير موارب في ميدان الإرادة، ولا هو بالمهادن: إنه ملك. هو لا ينفق الوقت في الندم على ما فعله أو على ما لم يفعله، ولا في التفتيش عن شيء يبرّر به للآخرين حقيقة أنه شخص كريه مزعج إلى هذا الحد. الرسالة بسيطة: عليكم أن تقبلوني كما أنا... ليس لديكم أي خيار. إنه لا يتحمّل ابتلاع أي شيء لا يعجبه. إنه يرميه فحسب.

وهذان الاثنان أخوان شقيقان من أب واحد وأم واحدة. أحدهما لا عدوانيةَ في طبعه أبدًا، وأما الآخر فالعدوانية جزء أصيل من طبعه. هو العدوانية نفسها.

صاح جيري بالسويدي: «لو كنت أبًا يحبّ ابنته لما تركتَها في تلك الغرفة أبدًا!... لما تركتها تغيب عن عينك أبدًا!».

السويدي يذرف الدمع خلف مكتبه كما لو أن جيري كان ينتظر هذه المكالمة طيلة حياته. شيء خارج السياق تمامًا جعله يغضب من أخيه الأكبر غضبًا شديدًا، ثم أتت هذه اللحظة التي جعلته لا يمتنع عن قول شيء. كان السويدي يقول في نفسه: انتظرَ طيلة حياته حتى ينقضّ عليَّ بهذه الأشياء الفظيعة. الناس لا يغفلون أبدًا... إنهم يأخذون ما تريده، ثم لا يعطونك إياه أبدًا.

قال السويدي: «لم أكن أريد تركها. أنت لا تفهم، أنت لا تريد أن تفهم. ليس هذا

ما جعلني أتركها. لقد قتلني تركها. أنت لا تفهمني، ولن تفهمني. لماذا تقول إنني لا أحبّها؟ هذا فظيع، هذا فظيع»... وفجأة يرى رذاذ قيئه على وجهها فيصيح... «كل شيء فظيع».

«لقد بدأْتَ تفهم الآن. جيّد! بدأتْ تظهر لدى أخي تباشيرُ وجهة نظر. إنها وجهة نظر تخصّه هو بدلًا من أن تكون وجهة نظر كل شخص غيره. بدأ يسلكُ مسلكًا مختلفًا عن مسلك المجموع. أنت الآن تحقّق شيئًا. صار التفكير أمرًا يقضُّ مضجعك بعض الشيء. كل شيء فظيع. نعم. فما الذي ستفعله حيال هذا؟ لا شيء! انظر... هل تريد مني أن آتي لآخذها من هناك؟ هل تريد مني أن آتي لآخذها؟ نعم أم لا؟».

«لا».

«فلماذا تتّصل بي إذًا؟».

«لست أدري. حتى تساعدني».

«لا يستطيع أحد مساعدتك».

«أنت رجل قاسٍ. أنت رجل قاسٍ معي».

«صحيح. لا أبدو في مظهر حسن. لا أبدو كذلك أبدًا. اسأل والدنا إن كنت أبدو كذلك. أنت هو من يبدو بمظهر حسن دائمًا؛ فانظر إلى أين أوصلك هذا؟ ترفض أن تسيء إلى أحد. تلوم نفسك. لديك احترام متسامح تجاه كل شيء. بالتأكيد، هذا شيء 'ليبرالي'... أعرف أنك أب ليبرالي. لكن، ما معنى هذا؟ ما الذي في جوهره؟ تحرص دائمًا على التوفيق بين الأمور كلّها. فانظر إلى أين وصل بك هذا؟».

«أنا لم أصنع الحرب في فيتنام. وأنا لم أصنع الحرب في التلفزيون. أنا لم أجعل ليندون جونسون ليندون جونسون. أنت تنسى أين بدأ هذا؟ لماذا وضعتْ تلك القنبلة؟ إنها الحرب اللعينة».

«لا، أنت لم تصنع الحرب. لقد صنعتَ الطفلة الأكثر حَنقًا في أميركا. منذ أن كانت طفلة صغيرة، كانت كل كلمة تقولها أشبه بقنبلة».

«أعطيتُها كل ما استطعت إعطاءه... كل شيء، كل شيء. أعطيتُها كل شيء.

أقسم أنني أعطيتها كل شيء».

صار الآن يبكي بسهولة، وما عاد هناك خط فاصل بينه وبين بكائه؛ فيا لها من تجربة مدهشة!... صار يبكي كما لو أن البكاء على هذا النحو كان هدف حياته الكبير، كما لو أن البكاء على هذا النحو كان طموحًا يتمسك به أشد تمسك، ثم حققه آخر الأمر. وصار الآن يتذكّر كل شيء أعطاه وكل شيء أخذتْه، الإعطاء التلقائي تمامًا، والأخذ الذي ملأ حياتهما. وذلك اليوم الذي صار بغيضًا في نظرها، الذي صار بغيضًا على نحو لا سبيل إلى تفسيره، لا سبيل إلى تفسيره أبدًا (على الرغم من كل ما يقوله جيري، وعلى الرغم من كل ذلك اللوم الذي يسرّه الآن أن يقذف السويدي به). «أنت تتكلّم على ما أتعامل معه اليوم كما لو أن أي شخص يستطيع التعامل معه. لكنْ، ما من أحد أبدًا يستطيع التعامل معه».

«ما من أحد! ما من أحد لديه الأسلحة المناسبة لهذا. أتظنني عاجزًا؟ أتظنني غير قادر؟ إذا كنت غير قادر، فمن أين تأتي ببشر قادرين... إذا كنتُ... هل تفهم ما أقوله لك؟ ما الذي يفترض أن أفعله؟ وماذا يكون الناس الآخرون إذا كنت أنا غير قادر».

«أوه، إنني أفهمك».

كان البكاء السهل، على الدوام، صعبًا على السويدي مثل صعوبة أن يفقد توازنه وهو سائر، أو أن يتعمّد ممارسة تأثير سيئ على شخص ما. بل كانت سهولة البكاء شيئًا يكاد يحسد عليه الآخرين أحيانًا. لكنْ، ومهما تكن القطع والأجزاء الباقية من الحاجز الرجولي الكبير الذي يحول دون البكاء، فقد قوّضتها استجابة أخيه تجاه ألمه. بدأ يقول له: «إذا كان ما تقوله لي هو ما كنتُه حقًّا... إذا كان ما كنته غير... إذا كان ما كنته غير كافٍ، فإنني... فإنني... فإنني أقول لك إن ما من أحد لديه ما يكفي».

«لقد فهمتني! بالضبط! نحن غير كافيَيْن. لا أحد منا يستطيع أن يكون كافيًا!... بما في ذلك الرجل الذي يفعل كل شيء على الوجه الصحيح! يفعل كل شيء على الوجه الصحيح»... قالها جيري بنبرة تقزز... «ويمضي في هذا العالم وهو يقوم بالأشياء الصحيحة. انظر، هل ستتخلّى عن المظاهر وتفرض إرادتك

على ابنتك، أم إنك لن تفعل هذا؟ هذا ما كنت تفعله في الملعب. هكذا تفرض إرادتك وتسجّل النقاط، فهل تتذكّر؟ كنت تضع إرادتك في مواجهة إرادة اللاعب الآخر، وكنت تسجّل نقطة. تظاهر بأنها لعبة، إن كان التظاهر يساعدك. لكنه لا يساعدك. عندما يكون الأمر متعلّقًا بنشاط ذكوري مألوف، فإنك تكون الرجل الذي يُقدم على الفعل؛ لكن هذا ليس بالنشاط الذكوري المألوف. لا بأس. أنت غير قادر على رؤية نفسك تفعل هذا. لست قادرًا إلا على رؤية نفسك تلعب الكرة وتصنع القفّازات وتتزوّج ملكة جمال أميركا. أنت مع ملكة جمال أميركا في غاية السرور، أو في غاية الملل. أنت تلعب لعبة محاولة أن تكون من الأميركيين البيض الموسرين، فتاة جميلة من بلدة إليزابيث وفتى يهودي من مدرسة ويكاهيك الثانوية. والأبقار. مجتمع الأبقار! أميركا المستوطنين القديمة. كنت تظن أن تلك الواجهة يمكن أن تكون من غير تكلفة. امرأة بريئة غير يهودية. لكن لذلك تكلفة أيضًا، يا سايمور... تكلفة تبلغ إلقاء قنبلة. تكلفة تبلغ أن تلقي ابنتك قنبلة. سأصير جاينيةً وأعيش في نيوارك. ذلك الهراء كلّه عن أن يكون أبي أميركيًا أبيض مسيحيًا موسرًا! لم أكن أعرف أنك أعمى تمامًا، في داخلك. لكنك أعمى إلى هذا الحد. كان أبونا يحيط بك من كل ناحية، من أجل مصلحتك. ماذا تريد، يا سايمور؟ أتريد أن تتخلّص من الأمر كلّه؟ هذا أيضًا شيءٌ لا بأس به. لو كان أي شخص آخر في مكانك، لتخلّص من الأمر كلّه منذ زمن طويل. هيا، وتخلّص منه. اعترف بأنها تزدري حياتك، وتخلّص من الأمر. اعترف بأن فيك شيئًا شخصيًا جدًّا يجعلها تكرهك، وتخلّص من الأمر اللعين كلّه، واقبل ألا ترى تلك العاهرة مرة أخرى. اعترف بأنها وحش، يا سايمور. حتى الوحش، لا بد له أن يكون آتيًا من مكان ما... حتى الوحش، لا بد أن يكون له أب وأم. لكن الأب والأم لا يريدان وحوشًا. تخلّص من الأمر! وأما إذا لن تتخلّص منه، إذا كان هذا ما تتّصل لتخبرني به، فاذهب - اذهب بحق الرب - اذهب إليها وخذها. سأذهب بنفسي وآخذها. ما رأيك في هذا؟ هذه هي الفرصة الأخيرة. العرض الأخير. إذا كنت تريد مجيئي، فسوف أنتهي من المرضى الذين عندي وآخذ أول طائرة آتية إليك وأذهب إلى ذلك المكان

وأخرجها منه - أؤكد لك هذا - سأخرجها من غرفتها في شارع ماكارتر، تلك القذرة الصغيرة، تلك القذرة الأنانية الملعونة الصغيرة التي تتلاعب بك! لن تستطيع التلاعب بي. أؤكد لك هذا. هل تريد أن آتي، أم لا تريد؟».

«لا أريد هذا». لا يعرف جيري الأشياء التي يظنّ أنه يعرفها. يظنّ أن الأشياء مترابطة كلها. لكن، ما من ترابط بينها. ما الرابط بين أسلوب عيشنا وما فعلته؟ ما الرابط بين مكان نشأتها وما فعلته؟ أمور لا ترابط بينها، مثل أي شيء آخر... هذا كله جزء من الخليط الفوضوي نفسه! إنه الشخص الذي لا يعرف شيئًا. جيري يتشدق بالكلام. يظنّ جيري أنه قادر على الإفلات من الحيرة عن طريق التشدّق والصياح، لكن كل ما يصيح به غير صحيح. لا شيء من هذا صحيحًا أبدًا. الأسباب، والإجابات الواضحة، ومن يتعيّن توجيه اللوم إليه. الأسباب! لكنْ، ما من أسباب هنا. إنها مجبرة على أن تكون كما هي. كلّنا مجبرون. الأسباب موجودة في الكتب فقط. هل يمكن لأسلوب عيش أسرتنا أن يرتد علينا متّخذًا هيئة هذا الرعب العجيب؟ هذا غير ممكن. وهو لم يرتد علينا. هذا ليس ارتدادًا. يحاول جيري عقلنة الأمر، لكن هذا غير ممكن. المسألة كلها شيء آخر، شيء لا يعرف جيري أي شيء عنه. لا يعرف أحد أي شيء عنه. إنه أمر غير عقلاني. إنه عماء وفوضى. عماء من البداية إلى النهاية.

قال السويدي لأخيه: «لا أريد هذا. لا أستطيع أن أقبل هذا».

«هل تراه مفرطًا في القسوة؟ مفرطٌ في القسوة... في هذا العالم! ابنتك قاتلة، لكن هذا شديد القسوة! أنت مدرّب في قوات مشاة البحرية، لكن هذا شديد القسوة. لا بأس، لا بأس أيها السويدي العظيم، لا بأس أيها العملاق القوي. إن غرفة الانتظار عندي مليئة بالمرضى. تدبّر أمرك وحدك».

الجزء الثالث

الفردوس المفقود

في مطبخ حانة بائسة خالٍ من الروح الودية التي كانت سائدة في مطبخ بيت المسنين، عملت ميري في غسل الأطباق حتى تجني المال اللازم للسفر إلى أوريغون. لم يكن لديها في شيكاغو صديق تستفيد من نصائحه. وكانت خائفة من

محاولة التواصل مع المنظمات السرية في المدينة خشية من أن تقوم بشيء خاطئ يؤدي إلى اعتقالها. كانت خائفة حتى من استخدام هاتف مسبق الدفع للاتصال بصديقها في إنديانابوليس. (اغتصبت مرة أخرى في رابع بيت استأجرت فيه غرفة لإقامتها)؛ لكن مالها لم يُسرق هذه المرة. وبعد ستة أسابيع من العمل في غسل الأطباق تمكّنت من جمع المال الكافي للتوجّه إلى «الكومونة».

كانت الوحدة تكتنفها من كل جانب في شيكاغو حتى أحسّت كأنها صارت نهرًا جاريًا في داخلها. لم يمر عليها يوم واحد - بل لم تمر عليها ساعة واحدة في بعض الأيام - لم تخرج فيه للاتصال ببيتها في أولد ريمروك. لكنها، وقبل أن يؤدّي تذكّرها غرفة طفولتها إلى ثني عزمها عن الاتصال، تعثر على مطعم صغير أو على كشك يبيع الطعام فتجلس وتطلب لنفسها شيئًا تأكله وكأسًا من الحليب بالفانيلا. تقول تلك الكلمات المألوفة، وتراقب شرائح البيكون تتلوى على لوح الشَّي، وتنتظر أن ينتهي تحميص الخبز، ثم تأكل سندويتشها وتتناول رشفات من كأسها وتركّز على مضغ عروق الخس التي لا طعم لها وتستخلص بقع الدهن ذات النكهة الدخانية من شريحة البيكون المحمَّصة وعصير قطع الطماطم الطرية، ثم تبتلع ذلك كله مع قضمة من الخبز بالمايونيز وتمضغ لقمتها بصبر مستخدمة فكيها وأسنانها وتسحق كل ما في فمها حتى يصير علفًا يقيتها - تركّز على سندويتش البيكون مع الطماطم والخس تركيزًا ثابتًا مثلما تركز بقرات أمها على علفها الموضوع أمامها - فيزوِّدها ذلك كله بالشجاعة اللازمة للمتابعة وحدها. تأكل السندويتش وتشرب كأس الحليب بالفانيلا وتتذكّر كيف وصلت إلى حيث هي، ثم تتابع. وعندما جاء وقت مغادرتها شيكاغو، كانت قد اكتشفت أنها لم تعد في حاجة إلى منزل: لن تسمح لنفسها بعد الآن بأن تخضع لحنينها إلى الأسرة والبيت. شاركت في تفجيرين آخرين في أوريغون.

بدلًا من جعلها تتوقّف، لم يؤد مقتل الطبيب فرد كونلون إلا إلى تقوية الحافز الذي يدفعها. بدلًا من أن يقيّدها تأنيب الضمير بعد مقتل فرد كونلون، تخلّصت من كل ما كان باقيًا لديها من خوف ومن وخز ضمير. لم يعلّمها هول ارتكاب

القتل - وإن كان ذلك قد حدث من غير قصد فقُتلَ رجل بريء، رجل طيب يصعب توقّع أن تعرف رجلًا أحسن منه - إلى تعليمها أي شيء عن أكثر المحظورات أهمية، عن ذلك المحظور الذي كان من المذهل تمامًا أنّ تنشئتها على يد داون وعلى يده لم تساعدها في تعلّم التقيّد به. لم يؤدِ مقتل كونلون إلا إلى زيادة حماستها الثورية المثالية التي لا تتورّع عن اللجوء إلى أية وسيلة لمهاجمة النظام الآثم، مهما تكن تلك الوسيلة. لقد أثبتت أن كونها حائزة على كل ما هو جيد في أميركا البيضاء لم يكن يساوي حتى تلك الكتابة الجدارية على حائط غرفة نومها.

قال لها: «هل أنت من زرع القنبلتين؟».

«أنا من فعل هذا».

«هل زرعتِ قنبلة هاملين وقنبلة أوريغون؟».

«صحيح».

«هل قتل أحد في أوريغون؟».

«أجل».

«من؟».

«ناس».

«ناس!»... كرّرها من خلفها... «كم شخصًا كانوا يا ميري؟».

قالت: «ثلاثة أشخاص».

كان الطعام وافرًا في «الكومونة». كانوا يزرعون القسم الأكبر مما يأكلون. فلم تعش لديهم فقرًا كالذي عاشته أول ذهابها إلى شيكاغو عندما كانت تخرج في الليل فتبحث عن بقايا خضار ذابلة أمام المتاجر. وفي «الكومونة» بدأت تنام مع امرأة وقعت في هواها وكانت زوجة حائك تعلّمت ميري استخدام نوله في أوقات فراغها من العمل على القنابل. صار تجميع القنابل اختصاصها بعد أن نجحت في زرع قنبلتيها الثانية والثالثة. لقد أحبت الدقة والصبر اللذين لا بد منهما لوصل أصابع الديناميت بكبسولة التفجير وصلًا آمنًا، ثم وصل كبسولة التفجير بساعة التوقيت المشتراة من سوبر ماركت وولوورث. بدأ اختفاء التأتأة

في ذلك الوقت. لم تكن تتأتئ أبدًا عند عملها على الديناميت.

ثم حدث شيء بين المرأة وزوجها: مشادّة عنيفة جعلت ميري مضطرة إلى ترك «الكومونة» حتى تستطيع العيش في سلام.

عملت في حقول البطاطس أثناء اختبائها في شرق ولاية آيداهو. ثم قرّرت الفرار إلى كوبا. بدأت تدرس اللغة الإسبانية في الليل في برّاكات النوم في المزرعة. جعلها عيشها في تلك المزرعة مع بقية العمال تشعر بمزيد من الالتزام الحماسي بمعتقداتها، على الرغم من أن الرجال هناك كانوا مخيفين عندما يسكرون. ومن جديد، وقعت حوادث جنسية أخرى. كانت مقتنعة بأنها ستكون قادرة على العيش بين العمال في كوبا من غير أن تخشى منهم عنفًا. في كوبا، ستصير قادرة على أن تكون ميري ليفوف بدلًا من ميري ستولتز.

بحلول هذا الزمن، كانت قد توصّلت إلى أنّ من غير الممكن أبدًا قيام ثورة في أميركا لاجتثاث قوى العنصرية والرجعية والجشع. كانت حرب عصابات المدن سلاحًا عقيمًا في مواجهة قوة نووية عظمى لا يردعها رادع عن فعل أي شيء للدفاع عن مبدأ الربح. وبما أنها غير قادرة على المساهمة في إحداث ثورة في أميركا، صار أملها الوحيد كامنًا في أن تهِب نفسها لثورة قائمة بالفعل. سيكون ذلك نهاية منفاها وبداية حياتها الحقيقية.

كرّست السنة التي أعقبت ذلك لاستكشاف طريقها إلى كوبا، إلى فيديل كاسترو الذي حرّر البروليتاريا واجتث الظلم بالاشتراكية. لكنّ أول احتكاك قريب لها مع الـ«إف بي آي» كان في فلوريدا. كانت في ميامي حديقة غاصة باللاجئين من الدومينيكان. كان ذلك مكانًا مناسبًا للتمرّن على اللغة الإسبانية؛ وسرعان ما وجدت نفسها تعلم الفتيان هناك اللغة الإنكليزية. أحبّوها وسموها «لا فارفولا»، أي المتأتئة؛ لكن هذا لم يمنعهم من التشاقي والتأتأة عندما يكررون من خلفها الكلمات الإنكليزية التي تعلّمهم إياها. كان كلامها بالإسبانية طلقًا، من غير تأتأة. هذا سبب وجيه آخر يدفعها إلى الفرار إلى حضن الثورة العالمية.

قالت ميري لأبيها إنها انتبهت في يوم من الأيام إلى متسكّع أسود شاب جديد في تلك الحديقة. كان يراقبها وهي تعلّم الفتيان. أدركت معنى ذلك على الفور. قبل

ذلك، ظنّت ألف مرة أن مَن حولها كانوا من الـ«إف بي آي»؛ وكانت مخطئة ألف مرة... في أوريغون، وآيدون، وفي كنتاكي، وفي ميريلاند. كانت تظن أن عناصر الـ«إف بي آي» يراقبونها في المتاجر التي عملت فيها، ويراقبونها في المطاعم والكافتيريات التي غسلت الأطباق فيها، ويراقبونها في الشوارع التي عاشت فيها، ويراقبونها في المكتبات التي كانت تختبئ فيها وتقرأ الصحف وتدرس أعمال المفكرين الثوريين وتستوعب أفكار ماركس وماركوزه ومالكولم إكس وفرانز فانون، المنظّر الفرنسي الذي كانت عباراته أشبه بابتهالات تتلوها قبل نومها كأنها أقراص فيتامينات فتغذيها مثلما يغذيها طقسها المقدس، طقس تناول الحليب بالفانيليا وأكل سندويتشات البيكون بالخس والطماطم. عليها أن تتذكّر دائمًا أن المرأة الجزائرية الملتزمة تتعلم، غريزيًا، كلًا من مهمتها الثورية ودور «المرأة الوحيدة في الشارع». ليست المرأة الجزائرية عميلًا سرّيًا. هذا أمر يحدث من غير تدريب، ومن غير دروس، ومن غير جلبة. فتخرج المرأة إلى الشارع حاملة ثلاث قنابل في حقيبة يدها. لا يكون لديها إحساس بأنها تمثل دورًا، وليست لديها شخصية تؤدّيها. بل على العكس من ذلك، لأن هناك كمية مكثفة من الدراما، واتصالًا مستمرًا بين المرأة والثورة، ترتقي المرأة الجزائرية مباشرة إلى مستوى المأساة.

كان يفكر: وأما فتاة نيوجرسي فتنحدر إلى مستوى الحماقة. فتاة نيوجرسي التي أرسلناها إلى مدرسة مونتيسوري لأنها لامعة الذكاء. فتاة نيوجرسي التي لم تكن تحرز في مدرسة موريستاون الثانوية إلا أعلى الدرجات. فتاة نيوجرسي ترتقي مباشرة إلى مستوى التمثيل المخزي. فتاة نيوجرسي ترتقي إلى مستوى الخلل العقلي.

كانت تظنّ أنها ترى الـ«إف بي آي»، في كل مكان، وفي كل مدينة قصدتها للاختباء فيها - لكنهم لم يكتشفوها إلا في ميامي وهي تتأتئ على مقعد حديقة محاولةً تعليم الفتيان الكلام بالإنكليزية -. لكن، كيف لها ألا تعلّمهم؟ كيف لها أن تُعْرِض عن أولئك الذين ولدوا معدمين ولم يرتكبوا إثمًا، أولئك الذين يبدون كما لو أنهم قمامة بشرية، حتى في نظرهم هم أنفسهم؟ في اليوم التالي، عندما أتت

إلى الحديقة فوجدت المتسكّع الشاب نفسه يتظاهر بالنوم على أحد المقاعد تحت غطاء من أوراق الصحف، ما كان منها إلا أن استدارت عائدة إلى الشارع وبدأت الجري ولم تتوقّف إلى أن رأت امرأة عمياء تتسوّل في الشارع، امرأة سوداء ضخمة معها كلب. كانت تلك المرأة تهز فنجانًا فيه قطع نقدية صغيرة وتقول بصوت خافت: «عمياء، عمياء، عمياء».

رأت ميري على الرصيف، عند قدمي تلك المرأة، معطفًا صوفيًا مهلهلًا أدركت أنها قادرة على أن تختبئ فيه. لكنها لم تستطع أخذه من غير مقدمات، فسألت المرأة إن كانت توافق على مساعدتها في التسول. وافقت المرأة، فسألتها ميري إن كانت تسمح لها بارتداء معطفها وبوضع نظارتها السوداء. أجابتها المرأة: «لك ما تريدين، يا عزيزتي». وهكذا، وقفت ميري، في شمس ميامي، مرتدية ذلك المعطف الصوفي الثقيل ووضعت النظارة السوداء، وراحت تهز فنجان المرأة التي واصلت ترنيمها «عمياء، عمياء، عمياء». أمضت تلك الليلة وحيدة تحت أحد الجسور، لكنها عادت في اليوم التالي لكي تتسوّل مع المرأة السوداء وتنكّرت في معطفها ونظارتها من جديد. وفي آخر المطاف، ذهبت للعيش معها والعناية بها وبكلبها.

كان ذلك عندما بدأت تدرس الأديان. وكانت بونيس، المرأة السوداء، تغني لها في الصباحات عندما يستيقظ النائمون في السرير ثلاثتهم، بونيس وميري والكلب. لكن بونيس أصيبت بالسرطان وماتت، فكانت تلك أسوأ الأيام: العيادات، والمستشفى، والجنازة التي كانت ميري المشيّع الوحيد فيها. فقدت الشخص الذي أحبته أكثر من أي شخص آخر في العالم... كان هذا أكثر الأشياء قسوة على الإطلاق.

خلال أشهر احتضار بونيس، عثرت ميري في المكتبة على الكتب التي جعلتها تترك الديانتين اليهودية والمسيحية تركًا نهائيًا وتجد طريقها إلى الواجبات الأخلاقية العليا في الديانة الجاينية، الإجلال المنهجي للحياة والالتزام بالامتناع عن أذية أي كائن حي.

لم يعد والدها يتساءل عن اللحظة التي فقد فيها القدرة على التحكّم بحياتها؛ ولم

يعد يفكر في أن كل ما فعله في حياته كان من غير طائل، وفي أنها واقعة تحت سلطان شيء فاقد العقل. لقد صار يفكّر في أن ميري ستوليز هذه ليست ابنته، وذلك لسبب بسيط ألا وهو أن ابنته ما كانت تستطيع امتصاص هذا القدر كله من الألم. لقد كانت طفلة من أطفال ريمروك، طفلة ذات امتيازات، طفلة من الجنة. ما كان ممكنًا أن تعمل في حقول البطاطا، ولا أن تنام تحت الجسور، ولا أن تمضي خمس سنين خائفة من الاعتقال. ما كان ممكنًا أبدًا أن تستطيع النوم مع المرأة المتسوّلة العمياء وكلبها. إنديانابوليس، شيكاغو، بورتلاند، أيداهو، كنتاكي، ميريلاند، فلوريدا... أبدًا، لا يمكن أن تكون ميري قد عاشت وحدها في تلك الأماكن كلّها، أن تكون قد عاشت فيها متشرّدة منعزلة تغسل الأطباق وتختبئ من الشرطة وتبني صداقات مع المعدمين على مقاعد الحدائق. وما كان يمكن أبدًا أن ينتهي بها الأمر إلى نيوارك. لا. أن تعيش ستة أشهر على مسافة عشر دقائق فقط؛ وأن تمشي إلى منطقة آيرونباوند عبر ذلك النفق؛ أن تضع هذا اللثام وتسير وحدها كل صباح وكل ليل فتمرّ بأولئك المتشرّدين المنبوذين كلّهم وبتلك القذارة كلها!... لا! لقد كانت القصّة كلّها كذبة لا غاية منها إلا تدمير من يرونه وغدًا شريرًا، تدميره هو. لقد كانت القصّة كاريكاتيرًا. كانت كاريكاتيرًا متقنًا مثيرًا. وكانت هي ممثّلة. كانت هذه الفتاة ممثّلة محترفة استأجروها وكلفوها بتعذيبه لأنه يمثّل كل ما هو غير موجود فيهم. أرادوا أن يجهزوا عليه بقصة الفتاة المنفية الطريدة في البلد نفسه الذي نجحت أسرتها في مد جذورها فيه بكل طريقة ممكنة. وهكذا، فقد رفض الاقتناع بأي شيء مما قالته له. كان يفكر: الاغتصاب؟ القنابل؟ هدف سهل لكل رجل مجنون؟ كان هذا شيئًا أكبر من المشقّة. كان هذا جحيمًا. وما كان ممكنًا أن تظلّ ميري حيّة بعد أي شيء من هذا كلّه. ما كان ممكنًا أن تظلّ حيّة بعد أن تقتل أربعة أشخاص. ما كان ممكنًا أن تقتلهم بدم بارد ثم تظلّ حيّة بعد ذلك.

وعندها، أدرك أنها لم تعد حيّة. مهما تكن الحقيقة، ومهما يكن ما أصابها حقًّا، فقد ساقها تصميمها على أن تترك خلفها حياة والديها الوضيعة الجديرة بالازدراء، أن تتركها خرابًا... ساقها هذا التصميم إلى كارثة تدمير نفسها.

بالطبع، كان ممكنًا أن يحدث لها هذا كلّه. ففي كل يوم تحدث أشياء من هذا القبيل في كل مكان على سطح الأرض. لم تكن لديه أية فكرة كيف يتصرّف الناس في هذه الحالات.

«أنت لستِ ابنتي. أنت لستِ ميري».

«إذا كنت راغبًا في تصديق أنني لست ابنتك، فمن الممكن أن يكون هذا مناسبًا أيضًا. بل قد يكون هذا هو الأفضل».

«لماذا لا تسأليني عن أمك، يا ميريديث؟ أليس لي أن أسألك هذا السؤال؟ أين ولدت أمك؟ وما اسم عائلتها قبل الزواج؟ ما اسم أبيها؟».

«لست راغبة في الحديث عن أمي».

«لأنك لا تعرفين شيئًا عنها. لا تعرفين شيئًا عن الشخص الذي تتظاهرين بأنك هو. أخبريني عن البيت الذي عند شاطئ البحر. أخبريني باسم معلّمتك في الصف الأول. من هي معلمتك في الصف الثاني؟ أخبريني بالسبب الذي يجعلك تتظاهرين أنك ابنتي؟».

«سوف تزداد معاناتك إذا أجبت عن هذه الأسئلة. لست أدري مقدار المعاناة الذي تريده».

«أوه، لا تشغلي بالك بأمر معاناتي، يا آنسة... أجيبي عن الأسئلة فقط. لماذا تتظاهرين بأنك ابنتي؟ من أنت؟ من هي ريتا كوهن؟ ما الذي تخططان له؟ أين هي ابنتي؟ سوف أخبر الشرطة بهذه القصة ما لم تخبريني الآن بما يجري هنا وبمكان ابنتي».

«لا شيء مما أفعله الآن واقع تحت طائلة القانون، يا بابا».

هذه الشكلية القانونية الفظيعة. وكأن الجاينية اللعينة لم تكن كافية حتى تقذفه بهذا الخراء أيضًا. قال لها: «لا، لا يحاسب عليه القانون... إنه ليس الآن أكثر من أمر فظيع مفزع! فماذا عما فعلته من قبل؟».

أجابت: «قتلت أربعة أشخاص». قالتها ببراءة كما لو أنها تقول له: «خبزت فطائر حلوة بعد ظهر اليوم».

صاح بها: «لا!»... الجاينية، والتمسّح بالقانون، والبراءة الخانقة، كلّها ناتجة

عن يأسها، وكلّها حتى تبعد نفسها عن الأربعة الذين قتلوا... «لا يصلُح هذا! أنت لست امرأة جزائرية! وأنت لست من الجزائر، وأنت لست من الهند! أنت فتاة أميركية من أولد ريمروك في ولاية نيوجرسي! أنت فتاة أميركية مضطّربة عقليًا... مضطربة كثيرًا! أربعة أشخاص! لا!»... الآن، صار هو من يرفض تصديق الأمر؛ الآن، صار هو من لا يعني له الإحساس بالذنب شيئًا، ولا يمكن أن يعني شيئًا. لقد كانت في نعيم لا يمكن معه أن يكون هذا صحيحًا. ومثلها كان هو. لا يمكن أبدًا أن يكون أبًا لطفلة تقتل أربعة أشخاص. كل ما قدّمتْه الحياة لها، وكل ما وفّرته الحياة لها، وكل ما طالبتها الحياة به، وكل ما حدث لها منذ يوم مولدها يجعل هذا الأمر مستحيلًا. قتل بشر؟ لم تكن هذه واحدة من مشكلاتهم. لقد كانت الحياة رحيمة بهم فحذفت القتل. قتل الناس... كان هذا بعيدًا كل البعد عما كان مقدّرًا فعله لأفراد عائلة ليفوف. لا، هذه ليست ابنته، ولا يمكن أن تكون... «إذا كنتِ شديدة التمسك بعدم الكذب وبعدم أخذ شيء، كبيرًا كان أو صغيرًا... وذلك الكلام الفارغ كله - كلام فارغ لا معنى له أبدًا، يا ميري -، فإنني أتوسّل إليك أن تقولي لي الحقيقة».

«الحقيقة بسيطة. ها هي الحقيقة. يجب أن تتخلّص من الأنانية والرغبات».

صاح: «ميري، ميري، ميري»، وانفلت فيه ما ليس له قيد يعقله، وصار غير قادر عن الامتناع عن الهجوم، فانقض بعضلاته الرجولية كلّها على تلك المتكومة هناك، فوق الفراش المتّسخ... «ذلك لم يكن أنت! لا يمكن أن تكوني قد فعلت هذا!». لم تقاومه أبدًا عندما نزع عن وجهها لثامها المصنوع من قطعة من جورب نسائي. كانت ذقنها في موضع الكعب من الجورب. لا شيء أكثر نتانة من المكان الذي كانت قدمكَ فيه؛ لكنها وضعته على فمها. كنا نحبها. وكانت تحبنا... وأما نتيجة هذا، فهي أنها تضع جوربًا على وجهها. صاح بها آمرًا: «تكلّمي الآن!».

لكنها لم تقل شيئًا. فتح فمها عنوة متجاهلًا ذلك الخط الذي لم يتجاوزه من قبل أبدًا... الامتناع عن العنف. كان ذلك نهاية كل تفاهم. وما عاد هنالك سبيل لأي تفاهم، حتى مع معرفته بأن العنف غير إنساني ولا طائل منه وأن التفاهم (الكلام

العاقل بين الطرفين مهما طال زمنه قبل التوصّل إلى اتفاق) هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحقّق نتيجة دائمة. الأب الذي لم يستطع أبدًا إبداء أي عنف تجاه طفلته... الأب الذي كان استخدام القوة في نظره تجسيدًا للإفلاس الأخلاقي... ذلك الأب هو من فتح فمها عنوة بأصابعه وأمسك بلسانها. كان واحد من أسنانها الأمامية مفقودًا... سن من أسنانها الجميلة. هذا يثبت أنها ليست ميري. سنوات من استخدام جسور تقويم الأسنان، والمثبتات، والجسور الليلية، وتلك الأدوات كلّها لكي يصير إطباق أسنانها سليمًا، لكي تحافظ على لثتها، لكي تجعل ابتسامتها أجمل... لا يمكن أن تكون هذه هي الفتاة نفسها.

أمرها: «تكلّمي!»... وأخيرًا، بلغته رائحتها الحقيقية، أسوأ رائحة يمكن أن تكون لإنسان. رائحة ليس أسوأ منها شيء غير رائحة الأحياء المتعفّنين، والموتى المتعفّنين. الأمر الغريب أنه لم يشم شيئًا قبل تلك اللحظة على الرغم من قولها له إنها لا تستحم حتى لا تؤذي الماء. لم يشم رائحتها عندما تعانقا في الشارع، ولا عندما جلس في العتمة قبالة فراشها. لم يشم شيئًا غير رائحة شيء حامض مُغثٍ غير مألوف عزاها إلى ذلك المبنى الغارق في البول. لكن ما شمّه الآن وهو يفتح فمها كان رائحة الإنسان، لا رائحة المكان... رائحة إنسان مجنون يتمرّغ في قاذوراته مستمتعًا بها. وصلتهُ قذارتها. إنها مقزّزة. ابنته بقايا إنسان يفوح برائحة بقايا بشرية. رائحتها رائحة كل شيء عضوي متفسّخ. إنها رائحة عدم الترابط. إنها رائحة ما صارت عليه. كانت قادرة على فعل هذا؛ وقد فعلته. إن هذا الإجلال للحياة - على طريقتها - ليس إلا أقصى درجة من درجات الفحش.

حاول تحديد مكان عضلة في مكان ما في رأسه لإغلاق فتحة بلعومه... شيء لإيقافه والحيلولة دون مزيد من انزلاقهما في القذارة، لكنه لم يعثر على تلك العضلة. اندفع مزيج من العصارات المعدية والطعام غير المهضوم صاعدًا إلى بلعومه فانبثق فوق لسانه تيارًا مرًّا حامضيًا. وعندما صاح بها: «من أنت؟»، تناثر ذلك التيار على وجهها مع كلماته.

كان يعرفها تمام المعرفة حتى في عتمة تلك الغرفة عندما كان فوقها. وما كان

ضروريًا لها أن تتكلّم بعد أن صار وجهها مكشوفًا، حتى تخبره بأن ما لا يمكن تفسيره قد حلّ، إلى الأبد، محلّ ما ظنّ مرة أنه يعرفه. إن كانت لم تعد موسومة بأنها ميري ليفوف من خلال تأتأتها، فقد ظلت عيناها وسمًا لا يمكن أن يخطئه. في محجري عينيها الكبيرين المنحوتين نحتًا، كانت العينان عينيه هو. كان الطول طوله، وكانت العينان عينيه. كانت كلّها هو، له. والسن المفقودة كانت مقتلعة، أو مكسورة.

لم تنظر إليه عندما ابتعد عنها متراجعًا صوب الباب، بل راحت تتلفّت من حولها قلقة كما لو أنها في خوف شديد من أن يكون قد أوقع شيئًا من الأذى بالكائنات المجهرية المسالمة التي تعيش معها في هذه العزلة.

أربعة أشخاص قتلتهم. لا عجب أبدًا في أنها قد اختفت. لا عجب أبدًا في أنه قد اختفى. لقد كانت هذه الفتاة ابنته؛ وقد كانت فتاة مجهولة تمامًا. هذه الجرائم جرائمي أنا. كان قيؤه على وجهها، على ذلك الوجه الذي صار الآن - باستثناء العينين - أبعد ما يكون عن أن يشبه وجه أمها، أو عن أن يشبه وجهه. كان اللثام قد انتزع عن وجهها، لكن لثامًا آخر كان خلف ذلك اللثام. ألم يكن لثامًا موجودًا دائمًا؟

قال متوسّلًا: «تعالي معي».

«اذهب أنت، يا بابا. اذهب».

«ميري، أنت تطلبين مني فعل شيء مؤلم إلى حد فظيع. تطلبين مني أن أتركك بعد أن وجدتك. أرجوك»... عاد إلى التوسّل... «تعالي معي. تعالي إلى البيت».

«بابا، دعني كما أنا».

«لكن عليّ أن أراك. لا أستطيع تركك هنا. يجب أن أراك».

«لقد رأيتني. أرجوك، اذهب الآن. إذا كنت تحبّني، يا بابا، فسوف تتركني في حالي».

ابنة المرء... أكثر البنات كمالًا... قد اغتُصبت.

ما كان قادرًا على التفكير في شيء غير تلك المرتين التي اغتصبت فيهما.

أربعة أشخاص قتلتهم قنابلها... أمر شديد الغرابة، خارج السياق، لا يمكن تخيّله. لا بد أنه كذلك. رؤية الوجوه، وسماع الأسماء، ومعرفة أن أحدهم كان متزوجًا حديثًا، والأخرى كانت أمًا لثلاثة أولاد، والثالثة على وشك التقاعد... هل كانت تعرف عنهم شيئًا، أو هل كانت تعرف من هم... هل كانت مبالية بمعرفة من هم...؟ لم يكن قادرًا على تخيّل شيء من هذا. وما كان مستعدًا له. وحده الاغتصاب كان شيئًا يستطيع تخيّله. تخيّل الاغتصاب واختفت الأشياء الأخرى كلها: ظلّت وجوههم خارج نطاق رؤيته، ونظاراتهم، وتسريحات الشعر، وعائلاتهم، ووظائفهم، وتواريخ ميلادهم، وعناوين سكنهم، وبراءتهم التي لم ترتكب ذنبًا.

لم يكونوا فرد كونلون واحدًا... أربعة فرد كونلون، أربعة أشخاص.

الاغتصاب. جعلَ الاغتصاب كل شيء آخر مشوشًا. ركِّز على الاغتصاب.

كيف كانت التفاصيل؟ ومن كان أولئك الرجال؟ هل كان من فعلَ هذا جزءًا من تلك الحياة، شخصًا مناهضًا للحرب يعيش عيشة الفرار مثلها؛ وهل كان شخصًا تعرفه، أم شخصًا غريبًا، متشردًا، مدمنًا، تبعها في طريق عودتها إلى البيت ثم إلى هذا الممر حاملًا سكينًا؟ ماذا جرى؟ هل ألقى بها أرضًا وأمسك بها وهددها بالسكين؟ هل ضربها؟ ما الذي جعلها تفعله؟ ألم يكن هناك من يغيثها؟ فقط، ما الذي جعلها تفعله؟ سوف يقتلهم. عليها أن تخبره بأسمائهم. أريد أن أعرف من هم هؤلاء الناس. أريد أن أعرف المكان الذي حدث فيه ذلك. أريد أن أعرف الوقت الذي حدث فيه ذلك. سوف نعود ونعثر على أولئك الناس. وسوف أقتلهم!

الآن، لم يعد يعرف الراحة بعد أن صار عاجزًا عن التوقف عن تخيل الاغتصاب. لم يعد يعرف الراحة ثانية واحدة لشدة رغبته في الخروج وقتل شخص ما. لقد اغتُصبت على الرغم من كل ما بناه من حولها من جدران. على الرغم من تلك الحماية كلّها، لم يستطع حمايتها من أن تُغتصب. أخبريني بكل شيء عن ذلك! سوف أقتلهم!

لكن الوقت قد فات... فات كثيرًا. لقد حدث الأمر. لا يستطيع فعل شيء لجعله لم يحدث. فلجعله لا يحدث، سيكون عليه أن يقتلهم قبل حدوثه - فكيف يمكنه

فعل ذلك؟ - السويدي ليفوف! هل سبق أن امتدت يد السويدي ليفوف إلى إنسان خارج الملعب؟ ما كان لشيء أن يثير نفور هذا الرجل ذي العضلات المفتولة أكثر من استخدام القوة.

الأماكن التي حلت فيها. والناس. كيف استطاعت البقاء حيّة من غير ناس؟ وذلك المكان الذي فيه هي الآن. هل كانت أماكن إقامتها كلها مثل هذا المكان؟ أو حتى أسوأ منه؟ لا بأس، ما كان ينبغي لها أن تفعل ما فعلته... ما كان ينبغي لها أن تفعل ما فعلته... لكن، عندما يفكر في تلك الحياة التي اضطرت إلى عيشها...

كان جالسًا في مكتبه. لا بد له من قسط من الراحة بعد رؤية كل ذلك الذي ما كان يريد رؤيته. كان المصنع خاليًا ليس فيه أحد غير الحارس الليلي الذي جاء إلى عمله مع كلابه. إنه في الأسفل، في موقف السيارات، يتفقّد محيط السور المصنوع من شبك معدني مزدوج، سياجٌ زيدَ ارتفاعًا بعد حوادث الشغب وأضيفت إليه أسلاك شائكة كانت كأنها تصيح بصاحب المصنع كلما جاء وأوقف سيارته في كل صباح: «ارحل! ارحل! ارحل!». كان جالسًا وحيدًا في المصنع الأخير الباقي في أسوأ مدينة في العالم. وكان جلوسه الآن في ذلك المكان أسوأ حتى من جلوسه فيه عندما اندلع الشغب، عندما كانت جادة سبرينغفيلد تحترق، وعندما كانت جادة ساوث أورينج تحترق، وعندما كان شارع بيرنغ يتعرّض للهجوم، وعندما انطلقت صفارات الإنذار وأطلقت نيران الأسلحة وراح قناصون يستهدفون مصابيح الشوارع من فوق أسطح البيوت. حين كانت جموع النهّابين قد انطلقت مجنونة في الشوارع وراح أطفال يحملون أجهزة الراديو والمصابيح وأجهزة التلفزيون ويذهبون بها، وسار رجال يحملون ملء أذرعهم من الملابس، ودفعت نساء عربات أطفال محمّلة بصناديق كرتون ثقيلة من زجاجات النبيذ وعلب البيرة... أشخاص يدفعون أمامهم قطع أثاث جديدة في وسط الشارع، أرائك مسروقة، وأسرّة أطفال، وطاولات مطبخ... كانوا يسرقون الغسالات وآلات تجفيف الملابس والأفران... يسرقونها لا في الظل أو في عتمة الليل، بل أمام الناس في وضح النهار. قوّتهم هائلة، وعملهم

الجماعي متقن. صوت تحطم زجاج النوافذ يبعث في الجسد ارتجافًا باردًا. كان أخذ الأشياء من غير دفع ثمنها أمرًا مُعديًا، مسكرًا. إن الشهية الأميركية للامتلاك شهية جارفة مدهشة يصعب ضبطها. شيء مثل السرقة من المتاجر. مجانًا، كل شيء مجانًا، كل ما يتوق إليه الجميع... فُجورُ الأخذ المجاني. ما عاد لدى أحد عقل يضبطه؛ هكذا هو الأمر! فليأت إذًا! في شوارع ماردي غراس المحترقة في نيوارك، انطلقت قوة تبعث في الناس إحساسًا بأنها تعتقهم من ذنوبهم، شيء مطهّرٌ يحدث، شيء روحاني ثوري يلمسه الجميع. المشهد السوريالي للأجهزة المنزلية في الخارج لامعة تحت النجوم وفي وهج ألسنة اللهب المتّقدة في سنترال وارد ملوِّحةً بوعد تحرير الجنس البشري كلّه. نعم، ها هو الأمر، فليأتِ إذًا... نعم، الفرصة الرائعة، واحدة من لحظات التغيير النادرة في تاريخ البشر: أشكال المعاناة القديمة تحترق مبارَكةً في اللهب ولن تعود من جديد أبدًا، وتحلّ محلّها - بعد ساعات فقط - معاناة ستكون شديدة الفظاعة، شديدة الوحشية، معاناة لا تهدأ ولا تنتهي، وخمود سيمتد طيلة خمسمئة سنة مقبلة. هذه المرة نارٌ... وماذا بعد؟ ماذا بعد النار؟ لا شيء! لا شيء في نيوارك بعد الآن، أبدًا.

وطيلة الوقت، كان السويدي هناك، في المصنع، مع فيكي، منتظرًا مع فيكي وحدها واقفة إلى جانبه، منتظرًا إلى أن تندلع النار في مصنعه، منتظرًا الشرطة بمسدساتها، منتظرًا الجنود ببنادقهم الرشاشة، منتظرًا شرطة نيوارك وشرطة الولاية والحرس الوطني، منتظرًا الحماية من أحد ما قبل أن يحرقوا ويسووا بالأرض هذه الشركة التي أنشأها أبوه، الشركة التي عهد بها إليه... لكن ذلك كلّه لم يكن في مثل سوء هذا الذي يعيشه الآن بعد عودته من عند ميري. فتحت سيارة شرطة النار في اتجاه بارٍ على الناحية الأخرى من الشارع. ورأى من نافذته امرأة تسقط، تنطوي على نفسها وتتهاوى. أُطلقت النار على امرأة فقتلت في الشارع. قُتلت امرأة أمام عينيه... حتى ذلك، لم يكن في مثل سوء هذا! أشخاص يزعقون ويصرخون، ورجال إطفاء جعلهم إطلاق النار ينبطحون أرضًا فيصيرون عاجزين عن مكافحة الحرائق... انفجارات أتى صوتها مفاجئًا

مثل صوت طبول إفريقية. وفي وسط الليل، دفعات من طلقات المسدسات تستهدف كل من يمكن أن يكون خلف نوافذ الطابق الأول، تلك النوافذ التي فيها لافتات فيكي... حتى ذلك، لم يكن في مثل سوء هذا! هذا أسوأ كثيرًا! ثم ذهبوا، ذهبوا جميعًا، فروا من تلك الأنقاض المحترقة: صناعيون، وبائعو مفرّق، ومصارف، ومالكو متاجر، وشركات كبيرة، ومتاجر كبيرة. في منطقة ساوث وارد، وفي البنايات السكنية، كان المرء يرى سيارتي نقل في يوم واحد، في كل شارع، على امتداد السنة التي أعقبت ذلك... أصحاب بيوت يهربون، يهجُرون البيوت المتواضعة التي هي غالية عليهم لأن فيها كل ما استطاعوا جنيه. لكنه بقي رافضًا الذهاب. بقيت شركة نيوارك ميد. لكن هذا لم يحل دون تعرضها للاغتصاب. لم يترك مصنعه للنهّابين المخرّبين حتى في أسوأ الأوقات. ثم لم يهجر عماله بعد ذلك. ولم يدر ظهره إليهم. لكن ابنته اغتصبت.

على الجدار الذي خلف مكتبه، ضمن إطار، خلف لوح زجاجي، كانت هناك رسالة من اللجنة التي اختارها حاكم الولاية لمتابعة الاضطرابات الأهلية توجّه الشكر إلى السيد سايمور ليفوف على شهادته التي أدلى بها باعتباره شاهد عيان على حوادث الشغب وتمتدح شجاعته وإخلاصه لمدينة نيوارك... رسالة رسمية موقّعة من قبل عشرة مواطنين بارزين، كان اثنان منهم أسقفين كاثوليكيين، واثنان منهم حاكمين سابقين للولاية. وإلى جانب تلك الصورة، على الجدار نفسه، خلف زجاج وضمن إطار أيضًا، مقالة نُشرت قبل ستة أشهر من ذلك في صحيفة ستار ليدجر فيها صورة له وعنوان يقول: «شركة للقفازات تنال الثناء لبقائها في نيوارك»... ومع هذا كلّه، فقد اغتُصبت ابنته.

كان ذلك الاغتصاب يجري في دمه، ولم يستطع إخراجه أبدًا. كانت رائحته في مجرى دمه، وكذلك منظره، والساقان والذراعان والشعر والملابس. كانت الأصوات في مجرى دمه... صوت الارتطام، وصرخاتها، وتقلّبها ضمن حيّز ضيّق. وعواء مخيف لرجل يبلغ لحظة النشوة. نخيره. ونشيجها. حجبَ هولُ الاغتصاب كل شيء. من غير توقّع أبدًا، خطَتْ خارجة من الممر فأمسكوا بها من الخلف ورموها على الأرض فصار جسدها أمامهم لكي يفعلوا به ما

يشاؤون. مزّقوا الملابس التي كانت تغطّي جسدها. وما عاد هناك شيء بين جسدها وأكفّهم. صاروا داخل جسدها. امتلأ جسدها بهم من داخله. القوة الهائلة التي فعلوا ذلك بها. القوة التي مزّقتها. كسروا سنها. كان أحدهم مجنونًا. جلس فوقها وأطلق وابلًا من خرائه. كانوا فوقها كلهم. أولئك الرجال. كانوا يتحدّثون لغة أجنبية. كانوا يضحكون. فعلوا كل ما كان لديهم دافع إلى فعله. كان أحدهم منتظرًا خلف الآخر. رأته منتظرًا. ما كانت قادرة على فعل شيء.

وما كان ذلك الرجل قادرًا على فعل شيء. جنّ الرجل، وازداد جنونًا لأنه كان يريد أن يفعل شيئًا عندما لم يبق له شيء يفعله.

جسدها في مهدها الصغير. جسدها في المهد المحمول. جسدها عندما بدأت تتعلّم الوقوف فوق بطنه. بطنها الظاهر بين بنطلونها وقميصها وهي متعلّقة به في وضعية مقلوبة عند عودته إلى البيت بعد العمل. جسدها عندما تترك الأرض قافزة بين ذراعيه. جسدها الذي يطير إلى ما بين ذراعيه ناسيًا نفسه وسامحًا له بلمسة أبوية. كم كان مفتونًا بذلك الجسد القافز نحوه، كم كان مفتونًا به من غير تردّد... جسدٌ يبدو مكتملًا كله، يبدو خلقةً كاملة مصغّرة فيها السحر كلّه. جسد كان يبدو كما لو أنها ارتدته لتوها بعد كيّه... لا طيات ولا تجاعيد في أي مكان منه. الحرية الساذجة التي تكشف بها عن جسدها. وإحساس الرقّة الذي تحرّكه تلك السذاجة في نفسه. قدماها الصغيرتان تطبطبان على الأرض مثلما تطبطب قوائم حيوانات صغيرة. قدمان صغيرتان لا عيب فيهما، جديدتان، غير مستهلكتين. أصابع قدميها المنكمشة، وساقاها الممتلئتان. ساقان صلبتان. أغنى أجزاء جسدها بالعضلات. سروالها الداخلي ورديّ. مؤخّرتها الطفولية المقسومة إلى نصفين كبيرين، مؤخّرة تعصى الجاذبية الأرضية كما لو أنها مؤخرة منتمية إلى نصفها الأعلى، كما لو أنها منتمية إلى ميري الكبيرة، لا إلى ميري التي لا تزال صغيرة. مؤخّرة لا دهون فيها. لا أونصة دهن واحدة في أي مكان.
وشَقُّها... كما لو أن أداة دقيقة قد صنعته. موضع الالتقاء المشطوف الذي سيتفتّح إلى الخارج ويتطوّر عبر دورة الزمن إلى فرج امرأة مكتمل الطيّات. سرّتها التي لا تُصدق. وجذعها المتناسق. والدقة التشريحية في أضلاعها.

وليونة عمودها الفقري. والنتوءات العظمية الصغيرة في ظهرها مثل مفاتيح بيانو صغير. والإغفاءة الجميلة لصدرها غير الظاهر بعد، قبل أن يبدأ تفتّحه. ذلك الاضطراب كلّه الذي يريد الاستيقاظ، كان (بنعمة، بنعمة) لا يزال غافيًا. لكن الرقبة كانت موحية، على نحو ما، بالمرأة التي ستكونها؛ هناك في كتلة الرقبة المتزينة بحلية صغيرة. والوجه. ذلك هو البهاء كلّه. الوجه الذي لن تحمله معها دائمًا لكنه كان بصمة من بصمات المستقبل. إنه الدليل الذي سوف يختفي، لكنه سيظل موجودًا بعد خمسين عامًا. ما أقل ما كشف وجهُها الطفولي عنه من قصتها التي ستأتي. فتوَّتها هي كل ما يستطيع رؤيته. شيء شديد الجدة في تلك الدورة. لا شيء فيه محدّدًا تمام التحديد بعد. والزمن حاضرٌ بأشد القوة في وجهها. جمجمتها طرية. احمرار أنفها غير المكتمل هو الأنف كله. لون عينيها. البياض الأبيض، الأبيض. والأزرق الرائق الشفاف. عينان صافيتان. كلها صافية، لكن عينيها خاصّة صافيتان، نافذتان، نافذتان مغسولتان لكنهما لا تكشفان بعدُ عما في الداخل. التاريخ في حاجبها الجنيني. والمشمشتان المجفَّفتان، أذناها. لذيذتان. إذا بدأت أكلهما فلن تتوقف أبدًا. الأذنان الصغيرتان أكبر منها سنًا، على الدوام. الأذنان اللتان كان عمرهما دائمًا أكثر من أربع سنين، لكنهما لم تتغيرا حقًّا منذ أن كان عمرها أربعة عشر شهرًا. نعومة شعرها الخارقة للطبيعة. كم كان شعرًا معافى! أكثر ميلًا إلى الحمرة، أكثر شبهًا بشعر أمه منه بشعره الذي لا تزال فيه مسحة من حمرة النار. رائحة اليوم كلّه في شعرها. خُلوُّ بال ذلك الجسد واستسلامه بين ذراعيه. استسلام كاستسلام القطة للأب القوي، للعملاق الذي يشيع الطمأنينة في نفسها. إنه هكذا، إنه صحيح، في استسلام جسدها له، كانت تحرّك غريزة لبث الاطمئنان، غريزة فائضة لا بد أنها شيء قريب مما كانت داون تقول إنها تحسّه عندما ترضعها. الحميمية المطلقة هي ما يحسّه عندما تترك ابنته الأرض قافزة بين ذراعيه. وفي تلك الحميمية تكمن دائمًا معرفةُ أنه لن يبتعد كثيرًا، لأنه لا يستطيع، ومعرفة أن ذلك حرّية هائلة ومسرّة هائلة، شيء مكافئ لرابطة الرضاعة بينها وبين داون. هذا صحيح. هذا ما لا يمكن إنكاره. كان رائعًا في ذلك، وكانت رائعة أيضًا. كانت

شديدة الروعة. كيف يحدث هذا كله لهذه الطفلة الرائعة؟ كانت تتأتئ، فماذا إذًا؟ ما المشكلة في هذا؟ كيف حدث هذا كلّه لهذه الطفلة الطبيعية تمامًا؟... إلا أن يكون هذا من نوع الأشياء التي تحدث حقًّا للرائعين، للأطفال الطبيعيين الرائعين. لا يفعل الأغبياء أشياء كهذه... الأطفال الطبيعيون يفعلونها. أنت تحميها، وتحميها، وهي... هي غير قابلة للحماية. شيء لا سبيل إلى احتماله إذا لم تحمها، وشيء لا سبيل إلى احتماله إذا حميتها. شيء كلّه... لا سبيل إلى احتماله. فظاعةُ استقلاليتها المُريعة. أتى أسوأ ما في العالم كلّه وأخذ طفلته. ليت ذلك الجسد الجميل المنحوت نحتًا لم يولد قط.

يتصل بأخيه. ليس أخوه شخصًا مناسبًا لأن يلتمس منه نصحًا؛ لكن، ما الذي يستطيع فعله؟ دائمًا، عند الحاجة إلى مشورة، لا يجد المرء إلا مشورة الأخ غير المناسب للمشورة، أو مشورة الأب غير المناسب للمشورة، أو مشورة الأم غير المناسبة للمشورة. ولهذا فإن على المرء أن يقنع باستشارة نفسه، وأن يكون قويًّا، ثم أن يمضي في الحياة مستشيرًا الآخرين. لكنه في حاجة الآن إلى شيء من الراحة من هذا الاغتصاب، في حاجة إلى إخراج هذا الاغتصاب من قلبه حيث يطعنه حتى الموت. لا يستطيع احتماله؛ فيتصل بالأخ الوحيد الذي لديه. لو كان لديه أخ غيره لكان قادرًا على الاتصال به. لكن، ليس لديه أخ غير جيري؛ وليس لدى جيري أخ غيره. وأما الابنة، فليس لديه غير ميري. وأما الأب، فليس لديها غيره هو. لا سبيل إلى تفادي أي شيء من هذا كلّه. ولا يمكن جعل أي شيء آخر يصير حقيقة.

إنها الخامسة والنصف من بعد ظهر يوم الجمعة. جيري في عيادته الآن يرى مرضى أجرى لهم عمليات جراحية. لكنه يقول له إنه قادر على الكلام. يستطيع المرضى أن ينتظروا. «ما الأمر؟ ما المشكلة عندك؟».

لم يكن في حاجة إلى أكثر من سماع صوت جيري، من سماع صوت نفاد الصبر الذي فيه، وسماع الثقة المغرورة اللاذعة، حتى يقول لنفسه إن جيري ليس بالشخص المناسب.

«لقد وجدتها. لقد عدت من عندها الآن. وجدتها في نيوارك. إنها هنا. إنها في

غرفة. لقد رأيتها. لا يمكنك تخيّل ما مرت به هذه الفتاة، وكيف هو شكلها الآن، وأين تعيش. لا يمكنك حتى تخيل ذلك». بدأ يحكي قصتها من غير أن يحكي قصتها، ويحاول تكرار ما قالته له عن الأماكن التي كانت فيها وعن عيشتها وعما صارت إليه. كان يحاول فهم ذلك كله، يحاول إدخاله في رأسه، في رأسه هو، ويحاول أن يعثر في رأسه على مكان لذلك كلّه على الرغم من عدم قدرته حتى على العثور في رأسه على مكان كافٍ من أجل ذلك المكان الذي تعيش فيه. أوشك على البكاء عندما أخبر أخاه أنها اغتصبت مرتين.

سأله جيري: «هل انتهيت؟».

«ماذا؟».

- 7 -

كان ذلك في الصيف الذي شهد جلسات الاستماع في قضية ووترغيت. وكانت أسرة ليفوف تمضي كل ليلة تقريبًا جالسة في الشرفة الخلفية تتابع على «القناة 13» إعادة لجلسة الاستماع في ذلك اليوم. قبل بيع الأبقار والمعدّات، كانوا يجلسون في هذا المكان في الأمسيات الدافئة وينظرون إلى قطيع داون يرعى عند أطراف التلة. ثمة حقل بعيد عن البيت تبلغ مساحته ثمانية عشر أكرًا، كانوا - في بعض السنين - يضعون الأبقار فيه طيلة الصيف وينسون أمرها. وأما إذا كانت الأبقار قريبة من البيت، لكنها مختفية عن الأنظار، فإن ميري تعبّر عن رغبتها في رؤيتها قبل أن ترتدي البيجاما استعدادًا للنوم، فتصيح داون بصوت مرتفع «هِيَرْ بوي، هِيَرْ بوي»، مثلما اعتاد الناس مناداة أبقارهم طيلة آلاف السنين، فتخور البقرات مجيبة إياها وتصعد إلى التل خارجة من المستنقع، أو خارجة من حيث كانت، وتواصل خوارها وهي تسير متثاقلة في اتجاه صوت داون. كانت داون تسأل ابنتها «أليست فتياتنا جميلات؟». وفي اليوم التالي، تخرج ميري مع داون عند الفجر لجمع البقرات من جديد فيسمع السويدي دوان تقول لابنته: «حسنًا، سوف نجتاز الطريق الآن»، فتفتح ميري البوابة.

وبالاعتماد على عصا وكلب فقط، كلب الرعي الأوسترالي آبو، تسوق الأم وابنتها الصغيرة اثنتي عشرة بقرة، أو خمس عشرة، أو ثماني عشرة بقرة تزن

كل منها نحو ألفي باوند. ميري، وآبو، وداون، والطبيب البيطري أحيانًا، وصبي يعيش في أحد البيوت في ذلك الطريق يأتي أحيانًا حتى يساعدهم في نصب الأسيجة وجمع القش عندما تكون هناك حاجة إلى أيد إضافية. «لقد جعلتُ ميري تساعدني في جمع القش». وإذا شرد عجل عن القطيع، فإن ميري تذهب خلفه. يذهب سايمور خلف بقرتين فتصيران صعبتي المراس، وتضربان الأرض المعشبة بقوائمهما، وتهزّان رأسيهما في اتجاهه... لكن ميري تذهب إليهما، حسنًا، إنهما تعرفانها وتخبرانها عما تريدانه. إنهما تعرفان ميري، وتعرفان بالضبط ما ستفعله لهما.

كيف استطاعت أن تقول له: «لست راغبة في الحديث عن أمي؟»... بحق الرب، ماذا فعلت لها أمها؟ ما الجريمة التي ارتكبتها أمها؟ أجريمة هي أنها كانت سيدة لطيفة لتلك البقرات الطيّعات؟

خلال هذا الأسبوع الأخير، عندما كان أبوه وأمه عندهم بعد مجيئهما من فلوريدا في زيارة آخر الصيف التي تتكرّر كل سنة، لم تجد داون حاجة إلى أن تشغل بالها بالبحث عن طرق لتسليتهما. كانت تجدهما جالسين أمام جهاز التلفزيون كلما عادت من موقع بناء البيت الجديد، أو من مكتب المعماري. وترى حماها يقوم بدور الاستشاري المساعد للجنة التحقيق. كان حموها وحماتها يتابعان مجريات الجلسات طيلة النهار، ثم يشاهدانها كلّها مرة أخرى في الليل. وكان والد السويدي يعكف خلال ما يتيسر له من وقت في النهار على كتابة رسائل إلى أعضاء اللجنة، رسائل يقرأها لهم جميعًا على العشاء. «عزيزي السيناتور ويكر: هل فاجأك ما كان يحدث في البيت الأبيض حيث يقيم تريكي ديكي؟(41). لا تكن ساذجًا يسهل خداعه. لقد كشف الرئيس هاري ترومان أمره في سنة 1948 عندما دعاه تريكي ديكي». «عزيزي السيناتور غورني: نيكسون مثل تايفود ميري(42). إنه يسمّم كل ما يلمسه، بما في ذلك أنت». «عزيزي السيناتور بيكر: هل تريد أن تعرف السبب؟ السبب هو أنهم زمرة من المجرمين؛ هذا هو السبب». كتب أيضًا إلى مستشار اللجنة في نيويورك: «عزيزي السيد داش: إنني أحييك. فليباركك الرب. أنت تجعلني أشعر بأنني

أميركي، وبأنني يهودي». لكنه كان يُكنّ أكبر قدر من الازدراء لشخص قليل الأهمية نسبيًا، وهو محامٍ اسمه كالمباخ، رتّب أمر تقديم مبالغ مالية ضخمة بشكل غير قانوني للتخلّص من تبعات فضيحة ووترغيت؛ لكن ما لحق به من خزي ما كان كافيًا لإرضاء العجوز ليفوف. «عزيزي السيد كالمباخ: لو كنتَ يهوديًا وفعلتَ ما فعلته، فسوف يقول العالم كله: 'انظروا إلى أولئك اليهود وإلى شدة جشعهم إلى المال'. لكنْ، من هو الجشع، يا عزيزي السيد المحترم الذي يذهب إلى النادي الريفي؟ من هو اللص، ومن هو الأميركي رجل العصبات؟ أبدًا لن تفلح نعومة كلامك في خداعي، أيها السيد كالمباخ الذي يرتاد النادي الريفي. لم يخدعني أبدًا أنك تلعب الغولف. ولم يخدعني أبدًا سلوكك المتأنق. لقد عرفت دائمًا أن يديك النظيفتين قذرتان. والآن، صار العالم كلّه يعرف هذا. عليك أن تخجل من نفسك».

«أتظن أنني سأتلقّى إجابة من ابن العاهرة هذا؟ عليّ أن أنشر هذا الكلام في كتاب. وعليّ أن أجد من يطبعه ويوزّعه مجانًا حتى يعرف الناس شعور المواطن الأميركي العادي عندما يقوم أبناء العاهرة هؤلاء... انظر، هذا واحد منهم، انظر إليه». كان رئيس الأركان السابق في إدارة نيكسون، إيرلخمان، قد ظهر على شاشة التلفزيون.

قالت والدة السويدي: «إنه يجعلني أشعر بالغثيان؛ هو وتلك التريشيا»(43).

قال زوجها: «أرجوك، لا أهمية لها. أما هذا فهو فاشي حقيقي... تلك العصبة كلّها... فون إيرلخمان، وفون هالدمان، وفون كالمباخ...».

أجابت زوجته: «لكنها تجعلني أشعر بالغثيان. يتحدّثون عنها بطريقة تجعلك تظن أنها كانت أميرة».

قال لو ليفوف لداون: «أولئك الذين يلقّبونهم بالوطنيين، سوف يستولون على هذه البلاد ويصنعون منها ألمانيا نازية جديدة. هل تعرفين كتاب 'لا يمكن أن يحدث هذا هنا'؟(44). إنه كتاب رائع - نسيت اسم الكاتب، لكن فكرته مناسبة تمامًا لزماننا هذا. لقد سار بنا أولئك الناس إلى حافة شيء مخيف. انظروا، انظروا إلى ابن العاهرة هذا!».

قالت زوجته: «لست أدري من أكره أكثر، هو أم الآخر؟»
أجابها العجوز: «إنهما الشيء نفسه. يمكن لكل منهما أن يأخذ مكان الآخر... كلّهم هكذا».
هذا هو إرث ميري. أدرك السويدي أن والده لا يمكن أن يكون أقل غضبًا لو كانت ميري جالسة معهم أمام التلفزيون؛ وأما بعد ذهابها، فمن عساه يكون أجدر بالكراهية من أبناء الحرام المشاركين في قصة ووترغيت بسبب ما بلغته أحوالها.
خلال حرب فيتنام، كان لو ليفوف يرسل إلى ميري بالبريد نسخًا من الرسائل التي بعث بها إلى الرئيس جونسون؛ رسائل كانت كتابتها محاولة للتأثير على سلوك ميري أكثر مما كانت محاولة للتأثير على الرئيس. كانت رؤية حفيدته المراهقة شديدة الحنق تجاه الحرب (كانت حانقة بقدر ما يمكن أن يحنق عندما تسوء أمور العمل كثيرًا) قد جعلت العجوز في حالة كرب شديد دفعته إلى الانفراد بابنه والقول له: «ما الذي يجعلها مهتمة هكذا؟ ومن أين تحصل على هذه الأفكار؟ من الذي يغذّيها بها؟ وما أهمية الأمر بالنسبة إليها، على أية حال؟ هل تتصرّف هكذا في المدرسة؟ لا يمكنها فعل هذا في المدرسة، فمن الممكن لذلك أن يُضِرّ بفرصها الدراسية. من الممكن أيضًا أن يُضِرّ بفرص ذهابها إلى الجامعة. لن يصبر الناس عليها إن كانت تتكلّم هكذا في العلن. سوف يقطعون رأسها. إنها لا تزال طفلة». وحتى يتوصّل، إن استطاع، لا إلى التحكّم بآراء ميري، بل إلى تخفيف ضراوة تعبيرها عنها، راح يتظاهر بأنه واقف في صفها وذلك من خلال إرسال مقالات يقتطعها من صحف فلوريدا ويضع على هوامشها شعارات مناوئة للحرب يكتبها بنفسه. كان يقرأ لها بصوت مرتفع تلك الرسائل التي كتبها لجونسون كلما أتى في زيارة إليهم. يضع تلك الرسائل في مصنف ويسير في البيت حاملًا إياه تحت إبطه. كان يبذل قصارى الجهد لإنقاذها من نفسها، ويسير خلف تلك الطفلة كما لو أنه طفل أيضًا.
أسرّ لابنه: «علينا أن ننهي هذا الأمر منذ بدايته. لا يستقيم الأمر هكذا؛ لا يستقيم أبدًا».

بعد أن قرأ لميري مناشدة جديدة وجهها إلى الرئيس مذكرًا إياه بعظمة أميركا، وبأن الرئيس فرانكلين روزفلت كان شخصية عظيمة، وبأنه وأسرته مدينون لهذه البلاد كثيرًا، قال لها إن خيبة أملٍ كبيرة تصيبه وتصيب من يحبّهم عندما يرون شباب أميركا في النصف الآخر من العالم يخوضون معركة غيرهم في حين يجب أن يكونوا في بيوتهم مع أحبتهم... «حسنًا، حسنًا، ما رأيك الآن في جدك؟».

قالت: «ج - ج - جونسون مجرم حرب. وهو لن يوق - يوقف الح - الحرب، يا جدّي، لأنك تطلب منه هذا».

«لكنه أيضًا رجل يحاول القيام بعمله، كما تعلمين».

«إنه كلب أمبريالي».

«حسنًا، هذا رأيك».

«لا اخت - اختلاف بينه وبين هتلر».

«أنت تبالغين، يا حبيبتي. لست أقول لك إن جونسون لم يخذلنا ويخيب أملنا، لكنك تنسين ما فعله هتلر باليهود، يا ميري العزيزة. لم تكوني قد ولدت بعد، ولهذا لن تتذكّري».

«هو لم يفعل شيئًا لا يفعله جونسون الآن في فيتنام».

«إنه لا يضع الفيتناميين في معسكر اعتقال».

«فيتنام معس - معسكر اعتقال! ليست المشكلة مشكلة أن يكون ‘شباب أميركا’ في بيوتهم بدلًا من فيتنام. هذا يشبه القول ‘أخرجوا جنود قوات العاصفة من معسكر أوشفيتز حتى يتمكّنوا من الاحتفال بعيد الميلاد’!»(45).

«لا بد لي من مخاطبته بلغة سياسية، يا عزيزتي. لا يمكنني أن أكتب له إنه مجرم، ثم أتوقّع منه أن يصغي إلى كلامي. أليس هذا صحيحًا يا سايمور؟».

قال السويدي: «لا أرى ذلك أسلوبًا مفيدًا».

قال لها جدّها: «ميري، نشعر كلّنا بمثل مشاعرك. هل تدركين هذا؟ صدّقيني أعرف كيف يكون الأمر عندما يقرأ المرء الصحف فيصيبه الجنون. الأب كوفلين،(46) ابن العاهرة، والبطل تشارلز ليندبرغ... يؤيد النازية، ويؤيد هتلر،

ويدعونه بطلًا وطنيًا في هذه البلاد! السيد جيرالد ل. ك. سميث. والسيناتور العظيم بيلبو. من المؤكد أن لدينا أشخاصًا سيئين جدًا في هذه البلاد... إنهم من إنتاج محلي، وهم كثيرون. لا ينكر أحد هذا. السيد رانكين. والسيد دايز. السيد دايز ولجنته، والسيد ج. بارنيل ثوماس، من نيوجرسي. فاشيون، جهلة، انعزاليون، متعصبون هنا، في كونغرس الولايات المتحدة الأميركية. نصّابون من أمثال ج. بارنيل ثوماس، نصابون انتهى بهم الأمر إلى السجن وظلت رواتبهم تدفع من أموال دافعي الضرائب الأميركيين. أشخاص فظيعون. وأسوأ من هذا أيضًا. السيد ماك كاران، السيد جينر. والسيد موندت. وأشباه غوبلز(47) من ويسكنسن، السيد المحترم ماكارثي... ليته يحترق بنار جهنم. وصاحبه السيد كوهن. شيء مخزٍ. يهودي مخز! إن لدينا هنا أبناء عاهرات مثلما هم موجودون في كل بلد؛ وقد صوّت لهم في الانتخابات أولئك العباقرة كلّهم ممن يحقّ لهم التصويت. وماذا عن الصحف أيضًا؟ السيد هارتس. والسيد ماكورنيك. والسيد ويست بروك بيغلر. كلاب رجعيون، فاشيون حقيقيون. إنني أكرههم أشد الكره. اسألي والدك. ألست أكرههم، يا سايمور؟».

«أنت تكرههم».

«حبيبتي، نحن نعيش في بلد ديمقراطي. الشكر للرب على هذا. لست مضطرة إلى أن تنفّسي عن غضبك من خلال أسرتك. تستطيعين كتابة الرسائل. تستطيعين التصويت. تستطيعين أن تصعدي فوق صندوق لتلقي كلمة. يا إلهي... يمكنك أن تفعلي ما فعله والدك... أن تنضمي إلى مشاة البحرية».

«أوه، يا جدي... قوات مشاة البحرية هي المش - مش - مشكلة».

قال لها وقد فقد حذره لحظة: «إذًا، اللعنة على هذا يا ميري، انضمي إلى الجانب الآخر. وكيف ذلك؟ يمكنك الانضمام إلى قوات مشاة البحرية لديهم إن أردت ذلك. لقد حدث هذا من قبل. هذه هي الحقيقة. انظري إلى التاريخ. عندما تبلغين سنًا مناسبة، يمكنك الذهاب والقتال مع الجيش الآخر، إن كنت راغبة في ذلك. لست أنصح بهذا. فالناس لا يحبّونه. وأظنك ذكية إلى الحد الكافي لأن تفهمي السبب الذي يجعلهم لا يحبونه. ليس مما يسرّ المرء أن يدعوه الناس

‘خائنًا’، لكن هناك من فعل هذا. إنه خيار متاح. انظري إلى بنيدكت آرنولد. انظري إليه. لقد انتقل إلى الجانب الآخر، على ما أذكر. أذكر هذا من المدرسة. وأظن أنني أحترم هذا الشخص. لقد كان شجاعًا. دافع عما كان مقتنعًا به. غامر بحياته من أجل ما كان مقتنعًا به. لكنه كان مخطئًا، يا ميري، بحسب تقديري. لقد ذهب وانضم إلى الجانب الآخر في الحرب الثورية؛ وبقدر ما يعنيني الأمر، فإن هذا الرجل كان مخطئًا تمامًا. وأما الآن، فأنت لست مخطئة. إنك على حق. إن هذه العائلة ضد حرب فيتنام مئة بالمئة. لست مضطرة إلى التمرّد على عائلتك، فعائلتك ليست على خلاف معك. لستِ الشخص الوحيد هنا الذي يعارض الحرب. نحن ضد الحرب. روبرت كندي ضد الحرب و...».

قالت ميري بنبرة تقزّز: «صار ضدها الآن».

«لا بأس، نعم الآن. أن يكون ضدها الآن أفضل من أن لا يكون ضدها الآن. أليس هذا واقعيًا؟ كوني واقعية يا ميري. فليس مفيدًا لأيّ كان ألّا تكوني واقعية. روبرت كندي ضد الحرب، والسيناتور يوجين ماكارثي ضد الحرب، والسيناتور جافيتس ضد الحرب، وهو من الحزب الجمهوري. والسيناتور فرانك تشيرش ضد الحرب، والسيناتور واين مورس ضد الحرب. وكيف هو هذا الرجل. إنني معجب به. لقد كتبت له لأخبره بهذا فأتتني منه إجابة لطيفة تحمل توقيعه. والسيناتور فولبرايت ضد الحرب، بالطبع. من المعروف أن السيناتور فولبرايت هو من طرح مشروع قرار خليج تونكين...».

«فولبـ... فولبـ...».

«ما من أحد يقول...».

قال السويدي: «أبي، دع ميري تنهي كلامها».

«آسف يا حبيبتي، تابعي كلامك».

«فولبـ... فولبـ... فولبرايت عنصري».

«هل هو عنصري؟ ما الذي تتحدّثين عنه؟ هل تعنين السيناتور ويليام فولبرايت من آركنساس؟ ومن أين أتيت بهذا؟ لقد حصلت على معلومات مغلوطة، يا صديقتي». لقد أساءت ميري إلى واحد من أبطاله الذين وقفوا في وجه السيناتور

جو ماكارثي. بذل جهدًا كبيرًا جدًا حتى يمنع نفسه من الانقضاض عليها دفاعًا عن فولبرايت... «لكن، دعيني الآن أنهي ما كنت أقوله. ما الذي كنت أقوله؟ أين كنت؟ ماذا كنت أقول، يا سايمور؟».

كان السويدي يتصرّف بطريقة منصفة متوازنة بين هذين المتحمّسَيْن؛ وهو دور يفضّله على أن يكون خصمًا لأي منهما. قال لأبيه: «كنت تقول إن كلًا منكما ضد الحرب ويريد إيقافها. وإن لا حاجة بكما إلى المجادلة في هذا الأمر... أظن أن هذا ما كنت تقوله. ترى ميري أن الأمر قد تجاوز مرحلة كتابة الرسائل إلى الرئيس. وتشعر أن هذا الأمر صار عقيمًا. وأما أنت، فترى أن لديك ما تستطيع فعله، سواء كان عقيمًا أو غير عقيم، ولذلك فإنك تفعله. تفعله لكي تواصل قول كلمتك، على الأقل».

صاح العجوز: «بالضبط! اسمع... اسمع ما أقوله له هنا. ‘لقد كنت من أنصار الحزب الديمقراطي طيلة حياتي’... اسمعي يا ميري... ‘لقد كنت من أنصار الحزب الديمقراطي...’».

لكن شيئًا مما قاله العجوز للرئيس لم يوقف الحرب؛ كما لم يفضِ شيء مما قاله لميري إلى «إنهاء الأمر في بدايته»، لكنه كان الوحيد في العائلة الذي رأى ما هو آتٍ. «نعم، لقد رأيته آتيًا. رأيته بكل وضوح. لقد رأيته. كنت أعرف. كنت أحس بالأمر. وكنت أقاومه. لقد كانت خارجة عن كل سيطرة. كان هناك شيء خاطئ. كنت أشم رائحته. وقد قلت لك ‘لا بد من فعل شيء لهذه الطفلة. هنالك شيء خاطئ يحدث لها’. لكن ما قلتُه لك دخل من إحدى أذنيك وخرج من الأخرى. لم أتلقّ منك إجابة غير ‘أبي، هوّن عليك’. ولم أتلقّ منك إجابة غير ‘أبي، لا تبالغ. إنها مرحلة يا أبي. دعها وشأنها يا لو، ولا تناقشها’. ‘لا، لن أتركها وشأنها، إنها حفيدتي. أرفض أن أتركها وشأنها. أرفض أن تترك حفيدتي البيت وحدها فأخسرها. هناك شيء أصابه الخلل لدى هذه الطفلة’. لكنك كنت تنظر إليَّ كما لو أنني رجل مجنون. كلكم كنتم تنظرون إليّ هكذا. إلا أنني لم أكن مجنونًا. لقد كنت محقًّا. كنت محقًّا بكل تأكيد».

لم يجد السويدي أية رسائل في انتظاره عندما عاد إلى البيت. لقد كان يصلّي

لكي تأتيه رسالة من ميري ستولتز.

سأل داون: «أما من شيء؟».

كانت في المطبخ، تعدّ السلطة من خضروات أتت بها من الحديقة.

«لا شيء».

صب كأسًا من الشراب لنفسه، وأخرى لوالده، ثم حمل الكأسين فخرج بهما إلى الشرفة الخلفية حيث كان جهاز التلفزيون لا يزال عاملًا.

سألته أمه: «هل ستعدّون شرائح اللحم، يا عزيزي؟».

«شرائح اللحم، والذرة، والسلطة، وطماطم ميري الكبيرة». كان يعني طماطم داون، لكنه لم يصحح جملته بعد أن قالها.

قالت أمه بعد زوال الصدمة الأولى التي خلّفتها كلماته: «لا أحد مثلك يعرف كيف يطهو شرائح اللحم».

«جيّد، يا ماما».

«يا ولدي الكبير. من عساه يريد ابنًا أحسن منك؟»... قالت هذا، وعندما عانقها، ذابت وتهاوى تماسكها للمرة الأولى في ذلك الأسبوع... «إنني آسفة كنت أتذكّر تلك المكالمات الهاتفية».

أجابها: «أفهم هذا».

«لقد كانت فتاة صغيرة، كنت تتصل أنت، ثم تعطيها سماعة الهاتف فتقول لي: ‘مرحبًا يا جدتي، احزري ماذا؟’. ‘لا أعرف، يا حلوتي. ماذا...’. فتقول لي ما تريد قوله».

«هيا الآن، ماذا بك؟ لقد كنت مذهلة حتى الآن. وأنت قادرة على مواصلة ذلك. هيا. تماسكي».

«كنت أنظر إلى الصور، عندما كانت طفلة صغيرة...».

قال لها: «لا تنظري إليها. حاولي ألّا تنظري إليها. تستطيعين فعل هذا، يا ماما. عليك أن تفعلي هذا».

«أوه، يا عزيزي، أنت شجاع جدًّا. وأنت تبثّ الشجاعة في روحي. أنتعش عندما نأتي ونراك. أحبك كثيرًا».

«جيد، يا ماما. وأنا أحبك. لكن عليك ألّا تفقدي السيطرة على نفسك أمام داون».
«نعم، نعم، لك ما تريد».
«هذه هي فتاتي التي أعرفها».
كان أبوه يواصل متابعة التلفزيون... قال له بعد أن تمكّن بأعجوبة من ضبط نفسه عشرة أيام كاملة: «أما من أخبار؟».
أجابه السويدي: «ما من أخبار».
«لا شيء؟».
«لا شيء».
قال أبوه متصنّعًا التسليم بالقدر: «لا بأس، لا بأس... إن كان الأمر هكذا، فهو هكذا»، ثم عاد إلى متابعة التلفزيون.
سألته أمه: «ألا زلت تظن أنها في كندا، يا سايمور؟».
«لم أظن يومًا أنها في كندا».
«لكن أولئك الأولاد يذهبون إلى كندا...».
«انظري، لماذا لا نؤجّل هذه المناقشة؟ لا مشكلة أبدًا في طرح الأسئلة، لكن داون ستأتي...».
أجابته أمه: «أنا آسفة. أنت محقّ. أنا آسفة كثيرًا».
«لا يعني هذا أن الوضع قد تغيّر، يا أمي. لا يزال كل شيء على حاله تمامًا».
«سايمور...» تردّدتْ أمه قليلًا... «سؤال واحد يا عزيزي، إذا سلّمت نفسها الآن، فماذا يحدث؟ يقول أبوك إن...».
قال أبوه: «لماذا تزعجين سايمور بهذا؟ لقد قال لك إن داون ستأتي؟ تعلمي كيف تسيطرين على نفسك».
«أنا، أسيطر على نفسي؟».
«يا أمّي، عليك أن تكفّي عن التفكير في هذه الأفكار. لقد ذهبت. وقد تكون غير راغبة في رؤيتنا من جديد».
قال أبوه منفعلًا: «لماذا؟ إنها تريد رؤيتنا من جديد، بالطبع. أرفض تصديق

هذا».
سألته أمه: «والآن، من الذي يسيطر على نفسه؟».
«من الطبيعي أنها تريد رؤيتنا من جديد. المشكلة هي أنها لا تستطيع ذلك».
قالت أمه: «لو، يا عزيزي، هناك أطفال - حتى في العائلات العادية - يكبرون ويرحلون، وتكون تلك نهاية الأمر».
«نعم، لكن ليس في سن السادسة عشرة. بحقّ الرب... ليس في ظل هذه الظروف. وما الذي تقولينه عن العائلات 'العادية'؟ نحن عائلة عادية، وهذه طفلة في حاجة إلى العون. هذه طفلة واقعة في مشكلة. ونحن لسنا عائلة تهمل طفلة واقعة في مشكلة».
«إنها في العشرين، يا بابا؛ في الحادية والعشرين».
قالت أمه: «في الحادية والعشرين منذ كانون الثاني الماضي».
قال لهما السويدي: «حسنًا، إنها ليست طفلة الآن. كل ما أقوله هو أنه لا ينبغي لكما المبالغة في التوقّعات حتى لا يخيب أملكما».
قال أبوه: «حسنًا، أنا لا أتوقّع هذا. إنني أكثر فهمًا من ذلك. إنني أدرك ذلك، أؤكّد لك هذا».
«لا بأس. أشك جدّيًا في أننا سنراها مرة أخرى».
كان الشيء الوحيد الأكثر سوءًا من عدم رؤيتها مرة ثانية هو أن يرونها مثلما تركها على الأرض في تلك الغرفة. خلال السنوات القليلة السابقة، كان يدفعهم، إن لم يكن في اتجاه القبول والاستسلام الكاملين، ففي اتجاه التكيف والتقييم الواقعي للمستقبل. فكيف يستطيع الآن إخبارهم بما حدث لميري؟ وكيف يستطيع العثور على كلمات لوصف حالتها من غير أن يدمّرهم تدميرًا؟ ليس في أذهانهم أدنى تصوّر عما سيرونه إذا رآوها. فما الداعي إلى أن يعرف أحدٌ أيّ شيء؟ وما الضرورة التي لا بديل عنها لأن يعرف أيٌّ منهم شيئًا؟
«هل لديك سبب يجعلك تقول هذا، يا بني؟... سبب يجعلك تقول إننا لن نراها أبدًا؟».
«إنها خمس سنين. السبب هو الزمن الطويل الذي انقضى. هذا سبب كافٍ».

«هل تعرف يا سايمور؟... أكون في الشارع أحيانًا؛ وأكون خلف إحداهن، خلف فتاة تسير أمامي... فإذا كانت طويلة القامة...».

أمسك بيد أمه وقال: «تظنين أنها ميري».

«صحيح».

«يحدث هذا لنا جميعًا».

«لا أستطيع منع ذلك».

«أفهم هذا».

قالت له: «وكلما رن الهاتف...».

«إنني أعرف».

قال أبوه: «إنني أقول لها إنها لن تفعل ذلك من خلال مكالمة هاتفية، على أية حال».

قالت لزوجها: «ولم لا؟ لماذا لا تتّصل بنا؟ أكثر ما يمكن أن تفعله أمانًا هو أن تتّصل بنا».

«ماما، إن هذه التوقّعات كلها لا تعني شيئًا. لماذا لا نحاول الليلة إبقاء هذا الكلام في حدّه الأدنى؟ أعرف أنك لا تستطيعين منع نفسك من التفكير في هذا. لا تستطيعين التحرّر منه. لا أحد منا يستطيع ذلك. لكن عليكِ أن تحاولي. لا تستطيعين جعل ما تريدين حدوثه يحدث من خلال التفكير فيه. حاولي تحرير نفسك من جزء من هذا التفكير».

أجابته أمه: «مثلما تقول، يا عزيزي. لقد صرت الآن في حال أحسن لأننا تحدّثنا عن الأمر. لا أستطيع إبقاءه في داخلي طيلة الوقت».

«أعرف هذا. لكن لا يجوز أن نتهامس في ما بيننا في حضور داون».

لكن الأمر كان أكثر صعوبة مع أبيه الذي لا يعرف أن يستقر على حال... أبوه الذي أمضى قسمًا كبيرًا من حياته في حالة انتقالية بين المودة والعداوة، بين الاستيعاب والعمى، بين الحميمية الرقيقة والهياج العنيف... هذا أكثر صعوبة عليه من التعامل مع أمّه. أبدًا لم يخشَ في يوم أن يعاركها، وأبدًا لم يكن غير واثق من الجانب الذي ستتخذه، ولا قلقًا تجاه ما قد يثير غضبها. فعلى النقيض

من زوجها، كانت سيلفيا مصنعًا كبيرًا للمحبّة العائلية. كانت شخصيتها بسيطة؛ وكان حُسن حال ولديها أهم شيء في حياتها. كان يحسّ منذ طفولته بأن الحديث معها يشبه الدخول مباشرة إلى قلبها. وأما مع أبيه، الذي ما كان الدخول إلى قلبه سهلًا إلى الحد الكافي، فقد كان عليه أولًا أن يصطدم بجمجمته، بجمجمة شخص مشاكس، فيفلقها بأقل الأضرار الممكنة حتى يعرف ما في داخلها.

لقد صارت أمه امرأة ضئيلة الحجم إلى حد مدهش. لكن ما لم يُتلفه ترقّق العظام عندها، أتلفته ميري خلال السنوات الخمس الأخيرة. الآن، صارت تلك الأم التي كانت نشطة حيوية في شبابها، وظلّت حتى مرحلة متقدّمة من أواسط العمر تتلقّى الثناء على نشاطها الفتي... صارت تلك الأم الآن سيدة متقدّمة في السنّ، وانحنى ظهرها، واستوطن غضونَ وجهها تعبير حائر مجروح. الآن، صارت الدموع تتساقط من عينيها عندما لا تكون منتبهة إلى أن أحدًا يراها. عينان فيهما تلك النظرة الموحية بأن صاحبتهما قد اعتادت العيش مع الألم وبأنها فوجئت بكونها قد عاشت مع هذا الألم كله طيلة هذا الوقت. مع هذا، فقد كانت ذكريات صباه كلها (ذكريات يعرف أنها حقيقية مهما يكن التثبّت منها صعبًا... ذكرياتٌ سيكون حتى على جيري العنيف الذي لا أوهام لديه أن يتحقّق منها إذا ما طُلب منه ذلك). ذكرياتٌ عن أمّه التي جمعتهم كلّهم تحت ظلّها، امرأة طويلة معافاة شقراء ضاربة إلى الحمرة لها ضحكة رائعة... امرأة يفتنها كونها الأنثى الوحيدة في تلك الأسرة الذكورية. عندما كان طفلًا صغيرًا، لم يكن يحسّ بحيرة وغرابة شديدتين كما يحس الآن عندما ينظر إليها ويفكر في أن معرفة الناس من ضحكاتهم سهلة مثل سهولة معرفتهم من وجوههم. عند وجود شيء يضحكها، كانت ضحكتها خفيفة أشبه برفرفة عصفور، ترتفع، وترتفع، ثم تجدها - إذا كنتَ طفلها - ترتفع من جديد مفرحةً طروبًا. لم يكن محتاجًا إلى أن يوجد معها في غرفة واحدة حتى يعرف مكانها: يكفي أن يسمع ضحكتها حتى يحدّد موقعها على خريطة البيت التي لم تكن محفوظة في دماغه بقدر ما كانت دماغَه نفسَه (لم تكن قشرة دماغه مقسمة إلى فص أمامي وفصَّين جداريين وفصين صدغيَّيْن وفصين قذاليَّيْن، بل إلى طابق سفلي وطابق علوي وقبو...

غرفة المعيشة، وغرفة الطعام، والمطبخ، إلخ).
وأما ما كان يُغمّها الآن، بعد وصولها من فلوريدا الأسبوع الماضي، فهو الرسالة التي حملتها في حقيبتها سرًّا، الرسالة الموجّهة من لو ليفوف إلى زوجة جيري الثانية التي تركها وانفصل عنها قبل فترة بسيطة. استلمت سيلفيا ليفوف من زوجها رزمة رسائل لكي تضعها في البريد، لكنها لم تستطع إرسال تلك الرسالة. لقد وجدت لديها من الجرأة ما سمح لها بالابتعاد وحيدة وفتحها، ثم أتت الآن بما كان فيها حتى يراه سايمور. «هل تعرف ماذا سيحدث لجيري إذا تلقّت سوزان هذه الرسالة؟ وهل تعرف حجم الثورة التي سيثورها؟ إنه ليس فتى ليّن الطبع. لم يكن كذلك أبدًا. إنه ليس أنت، يا عزيزي. إنه ليس دبلوماسيًا. لكنّ أباك يدسّ أنفه في كل مكان ولا تعني النتائج المترتبة على ذلك أي شيء بالنسبة إليه، طالما أنه أفلح في دس أنفه في شيء لا يعنيه. ليس عليه إلا أن يبعث إليها بهذه الرسالة التي يلقي فيها باللائمة على جيري حتى نعاني الكثير بسبب جحيم أخيك الذي لا يهدأ».
كانت الرسالة في صفحتين. وقد أتت بدايتها هكذا: «عزيزتي سوزي، إن الشيك المرفق بهذه الرسالة لك أنت، ولا أريد أن يعرف غيرك به. كأنه مال عثرتِ عليه. ضعيه في مكان ما حيث لا يدري به أحد. أنا لن أقول شيئًا؛ وأنت لا تقولي شيئًا. أريد إخبارك أيضًا بأنني لم أنسك في وصيتي. هذا المال لك فافعلي به ما تريدين. وأما الأطفال فسوف تكون رعايتي لهم أمرًا مستقلًّا. إذا قررت استثمار هذا المال، وهو ما أنصحك كثيرًا بفعله، فإنني أقترح عليك استثماره في أسهم الذهب. سوف يفقد الدولار قيمته. وأنا بنفسي وضعت عشرة آلاف دولار في ثلاثة أسهم ذهبية. سوف أعطيك أسماء الشركات المناسبة. بنمينغتون ماينز. كاستورب ديفلوبمنت. شيلي ويغن مينرال كورب. هذه استثمارات متينة. حصلت على الأسماء من رسالة بارينغتون الإخبارية التي لم أستق منها شيئًا خاطئًا حتى هذه اللحظة».
كان مشبوكًا مع الرسالة شيك محرر باسم سوزان ر. ليفوف - شيك مشبوك بحيث لا يسقط ويضيع تحت الأريكة عند إخراج الرسالة من مغلفها. كانت قيمته

سبعة آلاف وخمسمئة دولار، أي ضعفي المبلغ الذي وصلها في اليوم التالي لاتصالها باكية مستنجدة قائلة إن جيري تركها ذلك الصباح من أجل الممرضة الجديدة في عيادته. كانت تشغل موقع الممرضة الجديدة في العيادة قبل أن تبدأ علاقتها مع جيري، تلك العلاقة التي أدّت إلى تطليقه زوجته الأولى. وتقول والدة السويدي إن جيري اتصل بأبيه عندما عرف أنه أعطى الزوجة الأولى شيكًا بخمسة عشر ألف دولار وشتمه «بكل شتيمة يعرفها»، فأصاب لو ليفوف في تلك الليلة - للمرة الأولى في حياته - ألم صدري اقتضى استدعاء الطبيب في الساعة الثانية صباحًا.

والآن، بعد مرور أربعة شهور فقط على الشيك الأول، صار السويدي في مواجهة الموقف نفسه من جديد. «سايمور، ما الذي يتعيّن علي فعله؟ إنه يصرخ كثيرًا ويقول: ‘طلاقٌ ثانٍ، وأسرة محطّمة ثانية، ومزيد من الأحفاد في بيت مدمّر... ثلاثة أطفال رائعين من غير توجيه أبوي’. أنت تعرف كيف يغضب ويمضي في هذا الكلام. يتكلّم ويتكلّم، ويعيد ويعيد، إلى أن أحسب أنني سأفقد عقلي. يقول لي: ‘من أين أتى ابني بهذه البراعة كلّها في الطلاق؟ ليس لدينا أي طلاق في تاريخ هذه العائلة كلّه! ليست لدينا أية حالة طلاق!’. لا أستطيع احتمال المزيد، يا عزيزي. إنه يصرخ بي ‘لماذا لا يذهب ابنك إلى بيت الدعارة؟ لماذا لا يتزوج عاهرة من بيت الدعارة ويقضي وطره منها؟’. سوف تكون له مشاجرة ثانية مع جيري. وأنت تعرف أن جيري لا يسايره أبدًا. لا يتمتع جيري بالمراعاة التي تتمتّع بها أنت. إنه ليس كذلك أبدًا. عندما تشاجرا بشأن المعطف الذي صنعه جيري من جلود الهامستر... هل تتذكّر هذا؟ لعلك كنت في الجيش آنذاك. حصل جيري على جلود الهامستر من مكان ما - أظنّه أتى بها من المدرسة - وصنع منها معطفًا لإحدى الفتيات. ظن أنه يقدّم لها شيئًا لطيفًا. لكنها استلمت ذلك المعطف في علبة - أظنه أتاها بالبريد -. كان مطويًّا داخل العلبة ورائحته فائحة حتى السماء، فانفجرت الفتاة باكية واتصلت أمها بنا هاتفيًا، فجن جنون أبيك من الغضب. أصابه خزي شديد. ثم تشاجرا، هو وجيري، فكدت أموت من الخوف. صبي في الخامسة عشرة فقط يصرخ بأبيه ويتحدّث عن

‘حقوقه’، ‘حقوقه’. كان صراخه عن ‘حقوقه’ مسموعًا حتى شارعي برود وماركت. جيري لا يتراجع. إنه لا يعرف معنى ‘التراجع’. لكنه لن يصرخ الآن على رجل في الخامسة والأربعين بل على رجل في الخامسة والسبعين أصابته ذبحة صدرية. لن يقتصر الأمر هذه المرة على إصابته بشيء من عسر الهضم. لن يصيبه الصداع. ستكون نوبة قلبية حقيقية هذه المرة».

«لن تصيبه نوبة قلبية. تمالكي أعصابك واهدأي، يا أمي».

«هل كان ما فعلته خاطئًا؟ لم أمد يدي إلى بريد أي شخص في حياتي كلّها. لكن، كيف يمكنني تركه يبعث بهذه الرسالة إلى سوزان؟ لن تحتفظ بالأمر لنفسها، ولن تعتبره سرًّا. ستفعل ما فعلته في المرة الماضية. سوف تستخدمه ضد جيري... ستخبره به. وسوف يقتله جيري في هذه المرة».

«لن يقتله جيري. هو لا يريد قتله ولن يقتله. ابعثي بالرسالة، يا ماما. ألا يزال مغلفها موجودًا لديك؟».

«أجل».

«أليس ممزقًا؟ ألم تمزقيه؟».

«يخجلني القول لك إنه غير ممزق. لقد استعملت البخار لفتحه. لكني لا أريد أن يسقط أبوك ميتًا».

«لن يسقط ميتًا. ابقي خارج الأمر، يا ماما. أرسلي المغلف إلى سوزان، وفيه الرسالة والشيك. وعندما يتصل جيري، اخرجي من البيت واذهبي في نزهة».

«وماذا لو أصابه ألم صدري مرة أخرى؟».

«إذا أصابه ألم صدري مرة أخرى فسوف تتصلين بالطبيب مرة أخرى. ليس عليك إلا أن تبقي خارج الأمر. لا تستطيعين حمايته من نفسه. هذا شيء فات وقته منذ زمن بعيد».

«أوه، أشكر الرب على أن لدي ابنًا مثلك. أنت هو الشخص الوحيد الذي أستطيع الاستعانة به. على الرغم من مشكلاتك كلّها، وعلى الرغم من كل ما مررت به، فإنك الوحيد في هذه العائلة الذي يقول لي كلامًا حنونًا».

سأله أبوه: «هل داون صامدة؟».

«لا بأس بها».
قال أبوه: «تبدو في أحسن حال، كأنها مليون دولار. إنها تبدو تلك الفتاة نفسها من جديد. لقد كان التخلّص من تلك الأبقار أذكى شيء فعلتماه. لم تكن تعجبني أبدًا. ولم أفهم أبدًا الشيء الذي يجعلها في حاجة إليها. كانت فكرة شد الوجه فكرة جيدة. عارضتُها أول الأمر... لم تعجبني أول الأمر. لكني كنت مخطئًا. كنت مخطئًا تمامًا. لا بد لي من الاعتراف بهذا. لقد قام ذلك الطبيب بعمل ممتاز. أشكر الرب لأن ما مرّت به داون لم يعد الآن ظاهرًا على وجهها».
قال له السويدي: «لقد قام الطبيب بعمل ممتاز حقًّا، وأزال تلك المعاناة كلّها. أعاد إليها وجهها». لم تعد داون مضطرة إلى رؤية سجل بؤسها عندما تنظر في المرآة. لقد كانت حركة ذكية: أزالت ذلك الشيء من مجال رؤيتها.
قالت أمه: «لكنها لا تزال تنتظر. إنني أرى هذا يا سايمور. إن عين الأم ترى هذه الأشياء. لعل من الممكن أن تزيل آثار المعاناة عن وجهك، لكنك لا تستطيع إزالة الذكرى التي في داخلك. تحت ذلك الوجه، لا تزال المسكينة تنتظر».
«ليست داون مسكينة، إنها مقاتلة، إنها بخير. لقد اجتازت خطوات كبيرة جدًا».
صحيح... صحيح... طيلة زمن احتماله الصبور، خطت داون خطوات كبيرة جدًا من خلال اكتشافها أنها لم تعد تستطيع الاحتمال، من خلال ما أصابها من خراب ودمار، ثم من خلال تعرية نفسها منه. إنها لا تقاوم الضربات مثلما يقاومها، بل تتلقى الضربات وتتحطّم، ثم تنهض من جديد وتقرّر أن تعيد صنع نفسها. هذا شيء مثير للإعجاب... هجرت أول الأمر الوجه الذي حمل آثار هجوم ابنتها، ثم هجرت البيت الذي حمل آثار هجوم ابنتها. فبعد كل حساب، هذه الحياة حياتها، وسوف تستعيد داون الأصلية القديمة وتنطلق من جديد حتى لو كان ذلك آخر شيء تفعله في حياتها.
«فلنوقف هذا الحديث، يا ماما. تعالي معي إلى الخارج حتى أشعل الفحم من أجل الشواء».
بدت أمه كما لو أنها موشكة على البكاء من جديد. قالت له: «لا، أشكرك يا عزيزي. سأظلّ هنا وأتابع التلفزيون مع بابا».

«لقد تابعتِ التلفزيون طيلة النهار. اخرجي معي وساعديني».

«لا، شكرًا يا عزيزي».

قال أبوه: «إنها تنتظر استدعاء نيكسون. عندما يستدعون نيكسون ويغرسون في قلبه وتدًا، فسوف تكون أمك في السماء السابعة».

قالت أمه: «ألن تكون في السماء السابعة أنت أيضًا؟ إنه لا يستطيع النوم. لا ينام بسبب ماتنزر. يظل ساهرًا حتى منتصف الليل، ويكتب تلك الرسائل. أجد نفسي مضطرة إلى مراقبة بعضها؛ وأجد نفسي مضطرة إلى إجباره على التوقف لأن لغة رسالته تكون قذرة جدًا».

قال والد السويدي بمرارة: «كم هو كريه!... ذلك الكلب الفاشي البائس». ثم أطلق، بقوة مفزعة، سلسلة من الشتائم اللاذعة الموجهة إلى رئيس الولايات المتحدة الأميركية. بمعزل عن التأتأة التي كانت تمنح شتائم ميري طابعًا قاتلًا يذكّر بطلقات البندقية الرشاشة، فقد كانت ميري نفسها غير قادرة على مجاراة ما تفوّه به الآن، حتى في أيام تألّقها. كان نيكسون يمنحه الحرية في قول أي شيء، مثلما كان جونسون يمنح ميري تلك الحرية. وكان لو ليفوف يبدو كأنه يقلد كرهَ حفيدته الفظيع للرئيس ليندون جونسون، فيوجّه إلى الرئيس نيكسون شتائمه المنفلتة من أية رقابة. أوقعوا بنيكسون. اعثروا على طريقة للإيقاع بابن الحرام. أوقعوا بنيكسون وسوف يكون كل شيء على ما يرام. إذا استطعنا أن نطلي نيكسون بالقار ونكسوه بالريش(48)، فسوف تعود أميركا كما كانت نظيفة من كل ما تسلل إليها من أشياء كريهة غير قانونية، ومن كل ما صار فيها من عنف وحقد وكره وجنون. ضعوه في قفص. ضعوا هذا المحتال في قفص، وسوف تعود بلادنا العظيمة إلى سابق عهدها!».

أتت داون من المطبخ راكضة لترى ما الأمر. وسرعان ما راحوا يبكون جميعًا وقد احتضن كل منهم الآخر. تجمعوا معًا يذرفون الدمع في الشرفة الخلفية العتيقة الكبيرة كما لو أن القنبلة كانت قد زرعت تحت البيت فلم يبق منه شيء غير تلك الشرفة. لم يكن السويدي قادرًا على فعل أي شيء لمنعهم من البكاء، ولا لمنع نفسه.

لم يسبق أبدًا أن بدت العائلة محطّمة إلى هذا الحدِّ. فعلى الرغم من كل ما فعله السويدي لتخفيف أثر الصدمة الباقي من رعب ذلك اليوم ولمنع نفسه من الانهيار... على الرغم من التصميم الذي تسلح به بعد عودته مسرعًا عبر ذلك النفق، واكتشافه أن سيارته لا تزال موجودة هناك حيث تركها سليمة في ذلك الشارع العابس في داون نِك. وعلى الرغم من التصميم الذي أفلح في تسليح نفسه به بعد أن هاجمه جيري ذلك الهجوم العنيف على الهاتف، وعلى الرغم من التصميم الذي استجمعه مرة أخرى عندما وقف تحت الأسلاك الشائكة في موقف السيارات في المصنع وقد حمل مفتاح سيارته في يده، وعلى الرغم من شدة مراقبته نفسه ومما لقيه من عناءٍ للظهور بمظهر الشخص المنيع، ومن الواجهة الزائفة المقصودة الموحية بالثقة بالنفس - الواجهة التي كان مصمِّمًا على استخدامها لحماية من يحبهم من الأربعة الذين قتلتهم ابنته، ما كان الآن في حاجة إلى أكثر من أن يخطئ قليلًا فيقول: «طماطم ميري الكبيرة» بدلًا من «طماطم داون» حتى يشعروا جميعًا بأن شيئًا شديد الفظاعة قد حدث.

إضافة إلى أفراد عائلة ليفوف، كان لديهم ستة ضيوف على العشاء في تلك الليلة، كان أول الواصلين بيل وجيسي أوركوت، معماري داون وزوجته، اللذين كانا جارين ودودين عاشا على امتداد تلك السنين كلّها على مسافة أميال قليلة على ذلك الطريق في بيت أهل أوركوت القديم فصارا من معارف السويدي وزوجته، ثم صارا من ضيوفهما على العشاء بعد أن بدأ بيل أوركوت تصميم بيت لو ليفوف الجديد. منذ زمن بعيد، عُرفت عائلة أوركوت بأنها عائلة قانونية بارزة في مقاطعة موريس: محامون، وقضاة، وأعضاء مجلس شيوخ في الولاية. وبما أنه كان رئيس جمعية المعالم التاريخية المحلّية التي كرّست نفسها باعتبارها الضمير التاريخي لجيل جديد من دعاة الحفاظ على البيئة، كان أوركوت قائدًا للمعركة الخاسرة التي جرت من أجل الحيلولة دون مرور الطريق رقم 287 العابر للولاية عبر المركز التاريخي لموريستاون؛ لكنه كان فائزًا في الحملة الرامية إلى منع إنشاء مطار كبير كان من شأنه أن يدمّر منطقة غريت سوامب الواقعة إلى الغرب من شاثام، ويدمر معها قسمًا كبيرًا من الحياة

البرية في المقاطعة. وقد كان يحاول الآن حماية بحيرة هوباتكونغ من التلوّث الذي يدمّرها. لقد وضع على واجهة سيارته لُصاقة كتب عليها «نريد موريستاون خضراء، هادئة، نظيفة». كان قد وضع لصاقة مماثلة على سيارة السويدي عندما التقيا أول مرة، وقال له: «نحن في حاجة إلى كل عون نستطيع الحصول عليه حتى نُبعد عنا الشرور الحديثة». وعندما عرف أن جيرانه الجدد كانوا في الأصل من أبناء المدن الذين تمثّل المرتفعات الريفية من مقاطعة موريس شيئًا مجهولًا بالنسبة إليهم، تطوّع لأخذهم في جولة في المقاطعة تبيّن أن من المقرر أن تستمر طيلة اليوم وتمتد حتى اليوم التالي لولا أنْ كذب السويدي وقال إن عليه أن يذهب إلى إليزابيث مع داون وطفلتهما الصغيرة صباح يوم الأحد لزيارة أهل زوجته.

كانت داون قد رفضت تلك الجولة منذ البداية. فمنذ اللقاء الأول ضايقها شيء في سلوك أوركوت الاستحواذي، لمست في لباقته المفرطة شيئًا وجدته أنانيًا على نحو مزعج، وجعلها تظنّ أن هذا النبيل الريفي الشاب صاحب الأدب الجم لا يرى فيها إلا إيرلندية مُدّعية مضحكة، فتاة تمكّنت على نحو ما من التوصّل إلى درجة من البراعة في تقليد من هم أفضل منها، مما جعلها الآن تقتحم بسخافتها فناء بيته المتميز. كانت ثقته بنفسه هي ما أثار توتر أعصابها، تلك الثقة الكبيرة حقًّا. صحيح أنها كانت ملكة جمال نيوجرسي، لكن السويدي كان قد رآها في بضع مناسبات مع أولئك الشباب الإيرلنديين من طلبة الجامعات الممتازة ممن يرتدون قمصان نادي تشيتلاند. كانت نزعتها الدفاعية المتحدّية تأتي مفاجئة دائمًا. ولم يكن يبدو عليها أبدًا أي إحساس بنقص الثقة بالنفس إلى أن تلتقي أوركون وزوجته فتشعر بوخزة الفارق الطبقي. كانت تقول: «إنني آسفة! أعرف أن هذا ناتج عن حساسيتي الإيرلندية، لكني لا أحب أن ينظر إليّ أحد نظرة استعلاء. وبقدر ما كانت هذه الحساسية عندها هي العامل السرّي الذي جذبه إليها دائمًا (كان يقول لنفسه معتزًا: ليست زوجتي خصمًا سهلًا عندما تواجه عدوانًا)، فقد كانت تلك الخصلة تقلقه وتحبطه أيضًا. كان يفضّل اعتبار داون شابة عظيمة الجمال حقّقت إنجازات كبيرة وصارت أكثر شهرة من أن

تظهر لديها هذه الحساسية. «الفارق الوحيد بيننا وبينهم»... كان البروتستانت هم المقصودون بالضمير 'هم'... «هو أننا نشرب أكثر منهم قليلًا، قليلًا فقط. 'جارتنا الكاثوليكية الجديدة، وزوجها العبري'. أتخيل سماعه يقول هذا لأصدقائه. إنني آسفة - إذا كنت قادرًا على الذهاب، فلا مشكلة عندي. لكني لا أستطيع إظهار الاحترام تجاه ما لديه من ازدراء لأصولنا المتواضعة».

المحرك الرئيسي في شخصية أوركوت (كانت واثقة من هذا حتى من غير أن تتحدّث معه) هومعرفته الجيّدة جدًا بمدى عراقته وعراقة سلوكه؛ وهذا ما جعلها تبقى في البيت يوم تلك الرحلة راضية تمامًا بأن تظل وحدها مع طفلتها الصغيرة.

انطلق زوجها مع أوركوت عند الساعة الثامنة صباحًا فتوجّها إلى الزاوية الشمالية الغربية من المقاطعة، ثم عادا أدراجهما على امتداد العمود الفقري المتعرّج لمنطقة مناجم الحديد القديمة. وكان أوركوت يتحدّث طيلة الوقت عن أيام القرن التاسع عشر المجيدة عندما كان الحديد مَلِكًا، وعندما استخرجت ملايين الأطنان من هذه الأرض تحديدًا. اعتبارًا من هابرنيا وبونتون وصولًا إلى موريستاون، كانت البلدات والقرى مكتظة بمصانع درفلة الحديد ومصانع المسامير والقضبان وورشات الحدادة والصهر. أخذه أوركوت إلى المصنع القديم في بونتون حيث كانوا يصنعون المحاور والعجلات والقضبان من أجل شركة سكة الحديد في موريسون وإيسكس. أخذه أيضًا إلى مصنع البارود في كينفيل الذي كان في ذلك الوقت يصنع الديناميت من أجل المناجم والـ«تي إن تِ» من أجل الحرب العالمية الأولى، كما مهد - إلى هذا الحد أو ذاك - الطريق أمام الحكومة من أجل بناء مصانع الأسلحة في بيكاتيني حيث كانوا ينتجون القذائف الكبيرة من أجل الحرب العالمية الثانية. جعله يرى مصنع كينفيل، الموقعَ الذي حدث فيه انفجار الذخيرة في سنة 1940. كان ذلك الانفجار الذي قتل فيه اثنان وخمسون شخصًا ناتجًا عن الإهمال، على الرغم من الشك أول الأمر في أنه كان من صنع جواسيس وعملاء أجانب. قاد به السيارة مسافة غير قليلة على امتداد المجرى الغربي لقناة موريس القديمة حيث كانت السفن تنقل

فحم الأنتراسيت من فيليبسبرغ من أجل مصاهِر الحديد في موريس. ومع ابتسامة صغيرة، أضاف أوركوت (ففاجأ السويدي) إلى أنه على ضفة نهر ديلاوير الأخرى، قبالة فيليبسبرغ، تقع بلدة إيستون التي قال عنها: «كانت إيستون تضم بيوت الدعارة التي يقصدها الشباب القادمون من أولد ريمروك».

كانت نيوارك ومدينة جيرسي عند مدخل قناة موريس. وكان السويدي يعرف نهاية القناة من جهة نيوارك، منذ أن كان صبيًا يُذكّرُه أبوه كلما نزلا إلى مركز المدينة وصارا على مقربة من بولفار رايمون بأن القناة كانت تجري محاذية لشارع هايستريت حتى السنة التي سبقت ولادة السويدي (كانت قريبة من المركز الاجتماعي اليهودي)، وتستمر حتى هذا الموضع الذي فيه الآن الشارع العريض الذي يخترق المدينة، بولفار رايمون، وتسلكه السيارات القادمة من برود ستريت من تحت محطة باينْ ذاهبة إلى باسايد آفنيو وإلى سكايواي.

في ذهن السويدي الصغير، كانت كلمة «موريس» في «قناة موريس» لا علاقة لها أبدًا بمقاطعة موريس التي كانت مكانًا يبدو له في ذلك الوقت مكانًا بعيدًا جدًا مثل ولاية نبراسكا، بل بشقيق والده الأكبر صاحب المشاريع الذي كان اسمه موريس. ففي سنة 1918، عندما كان عمر موريس أربعة وعشرين عامًا، كان قد صار صاحب متجر أحذية يديره مع زوجته الشابة. كان ذلك المتجر غرفة صغيرة في شارع فيري في منطقة داون نِك وسط فقراء البولنديين والإيطاليين والإيرلنديين. وقد ظلّ متجره أكبر إنجاز من إنجازات عائلة ليفوف حتى ذلك العقد الذي أبرمه لو ليفوف زمن الحرب مع الوحدات النسائية في الجيش فكان من شأنه أن وضع شركة نيوارك ميد على الخريطة. مات موريس بعد ليلة واحدة من إصابته بالأنفلونزا.

خلال جولتهما ذلك اليوم، وكلما ذكر أوركوت قناة موريس، كان ذهن السويدي يتّجه أولًا إلى عمه المتوفى الذي لم يعرفه أبدًا، إلى ذلك الأخ المحبوب الذي افتقده أبوه كثيرًا وصار الصبي يظن أن القناة التي تمر من تحت بولفار رايمون تحمل اسمه. وحتى عندما اشترى أبوه ذلك المصنع في سنترال آفنيو (كان لا يبعد أكثر من مئة يارد عن الموضع الذي تنعطف فيه القناة شمالًا في اتجاه

بيلفيل، مصنع كان قائمًا على مقربة شديدة من خط مترو المدينة الذي أنشئ تحت مسار القناة القديم)، ظلّ عقل السويدي مصرًا على أن اسم القناة مرتبط بنضالات عائلتهم وتاريخها لا بتاريخ الولاية.

بعد زيارة مقر قيادة جورج واشنطن في موريستاون (حيث تظاهر السويدي بأدب أن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها البنادق والكرات المعدنية التي تقذفها المدافع والنظارات القديمة، وبأنه لم يزر هذا المكان عندما كان تلميذ مدرسة في الصف الرابع في نيوارك)، انطلق مع أوركوت في اتجاه الجنوب الغربي خارج مدينة موريستاون، فبلغا مقبرة فيها كنيسة يعود تاريخها إلى أيام الثورة الأميركية. كان الجنود الذين قتلوا في الحرب مدفونين هناك ومعهم سبعة وعشرون جنديًا آخر دفنوا في قبر جماعي بعد أن سقطوا ضحايا وباء مرض الجدري الذي اجتاح معسكرات الجيش في تلك المنطقة في ربيع سنة 1777. وفي الخارج، بين شواهد القبور القديمة جدًا، ظل أوركوت مصدرًا غزيرًا للمعلومات التاريخية مثلما كان على الطريق طيلة الصباح.

وفي المساء، على طاولة العشاء، عندما سألته داون عن الأماكن التي أخذه إليها السيد أوركوت، ضحك السويدي وقال: «لقد حصلتُ على مقابل جيد لنقودي. إن هذا الشخص موسوعة تسير على قدمين. لم أر نفسي جاهلًا هكذا في حياتي كلّها». سألته داون: «وهل كان ذلك مضجرًا كثيرًا؟». أجابها السويدي: «لماذا؟ لم يكن مضجرًا على الإطلاق. لقد أمضينا وقتًا طيبًا. إنه رجل جيّد. شديد اللطف. إنه أكثر لطفًا مما قد يظن المرء عندما يراه أول مرة. إن لدى أوركوت ما هو أكثر من ربطة العنق المدرسية القديمة». في تلك اللحظة، كان يفكر تحديدًا في بيت الدعارة في إيستون، لكنه قال بدلًا من ذلك: «يعود تاريخ أسرته إلى زمن الثورة».

أجابت داون: «أليست هذه مفاجأة؟».

قال من غير اكتراث بالسخرية الواضحة في نبرة صوتها: «هذا الرجل يعرف كل شيء. خذي على سبيل المثال تلك المقبرة القديمة التي ذهبنا إليها. إنها قائمة فوق قمة تلة في تلك المنطقة. وهكذا فإن المطر الذي يسقط على الجهة الشمالية

من سقف الكنيسة القديمة يشق طريقه حتى نهر باسايد ثم يصل آخر الأمر إلى خليج نيوارك. وأما المطر الذي يسقط على الناحية الجنوبية من السقف فيسيل في اتجاه فرع من فروع نهر راريتان، ثم ينتهي به المطاف إلى نيو برونزويك».

قالت داون: «لا أصدق هذا».

«لا بأس، لكنه حقيقة».

«أرفض تصديق هذا. لا يمكن أن يذهب إلى برونزويك».

«أوه، لا تكوني طفلة يا داون. هذه معلومات جيولوجية مهمّة». ثم أضاف عامدًا: «معلومات شديدة الأهمية»، حتى يجعلها تشعر بأنه لا يشاركها حساسيتها الإيرلندية. كان أكبر من ذلك؛ وقد اتضح له أنها أكبر من ذلك أيضًا.

عندما ذهبا إلى السرير تلك الليلة، كان يفكر في أنه سيطلب من أوركوت، عندما تصير ميري في المدرسة، أن يأخذها في هذه الجولة نفسها حتى تتعلّم منه تاريخ المقاطعة التي تترعرع فيها. كان يريد أن يجعلها ترى أين كانت تمر سكة القطار في بداية القرن فتصل إلى موريستاون قادمة من وايتهاوس لتنقل الدراق من بساتين في مقاطعة هانتردون. ثلاثون ميلًا من سكة الحديد من أجل نقل الدراق فقط. في ذلك الزمان، كان الطلب على الدراق شديدًا في أوساط الموسرين في المدن الكبيرة، فكانوا يشحنونه من موريستاون إلى نيويورك. كان قطارًا خاصًّا بالدراق. أليس هذا عجيبًا؟ في المواسم الطيبة، كانت سبعون عربة قطار تُحمَّل بالدراق من بساتين هانتردون. كان في تلك المنطقة مليونا شجرة دراق قبل أن يصيبها مرض فيقتلها كلّها. لكنْ، لماذا يطلب هذا من أوركوت؟ إنه قادر على إخبارها بنفسه عن ذلك القطار، عندما يحين الوقت، وعن الأشجار والمرض الذي أصابها. وسوف يأخذها بنفسه لكي يريها أين كانت تلك العربات. لا حاجة إلى الاستعانة بأوركوت لكي يفعل هذا من أجله.

عندما كانا في المقبرة، أشار أوركوت إلى شاهدة قبر بنّية متآكلة حُفرت في أعلاها صورة نسر مجنّح... كانت شاهدة قبر قريبة من جدار الكنيسة الخلفي. قال له أوركوت: «هذا قبر ثوماس. مهاجر بروتستانتي من شمال إيرلندا. وصل

في سنة 1774، وكان في العشرين من عمره. التحق بوحدة ميليشيا محلية وصار جنديًا فيها. حارب في معركة ترينتون الثانية في الثاني من كانون الثاني سنة 1777. كانت تلك المعركة الخطوةَ التي مهدت لنصر جيش واشنطن في برنستون في اليوم التالي».

قال السويدي: «لم أكن أعرف هذا».

«... استقرّ آخر الأمر في قاعدة الإمدادات في موريستاون. كان مسؤولًا عن دعم قطار المدفعية القارّيّ. ثم اشترى بعد الحرب شركة للحديد في موريستاون لم يلبث أن دمرها في سنة 1795 طوفان ناتج عن أمطار غزيرة. كانا طوفانين، في 1794 وفي 1795. كان ثوماس من أشد مناصري جيفرسون. ولم يلبث أن أتاه تعيين سياسي من بلومفيلد الذي كان حاكم الولاية، فأنقذ حياته بعد خراب شركته. صار موظّفًا قضائيًا في مقاطعة موريس. ثم مديرًا للسجلات. ثم صار كاتب المقاطعة. ها هو هنا. الأب القوي الذي أنجب أطفالًا كثيرين».

قال السويدي: «أمر مثير للاهتمام»... أثار هذا الرجل اهتمامه لحظة معرفته بقصّته بعد موته بزمن طويل. وأما ما أثار اهتمامه فيه فهو أنه لم يعرف شخصًا مثل هذا من قبل.

قال أوركوت وهو يقوده إلى شاهدة قبر قديمة بنيّة أخرى على مسافة نحو عشرين قدمًا من الأولى. كانت صورة ملاك منقوشة على قمة الشاهدة؛ وكانت محفورة في أسفلها أربعة أبيات شعرية غير مقروءة. قال أوركوت: «هذا ابنه ويليام. عشرة أبناء. مات أحدهم قبل أن يبلغ الأربعين، لكن البقية عاشوا طويلًا. انتشروا في أنحاء المقاطعة كلّها. لم يعمل أحد منهم في الزراعة. كان من بينهم قضاة، ومسؤولو شرطة، وأصحاب أعمال حرة، ومديرو مراكز بريدية. كنت تجد أبناء عائلة أوركوت في كل مكان، حتى في بلدة وارن وفي الشمال، في توسكس. كان ويليام هو الثري بينهم. عمل في إنشاء الطرق، وفي الصيرفة، وصار أحد الناخبين الرئاسيين في نيوجرسي في 1828. ساهم في حملة آندرو جاكسون الانتخابية. واستفاد من فوز جاكسون بأن حصل على منصب قضائي كبير. صار عضوًا في أعلى هيئة قضائية في الولاية. لم يكن محاميًا قط. لم تكن

لهذا الأمر أهمية آنذاك. لكنه كان قاضيًا يحظى باحترام كبير عند وفاته. أترى ما هو مكتوب على شاهدة القبر؟ ‘مواطن فاضل نافع’. وهناك ابنه، ذلك هو قبره... ابنه جورج الذي كان كاتبًا لدى أوغست فينبلي، ثم صار شريكه. كان فينبلي واحدًا من مُشرّعي الولاية. وقد دفعته قضية العبودية في اتجاه الحزب الجمهوري...».

قال السويدي لداون (بصرف النظر عن كونها راغبة في سماعه أو غير راغبة - الحقيقة لم تكن راغبة في سماع هذا): «كان ذلك درسًا في التاريخ الأميركي. جون كوينسي آدمز. آندرو جاكسون، أبراهام لنكولن. وودرو ويلسون. كان جدّه في صف واحد في المدرسة مع وودرو ويلسون. كان ذلك في برنستون. لقد ذكر لي السنة، لكني نسيتها الآن. لعلها سنة 1879! امتلأ رأسي بالتواريخ، يا داون. أخبرني الرجل بكل شيء. وكل ما كنا نفعله هو التجوّل في مقبرة خلف كنيسة مقامة على قمة تل. كان ذلك شيئًا مفيدًا. كان مدرسة حقيقية».

لكنّ مرة واحدة كانت كافية. أبدى أقصى ما استطاعه من اهتمام، ولم يُقصّر أبدًا في محاولة جعل دماغه يتابع تقدّم آل أوركوت على امتداد قرنين تقريبًا... على الرغم من هذا، كلما ذكر أوركوت اسم «موريس» مشيرًا به إلى مقاطعة موريس، كان ذهن السويدي يتّجه إلى عمه موريس ليفوف. لم يكن قادرًا على تذكّر أي وقت في حياته أحسّ فيه بأنه مثل أبيه - ليس ابن أبيه، بل مثل أبيه - أكثر مما أحسّه عندما كان يتجوّل بين قبور آل أوركوت. لا تستطيع عائلته منافسة عائلة أوركوت عندما يتعلّق الأمر بالأسلاف: سيفرغ آل ليفوف من تعداد أسلافهم في دقيقتين فقط. فإذا عدت إلى مرحلة ما قبل نيوارك، أي إلى بلدهم القديم، فإن أحدًا لم يكن يعرف شيئًا. لا يعرفون أسماء أسلافهم قبل نيوارك، ولا أي شيء عنهم، ولا كيف كانوا يعيشون، ولا كيف كانت ميولهم السياسية. لكن أوركوت كان قادرًا على المضي في الحديث عن أسلافه إلى الأبد. كان ذلك الشخص - أوركوت - قد سبق آل ليفوف إلى كلِّ درجة اجتماعية يمكنهم ارتقاءها!

أهذا هو السبب الذي جعل أوركوت يبالغ كثيرًا؟ هل كان يريد أن يوضح ما

تتهمه داون بأنه يريد جعله واضحًا من خلال طريقته في الابتسام للآخر: أن يوضح من هو؛ وأن يوضح أن الآخر ليس كذلك؟ لا، هذا لا يشبه أسلوب تفكير داون بقدر ما هو شديد الشبه بأسلوب تفكير أبيه. من الممكن أن تكون الحساسية اليهودية تجاه الآخرين في مثل شدّة الحساسية الإيرلندية، بل من الممكن أن تكون أشد منها. لكنهما لم ينتقلا للإقامة في هذا المكان حتى يجدا نفسيهما عالقين في هذه الأمور. هو ليس من خرّيجي جامعات النخبة، لقد تعلم، مثل داون، في جامعة أوبسالا المتواضعة في مقاطعة إيست أورينج، وكان يظن أن «رابطة اللبلاب»(49) اسمٌ لنوع من الملابس قبل أن يعرف أن لهذا المصطلح علاقة بالجامعات. ثم اتضحت له الصورة شيئًا بعد شيء... بالطبع... عالم للأثرياء تكسو نباتات اللبلاب مبانيه ويمتلك فيه الناس مالًا كثيرًا ويرتدون ملابس ذات طابع خاص يميّزهم. عالم لا يقبل اليهود، ولا يعرف اليهود، بل لعلّه لا يحب اليهود كثيرًا. ولعله لا يحب الإيرلنديين الكاثوليك أيضًا... هذا ما عرفه من كلام داون. بل لعل ذلك العالم يزدري الإيرلنديين الكاثوليك. لكن أوركوت كان أوركوت. وينبغي الحكم عليه تبعًا لقيمه الخاصّة به لا تبعًا لقيم «رابطة اللبلاب». طالما بقي منصفًا محترمًا معي، فسأظلّ منصفًا محترمًا معه.

لم تكن في ذهنه أية مشكلة تجاه أوركوت غير أن ذلك الرجل يمكن أن يصير مضجرًا عندما يُكثر الحديث عن الماضي. لم يكن السويدي ليرى في الأمر أكثر من ذلك إلا إذا أثبت أحد عكسه. لم يأتوا إلى السكن هنا حتى ينشغل بالهم بجيران لهم يقيمون خلف التلة ولا يُرى بيتهم من هنا. كان يمازح أمه بالقول إنهم أقاموا في هذا المكان «لأنني أريد حيازة الأشياء التي لا يمكن شراؤها بالمال». كان كل من يحزم أمتعته ويهجر نيوارك يتوّجه إلى واحد من شوارع الضواحي الهادئة في ميبل وود أو في ساوث أورينج؛ وأما هم - بالمقارنة مع الآخرين - فقد ذهبوا للإقامة على «خط الجبهة». خلال السنتين اللتين أمضاهما مع قوات مشاة البحرية في ساوث كارولاينا، كانت تثير النشوة في نفسه فكرة أن «هذا هو الجنوب العتيق. إنني الآن تحت خط ماسون - دِكسون. إنني في عمق الجنوب!». صحيح أن الجنوب كان بعيدًا جدًا، وأن السويدي ما كان قادرًا

على التنقل بين بيته ووحدته العسكرية، لكنه صار الآن قادرًا على تفادي الذهاب إلى ميبل وود وساوث أورينج، بل صار قادرًا على الذهاب إلى «محميّة الجبل الجنوبي» التي لا تبعد عنه كثيرًا، ثم يتابع السير بعدها فيبتعد غربًا في نيوجرسي قدر ما يشاء، لكنه يظلّ قادرًا على الوصول كل يوم إلى سنترال آفنيو في ظرف ساعة واحدة. ولم لا؟ صار يملك مئة أكر من أميركا. أرض أخليت أول الأمر من الأشجار لا من أجل الزراعة، بل من أجل تزويد مصانع الحديد القديمة بالحطب. ومصانع كانت تستهلك في السنة ألف أكر من الأشجار.
(اتضح له أن معرفة السيدة مالكة البيت والأرض بالتاريخ المحلّي تكاد تماثل معرفة بيل أوركوت. وأدرك أنها لم تكن أقل منه كرمًا في بسط تلك المعلومات أمام مشترٍ محتملٍ قادم من شوارع نيوارك). حظيرة، وبركة ماء للطاحون، وجدول ماء، وبقايا أساس الطاحون التي كانت تزوّد جنود جورج واشنطن بالدقيق. وفي مكان ما من قطعة الأرض تلك، كان هناك منجم حديد مهجور.
احترق البيت الأصلي بعد الثورة مباشرة؛ وقد كان بيتًا خشبيًا وإلى جواره منشرة للأخشاب. حلّ هذا البيت الحجري محلّ البيت القديم. وبحسب التاريخ المنقوش على حجر فوق باب القبو وعلى أحد الروافد عند الباب الأمامي، فقد بني البيت في سنة 1786 وأنشئت جدرانه الخارجية بحجارة جيء بها من مواقد معسكرات الجيش الثوري السابقة المنتشرة في التلال المحيطة. كان بيتًا حجريًا كالذي حلم به دائمًا... بيت له سقف مائل متعدّد الطبقات. وفي المكان الذي كان مطبخًا من قبل، ثم صار الآن غرفة طعام، كان هناك موقد لا يشبه أي موقد رآه من قبل. موقد كبير يتّسع لشيّ ثور كامل. كان ذلك الموقد مزودًا بباب وبرافعة من أجل تعليق غلاية ماء معدنية وإدارتها حتى تصير فوق النار. كانت عارضة تزيينية ارتفاعها تسعة عشر إنشًا ممتدة على عرض الغرفة كله، سبع عشرة قدمًا. أربعة مواقد أصغر حجمًا في الغرف كلها، عاملة كلها، ومحتفظة كلها بمداخنها الأصلية. نحتٌ وتشكيل على الخشب لا يكاد يرى تحت طبقات وطبقات من الطلاء على امتداد أكثر من مئة وستين سنة تنتظر من يكشف عنها ويستصلحها. ممر مركزي عرضه عشر أقدام. سلّم له درابزين منحوت من

خشب القيقب المتموّج الشاحب - (قالت له السيدة صاحبة البيت إن استخدام خشب القيقب المتموج في هذه الأجزاء كان أمرًا نادرًا في ذلك الزمان). غرفتان إلى كل جانب من جانبي السلم في الطابق العلوي وفي الطابق السفلي؛ أي ثماني غرف، بالإضافة إلى المطبخ وإلى الشرفة الخلفية الكبيرة... فلماذا لا يكون هذا البيت بيته؟ لماذا لا يتملّكه؟ «لا أريد العيش إلى جوار أحد. لقد فعلت هذا من قبل. كانت نشأتي هكذا. لا أريد رؤية مدخل الجيران من نافذتي. أريد رؤية الأرض... أريد رؤية جداول الماء جارية في كل مكان. أريد رؤية الأبقار والخيول. يقود المرء سيّارته مسافة صغيرة في ذلك الطريق فيجد شلالات متدفّقة أمامه. لسنا مضطرين للعيش مثلما يعيش أي شخص آخر... صرنا الآن قادرين على العيش كيفما شئنا. لقد فعلناها. لم يمنعنا أحد. لم يكن أحد قادرًا على منعنا. لقد تزوّجنا. صرنا قادرين على الذهاب إلى أي مكان، وعلى فعل أي شيء. داون... صرنا حُرَّيْن يا داون!».

إلا أن التوصّل إلى الحرّية لم يكن من غير عناء إذ إن أباه كان يضغط عليه حتى يشتري بيتًا في مشروع نيوستيد للتطوير العقاري في ضواحي ساوث أورينج حيث يمكنه أن يشتري بيتًا حديثًا مزوّدًا بكل ما هو جديد بدلًا من هذا «الضريح» المتداعي. «لن تتمكّن أبدًا من تدفئته». هذا ما تنبّأ به لو ليفوف يوم وقعت عينه أول مرة على ذلك البيت الحجري الضخم الخاوي الذي كانت عليه لافتة تقول «للبيع»، بيت بين التلال على طريق بعيد عن كل شيء، بعيد أحد عشر ميلًا إلى الغرب من أقرب محطة قطار (محطّة لاكاوانا في موريستاون)، حيث العربات الخضراء ذات الأبواب المنزلقة والمقاعد الخشبية التي تأخذ الناس طيلة المسافة حتى نيويورك. ولأن ذلك البيت كان معروضًا للبيع مع مئة أكر من الأرض ومع حظيرته المتداعية وبقايا طاحونة، لأنه كان خاليًا معروضًا للبيع منذ قرابة سنة كاملة، فقد كان مطلوبًا فيه ما يعادل نصف ثمن بيت قائم على أكرين من الأرض في نيوستيد. «ستكلّفك تدفئة هذا البيت ثروة؛ وستتجمّد حتى الموت، على الرغم من ذلك. وعندما يهطل الثلج، هنا، يا سايمور، فكيف ستذهب إلى محطة القطار؟ لن تستطيع الذهاب عبر هذه الطرق. ولماذا - بحق

الجحيم - يجد نفسه في حاجة إلى هذه الأرض كلها». كان هذا سؤالًا وجّهه إلى أم السويدي لو ليفوف التي كانت واقفة بين الاثنين، وكانت تحاول إبقاء نفسها خارج هذه المناقشة متظاهرة بالنظر إلى قمم الأشجار المصطفّة على امتداد الطريق. (عرف السويدي فيما بعد أنها كانت تبحث - عبثًا - عن مصابيح الإنارة في ذلك الشارع). سأله أبوه: «وماذا تفعل بهذه الأرض كلها؟ هل تريد إطعام جياع الأرمن؟ أتعرف ماذا؟ أنت حالم. لا أدري إن كنت تعرف أين يقع هذا المكان. فليكن كل منا صريحًا مع الآخر في ما يخص هذا الأمر: هذه منطقة متعصّبة ضيّقة الأفق. لقد كانت منظمة كوكلوكس كلان مزدهرة في العشرينات، فهل كنت تعرف هذا؟ إنها الكوكلوكس كلان. أشخاص كانوا يضعون صلبانًا مشتعلة أمام بيوتهم هنا».

«بابا، لم تعد منظمة كوكلوكس كلان موجودة هنا».

«أوه، أليست موجودة؟ هذه هي ولاية نيوجرسي الجمهورية المتعصّبة، يا سايمور. إنهم جمهوريون هنا، من أعلاهم إلى أسفلهم». «بابا، إيزنهاور هو الرئيس الآن. والبلد كلها جمهورية. إيزنهاور هو الرئيس وروزفلت مات».
«نعم؛ لقد كان هذا المكان جمهوريًا عندما كان روزفلت حيًا. كانوا جمهوريين في زمن New Deal(50). فكّر في هذا. لماذا كانوا يكرهون روزفلت هنا، يا سايمور؟». «لست أعرف السبب. لأنه كان ديمقراطيًا». «لا، كانوا يكرهون روزفلت لأنهم لا يحبّون اليهود والإيطاليين والإيرلنديين... هذا ما جعلهم في الأصل ينتقلون إلى هذه المنطقة. لم يكونوا يحبون روزفلت لأنه اهتم بأولئك الأميركيون الجدد. لقد فهم حاجاتهم وحاول مساعدتهم. لكن أبناء الحرام هنا ليسوا كذلك. ليسوا مستعدّين لتقبل اليهود. إنني أحدثك عن المتعصبين، يا بني. لست أتحدّث عن الناس العاقلين المعتدلين... أتحدّث عن الكراهية. هنا يعيش الكارهون، في هذا المكان».

كانت نيوستيد هي الإجابة البديلة. ففي نيوستيد، لن يكون لديه صداع المئة أكر. وفي نيوستيد، سيكون المجتمع المحيط كلّه من الديمقراطيين. وفي نيوستيد يمكن أن يعيش بين أسر يهودية شابّة، ويمكن أن تترعرع طفلته مع أطفال يهود.

وسيكون سهلًا عليه الذهاب إلى شركة نيوارك ميد، لأن المسافة عبر جادة ساوث أورينج، لا تتجاوز نصف ساعة. «بابا، المسافة من هنا إلى موريستاون خمس عشرة دقيقة فقط». «لا، هي ليست كذلك عندما يهطل الثلج. ليست كذلك إذا التزمت بقوانين السير». «إذا أخذتُ القطار السريع الذي ينطلق في الثامنة وثمانٍ وعشرين دقيقة، فإنني أصل إلى برودستريت في الثامنة وست وخمسين دقيقة. أمشي حتى سنترال آفنيو فأصل إلى العمل في التاسعة وست دقائق». «وإذا هطل الثلج؟ أنت لم تجبني على هذا بعد. وإذا تعطّل القطار؟». «هذا قطار يستخدمه مضاربو البورصة للذهاب إلى عملهم. ويستخدمه المحامون ورجال الأعمال الذين يذهبون إلى مانهاتن. أشخاص أثرياء. إنه ليس قطار الحليب... إنه لا يتعطّل. بل إن في قطارات الصباح الباكر عربات صالون مزودة بالكنبات. ليس هذا قطارًا ذا مقاعد خشبية». أجابه أبوه: «تظن أنك تخدعني بهذا الكلام!».

لكن السويدي كان أشبه بواحد من «رجال الحدود» القدامى، وما كان لينثني. فما اعتبره أبوه رأيًا خاطئًا غير عملي، كان في نظره فعلًا من أفعال الشجاعة. على غرار زواجه من داون دواير، كان شراؤه البيت مع الأرض الملحقة به والخروج من أولد ريمروك أكثر الأشياء التي فعلها في حياته جرأة. فما كان أبوه يراه بعيدًا كالمريخ، كان بالنسبة إليه أميركا نفسها. لقد أتى لكي يستوطن نيوجرسي الثورية، كما لو أنه أول من يأتيها.

كانت أميركا كلها قابعة أمام باب بيته في أولد ريمروك. وكانت تلك فكرة يحبّها. الحساسية اليهودية، والحساسية الإيرلندية... إلى الجحيم بهذا! زوج وزوجة، كل منهما في الخامسة والعشرين من عمره، وطفلة لم تبلغ سنة واحدة... كانت شجاعةً منهم أن يخرجوا من أولد ريمروك. لقد سمع أن عددًا غير قليل من الأشخاص الموهوبين الأذكياء الأقوياء ممن يعملون في مجال الجلود قد خضعوا لآبائهم، لكنه ما كان يريد أن يحدث له هذا. لقد وقع في حب العمل نفسه الذي أحبه أبوه، وقد ورث هذا الحب عنه، لكنه الآن يتابع سيره إلى ما بعد هذا فيعيش حيث يريد.

لا، لن نكون مضطرين إلى التعامل مع حساسية أحد. لقد تجاوزنا تلك الحساسية بخمسة وثلاثين ميلًا. لم يكن يرى أن من السهل دائمًا أن يجتاز المرء الحدود الدينية. ولم يكن يرى أن ما من تحامل ومواقف مسبقة: لقد واجه هذا في مشاة البحرية، واجهه مرتين في المعسكر التدريبي. وقد عرفت داون مظهرًا صفيقًا من مظاهر معاداة السامية في تلك المسابقة في أتلانتيك سيتي عندما أشارت مشرفتها متأسفة إلى سنة 1945 عندما صارت بيس مايرسون اليهودية ملكة جمال أميركا. صحيح أنها كانت تسمع نكاتًا عارضة عن اليهود في طفولتها، لكن أتلانتيك سيتي كانت جزءًا من العالم الحقيقي لا من الطفولة، فصدمها الأمر. ما كانت مستعدة لتكرار ما سمعته أمامه في ذلك الوقت لخشيتها من أن ينقلب عليها عندما يعرف أنها ظلّت على صمتها المهذب ولم تقل لتلك المرأة الغبية أن تغرب عن وجهها، وذلك خاصة عندما أضافت مشرفتها «أؤكد أنها كانت جميلة المظهر، لكن ذلك كان أمرًا محرجًا للمسابقة كلها». ما كان للأمر أهمية كبيرة لأن داون كانت مجرّد واحدة من المتسابقات، فتاة في الحادية والعشرين من عمرها، فما الذي يمكن أن تقوله أو تفعله؟ كان السويدي يعرف أن كلًا منهما يدرك - من تجربته الشخصية المباشرة - أن هذه الأفكار المسبقة موجودة. إلا أن الفوارق الدينية في مجتمع متحضّر، كما في أولد ريمروك، لم تكن أمرًا يصعب التعامل معه إلى الحدّ الذي تتصوّره داون. إن كانت قد تزوّجت يهوديًا، فمن المؤكد أنها قادرة على أن تكون جارة ودودًا لأشخاص من البروتستانت... من المؤكّد تمامًا أنها تستطيع ذلك، إن استطاعه زوجها. ليس البروتستانت إلا طائفة مسيحية أخرى. لعلهم كانوا قلائل حيث ترعرعت - كانوا قلائل حيث ترعرع هو أيضًا - لكنهم ليسوا قلة في أميركا. فلنواجه الأمر: البروتستانت هم أميركا. فإذا لم تشدّدي على تفوق الكاثوليكية، مثلما تفعل أمك، وإذا لم أشدّد على تفوّق

الجزء الثالث

الفردوس المفقود

اليهودية، مثلما يفعل أبي، فأنا واثق من العثور هنا على أشخاص كثيرين لا

يشدّدون على تفوق البروتستانتية مثلما يفعل آباؤهم وأمهاتهم. لم يعد أحد يهيمن على أحد. هذا ما كان محتوى الحرب التي جرت. لكنّ آباءنا وأمهاتنا لم يألفوا هذه الإمكانيات، ولم يعتادوا حقائق ما بعد الحرب، فقد صار الناس قادرين على العيش منسجمين... مختلف أنواع الناس، جنبًا إلى جنب، مهما تكن دياناتهم. هذا جيل جديد، ولا حاجة إلى تلك الحساسية لدى أي كان، لديهم أو لدينا. كما أن الطبقة العليا ليست أيضًا بالشيء الذي ينبغي لنا أن نخافه. هل تعرفين ماذا ستجدين عندما تتعرّفين عليهم؟ ستجدين أنهم ليسوا أكثر من بشر يريدون تحسين أمورهم. فلنكن ذكيَّين في هذا الأمر أيضًا!

(41) تريكي ديكي Tricky Dicky: لقب ساخر أطلق على الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، ومعناه: ديك المحتال. «ديك» هو صيغة التصغير من اسم ريتشارد.

(42) تايفود ميري Typhoid Mary: هو اللقب الذي أطلق على الطباخة ميري مالون التي كانت أول شخص في الولايات المتحدة يُكتشف أنه حامل دائم للعامل الممرض الذي يسبب مرض التيفوئيد.

(43) تريشيا Tricia Nixon: ابنة الرئيس ريتشارد نيكسون

(44) «It Can’t Happen Here»: رواية سياسية للكاتب الأميركي سنكلير لويس.

(45) أوشفيتز Auschwitz: واحد من أشهر معسكرات الإبادة النازية. قوات العاصفة: وحدات خاصة في الجيش النازي.

(46) تشارلز كوفلين Charles Coughlin: قس كاثوليكي أميركي - كندي اتهم بمناهضة اليهود في الولايات المتحدة وبتأييد بعض سياسات هتلر.

(47) جوزيف غوبلز Joseph Goebbels: وزير الدعاية في ألمانيا النازية.

(48) شكل قديم من أشكال التعذيب والإهانة كان يستخدم للانتقام، أو كنوع من

أنواع العقوبات غير الرسمية. شاعت هذه الممارسة في أوروبا الإقطاعية ومستعمراتها، وكانت موجودة في أوائل أيام الولايات المتحدة حيث شاع استخدامها كنوع من الانتقام الغوغائي الجماعي.

(49) رابطة اللبلاب (Ivy League): تعبير يشير إلى ثماني جامعات خاصة في شمال شرقي الولايات المتحدة تعتبر كلّها من جامعات النخبة (من بينها جامعة كولومبيا، وجامعة كورنيل، وكلية دارتماوث، وجامعة هارفارد، وجامعة برنستون، وجامعة ييل). وقد كان الاسم في الأصل يشير إلى تجمّع الفرق الرياضية في هذه الجامعات، لكن استخدامه اتسع في ما بعد فتجاوز سياقه الرياضي. وأما الإشارة إلى أن السويدي كان يظن أن هذا اسم لنوع من الملابس، فهي إشارة إلى أن معرفته برابطة اللبلاب لم تكن تتجاوز معرفته بالقمصان الرياضية التي تحمل شعارها.

(50)New Deal (الصفقة الجديدة): مجموعة من برامج الإصلاح المالي والضمان الاجتماعي ومشاريع الأشغال العامة التي أتاحت فرص عمل كثيرة وسهّلت الخروج من «الركود الكبير»، وذلك في فترة 1933 - 1936 في عهد الرئيس روزفلت.

جرت الأمور في ما بعد على نحو لم يضطر معه السويدي إلى سوق هذه الحجج كلّها لكي يجعل داون تتخلّى عن موقفها من أوركوت. وذلك أن أوركوت لم يكن له وجود كبير في حياتهم بعد تلك الرحلة التي ظلّت داون تشير إليها باسم «رحلة مقبرة عائلة أوركوت». في تلك الأيام، لم تنشأ بين أسرتي أوركوت وليفوف علاقة اجتماعية، ولا حتى صداقة عارضة، على الرغم من أن السويدي كان يذهب صباحات الأحد إلى المرج الواقع خلف بيت أوركوت للمشاركة في لعبة كرة القدم الأسبوعية التي يأتي إليها أصدقاء أوركوت المحليون وبعض الأشخاص الذين كانوا، كالسويدي، جنودًا سابقين من أنحاء مقاطعة إيسكس يتقاطرون مع أسرهم الجديدة للعيش في هذه النواحي الفسيحة.

كان من بين أولئك الأشخاص اختصاصي نظارات اسمه باكي روبنسون. كان باكي رجلًا قصير القامة مفتول العضلات ذا قدمين منحرفتين قليلًا إلى الداخل

ووجه ملائكي مدوّر. وكان في ما مضى يلعب في مركز الظهير الربعي في فريق مدرسة هيلسايد الثانوية، الذي كان المنافس التقليدي لفريق ويكاهيك في مباريات عيد الشكر عندما كان السويدي في آخر سنوات دراسته الثانوية. في الأسبوع الأول الذي أتى به باكي، سمعه السويدي مصادفة يحدث أوركوت عن السنة الأخيرة للسويدي ليفوف؛ ورآه يعد على أصابعه «أفضل لاعب كرة قدم في المدينة كلّها، وأفضل لاعب وسط في كرة السلة في المدينة كلّها وفي المقاطعة كلها؛ وأفضل من احتلّ مركز القاعدة الأولى في البيسبول في المدينة كلّها والمقاطعة كلّها والولاية كلها...». في الأحوال العادية، كان من شأن السويدي أن يرى في هذا الكلام شيئًا مستغربًا، شديد المباشرة، لا يعجبه أبدًا في تلك البيئة التي لم يكن يريد أن يوحي فيها بأي شيء غير روح الجيرة الطيبة، ولا يريد أن يكون أكثر من واحد من الشباب الذين يأتون للعب الكرة. لكن الظاهر أنه لم يجد نفسه معترضًا على وقوف أوركوت هناك واستماعه إلى مبالغات باكي الحماسية. لم تكن لديه أية خصومة مع أوركوت، ولا أي سبب للخصومة؛ لكن رؤية كل ما يفضل عادة إخفاءه خلف سلوكه المتواضع، وقد كُشف النقاب عنه بهذه الحماسة كلّها من جانب باكي، كانت أمرًا سارًّا له أكثر مما توقَّعه... كأن ذلك جاء مُرضيًا لرغبة لم يكن، هو نفسه، يعرف عنها شيئًا: رغبة في الانتقام!

وبعد عدة أسابيع، عندما لعب باكي والسويدي في فريق واحد، لم يعد هذا القادم الجديد قادرًا على تصديق حسن حظه: في حين كان كل شخص آخر يعرف الجار الجديد باسم سايمور، كان باكي يناديه باسم السويدي كلّما سنحت فرصة له بذلك. فبصرف النظر عن اللاعب الذي يكون في وضع يسمح له بتلقي الكرة، كان باكي يلوّح بذراعيه في الهواء مشيرًا للسويدي... كان السويدي المتلقّي الوحيد الذي يراه باكي. وكلما عاد السويدي إلى خط البداية بعد أن يحرز نقطة، كان باكي يصيح: «السويدي الكبير، أحسنت!»... السويدي الكبير؛ هذا اللقب الذي لم يناديه به أحد غير جيري منذ أيام المدرسة الثانوية! ثم إن جيري كان يستخدمه دائمًا على سبيل التهكم!

وفي أحد الأيام، ذهب باكي مع السويدي بسيارته إلى ورشة إصلاح السيارات المحلّية حيث وضع سيارته لإصلاحها. وخلال ذهابهما، أخبره فجأة بأنه يهودي مثله، وبأنه وزوجته قد صارا في الآونة الأخيرة عضوين في معبد موريستاون. قال له إنهما يشاركان أكثر فأكثر في نشاطات المجتمع اليهودي في موريستاون. «يمكن لهذا أن يكون أمرًا مفيدًا جدًّا لكي يحافظ المرء على تقاليده عندما يعيش في مدينة غير يهودية، لأنه يعرف أن له أصدقاء يهودًا يعيشون على مقربة منه». لم تكن الجماعة اليهودية في موريستاون جماعة ضخمة، لكنها كانت راسخة فيها منذ ما قبل الحرب الأهلية، وكان من أفرادها عدد معقول من أصحاب النفوذ في المدينة، من بينهم واحد من أمناء مستشفى موريستاون التذكاري (من خلال إصرار هذا الرجل، بدأت الدعوات، منذ سنتين، توجّه إلى أطباء يهود لكي ينضمّوا إلى كادر المستشفى)، وصاحب أفضل متجر متعدّد الأقسام في المدينة. كانت العائلات اليهودية الناجحة تسكن بيوتًا كبيرة مجصّصة في ويسترن آفينيو منذ خمسين عامًا، على الرغم من أن تلك المنطقة، إجمالًا، لم تكن معروفة بالمشاعر الودّية تجاه اليهود. عندما كان باكي طفلًا، كانت أسرته تأخذه معها إلى ماونت فريدوم، البلدة الواقعة بين التلال القريبة التي يقصدها الناس لقضاء العطلات. وهناك، كانوا يقيمون أسبوعًا كل صيف في فندق ليبرمان حيث وقع باكي في حب جمال ريف مقاطعة موريس. لا حاجة للقول إن الوضع في ماونت فريدوم كان رائعًا بالنسبة إلى اليهود: عشرة فنادق أو أحد عشر فندقًا، كانت يهودية كلّها. وكانت عائداتها في الصيف الواحد تبلغ عشرات آلاف الدولارات. بل إن المصطافين أنفسهم كانوا يسمّون المكان مازحين «ماونت فريدمان». إذا كنت تعيش في شقة في نيوارك أو باسايك أو جيرسي سيتي، فإن قضاء أسبوع في ماونت فريدوم يعادل جنة حقيقية. أما موريستاون، وعلى الرغم من كونها مدينة غير يهودية على الإطلاق، فقد كان فيها مجتمع كوزموبوليتاني من المحامين والأطباء والعاملين في البورصة. وفيها، كان باكي وزوجته يحبّان الذهاب إلى السينما في النادي الاجتماعي، ويحبّان الذهاب إلى المتاجر (كانت متاجر ممتازة)، ويحبّان المباني القديمة الجميلة حيث استقرّ

أصحاب المتاجر اليهود بلافتاتهم المضاءة بالنيون على امتداد سليتويل آفينيو. لكن، هل يعرف السويدي أن إشارة الصليب النازي المعقوف قد رُسمت، قبل الحرب، على لافتة ملعب الغولف عند بداية ماونت فريدوم؟ وهل كان يعرف أن جماعة كوكلوكس كلان كانت تعقد اجتماعاتها في بونتون ودوفر؟... أشخاص ريفيون، وعمال، كانوا أعضاء في تلك الجماعة! وهل كان يعرف أن الناس كانوا يضعون صلبانًا مشتعلة أمام بيوتهم على مسافة أقل من خمسة أميال من حديقة موريستاون؟

ومنذ ذلك اليوم، ظلّ باكي يحاول اجتذاب السويدي (فسوف يكون صيدًا ثمينًا) لضمه إلى المجتمع اليهودي في موريستاون وجعله - إن لم ينضم إلى المجتمع اليهودي مباشرة - يشارك في مباريات كرة السلة المسائية في «دوري الكنائس»، وذلك ضمن الفريق الذي شكّله المعبد اليهودي. كانت هذه المهمة التي وضعها باكي روبنسون لنفسه مزعجة للسويدي، مثلما كانت أمه مزعجة له عندما فاجأته وأدهشته عندما سألته بعد بداية حمل داون بشهور قليلة إن كانت داون تعتزم التحوّل إلى اليهودية قبل ولادتها. «يا أمي، إن رجلًا لا تعني الطقوس اليهودية لديه شيئًا لا يمكن أن يطلب من زوجته التحول إلى هذا الدين». لم يسبق من قبل أن كان صارمًا معها هكذا؛ فأحزنه أن يراها وقد سارت مبتعدة تكاد دموعها تنهمر. ثم اقتضى الأمر ملاحقتها طيلة النهار واحتضانها مرات كثيرة جدًا حتى يجعلها تفهم أنه لم يكن «غاضبًا» منها... لم يرد أكثر من توضيح أنه صار رجلًا ناضجًا له حقوق الرجل الناضج. وأما الآن، فقد تحدّث مع داون عن روبنسون... تحدّث عنه كثيرًا وهما مستلقيين ليلًا في سريرهما. «أنا لم آت إلى هنا من أجل هذه الأشياء. ثم إنني لم أكن حريصًا عليها في يوم من الأيام. كنت أذهب إلى الكنيس مع أبي أيام الأعياد، لكنّي لا أفهم شيئًا مما يُقال هناك. بل إنني لم أكن أفهم وجود أبي هناك. لم يكن هو. لم يكن ذلك شخصًا يشبه أبي: كان ينحني أمام شيء ليس مضطرًا إلى الانحناء أمامه، أمام شيء لا يفهمه أصلًا. لقد كان ينحني من أجل جدّي، لا أكثر. لم أفهم في يوم من الأيام ما علاقة أي شيء من ذلك بأن يكون أبي رجلًا. يمكن لأي

شخص فهم علاقة مصنع القفازات بأن يكون أبي رجلًا... إن للمصنع علاقة وثيقة بأن يكون أبي رجلًا. عندما يتحدّث أبي عن القفازات فهو رجل يعرف ما يتحدّث عنه. وأما عندما يبدأ الحديث عن ذلك الشيء!! كان يجب أن تسمعيه يتحدّث. لو أن ما يعرفه عن الجلود قليلٌ مثل ما يعرفه عن الرب، لكان الأمر قد انتهى بأسرتنا إلى مأوى الفقراء».

قالت له: «أوه، لكن باكي روبنسون لا يتحدّث عن الرب يا سايمور. إنه يريد أن يكون صديقك. هذا كل شيء».

«أظنّ هذا. لكنني لم أكن أبدًا مهتمًا بذلك الشيء، يا داون. لم أكن مهتمًا به في أي وقت من حياتي أستطيع تذكره. لم أفهمه أبدًا. فهل يفهمه أحد؟ لا أعرف ما الذي يتحدّثون عنه. أذهب إلى هذا الكنيس أو ذاك فيكون كل شيء غريبًا بالنسبة إليَّ. لقد كان الأمر هكذا على الدوام. عندما كان عليَّ أن أذهب إلى مدرسة عبرية في طفولتي، كنت لا أطيق الجلوس في تلك الغرفة والانتظار حتى نخرج إلى ملعب الكرة. كنت أقول في نفسي‘إذا جلست في هذه الغرفة مزيدًا من الوقت، فسوف يصيبني المرض’. كان هناك شيء غير صحّي في ما يتعلّق بتلك الأماكن. يكفي أن أقترب من تلك الأماكن حتى أعرف أنني لست في المكان الذي أريد أن أكون فيه. كان المصنع هو المكان الذي أريد أن أكون فيه منذ أن كنت صبيًا. وكان ملعب الكرة مكانًا أريد أن أكون فيه منذ بدأت الذهاب إلى حضانة الأطفال. وقد عرفت أن هذا البيت مكان أريد أن أكون فيه منذ أن وقع نظري عليه. فلماذا لا أكون حيث أريد أن أكون؟ لماذا لا أكون مع من أريد أن أكون معهم؟ أليس ذلك جوهر هذا البلد؟ أريد أن أكون حيث أريد أن أكون، ولا أريد أن أكون حيث لا أريد أن أكون. هذا هو معنى أن يكون المرء أميركيًا، أليس كذلك؟ أنا معك، وأنا مع طفلتنا، وأنا في المصنع خلال النهار وفي البيت بقية الوقت. هذان هما المكانان اللذان أحب أن أكون فيهما. إننا نملك جزءًا من أميركا، يا داون. لا يمكنني أن أكون أكثر سعادة، حتى إن حاولت. لقد فعلتُها، يا عزيزتي. لقد فعلتُها... فعلت ما عقدت العزم على فعله».

مرّ بعض الوقت كف خلاله السويدي عن المجيء للعب الكرة حتى يتفادى

الاضطرار إلى صد باكي روبنسون في ما يتعلّق بموضوع الذهاب إلى المعبد. لم يكن يشعر بأنه يشبه أبيه عندما يكون مع روبنسون، بل بأنه يشبه أوركوت...

لا، لا، ليس أوركوت! أتعرفون من كان السويدي يشعر حقًا بأنه يشبهه؟ لا أسأل عمّن يشبهه خلال ساعة أو ساعتين في كل أسبوع يحدُث فيهما أن يكون مضطرًا إلى سماع ما يقوله باكي روبنسون، بل أسأل عمن يشعر بأنه يشبهه طيلة ما بقي من الوقت. وبالطبع، لم يكن السويدي قادرًا على إخبار أي شخص بهذا: كان في السادسة والعشرين؛ وكان أبًا جديدًا؛ ومن المؤكّد أن الناس سيضحكون منه إذا باح لهم بهذا الإحساس الطفولي. كان هو نفسه يضحك من إحساسه. كان الأمر شيئًا من تلك الأشياء التي يحتفظ بها المرء في ذهنه منذ الطفولة، حتى بعد أن يكبر. كان يشعر بأنه يشبه «جوني آبّلْسيد» منذ أن كان في ريمروك. من عساه يبالي ببيل أوركوت؟ كان وودرو ويلسون يعرف جد أوركوت. وكان توماس جيفرسون يعرف شيئًا عن جده. هذا أمر حسن لبيل أوركوت! وأما جوني آبّلْسيد فهو الرجل الذي أشبهه. لم يكن جوني يهوديًا؛ ولم يكن إيرلنديًا كاثوليكيًا، ولم يكن بروتستانتيًا مسيحيًا... لا؛ لم يكن جوني آبلسيد إلا أميركيًا سعيدًا. رجل طويل. رجل محمرّ الوجه. رجل سعيد. لعله لم يكن ذا عقلٍ، لكنه لم يكن في حاجة إليه... لم يكن جوني آبلسيد في حاجة إلا إلى أن يكون ممن يستطيعون المشي كثيرًا. متعته حسيةٌ خالصة. له خطوة واسعة وتعلّق تلقائي كبير بالطبيعة، ومعه كيس من البذار. ينثر جوني آبلسيد البذار أينما ذهب(51). يا لها من قصّة! يذهب إلى كل مكان، ويسير في كل مكان. لقد أحب السويدي تلك القصة طيلة حياته. من هو كاتبها؟ لا أحد، بحسب ما يستطيع تذكّره. لقد درسوا هذه القصة في المدرسة الابتدائية. جوني آبلسيد يتجوّل في كل مكان وينثر بذور التفاح. وذلك الكيس من البذور. أحببت ذلك الكيس. لكن، لعله كان قبعته - هل كان يضع بذور التفاح في قبعته؟ لا أهمية لهذا. «من قال له أن يفعل هذا؟». سألته ميري هذا السؤال عندما بلغت سن الاستماع إلى حكاية قبل النوم... لا تزال صغيرة جدًا، فهل يحاول أن يحكي لها قصصًا أخرى كقصة

القطار الذي كان ينقل الدراق فقط؟ ألن تصيح عندها: «جوني! أريد قصة جوني!». «من قال له أن يفعل هذا؟». «لم يقل له أحد شيئًا، يا حبيبتي». لست في حاجة إلى قول أي شيء لكي تجعل جوني آبلسيد ينثر بذور التفاح. إنه يفعل هذا من تلقاء نفسه». «ومن هي زوجته؟». «اسمها داون. داون آبلسيد». «وهل لديه طفلة؟». «طبعًا، لديه طفلة. فهل تعرفين اسمها؟». «ما اسمها؟». «اسمها ميري آبلسيد». «وهل تنثر ميري بذور التفاح في قبعتها؟». «إنها لا تنثر بذور التفاح في القبعة، يا حبيبتي، إنها تضعها في القبعة، ثم تنثرها على الأرض. إنها تنثرها بعيدًا إلى أقصى حد تستطيعه. وحيثما تنثر تلك البذور، حيثما تقع البذور على الأرض، هل تعرفين ما الذي يحدث؟». «ماذا يحدث؟». «تنمو شجرة تفاح في ذلك المكان». يصير عاجزًا عن كبح جماح نفسه كلّما ذهب إلى قرية أولد ريمروك سيرًا على الأقدام. أول شيء يفعله في عطلة نهاية الأسبوع هو انتعال حذائه والسير مسافة الأميال الخمسة حتى يبلغ القرية، ثم العودة مسافة الأميال الخمسة بين التلال. يذهب سيرًا على الأقدام منذ الصباح الباكر حتى يأتي بصحيفة يوم السبت، ولا يستطيع إبعاد نفسه عن تلك الفكرة... «جوني آبلسيد»... بهجةُ الفكرة... البهجة النقية العائمة التي لا يحدّها شيء، بهجة السير بخطوات واسعة. لا يبالي حتى إذا لم يلعب الكرة بعد ذلك - لا يريد إلا أن يسير بتلك الخطوات الواسعة. كان يبدو له، على نحو ما، أن لاعب الكرة قد تنحّى عن الطريق حتى يُسمح له بفعل هذا، حتى يسمح له بأن يسير بهذه الخطوات المتسعة مسافة ساعة حتى يبلغ القرية فيأخذ نسخةَ لاكاوانا من صحيفة نيوارك نيوز من المتجر العام الذي تنتصب أمامه مضخّة الوقود الوحيدة وتنتشر على درجاته منتجات المنطقة معبأة في صناديق وأكياس من الخيش. كان ذلك هو المتجر الوحيد في الخمسينات، ولم يتغيّر منذ أن ورثه روس هاملين عن أبيه بعد الحرب العالمية الأولى. كانوا يبيعون ألواح الغسيل، وأحواض الاستحمام. وكانت في المكان لافتة دعائية لنوع من المشروبات غير الكحولية اسمه «فروستي»، وكانت لافتة أخرى مُسمّرة على الجدار الخارجي كتب عليها «خميرة فريشمان»، وأخرى لشركة «منتجات بيتسبرغ للطلاء». كانت على

واجهة المتجر لافتة لـ«محاريث سيراكوز» معلّقة هناك منذ أن كان المتجر يبيع المعدّات الزراعية أيضًا. يتذكر روس هاملين، منذ أيام صباه الأولى، ومحل صانع العجلات الذي كان على الناحية الأخرى من الشارع. ولا يزال يستطيع أيضًا تذكّر كيف كانوا يدحرجون عجلات العربات على امتداد مسار منحدر من أجل تبريدها في الجدول. يتذكّر أيضًا مصنع التقطير الذي كان في تلك الأيام؛ مصنع صغير من مصانع صغيرة كثيرة في المنطقة كانت تنتج ويسكي التفاح ولم تغلق إلا بعد إقرار قانون فولستيد(52). وفي القسم الخلفي من المتجر، كانت هناك نافذة واحدة هي «مكتب البريد الأميركي»... نافذة واحدة فقط ومعها ثلاثون، أو نحو ذلك، من تلك الصناديق الصغيرة ذات الأقفال. متجر هاملين العام، ومكتب البريد الذي في آخره، وأمامه لوحة الإعلانات وسارية العلم ومضخّة الوقود... هذا ما كان يقدّم الخدمات إلى المجتمع الزراعي القديم ويقوم بدور مكان الاجتماع منذ أيام الرئيس وارن كاماليل هاردينغ، عندما صار روس مالكًا له. وإلى الناحية الأخرى من الطريق، في اتجاه مائل قليلًا، إلى جانب الموضع الذي كان فيه محل صانع العجلات، يقوم مبنى المدرسة ذات الغرف الست، الذي سيكون المدرسة الأولى لابنة ليفوف. كان الأطفال يجلسون على الدرجات أمام المتجر. سوف تنتظرك ابنتك هناك. إنه مكان اللقاء؛ مكان التحيّة. كان السويدي يحب هذا. كان في صحيفة نيوارك نيوز المألوفة التي يأخذها من المتجر بابٌ خاص، الباب الثاني في الصحيفة، اسمه «على امتداد نهر لاكاوانا». حتى هذا كان يشيع في نفسه بهجة، لا عند قراءته في البيت لتتبّع الأخبار المحلّية في موريس فحسب، بل أيضًا عندما يحمل الصحيفة بيده عائدًا إلى البيت. كانت كلمة «لاكاوانا» في حد ذاتها مصدر بهجة له. كان يتناول الصحيفة الموضوعة على طاولة البيع الأمامية وقد كُتب في أعلاها «ليفوف» بيد ميري هاملين، ثم يشتري ربع غالون من الحليب - إن كانوا في حاجة إلى حليب، ورغيف خبز، ودزينة من البيض الطازج من مزرعة بول هاملين الواقعة على تلك الطريق نفسها، ثم يقول لصاحب المتجر: «إلى اللقاء يا روس». وبعد ذلك يستدير ويعود أدراجه بتلك الخطوات الواسعة نفسها فيمرّ

بأسيجة المراعي البيضاء التي أحبها، وبحقول القش المتتابعة التي أحبها، وبحقول الذرة واللفت التي أحبّها، وبالحظائر والخيول والأبقار والبرك والجداول والينابيع والشلّالات، ونباتات البقلة، والأعشاب، والورود، وأكرات وأكرات من غابات أحبّها بكل ما يكون لدى ساكن الريف الجديد من حب للطبيعة، ثم يبلغ أشجار القيقب البالغ عمرها مئة سنة، الأشجار التي أحبها، والبيت الحجري القديم المتين الذي أحبه... يسير متخيلًا أنه ينثر بذور التفاح في كل مكان.

رأته داون ذات مرة من نافذة من نوافذ الطابق الثاني عندما كان آتيًا في اتجاه البيت قادمًا من أسفل التلة وهو يقوم بتلك الحركة، ويطوّح بذراعه لا كما يفعل عندما يرمي الكرة أو عندما يلوح بمضرب البيسبول، بل كمن يغرف ملء قبضته بذورًا من كيس المشتريات الذي يحمله، ثم يرميها بكل قوته على أديم الأرض التاريخية التي صارت الآن تخصّه هو بقدر ما تخصّ ويليام أوركوت. «ما الذي تتمرّن عليه، هناك، في الخارج». سألته ضاحكة عندما اندفع داخلًا غرفة النوم وقد صار يبدو بعد ذلك الجهد كله وسيمًا إلى أقصى حد، ضخمًا، شهوانيًا، محمرًّا مثل جوني آبلسيد نفسه، مثل شخصٍ يحْدثُ في داخله شيء بالغ الروعة. عندما يرفع الناس كؤوسهم ويشربون نخب فتى، عندما يقولون له «نتمنّى لك الصحة وحسن الطالع»، فإن الصورة التي تكون في أذهانهم - أو الصورة التي ينبغي أن تكون في أذهانهم - هي صورة النموذج البشري الأرضي، صورة الفحولة المنطلقة التي تندفع سعيدة إلى غرفة النوم فتجد فيها كائنًا رائعًا صغيرًا، زوجته الشابة، واقفة وحدها، متجرّدة من موانع العزوبية كلها، خالصة - يا للسعادة - له وحده. «سايمور، ما الذي تفعله في متجر هاملين؟... هل تتلقّى دروسًا في الباليه؟». وبسهولة، بكل سهولة، بتلك اليدين الكبيرتين اللتين تحميانها، رفع عن الأرض مئة وثلاثة باوندات، رفع جسدها عن الأرض التي كانت واقفة عليها حافية القدمين مرتدية قميص نومها، رفعها بقوته الكبيرة كلّها، ثم ضمها إليه كما لو أنه يضمهما معًا، يوحّدهما معًا، حتى يصيرا كيانًا متماسكًا، حتى يصيرا الوجود الرائع المنيع الجديد للزوج والأب سايمور ليفوف الآتي من طريق أركادي بيل، أولد ريمروك، نيوجرسي،

الولايات المتحدة الأميركية. وأما ما كان يفعله على الطريق - على الرغم من أنه لم يكن شيئًا مخجلًا أو حركة سطحية لا معنى لها - فما كان قادرًا على جعل نفسه يعترف به صراحة حتى لداون: لقد كان يمارس الحب مع حياته.

في واقع الأمر، كان السويدي أميل إلى التكتّم الشديد في ما يخص شدة تعلّقه الجسدي الحميم بزوجته الشابة. كانا، كلاهما، أميل إلى الاحتشام أمام الناس؛ وما كان لأحد أن يستطيع تخمين شيء عن ذلك السرّ الذي كانته حياتهما الجنسية. لم يضاجع أبدًا أية فتاة كان يواعدها قبل داون. لقد نام مع عاهرتين عندما كان في مشاة البحرية؛ لكن ذلك لا يمكن إدخاله في الحساب حقًّا. لم يعرف إلا بعد زواجهما، ولم تعرف داون أيضًا، كم يمكن أن يكون عاشقًا مشبوب العاطفة. كانت لديه قوة كبيرة وقدرة احتمال كبيرة. وكان صغر حجمها إلى جانب ضخامته، والطريقة التي يستطيع رفعها بها، وكبَر جسده في السرير معها، مثيرًا لكل منهما. كانت تقول إنها تحسّ بنفسها نائمة مع جبل عندما يغفو في السرير بعد أن يمارسا الحب. وكانت تثيرها أحيانًا فكرة أنها نائمة إلى جانب صخرة ضخمة. كان يندفع داخلًا فيها، خارجًا منها، بقوة كبيرة وهو فوقها، لكنه يظل رافعًا جسده على مسافة منها حتى لا يسحقها. ولأنه كان قويًا كبير القدرة على الاحتمال، فقد كان يواصل هذا زمنًا طويلًا من غير أن يتعب. كان قادرًا على رفعها بيد واحدة وقلبها حتى تستقر على ركبتيها، أو على إجلاسها في حضنه ومتابعة الحركة بسهولة تحت وزنها البالغ مئة وثلاثة باوندات. على امتداد شهور وشهور بعد زواجهما، كانت داون تبكي بعد أن تبلغ ذروة النشوة. كانت تبلغها ثم تبكي، فلا يفهم من الأمر شيئًا.

كان يسألها: «ما الأمر؟».

«لست أدري».

«هل آلمتك؟».

«لا. لا أعرف من أين يأتي البكاء. هذا، تقريبًا، كما لو أن المَني الذي تقذفه في داخل جسدي هو ما يطلق الدموع».

«لكنك تقولين إنني لم أسبّب لك ألمًا».

«صحيح».
«هل يمتعك ما أفعله، يا داون؟ هل تحبين هذا؟».
«أحبه كثيرًا. إن فيه شيئًا... أحس كما لو أنه يبلغ مكانًا لا يبلغه شيء آخر. وهو المكان الذي فيه هذه الدموع. إنك تصل إلى جزء في داخلي لم يصله أي شيء آخر من قبل».
«حسنًا، طالما أنني لا أسبّب لك ألمًا».
قالت: «لا، لا. أمر غريب فحسب... غريب فحسب... أمر غريب ألا أكون وحدي».
لم تتوقّف عن البكاء إلا عندما بدأ بتقبيلها، من فمها نزولًا، أول مرة. قال لها: «أنت لا تبكين الآن».
قالت: «كان هذا مختلفًا كثيرًا».
«كيف؟ لماذا؟».
«أظن... لست أدري. أظنني وحيدة من جديد».
«هل تريدين ألا أفعل هذا بعد الآن؟».
قالت ضاحكة: «أوه، لا. بالتأكيد لا».
«حسنًا».
«سايمور... كيف تعرف فعل هذه الأشياء؟ هل فعلتها من قبل؟».
«لم أفعلها أبدًا».
«فماذا كنت تفعل؟ أخبرني».
لكنه ما كان قادرًا على شرح الأمور مثلما تشرحها هي، فلم يحاول ذلك. استولت عليه الرغبة في فعل المزيد، فرفع ردفيها بيد واحدة وقرّب جسدها من فمه. كان يريد أن يزرع وجهه هناك، ويمضي. كان يريد أن يذهب إلى حيث لم يذهب من قبل. وكان ذلك بتواطؤ مبتهج سعيد، بينه وبينها. بطبيعة الحال، ما كان لديه أي سبب يدعوه إلى الظنّ بأنها ستفعل له ما يماثل هذا. ذات مرة فعلته في صباح يوم أحد. وضعت زوجته الصغيرة داون قضيبه في فمها الصغير الجميل. كان مذهولًا. كانا مذهولين. كان هذا «تابو» عنده وعندها. ومنذ ذلك

اليوم استمر الأمر سنينًا وسنينًا؛ لم يتوقّف أبدًا. قالت له هامسة: «إن فيك أمرًا مؤثّرًا جدًا عندما تصل النقطة التي تفقد فيها سيطرتك على نفسك». قالت له إن مما يثير مشاعرها كثيرًا أن يكون هذا الرجل الطيّب، المهذّب، حسن التربية، المتمالك نفسه دائمًا، الرجل المسيطر على قوته دائمًا، المسيطر على قوته الهائلة، الذي لا عنف في داخله، هو زوجها... عندما يتجاوز نقطة اللارجوع، عندما يتجاوز النقطة التي يمكن أن يحسّ عندها أي إنسان بالحرج تجاه أي شيء. عندما يتجاوز النقطة التي يكون عندها قادرًا على الحكم عليها أو على التفكير في أنها - على نحو ما - فتاة سيئة لأنها راغبة في الأمر مثلما هي راغبة فيه، في تلك اللحظة، عندما يكون في أشد الرغبة، تأتي تلك الدقائق الثلاث أو الأربع الأخيرة التي تبلغ ذروتها في انفجار صارخ للذة. قالت له: «إنه يجعلني أحس بأنني أنثى إلى أقصى حد... يجعلني أحس بأنني قوية إلى أقصى أحد... يجعلني أحس بالأمرين معًا». عندما نهضت من السرير بعد أن فرغا من ممارسة الحب، بدت شعثاء إلى حد جنوني، محمرّة كلّها وقد تناثر شعرها في كل اتجاه وصارت مواد التجميل على وجهها لطخًا وتورّمت شفتاها. ذهبت إلى الحمام لكي تبوّل فلحق بها ورفعها عن مقعد المرحاض بعد أن جففت نفسها ونظر إلى انعكاس صورتهما في مرآة الحمام ففوجئت كثيرًا مثلما فوجئ، لا بشدة ما بدت عليه من جمال فحسب، ولا بما جعلتها المضاجعة تبدو عليه من تألّق فحسب، بل أيضًا لأنها بدت مختلفة كثيرًا. لقد زال عنها وجهها الاجتماعي... وظهرت داون! لكن هذا كلّه كان سرًّا محجوبًا عن الآخرين؛ وكان ينبغي أن يظلّ سرًّا، عن الطفلة خاصّة. بعض الأحيان، وبعد أن تمضي داون طيلة النهار واقفة على قدميها مع أبقارها، كان يقرّب كرسيه من كرسيها بعد العشاء ويدلك قدميها، فتكشر ميري وتقول: «أوه، بابا، هذا مقرف». لكن هذا كان الشيء الوحيد الذي يفعلانه أمامها مما قد يعبّر عن العاطفة بينهما. وأما غير ذلك، فما كانت ميري ترى غير العواطف المعتادة في البيوت، أي تلك العواطف التي يتوقّع الأطفال رؤيتها من قبل أبيهم وأمهم، بل قد يفتقدونها إذا ما اختفت. كانت الحياة التي يعيشانها داخل جدران غرفة نومهما سرًّا. لن تعرف

ابنتهما عنها شيئًا أكثر مما يعرفه أي شخص آخر. وهكذا مضى الأمر واستمرّ سنوات وسنوات؛ ولم يتوقّف أبدًا إلى أن انفجرت تلك القنبلة وذهبت داون إلى المستشفى. ثم بدأ يتوقف بعد خروجها منه.

كان أوركوت قد تزوّج حفيدة واحد من شركاء جده في شركة أوركوت وفيندلي القانونية في موريستاون، وهي الشركة التي كان مُنتَظرًا أن ينضم إليها. إلا أنه امتنع بعد تخرجه في جامعة برنستون عن قبول مقعد دراسي في مدرسة هارفارد للحقوق. على امتداد أكثر من مئة سنة، شكّلت مدرسة برنستون، ثم مدرسة هارفارد للحقوق، مسار تعليم أي فتى في عائلة أوركوت؛ إلا أنه قطع مع هذا التقليد من تقاليد العالم الذي ولد فيه وانتقل إلى استوديو في منطقة مانهاتن السفلى وصار رسامًا تجريديًا ورجلًا جديدًا. أمضى ثلاث سنوات مُحبِطات من الرسم المحموم خلف النوافذ القذرة المطلّة على حركة الشاحنات في شارع هدسون قبل أن يتزوّج من جيسي ويعود إلى جيرسي لكي يبدأ دراسة العمارة في جامعة برنستون. لم يتخلَّ تمامًا عن حلمه الفني؛ ومع أن عمله المعماري كان يسرّه ويبقيه منشغلًا على الدوام (كان أكثر عمله في ترميم البيوت الريفية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في الجزء الثاني من مقاطعة موريس، وكذلك في مقاطعتي سومرست وهانتردون وما بعدهما وصولًا إلى مقاطعة باكس في بنسيلفينيا، وكذلك تحويل الحظائر القديمة إلى بيوت ريفية أنيقة)، فقد حافظ على إقامة معرض خاص به، كل ثلاث سنوات، أو كل أربع سنوات، في صالة فنية في موريستاون. كانت أسرة ليفوف مخلصة في المواظبة على زيارة معرضه لأن دعوتها إلى حفل الافتتاح كانت تجعلها تشعر بنوع من الإطراء.

لم يكن السويدي في يوم من الأيام أقل راحة في أية حالة اجتماعية مما كان أثناء وقوفه أمام لوحات أوركوت التي قالت عنها النشرة التي يأخذها المرء عند باب الدخول إنها متأثّرة بفن الخط الصيني، لكنها لم تبد له شيئًا ذا قيمة، حتى إن كان شيئًا صينيًا. لكن داون وجدت منذ البداية أن تلك اللوحات «تحرّض على التفكير». ففي نظرها، كانت تُظهِرُ جانبًا غير متوقّع أبدًا لدى بيل أوركوت:

حساسية لم تر من قبل أي شيء يشير إليها. إلا أن الشيء الوحيد الذي حرّضه المعرض لدى السويدي كان التفكير في الزمن الذي يتعيّن عليه أن يمضيه متظاهرًا بالنظر إلى إحدى اللوحات قبل الانتقال إلى التظاهر بأنه ينظر إلى اللوحة التي بعدها. الشيء الوحيد الذي أحس ميلًا إلى فعله هو الانحناء إلى الأمام قليلًا لقراءة أسماء اللوحات الملصقة إلى جانب كل منها ظنًا منه أن تلك الأسماء يمكن أن تساعده. وعلى الرغم من قول داون له ألّا يفعل ذلك، وجذبها إياه من سترته، وهمسها له «انسَ الأسماء، وانظر إلى ضربات الفرشاة»، فقد نظر إلى الأسماء فصار أكثر حيرة مما كان عندما نظر إلى ضربات الفرشاة. تشكيل رقم 16، لوحة رقم 6، تأمُّل رقم 11، من غير عنوان رقم 12... وماذا كان في تلك اللوحة غيرَ شريط من لطخات رمادية متطاولة شديدة الشحوب على خلفية بيضاء؟ بدا له كما لو أن أوركوت لم يحاول رسم اللوحة بل إتلاف القماش! استعان بوصف المعرض المكتوب في النشرة التي حملت توقيع الزوجين الشابين اللذين يملكان تلك الصالة، فلم يفده ذلك شيئًا. «تتميّز خطوط أوركوت بأنها شديدة إلى حدٍّ يجعل الأشكال تتحلّل وتختفي. ثم لا تلبث ضربات الفرشاة، في تألّق طاقتها، أن تفكّك نفسها بنفسها...». بحقِّ السماء، ما الذي يجعل رجلًا مثل أوركوت صاحب المعرفة الجيدة بعالم الطبيعة والدراما التاريخية الكبيرة في هذه البلاد - وهو لاعب تنس متميز أيضًا - راغبًا في رسم لوحات ليس فيها شيء؟ وبما أن السويدي كان قد توصّل إلى أن الرجل ليس شخصًا زائفًا (لماذا يعمد شخص واثق من نفسه، متعلّم تعليمًا جيدًا، إلى تكريس هذا الجهد كلّه حتى يكون شخصًا زائفًا)، فقد كان قادرًا، برهةً من الزمن، على أن يعزو عدم فهمه إلى جهله بالفن. ومن حين لآخر، كان يواصل التفكير في أن «في هذا الرجل أمر غير طبيعي. هناك قدر كبير من عدم الرضا. إن هذا الأوركوت لا يملك ما يريده». لكن السويدي يعود فيقرأ شيئًا من قبيل تلك النشرة فيوقن أنه لم يكن يعرف عما يتحدّث. «يظل طموح أوركوت ساميًا بعد انقضاء عقدين من سنوات إقامته في غرينويتش فيليدج: إنه طموح الإبداع». ثم تصل النشرة إلى القول: «تعبير شخصي عن معضلات كونيّة من بينها

المعضلات الأخلاقية المستمرّة التي تُعرّف الشرط البشري».
عندما كان السويدي يقرأ نشرة المعرض، لم يخطر في ذهنه أبدًا أن ما من شيء يمكن أن يُقال عن تلك اللوحات لأنها فارغة تمامًا إلى حدٍّ يحتّم عليك القول إنها لوحات لكل شيء لأنها لوحات عن لا شيء... وليست تلك الكلمات كلّها، في نشرة المعرض، إلا أسلوبًا آخر في القول إن أوركوت كان عديم الموهبة غير قادر (مهما بذل من محاولات صادقة) على أن يثبت امتلاكه أية مزيّة فنية، أو أية مزيّة متّصلة بهذا الأمر، باستثناء ذلك التميّز الذي ولد معه، عراقة عائلته. لم يخطر في ذهن السويدي أنه كان محقًّا، وأن هذا الشخص الذي يبدو شديد الانسجام مع نفسه وشديد الانسجام مع المكان الذي يعيش فيه ومع الناس الذين من حوله، يمكن أن يكشف من غير قصد عن أن عدم الانسجام كان، في حقيقة الأمر، سرًّا ورغبة قديمة ليست لديه أدنى فكرة عن كيفية تحقيقها إلا عبر هذا التوق الغريب إلى رسم لوحات لا تبدو شبيهة بأي شيء. من الواضح أن هذه الأشياء أفضل ما يستطيع فعله بتوقه هذا. أمر محزن! على أية حال، لم يكن مهمًا كم هو محزن، ولا ما يسأل عنه السويدي، وما يفهمه أو لا يفهمه، وما يعرفه أو لا يعرفه عن الرسام، إلى أنْ... إلى أن ظهرت واحدة من تلك اللوحات المعبّرة عن الموضوعات الكونية التي تُعَرّف الشرط البشري على جدار غرفة المعيشة في بيته بعد شهر من عودة داون من جنيف بوجهها الجديد بعد شدّه. وقتها، بدأت الأمور تصير حزينة بعض الشيء بالنسبة إلى السويدي.
كانت تلك اللوحة شريطًا من لطخات بنّية وليست رمادية مثل التي كان أوركوت يحاول بها إفساد اللوحة المسماة «تأمل رقم 27». وكانت خلفيتها ضاربة إلى اللون القرمزي بدلًا من اللون الأبيض. ترمز الألوان القاتمة (بحسب ما قالته داون) إلى ثورة على الأساليب الرسمية لدى الرسام. هذا ما قالته له؛ فاكتفى السويدي بعبارة «شيء لافت» لأنه لم يعرف على وجه التحديد كيف يستجيب ولا كان لديه اهتمام بمعرفة معنى «الأساليب الرسمية». لم تكن في بيته أية أعمال فنية معلّقة على الجدران عندما كان طفلًا، ناهيك عن «الفن الحديث»... لم يكن الفن موجودًا في بيتهم مثلما لم يكن موجودًا في بيت داون.

لكن أسرة دواير كانت لديها لوحات دينية لعلها هي ما جعل داون تمتلك، على نحو مفاجئ تمامًا، ذائقة «للأساليب الرسمية».
إحساسٌ سرّي بالحرج من أنها نشأت في مكان لم تكن فيه أية لوحات (بمعزل عن صورة لداون وأخيها الصغير معلّقة ضمن إطار) باستثناء لوحة تمثّل العذراء، وأخرى تمثّل القلب المقدس. إن لدى هؤلاء الناس ذوقًا، ولديهم فنٌّ حديث على الجدار، وسوف يكون لدينا فنٌّ حديث على جدارنا أيضًا! ستكون لدينا «أساليب رسمية» على الجدار! مهما تحاول داون إنكار الأمر... أليس فيه شيء من هذا؟... أليست هذه غيرة إيرلندية؟
لقد اشترت اللوحة من استوديو أوركوت مباشرة بثمن يبلغ، بالضبط، نصف الثمن الذي دفعوه في الثور كاونت عندما كان عجلًا صغيرًا. قال السويدي في نفسه «انسَ المال، وحرِّر الشيك... لا تستطيع المقارنة بين ثور ولوحة»؛ فتمكّن بهذه الطريقة من تدبّر أمر خيبته وامتعاضه عندما رأى لوحة «تأمل رقم 27» تستقرّ في ذلك المكان الذي كانت فيه لوحة نصفية لميري تعجبه كثيرًا... لوحة ممتازة دقيقة لتلك الطفلة ذات الشعر الذهبي عندما كانت في السادسة من عمرها، على الرغم من شيء من المبالغة في إضفاء لون وردي عليها. لقد رسمها لهم بالزيت فنان عجوز بشوش مرح في بلدة نيو هوب كان يرتدي في مرسمه قبعة وثوبًا طويلًا فضفاضًا... لم يبخل عليهم بالوقت، وقدّم لهم نبيذًا ساخنًا، وأخبرهم عن فترة تدريبه التي أمضاها في نسخ اللوحات في متحف اللوفر. أتى هذا الرجل إلى بيتهم ست مرات لكي تجلس ميري إلى البيانو أمامه، ولم يطلب مقابل اللوحة وإطارها الذهبي إلا ألفي دولار. لكن داون قالت للسويدي إن شراء لوحة أوركوت بخمسة آلاف دولار صفقة جيدة، لأن الرجل لم يطالب بالثلاثين بالمئة التي كانا سيدفعانها لو اشتريا «تأمل رقم 27» من الصالة الفنية.
كان تعليق والده عندما رأى اللوحة الجديدة: «كم أخذ منكم الرجل مقابل هذه؟». أجابته داون متردّدة: «خمسة آلاف دولار». «هذا مبلغ كبير جدًا مقابل الطبقة الأولى من الطلاء. وماذا ستكون؟». أجابته داون مستاءة: «ماذا

ستكون؟». «حسنًا، إنها غير منتهية، آمل أنها غير منتهية! هل هي منتهية؟». قالت داون: «الفكرة، يا لو، هي أنها لوحة غير منتهية». «حقًّا؟»... نظر إلى اللوحة من جديد... «حسنًا، إذا رغب الرجل في إنهائها يومًا ما، فإنني أستطيع أن أقول له كيف ينهيها». تدخّل السويدي للحيلولة دون مزيد من الانتقاد. قال لأبيه: «بابا، لقد اشترتها داون لأنها أعجبتها». صحيح أنه كان قادرًا أيضًا على أن يقول للرجل كيف ينهيها (ولعله سيستخدم الكلمات نفسها التي تدور في ذهن أبيه) لكنه كان أكثر من راغب في تعليق أي شيء تشتريه داون من أوركوت لمجرد أنها اشترته. سواء أكان ذلك غيرةً إيرلندية أم لم يكن غيرة إيرلندية، فإن هذه اللوحة دليل جديد على أن رغبتها في الحياة قد صارت أقوى من رغبتها في الموت، تلك الرغبة التي أوصلتها إلى مستشفى الأمراض النفسية مرتين. قال لأبيه في وقت لاحق: «أعرف أن اللوحة بائسة. لكن المسألة هي أنها تريدها. المسألة هي أنها صارت تريد من جديد. أرجوك...». حذّر أباه بهذه الكلمات وهو يشعر بأن غضبه كان على حافة الانفجار (أمر غريب بالنظر إلى ضآلة الاستفزاز)... «أرجوك، لا تقل أي شيء عن تلك اللوحة». لكن لو ليفوف كان لو ليفوف؛ ففي زيارته التالية إلى أولد ريمروك، كان أول ما فعله هو أن ذهب فوقف أمام اللوحة وقال بصوت مرتفع: «هل تعرفون؟ يعجبني هذا الشيء. لقد بدأت أعتاد هذه اللوحة. وهي تعجبني حقًّا. انظري...». قال هذا لزوجته... «انظري كيف أن الرجل تعمّد عدم إنهائها. أترين هذا؟ أترين حيث تصير اللوحة غائمة؟ لقد فعل هذا عامدًا. هذا هو الفن».

كان في القسم الخلفي من سيارة النقل الصغيرة التي أتى بها أوركوت نموذج كبير مصنوع من الورق المقوى لبيت أسرة ليفوف الجديد. كان ذلك النموذج جاهزًا لأن يراه الضيوف بعد العشاء. لقد تكوّمت نماذج ومخططات كثيرة في مكتب داون على امتداد أسابيع. وكان من بينها مخطط أعده أوركوت يبيّن زاوية سقوط أشعة الشمس في اليوم الأول من كل شهر من شهور السنة. قالت داون: «طوفان من ضياء الشمس»... «ضياء!»... قالت متعجّبة «ضياء!». صحيح أن ذلك كان خاليًا من المباشَرة القاسية التي يمكن أن تشكّل اختبارًا حقيقيًا لحدود

تفهمه لمعاناتها وللترياق الذي اخترعته لنفسها، لكنها كانت توجّه بهذا إدانة جديدة للبيت الحجري الذي يحبه، وأيضًا لأشجار القيقب العتيقة التي يحبّها، تلك الأشجار العملاقة التي تظلل البيت فتحميه من حر الصيف، ثم يأتي الخريف فتكسو أوراقها المرجَ كلَّه بالأكاليل الذهبية التي علّق أرجوحة ميري في قلبها ذات يوم من الأيام.

لم يستطع السويدي استيعاب وجود تلك الأشجار خلال السنوات الأولى من إقامته في أولد ريمروك. لم يستطع استيعاب أنه صار مالكًا لها. كان امتلاكه أشجارًا أكثر إدهاشًا له من امتلاكه المصانع؛ وكان امتلاكه أشجارًا أكثر إدهاشًا له من قدرة طفل قادم من تشانسلر آفنيو ومن شوارع ويكاهيك التي لا علاقة لها بالريف، بيتًا حجريًا قديمًا وسط التلال حيث أقام جورج واشنطن، مرتين، معسكرًا شتويًا لجيشه خلال الحرب الثورية. كان امتلاك الأشجار أمرًا محيّرًا له... لا يمتلكها المرء مثلما يمتلك شركة، ولا يمتلكها مثلما يمتلك بيتًا. قد يصح القول إنها أمانة، أمانة عنده. نعم، أمانة من أجل الأجيال القادمة كلها ابتداء بميري وأطفالها.

حتى يحمي الأشجار من العواصف الجليدية والرياح العاتية، أتى السويدي بمن ثبّت كل واحدة من أشجار القيقب الكبيرة بالكابلات، بأربعة كابلات تشكّل ما يشبه متوازي مستطيلات تحت السماء حيث تتشعّب الأغصان تشعبًا دراماتيكيًا على ارتفاع خمسين قدمًا. وكان يأتي بشخص يُجري تفقدًا سنويًا لمانعات الصواعق الممتدة من جذع كل شجرة إلى أعلى نقطة فيها، وذلك حتى يضمن حمايتها. كانت الأشجار تُرشّ بمبيدات الحشرات مرتين كل سنة، وتُسمّد كل ثلاث سنوات. كما كان يأتي شخص مختص بالتقليم وقصّ الأغصان اليابسة، وتفقّد الحالة العامة لهذه الحديقة الخاصّة أمام بابهم. إنها أشجار ميري... أشجار أسرة ميري.

وفي الخريف - تمامًا مثلما كان قد خطّط دائمًا - كان السويدي يحرص دائمًا على العودة إلى البيت قبل غروب الشمس، فتكون ابنته هناك تتأرجح عاليًا فوق الأوراق المتساقطة المحيطة بشجرة القيقب أمام باب البيت... الشجرة التي

كانت أكبر شجراتهم فعلق فيها تلك الأرجوحة من أجل ميري عندما كان عمرها سنتين فقط. يراها تتأرجح عاليًا فتكاد تبلغ أوراق الأغصان المنتشرة تحت إطارات نوافذ غرفة نومهما... وعلى الرغم من أن هذه اللحظات الثمينة في آخر كل يوم كانت بالنسبة إليه رمزًا لتحقّق حلمه، فإنها لم تعنِ لميري شيئًا على الإطلاق. لقد تبيّن أنها لم تحبّ هذه الأشجار بأكثر مما كانت تحب هذا البيت. كانت الجزائر هي ما يشغل بالها. كانت تحبّ الجزائر. الطفلة في الأرجوحة؛ الطفلة في تلك الشجرة. الطفلة في الشجرة التي صارت الآن جالسة على أرض تلك الغرفة.

أتى أوركوت في وقت مبكّر حتى يتسنّى له ولداون أن يراجعا معًا مشكلة الوصل بين البيت ذي الطابق الواحد والمرأب ذي الطابقين. لقد سافر أوركوت إلى نيويورك وظل فيها يومين، مما جعل داون لا تكاد تطيق صبرًا على حل هذه المشكلة الأخيرة بعد أسابيع من التفكير وإعادة التفكير في كيفية ابتكار صلة وصل منسجمة بين المبنيين المختلفين تمام الاختلاف. لم تكن داون راغبة في أن يكون المرأب شديد القرب (حتى ولو جرى تمويهه بشكل ما بحيث يبدو كأنه حظيرة) فيطغى على تميّز البيت؛ لكنها خشيت أن تؤدّي وصلة طولها أربعًا وعشرين قدمًا - كما اقترح أوركوت - إلى جعل البيت يبدو أشبه بموتيل.

كانا يجلسان معًا في كل يوم تقريبًا، ويتأمّلان معًا... لا في ما يتّصل بأبعاد ذلك الممر فحسب، بل أيضًا في ما يتصل بما إذا كان الشكل الذي سيتخذه الممر أقرب إلى البيت الزجاجي منه إلى شكل الممر البسيط الذي فكرا فيه أول الأمر. وكلما أحسّت داون بأن أوركوت يحاول أن يفرض عليها، وإن بكياسته المعهودة، حلًا أقرب إلى الجماليات المعمارية ذات الطراز القديم بدلًا من الطابع شديد الحداثة الذي كان في ذهنها من أجل بيتهما الجديد، فإنها تستاء استياء شديدًا، بل تتساءل أيضًا (في تلك المناسبات القليلة عندما تكون غاضبة منه غضبًا حقيقيًا) عما إذا كانت مخطئة عندما استعانت بشخص هو «في الأساس مُرَمِّمٌ للأشياء العتيقة»، على الرغم من كونه صاحب نفوذ معتبر لدى المقاولين المحليين (مما يضمن عملًا إنشائيًا رفيع المستوى)، وعلى الرغم من كونه

صاحب سمعة مهنية ممتازة. لقد انقضت سنين طويلة منذ أن كانت تشعر بالرهبة إزاء العجرفة التي ظنت أنها الجانب الوحيد في طبع أوركوت (وهي القادمة حديثًا من إليزابيث ومن بيت أهلها بالصور التي على جدرانه وبالتمثال الذي في مدخله). وأما الآن، فقد صارت حقيقة أنه واحد من «نبلاء» المقاطعة، النقطةَ الأكثر تعرضًا لهجومها عندما يكونان مختلفَيْن. إلا أن استياءها الحانق لا يلبث أن يختفي عندما يعود أوركوت إليها (عادة ما يعود بعد أقل من أربع وعشرين ساعة) وقد وضع - بحسب تعبير داون - «خطة ذكيّة جدًا»، سواء كانت تلك خطةً من أجل تحديد موقع الغسالة أو خطة في شأن النافذة السماوية في الحمام أو السلّم الصاعد إلى غرفة الضيوف فوق المرأب.

لقد جلب أوركوت معه، إضافة إلى النموذج الكبير (بمقياس واحد إلى ستة عشر) الموجود في سيارته، نماذج من مادة بلاستيكية شفافة جديدة لكي تفكّر داون في استخدامها لجدران الممر وسقفه. ذهب إلى المطبخ لكي يريها تلك المادة. ظل الاثنان هناك، المعماري الحاذق وعميلته المتطلِّبة، وراحا يناقشان الأمر كله من جديد بينما كانت داون تنظف الخس، وتقطّع الطماطم، وتقشّر دزينتين من أكواز الذرة التي أتى بها أوركوت من حديقة بيته. كانا يناقشان محاسن المادة الشفافة ومساوئها بالمقارنة مع الجدران والعوارض الخشبية التي كان أوركوت قد اقترحها أول الأمر حتى يكون الممر منسجمًا مع المظهر الخارجي للمرأب. وفي هذه الأثناء، في الشرفة الخلفية المطلّة على التلة، تلك الشرفة التي كانت تُرى منها (في زمن آخر، في أمسية مثل هذه الأمسية) أخيِلَةُ بقرات داون على خلفية متوهجة من أشعة شمس آخر الصيف وقت غروبها، كان السويدي يشعل الجمر من أجل الشواء. كان معه هناك كل من والده وجيسي أوركوت التي صارت في الآونة الأخيرة لا تخرج مع زوجها لزيارة الناس إلا نادرًا، بحسب ما قالته داون، لأنها كانت تمر بما وصفه أوركوت ضَجِرًا عندما اتصل هاتفيًا ليسأل إن كان يستطيع اصطحاب زوجته معه إلى العشاء لديهم بأنه مرحلة «الهدوء الذي يسبق التحسّن السريع».

كان لأوركوت وزوجته ثلاثة أولاد وبنتان صاروا كلهم كبارًا الآن؛ وهم

يعيشون ويعملون في نيويورك. خمسة أطفال كانت جيسي، بشهادة الجميع، أمًّا متفانية من أجلهم. بدأت تشرب كثيرًا بعد ذهابهم. شربت في البدء لكي ترفع معنوياتها، ثم لكي تُغرِق بؤسها، وصارت في النهاية تشرب من أجل الشرب في حد ذاته. في الماضي، عندما

وأما ما كان يُغمّها الآن، بعد وصولها من فلوريدا الأسبوع الماضي، فهو الرسالة التي حملتها في حقيبتها سرًّا، الرسالة الموجّهة من لو ليفوف إلى زوجة جيري الثانية التي تركها وانفصل عنها قبل فترة بسيطة. استلمت سيلفيا ليفوف من زوجها رزمة رسائل لكي تضعها في البريد، لكنها لم تستطع إرسال تلك الرسالة. لقد وجدت لديها من الجرأة ما سمح لها بالابتعاد وحيدة وفتحها، ثم أتت الآن بما كان فيها حتى يراه سايمور. «هل تعرف ماذا سيحدث لجيري إذا تلقّت سوزان هذه الرسالة؟ وهل تعرف حجم الثورة التي سيثورها؟ إنه ليس فتى ليّن الطبع. لم يكن كذلك أبدًا. إنه ليس أنت، يا عزيزي. إنه ليس دبلوماسيًا. لكنّ أباك يدسّ أنفه في كل مكان ولا تعني النتائج المترتبة على ذلك أي شيء بالنسبة إليه، طالما أنه أفلح في دس أنفه في شيء لا يعنيه. ليس عليه إلا أن يبعث إليها بهذه الرسالة التي يلقي فيها باللائمة على جيري حتى نعاني الكثير بسبب جحيم أخيك الذي لا يهدأ».

كانت الرسالة في صفحتين. وقد أتت بدايتها هكذا: «عزيزتي سوزي، إن الشيك المرفق بهذه الرسالة لك أنت، ولا أريد أن يعرف غيرك به. كأنه مال عثرتِ عليه. ضعيه في مكان ما حيث لا يدري به أحد. أنا لن أقول شيئًا؛ وأنت لا تقولي شيئًا. أريد إخبارك أيضًا بأنني لم أنسك في وصيتي. هذا المال لك فافعلي به ما تريدين. وأما الأطفال فسوف تكون رعايتي لهم أمرًا مستقلًّا. إذا قررت استثمار هذا المال، وهو ما أنصحك كثيرًا بفعله، فإنني أقترح عليك استثماره في أسهم الذهب. سوف يفقد الدولار قيمته. وأنا بنفسي وضعت عشرة آلاف دولار في ثلاثة أسهم ذهبية. سوف أعطيك أسماء الشركات المناسبة. بنمينغتون ماينز. كاستورب ديفلوبمنت. شيلي ويغن مينرال كورب. هذه استثمارات متينة. حصلت على الأسماء من رسالة بارينغتون الإخبارية التي لم أستق منها شيئًا

خاطئًا حتى هذه اللحظة».
كان مشبوكًا مع الرسالة شيك محرر باسم سوزان ر. ليفوف - شيك مشبوك بحيث لا يسقط ويضيع تحت الأريكة عند إخراج الرسالة من مغلفها. كانت قيمته سبعة آلاف وخمسمئة دولار، أي ضعفي المبلغ الذي وصلها في اليوم التالي لاتصالها باكية مستنجدة قائلة إن جيري تركها ذلك الصباح من أجل الممرضة الجديدة في عيادته. كانت تشغل موقع الممرضة الجديدة في العيادة قبل أن تبدأ علاقتها مع جيري، تلك العلاقة التي أدّت إلى تطليقه زوجته الأولى. وتقول والدة السويدي إن جيري اتصل بأبيه عندما عرف أنه أعطى الزوجة الأولى شيكًا بخمسة عشر ألف دولار وشتمه «بكل شتيمة يعرفها»، فأصاب لو ليفوف في تلك الليلة - للمرة الأولى في حياته - ألم صدري اقتضى استدعاء الطبيب في الساعة الثانية صباحًا.
والآن، بعد مرور أربعة شهور فقط على الشيك الأول، صار السويدي في مواجهة الموقف نفسه من جديد. «سايمور، ما الذي يتعيّن علي فعله؟ إنه يصرخ كثيرًا ويقول: ‘طلاقٌ ثانٍ، وأسرة محطّمة ثانية، ومزيد من الأحفاد في بيت مدمّر... ثلاثة أطفال رائعين من غير توجيه أبوي’. أنت تعرف كيف يغضب ويمضي في هذا الكلام. يتكلّم ويتكلّم، ويعيد ويعيد، إلى أن أحسب أنني سأفقد عقلي. يقول لي: ‘من أين أتى ابني بهذه البراعة كلّها في الطلاق؟ ليس لدينا أي طلاق في تاريخ هذه العائلة كلّه! ليست لدينا أية حالة طلاق!’. لا أستطيع احتمال المزيد، يا عزيزي. إنه يصرخ بي ‘لماذا لا يذهب ابنك إلى بيت الدعارة؟ لماذا لا يتزوج عاهرة من بيت الدعارة ويقضي وطره منها؟’. سوف تكون له مشاجرة ثانية مع جيري. وأنت تعرف أن جيري لا يسايره أبدًا. لا يتمتع جيري بالمراعاة التي تتمتّع بها أنت. إنه ليس كذلك أبدًا. عندما تشاجرا بشأن المعطف الذي صنعه جيري من جلود الهامستر... هل تتذكّر هذا؟ لعلك كنت في الجيش آنذاك. حصل جيري على جلود الهامستر من مكان ما - أظنّه أتى بها من المدرسة - وصنع منها معطفًا لإحدى الفتيات. ظن أنه يقدّم لها شيئًا لطيفًا. لكنها استلمت ذلك المعطف في علبة - أظنه أتاها بالبريد -. كان مطويًّا داخل العلبة

ورائحته فائحة حتى السماء، فانفجرت الفتاة باكية واتصلت أمها بنا هاتفيًا، فجن جنون أبيك من الغضب. أصابه خزي شديد. ثم تشاجرا، هو وجيري، فكدت أموت من الخوف. صبي في الخامسة عشرة فقط يصرخ بأبيه ويتحدّث عن ‘حقوقه’، ‘حقوقه’. كان صراخه عن ‘حقوقه’ مسموعًا حتى شارعي برود وماركت. جيري لا يتراجع. إنه لا يعرف معنى ‘التراجع’. لكنه لن يصرخ الآن على رجل في الخامسة والأربعين بل على رجل في الخامسة والسبعين أصابته ذبحة صدرية. لن يقتصر الأمر هذه المرة على إصابته بشيء من عسر الهضم. لن يصيبه الصداع. ستكون نوبة قلبية حقيقية هذه المرة».

«لن تصيبه نوبة قلبية. تمالكي أعصابك واهدأي، يا أمي».

«هل كان ما فعلته خاطئًا؟ لم أمد يدي إلى بريد أي شخص في حياتي كلّها. لكن، كيف يمكنني تركه يبعث بهذه الرسالة إلى سوزان؟ لن تحتفظ بالأمر لنفسها، ولن تعتبره سرًّا. ستفعل ما فعلته في المرة الماضية. سوف تستخدمه ضد جيري... ستخبره به. وسوف يقتله جيري في هذه المرة».

«لن يقتله جيري. هو لا يريد قتله ولن يقتله. ابعثي بالرسالة، يا ماما. ألا يزال مغلفها موجودًا لديك؟».

«أجل».

«أليس ممزقًا؟ ألم تمزقيه؟».

«يخجلني القول لك إنه غير ممزق. لقد استعملت البخار لفتحه. لكني لا أريد أن يسقط أبوك ميتًا».

«لن يسقط ميتًا. ابقي خارج الأمر، يا ماما. أرسلي المغلف إلى سوزان، وفيه الرسالة والشيك. وعندما يتصل جيري، اخرجي من البيت واذهبي في نزهة».

«وماذا لو أصابه ألم صدري مرة أخرى؟».

«إذا أصابه ألم صدري مرة أخرى فسوف تتصلين بالطبيب مرة أخرى. ليس عليك إلا أن تبقي خارج الأمر. لا تستطيعين حمايته من نفسه. هذا شيء فات وقته منذ زمن بعيد».

«أوه، أشكر الرب على أن لدي ابنًا مثلك. أنت هو الشخص الوحيد الذي

أستطيع الاستعانة به. على الرغم من مشكلاتك كلّها، وعلى الرغم من كل ما مررت به، فإنك الوحيد في هذه العائلة الذي يقول لي كلامًا حنونًا».

سأله أبوه: «هل داون صامدة؟».

«لا بأس بها».

قال أبوه: «تبدو في أحسن حال، كأنها مليون دولار. إنها تبدو تلك الفتاة نفسها من جديد. لقد كان التخلّص من تلك الأبقار أذكى شيء فعلتماه. لم تكن تعجبني أبدًا. ولم أفهم أبدًا الشيء الذي يجعلها في حاجة إليها. كانت فكرة شد الوجه فكرة جيدة. عارضتُها أول الأمر... لم تعجبني أول الأمر. لكني كنت مخطئًا. كنت مخطئًا تمامًا. لا بد لي من الاعتراف بهذا. لقد قام ذلك الطبيب بعمل ممتاز. أشكر الرب لأن ما مرّت به داون لم يعد الآن ظاهرًا على وجهها».

قال له السويدي: «لقد قام الطبيب بعمل ممتاز حقًّا، وأزال تلك المعاناة كلّها. أعاد إليها وجهها». لم تعد داون مضطرة إلى رؤية سجل بؤسها عندما تنظر في المرآة. لقد كانت حركة ذكية: أزالت ذلك الشيء من مجال رؤيتها.

قالت أمه: «لكنها لا تزال تنتظر. إنني أرى هذا يا سايمور. إن عين الأم ترى هذه الأشياء. لعل من الممكن أن تزيل آثار المعاناة عن وجهك، لكنك لا تستطيع إزالة الذكرى التي في داخلك. تحت ذلك الوجه، لا تزال المسكينة تنتظر».

«ليست داون مسكينة، إنها مقاتلة، إنها بخير. لقد اجتازت خطوات كبيرة جدًا».

صحيح... صحيح... طيلة زمن احتماله الصبور، خطت داون خطوات كبيرة جدًا من خلال اكتشافها أنها لم تعد تستطيع الاحتمال، من خلال ما أصابها من خراب ودمار، ثم من خلال تعرية نفسها منه. إنها لا تقاوم الضربات مثلما يقاومها، بل تتلقى الضربات وتتحطّم، ثم تنهض من جديد وتقرّر أن تعيد صنع نفسها. هذا شيء مثير للإعجاب... هجرت أول الأمر الوجه الذي حمل آثار هجوم ابنتها، ثم هجرت البيت الذي حمل آثار هجوم ابنتها. فبعد كل حساب، هذه الحياة حياتها، وسوف تستعيد داون الأصلية القديمة وتنطلق من جديد حتى لو كان ذلك آخر شيء تفعله في حياتها.

«فلنوقف هذا الحديث، يا ماما. تعالي معي إلى الخارج حتى أشعل الفحم من

أجل الشواء».
بدت أمه كما لو أنها موشكة على البكاء من جديد. قالت له: «لا، أشكرك يا عزيزي. سأظلّ هنا وأتابع التلفزيون مع بابا».
«لقد تابعتِ التلفزيون طيلة النهار. اخرجي معي وساعديني».
«لا، شكرًا يا عزيزي».
قال أبوه: «إنها تنتظر استدعاء نيكسون. عندما يستدعون نيكسون ويغرسون في قلبه وتدًا، فسوف تكون أمك في السماء السابعة».
قالت أمه: «ألن تكون في السماء السابعة أنت أيضًا؟ إنه لا يستطيع النوم. لا ينام بسبب ماتنزر. يظل ساهرًا حتى منتصف الليل، ويكتب تلك الرسائل. أجد نفسي مضطرة إلى مراقبة بعضها؛ وأجد نفسي مضطرة إلى إجباره على التوقف لأن لغة رسالته تكون قذرة جدًا».
قال والد السويدي بمرارة: «كم هو كريه!... ذلك الكلب الفاشي البائس». ثم أطلق، بقوة مفزعة، سلسلة من الشتائم اللاذعة الموجهة إلى رئيس الولايات المتحدة الأميركية. بمعزل عن التأتأة التي كانت تمنح شتائم ميري طابعًا قاتلًا يذكّر بطلقات البندقية الرشاشة، فقد كانت ميري نفسها غير قادرة على مجاراة ما تفوّه به الآن، حتى في أيام تألّقها. كان نيكسون يمنحه الحرية في قول أي شيء، مثلما كان جونسون يمنح ميري تلك الحرية. وكان لو ليفوف يبدو كأنه يقلد كرهَ حفيدته الفظيع للرئيس ليندون جونسون، فيوجّه إلى الرئيس نيكسون شتائمه المنفلتة من أية رقابة. أوقعوا بنيكسون. اعثروا على طريقة للإيقاع بابن الحرام. أوقعوا بنيكسون وسوف يكون كل شيء على ما يرام. إذا استطعنا أن نطلي نيكسون بالقار ونكسوه بالريش(48)، فسوف تعود أميركا كما كانت نظيفة من كل ما تسلل إليها من أشياء كريهة غير قانونية، ومن كل ما صار فيها من عنف وحقد وكره وجنون. ضعوه في قفص. ضعوا هذا المحتال في قفص، وسوف تعود بلادنا العظيمة إلى سابق عهدها!».
أتت داون من المطبخ راكضة لترى ما الأمر. وسرعان ما راحوا يبكون جميعًا وقد احتضن كل منهم الآخر. تجمعوا معًا يذرفون الدمع في الشرفة الخلفية

العتيقة الكبيرة كما لو أن القنبلة كانت قد زرعت تحت البيت فلم يبق منه شيء غير تلك الشرفة. لم يكن السويدي قادرًا على فعل أي شيء لمنعهم من البكاء، ولا لمنع نفسه.

لم يسبق أبدًا أن بدت العائلة محطّمة إلى هذا الحدِّ. فعلى الرغم من كل ما فعله السويدي لتخفيف أثر الصدمة الباقي من رعب ذلك اليوم ولمنع نفسه من الانهيار... على الرغم من التصميم الذي تسلح به بعد عودته مسرعًا عبر ذلك النفق، واكتشافه أن سيارته لا تزال موجودة هناك حيث تركها سليمة في ذلك الشارع العابس في داون نِك. وعلى الرغم من التصميم الذي أفلح في تسليح نفسه به بعد أن هاجمه جيري ذلك الهجوم العنيف على الهاتف، وعلى الرغم من التصميم الذي استجمعه مرة أخرى عندما وقف تحت الأسلاك الشائكة في موقف السيارات في المصنع وقد حمل مفتاح سيارته في يده، وعلى الرغم من شدة مراقبته نفسه ومما لقيه من عناءٍ للظهور بمظهر الشخص المنيع، ومن الواجهة الزائفة المقصودة الموحية بالثقة بالنفس - الواجهة التي كان مصمِّمًا على استخدامها لحماية من يحبهم من الأربعة الذين قتلتهم ابنته، ما كان الآن في حاجة إلى أكثر من أن يخطئ قليلًا فيقول: «طماطم ميري الكبيرة» بدلًا من «طماطم داون» حتى يشعروا جميعًا بأن شيئًا شديد الفظاعة قد حدث.

إضافة إلى أفراد عائلة ليفوف، كان لديهم ستة ضيوف على العشاء في تلك الليلة، كان أول الواصلين بيل وجيسي أوركوت، معماري داون وزوجته، اللذين كانا جارين ودودين عاشا على امتداد تلك السنين كلّها على مسافة أميال قليلة على ذلك الطريق في بيت أهل أوركوت القديم فصارا من معارف السويدي وزوجته، ثم صارا من ضيوفهما على العشاء بعد أن بدأ بيل أوركوت تصميم بيت لو ليفوف الجديد. منذ زمن بعيد، عُرفت عائلة أوركوت بأنها عائلة قانونية بارزة في مقاطعة موريس: محامون، وقضاة، وأعضاء مجلس شيوخ في الولاية. وبما أنه كان رئيس جمعية المعالم التاريخية المحلّية التي كرّست نفسها باعتبارها الضمير التاريخي لجيل جديد من دعاة الحفاظ على البيئة، كان أوركوت قائدًا للمعركة الخاسرة التي جرت من أجل الحيلولة دون مرور

الطريق رقم 287 العابر للولاية عبر المركز التاريخي لموريستاون؛ لكنه كان فائزًا في الحملة الرامية إلى منع إنشاء مطار كبير كان من شأنه أن يدمّر منطقة غريت سوامب الواقعة إلى الغرب من شاثام، ويدمر معها قسمًا كبيرًا من الحياة البرية في المقاطعة. وقد كان يحاول الآن حماية بحيرة هوباتكونغ من التلوّث الذي يدمّرها. لقد وضع على واجهة سيارته لُصاقة كتب عليها «نريد موريستاون خضراء، هادئة، نظيفة». كان قد وضع لصاقة مماثلة على سيارة السويدي عندما التقيا أول مرة، وقال له: «نحن في حاجة إلى كل عون نستطيع الحصول عليه حتى نُبعد عنا الشرور الحديثة». وعندما عرف أن جيرانه الجدد كانوا في الأصل من أبناء المدن الذين تمثّل المرتفعات الريفية من مقاطعة موريس شيئًا مجهولًا بالنسبة إليهم، تطوّع لأخذهم في جولة في المقاطعة تبيّن أن من المقرر أن تستمر طيلة اليوم وتمتد حتى اليوم التالي لولا أنْ كذب السويدي وقال إن عليه أن يذهب إلى إليزابيث مع داون وطفلتهما الصغيرة صباح يوم الأحد لزيارة أهل زوجته.

كانت داون قد رفضت تلك الجولة منذ البداية. فمنذ اللقاء الأول ضايقها شيء في سلوك أوركوت الاستحواذي، لمست في لباقته المفرطة شيئًا وجدته أنانيًا على نحو مزعج، وجعلها تظنّ أن هذا النبيل الريفي الشاب صاحب الأدب الجم لا يرى فيها إلا إيرلندية مُدّعية مضحكة، فتاة تمكّنت على نحو ما من التوصّل إلى درجة من البراعة في تقليد من هم أفضل منها، مما جعلها الآن تقتحم بسخافتها فناء بيته المتميز. كانت ثقته بنفسه هي ما أثار توتر أعصابها، تلك الثقة الكبيرة حقًّا. صحيح أنها كانت ملكة جمال نيوجرسي، لكن السويدي كان قد رآها في بضع مناسبات مع أولئك الشباب الإيرلنديين من طلبة الجامعات الممتازة ممن يرتدون قمصان نادي تشيتلاند. كانت نزعتها الدفاعية المتحدّية تأتي مفاجئة دائمًا. ولم يكن يبدو عليها أبدًا أي إحساس بنقص الثقة بالنفس إلى أن تلتقي أوركون وزوجته فتشعر بوخزة الفارق الطبقي. كانت تقول: «إنني آسفة! أعرف أن هذا ناتج عن حساسيتي الإيرلندية، لكني لا أحب أن ينظر إليّ أحد نظرة استعلاء. وبقدر ما كانت هذه الحساسية عندها هي العامل السرّي الذي

جذبه إليها دائمًا (كان يقول لنفسه معتزًا: ليست زوجتي خصمًا سهلًا عندما تواجه عدوانًا)، فقد كانت تلك الخصلة تقلقه وتحبطه أيضًا. كان يفضّل اعتبار داون شابة عظيمة الجمال حقّقت إنجازات كبيرة وصارت أكثر شهرة من أن تظهر لديها هذه الحساسية. «الفارق الوحيد بيننا وبينهم»... كان البروتستانت هم المقصودون بالضمير ‘هم’... «هو أننا نشرب أكثر منهم قليلًا، قليلًا فقط. ‘جارتنا الكاثوليكية الجديدة، وزوجها العبري’. أتخيل سماعه يقول هذا لأصدقائه. إنني آسفة - إذا كنت قادرًا على الذهاب، فلا مشكلة عندي. لكني لا أستطيع إظهار الاحترام تجاه ما لديه من ازدراء لأصولنا المتواضعة».

المحرك الرئيسي في شخصية أوركوت (كانت واثقة من هذا حتى من غير أن تتحدّث معه) هو معرفته الجيّدة جدًا بمدى عراقته وعراقة سلوكه؛ وهذا ما جعلها تبقى في البيت يوم تلك الرحلة راضية تمامًا بأن تظل وحدها مع طفلتها الصغيرة.

انطلق زوجها مع أوركوت عند الساعة الثامنة صباحًا فتوجّها إلى الزاوية الشمالية الغربية من المقاطعة، ثم عادا أدراجهما على امتداد العمود الفقري المتعرّج لمنطقة مناجم الحديد القديمة. وكان أوركوت يتحدّث طيلة الوقت عن أيام القرن التاسع عشر المجيدة عندما كان الحديد مَلِكًا، وعندما استخرجت ملايين الأطنان من هذه الأرض تحديدًا. اعتبارًا من هابرنيا وبونتون وصولًا إلى موريستاون، كانت البلدات والقرى مكتظة بمصانع درفلة الحديد ومصانع المسامير والقضبان وورشات الحدادة والصهر. أخذه أوركوت إلى المصنع القديم في بونتون حيث كانوا يصنعون المحاور والعجلات والقضبان من أجل شركة سكة الحديد في موريسون وإيسكس. أخذه أيضًا إلى مصنع البارود في كينفيل الذي كان في ذلك الوقت يصنع الديناميت من أجل المناجم والـ«تي إن تِ» من أجل الحرب العالمية الأولى، كما مهد - إلى هذا الحد أو ذاك - الطريق أمام الحكومة من أجل بناء مصانع الأسلحة في بيكاتيني حيث كانوا ينتجون القذائف الكبيرة من أجل الحرب العالمية الثانية. جعله يرى مصنع كينفيل، الموقعَ الذي حدث فيه انفجار الذخيرة في سنة 1940. كان ذلك الانفجار الذي

قتل فيه اثنان وخمسون شخصًا ناتجًا عن الإهمال، على الرغم من الشك أول الأمر في أنه كان من صنع جواسيس وعملاء أجانب. قاد به السيارة مسافة غير قليلة على امتداد المجرى الغربي لقناة موريس القديمة حيث كانت السفن تنقل فحم الأنتراسيت من فيليبسبرغ من أجل مصاهِر الحديد في موريس. ومع ابتسامة صغيرة، أضاف أوركوت (ففاجأ السويدي) إلى أنه على ضفة نهر ديلاوير الأخرى، قبالة فيليبسبرغ، تقع بلدة إيستون التي قال عنها: «كانت إيستون تضم بيوت الدعارة التي يقصدها الشباب القادمون من أولد ريمروك».

كانت نيوارك ومدينة جيرسي عند مدخل قناة موريس. وكان السويدي يعرف نهاية القناة من جهة نيوارك، منذ أن كان صبيًا يُذكّرُه أبوه كلما نزلا إلى مركز المدينة وصارا على مقربة من بولفار رايمون بأن القناة كانت تجري محاذية لشارع هايستريت حتى السنة التي سبقت ولادة السويدي (كانت قريبة من المركز الاجتماعي اليهودي)، وتستمر حتى هذا الموضع الذي فيه الآن الشارع العريض الذي يخترق المدينة، بولفار رايمون، وتسلكه السيارات القادمة من برود ستريت من تحت محطة بايِنْ ذاهبة إلى باسايد آفنيو وإلى سكايواي.

في ذهن السويدي الصغير، كانت كلمة «موريس» في «قناة موريس» لا علاقة لها أبدًا بمقاطعة موريس التي كانت مكانًا يبدو له في ذلك الوقت مكانًا بعيدًا جدًا مثل ولاية نبراسكا، بل بشقيق والده الأكبر صاحب المشاريع الذي كان اسمه موريس. ففي سنة 1918، عندما كان عمر موريس أربعة وعشرين عامًا، كان قد صار صاحب متجر أحذية يديره مع زوجته الشابة. كان ذلك المتجر غرفة صغيرة في شارع فيري في منطقة داون نِك وسط فقراء البولنديين والإيطاليين والإيرلنديين. وقد ظلّ متجره أكبر إنجاز من إنجازات عائلة ليفوف حتى ذلك العقد الذي أبرمه لو ليفوف زمن الحرب مع الوحدات النسائية في الجيش فكان من شأنه أن وضع شركة نيوارك ميد على الخريطة. مات موريس بعد ليلة واحدة من إصابته بالأنفلونزا.

خلال جولتهما ذلك اليوم، وكلما ذكر أوركوت قناة موريس، كان ذهن السويدي يتّجه أولًا إلى عمه المتوفى الذي لم يعرفه أبدًا، إلى ذلك الأخ المحبوب الذي

افتقده أبوه كثيرًا وصار الصبي يظن أن القناة التي تمر من تحت بولفار رايمون تحمل اسمه. وحتى عندما اشترى أبوه ذلك المصنع في سنترال آفنيو (كان لا يبعد أكثر من مئة يارد عن الموضع الذي تنعطف فيه القناة شمالًا في اتجاه بيلفيل، مصنع كان قائمًا على مقربة شديدة من خط مترو المدينة الذي أنشئ تحت مسار القناة القديم)، ظلّ عقل السويدي مصرًا على أن اسم القناة مرتبط بنضالات عائلتهم وتاريخها لا بتاريخ الولاية.

بعد زيارة مقر قيادة جورج واشنطن في موريستاون (حيث تظاهر السويدي بأدب أن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها البنادق والكرات المعدنية التي تقذفها المدافع والنظارات القديمة، وبأنه لم يزر هذا المكان عندما كان تلميذ مدرسة في الصف الرابع في نيوارك)، انطلق مع أوركوت في اتجاه الجنوب الغربي خارج مدينة موريستاون، فبلغا مقبرة فيها كنيسة يعود تاريخها إلى أيام الثورة الأميركية. كان الجنود الذين قتلوا في الحرب مدفونين هناك ومعهم سبعة وعشرون جنديًا آخر دفنوا في قبر جماعي بعد أن سقطوا ضحايا وباء مرض الجدري الذي اجتاح معسكرات الجيش في تلك المنطقة في ربيع سنة 1777. وفي الخارج، بين شواهد القبور القديمة جدًا، ظل أوركوت مصدرًا غزيرًا للمعلومات التاريخية مثلما كان على الطريق طيلة الصباح.

وفي المساء، على طاولة العشاء، عندما سألته داون عن الأماكن التي أخذه إليها السيد أوركوت، ضحك السويدي وقال: «لقد حصلتُ على مقابل جيد لنقودي. إن هذا الشخص موسوعة تسير على قدمين. لم أر نفسي جاهلًا هكذا في حياتي كلّها». سألته داون: «وهل كان ذلك مضجرًا كثيرًا؟». أجابها السويدي: «لماذا؟ لم يكن مضجرًا على الإطلاق. لقد أمضينا وقتًا طيبًا. إنه رجل جيّد. شديد اللطف. إنه أكثر لطفًا مما قد يظن المرء عندما يراه أول مرة. إن لدى أوركوت ما هو أكثر من ربطة العنق المدرسية القديمة». في تلك اللحظة، كان يفكر تحديدًا في بيت الدعارة في إيستون، لكنه قال بدلًا من ذلك: «يعود تاريخ أسرته إلى زمن الثورة».

أجابت داون: «أليست هذه مفاجأة؟».

قال من غير اكتراث بالسخرية الواضحة في نبرة صوتها: «هذا الرجل يعرف كل شيء. خذي على سبيل المثال تلك المقبرة القديمة التي ذهبنا إليها. إنها قائمة فوق قمة تلة في تلك المنطقة. وهكذا فإن المطر الذي يسقط على الجهة الشمالية من سقف الكنيسة القديمة يشق طريقه حتى نهر باسايد ثم يصل آخر الأمر إلى خليج نيوارك. وأما المطر الذي يسقط على الناحية الجنوبية من السقف فيسيل في اتجاه فرع من فروع نهر راريتان، ثم ينتهي به المطاف إلى نيو برونزويك».

قالت داون: «لا أصدق هذا».

«لا بأس، لكنه حقيقة».

«أرفض تصديق هذا. لا يمكن أن يذهب إلى برونزويك».

«أوه، لا تكوني طفلة يا داون. هذه معلومات جيولوجية مهمّة». ثم أضاف عامدًا: «معلومات شديدة الأهمية»، حتى يجعلها تشعر بأنه لا يشاركها حساسيتها الإيرلندية. كان أكبر من ذلك؛ وقد اتضح له أنها أكبر من ذلك أيضًا.

عندما ذهبا إلى السرير تلك الليلة، كان يفكر في أنه سيطلب من أوركوت، عندما تصير ميري في المدرسة، أن يأخذها في هذه الجولة نفسها حتى تتعلّم منه تاريخ المقاطعة التي تترعرع فيها. كان يريد أن يجعلها ترى أين كانت تمر سكة القطار في بداية القرن فتصل إلى موريستاون قادمة من وايتهاوس لتنقل الدراق من بساتين في مقاطعة هانتردون. ثلاثون ميلًا من سكة الحديد من أجل نقل الدراق فقط. في ذلك الزمان، كان الطلب على الدراق شديدًا في أوساط الموسرين في المدن الكبيرة، فكانوا يشحنونه من موريستاون إلى نيويورك. كان قطارًا خاصًّا بالدراق. أليس هذا عجيبًا؟ في المواسم الطيبة، كانت سبعون عربة قطار تُحمَّل بالدراق من بساتين هانتردون. كان في تلك المنطقة مليونا شجرة دراق قبل أن يصيبها مرض فيقتلها كلّها. لكنْ، لماذا يطلب هذا من أوركوت؟ إنه قادر على إخبارها بنفسه عن ذلك القطار، عندما يحين الوقت، وعن الأشجار والمرض الذي أصابها. وسوف يأخذها بنفسه لكي يريها أين كانت تلك العربات. لا حاجة إلى الاستعانة بأوركوت لكي يفعل هذا من أجله.

عندما كانا في المقبرة، أشار أوركوت إلى شاهدة قبر بنّية متآكلة حُفرت في أعلاها صورة نسر مجنّح... كانت شاهدة قبر قريبة من جدار الكنيسة الخلفي. قال له أوركوت: «هذا قبر توماس. مهاجر بروتستانتي من شمال إيرلندا. وصل في سنة 1774، وكان في العشرين من عمره. التحق بوحدة ميليشيا محلية وصار جنديًا فيها. حارب في معركة ترينتون الثانية في الثاني من كانون الثاني سنة 1777. كانت تلك المعركة الخطوةَ التي مهدت لنصر جيش واشنطن في برنستون في اليوم التالي».

قال السويدي: «لم أكن أعرف هذا».

«... استقرّ آخر الأمر في قاعدة الإمدادات في موريستاون. كان مسؤولًا عن دعم قطار المدفعية القارّيّ. ثم اشترى بعد الحرب شركة للحديد في موريستاون لم يلبث أن دمرها في سنة 1795 طوفان ناتج عن أمطار غزيرة. كانا طوفانين، في 1794 وفي 1795. كان توماس من أشد مناصري جيفرسون. ولم يلبث أن أتاه تعيين سياسي من بلومفيلد الذي كان حاكم الولاية، فأنقذ حياته بعد خراب شركته. صار موظّفًا قضائيًا في مقاطعة موريس. ثم مديرًا للسجلات. ثم صار كاتب المقاطعة. ها هو هنا. الأب القوي الذي أنجب أطفالًا كثيرين».

قال السويدي: «أمر مثير للاهتمام»... أثار هذا الرجل اهتمامه لحظة معرفته بقصّته بعد موته بزمن طويل. وأما ما أثار اهتمامه فيه فهو أنه لم يعرف شخصًا مثل هذا من قبل.

قال أوركوت وهو يقوده إلى شاهدة قبر قديمة بنيّة أخرى على مسافة نحو عشرين قدمًا من الأولى. كانت صورة ملاك منقوشة على قمة الشاهدة؛ وكانت محفورة في أسفلها أربعة أبيات شعرية غير مقروءة. قال أوركوت: «هذا ابنه ويليام. عشرة أبناء. مات أحدهم قبل أن يبلغ الأربعين، لكن البقية عاشوا طويلًا. انتشروا في أنحاء المقاطعة كلّها. لم يعمل أحد منهم في الزراعة. كان من بينهم قضاة، ومسؤولو شرطة، وأصحاب أعمال حرة، ومديرو مراكز بريدية. كنت تجد أبناء عائلة أوركوت في كل مكان، حتى في بلدة وارن وفي الشمال، في توسكس. كان ويليام هو الثري بينهم. عمل في إنشاء الطرق، وفي الصيرفة،

وصار أحد الناخبين الرئاسيين في نيوجرسي في 1828. ساهم في حملة آندرو جاكسون الانتخابية. واستفاد من فوز جاكسون بأن حصل على منصب قضائي كبير. صار عضوًا في أعلى هيئة قضائية في الولاية. لم يكن محاميًا قط. لم تكن لهذا الأمر أهمية آنذاك. لكنه كان قاضيًا يحظى باحترام كبير عند وفاته. أترى ما هو مكتوب على شاهدة القبر؟ 'مواطن فاضل نافع'. وهناك ابنه، ذلك هو قبره... ابنه جورج الذي كان كاتبًا لدى أوغست فينبلي، ثم صار شريكه. كان فينبلي واحدًا من مُشرّعي الولاية. وقد دفعته قضية العبودية في اتجاه الحزب الجمهوري...».

قال السويدي لداون (بصرف النظر عن كونها راغبة في سماعه أو غير راغبة - الحقيقة لم تكن راغبة في سماع هذا): «كان ذلك درسًا في التاريخ الأميركي. جون كوينسي آدمز. آندرو جاكسون، أبراهام لنكولن. وودرو ويلسون. كان جدّه في صف واحد في المدرسة مع وودرو ويلسون. كان ذلك في برنستون. لقد ذكر لي السنة، لكني نسيتها الآن. لعلها سنة 1879! امتلأ رأسي بالتواريخ، يا داون. أخبرني الرجل بكل شيء. وكل ما كنا نفعله هو التجوّل في مقبرة خلف كنيسة مقامة على قمة تل. كان ذلك شيئًا مفيدًا. كان مدرسة حقيقية».

لكنّ مرة واحدة كانت كافية. أبدى أقصى ما استطاعه من اهتمام، ولم يُقصّر أبدًا في محاولة جعل دماغه يتابع تقدّم آل أوركوت على امتداد قرنين تقريبًا... على الرغم من هذا، كلما ذكر أوركوت اسم «موريس» مشيرًا به إلى مقاطعة موريس، كان ذهن السويدي يتّجه إلى عمه موريس ليفوف. لم يكن قادرًا على تذكّر أي وقت في حياته أحسّ فيه بأنه مثل أبيه - ليس ابن أبيه، بل مثل أبيه - أكثر مما أحسّه عندما كان يتجوّل بين قبور آل أوركوت. لا تستطيع عائلته منافسة عائلة أوركوت عندما يتعلّق الأمر بالأسلاف: سيفرغ آل ليفوف من تعداد أسلافهم في دقيقتين فقط. فإذا عدت إلى مرحلة ما قبل نيوارك، أي إلى بلدهم القديم، فإن أحدًا لم يكن يعرف شيئًا. لا يعرفون أسماء أسلافهم قبل نيوارك، ولا أي شيء عنهم، ولا كيف كانوا يعيشون، ولا كيف كانت ميولهم السياسية. لكن أوركوت كان قادرًا على المضي في الحديث عن أسلافه إلى الأبد. كان ذلك

الشخص - أوركوت - قد سبق آل ليفوف إلى كلِّ درجة اجتماعية يمكنهم ارتقاءها!

أهذا هو السبب الذي جعل أوركوت يبالغ كثيرًا؟ هل كان يريد أن يوضح ما تتهمه داون بأنه يريد جعله واضحًا من خلال طريقته في الابتسام للآخر: أن يوضح من هو؛ وأن يوضح أن الآخر ليس كذلك؟ لا، هذا لا يشبه أسلوب تفكير داون بقدر ما هو شديد الشبه بأسلوب تفكير أبيه. من الممكن أن تكون الحساسية اليهودية تجاه الآخرين في مثل شدّة الحساسية الإيرلندية، بل من الممكن أن تكون أشد منها. لكنهما لم ينتقلا للإقامة في هذا المكان حتى يجدا نفسيهما عالقين في هذه الأمور. هو ليس من خرّيجي جامعات النخبة، لقد تعلم، مثل داون، في جامعة أوبسالا المتواضعة في مقاطعة إيست أورينج، وكان يظن أن «رابطة اللبلاب»(49) اسمٌ لنوع من الملابس قبل أن يعرف أن لهذا المصطلح علاقة بالجامعات. ثم اتضحت له الصورة شيئًا بعد شيء... بالطبع... عالم للأثرياء تكسو نباتات اللبلاب مبانيه ويمتلك فيه الناس مالًا كثيرًا ويرتدون ملابس ذات طابع خاص يميّزهم. عالم لا يقبل اليهود، ولا يعرف اليهود، بل لعلّه لا يحب اليهود كثيرًا. ولعله لا يحب الإيرلنديين الكاثوليك أيضًا... هذا ما عرفه من كلام داون. بل لعل ذلك العالم يزدري الإيرلنديين الكاثوليك. لكن أوركوت كان أوركوت. وينبغي الحكم عليه تبعًا لقيمه الخاصّة به لا تبعًا لقيم «رابطة اللبلاب». طالما بقي منصفًا محترمًا معي، فسأظلّ منصفًا محترمًا معه.

لم تكن في ذهنه أية مشكلة تجاه أوركوت غير أن ذلك الرجل يمكن أن يصير مضجرًا عندما يُكثر الحديث عن الماضي. لم يكن السويدي ليرى في الأمر أكثر من ذلك إلا إذا أثبت أحد عكسه. لم يأتوا إلى السكن هنا حتى ينشغل بالهم بجيران لهم يقيمون خلف التلة ولا يُرى بيتهم من هنا. كان يمازح أمه بالقول إنهم أقاموا في هذا المكان «لأنني أريد حيازة الأشياء التي لا يمكن شراؤها بالمال». كان كل من يحزم أمتعته ويهجر نيوارك يتوّجه إلى واحد من شوارع الضواحي الهادئة في ميبل وود أو في ساوث أورينج؛ وأما هم - بالمقارنة مع الآخرين - فقد ذهبوا للإقامة على «خط الجبهة». خلال السنتين اللتين أمضاهما

مع قوات مشاة البحرية في ساوث كارولاينا، كانت تثير النشوة في نفسه فكرة أن «هذا هو الجنوب العتيق. إنني الآن تحت خط ماسون - دِكسون. إنني في عمق الجنوب!». صحيح أن الجنوب كان بعيدًا جدًا، وأن السويدي ما كان قادرًا على التنقل بين بيته ووحدته العسكرية، لكنه صار الآن قادرًا على تفادي الذهاب إلى ميبل وود وساوث أورينج، بل صار قادرًا على الذهاب إلى «محميّة الجبل الجنوبي» التي لا تبعد عنه كثيرًا، ثم يتابع السير بعدها فيبتعد غربًا في نيوجرسي قدر ما يشاء، لكنه يظلّ قادرًا على الوصول كل يوم إلى سنترال آفنيو في ظرف ساعة واحدة. ولم لا؟ صار يملك مئة أكر من أميركا. أرض أخليت أول الأمر من الأشجار لا من أجل الزراعة، بل من أجل تزويد مصانع الحديد القديمة بالحطب. ومصانع كانت تستهلك في السنة ألف أكر من الأشجار.
(اتضح له أن معرفة السيدة مالكة البيت والأرض بالتاريخ المحلّي تكاد تماثل معرفة بيل أوركوت. وأدرك أنها لم تكن أقل منه كرمًا في بسط تلك المعلومات أمام مشترٍ محتملٍ قادم من شوارع نيوارك). حظيرة، وبركة ماء للطاحون، وجدول ماء، وبقايا أساس الطاحون التي كانت تزوّد جنود جورج واشنطن بالدقيق. وفي مكان ما من قطعة الأرض تلك، كان هناك منجم حديد مهجور.
احترق البيت الأصلي بعد الثورة مباشرة؛ وقد كان بيتًا خشبيًا وإلى جواره منشرة للأخشاب. حلّ هذا البيت الحجري محلّ البيت القديم. وبحسب التاريخ المنقوش على حجر فوق باب القبو وعلى أحد الروافد عند الباب الأمامي، فقد بني البيت في سنة 1786 وأنشئت جدرانه الخارجية بحجارة جيء بها من مواقد معسكرات الجيش الثوري السابقة المنتشرة في التلال المحيطة. كان بيتًا حجريًا كالذي حلم به دائمًا... بيت له سقف مائل متعدّد الطبقات. وفي المكان الذي كان مطبخًا من قبل، ثم صار الآن غرفة طعام، كان هناك موقد لا يشبه أي موقد رآه من قبل. موقد كبير يتّسع لشيّ ثور كامل. كان ذلك الموقد مزودًا بباب وبرافعة من أجل تعليق غلاية ماء معدنية وإدارتها حتى تصير فوق النار. كانت عارضة تزيينية ارتفاعها تسعة عشر إنشًا ممتدة على عرض الغرفة كله، سبع عشرة قدمًا. أربعة مواقد أصغر حجمًا في الغرف كلها، عاملة كلها، ومحتفظة كلها

بمداخنها الأصلية. نحتٌ وتشكيل على الخشب لا يكاد يرى تحت طبقات وطبقات من الطلاء على امتداد أكثر من مئة وستين سنة تنتظر من يكشف عنها ويستصلحها. ممر مركزي عرضه عشر أقدام. سلّم له درابزين منحوت من خشب القيقب المتموّج الشاحب - (قالت له السيدة صاحبة البيت إن استخدام خشب القيقب المتموج في هذه الأجزاء كان أمرًا نادرًا في ذلك الزمان). غرفتان إلى كل جانب من جانبي السلم في الطابق العلوي وفي الطابق السفلي؛ أي ثماني غرف، بالإضافة إلى المطبخ وإلى الشرفة الخلفية الكبيرة... فلماذا لا يكون هذا البيت بيته؟ لماذا لا يتملّكه؟ «لا أريد العيش إلى جوار أحد. لقد فعلت هذا من قبل. كانت نشأتي هكذا. لا أريد رؤية مدخل الجيران من نافذتي. أريد رؤية الأرض... أريد رؤية جداول الماء جارية في كل مكان. أريد رؤية الأبقار والخيول. يقود المرء سيّارته مسافة صغيرة في ذلك الطريق فيجد شلالات متدفّقة أمامه. لسنا مضطرين للعيش مثلما يعيش أي شخص آخر... صرنا الآن قادرين على العيش كيفما شئنا. لقد فعلناها. لم يمنعنا أحد. لم يكن أحد قادرًا على منعنا. لقد تزوّجنا. صرنا قادرين على الذهاب إلى أي مكان، وعلى فعل أي شيء. داون... صرنا حُرَّيْن يا داون!».

إلا أن التوصّل إلى الحرّية لم يكن من غير عناء إذ إن أباه كان يضغط عليه حتى يشتري بيتًا في مشروع نيوستيد للتطوير العقاري في ضواحي ساوث أورينج حيث يمكنه أن يشتري بيتًا حديثًا مزوّدًا بكل ما هو جديد بدلًا من هذا «الضريح» المتداعي. «لن تتمكّن أبدًا من تدفئته». هذا ما تنبّأ به لو ليفوف يوم وقعت عينه أول مرة على ذلك البيت الحجري الضخم الخاوي الذي كانت عليه لافتة تقول «للبيع»، بيت بين التلال على طريق بعيد عن كل شيء، بعيد أحد عشر ميلًا إلى الغرب من أقرب محطة قطار (محطّة لاكاوانا في موريستاون)، حيث العربات الخضراء ذات الأبواب المنزلقة والمقاعد الخشبية التي تأخذ الناس طيلة المسافة حتى نيويورك. ولأن ذلك البيت كان معروضًا للبيع مع مئة أكر من الأرض ومع حظيرته المتداعية وبقايا طاحونة، لأنه كان خاليًا معروضًا للبيع منذ قرابة سنة كاملة، فقد كان مطلوبًا فيه ما يعادل نصف ثمن بيت قائم

على أكرين من الأرض في نيوستيد. «ستكلّفك تدفئة هذا البيت ثروة؛ وستتجمّد حتى الموت، على الرغم من ذلك. وعندما يهطل الثلج، هنا، يا سايمور، فكيف ستذهب إلى محطة القطار؟ لن تستطيع الذهاب عبر هذه الطرق. ولماذا - بحق الجحيم - يجد نفسه في حاجة إلى هذه الأرض كلها». كان هذا سؤالًا وجّهه إلى أم السويدي لو ليفوف التي كانت واقفة بين الاثنين، وكانت تحاول إبقاء نفسها خارج هذه المناقشة متظاهرة بالنظر إلى قمم الأشجار المصطفّة على امتداد الطريق. (عرف السويدي فيما بعد أنها كانت تبحث - عبثًا - عن مصابيح الإنارة في ذلك الشارع). سأله أبوه: «وماذا تفعل بهذه الأرض كلها؟ هل تريد إطعام جياع الأرمن؟ أتعرف ماذا؟ أنت حالم. لا أدري إن كنت تعرف أين يقع هذا المكان. فليكن كل منا صريحًا مع الآخر في ما يخص هذا الأمر: هذه منطقة متعصّبة ضيّقة الأفق. لقد كانت منظمة كوكلوكس كلان مزدهرة في العشرينات، فهل كنت تعرف هذا؟ إنها الكوكلوكس كلان. أشخاص كانوا يضعون صلبانًا مشتعلة أمام بيوتهم هنا».

«بابا، لم تعد منظمة كوكلوكس كلان موجودة هنا».

«أوه، أليست موجودة؟ هذه هي ولاية نيوجرسي الجمهورية المتعصّبة، يا سايمور. إنهم جمهوريون هنا، من أعلاهم إلى أسفلهم». «بابا، إيزنهاور هو الرئيس الآن. والبلد كلها جمهورية. إيزنهاور هو الرئيس وروزفلت مات».
«نعم؛ لقد كان هذا المكان جمهوريًا عندما كان روزفلت حيًا. كانوا جمهوريين في زمن New Deal(50). فكّر في هذا. لماذا كانوا يكرهون روزفلت هنا، يا سايمور؟». «لست أعرف السبب. لأنه كان ديمقراطيًا». «لا، كانوا يكرهون روزفلت لأنهم لا يحبّون اليهود والإيطاليين والإيرلنديين... هذا ما جعلهم في الأصل ينتقلون إلى هذه المنطقة. لم يكونوا يحبون روزفلت لأنه اهتم بأولئك الأميركيون الجدد. لقد فهم حاجاتهم وحاول مساعدتهم. لكن أبناء الحرام هنا ليسوا كذلك. ليسوا مستعدّين لتقبل اليهود. إنني أحدثك عن المتعصبين، يا بني. لست أتحدّث عن الناس العاقلين المعتدلين... أتحدّث عن الكراهية. هنا يعيش الكارهون، في هذا المكان».

كانت نيوستيد هي الإجابة البديلة. ففي نيوستيد، لن يكون لديه صداع المئة أكر. وفي نيوستيد، سيكون المجتمع المحيط كلّه من الديمقراطيين. وفي نيوستيد يمكن أن يعيش بين أسر يهودية شابّة، ويمكن أن تترعرع طفلته مع أطفال يهود. وسيكون سهلًا عليه الذهاب إلى شركة نيوارك ميد، لأن المسافة عبر جادة ساوث أورينج، لا تتجاوز نصف ساعة. «بابا، المسافة من هنا إلى موريستاون خمس عشرة دقيقة فقط». «لا، هي ليست كذلك عندما يهطل الثلج. ليست كذلك إذا التزمت بقوانين السير». «إذا أخذتُ القطار السريع الذي ينطلق في الثامنة وثمانٍ وعشرين دقيقة، فإنني أصل إلى برودستريت في الثامنة وست وخمسين دقيقة. أمشي حتى سنترال آفنيو فأصل إلى العمل في التاسعة وست دقائق». «وإذا هطل الثلج؟ أنت لم تجبني على هذا بعد. وإذا تعطّل القطار؟». «هذا قطار يستخدمه مضاربو البورصة للذهاب إلى عملهم. ويستخدمه المحامون ورجال الأعمال الذين يذهبون إلى مانهاتن. أشخاص أثرياء. إنه ليس قطار الحليب... إنه لا يتعطّل. بل إن في قطارات الصباح الباكر عربات صالون مزودة بالكنبات. ليس هذا قطارًا ذا مقاعد خشبية». أجابه أبوه: «تظن أنك تخدعني بهذا الكلام!».

لكن السويدي كان أشبه بواحد من «رجال الحدود» القدامى، وما كان لينثني. فما اعتبره أبوه رأيًا خاطئًا غير عملي، كان في نظره فعلًا من أفعال الشجاعة. على غرار زواجه من داون دواير، كان شراؤه البيت مع الأرض الملحقة به والخروج من أولد ريمروك أكثر الأشياء التي فعلها في حياته جرأة. فما كان أبوه يراه بعيدًا كالمريخ، كان بالنسبة إليه أميركا نفسها. لقد أتى لكي يستوطن نيوجرسي الثورية، كما لو أنه أول من يأتيها.

كانت أميركا كلها قابعة أمام باب بيته في أولد ريمروك. وكانت تلك فكرة يحبّها. الحساسية اليهودية، والحساسية الإيرلندية... إلى الجحيم بهذا! زوج وزوجة، كل منهما في الخامسة والعشرين من عمره، وطفلة لم تبلغ سنة واحدة... كانت شجاعةً منهم أن يخرجوا من أولد ريمروك. لقد سمع أن عددًا غير قليل من الأشخاص الموهوبين الأذكياء الأقوياء ممن يعملون في مجال

الجلود قد خضعوا لآبائهم، لكنه ما كان يريد أن يحدث له هذا. لقد وقع في حب العمل نفسه الذي أحبه أبوه، وقد ورث هذا الحب عنه، لكنه الآن يتابع سيره إلى ما بعد هذا فيعيش حيث يريد.

لا، لن نكون مضطرين إلى التعامل مع حساسية أحد. لقد تجاوزنا تلك الحساسية بخمسة وثلاثين ميلًا. لم يكن يرى أن من السهل دائمًا أن يجتاز المرء الحدود الدينية. ولم يكن يرى أن ما من تحامل ومواقف مسبقة: لقد واجه هذا في مشاة البحرية، واجهه مرتين في المعسكر التدريبي. وقد عرفت داون مظهرًا صفيقًا من مظاهر معاداة السامية في تلك المسابقة في أتلانتيك سيتي عندما أشارت مشرفتها متأسفة إلى سنة 1945 عندما صارت بيس مايرسون اليهودية ملكة جمال أميركا. صحيح أنها كانت تسمع نكاتًا عارضة عن اليهود في طفولتها، لكن أتلانتيك سيتي كانت جزءًا من العالم الحقيقي لا من الطفولة، فصدمها الأمر. ما كانت مستعدة لتكرار ما سمعته أمامه في ذلك الوقت لخشيتها من أن ينقلب عليها عندما يعرف أنها ظلّت على صمتها المهذب ولم تقل لتلك المرأة الغبية أن تغرب عن وجهها، وذلك خاصة عندما أضافت مشرفتها «أؤكد أنها كانت جميلة المظهر، لكن ذلك كان أمرًا محرجًا للمسابقة كلها». ما كان للأمر أهمية كبيرة لأن داون كانت مجرّد واحدة من المتسابقات، فتاة في الحادية والعشرين من عمرها، فما الذي يمكن أن تقوله أو تفعله؟ كان السويدي يعرف أن كلًا منهما يدرك - من تجربته الشخصية المباشرة - أن هذه الأفكار المسبقة موجودة. إلا أن الفوارق الدينية في مجتمع متحضّر، كما في أولد ريمروك، لم تكن أمرًا يصعب التعامل معه إلى الحدّ الذي تتصوّره داون. إن كانت قد تزوّجت يهوديًا، فمن المؤكد أنها قادرة على أن تكون جارة ودودًا لأشخاص من البروتستانت... من المؤكّد تمامًا أنها تستطيع ذلك، إن استطاعه زوجها. ليس البروتستانت إلا طائفة مسيحية أخرى. لعلهم كانوا قلائل حيث ترعرعت - كانوا قلائل حيث ترعرع هو أيضًا - لكنهم ليسوا قلة في أميركا. فلنواجه الأمر: البروتستانت هم أميركا. فإذا لم تشدّدي على تفوق الكاثوليكية، مثلما تفعل أمك، وإذا لم أشدّد على تفوّق

التقت الأسرتان أول مرة، كانت حيوية جيسي هي ما لفت نظر السويدي: نضرة جدًا، ومنطلقة جدًا، ومندمجة بالحياة على نحو بهيج جدًا، وليس فيها شيء زائف أو من غير طعم... أو، هكذا كان الانطباع الذي فاجأ السويدي، وإن لم يكن مثل الانطباع الذي تركته لدى زوجته.

كانت جيسي وارثة من فيلادلفيا. فتاة أنهت دراستها، ترتدي في النهار دائمًا، وفي المساء أحيانًا، بنطلونَ ركوب الخيل المبقّع بالطين وتجدل شعرها ضفائر ناعمة. تقول داون إنك إذا بحثت عما خلف هذه الضفائر وخلف الوجه النقي المدوّر الذي لا شائبة فيه فلن تجد دماغًا بل كمبيوتر آبّل ماكنتوش... من الممكن أن يحسبها المرء فتاة ريفية من مينيسوتا في الأربعينات من عمرها، إلا في تلك الأيام التي ترفع فيها شعرها تبدو أشبه بصبي شاب منها بفتاة شابة. وما كان السويدي ليتخيّل أبدًا أن ينقصها شيء فيحُولُ دون إبحارها عبر السنين حتى سن متقدّمة بصفتها أمًا مشهودًا لها وزوجة نشطة قادرة على تحويل جمع أوراق الأشجار وحرقها إلى حفلة يشارك فيها الأطفال جميعًا، امرأة كانت نزهات الرابع من تموز(53) التي تقيمها في مروج عزبة أوركوت القديمة تقليدًا عزيزًا على أصدقائها وجيرانها. في ذلك الوقت، فاجأت شخصيتُها السويدي إذ رأى فيها تركيبة يكاد يمكن العثور فيها على كل ما يطرد الخوف واليأس. كان يمكنه تخيل أن في داخلها نواة من الثقة مضفورة بأناقة وإحكام مثل ضفائر شعرها.

إلا أن حياتها كانت واحدة أخرى من الحيوات المقسومة انقسامًا تامًّا إلى قسمين. الآن، صار شعرها كتلة من خيوط رمادية بلون الحديد... شعر في حاجة دائمة إلى تسريح. الآن، صارت جيسي امرأة مسنّة منهَكة في الرابعة والخمسين، وصارت سكّيرة سيئة التغذية تخفي الانتفاخ الذي يكون في بطن السكير تحت فساتينها التي صارت أشبه بأكياس لا شكل لها. وما كانت قادرة على العثور على شيء تتحدّث عنه - في المناسبات التي تتمكّن فيها من الخروج من البيت والذهاب لرؤية الناس - إلا الأيام «السعيدة» التي عاشتها قبل أن تبدأ الشراب، أو الزوج، أو الطفل، أو فكرة وحيدة في رأسها، قبل أن تدبّ فيها

الحياة (بالتأكيد، كانت تراه شخصًا قد «دبّت» فيه الحياة) بفعل الرضا الكبير الناجم عن كونه شخصًا جديرًا بالثقة.

لم تكن حقيقة أن الناس كائنات مكوّنة من عناصر مختلفة أمرًا مفاجئًا للسويدي، على الرغم من شيء من الصدمة يأتي به إدراك هذا الأمر مرّة جديدة عندما يخذلك أحد ما، أو عندما تخيب نظرتك إليه. ما كان مدهشًا له هو كيف يبدو الناس كما لو أنهم استنفدوا وجودَهم ذاته، أو استنفدوا ذلك الشيء - كائنًا ما كان - الذي يجعلهم من هم عليه... يدهشه كيف يستنفدون أنفسهم ويتحوّلون إلى ذلك النوع من الناس الذي كانوا ينظرون إليه نظرة إشفاق في ما مضى. كان الأمر كما لو أن أولئك الناس يكونون في حالة قرف من أنفسهم (عندما تكون حياتهم غنيّة ممتلئة)، ولا يطيقون صبرًا على التخلّص من عقلهم ومن صحتهم ومن كل إحساس بالتناسب حتى ينتقلوا إلى تلك الذات الحقيقية الكامنة فيهم، التي هي فوضى وتشوّش لا يرى نفسه على حقيقتها. كان ذلك كما لو أن التناغم مع الحياة ليس إلا مصادفة يمكن أن تكون أحيانًا من نصيب الشباب المحظوظ؛ وأما غير ذلك فهي شيء لا صلة حقيقيةً له ببني البشر. غريبٌ هذا! وكم جعلَ هذا الأمر يبدو غريبًا في نظر نفسه تفكيرُه في أنه قد يكون - هو الذي لديه إحساس دائم بنعمة الانتماء إلى ما لا حصر له من البشر الطبيعيين غير المخَرَّبين - شخصًا غير مختلف عنهم في حقيقة الأمر... تفكيرهُ في أنه ليس إلا شخصًا غريبًا عن الحياة الحقيقية نتيجة استقراره وثباته الشديدين.

سمع جيسي تقول لأبيه: «كان لدينا بيت بالقرب من قرية باولي. وكنا نربي الحيوانات دائمًا. حصلتُ على أروع شيء عندما كنت في السابعة. أهداني أحدهم مهرًا وعربة. لم يعد يوقفني شيء بعد ذلك. أحببت الخيول كثيرًا. وركبت الخيول طيلة حياتي. كنت أشارك في الاستعراضات، وأصطاد. شاركت في سباق ‘سَحْب’ في المدرسة في فرجينيا. لقد كنت ‘السّوط’ عندما ذهبت إلى المدرسة في فرجينيا».

قال السيد ليفوف: «مهلك لحظة! واو! لا أعرف معنى ‘السَّحْب’، ولا معنى ‘السّوط’! مهلك يا سيدة أوركوت. إنك تكلّمين شخصًا من نيوارك».

شدّت على شفتيها عندما خاطبها باسم «السيدة أوركوت». فبدا كما لو أنه يخاطبها هكذا لأنه في مرتبة اجتماعية أدنى من مرتبتها؛ وهو ما كان السويدي يعرف أنه، جزئيًا، السبب الذي دفع والده إلى مخاطبتها بـ«السيدة أوركوت». لكنها كانت «السيدة أوركوت» في نظر لو ليفوف بسبب الازدراء الذي يدفعه إلى إبعاد نفسه عن ذلك الشراب في يدها، عن الكأس الثالثة من الويسكي الممزوج بالماء خلال أقل من ساعة، وعن السيجارة الرابعة، المشتعلة بين أصابع يدها المرتجفة. لقد أدهشه عجزُها عن السيطرة على نفسها (كان يدهشه عجز أي إنسان عن السيطرة على نفسه. كان يدهشه خاصة عجز غير اليهودي الذي يشرب الكحول عن السيطرة على نفسه. الشربُ هو الشيطان الجاثم داخل غير اليهودي). كان والده يقول: «الغوييم الكبار، رؤساء الشركات... إنهم يشبهون الهنود الحمر الذين يشربون ماء النار»(54). قالت له: «اسمي جيسي... جيسي، من فضلك». لم تفلح ابتسامتها المصطنعة إلى حد الألم في تمويه أكثر من عشرة بالمئة، بحسب تقدير السويدي، من العذاب الذي تحسّه الآن لأنها قرّرت عدم البقاء وحدها في بيتها مع كلابها وتلفزيونها، ومع زجاجة الويسكي، فاستسلمت لاندفاعة أمل سخيفة وفضّلت الخروج مثلما تخرج زوجة مع زوجها. كان لديها في البيت جهاز هاتف إلى جانب زجاجة الويسكي، وكانت قادرة على مد يدها ورفع السماعة والاتصال بمن تريد. في بيتها، تكون قادرة على إخبار الناس الذين تعرفهم بأنها تحبّهم كثيرًا، حتى لو كانت في نصف ملابسها. قد تمرّ شهور من غير أن تجري جيسي أية اتصالات هاتفية؛ ثم تُجري ثلاثة اتصالات ليلية بعد أن يكون الناس قد ذهبوا إلى فراشهم. «سايمور، أتصلُ بك لكي أقول لك إنني أحبّك كثيرًا». «حسنًا، يا جيسي. شكرًا لك، وأنا أحبك أيضًا». «هل تحبّني حقًّا؟». «بالطبع أحبّك. أنت تعرفين هذا». «نعم، إنني أحبك يا سايمور. لقد أحببتك دائمًا. هل كنت تعرف أنني أحبّك؟». «كنت أعرف». «إنني معجبة بك منذ زمن بعيد. بيل معجب بك أيضًا. نحن معجبان بك دائمًا. ونحن نحبّك دائمًا. نحن نحب داون». «حسنًا، ونحن نحبك أيضًا، يا جيسي»، في الليلة التي أعقبت انفجار تلك القنبلة، نحو منتصف الليل تقريبًا،

وبعد أن ظهرت صورة ميري في التلفزيون وعرفت أميركا كلّها أنها كانت قد قالت لشخص ما في المدرسة في الليلة السابقة إن مفاجأة تنتظر أولد ريمروك، حاولت جيسي أن تسير ثلاثة أميال إلى بيتهم لكي ترى أسرة ليفوف، لكنها تعثّرت في الطريق الريفي غير المعبّد، تعثّرت وهي سائرة وحدها فسقطت والتوى كاحلها، ثم كادت سيارة نقل صغيرة تدهسها وهي لا تزال مستلقية في الطريق بعد ساعتين من ذلك.

«حسنًا، يا صديقتي جيسي، أخبريني. ما معنى ‘السَّحب’ و‘السُّوط’؟». لا يمكن القول إن والده لم يكن بالشخص الذي يحاول مسايرة الناس على الرغم من عدم انجذابه إليهم. إن كانت جيسي ضيفة ابنه، فهي صديقة له مهما يكن مقدار النفور الذي يحسّه تجاه سيجارتها وكأس الويسكي والشعر المشعّث والحذاء المهلهل وتلك الخيمة المصنوعة من الخيش التي تخفي بها جسدها الذي أساءت إليه... مهما تكن منفّرة له الامتيازات التي بددتْها هباء، ومهما تكن معيبة تلك الحالة التي أوصلت حياتها إليها.

«إن ‘السَّحب’ هي رياضة صيد الثعالب، لكن من غير ثعلب! يبدأ الصيد انطلاقًا من خط يرسمه رجل يركب حصانًا ويسير أمامنا. لديه كيس تفوح منه رائحة كرائحة الطريدة تجعل الكلاب تعدو خلفه. وهناك حواجز وأسيجة، كبيرة، كبيرة، مرتّبة ضمن شيء يشبه مضمار سباق. الأمر ممتع كثيرًا. تجري بسرعة كبيرة. أسيجة ضخمة من أجمات كثيفة. يبلغ عرض السياج الواحد ثماني أقدام، أو عشر أقدام، مع قضبان خشبية في أعلاه. شيء مثير جدًّا. تجد هناك كثيرًا من الخيول التي تستطيع الجري سريعًا لمسافات طويلة؛ وتجد الكثير من راكبي الخيل الماهرين. يذهبون كلّهم إلى ذلك المكان ويندفعون عبر تلك الحواجز، إنها متعة عظيمة».

بدا له أن هذا يُظهر قدرًا كبيرًا من الارتباك إزاء مأزقها - امرأة ثملة في حفلة تثرثر على نحو لا تستطيع ضبطه - بينما كان تساؤل والده اللطيف المعترف بجهله يجعل اندفاعها الكارثي يزداد شدّة فتحفّزها كل كلمة مغمغمة ينطقها فمها إلى الاندفاع في محاولة فاشلة جديدة لنطق كلمات واضحة رنانة كالجرس. ولو

لنطق كلمة واضحة مثل كلمة «بابا!». التي انطلقت بوضوح تام من خلف لثام ابنته الجابنية.

كان يعرف ما يفكّر فيه أبيه من غير حاجة إلى رفع رأسه عن الملقط الحديدي الذي كان يمسك به الجمرات المحمرّة ويرتّبها على شكل هرم. مرح ومتعة - هذا ما كان والده يفكّر فيه - ما قصّتهم مع المرح والمتعة؟ وما هذا هو المرح؟ وما هو الشيء الممتع إلى هذا الحدِّ؟ كان أبوه يتساءل الآن مثلما ظلّ يتساءل منذ أن اشترى ابنه هذا البيت على مسافة أربعين ميلًا من جادّة كير، مع مئة أكر من الأرض... لماذا يريد ابنه أن يعيش مع أولئك الناس؟ حتى إذا نسينا أمر كثرة الشرب لديهم، فإن صحوَهم ليس بأقل سوءًا! إنهم قادرون على جعلي ضجرًا حتى الموت في أقل من دقيقتين!

كان لدى داون مأخذ عليهم؛ وكان لدى والده مأخذ آخر.

قالت جيسي محاولة، بتحريك يدها التي تحمل السيجارة، أن تصل إلى توضيح ما كانت تقوله: «كان ذلك ما جعلني أذهب إلى المدرسة مع حصاني».

«هل ذهبت إلى المدرسة مع حصان؟».

ضغطت شفتيها من جديد على نحو موحٍ بنفاد الصبر؛ ولعلّها فعلت ذلك لأن أباه، الذي ظنّ أنه يساعدها في الوصول إلى مخرج من خلال طرح هذه الأسئلة عليها، كان يدفعها بسرعة أكبر من المعتاد إلى نقطة الانهيار التي كانت في انتظارها. قالت له: «أجل. ذهبنا معًا بالقطار في وقت واحد. ألم يكن هذا حظًّا طيّبًا؟»... فوجئ الأب والابن عندما وضعت جيسي كفّها العابثة المداعبة على رأس لو ليفوف كما لو أنها لم تكن واقعة في أية أزمة على الإطلاق - كما لو أن سُكرها لم يكن أكثر من وهم مضحك يُصرُّ عليه (بطريقة مقزّزة) الأشخاص المعجبون بأنفسهم لأنهم لا يشربون.

«إنني آسف، لكنني لا أفهم كيف صعدت إلى القطار مع الحصان. هل كان حصانًا كبيرًا؟».

«كانت هناك عربات خاصّة للخيول في تلك الأيام».

قال السيد ليفوف: «آ... ها...»، كما لو أن عجبه وحيرته إزاء المسرّات التي

يجدها غير اليهود قد بلغا آخر الأمر حالة من الاقتناع والاطمئنان. أمسك بيدها التي وضعتها على شعره كما لو أنه يريد أن ينقل إليها كل ما كان يعرفه عن غاية الحياة التي يبدو أنها نسيتها. احتفظ بتلك اليد بين كفّيه ممسكًا إياها بإحكام. وفي أثناء ذلك، تابعت جيسي كلامها المضطرب تحت تأثير تلك القوّة التي فشلت في احتواء الموقف وإنهائه، لكنها ستصل بها إلى حالة من الخزي قبل انتهاء تلك الليلة.

«كان هناك سيرك كامل مسافر في ذلك القطار. كانوا متّجهين جنوبًا في رحلة الشتاء. توقّف القطار في فيلادلفيا، فوضعت حصاني مع حيواناتهم. وضعت حصاني في عربة لا تفصلها عن العربة التي جلست فيها إلا عربتان اثنتان؛ ثم ودّعت أسرتي. كان هذا رائعًا».

«كم كان عمرك؟».

«كنت في الثالثة عشرة. لم أشعر بأي حنين إلى البيت. كان ذلك رائعًا، رائعًا، رائعًا»... وهنا بدأت تبكي... «كان شيئًا ممتعًا».

في الثالثة عشرة... كان أبوه يفكر في هذا... طفلة مجنونة... وهل ودّعتِ أسرتك أيضًا؟... ما المشكلة التي كانت لديكم؟ هل كانت لدى أهلك مشكلة؟... لماذا - بحق الجحيم - كنت تودّعين أسرتك وأنت لا تزالين في سن الثالثة عشرة؟ لا عجب في أنك صرت سكّيرة الآن!

لكن ما قاله لها كان... «لا بأس عليك! دعي الحزن كله يخرج من نفسك. لم لا؟ أنت بين أصدقاء». كان عليه أن يقوم بالأمر مهما بدا له غير مستساغ. أخذ الكأس من يدها، وأخذ من يدها الأخرى سيجارتها التي أشعلتها قبل لحظات، ثم طوّقها بذراعيه. لعلها ما كانت تريد غير هذا، منذ البداية.

قال لها بصوت رقيق: «أعرف أين يكون عليّ أن أصير أبًا من جديد»، فلم تستطع أن تجيبه بشيء... لم تستطع فعل شيء غير مواصلة انتحابها وترك والد السويدي يهدهدها... والده الذي لم تره من قبل إلا مرة واحدة في حياتها عندما ذهبوا - قبل نحو خمسة عشر عامًا - في نزهة في بساتين آل أوركوت بمناسبة الرابع من تموز. حاولتْ يومها إثارة اهتمامه بالرمي على الأطباق، شكل آخر

من تلك التسليات المستعصية على فهم لو ليفوف اليهودي منذ زمن بعيد. على سبيل «اللهو»... يضغطون على الزناد ويطلقون النار من بندقية. إنهم مجانين!

كان ذلك في اليوم الذي صادفوا في طريق عودتهم إلى البيت لافتة بخط اليد موضوعة إلى جانب الطريق عند الكنيسة. كان مكتوبًا عليها «خيام للبيع»، فراحت ميري تتوسّل إلى السويدي، بطريقتها الحارة المندفعة، حتى يتوقّف ويشتري لها خيمة.

إذا كان من الممكن لجيسي أن تبكي على كتف والده لأنها تذكّرت كيف ودعت أسرتها عندما كان عمرها ثلاثة عشر عامًا، وكيف ذهب بها ذلك القطار من غير رفيق لها غير حصانها، فلماذا لا تجعله تلك الذكرى من ذكرياته... «بابا، توقّف يا بابا، إنهم يبي - يبي - عو يبيعون خيامًا»... يكاد يبكي على ابنته الجاينية عندما كانت في السادسة من عمرها؟

أدرك أن من الواجب أن يعرف أوركوت ما يحصل لزوجته جيسي، وكان في حاجة إلى بعض الوقت حتى يستجمع شتات نفسه بعد أن أحسّ فجأة فداحة ثقل الوضع الذي يحاول جاهدًا إبعاده عن تفكيره ريثما ينصرف الضيوف على الأقل... وضعُه باعتباره أبًا لابنة لم تقتل شخصًا واحدًا فحسب باسم الحقيقة والعدالة (ولم تقتله مصادفة)، بل قتلت ثلاثة أشخاص غيره من دون أي اكتراث... ابنة أنكرت كل ما تعلّمته منه ومن أمّها ثم بلغ بها الأمر الآن حد الإنكار الفعلي للوجود المتمدّن كله، ابتداء بالنظافة وانتهاء بالمنطق. ترك السويدي أباه يعتني بجيسي وحده، ومضى ملتفًّا حول البيت قاصدًا باب المطبخ الخلفي حتى ينادي أوركوت. رأى عبر الباب الزجاجي أوراقًا على الطاولة، وحزمة جديدة من رسوم أوركوت - لعلها رسوم لذلك الممر الذي أرهقهما أمره؛ ثم رأى أوركوت نفسه واقفًا عند المجلى.

كان أوركوت يرتدي بنطلونه الكتاني الأحمر كتوت العليق، وقميصًا فضفاضًا معلّقًا فوق ذلك البنطلون. كان من قمصان هاواي المزيّنة بمجموعة ملونة من الأزهار الاستوائية، أي قميصًا من ذلك النوع الذي يمكن وصفه أحسن وصف بكلمة «صاخب» التي تحب سيلفيا ليفوف إطلاقها على كل ملابس تراها بعيدة

عن الذوق السليم. لكن داون كانت مصرّة على أن تلك الملابس ليست إلا جزءًا من مظهر الثقة الزائدة لدى أوركوت، ذلك المظهر الواثق الذي - يا للسخافة - أخافها عندما كانت امرأة صبية حديثة العهد بأولد ريمروك. فبحسب تفسير داون (التفسير الذي فوجئ السويدي به عندما قالته له لأنه لمس فيه شيئًا لا يزال باقيًا من تلك الحساسية القديمة)، إن ما تريد قمصان هاواي تلك قوله - ببساطة - هو التالي: أنا ويليام أوركوت الثالث، ولي أن أرتدي ما لا يجرؤ بقية الناس هنا على ارتدائه. قالت داون: «في عالم مقاطعة موريس العظيم، كلما ظننت نفسك أكثر أهمية، كلما اعتبرت أن من حقّك أن يكون مظهرك أكثر زخرفة وضجيجًا». قالت مبتسمة ابتسامتها الساخرة: «قميص هاواي هذا هو تطرّف الواسب... ألوان الواسب الصاخبة. هذا ما تعلّمتُه من العيش هنا - حتى من هُم مثل ويليام أوركوت الثالث لديهم لحظات تفجّر الوفرة والحيوية».

قبل سنة واحدة فقط، كان والد السويدي قد أبدى ملاحظة مماثلة. «لاحظتُ هذا الأمر لدى الغوييم الأثرياء في فصل الصيف. يأتي الصيف فيرتدي أولئك الأشخاص المحافظون المستقيمون ملابس لا يصدّقها عقل»... ضحك السويدي عندما سمع ذلك وقال له: «هذا شكل من أشكال الامتياز». كان يكرّر ما سمعه من داون. ضحك لو ليفوف معه ثم سأله: «أهو كذلك؟»... ثم قرّر الإجابة على سؤاله بنفسه: «لعلّه كذلك. مع هذا لا بد لي من الاعتراف بجرأة هذا الرجل. عليك أن تكون شجاعًا حتى ترتدي ذلك البنطلون وذلك القميص».

بالتأكيد... عندما ترى أوركوت مرتديًا تلك الملابس في القرية، رجل قوي ضخم ذو مظهر محترم، لا يمكنك أن تتخيل (إذا كنت السويدي) أن يكون ذلك المظهر الفارغ سمة مميّزة للوحاته كلّها. إن من شأن شخص لا يفقه شيئًا عن الفن التجريدي (هذا ما تقوله داون عن السويدي) أن يتخيّل ذلك الرجل الذي يتجوّل مرتديًا تلك القمصان شخصًا يرسم لوحات أشبه بتلك اللوحة الشهيرة التي تصوّر فيربو(55) وهو يطيح بدمبسي فيرميه خارج الحلبة في الجولة الثانية من المباراة في صالة «بولو براونز». لكن من الواضح أن الإبداع الفني لا يتمّ تحقيقه بأي شكل يمكن أن يفهمه السويدي ليفوف، ولا أي سبب من الأسباب

التي يستطيع إدراكها. فبحسب تفسير السويدي، لم يكن ذلك الغليان والفوران كلاهما ليتجاوزا ارتداء تلك القمصان... بريقه كلّه، وجرأته كلّها، وتمرّده على المألوف، بل ربما خيبته وقنوطه أيضًا.

حسنًا، لعل الأمر ليس كذلك أبدًا. هذا ما اكتشفه السويدي وهو واقف على الدرجة الغرانيتية الكبيرة ينظر عبر باب المطبخ الزجاجي. لماذا لم يفتح الباب ويدخل مباشرة إلى مطبخ بيته ويقول إن جيسي في حاجة حقيقية إلى زوجها؟ السبب هو أن أوركوت كان منحنيًا فوق داون التي كانت منحنية فوق المجلى تقشّر أكواز الذرة. للوهلة الأولى، بدا للسويدي كما لو أن أوركوت يعلّمها كيف تقشّر تلك الأكواز منحنيًا من خلفها، واضعًا يديه على يديها وهو يساعدها في نزع قشور الأكواز وإزالة الخيوط الحريرية التي تحتها، وذلك على الرغم من حقيقة أن داون لم تكن في حاجة إلى أي توجيه في هذا الأمر. لكن، إن كان يساعدها في تعلم تقشير الأكواز، فلماذا كان وسطه وردفاه يتحرّكان على ذلك النحو من تحت قميصه الواسع المزيّن بالأزهار؟ ولماذا كان خده ملتصقًا بخدّها على ذلك النحو؟ ولماذا كانت داون تقول له - إن كان السويدي مصيبًا في قراءة حركة شفتيها - «ليس هنا، ليس هنا...»؟ لماذا تقول إنها لا تريد تقشير أكواز الذرة هنا؟ إن المطبخ مكان مناسب كأي مكان آخر. لا، اقتضاه الأمر لحظة قبل أن يدرك، أولًا، أنهما لم يكونا يقشّران أكواز الذرة معًا، وثانيًا، لم يكن مظهر أوركوت المبهرج الفاقع، وجرأته وتمرّده وخيبته وقنوطه... لم يكن ارتداؤه تلك القمصان كافيًا لإشباع هذه الأمور كلها.

إذًا، هذا ما كان يجعلها دائمًا تفقد صبرها مع أوركوت... حتى تضلّلني! كلماتها اللاذعة عن قلة إحساسه، وعن أصله، وعن دفئه الفارغ... تقلّلُ من شأنه هكذا كلما هممنا بالذهاب إلى السرير. بالتأكيد... لا بد لها من الحديث عنه بهذه الطريقة. إنها واقعة في حبه. لم تكن خيانتها للبيت خيانة للبيت فقط.. لقد كانت خيانة!

كانت داون تقول: «إن زوجته المسكينة لا تشرب هكذا من غير سبب. متحفظ دائمًا، ومنشغل دائمًا بأن يكون شديد التهذيب. خريج برنستون حقيقي. صاحب

الرأي السديد دائمًا. يبذل جهدًا كبيرًا حتى يكون ذا بعد واحد. انعدام الطعم الذي يميز الواسب كلهم. يعيشون بالكامل على ماضيهم. ثم إن الرجل لا يكون هناك نصف الوقت».

حسنًا، إن أوركوت هناك الآن، هناك تمامًا. كان ذلك بالضبط ما يظنّ السويدي أنه رآه قبل أن يستدير سريعًا ويعود إلى التراس وإلى شرائح اللحم التي تشوى على النار: كان أوركوت يضع نفسه هناك، تمامًا حيث أراد أن يكون؛ أوركوت يخبر داون أين هو تمامًا. «هناك! هناك! هناك! هناك!»... لم يكن يبدو عليه أي تردّد على الإطلاق.

(51) آبلسيد (APPLE-SEED): بذور التفاح.
(52) قانون فولستيد Volstead Act: هو الاسم الشائع لقانون «الحظر الوطني على الكحول» في الولايات المتحدة الذي أقرّ في سنة 1919.
(53) الرابع من تموز: العيد الوطني في الولايات المتحدة الأميركية.
(54) الغوييم Goyim: غير اليهود - شراب النار: أيُّ شراب كحولي قوي.
(55) لويس أنجيل فيربو Luis Angels Fripo: ملاكم أرجنتيني - دمبسي: جاك دمبسي Jack Dempsey ملاكم أميركي.

- 8 -

خلال العشاء... في الخارج، على شرفة البيت الخلفية، مع ظلمة تخيُّم على نحو شديد التدرّج جعل الأمسية تبدو للسويدي كما لو أنها قد جمدت، توقّفت، تأجّلت، مثيرة فيه إحساسًا معذِّبًا بأنه لم يبق لديه شيء يتبعه، وبأن ما من شيء سيحدث بعد ذلك... إحساسًا بأنه دخل تابوتًا منحوتًا من الزمن ولن يخلّصه أحد منه أبدًا. كان من ضيوفهم في تلك الليلة الزوجان أومانوف، مارشا وبال؛ والزوجان سالزمان، شيلا وشيلي. لم تمض إلا بضع ساعات منذ أن علم السويدي أن اختصاصية معالَجة النُّطق، شيلا سالزمان، هي من خبأ ميري بعد التفجير. لم يخبره بهذا أحد من الزوجين سالزمان. لو أخبراه فقط... لو اتّصلا عندما أتت إليهما... لو قاما بواجبهما تجاهه... لم يستطع إكمال هذه الفكرة. لو

فكّر في أن هذا كلّه ما كان ليحدث لو أنه لم يتح لميري أن تصير فارّة من وجه العدالة... لم يستطع إكمال هذه الفكرة أيضًا. جلس معهم إلى العشاء، هامدًا على الدوام - مشلولًا، عاجزًا، هامدًا، بعيدًا كل البعد عن نعمتي الحيوية والانفتاح اللتين كان تفاؤله المفرط يمنحه إياهما. خفة الحركة التي رافقته طيلة عمره، خفة رجل الأعمال، والرياضي، وجندي مشاة البحرية، لم تهيئه أبدًا لأن يكون أسيرًا محبوسًا في صندوق من غير مستقبل حيث ليس له أن يفكّر في المصير الذي لقيته ابنته، وليس له أن يفكر في كيفية مساعدة الزوجين سالزمان لها، وليس له أن يفكّر في... في... المصير الذي صارت إليه زوجته. كان عليه أن يجتاز ذلك العشاء من غير تفكير في الأمور الوحيدة التي كان يمكن أن يفكّر فيها. وكان عليه أن يظلّ هكذا إلى الأبد. مهما تاق إلى التخلّص والخروج فسوف يظل متوقفًا ميتًا في تلك اللحظة في ذلك الصندوق. بغير هذا، سوف ينفجر العالم كله.

كان باري أومانوف أستاذًا للقانون في جامعة كولومبيا (كان في ما مضى لاعبًا في فريق السويدي وأقرب صديق له في المدرسة الثانوية). يدعو السويدي باري وزوجته إلى العشاء كلما أتيا من فلوريدا. وعلى الدوام، كانت رؤية باري تسرّ والد السويدي؛ لأن باري، وهو ابن خيّاط مهاجر، قد تطوّر وارتقى حتى صار أستاذًا جامعيًا. لكنها كانت تسرّه أيضًا لأن لو ليفوف كان ينسب إليه الفضل (مخطئًا، لكن السويدي تظاهر بأنه غير مهتم بهذا)، في جعل سايمور يضع قفّاز البيسبول جانبًا ويدخل ميدان الأعمال. وفي كل صيف، كان لو يُذكّر باري - يدعوه «المستشار» منذ أن كان في المدرسة الثانوية - بجميله تجاه عائلة ليفوف، وذلك من خلال ما يمثّله من جدّية مهنية. إلا باري كان يقول إن أحدًا ما كان يمكن أن يجعله يقترب من دراسة الحقوق لو كان لديه جزء من مئة جزء من مهارة السويدي في تسديد الكرات.

كان باري ومارشا أومانوف هما من كانت ميري تبيت عندهما قبل أن يمنعها السويدي آخر الأمر من الذهاب إلى نيويورك. وقد كان باري هو الشخص الذي التمس السويدي مشورتَه القانونية بعد اختفاء ميري من أولد ريمروك. أخذه

باري لمقابلة المحامي شيفيتز في مانهاتن. لقد قال شيفيتز للسويدي عندما طلب منه أن يضعه في صورة الموقف - ما هو أسوأ ما يمكن أن يصيب ابنته إذا اعتقلت وقررت المحكمة أنها مذنبة؟ - «من سبع سنوات إلى عشر سنوات». إلا أن شيفتيز أضاف: «لكن، إذا كانت قد قامت بذلك تعاطفًا مع الحركة المناهضة للحرب، وإذا كان القتل قد حدث بفعل المصادفة، وإذا تبيّن أن الاحتياطات قد اتّخذت لمحاولة الحيلولة دون إصابة أي شخص... ثم، هل نحن على يقين من أنها فعلت ذلك بمفردها؟ نحن لا نعرف هذا! وهل نعرف حتى إن كانت هي من قام بالفعل؟ ليس لها تاريخ سياسي ذو أهمية... كلامٌ كثير، كلام عنيف كثير، لكنها طفلة... فهل تتعمّد تلك الطفلة أن تقتل أحدًا من تلقاء ذاتها. كيف نعرف أنها هي من صنع تلك القنبلة، أو أنها هي من وضعها هناك؟ حتى تصنع قنبلة، لا بد أن تكون على دراية بأمور كثيرة، فهل هي طفلة قادرة على إشعال عود ثقاب. أجابه السويدي: «لقد كانت ممتازة في العلوم. حصلت على أعلى درجة عندما قدّمت مشروعًا في مادة الكيمياء». «وهل صنعت قنبلة من أجل مشروع الكيمياء». «لا، بالطبع لا... لا». «هذا يعني أننا لا نعرف. لا نعرف إن كانت قادرة على إشعال عود ثقاب أو غير قادرة على إشعاله. من الممكن أن يكون كلّ ما فعلته مقتصر على ذلك الكلام الحماسي. نحن لا نعرف ما فعلته، ونحن لا نعرف ما أرادت فعله. لا نعرف شيئًا؛ ولا يعرف أحد شيئًا. من الممكن أن تكون قد فازت بجائزة ويستنغهاوس للعلوم، لكننا لا نعرف هذا، ما الذي يمكن إثباته؟ أرجِّحُ أنّ ما يمكن إثباته قليل. أسوأ ما يمكن أن يحدث - بما أنك سألتني - هو الحبس من سبع سنوات إلى عشر سنوات. لكن، لنفترض أنهم عاملوها على أنها قاصر! تنخفض المدة إلى سنتين أو ثلاث سنوات بموجب قانون القاصرين. وحتى إذا اعترفت بالذنب، أو شيء من هذا القبيل، فمن الممكن أن تقفل القضية إقفالًا نهائيًا. انظرْ... الأمر كلّه معتمد على دورها في قتل ذلك الشخص. ليس من المحتّم أن يكون الأمر سيئًا جدًا. إذا أتت تلك الفتاة من تلقاء نفسها - حتى إذا كان لها دور في الأمر - فقد نتمكّن من إخراجها من القضية كلّها من غير أن يصيبها شيء.

أحيانًا، كانت تلك الكلمات التي سمعها من شيفيتز هي كل ما يستطيع الاعتماد عليه حتى لا يفقد أي أمل، إلى أن سمع ما سمعه منها قبل بضع ساعات من الآن، وعرف أن صنع القنابل كان اختصاصها أثناء إقامتها في «كومونة أوريغون»... إلى أن سمع من فمها غير المتأتئ أن مسؤوليتها لم تكن مقتصرة على مقتل شخص واحد (ربما بفعل المصادفة كما كان يظنّ)، بل إن مجموع من قتلهم بدم بارد كان أربعة أشخاص. لم يكن شيفيتز رجلًا ممن يحبون القصص الخيالية. يرى المرء هذا منذ لحظة دخوله مكتبه. كان رجلًا يحب أن تثبتْ مجريات الأمور صحة رأيه... كان رجلًا يتمثّل دافعه إلى العمل في هذه المهنة في أن يكون فائزًا على الدوام. وقد أوضح له باري قبل ذهابهما إليه أن شيفيتز ليس بالشخص المهتمّ بتطييب خواطر الناس. لم يكن مهتمًّا بمراعاة مشاعر السويدي عندما قال إنه قد يتمكن من إخراج الطفلة من الأمر كله إن أتت بنفسها. لكن ذلك كلّه كان في ما مضى، كان عندما ظنّوا أنهم قادرون على العثور على هيئة محلفين يمكن أن تقتنع بأن ابنته لا تعرف كيف تشعل عود ثقاب. كان ذلك قبل الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم.

وأما مارشا، زوجة باري، التي كانت أستاذة للأدب في جامعة نيويورك، فهي «شخص صعب» - حتى بموجب تقدير السويدي المتساهل: امرأة متمرّدة مناضلة لديها ثقة مذهلة بنفسها. امرأة مولعة بالتهكم وبالعبارات المروّعة المحسوبة والمصمَّمة بحيث تقضُّ مضاجع سادة الأرض. كان كل ما تقوله وتفعله منبِئًا بالموقف الذي تتّخذه. وما كان عليها أن تحرّك عضلة واحدة - أن تبتلع ريقها وأنت تتحدّث معها، أو أن تنقر بأظافرها على طرف الكرسي، أو أن تومئ برأسها كما لو أنها موافقة تمامًا - حتى تستطيع إفهامك أن ما من شيء صحيح في كلّ ما تقوله لها. كانت ترتدي قفطانًا كبيرًا من قماش مطبوع كأنه كيس ضخم يستوعب أفكارها كلّها... امرأة شاملة لا تعتبر مظهرها غير المرتّب احتجاجًا على الامتثال بقدر ما تعتبره علامة على أنها شخص مفكّر يتّجه مباشرة إلى جوهر الأمر. لا يستطيع أي كلام فارغ، وأي شيء مبتذل، الوقوف بينها وبين أكثر الحقائق قسوة.

لكنها كانت تعجب باري! ونظرًا لاستحالة أن يكون الخلاف بينهما أكبر مما هو، فلعل انجذاب كلٍ منهما إلى الآخر كان شيئًا مما يدعونه «تجاذب الأضداد». كانت لدى باري فطنة؛ وكان لديه اهتمام من النوع اللطيف. ومنذ أن كان طفلًا (أفقر طفل عرفه السويدي في حياته كلّها) كان شخصًا مجتهدًا ومستقيمًا. كان مُلتقِط كرات قويًا في لعبة البيسبول، وكان دائمًا متفوّقًا على طلاب صفه جميعًا. أمضى فترة الخدمة العسكرية، ثم ذهب إلى جامعة نيويورك بموجب منحة حكومية خاصة بالعسكريين السابقين. وهناك التقى مارشا شوارتز وتزوجها. كان صعبًا على السويدي فهم كيف يمكن لباري صاحب البنية القوية والشكل المقبول أن يحرّر نفسه في سن الثانية والعشرين من الرغبة في أن يكون مع أية امرأة أخرى في هذا العالم غير مارشا شوارتز التي كانت، منذ ذلك الوقت، طالبة جامعية شديدة التمسك بآرائها إلى حد يجعل السويدي في حاجة إلى خوض صراع مع نفسه - عندما تكون موجودة - حتى يبقى مستيقظًا. لكنها كانت تعجب باري. كان يجلس مصغيًا إليها ولا يبدو عليه أي قدر من المبالاة بجلافتها وبأنها ترتدي - حتى في الكلية - ملابس توحي بأنها أخذتها من عند جدة أحد ما... تلك العينان المتحرّكتان دائمًا اللتان تبدوان من خلف نظارتها الثقيلة كبيرتين إلى حد يثير الأعصاب. كانت نقيض داون من كل ناحية. كان ينبغي أن تنجب مارشا طفلة ثورية على نمطها... نعم؛ لو أن ميري نشأت على سماع ما تقوله مارشا، لكان الأمر مفهومًا... وأما داون؟ داون الجميلة، الصغيرة، غير المسيّسة... لماذا داون؟ وأين يبحث المرء عن تفسير هذا الغياب المطلق لأي تناسب؟ أيكون الأمر ليس أكثر من خدعة جينية؟ خلال المسيرة إلى البنتاغون، التي كان مُرادًا منها أن توقف الحرب، ألقوا بمارشا أومانوف في سيارة مغلقة مع نحو عشرين امرأة أخرى. ثم أعجبها كثيرًا أنهم حبسوها حتى الصباح في سجن العاصمة حيث لم تتوقّف عن كلامها الاحتجاجي إلى أن أخلي سبيلهن جميعًا صباح اليوم التالي. لو كانت ميري ابنتها، لكان الأمر مفهومًا. ليت ميري لم تخض حربًا غير حرب الكلمات، ولم تقاتل العالم إلا بالكلمات وحدها كما تفعل هذه الثرثارة ذات الصوت الحاد! لو كان الأمر هكذا، لما

صارت ميري قصّة تبدأ وتنتهي بقنبلة... لو كان الأمر هكذا لصارت ميري قصّة مختلفة تمامًا. وأما القنبلة!... قنبلة!... قنبلةٌ تحكي القصّة اللعينة كلها!

من الصعب أن يستوعب المرء زواج باري من تلك المرأة. لعل ذلك لأن أسرته كانت شديدة الفقر! من يدري؟ اندفاعها، وتعاليها، وما تعطيه من إحساس بأنها غير نظيفة... تلك الأشياء كلّها التي لا يطيق السويدي وجودها في صديقة له، ناهيك عن أن تكون زوجته... حسنًا، كانت تلك هي السّمات نفسها التي يقوم عليها إعجاب باري بزوجته. كانت تلك أحجية. كانت أحجية حقًا. كيف يمكن لرجل منطقي تمامًا أن يهيم حبًا بما يجد أيُّ شخص منطقي آخر نفسَه عاجزًا عن احتماله ولو نصف ساعة؟ لكن، وبما أن الأمر كان أحجية، فقد بذل السويدي قصارى جهده للسيطرة على نفوره منها ولتحييد رأيه فيها عن سلوكِه بحيث ينظر إلى مارشا أومانوف، على أنها، ببساطة، كائنٌ غريب جاء من عالم آخر، من العالم الأكاديمي، من عالم الثقافة، حيث يكون الاستعلاء على الناس والاعتراض على كل شيء يقولونه مجلبةً للإعجاب. كان إدراك ما يجنيه أولئك الناس من سلبيتهم تلك أمرًا يتجاوز فهمه؛ وكان يبدو له أن من الأفضل الانتظار أن يكبروا ويتجاوزوا ذلك كلّه.

لكن ذلك كلّه ما كان يعني أن مارشا تذهب وتزعج الناس وتثير أعصابهم لمجرد إزعاجهم وإثارة أعصابهم. وجد نفسه غير قادر على اعتبارها شريرة لأنه أدرك أن تلك هي الطريقة التي اعتادت مخالطة الناس بها في مانهاتن. ثم إنه ما كان قادرًا على تصديق أن باري أومانوف (الذي كان، في يوم ما، أقرب إليه من أخيه الشقيق) يمكن أن يتزوج امرأة شريرة. وكعادته، كانت ردة فعل السويدي التلقائية على عدم قدرته على سبر الأسباب والنتائج (خلافًا لأسلوب أبيه القائم على الريبة)، هي أن يركن إلى استراتيجية طويلة الأمد، فيصير شخصًا متسامحًا كريم النفس. وهكذا فقد صار قانعًا بأن يعتبر مارشا «صعبة» فلا يقول عنها أكثر من «لا بأس، فلنقل إنها ليست صفقة جيدة».

لكن داون كانت تمقتها! تمقتها لأن مارشا كانت تمقتها لأنها كانت ملكة جمال نيوجيرسي في يوم ما. كانت داون غير قادرة على احتمال الناس الذين لا يرون

فيها غير تلك القصة. وكانت مارشا مصدر إزعاج لها نتيجة صفاقتها الواضحة في فهم داون من خلال تلك القصة التي لا تعبّر عنها أبدًا. عندما التقوا جميعًا أول مرة، أخبرت داون الزوجين أومانوف بالنوبة القلبية التي أصابت والدها، وبأن الأسرة كانت في حاجة إلى المال. حكت لهم كيف أدركت أن طريق دخول الجامعة كان على وشك أن يغلق في وجه أخيها... حكاية المنحة الدراسية كلّها. لكنّ شيئًا من هذا لم يجعل ملكة جمال نيوجيرسي تبدو في نظر مارشا أومانوف أكثر من نكتة. ثم إن مارشا لم تكن مهتمة بإخفاء حقيقة أنها تنظر إلى داون ليفوف فلا ترى أحدًا!... لماذا لا ترى أحدًا؟ لأنها تعتبر إقدامها على تربية الأبقار نوعًا من أنواع حب المظاهر، وترى أنها تفعل ذلك من أجل صورتها في عيون الناس: لم يكن عملًا جادًّا أن تعمل داون اثنتي عشرة ساعة في اليوم الواحد، أو أربع عشرة ساعة في اليوم الواحد، سبعة أيام في الأسبوع؛ فما كان هذا كلّه في نظر مارشا أكثر من فانتازيا «البيت والحديقة» التي تدّعيها النساء الثريات السخيفات اللواتي لا يعشن في نيوجيرسي ذات الرائحة المقزّزة، لا، لا، بل يعشن في الريف! كانت داون تمقت مارشا بسبب تعاليها (الذي لا تحاول إخفاءه) على ثراء عائلة ليفوف، وعلى مكانتهم، وعلى أسلوب الحياة الريفي الذي يحبّونه. وكانت تمقتها أشد المقت لقناعتها بأن مارشا كانت مسرورة (في سرّها) أشد السرور تجاه ما زعمت ميري أنها أقدمت عليه.

كان المكان الأعز في مشاعر مارشا مخصّصًا للفيتناميين - للفيتناميين الشماليين. لم تكن مستعدة للتنازل لحظة واحدة عن قناعاتها السياسية أو عن تفهّمها العاطفي أو عن إدراكها للشؤون الدولية... ولا حتى عندما ترى بنفسها، من مسافة لا تتجاوز ستة إنشات، مقدار التعاسة التي أصابت أقدم صديق من أصدقاء زوجها. كان هذا ما قاد داون إلى اتهامها بأشياء كان السويدي يعرف أنها غير صحيحة - لا لأنه كان شديد الثقة بأن مارشا إنسانة محترمة، بل لأن استقامة باري أومانوف لم تكن موضع شك أبدًا في نظره. «لن أقبَلَ هذه المرأة في بيتي! إن لدى هذه المرأة من الإنسانية أقل مما لدى أيّ جندي نازي. لست أبالي بشهاداتها كلها - إنها عمياء قاسية القلب! لم أر في حياتي كلّها شخصًا أكثر

عمي منها. ومن بين من يدعونهم مثقفين كلّهم، لم أر شخصًا بغيضًا محدود العقل منشغلًا بنفسه مثلها. لا أريدها في بيتي!».

«حسنًا، لا يمكنني مطالبة باري بأن يأتي إلينا وحده».

«هذا يعني أن باري لا يستطيع المجيء أيضًا».

«يجب أن يأتي باري. أريد أن يأتي باري. يكون أبي في غاية السرور عندما يرى باري هنا؛ وهو يتوقّع رؤيته هنا. باري هو من أخذني إلى الحمّام التركي، يا داون».

«لكن تلك المرأة هي من ورّط ميري. ألا ترى هذا؟ لقد ذهبت ميري إلى هناك! ذهبت إلى نيويورك! ذهبت إليهما! هما من وفّر لها مكانًا للاختباء! لا بد أن أحدًا ما قد فعل ذلك. يجب أن يكون أحد ما قد فعل ذلك. كان ذلك شيئًا مثيرًا لها... مفجّرة قنابل حقيقية في بيتها! لقد أخفتها عنا. لقد أخفت ميري عن أبويها عندما كانت في أشد الحاجة إليهما. مارشا أومانوف هي من أرسلها لكي تعيش عيشة التخفّي».

«لم تكن ميري تحبّ البقاء عندهما، حتى قبل ذلك. لقد باتت في بيت باري مرتين فقط. هذا كل ما في الأمر. لم تذهب إليهما في المرة الثالثة. أنت لا تتذكّرين. ذهبت ميري لقضاء الليل في مكان آخر ولم تعد إلى بيت أومانوف بعد ذلك».

«مارشا هي المسؤولة، يا سايمور. فمن غيرها يملك تلك العلاقات؟ هذا القسيس الرائع، وذلك القسيس الرائع... يسفحون الدم في تلك التسجيلات. إنها مرتاحة تمامًا مع قساوستها المناهضين للحرب؛ وهي على علاقة ممتازة معهم - لكنهم ليسوا قساوسة، يا سايمور! ليس القساوسة أشخاصًا ليبراليين متقدّمي التفكير. لو كانوا كذلك لما صاروا قساوسة. كل ما في الأمر هو أن القساوسة ليس من المفترض فيهم أن يفعلوا ذلك... ليس من المفترض فيهم أن يعبّروا عن موقفهم المناهض للحرب بما يتجاوز الكف عن الدعاء للفتيان الذين يذهبون إليها. ما تحبّه مارشا في أولئك القساوسة هو أنهم ليسوا قساوسة. إنها لا تحبّهم لأنهم في الكنيسة، بل تحبّهم لأنهم يفعلون شيئًا مسيئًا للكنيسة، وفق تقديرها.

تحبّهم لأنهم يفعلون شيئًا خارجًا عن الكنيسة، خارجًا عن الدور المعتاد للقساوسة. تحبّ حقيقة أن أولئك القساوسة إهانة لكل ما نشأ عليه الناس الذين هم مثلي. هذا ما تحبّه تلك المرأة. هذا ما تحبّه تلك العاهرة البدينة... هذا ما تحبّه في كل شيء. إنني أكرهها. أكرهها كثيرًا!».

قال لها: «لا بأس. لا أجد في هذا ضيرًا. اكرهيها قدر ما تشائين، لكن ليس بسبب شيء لم تفعله. هي لم تفعل ذلك، يا داون. أنت تدفعين بنفسك إلى الجنون دفعًا نتيجة تفكيرك في شيء لا يمكن أن يكون صحيحًا».

لم يكن ذلك الشيء صحيحًا. ولم تكن مارشا هي من آوى ميري. كانت مارشا كلُّها كلامًا، لا أكثر... هكذا كانت دائمًا: كلامٌ مدّعٍ لا معنى له. وكلمات لا غاية لها غير أن تظهر بمظهر فضائحي... كلمات مشاكسة، غير مهادنة، ليس فيها ما يتجاوز، إلا قليلًا، غرور مارشا الثقافي واعتقادها الغريب بأن هذه المظاهر كلّها هي ما يصنعُ عقلًا ذا تفكير مستقلّ.

لقد كانت شيلا سالزمان هي من آوى ميري. شيلا معالجة النطق في موريستاون؛ تلك المرأة الشابة الجميلة اللطيفة صاحبة الكلمات الناعمة التي كانت قد منحت ميري أملًا وثقة كبيرين... المعلّمة التي أمدَّت ميري بتلك «الاستراتيجيات» كلّها من أجل التغلّب على إعاقتها فصارت بطلة في نظرها وحلّت محل أودري هيبورن. في الشهور التي أمضتها داون في تناول الأدوية المهدئة وفي دخول المستشفى والخروج منه... في تلك الشهور التي سبقت توقّف شيلا والسويدي عن تجاهل التوجّه المسؤول في حياة كل منهما... في الشهور التي سبقت نجاح هذين الشخصين المنضبطين حسني المسلك في منع نفسيهما عن تعريض استقرارهما الثمين للخطر... كانت شيلا سالزمان عشيقة السويدي ليفوف... كانت عشيقته الأولى والأخيرة.

عشيقة! حالةٌ شديدة البعد عن طبع السويدي... شيء غير لائق ولا قابلٍ للتصديق؛ وحتى إنه سخيف ومضحك أيضًا. لكن كلمة «عشيقة» لا تعبّر تمامًا عن السياق النظيف لتلك الحياة... إلا أن شيلا كانت عشيقته خلال الأشهر الأربعة التي أعقبت اختفاء ميري.

تناول الحديث على العشاء Deep Throat(56) وفضيحة ووترغيت.
وباستثناء والدي السويدي والزوجين أوركوت، كان من جلسوا حول المائدة قد شاهدوا كلّهم الفيلم «الجريء» الذي كانت بطلته ممثلة إباحية شابة اسمها ليندا لوفليس. لم يكن عرض ذلك الفيلم مقتصرًا على الصالات المخصّصة للراشدين، بل صار موضع إقبال في دور السينما في الأحياء السكنية على امتداد جيرسي كلّها. وكان شيلي سالزمان يقول إن ما فاجأه هو أن الناخبين الذين صوتت أكثريتهم لرئيس ونائب رئيس من الحزب الجمهوري كانوا يتظاهرون - نفاقًا - بأنهم شديدو التمسك بالأخلاق، لكنهم أقبلوا إقبالًا كبيرًا على فيلم يقدّم ممارسات الجنس الفموي من خلال رسوم كاريكاتيرية مباشرة إلى هذا الحد.
قالت داون: «لعل من يذهبون إلى ذلك الفيلم ليسوا هم الأشخاص أنفسهم».
سألتها مارشا أومانوف: «أيكونون من أنصار مكغوفرنايتس؟»(57).
أجابتها داون التي كانت منذ بداية العشاء غاضبة من وجود هذه المرأة التي لا تطيق احتمالها: «يصحُّ هذا على من شاهدوا الفيلم من الجالسين إلى هذه الطاولة».
قال والد السويدي: «أرجوكم... إنني لا أفهم الصلة بين هذين الموضوعين. لا أعرف، أيها الناس، ما يجعلكم أصلًا تدفعون مالًا كثيرًا لكي تذهبوا وتشاهدوا تلك القمامة. إنها قمامة حقيقية... ألستُ محقًّا، يا مستشار؟». قال هذا وهو ينظر إلى باري ملتمسًا تأييده.
قال باري: «إنه نوع من القمامة».
«فلماذا تسمحون له بدخول حياتكم؟».
قال له بيل أوركوت مبتسمًا: «إنه يتسرّب تسرّبًا، يا سيد ليفوف. يتسرّب سواء أعجبنا هذا أم لم يعجبنا. كل ما هو موجود يتسرّب ويدخل حياتنا. إنه ينصبّ انصبابًا. لم تعد الأحوال في الخارج مثلما كانت... إن كنت لم تسمع بهذا».
«أوه، لقد سمعت أيها السيد. إنني من مدينة نيوارك التي ماتت. وقد سمعت أكثر مما أريد سماعه. انظر... أدار الإيرلنديون المدينة، وأدار الإيطاليون المدينة. والآن، فلندع الملوَّنين يديرون المدينة. ليس هذا ما أقصده. وليس لدي

شيء ضده. إنه دَور الملونين في الإمساك بالدفة! أنا لم أولد بالأمس. الفساد هو اسم اللعبة في نيوارك. وأما الجديد فهو، رقم واحد، العِرق؛ رقم اثنان، الضرائب. أضف هذا إلى الفساد، وسوف ترى المشكلة. سبعة دولارات وستة وسبعون سنتًا. هذه هي النسبة الضريبية في مدينة نيوارك. لا يهمّني كم تكون كبيرًا، أو كم تكون صغيرًا، فأنا هنا لكي أقول لك إنك لا تستطيع إدارة عمل في ظل هذا النوع من الضرائب. لقد خرجت جنرال إلكتريك من المدينة في سنة 1953. جنرال إلكتريك، ويستنغهاوس، برايز التي كانت في جادة رايمون، سيليلويد... كلّها شركات تركت المدينة. وكل شركة منها لديها عدد كبير من العاملين. لكنها خرجت من المدينة قبل حوادث الشغب، قبل الكراهية العرقية. ليست المسألة العرقية أكثر من كريما على قالب الحلوى. الشوارع لا تنظّف، ولا أحد يزيل السيارات المحترقة. أناس يعيشون في بنايات تركها أصحابها. نيران تشتعل في بنايات تركها أصحابها. بطالة، قاذورات. فقر. مزيد من القاذورات. مزيد من الفقر. لا وجود للتعليم. المدارس كارثة. تجد المتسرّبين من المدارس عند كل زاوية شارع. المتسربون لا يفعلون شيئًا. المتسرّبون يبيعون المخدرات. المتسرّبون يبحثون عن إثارة المشكلات. والمشاريع، لا تدعني أتحدّث عن المشاريع. والشرطة ترتشي. وكل نوع من أنواع الأمراض التي يعرفها البشر. قلت لابني في صيف سنة 1967 'اخرج يا سايمور'. قلت له 'اخرج'. لكنه لم يكن ليصغي إليَّ. انفجرت باترسون، وانفجرت إليزابيث، وانفجرت جيرسي سيتي. يجب أن تكون عينا المرء مصابتين بالعمى حتى لا يرى ما سيحدث بعد ذلك. لقد قلت هذا لسايمور. قلت له 'نيوارك هي التالية. لقد سمعني أقول هذا منذ صيف 1967'. تنبأتُ بالأمر بهذه الكلمات نفسها. ألم أقل لك هذه الكلمات يا سايمور؟ ألست أقولها لك منذ ذلك الوقت؟».

أجابه السويدي: «هذا صحيح».

«انتهى أمر الصناعة في نيوارك. لقد انتهت نيوارك. لم تكن حوادث الشغب أقل شدّة في واشنطن ولوس أنجلوس، وفي ديترويت. بل لعلها كانت أسوأ. لكن نيوارك ستكون - تذكّر كلماتي - المدينة التي لا تعود أبدًا. إنها غير قادرة على

العودة. فماذا عن القفّازات؟... ماذا عن القفّازات في أميركا؟ لقد انتهت. انتهت أيضًا. لكن ابني بقي هنا. بعد خمس سنين أخرى، لن يُصنع زوج قفّازات واحد في أميركا، عدا العقود الحكومية. ولن تُصنع القفّازات في بورتوريكو أيضًا. لقد صار كبار المصنّعين في الفيليبين، منذ الآن. وستكون الصناعة في الهند. ستكون في إندونيسيا وباكستان وبنغلادش... سوف ترى كل مكان في العالم يصنع القفّازات، إلا هنا. لكن النقابات ليست وحدها من أودى بنا. صحيح أن النقابات لم تفهم الوضع؛ لكن بعض الصناعيين لم يفهموا الوضع أيضًا... يقول الواحد منهم: 'لن أدفع لأبناء العاهرة ولا حتى خمسة سنتات إضافية'. إذا نظرت إلى هذا الرجل فسوف تراه يقود سيارة كاديلاك ويعيش في فلوريدا خلال الشتاء، فلماذا لا يدفع؟ لم يكن تفكير أكثر الصناعيين صحيحًا. لكن النقابات لم تتوصّل أبدًا إلى إدراك المنافسة الآتية من الخارج، من خلف البحار. ليست في ذهني أية شكوك في أن النقابات ساهمت في تسريع فناء صناعة القفّازات من خلال تصلّبها الذي أدى إلى جعل أصحاب العمل غير قادرين على جني المال. أدى السعر الذي فرضته النقابات على العمل بالقطعة إلى دفع كثير من الناس خارج هذه الصناعة أو إلى دفعهم خارج البلاد. في الثلاثينات، كنا نواجه منافسة شديدة من تشيكوسلوفاكيا، ومن النمسا، ومن إيطاليا. ثم جاءت الحرب فأنقذتنا. عقود حكومية. سبعة وسبعون مليون زوج من القفازات اشتراها الجيش. صار صانعو القفّازات أثرياء. لكن الحرب انتهت بعد ذلك. أقول لك إن بداية النهاية كانت منذ ذلك الوقت، حتى في تلك الأيام الطيّبة. كان انحدارنا ناتجًا عن عدم قدرتنا على المنافسة مع صانعي القفازات وراء البحار. لكننا سرَّعنا ذلك الانحدار من خلال غياب الحسّ السليم لدى الطرفين. إلا أن إنقاذ هذه الصناعة لم يكن ممكنًا، بصرف النظر عن ذلك كلّه. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يوقف الانحدار - أقول لك إنني لست مع هذه الفكرة، ولست أرى أنك قادر على إيقاف التجارة العالمية، ولا أنه ينبغي لنا أن نحاول ذلك - لكن الشيء الوحيد الذي كان قادرًا على إيقاف الانحدار هو وضع حواجز تجارية، أي رفع الضرائب الجمركية من خمسة بالمئة إلى ثلاثين بالمئة، إلى أربعين بالمئة».

قالت زوجته: «لو، ما علاقة هذه الأشياء كلّها بذلك الفيلم؟».
«هذا الفيلم؟ هذه الأفلام اللعينة؟ حسنًا، بالطبع، هي أيضًا ليست بالشيء الجديد، كما تعرفين. كان لدينا نادٍ للسينما، منذ سنين... تتذكّرين؟ نادي يوم الجمعة للسينما؟ وكان لدينا شخص يعمل في قطاع الكهرباء، هل تتذكّره يا سايمور؟... هل كان اسمه آبي ساكس؟».
قال السويدي: «تمامًا».
«حسنًا، لا أحب أن أقول هذا، لكنه كان يجلب هذا النوع من الأفلام إلى بيته. كانت هذه موجودة بالتأكيد. في شارع مالبيري، حيث كنا نذهب مع الأطفال لكي نتناول طعامًا صينيًا، كان هناك صالون يمكنك دخوله وشراء ما تريده من تلك القاذورات. هل تعرف شيئًا؟ نظرت إلى الفيلم خمس دقائق، ثم عدت إلى المطبخ، وعاد معي صديقي العزيز - أذكرُ له هذا - لقد مات الآن. كان رجلًا رائعًا. أحاول تذكّر اسمه. ذلك الذي كان يقصّ القفّازات... ماذا كان اسمه؟...».
قالت له زوجته: «كان اسمه آل هافرمان».
«صحيح. جلسنا نلعب الورق ساعة كاملة إلى أن سمعنا ضجة في غرفة المعيشة حيث كانوا يتابعون ذلك الفيلم؛ كان ما حدث فيلمًا لعينًا في حد ذاته: الكاميرا، وكل تلك الأشياء التي لا أعرف اسمها... احترقت كلها. سرني ذلك كثيرًا. كان هذا منذ ثلاثين عامًا، أو منذ أربعين عامًا. أتذكّر حتى هذا اليوم كيف كنت جالسًا مع آل هافرمان نلعب الورق بينما كان البقية جالسين في غرفة المعيشة وقد سال لعابهم كالحمقى».
صار الآن يكلّم أوركوت ويوجّه عباراته إليه دون غيره كأن فوضى ذوي المنبت الرفيع من غير اليهود قد ظلت - من حيث الأساس - أمرًا لا يستطيع لو ليفوف تخيله، على الرغم من أن المرأة الثملة كانت دليلًا ملموسًا جالسًا إلى جانبه، وعلى الرغم من كثرة ما في ذاكرته من أدلة غير قابلة للدحض. ومن هنا، كان أوركوت (دونًا عن بقية الجالسين إلى الطاولة جميعًا) هو الأقدر على تقدير الكلام المكرور الذي كان يقوله. من المفترض أن يكون أولئك الناس

أشخاصًا مسيطرين على أنفسهم، أشخاصًا يمكن الاعتماد عليهم. أليس هذا صحيحًا؟ إنهم أهل المنطقة. أليسوا كذلك؟ هم من يضع القواعد التي وافق البقية ممن أتوا إلى هذه الأرض على التقيد بها. هل يمكن ألا يُعجبَ به أوركوت لأنه ظل جالسًا في المطبخ، ظل جالسًا يلعب الورق بصبر، إلى أن تغلّبت قوى الخير على قوى الشر في آخر الأمر واستحال ذلك الفيلم القذر دخانًا في سنة 1935؟

قال له أوركوت: «حسنًا، يؤسفني أن أقول لك، يا سيد ليفوف، إنك لم تعد قادرًا على إبقاء الأمر بعيدًا عن طريق لعب الورق. كانت تلك طريقةً مناسبة لإبعاده عنك، لكنها لم تعد موجودة الآن».

سأله لو ليفوف: «إبقاء ماذا بعيدًا عنّي؟».

«إبقاء ما كنت تتحدّث عنه. الإباحية. الشذوذات المتستّرة تحت رداء الإيديولوجيا. الاحتجاج الدائم. لقد مرّ زمن كنتَ فيه قادرًا على الابتعاد عن ذلك كلّه، وعلى اتخاذ موقف ضده. وكما أشرتَ قبل قليل، كنت قادرًا حتى على لعب الورق ضدّه. لكن العثور على الراحة صار أكثر صعوبة هذه الأيام. إن الشاذَّ الغريب يحلّ محلّ كل ما كان مألوفًا، يحلّ محلّ كل ما كان الناس يحبّونه في هذه البلاد. اليوم، صار كون المرء ‘متحفّظًا’ أمرًا مخجلًا للناس مثلما كان عدم التحفّظ مخجلًا في ما مضى».

«هذا صحيح. هذا صحيح. دعني أخبرك عن صديقي آل هافرمان. إن كنت تريد الحديث عن العالم على النمط القديم وعما كانه ذلك العالم، فلنتحدّث عن آل هافرمان. كان آل صديقًا رائعًا. كان صديقًا جيّدًا. اغتنى من قص القفّازات. في تلك الأيام، كان الاغتناء من قصّ القفازات أمرًا ممكنًا. كان أي زوج وزوجة من أصحاب الطموح قادرَين على الحصول على بضعة جلود لصنع القفازات. ثم انتهى بهما الأمر إلى أن يعملا في غرفة صغيرة: رجلان يقصّان، وامرأتان تخيطان. صارا يوضبانها، ثم يشحنانها. كانا يجنيان مالًا. وكانا يعملان لحسابهما. كانا قادرين على العمل ستين ساعة في الأسبوع. منذ زمن بعيد جدًا، عندما كان هنري فورد يدفع دولارًا كاملًا في اليوم، كان الشخص الماهر في قصّ القفّازات قادرًا على جني خمسة دولارات في اليوم الواحد. وانظر أيضًا...

في تلك الأيام، لم يكن غريبًا أن يكون لدى امرأة عادية عشرين زوجًا من القفّازات، أو حتى خمسة وعشرين زوجًا من القفّازات. كان هذا أمرًا شائعًا. كان لدى المرأة خزانة من القفازات. قفازات مختلفة للملابس المختلفة... ألوان مختلفة، وأطوال مختلفة، ونماذج مختلفة. وما كانت المرأة قادرة على الخروج من غير قفّازات، كيفما تكن حالة الطقس. في تلك الأيام، لم يكن أمرًا غير معتاد أن تنفق المرأة في متجر القفّازات ساعتين، أو ثلاث ساعات، أو تجرّب ثلاثين زوجًا منها. كان أمرًا مألوفًا أن يكون لدى البائعة مغسلة خلف طاولة البيع لكي تغسل يديها بين لون وآخر. وفي مجال القفّازات النسائية الفاخرة، كانت مقاسات القفّازات الصغيرة متدرّجة، أربعة مقاسات ضمن المقاس الرابع، ثم صعودًا حتى المقاس رقم ثمانية ونصف. إن قصّ القفّازات مهنة رائعة... كانت مهنة رائعة. صار كل شيء الآن 'كان'. كان من يقصّ القفّازات، مثل آل، يرتدي قميصًا وربطة عنق على الدوام. في تلك الأيام، ما كان ممكنًا لمن يقصّ القفازات أن يعمل من غير قميص وربطة عنق. وكان يمكن للمرء أن يعمل حتى الخامسة والسبعين، بل حتى الثمانين من عمره. يمكنك أن تبدأ العمل مثلما بدأ آل في الخامسة عشرة، أو في وقت أبكر من ذلك، ويمكنك أن تستمر حتى يصير عمرك ثمانين عامًا. يعتبر المرء صغير السن في السبعين. يمكنك أيضًا أن تعمل في أيام العطلة، يومي السبت والأحد. كان أولئك الناس قادرين على العمل المستمر. كانوا يجنون مالًا لإرسال أطفالهم إلى المدارس. كانوا يجنون مالًا لكي يحسّنوا بيوتهم. كان آل يتناول قطعة جلد ويقول لي على سبيل المزاح: 'ماذا تريد، يا لو؟ هل تريد قفّازًا بمقاس ثمانية وتسعة أجزاء من ستة عشر؟'... ثم يقصّ الجلد من غير استخدام مسطرة. كان يقيس الجلد بدقة ممتازة مستخدمًا عينيه فقط. كان من يقصّ الجلد العنصر الأول في هذه الصناعة. لكن هذا الاعتزاز بالمهارة الحرفية قد زال كلّه، بالطبع. فمن بين العمال المهرة الذين كانوا قادرين على قصّ قفّاز أبيض ذي ستة عشر زرًا، أظن آل هافرمان كان آخر شخص في أميركا، كان آخر شخص قادر على فعل ذلك. وبطبيعة الحال، اختفى القفّاز الطويل. هذه 'كان' أخرى! كان لدينا القفّاز ذو الأزرار الثمانية

الذي تمتّع بشعبية كبيرة. كان مبطنًا بالحرير. لكنه انتهى بحلول سنة 1965. صرنا نأخذ القفازات الطويلة ونقص منها قليلًا فنصنع قفازات قصيرة. وبعد ذلك، نستخدم الجزء المقصوص لصنع قفاز آخر. كانوا يستخدمون كل إنش زائد بعد درزة الإبهام لإضافة زر جديد. أنت ترى كيف كنا لا نزال نستخدم الأزرار للتعبير عن طول القفاز. أشكر الرب على أن جاكي كندي(58) كانت تخرج في سنة 1960 بقفاز قصير حتى المعصم، وبقفاز طويل حتى المرفق، وبقفاز أعلى من المرفق، وبقبعة مسطحة ذات شريط، فعاد إقبال الناس على القفازات من جديد. كانت السيدة الأولى لصناعة القفّازات. كان مقاس قفازها ستة ونصف. وكان من يعملون في مجال القفازات يشكرون الرب على هذه السيدة. صحيح أنها كانت تذهب إلى باريس للتسوّق؛ لكن ماذا؟ لقد أعادت تلك المرأة القفّازات الجلدية النسائية الفاخرة إلى الخريطة. لكنهم اغتالوا جون كندي، وتركت جاكلين كندي البيت الأبيض، فكان ذلك - مع ظهور التنّورة القصيرة - نهاية الولع بالقفّازات النسائية. اغتيال جون فيتزجيرالد كندي، وظهور التنورة القصيرة، كانا معًا إشارة النهاية للقفّاز النسائي. قبل ذلك، كان عملنا يظل مستمرًا اثني عشر شهرًا؛ يظل مستمرًا طيلة السنة. قبل ذلك، مر زمن لم تكن فيه المرأة تخرج من بيتها قبل أن تضع زوجًا من القفّازات، حتى في الربيع، وحتى في الصيف. وأما الآن، فقد صارت القفازات من أجل الطقس البارد، أو من أجل القيادة، أو من أجل الألعاب الرياضية».

حاولت زوجته التدخّل: «لو، لا أحد يتحدّث الآن عن...».

«دعيني أنهي كلامي، من فضلك. لا تقاطعيني، من فضلك. كان آل هافرمان قارئًا ممتازًا. لم يذهب إلى المدرسة، لكنه كان يقرأ. كان السير وولتر سكوت كاتبه المفضل. وفي واحد من كتب السير وولتر سكوت الكلاسيكية، يختلف صانعُ قفّازات وحذّاءٌ عندما يحاول كل منهما إثبات أنه حرَفي أفضل من الآخر. لكن صانع القفّازات يفوز في هذه المجادلة. فهل تعرفون ما قاله لغريمه؟ قال صانع القفازات للحذّاء: ‘أنت لا تصنع أكثر من قفاز للقدم كلها. لست مضطرًا إلى الاهتمام بتفاصيل كل إصبع من أصابعها’. لكن السير وولتر سكوت كان ابن

صانع قفّازات، ومن المنطقي أن تنتهي هذه المجادلة بفوز صانع القفّازات. ألم تكن تعرف أن السير وولتر سكوت ابن صانع قفّازات؟ وهل تعرف من كان ابن صانع قفّازات أيضًا، غير السير وولتر سكوت وولديّ الاثنين؟ إنه ويليام شكسبير. كان أبوه صانع قفّازات. ولم يكن يعرف كتابة اسمه ولا قراءته. هل تعرف ما يقوله روميو لجوليت عندما تكون واقفة على شرفتها؟ يعرف الجميع أنها تقول: 'روميو، روميو، روميو، أين أنت يا روميو؟' فما الذي يقوله روميو؟ لم أكن أستطيع الإجابة على هذا السؤال عندما بدأتُ العمل في مدبغة في سن الثالثة عشرة، لكني أستطيع الإجابة عليه الآن بفضل صديقي آل الذي توفي منذ زمن، للأسف الشديد. كان عمره ثلاثة وسبعين عامًا، فخرج من بيته وانزلق على الجليد فسقط وكسر رقبته. شيء فظيع. هو من أخبرني بهذا. يقول روميو: 'أترون كيف يستند خدها إلى كف يدها؟ لست أتمنّى إلا أن أكون ذلك القفّاز في يدها حتى ألمس ذلك الخد'. إنه كلام شكسبير، أشهر كاتب في التاريخ كلّه».

ومن جديد، قالت له سيلفيا ليفوف بصوت منخفض: «عزيزي لو، ما علاقة هذا بما يتحدّث عنه الجميع؟».

قال لها: «من فضلك،»... ولوّح بيده معترضًا نافد الصبر، حتى من غير أن ينظر في اتجاهها، ثم تابع كلامه... «وماذا عن ماك كوفرنايت؟ هذه فكرة لا أفهمها على الإطلاق. ما علاقة ماك كوفرنايت بهذا الفيلم؟ لقد منحت ماك كوفرنايت صوتي في الانتخابات. أقمتُ حملة انتخابية من أجله في بنايتنا. عليك أن تسمع ما كان يقوله لي أولئك اليهود من أن نيكسون مؤيد لإسرائيل في هذا الأمر، ومؤيد لإسرائيل في ذاك الأمر. لكني ذكّرتهم - إن كانوا قد نسوا - أن هاري ترومان هو من سمّاه نيكسون المحتال في سنة 1948، فانظر الآن إلى ما جناه أصدقائي الطيبون الذين صوّتوا للسيد فون(59) نيكسون ولقوات العاصفة المؤيّدة له. دعني أقول لك من يذهب إلى تلك الأفلام: الرعاع، والمتسكّعون، والأطفال الذين لا يهتم أهلهم بمراقبتهم. وأما السبب الذي يجعل ابني يأخذ زوجته الجميلة إلى فيلم من هذا النوع فهو شيء سأظلّ عاجزًا عن فهمه حتى أذهب إلى قبري».

قالت مارشا: «إنهما يذهبان لرؤية كيف يعيش النصف الآخر».

«زوجة ابني سيدة فاضلة. ليس لديها أي اهتمام بتلك الأشياء».

قالت له زوجته: «لو، ربما لا ينظر الجميع إلى الأمر مثلما تنظر إليه».

«لا أستطيع تصديق هذا. إنهم أشخاص أذكياء متعلمون».

بدأت مارشا تناكفه: «أنت تعزو للذكاء أهمية أكبر مما يجب. لكن الذكاء لا يلغي الطبيعة البشرية».

«هل تلك الأفلام هي الطبيعة البشرية؟ قولي لي، بماذا تجيبين الأطفال إذا سألوك عن تلك الأفلام؟ هل تقولين لهم إنها شيء جيد؟ إنها ممتعة؟».

قالت مارشا: «لست مضطرًا إلى أن تقول لهم شيئًا. فهم لا يسألون. في هذه الأيام، صاروا يذهبون فحسب».

كان ما يحيّر لو ليفوف - بطبيعة الحال - هو أن ما يحدث هذه الأيام لا يبدو أنه يسبب لتلك الأستاذة، لتلك الأستاذة اليهودية، أي إزعاج في ما يتعلّق بالأطفال.

تدخّل شيلي سالزمان على نحو بدا معه أنه يريد وضع نهاية لهذا الحوار غير المبشّر بالخير، وأنه يريد كذلك مراضاة والد السويدي، ولو قليلًا: «لا أظن أن الأطفال هم الذين يذهبون إلى تلك الأفلام. أفضّل القول إنهم مراهقون».

«وهل تقبل بهذا، يا د. سالزمان؟».

ابتسم شيلي لسماع ذلك اللقب الذي يصر لو ليفوف على مخاطبته به بعد هذه السنين كلّها. كان شيلي رجلًا شاحبًا، ممتلئ الجسم، مدوّر الكتفين، يضع ربطة عنق على شكل فراشة ويرتدي سترة من نسيج قطني... طبيب أسرة مُجدّ غير قادر على إبعاد مسحة اللطف عن صوته. الشحوب، والهيئة العامة، والنظارة ذات الإطار الفولاذي على النمط القديم، وقمّة رأسه الخالية من الشعر، وذؤابات من شعر ملتفٍّ أبيض فوق أذنيه... افتقاره غير المقصود لأي بريق هو ما كان يجعل السويدي يشعر بأسف خاص تجاهه خلال أشهر علاقته بشيلا سالزمان... إلا أنه، د. سالزمان اللطيف، هو من آوى ميري في بيته! وهو لم يخفِ ميري عن الـ«إف بي آي» وحدهم، بل أخفاها عنه أيضًا، أخفاها عن أبيها، أخفاها عن الشخص الذي كانت في حاجة إليه أكثر من أي إنسان في العالم.

وأنا الذي كنت أشعر بالذنب نتيجة علاقتي السرية بزوجته... هكذا كان السويدي يقول لنفسه حتى عندما كان شيلي يقول لأبيه بصوت لطيف: «قبولي أو عدم قبولي أمرٌ لا علاقة له بذهاب أولئك المراهقين إلى تلك الأفلام أو بعدم ذهابهم إليها».

عندما طرحت داون أول مرة فكرة الذهاب إلى عيادة ذلك الطبيب لشد وجهها، كانت قد قرأت عن الأمر في مجلة فوغ - طبيب لا يعرفان عنه شيئًا، وعملية لا يعرفان عنها شيئًا - فما كان من السويدي إلا أن اتصل بشيلي سالزمان من غير إخبار داون، ثم ذهب وحده لرؤيته في عيادته. كان طبيبهم العائلي رجلًا يحظى باحترام السويدي: كهل متمهّل حذر، يستمع إلى أسئلة السويدي ويجيبه عنها ويحاول، نيابة عنه، إقناع داون بالإقلاع عن تلك الفكرة. لكن السويدي اتصل بشيلي وسأله إن كان لديه وقت للقائه من أجل الحديث عن مشكلة عائلية. لم يدرك إلا بعد أن صار في عيادة شيلي أنه ذهب إليه لكي يعترف (بعد انقضاء أربع سنين على تلك العلاقة) بأنه أقام علاقة مع شيلا عقب اختفاء ميري. عندما استقبله شيلي مبتسمًا وسأله: «بمَ أستطيع مساعدتك؟». وجد السويدي نفسه موشكًا على القول: «بأن تصفح عني». وخلال حديثهما كلّه، كان السويدي يجد نفسه مضطرًا - كلما تكلّم - إلى كبت ذلك الدافع إلى إخبار شيلي بكل شيء، ذلك الدافع إلى القول: «لست هنا من أجل شد الوجه. إنني هنا لأنني فعلت شيئًا ما كان يجوز أن أفعله أبدًا. لقد خنت زوجتي. وخنتك، وخنت نفسي». لكن قول هذه الكلمات سيكون خيانة لشيلا، أليس هذا صحيحًا؟ ما عاد قادرًا على العثور على ما يبرر له الاضطلاع بمسؤولية الاعتراف لزوجها إلا بقدر ما كان ممكنًا لها أن تذهب هي وتعترف بالأمر لزوجته. ومهما اشتد توقه إلى التخفّف من سر يلوّثه وينيخ بثقله على كاهله، مهما تخيّل أن

جرت الأمور في ما بعد على نحو لم يضطر معه السويدي إلى سوق هذه الحجج كلّها لكي يجعل داون تتخلّى عن موقفها من أوركوت. وذلك أن أوركوت لم يكن له وجود كبير في حياتهم بعد تلك الرحلة التي ظلّت داون تشير إليها باسم «رحلة مقبرة عائلة أوركوت». في تلك الأيام، لم تنشأ بين أسرتي أوركوت

وليفوف علاقة اجتماعية، ولا حتى صداقة عارضة، على الرغم من أن السويدي كان يذهب صباحات الأحد إلى المرج الواقع خلف بيت أوركوت للمشاركة في لعبة كرة القدم الأسبوعية التي يأتي إليها أصدقاء أوركوت المحليون وبعض الأشخاص الذين كانوا، كالسويدي، جنودًا سابقين من أنحاء مقاطعة إيسكس يتقاطرون مع أسرهم الجديدة للعيش في هذه النواحي الفسيحة.

كان من بين أولئك الأشخاص اختصاصي نظارات اسمه باكي روبنسون. كان باكي رجلًا قصير القامة مفتول العضلات ذا قدمين منحرفتين قليلًا إلى الداخل ووجه ملائكي مدوّر. وكان في ما مضى يلعب في مركز الظهير الربعي في فريق مدرسة هيلسايد الثانوية، الذي كان المنافس التقليدي لفريق ويكاهيك في مباريات عيد الشكر عندما كان السويدي في آخر سنوات دراسته الثانوية. في الأسبوع الأول الذي أتى به باكي، سمعه السويدي مصادفة يحدث أوركوت عن السنة الأخيرة للسويدي ليفوف؛ ورآه يعد على أصابعه «أفضل لاعب كرة قدم في المدينة كلّها، وأفضل لاعب وسط في كرة السلة في المدينة كلّها وفي المقاطعة كلها؛ وأفضل من احتلّ مركز القاعدة الأولى في البيسبول في المدينة كلّها والمقاطعة كلّها والولاية كلها...». في الأحوال العادية، كان من شأن السويدي أن يرى في هذا الكلام شيئًا مستغربًا، شديد المباشرة، لا يعجبه أبدًا في تلك البيئة التي لم يكن يريد أن يوحي فيها بأي شيء غير روح الجيرة الطيبة، ولا يريد أن يكون أكثر من واحد من الشباب الذين يأتون للعب الكرة. لكن الظاهر أنه لم يجد نفسه معترضًا على وقوف أوركوت هناك واستماعه إلى مبالغات باكي الحماسية. لم تكن لديه أية خصومة مع أوركوت، ولا أي سبب للخصومة؛ لكن رؤية كل ما يفضل عادة إخفاءه خلف سلوكه المتواضع، وقد كُشف النقاب عنه بهذه الحماسة كلّها من جانب باكي، كانت أمرًا سارًّا له أكثر مما توقّعه... كأن ذلك جاء مُرضيًا لرغبة لم يكن، هو نفسه، يعرف عنها شيئًا: رغبة في الانتقام!

وبعد عدة أسابيع، عندما لعب باكي والسويدي في فريق واحد، لم يعد هذا القادم الجديد قادرًا على تصديق حسن حظه: في حين كان كل شخص آخر يعرف

الجار الجديد باسم سايمور، كان باكي يناديه باسم السويدي كلّما سنحت فرصة له بذلك. فبصرف النظر عن اللاعب الذي يكون في وضع يسمح له بتلقي الكرة، كان باكي يلوّح بذراعيه في الهواء مشيرًا للسويدي... كان السويدي المتلقّي الوحيد الذي يراه باكي. وكلما عاد السويدي إلى خط البداية بعد أن يحرز نقطة، كان باكي يصيح: «السويدي الكبير، أحسنت!»... السويدي الكبير؛ هذا اللقب الذي لم يناديه به أحد غير جيري منذ أيام المدرسة الثانوية! ثم إن جيري كان يستخدمه دائمًا على سبيل التهكم!

وفي أحد الأيام، ذهب باكي مع السويدي بسيارته إلى ورشة إصلاح السيارات المحلّية حيث وضع سيارته لإصلاحها. وخلال ذهابهما، أخبره فجأة بأنه يهودي مثله، وبأنه وزوجته قد صارا في الآونة الأخيرة عضوين في معبد موريستاون. قال له إنهما يشاركان أكثر فأكثر في نشاطات المجتمع اليهودي في موريستاون. «يمكن لهذا أن يكون أمرًا مفيدًا جدًّا لكي يحافظ المرء على تقاليده عندما يعيش في مدينة غير يهودية، لأنه يعرف أن له أصدقاء يهودًا يعيشون على مقربة منه». لم تكن الجماعة اليهودية في موريستاون جماعة ضخمة، لكنها كانت راسخة فيها منذ ما قبل الحرب الأهلية، وكان من أفرادها عدد معقول من أصحاب النفوذ في المدينة، من بينهم واحد من أمناء مستشفى موريستاون التذكاري (من خلال إصرار هذا الرجل، بدأت الدعوات، منذ سنتين، توجّه إلى أطباء يهود لكي ينضمّوا إلى كادر المستشفى)، وصاحب أفضل متجر متعدّد الأقسام في المدينة. كانت العائلات اليهودية الناجحة تسكن بيوتًا كبيرة مجصّصة في ويسترن آفينيو منذ خمسين عامًا، على الرغم من أن تلك المنطقة، إجمالًا، لم تكن معروفة بالمشاعر الودّية تجاه اليهود. عندما كان باكي طفلًا، كانت أسرته تأخذه معها إلى ماونت فريدوم، البلدة الواقعة بين التلال القريبة التي يقصدها الناس لقضاء العطلات. وهناك، كانوا يقيمون أسبوعًا كل صيف في فندق ليبرمان حيث وقع باكي في حب جمال ريف مقاطعة موريس. لا حاجة للقول إن الوضع في ماونت فريدوم كان رائعًا بالنسبة إلى اليهود: عشرة فنادق أو أحد عشر فندقًا، كانت يهودية كلّها. وكانت عائداتها في الصيف الواحد تبلغ عشرات

آلاف الدولارات. بل إن المصطافين أنفسهم كانوا يسمّون المكان مازحين «ماونت فريدمان». إذا كنت تعيش في شقة في نيوارك أو باسايك أو جيرسي سيتي، فإن قضاء أسبوع في ماونت فريدوم يعادل جنة حقيقية. أما موريستاون، وعلى الرغم من كونها مدينة غير يهودية على الإطلاق، فقد كان فيها مجتمع كوزموبوليتاني من المحامين والأطباء والعاملين في البورصة. وفيها، كان باكي وزوجته يحبّان الذهاب إلى السينما في النادي الاجتماعي، ويحبّان الذهاب إلى المتاجر (كانت متاجر ممتازة)، ويحبّان المباني القديمة الجميلة حيث استقرّ أصحاب المتاجر اليهود بلافتاتهم المضاءة بالنيون على امتداد سليتويل آفينيو.
لكن، هل يعرف السويدي أن إشارة الصليب النازي المعقوف قد رُسمت، قبل الحرب، على لافتة ملعب الغولف عند بداية ماونت فريدوم؟ وهل كان يعرف أن جماعة كوكلوكس كلان كانت تعقد اجتماعاتها في بونتون ودوفر؟... أشخاص ريفيون، وعمال، كانوا أعضاء في تلك الجماعة! وهل كان يعرف أن الناس كانوا يضعون صلبانًا مشتعلة أمام بيوتهم على مسافة أقل من خمسة أميال من حديقة موريستاون؟
ومنذ ذلك اليوم، ظلّ باكي يحاول اجتذاب السويدي (فسوف يكون صيدًا ثمينًا) لضمه إلى المجتمع اليهودي في موريستاون وجعله - إن لم ينضم إلى المجتمع اليهودي مباشرة - يشارك في مباريات كرة السلة المسائية في «دوري الكنائس»، وذلك ضمن الفريق الذي شكّله المعبد اليهودي. كانت هذه المهمة التي وضعها باكي روبنسون لنفسه مزعجة للسويدي، مثلما كانت أمه مزعجة له عندما فاجأته وأدهشته عندما سألته بعد بداية حمل داون بشهور قليلة إن كانت داون تعتزم التحوّل إلى اليهودية قبل ولادتها. «يا أمي، إن رجلًا لا تعني الطقوس اليهودية لديه شيئًا لا يمكن أن يطلب من زوجته التحول إلى هذا الدين». لم يسبق من قبل أن كان صارمًا معها هكذا؛ فأحزنه أن يراها وقد سارت مبتعدة تكاد دموعها تنهمر. ثم اقتضى الأمر ملاحقتها طيلة النهار واحتضانها مرات كثيرة جدًا حتى يجعلها تفهم أنه لم يكن «غاضبًا» منها... لم يرد أكثر من توضيح أنه صار رجلًا ناضجًا له حقوق الرجل الناضج. وأما

الآن، فقد تحدّث مع داون عن روبنسون... تحدّث عنه كثيرًا وهما مستلقيين ليلًا في سريرهما. «أنا لم آت إلى هنا من أجل هذه الأشياء. ثم إنني لم أكن حريصًا عليها في يوم من الأيام. كنت أذهب إلى الكنيس مع أبي أيام الأعياد، لكنّي لا أفهم شيئًا مما يُقال هناك. بل إنني لم أكن أفهم وجود أبي هناك. لم يكن هو. لم يكن ذلك شخصًا يشبه أبي: كان ينحني أمام شيء ليس مضطرًا إلى الانحناء أمامه، أمام شيء لا يفهمه أصلًا. لقد كان ينحني من أجل جدّي، لا أكثر. لم أفهم في يوم من الأيام ما علاقة أي شيء من ذلك بأن يكون أبي رجلًا. يمكن لأي شخص فهم علاقة مصنع القفازات بأن يكون أبي رجلًا... إن للمصنع علاقة وثيقة بأن يكون أبي رجلًا. عندما يتحدّث أبي عن القفازات فهو رجل يعرف ما يتحدّث عنه. وأما عندما يبدأ الحديث عن ذلك الشيء!! كان يجب أن تسمعيه يتحدّث. لو أن ما يعرفه عن الجلود قليلٌ مثل ما يعرفه عن الرب، لكان الأمر قد انتهى بأسرتنا إلى مأوى الفقراء».

قالت له: «أوه، لكن باكي روبنسون لا يتحدّث عن الرب يا سايمور. إنه يريد أن يكون صديقك. هذا كل شيء».

«أظنّ هذا. لكني لم أكن أبدًا مهتمًا بذلك الشيء، يا داون. لم أكن مهتمًا به في أي وقت من حياتي أستطيع تذكره. لم أفهمه أبدًا. فهل يفهمه أحد؟ لا أعرف ما الذي يتحدّثون عنه. أذهب إلى هذا الكنيس أو ذاك فيكون كل شيء غريبًا بالنسبة إليَّ. لقد كان الأمر هكذا على الدوام. عندما كان عليَّ أن أذهب إلى مدرسة عبرية في طفولتي، كنت لا أطيق الجلوس في تلك الغرفة والانتظار حتى نخرج إلى ملعب الكرة. كنت أقول في نفسي'إذا جلست في هذه الغرفة مزيدًا من الوقت، فسوف يصيبني المرض'. كان هناك شيء غير صحّي في ما يتعلّق بتلك الأماكن. يكفي أن أقترب من تلك الأماكن حتى أعرف أنني لست في المكان الذي أريد أن أكون فيه. كان المصنع هو المكان الذي أريد أن أكون فيه منذ أن كنت صبيًا. وكان ملعب الكرة مكانًا أريد أن أكون فيه منذ بدأت الذهاب إلى حضانة الأطفال. وقد عرفت أن هذا البيت مكان أريد أن أكون فيه منذ أن وقع نظري عليه. فلماذا لا أكون حيث أريد أن أكون؟ لماذا لا أكون مع من أريد أن

أكون معهم؟ أليس ذلك جوهر هذا البلد؟ أريد أن أكون حيث أريد أن أكون، ولا أريد أن أكون حيث لا أريد أن أكون. هذا هو معنى أن يكون المرء أميركيًا، أليس كذلك؟ أنا معك، وأنا مع طفلتنا، وأنا في المصنع خلال النهار وفي البيت بقية الوقت. هذان هما المكانان اللذان أحب أن أكون فيهما. إننا نملك جزءًا من أميركا، يا داون. لا يمكنني أن أكون أكثر سعادة، حتى إن حاولت. لقد فعلتُها، يا عزيزتي. لقد فعلتُها... فعلت ما عقدت العزم على فعله».

مرّ بعض الوقت كف خلاله السويدي عن المجيء للعب الكرة حتى يتفادى الاضطرار إلى صد باكي روبنسون في ما يتعلّق بموضوع الذهاب إلى المعبد. لم يكن يشعر بأنه يشبه أبيه عندما يكون مع روبنسون، بل بأنه يشبه أوركوت...

لا، لا، ليس أوركوت! أتعرفون من كان السويدي يشعر حقًا بأنه يشبهه؟ لا أسأل عمّن يشبهه خلال ساعة أو ساعتين في كل أسبوع يحدُث فيهما أن يكون مضطرًا إلى سماع ما يقوله باكي روبنسون، بل أسأل عمن يشعر بأنه يشبهه طيلة ما بقي من الوقت. وبالطبع، لم يكن السويدي قادرًا على إخبار أي شخص بهذا: كان في السادسة والعشرين؛ وكان أبًا جديدًا؛ ومن المؤكّد أن الناس سيضحكون منه إذا باح لهم بهذا الإحساس الطفولي. كان هو نفسه يضحك من إحساسه. كان الأمر شيئًا من تلك الأشياء التي يحتفظ بها المرء في ذهنه منذ الطفولة، حتى بعد أن يكبر. كان يشعر بأنه يشبه «جوني آبّلْسيد» منذ أن كان في ريمروك. من عساه يبالي ببيل أوركوت؟ كان وودرو ويلسون يعرف جد أوركوت. وكان توماس جيفرسون يعرف شيئًا عن جده. هذا أمر حسن لبيل أوركوت! وأما جوني آبّلْسيد فهو الرجل الذي أشبهه. لم يكن جوني يهوديًا؛ ولم يكن إيرلنديًا كاثوليكيًا، ولم يكن بروتستانتيًا مسيحيًا... لا؛ لم يكن جوني آبلسيد إلا أميركيًا سعيدًا. رجل طويل. رجل محمرّ الوجه. رجل سعيد. لعله لم يكن ذا عقلٍ، لكنه لم يكن في حاجة إليه... لم يكن جوني آبلسيد في حاجة إلا إلى أن يكون ممن يستطيعون المشي كثيرًا. متعته حسيةٌ خالصة. له خطوة واسعة وتعلّق تلقائي كبير بالطبيعة، ومعه كيس من البذار. ينثر جوني آبلسيد البذار

أينما ذهب(51). يا لها من قصّة! يذهب إلى كل مكان، ويسير في كل مكان. لقد أحب السويدي تلك القصة طيلة حياته. من هو كاتبها؟ لا أحد، بحسب ما يستطيع تذكّره. لقد درسوا هذه القصة في المدرسة الابتدائية. جوني آبلسيد يتجوّل في كل مكان وينثر بذور التفاح. وذلك الكيس من البذور. أحببت ذلك الكيس. لكن، لعله كان قبعته - هل كان يضع بذور التفاح في قبعته؟ لا أهمية لهذا. «من قال له أن يفعل هذا؟». سألته ميري هذا السؤال عندما بلغت سن الاستماع إلى حكاية قبل النوم... لا تزال صغيرة جدًا، فهل يحاول أن يحكي لها قصصًا أخرى كقصة القطار الذي كان ينقل الدراق فقط؟ ألن تصيح عندها: «جوني! أريد قصة جوني!». «من قال له أن يفعل هذا؟». «لم يقل له أحد شيئًا، يا حبيبتي». لست في حاجة إلى قول أي شيء لكي تجعل جوني آبلسيد ينثر بذور التفاح. إنه يفعل هذا من تلقاء نفسه». «ومن هي زوجته؟». «اسمها داون. داون آبلسيد». «وهل لديه طفلة؟». «طبعًا، لديه طفلة. فهل تعرفين اسمها؟». «ما اسمها؟». «اسمها ميري آبلسيد». «وهل تنثر ميري بذور التفاح في قبعتها؟». «إنها لا تنثر بذور التفاح في القبعة، يا حبيبتي، إنها تضعها في القبعة، ثم تنثرها على الأرض. إنها تنثرها بعيدًا إلى أقصى حد تستطيعه. وحيثما تنثر تلك البذور، حيثما تقع البذور على الأرض، هل تعرفين ما الذي يحدث؟». «ماذا يحدث؟». «تنمو شجرة تفاح في ذلك المكان». يصير عاجزًا عن كبح جماح نفسه كلّما ذهب إلى قرية أولد ريمروك سيرًا على الأقدام. أول شيء يفعله في عطلة نهاية الأسبوع هو انتعال حذائه والسير مسافة الأميال الخمسة حتى يبلغ القرية، ثم العودة مسافة الأميال الخمسة بين التلال. يذهب سيرًا على الأقدام منذ الصباح الباكر حتى يأتي بصحيفة يوم السبت، ولا يستطيع إبعاد نفسه عن تلك الفكرة... «جوني آبلسيد»... بهجةُ الفكرة... البهجة النقية العائمة التي لا يحدّها شيء، بهجة السير بخطوات واسعة. لا يبالي حتى إذا لم يلعب الكرة بعد ذلك - لا يريد إلا أن يسير بتلك الخطوات الواسعة. كان يبدو له، على نحو ما، أن لاعب الكرة قد تنحّى عن الطريق حتى يُسمح له بفعل هذا، حتى يسمح له بأن يسير بهذه الخطوات المتسعة مسافة ساعة حتى يبلغ القرية فيأخذ نسخةَ لاكاوانا من صحيفة

نيوارك نيوز من المتجر العام الذي تنتصب أمامه مضخّة الوقود الوحيدة وتنتشر على درجاته منتجات المنطقة معبأة في صناديق وأكياس من الخيش. كان ذلك هو المتجر الوحيد في الخمسينات، ولم يتغيّر منذ أن ورثه روس هاملين عن أبيه بعد الحرب العالمية الأولى. كانوا يبيعون ألواح الغسيل، وأحواض الاستحمام. وكانت في المكان لافتة دعائية لنوع من المشروبات غير الكحولية اسمه «فروستي»، وكانت لافتة أخرى مُسمّرة على الجدار الخارجي كتب عليها «خميرة فريشمان»، وأخرى لشركة «منتجات بيتسبرغ للطلاء». كانت على واجهة المتجر لافتة لـ«محاريث سيراكوز» معلّقة هناك منذ أن كان المتجر يبيع المعدّات الزراعية أيضًا. يتذكر روس هاملين، منذ أيام صباه الأولى، ومحل صانع العجلات الذي كان على الناحية الأخرى من الشارع. ولا يزال يستطيع أيضًا تذكّر كيف كانوا يدحرجون عجلات العربات على امتداد مسار منحدر من أجل تبريدها في الجدول. يتذكّر أيضًا مصنع التقطير الذي كان في تلك الأيام؛ مصنع صغير من مصانع صغيرة كثيرة في المنطقة كانت تنتج ويسكي التفاح ولم تغلق إلا بعد إقرار قانون فولستيد(52). وفي القسم الخلفي من المتجر، كانت هناك نافذة واحدة هي «مكتب البريد الأميركي»... نافذة واحدة فقط ومعها ثلاثون، أو نحو ذلك، من تلك الصناديق الصغيرة ذات الأقفال. متجر هاملين العام، ومكتب البريد الذي في آخره، وأمامه لوحة الإعلانات وسارية العلم ومضخّة الوقود... هذا ما كان يقدّم الخدمات إلى المجتمع الزراعي القديم ويقوم بدور مكان الاجتماع منذ أيام الرئيس وارن كاماليل هاردينغ، عندما صار روس مالكًا له. وإلى الناحية الأخرى من الطريق، في اتجاه مائل قليلًا، إلى جانب الموضع الذي كان فيه محل صانع العجلات، يقوم مبنى المدرسة ذات الغرف الست، الذي سيكون المدرسة الأولى لابنة ليفوف. كان الأطفال يجلسون على الدرجات أمام المتجر. سوف تنتظرك ابنتك هناك. إنه مكان اللقاء؛ مكان التحيّة. كان السويدي يحب هذا. كان في صحيفة نيوارك نيوز المألوفة التي يأخذها من المتجر بابٌ خاص، الباب الثاني في الصحيفة، اسمه «على امتداد نهر لاكاوانا». حتى هذا كان يشيع في نفسه بهجة، لا عند قراءته في البيت لتتبّع

الأخبار المحلّية في موريس فحسب، بل أيضًا عندما يحمل الصحيفة بيده عائدًا إلى البيت. كانت كلمة «لاكاوانا» في حد ذاتها مصدر بهجة له. كان يتناول الصحيفة الموضوعة على طاولة البيع الأمامية وقد كُتب في أعلاها «ليفوف» بيد ميري هاملين، ثم يشتري ربع غالون من الحليب - إن كانوا في حاجة إلى حليب، ورغيف خبز، ودزينة من البيض الطازج من مزرعة بول هاملين الواقعة على تلك الطريق نفسها، ثم يقول لصاحب المتجر: «إلى اللقاء يا روس». وبعد ذلك يستدير ويعود أدراجه بتلك الخطوات الواسعة نفسها فيمرّ بأسيجة المراعي البيضاء التي أحبها، وبحقول القش المتتابعة التي أحبها، وبحقول الذرة واللفت التي أحبّها، وبالحظائر والخيول والأبقار والبرك والجداول والينابيع والشلّالات، ونباتات البقلة، والأعشاب، والورود، وأكرات وأكرات من غابات أحبّها بكل ما يكون لدى ساكن الريف الجديد من حب للطبيعة، ثم يبلغ أشجار القيقب البالغ عمرها مئة سنة، الأشجار التي أحبها، والبيت الحجري القديم المتين الذي أحبه... يسير متخيلًّا أنه ينثر بذور التفاح في كل مكان.

رأته داون ذات مرة من نافذة من نوافذ الطابق الثاني عندما كان آتيًا في اتجاه البيت قادمًا من أسفل التلة وهو يقوم بتلك الحركة، ويطوّح بذراعه لا كما يفعل عندما يرمي الكرة أو عندما يلوح بمضرب البيسبول، بل كمن يغرف ملء قبضته بذورًا من كيس المشتريات الذي يحمله، ثم يرميها بكل قوته على أديم الأرض التاريخية التي صارت الآن تخصّه هو بقدر ما تخصّ ويليام أوركوت. «ما الذي تتمرّن عليه، هناك، في الخارج». سألته ضاحكة عندما اندفع داخلًا غرفة النوم وقد صار يبدو بعد ذلك الجهد كله وسيمًا إلى أقصى حد، ضخمًا، شهوانيًا، محمرًّا مثل جوني آبلسيد نفسه، مثل شخصٍ يحْدثُ في داخله شيء بالغ الروعة. عندما يرفع الناس كؤوسهم ويشربون نخب فتى، عندما يقولون له «نتمنّى لك الصحة وحسن الطالع»، فإن الصورة التي تكون في أذهانهم - أو الصورة التي ينبغي أن تكون في أذهانهم - هي صورة النموذج البشري الأرضي، صورة الفحولة المنطلقة التي تندفع سعيدة إلى غرفة النوم فتجد فيها كائنًا رائعًا صغيرًا، زوجته الشابة، واقفة وحدها، متجرّدة من موانع العزوبية

كلها، خالصة - يا للسعادة - له وحده. «سايمور، ما الذي تفعله في متجر هاملين؟... هل تتلقّى دروسًا في الباليه؟». وبسهولة، بكل سهولة، بتلك اليدين الكبيرتين اللتين تحميانها، رفع عن الأرض مئة وثلاثة باوندات، رفع جسدها عن الأرض التي كانت واقفة عليها حافية القدمين مرتدية قميص نومها، رفعها بقوته الكبيرة كلّها، ثم ضمها إليه كما لو أنه يضمهما معًا، يوحّدهما معًا، حتى يصيرا كيانًا متماسكًا، حتى يصيرا الوجود الرائع المنيع الجديد للزوج والأب سايمور ليفوف الآتي من طريق أركادي بيل، أولد ريمروك، نيوجرسي، الولايات المتحدة الأميركية. وأما ما كان يفعله على الطريق - على الرغم من أنه لم يكن شيئًا مخجلًا أو حركة سطحية لا معنى لها - فما كان قادرًا على جعل نفسه يعترف به صراحة حتى لداون: لقد كان يمارس الحب مع حياته.

في واقع الأمر، كان السويدي أميل إلى التكتّم الشديد في ما يخص شدة تعلّقه الجسدي الحميم بزوجته الشابة. كانا، كلاهما، أميل إلى الاحتشام أمام الناس؛ وما كان لأحد أن يستطيع تخمين شيء عن ذلك السرّ الذي كانته حياتهما الجنسية. لم يضاجع أبدًا أية فتاة كان يواعدها قبل داون. لقد نام مع عاهرتين عندما كان في مشاة البحرية؛ لكن ذلك لا يمكن إدخاله في الحساب حقًّا. لم يعرف إلا بعد زواجهما، ولم تعرف داون أيضًا، كم يمكن أن يكون عاشقًا مشبوب العاطفة. كانت لديه قوة كبيرة وقدرة احتمال كبيرة. وكان صغر حجمها إلى جانب ضخامته، والطريقة التي يستطيع رفعها بها، وكبَر جسده في السرير معها، مثيرًا لكل منهما. كانت تقول إنها تحسّ بنفسها نائمة مع جبل عندما يغفو في السرير بعد أن يمارسا الحب. وكانت تثيرها أحيانًا فكرة أنها نائمة إلى جانب صخرة ضخمة. كان يندفع داخلًا فيها، خارجًا منها، بقوة كبيرة وهو فوقها، لكنه يظل رافعًا جسده على مسافة منها حتى لا يسحقها. ولأنه كان قويًا كبير القدرة على الاحتمال، فقد كان يواصل هذا زمنًا طويلًا من غير أن يتعب. كان قادرًا على رفعها بيد واحدة وقلبها حتى تستقر على ركبتيها، أو على إجلاسها في حضنه ومتابعة الحركة بسهولة تحت وزنها البالغ مئة وثلاثة باوندات. على امتداد شهور وشهور بعد زواجهما، كانت داون تبكي بعد أن تبلغ ذروة النشوة.

كانت تبلغها ثم تبكي، فلا يفهم من الأمر شيئًا.
كان يسألها: «ما الأمر؟».
«لست أدري».
«هل آلمتك؟».
«لا. لا أعرف من أين يأتي البكاء. هذا، تقريبًا، كما لو أن المَني الذي تقذفه في داخل جسدي هو ما يطلق الدموع».
«لكنك تقولين إنني لم أسبّب لك ألمًا».
«صحيح».
«هل يمتعك ما أفعله، يا داون؟ هل تحبين هذا؟».
«أحبه كثيرًا. إن فيه شيئًا... أحس كما لو أنه يبلغ مكانًا لا يبلغه شيء آخر. وهو المكان الذي فيه هذه الدموع. إنك تصل إلى جزء في داخلي لم يصله أي شيء آخر من قبل».
«حسنًا، طالما أنني لا أسبّب لك ألمًا».
قالت: «لا، لا. أمر غريب فحسب... غريب فحسب... أمر غريب ألا أكون وحدي».
لم تتوقّف عن البكاء إلا عندما بدأ بتقبيلها، من فمها نزولًا، أول مرة. قال لها: «أنت لا تبكين الآن».
قالت: «كان هذا مختلفًا كثيرًا».
«كيف؟ لماذا؟».
«أظن... لست أدري. أظنني وحيدة من جديد».
«هل تريدين ألا أفعل هذا بعد الآن؟».
قالت ضاحكة: «أوه، لا. بالتأكيد لا».
«حسنًا».
«سايمور... كيف تعرف فعل هذه الأشياء؟ هل فعلتها من قبل؟».
«لم أفعلها أبدًا».
«فماذا كنت تفعل؟ أخبرني».

لكنه ما كان قادرًا على شرح الأمور مثلما تشرحها هي، فلم يحاول ذلك. استولت عليه الرغبة في فعل المزيد، فرفع ردفيها بيد واحدة وقرّب جسدها من فمه. كان يريد أن يزرع وجهه هناك، ويمضي. كان يريد أن يذهب إلى حيث لم يذهب من قبل. وكان ذلك بتواطؤ مبتهج سعيد، بينه وبينها. بطبيعة الحال، ما كان لديه أي سبب يدعوه إلى الظنّ بأنها ستفعل له ما يماثل هذا. ذات مرة فعلته في صباح يوم أحد. وضعت زوجته الصغيرة داون قضيبه في فمها الصغير الجميل. كان مذهولًا. كانا مذهولين. كان هذا «تابو» عنده وعندها. ومنذ ذلك اليوم استمر الأمر سنينًا وسنينًا؛ لم يتوقّف أبدًا. قالت له هامسة: «إن فيك أمرًا مؤثّرًا جدًا عندما تصل النقطة التي تفقد فيها سيطرتك على نفسك». قالت له إن مما يثير مشاعرها كثيرًا أن يكون هذا الرجل الطيّب، المهذّب، حسن التربية، المتمالك نفسه دائمًا، الرجل المسيطر على قوته دائمًا، المسيطر على قوته الهائلة، الذي لا عنف في داخله، هو زوجها... عندما يتجاوز نقطة اللارجوع، عندما يتجاوز النقطة التي يمكن أن يحسّ عندها أي إنسان بالحرج تجاه أي شيء. عندما يتجاوز النقطة التي يكون عندها قادرًا على الحكم عليها أو على التفكير في أنها - على نحو ما - فتاة سيئة لأنها راغبة في الأمر مثلما هي راغبة فيه، في تلك اللحظة، عندما يكون في أشد الرغبة، تأتي تلك الدقائق الثلاث أو الأربع الأخيرة التي تبلغ ذروتها في انفجار صارخ للذة. قالت له: «إنه يجعلني أحس بأنني أنثى إلى أقصى حد... يجعلني أحس بأنني قوية إلى أقصى أحد... يجعلني أحس بالأمرين معًا». عندما نهضت من السرير بعد أن فرغا من ممارسة الحب، بدت شعثاء إلى حد جنوني، محمرّة كلّها وقد تناثر شعرها في كل اتجاه وصارت مواد التجميل على وجهها لطخًا وتورّمت شفتاها. ذهبت إلى الحمام لكي تبوّل فلحق بها ورفعها عن مقعد المرحاض بعد أن جففت نفسها ونظر إلى انعكاس صورتهما في مرآة الحمام ففوجئت كثيرًا مثلما فوجئ، لا بشدة ما بدت عليه من جمال فحسب، ولا بما جعلتها المضاجعة تبدو عليه من تألّق فحسب، بل أيضًا لأنها بدت مختلفة كثيرًا. لقد زال عنها وجهها الاجتماعي... وظهرت داون! لكن هذا كلّه كان سرًّا محجوبًا عن الآخرين؛

وكان ينبغي أن يظلَّ سرًّا، عن الطفلة خاصّة. بعض الأحيان، وبعد أن تمضي داون طيلة النهار واقفة على قدميها مع أبقارها، كان يقرّب كرسيه من كرسيها بعد العشاء ويدلك قدميها، فتكشر ميري وتقول: «أوه، بابا، هذا مقرف». لكن هذا كان الشيء الوحيد الذي يفعلانه أمامها مما قد يعبّر عن العاطفة بينهما. وأما غير ذلك، فما كانت ميري ترى غير العواطف المعتادة في البيوت، أي تلك العواطف التي يتوقّع الأطفال رؤيتها من قبل أبيهم وأمهم، بل قد يفتقدونها إذا ما اختفت. كانت الحياة التي يعيشانها داخل جدران غرفة نومهما سرًّا. لن تعرف ابنتهما عنها شيئًا أكثر مما يعرفه أي شخص آخر. وهكذا مضى الأمر واستمرّ سنوات وسنوات؛ ولم يتوقّف أبدًا إلى أن انفجرت تلك القنبلة وذهبت داون إلى المستشفى. ثم بدأ يتوقف بعد خروجها منه.

كان أوركوت قد تزوّج حفيدة واحد من شركاء جده في شركة أوركوت وفيندلي القانونية في موريستاون، وهي الشركة التي كان مُنتَظرًا أن ينضم إليها. إلا أنه امتنع بعد تخرجه في جامعة برنستون عن قبول مقعد دراسي في مدرسة هارفارد للحقوق. على امتداد أكثر من مئة سنة، شكّلت مدرسة برنستون، ثم مدرسة هارفارد للحقوق، مسار تعليم أي فتى في عائلة أوركوت؛ إلا أنه قطع مع هذا التقليد من تقاليد العالم الذي ولد فيه وانتقل إلى استوديو في منطقة مانهاتن السفلى وصار رسامًا تجريديًا ورجلًا جديدًا. أمضى ثلاث سنوات مُحبِطات من الرسم المحموم خلف النوافذ القذرة المطلّة على حركة الشاحنات في شارع هدسون قبل أن يتزوّج من جيسي ويعود إلى جيرسي لكي يبدأ دراسة العمارة في جامعة برنستون. لم يتخلَّ تمامًا عن حلمه الفني؛ ومع أن عمله المعماري كان يسرّه ويبقيه منشغلًا على الدوام (كان أكثر عمله في ترميم البيوت الريفية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في الجزء الثاني من مقاطعة موريس، وكذلك في مقاطعتي سومرست وهانتردون وما بعدهما وصولًا إلى مقاطعة باكس في بنسيلفينيا، وكذلك تحويل الحظائر القديمة إلى بيوت ريفية أنيقة)، فقد حافظ على إقامة معرض خاص به، كل ثلاث سنوات، أو كل أربع سنوات، في صالة فنية في موريستاون. كانت أسرة ليفوف مخلصة في المواظبة

على زيارة معرضه لأن دعوتها إلى حفل الافتتاح كانت تجعلها تشعر بنوع من الإطراء.

لم يكن السويدي في يوم من الأيام أقل راحة في أية حالة اجتماعية مما كان أثناء وقوفه أمام لوحات أوركوت التي قالت عنها النشرة التي يأخذها المرء عند باب الدخول إنها متأثّرة بفن الخط الصيني، لكنها لم تبد له شيئًا ذا قيمة، حتى إن كان شيئًا صينيًا. لكن داون وجدت منذ البداية أن تلك اللوحات «تحرّض على التفكير». ففي نظرها، كانت تُظهِرُ جانبًا غير متوقّع أبدًا لدى بيل أوركوت: حساسية لم تر من قبل أي شيء يشير إليها. إلا أن الشيء الوحيد الذي حرّضه المعرض لدى السويدي كان التفكير في الزمن الذي يتعيّن عليه أن يمضيه متظاهرًا بالنظر إلى إحدى اللوحات قبل الانتقال إلى التظاهر بأنه ينظر إلى اللوحة التي بعدها. الشيء الوحيد الذي أحس ميلًا إلى فعله هو الانحناء إلى الأمام قليلًا لقراءة أسماء اللوحات الملصقة إلى جانب كل منها ظنًا منه أن تلك الأسماء يمكن أن تساعده. وعلى الرغم من قول داون له ألّا يفعل ذلك، وجذبها إياه من سترته، وهمسها له «انسَ الأسماء، وانظر إلى ضربات الفرشاة»، فقد نظر إلى الأسماء فصار أكثر حيرة مما كان عندما نظر إلى ضربات الفرشاة. تشكيل رقم 16، لوحة رقم 6، تأمُّل رقم 11، من غير عنوان رقم 12... وماذا كان في تلك اللوحة غيرَ شريط من لطخات رمادية متطاولة شديدة الشحوب على خلفية بيضاء؟ بدا له كما لو أن أوركوت لم يحاول رسم اللوحة بل إتلاف القماش! استعان بوصف المعرض المكتوب في النشرة التي حملت توقيع الزوجين الشابين اللذين يملكان تلك الصالة، فلم يفده ذلك شيئًا. «تتميّز خطوط أوركوت بأنها شديدة إلى حدٍّ يجعل الأشكال تتحلّل وتختفي. ثم لا تلبث ضربات الفرشاة، في تألّق طاقتها، أن تفكّك نفسها بنفسها...». بحقِّ السماء، ما الذي يجعل رجلًا مثل أوركوت صاحب المعرفة الجيدة بعالم الطبيعة والدراما التاريخية الكبيرة في هذه البلاد - وهو لاعب تنس متميز أيضًا - راغبًا في رسم لوحات ليس فيها شيء؟ وبما أن السويدي كان قد توصّل إلى أن الرجل ليس شخصًا زائفًا (لماذا يعمد شخص واثق من نفسه، متعلّم تعليمًا جيدًا، إلى تكريس

هذا الجهد كلّه حتى يكون شخصًا زائفًا)، فقد كان قادرًا، برهةً من الزمن، على أن يعزو عدم فهمه إلى جهله بالفن. ومن حين لآخر، كان يواصل التفكير في أن «في هذا الرجل أمر غير طبيعي. هناك قدر كبير من عدم الرضا. إن هذا الأوركوت لا يملك ما يريده». لكن السويدي يعود فيقرأ شيئًا من قبيل تلك النشرة فيوقن أنه لم يكن يعرف عما يتحدّث. «يظل طموح أوركوت ساميًا بعد انقضاء عقدين من سنوات إقامته في غرينويتش فيليدج: إنه طموح الإبداع». ثم تصل النشرة إلى القول: «تعبير شخصي عن معضلات كونيّة من بينها المعضلات الأخلاقية المستمرّة التي تُعرّف الشرط البشري».

عندما كان السويدي يقرأ نشرة المعرض، لم يخطر في ذهنه أبدًا أن ما من شيء يمكن أن يُقال عن تلك اللوحات لأنها فارغة تمامًا إلى حدٍّ يحتّم عليك القول إنها لوحات لكل شيء لأنها لوحات عن لا شيء... وليست تلك الكلمات كلّها، في نشرة المعرض، إلا أسلوبًا آخر في القول إن أوركوت كان عديم الموهبة غير قادر (مهما بذل من محاولات صادقة) على أن يثبت امتلاكه أية مزيّة فنية، أو أية مزيّة متّصلة بهذا الأمر، باستثناء ذلك التميّز الذي ولد معه، عراقة عائلته. لم يخطر في ذهن السويدي أنه كان محقًّا، وأن هذا الشخص الذي يبدو شديد الانسجام مع نفسه وشديد الانسجام مع المكان الذي يعيش فيه ومع الناس الذين من حوله، يمكن أن يكشف من غير قصد عن أن عدم الانسجام كان، في حقيقة الأمر، سرًّا ورغبة قديمة ليست لديه أدنى فكرة عن كيفية تحقيقها إلا عبر هذا التوق الغريب إلى رسم لوحات لا تبدو شبيهة بأي شيء. من الواضح أن هذه الأشياء أفضل ما يستطيع فعله بتوقه هذا. أمر محزن! على أية حال، لم يكن مهمًا كم هو محزن، ولا ما يسأل عنه السويدي، وما يفهمه أو لا يفهمه، وما يعرفه أو لا يعرفه عن الرسام، إلى أنْ... إلى أن ظهرت واحدة من تلك اللوحات المعبّرة عن الموضوعات الكونية التي تُعَرّف الشرط البشري على جدار غرفة المعيشة في بيته بعد شهر من عودة داون من جنيف بوجهها الجديد بعد شدّه. وقتها، بدأت الأمور تصير حزينة بعض الشيء بالنسبة إلى السويدي.

كانت تلك اللوحة شريطًا من لطخات بنّية وليست رمادية مثل التي كان

أوركوت يحاول بها إفساد اللوحة المسماة «تأمل رقم 27». وكانت خلفيتها ضاربة إلى اللون القرمزي بدلًا من اللون الأبيض. ترمز الألوان القاتمة (بحسب ما قالته داون) إلى ثورة على الأساليب الرسمية لدى الرسام. هذا ما قالته له؛ فاكتفى السويدي بعبارة «شيء لافت» لأنه لم يعرف على وجه التحديد كيف يستجيب ولا كان لديه اهتمام بمعرفة معنى «الأساليب الرسمية». لم تكن في بيته أية أعمال فنية معلّقة على الجدران عندما كان طفلًا، ناهيك عن «الفن الحديث»... لم يكن الفن موجودًا في بيتهم مثلما لم يكن موجودًا في بيت داون. لكن أسرة دواير كانت لديها لوحات دينية لعلها هي ما جعل داون تمتلك، على نحو مفاجئ تمامًا، ذائقة «للأساليب الرسمية».

إحساسٌ سرّي بالحرج من أنها نشأت في مكان لم تكن فيه أية لوحات (بمعزل عن صورة لداون وأخيها الصغير معلّقة ضمن إطار) باستثناء لوحة تمثّل العذراء، وأخرى تمثّل القلب المقدس. إن لدى هؤلاء الناس ذوقًا، ولديهم فنٌّ حديث على الجدار، وسوف يكون لدينا فنٌّ حديث على جدارنا أيضًا! ستكون لدينا «أساليب رسمية» على الجدار! مهما تحاول داون إنكار الأمر... أليس فيه شيء من هذا؟... أليست هذه غيرة إيرلندية؟

لقد اشترت اللوحة من استوديو أوركوت مباشرة بثمن يبلغ، بالضبط، نصف الثمن الذي دفعوه في الثور كاونت عندما كان عجلًا صغيرًا. قال السويدي في نفسه «انسَ المال، وحرِّر الشيك... لا تستطيع المقارنة بين ثور ولوحة»؛ فتمكّن بهذه الطريقة من تدبّر أمر خيبته وامتعاضه عندما رأى لوحة «تأمل رقم 27» تستقرّ في ذلك المكان الذي كانت فيه لوحة نصفية لميري تعجبه كثيرًا... لوحة ممتازة دقيقة لتلك الطفلة ذات الشعر الذهبي عندما كانت في السادسة من عمرها، على الرغم من شيء من المبالغة في إضفاء لون وردي عليها. لقد رسمها لهم بالزيت فنان عجوز بشوش مرح في بلدة نيو هوب كان يرتدي في مرسمه قبعة وثوبًا طويلًا فضفاضًا... لم يبخل عليهم بالوقت، وقدّم لهم نبيذًا ساخنًا، وأخبرهم عن فترة تدريبه التي أمضاها في نسخ اللوحات في متحف اللوفر. أتى هذا الرجل إلى بيتهم ست مرات لكي تجلس ميري إلى البيانو أمامه،

ولم يطلب مقابل اللوحة وإطارها الذهبي إلا ألفي دولار. لكن داون قالت للسويدي إن شراء لوحة أوركوت بخمسة آلاف دولار صفقة جيدة، لأن الرجل لم يطالب بالثلاثين بالمئة التي كانا سيدفعانها لو اشتريا «تأمل رقم 27» من الصالة الفنية.

كان تعليق والده عندما رأى اللوحة الجديدة: «كم أخذ منكم الرجل مقابل هذه؟». أجابته داون مترددة: «خمسة آلاف دولار». «هذا مبلغ كبير جدًا مقابل الطبقة الأولى من الطلاء. وماذا ستكون؟». أجابته داون مستاءة: «ماذا ستكون؟». «حسنًا، إنها غير منتهية، آمل أنها غير منتهية! هل هي منتهية؟». قالت داون: «الفكرة، يا لو، هي أنها لوحة غير منتهية». «حقًّا؟»... نظر إلى اللوحة من جديد... «حسنًا، إذا رغب الرجل في إنهائها يومًا ما، فإنني أستطيع أن أقول له كيف ينهيها». تدخّل السويدي للحيلولة دون مزيد من الانتقاد. قال لأبيه: «بابا، لقد اشترتها داون لأنها أعجبتها». صحيح أنه كان قادرًا أيضًا على أن يقول للرجل كيف ينهيها (ولعله سيستخدم الكلمات نفسها التي تدور في ذهن أبيه) لكنه كان أكثر من راغب في تعليق أي شيء تشتريه داون من أوركوت لمجرد أنها اشترته. سواء أكان ذلك غيرةً إيرلندية أم لم يكن غيرة إيرلندية، فإن هذه اللوحة دليل جديد على أن رغبتها في الحياة قد صارت أقوى من رغبتها في الموت، تلك الرغبة التي أوصلتها إلى مستشفى الأمراض النفسية مرتين. قال لأبيه في وقت لاحق: «أعرف أن اللوحة بائسة. لكن المسألة هي أنها تريدها. المسألة هي أنها صارت تريد من جديد. أرجوك...». حذّر أباه بهذه الكلمات وهو يشعر بأن غضبه كان على حافة الانفجار (أمر غريب بالنظر إلى ضآلة الاستفزاز)... «أرجوك، لا تقل أي شيء عن تلك اللوحة». لكن لو ليفوف كان لو ليفوف؛ ففي زيارته التالية إلى أولد ريمروك، كان أول ما فعله هو أن ذهب فوقف أمام اللوحة وقال بصوت مرتفع: «هل تعرفون؟ يعجبني هذا الشيء. لقد بدأت أعتاد هذه اللوحة. وهي تعجبني حقًّا. انظري...». قال هذا لزوجته... «انظري كيف أن الرجل تعمّد عدم إنهائها. أترين هذا؟ أترين حيث تصير اللوحة غائمة؟ لقد فعل هذا عامدًا. هذا هو الفن».

كان في القسم الخلفي من سيارة النقل الصغيرة التي أتى بها أوركوت نموذج كبير مصنوع من الورق المقوى لبيت أسرة ليفوف الجديد. كان ذلك النموذج جاهزًا لأن يراه الضيوف بعد العشاء. لقد تكوّمت نماذج ومخططات كثيرة في مكتب داون على امتداد أسابيع. وكان من بينها مخطط أعده أوركوت يبيّن زاوية سقوط أشعة الشمس في اليوم الأول من كل شهر من شهور السنة. قالت داون: «طوفان من ضياء الشمس»... «ضياء!»... قالت متعجّبة «ضياء!». صحيح أن ذلك كان خاليًا من المباشَرة القاسية التي يمكن أن تشكّل اختبارًا حقيقيًا لحدود تفهمه لمعاناتها وللترياق الذي اخترعته لنفسها، لكنها كانت توجّه بهذا إدانة جديدة للبيت الحجري الذي يحبه، وأيضًا لأشجار القيقب العتيقة التي يحبّها، تلك الأشجار العملاقة التي تظلل البيت فتحميه من حر الصيف، ثم يأتي الخريف فتكسو أوراقها المرجَ كلَّه بالأكاليل الذهبية التي علّق أرجوحة ميري في قلبها ذات يوم من الأيام.

لم يستطع السويدي استيعاب وجود تلك الأشجار خلال السنوات الأولى من إقامته في أولد ريمروك. لم يستطع استيعاب أنه صار مالكًا لها. كان امتلاكه أشجارًا أكثر إدهاشًا له من امتلاكه المصانع؛ وكان امتلاكه أشجارًا أكثر إدهاشًا له من قدرة طفل قادم من تشانسلر آفنيو ومن شوارع ويكاهيك التي لا علاقة لها بالريف، بيتًا حجريًا قديمًا وسط التلال حيث أقام جورج واشنطن، مرتين، معسكرًا شتويًا لجيشه خلال الحرب الثورية. كان امتلاك الأشجار أمرًا محيّرًا له... لا يمتلكها المرء مثلما يمتلك شركة، ولا يمتلكها مثلما يمتلك بيتًا. قد يصح القول إنها أمانة، أمانة عنده. نعم، أمانة من أجل الأجيال القادمة كلها ابتداء بميري وأطفالها.

حتى يحمي الأشجار من العواصف الجليدية والرياح العاتية، أتى السويدي بمن ثبّت كل واحدة من أشجار القيقب الكبيرة بالكابلات، بأربعة كابلات تشكّل ما يشبه متوازي مستطيلات تحت السماء حيث تتشعّب الأغصان تشعبًا دراماتيكيًا على ارتفاع خمسين قدمًا. وكان يأتي بشخص يُجري تفقدًا سنويًا لمانعات الصواعق الممتدة من جذع كل شجرة إلى أعلى نقطة فيها، وذلك حتى يضمن

حمايتها. كانت الأشجار تُرشّ بمبيدات الحشرات مرتين كل سنة، وتُسمّد كل ثلاث سنوات. كما كان يأتي شخص مختص بالتقليم وقصّ الأغصان اليابسة، وتفقّد الحالة العامة لهذه الحديقة الخاصّة أمام بابهم. إنها أشجار ميري... أشجار أسرة ميري.

وفي الخريف - تمامًا مثلما كان قد خطّط دائمًا - كان السويدي يحرص دائمًا على العودة إلى البيت قبل غروب الشمس، فتكون ابنته هناك تتأرجح عاليًا فوق الأوراق المتساقطة المحيطة بشجرة القيقب أمام باب البيت... الشجرة التي كانت أكبر شجراتهم فعلق فيها تلك الأرجوحة من أجل ميري عندما كان عمرها سنتين فقط. يراها تتأرجح عاليًا فتكاد تبلغ أوراق الأغصان المنتشرة تحت إطارات نوافذ غرفة نومهما... وعلى الرغم من أن هذه اللحظات الثمينة في آخر كل يوم كانت بالنسبة إليه رمزًا لتحقّق حلمه، فإنها لم تعنِ لميري شيئًا على الإطلاق. لقد تبيّن أنها لم تحبّ هذه الأشجار بأكثر مما كانت تحب هذا البيت. كانت الجزائر هي ما يشغل بالها. كانت تحبّ الجزائر. الطفلة في الأرجوحة؛ الطفلة في تلك الشجرة. الطفلة في الشجرة التي صارت الآن جالسة على أرض تلك الغرفة.

أتى أوركوت في وقت مبكّر حتى يتسنّى له ولداون أن يراجعا معًا مشكلة الوصل بين البيت ذي الطابق الواحد والوالمرأب ذي الطابقين. لقد سافر أوركوت إلى نيويورك وظل فيها يومين، مما جعل داون لا تكاد تطيق صبرًا على حل هذه المشكلة الأخيرة بعد أسابيع من التفكير وإعادة التفكير في كيفية ابتكار صلة وصل منسجمة بين المبنيين المختلفين تمام الاختلاف. لم تكن داون راغبة في أن يكون المرأب شديد القرب (حتى ولو جرى تمويهه بشكل ما بحيث يبدو كأنه حظيرة) فيطغى على تميّز البيت؛ لكنها خشيت أن تؤدّي وصلة طولها أربعًا وعشرين قدمًا - كما اقترح أوركوت - إلى جعل البيت يبدو أشبه بموتيل.

كانا يجلسان معًا في كل يوم تقريبًا، ويتأمّلان معًا... لا في ما يتّصل بأبعاد ذلك الممر فحسب، بل أيضًا في ما يتصل بما إذا كان الشكل الذي سيتخذه الممر أقرب إلى البيت الزجاجي منه إلى شكل الممر البسيط الذي فكرا فيه أول الأمر.

وكلما أحسّت داون بأن أوركوت يحاول أن يفرض عليها، وإن بكياسته المعهودة، حلًا أقرب إلى الجماليات المعمارية ذات الطراز القديم بدلًا من الطابع شديد الحداثة الذي كان في ذهنها من أجل بيتهما الجديد، فإنها تستاء استياء شديدًا، بل تتساءل أيضًا (في تلك المناسبات القليلة عندما تكون غاضبة منه غضبًا حقيقيًا) عما إذا كانت مخطئة عندما استعانت بشخص هو «في الأساس مُرَمِّمٌ للأشياء العتيقة»، على الرغم من كونه صاحب نفوذ معتبر لدى المقاولين المحليين (مما يضمن عملًا إنشائيًا رفيع المستوى)، وعلى الرغم من كونه صاحب سمعة مهنية ممتازة. لقد انقضت سنين طويلة منذ أن كانت تشعر بالرهبة إزاء العجرفة التي ظنت أنها الجانب الوحيد في طبع أوركوت (وهي القادمة حديثًا من إليزابيث ومن بيت أهلها بالصور التي على جدرانه وبالتمثال الذي في مدخله). وأما الآن، فقد صارت حقيقة أنه واحد من «نبلاء» المقاطعة، النقطةَ الأكثر تعرضًا لهجومها عندما يكونان مختلفَيْن. إلا أن استياءها الحانق لا يلبث أن يختفي عندما يعود أوركوت إليها (عادة ما يعود بعد أقل من أربع وعشرين ساعة) وقد وضع - بحسب تعبير داون - «خطة ذكيّة جدًا»، سواء كانت تلك خطةً من أجل تحديد موقع الغسالة أو خطة في شأن النافذة السماوية في الحمام أو السلّم الصاعد إلى غرفة الضيوف فوق المرأب.

لقد جلب أوركوت معه، إضافة إلى النموذج الكبير (بمقياس واحد إلى ستة عشر) الموجود في سيارته، نماذج من مادة بلاستيكية شفافة جديدة لكي تفكّر داون في استخدامها لجدران الممر وسقفه. ذهب إلى المطبخ لكي يريها تلك المادة. ظل الاثنان هناك، المعماري الحاذق وعميلته المتطلِّبة، وراحا يناقشان الأمر كله من جديد بينما كانت داون تنظف الخس، وتقطّع الطماطم، وتقشّر دزينتين من أكواز الذرة التي أتى بها أوركوت من حديقة بيته. كانا يناقشان محاسن المادة الشفافة ومساوئها بالمقارنة مع الجدران والعوارض الخشبية التي كان أوركوت قد اقترحها أول الأمر حتى يكون الممر منسجمًا مع المظهر الخارجي للمرأب. وفي هذه الأثناء، في الشرفة الخلفية المطلّة على التلة، تلك الشرفة التي كانت تُرى منها (في زمن آخر، في أمسية مثل هذه الأمسية) أخيِلَةُ

بقرات داون على خلفية متوهجة من أشعة شمس آخر الصيف وقت غروبها، كان السويدي يشعل الجمر من أجل الشواء. كان معه هناك كل من والده وجيسي أوركوت التي صارت في الآونة الأخيرة لا تخرج مع زوجها لزيارة الناس إلا نادرًا، بحسب ما قالته داون، لأنها كانت تمر بما وصفه أوركوت ضَجِرًا عندما اتصل هاتفيًا ليسأل إن كان يستطيع اصطحاب زوجته معه إلى العشاء لديهم بأنه مرحلة «الهدوء الذي يسبق التحسّن السريع».

كان لأوركوت وزوجته ثلاثة أولاد وبنتان صاروا كلهم كبارًا الآن؛ وهم يعيشون ويعملون في نيويورك. خمسة أطفال كانت جيسي، بشهادة الجميع، أمًا متفانية من أجلهم. بدأت تشرب كثيرًا بعد ذهابهم. شربت في البدء لكي ترفع معنوياتها، ثم لكي تُغرِق بؤسها، وصارت في النهاية تشرب من أجل الشرب في حد ذاته. في الماضي، عندما

من شأن الاعتراف أن يريحه من ذلك العبء، فهل من حقّه أن يحرّر نفسه على حساب شيلا؟... على حساب شيلي؟... على حساب داون؟... لا، هناك شيء اسمه الاستقرار الأخلاقي! لا، لا يستطيع أن يكون مهتمًّا إلى هذا الحد بإراحة نفسه من غير أن تكون لديه شفقة تجاه الآخرين. ستكون حركة رخيصة، حركة غادرة، ومن المرجح ألا تجلب له راحة على المدى البعيد. على الرغم من هذا، وكلما فتح السويدي فمه حتى يتكلم، كان يشعر بحاجة شديدة إلى القول لهذا الرجل اللطيف «لقد كنت عشيق زوجتك»، ولأن يلتمس من شيلي سالزمان أن يعيد إليه، إعادة سحرية، ذلك التوازن الذي يظن أن داون تأمل في العثور عليه في تلك العيادة الطبية في جنيف. لكنه لم يقل لشيلي شيئًا غير أنه ضد إجراء عملية شد الوجه، وغيرَ تعداد الأسباب التي تدعوه إلى معارضتها؛ ثم فوجئ عندما سمع شيلي يقول له إن من المحتمل أن تكون داون قد بدأت تفكّر في أمر ذي احتمالات واعدة. قال له شيلي: «إذا كانت ترى أن من شأن هذا أن يساعدها في البدء من جديد، فلماذا لا تمنحها هذه الفرصة؟ لماذا لا تمنح هذه المرأة كلَّ فرصة ممكنة؟ ما من شيء خاطئ في هذا، يا سايمور. هذه حياة... إنها ليست حكمًا مدى الحياة؛ بل هي حياة. ما من شيء غير أخلاقي في إجراء عملية شدٍّ

للوجه. وما من شيء معيب في أن تكون المرأة راغبة في شد وجهها. هل قلت لي إنها عثرت الفكرة في مجلة فوغ؟ لا يجوز أن يكون هذا يجعلك معترضًا على الفكرة. هي لم تعثر إلا على ما كانت تبحث عنه. أنت لا تعرف شيئًا عن عدد النساء اللواتي يأتين إليّ بعد مرورهن بمعاناة مخيفة ويقلن إنهن راغبات في الحديث عن هذا الأمر أو ذاك، ثم يتبيّن أن هذا الأمر تحديدًا هو ما يفكرن فيه... جراحة تجميلية. هذا من غير مجلة فوغ. من الممكن أن تكون التبعات النفسية والانفعالية الناجمة عن حالة المعاناة أمرًا كبيرًا حقًا. ولا يمكن التقليل من مقدار الارتياح الناتج عن الإقدام على خطوات من هذا النوع. أتحدّث عن النساء اللواتي يصلن إلى الارتياح. لا أستطيع القول إنني أعرف كيف يحدث هذا. ولست أقول إنه يحدث دائمًا. لكني رأيته يحدث مرات كثيرة: نساء فقدن أزواجهن، أو أصابتهن أمراض خطيرة. لا يبدو عليك أنك تصدقّني!». لكن السويدي كان يعرف كيف يبدو: كان يبدو رجلًا مكتوبًا اسم «شيلا» على وجهه. قال شيلي: «أعرف أن هذا يبدو أشبه بطريقة مادّية تمامًا للتعامل مع شيء عاطفي انفعالي إلى حد كبير؛ لكنه يكون استراتيجية نجاة ممتازة بالنسبة إلى أشخاص كثيرين. وقد تكون داون من بين أولئك الأشخاص. لا أظنك تريد أن تكون متشدّدًا في هذا الأمر. إذا كانت لدى داون رغبة كبيرة في شد وجهها، وإذا كنت تريد مسايرتها في هذا... إذا كنت تريد مساندتها...».

في وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه، اتصل شيلي بالسويدي عندما كان في المصنع. لقد أجرى تحريات عن د. لابلانتي. «أنا واثق من أن لدينا هنا من لا يقلّون عنه مهارة. لكن، إذا كنتما تريدان الذهاب إلى سويسرا والابتعاد بعض الوقت حتى تتعافى داون هناك، فلم لا؟ إن د. لابلانتي طبيب ممتاز». أجابه السويدي وقد صار يكره نفسه أكثر من ذي قبل في ضوء كرم شيلي: «شكرًا يا شيلي. هذا لطف كبير منك». لكن هذا الشخص نفسه هو من أقدم وزوجته المتواطئة معه على توفير مخبأ لميري، لا من الـ«إف بي آي» وحدها، بل من أبيها وأمها. كانت هذه حقيقة عجيبة إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه أية حقيقة. أيةُ

أقنعة يضعها الناس؟ كنت أظنّهما في صفّي! لكن القناع هو الذي في صفّي فحسب... هكذا هو الأمر! وأنا أيضًا، وضعت القناع أربعة أشهر، وضعته تجاهه، وتجاه زوجتي. ثم لم أستطع احتماله. لقد ذهبت إليه لكي أقول له ذلك. ذهبت إليه لكي أخبره أنني خنته. لكني لم أفعل ذلك حتى لا أضاعف الخيانة. لكنه لم يعترف لي أبدًا بالخيانة القاسية التي ارتكبها تجاهي.

والآن، كان شيلي يقول للو ليفوف: «قبولي أو عدم قبولي أمرٌ لا علاقة له بذهاب أولئك المراهقين إلى تلك الأفلام أو بعدم ذهابهم إليها».

لكن والد السويدي كان مصرًّا: «لكنك طبيب. أنت شخص محترم، صاحب أخلاق. وأنت شخص مسؤول...».

قاطعته زوجته: «لو، لعلك يا عزيزي تحتكر الحديث كله».

أجابها: «دعيني أنهي كلامي من فضلك»... ثم سأل الجالسين جميعًا... «هل هذا صحيح؟ هل أحتكر الحديث وحدي؟».

قالت مارشا وهي تضع ذراعها على ظهره بحركة ودية: «بالتأكيد لا. يسرنا أن نسمع أوهامك».

أجابها: «لست أعرف معنى هذا».

«يعني هذا أن من المحتمل أن الظروف الاجتماعية في أميركا قد تغيّرت منذ تلك الأيام الذي كنت تأخذ فيها أولادك إلى المطعم الصيني، ومنذ تلك الأيام التي كان فيها آل هافرمان يقصّ القفّازات مرتديًا قميصًا وربطة عنق».

قالت لها داون: «حقًّا! هل تغيّرت؟ لم يقل لنا أحد هذا». لم تلبث أن نهضت وذهبت إلى المطبخ حتى تستعيد سيطرتها على نفسها. كانت في انتظار تلقّي تعليماتها في المطبخ فتاتان من المدرسة المحلّية الثانوية تأتيان لمساعدتها في تقديم الطعام وفي التنظيف كلما كان لديهم ضيوف على العشاء.

كانت مارشا جالسة بجانب لو ليفوف. وكانت جيسي أوركوت جالسة إلى جانبه من الجهة الأخرى. وكان لو قد أخذ كأس الويسكي الجديد الذي لا بد أن جيسي صبته لنفسها في المطبخ فوضعه بعيدًا عن متناولها بعد دقائق قليلة من تقديم حساء الخيار البارد. وعندما قامت جيسي بحركة لكي تنهض عن الطاولة، لم

يسمح لها حتى بالنهوض. قال لها: «اجلسي فقط. اجلسي وكلي. أنت لست في حاجة إلى ذلك. أنت في حاجة إلى طعام. تناولي طعامك». وكلما تململت في كرسيها، كان لو يضع يدًا حازمة فوق يديها لكي يذكّرها بأنها لن تذهب إلى أي مكان.

كانت اثنتا عشرة شمعة تشتعل في شمعدانين طويلين من السيراميك. وفي نظر السويدي الجالس بين أمّه وشيلا سالزمان، بدت عيون الجميع (على نحو خداع حقًّا، بما فيها عيون مارشا)، مشبعة بنعمة الفهم الروحاني مع شفافية وإشراق لطيفين... بدت عيونًا حيّة فيها تلك المعاني كلّها التي يتوق المرء إلى العثور عليها في أصدقائه. كانت شيلا، مثل زوجها باري، حاضرة في كل سنة في سهرة عيد العمل(60)، نتيجة المكانة التي صارت تحتلّها لدى أهله. وكلما تحدّث السويدي بالهاتف مع فلوريدا، لا يمكن أن تنتهي المحادثة من غير أن يسأله أبوه: «وكيف هي تلك اللطيفة شيلا؟ تلك المرأة الحلوة... كيف حالها؟». وكانت أمّه تقول: «إنها امرأة محترمة. امرأة نقيّة مهذّبة. أليست يهودية يا عزيزي؟ أبوك يقول إنها ليست يهوديّة. يصرّ على أنها غير يهوديّة». لم يكن السويدي قادرًا على فهم السبب الذي جعل هذا الخلاف بينهما يستمر تلك الفترة كلّها، لكن موضوع الأصل الديني لشيلا سالزمان ذات الشعر الأشقر أثبت كونه موضوعًا لا تستغني عنه حياة أبيه وأمه. وأما في ما يتعلّق بداون التي ظلّت عشرات السنين تحاول أن تكون متسامحة إزاء نقائص والدَي السويدي مثلما كان والدها متسامحًا إزاء نقائص أمها، فقد كان الأمر الذي لا سبيل إلى تفسيره، الأمر الذي شغل بالهما أكثر من أي أمر آخر وأغضبهما أكثر من أي أمر آخر (خاصّة وأنّ داون كانت تعرف ذلك)، هو أن ابنة داون المراهقة وجدت في شيلا شيئًا لم تجده لدى أمها فصارت اختصاصيةُ معالجة النطق موثوقة لدى ميري التي لم تعد تثق بداون. كانت داون تسأل السويدي: «أليس في العالم يهود شقر غيرك؟». فيجيبها السويدي موضحًا: «الأمر لا علاقة له بمظهرها. إنه متعلّق بميري». «وما علاقة كونها يهودية بميري؟». «لست أدري. لقد كانت اختصاصية معالجة النطق التي تهتم بها. إن أبي وأمي يحترمانها كثيرًا نتيجة

كل ما فعلته من أجل ميري». «لكنّها لم تكن أمًّا لتلك الطفلة... أم لعلّها هي أمّها؟». يجيبها السويدي بهدوء: «إنهما يعرفان هذا، يا عزيزتي. لكن معالجة النطق جعلتهما ينظران إليها كما لو أنها ساحرة».

وهو أيضًا كان يراها كذلك... ليس كثيرًا عندما كانت تعالج ميري، فقد كان يحس بأن شكلها يحرّك خيالاته الجنسية بطريقة عجيبة. لكن الأمر لم يبق هكذا بعد أن اختفت ميري واختطف الحزن زوجته.

وجد حاجة غامضة قد انفتحت كأنها هوة هائلة في نفسه بعد أن اختل توازنه الدقيق اختلالًا عنيفًا. كانت حاجة لا قرار لها فاستسلم لحل كان غريبًا عنه كل الغرابة فلم يدرك أنه غير معقول. تلك المرأة الهادئة الذكية التي تمكّنت في ما مضى من جعل ميري أقل غربة عن نفسها من خلال تعليمها كيف تتغلّب على خوفها من الكلام، وكيف تسيطر على جهازها الصوتي مما أدى - يا للمفارقة - إلى زيادة رغبة طفلته في الخروج عن كل سيطرة... كانت تلك المرأة، شخصًا وجد نفسه راغبًا في دمجه بنفسه. الرجل الذي ظلّ ملتزمًا بزواجه التزامًا تامًّا، قرابة عشرين سنة، صار الآن مصمِّمًا على أن يقع في الحب على نحو تعبُّدي عبثي. مرت ثلاثة شهور قبل أن يتمكّن من فهم أن هذا ليس بالأمر الذي يمكّنه من الالتفاف حول أي شيء. كانت شيلا هي من أخبره بهذا. لم تكن عشيقة رومانسية، بل عشيقة صريحة مباشرة. أخبرته - بشكل منطقي - بمعنى هيامه بها. وقالت له إنه لا يكون هو نفسه معها بأكثر مما تكون داون هي داون نفسها في عيادة الطبيب النفسي. شرحت له أنه راغب في تدمير كل شيء. لكنه كان في حالة جعلته يقول لها إنها تستطيع تعلم الإسبانية إذا هربا معًا إلى بونسي، وتستطيع تعليم طرائق معالجة النطق في الجامعة هناك. قال لها إنه قادر على إدارة أعماله من مصنعه في بونسي، وإنهما يستطيعان العيش في مزرعة حديثة في التلال، بين النباتات، في منطقة مشرفة على البحر الكاريبي...

كان ما لم تخبره به هو أن ميري أقامت فترة في بيتها بعد التفجير... أن ميري اختبأت في بيتها. أخبرته بكل شيء عدا ذلك الشيء. توقّفت صراحتها عند تلك النقطة التي كان ينبغي أن تبدأ منها.

هل كانت عقول الجميع قاصرة كعقله؟ وهل كان الشخص الوحيد غير القادر على رؤية ما يمكن أن يفعله الناس؟ وهل يصادف الناس مزالق كثيرة مثلما يحدث له، دخولًا وخروجًا، دخولًا وخروجًا، مئة مرة في اليوم، من كونه ذكيًا، إلى كونه ذكيًا إلى حد مقبول، إلى كونه غبيًا مثل أي شخص آخر، إلى كونه أغبى من أي شخص عاش على وجه الأرض؟ هل كان الغباء هو ما يشوّهه... ابنٌ غبي لأبٍ غبي... أم إن الحياة كانت خدعة كبيرة يشارك فيها جميع الناس، إلا هو؟

لعلّه وصف لها ذات مرة هذا الإحساس بالضعف وبعدم الأهلية. كان قادرًا على الحديث مع شيلا، قادرًا على الحديث معها عن شكوكه وعن حيرته... كان ما لديها من صفاء وهدوء يتيح له هذا... تلك المرأة الساحرة التي منحت ميري الفرصة الكبرى التي رمتها ميري بعيدًا، المرأة التي زرعت فيها «إحساسًا عائمًا رائعًا»، كما كانت ميري تقول. لقد حرّرتها من نصف عناء تأتأتها، على الأقل، تلك المرأة الصافية الشفّافة التي كان اختصاصها أن تمنح من يعانون فرصة ثانية، العشيقة التي كانت تعرف كل شيء، بما في ذلك كيف تؤوي طفلةً قاتلة.

لقد كانت ميري مع شيلا؛ لكن شيلا لم تقل له شيئًا.

هل كان كل ما كان بينهما من ثقة، ومثله كل ما عرفه من سعادة طيلة حياته (ومثله قتل فرد كونلون... مثله مثل كل شيء)، مصادفة فحسب؟

لقد كانت مع ميري، ولم تقل له شيئًا.

ولم تقل الآن شيئًا. كانت الحماسة التي يتحدث بها الآخرون تبدو، تحت الحدّة العجيبة في نظرتها، كما لو أنها حالة مرَضية مدهشة لها. لماذا يبوح أي شخص بذلك الأمر؟ هي نفسها لم تقل شيئًا طيلة الأمسية، لم تقل شيئًا عن ليندا لوفليس، ولا عن ريتشارد نيكسون، ولا عن هالدرمان، ولا عن جون إيرلخمان... كانت نقطة تفوّقها عن الناس الآخرين هي أن رأسها غير ممتلئة بما يملأ رؤوس الآخرين جميعًا. هذا الأسلوب الذي لديها، أسلوب العزلة والانتظار خلف نفسها، هو ما كان السويدي قد اعتبره ذات مرة علامة على تفوّقها. لكنه كان يقول في

نفسه الآن «العاهرة الصقيعيّة. لماذا؟». لقد قالت له شيلا ذات مرة: «إن التأثير الذي تسمح بأن يكون للآخرين عليك تأثير مطلق. لا شيء يأسرك تمامًا أكثر من حاجات شخص آخر». وقد قال لها: «أظنّك تصفين شيلا سالزمان».
وكعادته دائمًا، كان مخطئًا.
كان يظنّها عالمة بكل شيء، لكن كل شيء فيها كان باردًا.
الآن، كان انعدام ثقة مسعور يدور في نفسه مثل زوبعة. هذا الاستئصال لكل طمأنينة مؤكّدة، لكل طمأنينة على الإطلاق، جعله يحسّ كما لو أنه انتقل في يوم واحد من سن الخامسة إلى سن المئة. لو كان قطيع داون راقدًا يرتاح في المرعى خلف طاولة العشاء تلك، لمنحه ذلك راحة... ولقدّم له العون في تلك اللحظة تمامًا... هكذا كان يقول في نفسه... القطيع، وذلك الثور الكبير الذي يحميه. لو أن داون ظلّت محتفظة بالثور، بالثور فقط... مرّت به لحظة ارتياح بعيدة عن الواقع قبل أن يدرك أن من الطبيعي أن يريحه وجود الثور في ذلك المرعى المظلم، بين البقرات، لأن ميري ستكون بين الضيوف أيضًا... ستكون هنا، ميري مرتدية بيجاماتها بكل ما عليها من أشكال الحيوانات، مستندة إلى ظهر كرسي أبيها، تهمس في أذن أبيها... تقول له «السيدة أوركوت تشرب الويسكي. والسيدة أومانوف لها رائحة غريبة. ود. سالزمان أصلع». شقاوة وذكاء لا ضرر منهما على الإطلاق... في تلك الأيام، عندما كانت عاقلة، طفلة، ضمن حدودها الطبيعية.
سمع نفسه يقول: «أبي، خذ شريحة لحم أخرى». كان يعرف أن قوله هذا ليس إلا جهدًا يائسًا - جهد ابن طيب - لكي يجعل أباه الذي نسي نفسه يهدأ بعض الشيء، أو يصير أقل إصرارًا على إزعاج نفسه بنقائص أبناء الجنس البشري من غير اليهود.
«سأقول لك من أجل من سآخذ شريحة لحم... من أجل هذه السيدة الشابة».
تناول شريحة لحم مشوية من طبق كان في يد إحدى الفتاتين اللتين تقدمان الطعام. وضع الشريحة في طبق جيسي. لقد صار يعتبر نفسه مسؤولًا مسؤولية كاملة عن مشروع العناية بجيسي.

قال لها: «والآن، أمسكي بشوكتك وسكينك وابدأي الأكل. إن تناول شيء من اللحم الأحمر مفيد لك. اجلسي جيدًا». وكأن جيسي أوركوت كانت مقتنعة بأنه يمكن أن يلجأ إلى العنف إذا لم تنفذ ما قاله، فقد صدرت عنها غمغمة ثملة فقالت: «كنت سأفعل هذا». وبدأت تحاول تقطيع اللحم في صحنها بحركات خرقاء خشي معها السويدي أن يبدأ أبوه تقطيع اللحم بنفسه من أجلها. تلك الطاقة التي لديه، تلك الطاقة الفظّة غير القادرة، مهما حاولت، على تكوين هذا العالم المضطرب.

بعد أن أنجز مهمّة جعل جيسي تغذّي نفسها، صار لو ليفوف مستعدًا من جديد للحديث عن الجنس الفموي... «لكن هذه مسألة خطيرة، مسألة الأطفال! إن لم يكن هذا أمرًا خطيرًا، فما الذي يمكن أن يكون خطيرًا غيره؟».

قال له السويدي: «بابا، لم يقل شيلي إن الأمر غير خطير. إنه مُقِرٌّ بخطورته. لكن ما يقوله هو أنك تبين خطورة الأمر للمراهق، لكنك لا تستطيع أخذ هؤلاء الأطفال وحبسهم في غرفهم ورمي المفتاح بعيدًا». كانت ابنته قاتلة مجنونة قابعةً على أرض غرفة قذرة في نيوارك. وكان لزوجته عشيق يمارس الجنس معها وهي منحنية على المجلى في المطبخ في بيت أسرتها. وكانت له عشيقة سابقة سبّبت، عن علم، كارثة لبيته. لكنه كان جالسًا هناك يحاول استرضاء والده وتهدئته بكلام من قبيل: من ناحية، ومن ناحية أخرى.

قال شيلي للعجوز: «سيدهشك كم يتعلّم أطفال هذه الأيام أشياء كثيرة».

«لكن، لا يجوز أن يتعلّموا تتفيه الأشياء! أرى أن من الواجب حبسهم في غرفهم إذا تعلموا هذه الأمور. أتذكّر عندما كان الأطفال يجلسون في بيوتهم وينجزون واجباتهم المدرسية ولا يخرجون لمشاهدة فيلم مثل هذا. إننا نتحدّث عن أخلاق بلد بأسره. حسنًا، أليس هذا هو الأمر؟ هل أنا غبيّ؟ هذه إساءة للّياقة وللناس المهذبين».

سألته مارشا: «ما هو الأمر الذي يجعل اللياقة مهمة إلى هذا الحد؟».

فاجأه السؤال كثيرًا وتركه يلقي نظرة محمومة من حوله بحثًا عمن قد يكون لديه رأي سديد قادر على إسكات هذه المرأة.

اتضح أنه وجد ضالته في صديق العائلة الكبير، أوركوت. هبَّ بيل أوركوت لمساعدة لو ليفوف فقال: «وما الشيء الخاطئ في اللياقة؟». طرح هذا السؤال وهو يبتسم لمارشا ابتسامة عريضة.

لم يستطع السويدي أن ينظر إليه. فوق تلك الأشياء كلّها التي ما كان قادرًا على التفكير فيها، كان هناك شخصان اثنان - شيلا وأوركوت - لا يستطيع النظر إليهما. هل تعتبر داون بيل أوركوت وسيمًا؟ لم يكن يراه وسيمًا. وجه مدور، وأنف مثل خطم حيوان، وشفة سفلى متجعّدة... ابن حرام خنزيريّ المظهر. لا بد أن هناك شيئًا آخر دفع بها إلى تلك النوبة من الجنون فوق المجلى. ما هو؟ أهو كونه لا يجد صعوبة في أن يبدو واثقًا؟ أهذا ما دفعها؟ ارتياح بيل أوركوت لكونه بيل أوركوت، ورضاه عن كونه بيل أوركوت؟ هل كان ذلك لأنه لا يمكن أن يحلم بأن يبدي استخفافًا بك حتى إذا كنتما عارفين، أنت وهو، أنك أقل من مستواه؟ أتكون ملاءمته هي ما جعلها تنساق إليه، تلك الملاءمة التي لا شائبة فيها، وكيف يلعب دور القيّم على ماضي مقاطعة موريس بشكل ملائم؟ أيكون الأمر عائدًا إلى ذلك الانطباع الذي يعطيه، الانطباع بأنه ليس مضطرًا إلى القلق على شيء أو إلى الاهتمام بأحد، أو بأنه لا يحار كيف يتصرّف حتى عندما تكون زوجته سكيرة لا رجاء منها؟ أيكون السبب هو أنه دخل العالم موعودًا بأشياء لا يمكن حتى لواحد من أبرز رياضيي ويكاهيك أن يعتبر نفسه موعودًا بها، أشياء لا يعتبر أحدٌ منا نفسه موعودًا بها، أشياء قد تتمكّن بقيتنا من الحصول عليها بجهد كبير جدًا لكنها تظلّ تحس بأنها غير مستحقّة إياها؟ أيكون هذا ما جعلها تنحني فوق المجلى... أيكون هو إحساسه الفطري بالاستحقاق؟ أم لعل الأمر عائد إلى اهتمامه المشهود بحماية البيئة؟ أم هو فنّه العظيم؟ أم هو - ببساطة - قضيبه؟ أهذا هو الأمر يا عزيزتي داون؟ أريد إجابة. أريد الإجابة الليلة. أهو قضيبه فحسب؟

ما كان السويدي قادرًا على منع نفسه من تخيّل تفاصيل مضاجعة أوركوت زوجتَه بأكثر مما كان قادرًا على منع نفسه من تخيل تفاصيل مضاجعة المغتصبين ابنتَه. لن يفارقه التخيّل هذه الليلة.

كانت مارشا تقول لأوركوت مبتسمة له ابتسامة ماكرة: «اللياقة؟... هناك مبالغة كبيرة في تقييمها، ألا ترى هذا، إغراءات اللياقة والتمدّن والتقاليد؟ لا أظن اللياقة استجابةً غنية للحياة».

سألها أوركوت: «إذًا، ماذا تقترحين من أجل 'الغنى'؟. هل نسلك طريق الخطيئة؟». كان المعماري الأرستقراطي مستمتعًا بالحديث مع أستاذة الأدب ومستمتعًا بالهيئة المتوعِّدة التي تحاول اتخاذها لإخافة خصومها. كان مستمتعًا. مستمتعًا! لكن السويدي لم يكن يستطيع تحويل جلسة العشاء هذه إلى معركة من أجل زوجته. لقد بلغت الأمور حدًّا كبيرًا من السوء، حتى من غير الاصطدام مع أوركوت ومع والديه. كل ما عليه فعله هو أن يمتنع عن الإصغاء لكلامه. لكن كلما تكلّم أوركوت، كل كلمة يقولها أوركوت، كانت تجعله يمتلئ غيظًا وكرهًا وأفكارًا شريرة. وعندما لم يكن أوركوت يتكلّم، كان السويدي يواظب النظر إلى الطاولة محاولًا التوصّل إلى فهم ما استطاع إثارة زوجته في هذا الوجه.

كانت مارشا تقول: «حسنًا، ليست المعرفة ممكنة من غير خطايا».

صاح لو ليفوف: «يا إلهي، هذا ما لم أسمع به قبل الآن. اعذريني يا أستاذة... بحق الجحيم، من أين أتيت بهذه الفكرة؟».

قالت مارشا متلذّذة: «من الكتاب المقدس قبل أي مصدر آخر، من التوراة».

«من التوراة! أية توراة؟».

«تلك التي تبدأ بقصة آدم وحواء. أليس هذا ما يخبروننا عنه في سفر التكوين؟ أليس هذا ما تقوله لنا قصّة جنّة عدن؟».

«ماذا؟ تقول لنا ماذا؟».

«لا معرفة من غير خطيئة».

أجابها: «حسنًا، ليس هذا ما علّموني إياه عن جنّة عدن، لكني لم أتجاوز الصف الثامن في المدرسة».

«فماذا علّموك يا لو؟».

«عندما يقول لك الرب الذي في الأعالي إن عليكِ أن تنتهي عن فعل شيء ما، فإن عليك أن تنتهي. هذا ما تعلّمته. وإذا فعلتِه، فسوف تتلقّين جزاءك. افعليه

وسوف تعانين جزاء فعلك طيلة ما بقي من حياتك».
قالت مارشا: «أطع الإله الرحيم الذي في السماء فتختفي الأشياء الفظيعة كلها».
أجابها، وإن من غير اقتناع بعد أن أدرك أنها تسخر منه: «حسنًا... نعم. انظري، لقد ابتعدنا عن الموضوع كثيرًا... نحن هنا لا نتحدث عن التوراة. انسي أمر التوارة. ليس هذا بالمكان المناسب للتحدّث عن التوراة. نحن نتحدّث هنا عن فيلم تقف فيه امرأة راشدة - كما قالوا - أمام الكاميرا، ثم تفعل كل الأشياء المشينة التي تخطر في ذهنها، تفعلها علنًا لكي يراها ملايين وملايين من البشر، من الأطفال... لكي يراها الجميع. هذا ما نتحدّث عنه».
سألته مارشا: «أشياء مشينة لمن؟».
«ما هذا السؤال، بحق الرب... مشينة لها. مشينة لها في المقام الأول. إنها تجعل نفسها من حثالة الأرض. لا أظنك تقولين لي إنك مؤيدة لذلك الفعل».
«أوه، لكنها لم تجعل نفسها من حثالة الأرض، يا لو».
قال أوركوت ضاحكًا: «على العكس تمامًا؛ إنها تأكل من شجرة المعرفة».
قالت مارشا: «وتجعل من نفسها ممثلة نجمة. تضع نفسها في أعلى الأعالي. أظن أن الآنسة لوفليس تعيش الآن أجمل أيامها».
«لقد عاش هتلر أجمل أيامه وهو يضع اليهود في الأفران. لكن هذا لا يجعل الأمر صائبًا. هذه امرأة تسمّم العقول الشابة، تسمّم البلاد. وهي تجعل من نفسها أيضًا من حثالة الأرض».
لا يظل شيء في لو ليفوف ساكنًا عندما يجادل أحدًا! بدا الأمر كما لو أن مراقبة هذه الظاهرة، ظاهرة رجل مسن متشبّث برأيه وبالصورة التي لديه عن العالم، كانت هي كل ما يدفع مارشا إلى مواصلة حديثها معه. إلقاء الطّعم، وترك الفريسة تلتقطه، وجعل دمها يسيل. تسليتُها المفضلة. تمنّى السويدي أن يقتلها... اتركيه وشأنه! سوف يسكت إذا تركتِه وشأنه! لا معنى لجعله يقول المزيد والمزيد والمزيد... كفي عن هذا!
لكن هذه المشكلة التي كان قد تعلّم منذ زمن طويل أن يلتفَّ من حولها من خلال

القبول بكبت شخصيته، جزئيًا، على نحو يبدو معه كأنه يخضعُها لأبيه، في حين يناور من حول لو ليفوف حيث يستطيع المناورة... مشكلة الأب هذه، مشكلة البقاء على حب الابن لأبيه في مواجهة هجوم ذلك الأب الذي لا يلين... لم تكن بالمشكلة التي اقتضت عشرات السنين من مارشا لكي تجعلها جزءًا من حياتها. كان جيري يكتفي بالقول لأبيه أن يطبق فمه، فتكاد داون تجنّ غضبًا منه. وأما سيلفيا ليفوف فكانت تتحمّله نافدة الصبر، وتكون مقاومتها الناجحة الوحيدة له هي الابتعاد عنه والبقاء في عزلة... ورؤية المزيد من نفسها يتبخّر سنة بعد أخرى. لكن مارشا تعاملت معه كما هو، كأحمق لا يزال مؤمنًا بقدرة سخطه على تحويل مفاسد الحاضر إلى مفاسد من الماضي.

سألته مارشا: «إذًا، ماذا تريدها أن تكون بدلًا من ذلك، يا لو؟ أتريدها نادلة تقدّم الكوكتيل؟».

«لم لا؟ إنه عمل».

أجابته مارشا: «ليس عملًا ذا أهمية. لن يهتم به أي واحد من الجالسين هنا».

قال لو ليفوف: «أوه، حقًّا! فهل يفضّلون ما تفعله في الفيلم؟».

قالت مارشا: «لست أدري. سيكون علينا أن نستطلع آراء الفتيات...»، وجّه السؤال إلى شيلا: «ماذا تفضّلين؟ نادلة كوكتيل أم نجمة أفلام إباحية؟».

لكن شيلا ما كانت لتشارك مارشا سخريتها. نظرت إليها بعينين تبدوان كما لو أنهما تنظران إلى ما يتجاوز الأمر كلّه، وتصلان بعده، إلى أنانيتها وغرورها. أعطتها إجابة لا لبس فيها. تذكّر السويدي أنه سأل شيلا بعد أول لقاء لها مع مارشا وباري أومانوف هنا في بيته في أولد ريمروك: «كيف يستطيع باري أن يحبَّ هذه المرأة». وبدلًا من أن تقدّم الإجابة قدّمتها داون: «لأنه أعجوبة في العجز». أجابته شيلا: «في نهاية حفلة من حفلات العشاء، أظن أن كل شخص يتساءل هكذا عن شخص ما. وفي بعض الأحيان، يتساءل الجميع عن الجميع». سألها: «هل تفعلين هذا؟»، فأجابته: «إنني أفكر هكذا دائمًا تجاه أي زوجين».

المرأة الحكيمة. لكن هذه المرأة الحكيمة قد آوت قاتلة!

سألت مارشا: «وماذا عنك يا داون؟ نادلة كوكتيل أم نجمة أفلام إباحية؟».

ابتسمت داون ابتسامة حلوة فاتخذت أفضل ما لديها من مظهر طالبة المدرسة الكاثوليكية - الفتاة التي تجعل الراهبات سعيدات بأن تجلسَ في مقعدها من غير أن تحني ظهرها. قالت لها: «كُفّي عن هذا، يا مارشا».

سألهم لو ليفوف: «ما هذا الحديث؟».

أجابته سيلفيا ليفوف: «إنه حديث من الأحاديث التي تدور على العشاء».

سألها: «وما الذي يجعلك مسرورة هكذا؟».

«أنا لست مسرورة... إنني أستمع إليهم».

قال بيل أوركوت: «لم يعرف أحد رأيك يا مارشا. أي دور تفضلين... مع افتراض أن لك أن تختاري؟».

أطلقت ضحكة جذلة بعد سماعها هذا التعريض المسيء: «أوه، إن لديهم أمهات بدينات في تلك الأفلام الوسخة. وهن يظهرن أيضًا في أحلام الرجال. لا يظهرن من أجل التسلية الفكاهية فحسب. إنكم تبالغون في القسوة على ليندا، أيها الناس. إذا خلعت فتاة ملابسها في أتلانتيك سيتي من أجل الحصول على منحة دراسية، فأنتم تجعلون منها إلهة أميركية، أما إذا خلعت ملابسها في مشهد جنسي سريع، فأنتم تقولون إنها تفعل هذا لكي تحصل على مال قذر وتعتبرونها عاهرة؟ لماذا تفعلون هذا؟ لماذا؟ لا بأس... لا أحد يعرف. صدقوني، يا ناس، أحب هذه الكلمة ‘منحة دراسية’. تأتي عاهرة إلى غرفة فندق. يسألها الرجل عن المبلغ الذي تتقاضاه، فتقول له ‘حسنًا، إذا كنت تريده آمنًا، فإنني أتقاضى منحة دراسية قدرها ثلاثمئة دولار. وإذا كنت تريده غير ذلك فإنني أتقاضى منحة دراسية قدرها خمسمئة دولار. وإذ كنت تريد أكثر من هذا...’!».

قالت داون: «مارشا، لن تستطيعي استفزازي الليلة، مهما تحاولين».

«ألا أستطيع؟».

«ليس في هذه الليلة».

كانت في وسط الطاولة تشكيلة جميلة من الزهور «من حديقة داون»، كما أخبرهم لو ليفوف معتزًا عندما جلسوا إلى الطاولة لتناول الطعام. وكانت على الطاولة أطباق كبيرة من شرائح الطماطم الكبيرة المتبّلة بالزيت والخل، ومن

حولها شرائح البصل الأحمر الآتي طازجًا من الحديقة. كان هناك أيضًا دلوان خشبيان (دلوا علف قديمان اشتراهما السويدي وزوجته بدولار واحد للدلو من متجر في بلدة كلينتون) بُطِّن كل منهما بمنديل أحمر وامتلأ بأكواز الذرة التي ساعد أوركوت داون في تقشيرها. وفي سلتي قشّ عند طرفي الطاولة، استقرت أرغفة خبز فرنسية طازجة - خبز الباغيت الذي يبيعونه في متجر ماكفرسون - خبز أعيد تسخينه في الفرن فصار تقسيمه باليدين ممتعًا جدًا. نبيذ بورغوندي قوي من النوع الجيّد، وبضع زجاجات من أفضل ما لدى السويدي من نبيذ بومارد الفرنسي، أربع منها مفتوحة على الطاولة. لقد خزّن هذا النبيذ في قبو في سنة 1973، أي منذ خمس سنوات، بحسب سجل النبيذ الذي لديه... أي إنه كان قد أمضى شهرًا كاملًا في ذلك القبو حتى ذلك اليوم الذي قتلت فيه ميري د. كونلون. نعم، لقد رأى في وقت سابق من هذا المساء مكتوبًا بخط يده في الدفتر ذي السلك الذي يستخدمه لتسجيل كل دفعة نبيذ يشتريها «1 - 2 - 1968». لقد كتب في الدفتر هذا التاريخ من غير أن تكون لديه أية فكرة عن أن ابنته ستذهب في يوم «2 - 3 - 1968» وتفعل ما يثير غضب أميركا كلّها، ربما باستثناء الأستاذة مارشا أومانوف.

كانت فتاتا المدرسة الثانوية اللتان تقومان بالخدمة تأتيان من المطبخ كل بضع دقائق، فتقدِّمان - صامتتين - دفعة من شرائح اللحم التي شواها السويدي مصفوفةً على أطباق خزفية. وكانت مجموعة السويدي من سكاكين تقطيع اللحم من ماركة هوفريتز - أفضل ستانلس ستيل ألماني -. لقد ذهب إلى نيويورك لشراء هذه المجموعة، ومعها لوح التقطيع الضخم، وذلك بمناسبة أول عيد شكر يقيمه في بيتهم في أولد ريمروك. كان مهتمًا بهذه الأشياء كلها، في وقت من الأوقات. وكان يحب أن يمر بنصل السكين على المسن المخروطي الطويل قبل أن يبدأ بتقطيع الديك الرومي. يحب صوت نصل السكين على المسن. هذا السجلُّ الحزين للوفرة المنزلية في بيته. أراد أن تحظى أسرته بأفضل الأشياء. أراد أن تحظى أسرته بكل شيء.

قال لو ليفوف: «من فضلكم، هل لي بإجابة في ما يخص أثر هذا الشيء على

الأطفال؟ لقد ابتعدتم كلّكم كثيرًا عن الموضوع... ابتعدتم كثيرًا، كثيرًا جدًا. ألم نرَ ما يكفي من المآسي لدى الأطفال؟ أفلام إباحية. مخدّرات. عنف».

هبت مارشا إلى مساعدته: «طلاق».

قال لها: «يا أستاذة، لا تجعليني أحدّثك عن الطلاق»... ثم سألها: «هل تفهمين اللغة الفرنسية؟».

أجابته ضاحكة: «أفهمها إن كان عليَّ أن أفهمها».

«حسنًا، لدي ابن مقيم في فلوريدا. إنه شقيق سايمور. وهو اختصاصي في الطلاق. صحيح أن اختصاصه هو طب القلب، لكن لا. إن اختصاصه الطلاق. ظننت أنني أرسلته لدراسة الطب. وظننت أن الفواتير كانت تأتيني من كلية الطب. لكن لا، كانت كلية الطلاق. هذا ما حصل على شهادة جامعية فيه. الطلاق! هل هناك شيء أكثر فظاعة من شبح الطلاق؟ لا أظن هذا. ثم، أين ينتهي الأمر؟ ما هو الحد؟ أنتم لم تكبروا في عالم من هذا النوع. ولم أكبر فيه أنا. لقد كبرنا في زمن مختلف، في عالم مختلف حيث كان الإحساس بالجماعة وبالأسرة وبالمنزل وبالأبوين وبالعمل، كان إحساسًا مختلفًا. التغيّر أكبر مما يستطيع العقل إدراكه. أفكر أحيانًا في أن ما تغير بعد سنة 1945 يفوق ما تغير خلال التاريخ الذي سبق ذلك كله. لست أدري كيف ستكون نهاية هذه الأشياء. انعدام الإحساس بالأشخاص الذي يراه المرء في ذلك الفيلم، وانعدام الإحساس بالأماكن مثلما يحدث في نيوارك... فكيف حدث هذا؟ لست مضطرًا إلى تقديس عائلتك، ولست مضطرًا إلى تقديس بلادك، ولست مضطرًا إلى تقديس المكان الذي تعيش فيه، لكن لا بد لك من معرفة أن لديك هذه الأشياء كلها وأنك جزءٌ منها. لأنك تبقى، إذا لم تفعل ذلك، واقفًا هناك وحدك، من غير أحد. أكون حزينًا عليك. أنا أحزن عليك، فهل أنا محقّ في هذا يا سيد أوركوت، أم مخطئ هنا؟».

أجابه أوركوت: «هل تسألني إن كنت محقًّا أو غير محق في تساؤلك عن الحد الذي لا يجوز أن تتجاوزه الأمور؟».

قال لو ليفوف: «صحيح، هذا هو سؤالي». لاحظ السويدي - ولم يكن يلاحظ هذا للمرة الأولى - أن أباه قد تحدّث عن الأطفال وعن العنف من غير أي انتباه

إلى أن لهذا الموضوع تقاطعًا مع حياة عائلته المباشرة. لقد جرى استخدام ميري من أجل الغايات الشريرة لأشخاص آخرين. تلك هي القصة التي كان من الضروري جدًا أن يظلّوا منتبهين إليها. كان مواظبًا على المراقبة المباشرة لكل واحد منهم حتى يكون واثقًا من أن أحدًا لا يمكن أن يحيد عن إيمانه بتلك القصة، ولو لحظة واحدة. لن يساوِرَ أحدًا في هذه الأسرة شكٌّ في براءة ميري التامة... ليس وهو على قيد الحياة.

من بين أشياء كثيرة التي كان السويدي غير قادر على التفكير فيها من داخل الصندوق الذي وجد نفسه فيه هو ما يمكن أن يحدث لوالده عندما يعرف أن الحصيلة قد بلغت أربعة قتلى.

كان بيل أوركوت يجيب لو ليفوف: «أنت محق، أنت محق في تساؤلك عن الحد الذي يبلغه الأمر. وأظن أن الموجودين هنا يتساءلون عن هذا الحد. أظن أن هذا السؤال عن الحد يشغل بال كل واحد منهم عندما يقرأ الجريدة... باستثناء أستاذة الخطيئة! لكننا جميعًا مكبوتون بفعل التقاليد - لسنا خارجين عظماء على القانون من أمثال ويليام بوروز، والماركيز دو ساد، والقديس جان جينيه(61). المدرسة الأدبية 'فليفعل كل إنسان ما يشاء'. والمدرسة اللامعة، مدرسة 'الحضارة اضطهاد، والأخلاق شيء أكثر سوءًا'!». لم يحمرَّ وجهه عندما نطق كلمة «أخلاق» ولم يرفّ له جفن. ذكر «الخطيئة» كما لو أنه غريب عنها، كما لو أنه - دونًا عن بقية الرجال هنا - ويليام الثالث، آخر فرد في تلك السلسلة الطويلة من آل أوركوت الذين قيل عنهم بعد أن رقدوا في قبورهم إنهم رجال فاضلين... كما لو أنه لم يرتكب أكبر خطيئة عندما انتهك وحدة أسرة كانت نصف مدمّرة.

إن لزوجته عشيقًا. ومن أجل عشيقها، تحملتْ مشقات عملية شد الوجه... حتى تستميله وتفوز به. نعم، صار الآن يفهم ما جعلها تكتب رسالة الشكر الحماسية التي وجّهتها إلى جراح التجميل لأنه أنفق «خمس ساعات من وقته» من أجل جمالها. كانت تشكره كما لو أن السويدي لم يدفع اثني عشر ألف دولار لقاء تلك الساعات الخمس، وفوقها خمسة آلاف من أجل جناح المستشفى الذي أقاما فيه

ليلتين اثنتين. «شيء رائع جدًا، يا عزيزي الدكتور، أحس كما لو أنني وُهبت حياة جديدة. حياة جديدة من الداخل ومن الخارج». جلس معها طيلة الليل في جنيف، جلس ممسكًا بيدها حتى تجاوزت الألم والغثيان... وكل ذلك من أجل شخص آخر. كانت تبني البيت الجديد من أجل الشخص
الآخر. كان كل منهما عاكفًا على تصميم ذلك البيت الجديد من أجل الآخر.

لو فرَّ إلى بونسي ليعيش هناك مع شيلا بعد اختفاء ميري - لا، لقد جعلته شيلا يعود إلى رشده ويستعيد توازنه ويرجع إلى زوجته، إلى ما بقي سليمًا من حياته، إلى الزوجة التي عرفت عشيقتُه (حتى عشيقته عرفت) أنه لا يستطيع أن يجرحها، ناهيك عن أن يهجرها، في أزمة كهذه. لكنّ هذين الاثنين كانا موشكين على إنجاز الأمر. أدرك هذا لحظة رآهما في المطبخ. أدرك اتفاقهما. سيتخلّص أوركوت من جيسي، وستتخلص زوجته منه، فيصير البيت لهما. تظن أن كارثتنا قد مضت وانتهت، وأنها سوف تدفن الماضي وتبدأ من جديد: وجه جديد، وبيت جديد، وزوج جديد، وكل شيء جديد... «لن تستطيعي استفزازي هذه الليلة، مهما حاولتِ! ليس في هذه الليلة!».
إنهما الخارجان على القانون. لقد قالت داون لزوجها إن أوركوت يعيش خارج كل ما كانته عائلته في ما مضى... حسنًا، وهي أيضًا تعيش خارج حياتها التي صارت لها منذ زمن غير بعيد... داون وأوركوت: اللصان السالبان.
الخارجون على القانون موجودون في كل مكان. إنهم الآن داخل الأسوار.

(56)Deep Throat: هو الاسم المستعار للمخبر السري Mark Felt الذي كان يشغل منصب مدير مساعد في مكتب التحقيقات الفيدرالية وهو من سرَّب إلى مراسلَي الواشنطون بوست بوب ودوارد وكارل بيرنستين، المعلومات التي أدت إلى كشف تفاصيل فضيحة ووترغيت.
(57) مكغوفرنايتس McGovernites: كان عضوًا في مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي.

(58) جاكلين كندي: زوجة الرئيس الأميركي جون كندي.
(59) يقصد هنا تشبيه نكسون بالنازيين (المعادين لليهود) من خلال استخدام لقب «فون» الألماني واعتبار مؤيدي نكسون أشبه بـ«قوات العاصفة» النازية.
(60) عيد العمل Labor Day: يوم عطلة رسمية في الولايات المتحدة يصادف الاثنين الأول من شهر أيلول.
(61) جان جينيه Jean Genet: روائي فرنسي. - ويليام بوروز William Burroughs: كاتب أميركي يعتبر من أهم كتّاب ما بعد الحداثة.

- 8 -

خلال العشاء... في الخارج، على شرفة البيت الخلفية، مع ظلمة تخيُّم على نحو شديد التدرّج جعل الأمسية تبدو للسويدي كما لو أنها قد جمدت، توقّفت، تأجّلت، مثيرة فيه إحساسًا معذِّبًا بأنه لم يبق لديه شيء يتبعه، وبأن ما من شيء سيحدث بعد ذلك... إحساسًا بأنه دخل تابوتًا منحوتًا من الزمن ولن يخلّصه أحد منه أبدًا. كان من ضيوفهم في تلك الليلة الزوجان أومانوف، مارشا وبال؛ والزوجان سالزمان، شيلا وشيلي. لم تمض إلا بضع ساعات منذ أن علم السويدي أن اختصاصية معالَجة النُّطق، شيلا سالزمان، هي من خبأ ميري بعد التفجير. لم يخبره بهذا أحد من الزوجين سالزمان. لو أخبراه فقط... لو اتّصلا عندما أتت إليهما... لو قاما بواجبهما تجاهه... لم يستطع إكمال هذه الفكرة. لو فكّر في أن هذا كلّه ما كان ليحدث لو أنه لم يتح لميري أن تصير فارّة من وجه العدالة... لم يستطع إكمال هذه الفكرة أيضًا. جلس معهم إلى العشاء، هامدًا على الدوام - مشلولًا، عاجزًا، هامدًا، بعيدًا كل البعد عن نعمتي الحيوية والانفتاح اللتين كان تفاؤله المفرط يمنحه إياهما. خفة الحركة التي رافقته طيلة عمره، خفة رجل الأعمال، والرياضي، وجندي مشاة البحرية، لم تهيئه أبدًا لأن يكون أسيرًا محبوسًا في صندوق من غير مستقبل حيث ليس له أن يفكّر في المصير الذي لقيته ابنته، وليس له أن يفكر في كيفية مساعدة الزوجين سالزمان لها، وليس له أن يفكّر في... في... المصير الذي صارت إليه زوجته. كان عليه أن يجتاز ذلك العشاء من غير تفكير في الأمور الوحيدة التي كان يمكن أن يفكّر

فيها. وكان عليه أن يظلّ هكذا إلى الأبد. مهما تاق إلى التخلّص والخروج فسوف يظل متوقفًا ميتًا في تلك اللحظة في ذلك الصندوق. بغير هذا، سوف ينفجر العالم كله.

كان باري أومانوف أستاذًا للقانون في جامعة كولومبيا (كان في ما مضى لاعبًا في فريق السويدي وأقرب صديق له في المدرسة الثانوية). يدعو السويدي باري وزوجته إلى العشاء كلما أتيا من فلوريدا. وعلى الدوام، كانت رؤية باري تسرّ والد السويدي؛ لأن باري، وهو ابن خيّاط مهاجر، قد تطوّر وارتقى حتى صار أستاذًا جامعيًا. لكنها كانت تسرّه أيضًا لأن لو ليفوف كان ينسب إليه الفضل (مخطئًا، لكن السويدي تظاهر بأنه غير مهتم بهذا)، في جعل سايمور يضع قفّاز البيسبول جانبًا ويدخل ميدان الأعمال. وفي كل صيف، كان لو يُذكّر باري - يدعوه «المستشار» منذ أن كان في المدرسة الثانوية - بجميله تجاه عائلة ليفوف، وذلك من خلال ما يمثّله من جدّية مهنية. إلا باري كان يقول إن أحدًا ما كان يمكن أن يجعله يقترب من دراسة الحقوق لو كان لديه جزء من مئة جزء من مهارة السويدي في تسديد الكرات.

كان باري ومارشا أومانوف هما من كانت ميري تبيت عندهما قبل أن يمنعها السويدي آخر الأمر من الذهاب إلى نيويورك. وقد كان باري هو الشخص الذي التمس السويدي مشورتَه القانونية بعد اختفاء ميري من أولد ريمروك. أخذه باري لمقابلة المحامي شيفيتز في مانهاتن. لقد قال شيفيتز للسويدي عندما طلب منه أن يضعه في صورة الموقف - ما هو أسوأ ما يمكن أن يصيب ابنته إذا اعتقلت وقررت المحكمة أنها مذنبة؟ - «من سبع سنوات إلى عشر سنوات». إلا أن شيفتيز أضاف: «لكن، إذا كانت قد قامت بذلك تعاطفًا مع الحركة المناهضة للحرب، وإذا كان القتل قد حدث بفعل المصادفة، وإذا تبيّن أن الاحتياطات قد اتّخذت لمحاولة الحيلولة دون إصابة أي شخص... ثم، هل نحن على يقين من أنها فعلت ذلك بمفردها؟ نحن لا نعرف هذا! وهل نعرف حتى إن كانت هي من قام بالفعل؟ ليس لها تاريخ سياسي ذو أهمية... كلامٌ كثير، كلام عنيف كثير، لكنها طفلة... فهل تتعمّد تلك الطفلة أن تقتل أحدًا من تلقاء ذاتها.

كيف نعرف أنها هي من صنع تلك القنبلة، أو أنها هي من وضعها هناك؟ حتى تصنع قنبلة، لا بد أن تكون على دراية بأمور كثيرة، فهل هي طفلة قادرة على إشعال عود ثقاب. أجابه السويدي: «لقد كانت ممتازة في العلوم. حصلت على أعلى درجة عندما قدّمت مشروعًا في مادة الكيمياء». «وهل صنعت قنبلة من أجل مشروع الكيمياء». «لا، بالطبع لا... لا». «هذا يعني أننا لا نعرف. لا نعرف إن كانت قادرة على إشعال عود ثقاب أو غير قادرة على إشعاله. من الممكن أن يكون كلّ ما فعلته مقتصر على ذلك الكلام الحماسي. نحن لا نعرف ما فعلته، ونحن لا نعرف ما أرادت فعله. لا نعرف شيئًا؛ ولا يعرف أحد شيئًا. من الممكن أن تكون قد فازت بجائزة ويستنغهاوس للعلوم، لكننا لا نعرف هذا، ما الذي يمكن إثباته؟ أرجِّحُ أنّ ما يمكن إثباته قليل. أسوأ ما يمكن أن يحدث - بما أنك سألتني - هو الحبس من سبع سنوات إلى عشر سنوات. لكن، لنفترض أنهم عاملوها على أنها قاصر! تنخفض المدة إلى سنتين أو ثلاث سنوات بموجب قانون القاصرين. وحتى إذا اعترفت بالذنب، أو شيء من هذا القبيل، فمن الممكن أن تقفل القضية إقفالًا نهائيًا. انظرْ... الأمر كلّه معتمد على دورها في قتل ذلك الشخص. ليس من المحتّم أن يكون الأمر سيئًا جدًا. إذا أتت تلك الفتاة من تلقاء نفسها - حتى إذا كان لها دور في الأمر - فقد نتمكّن من إخراجها من القضية كلّها من غير أن يصيبها شيء.

أحيانًا، كانت تلك الكلمات التي سمعها من شيفيتز هي كل ما يستطيع الاعتماد عليه حتى لا يفقد أي أمل، إلى أن سمع ما سمعه منها قبل بضع ساعات من الآن، وعرف أن صنع القنابل كان اختصاصها أثناء إقامتها في «كومونة أوريغون»... إلى أن سمع من فمها غير المتأتئ أن مسؤوليتها لم تكن مقتصرة على مقتل شخص واحد (ربما بفعل المصادفة كما كان يظنّ)، بل إن مجموع من قتلهم بدم بارد كان أربعة أشخاص. لم يكن شيفيتز رجلًا ممن يحبون القصص الخيالية. يرى المرء هذا منذ لحظة دخوله مكتبه. كان رجلًا يحب أن تثبتْ مجريات الأمور صحة رأيه... كان رجلًا يتمثّل دافعه إلى العمل في هذه المهنة في أن يكون فائزًا على الدوام. وقد أوضح له باري قبل ذهابهما إليه أن

شيفيتز ليس بالشخص المهتمّ بتطبيب خواطر الناس. لم يكن مهتمًّا بمراعاة مشاعر السويدي عندما قال إنه قد يتمكن من إخراج الطفلة من الأمر كله إن أتت بنفسها. لكن ذلك كلّه كان في ما مضى، كان عندما ظنّوا أنهم قادرون على العثور على هيئة محلفين يمكن أن تقتنع بأن ابنته لا تعرف كيف تشعل عود ثقاب. كان ذلك قبل الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم.

وأما مارشا، زوجة باري، التي كانت أستاذة للأدب في جامعة نيويورك، فهي «شخص صعب» - حتى بموجب تقدير السويدي المتساهل: امرأة متمرّدة مناضلة لديها ثقة مذهلة بنفسها. امرأة مولعة بالتهكم وبالعبارات المروّعة المحسوبة والمصمَّمة بحيث تقضُّ مضاجع سادة الأرض. كان كل ما تقوله وتفعله منبِئًا بالموقف الذي تتّخذه. وما كان عليها أن تحرّك عضلة واحدة - أن تبتلع ريقها وأنت تتحدّث معها، أو أن تنقر بأظافرها على طرف الكرسي، أو أن تومئ برأسها كما لو أنها موافقة تمامًا - حتى تستطيع إفهامك أن ما من شيء صحيح في كلّ ما تقوله لها. كانت ترتدي قفطانًا كبيرًا من قماش مطبوع كأنه كيس ضخم يستوعب أفكارها كلّها... امرأة شاملة لا تعتبر مظهرها غير المرتّب احتجاجًا على الامتثال بقدر ما تعتبره علامة على أنها شخص مفكّر يتّجه مباشرة إلى جوهر الأمر. لا يستطيع أي كلام فارغ، وأي شيء مبتذل، الوقوف بينها وبين أكثر الحقائق قسوة.

لكنها كانت تعجب باري! ونظرًا لاستحالة أن يكون الخلاف بينهما أكبر مما هو، فلعل انجذاب كلٍ منهما إلى الآخر كان شيئًا مما يدعونه «تجاذب الأضداد». كانت لدى باري فطنة؛ وكان لديه اهتمام من النوع اللطيف. ومنذ أن كان طفلًا (أفقر طفل عرفه السويدي في حياته كلّها) كان شخصًا مجتهدًا ومستقيمًا. كان مُلتقِط كرات قويًا في لعبة البيسبول، وكان دائمًا متفوّقًا على طلاب صفه جميعًا. أمضى فترة الخدمة العسكرية، ثم ذهب إلى جامعة نيويورك بموجب منحة حكومية خاصة بالعسكريين السابقين. وهناك التقى مارشا شوارتز وتزوجها. كان صعبًا على السويدي فهم كيف يمكن لباري صاحب البنية القوية والشكل المقبول أن يحرّر نفسه في سن الثانية والعشرين من الرغبة في أن

يكون مع أية امرأة أخرى في هذا العالم غير مارشا شوارتز التي كانت، منذ ذلك الوقت، طالبة جامعية شديدة التمسك بآرائها إلى حد يجعل السويدي في حاجة إلى خوض صراع مع نفسه - عندما تكون موجودة - حتى يبقى مستيقظًا. لكنها كانت تعجب باري. كان يجلس مصغيًا إليها ولا يبدو عليه أي قدر من المبالاة بجلافتها وبأنها ترتدي - حتى في الكلية - ملابس توحي بأنها أخذتها من عند جدة أحد ما... تلك العينان المتحرّكتان دائمًا اللتان تبدوان من خلف نظارتها الثقيلة كبيرتين إلى حد يثير الأعصاب. كانت نقيض داون من كل ناحية. كان ينبغي أن تنجب مارشا طفلة ثورية على نمطها... نعم؛ لو أن ميري نشأت على سماع ما تقوله مارشا، لكان الأمر مفهومًا... وأما داون؟ داون الجميلة، الصغيرة، غير المسيّسة... لماذا داون؟ وأين يبحث المرء عن تفسير هذا الغياب المطلق لأي تناسب؟ أيكون الأمر ليس أكثر من خدعة جينية؟ خلال المسيرة إلى البنتاغون، التي كان مُرادًا منها أن توقف الحرب، ألقوا بمارشا أومانوف في سيارة مغلقة مع نحو عشرين امرأة أخرى. ثم أعجبها كثيرًا أنهم حبسوها حتى الصباح في سجن العاصمة حيث لم تتوقّف عن كلامها الاحتجاجي إلى أن أخلي سبيلهن جميعًا صباح اليوم التالي. لو كانت ميري ابنتها، لكان الأمر مفهومًا. ليت ميري لم تخض حربًا غير حرب الكلمات، ولم تقاتل العالم إلا بالكلمات وحدها كما تفعل هذه الثرثارة ذات الصوت الحاد! لو كان الأمر هكذا، لما صارت ميري قصّة تبدأ وتنتهي بقنبلة... لو كان الأمر هكذا لصارت ميري قصّة مختلفة تمامًا. وأما القنبلة!... قنبلة!... قنبلةٌ تحكي القصّة اللعينة كلها!

من الصعب أن يستوعب المرء زواج باري من تلك المرأة. لعل ذلك لأن أسرته كانت شديدة الفقر! من يدري؟ اندفاعها، وتعاليها، وما تعطيه من إحساس بأنها غير نظيفة... تلك الأشياء كلّها التي لا يطيق السويدي وجودها في صديقة له، ناهيك عن أن تكون زوجته... حسنًا، كانت تلك هي السّمات نفسها التي يقوم عليها إعجاب باري بزوجته. كانت تلك أحجية. كانت أحجية حقًا. كيف يمكن لرجل منطقي تمامًا أن يهيم حبًا بما يجد أيُّ شخص منطقي آخر نفسَه عاجزًا عن احتماله ولو نصف ساعة؟ لكن، وبما أن الأمر كان أحجية، فقد بذل

السويدي قصارى جهده للسيطرة على نفوره منها ولتحييد رأيه فيها عن سلوكِه بحيث ينظر إلى مارشا أومانوف، على أنها، ببساطة، كائنٌ غريب جاء من عالم آخر، من العالم الأكاديمي، من عالم الثقافة، حيث يكون الاستعلاء على الناس والاعتراض على كل شيء يقولونه مجلبةً للإعجاب. كان إدراك ما يجنيه أولئك الناس من سلبيتهم تلك أمرًا يتجاوز فهمه؛ وكان يبدو له أن من الأفضل الانتظار أن يكبروا ويتجاوزوا ذلك كلّه.

لكن ذلك كلّه ما كان يعني أن مارشا تذهب وتزعج الناس وتثير أعصابهم لمجرد إزعاجهم وإثارة أعصابهم. وجد نفسه غير قادر على اعتبارها شريرة لأنه أدرك أن تلك هي الطريقة التي اعتادت مخالطة الناس بها في مانهاتن. ثم إنه ما كان قادرًا على تصديق أن باري أومانوف (الذي كان، في يوم ما، أقرب إليه من أخيه الشقيق) يمكن أن يتزوج امرأة شريرة. وكعادته، كانت ردة فعل السويدي التلقائية على عدم قدرته على سبر الأسباب والنتائج (خلافًا لأسلوب أبيه القائم على الريبة)، هي أن يركن إلى استراتيجية طويلة الأمد، فيصير شخصًا متسامحًا كريم النفس. وهكذا فقد صار قانعًا بأن يعتبر مارشا «صعبة» فلا يقول عنها أكثر من «لا بأس، فلنقل إنها ليست صفقة جيدة».

لكن داون كانت تمقتها! تمقتها لأن مارشا كانت تمقتها لأنها كانت ملكة جمال نيوجيرسي في يوم ما. كانت داون غير قادرة على احتمال الناس الذين لا يرون فيها غير تلك القصة. وكانت مارشا مصدر إزعاج لها نتيجة صفاقتها الواضحة في فهم داون من خلال تلك القصة التي لا تعبّر عنها أبدًا. عندما التقوا جميعًا أول مرة، أخبرت داون الزوجين أومانوف بالنوبة القلبية التي أصابت والدها، وبأن الأسرة كانت في حاجة إلى المال. حكت لهم كيف أدركت أن طريق دخول الجامعة كان على وشك أن يغلق في وجه أخيها... حكاية المنحة الدراسية كلّها. لكنّ شيئًا من هذا لم يجعل ملكة جمال نيوجيرسي تبدو في نظر مارشا أومانوف أكثر من نكتة. ثم إن مارشا لم تكن مهتمة بإخفاء حقيقة أنها تنظر إلى داون ليفوف فلا ترى أحدًا!... لماذا لا ترى أحدًا؟ لأنها تعتبر إقدامها على تربية الأبقار نوعًا من أنواع حب المظاهر، وترى أنها تفعل ذلك من أجل صورتها في

عيون الناس: لم يكن عملًا جادًّا أن تعمل داون اثنتي عشرة ساعة في اليوم الواحد، أو أربع عشرة ساعة في اليوم الواحد، سبعة أيام في الأسبوع؛ فما كان هذا كلّه في نظر مارشا أكثر من فانتازيا «البيت والحديقة» التي تدّعيها النساء الثريات السخيفات اللواتي لا يعشن في نيوجيرسي ذات الرائحة المقزّزة، لا، لا، بل يعشن في الريف! كانت داون تمقت مارشا بسبب تعاليها (الذي لا تحاول إخفاءه) على ثراء عائلة ليفوف، وعلى مكانتهم، وعلى أسلوب الحياة الريفي الذي يحبّونه. وكانت تمقتها أشد المقت لقناعتها بأن مارشا كانت مسرورة (في سرّها) أشد السرور تجاه ما زعمت ميري أنها أقدمت عليه.

كان المكان الأعز في مشاعر مارشا مخصّصًا للفيتناميين - للفيتناميين الشماليين. لم تكن مستعدة للتنازل لحظة واحدة عن قناعاتها السياسية أو عن تفهّمها العاطفي أو عن إدراكها للشؤون الدولية... ولا حتى عندما ترى بنفسها، من مسافة لا تتجاوز ستة إنشات، مقدار التعاسة التي أصابت أقدم صديق من أصدقاء زوجها. كان هذا ما قاد داون إلى اتهامها بأشياء كان السويدي يعرف أنها غير صحيحة - لا لأنه كان شديد الثقة بأن مارشا إنسانة محترمة، بل لأن استقامة باري أومانوف لم تكن موضع شك أبدًا في نظره. «لن أقبَلَ هذه المرأة في بيتي! إن لدى هذه المرأة من الإنسانية أقل مما لدى أيّ جندي نازي. لست أبالي بشهاداتها كلها - إنها عمياء قاسية القلب! لم أر في حياتي كلّها شخصًا أكثر عمى منها. ومن بين من يدعونهم مثقفين كلّهم، لم أر شخصًا بغيضًا محدود العقل منشغلًا بنفسه مثلها. لا أريدها في بيتي!».

«حسنًا، لا يمكنني مطالبة باري بأن يأتي إلينا وحده».

«هذا يعني أن باري لا يستطيع المجيء أيضًا».

«يجب أن يأتي باري. أريد أن يأتي باري. يكون أبي في غاية السرور عندما يرى باري هنا؛ وهو يتوقّع رؤيته هنا. باري هو من أخذني إلى الحمّام التركي، يا داون».

«لكن تلك المرأة هي من ورّط ميري. ألا ترى هذا؟ لقد ذهبت ميري إلى هناك! ذهبت إلى نيويورك! ذهبت إليهما! هما من وفّر لها مكانًا للاختباء! لا بد أن أحدًا

ما قد فعل ذلك. يجب أن يكون أحد ما قد فعل ذلك. كان ذلك شيئًا مثيرًا لها... مفجّرة قنابل حقيقية في بيتها! لقد أخفتها عنا. لقد أخفت ميري عن أبويها عندما كانت في أشد الحاجة إليهما. مارشا أومانوف هي من أرسلها لكي تعيش عيشة التخفّي».

«لم تكن ميري تحبّ البقاء عندهما، حتى قبل ذلك. لقد باتت في بيت باري مرتين فقط. هذا كل ما في الأمر. لم تذهب إليهما في المرة الثالثة. أنت لا تتذكّرين. ذهبت ميري لقضاء الليل في مكان آخر ولم تعد إلى بيت أومانوف بعد ذلك».

«مارشا هي المسؤولة، يا سايمور. فمن غيرها يملك تلك العلاقات؟ هذا القسيس الرائع، وذلك القسيس الرائع... يسفحون الدم في تلك التسجيلات. إنها مرتاحة تمامًا مع قساوستها المناهضين للحرب؛ وهي على علاقة ممتازة معهم - لكنهم ليسوا قساوسة، يا سايمور! ليس القساوسة أشخاصًا ليبراليين متقدّمي التفكير. لو كانوا كذلك لما صاروا قساوسة. كل ما في الأمر هو أن القساوسة ليس من المفترض فيهم أن يفعلوا ذلك... ليس من المفترض فيهم أن يعبّروا عن موقفهم المناهض للحرب بما يتجاوز الكف عن الدعاء للفتيان الذين يذهبون إليها. ما تحبّه مارشا في أولئك القساوسة هو أنهم ليسوا قساوسة. إنها لا تحبّهم لأنهم في الكنيسة، بل تحبّهم لأنهم يفعلون شيئًا مسيئًا للكنيسة، وفق تقديرها. تحبّهم لأنهم يفعلون شيئًا خارجًا عن الكنيسة، خارجًا عن الدور المعتاد للقساوسة. تحبّ حقيقة أن أولئك القساوسة إهانة لكل ما نشأ عليه الناس الذين هم مثلي. هذا ما تحبّه تلك المرأة. هذا ما تحبّه تلك العاهرة البدينة... هذا ما تحبّه في كل شيء. إنني أكرهها. أكرهها كثيرًا!».

قال لها: «لا بأس. لا أجد في هذا ضيرًا. اكرهيها قدر ما تشائين، لكن ليس بسبب شيء لم تفعله. هي لم تفعل ذلك، يا داون. أنت تدفعين بنفسك إلى الجنون دفعًا نتيجة تفكيرك في شيء لا يمكن أن يكون صحيحًا».

لم يكن ذلك الشيء صحيحًا. ولم تكن مارشا هي من آوى ميري. كانت مارشا كلُّها كلامًا، لا أكثر... هكذا كانت دائمًا: كلامٌ مدّعٍ لا معنى له. وكلمات لا غاية

لها غير أن تظهر بمظهر فضائحي... كلمات مشاكسة، غير مهادنة، ليس فيها ما يتجاوز، إلا قليلًا، غرور مارشا الثقافي واعتقادها الغريب بأن هذه المظاهر كلّها هي ما يصنعُ عقلًا ذا تفكير مستقلّ.

لقد كانت شيلا سالزمان هي من آوى ميري. شيلا معالجة النطق في موريستاون؛ تلك المرأة الشابة الجميلة اللطيفة صاحبة الكلمات الناعمة التي كانت قد منحت ميري أملًا وثقة كبيرين... المعلّمة التي أمدَّت ميري بتلك «الاستراتيجيات» كلّها من أجل التغلّب على إعاقتها فصارت بطلة في نظرها وحلّت محل أودري هيبورن. في الشهور التي أمضتها داون في تناول الأدوية المهدئة وفي دخول المستشفى والخروج منه... في تلك الشهور التي سبقت توقّف شيلا والسويدي عن تجاهل التوجّه المسؤول في حياة كل منهما... في الشهور التي سبقت نجاح هذين الشخصين المنضبطين حسني المسلك في منع نفسيهما عن تعريض استقرارهما الثمين للخطر... كانت شيلا سالزمان عشيقة السويدي ليفوف... كانت عشيقته الأولى والأخيرة.

عشيقة! حالةٌ شديدة البعد عن طبع السويدي... شيء غير لائق ولا قابلٍ للتصديق؛ وحتى إنه سخيف ومضحك أيضًا. لكن كلمة «عشيقة» لا تعبّر تمامًا عن السياق النظيف لتلك الحياة... إلا أن شيلا كانت عشيقته خلال الأشهر الأربعة التي أعقبت اختفاء ميري.

تناول الحديث على العشاء Deep Throat(56) وفضيحة ووترغيت. وباستثناء والدي السويدي والزوجين أوركوت، كان من جلسوا حول المائدة قد شاهدوا كلّهم الفيلم «الجريء» الذي كانت بطلته ممثلة إباحية شابة اسمها ليندا لوفليس. لم يكن عرض ذلك الفيلم مقتصرًا على الصالات المخصّصة للراشدين، بل صار موضع إقبال في دور السينما في الأحياء السكنية على امتداد جيرسي كلّها. وكان شيلي سالزمان يقول إن ما فاجأه هو أن الناخبين الذين صوتت أكثريتهم لرئيس ونائب رئيس من الحزب الجمهوري كانوا يتظاهرون - نفاقًا - بأنهم شديدو التمسك بالأخلاق، لكنهم أقبلوا إقبالًا كبيرًا على فيلم يقدّم ممارسات الجنس الفموي من خلال رسوم كاريكاتيرية مباشرة إلى هذا الحد.

قالت داون: «لعل من يذهبون إلى ذلك الفيلم ليسوا هم الأشخاص أنفسهم».
سألتها مارشا أومانوف: «أيكونون من أنصار مكغوفرنايتس؟»(57).
أجابتها داون التي كانت منذ بداية العشاء غاضبة من وجود هذه المرأة التي لا تطيق احتمالها: «يصحُّ هذا على من شاهدوا الفيلم من الجالسين إلى هذه الطاولة».
قال والد السويدي: «أرجوكم... إنني لا أفهم الصلة بين هذين الموضوعين. لا أعرف، أيها الناس، ما يجعلكم أصلًا تدفعون مالًا كثيرًا لكي تذهبوا وتشاهدوا تلك القمامة. إنها قمامة حقيقية... ألستُ محقًّا، يا مستشار؟». قال هذا وهو ينظر إلى باري ملتمسًا تأييده.
قال باري: «إنه نوع من القمامة».
«فلماذا تسمحون له بدخول حياتكم؟».
قال له بيل أوركوت مبتسمًا: «إنه يتسرّب تسرّبًا، يا سيد ليفوف. يتسرّب سواء أعجبنا هذا أم لم يعجبنا. كل ما هو موجود يتسرّب ويدخل حياتنا. إنه ينصبّ انصبابًا. لم تعد الأحوال في الخارج مثلما كانت... إن كنت لم تسمع بهذا».
«أوه، لقد سمعت أيها السيد. إنني من مدينة نيوارك التي ماتت. وقد سمعت أكثر مما أريد سماعه. انظر... أدار الإيرلنديون المدينة، وأدار الإيطاليون المدينة. والآن، فلندع الملوَّنين يديرون المدينة. ليس هذا ما أقصده. وليس لدي شيء ضده. إنه دَور الملونين في الإمساك بالدفة! أنا لم أولد بالأمس. الفساد هو اسم اللعبة في نيوارك. وأما الجديد فهو، رقم واحد، العِرق؛ رقم اثنان، الضرائب. أضف هذا إلى الفساد، وسوف ترى المشكلة. سبعة دولارات وستة وسبعون سنتًا. هذه هي النسبة الضريبية في مدينة نيوارك. لا يهمّني كم تكون كبيرًا، أو كم تكون صغيرًا، فأنا هنا لكي أقول لك إنك لا تستطيع إدارة عمل في ظل هذا النوع من الضرائب. لقد خرجت جنرال إلكتريك من المدينة في سنة 1953. جنرال إلكتريك، ويستنغهاوس، بر ايرِ التي كانت في جادة رايمون، سيليلويد... كلّها شركات تركت المدينة. وكل شركة منها لديها عدد كبير من العاملين. لكنها خرجت من المدينة قبل حوادث الشغب، قبل الكراهية العرقية.

ليست المسألة العرقية أكثر من كريما على قالب الحلوى. الشوارع لا تنظّف، ولا أحد يزيل السيارات المحترقة. أناس يعيشون في بنايات تركها أصحابها. نيران تشتعل في بنايات تركها أصحابها. بطالة، قاذورات. فقر. مزيد من القاذورات. مزيد من الفقر. لا وجود للتعليم. المدارس كارثة. تجد المتسرّبين من المدارس عند كل زاوية شارع. المتسربون لا يفعلون شيئًا. المتسرّبون يبيعون المخدرات. المتسرّبون يبحثون عن إثارة المشكلات. والمشاريع، لا تدعني أتحدّث عن المشاريع. والشرطة ترتشي. وكل نوع من أنواع الأمراض التي يعرفها البشر. قلت لابني في صيف سنة 1967 ‘اخرج يا سايمور’. قلت له ‘اخرج’. لكنه لم يكن ليصغي إليَّ. انفجرت باترسون، وانفجرت إليزابيث، وانفجرت جيرسي سيتي. يجب أن تكون عينا المرء مصابتين بالعمى حتى لا يرى ما سيحدث بعد ذلك. لقد قلت هذا لسايمور. قلت له ‘نيوارك هي التالية. لقد سمعني أقول هذا منذ صيف 1967’. تنبأتُ بالأمر بهذه الكلمات نفسها. ألم أقل لك هذه الكلمات يا سايمور؟ ألست أقولها لك منذ ذلك الوقت؟».

أجابه السويدي: «هذا صحيح».

«انتهى أمر الصناعة في نيوارك. لقد انتهت نيوارك. لم تكن حوادث الشغب أقل شدّة في واشنطن ولوس أنجلوس، وفي ديترويت. بل لعلها كانت أسوأ. لكن نيوارك ستكون - تذكّر كلماتي - المدينة التي لا تعود أبدًا. إنها غير قادرة على العودة. فماذا عن القفّازات؟... ماذا عن القفّازات في أميركا؟ لقد انتهت. انتهت أيضًا. لكن ابني بقي هنا. بعد خمس سنين أخرى، لن يُصنع زوج قفّازات واحد في أميركا، عدا العقود الحكومية. ولن تُصنع القفّازات في بورتوريكو أيضًا. لقد صار كبار المصنّعين في الفيليبين، منذ الآن. وستكون الصناعة في الهند. ستكون في إندونيسيا وباكستان وبنغلادش... سوف ترى كل مكان في العالم يصنع القفّازات، إلا هنا. لكن النقابات ليست وحدها من أودى بنا. صحيح أن النقابات لم تفهم الوضع؛ لكن بعض الصناعيين لم يفهموا الوضع أيضًا... يقول الواحد منهم: ‘لن أدفع لأبناء العاهرة ولا حتى خمسة سنتات إضافية’. إذا نظرت إلى هذا الرجل فسوف تراه يقود سيارة كاديلاك ويعيش في فلوريدا خلال

الشتاء، فلماذا لا يدفع؟ لم يكن تفكير أكثر الصناعيين صحيحًا. لكن النقابات لم تتوصّل أبدًا إلى إدراك المنافسة الآتية من الخارج، من خلف البحار. ليست في ذهني أية شكوك في أن النقابات ساهمت في تسريع فناء صناعة القفّازات من خلال تصلّبها الذي أدى إلى جعل أصحاب العمل غير قادرين على جني المال. أدى السعر الذي فرضته النقابات على العمل بالقطعة إلى دفع كثير من الناس خارج هذه الصناعة أو إلى دفعهم خارج البلاد. في الثلاثينات، كنا نواجه منافسة شديدة من تشيكوسلوفاكيا، ومن النمسا، ومن إيطاليا. ثم جاءت الحرب فأنقذتنا. عقود حكومية. سبعة وسبعون مليون زوج من القفازات اشتراها الجيش. صار صانعو القفّازات أثرياء. لكن الحرب انتهت بعد ذلك. أقول لك إن بداية النهاية كانت منذ ذلك الوقت، حتى في تلك الأيام الطيّبة. كان انحدارنا ناتجًا عن عدم قدرتنا على المنافسة مع صانعي القفازات وراء البحار. لكنا سرَّعنا ذلك الانحدار من خلال غياب الحسّ السليم لدى الطرفين. إلا أن إنقاذ هذه الصناعة لم يكن ممكنًا، بصرف النظر عن ذلك كلّه. الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يوقف الانحدار - أقول لك إنني لست مع هذه الفكرة، ولست أرى أنك قادر على إيقاف التجارة العالمية، ولا أنه ينبغي لنا أن نحاول ذلك - لكن الشيء الوحيد الذي كان قادرًا على إيقاف الانحدار هو وضع حواجز تجارية، أي رفع الضرائب الجمركية من خمسة بالمئة إلى ثلاثين بالمئة، إلى أربعين بالمئة».

قالت زوجته: «لو، ما علاقة هذه الأشياء كلّها بذلك الفيلم؟».

«هذا الفيلم؟ هذه الأفلام اللعينة؟ حسنًا، بالطبع، هي أيضًا ليست بالشيء الجديد، كما تعرفين. كان لدينا نادٍ للسينما، منذ سنين... تتذكّرين؟ نادي يوم الجمعة للسينما؟ وكان لدينا شخص يعمل في قطاع الكهرباء، هل تتذكّره يا سايمور؟... هل كان اسمه آبي ساكس؟».

قال السويدي: «تمامًا».

«حسنًا، لا أحب أن أقول هذا، لكنه كان يجلب هذا النوع من الأفلام إلى بيته. كانت هذه موجودة بالتأكيد. في شارع مالبيري، حيث كنا نذهب مع الأطفال لكي نتناول طعامًا صينيًا، كان هناك صالون يمكنك دخوله وشراء ما تريده من تلك

القاذورات. هل تعرف شيئًا؟ نظرت إلى الفيلم خمس دقائق، ثم عدت إلى المطبخ، وعاد معي صديقي العزيز - أذكرُ له هذا - لقد مات الآن. كان رجلًا رائعًا. أحاول تذكّر اسمه. ذلك الذي كان يقصّ القفّازات... ماذا كان اسمه؟...».

قالت له زوجته: «كان اسمه آل هافرمان».

«صحيح. جلسنا نلعب الورق ساعة كاملة إلى أن سمعنا ضجة في غرفة المعيشة حيث كانوا يتابعون ذلك الفيلم؛ كان ما حدث فيلمًا لعينًا في حد ذاته: الكاميرا، وكل تلك الأشياء التي لا أعرف اسمها... احترقت كلها. سرني ذلك كثيرًا. كان هذا منذ ثلاثين عامًا، أو منذ أربعين عامًا. أتذكّر حتى هذا اليوم كيف كنت جالسًا مع آل هافرمان نلعب الورق بينما كان البقية جالسين في غرفة المعيشة وقد سال لعابهم كالحمقى».

صار الآن يكلّم أوركوت ويوجّه عباراته إليه دون غيره كأن فوضى ذوي المنبت الرفيع من غير اليهود قد ظلت - من حيث الأساس - أمرًا لا يستطيع لو ليفوف تخيله، على الرغم من أن المرأة الثملة كانت دليلًا ملموسًا جالسًا إلى جانبه، وعلى الرغم من كثرة ما في ذاكرته من أدلة غير قابلة للدحض. ومن هنا، كان أوركوت (دونًا عن بقية الجالسين إلى الطاولة جميعًا) هو الأقدر على تقدير الكلام المكرور الذي كان يقوله. من المفترض أن يكون أولئك الناس أشخاصًا مسيطرين على أنفسهم، أشخاصًا يمكن الاعتماد عليهم. أليس هذا صحيحًا؟ إنهم أهل المنطقة. أليسوا كذلك؟ هم من يضع القواعد التي وافق البقية ممن أتوا إلى هذه الأرض على التقيد بها. هل يمكن ألا يُعجبَ به أوركوت لأنه ظل جالسًا في المطبخ، ظل جالسًا يلعب الورق بصبر، إلى أن تغلّبت قوى الخير على قوى الشر في آخر الأمر واستحال ذلك الفيلم القذر دخانًا في سنة 1935؟

قال له أوركوت: «حسنًا، يؤسفني أن أقول لك، يا سيد ليفوف، إنك لم تعد قادرًا على إبقاء الأمر بعيدًا عن طريق لعب الورق. كانت تلك طريقةً مناسبة لإبعاده عنك، لكنها لم تعد موجودة الآن».

سأله لو ليفوف: «إبقاء ماذا بعيدًا عنّي؟».

«إبقاء ما كنت تتحدّث عنه. الإباحية. الشذوذات المتستّرة تحت رداء الإيديولوجيا. الاحتجاج الدائم. لقد مرّ زمن كنتَ فيه قادرًا على الابتعاد عن ذلك كلّه، وعلى اتخاذ موقف ضده. وكما أشرتَ قبل قليل، كنت قادرًا حتى على لعب الورق ضدّه. لكن العثور على الراحة صار أكثر صعوبة هذه الأيام. إن الشاذّ الغريب يحلّ محلّ كل ما كان مألوفًا، يحلّ محلّ كل ما كان الناس يحبّونه في هذه البلاد. اليوم، صار كون المرء ‘متحفّظًا’ أمرًا مخجلًا للناس مثلما كان عدم التحفّظ مخجلًا في ما مضى».

«هذا صحيح. هذا صحيح. دعني أخبرك عن صديقي آل هافرمان. إن كنت تريد الحديث عن العالم على النمط القديم وعما كانه ذلك العالم، فلنتحدّث عن آل هافرمان. كان آل صديقًا رائعًا. كان صديقًا جيّدًا. اغتنى من قص القفّازات. في تلك الأيام، كان الاغتناء من قصّ القفازات أمرًا ممكنًا. كان أي زوج وزوجة من أصحاب الطموح قادرَين على الحصول على بضعة جلود لصنع القفازات. ثم انتهى بهما الأمر إلى أن يعملا في غرفة صغيرة: رجلان يقصّان، وامرأتان تخيطان. صارا يوضبانها، ثم يشحنانها. كانا يجنيان مالًا. وكانا يعملان لحسابهما. كانا قادرين على العمل ستين ساعة في الأسبوع. منذ زمن بعيد جدًا، عندما كان هنري فورد يدفع دولارًا كاملًا في اليوم، كان الشخص الماهر في قصّ القفّازات قادرًا على جني خمسة دولارات في اليوم الواحد. وانظر أيضًا... في تلك الأيام، لم يكن غريبًا أن يكون لدى امرأة عادية عشرين زوجًا من القفّازات، أو حتى خمسة وعشرين زوجًا من القفّازات. كان هذا أمرًا شائعًا. كان لدى المرأة خزانة من القفازات. قفازات مختلفة للملابس المختلفة... ألوان مختلفة، وأطوال مختلفة، ونماذج مختلفة. وما كانت المرأة قادرة على الخروج من غير قفّازات، كيفما تكن حالة الطقس. في تلك الأيام، لم يكن أمرًا غير معتاد أن تنفق المرأة في متجر القفّازات ساعتين، أو ثلاث ساعات، أو تجرّب ثلاثين زوجًا منها. كان أمرًا مألوفًا أن يكون لدى البائعة مغسلة خلف طاولة البيع لكي تغسل يديها بين لون وآخر. وفي مجال القفّازات النسائية الفاخرة، كانت مقاسات القفّازات الصغيرة متدرّجة، أربعة مقاسات ضمن المقاس الرابع، ثم صعودًا

حتى المقاس رقم ثمانية ونصف. إن قصّ القفّازات مهنة رائعة... كانت مهنة رائعة. صار كل شيء الآن ‘كان’. كان من يقصّ القفّازات، مثل آل، يرتدي قميصًا وربطة عنق على الدوام. في تلك الأيام، ما كان ممكنًا لمن يقصّ القفازات أن يعمل من غير قميص وربطة عنق. وكان يمكن للمرء أن يعمل حتى الخامسة والسبعين، بل حتى الثمانين من عمره. يمكنك أن تبدأ العمل مثلما بدأ آل في الخامسة عشرة، أو في وقت أبكر من ذلك، ويمكنك أن تستمر حتى يصير عمرك ثمانين عامًا. يعتبر المرء صغير السن في السبعين. يمكنك أيضًا أن تعمل في أيام العطلة، يومي السبت والأحد. كان أولئك الناس قادرين على العمل المستمر. كانوا يجنون مالًا لإرسال أطفالهم إلى المدارس. كانوا يجنون مالًا لكي يحسّنوا بيوتهم. كان آل يتناول قطعة جلد ويقول لي على سبيل المزاح: ‘ماذا تريد، يا لو؟ هل تريد قفّازًا بمقاس ثمانية وتسعة أجزاء من ستة عشر؟’... ثم يقصّ الجلد من غير استخدام مسطرة. كان يقيس الجلد بدقة ممتازة مستخدمًا عينيه فقط. كان من يقصّ الجلد العنصر الأول في هذه الصناعة. لكن هذا الاعتزاز بالمهارة الحرفية قد زال كلّه، بالطبع. فمن بين العمال المهرة الذين كانوا قادرين على قصّ قفّاز أبيض ذي ستة عشر زرًا، أظن آل هافرمان كان آخر شخص في أميركا، كان آخر شخص قادر على فعل ذلك. وبطبيعة الحال، اختفى القفّاز الطويل. هذه ‘كان’ أخرى! كان لدينا القفّاز ذو الأزرار الثمانية الذي تمتّع بشعبية كبيرة. كان مبطنًا بالحرير. لكنه انتهى بحلول سنة 1965. صرنا نأخذ القفازات الطويلة ونقص منها قليلًا فنصنع قفازات قصيرة. وبعد ذلك، نستخدم الجزء المقصوص لصنع قفاز آخر. كانوا يستخدمون كل إنش زائد بعد درزة الإبهام لإضافة زر جديد. أنت ترى كيف كنا لا نزال نستخدم الأزرار للتعبير عن طول القفاز. أشكر الرب على أن جاكي كندي(58) كانت تخرج في سنة 1960 بقفاز قصير حتى المعصم، وبقفاز طويل حتى المرفق، وبقفاز أعلى من المرفق، وبقبعة مسطحة ذات شريط، فعاد إقبال الناس على القفازات من جديد. كانت السيدة الأولى لصناعة القفّازات. كان مقاس قفازها ستة ونصف. وكان من يعملون في مجال القفازات يشكرون الرب على هذه السيدة. صحيح

أنها كانت تذهب إلى باريس للتسوّق؛ لكن ماذا؟ لقد أعادت تلك المرأة القفّازات الجلدية النسائية الفاخرة إلى الخريطة. لكنهم اغتالوا جون كندي، وتركت جاكلين كندي البيت الأبيض، فكان ذلك - مع ظهور التنّورة القصيرة - نهاية الولع بالقفّازات النسائية. اغتيال جون فيتزجيرالد كندي، وظهور التنورة القصيرة، كانا معًا إشارة النهاية للقفّاز النسائي. قبل ذلك، كان عملنا يظل مستمرًا اثني عشر شهرًا؛ يظل مستمرًا طيلة السنة. قبل ذلك، مر زمن لم تكن فيه المرأة تخرج من بيتها قبل أن تضع زوجًا من القفّازات، حتى في الربيع، وحتى في الصيف. وأما الآن، فقد صارت القفازات من أجل الطقس البارد، أو من أجل القيادة، أو من أجل الألعاب الرياضية».

حاولت زوجته التدخّل: «لو، لا أحد يتحدّث الآن عن...».

«دعيني أنهي كلامي، من فضلك. لا تقاطعيني، من فضلك. كان آل هافرمان قارئًا ممتازًا. لم يذهب إلى المدرسة، لكنه كان يقرأ. كان السير وولتر سكوت كاتبه المفضل. وفي واحد من كتب السير وولتر سكوت الكلاسيكية، يختلف صانعُ قفّازات وحذّاءٌ عندما يحاول كل منهما إثبات أنه حرَفي أفضل من الآخر. لكن صانع القفّازات يفوز في هذه المجادلة. فهل تعرفون ما قاله لغريمه؟ قال صانع القفازات للحذّاء: ‹أنت لا تصنع أكثر من قفاز للقدم كلها. لست مضطرًا إلى الاهتمام بتفاصيل كل إصبع من أصابعها›. لكن السير وولتر سكوت كان ابن صانع قفّازات، ومن المنطقي أن تنتهي هذه المجادلة بفوز صانع القفّازات. ألم تكن تعرف أن السير وولتر سكوت ابن صانع قفّازات؟ وهل تعرف من كان ابن صانع قفّازات أيضًا، غير السير وولتر سكوت وولديّ الاثنين؟ إنه ويليام شكسبير. كان أبوه صانع قفّازات. ولم يكن يعرف كتابة اسمه ولا قراءته. هل تعرف ما يقوله روميو لجوليت عندما تكون واقفة على شرفتها؟ يعرف الجميع أنها تقول: ‹روميو، روميو، روميو، أين أنت يا روميو؟› فما الذي يقوله روميو؟ لم أكن أستطيع الإجابة على هذا السؤال عندما بدأتُ العمل في مدبغة في سن الثالثة عشرة، لكنني أستطيع الإجابة عليه الآن بفضل صديقي آل الذي توفي منذ زمن، للأسف الشديد. كان عمره ثلاثة وسبعين عامًا، فخرج من بيته وانزلق

على الجليد فسقط وكسر رقبته. شيء فظيع. هو من أخبرني بهذا. يقول روميو: ‘أترون كيف يستند خدها إلى كف يدها؟ لست أتمنّى إلا أن أكون ذلك القفّاز في يدها حتى ألمس ذلك الخد’. إنه كلام شكسبير، أشهر كاتب في التاريخ كلّه».

ومن جديد، قالت له سيلفيا ليفوف بصوت منخفض: «عزيزي لو، ما علاقة هذا بما يتحدّث عنه الجميع؟».

قال لها: «من فضلك،»... ولوّح بيده معترضًا نافد الصبر، حتى من غير أن ينظر في اتجاهها، ثم تابع كلامه... «وماذا عن ماك كوفرنايت؟ هذه فكرة لا أفهمها على الإطلاق. ما علاقة ماك كوفرنايت بهذا الفيلم؟ لقد منحت ماك كوفرنايت صوتي في الانتخابات. أقمتُ حملة انتخابية من أجله في بنايتنا. عليك أن تسمع ما كان يقوله لي أولئك اليهود من أن نيكسون مؤيد لإسرائيل في هذا الأمر، ومؤيد لإسرائيل في ذاك الأمر. لكني ذكّرتهم - إن كانوا قد نسوا - أن هاري ترومان هو من سمّاه نيكسون المحتال في سنة 1948، فانظر الآن إلى ما جناه أصدقائي الطيبون الذين صوّتوا للسيد فون(59) نيكسون ولقوات العاصفة المؤيّدة له. دعني أقول لك من يذهب إلى تلك الأفلام: الرعاع، والمتسكّعون، والأطفال الذين لا يهتم أهلهم بمراقبتهم. وأما السبب الذي يجعل ابني يأخذ زوجته الجميلة إلى فيلم من هذا النوع فهو شيء سأظلّ عاجزًا عن فهمه حتى أذهب إلى قبري».

قالت مارشا: «إنهما يذهبان لرؤية كيف يعيش النصف الآخر».

«زوجة ابني سيدة فاضلة. ليس لديها أي اهتمام بتلك الأشياء».

قالت له زوجته: «لو، ربما لا ينظر الجميع إلى الأمر مثلما تنظر إليه».

«لا أستطيع تصديق هذا. إنهم أشخاص أذكياء متعلمون».

بدأت مارشا تناكفه: «أنت تعزو للذكاء أهمية أكبر مما يجب. لكن الذكاء لا يلغي الطبيعة البشرية».

«هل تلك الأفلام هي الطبيعة البشرية؟ قولي لي، بماذا تجيبين الأطفال إذا سألوك عن تلك الأفلام؟ هل تقولين لهم إنها شيء جيد؟ إنها ممتعة؟».

قالت مارشا: «لست مضطرًا إلى أن تقول لهم شيئًا. فهم لا يسألون. في هذه

الأيام، صاروا يذهبون فحسب».

كان ما يحيّر لو ليفوف - بطبيعة الحال - هو أن ما يحدث هذه الأيام لا يبدو أنه يسبب لتلك الأستاذة، لتلك الأستاذة اليهودية، أي إزعاج في ما يتعلّق بالأطفال.

تدخّل شيلي سالزمان على نحو بدا معه أنه يريد وضع نهاية لهذا الحوار غير المبشّر بالخير، وأنه يريد كذلك مراضاة والد السويدي، ولو قليلًا: «لا أظن أن الأطفال هم الذين يذهبون إلى تلك الأفلام. أفضّل القول إنهم مراهقون».

«وهل تقبل بهذا، يا د. سالزمان؟».

ابتسم شيلي لسماع ذلك اللقب الذي يصر لو ليفوف على مخاطبته به بعد هذه السنين كلّها. كان شيلي رجلًا شاحبًا، ممتلئ الجسم، مدوّر الكتفين، يضع ربطة عنق على شكل فراشة ويرتدي سترة من نسيج قطني... طبيب أسرة مُجدّ غير قادر على إبعاد مسحة اللطف عن صوته. الشحوب، والهيئة العامة، والنظارة ذات الإطار الفولاذي على النمط القديم، وقمّة رأسه الخالية من الشعر، وذؤابات من شعر ملتفٍّ أبيض فوق أذنيه... افتقاره غير المقصود لأي بريق هو ما كان يجعل السويدي يشعر بأسف خاص تجاهه خلال أشهر علاقته بشيلا سالزمان... إلا أنه، د. سالزمان اللطيف، هو من آوى ميري في بيته! وهو لم يخفِ ميري عن الـ«إف بي آي» وحدهم، بل أخفاها عنه أيضًا، أخفاها عن أبيها، أخفاها عن الشخص الذي كانت في حاجة إليه أكثر من أي إنسان في العالم.

وأنا الذي كنت أشعر بالذنب نتيجة علاقتي السرية بزوجته... هكذا كان السويدي يقول لنفسه حتى عندما كان شيلي يقول لأبيه بصوت لطيف: «قبولي أو عدم قبولي أمرٌ لا علاقة له بذهاب أولئك المراهقين إلى تلك الأفلام أو بعدم ذهابهم إليها».

عندما طرحت داون أول مرة فكرة الذهاب إلى عيادة ذلك الطبيب لشد وجهها، كانت قد قرأت عن الأمر في مجلة فوغ - طبيب لا يعرفان عنه شيئًا، وعملية لا يعرفان عنها شيئًا - فما كان من السويدي إلا أن اتصل بشيلي سالزمان من غير إخبار داون، ثم ذهب وحده لرؤيته في عيادته. كان طبيبهم العائلي رجلًا يحظى باحترام السويدي: كهل متمهّل حذر، يستمع إلى أسئلة السويدي ويجيبه عنها

ويحاول، نيابة عنه، إقناع داون بالإقلاع عن تلك الفكرة. لكن السويدي اتصل بشيلي وسأله إن كان لديه وقت للقائه من أجل الحديث عن مشكلة عائلية. لم يدرك إلا بعد أن صار في عيادة شيلي أنه ذهب إليه لكي يعترف (بعد انقضاء أربع سنين على تلك العلاقة) بأنه أقام علاقة مع شيلا عقب اختفاء ميري. عندما استقبله شيلي مبتسمًا وسأله: «بمَ أستطيع مساعدتك؟». وجد السويدي نفسه موشكًا على القول: «بأن تصفح عني». وخلال حديثهما كلّه، كان السويدي يجد نفسه مضطرًا - كلما تكلّم - إلى كبت ذلك الدافع إلى إخبار شيلي بكل شيء، ذلك الدافع إلى القول: «لست هنا من أجل شد الوجه. إنني هنا لأنني فعلت شيئًا ما كان يجوز أن أفعله أبدًا. لقد خنت زوجتي. وخنتك، وخنت نفسي». لكن قول هذه الكلمات سيكون خيانة لشيلا، أليس هذا صحيحًا؟ ما عاد قادرًا على العثور على ما يبرر له الاضطلاع بمسؤولية الاعتراف لزوجها إلا بقدر ما كان ممكنًا لها أن تذهب هي وتعترف بالأمر لزوجته. ومهما اشتد توقه إلى التخفّف من سر يلوّثه وينيخ بثقله على كاهله، مهما تخيّل أن

- 9 -

جاءته مكالمة هاتفية. أتت واحدة من فتاتَي الخدمة من المطبخ لكي تخبره بذلك. همست له: «أظنها مكالمة من تشيكوسلوفاكيا».

تلقّى المكالمة في مكتب داون في الطابق السفلي حيث كان أوركوت قد وضع النموذج الكبير للبيت الجديد الذي صنعه من الورق المقوى. بعد أن ترك أوركوت جيسي على الشرفة مع السويدي ووالديه وكؤوس الشراب، لا بد أنه ذهب إلى سيارته وحمل النموذج إلى غرفة مكتب داون ووضعه على طاولتها قبل أن يذهب إلى المطبخ ويساعدها في تقشير أكواز الذرة. كانت ريتا كوهن هي من يتّصل به. لقد عرفت بأمر تشيكوسلوفاكيا لأن - «هم»: كانوا يلاحقونه عندما ذهب إلى القنصلية التشيكية في وقت سابق من ذلك الصيف. وكانوا يلاحقونه عندما ذهب إلى مستشفى الحيوانات بعد ظهر هذا اليوم. وكانوا يلاحقونه حتى غرفة ميري، حيث قالت له ميري إن لا وجود لفتاة اسمها ريتا كوهن. سألته ريتا: «كيف تستطيع أن تفعل هذا بابنتك؟».

«لم أفعل شيئًا بابنتي. أنت كتبت لي وأخبرتني عن مكانها».
«لقد أخبرتَها عما جرى في الفندق. قلتَ لها إنك لم تضاجعني».
«لم آتِ على ذكر الفندق أبدًا. لا أفهم ما تريدين قوله».
«أنت تكذب علي. لقد أخبرت ابنتك أنك لم تضاجعني. لقد حذّرتك من هذا الأمر. حذّرتك في الرسالة».

كان نموذج البيت الجديد منتصبًا على الطاولة، أمام السويدي مباشرة. صار الآن قادرًا على رؤية ما لم يستطع تصوّره اعتمادًا على توضيحات داون. لاحظ كيف يسمح سقف العلّية الطويل بدخول الضوء إلى الممر الرئيسي عبر صف من النوافذ المرتفعة ممتدٍّ على طول الجدار الأمامي. نعم، لقد رأى الآن كيف تدور الشمس في السماء مائلة صوب الجنوب فيغسل الضوء - كم كانت تبدو فرحة بأن تنطق كلمة «الضوء» بعد كلمة «يغسل» - الجدران البيضاء ويغير كل شيء لدى كل شخص.

كان سقف النموذج قابلًا للحركة. رفعه فصار قادرًا على النظر في الغرف مباشرة. كانت الجدران الداخلية موجودة كلّها. كان للأبواب غرف، وكانت فيها خزائن. رأى خزائن المطبخ أيضًا، والبراد، وآلة غسل الأطباق، ومكان الموقد والفرن. لقد ذهب أوركوت بعيدًا في الاهتمام بالتفاصيل فوضع في غرفة الجلوس قطع أثاث مصغّرة مصنوعة من الورق المقوى، ووضع طاولة قراءة عند نوافذ الجدار الغربي، ووضع أريكة وطاولات صغيرة وأريكة استلقاء وكنبتين وطاولة قهوة أمام كتلة الموقد الممتدة على عرض الغرفة كله. وفي غرفة النوم، قبالة النافذة العريضة المنخفضة، إلى جانب كتلة الأدراج (تدعوها داون «أدراج شيكر»)، كان هناك سرير كبير ينتظر شاغلَيه الاثنين. رفّان من أجل الكتب مثبتين إلى جانبي لوحة السرير. لقد صنع أوركوت بعض الكتب ووضعها على الرفين... كانت كتبًا صغيرة من الورق المقوى. وكانت لتلك الكتب عناوين أيضًا. لقد كان أوركوت متقنًا في عمل هذه الأشياء كلّها. إنه أكثر مهارة في هذا منه في الرسم، هكذا قال السويدي في نفسه. نعم، ألا تكون الحياة أقل عقمًا إن استطعنا صنعها بمقياس واحد إلى ستة عشر؟ كان الشيء الوحيد

الذي ينقص غرفة النوم قضيبٌ من الورق المقوى عليه اسم أوركوت. كان على أوركوت أن يصنع نموذجًا لداون بمقياس واحد إلى ستة عشر منبطحةً على بطنها وقد ارتفعت مؤخرتها في الهواء ومن خلفها قضيبُه متقدمًا صوبها. لو فعل ذلك كان أمرًا لطيفًا أن يكتشفه السويدي وهو واقف فوق مكتبها، ينظر إلى حلم داون المصنوع من الورق المقوى، ويحاول امتصاص غضب ريتا كوهن.

ما علاقة ريتا كوهن بالجاينية؟ ولماذا تكون هنالك علاقة بين شيء وآخر؟ لا، لا يا ميري، لا علاقة بينكما. ما علاقة هذا الصراخ الغاضب بك، أنت التي لا تريدين إلحاق الأذى حتى بالماء؟ لا علاقة لأي شيء بأي شيء... لا يمكن أن تكون هناك علاقة. العلاقة موجودة في رأسكَ أنت فقط. ولا وجود لأي منطق في أي مكان آخر.

لقد كانت تتعقّب ميري، تلحق بها، تتقفّى أثرها، لكنهما غير مرتبطتين، ولم تكونا مرتبطتين أبدًا. هذا هو المنطق!

لقد ذهبتَ بعيدًا جدًا. أنت تبالغ كثيرًا. أتظن أنك أنت من يدير العرض، يا بابا؟ أنت لا تدير أي شيء.

لكن، ما عادت هناك أية أهمية إن كان هو من يدير العرض أو لا يديره. وذلك لأن... إذا كانت ميري على صلة بريتا كوهن بأية طريقة من الطرق، وإذا كانت ميري قد كذبت عليه إذا قالت إنها لا تعرف ريتا كوهن، فمن الممكن تمامًا أن تكون قد كذبت عليه أيضًا عندما قالت له إن شيلا آوتها عندها بعد التفجير. إن كان الأمر هكذا، فسوف يصير قادرًا على الهرب مع شيلا للعيش في بورتوريكو عندما تذهب داون للعيش مع أوركوت في البيت المصنوع من الورق المقوى. وإذا سقط أبوه ميتًا نتيجة ذلك... حسنًا، سيكون عليهم أن يدفنوه. هذا ما سيفعلونه: سيدفنونه عميقًا في الأرض.

(وعلى الفور، تذكّر موت جده - تذكّر ما فعله موتُه بأبيه. كان السويدي طفلًا صغيرًا في السابعة من عمره. نقلوا جده إلى المستشفى على وجه السرعة في الليلة السابقة، وجلس أبوه مع أعمامه عند سرير العجوز المريض فسهروا طيلة الليل. كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف عندما عاد أبوه إلى البيت. لقد

توفي جد السويدي. خرج أبوه من السيارة، ثم سار حتى بلغ الدرجات التي أمام مدخل البيت وجلس على أول درجة منها. كان السويدي يراقبه من خلف ستائر نافذة غرفة المعيشة. لم يتحرّك أبوه حتى عندما خرجت إليه أمه لمواساته. ظلّ جالسًا من غير أية حركة، ظل جالسًا ساعة كاملة مائلًا بجسمه إلى الأمام وقد استند إلى ركبتيه بمرفقيه ودفن وجهه بين يديه. كان في داخله بحر من الدموع لا بد له من حبسه بيديه القويتين حتى يمنعه من الانهمار. وعندما صار قادرًا على رفع رأسه من جديد، عاد إلى سيارته وقادها ذاهبًا إلى العمل).

أتكون ميري قد كذبت عليه؟ هل غسلوا دماغها؟ هل هي سُحاقية؟ وهل ريتا كوهن صاحبتُها؟ هل ميري هي التي تدير هذا الجنون كله! وهل هما مصممتان على تعذيبي؟ أهذه هي اللعبة، اللعبة كلها، مضايقتي وتعذيبي؟

لا، ميري ليست كاذبة، ميري محقّة، لا وجود لريتا كوهن. إن كانت ميري تصدّق هذا فأنا أصدّقه. لست مضطرًا إلى الإصغاء إلى شخص غير موجود. الدراما التي أنشأتْها غير موجودة. اتهاماتها الحاقدة غير موجودة. وسلطتها غير موجودة. قوّتها غير موجودة. إن كانت غير موجودة، فهي لا قوة لها أبدًا. هل تستطيع ميري الجمع بين هذه المعتقدات الدينية وريتا كوهن؟ ليس على المرء إلا أن يستمع إلى ريتا كوهن تزمجر في الهاتف حتى يعرف أنها شخص ليس لديه أي تقديس لأي شكل من أشكال الحياة، لا على الأرض ولا في السماء. فما علاقتها بتجويع النفس وبالمهاتما غاندي وبمارتن لوثر كينغ؟ هي غير موجودة لأن وجودها غير متناسب مع هذا كلّه. لا محلّ لها فيه. بل إن... حتى هذه الكلمات ليست كلماتها. هذه ليست كلمات فتاة في مقتبل العمر. ما من أساس لهذه الكلمات. هذا تقليد لشخص ما. لا بد أن هناك شخصًا يلقّنها كل ما يريد قوله أو فعله. كان الأمر كلّه تمثيلًا، منذ البداية، إنها تمثيل. لم تصل إلى هذا من تلقاء نفسها. هناك شخص خلفها، شخص فاسد، شخص مشوَّه، متهكّم يجعل أولئك الأطفال يفعلون هذه الأشياء، شخص يجرّد ريتا كوهن وميري ليفوف من كل ما هو خيِّر، من كل ما هو موروث عندهما، ويدفع بهما إلى هذه الأفعال.

«هل تعتزم إعادتها إلى مباهج حياتكم البليدة كلّها؟ هل تعتزم انتزاعها من

قداستها وإعادتها إلى ما لديكم من مبررات ضحلة عديمة الروح لحياتكم؟ جنسك أحقر الأجناس على هذه الأرض... ألم تدرك هذا بعد؟ هل أنت قادر حقًّا على تصديق أنك، بفهمك للحياة... أنت الذي تتنعّم من غير عقاب على جريمة ثرائك... أنك تملك أي شيء، أي شيء على الإطلاق، تقدّمه إلى هذه المرأة؟ ما الذي تريد تقديمه إليها، على وجه التحديد؟ حياة من الإيمان الفاسد الذي تعيشه حتى الثمالة... أهذا هو؟ الحد الأقصى من اللياقة التي تعتاش على مصِّ الدماء! ألا تعرف من تكون هذه المرأة؟ ألم تدرك ما الذي صارته هذه المرأة؟ أليس لديك أية فكرة عما صار وجودها متّحدًا بوجوده؟». هذه الإدانة السرمدية للطبقة الوسطى آتية من شخص لا وجود له... هذا الاحتفاءُ بتفسّخ ابنته وبتآكل طبقته: مذنب!... مذنب بحسب رأي شخص لا وجود له. «هل تعتزم أخذَها بعيدًا عني؟ أنت، أنت الذي أصابك الغثيان عندما رأيتها؟ أصابك الغثيان لأنها ترفض قبول عالمك الأخلاقي الصغير القذر! قل لي، يا سويدي... كيف صرت ذكيًا إلى هذا الحد؟».

وضع سماعة الهاتف. داون لديها أوركوت؛ وأنا لديَّ شيلا؛ وميري لديها ريتا، أو ليست لديها... هل تستطيع ريتا البقاء عندنا على العشاء؟ هل يمكن أن تنام ريتا عندي؟ هل يمكن أن تستخدم ريتا حذائي؟ ماما، هل تأخذيننا بالسيارة إلى القرية، أنا وريتا؟... وأبي يسقط ميتًا. إن كان لا بد من ذلك، فلا بد من ذلك. لقد استطاع أن يتجاوز موت أبيه. وسوف أتجاوز موت أبي. سوف أتجاوز كل شيء. لست أبالي بما قد يكون للأمر من معنى، أو بما قد لا يكون له من معنى. ولست أبالي إن كان ملائمًا أو غير ملائم... من الآن فصاعدًا، هم لا يتعاملون معي، أنا غير موجود. إنهم يتعاملون الآن مع شخص غير مسؤول. إنهم يتعاملون الآن مع شخص لا يبالي بشيء. أيمكن أن أذهب أنا وريتا فأفجّر مكتب البريد؟ أجل مهما تكن رغبتكِ، يا عزيزتي. كائنًا من كان ذلك الذي سيموت، فإنه يموت.

الجنون والتحريض. لا شيء معروفًا. لا شيء قابلًا للتصديق. لا سياق تنتظم فيه الأشياء معًا. هو نفسه لم يعد منتظمًا مع نفسه. حتى قدرته على المعاناة لم

تعد موجودة.

تستولي عليه فكرة عظيمة: قدرته على المعاناة لم تعد موجودة.

لكن تلك الفكرة، على الرغم من عظمتها، لم تعش إلى أن تخرج معه من تلك الغرفة. ما كان ينبغي له أن ينهي تلك المكالمة... أبدًا. ستجعله يدفع ثمنًا هائلًا لقاء ذلك. ست أقدام وثلاثة إنشات، وست وأربعون سنة من العمر، وأعمال بملايين الدولارات، ومحطَّم للمرة الثانية على يد عاهرة ضئيلة الحجم لا تعرف الرحمة. هذه هي عدوّته؛ وهي موجودة. لكن، من أين أتت؟ لماذا تكتب لي، وتتصل بي، وتهاجمني... ما علاقتها بابنتي المسكينة المحطمة؟ لا شيء!

تركتْه مرة أخرى غارقًا في عرقه. ألمٌ رنان صاخب في رأسه. جسمه كله مشبع بتعب شديد جدًا كأنه بداية الموت. لكن عدوّته تثبت أن لها وجودًا حقيقيًا أكثر من وحش أسطوري. ليست عدوًا خفيًّا بالضبط، ليست لا شيء... لكن، ما هي إذًا؟ هي مراسل. نعم. إنها تنفّذ تعليمات أحد ما... تلعب لعبته عليه، وتوجّه اتهاماتها إليه، وتستغلّه، وتضلّله، وتقاومه، وتجعله في حالة جمود كلي حائر بأن تقول أية كلمات مجنونة تخطر في ذهنها فتطوّقه بعباراتها الجاهزة وتأتي إليه ثم تذهب كأنها مراسل. لكن، مراسل لدى من؟ من أين؟

لا يعرف عنها شيئًا. لا يعرف شيئًا إلا أنها تعبّر تعبيرًا تامًا عن غباء الناس الذين من نوعها. لكنه لا يزال الوغدَ الشرير بالنسبة إليها، ولا يزال كرهها له قويًا ثابتًا. إلا أنها صارت الآن في السابعة والعشرين. لم تعد طفلة. صارت امرأة. لكنها مثبتة في الوضعية نفسها تثبيتًا غريبًا. تتصرّف كأنها آلة مصنوعة من أجزاء بشرية، كأنها مكبر صوت، كأنها أجزاء بشرية مجمعة لتكون مكبر صوت مصممًا من أجل إحداث صوت مزلزل، من أجل إحداث صوت مدمّر يثير الجنون. مرت خمس سنين ولم يحدث تغيّر إلا في اتجاه مزيد من الصوت نفسه. كانت الجاينية هي الشكل الذي اتخذه تدهور ميري، وكان ارتفاع الصوت الشكل الذي اتخذه تدهور ريتا كوهن. لا يعرف عنها شيئًا غير أنها في حاجة أكثر من أي وقت مضى إلى أن تكون في موقع قيادة... إلى أن تكون غير متوقّعة، أكثر وأكثر وأكثر... يعرف أنه يتعامل مع شخصية مدمّرة لا تنثني،

مع شيء كبير في شخص صغير جدًا. مرت خمس سنين. عادت ريتا. هناك شيء ما. هناك شيء يصعب تخيّله موشك على الحدوث من جديد.

لن يستطيع أبدًا تجاوز الخط الذي كانتْه هذه الليلة. منذ أن ترك ميري في تلك الزنزانة، خلف ذلك اللثام، عرف أنه لم يعد رجلًا قادرًا على احتمال سحقه إلى ما لا نهاية.

لقد ضقت ذرعًا بالتوق وبأن أكون أنا نفسي. أشكركم!

فتح أحدهم باب غرفة المكتب. «هل أنت بخير؟»... إنها شيلا سالزمان.

«ماذا تريدين؟».

تدخل الغرفة وتغلق الباب من خلفها. «بدوت لي مريضًا على العشاء. لكنك الآن تبدو أسوأ حالًا».

كانت فوق طاولة مكتب داون صورة للثور كاونت. صورة ضمن إطار. وكانت الشرائط الزرقاء كلها التي فاز بها كاونت مثبتة على الجدار، إلى جانبَيّ الصورة. إنها صورة كاونت نفسها التي ظهرت في إعلان داون السنوي في مجلة «مربو أبقار السيمنتال». كانت ميري هي من اختار شعار الإعلان من ثلاثة اقتراحات عرضتها داون عليهم في المطبخ تلك الليلة بعد العشاء:

كاونت قادر على تحقيق العجائب من أجل قطيعكم. إن كنتم في حاجة إلى استخدام ثور، فهو كاونت. ثور تستطيعون تكوين قطيع بالاعتماد عليه.

في البداية، أصرّت ميري على اقتراح من عندها - تستطيعون الاعتماد على كاونت - لكن داون والسويدي اعترضا عليه فاختارت ميري «ثور تستطيعون تكوين قطيع بالاعتماد عليه»، وصار هذا شعار شركة أركادي بريدرز طيلة السنين الذي ظل فيها كاونت النجم الأنيق المفضّل لدى داون.

عادة، كانت على طاولة المكتب صورة لميري عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها. صورة لها وهي واقعة عند رأس ثورهم الطويل الضخم ممسكة برسنه الجلدي المثبت إلى حلقة في أنفه. تعلمت منذ أن كانت في الصف الرابع كيف تقود الثور وتسير به وتغسله وتتعامل معه. بدأت بالثيران الصغيرة، ثم انتقلت إلى الثيران الكبيرة، ثم علمتها داون كيف تجعل كاونت يقف وقفة

استعراضية: ترفع يدها بالرسن حتى يرفع رأسه، وتبقي الرسن مشدودًا بعض الشيء وتحركه بيدها قليلًا. تفعل هذا لكي تعرض كاونت بصورة جيدة، وأيضًا لكي تحافظ على تواصلها معه فيظل منتبهًا إلى إيعازاتها بأكثر مما يكون منتبهًا حين ترخي يدها فتتدلّى إلى جانبها. على الرغم من أن كاونت لم يكن مغرورًا ولا صعب المراس، فقد علّمتها داون ألّا تثق به أبدًا. من الممكن أن يعاند أحيانًا، حتى مع ميري وداون اللتين كانتا أكثر شخصين اعتاد التعامل معهما. كان السويدي قادرًا على أن يرى في تلك الصورة كل ما علّمته داون لميري بصبر وكل ما تعلمته ميري منها بلهفة واهتمام... صورة كان يحبّها مثلما أحب صورة داون التي ظهرت على غلاف مجلة «ديلفيل راندولف كوريير»، مرتدية سترتها الرياضية عند الموقد. لكن صورة ميري ذهبت مثلما ذهب ذلك التذكار العاطفي الباقي من طفولة داون، صورة الجسر الخشبي الساحر عند سترينغ ليك، الجسر الذي يعبر البحيرة إلى كنيسة سانت كاثرين، صورة ملتقطة في ضياء شمس الربيع وقد تفتّحت أزهار الأضاليا عند نهايتَيّ الجسر وتألقت في خلفية الصورة قبة النحاس فوق الكنيسة التي كانت داون تحب، في طفولتها، أن تتخيل نفسها فيها عروسًا في فستان زفاف أبيض. ما عاد على طاولة داون الآن غير نموذج - البيت الذي صنعه أوركوت من ورق مقوى.

سألته شيلا: «أهذا هو البيت الجديد؟».

«يا عاهرة!»...

لم تتحرّك. كانت تنظر إليه مباشرة، لكنها لم تتكلّم ولم تتحرّك. لو انتزع صورة كاونت عن الجدار وحطمها على رأسها لظلّت ثابتة من غير حركة، ولظلّت - على نحو ما - تجرّده من القدرة على التصرف كما يقول له قلبه. قبل خمس سنين، وعلى امتداد أشهر أربعة، كانا عاشقين. لماذا تقول له الحقيقة الآن إن كانت قادرة على حجبها عنه حتى في ذلك الوقت؟

قال لها: «اتركيني وحدي».

استدارت في اتجاه الباب لكي تفعل مثلما طلب منها، لكنه أمسك بذارعها وأدارها فصارت مستندة بظهرها إلى الباب المغلق: «لقد آويتِها عندك». لم يكن

صوته الهامس الذي خرج من حلقه محشرجًا بقادر على إخفاء شدة غضبه.
أطبقت يداه على رأسها. لقد أمسك برأسها في ما مضى بين هاتين الكفين القويتين، لكن ذلك لم يكن أبدًا مثلما أمسك برأسها الآن... «لقد آويتِها في بيتك».

«هذا صحيح».

«ولم تخبريني أبدًا».

لم تجبْه بشيء.

قال لها: «أستطيع قتلك!»... ثم تركها فور قوله هذا لها.

قالت شيلا: «هذا يعني أنك رأيتها». شبكت كفّيها أمامها بحركة أنيقة. هذا الهدوء الذي لا معنى له، بعد لحظات فقط من تهديده لها. هذه السيطرة السخيفة على النفس. دائمًا... ذلك التفكير المنضبط على نحو منتبه سخيف.

زمجر قائلًا: «أنت تعرفين كل شيء».

«أعرف ما مررتَ به. ما الذي يمكن فعلُه من أجلها؟».

«ما الذي يمكن فعله من جانبك أنت؟ لماذا سمحتِ لها بالذهاب؟ لقد أتت إلى بيتك. لقد فجّرت المتجر. كنتِ تعرفين كل شيء عن الأمر... فلماذا لم تتصلي بي؟ لماذا لم تخبريني؟».

«لم أكن عارفة بالأمر آنذاك. اكتشفته في وقت لاحق من تلك الليلة. لكنها كانت مذعورة عندما أتت إلى بيتي. كانت مضطربة خائفة، ولم أعرف السبب. ظننت أن شيئًا قد حدث في البيت».

«لكنك عرفتِ بالأمر بعد ساعات من ذلك. كم طال بقاؤها في بيتك؟ يومان، ثلاثة أيام؟».

«ثلاثة أيام، لقد ذهبت في اليوم الثالث».

«هذا يعني أنك كنت تعرفين ما حدث».

«اكتشفت ذلك في وقت لاحق. لم أستطع تصديق الأمر».

«كان ذلك في التلفزيون».

«لكنها كانت في بيتي آنذاك. وكنت قد وعدتها بأن أساعدها. قلت لها إن ما من

مشكلة أبدًا في أن تخبرني بما جرى لها، وقلت لها إنني سأحفظ السر ولن أبوح به لأحد أبدًا. طلبت مني أن أثق بها. كان ذلك قبل أن أشاهد الأخبار في التلفزيون. فكيف أستطيع خيانتها بعد ذلك؟ لقد كنتُ معالجتها؛ وكانت مريضتي. أردت دائمًا أن أفعل كل ما هو في مصلحتها. فما البديل الذي كان أمامي؟ هل أدفع بها إلى الاعتقال؟».

«اتّصلي بي. هذا هو البديل. اتّصلي بأبيها. لو أنك اتّصلت بي على الفور، وقلت لي إنها في أمان فلا تقلق عليها، ثم لم تسمحي لها بأن تغيب عن عينك...».

«لقد كانت فتاة كبيرة. كيف أستطيع جعلها لا تغيب عن عيني؟».

«احبسيها في البيت واجعليها تبقى هناك».

«إنها ليست حيوانًا. إنها ليست مثل قطة أو عصفور يمكنك أن تحبسه في قفص. كانت ستفعل ما تريد فعله، مهما يكن. كانت بيننا ثقة، يا سايمور؛ وإذا خنت ثقتها عند تلك اللحظة... أردتها أن تعرف أن في هذا العالم من تستطيع منحه ثقتها».

«لم تكن الثقة ما تحتاج إليه في تلك اللحظة! كانت في حاجة إلى أبيها».

«لكني كنت واثقة من أنهم سيبحثون عنها في بيتك. فما الفائدة من الاتصال بك؟ لم أكن قادرة على جلبها إليك. بل إنني بدأت التفكير في أنهم سيتوصّلون إلى أنها موجودة في بيتي. على نحو مفاجئ، بدا لي أمرًا طبيعيًا أنها ستأتي إلي بيتي. بدأت أظنّ أن هاتفي مراقب. فكيف أستطيع الاتصال بك؟».

«كنتِ قادرة على التواصل معي، بطريقة ما».

«كانت في حالة مضطربة هائجة عندما أتت إلى بيتي. أدركتُ أن في الأمر شيئًا. أدركت أن هنالك أمرًا ما غير طبيعي. كانت تصرخ بأشياء عن الحرب وعن أسرتها. ظننت أن شيئًا فظيعًا قد حدث في البيت. ظننت أن شيئًا فظيعًا قد حدث لها. لم تكن في حالة طبيعية، يا سايمور. أدركت أن شيئًا سيئًا جدًّا قد حدث لها. كانت تتكلّم كما لو أنها تكرهك كرهًا شديدًا. لم أستطع أن أتخيّل ما... لكنك تبدأ أحيانًا تصديق أسوأ الأشياء عن الناس. أظن أن هذا ما كنت أحاول

استبيانه عندما كنا معًا».
«ماذا؟ عن أي شيء تتحدثين؟».
«أيمكن حقًّا أن يكون هناك شيء غير سليم؟ هل يمكن حقًا أن تكونَ قد تعرضتْ لأمرٍ قادر على دفعها إلى فعل شيء من ذلك القبيل؟ كنت حائرة أيضًا. أريد أن تعرف أنني لم أصدق الأمر، لم أصدقه أبدًا. لم أكن أريد تصديقه. لكن، كان عليَّ أن أتساءل عن هذا، بالطبع!... سيتساءل عنه أي شخص يكون في مكاني».
«و...؟ و...؟ أقمتِ علاقة معي... فماذا اكتشفت، بحق الجحيم؟ ماذا اكتشفت بعد أن أقمت علاقة معي؟».
«اكتشفت أنك شخص محب لطيف. اكتشفت أنك مستعد لفعل أي شيء تستطيع فعله حتى تكون رجلًا لائقًا فطنًا. اكتشفت ما كنت أتخيّله موجودًا فيك قبل أن تفجر ميري ذلك المكان. صدقني يا سايمور، صدقني من فضلك، لم أردْ شيئًا غير أن تكون ميري في أمان. وهكذا فقد آويتها في بيتي. جعلتها تستحم، وأعطيتها مكانًا لكي تنام فيه. لم تكن عندي أية فكرة...».
«... عن أنها نسفت ذلك المتجر! أليس كذلك يا شيلا؟ لقد قُتل شخص هناك. أذاعت محطات التلفزيون كلها ذلك النبأ».
«لكني لم أعرف شيئًا إلى أن شغّلت التلفزيون».
«هذا يعني أنك عرفت في الساعة السادسة صباحًا. لكنها بقيت عندك ثلاثة أيام، وأنت لم تتصلي بي».
«وما الفائدة التي كانت يمكن أن تنجم عن اتصالي بك؟».
«أنا أبوها».
«أنت أبوها، وهي التي فجّرت المتجر. ما الفائدة المتوقّعة من إعادتها إليك؟».
«ألا تفهمين ما أقوله لك؟ إنها ابنتي!».
«إنها فتاة قوية جدًا».
«هل هي قوية إلى الحدّ الكافي لأن تهتم بنفسها في هذا العالم».
«لا. لم يكن من شأن جعلها تعود إليك أن يساعد أحدًا. وما كانت ابنتك لتقبل أن

تجلس وتأكل طعامها وتهتم بشؤونها. لا ينتقل المرء من تفجير متجر إلى...».

«كان من واجبك إخباري بأنها أتت إلى بيتك».

«كل ما فكرت فيه هو أن ذلك سيجعل من الأسهل لهم أن يعثروا عليها. لقد قطعت ابنتك شوطًا طويلًا وصارت قوية جدًا. ظننت أنها قادرة على تدبّر أمرها بنفسها. إنها فتاة قوية، يا سايمور».

«إنها فتاة مجنونة».

«إنها فتاة مضطربة».

«أوه، يا ربي. أليس للأب أي شيء يقوم به عندما تكون ابنته مضطربة؟»

«أنا واثقة من أن له دورًا كبيرًا يلعبه. وهذا ما جعلني غير قادرة... ظننت أن شيئًا فظيعًا قد حدث لها في البيت».

«حدث الشيء الفظيع في المتجر».

«لكن، كان عليك أن تراها، في ذلك الوقت، لقد سمنتْ كثيرًا».

«هل كان عليَّ أن أراها؟ وأين تظنين أنها كانت في ذلك الوقت؟ كان من مسؤوليتك أن تتواصلي مع أهلها!... لا أن تتركي تلك الطفلة تهرب إلى مكان مجهول. لم تكن يومًا في حاجة إليّ أكثر مما كانت في ذلك الوقت. لم تكن أبدًا في حاجة أشدّ إلى والدها. وأنت الآن تقولين لي إنها لم تكن في حاجة إلى والدها. لقد ارتكبتِ غلطة فظيعة. آمل أن تدركي هذا. كانت غلطة فظيعة، فظيعة».

«ما الذي كنتَ قادرًا على فعله من أجلها آنذاك؟ ما الذي كان أي شخص قادرًا على فعله من أجلها آنذاك؟».

«كنت أستحق أن أعرف. كان من حقي أن أعرف. إنها ابنتي القاصر، إنها ابنتي. كان من واجبك أن ترجعي إلي».

«واجبي الأول كان تجاهها هي. هي التي كانت مريضتي».

«لم تكن مريضتك في ذلك الوقت».

«كانت مريضتي قبل ذلك. كانت مريضة من نوع خاصّ جدًا. لقد اجتازت شوطًا كبيرًا. كان واجبي الأول تجاهها هي. كيف أستطيع أن أخون ثقتها؟ كان

الضرر قد وقع، على أية حال».
«لا أصدق أنك تقولين هذا الكلام».
«هذا هو القانون».
«أي قانون».
«التزامك بعدم خيانة مريضك».
«هناك قانون آخر، يا حمقاء، قانون يجرّم القتل! لقد كانت هاربة من العدالة».
«لا تتحدّث عنها هكذا. لقد هربتْ، بالطبع. ماذا يمكن أن تفعله غير ذلك؟ ظننت أنها قد تسلّم نفسها، لكنها ستفعل ذلك في الوقت الذي تقرّره هي، وبالطريقة التي تقرّرها هي».
«وماذا عني أنا؟ وماذا عن أمها؟».
«حسنًا، لقد كانت رؤيتك تقتلني».
«كنت ترينني على امتداد أربعة أشهر. هل كان ذلك يقتلك كل يوم؟».
«نعم، كلما فكرت في إمكانية أن تتخذ الأمور مسارًا مختلفًا لو أنني أخبرتك. لكنني لم أرَ الاختلاف الذي يمكن حقًّا أن يحدث. لم يكن هذا ليغير أي شيء. لقد كنتَ محطّمًا تمامًا».
«أنت عاهرة لا إنسانية».
«لم يكن لدي أي شيء آخر أستطيع فعله. لقد طلبتْ مني ألّا أخبرك. طلبتْ مني أن أثق بها».
«لا أفهم كيف استطعت أن تكوني قصيرة النظر إلى هذا الحدّ. ولست قادرًا على فهم كيف أمكن خداعك من قبل فتاة كان جنونها واضحًا تمامًا».
«أعرف أن هذا أمر تصعب مواجهته. الأمر كله مستحيل الفهم. لكن محاولتك إلقاء اللوم عليّ... محاولتك التصرف كما لو أن أي شيء أفعله كان يمكن أن يُحدث تغيرًا في مجرى الأمور... ما كان لأي شيء أقوم به أن يغير مجرى حياتها، وما كان لأي شيء أقوم به أن يغير مجرى حياتك. كانت هاربة. وما كانت إعادتها إلى البيت أمرًا ممكنًا. لم تكن الفتاة نفسها التي كانتها من قبل. لقد حدث لها شيء سيئ. لم أجد أي معنى لإعادتها إلى البيت. لقد سمنَتْ كثيرًا».

«كفي عن هذا! ما أهمية أن تكون قد سمنت؟».

«ظننت أنها سمنت وأنها صارت شديدة الغضب لأن شيئًا سيّئًا قد حدث لها في البيت».

«وظننت أيضًا أنني مذنب في ذلك».

«لم أكن أفكر هكذا. كلنا لدينا بيوت. وعادة ما تحدث تلك الأشياء السيئة في البيوت».

«وهكذا، فقد أخذت على عاتقك ترك فتاة عمرها ستة عشر عامًا وقتلت شخصًا تهرب في الليل. وحيدة، من غير حماية. كنت تعرفين أن الرب وحده يعرف ما الذي يمكن أن يحدث لها».

«أنت تتحدّث عنها كما لو أنها فتاة لا تستطيع الدفاع عن نفسها».

«إنها فتاة لا تستطيع الدفاع عن نفسها. لقد كانت دائمًا فتاة لا تستطيع الدفاع عن نفسها».

«يا سايمور، بعد أن فجّرتْ ذلك المتجر، لم يعد هنالك أي شيء يمكن القيام به. ما الفرق الذي كان يمكن أن أحققه لو أنني خنت ثقتها؟».

«لو فعلت ذلك، لكنتُ مع ابنتي!... لكنتُ حميتُها مما حدث لها بعد ذلك! أنت لا تعرفين ما حدث لها بعد ذلك. أنت لم تريها مثلما رأيتُها اليوم. إنها مجنونة تمامًا. لقد رأيتها اليوم، يا شيلا. لم تعد سمينة على الإطلاق... إنها مريضة... صارت عصا تكتسي خِرَقًا. إنها في غرفة في نيوارك في أسوأ حال يمكن تخيّلها. لا أستطيع أن أصف لك كيف تعيش. لو أنك أخبرتني فقط، لكان الوضع مختلفًا كله».

«لو أخبرتك لما قامت بيننا تلك العلاقة... هذا كلُّ ما كان يمكن أن يحدث من اختلاف. كنت أعرف أن من الممكن أن يجرحك هذا... بالطبع».

«أن يجرحني ماذا؟».

«أن يجرحك أنني رأيتها. لكني لم أكن قادرة على إثارة الموضوع من جديد لأنني لم أكن أعرف أين ذهبت. لم تصلني بعد ذلك أية معلومات عنها. هذا هو الأمر كلّه. لقد كانت في حالة جنون. كانت مضطربة حزينة. كانت غاضبة.

لكنها لم تكن مجنونة».
«أليس جنونًا أن تنسف متجرًا؟ أليس جنونًا أن تصنع قنبلة، ثم تزرع تلك القنبلة في مكتب البريد، في ذلك المتجر؟».
«ما أقوله هو أنها لم تكن مجنونة خلال وجودها في بيتي».
«لقد كانت مجنونة قبل ذلك. وكنت تعرفين أنها كانت مجنونة. ماذا لو تابعت الأمر وقتلت شخصًا آخر؟ أليس في هذا شيءٌ من المسؤولية؟ هل تعرفين أنها فعلت ذلك؟ لقد فعلته يا شيلا. قتلت ثلاثة أشخاص آخرين، فما قولك في هذا؟».
«أنت تقول هذا لتعذيبي فقط».
«إنني أقول لك شيئًا! لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين! كنتِ قادرة على الحيلولة دون حدوث هذا».
«أنت تعذبني. أنت تحاول تعذيبي».
«لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين...». في تلك اللحظة، انتزع صورة كاونت عن الجدار وقذف بها عند قدميها، لكن ذلك لم يصبها بالذعر... بدا كأنه لم يفعل إلا أن أعاد إليها سيطرتها من جديد. عادت تلعب دورها المعتاد: من غير غضب، وحتى من غير ردة فعل، استدارت صامتة بحركة هادئة وخرجت من الغرفة.
كان يدمدم قائلًا: «ما الذي يمكن فعله لها؟»... وكان في تلك اللحظة جاثيًا على ركبتيه يجمع بعناية وحذر شظايا الزجاج التي تناثرت في الغرفة ويرميها في سلة المهملات. «ما الذي يمكن فعله من أجلها؟ من الذي يمكن فعله من أجل أي شخص؟ لا يمكن فعل أي شيء. كانت في السادسة عشرة، كانت في السادسة عشرة وكانت مجنونة تمامًا. كانت قاصرًا، كانت ابنتي. لقد فجّرت المتجر. لقد كانت مخبولة، ولم يكن من حقكِ أن تتركيها تذهب هكذا».
عادت صورة كاونت القوي إلى الجدار من غير زجاج واستقرت في مكانها فوق المكتب. وبعد ذلك، كما لو أن الإصغاء إلى ثرثرة الناس المستمرة عن هذا الشيء أو ذاك كانت مهمةً أوكلتها إليه قوى القدر، عاد من وحشة المكان الذي كان فيه إلى السخافة المرتبة الراسخة لوليمة العشاء. ما عاد لديه ما يمسك

أجزاءَه معًا غير هذا... وليمة العشاء. كل ما كان لديه لكي يتعلّق به مع استمرار سير مشروع حياته كله صوب الدمار صار وليمة العشاء تلك.

عاد إلى الشرفة المنارة بالشموع وهو يحمل في داخله كل ما لم يكن قادرًا على فهمه.

كانت الأطباق قد رفعت عن الطاولة، والسلطة قد أُكلت، والحلوى قد قُدمت: فطيرة فراولة طازجة من متجر ماكفرسون. رأى السويدي أن ضيوفه قد غيروا أماكنهم من حول الطاولة مع تقديم الطبق الأخير. كان أوركوت (الذي لا يزال يخفي ما هو عليه من قذارة خبيثة خلف قميص هاواي والبنطلون ذي اللون التوتي) قد انتقل إلى الناحية الأخرى من الطاولة، وبدأ يتحدّث مع الزوجين أومانوف وقد عادوا جميعًا أصدقاء يضحكون معًا بعد أن انتهى ذلك الحديث عن الجنس الفموي. على أية حال، لم يكن الجنس الفموي هو الموضوع الحقيقي. كان الأمر الحقيقي المختفي خلف ذلك الحديث موضوعًا أكثر إيذاء وأكثر بشاعة، موضوع ميري، وشيلا، وشيلي، وأوركوت، وداون، موضوع الفجور والخيانة والخداع، موضوع الغدر والفرقة بين الجيران والأصدقاء، موضوع القسوة. الهزء بالنزاهة البشرية... دمار كل واجب أخلاقي. هذا ما كانه موضوع الحديث هنا، الليلة!

كانت والدة السويدي قد انتقلت وجلست إلى جانب داون التي كانت تتحدّث مع الزوجين سالزمان. وأما والده وجيسي فلم يرهما هناك.

سألته داون: «أهو أمر مهم؟».

«إنه الرجل التشيكي. القنصل التشيكي. المعلومات التي طلبتُها منه. أين أبي؟».

انتظر أن تقول له «مات». لكنها نظرت حولها ولم تقل إلا «لست أدري» وعادت إلى الحديث مع شيلي وشيلا.

همست له أمه: «ذهب أبوك مع السيدة أوركوت. ذهبا معًا إلى مكان ما. أظنهما في البيت».

نهض أوركوت، وأتى إليه. كانا من حجم واحد، رجلين ضخمين، كلاهما؛ لكن

السويدي كان أقوى منه دائمًا. فبالعودة إلى تلك الأيام عندما كانا في العشرينات من العمر، عندما ولدت ميري وانتقلت أسرة ليفوف خارجة من شقتها القديمة في جادة إليزابيث في نيوارك إلى أولد ريمروك، عندما أتى القادمون الجدد إلى مباراة الكرة صباح يوم السبت خلف بيت أوركوت، أتوا إلى ذلك المكان من أجل قضاء وقت جميل والتمتع بالهواء النقي وبالرفقة وبلعب الكرة، ومن أجل بناء بعض الصداقات الجديدة، لم يكن لدى السويدي أدنى نزوع إلى المباهاة أو إلى إظهار أي نوع من أنواع التفوق، إلا عندما يجد نفسه مضطرًا إلى ذلك... استمر هذا إلى أن بدأ أوركوت (الذي كان خارج الملعب رجلًا لطيفًا مراعيًا على الدوام) يستخدم يديه بتهور وخشونة اعتبرهما السويدي غير رياضيتين، بل بدأ يستخدمهما بطريقة اعتبرها السويدي رخيصة مزعجة، سلوك سيئ لا يصح اللجوء إليه في مباراة ودية عارضة، حتى لو كان فريق أوركوت متخلّفًا عن الفريق الآخر. بعد أن تكرّر حدوث ذلك في أسبوعين متتاليين، قرر السويدي في الأسبوع الثالث أن يفعل ما كان - بالطبع - قادرًا على فعله في أي وقت: أن يرمي أوركوت على الأرض. وهكذا، قبيل انتهاء اللعبة، نجح السويدي بمناورة سريعة بسيطة واحدة في التقاط تمريرة طويلة من باكي روبنسون وفي جعل أوركوت يسقط على وجهه فوق العشب عند قدميه، وذلك بأن استخدم وزنه ضده، ثم انطلق بالكرة لكي يسجّل نقطة. انطلق مبتعدًا عن أوركوت وهو يقول في نفسه: «لا أحب أن ينظر إليّ أحد نظرة متعالية». الكلمات نفسها التي استخدمتها داون عندما رفضت الانضمام إلى تلك الجولة في مقبرة عائلة أوركوت. لم يكن السويدي يدرك قبل انطلاقه بالكرة وحيدًا لتسجيل تلك النقطة كم كان إحساس داون بالتأذي من سلوك أوركوت قد تسرّب إليه، ولم يكن قد أدرك قبل ذلك كم كان انزعاجه من أدنى احتمال (احتمال كان قد حرص أمامها على التقليل من أهميته) لأن يسخر أحد هنا من زوجته لأنها ترعرعت في إليزابيث ولأنها كانت ابنة سبّاك إيرلندي. قال في نفسه عندما استدار عائدًا بعد تسجيل النقطة فرأى أوركوت لا يزال مستلقيًا على الأرض «مئتا سنة من التاريخ مستلقية على مؤخرتها هناك؛ سأعلّمك كيف تنظر إلى داون ليفوف

نظرة فوقية. في المرة القادمة، سأجعلك مستلقيًا على مؤخرتك طيلة المباراة»، ثم هرول مسرعًا إلى تلك الناحية من الملعب ليرى إن كان أوركوت بخير.

كان السويدي يعرف أنه لن يجد صعوبة، بعد أن يلقي بأوركوت على أرض الشرفة، في دق رأسه بالبلاط مرات كافية لجعله يذهب إلى تلك المقبرة حيث يرقد أسلافه المتميزون. نعم، هناك شيء خاطئ في هذا الرجل. كان ذلك الشيء موجودًا على الدوام، وكان السويدي يعرفه طيلة الوقت... عرفه من تلك اللوحات الفظيعة، وعرفه من استخدامه المتهوّر ليديه في تلك المباريات في حديقة بيته، بل عرفه حتى عندما كانا في تلك المقبرة حين أمضى أوركوت ساعة كاملة في إمتاع الزائر اليهودي بمعلوماته الغزيرة... نعم، لقد كان في داخله استياء كبير، منذ البداية. كانت داون تقول إنه فن، فن حديث، لكن ما كان معروضًا - على نحو قبيح - على جدار غرفة المعيشة في بيتهما، لم يكن أكثر من استياء ويليام أوركوت. لكنه حصل الآن على زوجتي! فبدلًا من تلك المصيبة، جيسي، حصل على ملكة جمال نيوجيرسي لعام 1949... أخذها بعد تجديدها وتنشيطها. حصل عليها جاهزة. حصل الآن على كل شيء. ابن العاهرة السارق الجشع.

قال له أوركوت: «أبوك رجل طيب. لا تحظى جيسي عادة بهذا الاهتمام كلّه عندما نخرج معًا. هذا هو السبب الذي يجعلها لا تحبّ الخروج. إنه شخص شديد الكرم. وهو لا يخفي شيئًا، أليس كذلك؟ لا يترك شيئًا غير مكشوف. ترى أمامك الشخص كلّه، كاملًا. تراه غير حريص على إخفاء شيء، وغير خجل من شيء. إنه يبذل جهده حقًا. شيء رائع. شخص مدهش حقًا. حضور كبير. يكون هو نفسه دائمًا. بالنظر إلى منبتي الاجتماعي، أجد نفسي أحسده على هذا كله».

أوه، أنا واثقٌ من أنك تحسده. أنت، يا ابن العاهرة. اسخر منا، أيها التافه. تابع سخريتك!

سأله السويدي: «أين هما؟».

«قال لها إن هناك طريقة واحدة لأكل قطعة من فطيرة طازجة: إنها الجلوس إلى طاولة المطبخ مع كأس كبيرة من الحليب البارد. أظنهما في المطبخ يشربان

الحليب. صارت جيسي تعرف عن صنع القفازات أكثر مما يلزمها بكثير؛ لكن هذا جيد أيضًا. لا ضرر منه. آمل ألا يكون قد أزعجك اضطراري إلى عدم تركها في البيت».

«نحن لا نريد أن تتركها في البيت».

«أنتم متفهمون كثيرًا».

قال له السويدي: «كنت أنظر إلى نموذج البيت في مكتب داون». لكنه كان ينظر إلى شامة على الناحية اليسرى من وجه أوركوت. شامة قاتمة مدفونة في طية الجلد الممتدة من أنفه إلى زاوية فمه. إن لدى أوركوت شامة بشعة أيضًا، إضافة إلى أنفه البشع! هل تجد داون هذه الشامة مغرية؟ هل تقبّل هذه الشامة؟ ألا ترى أبدًا أن وجه هذا الرجل سقيم بعض الشيء؟ أو... عندما يتعلّق الأمر برجل من الطبقة العليا في أولد ريمروك، فلعلّها تصير قليلة التدقيق في مظهره، تصير غير مهتمة به، تصير منفصلة عنه انفصالًا مهنيًا مثلما تفعل نساء بيت الدعارة هناك، في إيستون!

قال أوركوت: «أوه، أوه» محاولًا - بطريقة ودية - تجسيد كم كان غير واثق من جودة عمله. يستخدم يديه عندما يلعب كرة القدم؛ ويرتدي تلك القمصان؛ ويرسم تلك اللوحات؛ ويضاجع زوجة جاره؛ ويفلح في المحافظة - عبر ذلك كله - على مظهر الرجل المنطقي الذي يصعب سبر غوره. كلّه واجهات. وكله ألاعيب. كانت داون تقول إنه يبذل جهدًا كبيرًا لكي يظهر دائمًا بالمظهر نفسه. الجنتلمان في الأعلى، والجرذ في الأسفل. الشرابُ شيطانٌ كامن في زوجته؛ والشبق والمنافسة شيطانان كامنان فيه. متحفّظ، متمدّن، مفترس. تعزيز العدوانية المتوارثة - غلبة الأصل - عدوانية السلوك المتقن. محب البيئة الإنساني، المفترس الذي يحسب خطواته ويحمي ما حازه بالولادة ويستولي خلسة على ما هو ليس له. وحشية ويليام أوركوت المتمدّنة. صيغته المتمدّنة من السلوك الحيواني. إنني أفضل الأبقار!

قال له أوركوت: «كان المقصود أن نرى النموذج بعد العشاء... مع الحكاية المناسبة...». وسأله... «هل عنى لك أي شيء من غير الحكاية؟ لا أظن

هذا».
بالطبع، هدفه هو أن يكون شخصًا لا يُسبر له غور. ثم يمضي في الحياة نشيطًا ويستولي على الزوجات الجميلات. كان عليه أن يضرب رأسيهما بالمقلاة عندما رآهما في المطبخ.
قال السويدي: «لقد عنى لي الكثير». وعندها، لم يعد قادرًا على منع نفسه من الانتهاء من أمر أوركوت، فأضاف... «لقد أثار اهتمامي. أدركتُ أخيرًا فكرة الضوء. أدركت كيف سيغسل الضوء تلك الجدران. سيكون ذلك شيئًا جديرًا بأن يراه المرء. أظن أنكما ستكونان سعيدين جدًا فيه».
ضحك أوركوت: «تعني أنكما أنتما ستكونان سعيدين».
لكن السويدي لم يسمع غلطته. لم يسمعها بسبب الفكرة الضخمة التي جاءته في تلك اللحظة: ما كان عليه اليوم أن يفعله، لكنه لم يفعله؟
كان عليه أن يرغمها إرغامًا. وما كان يجوز أن يتركها هناك. جيري كان محقًّا. قد سيارتك إلى نيوارك. انطلق الآن. خذ باري معك. يستطيع الاثنان إخضاعها وجلبها بالسيارة إلى أولد ريمروك. وإذا كانت ريتا كوهن هناك، سأقتلها. إذا رأيتها بالقرب من ابنتي، فسوف أسكب البنزين على شعرها كله وأشعل النار في تلك القذرة الصغيرة. تحطّم ابنتي. تُريني فرجَها. تحطم طفلتي. ها هو المعنى... إنهم يحطمونها من أجل مسرّة تحطيمها. خذ شيلا معك. خذ شيلا. اهدأ. خذ شيلا إلى نيوارك. ميري تصغي إلى شيلا. سوف تكلّمها شيلا وتقنعها بالخروج من تلك الغرفة.
«... سأترك ذلك لضيفتك المثقّفة حتى تفهم كل شيء بطريقة خاطئة. تلك الفظّة المعجبة بنفسها التي تلعب اللعبة الفرنسية القديمة، لعبة مهاجمة البرجوازية...». كان أوركوت يُسِرُّ للسويدي بمدى استمتاعه باستعراضات مارشا... «في ما أرى، ينبغي أن تحسب لها لا مبالاتها بأنظمة ولائم العشاء القاضية بعدم قول أي شيء عن أي شيء. لكن الأمر يظل مدهشًا - يدهشني باستمرار كيف أن هذا الخواء يأتي مع الذكاء دائمًا. ليست لديها أدنى فكرة عما تتحدّث عنه. هل تعرف ما كان أبي يقوله؟ ‘ذكاء كثير من غير فهم. كلما ازداد

الذكاء، ازداد الغباء’. ينطبق هذا عليها».
ألا آخذ داون؟ لا. لا تريد داون أي مزيد مما يربطها بكارثتهما. لا تفعل الآن أكثر من تقبُّل قضاء الوقت معه إلى أن يُبنى البيت الجديد. اذهب وافعل ذلك بنفسك. اصعد إلى سيارتك اللعينة، واذهب إليها، وخذها. هل تحبها، أم إنك لا تحبّها؟ إنك ترضخ لها مثلما كنت ترضخ لأبيك، ومثلما كنت ترضخ لكل شيء في حياتك. أنت خائف من ترك الوحش يخرج من القفص. لقد صارت ابنتك ناقدة كبيرة للياقة والذوق. أما أنت فتبقي نفسك سرًّا مستغلقًا. أنت لا تقدِم على أي خيار أبدًا. لكن، كيف يمكنه أن يأتي بميري إلى البيت، الآن، الليلة، بذلك اللثام، في وجود أبيه هنا. إذا رآها أبوه، فسوف يسقط ميتًا في مكانه. فإلى أين يأخذها إذًا؟ إلى أين يمكن أن يأخذها؟ هل يمكنهما الذهاب للعيش معًا في بورتوريكو؟ لن تبالي داون بالمكان الذي يذهب إليه طالما أن لديها أوركوت. عليه أن يأخذها قبل أن تضع قدمها في ذلك النفق مرة أخرى. انسَ ريتا كوهن! انسَ تلك الحمقاء اللابشرية شيلا سالزمان. انسَ أوركوت. أوركوت لا أهمية له. جِدْ مكانًا لميري حتى تعيش حيث لا وجود لنفق. تلك هي المسألة كلّها. ابدأ بالنفق. أنقذها من احتمال أن تُقتل في ذلك النفق. اذهب قبل الصباح، حتى قبل أن تخرج من غرفتها... ابدأ من هناك.
كان يتحطّم بالطريقة الوحيدة التي يعرف كيف يتحطّم بها؛ إلا أنها لم تكن في حقيقة الأمر تحطمًا، بل غرقًا. لقد أمضى تلك الأمسية كلها وهو يغرق من غير انقطاع تحت هذا الثقل. رجل لا يعبّر عما في نفسه، ولا ينفجر... رجل يغرق فقط. أما الآن، فقد صار ما يجب القيام به واضحًا. اذهب واخرجها من هناك قبل الفجر.
بعد ذهاب داون... بعد ذهاب داون، تكون الحياة شيئًا لا يستطيع تصوّره. ليس لديه ما يستطيع فعله من غير داون. لكنها تريد أوركوت. لقد قالت في وقت ما... قالت متثائبة حتى توضح فكرتها: «إنه واسْب لا طعمَ له». لكن لانعدام الطعم هذا ألقٌ مذهل في عين فتاة كاثوليكية إيرلندية صغيرة. لا تريد والدة ميري ليفوف أقل من ويليام أوركوت الثالث. زوجُها الذي تضاجع غيره يفهم

هذا. إنه يفهمه، بالطبع. يفهم كل شيء الآن. من الذي سيعيدها إلى الحلم الذي أرادت دائمًا أن تذهب إليه؟ ملك جمال أميركا. إذا سارت مع أوركوت، فسوف تعود إلى السكة مرة أخرى. سبرينغ ليك، أتلانتيك سيتي، والآن ملك جمال أميركا. ستتخلّص من وصمة طفلتنا، من تلك الوصمة التي لحقت بها. ستتخلّص من وصمة تدمير المتجر وتصير قادرة على استئناف حياتها غير الملوثة. أما أنا، فقد بقيتُ متوقفًا عند ذلك المتجر. هي تعرف هذا. تعرف أنه ما عاد متاحًا لي أن أمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. صرت من غير فائدة لها. هذا أقصى ما يمكن أن تمشيه معي.

أتى لنفسه بكرسي وجلس بين زوجته وأمه، بل إنه أمسك بيد داون بين يديه وهي تتكلّم. هناك ألف طريقة مختلفة لأن تمسك يد شخص ما. هناك الطريقة التي تمسك بها يد طفل، والطريقة التي تمسك بها يد صديق، والطريقة التي تمسك بها يد أبيك المسن أو أمك المسنّة، والطريقة التي تمسك بها يد شخص مسافر أو محتضر أو ميت. أمسك بيد داون كما يمسك رجل بيد امرأة يعبدها، بكل تلك الإثارة واللهفة اللتين تَعْبُران يده كما لو أن ضغطًا على راحة اليد يؤدّي إلى حلول روحها في روحه وحلول روحه في روحها، كما لو أن تشابك الأصابع يرمز إلى كل ما هو حميم بينهما. أمسك بيد داون كما لو أن لا علم له بالحال التي صارت عليها حياته.

لكنه فكّر عند ذلك: إنها تريد أن تعود إليَّ أيضًا، لكنها لا تستطيع لأن الأمر فظيع أكثر مما تطيق. فماذا في وسعها أن تفعل؟ لا بد أنها تظن نفسها سُمًّا. لقد أنجبتْ قاتلة. عليها أن تتزوّج من جديد.

كان عليه أن يصغي إلى والده فلا يتزوّجها أبدًا. لقد عصاه، عصاه في تلك المرّة فقط. لكن ذلك كان كل ما يلزم، ذلك ما أنهى الأمر كله. لقد قال له والده: «هناك آلاف وآلاف من الفتيات اليهوديات المليحات، لكن عليك أن تبحث عن فتاتك. لقد وجدت لنفسك واحدة في الجنوب، في ساوث كارولاينا، تلك التي كانت من عائلة دونليفي؛ إلا أنك عدت إلى رشدك فتخلّصت منها. ثم أتيت إلى الديار ووجدت داون دواير هنا. لماذا، يا سايمور؟».

لم يكن السويدي قادرًا على إجابته بكلام صادق من قبيل «كانت تلك الفتاة في ساوث كارولاينا جميلة، لكن جمالها لا يبلغ حتى نصف جمال داون». ولم يكن قادرًا على القول له: «إن سلطان الجمال بعيد عن المنطق كل البعد». كان في الثالثة والعشرين من عمره، ولم يستطع أن يقول إلا «إنني أحبها».

«تقول 'إنني أحبها' فما معنى هذا؟ ماذا ستنفعك كلمة 'أحبها' عندما يصير لك طفل؟ كيف ستربي هذا الطفل؟ هل سيكون كاثوليكيًا؟ هل سيكون يهوديًا؟ لا، سوف تربي طفلًا لن يكون هذا ولا ذاك... وكله بسبب 'أحبها'!».

لقد كان أبوه محقًّا. هذا ما حدث بالفعل. لقد ربيا طفلة لم تصر كاثوليكية ولا يهودية، بل صارت في أول الأمر متأتئة، ثم قاتلة، ثم جاينيّة. لقد أمضى حياته كلها محاولًا عدم فعل شيء خاطئ، وهذه هي النتيجة: كل ما حبسه داخل نفسه ودفنه عميقًا إلى أقصى ما يستطيع الإنسان دفنه، قد خرج آخر الأمر؛ وهذا كله لأنه كانت هناك فتاة جميلة. كان أكثر الأشياء أهمية في حياته (منذ وقت ولادته، على ما يبدو) هو إبعاد المعاناة عن الأشخاص الذين يحبّهم، وأن يكون لطيفًا مع الناس، أن يكون شخصًا لطيفًا بكل معنى الكلمة. هذا ما جعله يأتي بداون سرًّا لمقابلة أبيه في مكتبه في المصنع في محاولة لتذليل العقبة الدينية وتفادي جعل أي منهما حزينًا أو غاضبًا. كان أبوه هو من اقترح هذا اللقاء: لقاءٌ وجهًا لوجه بين «الفتاة» كما كان لو ليفوف يتلطّف بالإشارة إليها في حضور السويدي، و«الغول» كما كانت الفتاة تدعوه. لم تكن داون خائفة؛ وقد أدهشت السويدي عندما وافقت على اللقاء. «لقد سرتُ على المنصة مرتدية ملابس السباحة، ألم أفعل هذا؟ إن كنت لا تعرف، فعلي إخبارك بأن الأمر لم يكن سهلًا. خمسة وعشرون ألف شخص. ليس السير في ملابس سباحة بيضاء ناصعة وحذاء أبيض ناصع مرتفع الكعب تحت أنظار خمسة وعشرين ألف شخص بالأمر الذي يجعلني أحسّ بأنني محترمة تمامًا. لقد ظهرت بملابس السباحة في مسيرة استعراضية، في كامدن، في الرابع من تموز، كان عليَّ أن أفعل هذا. كرهت الأمر. كاد أبي يموت. لكني فعلتها. ألصقت ثوب السباحة اللعين على جلدي، يا سايمور، حتى لا ينشمر... وضعت شريطًا لاصقًا شقّافًا على مؤخرتي.

أحسست كما لو أنني معتوهة. لكني قبلت وظيفة ‘ملكة جمال نيوجيرسي’ فقمت بعملي. عمل متعب جدًا. كل مدينة في الولاية. خمسون دولارًا مقابل كل ظهور. لكن المال يتراكم إذا كنت مجدًّا في عملك؛ وقد تراكم المال. كنت أعمل بجد على شيء مختلف تمام الاختلاف عمّا أردته، على شيء كان يخيفني حتى الموت، لكنّي قمت بالأمر. وفي ليلة عيد الميلاد عندما أبلغت أبي وأمي بخبر فوزي بلقب جمال مقاطعة يونيون... هل تظن أن ذلك كان أمرًا ظريفًا؟ لقد فعلتها. إذا كنت قد فعلت هذا كلّه، فأنا أستطيع فعل هذا أيضًا، لأن المسألة هذه المرة ليست مسألة وقوف فتاة سخيفة فوق عربة استعراض متحرّكة... إنها حياتي، مستقبلي كلّه. هذا أمر سيبقى! لكنك ستكون موجودًا، أليس كذلك؟ لست قادرة على الذهاب إلى ذلك المكان وحدي. عليك أن تكون موجودًا معي».

لقد كانت جريئة إلى حد لا يصدَّق فلم يكن لديه خيار غير أن يقول لها: «وأين يمكن أن أكون غير معك؟». حذّرها في طريقهما إلى المصنع من ذكر مسابح الصلاة أو الصلبان، أو الجنة؛ ونبهها إلى ضرورة أن تبتعد عن ذكر يسوع إلى أقصى حد ممكن. «إن سألكِ عمّا إذا كنتم تعلّقون صلبانًا في بيتكم، فقولي لا». «لكن هذه كذبة، لا أستطيع قول لا». «إذًا، قولي إن لديكم صليبًا واحدًا». «وهذه كذبة أيضًا». «داون، لن يكون مفيدًا من أية ناحية القول إن لديكم ثلاثة صلبان. صليب واحد مثل ثلاثة صلبان؛ وهو كافٍ لتوضيح ما تريدين توضيحه. قولي واحد فقط، من أجلي. قولي واحد». «حسنًا، سنرى». «وأنتِ لست مضطرة إلى ذكر الأشياء الأخرى». «وما هي الأشياء الأخرى؟». «مريم العذراء». «مريم العذراء ليست شيئًا». «أعني التماثيل. انسي الأمر كله. إذا سألك: ‘هل لديكم أية تماثيل دينية في البيت؟’ فقولي له لا... ليس عليك أن تقولي له إلا ‘ليست لدينا أية صور، ليست لدينا أية تماثيل. لدينا ذلك الصليب. هذا كل شيء’!».

شرح لها أن الزينات الدينية، كالتماثيل الموجودة في غرفة الطعام في بيتهم وفي غرفة نوم أمّها، والصور التي علّقتها أمها على الجدران، أمور تصعب مناقشتها مع أبيه. لم يكن يدافع عن موقف أبيه. كان يوضح لها أن الرجل قد نشأ

وفق طريقة بعينها، وأنه تكوّن على هذا الشكل. لا يستطيع أحد فعل شيء في ما يخص هذا الأمر؛ فلماذا نثيره ونزعجه؟

معارضة الأب ليست أمرًا سهلًا، وعدم معارضة الأب ليست أمرًا سهلًا. هذا ما كان السويدي يكتشفه.

كانت معاداة السامية موضوعًا شائكًا أيضًا. انتبهي إلى ما تقولينه عن اليهود. من الأفضل ألّا تقولي شيئًا عن اليهود. ابتعدي عن ذكر القساوسة. لا تقولي شيئًا عن القساوسة. «لا تحكي له تلك القصّة عن أبيك والقساوسة عندما كان يجمع الكرات في نادي الغولف الريفي في طفولته». «وما الذي يمكن أن يجعلني أروي له تلك القصّة؟». «لا أعرف. لكن، لا تقتربي منها». «لماذا؟». «لا أعرف. افعلي مثلما أقول لك».

لكنه كان يعرف السبب. لو قالت لأبيه إن أول مرة اكتشف فيها والدها أن للقساوسة أعضاء جنسية كانت في غرفة تبديل الملابس أثناء عمله جامعَ كرات في النادي أيام عطلة نهاية الأسبوع. فحتى ذلك الوقت، كان يظن أنهم عديمو الجنس من الناحية التشريحية. ومن الممكن الآن أن يقع والده تحت إغراء شديد يدفعه إلى سؤالها: «هل تعرفين ما يفعلونه بقطع الجلد الصغيرة بعد ختان الأولاد اليهود؟». سوف تقول له: «لست أدري، يا سيد ليفوف، ماذا يفعلون بها؟». سيجيبها السيد ليفوف - هذه واحدة من نكاته المفضّلة -: «إنهم يرسلونها إلى إيرلندا. ينتظرون إلى أن تجتمع كمية كبيرة منها، ثم يحزموها معًا ويرسلوها إلى إيرلندا حيث يصنعون منها القساوسة».

جرى بينها وبين أبيه حديث لا يمكن للسويدي أن ينساه أبدًا، ليس نتيجة ما قاله أبوه... لأن كل ما قاله كان متوقّعًا. كانت داون هي من جعلت ذلك الحديث ينطبع في ذاكرته. صدقُها، وامتناعها التام عن المراوغة في ما يتعلق بأمها وأبيها، أو في ما يتعلق بأي شيء تعرف أنه من الأشياء المهمّة لديها. كانت شجاعتها هي الشيء الذي لا يمكن أن ينساه أبدًا.

كانت أقصر من خطيبها بمقدار قدم. وبحسب ما قاله أحد أعضاء لجنة التحكيم لداون دواير بعد انتهاء المسابقة، فإنها لم تفشل في أن تكون واحدة من العشرة

الأوائل في أتلانتيك ستي لأن طولها كان خمس أقدام وإنشين ونصف الإنش (من غير حذائها ذي الكعب العالي) وذلك في سنة كانت فيها خمس أو ست بنات فارعات الطول لا تقلّ أي منهن عنها موهبة وجمالًا. لم يكن لقصر قامة داون إلا أن زاد عمق تعلّق السويدي بها (الذي ساهم أو لم يساهم في عدم ترشيحها إلى المسابقة النهائية - لم يكن ذلك تفسيرًا كافيًا لدى السويدي لأن ملكة جمال أريزونا خرجت فائزة مع أن طولها كان خمس أقدام وثلاثة إنشات فقط). لقد حرّضت داون التي كان طولها خمس أقدام وإنشين فقط، لدى السويدي الذي كان شابًا صغير السن شديد الإحساس بالواجب (شاب وسيم يبذل دائمًا جهدًا إضافيًا حتى يكون الجميع على بينة من أن هناك امرأة قد صارت مالكة لوسامته تلك كلّها)، دافعًا رجوليًا إلى حمايتها والدفاع عنها. قبل ذلك الاستجواب المرهق الذي انتهى بالتعادل بينها وبين أبيه، لم تكن لديه فكرة عن أنه واقع في حب فتاة قوية إلى هذا الحد؛ بل إنه حتى لم يسأل نفسه إن كان راغبًا في الوقوع في حب فتاة تبلغ قوتها هذا المبلغ كلّه.

كان التعميد الشيءَ الوحيد الذي كذبت في شأنه كذبًا مباشرًا، بمعزل عن عدد الصلبان في بيت أهلها. بدا آخر الأمر أنها قد استسلمت وقبلت بالتنازل عن التعميد. لكن هذا لم يحدث إلا بعد ثلاث ساعات من المفاوضات الشاقّة التي أحسّ السويدي منذ بدايتها (أدهشه هذا الأمر كثيرًا) كما لو أن والده قد صرف النظر عن هذه النقطة. ولم يدرك إلا في وقت لاحق أن العجوز قد تعمّد إطالة المناقشة إلى أن كادت طاقة الفتاة ذات الحادية والعشرين عامًا تستنفد تمامًا، ثم غيّر موقفه مئة وثمانين درجة وركّز على التعميد من جديد بحيث تمكّن من إنهاء الصفقة بينهما بأن تنازل لها عن الاحتفال بليلة عيد الميلاد وعن يوم عيد الميلاد وعن يوم عيد الفصح.

إلا أن داون عمّدت ابنتها بعد ولادتها. كان في وسعها أن تعمّدها بنفسها، أو أن تجعل أمها تفعل ذلك، لكنها أرادت تعميدًا حقيقيًا، فأتت بقس وبعرّابين وعرّابات وأخذت الطفلة إلى الكنيسة. لم يعرف أحد بالأمر إلا بعد أن شاءت المصادفة أن يكتشف لو ليفوف وثيقة التعميد في درج في غرفة النوم الخلفية غير المستعملة

في بيت السويدي في أولد ريمروك. كان السويدي وحده على علم بذلك. فقد أخبرته داون به في المساء بعد أن وضعت الطفلة المعمّدة حديثًا في مهدها لكي تنام بعد تطهيرها من الخطيئة الأصلية وجعلِها مستحقةً الذهاب إلى الجنة. عند اكتشاف تلك الوثيقة، كانت ميري قد صارت كنز العائلة، طفلة في السادسة من عمرها، فلم يستمر الغضب زمنًا طويلًا. إلا أن زوال الغضب لم يكن دلالة على أي اهتزاز في قناعة والد السويدي بأن سرّ التعميد هو العلّة الكامنة خلف الصعوبات التي واجهتها ميري كلّها: كان التعميد، وشجرة عيد الميلاد، والاحتفال بعيد الفصح، أمورًا كافية لجعل الطفلة المسكينة غير عارفة هويتها. وفوق هذا كلّه، كانت لديها جدّتها، الجدة دواير... لم تكن الجدة دواير عاملًا مساعدًا أبدًا. أصابت نوبة قلبية ثانية والد داون وهو يركّب الفرن بعد سبع سنين من ولادة ميري وسقط ميتًا، فصارت الجدة دواير دائمة الذهاب إلى كنيسة سانت جنيفييف. وكلما سنحت لها فرصة وكانت ميري بين يديها، كانت تأخذ الطفلة خلسة إلى تلك الكنيسة حيث لا يعلم غير الرب وحده ما كانوا يضخونه في رأسها. وكان السويدي (الذي صارت ثقته بأبيه - في هذا الأمر، بل في كل أمر - أكبر مما كانت قبل أن يصير هو نفسه أبًا) يقول لأبيه: «بابا، ليست ميري مهتمة بهذا الأمر كله. لا يعدو الأمر بالنسبة إليها أن يكون شأنًا من شؤون جدتها وما تفعله تلك الجدة. لا يعني الذهاب إلى الكنيسة مع أم داون أي شيء بالنسبة إلى ميري». لكنّ أباه ما كان ليشتري هذه البضاعة. كان يسأله: «لكنها تركع؛ ألا تركع؟ وهما تذهبان إلى ذلك المكان وتفعلان هذه الأشياء كلّها. إن ميري تركع هناك، أليس هذا صحيحًا؟».

«صحيح، بالتأكيد... أظن هذا، بالتأكيد، إنها تركع. لكن هذا لا معنى له عندها».

«هل هذا صحيح؟ لكن له معنى عندي... إن له معنًى كبيرًا...».

كان لو ليفوف يمتنع - يمتنع أمام ابنه فقط - من إقامة أي ربط بين صراخ ميري وبكائها، وبين تعميدها. لكنه لم يكن حذرًا إلى هذا الحد عندما يكون وحده مع زوجته. وفي أوقات انزعاجه (من بعض التفاهات الكاثوليكية) التي تعلّمُها

تلك المرأة دواير لحفيدته، كان يتساءل بصوت مسموع عما إذا كان ذلك التعميد السري هو السبب الحقيقي الكامن خلف بكاء الطفلة الذي سبّب فزعًا شديدًا للعائلة كلّها خلال السنة الأولى من عمرها. بل لعل ذلك الشيء، في تلك اللحظة، هو منبع كل ما حدث لها على الإطلاق. دخلت ميري هذا العالم باكية زاعقة، ثم لم يتوقّف زعيقها. كانت تفتح فمها على اتساعه عندما تزعق، تفتحه إلى حد يجعل الأوعية الدموية الصغيرة في وجنتيها تتمزّق. ظن الطبيب أول الأمر أنها تبكي بسبب المغص. لكن البكاء استمر ثلاثة شهور فكان لا بد من تفسير آخر، وهكذا أخذتها داون لإجراء أنواع كثيرة من الفحوص والاختبارات، وأخذتها إلى أطباء كثر... وما كانت ميري لتخيّب أمل أحد أبدًا: كانت تبكي وتزعق هناك أيضًا، عند الأطباء جميعًا! وفي مرحلة معينة، كان على داون أن تعصر البول من حفاض الطفلة وتأخذه إلى الطبيب لفحصه. في ذلك الوقت كانت لديهم مدبّرة المنزل ميرا، التي كانت صبية مرحة خالية البال دائمًا. ميرا الضخمة المبتهجة، ابنة عامل البار من «دبلن الصغيرة» في موريستاون. كانت ميرا تحمل ميري وتضعها على صدرها العامر الوافر كأنه وسادة، وتهدل لها، وتهدل لها، تهدل بعذوبة كما لو أن الطفلة ابنتها. لكن بكاء ميري يستمر ويستمر فلا تحصل ميرا على نتائج أفضل من التي تحقّقها داون. لم يبق شيء لم تحاول داون فعله حتى تكتشف ما يسبب انطلاق زعيق ابنتها. تخرج إلى السوبرماركت وتأخذ ميري معها بعد استعدادات مطوّلة مسبقة كما لو أنها تنوم الطفلة مغناطيسيًا حتى تظلّ الطفلة هادئة. من أجل الخروج إلى التسوّق فحسب، كانت تحمّم الطفلة وتجعلها تأخذ قيلولة، ثم تلبسها ثيابًا لطيفة نظيفة، وتضعها في السيارة. وعندما تصل، تضعها في عربة المتجر وتدور بها في أرجاء المتجر... يجري كل شيء على نحو حسن إلى أن يمرّ أحد ما فينحني فوق العربة ويقول: «أوه، ما أجمل هذه الطفلة!»... سيكون هذا كافيًا: بكاء لا ينقطع أربعًا وعشرين ساعة بعد ذلك.

يأتي وقت العشاء فتقول داون للسويدي: «لا فائدة من هذا الجهد كلّه. إنني أزداد جنونًا كل يوم. لو كان وقوفي على رأسي مفيدًا، لوقفت على رأسي... لكن، لا فائدة». يظهر الجميع في الفيلم الذي تم تصويره في عيد ميلاد ميري الأول وهم

يغنون لها: «عيد ميلاد سعيد»؛ وأما ميري، فهي جالسة في كرسي الأطفال المرتفع... تزعق عاليًا. مرت بضعة أسابيع بعد عيد ميلادها فبدأت ثورة الزعيق تهدأ من غير أي سبب ظاهر. ثم قل تواتر نوباتها. ولم تبلغ سنة ونصف السنة حتى صار كل شيء رائعًا، وظل رائعًا، واستمر رائعًا، إلى أن بدأت التأتأة.

الأمر السيئ الذي أصاب ميري هو نفسه الأمر السيئ الذي عرف جدها اليهودي أنه سيصيبها منذ ذلك اللقاء الصباحي في مصنعه في سنترال آفنيو. يومها، جلس السويدي على كرسي في زاوية غرفة المكتب بعيدًا عن خط النار؛ وكلما نطقت داون اسم يسوع، كان السويدي يلقي نظرة مبتئسة عبر جدار المكتب الزجاجي صوب المئة والعشرين امرأة عاملة على آلات الخياطة في ذلك الوقت. وأما بقية الوقت فكان ينظر إلى قدميه. جلس لو ليفوف خلف مكتبه وقد تصلّب وجهه كالحديد. لم يكن ذلك مكتبه المفضل الجاثم وسط النشاط الصاخب في صالة تجميع القفازات، بل المكتب الذي لا يستخدمه إلا في حالات نادرة، ذلك المكتب المعزول خلف جدران زجاجية من أجل توفير قدر من الهدوء. لم تبكِ داون، ولم تتحطّم... ولم تكذب - حقًّا - لم تكد تكذب على الإطلاق. ظلّت ثابتة متماسكة، تلك الفتاة بطولها البالغ اثنين وستين إنشًا ونصف الإنش. كانت داون رائعة... داون التي لم تكن لديها خبرة مسبقة من أجل مواجهة هذا الاستجواب القاسي غير المقابلة التي أجرتها عندما تقدّمت إلى مسابقة ملكة جمال ولاية نيو جيرسي فأحرزت نقاطًا ممتازة عندما وقفت أمام خمسة حكام جالسين وأجابت عن أسئلتهم حول حياتها.

ها هي بداية الاستجواب الذي لم ينسه السويدي أبدًا: ما اسمك الكامل، يا آنسة دواير؟

ميري داون دواير.

هل تضعين صليبًا في عنقك، يا ميري داون؟

كنت أضعه. وضعته فترة من الزمن أيام المدرسة الثانوية.

هل يعني هذا أنك تعتبرين نفسك مؤمنة؟

لا. لم يكن هذا السبب الذي جعلني أضع الصليب. وضعته لأنني أمضيت بعض الوقت في عزلة في أحد الأديرة. وعندما عدت إلى البيت، بدأت أضع الصليب. لم يكن رمزًا دينيًا كبيرًا. لم يكن إلا إشارة إلى أنني ذهبت إلى تلك العزلة في نهاية الأسبوع حيث كوّنت صداقات كثيرة. كان رمزًا لتلك الصداقات أكثر منه رمزًا يشير إلى كوني كاثوليكية مؤمنة.

هل في بيتكم صلبان؟ هل تعلّقون صلبانًا؟

صليب واحد فقط.

هل أمّك مؤمنة؟

حسنًا، إنها تذهب إلى الكنيسة.

هل تذهب كثيرًا؟

تذهب كثيرًا. تذهب كل يوم أحد. لا تتخلّف عن ذلك أبدًا. وهناك أوقات خلال الصوم الكبير يذهبون فيها إلى الكنيسة كل يوم.

وماذا تستفيد من ذلك؟

تستفيد من ذلك! لست أدري إن كنت أفهم السؤال. إنها تشعر بالراحة. يشعر المرء بالراحة عندما يكون في الكنيسة. صارت أمّي تذهب كثيرًا إلى الكنيسة بعد موت جدّتي. عندما يموت شخص ما، وعندما يمرض شخص ما، فإن الذهاب إلى الكنيسة يساهم في إراحة النفس. يكون لدى المرء شيء يفعله. يبدأ المرء تلاوة أدعيته من أجل شيء ما...

الآخر. كان كل منهما عاكفًا على تصميم ذلك البيت الجديد من أجل الآخر.

لو فرَّ إلى بونسي ليعيش هناك مع شيلا بعد اختفاء ميري - لا، لقد جعلته شيلا يعود إلى رشده ويستعيد توازنه ويرجع إلى زوجته، إلى ما بقي سليمًا من حياته، إلى الزوجة التي عرفت عشيقتُه (حتى عشيقته عرفت) أنه لا يستطيع أن يجرحها، ناهيك عن أن يهجرها، في أزمة كهذه. لكنّ هذين الاثنين كانا موشكين على إنجاز الأمر. أدرك هذا لحظة رآهما في المطبخ. أدرك اتفاقهما. سيتخلّص أوركوت من جيسي، وستتخلص زوجته منه، فيصير البيت لهما. تظن أن

كارثتنا قد مضت وانتهت، وأنها سوف تدفن الماضي وتبدأ من جديد: وجه جديد، وبيت جديد، وزوج جديد، وكل شيء جديد... «لن تستطيعي استفزازي هذه الليلة، مهما حاولتِ! ليس في هذه الليلة!».

إنهما الخارجان على القانون. لقد قالت داون لزوجها إن أوركوت يعيش خارج كل ما كانته عائلته في ما مضى... حسنًا، وهي أيضًا تعيش خارج حياتها التي صارت لها منذ زمن غير بعيد... داون وأوركوت: اللصان السالبان.

الخارجون على القانون موجودون في كل مكان. إنهم الآن داخل الأسوار.

(56)Deep Throat: هو الاسم المستعار للمخبر السري Mark Felt الذي كان يشغل منصب مدير مساعد في مكتب التحقيقات الفيدرالية وهو من سرَّب إلى مراسلَي الواشنطون بوست بوب ودوارد وكارل بيرنستين، المعلومات التي أدت إلى كشف تفاصيل فضيحة ووترغيت.

(57) مكغوفرنايتس McGovernites: كان عضوًا في مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي.

(58) جاكلين كندي: زوجة الرئيس الأميركي جون كندي.

(59) يقصد هنا تشبيه نكسون بالنازيين (المعادين لليهود) من خلال استخدام لقب «فون» الألماني واعتبار مؤيدي نكسون أشبه بـ«قوات العاصفة» النازية.

(60) عيد العمل Labor Day: يوم عطلة رسمية في الولايات المتحدة يصادف الاثنين الأول من شهر أيلول.

(61) جان جينيه Jean Genet: روائي فرنسي. - ويليام بوروز William Burroughs: كاتب أميركي يعتبر من أهم كتّاب ما بعد الحداثة.

هل يستخدمون المسبحة عند تلاوة الأدعية والصلوات؟

أجل يا سيدي.

وهل تفعل أمّك ذلك؟

تفعل ذلك، بالتأكيد.

فهمت. وهل يحب أبوك ذلك أيضًا؟

يحب ماذا؟
التمسّك بالكنيسة.
أجل. أجل، إنه يحب الكنيسة. يجعله الذهاب إلى الكنيسة يشعر بأنه رجل صالح، ويحس بأنه يقوم بواجبه. أبي شخص تقليدي جدًّا في ما يتعلّق بالأخلاق. كانت تربيته الكاثوليكية أكثر تشدّدًا من تربيتي. إنه رجل عامل. يعمل سبّاكًا. وهو يرى أن الكنيسة شيء كبير بالغ القوة يجعلك تفعل ما هو صائب. إنه شخص شديد التمسّك بتحديد الصواب والخطأ وبإنزال العقاب بمن يرتكب أمرًا خاطئًا. إنه متمسّك أيضًا بالقيود المفروضة على الجنس.
لا أختلف معه في هذا.
لا أظنّك مختلفًا عنه. أنت وأبي لستما مختلفين كثيرًا عندما يكون الأمر متعلّقًا بهذه الأمور.
باستثناء أنه كاثوليكي. هو كاثوليكي مؤمن، وأنا يهودي. هذا ليس اختلافًا صغيرًا.
حسنًا، لعله ليس اختلافًا كبيرًا أيضًا. إنه كذلك. نعم يا سيدي.
وماذا عن يسوع ومريم؟
ماذا عنهما؟
ما رأيك فيهما؟
هل تسألني عن رأيي فيهما كشخصين؟ أنا لا أنظر إليهما باعتبارهما شخصين. أتذكّر عندما كنت صغيرة وقلت لأمي إنني أحبها أكثر من أي أحد آخر. فقالت لي إن ذلك غير صحيح لأن علي أن أحبّ الرب أكثر.
الرب أم يسوع؟
أظنّها تحدّثت عن الرب. لعلّها تحدّثت عن يسوع. لكن ذلك لم يعجبني. كنت أريد أن تكون أمي أكثر شخص أحبّه. وأما غير هذا، فلست قادرة على تذكّر أية أمثلة محدّدة لاعتبار يسوع شخصًا، أو فردًا. الحالة الوحيدة التي يكون فيها أولئك الأشخاص حقيقيين هي عندما نحمل الصليب في يوم الجمعة العظيمة ونرتقي التلّ خلف يسوع الذاهب إلى الصلب. في ذلك الوقت، يصير يسوع

شخصًا حقيقيًا. وبالطبع، هناك أيضًا يسوع في مهده.

يسوع في مهده! كيف تنظرين إلى يسوع في المهد؟

كيف أنظر إليه؟ أحب يسوع الرضيع الصغير النائم في مهده.

لماذا تحبّينه؟

حسنًا، هناك دائمًا شيء مريح يسرني في ذلك المشهد. وهو شيء مهم أيضًا. إنها لحظة تواضع. ذلك القش كله؛ وتلك الحيوانات الصغيرة من حوله؛ وهو راقد. مشهد دافئ لطيف. لا تستطيع أبدًا أن تتخيّل أن الجو بارد أو عاصف هناك. شموع من حوله دائمًا. والجميع يحب هذا الطفل الصغير. هذا كل شيء. الجميع يحب هذا الطفل الصغير. نعم. لست أرى شيئًا سيئًا في هذا.

وماذا عن اليهود؟ دعينا ننظر في الجوانب العملية المهمّة، يا ميري داون. ماذا يقول أبوك وأمك عن اليهود؟

(تصمت لحظة). حسنًا، لا أسمع في بيتنا كلامًا كثيرًا عن اليهود.

ماذا يقول أبوك وأمك عن اليهود؟ أريد أن أسمع إجابة.

أعتقد أن الأمر الأكثر أهمية مما تسألني عنه هو أن أمي قد تكون مدركة أنها لا تحب أن يكون الناس يهودًا؛ لكنها غير مدركة أن من الممكن وجود أشخاص لا يحبّونها لأنها كاثوليكية. أتذكّر شيئًا لم أكن أحبه، وهو أن إحدى صديقاتي في هيلسايد رود كانت يهودية فلم تعجبني فكرة أنني سأذهب إلى الجنة من غيرها.

ولماذا لا تذهب صديقتك اليهودية إلى الجنة؟

إذا لم تكن مسيحيًا، فأنت لا تذهب إلى الجنة. أحزنني كثيرًا أنّ صديقتي شارلوت واكسمان لن تكون في الجنة معي.

ما الذي لا يعجب أمك في اليهود؟ يا ميري داون؟

هل يمكنك أن تدعوني داون، فقط... من فضلك؟

حسنًا...

ليس كونهم يهودًا هو ما لا يعجبها فيهم. مشكلتها هي أنهم ليسوا من الكاثوليك. في نظر أبي وأمي، إن لم تكن كاثوليكيًا، فإنك في صف البروتستانت.

أجيبيني؟

حسنًا، إنها الأشياء التي تسمعها دائمًا.
إنني لا أسمعها يا داون، عليك أن تخبريني بها.
حسنًا، أكثرها أشياء عن أن اليهود انتهازيون... (تصمت قليلًا)... ومادّيون (تصمت قليلًا). يستخدمون تعبير «البرق اليهودي».
البرق اليهودي!
نعم، البرق اليهودي.
ما معنى هذا؟
ألا تعرف معنى «البرق اليهودي»؟
ليس بعد.
عندما يُضرم المرء النار من أجل الحصول على مال التأمين. ألم تسمع بهذا من قبل؟
لا. هذا شيء جديد!
لقد صدمتك به. آسفة، لم أقصد ذلك.
صحيح. أنا مصدوم حقًّا. لكن علينا أن نستوضح الأمور، يا داون. هذا هو سبب وجودنا هنا.
لا يقصدون اليهود جميعًا. إنه تعبير مستخدم للتعبير عن يهود نيويورك.
وماذا عن يهود نيوجيرسي؟
(تصمت قليلًا). حسنًا، أظن أنهم أحد أنواع يهود نيويورك، على الأرجح.
فهمت. لا ينطبق تعبير «البرق اليهودي» على يهود ولاية يوتا، ولا على يهود ولاية مونتانا، هل هذا صحيح؟ إنه لا ينطبق على يهود مونتانا.
لست أدري.
وما رأي والدك في اليهود؟ دعينا نتحدّث عن كل شيء بصراحة ونجنّب الجميع قدرًا كبيرًا من المعاناة في وقت لاحق.
يا سيد ليفوف، مع أن هذه الأشياء تقال أحيانًا، إلا أنه ما من شيء يُقال معظم الوقت. أسرتي لا تتحدّث كثيرًا عن أي شيء. نذهب مرتين في السنة، أو ثلاث مرات، فنتناول الطعام في أحد المطاعم، أبي وأمي وأخي الأصغر وأنا. يدهشني

دائمًا أن أنظر من حولي فأرى بقية الأُسر تتبادل الأحاديث، أما نحن فنجلس ونأكل فقط.

إنك تغيرين الموضوع.

أنا آسفة. لم أقل هذا على سبيل البحث عن أعذار... فأنا لا أحب فعل ذلك. لكني أحاول القول إن ذلك كله ليس شيئًا مما يحملون مشاعر قوية تجاهه. ما من غضب أو كره حقيقيين من خلفه. ما أعنيه هو أن أبي، في حالات نادرة، يستخدم كلمة «يهودي» بطريقة مسيئة. الأمر ليس كبيرًا بأية حال من الأحوال؛ لكنّ شيئًا من هذا القبيل يظهر من حين لآخر. هذه هي الحقيقة.

وما هو شعورهما إزاء زواجك من يهودي؟

شعورهما تجاه هذا الأمر مثل شعورك من زواج ابنك من كاثوليكية. واحدة من بنات عمي متزوجة من يهودي. قد يتّخذون من هذا الأمر موضوعًا للمزاح أحيانًا، لكنهم لا يعتبرونه فضيحة كبيرة. لقد كانت كبيرة السن بعض الشيء فسُرَّ الجميع بزواجها... لأنها وجدت زوجًا.

هل كانت متقدّمة في السن إلى حد يجعلها تقبل الزواج من يهودي؟ كم كان عمرها؟ مئة سنة!

كانت في الثلاثين. لكن أحدًا لم يكن حزينًا من أجلها. لا يكون هذا أمرًا كبير الأهمية إلا إذا أراد أحدٌ استخدامه لإهانة شخص آخر.

وماذا يحدث عند ذلك؟

حسنًا... عند ذلك، قد يكون ذلك الشخص راغبًا في إبداء ملاحظة جارحة عندما يكون غاضبًا من الآخر. لا أظن أن مسألة الزواج من يهودي قضية كبيرة الأهمية بالضرورة.

إلى أن تبرز مسألة كيفية تنشئة الأطفال.

نعم، هذا صحيح.

فكيف تعتزمين حل هذه المشكلة مع أبويك؟

سيكون عليَّ حلّها مع نفسي.

ما معنى هذا؟

أريد تعميد أطفالي.
هل تريدين هذا بالفعل؟
يمكن للمرء أن يكون متحرّرًا إلى أقصى حد. لكن، ليس عندما يكون الأمر متعلّقًا بالتعميد.
ما الذي يجعل التعميد أمرًا مهمًا؟
حسنًا، إنه غسل للخطيئة الأصلية، ليس أكثر. لكن غسل الخطيئة الأصلية يجعل الطفل يذهب للجنة إذا مات. وأما إذا مات قبل تعميده فإنه يذهب إلى جهنم.
حسنًا، لا نريد أن يذهب الطفل إلى جهنم. دعيني أطرح عليك سؤالًا آخر.
لنفترض أنني وافقت وقلت إنني موافق على أن تعمّدي طفلك. فماذا تريدين غير ذلك؟
أظن أنني سأكون راغبة، عندما يأتي الوقت، في ذهاب طفلي إلى قُدّاسه الأول في الكنيسة. تناول القربان المقدس... كما ترى.
أفهم أنك لا تريدين غير تعميد الطفل حتى يذهب إلى الجنة عندما يموت؛ إضافة إلى القداس الأول. اشرحي لي معنى هذا.
إنه تناول القربان المقدس للمرة الأولى.
ما هو القربان المقدس؟
هذا هو جسدي، وهذا هو دمي...
هل هذا كلام عن يسوع؟
نعم. ألم تكن تعرف هذا؟... عندما يركع الجميع... «خذوا كلوا، هذا هو جسدي. هذا هو دمي؛ اشربوه». وعندها تقول «سيدي وإلهي»، وتأكل من جسد المسيح.
لا أستطيع قبول هذا. إنني آسف. لا أستطيع قبول هذا.
حسنًا، طالما أن هناك تعميدًا، فسوف نفكّر في هذه الأمور لاحقًا. لماذا لا نتركها للطفل عندما يأتي الوقت؟
أفضّل عدم ترك الأمر للطفل، يا داون. أفضّل أن أتخذ القرار بنفسي. لا أريد أن أترك الطفل يقرّر أن يأكل المسيح. إنني أحترم طقوسكم احترامًا كبيرًا، لكن

حفيدي لن يأكل المسيح. إنني آسف. هذا أمر غير وارد أبدًا. إليكِ ما سأقبل به. سوف أقبل بأن تعمّدي الطفل. هذا كل ما أستطيع فعله من أجلك.

أهذا كل شيء؟

أعطيك أيضًا الاحتفال بعيد الميلاد.

وماذا عن عيد الفصح؟

عيد الفصح، إنها تريد عيد الفصح يا سايمور. هل تعرفين ما هو عيد الفصح بالنسبة إليّ، يا عزيزتي داون؟ الفصح هو موسم كبير للطلب على القفّازات. ضغط كبير جدًا من أجل توفير القفّازات حتى تكون جزءًا من ملابس الناس في عيد الفصح. سوف أحكي لك قصة. في كل ليلة رأس سنة، بعد الظهر، ننهي ما لدينا من طلبات لتلك السنة، ويذهب الجميع إلى بيوتهم. وبعد ذلك، أجلس مع رئيسة العاملات ورئيس العمال ونفتح زجاجة شامبانيا. قبل أن ننهي الرشفة الأولى يأتينا اتصال من متجر في ويلمنغتون، في ديلاوير... مكالمة من المشتري هناك يطلب فيها مئة زوج من القفّازات الجلدية القصيرة البيضاء. ظللنا عشرين سنة نعرف أن تلك المكالمة ستأتينا أثناء شرب نخب السنة الجديدة من أجل مئة زوج من القفّازات. تكون تلك القفّازات من أجل عيد الفصح!

هل كان هذا تقليدًا لديكم؟

لقد كان تقليدًا لدينا، يا آنستي. لكن، أخبريني على أية حال، ما هو الفصح؟

إنه قيامته.

من هو؟

يسوع. قيامة يسوع.

يا آنسة... أنت تجعلين الأمر شديد الصعوبة. كنت أظن أن الفصح هو ذلك الموكب.

إن لدينا موكبًا.

حسنًا، لا بأس. سوف أقبل بأن يشارك حفيدي في الموكب. ما رأيك في هذا؟

نحن نتناول لحم الخنزير في الفصح.

إن كنتِ تريدين ذلك اللحم في الفصح، ففي وسعك تناول ذلك اللحم في الفصح.

وماذا أيضًا؟

نذهب إلى الكنيسة معتمرين قبعة عيد الفصح.

وترتدون أيضًا زوجًا من القفّازات الجيّدة البيضاء. آمل هذا.

صحيح.

هل تريدين الذهاب إلى الكنيسة في عيد الفصح مصطحبة حفيدي معك؟

نعم. سوف نكون ما تريده أمي، مرة في السنة... كاثوليكيان.

أهذا هو الأمر، مرة في السنة. (يصفّق يديه معًا). فلنتّفق على هذا. مرة في السنة. لقد اتفقنا!

حسنًا، سيكون ذلك مرتين في السنة، الفصح وعيد الميلاد.

ماذا تفعلون في عيد الميلاد؟

عندما يكون الطفل صغيرًا، يمكننا الذهاب إلى القداس حيث ينشدون ترانيم عيد الميلاد. يجب أن يكون المرء هناك عندما ينشدون تلك الترانيم، وإلا فإن الأمر يصير كله لا قيمة له. من الممكن سماع ترانيم عيد الميلاد عبر الراديو. وأما في الكنيسة، فإن إنشاد الترانيم لا يبدأ إلا بعد ولادة يسوع.

لست مهتمًّا بهذا. لا تثير هذه الترانيم أي اهتمام عندي. كم يومًا يستمر هذا الأمر في عيد الميلاد؟

حسنًا، لدينا ليلة عيد الميلاد. وقداس منتصف الليل، يكون قداس منتصف الليل قداسًا كبيرًا...

لست أعرف معنى هذا، ولا أريد معرفته. سوف أوافق على ليلة عيد الميلاد وعلى يوم عيد الميلاد، وسوف أعطيك عيد الفصح أيضًا. لكني لا أوافق على ذلك الجزء... عندما تأكلون لحم الخنزير.

والتلقين. ماذا عن التلقين؟

لا أستطيع الموافقة على هذا.

هل تعرف معنى التلقين؟

لست مضطرًا إلى معرفة ذلك. ولن أقبل بأكثر مما قبلت به إلى الآن. أظنّ بأنه عرض سخيّ. سوف يخبرك ابني بهذا، فهو يعرفني... لقد سرت في اتجاهك

إلى أكثر من منتصف الطريق. ما هو التلقين؟
إنه الذهاب إلى المدرسة وتعلم أقوال المسيح.
بالتأكيد لا! مفهوم؟ هل هذا واضح؟ هل نحن متفقان على كل شيء؟ وهل يتعيّن علينا أن ندوّن ما اتفقنا عليه؟ هل أستطيع الثقة بك، أم إن علينا تدوين هذا الاتفاق على الورق؟
هذا يخيفني، يا سيد ليفوف.
هل أنت خائفة؟
نعم، خائفة. (تكاد دموعها تنهمر)، لا أظنني قادرة على خوض هذا الصراع.
إنني معجب بكيفية خوضك هذا الصراع.
يا سيد ليفوف، سوف ننجز الأمر في وقت لاحق.
لن ينفعنا إنجازه في وقت لاحق. إما أن ننجزه الآن أو أننا لن ننجزه أبدًا. لا يزال علينا أن نتحدّث عن دروس «بار ميتزفاه»(62).
إذا كان الطفل صبيًا، فسوف يجري له «بار ميتزفاه». وسوف نعمّده أيضًا. وبعدها، يمكنه أن يقرّر بنفسه.
يقرّر ماذا؟
بعد أن يكبر، يمكنه أن يقرر الدين الذي يعجبه أكثر من غيره.
لا، لن يقرّر أي شيء. أنا وأنت سنقرّر الأمر هنا.
لكن، لماذا لا ننتظر ونرى؟
لن نرى شيئًا.
(مخاطبةً السويدي) لا أستطيع الاستمرار في هذا الحديث مع أبيك. إنه قاسٍ كثيرًا. سوف أخسر بالتأكيد. لا نستطيع التفاوض هكذا يا سايمور. لا أريد «بار ميتزفاه».
ألا تريدين «بار ميتزفاه»؟
مع التوراة، وكل ذلك؟
نعم هذا صحيح.
لا، لا أريد.

لا تريدين! إذًا، لا أظن أننا قادران على التوصل إلى اتفاق.
يعني هذا أننا لن ننجب أطفالًا. إنني أحبّ ابنك. لكننا لن ننجب أطفالًا.
وأنا لن أكون جدًّا أبدًا. أهكذا تريدين أن يكون اتفاقنا؟
لديك ابن آخر.
لا، لا، لن ينجح هذا. أرجو ألا تنزعجي، لكني أظن - ربما - أن من الأفضل أن يذهب كل واحد في سبيله.
ألا يمكننا الانتظار لرؤية ما يحدث؟ يا سيد ليفوف، لا يزال أمام هذا كله وقت طويل، سنين كثيرة. فلماذا لا نستطيع تركه يقرّر، أو تركها تقرّر، ما يريده؟
قطعًا لا. لن أسمح لطفل باتخاذ هذا النوع من القرارات. كيف يمكنه اتخاذ القرار، بحق الجحيم؟ ما الذي يعرفه أصلًا؟ نحن كبار راشدون، وأما الطفل فليس راشدًا. (ينهض واقفًا خلف مكتبه). يا آنسة دواير، أنت جميلة كأنك صورة. أهنئك على ما استطعت الوصول إليه. لا تستطيع كل فتاة أن تصل إلى هذا. لا بد أن أباك وأمك فخوران بك كثيرًا. أشكرك لأنك أتيت إلى مكتبي. شكرًا لك، ومع السلامة.
لا. لن أذهب. لن أذهب. أنا لست صورة، يا سيد ليفوف. إنني أنا نفسي. أنا ميري داون دواير من إليزابيث في نيوجيرسي. عمري واحد وعشرون عامًا. وأنا أحب ابنك. هذا سبب وجودي هنا. إنني أحب سايمور. إنني أحبّ ابنك. دعنا نواصل طريقنا، من فضلك.
تم الاتفاق على الصفقة، وتزوّج الصغيران، ثم ولدت ميري وجرى تعميدها سرًّا. وإلى أن توفي والد داون عندما أصابته النوبة القلبية الثانية في سنة 1959، ظلّت العائلتان تجتمعان كل سنة على عشاء عيد الشكر في أولد ريمروك. ولدهشة الجميع - ربما باستثناء داون - كان لو ليفوف وجيم دواير يمضيان الوقت كله في سرد قصص كثيرة عمّا كانت عليه الحياة عندما كانا صبيَّيْن. ذاكرتان قويتان تجتمعان فيصير من العبث أن يحاول أحد كبحهما. يكونان منهمكين في شيء أكثر جدية وأكثر أهمية من اليهودية والكاثوليكية - إنهما يتحدّثان عن نيوارك وإليزابيث. يمضيان النهار كله فلا يستطيع أحد إبعاد

واحدهما عن الآخر. «كان المهاجرون كلهم في الميناء»... كانت قصص جيم دواير تبدأ من الميناء دائمًا... «كانوا يعملون في مصنع سنجر. كان ذلك هو المصنع الكبير هناك. وأيضًا، كانت هناك صناعة السفن، بالطبع. لكن كل شخص في إليزابيث عمل في مصنع سنجر في وقت من الأوقات. ربما عمل بعضهم في جادة نيوارك، في شركة باري للبسكويت والمعجّنات. كان الناس يصنعون آلات الخياطة، أو يصنعون البسكويت والمعجنات. لكن أكثرهم كان يعمل لدى سنجر، أرأيت هذا؟... تمامًا في الميناء، في آخر الميناء، عند النهر. كانت تلك الشركة أكبر رب عمل في هذه الناحية». هذا ما كان دواير يقوله، فيجيبه الآخر: «بالتأكيد، يستطيع المهاجرون جميعًا الحصول على عمل في مصنع سنجر فور وصولهم. كان ذلك أكبر مصنع في المنطقة. وشركة ستاندرد أويل أيضًا. كانت شركة ستاندرد أويل في ليندن. إنه قسم بايواي. تمامًا عند نهاية ما كانوا في تلك الأيام يدعونه إليزابيث الكبرى... والعمدة! جوي بروفي. طبعًا. كان مالكًا لشركة الفحم؛ وكان عمدة المدينة أيضًا. ثم أتى بعده جيم كيرك، أوه، نعم، العمدة هارل. شخصية مهمة. يستطيع صهري ميد إخبارك بكل شيء عن فرانك هاغ. إنه خبير مدينة جيرسي. إذا أدليت بصوتك على نحو صحيح في انتخابات المدينة، فإنك تحصل على وظيفة. ملعب البيسبول هو كل ما أعرفه. كان في مدينة جيرسي ملعب بيسبول عظيم. ستاد روزفلت. جميل. وهم لم يستطيعوا الإمساك بهوغ أبدًا، كما تعلم، ولم يستطيعوا تنحيته. انتهى به الأمر بأن صار يعيش في بيت على الشاطئ، بيت بعد حديقة أزبوري، مباشرة. لديه بيت جميل... الفكرة هي أن إليزابيث مدينة رياضية عظيمة، لكن من غير منشآت رياضية عظيمة. لم يكن لديها أبدًا ملعب بيسبول تدفع خمسين سنتًا حتى تستطيع دخوله. كانت لدينا ملاعب مفتوحة، ملعب بروفي، وملعب ماتانو، وملعب وارانانكو، كلها ملاعب عامة. لكن الفرَق التي كانت لدينا كانت فرقًا عظيمة فيها لاعبون عظيمون. كان ميكي ماكدرموت يلعب مع فريق سان باتريك في إليزابيث. ونيوكولي، ذلك الفتى الملوّن، كان يلعب مع إليزابيث أيضًا. إنه يعيش الآن في كولونيا، لكنه فتى إليزابيث. كان يلعب مع جيفرسون.

وكان يسبح مع آرفور كيل. هكذا كان الأمر. بالتأكيد. كان ذلك بالقرب من المكان الذي أمضي فيه عطلاتي. كنت أذهب مرتين كل سنة في نزهة إلى منتزه آزبوري. كانت تلك هي عطلتي. وكنت أسبح في آرفور كيل، تحت جسر جيوثالز. وكنت أعود إلى البيت وقد امتلأ شعري شحمًا فتقول لي أمي: 'لقد كنت تسبح في آرفور كيل'. أجيبها 'نهر إليزابيث؟ أتظنين أنني مجنون؟'. وكان شعري يظلّ دبقًا طيلة الوقت بسبب ذلك الشحم، كما تعلم...».

وأما الحماتان، فلم يكن العثور على أرضية مشتركة بينهما على هذا القدر من السهولة، وذلك على الرغم من أن دورثي دواير كانت قادرة على الثرثرة قليلًا في عيد الشكر - تكون ثرثارة بقدر ما تكون متوترة الأعصاب -. لكن الكنيسة كانت موضوع حديثها على الدوام. «كنيسة سان باتريك. إنها الكنيسة الأصلية هناك. عند الميناء، لقد كانت أبرشية جيم هناك. أقام الألمان أبرشية سان مايكل. وأقام البولنديون أبرشية سان أدالبرت عند تقاطع الشارع الثالث وشارع إيست جيرسي. ثم تأتي كنيسة سان باتريك خلف جاكسون بارك مباشرة، عند المنعطف. وأما كنيسة سانت ميري فهي في جنوب مدينة إليزابيث حيث بدأ أبي وأمي حياتهما. كانا يعملان في إنتاج الحليب هناك، في شارع موراي. كنيسة سان باتريك، القلب المقدّس في شمال إليزابيث، القربان المقدس، وكنيسة الروح الطاهرة... كلها إيرلندية. كنيسة سانت كاثرين أيضًا، إنها في ويستمنستر. حسنًا، إنها ضمن المدينة. على سفح التل عمليًا، لكن المدرسة على الناحية الأخرى من الشارع واقعة ضمن إليزابيث. ثم تأتي كنيستنا، كنيسة سانت جنيفييف. كانت كنيسة سانت جنيفييف كنيسة تبشيرية، كما ترين... كانت مجرد جزء من كنيسة سانت كاثرين. كنيسة خشبية فحسب. لكنها الآن كنيسة كبيرة جميلة. وأما البناء الموجود الآن... أتذكر عندما دخلت ذلك البناء...».

كان ذلك أمرًا مرهقًا إلى أقصى حد: دورثي دواير تثرثر عن مدينتها إليزابيث كما لو أننا في العصور الوسطى، وكما لو أن ما من نقاط علام يُسترشد بها خلف الحقول التي يحرثها الفلاحون إلا أبراج كنائس الأبرشية المتناثرة في الأفق. دورثي دواير تثرثر وتثرثر عن كنيسة سان جيم، وكنيسة سان باتريك

وكنيسة سانت كاثرين، في حين تظلّ سيلفيا ليفوف جالسة قبالتها يمنعها فرط تهذيبها من فعل أي شيء غير الإيماء برأسها والابتسام لمحدّثتها، لكن وجهها يصير شاحبًا مبيضًّا مثل ملاءة السرير. تجلس هناك، وتتحمّل الأمر كله، وتجتاز تلك المحنة بتهذيبها وحُسن خُلُقها. على وجه الإجمال، لم يبلغ الأمر من السوء ذلك الحد الذي توقّعه الجميع. ثم إنهم لم يكونوا يلتقون إلا تلك المرة الوحيدة في السنة، وذلك على أرضية محايدة، غير دينية، ألا وهي عيد الشكر حين يأكل الجميع الطعام نفسه ولا يتسلّل أحد مبتعدًا عن الآخرين حتى يأكل شيئًا غريبًا خاصًّا به: لا كيوغل،(63) ولا سمك غيفيلت، ولا أعشاب مرة الطعم... وحده الديك الرومي الضخم الذي يتناوله مئتان وخمسون مليون أميركي في ذلك اليوم... ديك رومي ضخم واحد يأكل منه الجميع. حظر مؤقت لكل طعام غريب، ولكل طريقة غريبة، ولكل تميّز ديني. حظر مؤقت على حنين يهودي إلى ماضٍ عمره ثلاثة آلاف سنة، وحظر مؤقت على المسيحيين في كل ما يتعلّق بالمسيح والصلب والصليب. يومٌ يكون فيه كل شخص في نيوجيرسي، وفي كل مكان غيرها، قادرًا على الابتعاد عما يخصه من اللاعقلانية أكثر من أي يوم آخر من أيام السنة. حظر مؤقت على الحساسيات والمظالم كلها، لا من أجل آل دواير وآل ليفوف وحدهما، بل من أجل كل من لديه شكوك تجاه الآخرين في أميركا كلها. إنه اليوم الذي تصير فيه أميركا راعية الجميع... أكثر من أي يوم آخر، يوم يستمر أربعًا وعشرين ساعة.

«لقد كان رائعًا، ذلك الجناح الرئاسي، غرفة معيشة وثلاث غرف نوم. ذلك ما كنت تحصلين عليه في تلك الأيام عندما تصيرين ملكة جمال نيوجيرسي. أظنه لم يكن محجوزًا عندما أتينا، فأعطونا إياه». هذا ما كانت تقوله داون للزوجين سالزمان عن رحلتهما إلى الخارج من أجل استطلاع أبقار سيمنتال في سويسرا.

كانت داون تقول ضاحكة: «لم أكن قد ذهبت إلى أوروبا قبل ذلك. وطيلة الطريق، كان الجميع يقولون لي ‘لا شيء مثل فرنسا. انتظري حتى نصل إلى ميناء لوهافر في الصباح، وسوف تشمّين رائحة فرنسا. سوف تحبين فرنسا’ وهكذا انتظرت إلى أن جاء الصباح وكان سايمور لا يزال راقدًا في الفراش.

عرفت أننا رسَونا فأسرعت خارجة إلى سطح السفينة وتنشّقت الهواء. لم أشم في ذلك المكان غير رائحة البصل والثوم».

«وظننت أيضًا أنني مذنب في ذلك».

«لم أكن أفكر هكذا. كلنا لدينا بيوت. وعادة ما تحدث تلك الأشياء السيئة في البيوت».

«وهكذا، فقد أخذت على عاتقك ترك فتاة عمرها ستة عشر عامًا وقتلت شخصًا تهرب في الليل. وحيدة، من غير حماية. كنت تعرفين أن الرب وحده يعرف ما الذي يمكن أن يحدث لها».

«أنت تتحدّث عنها كما لو أنها فتاة لا تستطيع الدفاع عن نفسها».

«إنها فتاة لا تستطيع الدفاع عن نفسها. لقد كانت دائمًا فتاة لا تستطيع الدفاع عن نفسها».

«يا سايمور، بعد أن فجّرتْ ذلك المتجر، لم يعد هنالك أي شيء يمكن القيام به. ما الفرق الذي كان يمكن أن أحققه لو أنني خنت ثقتها؟».

«لو فعلت ذلك، لكنتُ مع ابنتي!... لكنتُ حميتُها مما حدث لها بعد ذلك! أنت لا تعرفين ما حدث لها بعد ذلك. أنت لم تريها مثلما رأيتُها اليوم. إنها مجنونة تمامًا. لقد رأيتها اليوم، يا شيلا. لم تعد سمينة على الإطلاق... إنها مريضة... صارت عصا تكتسي خِرَقًا. إنها في غرفة في نيوارك في أسوأ حال يمكن تخيّلها. لا أستطيع أن أصف لك كيف تعيش. لو أنك أخبرتني فقط، لكان الوضع مختلفًا كله».

«لو أخبرتك لما قامت بيننا تلك العلاقة... هذا كلُّ ما كان يمكن أن يحدث من اختلاف. كنت أعرف أن من الممكن أن يجرحك هذا... بالطبع».

«أن يجرحني ماذا؟».

«أن يجرحك أنني رأيتها. لكني لم أكن قادرة على إثارة الموضوع من جديد لأنني لم أكن أعرف أين ذهبت. لم تصلني بعد ذلك أية معلومات عنها. هذا هو الأمر كلّه. لقد كانت في حالة جنون. كانت مضطربة حزينة. كانت غاضبة. لكنها لم تكن مجنونة».

«أليس جنونًا أن تنسف متجرًا؟ أليس جنونًا أن تصنع قنبلة، ثم تزرع تلك القنبلة في مكتب البريد، في ذلك المتجر؟».

«ما أقوله هو أنها لم تكن مجنونة خلال وجودها في بيتي».

«لقد كانت مجنونة قبل ذلك. وكنت تعرفين أنها كانت مجنونة. ماذا لو تابعت الأمر وقتلت شخصًا آخر؟ أليس في هذا شيءٌ من المسؤولية؟ هل تعرفين أنها فعلت ذلك؟ لقد فعلته يا شيلا. قتلت ثلاثة أشخاص آخرين، فما قولك في هذا؟».

«أنت تقول هذا لتعذيبي فقط».

«إنني أقول لك شيئًا! لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين! كنتِ قادرة على الحيلولة دون حدوث هذا».

«أنت تعذبني. أنت تحاول تعذيبي».

«لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين...». في تلك اللحظة، انتزع صورة كاونت عن الجدار وقذف بها عند قدميها، لكن ذلك لم يصبها بالذعر... بدا كأنه لم يفعل إلا أن أعاد إليها سيطرتها من جديد. عادت تلعب دورها المعتاد: من غير غضب، وحتى من غير ردة فعل، استدارت صامتة بحركة هادئة وخرجت من الغرفة.

كان يدمدم قائلًا: «ما الذي يمكن فعله لها؟»... وكان في تلك اللحظة جاثيًا على ركبتيه يجمع بعناية وحذر شظايا الزجاج التي تناثرت في الغرفة ويرميها في سلة المهملات. «ما الذي يمكن فعله من أجلها؟ من الذي يمكن فعله من أجل أي شخص؟ لا يمكن فعل أي شيء. كانت في السادسة عشرة، كانت في السادسة عشرة وكانت مجنونة تمامًا. كانت قاصرًا، كانت ابنتي. لقد فجّرت المتجر. لقد كانت مخبولة، ولم يكن من حقكِ أن تتركيها تذهب هكذا».

عادت صورة كاونت القوي إلى الجدار من غير زجاج واستقرت في مكانها فوق المكتب. وبعد ذلك، كما لو أن الإصغاء إلى ثرثرة الناس المستمرة عن هذا الشيء أو ذاك كانت مهمةً أوكلتها إليه قوى القدر، عاد من وحشة المكان الذي كان فيه إلى السخافة المرتبة الراسخة لوليمة العشاء. ما عاد لديه ما يمسك أجزاءَه معًا غير هذا... وليمة العشاء. كل ما كان لديه لكي يتعلّق به مع

استمرار سير مشروع حياته كله صوب الدمار صار وليمة العشاء تلك.
عاد إلى الشرفة المنارة بالشموع وهو يحمل في داخله كل ما لم يكن قادرًا على فهمه.
كانت الأطباق قد رفعت عن الطاولة، والسلطة قد أُكلت، والحلوى قد قُدمت: فطيرة فراولة طازجة من متجر ماكفرسون. رأى السويدي أن ضيوفه قد غيروا أماكنهم من حول الطاولة مع تقديم الطبق الأخير. كان أوركوت (الذي لا يزال يخفي ما هو عليه من قذارة خبيثة خلف قميص هاواي والبنطلون ذي اللون التوتي) قد انتقل إلى الناحية الأخرى من الطاولة، وبدأ يتحدّث مع الزوجين أومانوف وقد عادوا جميعًا أصدقاء يضحكون معًا بعد أن انتهى ذلك الحديث عن الجنس الفموي. على أية حال، لم يكن الجنس الفموي هو الموضوع الحقيقي.
كان الأمر الحقيقي المختفي خلف ذلك الحديث موضوعًا أكثر إيذاء وأكثر بشاعة، موضوع ميري، وشيلا، وشيلي، وأوركوت، وداون، موضوع الفجور والخيانة والخداع، موضوع الغدر والفرقة بين الجيران والأصدقاء، موضوع القسوة. الهزء بالنزاهة البشرية... دمار كل واجب أخلاقي. هذا ما كانه موضوع الحديث هنا، الليلة!
كانت والدة السويدي قد انتقلت وجلست إلى جانب داون التي كانت تتحدّث مع الزوجين سالزمان. وأما والده وجيسي فلم يرهما هناك.
سألته داون: «أهو أمر مهم؟».
«إنه الرجل التشيكي. القنصل التشيكي. المعلومات التي طلبتُها منه. أين أبي؟».
انتظر أن تقول له «مات». لكنها نظرت حولها ولم تقل إلا «لست أدري» وعادت إلى الحديث مع شيلي وشيلا.
همست له أمه: «ذهب أبوك مع السيدة أوركوت. ذهبا معًا إلى مكان ما. أظنهما في البيت».
نهض أوركوت، وأتى إليه. كانا من حجم واحد، رجلين ضخمين، كلاهما؛ لكن السويدي كان أقوى منه دائمًا. فبالعودة إلى تلك الأيام عندما كانا في العشرينات

من العمر، عندما ولدت ميري وانتقلت أسرة ليفوف خارجة من شقتها القديمة في جادة إليزابيث في نيوارك إلى أولد ريمروك، عندما أتى القادمون الجدد إلى مباراة الكرة صباح يوم السبت خلف بيت أوركوت، أتوا إلى ذلك المكان من أجل قضاء وقت جميل والتمتع بالهواء النقي وبالرفقة وبلعب الكرة، ومن أجل بناء بعض الصداقات الجديدة، لم يكن لدى السويدي أدنى نزوع إلى المباهاة أو إلى إظهار أي نوع من أنواع التفوق، إلا عندما يجد نفسه مضطرًا إلى ذلك... استمر هذا إلى أن بدأ أوركوت (الذي كان خارج الملعب رجلًا لطيفًا مراعيًا على الدوام) يستخدم يديه بتهور وخشونة اعتبرهما السويدي غير رياضيتين، بل بدأ يستخدمهما بطريقة اعتبرها السويدي رخيصة مزعجة، سلوك سيئ لا يصح اللجوء إليه في مباراة ودية عارضة، حتى لو كان فريق أوركوت متخلّفًا عن الفريق الآخر. بعد أن تكرّر حدوث ذلك في أسبوعين متتاليين، قرر السويدي في الأسبوع الثالث أن يفعل ما كان - بالطبع - قادرًا على فعله في أي وقت: أن يرمي أوركوت على الأرض. وهكذا، قبيل انتهاء اللعبة، نجح السويدي بمناورة سريعة بسيطة واحدة في التقاط تمريرة طويلة من باكي روبنسون وفي جعل أوركوت يسقط على وجهه فوق العشب عند قدميه، وذلك بأن استخدم وزنه ضده، ثم انطلق بالكرة لكي يسجّل نقطة. انطلق مبتعدًا عن أوركوت وهو يقول في نفسه: «لا أحب أن ينظر إليّ أحد نظرة متعالية». الكلمات نفسها التي استخدمتها داون عندما رفضت الانضمام إلى تلك الجولة في مقبرة عائلة أوركوت. لم يكن السويدي يدرك قبل انطلاقه بالكرة وحيدًا لتسجيل تلك النقطة كم كان إحساس داون بالتأذي من سلوك أوركوت قد تسرّب إليه، ولم يكن قد أدرك قبل ذلك كم كان انزعاجه من أدنى احتمال (احتمال كان قد حرص أمامها على التقليل من أهميته) لأن يسخر أحد هنا من زوجته لأنها ترعرعت في إليزابيث ولأنها كانت ابنة سبّاك إيرلندي. قال في نفسه عندما استدار عائدًا بعد تسجيل النقطة فرأى أوركوت لا يزال مستلقيًا على الأرض «مئتا سنة من التاريخ مستلقية على مؤخرتها هناك؛ سأعلّمك كيف تنظر إلى داون ليفوف نظرة فوقية. في المرة القادمة، سأجعلك مستلقيًا على مؤخرتك طيلة المباراة»،

ثم هرول مسرعًا إلى تلك الناحية من الملعب ليرى إن كان أوركوت بخير.
كان السويدي يعرف أنه لن يجد صعوبة، بعد أن يلقي بأوركوت على أرض الشرفة، في دق رأسه بالبلاط مرات كافية لجعله يذهب إلى تلك المقبرة حيث يرقد أسلافه المتميزون. نعم، هناك شيء خاطئ في هذا الرجل. كان ذلك الشيء موجودًا على الدوام، وكان السويدي يعرفه طيلة الوقت... عرفه من تلك اللوحات الفظيعة، وعرفه من استخدامه المتهوّر ليديه في تلك المباريات في حديقة بيته، بل عرفه حتى عندما كانا في تلك المقبرة حين أمضى أوركوت ساعة كاملة في إمتاع الزائر اليهودي بمعلوماته الغزيرة... نعم، لقد كان في داخله استياء كبير، منذ البداية. كانت داون تقول إنه فن، فن حديث، لكن ما كان معروضًا - على نحو قبيح - على جدار غرفة المعيشة في بيتهما، لم يكن أكثر من استياء ويليام أوركوت. لكنه حصل الآن على زوجتي! فبدلًا من تلك المصيبة، جيسي، حصل على ملكة جمال نيوجيرسي لعام 1949... أخذها بعد تجديدها وتنشيطها. حصل عليها جاهزة. حصل الآن على كل شيء. ابن العاهرة السارق الجشع.
قال له أوركوت: «أبوك رجل طيب. لا تحظى جيسي عادة بهذا الاهتمام كلّه عندما نخرج معًا. هذا هو السبب الذي يجعلها لا تحبّ الخروج. إنه شخص شديد الكرم. وهو لا يخفي شيئًا، أليس كذلك؟ لا يترك شيئًا غير مكشوف. ترى أمامك الشخص كلّه، كاملًا. تراه غير حريص على إخفاء شيء، وغير خجل من شيء. إنه يبذل جهده حقًا. شيء رائع. شخص مدهش حقًا. حضور كبير. يكون هو نفسه دائمًا. بالنظر إلى منبتي الاجتماعي، أجد نفسي أحسده على هذا كله».
أوه، أنا واثقٌ من أنك تحسده. أنت، يا ابن العاهرة. اسخر منا، أيها التافه. تابع سخريتك!
سأله السويدي: «أين هما؟».
«قال لها إن هناك طريقة واحدة لأكل قطعة من فطيرة طازجة: إنها الجلوس إلى طاولة المطبخ مع كأس كبيرة من الحليب البارد. أظنهما في المطبخ يشربان الحليب. صارت جيسي تعرف عن صنع القفازات أكثر مما يلزمها بكثير؛ لكن

هذا جيد أيضًا. لا ضرر منه. آمل ألا يكون قد أزعجك اضطراري إلى عدم تركها في البيت».

«نحن لا نريد أن تتركها في البيت».

«أنتم متفهمون كثيرًا».

قال له السويدي: «كنت أنظر إلى نموذج البيت في مكتب داون». لكنه كان ينظر إلى شامة على الناحية اليسرى من وجه أوركوت. شامة قاتمة مدفونة في طية الجلد الممتدة من أنفه إلى زاوية فمه. إن لدى أوركوت شامة بشعة أيضًا، إضافة إلى أنفه البشع! هل تجد داون هذه الشامة مغرية؟ هل تقبِّل هذه الشامة؟ ألا ترى أبدًا أن وجه هذا الرجل سقيم بعض الشيء؟ أو... عندما يتعلّق الأمر برجل من الطبقة العليا في أولد ريمروك، فلعلّها تصير قليلة التدقيق في مظهره، تصير غير مهتمة به، تصير منفصلة عنه انفصالًا مهنيًا مثلما تفعل نساء بيت الدعارة هناك، في إيستون!

قال أوركوت: «أوه، أوه» محاولًا - بطريقة ودية - تجسيد كم كان غير واثق من جودة عمله. يستخدم يديه عندما يلعب كرة القدم؛ ويرتدي تلك القمصان؛ ويرسم تلك اللوحات؛ ويضاجع زوجة جاره؛ ويفلح في المحافظة - عبر ذلك كله - على مظهر الرجل المنطقي الذي يصعب سبر غوره. كلّه واجهات. وكله ألاعيب. كانت داون تقول إنه يبذل جهدًا كبيرًا لكي يظهر دائمًا بالمظهر نفسه. الجنتلمان في الأعلى، والجرذ في الأسفل. الشرابُ شيطانٌ كامن في زوجته؛ والشبق والمنافسة شيطانان كامنان فيه. متحفّظ، متمدّن، مفترس. تعزيز العدوانية المتوارثة - غلبة الأصل - عدوانية السلوك المتقن. محب البيئة الإنساني، المفترس الذي يحسب خطواته ويحمي ما حازه بالولادة ويستولي خلسة على ما هو ليس له. وحشية ويليام أوركوت المتمدّنة. صيغته المتمدّنة من السلوك الحيواني. إنني أفضل الأبقار!

قال له أوركوت: «كان المقصود أن نرى النموذج بعد العشاء... مع الحكاية المناسبة...». وسأله... «هل عنى لك أي شيء من غير الحكاية؟ لا أظن هذا».

بالطبع، هدفه هو أن يكون شخصًا لا يُسبر له غور. ثم يمضي في الحياة نشيطًا ويستولي على الزوجات الجميلات. كان عليه أن يضرب رأسيهما بالمقلاة عندما رآهما في المطبخ.

قال السويدي: «لقد عنى لي الكثير». وعندها، لم يعد قادرًا على منع نفسه من الانتهاء من أمر أوركوت، فأضاف... «لقد أثار اهتمامي. أدركتُ أخيرًا فكرة الضوء. أدركت كيف سيغسل الضوء تلك الجدران. سيكون ذلك شيئًا جديرًا بأن يراه المرء. أظن أنكما ستكونان سعيدين جدًا فيه».

ضحك أوركوت: «تعني أنكما أنتما ستكونان سعيدين».

لكن السويدي لم يسمع غلطته. لم يسمعها بسبب الفكرة الضخمة التي جاءته في تلك اللحظة: ما كان عليه اليوم أن يفعله، لكنه لم يفعله؟

كان عليه أن يرغمها إرغامًا. وما كان يجوز أن يتركها هناك. جيري كان محقًّا. قد سيارتك إلى نيوارك. انطلق الآن. خذ باري معك. يستطيع الاثنان إخضاعها وجلبها بالسيارة إلى أولد ريمروك. وإذا كانت ريتا كوهن هناك، سأقتلها. إذا رأيتها بالقرب من ابنتي، فسوف أسكب البنزين على شعرها كله وأشعل النار في تلك القذرة الصغيرة. تحطّم ابنتي. تُريني فرجَها. تحطم طفلتي. ها هو المعنى... إنهم يحطمونها من أجل مسرّة تحطيمها. خذ شيلا معك. خذ شيلا. اهدأ. خذ شيلا إلى نيوارك. ميري تصغي إلى شيلا. سوف تكلّمها شيلا وتقنعها بالخروج من تلك الغرفة.

«... سأترك ذلك لضيفتك المثقّفة حتى تفهم كل شيء بطريقة خاطئة. تلك الفظّة المعجبة بنفسها التي تلعب اللعبة الفرنسية القديمة، لعبة مهاجمة البرجوازية...». كان أوركوت يُسِرُّ للسويدي بمدى استمتاعه باستعراضات مارشا... «في ما أرى، ينبغي أن تحسب لها لا مبالاتها بأنظمة ولائم العشاء القاضية بعدم قول أي شيء عن أي شيء. لكن الأمر يظل مدهشًا - يدهشني باستمرار كيف أن هذا الخواء يأتي مع الذكاء دائمًا. ليست لديها أدنى فكرة عما تتحدّث عنه. هل تعرف ما كان أبي يقوله؟ 'ذكاء كثير من غير فهم. كلما ازداد الذكاء، ازداد الغباء'. ينطبق هذا عليها».

ألا آخذ داون؟ لا. لا تريد داون أي مزيد مما يربطها بكارثتهما. لا تفعل الآن أكثر من تقبُّل قضاء الوقت معه إلى أن يُبنى البيت الجديد. اذهب وافعل ذلك بنفسك. اصعد إلى سيارتك اللعينة، واذهب إليها، وخذها. هل تحبها، أم إنك لا تحبّها؟ إنك ترضخ لها مثلما كنت ترضخ لأبيك، ومثلما كنت ترضخ لكل شيء في حياتك. أنت خائف من ترك الوحش يخرج من القفص. لقد صارت ابنتك ناقدة كبيرة للياقة والذوق. أما أنت فتبقي نفسك سرًّا مستغلقًا. أنت لا تقدِم على أي خيار أبدًا. لكن، كيف يمكنه أن يأتي بميري إلى البيت، الآن، الليلة، بذلك اللثام، في وجود أبيه هنا. إذا رآها أبوه، فسوف يسقط ميتًا في مكانه. فإلى أين يأخذها إذًا؟ إلى أين يمكن أن يأخذها؟ هل يمكنهما الذهاب للعيش معًا في بورتوريكو؟ لن تبالي داون بالمكان الذي يذهب إليه طالما أن لديها أوركوت. عليه أن يأخذها قبل أن تضع قدمها في ذلك النفق مرة أخرى. انسَ ريتا كوهن! انسَ تلك الحمقاء اللابشرية شيلا سالزمان. انسَ أوركوت. أوركوت لا أهمية له. جِدْ مكانًا لميري حتى تعيش حيث لا وجود لنفق. تلك هي المسألة كلّها. ابدأ بالنفق. أنقذها من احتمال أن تُقتل في ذلك النفق. اذهب قبل الصباح، حتى قبل أن تخرج من غرفتها... ابدأ من هناك.

كان يتحطّم بالطريقة الوحيدة التي يعرف كيف يتحطّم بها؛ إلا أنها لم تكن في حقيقة الأمر تحطمًا، بل غرقًا. لقد أمضى تلك الأمسية كلها وهو يغرق من غير انقطاع تحت هذا الثقل. رجل لا يعبّر عما في نفسه، ولا ينفجر... رجل يغرق فقط. أما الآن، فقد صار ما يجب القيام به واضحًا. اذهب واخرجها من هناك قبل الفجر.

بعد ذهاب داون... بعد ذهاب داون، تكون الحياة شيئًا لا يستطيع تصوّره. ليس لديه ما يستطيع فعله من غير داون. لكنها تريد أوركوت. لقد قالت في وقت ما... قالت متثائبة حتى توضح فكرتها: «إنه واسْب لا طعمَ له». لكن لانعدام الطعم هذا ألقٌ مذهل في عين فتاة كاثوليكية إيرلندية صغيرة. لا تريد والدة ميري ليفوف أقل من ويليام أوركوت الثالث. زوجُها الذي تضاجع غيره يفهم هذا. إنه يفهمه، بالطبع. يفهم كل شيء الآن. من الذي سيعيدها إلى الحلم الذي

أرادت دائمًا أن تذهب إليه؟ ملك جمال أميركا. إذا سارت مع أوركوت، فسوف تعود إلى السكة مرة أخرى. سبرينغ ليك، أتلانتيك سيتي، والآن ملك جمال أميركا. ستتخلّص من وصمة طفلتنا، من تلك الوصمة التي لحقت بها. ستتخلّص من وصمة تدمير المتجر وتصير قادرة على استئناف حياتها غير الملوثة. أما أنا، فقد بقيتُ متوقفًا عند ذلك المتجر. هي تعرف هذا. تعرف أنه ما عاد متاحًا لي أن أمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. صرت من غير فائدة لها. هذا أقصى ما يمكن أن تمشيه معي.

أتى لنفسه بكرسي وجلس بين زوجته وأمه، بل إنه أمسك بيد داون بين يديه وهي تتكلّم. هناك ألف طريقة مختلفة لأن تمسك يد شخص ما. هناك الطريقة التي تمسك بها يد طفل، والطريقة التي تمسك بها يد صديق، والطريقة التي تمسك بها يد أبيك المسن أو أمك المسنّة، والطريقة التي تمسك بها يد شخص مسافر أو محتضر أو ميت. أمسك بيد داون كما يمسك رجل بيد امرأة يعبدها، بكل تلك الإثارة واللهفة اللتين تَعْبُران يده كما لو أن ضغطًا على راحة اليد يؤدّي إلى حلول روحها في روحه وحلول روحه في روحها، كما لو أن تشابك الأصابع يرمز إلى كل ما هو حميم بينهما. أمسك بيد داون كما لو أن لا علم له بالحال التي صارت عليها حياته.

لكنه فكّر عند ذلك: إنها تريد أن تعود إليَّ أيضًا، لكنها لا تستطيع لأن الأمر فظيع أكثر مما تطيق. فماذا في وسعها أن تفعل؟ لا بد أنها تظن نفسها سُمًّا. لقد أنجبتْ قاتلة. عليها أن تتزوّج من جديد.

كان عليه أن يصغي إلى والده فلا يتزوّجها أبدًا. لقد عصاه، عصاه في تلك المرّة فقط. لكن ذلك كان كل ما يلزم، ذلك ما أنهى الأمر كله. لقد قال له والده: «هناك آلاف وآلاف من الفتيات اليهوديات المليحات، لكن عليك أن تبحث عن فتاتك. لقد وجدت لنفسك واحدة في الجنوب، في ساوث كارولاينا، تلك التي كانت من عائلة دونليفي؛ إلا أنك عدت إلى رشدك فتخلّصت منها. ثم أتيت إلى الديار ووجدت داون دواير هنا. لماذا، يا سايمور؟».

لم يكن السويدي قادرًا على إجابته بكلام صادق من قبيل «كانت تلك الفتاة في

ساوث كارولاينا جميلة، لكن جمالها لا يبلغ حتى نصف جمال داون». ولم يكن قادرًا على القول له: «إن سلطان الجمال بعيد عن المنطق كل البعد». كان في الثالثة والعشرين من عمره، ولم يستطع أن يقول إلا «إنني أحبها».

«تقول 'إنني أحبها' فما معنى هذا؟ ماذا ستنفعك كلمة 'أحبها' عندما يصير لك طفل؟ كيف ستربي هذا الطفل؟ هل سيكون كاثوليكيًا؟ هل سيكون يهوديًا؟ لا، سوف تربي طفلًا لن يكون هذا ولا ذاك... وكله بسبب 'أحبها'!».

لقد كان أبوه محقًّا. هذا ما حدث بالفعل. لقد ربيا طفلة لم تصر كاثوليكية ولا يهودية، بل صارت في أول الأمر متأتئة، ثم قاتلة، ثم جاينيّة. لقد أمضى حياته كلها محاولًا عدم فعل شيء خاطئ، وهذه هي النتيجة: كل ما حبسه داخل نفسه ودفنه عميقًا إلى أقصى ما يستطيع الإنسان دفنه، قد خرج آخر الأمر؛ وهذا كله لأنه كانت هناك فتاة جميلة. كان أكثر الأشياء أهمية في حياته (منذ وقت ولادته، على ما يبدو) هو إبعاد المعاناة عن الأشخاص الذين يحبّهم، وأن يكون لطيفًا مع الناس، أن يكون شخصًا لطيفًا بكل معنى الكلمة. هذا ما جعله يأتي بداون سرًّا لمقابلة أبيه في مكتبه في المصنع في محاولة لتذليل العقبة الدينية وتفادي جعل أي منهما حزينًا أو غاضبًا. كان أبوه هو من اقترح هذا اللقاء: لقاءٌ وجهًا لوجه بين «الفتاة» كما كان لو ليفوف يتلطّف بالإشارة إليها في حضور السويدي، و«الغول» كما كانت الفتاة تدعوه. لم تكن داون خائفة؛ وقد أدهشت السويدي عندما وافقت على اللقاء. «لقد سرتُ على المنصة مرتدية ملابس السباحة، ألم أفعل هذا؟ إن كنت لا تعرف، فعلي إخبارك بأن الأمر لم يكن سهلًا. خمسة وعشرون ألف شخص. ليس السير في ملابس سباحة بيضاء ناصعة وحذاء أبيض ناصع مرتفع الكعب تحت أنظار خمسة وعشرين ألف شخص بالأمر الذي يجعلني أحسّ بأنني محترمة تمامًا. لقد ظهرت بملابس السباحة في مسيرة استعراضية، في كامدن، في الرابع من تموز، كان عليَّ أن أفعل هذا. كرهت الأمر. كاد أبي يموت. لكني فعلتها. ألصقت ثوب السباحة اللعين على جلدي، يا سايمور، حتى لا ينشمر... وضعت شريطًا لاصقًا شفّافًا على مؤخرتي. أحسست كما لو أنني معتوهة. لكني قبلت وظيفة 'ملكة جمال نيوجيرسي' فقمت

بعملي. عمل متعب جدًا. كل مدينة في الولاية. خمسون دولارًا مقابل كل ظهور. لكن المال يتراكم إذا كنت مجدًّا في عملك؛ وقد تراكم المال. كنت أعمل بجد على شيء مختلف تمام الاختلاف عمّا أردته، على شيء كان يخيفني حتى الموت، لكنّي قمت بالأمر. وفي ليلة عيد الميلاد عندما أبلغت أبي وأمي بخبر فوزي بلقب جمال مقاطعة يونيون... هل تظن أن ذلك كان أمرًا ظريفًا؟ لقد فعلتها. إذا كنت قد فعلت هذا كلّه، فأنا أستطيع فعل هذا أيضًا، لأن المسألة هذه المرة ليست مسألة وقوف فتاة سخيفة فوق عربة استعراض متحرّكة... إنها حياتي، مستقبلي كلّه. هذا أمر سيبقى! لكنك ستكون موجودًا، أليس كذلك؟ لست قادرة على الذهاب إلى ذلك المكان وحدي. عليك أن تكون موجودًا معي».

لقد كانت جريئة إلى حد لا يصدَّق فلم يكن لديه خيار غير أن يقول لها: «وأين يمكن أن أكون غير معك؟». حذّرها في طريقهما إلى المصنع من ذكر مسابح الصلاة أو الصلبان، أو الجنة؛ ونبهها إلى ضرورة أن تبتعد عن ذكر يسوع إلى أقصى حد ممكن. «إن سألكِ عمّا إذا كنتم تعلّقون صلبانًا في بيتكم، فقولي لا». «لكن هذه كذبة، لا أستطيع قول لا». «إذًا، قولي إن لديكم صليبًا واحدًا». «وهذه كذبة أيضًا». «داون، لن يكون مفيدًا من أية ناحية القول إن لديكم ثلاثة صلبان. صليب واحد مثل ثلاثة صلبان؛ وهو كافٍ لتوضيح ما تريدين توضيحه. قولي واحد فقط، من أجلي. قولي واحد». «حسنًا، سنرى». «وأنتِ لست مضطرة إلى ذكر الأشياء الأخرى». «وما هي الأشياء الأخرى؟». «مريم العذراء». «مريم العذراء ليست شيئًا». «أعني التماثيل. انسي الأمر كله. إذا سألك: ‘هل لديكم أية تماثيل دينية في البيت؟’ فقولي له لا... ليس عليك أن تقولي له إلا ‘ليست لدينا أية صور، ليست لدينا أية تماثيل. لدينا ذلك الصليب. هذا كل شيء’!».

شرح لها أن الزينات الدينية، كالتماثيل الموجودة في غرفة الطعام في بيتهم وفي غرفة نوم أمّها، والصور التي علّقتها أمها على الجدران، أمور تصعب مناقشتها مع أبيه. لم يكن يدافع عن موقف أبيه. كان يوضح لها أن الرجل قد نشأ وفق طريقة بعينها، وأنه تكوّن على هذا الشكل. لا يستطيع أحد فعل شيء في ما

يخص هذا الأمر؛ فلماذا نثيره ونزعجه؟
معارضة الأب ليست أمرًا سهلًا، وعدم معارضة الأب ليست أمرًا سهلًا. هذا ما كان السويدي يكتشفه.
كانت معاداة السامية موضوعًا شائكًا أيضًا. انتبهي إلى ما تقولينه عن اليهود. من الأفضل ألّا تقولي شيئًا عن اليهود. ابتعدي عن ذكر القساوسة. لا تقولي شيئًا عن القساوسة. «لا تحكي له تلك القصّة عن أبيك والقساوسة عندما كان يجمع الكرات في نادي الغولف الريفي في طفولته». «وما الذي يمكن أن يجعلني أروي له تلك القصّة؟». «لا أعرف. لكن، لا تقتربي منها». «لماذا؟». «لا أعرف. افعلي مثلما أقول لك».
لكنه كان يعرف السبب. لو قالت لأبيه إن أول مرة اكتشف فيها والدها أن للقساوسة أعضاء جنسية كانت في غرفة تبديل الملابس أثناء عمله جامعَ كرات في النادي أيام عطلة نهاية الأسبوع. فحتى ذلك الوقت، كان يظن أنهم عديمو الجنس من الناحية التشريحية. ومن الممكن الآن أن يقع والده تحت إغراء شديد يدفعه إلى سؤالها: «هل تعرفين ما يفعلونه بقطع الجلد الصغيرة بعد ختان الأولاد اليهود؟». سوف تقول له: «لست أدري، يا سيد ليفوف، ماذا يفعلون بها؟». سيجيبها السيد ليفوف - هذه واحدة من نكاته المفضّلة -: «إنهم يرسلونها إلى إيرلندا. ينتظرون إلى أن تجتمع كمية كبيرة منها، ثم يحزموها معًا ويرسلوها إلى إيرلندا حيث يصنعون منها القساوسة».
جرى بينها وبين أبيه حديث لا يمكن للسويدي أن ينساه أبدًا، ليس نتيجة ما قاله أبوه... لأن كل ما قاله كان متوقّعًا. كانت داون هي من جعلت ذلك الحديث ينطبع في ذاكرته. صدقُها، وامتناعها التام عن المراوغة في ما يتعلق بأمها وأبيها، أو في ما يتعلق بأي شيء تعرف أنه من الأشياء المهمّة لديها. كانت شجاعتها هي الشيء الذي لا يمكن أن ينساه أبدًا.
كانت أقصر من خطيبها بمقدار قدم. وبحسب ما قاله أحد أعضاء لجنة التحكيم لداون دواير بعد انتهاء المسابقة، فإنها لم تفشل في أن تكون واحدة من العشرة الأوائل في أتلانتيك ستي لأن طولها كان خمس أقدام وإنشين ونصف الإنش (من

غير حذائها ذي الكعب العالي) وذلك في سنة كانت فيها خمس أو ست بنات فارعات الطول لا تقلّ أي منهن عنها موهبة وجمالًا. لم يكن لقصر قامة داون إلا أن زاد عمق تعلّق السويدي بها (الذي ساهم أو لم يساهم في عدم ترشيحها إلى المسابقة النهائية - لم يكن ذلك تفسيرًا كافيًا لدى السويدي لأن ملكة جمال أريزونا خرجت فائزة مع أن طولها كان خمس أقدام وثلاثة إنشات فقط). لقد حرّضت داون التي كان طولها خمس أقدام وإنشين فقط، لدى السويدي الذي كان شابًا صغير السن شديد الإحساس بالواجب (شاب وسيم يبذل دائمًا جهدًا إضافيًا حتى يكون الجميع على بينة من أن هناك امرأة قد صارت مالكة لوسامته تلك كلّها)، دافعًا رجوليًا إلى حمايتها والدفاع عنها. قبل ذلك الاستجواب المرهق الذي انتهى بالتعادل بينها وبين أبيه، لم تكن لديه فكرة عن أنه واقع في حب فتاة قوية إلى هذا الحد؛ بل إنه حتى لم يسأل نفسه إن كان راغبًا في الوقوع في حب فتاة تبلغ قوتها هذا المبلغ كلّه.

كان التعميد الشيءَ الوحيد الذي كذبت في شأنه كذبًا مباشرًا، بمعزل عن عدد الصلبان في بيت أهلها. بدا آخر الأمر أنها قد استسلمت وقبلت بالتنازل عن التعميد. لكن هذا لم يحدث إلا بعد ثلاث ساعات من المفاوضات الشاقّة التي أحسّ السويدي منذ بدايتها (أدهشه هذا الأمر كثيرًا) كما لو أن والده قد صرف النظر عن هذه النقطة. ولم يدرك إلا في وقت لاحق أن العجوز قد تعمّد إطالة المناقشة إلى أن كادت طاقة الفتاة ذات الحادية والعشرين عامًا تستنفد تمامًا، ثم غيّر موقفه مئة وثمانين درجة وركّز على التعميد من جديد بحيث تمكّن من إنهاء الصفقة بينهما بأن تنازل لها عن الاحتفال بليلة عيد الميلاد وعن يوم عيد الميلاد وعن يوم عيد الفصح.

إلا أن داون عمّدت ابنتها بعد ولادتها. كان في وسعها أن تعمّدها بنفسها، أو أن تجعل أمها تفعل ذلك، لكنها أرادت تعميدًا حقيقيًا، فأتت بقس وبعرّابين وعرّابات وأخذت الطفلة إلى الكنيسة. لم يعرف أحد بالأمر إلا بعد أن شاءت المصادفة أن يكتشف لو ليفوف وثيقة التعميد في درج في غرفة النوم الخلفية غير المستعملة في بيت السويدي في أولد ريمروك. كان السويدي وحده على علم بذلك. فقد

أخبرته داون به في المساء بعد أن وضعت الطفلة المعمّدة حديثًا في مهدها لكي تنام بعد تطهيرها من الخطيئة الأصلية وجعلِها مستحقةً الذهاب إلى الجنة. عند اكتشاف تلك الوثيقة، كانت ميري قد صارت كنز العائلة، طفلة في السادسة من عمرها، فلم يستمر الغضب زمنًا طويلًا. إلا أن زوال الغضب لم يكن دلالة على أي اهتزاز في قناعة والد السويدي بأن سرّ التعميد هو العلّة الكامنة خلف الصعوبات التي واجهتها ميري كلّها: كان التعميد، وشجرة عيد الميلاد، والاحتفال بعيد الفصح، أمورًا كافية لجعل الطفلة المسكينة غير عارفة هويتها. وفوق هذا كلّه، كانت لديها جدّتها، الجدة دواير... لم تكن الجدة دواير عاملًا مساعدًا أبدًا. أصابت نوبة قلبية ثانية والد داون وهو يركّب الفرن بعد سبع سنين من ولادة ميري وسقط ميتًا، فصارت الجدة دواير دائمة الذهاب إلى كنيسة سانت جنيفييف. وكلما سنحت لها فرصة وكانت ميري بين يديها، كانت تأخذ الطفلة خلسة إلى تلك الكنيسة حيث لا يعلم غير الرب وحده ما كانوا يضخونه في رأسها. وكان السويدي (الذي صارت ثقته بأبيه - في هذا الأمر، بل في كل أمر - أكبر مما كانت قبل أن يصير هو نفسه أبًا) يقول لأبيه: «بابا، ليست ميري مهتمة بهذا الأمر كله. لا يعدو الأمر بالنسبة إليها أن يكون شأنًا من شؤون جدتها وما تفعله تلك الجدة. لا يعني الذهاب إلى الكنيسة مع أم داون أي شيء بالنسبة إلى ميري». لكنّ أباه ما كان ليشتري هذه البضاعة. كان يسأله: «لكنها تركع؛ ألا تركع؟ وهما تذهبان إلى ذلك المكان وتفعلان هذه الأشياء كلّها. إن ميري تركع هناك، أليس هذا صحيحًا؟».

«صحيح، بالتأكيد... أظن هذا، بالتأكيد، إنها تركع. لكن هذا لا معنى له عندها».

«هل هذا صحيح؟ لكن له معنى عندي... إن له معنًى كبيرًا...».

كان لو ليفوف يمتنع - يمتنع أمام ابنه فقط - من إقامة أي ربط بين صراخ ميري وبكائها، وبين تعميدها. لكنه لم يكن حذرًا إلى هذا الحد عندما يكون وحده مع زوجته. وفي أوقات انزعاجه (من بعض التفاهات الكاثوليكية) التي تعلِّمُها تلك المرأة دواير لحفيدته، كان يتساءل بصوت مسموع عما إذا كان ذلك التعميد

السري هو السبب الحقيقي الكامن خلف بكاء الطفلة الذي سبّب فزعًا شديدًا للعائلة كلّها خلال السنة الأولى من عمرها. بل لعل ذلك الشيء، في تلك اللحظة، هو منبع كل ما حدث لها على الإطلاق. دخلت ميري هذا العالم باكية زاعقة، ثم لم يتوقّف زعيقها. كانت تفتح فمها على اتساعه عندما تزعق، تفتحه إلى حد يجعل الأوعية الدموية الصغيرة في وجنتيها تتمزّق. ظن الطبيب أول الأمر أنها تبكي بسبب المغص. لكن البكاء استمر ثلاثة شهور فكان لا بد من تفسير آخر، وهكذا أخذتها داون لإجراء أنواع كثيرة من الفحوص والاختبارات، وأخذتها إلى أطباء كثر... وما كانت ميري لتخيّب أمل أحد أبدًا: كانت تبكي وتزعق هناك أيضًا، عند الأطباء جميعًا! وفي مرحلة معينة، كان على داون أن تعصر البول من حفاض الطفلة وتأخذه إلى الطبيب لفحصه. في ذلك الوقت كانت لديهم مدبّرة المنزل ميرا، التي كانت صبية مرحة خالية البال دائمًا. ميرا الضخمة المبتهجة، ابنة عامل البار من «دبلن الصغيرة» في موريستاون. كانت ميرا تحمل ميري وتضعها على صدرها العامر الوافر كأنه وسادة، وتهدل لها، وتهدل لها، تهدل بعذوبة كما لو أن الطفلة ابنتها. لكن بكاء ميري يستمر ويستمر فلا تحصل ميرا على نتائج أفضل من التي تحقّقها داون. لم يبق شيء لم تحاول داون فعله حتى تكتشف ما يسبب انطلاق زعيق ابنتها. تخرج إلى السوبرماركت وتأخذ ميري معها بعد استعدادات مطوّلة مسبقة كما لو أنها تنوم الطفلة مغناطيسيًا حتى تظلّ الطفلة هادئة. من أجل الخروج إلى التسوّق فحسب، كانت تحمّم الطفلة وتجعلها تأخذ قيلولة، ثم تلبسها ثيابًا لطيفة نظيفة، وتضعها في السيارة. وعندما تصل، تضعها في عربة المتجر وتدور بها في أرجاء المتجر... يجري كل شيء على نحو حسن إلى أن يمرّ أحد ما فينحني فوق العربة ويقول: «أوه، ما أجمل هذه الطفلة!»... سيكون هذا كافيًا: بكاء لا ينقطع أربعًا وعشرين ساعة بعد ذلك. يأتي وقت العشاء فتقول داون للسويدي: «لا فائدة من هذا الجهد كلّه. إنني أزداد جنونًا كل يوم. لو كان وقوفي على رأسي مفيدًا، لوقفت على رأسي... لكن، لا فائدة». يظهر الجميع في الفيلم الذي تم تصويره في عيد ميلاد ميري الأول وهم يغنون لها: «عيد ميلاد سعيد»؛ وأما ميري، فهي جالسة في كرسي الأطفال

المرتفع... تزعق عاليًا. مرت بضعة أسابيع بعد عيد ميلادها فبدأت ثورة الزعيق تهدأ من غير أي سبب ظاهر. ثم قل تواتر نوباتها. ولم تبلغ سنة ونصف السنة حتى صار كل شيء رائعًا، وظل رائعًا، واستمر رائعًا، إلى أن بدأت التأتأة.

الأمر السيئ الذي أصاب ميري هو نفسه الأمر السيئ الذي عرف جدها اليهودي أنه سيصيبها منذ ذلك اللقاء الصباحي في مصنعه في سنترال آفنيو. يومها، جلس السويدي على كرسي في زاوية غرفة المكتب بعيدًا عن خط النار؛ وكلما نطقت داون اسم يسوع، كان السويدي يلقي نظرة مبتئسة عبر جدار المكتب الزجاجي صوب المئة والعشرين امرأة عاملة على آلات الخياطة في ذلك الوقت. وأما بقية الوقت فكان ينظر إلى قدميه. جلس لو ليفوف خلف مكتبه وقد تصلّب وجهه كالحديد. لم يكن ذلك مكتبه المفضل الجاثم وسط النشاط الصاخب في صالة تجميع القفازات، بل المكتب الذي لا يستخدمه إلا في حالات نادرة، ذلك المكتب المعزول خلف جدران زجاجية من أجل توفير قدر من الهدوء. لم تبكِ داون، ولم تتحطّم... ولم تكذب - حقًّا - لم تكد تكذب على الإطلاق. ظلّت ثابتة متماسكة، تلك الفتاة بطولها البالغ اثنين وستين إنشًا ونصف الإنش. كانت داون رائعة... داون التي لم تكن لديها خبرة مسبقة من أجل مواجهة هذا الاستجواب القاسي غير المقابلة التي أجرتها عندما تقدّمت إلى مسابقة ملكة جمال ولاية نيو جيرسي فأحرزت نقاطًا ممتازة عندما وقفت أمام خمسة حكام جالسين وأجابت عن أسئلتهم حول حياتها.

ها هي بداية الاستجواب الذي لم ينسه السويدي أبدًا: ما اسمك الكامل، يا آنسة دواير؟

ميري داون دواير.

هل تضعين صليبًا في عنقك، يا ميري داون؟

كنت أضعه. وضعته فترة من الزمن أيام المدرسة الثانوية.

هل يعني هذا أنك تعتبرين نفسك مؤمنة؟

لا. لم يكن هذا السبب الذي جعلني أضع الصليب. وضعته لأنني أمضيت بعض

الوقت في عزلة في أحد الأديرة. وعندما عدت إلى البيت، بدأت أضع الصليب. لم يكن رمزًا دينيًا كبيرًا. لم يكن إلا إشارة إلى أنني ذهبت إلى تلك العزلة في نهاية الأسبوع حيث كوّنت صداقات كثيرة. كان رمزًا لتلك الصداقات أكثر منه رمزًا يشير إلى كوني كاثوليكية مؤمنة.

هل في بيتكم صلبان؟ هل تعلّقون صلبانًا؟

صليب واحد فقط.

هل أمّك مؤمنة؟

حسنًا، إنها تذهب إلى الكنيسة.

هل تذهب كثيرًا؟

تذهب كثيرًا. تذهب كل يوم أحد. لا تتخلّف عن ذلك أبدًا. وهناك أوقات خلال الصوم الكبير يذهبون فيها إلى الكنيسة كل يوم.

وماذا تستفيد من ذلك؟

تستفيد من ذلك! لست أدري إن كنت أفهم السؤال. إنها تشعر بالراحة. يشعر المرء بالراحة عندما يكون في الكنيسة. صارت أمّي تذهب كثيرًا إلى الكنيسة بعد موت جدّتي. عندما يموت شخص ما، وعندما يمرض شخص ما، فإن الذهاب إلى الكنيسة يساهم في إراحة النفس. يكون لدى المرء شيء يفعله. يبدأ المرء تلاوة أدعيته من أجل شيء ما...

الحقيقة أنها أسرعت خارجة مع ميري، في حين ظل سايمور راقدًا في السرير. وأما في القصّة، فقد خرجت إلى سطح السفينة وحدها وأصابتها الدهشة عندما اكتشفت أن رائحة فرنسا ليست مثل رائحة زهرة كبيرة... «القطار إلى باريس. كان شيئًا سماويًا. ترين أميالًا وأميالًا من الغابات، لكن أشجارها تتالى صفوفًا خلف صفوف. إنهم يغرسون غاباتهم في صفوف. أمضينا هناك وقتًا رائعًا، أليس هذا صحيحًا يا عزيزي؟».

أجابها السويدي: «هذا صحيح».

... «كنا نسير هنا وهناك حاملين أرغفة الخبز الفرنسية الطويلة وقد برزت من جيوبنا. لا بد أن هذا المشهد كان يقول للناس: ‘انظروا، انظروا، ريفيان أخرقان

قادمان من نيو جيرسي!'. أظن أننا كنا من ذلك النوع من الأميركيين الذين يضحكون منهم. لكن، من يبالي بهذا؟ كنا نسير، ونتجوّل، ونقضم رؤوس تلك الأرغفة، وننظر إلى كل شيء، إلى متحف اللوفر، وإلى حدائق التويلّيري. كان ذلك رائعًا حقًّا. أقمنا في فندق كريّون. كان ذلك الفندق أكبر هدية في الرحلة كلّها. أحببته كثيرًا. ثم سافرنا بقطار الليل، قطار الشرق السريع. ذهبنا إلى زيوريخ، لكن عامل القطار لم يوقظنا في الوقت المناسب، هل تتذكّر هذا يا سايمور؟».

نعم، إنه يتذكّر. خرجت ميري إلى رصيف المحطة في بيجامتها.

... «كان شيئًا فظيعًا تمامًا. كاد القطار يتحرّك. وكان عليَّ أن أتناول أمتعتنا كلّها وأرميها من النافذة. تعرفين، هكذا ينزل الناس من القطار هناك. ثم جرينا ولم نرتدِ إلا نصف ملابسنا. لم يوقظَنا. كان شيئًا شنيعًا...». كانت داون تقول هذا وتضحك من جديد مسرورة بتذكّر المشهد... «وقفنا هناك، سايمور وأنا وأمتعتنا. كنا في ملابسنا الداخلية، تقريبًا. وهكذا، على أية حال»... كان ضحكها شديدًا إلى حد جعلها غير قادرة على المتابعة من غير أن تتوقّف قليلًا... «نزلنا في زيوريخ. وذهبنا إلى مطاعم رائعة - روائح الكرواسان اللذيذ والباتيه الممتاز - مخابز في كل مكان. أشياء من هذا القبيل. أوه، كان ذلك جيدًا. كانت الصحف كلّها متاحة. كانت موضوعة على رفوف. يمكنك أن تأخذي صحيفتك فتجلسي وتتناولي فطورك. كان شيئًا رائعًا. ومن هناك، أخذنا سيارة ومضينا إلى زوغ - إنها مركز أبقار سيمنتال - ثم ذهبنا إلى لوسيرن التي كانت جميلة، جميلة إلى أقصى حد. وبعد ذلك ذهبنا إلى بوريفاج في لوزان. هل تتذكّر بوريفاج؟»... كان هذا سؤالًا موجّهًا إلى زوجها الذي لا تزال يده ممسكة بيدها.

كان السويدي يتذكّر هذا أيضًا. لم ينسه أبدًا. بمحض المصادفة، كان هو نفسه يفكّر في بوريفاج بعد ظهر ذلك اليوم عندما قاد السيارة عائدًا من سنترال آفنيو إلى أولد ريمروك. ميري عند وقت شاي بعد الظهر، والفرقة الموسيقية تعزف... قبل أن يغتصبوها. لقد رقصت ميري مع النادل هناك، ميري ذات السنوات الست، ميري الطفلة، قبل أن تقتل أربعة أشخاص. مادوموازيل ميري.

في أمسيتهم الأخيرة في بوريفاج، ذهب السويدي وحده إلى متجر المجوهرات في ردهة الفندق فاشترى لداون عقدًا ماسيًا بينما كانت تتنزه مع ميري، عندما خرجتا لإلقاء نظرة أخيرة على القوارب في بحيرة جنيف وعلى جبال الألب. تخيّلها وقد وضعت ذلك العقد الماسي والتاج الذي احتفظت به في علبة فوق الخزانة، ذلك التاج الفضّي الذي يزيّنه صفان من ماسات مقلّدة... التاج الذي نالته عندما صارت ملكة جمال نيوجيرسي. لكنه لم يستطع إقناعها بوضع ذلك التاج حتى تراه ميري - كانت داون تقول له «لا، لا، هذا شيء سخيف جدًا. أنا 'ماما' بالنسبة إليها. وهذا شيء جيد تمامًا»، ولم يتمكن من جعلها تضعه مع هذا العقد الجديد. كان يعرف مدى اعتداد داون بنفسها - مثل اعتداده بنفسه - فأدرك أنه لن يستطيع حتى أن يجعلها تجرّبهما معًا، العقد والتاج معًا، في غرفة النوم، أمامه هو فقط... أمر مستحيل. كانت ترفض رفضًا عنيدًا بأن تكون ملكة جمال سابقة. وكانت تقول للناس، منذ ذلك الوقت «إنها ليست مسابقة جمال...»، تقول هذا لمن يصرّون على سؤالها عن السنة التي كانت فيها ملكة جمال نيوجيرسي... «إن أكثر الناس المشاركين في تلك المسابقة مستعدون لمقاتلة أي شخص يقول إنها مسابقة ملكة جمال. وأنا واحدة منهم. الجائزة الوحيدة عند الفوز في أي مستوى، هي منحة دراسية». لكن التاج الذي على رأسها لم يكن تاج فائزة بمنحة دراسية بل بلقب ملكة جمال... هذا ما جعله يتخيّلها مرتدية العقد في متجر المجوهرات في بوريفاج.

كانت في واحد من ألبومات الصور لديهما سلسلة صور كان يحب النظر إليها من حين لآخر في بداية زواجهما، بل كان يحب أن يجعل الناس يرونها بعض الأحيان. ودائمًا، كانت تلك صورًا تجعله فخورًا بها، تلك الصور الصقيلة الملتقطة في سنة 1949 وسنة 1950 عندما تولّت، على امتداد اثنين وخمسين أسبوعًا - سنة كاملة - الوظيفة التي كان مدير مسابقة «المنحة الدراسية» في نيوجيرسي يحب أن يصفها بأنها العمل بصفة «المضيفة» الرسمية في الولاية: وظيفة مشاركة أكبر عدد ممكن من المدن والبلدات والمجموعات في كل نوع من أنواع المناسبات، والعمل الشاق، الشاقّ حقًّا، مقابل تلقّي منحة دراسية قدرها

خمسمئة دولار ومعها كأس المسابقة، فضلًا عن خمسين دولارًا عن كل ظهور شخصي. وبطبيعة الحال، كانت هناك صورة لتتويجها ملكة للجمال في نيوجيرسي ليلة السبت الحادي والعشرين من أيار سنة 1949: داون في فستان حريري طويل عاري الكتفين، فستان قاسٍ مشدود من الأعلى، شديد الضيق عند الخصر، ينفتح واسعًا متهدّلًا حتى الأرض، مطرزًا بالأزهار متلألئًا بالخرز الملون. وعلى رأسها تاجها. كانت تقول له: «لم يكن لديَّ إحساس بالسخف عندما كنت مرتدية هذا الفستان ومن فوقه التاج، لكني أرى نفسي سخيفة بالتأكيد إذا وضعت التاج فوق ملابسي العادية. تسألني الفتيات الصغيرات إن كنت أميرة. ويأتي الناس ويسألونني إن كان التاج ماسيًا. أشعر بأنني في منتهى السخافة، يا سايمور، عندما أكون مرتدية ملابس عادية ومن فوقها هذا التاج». لكنها لم تكن تبدو سخيفة أبدًا عندما تضع التاج وهي مرتدية ملابسها البسيطة حسنة التفصيل... بل كانت تبدو مذهلة. كانت لها صورة في بدلة من بدلاتها، وعلى رأسها التاج، ووشاح ملكة جمال نيوجيرسي مثبت ببروش على وسطها... كان ذلك في معرض زراعي مع بعض المزارعين. صورة أخرى بثوبها ووشاحها مع بعض رجال الأعمال في مؤتمر للصناعيين، وصورة لها أخرى في فستان السهرة الحريري نفسه ومن فوقه التاج في عزبة برينستون التي يملكها حاكم الولاية في درامثواكيت وهي ترقص مع حاكم نيوجيرسي ألفريد بريسكول. كانت هناك أيضًا صورها في المسيرات والاستعراضات ومناسبات قص الشرائط الحريرية، وجمع التبرعات للجمعيات الخيرية في أنحاء الولاية... صور لمشاركتها في احتفالات التتويج في مسابقات الجمال المحلّية، وصور لها وهي تفتتح متاجر ومعارض سيارات... «هذا هو دوني. إنه الشخص البدين صاحب المتجر». صورتان من زياراتها لبعض المدارس جالسة إلى البيانو في المدرج حيث كانت تعزف عادة مقطوعة شوبان الشهيرة التي أدّتها عندما صارت ملكة جمال نيوجيرسي فتخطت علامات موسيقية كثيرة حتى تستطيع الفراغ من المعزوفة في دقيقتين ونصف الدقيقة قبل أن تعلن ساعة التوقيت خسارتها. في تلك الصور كلّها، مهما تكن الملابس التي ترتديها بما

يلائم المناسبة، كان التاج مستقرًا على رأسها، وكان يجعلها تبدو كأنها أميرة (في عين زوجها وفي عيون الفتيات الصغيرات اللواتي يأتين إليها ويسألنها...). أميرة أكثر مما كانت تبدو عليه مجموعة كبيرة من الأميرات الأوروبيات اللواتي رأى صورهن في حياته.

ثم تأتي الصور الملتقطة في أتلانتيك ستي، في مسابقة ملكة جمال أميركا خلال شهر أيلول: صور لها في ثوب السباحة، وفي فستان السهرة... صور جعلته يتساءل كيف كان ممكنًا ألّا تفوز باللقب. قالت له: «لا يمكنك تخيل كم تشعر بأنك سخيف في ملابس السباحة والحذاء ذي الكعب المرتفع عندما تخرج وتسير فوق تلك المنصّة. تعرف ذلك عندما تسير وتشعر بأن ذلك الثوب ينحسر صاعدًا وأنت غير قادر على مد يدك حتى تجذبه إلى أسفل...». لكنّ مظهرها لم يكن سخيفًا أبدًا: لم ينظر مرة إلى صورها في ثوب السباحة إلا ووجد نفسه يقول: «أوه، ما أجملها!». ثم إن الجمهور كان معها. ففي أتلانتيك سيتي، مالت أكثرية جمهور الحاضرين إلى ملكة جمال نيو جيرسي، كما أن داون تلقّت أثناء استعراض الولايات قدرًا من التصفيق العفوي أكثر مما ينجم عادة عن مشاعر التعاطف المحلية. لم يكونوا يعرضون المسابقة على التلفزيون في تلك الأيام، فكانت لا تزال محصورة بالأشخاص المحتشدين في تلك الصالة. كان السويدي جالسًا في تلك الصالة إلى جانب شقيق داون، فاتصل بأهله وأخبرهم بأن داون لم تفز. لكنه كان لا يزال قادرًا على الحديث عن حرارة الاستقبال الذي تلقّته، وعلى القول من غير مبالغة: «لقد زلزلت المكان كله».

وبالتأكيد، لم تكن أية واحدة من ملكات جمال نيو جيرسي السابقات، يوم زفافها، قابلة للمقارنة بداون بأي شكل من الأشكال. شكّلت ملكات جمال نيو جيرسي السابقات ما يشبه عُصبة لهن. وفي فترة الخمسينات حرصن على حضور زفاف كل واحدة منهن. ومن هنا، لا بد أنه التقى ما لا يقل عن عشر فتيات ممن فزن بتاج الولاية. ولعله تعرّف على ضعفَيْ هذا العدد من صديقاتهن خلال أيام التدريبات من أجل مسابقة الولاية... فتيات أحرزن ألقابًا من قبيل ملكة جمال شور ريزورت، وملكة جمال سنترال كوست، وملكة جمال كولومبوس داي،

وملكة جمال نورثن لايتس؛ لكن أيًا منهن لم تكن قادرة على منافسة زوجته ضمن أية فئة من الفئات: الموهبة، والذكاء، والشخصية، والمظهر. كلما ذكر لشخص ما شيئًا من قبيل أنه غير قادر على فهم السبب الذي حال دون فوز داون بلقب ملكة جمال أميركا، تتوسّل إليه داون دائمًا لكي يكفّ عن قول ذلك لأنه يعطي انطباعًا بأن عدم إحرازها ذلك اللقب قد ترك في نفسها مرارة، في حين أن الخسارة كانت راحة لها من وجوه كثيرة. كان اجتياز ذلك كله من غير إذلال نفسها وإذلال أسرتها راحة في حد ذاته. صحيح أنها فوجئت قليلًا، وشعرت بنوع من الخذلان، بعد ذلك الدعم كلّه الذي قدمه لها أهل ولاية نيو جيرسي؛ وذلك أنها لم تكن واحدة من الفتيات الأوائل الثلاث، ولا حتى من الفتيات الأوائل العشر... لكن هذا أيضًا يمكن أن يكون نعمة خفية. مع أن الخسارة لا يمكن أن تكون مصدر راحة لمتنافس مثله، ولا نعمة بأي شكل من الأشكال، فقد كان (على الرغم من ذلك) معجبًا بكبرياء داون بصرف النظر عن عدم قدرته على فهم موقفها (كانت «الكبرياء» كلمة يحب الناس في المسابقة استخدامها في وصف الفتيات اللواتي يخسرن).

لقد سمحت لها الخسارة بأن تبدأ، على الأقل، باستعادة علاقتها بأبيها إلى سابق عهدها بعد أن كادت تتحطم نتيجة إصرارها على شيء كان معترضًا عليه أشد الاعتراض. قال لها السيد دواير عندما حاولت أن تشرح له مسألة الحصول على المنحة الدراسية التي تتيحها المسابقة: «لست أبالي بأي شيء يقدّمونه. الأمر كله متعلّق باستعراض عُري الفتيات. تلك الفتيات موجودات هناك لكي يستعرض الناس عُريَهن. كلّما قدّموا مالًا أكثر، كلما صار الأمر أكثر سوءًا. الإجابة هي لا».

وأما موافقة السيد دواير على القدوم إلى أتلانتيك سيتي، فقد كانت بفضل مهارات الإقناع التي تتمتّع بها خالة داون الأثيرة عندها، خالتها بيغ، شقيقة أمها، معلّمة المدرسة المتزوجة من العم الثري ميد؛ تلك الخالة التي أخذت داون في طفولتها إلى الفندق في سبرينغ لينك. لقد خاطبت الخالة بيغ صهرها بطريقتها الدبلوماسية اللطيفة التي كانت داون معجبة بها دائمًا، وكانت تحب تقليدها. قالت

له: «من الطبيعي ألا يكون أي أب مرتاحًا لرؤية طفلته هناك. إنه يولّد في الذهن صورًا معينة لم يألف الأب بعد أن ترتبط بابنته. لو كانت ابنتي، لكان لديَّ الإحساس نفسه على الرغم من أنني لا أملك تلك المشاعر التي عادة ما يملكها الآباء تجاه بناتهم. سوف يزعجني الأمر؛ سوف يزعجني بالطبع. وأظن أن آباء كثيرين يشعرون بما تشعر به أنت. يكونون فخورين ببناتهم، بل فخورين بهن كثيرًا، لكنهم يقولون في الوقت نفسه 'أوه، يا إلهي، إنها طفلتي هناك'. لكن، يا جيم، هذا الأمر نظيف تمامًا لا تشوبه أية شائبة؛ ولا مبرر للقلق من أي شيء. تخرج الفتيات السيئات من المسابقة في وقت مبكر - إنهن يذهبن للعمل في احتفالات سائقي الشاحنات - وأما الفتيات الباقيات، فهن طفلات عاديات من بلدات صغيرة، فتيات محترمات حلوات يملك آباؤهن متجرًا للبقالة ولا يذهبون إلى النادي الريفي. إنهم يجعلون مظهر الفتيات يبدو كما لو أنهنّ ممن اعتدن الذهاب إلى حفلات المجتمع الراقي، لكن أصولهنّ الاجتماعية عادية جدًا. لسن أكثر من فتيات طيبات يذهبن إلى البيت ويحلمن بالاستقرار وبالزواج من ابن الجيران. ثم إن أعضاء لجنة التحكيم أشخاص جادّون تمامًا. هذه مسابقة ملكة جمال أميركا، يا جيمي. لو كانت مسيئة إلى الفتيات، لما سمحوا بها. إنه شرف. تريد داون وجودك معها لكي تشاركها ذلك الشرف. ولن تكون سعيدة إذا لم تكن هناك، يا جيمي. سوف يحطمها ذلك، خاصّة إذا كنت الأب الوحيد الذي لم يأتِ».

أجابها: «بيغي، الأمر يتجاوزها. إنه أمر يتجاوزنا كلنا. لن أذهب». هذا ما جعلها تستنجد بمسؤوليته، لا تجاه داون وحدها، بل تجاه الأمّة أيضًا. «أنت لا تأتي عندما تفوز ابنتك على المستوى المحلي، وأنت لا تأتي عندما تفوز ابنتك على مستوى الولاية. وأنت تقول لي الآن إنك لن تأتي إذا فازت ابنتك على المستوى الوطني! إذا فازت بلقب ملكة جمال أميركا، فلن تكونَ هناك لكي تصعد إلى المنصة وتحتضن ابنتك معتزًّا بها... فماذا سيظنّون بك؟ سوف يقولون 'تقليد عظيم، جزء من التراث الأميركي، لكن والدها ليس هنا. صور لملكة جمال أميركا مع أسرتها، لكن والدها ليس واحدًا ممن يظهرون في

الصورة’. قل لي، من الذي سيكون منهارًا في اليوم التالي؟».

وهكذا، غالب أبوها نفسه وفعلها خلافًا لقناعته، رضي بأن يحضر الليلة الكبيرة في أتلانتيك سيتي مع بقية أقارب داون، فكان الأمر كارثة. عندما رأته داون هناك مرتديًا بدلة يوم الأحد منتظرًا في الردهة مع أمها وعماتها وخالتها وأعمامها وأخوالها وأبنائهم وبنتاهم، وكل شخص من عائلة داوير في مقاطعات يونيون وإيسكس وهدسون، لم تسمح لها مشرفتها بأكثر من مصافحته باليد. وهذا ما أغضبه أشد الغضب. لكن ذلك كان جزءًا من أنظمة المسابقة، لأن من الممكن أن يراهما أحد لا يعرف أنه أبوها فيبدو الأمر كما لو أنه معانقة، وكما لو أن شيئًا غير طبيعي يحدث هناك. كان كل شيء مرتّبًا بحيث لا يمكن أن تشوبه شائبةٌ من سلوك غير مقبول؛ إلّا أن جيم دواير كان قد شفي حديثًا من نوبته القلبية الأولى، وكان في حالة توتّر شديد في تلك اللحظة فلم يفهم الموقف وظن أنها صارت تعتبر نفسها شخصية كبيرة إلى حد يسمح لها بصد أبيها نفسه وإحراجه، وبأن تتجاهله وتتعامل معه تعاملًا باردًا في العلن أمام الناس جميعًا.

وبالطبع، أمضت داون ذلك الأسبوع كله في أتلانتيك سيتي تحت مراقبة يقظة من جانب إدارة المسابقة فلم يكن مسموحًا لها أن ترى السويدي على الإطلاق، لا في حضور مشرفتها ولا حتى في مكان عام. وهكذا كان عليه أن يظل في نيوارك، حتى اللحظة الأخيرة، وأن يكون قانعًا - مثله مثل أسرتها - بالتحدّث معها على الهاتف. إلا أن صراحة داون في إخبار أبيها بهذا الأمر الصعب (بحرمانها أسبوعًا كاملًا من صحبة حبيبها اليهودي) لم يكن له كبير تأثير عليه عندما حاولت - بعد عودتها إلى إليزابيث - تهدئة نقمته تجاه ما ظل عدة سنين بعد ذلك يشير إليه بتعبير «التجاهل الفظّ».

كانت داون تقول للزوجين سالزمان: «لم يكن ذلك إلا فندقًا من فنادق العالم القديم. كان مكانًا من أروع الأماكن. مكانًا ضخمًا، رائعًا، على الماء مباشرة، شيء مما ترونه في الأفلام. غرف كبيرة مطلة على بحيرة جنيف. أحببنا ذلك كثيرًا». قالت لهما فجأة... «هل أُضجركما بهذا الحديث؟». أجاباها بصوت واحد: «لا، لا».

كانت شيلا تتظاهر بأنها تصغي مهتمة إلى كل كلمة تقولها داون. كان عليها أن تتظاهر بهذا. فحتى امرأة مثلها، لم تكن قادرة على أن تتعافى تعافيًا تامًا من ثورة الغضب التي واجهَتها في مكتب داون قبل قليل. لو كانت قادرة على ذلك... حسنًا... فأي نوع من النساء يمكن أن تكون؟ كانت بعيدة كل البعد عمّا يتخيّله السويدي، لا لأنها كانت تتظاهر بشيء غير طبيعي عند وجوده معه - تتظاهر بأنها شيء آخر أو بأنها شخص آخر - بل لأنه لم يفهمها بأحسن مما كان قادرًا على فهم أي إنسان. لم يكن اختراق الناس وسبر أغوارهم مهارة يمتلكها أو قدرة يتمتّع بها. لم يكن لديه مفتاح ذلك القفل. كل من يبدي له علامات الصلاح أو الطيبة يعتبره صالحًا أو طيبًا. وكل من يبدي له علامات الإخلاص يعتبره مخلصًا، وكل من يبدي له علامات الفهم يعتبره فهيمًا. هذا ما جعله يفشل في رؤية ما هو داخل ابنته، وفي رؤية ما هو داخل زوجته، وفي رؤية ما هو داخل عشيقته الوحيدة التي لم يكن له غيرها في حياته كلّها... بل لعله لم يكن قادرًا حتى على رؤية ما في داخل نفسه. ثم... ماذا يكون المرء إذا ما جُرِّد من تلك العلامات التي يبديها؟ يكون الناس واقفين في كل مكان، صارخين «هذا أنا! هذا أنا!»، وكلما نظرت إليهم يقفون ويخبرونك عن أنفسهم. لكن حقيقة الأمر هي أنهم لا يملكون أية فكرة عمن هم، أو عما هم، أكثر مما يملكه من فكرة عن نفسه. بل هم يصدّقون أيضًا تلك اللافتات التي يرفعونها. حريٌّ بهم أن ينهضوا ويصيحوا: «هذا ليس أنا، هذا ليس أنا!»... ولسوف يفعلون هذا إن كان لديهم أي إحساس باللياقة. «هذا ليس أنا!»... ثم يكون عليك أن تعرف كيف تشقّ طريقك عبر هذا الهراء كلّه في هذا العالم.

لعل شيلا سالزمان كانت مصغية إلى كل كلمة من الكلمات التي تقولها داون، ولعلّها كانت غير مصغية؛ لكن شيلي سالزمان كان مصغيًا بالتأكيد. لم يكن الطبيب اللطيف يقوم بدور الطبيب فحسب، بل من الواضح أنه صار واقعًا تحت سحر داون، إلى حد ما - سحر ذلك السطح الجذاب المغري... سطحٌ كان باطنُه بدَورِه - هكذا كانت تقدّمه أمام الناس - ساحرًا إلى أقصى حدود السحر -. فبعد كل ما مرت به، لا تزال تبدو، ولا تزال تتصرف، كما لو أن شيئًا لم يحدث.

بالنسبة إليه، كان لكل شيء وجهان: جنبًا إلى جنب، كيف كان في ما مضى، وكيف هو الآن. لكن داون تجعل الأمر يبدو كما لو أن ما كان هو نفسه ما لا يزال كائنًا. فبعد الانعطافة المأساوية التي اتخذتها حياتهما، أفلحت داون في السنة الأخيرة في أن تعود هي نفسها. ومن الواضح أن ذلك كان عن طريق الامتناع عن التفكير في أشياء بعينها. ثم إنها لم تعد إلى نفسها عن طريق عملية شد الوجه وحدها، ولا عن طريق استعادة كياستها الناعمة بعد انهياراتها وأبقارها وقراراتها بأن تغيّر حياتها، بل أيضًا عن طريق العودة إلى داون التي كانت تعيش في طريق هيلسايد في إليزابيث بولاية نيو جيرسي. كانت تلك بوابة... نوع من بوابة نفسية أقيمت في دماغها... بوابة منيعة لا يستطيع اجتيازها أي شيء يمكن أن يكون مؤذيًا لها. أقفلتْ تلك البوابة، وانتهى الأمر. أمر عجائبي، أو هكذا كان يظنّه إلى أن عرف أن لتلك البوابة اسمًا. إنها «بوابة ويليام أوركوت الثالث».

نعم، إذا أردت العثور على داون التي كانت في الأربعينات، فها هي من جديد ميري داون دواير من حي إلمورا في إليزابيث؛ فتاة إيرلندية طموح من أسرة من الطبقة العاملة كانت في بداية طريقها الصحيح بين أعضاء أبرشية سانت جنيفييف المحترمين. كنيسة سانت جنيفييف التي هي أرقى كنيسة كاثوليكية في المدينة. وعلى مسافة أميال من تلك الكنيسة، يقيم أبوها وإخوته الذين كانوا من صِبيَة المذبح. عادت من جديد مالكة لتلك القدرة التي كانت لديها حتى منذ أن كان عمرها عشرين عامًا، القدرة على إثارة اهتمام المستمع بأي شيء تقوله - كأنها تلمس داخلك - شيء ما كان موجودًا أبدًا عند بقية منافساتها اللواتي فزن في أتلانتيك سيتي. لكنها كانت قادرة على فعل هذا، على تعرية شيء صبياني، حتى لدى الكبار، من غير أن تفعل شيئًا أكثر من بث حماستها الحيوية الاعتيادية مستخدمة تقاطيع وجهها البيضاوي ذي الصنعة المدهشة التامة، التي لا يعيبها نقص في أي شيء. ربما... ربما يظلّ الناس في خشية منها لأنها تبدو هكذا... إلى أن تتكلّم فتكشف عن آراء ليست شديدة الاختلاف عما يراه أي شخص لطيف لائق. اكتشاف أنها ليست إلهة على الإطلاق، وأنها غير مهتمة أبدًا

بالتظاهر بأنها إلهة - بل اكتشاف أنها تكاد تكون خالية من أي ميل إلى التظاهر بأي شيء - هو ما يجعل السواد المتألّق في شعرها أكثر جذبًا للأعين، ومثله قناع وجهها المثلّث الذي هو ليس أكبر كثيرًا من وجه قطة، وكذلك عيناها الكبيرتان الشاحبتان المتوقّدتان توقّدًا يكاد يكون مستفزًّا... العينان الحسّاستان الهشّتان أيضًا. لا يكاد يستطيع المرء أن يصدّق ما تقوله هاتان العينان، من أن هذه الفتاة ستكبر وتصير امرأة أعمال ذكية، مصمّمة أشد التصميم على تحقيق الأرباح من تربية الأبقار. ما كان يثير مشاعر الرقّة في نفس السويدي في كل وقت من الأوقات هو أنها لم تكن ضعيفة هشّة على الإطلاق، على الرغم من مظهرها الموحي بالرقّة والهشاشة. كان لهذا أثره القوي عليه دائمًا: كم كانت قوية (في وقت من الأوقات)، وكم يجعلها جمالها تبدو ضعيفة رقيقة؛ تبدو كذلك حتى له، هو زوجها، وتظلّ تبدو كذلك بعد زمن طويل قد يتخيّل المرء أنه كفيل بجعل الوله والافتتان أقل حرارة في الحياة الزوجية.

وكم بدت شيلا باهتة وهي جالسة إلى جانبها، وهي تتصنّع الإصغاء إليها... بدت بسيطة، حقيقية، منطقية، محترمة، وبدت كئيبة أيضًا. بدت كئيبة جدًا. كل شيء فيها ذابل. بدت مختبئة. ما كان في شيلا أي شيء عذب. وكانت في داون عذوبة كثيرة. كانت فيها عذوبة ذات يوم. كانت عذوبة تعبّر عن كل ما هو موجود فيه. لم يكن من السهل أبدًا فهم كيف استطاع أصلًا أن يجد في هذه المرأة الحادّة، المتصنعة، المختبئة، امرأة أكثر جاذبية من داون. فكم بدا يائسًا مثيرًا للشفقة؛ وكم بدا كائنًا مستنفَدًا محطمًا عديم الحول، كائنًا هاربًا من كل ما قد تداعى من حوله، جاريًا في طريق التهوّر الذي يفزع إليه من يكون واقعًا في مشكلة، فلا يلبث أن يجعل الوضع السيئ أكثر سوءًا. يكاد يكون كل ما جذبه في شيلا هو أنها شخص آخر. وضوحها، وصراحتها، وتوازنها، وقدرتها الممتازة على التحكّم بنفسها... كانت كلها - أول الأمر - خصالًا لا أهمية لها. فارًا من تلك الكارثة التي أصابته بالعمى (منفصلًا كما لم ينفصل من قبل عن حياته المصنوعة مسبقًا؛ ملطخ السمعة مخزيًا كما لم يكن من قبل أبدًا)، التفت مبهورًا إلى المرأة الوحيدة، غير زوجته، التي يعرفها معرفة شخصية، وإن تكن معرفة

بعيدة. هكذا وصل إلى تلك النقطة، باحثًا عن ملجأ، مطاردًا... سببٌ بائس لجعل شخص مستقيم، مفتون بزوجته، متشبّث تشبّثًا شديدًا بوجوب الاقتصار على امرأة واحدة، يلقي بنفسه في هذه اللحظة الاستثنائية في حالة كان يظن أنه يمقتها، حالة من الفشل المخزي في أن يظلّ مخلصًا. لكن دور الشهوة الجسدية في تعلّقه بها كان قليلًا. ما كان قادرًا على تقديم ذلك الحب الجارف الذي تستطيع داون استخراجه منه. كانت الشهوة حالة طبيعية بأكثر مما يطيقه شخص تشوّه تشوّهًا مفاجئًا إلى هذا الحد... والد فتاة غير شرعية على نحو شنيع. لقد كان هناك من أجل الوهم. كان يعتلي شيلا كأنه شخص يبحث عن مخبأ له، يحفر لنفسه حفرة لكي يتوغل فيها... جسدُ خلد ضخم يختبئ في حفرة. رجل يختفي: لقد كانت شخصًا آخر، فلعله يستطيع أن يكون بدوره شخصًا آخر!

لكن كونها شخصًا آخر هو ما جعل الأمر غير سليم. فإلى جانب داون، كانت شيلا آلة تفكير حسنة التركيب من غير أي طابع شخصي. كانت كأنها إبرةٌ بشرية خيْطُها دماغٌ... لم تكن امرأة يسرّه أن يمسّها، ناهيك عن النوم معها. داون هي المرأة التي ألهمته اجتراح أمر لم تفلح مسيرته الرياضية محطمةُ الأرقام القياسية في تأهيله للقيام به: عصيانُ أبيه. مأثرة الوقوف في وجه أبيه. وأما كيف ألهمته هذا، فقد كان ذلك بأن تبدو متميّزة مثلما تبدو على الرغم من أنها تتكلّم مثل أي شخص آخر.

أهي أشياء أكبر، وأكثر أهمية، وأجلّ قيمة، تلك الأشياء التي تجعل الإنسان يلازم إلفَه طيلة العمر؟ أم إن في قلب زواج كل إنسان شيء شاذّ لا عقلانيٌّ ولا قيمة له؟

لا بد أن شيلا تعرف الإجابة. إنها تعرف كل شيء. نعم، إن لديها إجابة عن هذا الأمر أيضًا... قالت له شيلا إن ابنته قد ذهبت بعيدًا جدًا، وإن قوتها صارت أكبر كثيرًا، وإنها كانت قادرة على فعل ذلك بنفسها. هي فتاة قوية، يا سايمور! إنها فتاة مجنونة. إنها مجنونة. إنها مضطربة. ولا دورَ يلعبه الأب مع ابنة مضطربة. أنا واثقة من أنه لعب دورًا كبيرًا. ظننت فقط أن أمرًا رهيبًا قد حدث في البيت...

أوه، لقد أراد استعادة زوجته... ما كان هناك حدٌّ لرغبته في استعادتها... الزوجة التي كانت شديدة الجدّية في ما يتعلّق بكونها أمًّا جادّة، المرأة التي كان لديها نفور عنيف من أن يظنّها أحد تافهة، أو مدللة، أو أن لديها حنينًا طائشًا إلى يومٍ لمعت فيه وتميّزت. كان ذلك النفور يجعلها ترفض حتى أن تضع (ولو على سبيل المزاح مع أسرتها) ذلك التاج القابع في علبة فوق خزانتها. لقد استنفد قدرته على التحمل - وهو يريد استعادة داون تلك في هذه اللحظة.

سألتها شيلا: «كيف كانت المزارع هناك؟ في زوغ؟ كنت تعتزمين إخبارنا عن تلك المزارع». هذا الاهتمام لدى شيلا بمعرفة كلّ شيء!... كيف استطاع أن يكون راغبًا في أن يجمعه بها أي شيء؟ كان هؤلاء المفكّرون العميقون الأشخاص الوحيدين الذي لا يطيق البقاء قريبًا منهم فترة طويلة. هؤلاء الأشخاص الذين لم يصنعوا شيئًا أبدًا، أو الذين لم يروا أي شيء يُصنع، الذين ما كانوا يعرفون مما تصنع الأشياء ولا كيف تعمل شركة من الشركات. أولئك الذين لم يبيعوا شيئًا أبدًا - إلا إذا كان بيتًا أو سيارة - ولم يكونوا يعرفون كيف يبيعون أي شيء. أولئك الذين لم يوظّفوا عاملًا، ولم يطردوا عاملًا، ولم يدرّبوا عاملًا، ولم يسرقهم عامل... أناسٌ لا يعرفون شيئًا عن دقائق بناء عمل من الأعمال، ولا عن مخاطره، ولا عن تشغيل مصنع؛ لكنهم يتخيّلون - على الرغم من ذلك كله - أنهم يعرفون كل ما يستحق أن يُعرَف. ذلك الانتباه كلّه، وذلك التحديق المتأمّل الذي يميّز شيلا، التحديق في كل حفرة وفي كل نتوء في روح الشخص... شيء منفّر يخالف جوهر الحياة مثلما يعرفه. كان الأمر بسيطًا وفق طريقة تفكيره: ليس عليك إلا أن تقوم بواجباتك من غير كلل ولا توانٍ مثلما يفعل أي واحد من آل ليفوف، فيصير الانتظام حالة طبيعية، ويعيش المرء قصّة بسيطة تستمرّ وتستمر، قصّة ذات استقرار عميق يمكن التنبؤ بتموّجاتها... ويصير الصراع شيئًا يمكن احتواؤه، والمفاجآت سارّة مُرضية، والحركة المستمرّة تيارًا رقراقًا يحملك معه بأقصى قدر من الثقة بحيث لا تتكسّر أمواج صاخبة إلا على شواطئ بلدان بعيدة عنك آلاف وآلاف الأميال... أو لعلّ الأمر كلّه كان يبدو له هكذا في وقت من الأوقات، في الماضي، عندما كان هناك اتحاد

بين أم جميلة وأب قوي وطفلة لامعة فوّارة... ذلك الثالوث الرائع الذي كان!
قالت داون وقد سرّتها العودة إلى الحديث عن تلك المزارع كلها: «لقد ضعت، نعم، أوه، مزارع ومزارع كثيرة. لقد جعلونا نرى أفضل ما لديهم من أبقار. حظائر دافئة رائعة. كنا هناك في أوائل الربيع عندما لم تكن الأبقار قد خرجت إلى المراعي بعد. تعيش الأبقار تحت البيت. البيت الجبلي فوقها. مدافئ من البورسلان... مدافئ مزيّنة كثيرًا...» - لا أفهم كيف كنت قصيرَ النظر إلى هذا الحد، كيف خدعتك فتاة من الواضح أنها مجنونة. لقد كانت هاربة. وما كانت إعادتها ممكنة. لم تكن الفتاة نفسها التي كانتها. أصابها شيء ما. سمنتْ كثيرًا. ظننت أنها سمنت هكذا، وأنها صارت غاضبة هكذا، لأن شيئًا شديد السوء قد حدث لها في البيت. ظننتِ أن تلك كانت غلطتي. لم أظن ذلك. كلنا لدينا بيوت. وفي البيوت تحدث الأشياء الخاطئة. كانت داون تقول: «... قدّموا إلينا نبيذًا من صنعهم، وأشياء صغيرة للأكل. كانوا ودودين كثيرًا. كان قد جاء الخريف عندما ذهبنا إليهم مرة ثانية. تمضي الأبقار فصل الصيف كلّه في الجبال. وهم يحلبونها هناك. البقرة التي تدر أكبر كمية من الحليب خلال الصيف هي التي تنزل من الجبال أولًا بجرس ضخم معلق من عنقها. كانت تلك هي البقرة رقم واحد. يزيّنون قرنيها بالزهور، ويقيمون احتفالات كبيرة. عندما ينزلون من مراعي الجبال المرتفعة، تسير البقرات في صف طويل، وتكون البقرة الفائزة البقرة الأولى في الصف». ماذا لو تابعتْ مسارها وقتلت شخصًا آخر؟ أليس في هذا شيء من المسؤولية؟ لقد فعلتْ ذلك، كما تعرفين، لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين، فما رأيك في هذا؟ لا تقل هذه الأشياء لكي تعذّبني فقط. إنني أقول لك شيئًا! لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين! كان يمكنك الحيلولة دون حدوث ذلك! أنت تعذّبني. أنت تحاول أن تعذّبني. لقد قتلتْ ثلاثة أشخاص آخرين!... «والناس جميعًا، والأطفال جميعًا، والفتيات والنساء اللواتي كن يحلبن الأبقار طيلة الصيف، يخرجون جميعًا في ملابس جميلة، يرتدون كلهم ملابس سويسرية تقليدية، وفرقة موسيقية، وموسيقى، واحتفال كبير في الساحة. وبعد ذلك، تمضي الأبقار الشتاء كله في حظائرها تحت البيوت. حظائر جميلة جدًا، نظيفة جدًا.

أوه، كانت تلك فرصة حقيقية... رؤية ذلك كلّه. التقط سايمور صورًا لأبقارهم كلها حتى نستطيع عرضها عبر جهاز الإسقاط الضوئي».

سألتها أمه: «هل التقط سايمور صورًا؟ ظننت أنك غير قادر على التقاط صورة حتى إن قتلوك...». مالت صوبه وقبّلته... «يا ولدي الرائع». همست سيلفيا ليفوف بهذا وقد لمعت عيناها إعجابًا متيّمًا بابنها البكر.

كانت داون تقول: «حسنًا، لقد كان يلتقط صورًا في ذلك الوقت. ابنك الرائع. في ذلك الوقت، كانت لديه كاميرا من نوع ليكا. لقد كنت تلتقط صورًا جميلة جدًا، أليس كذلك يا عزيزي؟».

نعم، كان يلتقط صورًا جيّدة. كان ذلك هو حقًّا. كان ذلك هو الابن نفسه الذي التقط تلك الصور. هو الابن الذي اشترى لميري ملابس طفلة سويسرية، الذي اشترى لداون مجوهرات في لوزان، الذي أخبر أخاه وأخبر شيلا بأن ميري قتلت أربعة أشخاص. هو الذي اشترى لأسرته - تذكارًا من زوغ، تذكارًا من تلك المقاطعة السويسرية التي كانت أروع ما شاهدوه في حياتهم - هذا الشمعدان السيراميكي الذي صار الآن نصف مكسوٍّ بقطرات الشمع. هو نفسه من أخبر أخاه وشيلا بأن ميري قتلت أربعة أشخاص. هو نفسه الذي كانت لديه كاميرا ليكا، الذي أخبر هذين الاثنين - الاثنين اللذين هما آخر من يثق به في هذا العالم، ولا سلطة له عليهما أبدًا - بما قد فعلته ميري.

«أين ذهبتم أيضًا؟»... كان هذا سؤالًا وجّهته شيلا إلى داون مع الحرص على عدم إظهار أنها ستخبر شيلي بالأمر عندما يصيران في سيارتهما، فيقول شيلي: «يا إلهي، يا إلهي»، لأنه شخص لطيف، مهذّب جدًا إلى حد يمكن معه أن يجعله ذلك الخبر يبكي. لكنهما سيصلان إلى البيت آخر الأمر: لحظة يصلان إلى البيت، سيكون الاتصال بالشرطة أول شيء يفعله. لقد آوى هذه القاتلة في بيته في وقت مضى، آواها ثلاثة أيام. كان ذلك أمرًا مخيفًا، فظيعًا، محطمًا للأعصاب على نحو عنيف. لكن شخصًا واحدًا فقط قُتل. مهما يكن هذا سيئًا، فإن المرء يستطيع جعل عقله يتقبّله - أصرت زوجته إصرارًا شديدًا، فوافقها مهما تكن تلك الموافقة فعلًا غبيًا من جانبه. قالت إن ما من بديل أمامهما لأن

الفتاة كانت مريضتها، لأنها قطعت لها عهدًا. ضميرها المهني لا يسمح لها... لكن، أربعة أشخاص! كان هذا أكثر مما يمكن احتماله. كان هذا أمرًا لا يمكن قبوله. أربعة أشخاص أبرياء تقتلهم جميعًا، لا، هذه بربرية. هذه بشاعة. هذا لؤم. هذا شر. لقد كان لديهما بديل، بكل تأكيد. إنه القانون. واجبهما تجاه القانون. كانا يعرفان مكانها. ومن الممكن أن تتم محاكمتهما بجريمة إخفاء سر من هذا النوع. لا، لن يسمح شيلي بأن يخرج الأمر من يده مرة أخرى. رأى السويدي هذا كله. سوف يتّصل شيلي بالشرطة. لا بد له من فعل ذلك. «أربعة أشخاص. إنها في نيوارك. سايمور ليفوف يعرف عنوانها. لقد كان هناك. كان اليوم معها في ذلك المكان». كان شيلي مثلما وصفه لو ليفوف تمامًا... «طبيبٌ، شخص محترم، صاحب أخلاق، شخص مسؤول»... ولن يسمح شيلي لزوجته بأن تكون شريكًا في جريمة قتل أربعة أشخاص على يد هذه الفتاة الشرّيرة المقرفة، التي تريد تخليص مضطهَدي العالم عن طريق القتل. سلوك إرهابي مجنون مصحوب بإيديولوجيا زائفة... لقد فعلت أسوأ ما يمكن لأي شخص فعله. هكذا سيكون تفسير شيلي، فما الذي يستطيع السويدي فعله من أجل تغييره؟ كيف يستطيع أن يجعل شيلي يرى الأمر في ضوء مختلف إذا كان هو نفسه لم يعد قادرًا على رؤيته في ضوء مختلف؟ قال السويدي في نفسه: خذه جانبًا على الفور، وأخبره، واشرح له الآن. قل له كل ما ينبغي أن يقال حتى تمنعه من ذلك التصرف، حتى تمنعه من التفكير في أن من واجبه تسليمها لأنه مواطن ملتزم بالقانون، حتى يكفّ عن التفكير في أن ذلك حماية للناس الأبرياء... قل له «لقد استُغلتْ. لقد كانت سهلة الانقياد. لقد كانت طفلة ذات عاطفة مضطرمة. لقد كانت طفلة رائعة. لقد كانت طفلتي الوحيدة، لكنّها ورّطت نفسها مع أشخاص سيئين. ما كان يمكن أبدًا أن تكون هي العقل المدبر وراء أي شيء من هذا النوع. كل ما في الأمر هو أنها كرهت الحرب. لقد كرهنا الحرب كلنا. غضبنا كلنا، وشعرنا بالعجز. لكنها كانت طفلة، كانت مراهقة مشوّشة، فتاة شديدة التوتر. لقد كانت صغيرة جدًا، أصغر من أن تكون لديها أية خبرة حقيقية. وبعد ذلك تورطت في شيء لم تكن تفهمه أصلًا. لقد كانت تحاول إنقاذ أرواح الناس.

لست أحاول تقديم مبرر سياسي لما فعلته، لأنه لا وجود لمبرر سياسي من هذا النوع... لا يوجد ما يبرر هذا... لا يوجد ما يبرره أبدًا. لكن المرء لا يمكنه أن يتوقّف عند النظر إلى النتائج المخيفة لما أقدمت عليه. لقد كانت لديها أسبابها. كانت لديها أسباب تراها شديدة القوة. لكن، لا أهمية الآن لهذه الأسباب: لقد غيرتْ فلسفتها؛ ثم إن الحرب قد انتهت. لا يعرف أحد منا ما حدث حقًّا. ولا يستطيع أحد منا معرفة الأسباب الحقيقية لحدوثه. إن من خلف ذلك أكثر بكثير، بكثير جدًّا، مما نستطيع فهمه. لقد كانت مخطئة، بالطبع... ارتكبت غلطة شنيعة مأساوية مخيفة. ما من شيء يمكن أن يُقال من أجل الدفاع عنها. لكنها لم تعد تشكّل خطرًا على أي إنسان. إنها الآن بقايا حزينة هزيلة لفتاة لا تقبل أن تؤذي ذبابة. إنها هادئة. إنها مسالمة تمامًا. هي ليست مجرمة متمرسة، يا شيلي. هي مخلوق محطم أقدم على فعلة فظيعة... لكنها نادمة على تلك الفعلة، نادمة من أعماق روحها. فما الفائدة المتأتية من الاتصال بالشرطة؟ نعم، ينبغي أن تأخذ العدالة مجراها، بالطبع... لكنها لم تعد تشكل أي خطر. لست مضطرًا إلى إدخال نفسك في هذا الأمر. ولسنا مضطرين إلى الاتصال بالشرطة من أجل حماية أي إنسان. وما من ضرورة لأي انتقام. لقد تم الانتقام منها. صدّقني. أعرف أنها مذنبة. ليست المسألة إن كانت مذنبة أم لا. المسألة هي معرفة ما يتعين فعله الآن. اتركها لي. سوف أهتم بها. وهي لن تفعل شيئًا... سأحرص على ألّا تفعل شيئًا. سوف أحرص على أن تحصل على ما يلزمها من رعاية، وعلى أن تحصل على ما يلزمها من مساعدة. يا شيلي، أمنحني فرصة لكي أعيدها إلى الحياة البشرية... لا تتّصل بالشرطة».

لكنه كان يعرف أن شيلي سوف يقول في نفسه: لقد فعلت شيلا ما فيه الكفاية من أجل تلك الأسرة. كلاهما فعل ما فيه الكفاية. تلك الأسرة في مأزق حقيقي الآن، لكنها لن تحصل على مزيد من العون من د. سالزمان. هذه ليست مسألة إجراء عملية لشدّ الوجه. لقد قُتل أربعة أشخاص. ينبغي إعدام تلك الفتاة بالكرسي الكهربائي. نعم، إن من شأن الرقم «4» أن يحوّل شيلي نفسه إلى مواطن حانق مستعد لإدارة مفتاح تشغيل الكرسي الكهربائي. سوف يمضي من

غير تردّد ويسلّمها لأنها ليست أكثر من عاهرة صغيرة تستحقّ ذلك.

كانت داون تقول في تلك اللحظة: «في تلك المرة الثانية؟ أوه، لقد ذهبنا إلى كل مكان. في أوروبا، لا أهمية حقيقية للمكان الذي يذهب المرء إليه لأنه يجد في كل مكان أشياء جميلة. هذا ما فعلناه، إلى حد ما».

لكن الشرطة تعرف. الشرطة تعرف من خلال جيري. هذا أمر لا مفر منه. لقد اتصل جيري بالـ«إف بي آي». جيري. إعطاءُ جيري عنوانها. إخبار جيري. الجلوس هنا، الجلوس محطمًا تمامًا والنظر إلى تبعات كشفه عما فعلته ميري! محطم. لا يفعل شيئًا. ممسك بيد داون. يفكر من جديد في أتلانتيك سيتي. يفكر من جديد في بوريفاج. يفكّر من جديد في ميري عندما رقصت مع النادل. غير منتبه إلى عواقب كشفه المتهوّر. مجرّد من موهبته التي رافقته طيلة حياته، موهبة أن يكون السويدي ليفوف بدلًا من أن يحرر نفسه من المطرقة الساحقة التي هي هذا العالم... يحلم، يحلم، يحلم عاجزًا، في حين تدور في رأس أخيه ذي الطبع الحاد، هناك في فلوريدا، أسوأ الأفكار عنه... لم يكن أخًا له، أبدًا، فهو من كانت تعذّبه منذ البداية تلك الأشياء كلّها التي حظي السويدي بها، وكان يعذّبه منذ البداية ذلك الكمال المستحيل الذي كان عليهما أن ينافسا من أجله... الأخ الناريّ صاحب الإرادة القوية الذي لا يعرف التردّد، الأخ الذي لم يفعل في حياته شيئًا حتى منتصفه، الأخ الذي لا يحب شيئًا أكثر من تصفية الحسابات... نعم، تصفية حسابات أخيرة أمام العالم كله...

غير صحيح! هو من سلّمها. ليس أخوه، ولا شيلي سالزمان، بل هو، هو الذي فعل ذلك. ماذا كان يكلّفه أن يبقي فمه مطبقًا؟ ما الذي كنتُ أتوقّع تحقيقه من فتح فمي؟ الراحة؟ الراحة الطفولية؟ معرفة ردود أفعالهم؟ هل كنت ساعيًا خلف شيء سخيف إلى هذا الحد؟ هل كنت ساعيًا إلى معرفة ردود أفعالهم؟ فتح فمه فصار كل شيء سيّئًا إلى أقصى حدود السوء... لقد فعل السويدي ذلك عندما أخبرهم بما قالته له ميري: لقد سلّمها لأنها قتلت أربعة أشخاص. لقد زرع قنبلته الآن! زرعها من غير أن يكون راغبًا في زرعها، ومن غير أن يعرف ما يفعله، ومن غير حتى أن يلحّ عليه أحد. لقد استسلم وفعل ما يتعيّن عليه فعله وما يتعين

عليه ألّا يفعله: لقد سلّمها.

كان ينبغي أن يكون يومُه مختلفًا تمامًا حتى يستطيع أن يبقي فمه مغلقًا... يوم مختلف؛ إلغاء هذا اليوم. خذوني إلى يوم غير هذا اليوم! رؤية كل شيء يجري بسرعة شديدة. كم كان على الدوام صبورًا قادرًا على ألّا يرى! وكم كانت قدرته على الانتظام قدرة استثنائية. لكن الأشخاص الإضافيين الثلاثة الذين قُتلوا جعلوه يواجه شيئًا يستحيل ضبطه، حتى عليه. قالوا له إن هذا شيء فظيع؛ لكنه لم يدرك مدى فظاعته إلا عندما أخبرهم به. واحد + ثلاثة = أربعة. وأما أداة انقشاع العمى عنه فقد كانت ميري. الابنة جعلت أباها يرى. ربما كان هذا هو ما أرادت فعله طيلة حياتها. لقد أعطته بصيرة. أعطته بصيرة يرى بها واضحًا ذلك الشيء الذي لا يمكن ضبطه أبدًا... أن ترى ما لا تستطيع رؤيته، ما لا تراه، وما لن تراه إلى أن يُضاف ثلاثة قتلى إلى القتيل الأول فيصيرون أربعة.

لقد رأى كم هو غير معقول أن يأتي أحدنا من الآخر، وكم هي غير معقولة حقيقة أن واحدنا يأتي من الآخر. الولادة، والتعاقب، والأجيال، والتاريخ... أشياء غير معقولة أبدًا.

لقد رأى أن واحدنا لا يأتي من الآخر، ورأى أن واحدنا يأتي من الآخر في الظاهر فقط.

لقد رأى كيف هو الأمر، رأى إلى ما بعد الرقم 4، وإلى كل ما هو هناك، إلى كل ما لا سبيل إلى حصره. النظام دقيق. كان يظن أن أكثرَ هذا نظامٌ، وأن جزءًا صغيرًا منه فوضى. ثم تلقّى الأمر معكوسًا. أنشأ وهمه الخيالي، ثم فككته ميري. كانت حربًا، لكنها لم تكن تلك الحرب بعينها التي كانت في ذهن ميري... لا أهمية لهذا لأنها أتت بتلك الحرب إلى موطنها، إلى أميركا... أتت بها إلى بيتها نفسه.

في تلك اللحظة سمعوا جميعًا صوت أبيه يصيح: «لا!»... سمعوا صراخ لو ليفوف «أوه، يا إلهي! لا!».

سمعوا صراخ الفتاتين في المطبخ. وعلى الفور، أدرك السويدي ما كان يحدث. لقد ظهرت ميري في لثامها! أخبرتْ جدها بأن حصيلة قتلاها قد بلغت أربعة

أشخاص. أتت بالقطار من نيوارك، ثم سارت مسافة خمسة أميال حتى بلغت القرية. أتت وحدها، من تلقاء نفسها! لقد عرف الجميع الآن!

تخيّلها سائرة في ذلك النفق مرة أخرى فظلت تلك الصورة تفزعه طيلة فترة العشاء... تسير في أسمالها وصندلها على امتداد تلك القذارة، على امتداد تلك الظلمة، تسير بين المشرّدين المنبوذين في النفق، أولئك الذين يدركون أنها تحبّهم. إلا أنها - بينما كان جالسًا إلى الطاولة يصوغ حلولًا لا وجود لها - لم تكن في مكان قريب من ذلك النفق، بل في هذه المنطقة الريفية (تخيل صورة ذلك على الفور)، هنا في ريف مقاطعة موريس الجميل الذي استأنسته عبر القرون عشرة أجيال من الأميركيين. كانت تسير عائدة عبر الطرق الممتدة بين التلال، عبر طرق صارت حوافُّها الآن - في شهر أيلول - ملوّنة بالأحمر وبالبرتقالي الملتهب، بريشة الشيطان، مع أكداس وافرة من زهور النجميّة وقُضبان الذهب وزُهيرات الجزَر البري البيضاء... محصولٌ وفير متشابك من زهور بيضاء وزرقاء ووردية ونبيذية مشرئبة برشاقة فنية فوق سوق تلك النباتات المنتشرة في كل مكان... تعلمتْ أسماء الزهور كلّها حتى تتمكّن من تعريفها وتصنيفها في مشروع قدّمته في نادي الصف الرابع الابتدائي. ثم صارت تعلّمه، كلما سارا معًا، تعلّم ابن المدينة كيف يميّز بينها... «انظر يا بابا، انظر إلى هذه الأثلام على حواف البَتَلات!»... الهندباء البرية، والمُخَمَّسة، وشوك المروج، وهذه الزهور البرية وردية اللون، وعشبة فم الأرجوان، وآخر بقايا الخردل البري ذي الأزهار الصفراء التي يأتي بها النسيم من الحقول، والنَّفل، وعشبة اليارُو، وعباد الشمس البري، وبقع من نباتات الفصّة ذات السوق القوية المرنة هربت من مزرعة مجاورة وجاءت تستمتع بزهورها البسيطة بلون الخزامى، والقرنفل البرّي بعناقيد أزهاره البيضاء... وحقيبة ميري الصغيرة التي ملأتها ببتلات أزهار تحبّ أن تضعها في راحة يدها وتضربها باليد الأخرى حتى تنفجر مصدرة صوتًا... ونباتات آذان الدب المنتصبة التي كانت ميري تقطف أوراقها الشبيهة بالألسن وتضعها بطانةً لحذائها الرياضي متشبّهة بأوائل المستوطنين الذين عرفت من مدرِّس التاريخ

أنهم كانوا يستخدمون هذه الأوراق لتبطين نعالهم... ونباتات الصَّقلاب التي كانت ميري في طفولتها تفتح قرونها الرشيقة ثم تنفخ في الهواء ما فيها من زغب حريري حامل للبذور فتحسّ بأنها صارت جزءًا من الطبيعة وتتخيّل أنها هي الريح التي لا تعرف السكون. جدول إنديان بوك يجري سريعًا على يسارها، وجسور صغيرة تجتازه، وسدود كثيرة تحتجزه مشكِّلة بركًا للسباحة على طول الطريق. ثم يصب الجدول في جدول قوي آخر فيه أسماك الترويت القوية التي كانت ميري تأتي مع أبيها لاصطيادها... جدول إنديان بوك يجري من تحت الطريق قادمًا من الجبل الذي نشأ فيه فيجتازه متجهًا إلى الشرق. صفصاف القط إلى يسارها، وقيقب المستنقعات، والنباتات المائية. وإلى يمينها أشجار الجوز وقد اقترب نضج ثمارها ولم يبق إلا أسابيع قليلة حتى تتساقط الجوزات التي تصبغ أصابعَها بلون داكن عندما تمزقُ أغلفتها فتفوح منها رائحة لاذعة. وإلى يمينها أيضًا أشجار الكرز الأسود ونباتات الحقول ومروج جُزَّ عشبُها. أشجار القرانيا فوق التلال، ومن خلفها غابات ممتدة... غابات القيقب والبلوط والخَرّوب... أشجار كثيرة طويلة باسقة. كانت تذهب في الخريف لجمع ثمارها. كانت تجمع كل شيء، وتصنّف كل شيء، وتشرح له كل شيء. وتخرج العدسة المكبرة التي أهداها إياها لكي تفحص كل عنكبوت تأتي به إلى البيت فتحتفظ به فترة قصيرة أسيرًا في علبة مغلقة رطبة وتطعمه ذبابات ميتة إلى أن تطلقه حرًا وسط مجموعة من أزهار الجزر البري الذهبية («بابا، انظر ماذا يحدث الآن؟») حيث يستأنف العنكبوت سحرَ تغيير لونه حتى يكمن متخفيًا وينتظر فريسته. تسير صوب الشمال، صوب أفق لا يزال فيه أثر حي من ضوء النهار. تسير صاعدة بين نداءات طيور السمان وقت الغسق. تسير صاعدة فتتجاوز سياج المرعى الذي كانت تكرهه، وتتجاوز حقول القش وحقول الذرة وحقول اللفت التي كانت تكرهها، تتجاوز الحظائر والخيول والأبقار، والينابيع والشلالات والجرجير النامي من حولها («كان الرواد يستخدمونها، يا ماما، لتنظيف قدورهم ومقاليهم»)، والمروج، ومساحات من غابات كانت تكرهها. تسير صاعدة من القرية مقتفية أثر خطوات أبيها عندما سار مقلّدًا

جوني آبلسيد المرح المنشرح... إلى أن تصل - تمامًا قبل ظهور النجوم الأولى - إلى أشجار القيقب البالغ عمرها قرونًا، الأشجار التي كانت تكرهها، وإلى البيت الحجري العتيق المتين الذي لا يزال يحمل ذكرى وجودها، الوجود الذي كانت تكرهه... البيت الذي تعيش فيه أسرتها الحقيقية التي لا تزال تحمل أثر وجودها... الأسرة التي كانت تكرهها أيضًا.

في ساعة، في فصل، عبر المشهد الطبيعي الذي صار مرتبطًا منذ وقت طويل بفكرة السّلوان، بفكرة الجمال والعذوبة والمسرّة والسلام، تأتي الإرهابية السابقة، تأتي من تلقاء نفسها، تأتي عائدة من نيوارك إلى كل ما كانت تكرهه، إلى كل ما كانت غير راغبة فيه، إلى العالم المتماسك المتناغم الذي كانت تزدريه... تأتي مع شقاوتها الفتية المضطربة... تأتي الفتاة التي كانت أغربَ معتدية، تأتي وقد انقلبت رأسًا على عقب. تأتي قادمة من نيوارك، تأتي وتعترف فورًا، تعترف فورًا، لوالد والدها بما جعلتها مثاليتُها العظيمة ترتكبه. تقول له: «أربعة أشخاص، يا جدّي». فيعجز قلبه عن احتمال هذا. كان الطلاق أمرًا شديد السوء في عائلته، وأما القتل... وأما القتل!... ليس قتل شخص واحد، بل قتل شخص واحد زائد ثلاثة أشخاص... لقد قتلت أربعة أشخاص.

«لا!»... قالها الجد بأعلى صوته مخاطبًا تلك الدخيلة الملثّمة الفائحة برائحة البراز التي تزعم أنها حبيبتهم ميري. قال «لا»، وتوقّف قلبه، استسلم قلبه، ومات.

كان الدم على وجه لو ليفوف. كان واقفًا إلى جانب طاولة المطبخ ضاغطًا بيده على صدغه، غير قادر على الكلام... الأب الذي كان له جبروته. عملاق الأسرة البالغ طوله خمس أقدام وسبعة إنشات أمام ولديه الطويلين. كان الآن واقفًا وقد لوّث الدم وجهه. كان وجهه خاليًا من أي تعبير غير محاولته جاهدًا أن يمنع نفسه من البكاء. بدا عاجزًا حتى عن فعل ذلك. ما كان قادرًا على منع أي شيء. لم يكن قادرًا في يوم من الأيام على منع أي شيء. لكنه بدا الآن مستعدًا حتى لتصديق أن صنع قفّازات نسائية ممتازة ذات مقاسات دقيقة لم يكن أبدًا ضمانة لأن يستطيع أن يصنع لكلٍّ من أحبَهم حياة تبلغ الكمال. كان شديد البعد

عن ذلك. تظن أنك قادر على حماية عائلتك، لكنك غير قادر حتى على حماية نفسك. بدا كما لو أنه لم يبق شيء من الرجل الذي ما كان ممكنًا جعله يحيد عن هدفه، الرجل الذي ما كان يتغاضى عن أحد في حملته ضد الفوضى وضد معضلة الخلل البشري وقلّة الكفاءة... هناك، حيث كان واقفًا، لم تكن ممكنة رؤية الرجل الصلب المواظب الذي كان، قبل ثلاثين دقيقة فقط، يشرئب برأسه مقاتلًا حتى حلفاءه.

بدت على ذلك المقاتل أشد علامات الخيبة. لم يبق فيه شيء قادر على مقارعة الانحرافات وضربها حتى الموت. ما عاد موجودًا ما كان ينبغي أن يكون موجودًا. الانحرافات تنتصر. لا يمكنك وقف هذا. على غير توقّع، حدث ما كان مفترَضًا ألّا يحدث، ولم يحدث ما كان مفترضًا أن يحدث.

الآليّة القديمة التي تصنع النظام ما عادت عاملة. لم يبق غير خوفه ودهشته؛ لكنهما الآن من غير شيء يخفيهما.

كانت جيسي أوركوت جالسة إلى الطاولة وأمامها طبق حلوى نصف ممتلئ وكأس حليب لم تمسّه. كانت في يدها شوكة على أسنانها دم. لقد طعنته بتلك الشوكة. كانت الفتاة الواقفة عند المجلى تخبرهم بهذا، وأما الفتاة الأخرى فقد هرعت من البيت صارخة فلم تبق في المطبخ غير هذه التي أخبرتهم بما جرى ودموعها تجري. لأن السيدة أوركوت كانت لا تريد الأكل - هكذا قالت الفتاة - فقد بدأ السيد ليفوف يطعمها الحلوى بنفسه، لقمة بعد لقمة. كان يشرح لها كيف أن من الأفضل لها أن تشرب الحليب بدلًا من الويسكي. وكان يقول لها إن هذا أفضل من أجلها، وأفضل من أجل زوجها، وأفضل من أجل أولادها. سرعان ما سيكون لديها أحفاد، وسيكون هذا أفضل من أجل أحفادها. كان يقول مع كل لقمة تبتلعها: «نعم، جيسي فتاة طيبة، فتاة طيبة جدًا». ويخبرها كم أن من الأفضل من أجل كل شخص في العالم، وحتى من أجل السيد ليفوف وزوجته، لو أن جيسي تتوقّف عن الشرب. بعد أن أطعمها قرابة قطعة كاملة من حلوى الفراولة، قالت له: «أنا سأطعم جيسي»، فكان في غاية السعادة. سره قولها كثيرًا فضحك وناولها الشوكة، فما كان منها إلا أن أمسكت بها وسدّدتها إلى عينه مباشرة.

اتضح أنها أخطأت عينه بأكثر من إنش. قالت مارشا لجميع الواقفين في المطبخ: «هذا ليس سيئًا لشخص شرب ما شربته هذه الفتاة». وأما أوركوت الذي هاله هذا المشهد الذي فاق أي شيء أقدمت عليه زوجته في السابق حتى تهين بعلَها ذا العقل المتمدّن، بعلَها الذي يخونها، فما عاد يبدو منيعًا على الإطلاق، وما عاد يبدو ذا أهمية، لا في عين نفسه ولا في عين غيره، بل صار مظهره سخيفًا تافهًا كما كان في ذلك الصباح الذي أوقعه السويدي أرضًا في منتصف مباراة كرة القدم الودية... انحنى أوركوت ورفع جيسي بلطف عن الكرسي وأوقفها على قدميها. لم يظهر عليها أي أسف أو ندم، لا شيء... بدت كما لو أنها صارت مجرّدة من كل قدرة على الاستقبال ومن كل قدرة على الإرسال. لم تعد فيها خلية واحدة تخبرها بأنها تجاوزت حدًّا أساسيًا من حدود حياة التمدن.

كانت مارشا تقول لوالد السويدي: «لو شربتْ أقل مما شربته بكأس واحدة، لكنت الآن فاقد البصر يا لو». وأما زوجته فقد بدأت تمسح الجروح الصغيرة في وجهه بمنديل مطبخ رطب. في تلك اللحظة، لم تعد الناقدة الاجتماعية الضخمة صاحبة القفطان التي لا يستطيع شيء إيقافها قادرة على ضبط نفسها... جلست مارشا على كرسي جيسي الخالي أمام كأس الحليب المترعة، ووضعت وجهها بين كفيها، ثم بدأت تضحك من تلك الغرابة كلّها... تضحك وتضحك وتضحك منهم جميعًا، من أعمدة المجتمع الذي كان - لسرورها العظيم - ماضيًا سريعًا في انحداره... تضحك وتتلذّذ (مثلما يفعل بعض الناس على امتداد التاريخ، كما يبدو) بمدى تفشّي حالة الفوضى... كانت مستمتعة أعظم استمتاع بهشاشة الأشياء التي يفترض أنها قوية، وبضعفها، وبسهولة مهاجمتها.

نعم، لقد تصدّع حصنهم، حتى هنا، حتى في أولد ريمروك الآمنة. بعد انفتاح هذا الصّدع فيه، ما عاد إغلاقه بعد الآن ممكنًا. لن يستعيدوا العافية أبدًا. كل شيء ضدهم... كل شيء لا يحب حياتهم، وكل شخص لا يحب حياتهم. كل الأصوات الآتية من الخارج مُدينةً حياتهم، رافضةً حياتهم.

فما العيب في حياتهم؟

ما الذي يمكن أن يكون أقل استحقاقًا للّوم من حياة آل ليفوف؟

(62) بار ميتزفاه Bar mitzvah: طقس يهودي بمناسبة بلوغ الطفل السن التي يصير عندها مسؤولًا عن أفعاله (13 سنة للأولاد). واسمه «بات ويتزفاه» للبنات (عند بلوغ البنت 12 أو 13 عامًا - تختلف السن باختلاف المذاهب اليهودية).

(63) كيوغل Kugel: نوع من الحلوى اليهودية التي تصنع من البطاطا عادة.

أعتقد أن الأمر الأكثر أهمية مما تسألني عنه هو أن أمي قد تكون مدركة أنها لا تحب أن يكون الناس يهودًا؛ لكنها غير مدركة أن من الممكن وجود أشخاص لا يحبّونها لأنها كاثوليكية. أتذكّر شيئًا لم أكن أحبه، وهو أن إحدى صديقاتي في هيلسايد رود كانت يهودية فلم تعجبني فكرة أنني سأذهب إلى الجنة من غيرها.

ولماذا لا تذهب صديقتك اليهودية إلى الجنة؟

إذا لم تكن مسيحيًا، فأنت لا تذهب إلى الجنة. أحزنني كثيرًا أنّ صديقتي شارلوت واكسمان لن تكون في الجنة معي.

ما الذي لا يعجب أمك في اليهود؟ يا ميري داون؟

هل يمكنك أن تدعوني داون، فقط... من فضلك؟

حسنًا...

ليس كونهم يهودًا هو ما لا يعجبها فيهم. مشكلتها هي أنهم ليسوا من الكاثوليك. في نظر أبي وأمي، إن لم تكن كاثوليكيًا، فإنك في صف البروتستانت.

أجيبيني؟

حسنًا، إنها الأشياء التي تسمعها دائمًا.

إنني لا أسمعها يا داون، عليك أن تخبريني بها.

حسنًا، أكثرها أشياء عن أن اليهود انتهازيون... (تصمت قليلًا)... وماديون (تصمت قليلًا). يستخدمون تعبير «البرق اليهودي».

البرق اليهودي!

نعم، البرق اليهودي.

ما معنى هذا؟
ألا تعرف معنى «البرق اليهودي»؟
ليس بعد.
عندما يُضرم المرء النار من أجل الحصول على مال التأمين. ألم تسمع بهذا من قبل؟
لا. هذا شيء جديد!
لقد صدمتك به. آسفة، لم أقصد ذلك.
صحيح. أنا مصدوم حقًّا. لكن علينا أن نستوضح الأمور، يا داون. هذا هو سبب وجودنا هنا.
لا يقصدون اليهود جميعًا. إنه تعبير مستخدم للتعبير عن يهود نيويورك.
وماذا عن يهود نيوجيرسي؟
(تصمت قليلًا). حسنًا، أظن أنهم أحد أنواع يهود نيويورك، على الأرجح.
فهمت. لا ينطبق تعبير «البرق اليهودي» على يهود ولاية يوتا، ولا على يهود ولاية مونتانا، هل هذا صحيح؟ إنه لا ينطبق على يهود مونتانا.
لست أدري.
وما رأي والدك في اليهود؟ دعينا نتحدّث عن كل شيء بصراحة ونجنّب الجميع قدرًا كبيرًا من المعاناة في وقت لاحق.
يا سيد ليفوف، مع أن هذه الأشياء تقال أحيانًا، إلا أنه ما من شيء يُقال معظم الوقت. أسرتي لا تتحدّث كثيرًا عن أي شيء. نذهب مرتين في السنة، أو ثلاث مرات، فنتناول الطعام في أحد المطاعم، أبي وأمي وأخي الأصغر وأنا. يدهشني دائمًا أن أنظر من حولي فأرى بقية الأُسر تتبادل الأحاديث، أما نحن فنجلس ونأكل فقط.
إنك تغيرين الموضوع.
أنا آسفة. لم أقل هذا على سبيل البحث عن أعذار... فأنا لا أحب فعل ذلك. لكني أحاول القول إن ذلك كله ليس شيئًا مما يحملون مشاعر قوية تجاهه. ما من غضب أو كره حقيقيين من خلفه. ما أعنيه هو أن أبي، في حالات نادرة،

يستخدم كلمة «يهودي» بطريقة مسيئة. الأمر ليس كبيرًا بأية حال من الأحوال؛ لكنّ شيئًا من هذا القبيل يظهر من حين لآخر. هذه هي الحقيقة.

وما هو شعورهما إزاء زواجك من يهودي؟

شعورهما تجاه هذا الأمر مثل شعورك من زواج ابنك من كاثوليكية. واحدة من بنات عمي متزوجة من يهودي. قد يتّخذون من هذا الأمر موضوعًا للمزاح أحيانًا، لكنهم لا يعتبرونه فضيحة كبيرة. لقد كانت كبيرة السن بعض الشيء فسُرَّ الجميع بزواجها... لأنها وجدت زوجًا.

هل كانت متقدّمة في السن إلى حد يجعلها تقبل الزواج من يهودي؟ كم كان عمرها؟ مئة سنة!

كانت في الثلاثين. لكن أحدًا لم يكن حزينًا من أجلها. لا يكون هذا أمرًا كبير الأهمية إلا إذا أراد أحدٌ استخدامه لإهانة شخص آخر.

وماذا يحدث عند ذلك؟

حسنًا... عند ذلك، قد يكون ذلك الشخص راغبًا في إبداء ملاحظة جارحة عندما يكون غاضبًا من الآخر. لا أظن أن مسألة الزواج من يهودي قضية كبيرة الأهمية بالضرورة.

إلى أن تبرز مسألة كيفية تنشئة الأطفال.

نعم، هذا صحيح.

فكيف تعتزمين حل هذه المشكلة مع أبويك؟

سيكون عليَّ حلّها مع نفسي.

ما معنى هذا؟

أريد تعميد أطفالي.

هل تريدين هذا بالفعل؟

يمكن للمرء أن يكون متحرّرًا إلى أقصى حد. لكن، ليس عندما يكون الأمر متعلّقًا بالتعميد.

ما الذي يجعل التعميد أمرًا مهمًا؟

حسنًا، إنه غسل للخطيئة الأصلية، ليس أكثر. لكن غسل الخطيئة الأصلية يجعل

الطفل يذهب للجنة إذا مات. وأما إذا مات قبل تعميده فإنه يذهب إلى جهنم.
حسنًا، لا نريد أن يذهب الطفل إلى جهنم. دعيني أطرح عليك سؤالًا آخر. لنفترض أنني وافقت وقلت إنني موافق على أن تعمّدي طفلك. فماذا تريدين غير ذلك؟
أظن أنني سأكون راغبة، عندما يأتي الوقت، في ذهاب طفلي إلى قُدّاسه الأول في الكنيسة. تناول القربان المقدس... كما ترى.
أفهم أنك لا تريدين غير تعميد الطفل حتى يذهب إلى الجنة عندما يموت؛ إضافة إلى القداس الأول. اشرحي لي معنى هذا.
إنه تناول القربان المقدس للمرة الأولى.
ما هو القربان المقدس؟
هذا هو جسدي، وهذا هو دمي...
هل هذا كلام عن يسوع؟
نعم. ألم تكن تعرف هذا؟... عندما يركع الجميع... «خذوا كلوا، هذا هو جسدي. هذا هو دمي؛ اشربوه». وعندها تقول «سيدي وإلهي»، وتأكل من جسد المسيح.
لا أستطيع قبول هذا. إنني آسف. لا أستطيع قبول هذا.
حسنًا، طالما أن هناك تعميدًا، فسوف نفكّر في هذه الأمور لاحقًا. لماذا لا نتركها للطفل عندما يأتي الوقت؟
أفضّل عدم ترك الأمر للطفل، يا داون. أفضّل أن أتخذ القرار بنفسي. لا أريد أن أترك الطفل يقرّر أن يأكل المسيح. إنني أحترم طقوسكم احترامًا كبيرًا، لكن حفيدي لن يأكل المسيح. إنني آسف. هذا أمر غير وارد أبدًا. إليكِ ما سأقبل به. سوف أقبل بأن تعمّدي الطفل. هذا كل ما أستطيع فعله من أجلك.
أهذا كل شيء؟
أعطيك أيضًا الاحتفال بعيد الميلاد.
وماذا عن عيد الفصح؟
عيد الفصح، إنها تريد عيد الفصح يا سايمور. هل تعرفين ما هو عيد الفصح

بالنسبة إليّ، يا عزيزتي داون؟ الفصح هو موسم كبير للطلب على القفّازات. ضغط كبير جدًا من أجل توفير القفّازات حتى تكون جزءًا من ملابس الناس في عيد الفصح. سوف أحكي لك قصة. في كل ليلة رأس سنة، بعد الظهر، ننهي ما لدينا من طلبات لتلك السنة، ويذهب الجميع إلى بيوتهم. وبعد ذلك، أجلس مع رئيسة العاملات ورئيس العمال ونفتح زجاجة شامبانيا. قبل أن ننهي الرشفة الأولى يأتينا اتصال من متجر في ويلمنغتون، في ديلاوير... مكالمة من المشتري هناك يطلب فيها مئة زوج من القفّازات الجلدية القصيرة البيضاء. ظللنا عشرين سنة نعرف أن تلك المكالمة ستأتينا أثناء شرب نخب السنة الجديدة من أجل مئة زوج من القفّازات. تكون تلك القفّازات من أجل عيد الفصح!

هل كان هذا تقليدًا لديكم؟

لقد كان تقليدًا لدينا، يا آنستي. لكن، أخبريني على أية حال، ما هو الفصح؟

إنه قيامته.

من هو؟

يسوع. قيامة يسوع.

يا آنسة... أنت تجعلين الأمر شديد الصعوبة. كنت أظن أن الفصح هو ذلك الموكب.

إن لدينا موكبًا.

حسنًا، لا بأس. سوف أقبل بأن يشارك حفيدي في الموكب. ما رأيك في هذا؟

نحن نتناول لحم الخنزير في الفصح.

إن كنتِ تريدين ذلك اللحم في الفصح، ففي وسعك تناول ذلك اللحم في الفصح. وماذا أيضًا؟

نذهب إلى الكنيسة معتمرين قبعة عيد الفصح.

وترتدون أيضًا زوجًا من القفّازات الجيّدة البيضاء. آمل هذا.

صحيح.

هل تريدين الذهاب إلى الكنيسة في عيد الفصح مصطحبة حفيدي معك؟

نعم. سوف نكون ما تريده أمي، مرة في السنة... كاثوليكيان.

أهذا هو الأمر، مرة في السنة. (يصفّق يديه معًا). فلنتّفق على هذا. مرة في السنة. لقد اتفقنا!

حسنًا، سيكون ذلك مرتين في السنة، الفصح وعيد الميلاد.

ماذا تفعلون في عيد الميلاد؟

عندما يكون الطفل صغيرًا، يمكننا الذهاب إلى القداس حيث ينشدون ترانيم عيد الميلاد. يجب أن يكون المرء هناك عندما ينشدون تلك الترانيم، وإلا فإن الأمر يصير كله لا قيمة له. من الممكن سماع ترانيم عيد الميلاد عبر الراديو. وأما في الكنيسة، فإن إنشاد الترانيم لا يبدأ إلا بعد ولادة يسوع.

لست مهتمًّا بهذا. لا تثير هذه الترانيم أي اهتمام عندي. كم يومًا يستمر هذا الأمر في عيد الميلاد؟

حسنًا، لدينا ليلة عيد الميلاد. وقداس منتصف الليل، يكون قداس منتصف الليل قداسًا كبيرًا...

لست أعرف معنى هذا، ولا أريد معرفته. سوف أوافق على ليلة عيد الميلاد وعلى يوم عيد الميلاد، وسوف أعطيك عيد الفصح أيضًا. لكني لا أوافق على ذلك الجزء... عندما تأكلون لحم الخنزير.

والتلقين. ماذا عن التلقين؟

لا أستطيع الموافقة على هذا.

هل تعرف معنى التلقين؟

لست مضطرًا إلى معرفة ذلك. ولن أقبل بأكثر مما قبلت به إلى الآن. أظنّ بأنه عرض سخيّ. سوف يخبرك ابني بهذا، فهو يعرفني... لقد سرت في اتجاهك إلى أكثر من منتصف الطريق. ما هو التلقين؟

إنه الذهاب إلى المدرسة وتعلم أقوال المسيح.

بالتأكيد لا! مفهوم؟ هل هذا واضح؟ هل نحن متفقان على كل شيء؟ وهل يتعيّن علينا أن ندوّن ما اتفقنا عليه؟ هل أستطيع الثقة بك، أم إن علينا تدوين هذا الاتفاق على الورق؟

هذا يخيفني، يا سيد ليفوف.

هل أنت خائفة؟
نعم، خائفة. (تكاد دموعها تنهمر)، لا أظنني قادرة على خوض هذا الصراع.
إنني معجب بكيفية خوضك هذا الصراع.
يا سيد ليفوف، سوف ننجز الأمر في وقت لاحق.
لن ينفعنا إنجازه في وقت لاحق. إما أن ننجزه الآن أو أننا لن ننجزه أبدًا. لا يزال علينا أن نتحدّث عن دروس «بار ميتزفاه»(62).
إذا كان الطفل صبيًا، فسوف يجري له «بار ميتزفاه». وسوف نعمّده أيضًا. وبعدها، يمكنه أن يقرّر بنفسه.
يقرّر ماذا؟
بعد أن يكبر، يمكنه أن يقرر الدين الذي يعجبه أكثر من غيره.
لا، لن يقرّر أي شيء. أنا وأنت سنقرّر الأمر هنا.
لكن، لماذا لا ننتظر ونرى؟
لن نرى شيئًا.
(مخاطبةً السويدي) لا أستطيع الاستمرار في هذا الحديث مع أبيك. إنه قاسٍ كثيرًا. سوف أخسر بالتأكيد. لا نستطيع التفاوض هكذا يا سايمور. لا أريد «بار ميتزفاه».
ألا تريدين «بار ميتزفاه»؟
مع التوراة، وكل ذلك؟
نعم هذا صحيح.
لا، لا أريد.
لا تريدين! إذًا، لا أظن أننا قادران على التوصل إلى اتفاق.
يعني هذا أننا لن ننجب أطفالًا. إنني أحبّ ابنك. لكننا لن ننجب أطفالًا.
وأنا لن أكون جدًّا أبدًا. أهكذا تريدين أن يكون اتفاقنا؟
لديك ابن آخر.
لا، لا، لن ينجح هذا. أرجو ألا تنزعجي، لكني أظن - ربما - أن من الأفضل أن يذهب كل واحد في سبيله.

ألا يمكننا الانتظار لرؤية ما يحدث؟ يا سيد ليفوف، لا يزال أمام هذا كله وقت طويل، سنين كثيرة. فلماذا لا نستطيع تركه يقرّر، أو تركها تقرّر، ما يريده؟

قطعًا لا. لن أسمح لطفل باتخاذ هذا النوع من القرارات. كيف يمكنه اتخاذ القرار، بحق الجحيم؟ ما الذي يعرفه أصلًا؟ نحن كبار راشدون، وأما الطفل فليس راشدًا. (ينهض واقفًا خلف مكتبه). يا آنسة دواير، أنت جميلة كأنك صورة. أهنئك على ما استطعت الوصول إليه. لا تستطيع كل فتاة أن تصل إلى هذا. لا بد أن أباك وأمك فخوران بك كثيرًا. أشكرك لأنك أتيت إلى مكتبي. شكرًا لك، ومع السلامة.

لا. لن أذهب. لن أذهب. أنا لست صورة، يا سيد ليفوف. إنني أنا نفسي. أنا ميري داون دواير من إليزابيث في نيوجيرسي. عمري واحد وعشرون عامًا. وأنا أحب ابنك. هذا سبب وجودي هنا. إنني أحب سايمور. إنني أحبّ ابنك. دعنا نواصل طريقنا، من فضلك.

تم الاتفاق على الصفقة، وتزوّج الصغيران، ثم ولدت ميري وجرى تعميدها سرًّا. وإلى أن توفي والد داون عندما أصابته النوبة القلبية الثانية في سنة 1959، ظلّت العائلتان تجتمعان كل سنة على عشاء عيد الشكر في أولد ريمروك. ولدهشة الجميع - ربما باستثناء داون - كان لو ليفوف وجيم دواير يمضيان الوقت كله في سرد قصص كثيرة عمّا كانت عليه الحياة عندما كانا صبيَّيْن. ذاكرتان قويتان تجتمعان فيصير من العبث أن يحاول أحد كبحهما. يكونان منهمكين في شيء أكثر جدية وأكثر أهمية من اليهودية والكاثوليكية - إنهما يتحدّثان عن نيوارك وإليزابيث. يمضيان النهار كله فلا يستطيع أحد إبعاد واحدهما عن الآخر. «كان المهاجرون كلهم في الميناء»... كانت قصص جيم دواير تبدأ من الميناء دائمًا... «كانوا يعملون في مصنع سنجر. كان ذلك هو المصنع الكبير هناك. وأيضًا، كانت هناك صناعة السفن، بالطبع. لكن كل شخص في إليزابيث عمل في مصنع سنجر في وقت من الأوقات. ربما عمل بعضهم في جادة نيوارك، في شركة باري للبسكويت والمعجّنات. كان الناس يصنعون آلات الخياطة، أو يصنعون البسكويت والمعجنات. لكن أكثرهم كان

يعمل لدى سنجر، أرأيت هذا؟... تمامًا في الميناء، في آخر الميناء، عند النهر. كانت تلك الشركة أكبر رب عمل في هذه الناحية». هذا ما كان دواير يقوله، فيجيبه الآخر: «بالتأكيد، يستطيع المهاجرون جميعًا الحصول على عمل في مصنع سنجر فور وصولهم. كان ذلك أكبر مصنع في المنطقة. وشركة ستاندرد أويل أيضًا. كانت شركة ستاندرد أويل في ليندن. إنه قسم بايواي. تمامًا عند نهاية ما كانوا في تلك الأيام يدعونه إليزابيث الكبرى... والعمدة! جوي بروفي. طبعًا. كان مالكًا لشركة الفحم؛ وكان عمدة المدينة أيضًا. ثم أتى بعده جيم كيرك، أوه، نعم، العمدة هارل. شخصية مهمة. يستطيع صهري ميد إخبارك بكل شيء عن فرانك هاغ. إنه خبير مدينة جيرسي. إذا أدليت بصوتك على نحو صحيح في انتخابات المدينة، فإنك تحصل على وظيفة. ملعب البيسبول هو كل ما أعرفه. كان في مدينة جيرسي ملعب بيسبول عظيم. ستاد روزفلت. جميل. وهم لم يستطيعوا الإمساك بهوغ أبدًا، كما تعلم، ولم يستطيعوا تنحيته. انتهى به الأمر بأن صار يعيش في بيت على الشاطئ، بيت بعد حديقة أزبوري، مباشرة. لديه بيت جميل... الفكرة هي أن إليزابيث مدينة رياضية عظيمة، لكن من غير منشآت رياضية عظيمة. لم يكن لديها أبدًا ملعب بيسبول تدفع خمسين سنتًا حتى تستطيع دخوله. كانت لدينا ملاعب مفتوحة، ملعب بروفي، وملعب ماتانو، وملعب وارانانكو، كلها ملاعب عامة. لكن الفرَق التي كانت لدينا كانت فرقًا عظيمة فيها لاعبون عظيمون. كان ميكي ماكدرموت يلعب مع فريق سان باتريك في إليزابيث. ونيوكولي، ذلك الفتى الملوّن، كان يلعب مع إليزابيث أيضًا. إنه يعيش الآن في كولونيا، لكنه فتى إليزابيث. كان يلعب مع جيفرسون. وكان يسبح مع آرفور كيل. هكذا كان الأمر. بالتأكيد. كان ذلك بالقرب من المكان الذي أمضي فيه عطلاتي. كنت أذهب مرتين كل سنة في نزهة إلى منتزه آزبوري. كانت تلك هي عطلتي. وكنت أسبح في آرفور كيل، تحت جسر جيوثالز. وكنت أعود إلى البيت وقد امتلأ شعري شحمًا فتقول لي أمي: ‘لقد كنت تسبح في آرفور كيل’. أجيبها ‘نهر إليزابيث؟ أتظنين أنني مجنون؟’. وكان شعري يظلّ دبقًا طيلة الوقت بسبب ذلك الشحم، كما تعلم...».

وأما الحماتان، فلم يكن العثور على أرضية مشتركة بينهما على هذا القدر من السهولة، وذلك على الرغم من أن دورثي دواير كانت قادرة على الثرثرة قليلًا في عيد الشكر - تكون ثرثارة بقدر ما تكون متوترة الأعصاب -. لكن الكنيسة كانت موضوع حديثها على الدوام. «كنيسة سان باتريك. إنها الكنيسة الأصلية هناك. عند الميناء، لقد كانت أبرشية جيم هناك. أقام الألمان أبرشية سان مايكل. وأقام البولنديون أبرشية سان أدالبرت عند تقاطع الشارع الثالث وشارع إيست جيرسي. ثم تأتي كنيسة سان باتريك خلف جاكسون بارك مباشرة، عند المنعطف. وأما كنيسة سانت ميري فهي في جنوب مدينة إليزابيث حيث بدأ أبي وأمي حياتهما. كانا يعملان في إنتاج الحليب هناك، في شارع موراي. كنيسة سان باتريك، القلب المقدّس في شمال إليزابيث، القربان المقدس، وكنيسة الروح الطاهرة... كلها إيرلندية. كنيسة سانت كاثرين أيضًا، إنها في ويستمنستر. حسنًا، إنها ضمن المدينة. على سفح التل عمليًا، لكن المدرسة على الناحية الأخرى من الشارع واقعة ضمن إليزابيث. ثم تأتي كنيستنا، كنيسة سانت جنيفييف. كانت كنيسة سانت جنيفييف كنيسة تبشيرية، كما ترين... كانت مجرد جزء من كنيسة سانت كاثرين. كنيسة خشبية فحسب. لكنها الآن كنيسة كبيرة جميلة. وأما البناء الموجود الآن... أتذكر عندما دخلت ذلك البناء...».

كان ذلك أمرًا مرهقًا إلى أقصى حد: دورثي دواير تثرثر عن مدينتها إليزابيث كما لو أننا في العصور الوسطى، وكما لو أن ما من نقاط علام يُسترشد بها خلف الحقول التي يحرثها الفلاحون إلا أبراج كنائس الأبرشية المتناثرة في الأفق. دورثي دواير تثرثر وتثرثر عن كنيسة سان جيم، وكنيسة سان باتريك وكنيسة سانت كاثرين، في حين تظلّ سيلفيا ليفوف جالسة قبالتها يمنعها فرط تهذيبها من فعل أي شيء غير الإيماء برأسها والابتسام لمحدّثتها، لكن وجهها يصير شاحبًا مبيضًّا مثل ملاءة السرير. تجلس هناك، وتتحمّل الأمر كله، وتجتاز تلك المحنة بتهذيبها وحُسن خُلُقها. على وجه الإجمال، لم يبلغ الأمر من السوء ذلك الحد الذي توقّعه الجميع. ثم إنهم لم يكونوا يلتقون إلا تلك المرة الوحيدة في السنة، وذلك على أرضية محايدة، غير دينية، ألا وهي عيد الشكر

حين يأكل الجميع الطعام نفسه ولا يتسلّل أحد مبتعدًا عن الآخرين حتى يأكل شيئًا غريبًا خاصًّا به: لا كيوغل،(63) ولا سمك غيفيلت، ولا أعشاب مرة الطعم... وحده الديك الرومي الضخم الذي يتناوله مئتان وخمسون مليون أميركي في ذلك اليوم... ديك رومي ضخم واحد يأكل منه الجميع. حظر مؤقت لكل طعام غريب، ولكل طريقة غريبة، ولكل تميّز ديني. حظر مؤقت على حنين يهودي إلى ماضٍ عمره ثلاثة آلاف سنة، وحظر مؤقت على المسيحيين في كل ما يتعلّق بالمسيح والصلب والصليب. يومٌ يكون فيه كل شخص في نيوجيرسي، وفي كل مكان غيرها، قادرًا على الابتعاد عما يخصه من اللاعقلانية أكثر من أي يوم آخر من أيام السنة. حظر مؤقت على الحساسيات والمظالم كلها، لا من أجل آل دواير وآل ليفوف وحدهما، بل من أجل كل من لديه شكوك تجاه الآخرين في أميركا كلها. إنه اليوم الذي تصير فيه أميركا راعية الجميع... أكثر من أي يوم آخر، يوم يستمر أربعًا وعشرين ساعة.

«لقد كان رائعًا، ذلك الجناح الرئاسي، غرفة معيشة وثلاث غرف نوم. ذلك ما كنت تحصلين عليه في تلك الأيام عندما تصيرين ملكة جمال نيوجيرسي. أظنه لم يكن محجوزًا عندما أتينا، فأعطونا إياه». هذا ما كانت تقوله داون للزوجين سالزمان عن رحلتهما إلى الخارج من أجل استطلاع أبقار سيمنتال في سويسرا.

كانت داون تقول ضاحكة: «لم أكن قد ذهبت إلى أوروبا قبل ذلك. وطيلة الطريق، كان الجميع يقولون لي ‘لا شيء مثل فرنسا. انتظري حتى نصل إلى ميناء لوهافر في الصباح، وسوف تشمّين رائحة فرنسا. سوف تحبين فرنسا’ وهكذا انتظرت إلى أن جاء الصباح وكان سايمور لا يزال راقدًا في الفراش. عرفت أننا رسَونا فأسرعت خارجة إلى سطح السفينة وتنشّقت الهواء. لم أشم في ذلك المكان غير رائحة البصل والثوم».

عن المترجم

الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق - سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر

له أكثر من ثلاثين عملًا مترجمًا؛ من أهمها:
- نعوم تشومسكي: «سنة 501، الغزو مستمر»،
- هوارد زِن: «ماركس في سوهو» - مسرحية،
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: «اختراع التقاليد»،
- تشارلز تايلر: «المتخيّلات الاجتماعية الحديثة»،
- إيفان كليما: «حب وقمامة» - رواية،
- جورج أورويل: «1984» - رواية،
- جون ستيوارت مِل: «سيرة ذاتية»،
- سول بيلو: «مغامرات أوجي مارتش» - رواية،
- سينكلير لويس: «بابِت» - رواية،
- كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي؛ موت في العائلة» - رواية،
- كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي؛ رجل عاشق» - رواية،
- لاسلو كراسناهوركاي: تانغو الخراب» - رواية،
- دونا تارت: «الحَسّون» - رواية،
- كاملة شمسي: «نار الدار» - رواية.

كان الدم على وجه لو ليفوف. كان واقفًا إلى جانب طاولة المطبخ ضاغطًا بيده على صدغه، غير قادر على الكلام... الأب الذي كان له جبروته. عملاق الأسرة البالغ طوله خمس أقدام وسبعة إنشات أمام ولديه الطويلين. كان الآن واقفًا وقد لوّث الدم وجهه. كان وجهه خاليًا من أي تعبير غير محاولته جاهدًا أن يمنع نفسه من البكاء. بدا عاجزًا حتى عن فعل ذلك. ما كان قادرًا على منع أي شيء. لم يكن قادرًا في يوم من الأيام على منع أي شيء. لكنه بدا الآن مستعدًا حتى لتصديق أن صنع قفّازات نسائية ممتازة ذات مقاسات دقيقة لم يكن أبدًا ضمانة لأن يستطيع أن يصنع لكلٍّ من أحبَهم حياة تبلغ الكمال. كان شديد البعد عن ذلك. تظن أنك قادر على حماية عائلتك، لكنك غير قادر حتى على حماية نفسك. بدا كما لو أنه لم يبق شيء من الرجل الذي ما كان ممكنًا جعله يحيد عن هدفه، الرجل الذي ما كان يتغاضى عن أحد في حملته ضد الفوضى وضد

معضلة الخلل البشري وقلّة الكفاءة... هناك، حيث كان واقفًا، لم تكن ممكنة رؤية الرجل الصلب المواظب الذي كان، قبل ثلاثين دقيقة فقط، يشرئب برأسه مقاتلًا حتى حلفاءه.
بدت على ذلك المقاتل أشد علامات الخيبة. لم يبق فيه شيء قادر على مقارعة الانحرافات وضربها حتى الموت. ما عاد موجودًا ما كان ينبغي أن يكون موجودًا. الانحرافات تنتصر. لا يمكنك وقف هذا. على غير توقّع، حدث ما كان مفترَضًا ألّا يحدث، ولم يحدث ما كان مفترضًا أن يحدث.
الآليّة القديمة التي تصنع النظام ما عادت عاملة. لم يبق غير خوفه ودهشته؛ لكنهما الآن من غير شيء يخفيهما.
كانت جيسي أوركوت جالسة إلى الطاولة وأمامها طبق حلوى نصف ممتلئ وكأس حليب لم تمسّه. كانت في يدها شوكة على أسنانها دم. لقد طعنته بتلك الشوكة. كانت الفتاة الواقفة عند المجلى تخبرهم بهذا، وأما الفتاة الأخرى فقد هرعت من البيت صارخة فلم تبق في المطبخ غير هذه التي أخبرتهم بما جرى ودموعها تجري. لأن السيدة أوركوت كانت لا تريد الأكل - هكذا قالت الفتاة - فقد بدأ السيد ليفوف يطعمها الحلوى بنفسه، لقمة بعد لقمة. كان يشرح لها كيف أن من الأفضل لها أن تشرب الحليب بدلًا من الويسكي. وكان يقول لها إن هذا أفضل من أجلها، وأفضل من أجل زوجها، وأفضل من أجل أولادها. سرعان ما سيكون لديها أحفاد، وسيكون هذا أفضل من أجل أحفادها. كان يقول مع كل لقمة تبتلعها: «نعم، جيسي فتاة طيبة، فتاة طيبة جدًا». ويخبرها كم أن من الأفضل من أجل كل شخص في العالم، وحتى من أجل السيد ليفوف وزوجته، لو أن جيسي تتوقّف عن الشرب. بعد أن أطعمها قرابة قطعة كاملة من حلوى الفراولة، قالت له: «أنا سأطعم جيسي»، فكان في غاية السعادة. سره قولها كثيرًا فضحك وناولها الشوكة، فما كان منها إلا أن أمسكت بها وسدّدتها إلى عينه مباشرة.
اتضح أنها أخطأت عينه بأكثر من إنش. قالت مارشا لجميع الواقفين في المطبخ: «هذا ليس سيئًا لشخص شرب ما شربته هذه الفتاة». وأما أوركوت الذي هاله هذا المشهد الذي فاق أي شيء أقدمت عليه زوجته في السابق حتى

تهين بعلَها ذا العقل المتمدّن، بعلَها الذي يخونها، فما عاد يبدو منيعًا على الإطلاق، وما عاد يبدو ذا أهمية، لا في عين نفسه ولا في عين غيره، بل صار مظهره سخيفًا تافهًا كما كان في ذلك الصباح الذي أوقعه السويدي أرضًا في منتصف مباراة كرة القدم الودية... انحنى أوركوت ورفع جيسي بلطف عن الكرسي وأوقفها على قدميها. لم يظهر عليها أي أسف أو ندم، لا شيء... بدت كما لو أنها صارت مجرّدة من كل قدرة على الاستقبال ومن كل قدرة على الإرسال. لم تعد فيها خلية واحدة تخبرها بأنها تجاوزت حدًّا أساسيًا من حدود حياة التمدن.

كانت مارشا تقول لوالد السويدي: «لو شربتْ أقل مما شربته بكأس واحدة، لكنت الآن فاقد البصر يا لو». وأما زوجته فقد بدأت تمسح الجروح الصغيرة في وجهه بمنديل مطبخ رطب. في تلك اللحظة، لم تعد الناقدة الاجتماعية الضخمة صاحبة القفطان التي لا يستطيع شيء إيقافها قادرة على ضبط نفسها... جلست مارشا على كرسي جيسي الخالي أمام كأس الحليب المترعة، ووضعت وجهها بين كفيها، ثم بدأت تضحك من تلك الغرابة كلّها... تضحك وتضحك وتضحك منهم جميعًا، من أعمدة المجتمع الذي كان - لسرورها العظيم - ماضيًا سريعًا في انحداره... تضحك وتتلذّذ (مثلما يفعل بعض الناس على امتداد التاريخ، كما يبدو) بمدى تفشّي حالة الفوضى... كانت مستمتعة أعظم استمتاع بهشاشة الأشياء التي يفترض أنها قوية، وبضعفها، وبسهولة مهاجمتها.

نعم، لقد تصدّع حصنهم، حتى هنا، حتى في أولد ريمروك الآمنة. بعد انفتاح هذا الصّدع فيه، ما عاد إغلاقه بعد الآن ممكنًا. لن يستعيدوا العافية أبدًا. كل شيء ضدهم... كل شيء لا يحب حياتهم، وكل شخص لا يحب حياتهم. كل الأصوات الآتية من الخارج مُدينةً حياتهم، رافضةً حياتهم.

فما العيب في حياتهم؟

ما الذي يمكن أن يكون أقل استحقاقًا للّوم من حياة آل ليفوف؟

(62) بار ميتزفاه Bar mitzvah: طقس يهودي بمناسبة بلوغ الطفل السن

التي يصير عندها مسؤولًا عن أفعاله (13 سنة للأولاد). واسمه «بات ويتزفاه» للبنات (عند بلوغ البنت 12 أو 13 عامًا - تختلف السن باختلاف المذاهب اليهودية).

(63) كيوغل Kugel: نوع من الحلوى اليهودية التي تصنع من البطاطا عادة.